

وقال ابن جبير اليحصبي وهو الكاتب أبو عبدالله محمد - 69

" كلما رمت أن أقدم خيرا ... لمعادي ورمت أني أتوب "

" صرفتني بواعث النفس قسرا ... فتعاسيت والذنوب ذنوب "

" رب قلب قلبي لعزيمة خير ... لمتاب ففني يدك القلوب "

ولتعلم أن كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له ويرحم الله تعالى لسان الدين بن الخطيب حيث قال

في صدر الإحاطة وهذا الغرض الذي وضعنا له هذا التأليف يطلبنا فيه ما قصدنا به من المباهاة

والافتخار بالإكثار واستيعاب النظام والنتار ويحملنا فيه خوف السامة على الاختصار والاقتصاد وكفى

بهذا جلاء في الأعذار والله تعالى مقيل العثار وسائر العيب المثار بفضلته انتهى

ولنختم هذا الباب بقول أبي زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلني - 70

" عفوك اللهم عنا ... خير شيء نتمنى "

" رب إنا قد جهلنا ... في الذي قد كان منا "

" وخطينا وخطنا ... ولهونا ومجنا "

" إن نكن رب أسأنا ... ما أسأنا بك ظنا "

وذيلته بقولي

" فألنا الختم بالحسنى ... وإنعاما ومنا آمين "

الباب الثامن

في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها وتضريه بين ملوكها ورؤسائها

بمكره واستعماله في أمرها حيل فكره حتى استولى دمره الله تعالى عليها ومحا منها التوحيد

واسمه وكتب على مشاهدتها ومعاهدها وسمه وقرر مذهب التثليث والرأي الخبيث لديها واستغاث

أهلها استغاثة أضرابها بالنظم والنثر أهل ذلك العصر من سائر الأقطار حين تعذرت بحصارها مع قلة

حمايتها وأنصارها المأرب والأوطار وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها اعاد الله تعالى إليها كلمة

الإسلام وأقام فيها شريعة سيد الأنام عليه أفضل ورفع يد الكفر عنها وعمّا حوالياها آمين

ظهور بلاي وخلفائه

قال غير واحد من المؤرخين أول من جمع فل النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم علج يقال له

بلاي من أهل أشتوريش من جليقية كان رهينة عن طاعة أهل بلده فهرب من قرطبة أيام الحر بن

عبدالرحمن الثقفي الثاني من أمراء العرب بالأندلس وذلك في السنة السادسة من افتتاحها وهي

سنة ثمان وتسعين من الهجرة وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبدالرحمن فطردوه وملكو

البلاد وبقي الملك فيهم إلى الآن وكان عدة من ملك منهم إلى آخر أيام الناصر لدين الله اثنتين

وعشرين ملكا انتهى

وقال عيسى بن أحمد الرازي في أيام عنبسة بن سحيم الكلبي قام بأرض

جليقية علج خبيث يقال له بلاي من وقعة أخذ النصارى بالأندلس وجد الفرنج في مدافعة

المسلمين عما بقي بأيديهم وقد كانوا لا يطمعون في ذلك ولقد استولى المسلمون بالأندلس

على النصرانية وأجلوهم وافتتحوا بلادهم حتى بلغوا أربولة من أرض الفرنجة وافتتحوا بلبونة من

جليقية ولم يبق إلا الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاي فدخلها في ثلاثمائة رجل ولم يزل

المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا وبقي في ثلاثين رجلا وعشيرة نسوة ولا طعام لهم إلا

العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به حتى أعيى المسلمين أمرهم واحتقروا بهم وقالوا

ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لاخفاء به وفي

سنة 133 هلك بلاي المذكور وملك ابنه فافله بعده وكان ملك بلاي تسع عشرة سنة وابنه سنتين

فملك بعدهما أذفونش بن بيطر جد بني أذفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم إلى اليوم فأخذوا ما كان

المسلمون أخذوه من بلادهم انتهى باختصار

وقال المسعودي بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر ماصورته وأخذ ماكان بأيدي المسلمين من ثغور

الأندلس مما يلي الفرنجة ومدينة أربونة خرجت عن أيدي المسلمين سنة 330 مع غيرها مما كان

بأيديهم من المدن والحصون وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة 336 من شرق

الأندلس طرطوشة وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة أخذها في الشمال إفراغه على نهر

عظيم ثم لاردة انتهى

الاستيلاء على طليطلة

ومن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة 475

وفي ذلك يقول عبدالله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال

" يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط "
 " الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط "
 " ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفت "
 وبروى صدر البيت الثالث هكذا
 " من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات في سفت "
 وتروى الأبيات هكذا
 " حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط "
 " السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثورا من الوسط "
 " من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات في سفت "
 وقال آخر

" يا أهل أندلس ردوا المعار فما ... في العرف عارية إلا مردات "
 " ألم تروا بيدق الكفار فرزته ... وشاهنا آخر الأبيات شهيمات "
 وقال بعض المؤرخين أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة 478 انتهى وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها وسيأتي قريبا بعض ما يؤيده
 قال وهي مدينة حصينة قديمة ازلية من بناء العمالقة على ضفة النهر الكبير ولها قصبة حصينة في غاية المنعة ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعا وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة وطليلطة هذه دار مملكة الروم وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب انتهى
 وقد تقدم شيء من هذا فيما مر من هذا الكتاب

وقد حكى ابن بدرون في شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصرا تأنق في بنائه وأنفق فيه مالا كثيرا وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة وسبق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة حوالها محيطا بها متصلا بعضها ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمس من الماء شيء ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل فبينما هو فيها إذ سمع منشدًا ينشد
 " أتبني بناء الخالدين وإنما ... بقاؤك فيها لو علمت قليل "
 " لقد كان في ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يعتريه رحيل "

فلم يلبث إلا يسيرا حتى قضى نحبه انتهى
 وقال ابن خلكان إن طليطلة أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة 478 بعد حصار شديد انتهى وقال ابن علقمة إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة 478 وكانت وقعة الزلافة في السنة بعدها انتهى

وقعة الزلافة نقلا عن الروض المعطار وغيره

ورأيت أن أذكر هنا وقعة الزلافة التي نشأت عن أخذ طليطلة وما يتبع ذلك من كلام صاحب الروض المعطار وغيره فنقول إنه لما ملك يوسف ابن تاشفين اللمتوني المغرب وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة تأقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس فهم بذلك وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إمامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة والعدد وصعبت عليهم مدافعتهم وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم وتغير تنهب وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت مع ما ظهر لأبطال الملتهم ومشايخ صنهاعة في المعارك من ضربات السيوف التي تقدر الفارس والطعنات التي تنظم الكلى فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتاله وكان ملوك الأندلس يفتنون إلى ظله ويحذرونه خوفا على ملكهم مهما عبر إليهم وعابن بلادهم فلما رأوا ما دلهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك راسل بعضهم بعضا يستنجدون آراءهم في أمره وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم وانهم تحت طاعته فكتب عنهم كاتب

من أهل الأندلس كتابا وهو أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة وإن في استبقتك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام فلما وصله الكتاب مع تحف وهدايا وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي لكنه ذكي الطبع يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرايطية فقال له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظموك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعداء فانهم مسلمون وذوو بيوتات فلا تغير بهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من أهل الغرب فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه فما ترى أنت فقال أيها الملك أعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذي لا يرد فإنه خليق بما حصل في يده من الملك والمال أن يعفو إذا استعفي وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جليلا جزيلا كان لقدره أعظم فإذا عظم قدره تأسل ملكه وإذا تأسل ملكه تشرف الناس بطاعته وإذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته وأعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد فلما ألقى الكاتب هذا الكلام علي السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته فقال للكاتب أجب القوم واكتب بما يجب في ذلك واقرا علي كتابك فكتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته تحية من سالمكم وسلم عليكم وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصين منا بأكرم إيثار

وسماحة فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللط التي لا توجد إلا ببلاده وأنفذ ذلك إليهم فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به وعظموه وسروا بولايته وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم وازمعو إن راوا من الفرنج ما يريبهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم أو يمدهم بإعانة منه وكان ملك الإفرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف وكان كل من حاز بلدا وتقوى فيه ملكه وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك وأخذ كثيرا من ثورهم فقوي شأنه وعظم سلطانه وكثرت عساكره وأخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين وكان أخذها لها في منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فزاد لعنه الله تعالى بملكه طليطلة قوة إلى قوته وأخذ يجوس خلال الديار ويستفتح المعاقل والحصون

قال ابن الأثير في الكامل وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس ومتملك أكثر بلادها مثل قرطبة وإشبيلية وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش كل سنة فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة المعتادة فلم يقبلها منه وأرسل إليه يهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها إلا أن يسلم إليه جميع الحصون المنيعه ويبقى السهل للمسلمين وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس فأنزله المعتمد وفرق أصحابه على قواد عسكريه ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم من عنده من الكفرة وأحضر الرسول وصفه حتى خرجت عيناه وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر وكان متوجها إلى قرطبة ليحاصرها فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويكثر العدد والعدة انتهى وقال الفقيه أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمعمر الحميري في كتابه الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار ما ملخصه إنه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المرية حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها إليه بعد ذلك استنشيط الطاغية غضبا وتشطط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن في التجني وسأل في دخول امرأته القمحيطة إلى جامع قرطبة لتلد فيه إذ كانت حاملا لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة وهي التي أنشأ بناءها الناصر لدين الله وأمعن في بنائها وأعرب في حسننها وحبب إليها الرخام الملون والمرمر الصافي والجحوض المشهور من البلاد والأقطار وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل وأنفق فيها الأموال العظيمة واشتغل بها وكان يباشر الصانع بنفسه حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات وحضر في الرابعة وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد منذر بن سعيد البلوطي فعرض به في الخطبة

ووبخه على رؤوس الملاً وقصته في ذلك مشهورة وبناء الزهراء أيضا من أغرب مباني الإسلام فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان ولنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء والفسوس لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء وتتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور وكان السفير في ذلك يهوديا كان وزير الأذفونش فامتنع ابن عباد من ذلك فراجعه فأباه وأياسه من ذلك فراجعه اليهودي في ذلك وأغلظ له في القول وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقه وامر به فسلب منكوسا بقرطبة واستفتى لما سكن غضبه الفقهاء عن حكم ما فعله اليهودي فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل إذ ليس له ذلك وقال للفقهاء إنما بادرت بالفتوى خوفا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو وعسى الله أن يجعل في عزمته للمسلمين فرجا

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد فأقسم بالهته ليغزونه بإشبيلية ويحاصره في قصره فجرد جيشين جعل احدهما كلبا من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ثم يمر على ليلة إلى إشبيلية وجعل مواعده إياه طريانة للاجتماع معه ثم زحف الأذفونش بنفسه في جيش آخر عرمرم فسلك طريقا غير الطريق التي سلكها الآخر وكلاهما عاث في البلاد وخرب ودمر حتى اجتمعا لموعدهما بصفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد وفي أيام مقامه هنالك كتب الى ابن عباد زاريا عليه كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان واشتد علي الحر فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد بها الذباب عن وجهي فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله

تعالى فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد وقرئت عليه وعلم مقتضاها أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال

وفشا في الأندلس توقيع ابن عباد وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو فاستبشر الناس وفرحوا بذلك وفتحت لهم أبواب الآمال واما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك اهتموا منه ومنهم من كاتبه ومنهم من كلمه مواجهة وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له الملك عقيم والسيقان لا يجتمعان في غمد واحد فاجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلا رعي الجمال خير من رعي الخنازير ومعناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقا للأذفونش أسيرا له يرعى خنازيره في قشتالة وقال لعذاله ولوامه يا قوم إني من أمري على حالتين حالة يقين وحالة شك ولا بد لي من إحداهما أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفني لي ويبقي على وفائه ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك واما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فانا أرضي الله وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وأتي ما يسخطه فحينئذ قصر أصحابه عن لومه ولما عزم أمر صاحب بطليوس المتوكل عمر بن محمد وعبدالله بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة أن يبعث إليه كل منهما قاضي حضرته ففعلا واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيدالله بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد وأسند إلى وزيره ما لا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية وكان يوسف بن تاشفين لا تزال

تعد عليه وفود تغور الأندلس مستعطفين مجهشيين بالبكاء ناشدين الله والإسلام مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم فما عبرت رسل ابن عباد البحر الا ورسل يوسف بالمرصاد ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم واكرم متواهم واتصل ذلك بابن عباد فوجه من إشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتة فانتظمت في سلك يوسف ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ثم انصرفت إلى مرسلها ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا حتى اتى الجزيرة الخضراء ففتحوا له وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وأقاموا له سوفا جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيه فامتلات المساجد والرحبات بالمطوعين وتواصوا بهم خيرا هذا مساق صاحب الروض المعطار

واما ابن الأثير فإنه لما ذكر وقعة الزلافة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالأرسال وقتلهم وتخوف اكابر الأندلس من الأذفونش وأنه اجتمع منهم رؤساء وساروا إلى القاضي عبيد الله بن محمد بن أدهم وقالوا له ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها وقالوا قد غلب على البلاد الفرنج ولم يبق إلا القليل وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولا وقد رأينا رأيا نعرضه عليك قال وماهو قالوا نكتب إلى عرب إفريقية ونبذل لهم إذا وصلوا إلينا شطر اموالنا ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله فقال لهم إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية وبتروكو الإفرنج ويبدأوا بنا والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا فقالوا له فكتب أمير المسلمين وأسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند فبينما هم في ذلك يتراوضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد

قرطبة فعرض عليه القاضي ابن أدهم ماكانوا فيه فقال له ابن عباد أنت رسولي إليه في ذلك فامتنع وإنما أراد أن يبريء نفسه من ذلك فألح عليه المعتمد فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فوجده بسبنة وأبلغه الرسالة وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس وأرسل إلى مراکش في طلب من بقي من العساكر فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضا فلما تكاملت عنده عبر البحر واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضا وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره وحشد جنوده وسار من طليطلة وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول ويصف ما معه من القوة والعدد والعدد وبالغ في ذلك فلما وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر ابن القصيرة أن يجيبه وكان كاتبها مغلقا فكتب وأجاد فلما قرأه علي أمير المسلمين قال هذا كتاب طويل أحضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره الذي يكون ستره وأرسله إليه فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بلي برجل لا طاقة له به

وذكر ابن خلكان ان يوسف بن تاشفين امر بعبور الجمال فعبور منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغاؤها وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب فكان يحدق بها عسكره ويحضرها للحرب فكانت خيل الفرنج تجمح منها وقدم يوسف بين يديه كتابا للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة ومن جملة ما في الكتاب بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا وتمنيت أن

تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا فقد عبرنا إليك وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك " وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " غافر 50 انتهى بمعناه وأكثره بلفظه ولنرجع إلى كلام صاحب الروض المعطار فإنه أقعد بتاريخ الأندلس إذ هو منهم وصاحب البيت أدري بالذي فيه قال رحمه الله تعالى فلما عبر يوسف وجميع جيوشه إلى الجزيرة الخضراء انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات جيشا بعد جيش وأميرا بعد أمير وقبلا بعد قبيل وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ورأى يوسف من ذلك ماسره ونشطه وتواردت الجيوش مع امرائها إلى إشبيلية وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه فلما اتى محله يوسف ركض نحو القوم وركضوا نحوه فبرز إليه يوسف وحده والتقى منفردين وتصافحا وتعانقا وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله تعالى وتواصيا بالصبر والرحمة وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصا لوجهه مقربا إليه وافترقا فعاد يوسف لمحلتة وابن عباد إلى جهته وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين وياتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ففعل ورأى الناس من عزه سلطانه ما سرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر أو أعان وخرج أو أخرج وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا اناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع وبعث الأذفونش إلى ابن عباد إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحور وأنا اكفيه العناء فيما بقي ولا اكلفكم تعباً أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم وقال لخاصته وأهل مشورته إنني رأيت أنني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادني فناجزوني فيها وبين جدرها وربما كانت الدائرة علي يستحكمون

البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون في وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر إلي ما اختاره منهم بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء فالمقلل يقول المختارون أربعون ألف دارع ولكل واحد أتباع وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكب فيل يضرب نقيره طبل فهالته الرؤيا وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ففسس يهوديا عن يعلم تأويلها من المسلمين فدل على معبر فقصها عليه ونسبها لنفسه فقال له المعبر كذبت ماهذه الرؤيا لك ولا أعبرها له إلا إن صدقتني بصاحب الرؤيا فقال له اكنتم علي الرؤيا للأذفونش فقال المعبر صدقت ولا يراها غيره والرؤيا تدل على بلاء عظيم ومصيبة فادحة فيه وفي عسكره وتفسيرها قوله تعالى " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " الفيل 1 وأما ضربة النقيرة فتأويلها " فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير " المدثر 8 - 9 فانصرف اليهودي وذكر للأذفونش ماوافق خاطره

ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الأندلس وتقدم السلطان يوسف فقصدته وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس وجعل ابنه عبدالله على مقدمته وسار وهو ينشد لنفسه متغائلا مكملا البيت المشهور

" لا بد من فرج قريب ... يأتيك بالعجب العجيب "
 " غزو عليك مبارك ... سيعود بالفتح القريب "
 " لله سعدك إنه ... نكس على دين الصليب "
 " لا بد من يوم يكون ... له أخوا يوم القليب "

ووافت الجيوش كلها بطلبوس فاناخوا بظاهرها وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأظفوس فلقبهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود وجاءهم الخبر بشخوص الأذفونش ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عينونه في محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكائد الأذفونش إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات وقد تقدم كتاب السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعو إلى إحدى الثلاث الأمور بها شرعا فامتلا الكافر غيظا وعتا وطغى وراجع بما يدل على شقائه وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم ونشروا اناجيلهم وتبايعوا على الموت ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار

وجاءت الطلائع تخبر ابن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الأربعاء فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكع الأذفونش ورجع إلى أعمال المكر والخديعة فعاد الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول غدا يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف واعلمه أنها حيلة منه وخديعة وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي وكان في محلة ابن عباد فرحا مسرورا يقول إنه رأى النبي تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة فتاهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيرا لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحريك الأذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد وإنما قادهم ابن عباد فاقصدوه واهجموا عليه واصبروا فإن انكشف لكم هان

عليكم الصحراويون بعده ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الأمر فقال له قل له إنني سأقرب منه إن شاء الله تعالى وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارا مادام الأذفونش مشتغلا مع ابن عباد وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غشيه جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ومال الأذفونش عليه بجموعه واحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر ابن عباد صبورا لم يعهد مثله لأحد واستبطن السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب واشتد عليه وعلى من معه البلاء وأبطأ عليه الصحراويون وساءت الظنون وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبدالله وأثنى ابن عباد جراحات وضرب على رأسه ضربة فلفت هامته حتى وصلت إلى صدغه وجرحت يمينه وطمع في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يمينه وشمالا وتذكر في تلك الحالة ابنا له صغيرا كان مغرما به تركه في إشبيلية عليلا وكنيته أبو هاشم فقال

"أبا هاشم هشمتني الشفار ... فله صبري لذاك الأوار"
 "ذكرت شخيصك تحت العجاج ... فلم يثنني ذكره للفرار"

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة وكان بطلا شجاعا شهما فنفس بمجئته عن ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك وطبولة تصعد أصواتها إلى الجو فلما أبصره الأذفونش وجه حملته إليه وقصده بمعظم جنوده فبادر إليهم السلطان يوسف وصدمهم بجمعه فردهم إلى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق ريح الظفر وتياشر بالنصر ثم صدقوا جميعا الحملة فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم وأظلم النهار بالعجاج والغبار وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبورا عظيما ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومر هاربا منهزما وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره وعلى سياق ابن خلكان أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت فعذر الأذفونش ومكر فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها والناس على طمأنينة فبادر ابن عباد للركوب وبت الخبر في العساكر فماجرت بأهلها ووقع البهت ورجفت الأرض وصار الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو فأحاطت بابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الأرض حصيدا خلفها وجرح ابن عباد جرحا أشواه وفر رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها ووطنوا انه وهي لا يرفع ونازلة لا تدفع ووطن الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين ولم يعلم أن العقاب للتمتقين فركب أمير المسلمين واحدق به أنجاد خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل وقصدوا محلة الأذفونش فافتحموها ودخلوها وفتكوا فيها وقتلوا وضربت الطبول وزعقت البوقات فاهتزت الأرض وتجاوبت الجبال والأفاق وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموها أمير المسلمين فأفرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعتكك بدرق اللطم وسيوف الهند ومزاريق الران قطعوا الخيل فرمحت بفرسانها وإجحمت عن أقرانها وتلاحق الأذفونش بأسود نعدت مزاريقه فاهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على عنانه وانتضى خنجرا كان متمنطقا به فأثبته في فخذه فهتك حلق درعه ونفذ من فخذه مع بداد سرجه وكان وقت الزوال وهبت ريح النصر فأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم إلى ان لحقوا ربوة لجأوا إليها واعتصموا بها وأحدت بهم الخيل فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا بعدما تشبثت بهم أطفار المنية واستولى المسلمون على ماكان في محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين فاجتمع من ذلك تل عظيم انتهى وبعضه بالمعنى

رجع إلى كلام صاحب الروض المعطار

قال

ولجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم وأباد القتل

والأسر من عداهم من أصحابهم وعمل المسلمون من رؤوسهم مأذن يؤذنون عليها والمخذول ينظر إلى موضع الوقية ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نکالا محيطا به وبأصحابه وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهناه وشكره وأثنى عليه وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وجميل صبره وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهم عنه فقال له هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية كتابا مضمونه كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفى عشرين من رجب وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة والمشركين وأذقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم فالحمد لله على مايسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة في تشيبت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره أصلاه الله نکال الجحيم ولا اعدمه الويال العظيم المليم بعد إتيان النهب على محلاته واستئصال القتل في جميع أبطاله وحماته حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها فله الحمد على جميل صنعه ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت لكنها فرجت بعد ذلك فله الحمد والمنة والسلام

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضي مراکش أبي مروان عبدالملك المصمودي وغيرهما رحمهم الله تعالى وحكي ان موضع المعترك كان على اتساعه ماكان فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن في ذلك السلطان يوسف فحف عنها وآثر بها ملوك الأندلس وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم وماعند الله في ذلك من الثواب المقيم فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكروموه وأحبوه وشكروا له ذلك ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع إلا نواح التكلى عليهم اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك عما وهما وراح إلى أمه الهاوية ولم يخلف إلا بنتا واحدة جعل الأمر إليها فتحصنت بطليطلة

ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام السلطان يوسف بن تاشفين بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام ووردت عليه من المغرب أخبار تقتضي العزم فسافر وذهب معه ابن عباد يوما وليلة فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع وكانت جراحاته تورمت عليه فسير معه ولده عبدالله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح وقرأت القراء وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه قال عبدالجليل بن وهبيون حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه فقرا القاريء " إلا تنصروه فقد نصره الله " التوبة 40 فقلت بعدا لي ولشعري والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به

ولما عزم السلطان يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر أحد قواده المشاهير وترك معه جيشا برسم غزو الفرنج فاستراح الأمير المذكور أياما قلائل ودخل بلاد الأذفونش وأطلق الغارة ونهب وسبى وفتح الحصون المنيعه والمعازل الصعبة العويصة وتوغل في البلاد وحصل أموالا وذخائر عظيمة ورتب رجالا وفرسانا في جميع ما أخذه وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيح العيش وإنكده وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد العيش وأطيبه وسأله مرسومه فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدو فمن فعل فذاك ومن أبى فحاصره وقتله ولا تنفس عليه ولتبدأ بمن والى الثغور ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول فيه أميرا من عساكرك فأول من ابتداء به من ملوك الأندلس بنوهود وكانوا بروطة بضم الراء المهمة وبعدها واو ساكنة وطاء مهملة مفتوحة وبعدها هاء ساكنة وهي قلعة منيعة من عاصمات الذرا وماؤها ينبع من أعلاها وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تغنيه الأزمان فحاصرها فلم يقدر عليها ورحل عنها وجند أحنادا على هيئة الفرنج وزبهم وأمرهم أن يقصدوها وبغيروا عليها وكمن هو وأصحابه بقرب منها فلما رأهم أهل القلعة استضعفهم فنزلوا إليهم ومعهم صاحب القلعة فخرج عليه سير المذكور وقبضه باليد وتسلم الحصن ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس فأسلموا له البلاد ولحقوا ببر العدو ثم نازل بني صمادح بالمرية ولها قلعة حصينة فحاصروهم وضيق بهم ولما علم ابن صمادح الغلب أسف ومات غبنا فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها ثم قصد بطليوس وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفضس المتقدم ذكره فحاصره واخذه واستولى على جميع أعماله وماله ولم يبق له إلا المعتمد بن عباد فكتب للسلطان

يوسف يعرفه بما فعل ويسأله مرسومه في ابن عباد فكتب إليه يأمره أنه يعرض عليه النقلة لبر العدو وجميع الأهل والعشيرة فإن رضي وإلا فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف وسأله الجواب فلم يجب بنفي ولا إثبات ثم إنه نازل إشبيلية وحاصره بها وألح عليه فأقام الحصار شهرا ودخل البلد قهرا واستخرجه من قصره فحمل وجميع أهله وولده إلى العدو فأنزل بأغمات وأقام بها إلى أن مات رحمه الله تعالى وعفا عنه وأما ابن الأثير ففي كلامه تقديم وتأخير وبعض خلاف لما مر

واخبار المعتمد بن عباد وما رآه من الملك والعز على كل حاضر وباد وما قاساه في الأسر من الضيق والعسر وسوء العيش أمر عجيب يتعظ به العاقل الأريب وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم في حالي يسره وعسره وملكه وأسره وطيه ونشره وتجهمه وبشره فهو كثير وفي كتب التاريخ منه نظيم وثبير وقد قدمنا منه في هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير وخصوصا في الباب السابع من هذا التأليف الذي هو عند المنصف أثير وفي المعتمد وأبيه المعتمد يقول بعض الشعراء

" من بني منذر وذاك انتساب ... زاد في فخرهم بنو عباد "

" فتية لم تلد سواها المعالي ... والمعالي قليلة الأولاد "

وقال ابن القطاع في كتابه لمح الملح في حق المعتمد إنه اندى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة واعظمهم ثمادا وأرفعهم عمادا ولذلك كانت حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء وقبلة الامال ومآلف الفضلاء حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنباه

وقال ابن بسام في الذخيرة للمعتمد شعر كما انشق الكمام عن الزهر لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعة واتخذة بضاعة لكان رائقا معجبا ونادرا مستغربا فمن ذلك قوله

" أكثرت هجرك غير أنك ربما ... عطفتك أحيانا على أمور "

" فكأنما زمن التهاجر بيننا ... ليل وساعات الوصال بدور "

قال وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من أبيات

" أسفر ضوء الصبح عن وجهه ... فقام ذاك الخال فيه بلال "

" كأنما الخال على خده ... ساعات هجر في زمان الوصال "

وعزم على إرسال حظاياه من قرطبة إلى إشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من اول الليل إلى الصبح فودعهن ورجع وأنشد أبياتا منها

" سايرتهم والليل عقد ثوبه ... حتى تبدى للنواظر معلما "

" فوقفت ثم مودعا وتسلمت ... مني يد الإصباح تلك الأنجما "

وهذا المعنى في نهاية الحسن ثم ذكر من كلامه جملة

عود وانعطاف

ولما جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غرناطة بعدما حصر بعض حصون الفرنج فلم يقدر عليه خرج إلى لقائه صاحب غرناطة عبد الله بن بلكين فسلم عليه ثم عاد إلى بلده ليخرج له التقادم فغدر به ودخل البلد وأخرج عبد الله ودخل قصره فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يحد ولا يحصى ثم رجع إلى مراكش وقد أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها وما بها من المبانى والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التي لا توجد في بلاد العدو إذ هي بلاد بربر وأجلاف عربان فجعل خواص يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس ويحسنون له أخذها ويوغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه فتغير على المعتمد وقصد مشاركة الأندلس

وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ويقتالهم إن امتنعوا فجهز يوسف العساكر إلى الأندلس وحاصر سير بن أبي بكر أحد عظماء دولة يوسف إشبيلية وبها المعتمد فكان من دفاعه وشدة ثباته ما هو معلوم ثم أخذ أسيرا وصارف طرف الملك بعده حسيرا

وفي وصف ذلك يقول صاحب القلائد بعد كلام ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت وضمتهم جوانحها كأنهم أموات بعدما ضاق عنهم القصر وراق منهم المصير والناس قد حشروا بضفتي الوادي يبكون بدموع كالغواصي فساروا والنوح يحدوهم والبوح باللوعة لا يعدوهم انتهى ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أمر غزوة الزلاقة المتقدم ذكرها ورجع تكرم له ابن عباد وسأله أن ينزل عنده فعرج إلي بلاده إذ أجابه إلى ما طلب فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المعتمد وهي من أحسن المدن وأجلها منظرا أمعن يوسف النظر فيها وفي محلها

وهي على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه وفي غريبها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخا يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون وهذا هو المسمى بشرف إشبيلية وتمتاز بلاد المغرب كلها بهذه الأصناف منه وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك فانزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له وكان مع ابن تاشفين أصحاب له يبنهونه على حسن تلك الحال وتاملها وماهي عليه من النعمة والإتراف وبغرونة باتخاذ مثلها ويقولون له إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه وكان ابن تاشفين داهية عاقلا مقتصدا في اموره غير متناول ولا مبذر غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة والنعيم إذ ذهب صدر عمره في بلاده بالصحراء في شظف العيش فأنكر على من أغراه بذلك الإسراف وقال له الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل يعنى المعتمد انه مضيع لما في يده من الملك لأن هذه الأموال الكثيرة التي تصرف في هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا فأخذه بالظلم وإخراجه في هذه الترهات من أفحش استهتار ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى تستنجد همته في ضبط بلاده وحفظها وصون رعيته والتوقيف لمصالحها ولعمري لقد صدق في كل ذلك

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته هل تختلف فتتقص عما عليه في بعض الأوقات فقيل له بل كل زمانه على هذا فقال أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظا من ذلك فقالوا لا قال فكيف ترون رضاهم عنه فقالوا لا رضى لهم عنه فأطرق وسكت وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياما

وفي أثنائها استأذن رجل على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رثة وكان من أهل البصائر فلما مثل بين يديه قال أصلحك الله أيها السلطان وإن من اوجب الواجبات شكر النعمة وإن من شكر النعمة إهداء النصائح وإني رجل من رعيته حالي في دولتك إلى الإختلال أقرب منها إلى الإعتدال ولكنني مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على انهم يرون انفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك وقد رأيت رأيا فإن أثرت الإصغاء

إليه قلته فقال المعتمد له قله فقال له رأيت ان هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك مستأسد على الملوك قد حطم على زناتة ببر العدو واخذ الملك من أيديهم ولم يبق على واحد منهم ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك بل في ملك جزيرة الأندلس كلها لما قد عابنه من هناة عيشك وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يود له الحلول بما انت فيه من خصب الجنب وقد أردى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مجن وبعد فإنه إن فات الأمر في الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم فقال له المعتمد وماهو الحزم اليوم فقال أن تجمع امرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك وتجزم انك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ثم تنفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمرفي نفسه عودا إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء فنفسه أعز عليه من جميع ما يلتمس منه فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش وتقيم في موضعك على خير حال ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة ويتسع ملكك وينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم وتهابك الملوك ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة من عاملته هذه المعاملة واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله فلما سمع المعتمد كلام

الرجل استصوبه وجعل يفكر في انتهاز الفرصة وكان للمعتمد ندما قد انهمكوا معه في اللذات فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح ماكان المعتمد على الله وهو إمام أهل المكرمات ممن يعامل بالحيف ويغدر بالضيف فقال الرجل إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه لا دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به فقال ذلك النديم ضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه فشكر له المعتمد ووصله بصلة واتصل هذا الخبر بيوسف فأصبح غاديا فقدم له المعتمد الهدايا السنوية والتحف الفاخرة فقبلها ثم

رحل

انتهى خبر وقعة الزلاقة وما يتبعه ملخصا من كتب التاريخ ولما انقضى بالأندلس ملك ملوك الطوائف بني عباد وبني ذي النون وبني الأفطس وبني صمادح وغيرهم انتظمت في سلك اللمتونيين وكانت لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة في كتب التواريخ

دخول الأندلس في طاعة الموحدين

ولما مات يوسف بن تاشفين سنة خمس مائة قام بالملك بعده ابنه أمير المسلمين علي بن يوسف وسلك سنن أبيه وإن قصر عنه في بعض الأمور ودفع العدو عن الأندلس مدة إلى أن قبض الله تعالى للثورة عليه محمد بن تومرت الملقب بالمهدي الذي أسس دولة الموحدين فلم يزل يسعى في هدم بنيان لمتونة إلى أن مات ولم يملك حضرة سلطنتهم مراكش ولكنه ملك كثيرا من البلاد فاستخلف عبدالمؤمن بن علي فكان من استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو معروف ثم جاز إلى الأندلس وملك كثيرا منها ثم أخرج الإفرنج من مهدية إفريقية وملك بلاد إفريقية وضخم ملكه وتسمى بأمير المسلمين

عبدالمؤمن بن علي

ولما كانت سنة 545 سار الأذفونش صاحب طليطلة وبلاد الجلالقة إلى قرطبة ومعه أربعون ألف فارس فحاصرها وكان أهلها في غلاء شديد فبلغ الخبر عبدالمؤمن فجهز إليهم جيشا يحتوي علي اثني عشر ألف فارس فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها وكان فيها القائد أبو الغمر السائب فسلمها إلى صاحب جيش عبدالمؤمن يحيى بن ميمون فبات فيها فلما أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم ونزلوا في المكان الذي كانوا فيه فلما عين ذلك رتب هنالك ناسا وعاد إلى عبدالمؤمن ثم رحل الفرنج إلى ديارهم

وفي السنة بعدها دخل جيش عبدالمؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفا عليهم الهنتاتي فصار إليه صاحب غرناطة ميمون وابن همشك وغيرهما فدخلوا تحت طاعة الموحدين وحرصوا على قصد ابن مردنيش ملك شرق الأندلس وبلغ ذلك ابن مردنيش فخاف وأرسل إلى صاحب برشلونة من الإفرنج يستنجده فتجهز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس وسار صاحب جيش عبدالمؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش فبلغه أمر البرشلونيين الإفرنجي فرجع ونازل مدينة المرية وهي بأيدي الروم فحاصرها فاشتد الغلاء في عسكره فرجع إلى إشبيلية فأقام فيها وسار عبدالمؤمن إلى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر

ثم سار عبدالمؤمن سنة 547 إلى المهدي فملكها وملك إفريقية وضخم ملكه كما قدمناه

يوسف بن عبدالمؤمن

ولما مات بويغ بعده ولده يوسف بن عبدالمؤمن ولما تمهدت له الأمور واستقرت قواعد ملكه دخل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها وكان ذلك سنة ست وستين وخمس مائة وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحدين والعرب فنزل بحضرة إشبيلية وخافه ملك شرق الأندلس مرسية وما انضاف إليها الأمير الشهير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش وحمل على قلب ابن مردنيش فمرض مرضا شديدا ومات وقيل إنه سم ولما مات جاء أولاده وأهله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبدالمؤمن وهو بإشبيلية فدخلوا تحت حكمه وسلموا لأحكامه البلاد فصاهرهم وأحسن إليهم وأصبحوا عنده في أعز مكان ثم شرع في استرجاع البلاد التي استولى عليها الإفرنج فأتسعت مملكته بالأندلس وصارت سراياها تغير إلى باب طليطلة وقيل إنه حاصرها فاجتمع الفرنج كافة عليه واشتد الغلاء في عسكره فرجع عنها إلى مراكش حضرة ملكه ثم ذهب إلى إفريقية فمهدتها ثم رجع إلى حضرته مراكش ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين وخمس مائة ومعه جمع كثير وقصد غربي بلادها فحاصر مدينة شنترين وهي من أعظم بلاد العدو وبقي محاصرا لها شهرا فأصابه المرض فمات في السنة المذكورة وحمل في تابوت إلى إشبيلية وقيل أصابه سهم من قبل الإفرنج والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال وفي ابنه السيد أبي إسحاق يقول مطرف التجيبي رحمه الله تعالى " سعد كما شاء العلا والفخار ... تصرف الليل به والنهار " " مادانت الأرض لكم عنوة ... وإنما دانت لأمر كبار " " مهدموها فصفا عيشها ... واتصل الأمن فنعمر القرار " ومنها " فالشاة لا يختلها ذنبها ... وإن أقامت معه في وجر "

يعقوب المنصور

ولما مات يوسف قام بالأمر بعده ابنه الشهير أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبدالمؤمن فقام بالأمر أحسن قيام ولما مات يوسف المذكور رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها

" جل الأسى فأسل دم الأبحان ... ماء الشؤون لغير هذا الشأن "

ويعقوب المنصور هو الذي أظهر أبهة ملك الموحدين ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط الأحكام الشرعية وأظهر الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأقام الحدود على القريب والبعيد وله في ذلك أخبار وفيه يقول الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر المشهور

" أزال حجاب عني وعيني ... تراه من المهابة في حجاب "

" وقريني تفضله ولكن ... بعدت مهابة عند اقترابي "

وكنزت الفتوحات في أيامه واول ما نظر فيه عند صيرورة الأمر إليه بلاد الأندلس فنظر في شأنها ورتب مصالحها وقرر المقاتلين في مراكزهم ورجع إلى كرسي مملكته مراکش المحروسة وفي سنة 586 بلغه أن الإفرنج ملكوا مدينة شلب وهي من غرب الأندلس فتوجه إليها بنفسه وحاصرها وأخذها وانفذ في الوقت جيشا من الموحدين والعرب ففتح أربع مدن مما بأيدي الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة وخافه صاحب طليطلة وسأله الهدنة والصالح فهادنه خمس سنين وعاد إلى مراکش

وأنشد القائد أبو بكر بن عبدالله بن وزير الشلبي وهو من أمراء كتائب إشبيلية قصيدة يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج كان الشلبي المذكور مقدا فيها

" ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا ... فمنا ومنهم طائحون عديد "

" وجال غرار الهند فينا وفيهم ... فمنا ومنهم قائم وحصيد "

" فلا صدر إلا فيه صدر مثقف ... وحول الوريد للحسام ورود "

" صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا ... كلانا على حر الجلال جليل "

" ولكن شددنا شدة فتبلدوا ... ومن يتبلد لا يزال يجيد "

" فولوا وللسمر الطوال بهامهم ... ركوع وللبيض الرقاق سجود "

رجع إلى أخبار المنصور بعد هدنة الإفرنج

ولما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها إلا القليل خرج طائفة من الإفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عيثا فظيعا فانهى الخبر إليه فتجهز لقصدهم في جيوش موفرة وعساكر مكتبة واحتفل في ذلك وحاز إلى الأندلس سنة 591 فعلم به الإفرنج فجمعوا جمعا كثيرا من أقاصي بلادهم وأدانيتها وأقبلوا نحوه وقيل إنه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض مرضا شديدا ويئس منه أطباؤه فعات الأذفونش في بلاد المسلمين بالأندلس وانتهاز الفرصة وتفرقت جيوش

المسلمين بسبب مرض السلطان فأرسل

الأذفونش يتهدد ويتوعد ويرعد ويبرق ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس وخلصه الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى وتزاحف الفريقان فكان المصاف شمالي قرطبة على قرب قلعة رباح في يوم الخميس تاسع شعبان سنة 591 فكانت بينهم وقعة عظيمة

استشهد فيها جمع كبير من المسلمين

وحكي أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيى ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحفصي الذي ملك بعد ذلك إفريقية وخطب له ببعض الأندلس فقصد الإفرنج الأعلام ظنا أن السلطان تحتها فأتروا في المسلمين أثرا قبيحا فلم يرعهم إلا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كسر شوكتهم فهزمهم شر هزيمة وهرب الأذفونش في طائفة يسيرة وهذه

وقعة الأرك الشهيرة الذكر

وحكي أن الذي حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفا وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه وربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة

وقيل إن فل الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح فتحصنوا بها فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها وكانت قبل للمسلمين فأخذها العدو فردت في هذه المرة ثم حاصر طليطلة وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على أرجائها وأخذ من أعمالها حصونا وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها وترك الإفرنج في أسوأ حال ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة ثم رجع إلى إشبيلية وأقام إلى سنة 593 فعاد إلى بلاد الفرنج وفعل فيها الأفاعيل فلم يقدر العدو على لقائه

وضاقت على الإفرنج الأرض بما رحبت فطلبوا الصلح فأجابهم إليه لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بإفريقية مع قراقوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام ثم توفي السلطان يعقوب سنة 595 وما يقال إنه ساح في الأرض وتخلي عن الملك ووصل الى الشام ودفن بالبقيع لا أصل له وإن حكى ابن خلكان بعضه وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم وقال إن ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور

محمد الناصر ووقعة العقاب

وولي بعده والده محمد الناصر المشؤوم على المسلمين وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص فإنه جمع جموعا اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش فصاف الإفرنج فكانت عليه وعلى المسلمين ووقعة العقاب المشهورة التي خلا بسببها أكثر المغرب واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها ولم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جدا لم يبلغ الأف فيما قيل وهذه الوقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعا وماذا إلا لسوء التدبير فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره فشنق بعضهم ففسدت النيات فكان ذلك من بخت الإفرنج والله غالب على أمره وكانت ووقعة العقاب هذه المشؤومة سنة 609 ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد

نهاية الموحدين

ولما مات الناصر سنة عشرين وستمائة ولي بعده ابنه يوسف المستنصر وكان مولعا بالراحة فضعت الدولة في أيامه وتوفي سنة 620

فتولى عم أبيه عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن فلم يحسن التدبير وكان إذ ذاك بالأندلس العادل بن المنصور فرأى أنه أحق بالأمر فاستولى على ما بقي في أيدي المسلمين من الأندلس بغير كلفة ولما خلع عبدالواحد وخنق بمراكش ثارت الإفرنج على العادل بالأندلس وتصاف معهم فانهمز ومن معه من المسلمين هزيمة شنعاء فكانت الأندلس قرحا على قرح فهرب العادل وركب البحر يروم مراكش وترك بإشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ودخل العادل مراكش بعد خطوب ثم قبض عليه الموحدون وقدموا يحيى بن الناصر صغير السن غير مجرب للأمور فادعى حينئذ الخلافة أبو العلاء إدريس بإشبيلية وبايعه أهل الأندلس ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس فثار على أبي العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجذامي ودعا إلى بني العباس فمال الناس إليه ورجعوا عن أبي العلاء فخرج عن الأندلس أعنى أبا العلاء وترك ما وراء البحر لابن هود ولم يزل أبو العلاء يتحارب مع يحيى ابن الناصر إلى أن قتل يحيى وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب دون الأندلس ثم مات سنة 630

وبويع ابنه الرشيد وبايعه بعض أهل الأندلس ثم توفي سنة 640 وولي بعده أخوه السعيد وقتل على حصن بينه وبين تلمسان سنة 646 وولي بعده المرتضى عمر بن ابراهيم بن يوسف بن عبدالمؤمن وفي سنة 665 دخل عليه الواثق المعروف بأبي دبوس ففر ثم قبض وسيق إلى الواثق فقتله ثم قتل الواثق بنو مرين سنة 668 وبه انقرضت دولة بني عبدالمؤمن وكانت من أعظم الدول الإسلامية فاستولى بنو مرين على المغرب

ظهور ابن هود وابن الأحمر

وأما المتوكل بن هود فملك معظم الأندلس ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته وقتله غدرا وزيره ابن الرميمي بالمرية واغتتم الإفرنج الفرصة بافتراق الكلمة فاستولوا على كثير مما بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون ثم آل الأمر إلى ابن ملك بنو الأحمر وخطب بعض أهل الأندلس لأبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية وقد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا وأعدناه لتناسق الحديث ولما في بعضه من زيادة الفائدة على البعض الآخر وذلك لا يخفى على المتأمل وقد بسطنا في الباب الثالث احوال ابن هود وابن الأحمر وغيرهما رحم الله تعالى الجميع

الدولة المرينية

ثم استفحل ملك يعقوب بن عبدالحق صاحب المغرب وحضرة ملك فاس فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم فاجتاز إلى الأندلس وهزم الإفرنج أشد هزيمة حتى قال بعضهم ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المريني وقتك في بعض غزواته بملك من النصارى يقال له ذوننه ويقال إنه قتل من جيشه أربعين ألفا وهزمهم أشد هزيمة ثم تابعت غزواته

بالأندلس وجوازه للجهاد وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك وأعز الله تعالى به الدين بعد تمرد الفرنج المعتدين ولما مات ولي بعده ابنه يوسف بن يعقوب ففر إليه الأذفونش ملك النصارى لائذاً به وقبل يده ورهن عنده تاجه فأعانه على استرجاع ملكه ولم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال وتركوا منهم حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة فكانت لهم وقائع في العدو مذكرة ومواقف مشكورة وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة ولما أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني وخلص له المغرب وبعض بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس واهتم بذلك غاية الاهتمام فقضى الله تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب بعد أخذهم الجزيرة الخضراء وكان الإفرنج جمعوا جموعاً كثيرة برسم الاستيلاء على ما بقي للمسلمين بالأندلس فاستنفر أهل الأندلس السلطان أبو الحسن المذكور فجاء بنفسه إلى سبتة فربطه المجاز ومحل أساطيل المسلمين فإذا بالإفرنج جاءوا بالسفن التي لا تحصى ومنعوه العبور وإغاثة أهل الأندلس حتى استولوا على الجزيرة الخضراء وأنكوه في مراكبه أعظم نكاية ولله الأمر وقد أفصح عن ذلك كتاب صدر من السلطان أبي الحسن المذكور إلى سلطان مصر والشام والحجاز الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالح الألفي رحم الله تعالى الجميع رسالة من أبي الحسن المريني إلى الملك الصالح 745هـ وهذه نسخة الكتاب المذكور الذي خاطب به أمير المسلمين السلطان أبو الحسن المريني المذكور ملك المغرب رحمه الله تعالى السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الشهير الكبير الناصر محمد بن قلاوون ووصل إلى مصر في النصف وقيل في العشر الأواخر من شعبان المكرم سنة 745 بعد البسملة والصلاة من عند عبدالله أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصور بفضل الله المتوكل عليه المعتمد في جميع أموره لديه سلطان البرين حامي العدوتين مؤثر المرابطة والمثاغرة مؤازر حزب الإسلام حق المؤازرة ناصر الإسلام مظاهر دين الملك العلام ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامي حوزة الدين ملك البرين إمام العدوتين ممدد البلاد مبدد شمل الأعداء مجند الجنود المنصور الرايات والبنود محط الرحال مبلغ الآمال أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين حسنة الأيام حسام الإسلام أبي الأملاك شجا أهل العناد والإشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوخ أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بأعلاء دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر في قهر عداة الدين مراده إلى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلاء بدرا تما وصعد بانواع الفخار فجلا ظلماً وظلماً وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً وأحيا لها رسماً حائط الحرمين القائم بحفظ القبليتين باسط الأمان قابض كف العدوان الجزيل النوال الكفيل تامينه بحيطة النفوس والأموال قطب المجد وسماكه حب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الأصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الأضخم الأفخم المعان المؤزر المؤيد المطهر الملك الصالح ابو الوليد إسماعيل ابن محل أخينا الشهير علاؤه المستطير في الآفاق ثناؤه زين الأيام والليال كمال عين إنسان المجد وإنسان عين الكمال وارث الدول النافث بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبليتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاع به بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الأجل الهمام الأحفل الأفخم الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير المجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر والقاسط المؤيد المطهر المنعم المقدس المطهر زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد ابن الملك الأرضي الهمام الأمضى والد السلاطين الأخيار عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والإفرنج والتتار ومحبي رسوم الجهاد معلي كلمة الإسلام في البلاد جمال الأيام ثمال الأعلام فاتح الأقالم صالح ملوك عصره المتقادم الإمام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه ونمى دولته التي أطلعها السعد شمسا في سمائه وأحسن إيزاغه للشكر أن جعله وارث آبائه

سلام كريم يفوح زهر الربى مسراه وينافح نسيم الصبا مجراه يصحبه رضوان يدوم مادامت تقل الفلك حركاته ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته اما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للتقوى صدعا باليقين ودفعا للشك وخاذل من أسر في النفاق النجوى فأصر على الدخن والإفك على سيدنا محمد رسوله الذي محا بانوار الهدى ظلم الشرك ونبه الذي ختم به الأنبياء

وهو واسطة ذلك السلك ودحا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك والرضى عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السلك وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب أنجح السلك وصابروا في جهاد الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصا على السبك والدعاء لأولياء الإسلام وحماته الأعلام بنصر لمضائه في العدا أعظم الفتك ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتيناه إليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم من حضرتنا بمدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذهب الألطاف وكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه المتلقى بالتسليم ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح برهانه وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيننا وأفاد مقامكم تحصينا وتحسينا وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلا مبينا فلا خفاء بما كانت عقده أيدي التقوى ومهدته الرسائل التى على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه ووقده وبقره مع الأبرار في عليين أنسه من مواخاة احكمت منها العهود تالية الكتب والفتحة وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذتها المحبة والنية الصالحة فانعقدت على التقوى والرضوان واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازع الأبدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتأمت كلحمة النسب لحمة

الإخاء فما كان إلا وشيكا من الزمان ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد وارد رنق المشارب وحقق قول ومن يسأل الركبان عن كل غائب أنبا باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية وإكثان درته السنية وانقلابه إلى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وفر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقذور حنانا للإسلام بتلك الأقطار وإشفاقا من أن يعتور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارض الإضرار ومساهمة في مصاب الملك الكريم والولي الحميم ثم عميت الأخبار وطويت طي السجل الأثار فلم نر مخبرا صدقا ولا معلما بمن استقر له ذلكم الملك حقا

وفي أثناء ذلك أحفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ اهل الأندلس وسلطانها وتواتر الأخبار بأن النصارى اجمعوا على خراب أوطانها ونحن أثناء ذلكم الشان نستخير الورد من تلكم البلدان عما اجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان فبعد لأي وقعنا منها على الخبير وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير وتعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه فأطفا بكم نار الفتنة واخمدتها وأبرا من أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سايلا وتعبد طريقه لمن جاء قاصدا وفاقلا ولما احتفت بهذا الخبر القرائن وتواتر بنقل الحاضر له والمعان آثار حفظ الاعتقاد البواعث والود الصحيح تجره حقا الموارث فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفنية الأطوار الجامعة بين الخبر والاستخبار الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والذثار ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه وتجل عرى الاضطبار بموته ولات حين اوانه لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ومثلكم من لا يخف وفاره ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث اضطباره ومن خلفكم فما مات ذكره ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالحقب وطاب بين ميدها ومحتضره هنيئا بما من الأجر اكتسب وصار حميدا إلى خير المنقلب ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقنا ووهب فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة وحماية زوار بيته مقيلة أو معرسة ونحن بعد بسط هذه التعزية نهنيكم بما يخولكم الله أجمل التهنية وفي ذات الله الإيراد والإصدار وفي مرضاته سبحانه الإضمار والإظهار فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه وعقد الظهور عليها نطاقه وأعطاهها أمان الزمان عقده وميثاقه ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة وموالاتة محققة وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غب القطر مفتقة ولم يرغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منا اليمين وأوت بهما الرغبة من الحرميين الشريفين إلى قرار مكين وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه وأورده موارد إحسانه في ذلكم من الفعل الجميل والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع وشاكله فضله من البر الذي لا يضيع حتى طبق فعله الآفاق ذكرا وطوق أعناق الورد والقصاد برا وكان من اجمل ما به تحفى واتحف وأعظم ما يعرفه إلى رضى الملك العلام في ذلك تعرف إذنه للمتوجهين إذ ذاك في شراء رباغ توقف على المصحفين ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد ريثما يصلحهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به

متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدي هذا لكمالكم وموفده على جلالكم كاتبنا الأسنبي الفقيه الأجل الأحطى الأكمل أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضى الأفضل الأحطى الأكمل المرحوم أبي عبدالله ابن أبي مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر في قصد البيت الحرام بغيته بان يتفقد أحوال تلك الأوقاف ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف وأن يتخير لها من يرتضى لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن جريا على الود الثابت الأركان وإعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان وكمالكم يقتضي تخليد ذلكم البر الجميل وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل وتشبيد ما اشتمل عليه من الشكر الأصيل والأجر الجزيل والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة هذا الوفد بهذا الكتاب على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب وثاؤنا عليكم الثناء الذي يفاجح زهر الربى ويطارح نغم حمام الأبيك مطريا

وبحسب المصافاة ومقتضى الموالاتة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات ونبئكم بموجب إبطاء هذا الخطاب على ذلكم الجناب وذلك انه لما وصلنا من الأندلس الصريح ونادى مناد للجهاد عزمنا لمثل ندائه يصيح أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب وحتم عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب وان تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الإسلام منها ويقصوا ظل الإيمان عنها فقدمنا من يشتغل بالأساطيل من القواد وسرنا على إثرهم إلى سبنة منتهى المغرب الأقصى وباب الجهاد فما وصلناها إلا وقد أخذ العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور واتوا من أجفانهم بما لا يحصى عددا وأرصدوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا وتقلصوا عن الانبساط في البلاد واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعه من الأعداء لكننا مع انسداد تلك السبيل وعدم أمور نستعين بها في ذلكم العمل الجليل حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بمن أمكن من الجند وجهزنا أجفانا مختلسين فرصة الإجازة تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الأندلس من المال بما يجهز به حركته

لمداناة محلة حزب الضلال وأجرينا له و لجيشه العطاء الجزل مشاهرة وأرضنا لهم في النوال ما نرجو به ثواب الآخرة وجعلت أجفانا تتردد في ميناء السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لإحراز الأمن الأجل مشحونة بالعدد الموفورة والأبطال المشهورة والخيل المسومة والأقوات المقومة فمن ناج حارب دونه الأجل وشهيد مضى لما عند الله عز وجل وما زالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر ثم لم نقنع بهذا العمل في الأمداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله تعالى مساهمة به لأهل تلك البلاد فلقني من هول البحر وارتجأه وإلحاح العدو ولجأه مابه الأمثال تضرب ويمثله يتحدث ويستغرب ولما خلص لتلك العدو بمن أبقته الشدائد نزل بإزاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أو أدنى وقد ضرب بعطن يصاح العدو ويماسيه بحرب بها يمنى

وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شربت شرارته وقويت في الحرب إدارته يبلون البلاد الأصدق ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق إلا أن المطاولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف أدى إلى فناء الأقوات بالبلد حتى لم يبق لأهله قوت نصف شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على انه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجاح فأذن له فيه الإذن العام إذ في إصراخه وإصراخ من يقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام هنالك دعي النصارى إلى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرأبوا فتم الصلح إلى عشر سنين وخرج من بها من فرسان ورجال وأهل وبنين ولم يبرزوا مالا ولا عدة ولا لقوا في خروجهم غير النزوع عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء وأسليناهم عما جرى بالحباء فمن خيل تزيد على الألف عتاقها وخلع تربي على عشرة آلاف أطواقها وإموال عمت الغني والفقير ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير وكف الله ضر الطواغيت عما عداها وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداها وقد كان من لطف الله حين قضى باخذ هذا الثغر ان قدر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر وهو المطل على هذه المدرة والفرصة منها إن شاء الله متيسرة حتى يفرق عقد الكفار ويفرج بهذه الجهة منهم مجاورو هذه الأقطار فلولا إجلاهم من كل جانب وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجمعهم من الأجفان والمراكب لما بالينا بإصعاقهم ولحللنا بعون الله عقد اتفاهم ولكن للموانع أحكام ولاراد لما جرت به الأقلام وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العدد

والعدد وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعناء السفر وترتبط الجياد وتنتخب العدد لوقت الظهور المنتظر وتكون على أهبة الجهاد وعلى مرقبة الفرصة عند تمكنها في الأعداء وعند عودنا من تلك المحاولة تيسر الركب الحجازي موجهها إلى هنالككم رواحله فأصدرنا إليكم هذا الخطاب إصدار الود الخالص والحب اللباب وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء وما لكم من غرض بهذه الأنحاء فموفى قصده على أكمل الأهواء موالى تميمه على أجمل الآراء والبلاد باتحاد الود متحدة والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة جعل الله ذلكم خالصا لرب العباد مدخورا ليوم التناد مسطورا في الأعمال الصالحة يوم المعاد بمنه وفضله وهو سبحانه وتعالى يصل إليكم سعدا تتفاخر به سعود الكواكب وتتصافر على الانقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نبيل مجده متطاولات المناكب والسلام الأتم يخصكم كثيرا أنيرا ورحمة الله وبركاته وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة وصورة العلامة وكتب في التاريخ المؤرخ

جواب الملك الصالح من إنشاء الصفدي

ونسخة الجواب عن ذلك من إنشاء خليل الصفدي شارح لامية العجم في سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة بعد البسملة في قطع النصف بقلم الثالث عبد الله ووليه صورة العلامة ولده إسماعيل بن محمد السلطان الممالك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المठाغر المنصور عماد الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترک فاتح الأقطار واهب الملك والأمصار إسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين خادم الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلطين جامع كلمة الموحدين ولي أمير المؤمنين أبو الفداء إسماعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه يخص المقام العالي الملك الأجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المठाغر المعظم المكرم المظفر المعمر الأسعد الأصعد الأوحد الأمجد الأجد السني السري المنصور أبا الحسن على ابن أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف

يعقوب بن عبدالحق أمده الله بالظفر وقرن عزمه بالتأييد في الآصال والبيكر سلام وشت البروق وشائعه وادخرت الكواكب ودائعه واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه ونبه للتغريد في الروض سواجعه وجلي في كأسه من الشفق المحمر مدامه ومن النجوم فواقعه بعد حمد الله على نعم أدت لنا الأمانة في عود سلطنة والدنا الموروثة وأجلستنا على سرير مملكة زرايبها بين النجوم مبنوثة وأحسن بنا الخلف عن سلف عهوده في الأعناق غير منكورة ولا منكوتة وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية أمله وسوله صلاة تحط بالرضوان سيولها وتجر بالغفران ذيولها ما تراسل أصحاب وتواصل أحباب ويوضح للعلم الكريم ورود كتابكم العظيم وخطابكم الفائق على الدر النظيم تفاخر الخمائيل سطوره ويصغ خد الورد بالخجل منثوره ويحكى الرياض اليانعة فالألغات غصونه والهمزات عليها طيوره ويخلع على الأفاق حلال الأيام والليالي فالطرس صباحه والنفس ديجوره لفظه يطرب ومعناه يعرب فيغرب وبلاغته تدل على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المغرب فاتخذنا سطوره ربحانا ورجعنا ألغاته ألحانا ورجعنا إلى الجد فشبهنا ألغاطه بظلال الرماح وورقه بصقال الصفاح وحروفه المفرفة بأفواه الجراح وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة في يوم الكفاح وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ المسجوع والمعنى الذي يطرب طائرته المسموع والبلاغة التي فضح المتطبع بيانها المطبوع

فأما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفنا بعده فلنا برسول الله أسوة حسنة ولولا الوثوق بأنه في عدة الشهداء ما رأى القلب قراره ولا الطرف وسنه عاش سعيدا يملك الأرض ومات شهيدا يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس في الأفاق ويوقف على نضارة حدائقه نظرات الأحداق وورثنا منه حسن الإخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم وإما الهناء بوراثه ملكه والانخراط مع الملوك في سلكه فقد شكرنا لكم منحى هذه المنحة وقابلناها بثناء يعطر النسيم في كل نفحة ووقفنا عليها حمدا جعل الود علينا إيرادا وعلى أنفاس سرحه الروض شرحه وتحققنا به حسن ودكم الجميل وكريم إخوانكم الذي لا يمد طود

رسوخه ولا يميل

وأما ما ذكرتموه من امر المصحفين الشريفيين اللذين وقفتموهما علي الحرمين المنيفين وانكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجل الأسنى الأسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبي عبدالله ابن أبي مدين أعزه الله تعالى لتفقد احوالهما والنظر في امر أوقافهما فقد وصل المذكور بمن معه في حرز السلامة وأكرمنا نزلهم وسهلنا بالترحيب سبلهم وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شملهم وحضر المذكور بين أيدينا وقريناه وسمعنا كلامه وخاطبناه وأمرنا في امر المصحفين الشريفيين بما أشرتم ورسمنا لنوابنا في نواحي أوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على أحسن عادة الفها وأثبت قاعدة عرفها مرعي الجوانب محمي المنازل والمضارب آمن من إزالة رسمه أو إزالة حكمه بدره أبدا في مطالع تمه وزهره دائما يرقص في كفه لا يزداد إلا تخليدا ولا إطلاق ثبوته إلا تقييدا ولا عنق اجتهاده إلا تقليدا جريا على عادة أوقاف ممالكنا وقاعدة تصرفاتنا في مسالكنا وله مزيد من الرعاية وإفادة الحماية ووفادة العناية

وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء ومالاقاه أهلها ومني به من الكفار حزنها وسهلها فإنه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان وعدد به ذنوب الزمان كل قلب بأنامل الخفقان وطالما فزتم بالظفر ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ولكن الحروب سجال وكل زمان لدوائه دولة ولرجائه رجال ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح وجعلنا ليل العجاج ممزقا ببروق الصفاح واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات وعطفنا إليهم الأعنة وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الأسنة وقلقنا الصخرات بالصرخات وأسلنا العبرات بالرعيات ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول وأين الثريا من يد المتناول وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا

وأما ما فقدتموه من الأجفان التي طرقتها طيف التلاف وأم حرم فنائها الفناء وطاف به بعد الإلطف فقد روع هذا الخبر قلب الإسلام ونوع له الحزن على اختلاف الإصباح والإظلام وهذه الدار ما يخلو صفوها من كدر القدر وطالما أنامت بالأمن أول الليل وخاطبت بالخطب في السحر ولكن في بقائكم ما يسلي من خطب العطب ومع سلامة نفسكم الكريمة فالأمر هين لأن الدر يفدى بالذهب وأما ما رأيتموه من الصلح فرأي عقده مبارك وأمر ما فيه فارط عزم وإن كان فيتدارك والأمر يحيى كما يحب لا كما نحب والحروب يزورها نصرها تارة ويغب ومع اليوم غدا وقد يرد الله الردى ويعيد الظفر بالعدا

وأما عودكم إلى فاس المحروسة طلبا لإراحة من عندكم من الجنود وتجهيزا لمن يصل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضروري التدبير سروري التتمير لأن النفوس تمل وثير المهاد فكيف ملازمة صهوات الجياد وتسأم من مجالسة الشرب فكيف بممارسة الحرب وتعرض عن دوام اللذة فكيف بمباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم وساق هدي هديته إليكم لعله يكون سببا إلى ارتجاع ما شرد وحسما لهذا الطاغية الذي مرد وردا لهذا النازل الذي قدم ورد الصبر لما ورد فعادة الألفاظ الإلهية بكم معروفة وعزوماتكم إلى جهات الجهاد مصروفة وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرق وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق

وأما ما منحتموه من الخيل العتاق والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق والأموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الإنفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم في منازل الدنيا والآخرة شرفها وإليكم تساق هدايا أثنتيتها وتحفكم تحفها وإذا وصل وفدكم الحاج وأثار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج كانوا مقيميين تحت ظل إكرامنا وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا يتخولون تحفا أنتم سببها ويتناولون طرفا في كؤوس الاعتناء بهم تنضد حببها وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى وسولهم ممن إذا زاروا حجرته الشريفة حازوا الراحة من العنا وفاروا بالغنى وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب وغمرناهم بالإحسان في العود إليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاها لديكم وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم وتوفر لأخذ الثأر حماكم وتخصكم بتأييد تنزلون روضة الأنضر وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر وتتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه وعز لا يمحو شبابه مشيبه وتحيته المباركة تغادبكم وتراوحكم وتفاوحكم انفاسها المعنبرة وتنافحكم بمنه وكرمه انتهى

إجازة من الصفدي رواية الرسالتين

ورأيت بخط منشىء هذا الجواب الصلاح الصفدي رحمه الله تعالى إثر ذكره ما نصه أما بعد حمد لله تعالى على نعمائه محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه فقد قرأ الشيخ الإمام العالم العامل العلامة المفيد القدوة عز الدين أبو يعلى حمزة ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضي قطب الدين موسى بن أحمد ابن شيخ السلامية الأحمدي امتع الله بفوائده الكتاب الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط أبي الحسن المريني صاحب مراكش تغمده الله تعالى برحمته والجواب عنه عن السلطان الشهيد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد قدس الله تعالى روحهما من إنشائي وأنا أسمع ذلك جميعا من أولهما إلى آخرهما قراءة أطربت السمع لفصاحتها وامالت العطف لرجاحتها

" وأخجلت ورق الحمى باللوى ... إن صدحت في ذروة الغصن "

" تكاد من لطف ومن رقة ... تدخل في الأذن بلا إذن "

وذلك في مجلس واحد في ذي القعدة سنة 756 بالجامع الأموي بدمشق المحروسة فإن رأى رواية ذلك عني فله علو الرأي في تشريفي بذلك وكتبه خليل ابن أبيك الصفدي الشافعي عفا الله عنه انتهى

أبو الحسن يكتب ثلاثة مصاحف

وكان السلطان ابو الحسن المريني المذكور كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال وأوقف عليها أوقافا جلييلة كتب توقيعه سلطان مصر والشام بمسامحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين ابن نباتة المصري ونص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله وهو

400 - الذي مد يمينه بالسيف والقلم فكتب في أصحابها واطر الختمات الشريفة فأيد الله حربه بما سطر من أحزابها واتصلت اخبار ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق لا بد للفقراء من فتوح ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي وخط سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي ورتب عليها أوقافا تجري أقلام الحسنات في إطلاقها وطلقها وحبس املاكا شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها والله تعالى يمنع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف وينفع الجالس من ولاية الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف انتهى

قلت وقد رأيت احد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس وربعته في غاية الصنعة

نبذة من أخبار أبي الحسن

وقال بعض المشاركة في حق السلطان أبي الحسن ما صورته ملك أضاء المغرب بانوار هلاله وجرت إلى المشرق انواء نواله وطابت نسوماته واشتهرت عزماته كان حسن الكتابة كثير الإنابة ذا بلاغة وبراعة وشهامة وشجاعة كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة أقام في الملك عشر سنين وسبعة أيام ثم صرف بولده أبي عنان بعد حروب يطول شرحها انتهى من كتاب نزهة الأنام

ولما ذكر الإمام الخطيب أبو عبدالله ابن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن من أخبار للسلطان أبي الحسن أمر الربعة التي أرسلها السلطان ابو الحسن بخطه قال ما ملخصه وأرسل معها السلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من احجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرد مائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين

ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حلا كثيرة منها مذهب ثلاثه عشر ومن الإناق عشرين مذهب ومن الخلاصي ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهب ومن المحررات المختمة ثمانمائة ومن الرضان عشرين شقة والأكسية المحررة أربعة وعشرين والبرانس المحررة ثمانية عشر والمشفقات مائة وخمسين واحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالي المنوعة والفريش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة وواجه اللحف المذهبة عشرين وحائطان حلة وحنابل مائة واثنى عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة والسروج عشرة بركب ذهب ومهاميز ذهب كذلك وثلاثة ركب فضة وست مزججة ومذهبة ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشية حرير مطوقة بذهب مكلل بالجواهر ومن لزمات الفضة عشرة وسرج مخروزة بالفضة عشرة وعشر علامات معششة مذهبة وعشر رايات مذهبة وعشر براقع مذهبة وعشر أمثلة مرقومة

وثلاثين جلد أشرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة وخباء
 قبه كبيرة من مائة بنية لها أربعة أبواب وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنية مبطنة بحلة
 مذهبة وهي حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وأبنوس وأكبارها من فضة مذهبة ومن
 البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العرب ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ومن البغال
 الذكور والإناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع
 الربة المكرمة وأعطى الحرة أم أخته أم
 ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة
 وكساوى متعددة وبغلات ولرسول المعين للهدية ألفاً ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي
 محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف
 وثمانمائة ولشراء ربع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً انتهى
 وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن الموصوف أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك
 ومنها لصاحب الأندلس صلة وصدقة في مرات ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم ومنها لسلاطين
 السودان كصاحب مالي ومنها لصاحب إفريقية ومنها لصاحب تلمسان انتهى
 وقال مؤرخ مصر المقرئ في كتاب السلوك في سنة 738 ما نصه وفي ثاني عشر من رمضان
 قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد
 الحج ومعها هدية جلييلة إلى الغاية نزل لحملها من الإصطبل السلطاني ثلاثون قطارا من بغال
 النقل سوى الجمال كان من حملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومائتا بغل وجميعها
 بسرج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعضها سرجها وركبها كلها ذهب وكذلك لجمها وعدتها اثنان
 وأربعون رأسا منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر وفيها إثنان وثلاثون بازاً وفيها سيف قرابه ذهب
 مرصع وحياصته ذهب مرلاصع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العال وكان قد خرج المهمندار
 إلى لقائهم وانزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهم جمع كبير جدا وكان يوم طلوع الهدية من
 الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نفدت كلها
 سوى الجواهر واللؤلؤ فإنه اختص به فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ثم نقلت
 الحرة إلى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم
 بكرة وعشية ما عمهم وفضل عنهم فكان
 مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم ونصف إردب أرز وقنطار حب رمان وربع قنطار سكر
 وثمانية فانوسيات شمع وتوابل الطعام وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم
 وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة فكانت عدة الخلع
 مائتين وعشرين خلة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول وحمل إلى
 الحرة من الكسوة ما يجلب قدره وقيل لها أن تملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء وإنما تريد عناية
 السلطان بإكرامها وإكرام من معها حيث كانوا فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد أقيغا
 بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوية وهيئا كل ما تحتاج إليه في
 سفرها من أصناف الحلوات والسكر والدقيق والبقسماط وطلبوا الجمالة لحمل جهازها وأزودتها
 ونذب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها
 قدام المحمل ويمثل كل ما تأمر به وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها اتم خدمة
 وقال في سنة خمس وأربعين وسبعمائة ما نصه وفي نصف شعبان قدمت الحرة أخت صاحب
 المغرب في جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام وأن يدعو له
 الخطباء يوم الجمعة وخطبها ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب إلى أهل
 الحرمين بذلك وذلك أن في السنة الخالية كانت بينه وبين الفرنج وقعة عظيمة قتل فيها ولده
 ونصره الله تعالى بمنه على العدو وقتل كثيرا منهم وملكوا منهم الجزيرة الخضراء فعمر الفرنج
 مائتي شيني وجمعوا طوائفهم وقصدوا المسلمين وأوقعوا بهم على حين غفلة فأستشهد عالم
 كثير ونجا أبو الحسن في طائفة من أزمته بعد شدائد وملك الفرنج الجزيرة وأسروا وسبوا وغنموا
 شيئا يجلب وصفه ثم مضوا إلى جهة غرناطة ونصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم أهلها على
 قطيعة يقومون بها وتهادنوا مدة عشر سنين انتهى كلامه
 وقد تقدم نص هذا الكتاب الموجه من السلطان أبي الحسن فليراجع قريبا
 وقال ابن مرزوق في المسند الصحيح الحسن بعد كلام ما ملخصه وكان يعني السلطان أبا الحسن
 مجتهدا في الجهاد بنفسه وحرمه وجاز للأندلس برسم ذلك بنفسه وأظهر آثاره الجميلة ومنها
 ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد أن أنفق عليه الأموال وصرف إليه الجنود والحشود إذ كان من

عمالته هو والجزيرة ورندة ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقتوا به إلي أن استرجعوه ليد المسلمين وأنفق على بنائه أحمال مال واعنتى بتحسينه وبنى حصنه وأبراجه وسوره وجامعه ودوره ومخازنه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصر المسلمون صبر الكرام فخب الله تعالى أمل العدو وعاد خاسرا والمنة لله فرأى أن يحصن سفح الجبل بسور يحيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ولا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الأموال وانصف العمال فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال واما بناؤه للمحاسن والطوالع فامر غير مجهول انتهى

رسائل لسان الدين ابن الخطيب

رسالة إلي أحد سلاطين بني مرين - 1

وقد رأيت أن أذكر هنا بعض إنشاء لسان الدين ابن الخطيب في شأن ما يتعلق بجبل الفتح وغيره من بلاد الأندلس وحال العدو الكافر وما ينخرط في هذا السلك فمن ذلك على لسان سلطانه يخاطب به أحد السلاطين من أولاد السلطان أبي الحسن المريني ونصه المقام الذي يصرخ وينجد وينهم في الفضل وينجد ويسعف ويسعد ويرق في سبيل الله ويرعد فيأخذ الكفر من عزماته المقيم المقعد حتى ينجز من نصر الله تعالى الموعد مقام محل أخينا الذي حسن الظن بمجده جميل وحد الكفر بسعده كليل وللإسلام فيه رجاء وتأميل ليس للقلوب عنه مميل السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى وعزمه الماضي لصولة الكفر قامعا وتدييره الناجح لشميل الإسلام جامعاً وملكة الموفق لنداء الله مطيعاً سامعاً ومعظم مقداره وملتمزم إجلاله وإكباره المعتد في الله بكرم شيمته وطيب نجاره المستظهر على عدو الله بإسراعه إلي تدمير الكافر وبيداه سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مجيب دعوة السائل ومتقبل الوسائل ومتيح النعم الجلائل مريح من عامله في هذا الوجود الزائف الزائل والأيام القلائل بالمتاع الدائم الطائل والنعيم غير الحائل ومقيم اود الإسلام المائل بأولي المكارم من اوليائه والفضائل محمد رسوله المنقذ من الغوائل المنجي من الروع الهائل الصادع بدعوة الحق الصائل بين العشائر والفضائل الذي ختم به وبرسالته ديوان الرسل والرسائل وجعله في الأواخر شرف الأوائل فحبه كنز العائل والصلاة عليه زكاة القائل والرضى عن آله وصحبه وعترته وحزبه تيجان الأحياء والقبايل المتميزين بكرم السجايا وطيب الشمائيل والدعاء لمقام أخوتكم في البكر والأصائل بالسعد الصادق المخايل والصنع الذي تتبرج مواهبه تبرج العقائل والنصر الذي تهر له الصعاد الملد عطف المتراح المتخايل فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم عزا يانع الخمائيل ونصراً يكفل للكتائب المدونة في الجهاد ومرضاة رب العباد بسرد المسائل وإقناع السائل من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل اله سبحانه إلا استبصار في التوكل على من بيده الأمور وتسبب مشروع تتعلق به بإذن الله تعالى أحكام القدر

المقدور ورجاء فيما وعد به من الظهور يتضاعف على توالي الأيام وترادف الشهور والحمد لله كثيرا كما هو اهله فلا فضل إلا فضله ومقامكم المعروف محله الكفيل بالإرواء نهله وعله وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم وحرس مجدكم ووالى النعم عندنا وعندكم فإننا في هذه الأيام أهمنا من أمر الإسلام مارنق الشراب ونغص الطعام وذاد المنام لما تحققنا من عمل الكفر على مكابته وسعي الضلال والله الواقى في استئصال بقيته وعقد النوادي للاستشارة في شأنه وشروع الحيل في هد أركانه ومن يؤمل من المسلمين لدفع الردى وكشف البلوى وبث الشكوى وأهله حاطهم الله تعالى وتولاهم وتمم عوائد لطفه الذي اولاهم فهو مولاهم في غفلة ساهون وعن المغيبة فيه لاهون قد شغلتم دنياهم عن دينهم وعاجلهم عن أجلهم وطول الأمل عن نافع العمل إلا من نور الله تعالى قلبه بنور الإيمان وتململ بمناصحة الله تعالى والإسلام تململ السليم واستدل بالشاهد على الغائب وصرف الكفر إلى مطالب الأمم النوائب فلما رأينا ان الدولة المرينية التي هي على مر الأيام شجا العدا ومتوعد من يكيد الهدى وفئة الإسلام التي إليها يتحيز وكهفه الذي إليه يلجأ قد أذن الله تعالى في صلاح امورها ولم شعثها وإقامة صغائها بأن صرف الله تعالى عنها هنات الغدر وأراحها من مس الضر ورد قوسها إلى يد بارئها وصير حقها إلى وارثها وأقام لرعي مصالحها من حسن الظن بحسبه ودينه ورجي الخير من ثمرات نصحه ومن لم يعلم إلا الخير من سعيه والسداد من سيرته ومن لا يستريب المسلمون بصحة عقده واستقامة قصده أردنا ان نخرج لكم عن العهدة في هذا الدين الحنيف الذي وسمت دعوته وجوه احبابكم شملهم الله تعالى بالعافية وتشبثت به انفس من صار إلى الله تعالى من السلف تغمدهم الله بالرحمة والمغفرة وفي هذا القطر الذي بلادته ما بين

مكفول يجب رعيه طيعا وشرعا وچار يلزم حقه دينيا ودينيا وحمية وفضلا وعلى الحالين فعليكم بعد الله المعول وفيكم المؤمل فأرعونا أسماعكم المباركة نقص عليكم ما فيه رضى الله والمنجاة من نكيره والفخر والأجر وحفظ النعم والخلف في الذرية بهذا وعدت الكتب المنزلة والرسول المرسله وهو أن هذا القطر الذي تعددت فيه المحارب والمنابر والراكع والساجد والذاكر والعايد والعالم والليليف والأرملة والضعيف قد انقطع عنه إرفاد الإسلام وشحت الأيدي به منذ أعوام وسلم إلى عبدة الأصنام وقوبلت ضرائره بالأعدار والمواعيد المستغرقة للأعمار وإن عرضت شواغل وفتن وشواغب وإحن فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته ولا يذهب المعروف بكليته " ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع "

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدس والدكم جبل الفتح وهو منازل أخاه بسجلماسة ولا امده ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش وبالأمس بعثنا إلى الجبل وشمانة في جملة ما أهمنا مبلغ جهد وسداد من عوز وقد فضلت عن ضرائرنا أموال فرضت من أجل الله على عباده وطعام سمحنا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده فلم يسهم المتغلب منها لجانب الله بحبة ولا أقطعه منها ذرة مستخفا به جل وعلا متهاونا بنكيره الذي هو أحق أن يخشى فضاغت الأمور واختلت الثغور وتشذبت الحامية وتبددت العدد وختلت المخازن وهلكت بها الجرذان وعظمت

بها حسرة الإسلام أضعاف ما عظمت حبرته أيام ما كانت تكفلها همم الملوك الكرام والخلفاء العظام والوزراء والنصحاء والأشياخ الأمجاد قدس الله تعالى أرواحهم وضاعف انوارهم ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس وركاب الجهاد وحسنة بني مريم ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسلطان المقدس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذى ترد على قبره مع الساعات والأنفاس وفود الرحمة وهدايا الزلفة وريحان الجنة فلولا أنكم على علم من أحواله لشرحنا المجمل وشكلنا المهمل إنما هو اليوم شبح مائل وطلل باند لولا ان الله تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا إليه ولا حوم طيره إلا عليه وكان بصد أن يتخذ الصليب دارا وان يقر به عينا والعدوة فضلا عن الأندلس قد أوسعها شرا وأرهق ما يجاوره عسرا نسأل الله تعالى بنور وجهه أن لا يسود الوجوه بالفجع فيه ولا يسمع المسلمين الثكلة وما دونه فهو وإن أعش بالتعليل عليه ووقع بالجهد خلقه لحم على وضم إلا أن يصل الله تعالى وقيامته وبوالي دفاعه وعصمته لا إله إلا هو الولي النصير وما زلنا نشكو إلى غير المصمت ونمد اليد إليه إلى المدبر عن الله المعرض ونخطب له زكاة الأموال من المباني الضخمة والخزائن الثرة والأهراء الطامية والحظ التافه من المفترض برسمه فتمضي الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلا ضيقا ولا الأحوال إلا شدة ولا الثغر إلا ضعة ولا نعلم أن نظرا وقع له ولا فكرا أعمل فيه إلا ما كان من تسخير رعيته الضعيفة وبلالة مجباه السخيفة في بناء قصر بمنى ميور من جباله

" شاده مرمرًا وجلله كلسا ... فللطير في ذراه وكور "

جلب إليه الزليج واختلفت فيه الأوضاع في رأس نيق لأمل نزوة وسوء فكرة فلما تم أقطع الهجران فهو اليوم ممتنع اليوم وحظ الخراب فلا حول ولا قوة إلا بالله حتى جاء أمر الله خالي الصحيفة من البر صفر اليد من العمل الصالح نعوذ بالله من نكيره ونسأله الإلهام والسداد والتوفيق والرشاد وقد بذلنا جهدا قولنا وفعلا وموعظة ونصحا واستدعينا لتلك الجهة صدقة المسلمين محمولة على أكتاد العباد الضعفاء الذين كانت صدقات فاتحيه رضى الله تعالى عنهم ترفدهم ونوافله تتعهدهم فما حرك ذلك الجوار حلوبا ولا استدعى مطلوبا ولا رفا مجلوبا فإلى متى تنضى ركاب الصبر وقد بلغ الغاية واستنفد البلالة بعد أن أعاد الله تعالى العهد وجبر المال وأصلح السعي وأجرى ينابيع الخير وأنشق رياح الإقالة وجملة ما نريد أن نقرره فهو الباب الجامع والقصد الشامل والداعي والباعث ان صاحب قشتالة لما عاد إلى ملكه ورجع إلى قطره جرت بيننا وبينه المراسلة التى أسفرت بعدم رضاه عن كدحنا لنصره ومظاهرتنا إياه على أمره وإن كنا قد بلغنا جهدا وأبعدنا وسعا واجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلها وأغراض صعبة لم نكملها ونحن نتحقق انه غما إما تهيج حفيظته وتثور إحنته فيكشف وجه المطالبة مستكثرا بالأمة التى داس بها أهل قشتالة فراجع أمره غلابا وحقه ابتزازا واستلابا أو يصرفها ويهادن المسلمين بخلال ما لا يدع جهة من جهات دينه الغرب إلا عقد معها صلحا وأخذ عليها بإعانتها إياه عهدا ثم تفرغ إلى شفاء غليله وبلوغ جهده ولا شك أنها تجيبه صرف لبأسه عن نحورها ومقارضة كما وقع باطريرة من مضيق صدورها ومؤسف جمهورها وكل من له دين ما فهو يحرض على التقرب إلى من دانه به وكلفه وظائف تكليف رجاء لوعده وخوفا من وعيده وبالله ندفع ما لانطيق من جموع تداعت من الجزر ووراء البحور والبر المتصل

الذي لا تقطعه الرفاق ولا تحصي ذرعه الحذاق وقد أصبحنا بدار غربة ومحل روعة ومفترس نبوة ومظنة فتنة والإسلام عدده قليل ومنتجعه في هذه البقعة جديب وعهده بالإرصاد والإمداد من المسلمين بعيد " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا - إلى آخر السورة " البقرة 286 وإذا تداعت أمم الكفر نصره لدينها المكذوب وحمية لصليبها المنصوب فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ امانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن حيث المأذن بذكر الله تعالى تملأ الأفاق وكلمة الإسلام قد عمت الربي والوهاد إنما الإسلام غريق قد تشبث باهدابكم يناشدكم الله في بقية الرمق وقبل الرمي تراش السهام وهذا اوان الاعتناء واختيار الحماة وإعداد الأقوات قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مقررا للضرورة منها الرغبة مذكرا بما يقرب عند الله مذكرا لذمام الإسلام جالبا على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التى تشرح الصدر وتسني الآمال وتستدعي الدعاء والثناء فالمؤمن كثير بأخيه ويد الله مع الجماعة والمسلمون يد على من سواهم والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا والتعاون على البر والتقوى مشروع وفي الذكر الحكيم مذکور وحق الجار مشهور وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب وكما راع المسلمون اجتماع كلمة الكفر فترجو ان يروع الكفر من العز بالله وشد الحيازيم في سبيل الله ونفير النفرة لدين الله والشعور في حماية الثغور وعمرانها وإزاحة علقها وحبب الأقوات إليها وإنشاء الأساطيل وجبر ما تلف من عدة البحر امور تدل على ما وراءها وتخبر بمشيئة الله تعالى عما بعدها " وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى " البقرة 197 ومن خطب على رضى الله تعالى عنه اما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رهبة ألبسه الله تعالى سيما الخسف ووسمه بالصغار وما بعد الدنيا إلا الآخرة وما بعد الآخرة إلا إحدى 9 :داري البقاء أفي الله شك " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "

والاعتناء بالجيل عنوان هذا الكتاب ومقدمة هذا الباب والغفلة عنه منذ اعوام قد صيرتنا لا ننعج باليسير وقد أبرمته المواعيد وغير رسومه الانتظار ومن المنقول ارحموا السائل ولو جاء على فرس والإسراف في الخير أرجح في هذا المحل من عكسه وكان بعض الأجواد يقول وقد أفتى اللهم هب لي الكثير فإن حالي لا تقوم على القليل وعسى ان يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه والامتعاض له مكافئا للإرزاء به وخلو البحر يغتنم لإمداده وإرفاده قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطع المدد وسد البحر ومن ضيع الحزم ندم ولا عذر لمن علم والله عز وجل يطلع من قبلكم على ما فيه شفاء الصدور وجبر القلوب وشعب الصدور وما نقص مال من صدقة وطعام الواحد كاف لاثنين والدين دينكم والبلاد بلادكم ومحل رباطكم وجهادكم وسوق حسناتكم " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " وقد قلنا العهد الحفيظ علينا المصروف العناية بفضل الله تعالى إلينا والله المستعان وعليه التكلان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى

وفي اعتقادي أن هذا المكتوب للسلطان أبي فارس عبدالعزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني وأن المراد بالمتغلب الوزير عمر بن عبدالله الذي ظفر به أبو فارس المذكور واستقل بالملك بعد محو أثره حسبما ذكرناه في غير هذا المحل والله سبحانه أعلم

رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني - 2

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه في استنهاض عزم صاحب فاس السلطان المريني لنصرة الأندلس مانصه المقام الذي يؤثر حظ الله إذا اختلفت الحظوظ وتعددت المقاصد ويشرع الأذى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت

الموارد وتشمل عادة حلمه وفضله الشارد ويسع وارف ظلله الصادر والوارد والغائب والشاهد ويعيد من نصر الله للإسلام العوائد ويسد الذرائع ويدر الفوائد مقام محل أخينا الذي حسنت في الملك سيره وتعاضد في الفضل خبره وخبره ودلت شواهد مداركه للحقوق وتغمده للعقوق على أن الله تعالى لا يهمله ولا يذرهم فسلك فخره متسفة درره ووجه ملكه شادخة غرره السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاها الله رفيعا علاؤه هامية لديه ممن الله تعالى والآؤه مزدانة بكواكب السعد سماؤه محروسة بعز النصر أرجاؤه مكملا من فضل الله تعالى في نصر الإسلام وكبت عبدة الأصنام امله ورجاؤه معظم قدره الذي يحق له التعظيم وموقر سلطانه الذي له الحسب الأصيل والمجد الصميم الداعي إلى الله تعالى باتصال سعادته حتى ينتصف من عدو الإسلام الغريم ويتاح على يد سلطانه الفتح الجسيم فلان سلام كريم طيب عميم ورحمة الله وبركاته

اما بعد حمد الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا ولا يخيب لمن أخلص الرغبة إليه أملا وموفي من ترك له حقه أجره المكتوب متمما مكملا وجاعل الجنة لمن اتقاه حق تقاته نزلا ملك الملوك

الذي جل وعلا وجبار الجبابرة الذي لا يجدون عن قدره محيضا ولا من دونه مؤثلا ومولانا محمد الذي أنزل الله تعالى عليه الكتاب مفصلا وأوضح طريق الرشيد وكان مغفلا وفتح باب السعادة ولولاه كان مقفلا والرضى عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه الذين ساهموا فيما مر وما حلا وخلفوه من بعد بالسير التي راقت مجتلى ورفعوا عماد دينه فاستقام لا يعرف ميلا وكانوا في الحلم والعفو مثلا والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يلقي نصه صريحا لا متأولا والصنع الذي يبهر حالا ومستقبلا والعز الذي يرسو جبلا والسعد الذي لا يبلغ أمدا ولا أجلا فإننا كتبناه إليكم أصحاب الله تعالى ركابكم حليف التوفيق حلا ومرتحلا وعرفكم عوارف

اليمن الذي يثير جذلا ويدعو وافد الفتح الممين فيرد مستعجلا من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من التشيع لمقامكم حرس الله تعالى سلطانه ومهد اوطانه إلا الخبر الذي نسأل بعده تحسين العقبي وتوالي عادة الرحمى والحمد لله على التي هي أركى وسدل جناح السستر الأضفى وصلة اللطائف التي هي اكفل واكفى وأبر وأوفى ومقامكم عندنا العدة التي بها نصول ونرهب والعمدة التي نطيل في ذكرها ونسهب وقد اوفدنا عليكم كل ما زاد لدينا أو فتح الله تعالى به علينا ونحن مهما شد المخنق بكم نستنصر أو تراخى ففي ودكم نستبصر أو فتح الله تعالى فأبوابكم نهني ونبشر وقررنا عندكم ان العدو في هذه الأيام توقف عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سرية ولا بطشت له يد جرية ولا افترعت من تلقائه ثنية ولا ندري أمكيدة تدبر أم آراء تنقض بحول الله وتبهر أو لشاغل في الباطن لا يظهر وبعد ذلك وردت على بابنا من بعض كبارهم وزعماء أقطارهم مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل النصح لآياد سلفت منا لهم قررها ووسائل ذكرها فلم يخف عنا أنه أمر دبر بليل وخيبة تحت ذيل فظهر لنا أن نسبر الغور ونستفسر الأمر فوجهننا إليه على عادتنا مع سلفه لنعبر ما لديه وننظر إلى بواطن أمره ونبحث عن زيد قومه وعمره فتأتى ذلك وجر مفاوضة في الصلح أعدنا لأجلها الرسالة واستشعرنا البسالة ووازننا الأحوال واختبرنا واعتززنا في الشروط ما قدرنا ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الأقوات المهيأة للأنساف وتسكن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف

ونفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته حتى يظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أدرنا وشموخ الأنف فيما أصدرنا إلا ما أشعنا من عزمكم على نصره الإسلام وارتقاب حقوق الأعلام والخفوف إلى دعوة الرسول وأن الأرض حمية لله تعالى قد اهتزت والنفرة قد غلبت النفوس واستفرت واستظهرنا بكتيكم التي تضمنت ضرب المواعد وشمرت عن السواعد وأن الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعنة والثنايا سدتها بروق الأسنة وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون والأموال قد سمح بها المسلمون وهذه الأمور التي تمشت بقربها أو بعيدها أحوال الإسلام والأمانى المعدة لترجية الأيام ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان من حور العزائم المؤمنة بعد كورها وتسويق مواعد النصر بعد استشعار فورها وأن الحركة معملة إلى مراكش الجهة التي في يديكم زمامها وإليكم وإن تراخى الطول ترجع أحكامها والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة ولا يعجزكم عن الصولة ولا يطلبكم إن تركتموه ولا يمنعكم إن طرقتموه وعركتموه فسقط في الأيدي الممدودة واختلفت المواعد المحدودة وخسئت الأبصار المرتقبة ورجفت المعائل الأشبية وساءت الطنون وذرفت العيون وأكذب الفضلاء الخبر ونفوا أن يعتبر وقالوا هذا لا يمكن حيث الدين الحنيف والملك المنيف والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم وحمل النصيحة أعناقهم هذا المفترض الذي يبعد والقائم الذي يقعد ياباه الله تعالى والإسلام وتاباه العلماء والأعلام وتاباه المآذن والمنابر وتاباه الهمم والأكابر فبادرنا نستطلع طلع هذا النبا الذي إن كان باطلا فهو الظن والله المن وإن كان خلافة لرأي ترجح وتنفق بقرب الملك وتبجح فنحن نؤفد كل من

يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر في شفاعة ويمد إليه كف ضراعة ومن يوسم بصلاح وعبادة ويقصد في الدين بث إفادة يتطارحون عليكم في نقض ما أبرم ونسخ ما أحكم فإنكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد وتحلون عليه ماعقد وهب العذر يقبل في عدم الإعانة وضرورة الاستعانة والاستكانة أي عذر يقبل في الاطراح والاعراض الصراح كأن الدين غير واحد كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد كأن ذمام الإسلام غير جامع كان الله غير راء ولا سامع فنحن نسألكم بالله الذي تساءلون به والأرحام ونأنف لكم من هذا الاحجام وتطارح عليكم أن تتركوا حظكم في أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا وبين العدو الذي يتكالب علينا يادباركم بعدما تضاءل لاستنفاركم ولا تكلفكم غير اقتراب داركم وما سامكم المسلمون بها شططا وما حملوكم إلا قصدا وسطا وما

ذهبتهم إليه لا يفوت ولا يبعد وقد تجاوزت البيوت إنما الفاتت ما وراءكم من حديث تأنف من سماعه أوداؤكم ودين يشمت به أعداؤكم فأسعفوا بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قصدنا وحاشا إحسانكم أن يرضى فيه ردنا وانتم بعد بالخيار فيما يجريه الله على يديكم من قدره أو يلهمكم إليه من نصره وجوابكم مرتقب بما يليق بكم ويحمل بحسبكم والله سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس - 3

ومن إنشاء لسان الدين أيضا في مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان سلطان غرناطة فيما يقرب من الأنحاء السابقة مانصه

المقام الذي أعمار سعده في انتظام واتساق وحياد عزه إلى الغاية القصوى ذات استيقاق والقلوب على حبه ذات اتفاق وعناية الله تعالى عليه مديدة الرواق وأبديه الجمرة في الأعناق ألزم من الأطواق وأحاديث مجدة سمر النوادي وحديث الرفاق مقام محل أينا الذي شأن قلوبنا الاهتمام بشأنه وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الإلهية تحط ببابه والألطف الخفية تعرس في جنبه والنصر العزيز يحف بركابه وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه والقلوب الشجية لفراقه مسرورة بإيابه معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتومة والفواضل المشهورة المعلومة والمكارم المسطورة المرسومة والمفاخر المنسوقة المنظومة الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة وحفظها على هذه الأمة المرحومة الأمير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل ابن فرج بن نصر سلام كريم طيب بر عميم كما سطعت في غيب الشدة أنوار الفرج وهبت نواسم أطفاف الله عاطرة الأرج يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله وبركاته

أما بعد حمد الله جالي الظلم بعد اعتكارها ومقيل الأيام من عثارها ومزين سماء الملك بشموسها المحتجة وأقمارها ومريح القلوب من وحشة أفكارها ومنشئ سحاب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها وشدّة اضطرارها واضطرارها ومداركتها باللفظ الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطانها والصلاة ومولانا محمد رسوله صفوة النبوة ومختارها ولباب مجدها السامي ونجارها نبي الملاحم وخائض تيارها ومذهب رسوم الفتن ومطفىء نارها الذي لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها حتى بلغت

كلمة الله ماشاءت من سطوع انوارها ووضوح آثارها والرضى عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على احلاء الحوادث وإمرارها وباعوا نفوسهم في إعلاء دعوته الحنيفية وإظهارها والدعاء لمقامكم الأعلى بانصال السعادة واستمرارها وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها وتعرض على مثابكم ذنوبها راغبة في اغتفارها فإننا كتبنا إليكم كتب الله لكم أو في ما كتب لصالحى الملوك من مواهب إسعاده وعرفكم عوارف الآلاء في اصدار أمركم الرفيع وإيراده وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده وجعل العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد وإلى كنف فضله الاستناد ثم ببركة جاه نبينا الذي وضح بهدأيته الرشاد إلا الصنائع التى تشام بوارق اللطف من خلالها وتخبر سيماها بطلوع السعود واستقبالها وتدل مخايل يمنها على حسن مآلها لله الحمد على نعمه التى نرغب في كمالها ونستدر عذب زلالها وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه والسرور بسعادة أيامه والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه ما لا تفى العبارة بأحكامه ولا تتعاطى حصر أحكامه وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه وصان سلطانتكم وتولاه فقد علم الحاضر والغائب وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب وأنا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التى صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة لا يستقر بقلوبنا القرار ولا تتأنى بأوطاننا الأوطار تشوقا لما تتيجه لكم الأقدار ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشد على الأوقات ويقوى علما بأن العاقبة للتقوى وفي هذه الأيام عميت الأنباء وتكالبت في البر والبحر الأعداء واختلفت الفصول والأهواء وعافت الورد الأنواء وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ولو كنا نجد للاتصال بكم سببا أو نلقى لاعانتكم مذهبا لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض والعدو بساحتنا في هذه الأيام ريبض وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء راية خافقة واقتنى منه في سوف الكساد بضاعة نافقة الشيخ الأجل الأوفى الأود الأخلص الأصفى أبو محمد ابن أحيانا سنى الله مامله وبلغه من سعادة أمركم سوله وقد ورد على بابنا وتحيز إلى اللحاق بجنابنا ليتيسر له من جهتنا القدوم ويتأتى له بإعانتنا الغرض المروم فبينما نحن ننظر في

تتميم غرضه وإعانتته على الوفاء الذي قام بمفترضه إذ اتصل بنا خبر قرقورتين من الأجناف التي استعنتم بها على الحركة والعزيمة المقترنة بالبركة حطت إحداهما بمرسى المنكب والأخرى بمرسى المرية في كنف العناية الإلهية فتلقينا من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها والأخبار التي يغني نصها عن قياسها وتعرفنا ماكان من عزمكم على السفر وحركتكم المعروفة باليمن والظفر وانكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمن قدومكم خائفها ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها ويصلح أحوالها ويسكن أهوالها وأنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور والسعد الموفور واليمن الرائق السفور والأسطول المنصور فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها ونهوض طيور الرجاء من وكونها واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرة عيونها وتحقق ظنونها وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها ملابس العدل والإحسان وقلدتها قلائد السير الحسان وما منها إلا من باح بما يخفيه من وجهه ووجهه بشكر الله تعالى وحمده وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مطل الانتظار بديون آمالها والمطاولة من اعتلالها واما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنو حبيبه بعد طول مغيبة إنما هو صدر راجعه فؤاده وطرف أفه رفاذه وفكر ساعده مراده فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى انجاز ما بذلنا لخدمكم المذكور من الوعد واغتنمنا ميقات هذا السعد ليصل سببه بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى أسبابها ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم الوداد ونصل له على بعد المزار ونزوح الأقطار سبب الاعتداد ما يغني عن القلم والمداد وقد ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحد لهم ما يكون عليه عملهم في بر من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمة ذات الحقوق العظيمة والأبدي الحديثة والقديمة وهم يعملون في ذلك بحسب المراد وعلة شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة والأعداء الذين دهيت بهم في الوقت هذه الجزيرة ماقدمنا عملا على اللحاق بكم والاتصال بسببكم حتى نوفي لأبوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الأعداء واضحة وضوح المثل السائر والله العالم بالسرائر وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقا ويجعل السعد لكم مصاحبا ورفيقا ولايعدمكم عناية منه وتوفيقا ويتم سرورنا عن قريب بتعرف أنبائكم السارة وسعودكم الدارة فذلك منه سبحانه غاية آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وسؤالنا هذا ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار بسعادة ملككم السامي المقدار وييسر ما له من الأوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى

وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس وسلطين فاس كثيرا ما يدس لأقارب الملوك القيام على صاحب الأمر ويزين له الثورة ويعدده بالإمداد بالمال والعدة وقصده بذلك كله توهين المسلمين وإفساد تدبيرهم ونسخ الدول بعضها ببعض لما له في ذلك من المصلحة حتى بلغ أبعده الله تعالى من أملة الغاية

رسالة إلى السلطان المريني في الاعتذار عن فرار أبي الفضل المريني من غرناطة - 4

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى عن سلطان الأندلس إلى سلطان فاس المريني يعتذر عن فرار الأمير أبي الفضل المريني الذي كان معتقلا بغرناطة فتحيل الطاغية في أمره حتى خرج طالبا للملك مانصه

المقام الذي شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفلك الدوار بحكم إرادته وتعود الظفر بمن يناوئه فاطرد والحمد لله جريان عادته فوليه متحقق لإفادته وعدوه مرتقب لإبادته وحلل الصنائع الإلهية تضفو على أعطاف مجادته مقام محل أخينا الذي سهم سعده صائب وأمل من كاده خاسر خائب وسير الفلك المدار في مرضاته دائب وصنائع الله تعالى له تصحبها الألطاف العجائب فسيان شاهد منه في عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى مسدد السهم ماضي العزم تجل سعوده عن تصور الوهم ولا زال مرهوب الحد ممثل الرسم موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم فائزا بفلج الخصام عند لدد الخصم معظم قدره وملتمزم بره المبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره وإظهار أمره فلان سلام كريم طيب بر عميم يخص مقامكم الأعلى ومثابنتكم الفضلى التي حازت في الفخر الأمد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ورحمة الله تعالى وبركاته

اما بعد حمد الله الذي فسح لملككم الرفيع في العز مدى وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوما وغدا وحرس سماء علائه بشهب من قدره وقضائه " فمن يستمع الآن يجد له شهابا

رصدنا " الجن : 9 " وجعل نجاح أعماله وحسن مآله قياساً مطرداً فرب مريد ضربه ضر نفسه وهاد إليه أهدي وماهدي ومولانا محمد نبيه ورسوله الذي ملأ الكون نورا وهدي وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قديداً أعلي الأنام يدا وأشرفهم محتداً الذي بجاهه نلبس أثواب السعادة جديداً ونظفر بالنعيم الذي لا ينقطع أبداً والرضى عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمداً وواضحوا من سبيل اتباعه مقصداً وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعاً وسجداً سيوفاً على من اعتدى ونجوماً لمن اهتدى حتى علت فروج ملته صعداً وأصبح بناؤها مديداً مخلداً والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتوالى مثني وموحداً كما جمع لملككم ما تفرق من الألقاب على توالى الأحقاب فجعل سيفكم سفاحاً وعلمكم منصوراً ورأيكم رشيداً وعزمكم مؤيداً فإننا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم صنعا يشرح للإسلام خلداً ونصراً يقيم للدين الحنيف أوداً وعزماً يملأ أفئدة الكفر كمداً وجعلكم ممن هياً له من أمره رشداً ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد في كتابه العزيز والله أصدق موعداً من حمراء غرناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم في آفاق العناية واعتقاد جميل صنع الله في البداية والنهاية والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بأية وأجرى جياذ السعد في ميدان لا يحد بغاية وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة والولاية ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفاً ويسدل عليه من العصمة سجفاً نقاسمه الارتياح لمواقع نعم الله تعالى نصفاً ونصفاً ونعقد بين أبناء مسرته وبين الشكر لله حلفاً ونعد التشيع له مما يقربنا إلى الله زلفى ونؤمل

من أمداده وترتقب من جهاده وقتاً يكفل به الدين ويكفى وتروى غلل النفوس وتشفى وإلى هذا وصل الله سعدكم ووالى نصركم وعضدكم فإننا من لدن صدر عن أخيكم أبي الفضل ماصد من الانقياد لخدع الآمال والاعتزاز بموارد الآك وقال رأيه في اقتحام الأهوال وتورط في هفوة حار فيها حيرة أهل الكلام في الأحوال وناصب من أمركم السعيد جبلاً قضى الله له بالاستقرار والاستقبال ومن ذا يزاحم الأطواد ويحزح الجبال وأخلف الظن منا في وفائه وأضر عملاً استأثر عنا بإخفائه واستعان من عدو الدين بمعين فلما يري لمن استنصر به زند ولا خفق لمن تولاه بالنصر بند وإن الطاغية اعانته وأنجده ورأى انه سهم على المسلمين سدده وعضب للفتنة جرده فسخر له الفلك وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك فأورده الهلك والظلم الحلك علمنا أن طرف سعادته كاب وسحاب آماله غير ذات انسكاب وقدم غرته لم يستقر من السداد في غرز ركاب فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط بنياتها وغايات الأمور تظهر في بداياتها وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لا تجهل ومن غالب أمر الله خاب منه المعول

فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقودة وخمود تلك الشعلة الموقودة وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار ويهدي طرف المسرات على أكف الاستبشار ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار عن الود الواضح وضوح النهار والتحقيق بخلوصنا الذي يعلمه عالم الأسرار فأعاد في الافادة وأبدى وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى فعلم منه مآل من رام أن يقدح زند الشتات من بعد الالتئام وبشير عجاجة المنازعة من بعد ركود القتام هيهات تلك فلادة الله تعالى التى ماكان يتركها بغير نظام ولم يدر

أنكم نصبتم له من الحزم حياله لا يفلتها قنيص وسددتم له من السعد سهما ما له عنه من محيص بما كان من ارسال جوارح الأسطول السعيد في مطاره حائلاً بينه وبين اوطاره فما كان إلا التسمية والإرسال ثم الإمساك والقتال ثم الاقتيات والاستعمال فيا له من زجر استنطق لسان الوجود فجذله واستنصر البحر فخذله وصارع القدر فجد له لما جد له وإن خدامكم استولوا على ماكان فيه من مؤمل غاية بعيدة ومنسب إلى نصبة غير سعيدة وشانىء غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار وتحصل منهم من تخطاه الحمام في قبضة الإسار فعجبنا من تيسير هذا المرام وإخاماد الله لهذا الضرام وقلنا تكييف لا يحصل في الأوهام وتبديد لا تستطيع إصابته السهام كلما فدح الخلاف زنداً أطفاً سعدكم شعلته أو أظهر الشتات ألماً أبرأ يمن طائرکم علته ماذاك إلا لنية صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وسحت وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلكم وتمت واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التى أهمت فجن نهنيكم بمنح الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من عنايته أوقى جننه فأملنا أن تطرد آمالكم وتنجح في مرضاة الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التى يدفع العدو بسلاحها وتنبج ظلمات صفاحها وكيف لا نهنيكم بصنع على جهتنا يعود وبأفاننا تطلع منه السعود فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكتفت وديمه بساحة الود قد وكفت والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ولا يعدمكم عناية وسعادة وهو سبحانه يعلى مقامكم وينصر أعلامكم ويهني الإسلام

أيامكم والسلام الكريم

يخصكم ورحمة الله وبركاته انتهى

وكان سلطان الأندلس في الأزمان المتأخرة كثيرا ما يشتم أرج الفرج في سلم الكفار ومهادنتهم حيث لم يقدر في الغالب على مقاومتهم ولذلك لما قتل السلطان أبو الحجاج الذي كان لسان الدين كاتبه ووزيره وقام بالأمر بعده ابنه محمد الغني بالله الذي ألقى مقاليد لسان الدين أكد أمر السلم وانتظر ما يبرمه القضاء الجزم والقدر الحتم

رسالة على لسان الغني إلى أبي عنان - 5

ومن إنشاء لسان الدين في ذلك على لسان الغني مخاطبا لسلطان فاس والمغرب أبي عنان ماصورته

المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ويهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضيء عند إطلام الخطوب بنور سعوده ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر يرثه الولد عن أبائه وحدوده مقام محل أبينا الذي رعي الأذمة شأنه وصلة الرعي سجية انفرد بها سلطانه ومواعيد النصر ينجزها زمانه والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيهما إسراره وإعلانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى محروسا من غير الأيام جنباه موصولة بالوقاية الإلهية أسبابه مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفا عنه من صرف القدر ما يعجز عن رده بوابه ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التي تدخرها لأولادها أولياؤه وأحبابه ويسطر في صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكارم الدين والدنيا أنوابه وتتكفل بنصر الاسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام كتائبه وكتابه معظم ما عظم من حقه السائر من إجلاله وشكر خلاله على لاجب طرقه المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفضه الأمير عبدالله محمد ابن أمير

المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر سلام كريم طيب بر عميم يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته

اما بعد حمد الله الذي لا راد لأمره ولا معارض لفعله مصرف الأمر بحكمته وقدرته وعدله الملك الحق الذي بيده ملك الأمر كله مقدر الآجال والأعمار فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يبرح عن محله جاعل الدنيا مناخ قلعة لا يغتبط العاقل بمائه ولا يظله وسبيل رحلة فما أكتب ظغنه من حله ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رسله الذي نعتصم بسببه الأقوى وتتمسك بحبله ونمد يد الافتقار إلى فضله ونجاهد في سبيله من كذب به أو حاد عن سبيله ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله والرضى عن آله وأحزابه وانصاره وأهله المستولين من ميدان الكمال على خصله والدعاء الأعلى بعز نصره ومضاء فصله فإننا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها وعصمه ترجع عنها سهام النوائب كلما فوقها الدهر ورمائها وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسمائها وعزا يزاحم اجرام الكواكب منتماها من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا ونفعا وألطافه تتعرفها وترا وشفعا ومقامكم الأبوي هو المستند الأقوى والمورد الذي ترده آمال الإسلام فتروى وتهوي إليه أفندتهم فتجد ما تهوى ومثابتم العدة التي تأسست مبانها على البر والتقوى

وإلى هذا وصل الله تعالى سعديكم وأبقى مجدكم فإننا لما نعلم من مساهمة مجدكم التي تفتضيها كرام الطباع وطباع الكرم وتدعو إليها ذمم الرعي ورعي الذمم نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه وإمتاع المسلمين ببقائه بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالشهادة التي ألبسه حلتها والشهادة التي في اعماله الزكية كتبها والدرجة العالية التي حتمها له وأوجبها وبما تصير إلينا من أمره وضم بنا من نشره وسدل على من

خلفه من ستره وإنها لعبرة لمن ألقى السمع وموعظة تهز الجمع وترسل الدمع وحادثة اجمل الله سبحانه فيها الدفع وشرح مجملها وإن أخرج لسان هولها وأسلم العبارة قوتها وحولها انه رضي الله تعالى عنه لما برز لإقامة سنة هذا العيد مستشعرا شعار كلمة التوحيد مظهرا سمة الخضوع للمولى الذي تضرع بين يديه رقاب العبيد آمننا بين قومه واهله متسريلنا في حلل نعم الله تعالى وفضله قير العين باكتمال عزه واجتماع شمله قد احترس بأقصى استطاعته واستظهر بخلصان طاعته والأجل المكتوب قد حضر والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته أتاه امر الله لميقاته على حين الشباب غض جلبابه والسلاح زاخر عبايه والدين بهذا القطر قد أبيع بالأمن جنباه وأمر من يقول للشيء كن فيكون قد بلغ كتابه ولم يرعه وقد اطمانت بذكر الله تعالى القلوب وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب إلا شقي قيضه الله لسعادته غير

معروف ولا منسوب وخبث لم يكن بمعتبر ولا محسوب تخلل الصفوف المعقودة وتجاوز الأبواب المسدودة وخاض الجموع المشهودة والأمم المحشورة إلى طاعة الله المحشودة لاندل العين عليه شارة ولا بزة ولا تحمل على الحذر من مثله انفة ولا عزة وإنما هو خبيث ممرور وكلب عقور وحية سمها وحي محذور وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور فلما طعنه وأثبتته وأعلق به شرك الحين فما أفلته قبض عليه من الخلصان الأولياء من خبر ضميره واحكم تقريره فلم يجب عند الاستفهام جوابا يعقل ولا عثر منه على شيء عنه ينقل لطفًا من الله أفاد براءة الذمم وتعاورته للحين أيدي التمزيق وأتبع شلوه بالتحريق واحتمل مولانا الوالد العزيز رحمه الله تعالى إلى القصر وبه ذماء لم يلبث بعد الفتكة العمرية إلا أيسر من اليسير وتخلف الملك ينظر من الطرف الحسير وينهض بالجناح الكسير وقد عاد جمع السلامة إلى التكسير إلا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بأن أقامنا مقامه لوقته وحينه ورفع بناء عماد ملكه ولم شعث دينه وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم واعلامهم ولغيفهم قد جمعه ذلك الميقات وحضر الأولياء الثقات فلم تختلف علينا كلمة ولا شذت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة ولا أخيف بري ولا حذر جري ولا فري فري ولا وقع لبس ولا استوحشت نفس ولا نبض للفتنة عرق ولا أغفل للدين حق فاستند النقل إلى نصه ولم يعدم من فقيدنا غير شخصه وبادرنا إلى مخاطبة البلاد نمهدا ونسكنها ونقرر الطاعة في النفوس ونمكنها وامرنا الناس بها بكف الأيدي ورفع التعدي والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقودة بما يجدي ومن شره منهم للفرار عاجلناه بالإنكار وصرفنا على النصارى ما اوصاه مصحبا بالاعتذار وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ما عنده في صلة السلم إلى أمدها من الأخبار واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار وعفى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار واستبقوا تطير بهم أجنحة الابتدار جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار وكان على حذر من تصاريح الأقدار واختلاف الليل والنهار وأعاننا على إقامة دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاعي والبحر الزخار وألهمنا من شكره لما يتكفل بالمزيد من نعمه ولا قطع عنا عوائد كرمه وإن فقدنا والدنا فانتم لنا من بعده الوالد والذخر الذي تكرم منه العوائد والحب يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت منها الشواهد ومن أعد مثلكم لبنيه فقد تيسرت من بعد الممات امانيه وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه فالاعتقاد الجميل موصول والفروع لها في التشيع إليكم أصول وفي تقرير فخركم محصول وانتم رداء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم بإرفاده وينصرهم بإنجاده ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده

وعندما استقر هذا الأمر الذي تبعت المحنة فيه المنحة وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحة واخذنا من اهل حضرنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم وتزاحمت على رفقها المنشور خطوط أيمانهم وتواصلت قواعد ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وأذانهم وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم بادرنا تعريف مقامكم الذي نعلم مساهمته فيما ساء وسر وأحلى وأمر عملا بمقتضى الخلوص الذي ثبت واستقر والحب الذي ما مال يوما ولا أزر وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السفور وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمور إلا أنه أمر له ما بعده وحادث يأخذ حده ونبعث إلى بابكم من شاهد الحال مابين وقوعها إلى استقرارها رأي العيان وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحسان ليكون أبلغ في البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان فوجهنا إليكم وزير أمرنا وكاتب سرنا الكذا أبا فلان وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى واستنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبنى مانرجو أن يكون له فيه المقام الأعنى والثمرة العذبة المجنى فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا وقامع أعدائنا أثرتنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ومدار الحال عليه والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالي والخلافة السامية المعالي والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالي ويحفظ مجدكم من غير الأيام والليالي وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويوالي نصركم وعضدكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته انتهى

وقوله في هذه الرسالة فوجهنا إليكم وزير أمرنا إلى آخره هو لسان الدين رحمه الله تعالى إذ هو كان الوزير إذ ذاك والسفير في هذه القضية ومن صفحات هذا الكلام يتضح لك مانال لسان الدين رحمه الله تعالى من الرياسة والجاه ونفوذ الكلمة بالأندلس وبالمغرب رحمه الله تعالى وقد أكرمه السلطان أبو عنان في هذه الوفاة وغيرها غاية الإكرام وكان المقصود الأعظم من هذه الوفاة استعانة سلطان الأندلس الغني بالله بالسلطان أبي عنان على طاغية النصارى كما ألمعنا بذلك في الباب الثاني من القسم الثاني الذي يتعلق بلسان الدين وكان لسلطان أبو عنان ابن السلطان

أبي الحسن معتنيا بالأندلس غاية الاعتناء وخصوصا بجبل الفتاح حتى إنه بلغ من اهتمامه به أن أمر عليه ولده أبا بكر السعيد وهو الذي تولى الملك بعده رسالة عن الغني إلى الأمير السعيد - 6

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى على لسان سلطانه ماخاطب به الأمير السعيد المذكور إذ قلده والده جبل الفتاح وهو

الإمارة التي أشرق في سماء الملك شهابها واتصلت بأسباب العز أسبابها واشتملت على الفضل والطهارة أنوابها وأجبلت قذاح المفاجر فكان إلى جهة الله تعالى انتدابها إمارة محل أخينا الذي تأسس على مرضاة الله تعالى أصيل فخره واتسم بالمرابط المجاهد على اقتبال سنه وحدة عمره وبدأ بفضل الجهاد صحيفة أجره وافتتح بالرباط والصلاح ديوان نهيه وامره لما يسره من سعادة نصيته وحياه من عز نصره الأمير الأجل الأعز الأرفع الأسنى الأطهر الأظهر الأوسع الأسمى الموفق الأرضى محل أخينا العزيز علينا المهداة أبناء مامل جواره إلينا أبي بكر السعيد ابن محل والدنا الذي مقاصده للإسلام واهله على مرضاة الله تعالى جارية وعزائمه على نصر الملة الحنيفة متبارية السلطان الكذا أبو عنان ابن السلطان الكذا أبي الحسن ابن السلطان الكذا أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبدالحق أبقاه الله تعالى سديده آراؤه ناجحة أعماله ميسرة أغراضه من فضل الله تعالى متممة أماله رحيبا في السعد مجاله يكنفه من الله تعالى ومحل أبينا غمام وارفة ظلالة هامر نواله حتى يرضي الله تعالى مصاعه بين يديه ومصاله وتمضي في الأعداء امام رايته المنصورة نضاله أخوه المسرور بقره المنطوي على مضمر حبه أمير المسلمين محمد ابن أمير المسلمين أبي للحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر سلام كريم طيب برعميم يخص أخوتكم الفضلى وإمارتكم التي آثار فضلها يحول الله تتلى ورحمة الله تعالى وبركاته

اما بعد حمد الله على ما كيف من أطفاه المشرقة الأنوار ويسره لهذه الأوطان بنصرته من الأوطار فكلما دجت بها شدة طلع الفرج عليها طلوع النهار وكلما اضطرب منها جانب أعاده بفضل الله تعالى من أقامه لذلك واختاره إلى حال السكون والقرار على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار الذي أكد عليه جبريل صلوات الله عليه حق الجوار حتى كاد يلحقه بالوسائل والقرب الكبار الذي وصانا بالالتزام واتصال اليد في نصره الإسلام فحن نقابل وصاته بالبدار ونجري على نهجه الواضح الآثار ونرتجي باتباعه الجمع بين سعادة هذه الدار وتلك الدار والرضى عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه أكرم الآل والأصحاب والأحزاب والأنصار الذين كانوا كما أخبر الله تعالى عنهم على لسان الصادق الأخبار رحماء بينهم أشداء على الكفار والدعاء لإمارتكم السعيدة السعيدية بالتوفيق الذي تجري به الأمور على حسب الاختيار والعز المنيع الذمار والسعد القويم المدار والوقاية التي يامن بها أهلها من السرار فإننا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم أسنى ما كتب للأمرء الأرضياء الأختيار ومتعكم من بقاء والدكم بالعدة العظمى والسيرة الرحمى والجلال الرفيع المقدار من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي أوضح برهانه إلا أطفاه باهرة وعناية من الله تعالى باطنة وظاهرة وبشارة بالقبول واردة وبالشكر صادرة والله تعالى يصل لدينا نعمه ويوالي فضله وكرمه

وإلى هذا فإننا اتصل بنا في هذه الأيام ماكان من عناية والدكم محل أبينا أبقاه الله تعالى بهذه البلاد المستندة إلى تأميل مجده وإقطاعها الغاية التي لا فوقها من حسن نظره وجميل قصده وتعيينكم إلى المقام بجبل الفتاح إبلاغا في اجتهاده الديني وجده فقلنا هذا خبر إن صدق مخبره وتحصل منتظره فهو فخر تجددت أثوابه واعتناء تفتحت أبوابه وعمل عند الله تعالى ثوابه فإن الأندلس عصمها الله تعالى وإن أنجدته عدده وأمواله ونجحت في نصرها مقاصده الكريمة وأعماله لا تدري موقع النظر لها من نفسه وزيادة يومه في العناية على أمسه حتى يسمح لها بولده ويخصها بفرقة عينه وقلدة كبده فلما ورد منه الخبر الذي راقت منه الخبر ووضحت من سعادته الغر بإجازتكم البحر واختياركم في حال الشبيبة الفخر وصدق مخيلة الدين فيكم واستقراركم في الثغر الشهير الذي افتتحه سيف جدكم واستنقذه سعد أبيكم سررنا بقرب المزار ودنو الدار وقابلنا صنع الله تعالى بالاستبشار ووثقنا وإن لم نزل على ثقة من عناية الله تعالى وعناية محل والدنا بهذه الأقطار وحمدنا الله تعالى على هذه الآلاء المشرقة والنعم المغدقة والصنائع المتألقة بادرنا نهني أخوتكم أولا بما يسره الله تعالى لكم من سلامة المجاز ثم بما منحكم الله تعالى من فضل الاختصاص بهذا الغرض والامتياز فإمارتكم الإمارة التي أخذت بأسباب السماء وربكت إلى الجهاد في سبيل الله تعالى جياذ الخيل والماء وأصبحت على حال الشبيبة شجا في حلوق الأعداء ونحن أحق بهذا الهناء ولكنها عادة الود وسنة الإخاء فالله عز وجل يجعله مقدما ميمون الطائر متهلل البشائر تهلل

بصنع الله بعده وجوه القبائل والعشائر ويجري خبر سعادتكم مجرى المثل السائر ويشكر محل والدنا فيما كان من اختياره ومزيد إيثاره ويجازيه جزاء من سمح في ذاته بمظنة ادخاره ومذ رأينا ان هذا الغرض لا يجتري فيه بالكتابة دون الاستنابة وجهنا لكم من يقوم بحقه ويجري من تقرير ما لدينا على أوضح طرفه وهو القائد الكذا ومجدكم يصغي لما يلقيه ويقابل بالقبول ما من ذلك يؤديه والله تعالى يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام انتهى

وكان الطاغية الملعون أيام السلطان أبي عنان رحمه الله تعالى نازل جبل الفتح ثم كفى الله تعالى شره في ذلك التاريخ

من أبي الحجاج إلى أبي عنان - 7

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب أبا عنان سلطان فاس والمغرب وذلك بما نصه

المقام الذي رمي له الملك الأصيل بأفلاذه وأدى منه الإسلام إلى ملجئه الأحمى وملاذه وكفلت السعود بامضاء أمره المطاع وإنفاذه وشأى حلبه الكرم فكان وحيد أحاده وفذ أفذاذه وابتدع غرائب الجود فقال لسان الوجود نعمت البدعة هذه مقام محل أختنا الذي أركان مجده راسية راسخة وغرر عزه بادية بأذخه وأعلام فخره سامية شامخة وآيات سعده محكمة ناسخة السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى يجري بسعده الفلك ويجلى بنور هديه الحلك ويسطر حسنات ملكه الملك ويشهد بفضل بأسه

ونداه النادي والمعترك معظم حقوقه التى تأكد فرضها المثني علي مكارمه التى أعي الأوصاف البليغة بعضها أمير المسلمين عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر سلام كريم طيب بر عميم يخص أخوتكم الفضلى ورحمة الله وبركاته

اما بعد حمد الله الذي هيا لملة الإسلام بمظاهرة ملككم المنصور الأعلام إظهارا وإعزازا وجعل لها العاقبة الحسنى ييمن مقامكم الأسنى تصديقا لدعوة الحق وإنجازا وسهل لها بسعدكم كل صعب المرام وقد سامتها صروف الأيام ليا وإعوازا وأتاح لها منكم ولها يسوم أعداءها استلاما وابتزازا ويسكن أمالها وقد استشعرت انحفازا حمدا يكون على حلل النعم العميمة والألاء الكريمة طرازا ومولانا محمد رسوله الذي بهرت آياته وضوحا وإعجازا واستحقت الكمال صفاته حقيقة لا مجازا ونبية الذي بين للخلق أحكام دينه الحق امتناعا وجوازا ويسر لهم وقد ضلوا في مفاوز الشك مغازا والرضى عن آله وأصحابه المستولين على ميادين فضائل الدنيا والدين اختصاصا بها وامتيازها فكانوا غيوثا إن وجدوا محلا وليوثا إن شهدوا برازا والدعاء لمقام أخوتكم الأسمى بنصر على أعدائه تبدي له الجياد الجرد ارتياحا والرماح الملد اهتزازا وعز يطا من أكناف البسيطة وأرجائها المحيطة سهلا وعزازا ويمن يشمل من بلاد الإيمان أقطارا نازحة ويعم أحوازا وسعد تجول في ميدان ذكره المذاع أطراف السنة اليراع إسهابا وإيجازا وفخر يجوب جيوب الأقطار جوب المثل السيار عراقا وحجازا ولا زالت كتائب سعده تنتهز فرص الدهر انتهازا وتوسع مملكات الكفر انتهابا واحتيازا فإنا كتبناه إلى مقامكم كتب الله تعالى لكم سعدا ثابت المراكز وعزا لا تلين قناته في يد الغامز وثناء لا يثني عنان سراه عرض المفاوز وصنعا رحيب الجوانب

رغيب الحوائز من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وفضله عز وجل قد أدال العسر يسرا واحال القبض بسطا وقرب نوازع الآمال بعد أن تناءت ديارها شحطا وراض مركب الدهر الذي كان لا يلين لمن استمطى وقرب غريم الرجاء في هذه الأرجاء وكان مشتطا والتوكل عليه سبحانه وتعالى قد أحكم منه اليقين والاستبصار المبين ربطا ومشروط المزيد من نعمه قد لزم من الشكر شرطا ومقامكم هو عدة الإسلام إذا جد حفاظه وظله الظليل إذا لفح للكفر شواظه وملجؤه الذي تنام في كنف امنه أيقاظه ووزره الذي إلى نصره تمد أيديه وتشير أخطاه ففي أرجاء ثنائه تسرح معانيه وألفاظه ولخطب تمجيده وتحميده يقول قسه وتحتفل عكاظه وتشيعنا إلى ذلك الجناب الكريم طويل عريض ومقدمات ودنا إياه لا يعترضها نقيض وأفلاك تعظيمنا له ليس لأوجها الرفيع حضيض وانوار اعتقادنا الجميل فيه يشف سواد الحبر على أوجها البيض

وإلى هذا ألبسكم الله تعالى ثوب السعادة المعادة فضفاضا كما صرف ببركة إياتكم الكريمة على ربوع الإسلام وجوه الليالي والأيام وقد ازورت إعراضا وبسطت أمالها وقد استشعرت انقباضا فإنا ورد علينا كتابكم الذي كرم أنحاء وأغراضا وجالت البلاغة من طرسه الفصيح المقال رياض ووردت الأفكار من معانيه الغرائب وألفاظه المزربة بدرر النحور والتراثب بحورا صافية وحياضا فاجتلتنا منه حلة من حلل الود سابغة وحجة من حجج المجد بالغة وشمسا في فلك السعد بازغة الذي بين المقاصد الكريمة وشرحها وجلا الفضائل العميمة وأوضحها فما أكرم شيم ذلك الجلال وأسمحها

وأفضل خلال ذلك الكمال وأرجحها ختم فيه على إحكام السلم التي تحوط النفس والحريم بسياج ويداوى القطر العليل منها بأنجع علاج والحال ذات احتياج وساحة الجبل عصمه الله تعالى ميدان هياج ومتمبواً أعلاج ومظنة اختلاف الظنون الموحشة واختلاج فحضر لدينا محتمله وزيركم الشيخ الأجل الأعظم الموقر الأسمى الخاصة الأحظى أبو علي ابن الشيخ الوزير الأجل الحافل الفاضل المجاهد الكامل أبي عبدالله ابن محلي والشيخ الفقيه الأستاذ الأعرف الفاضل الكامل أبو عبدالله ابن الشيخ الفقيه الأجل العارف الفاضل الصالح المبارك المبرور المرحوم أبي عبدالله الغشتالي وصل الله سبحانه سعادتتهما وحرس مجادتهما حالين من مراتب ترفيعنا أعلى محل الإعزاز وواردين على أحلى القبول الذي لا تشاب حقيقته بالمجاز عملاً بما يجب علينا لمن يصل إلينا من تلك الأنحاء الكريمة والأحواز فتلقينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الود الذي كرم مفهومنا ونصا والبر الذي ذهب من مذاهب الفضل والكمال الأمد الأقصى وقد كان سبقهما صنع الله جل جلاله بما أخلف الظنون وشرح الصدور وأقر العيون فلم يصلنا إلينا إلا وقد أهلك الله تعالى الطاغية ومزق أحزابه الباغية نعمة منه سبحانه وتعالى ومنة ملأت الصدور انشراحاً وعمت الأرجاء أفراحاً وعنواناً على سعد مقامكم الذي راق غرراً في المكرمات وأوضاحاً ومد يده إلى سهام المواهب الإلهية فحاز أعلاها قدحاً فتشوقت نفوس المسلمين إلى ما كانت تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه وبدت في القضية التي أشرتكم بأعمالها الوجوه وانبعثت الآمال بما آلت إليه هذه الحال انبعثاً والتاثت أمور العدو قصمه الله تعالى النيات وانتفض غزله من بعد قوته بفضل الله تعالى انكاثاً واحتملت المسألة التي تفضلتم بعرضها وأشترتم إلى فرضها مأخذاً وأبحاثاً فألقينا في هذه الحال إلى رسولكم أعزهما الله تعالى ما يلقبانه إلى مقامكم الأعلى ومثابكم الفضلى وما يتزيد عندنا من الأمور فركائب التعريف بها إليكم محدثة وجزئياتها بين يدي مقامكم الرفيع ماثثة وقد اضطربت أحوال الكفر وقالت آراؤه واستحكمت بالشتات داؤه وارتجت بزلال الفتن أرجاؤه وتيسرت آمال الإسلام بفضل الله تعالى ورجاؤه وما هو إلا السعد يذل لكم صعب العدو وبروضه والله سبحانه يهيبكم لكم فضل الجهاد حتى تقضى بكم فروضه

وأما الذي لكم عندنا من الخلوص الصافية شرائعه والثناء الذي هو الروض تأرج ذائعه فأوضح من فلق الصبح إذا أشرقت طلائعه جعله الله تعالى في ذاته ووسيلة إلى مرضاته ورسولكم بشرحان لكم الحال بجزئياته وبقران ما عندنا من الود الذي سطع نور آياته وهو سبحانه وتعالى يصل لكم سعدا سامي المراتب والمراقبي ويجمع لكم بعد بعد المدى وتمهيد دين الهدى بين نعيم الدنيا والنعيم الباقي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى

رسالة عن يوسف النصري - 8

وأبين من هذا في القضية كتاب آخر من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى صورته من أمير المسلمين عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر إلى محل أخينا الذي نشني على مجادته أكرم الثناء ونجدد له ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء ونتحفه من سعادة الإسلام واهله بالأخبار السارة والأنباء السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن الأنوار كفيل بالحسنى وعقبى الدار سلام كريم بر عميم يخص جلالكم الأرفع ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله على عميم آلائه وجزيل نعمائه ميسر الصعب بعد إبانته والكفيل بتقريب الفرج وإدنائته له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه الهادي إلى سبيل الرشده وسوائه مطلع نور الحق يجلو ظلم الشك بضياته والرضى عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه وخلفائه السائرين في الدنيا والآخرة تحت لوائه الباذلين نفوسهم في إظهار دينه القويم وإعلائته والدعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه ورجائه واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتنائه فإننا كتبناه إليكم كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قوله وعمله من أوليائه وعرفكم عوارف السعادة المعادة في نهاية كل امر وابتدائه من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذي أوضح برهانه وعظم أمره ورفع شأنه ثم بما عندنا من الود الكريم وتجديد العهد القديم لمقامكم اعلى الله تعالى سلطانه إلا الخير الهامي السحاب واليسر المتين الأسباب واليمن المفتاح الأبواب والسعد الجديد الأثواب ومقامكم معتمد بترفيح الجناب متعهد بالود الخالص والاعتقاد اللباب معلوم له من فضل الدين وأصالة الأحساب

وإلى هذا وصل الله تعالى سعديكم مديد الأطناب ثاقب الشهاب وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرة النقب فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحال إليه بطاغية قشتالة الذي كلب على هذه الأقطار الغربية

من وراء البحار وما سامها من الإرهاق والأضرار وأنه جري في ميدان الأملاء والاعتزاز ومحض المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار وأنه نكت العهد الذي عقده وحل الميثاق الذي أكده وحمله الطمع الفاضح على أن أجلب على بلاد المسلمين بخيله ورجله ودهمها بتيار سيله وقطع ليله وأمل أن يستولي على جبل الفتح الذي يدعي منه فتحها وطلع للملة المحمدية صباحها فضيقه حصارا وأخذها دارا وعندما عظم الإشفاق وأظلمت الأفاق ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصنع العجيب ونزل الفرج القريب وقبل الدعاء السميع المجيب وطرق الطاغية جند من جنود الله تعالى أخذة أخذة رابية ولم يبق له من باقية فهلك على الجبل حتف أنفه وغالته غوائل حتفه ففترقت جموعه وأحزابه وانقطعت أسبابه وتعجل لنار الله تعالى مآبه وأصبحت البلاد مستبشرة ورحمة الله منتشرة ورأينا ان هذه البشارة التي يأخذ منها كل مسلم بالنصيب الموفور وبشارك فيما جلبته من السرور انتم اولى من نتحفه بطيب رباها ونطلع عليه جميل محباها لما تقرر عندنا من دينكم المتين وفضلكم المبين وعملكم من المساهمة على شاكلة صالحى السلاطين فما ذلك إلا فضل نيتكم للمسلمين في هذه البلاد وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد وقد ورد رسولنا إليكم القائد أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح أعزه الله تعالى مقررًا ما لديكم من الود الراسخ القواعد والخلوص الصافي الموارد الواضح الشواهد وأثنى على مكارمكم الأصيلة وألقى ما عندكم من المذاهب الجميلة فقابلنا ذلك بالشكر الذي يتصل سببه ويتضح مذهبه وسألنا الله أن يجعله ودا في ذاته ووسيلة إلى مرضاته وتعرفنا ما كان من تفضلكم بالطريفة المفتوحة المؤخر وما صدر عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بالمرية من قبح محاولته وسوء معاملته فامرنا بقطع جرابته وثقافه بمطمورة القصبة جزاء لجنايته ولولا أننا توقفنا ان يكون عظيم عقابه مما لايقع من مقامكم بوفقه لمشهور عفافه ورفقه لجعلناه نكالا لأمثاله وعبرة لأشكاله وقد وجهنا جفنا سفريا لإيساق الخيل التي ذكرتم وإيصال ما إليه من ذلك أشترتم ويكمل القصد إن شاء الله تعالى تحت لحظ اعتنائكم وفضل ولانكم هذا ما تزيد عندنا عرفناكم به عملا على شاكلة الود الجميل والولاء الكريم الجملة والتفصيل فعرفونا بما يتزيد عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة ومكارمكم الحافلة والله تعالى يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى رسالة في حاجة الأندلس إلى بر العدو - 9

ومن إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بالأندلس وانقطاعها وأنها لا غنى لها عن العدو وغير ذلك ما صورته

المقام الذي بنور سعادته تنجلي الغماء وتتصل النعماء من نيته قد حصل منها لجانب الله تعالى الانتماء واتفقت منها المسميات والأسماء مقام محل أبين الذي تنفياً هذه الجزيرة الغربية أفياء نيته الصالحة وعمله وثيق بحسن العاقبة اعتمادا على وعد الله تعالى المنزل على خيرة رسله وتحتني ثمار النجاح من أفنان آرائه المتألفة تألق الصبح حالي ربه وعجله وتتعرف حالي المودود والمكروه عارفة الخير والخيرة من قبله أبقاه الله تعالى يحسم الأدواء كلما استشرت ويحلي موارد العافية كلما امرت ويعفي على آثار الأطماع الكاذبة مهما خدعت بخلبها وغرت ويضمن سعده عودة الأمور إلى أفضل ما عليه استقرت معظم مقامه الذي هو بالتعظيم حقيق وموقر ملكه الذي لا يلتبس منه في الفخر والعز طريق ولا يختلف في فضله العميم ومجده الكريم فريق

اما بعد حمد الله المثيب المعاقب الكفيل لأهل التقوى بحسن العواقب المشيد بالعمل الصالح إلى أرفع المراقي والمراقب يهدي من يشاء ويضل من يشاء فبقضائه وقدره اختلاف المسالك والمذاهب رسولنا الحاشر العاقب ونبيه الكريم الرؤوف الرحيم ذي المفاخر السامية والمناقب والرضى عن آله وأصحابه وانصاره وأحزابه الذين ظاهروه في حياته بإعمال السمر العوالي والبيض القواضب وخلفوه في امته بخلوص الضمائر عند شوب الشوائب فكانوا في سماء ملته كالنجوم الثواقب والدعاء لمقامكم الأسمى بالسعادة المعادة في الشاهد من الزمن والغائب والنصر الذي يقضي بعز الكتائب والصنع الذي تطلع من ثناياه غرر الصنائع العجائب من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من الاعتداد بمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه وشمل بالتمهيد اوطانه إلا تشيع ثابت ويزيد وإخلاص ماعليه في ميدان الاستطاعة مزيد وتعظيم أشرف منه جيد وثناء راق فوق رياضة تحميد وتمجيد

وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم وحرس الطاهر الكريم مجدكم فقد وصلنا كتابكم الذي هو على الخلوص والاعتقاد عنوان وفي الاحتجاج علي الرضى والقبول برهان تنطق بالفضل فصوله وتشير إلى كرم العقد فروعه الزكية وأصوله ويحق أن ينسب إلى ذلك الفخر الأصيل محصوله عرفتمونا بما ذهب إليه عيسى بن الحسين من الخلاف الذي ارتكبه وسبيل

الصواب الذي انتكبه وتنبهون على ما حده الحق في مثل ذلك وأوجه حتى لا يصل أحد من جهتنا سببه ولا يظاخره مهما ندبه ولا يسعف في الإيواء طلبه فاستوفينا ما استدعاه ذلك البيان الصريح وجلبه وخطه القلم الفصيح وكتبه وليعلم مقامكم وهو من أصالة النظر غني عن الإعلام ولكن لا بد من الاستراحة بالكلام والتنفس بنفثات الأقلام أننا إنما نجري أمورنا مع هذا العدو الكافر الذي رمينا بجواره وبلينا والحمد لله بمصادمة تياره على تعداد أقطاره واتساع براريه ويجاره بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق وأسواق النفاق غير ذات اتفاق والجماهير تحت عهد الله تعالى وميثاق فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد ووقع بينهما في قبول الطاعة رد ساءنا واقعه وعظمت لدينا مواقعه وسألنا أن يتدارك الخرق راقعه لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا وتفرغ العدو إلى ضرنا فكيف إذا وقعت الفتنة في صقعنا وفطرننا إنما هي شعلة في بعض بيوتنا وقعت وحادثة إلى جهتنا أشرعت وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها وعلى وطننا يعود جناها فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها وأسعى في اصلاح فسادها والمثابرة على كفها واستئسادها وما الظن بدار فسد بابها وأمال رثت أسبابها وجزيرة لا تستقيم أحوال من بها إلا بالسكون وسلم العدو المغرور المفتون حتى تقضى منه بإعانتكم الديون وإن اضطرابها إنما هو داء نستنصر من رأيكم فيه بطبيب وهدف خطب نزميه من عزمكم بسهم مصيب وأمر نضرع في تداركه إلى سميع للدعاء مجيب ونحن فيه يد أمام يدكم ومقصدنا فيه تبع لقصدكم وتصرفنا على حد إشارتكم جار وعزمنا إلى منتهى مرضاتكم متبار وعقدنا في مشايعة أمركم غير متوار وقد كنا لأول اتصال هذا الخبر القبيح العين والأثر بادرنا تعريفكم بجميع ما اتصل بنا في شأنه ولم نطو عنكم شيئاً من إسراره ولا إعلانه وبعثنا رسولنا إلى بابكم العلي نعتد بسلطانه ونرتجي تمهيد هذا الوطن بتمهيد أوطانه وبادرنا بالمخاطبة من وجبت مخاطبته من أهل مريلة وأسطبونة نثبت بصائرهم في الطاعة ونقوبها ونعدهم بتوجيه من يحفظ جهاتهم ويحميها وعجلنا إلى بعضها مددا من الرماة والسلاح ليكون ذلك عدة فيها وعلمنا ما أوجب الله تعالى من الأعمال التي يزلف بها ويرتضيها وكيف لا نظاهر أمركم الذي هو العدة المذخورة والفئة الناصرة المنصورة والباطل سراب يخدع والحق إليه يرجع والبعي يردى ويصرع وكم تقدم في الدهر منتز شذ عن الطاعة وخرج عن الجماعة ومخالف على الدول في العصور الأول بهرج الحق زائفه ورجمت شهب الأسنة طائفه وأخذت عليه الضيقة وهاده وتنائفه فتقلص ظله ونبا به محله وكما قال يذهب الباطل وأهله لا سيما وسعادة ملككم قد وطأت المسالك ومهدتها وقهرت الأعداء وتعبدتها وأطفأت جداول سيوفكم النار التي أوقدتها وكان بالأمر إذا أعملتم فيها رأيكم السيد وقد عادت إلى خير أحوالها والبلاد بيمن تدبيركم قد شفى ما ظهر من اعتلالها وعلى كل حال فإنما نحن على تكميل مرضاتكم مبادرون وفي أعراضكم الدينية واردة وصادرون ولإشارتكم التي تتضمن الخير والخيرة منتظرون عندنا من ذلك عقائد لا يحتمل نصها التأويل ولا يقبل صحيحها التعليل فلنكن أبوتكم من ذلك على أوضح سبيل فشمس النهار لا تحتاج إلى دليل واله تعالى يسني لكم عوائد الصنع الجميل حتى لا يدع عزمكم

مغصوبا إلا رده ولا ثلما في ثغر الدين إلا سده ولا هدفا متعاصيا إلا هده ولا عرقا من الخلاف إلا جده وهو سبحانه يبقي ملككم ويصل سعده ويعلي أمره ويحرس مجده والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته انتهى

رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا - 10

ومن إنشائه رحمه الله تعالى من جملة رسالة على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب الرعايا ما نص محل الحاجة منه وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذي جرى في ميدان الأمل جري الجموح ودارت عليه خمرة النخوة والخيلاء مع الغبوق والصبح حتى طمح بسكر اغتراره ومحض المسلمون على يده بالوقائع التي تجاوز منتهى مقداره وتوجهت إلى استئصال الكلمة مطامع أفكاره ووثق بانه يطفىء نور الله بناره ونازل جبل الفتح فشد مخنق حصاره وأدار أشياعه في البر والبحر دور السوار على أسواره وانتهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانهبام الأبواب والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مالوف الحساب وتكالب التثليل على التوحيد وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد المنقطع بين الأمة الكافرة والبحور الزاخرة والمرام البعيد وإنما صابرنا بالله تعالى تيار سيله واستنضانا بنور التوكل عليه في جنح هذا الخطب ودجنة ليله ولجاناً إلى من بيده نواصي الخلائق واعتقلنا من حبله المتين باوثق العلائق وفسحنا مجال الأمل في ذلك الميدان المتضايق واخلصنا لله مقيل العثار ومؤوي أولي الاضطراب قلوبنا ورفعنا إليه أمرنا ووقفنا عليه

مطلوبنا ولم نقصر مع ذلك في ابرام العزم واستشعار الحزم وإمداد الثغور بأقصى الإمكان وبعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاد على الأحيان فرحم الله تعالى انقطاعنا إلى كرمه والتجاءنا إلى حرمه فجلى بفضله

سبحانه ظلم الشدة ومد على الحريم والأطفال ظلال رحمته الممتدة وعرفنا عوارف الصنع الذي قدم به العهد على طول المدة ورماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيجاف الركاب واحتشاد الأحزاب وأظهر فينا قدرة ملكه عند إنقطاع الأسباب واستخلاص العباد والبلاد من بين الظفر والنايب فقد كان جعجج على الحق بأباطيله وسد المجاز بأساطيله ورمى الجزيرة الأندلسية بشؤبوب شره وصيرها فريسة بين غريان بحرهِ وعقبات بره فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرقبة إلا على الخطر الشديد والإفلات من يد العدو العنيد مع توفر العزائم والحمد لله على العمل الحميد والسعي فيما يعود على الدين بالتأييد

وبينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم وتقعّد وكلب الأعداء عليه يبرق ويرعد واليأس والرجاء خصمان هذا يقرب وهذا يبعد إذ طلع علينا البشير بانفراج الأزمة وحل تلك العزمة وموت شاه تلك الوقعة وإبقاء الله تعالى على تلك البقعة وأنه سبحانه أخذ الطاغية أكمل ما كان اغترارا وأعظم أنصارا وزلزل أرض عزه وقد أصابت قرارا وأن شهاب سعه قد أصبح أفلا وعلم كبره انقلب سافلا وأن من بيده ملكوت السموات والأرض طرقه بحتفه وأهلكه برغم أنفه وأن محلته عاجلها التبار والتبار وعاثت في منازلها النار وتمخض عن سوء عاقبتها الليل والنهار وان حمايتها يخربون بيوتهم بأيديهم وينادي يشنات الشمال لسان مناديهم وتلاحق الفرسان من جبل الفتح المعقل الذي عليه من عناية الله تعالى رواق مضروب والرباط الذي من حاربه فهو المحروب فأخبرت بانفراج الضيق وارتفاع العائق لها عن الطريق وبرء الداء الذي أشرق بالريق وأن النصارى دمرها الله تعالى جدت في ارتحالها وأسرعت بجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها وحالها وسمحت للنار والنهب بأسلابها وأموالها فبهرنا هذا الصنع الإلهي الذي مهد الأفطار بعد رجفانها وانام العيون بعد سهاد أجفانها وسألنا الله تعالى أن يعيننا على

شكر هذه النعمة التي إن سلطت عليها قوى البشر فضحتها ورجحتها ورأينا سر اللطائف الخفية كيف سربرانه في الوجود وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية والجود وقلنا إنما هو الفتح الأول شفع بنان وقواعد الدين الحنيف أيدت من صنع الله تعالى بنيان اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة ومنك الوافرة إنك ولينا في الدنيا والآخرة انتهى

رسالة توضح ضيق حال الأندلس - 11

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى مما يتعلق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته

وإن تشوفتم إلى أحوال هذا القطر ومن به من المسلمين بمقتضى الدين المتين والفضل المبين فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تيارا ونكابر بحرا زخارا ونتوقع إلا إن وقى الله تعالى خطوبا كبارا ونمد اليد إلى الله تعالى انتصارا ونلجأ إليه اضطرارا ونستمد دعاء المسلمين بكل فطر استعدادا به واستظهارا ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارا وينشئ ربح روح الله طيبة معطارا فإن القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع ومخالفتها لا تستطيع رمى هذه الأمة الغربية المنقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها ولا يحصى فريقها التفت على أخي صاحب قشنتالة وعزمها أن تملكه بدله وتبلغه أمله ويكون الكل يدا واحدة على المسلمين ومناصبه هذا الدين واستئصال شأفة المؤمنين وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد ولا عرفها نجد ولا همد وقد اقتحموا الحدود الغربية والله تعالى ولي هذه الأمة الغربية وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يقوي الضعيف ويدراً الخطب المخيف ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم " الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " آل عمران 173 وهو سبحانه المرجو في حسن العقبي والمآل ونصر فئة الهدي على فئة الضلال وما قل من كان الحق كنهه ولا ذل من استمد من الله عزه " قل هل تريبون بنا إلا إحدى الحسنين - الآية " التوبة 52 ودعاء من قبلكم من المسلمين مدد موفور والله سبحانه على كل حال محمود مشكور انتهى

من رسالة طويلة - 12

ومن أخرى طويلة من جملتها ما صورته

وقد اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام ورعي الجوار والذمام وما جعل الله تعالى للماموم على الإمام وإيقاظكم من مراقدم المستغرقة وجمع أهوائكم المتفرقة وتهيئكم إلى مصادمة الشدائد المرعدة المبرقة وهو أن كبير دين النصرانية الذي إليه ينقادون وفي مرضاته يصادقون ويعادون وعند

رؤية صليبه يكبرون ويسجدون لما رأى الفتن قد اكلتهم خضما وقضما وأوسعتهم هضما فلم تبق عصيا ولا عظما ونثرت ماكان نظما أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق ويرفع ما طرق ويرفو ما مزق الشتات وخرق فرمى الإسلام بامة عددها القطر الممثال وأمرهم وشأنهم الامتثال أن يدمثوا لمن ارتضاه من امته الطاعة ويجمعوا في ملته الجماعة ويطلع الكل على هذه الفئة القليلة الغربية بغتة كقيام الساعة وأقطعهم قطع الله تعالى بهم العباد والبلاد والطارف والتلاد وسوغهم الحريم والأولاد وبالله تعالى نستدفع ما لا نطيعه ومنه نسأل عادة الفرج فما سدت طريقه إلا أنا رأينا غفلة الناس مؤذنة البوار وأشفقنا للدين المنقطع من وراء البحار وقد أصبح مضغة في لهوات الكفار وأردنا أن نهزكم بالموعظة التى تكحل البصائر بميل الاستبصار فإن جبر اله تعالى الخواطر بالضراعة إليه والانكسار ونسخ الإعسار بالإيسار وأنجد اليمين بأختها اليسار وإلا فقد تعين في الدنيا والآخرة حظ الحسار فإن من ظهر عليه عدو دين الله تعالى وهو من الله مصروف وبالباطل مشغوف وبغير العرف معروف وعلى الحطام المسلوب عنه ملهوف فقد تله الشيطان للجبين وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ومن نفذ فيه أو له قدر الله عن أداء الواجب وبذل المجهود وأفرد بالعبودية وجه الواحد الأحد المعبود ووطن النفس على الشهادة المبوثة دار الخلود العائدة بالحياة الدائمة والوجود أو الظهور على عدوه المحشور إليه المحشود صبرا على المقام المحمود وبيعا من الله تعالى تكون الملائكة فيه الشهود حتى تعين يد الله في ذلك البناء المهود والسواد الأعظم الممدود كان على أمره بالخيار المردود " قل هل تریصون بنا إلا إحدى الحسنين - الآية " انتهى

ضیاع المدن الأندلسية

وقال صاحب مناهج الفكر بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها ما صورته ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق إلى أن طما بمترفيها سبل العناد والنفاق فامتاز كل رئيس منهم بصفع كان مسقط راسه وجعله معقلا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ويحاربه في عقر داره إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ويرواح معاقلم بالعبث ويغادي حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة كان ذلك في الكتاب مسطورا وقدرنا في سابق علم الله مقدورا انتهى وهذا قاله قبل أن يستولي العدو على جميعها والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين حذف

478- طليطلة

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أخذ النصارى قواعد الأندلس فنقول قد قدمنا أوائل هذا الباب ان طليطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار من المدن العظام بالأندلس قال ابن بسام لما توالى على اهل طليطلة الفتن المظلمة والحوادث المصطلمة وترادف عليهم البلاء والجلء واستباح الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم وأرواحهم كان من أعجب ماجرى من النوادر الدالة على الخذلان ان الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من اكلها فلما كانت السنة التى استولى عليها العدو فيها لم ترفع الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد فعلم الناس أن ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر اراده من شمول البلوى وعموم الضراء فاستولى العدو على طليطلة وأنزل من بها على حكمه وخرج ابن ذي النون منها على أفتح صورة وأفطع سيرة ورأه الناس ويده إصطربلاب يأخذ به وقتنا يرحل فيه فتعجب منه المسلمون وضحك عليه الكافرون ويسط الكافر العدل على أهل المدينة وحب التنصر إلى عامة طغامها فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حملة وشرع في تغيير الجامع كنيسة فى ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعمائه

ومما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي رحمه الله تعالى صار إلى الجامع وصلى فيه وأمر مريدا له بالقراءة ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى وتكاثروا لتغيير القبلة فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته وعصمه الله تعالى منهم إلى أن أكمل القراءة وسجد سجدة ورفع رأسه ويكى على الجامع بكاء شديدا وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه وقيل لملك النصارى يبنغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك فقال حتى نأخذ قرطبتهم واعد لذلك ناقوسا تأنق فيه وفيما رصع به من الجواهر فأكذبه الله وأزعجه وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين وإرغام الكافرين واستدراك أمور المسلمين انتهى ملخصا وقد مر مطولا

وكانت قبلها وقعة بطرنة سنة ست وخمسين وأربعمائة وذلك أن الفرنج خذلهم الله تعالى انتدبت منهم قطعة كثيفة ونزلت على بلنسية في السنة المذكورة وأهلها جاهلون بالحرب مغترون بأمر الطعن والضرب مقبلون على اللذات من الأكل والشرب وأظهر الفرنج الندم على منازلها والضعف عن مقاومة من فيها وخذعوهم بذلك فانخدعوا وأطمعوهم فطمعوا وكمنوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان وخرج أهل البلد بثياب زينتهم وخرج معهم أميرهم عبدالعزيز بن أبي عامر فاستدرجهم العدو لعنهم الله تعالى ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر وما نجا منهم إلا من حصنه أحله وخلص الأمير نفسه ومما حفظ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر " خليلي ليس الرأي في صدر واحد ... أشيرا علي اليوم ما تريان " وفي أهل بلنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة والترفة " لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ... حلل الحرير عليكم ألوانا " " ماكان أقبحهم وأحسنكم بها ... لو لم يكن ببطرنة ماكانا "

قال ابن بسام وهكذا جرى لأهل طليطلة فإن العدو خذله الله تعالى استظهر عليهم وقتل جماهيرهم وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم في ثياب الترفة ألف غفارة خارجا عما سواها

بريشتر

وقال ابن حيان وكان تغلب العدو خذله الله تعالى على بريشتر قصبة بلد برطانية وهي تقرب من سرقسطة سنة ست وخمسين وأربعمائة وذلك أن جيش الأردمليس نازلها وحاصرها وقصر يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها ووكل أهلها إلى نفوسهم فأقام العدو عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوات لقلته واتصل ذلك بالعدو فشد القتال عليها والحصار لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سرب موزون انهارت وفسدت ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدو الأمان فلما خرجوا نكت بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه وهو قائد خيل رومة نحو ألف وخمسمائة جارية أباكارا ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة جمل وقدر من قتل وأسر بمائة ألف نفس وقيل خمسون ألف نفس ومن نوادر ماجرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها فيقول لها أعطيني ما معك فتعطيها ما معها من كسوة وحلي وغيره

قال وكان السبب في قتلهم أنه خاف من يصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع في القتل لعنه الله تعالى حتى قتل منهم نيفا وستة آلاف قتيل ثم نادى الملك بتأمين من بقي وأمر أن يخرجوا فزادحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم ونزلوا من الأسوار في الجبال للخشية من الأزدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء وكان قد تحيز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان وأرهقوا وأزعجوا فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الأفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك وأخذ كل واحد دارا بمن فيها من أهلها نعوذ بالله تعالى وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال وتحصنوا بمواقع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صور الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله قال وكان الفرنج لعنهم الله تعالى لما استولوا على أهل المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بعين زوجها وأهلها وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهن خوله وغلمانه يعيئون فيهن عيثة وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأباكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم

الحسان الوفا عدة حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه وترك من رابطة خيله ببريشتتر ألفا وخمسائة ومن الرجالة ألفين انتهى

قال ابن حيان واختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب اولي الألباب بنادرة منها يكتفى باعتبارها عما سواها وهي أن بعض تجار اليهود جاء بريشتتر بعد الحادثة ملتتمسا فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها حصلن في سهم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه قال فهديت إلى منزله فيها واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما تخلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئا من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعات في خدمته فرحب بي وسألني عن قصدي فعرفته وجهه وأشرت الى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي فتبسم وقال بلسانه ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك أعرض عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سببي وأسراي أقاربك فيمن شئت منهن فقلت له اما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه وبغربك أنست وفي كنفك اطمأنت فسممني ببعض من هنا فإني أصير إلى رغبتك فقال وما عندك قلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كأنك تشميني ما ليس عندي يامجة ينادي بعض اولئك الوصائف يريد يا بهجة فغيره بعجمته قومي فأعرضي عليه ما في الصندوق فقامت إليه وأقبلت بيد الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلوى فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصه ثم قال لها أدني إلينا من تلك التخوت فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر مما حار له ناظري وبهت واستردلت ما عندي ثم قال لي لقد كثر هذا عندي حتى ما أذ به ثم حلف بإلهه انه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ما سخت بها يدي فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم وقد رد لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وازيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار إلى جارية اخرى قائمة الى ناحية أخرى مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته إلى أن أيقظناه من نوماته يافلانة يناديها بلكنته خذي عودك تغني زائرنا بشجوك قال فأخذت العود وقعدت تسويه واني لأأمل دمعا يقطر علي خدها فتسارق العلج مسحه واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العلج فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه وأظهر الطرب منه فلما يتست مما عنده قمت منطلقا عنه وارتدت لتجارتي سواه واطلعت لكثرة مالدي القوم من السبي والمغمم على ما طال عجبني به فهذا فيه مقنع لمن تدبره وتذكر لمن تذكره

قال ابن حيان قد أشفينا بشرح هذه الحادثة الفادحة مصائب جلييلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من أثاره ولا شك عند ذوي الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة انتهى ببعض اختصار

وذكر بعده كلاما في ذم اهل ذلك الزمان من أهل الأندلس وانهم يعللون أنفسهم بالباطل وان من أول الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية نبيهم وغفلتهم عن سد ثغورهم حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يجوس من خلال ديارهم ويستقري بسائط بقاعهم ويقطع كل يوم طرفا وبيد أمة ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم لهاة عن بنهم ما إن سمع عندنا بمسجد من مساجدنا او محفل من محافلنا مذكر لهم او داع فضلا عن نافر إليهم أو ماش لهم حتى كأنهم ليسوا منا او كأن بثقهم ليس بمفض إلينا وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء عجائب فاتت التقدير وعرضت للتغيير والله عاقبة الأمور وإليه المصير

ولقد صدق رحمه الله تعالى فإن البثق سرى إليهم جميعا كما ستراه ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال قبله إن بريشتتر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس فرسخ فيها الإيمان وتدورس القرآن إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام فصك الأسماع وأطار الأفتدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة وصير لكل شغلا يشغل الناس في التحدث به والتساؤل عنه والتصور لحلول مثله أياما لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل والاعتترار بالأمل والاستناد إلى امرأة الفرقة الهمل الذين هم منهم ما بين فشل ووكل يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم وضوح الدليل ولم تزل أفة الناس منذ خلقوا في صنفين هم كالملاح فيهم الأمراء والفقهاء بصلاحهم يصلحون ويفسادهم يفسدون فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه فالأمراء

القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق ذيادة عن الجماعة وجرىا إلى الفرقة والفقهاء أنمتهم صموت عنهم صدوف عما أكده الله تعالى عليهم من التبيين لهم قد أصبحوا ما بين أكل من حلوائهم وخابط في اهوائهم وبين مستشعر مخافتهم أخذ في التقية في صدقهم واولئك هم الأقلون فيهم فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها وماهي إلا مشفية من بوارها ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق وتعلية الأسوار وشد الأركان وتوثيق البنيان كاشفين لعدوهم عن السوأة السواى من إقائهم يومئذ بأيديهم إليه امور قبيحات الصور مؤذونات الصدور بأعجاز الغير " أمور لو تدبرها حكيم ... إذا لنهى وهيب ما استطاعا " استرجاع بريشتر

ثم قال ابن حبان فلما كان عقب جمادى الأولى سنة 457 شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها والمتهم على أهلها لانحرافهم إلى أخيه صمد لها مع إمداد لحليفه عباد وسعى لإصمات سوء المقالة عنه وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يحويه إلا عفوه فتأهب لقصد بريشتر في جموع من المسلمين فجالدوا الكفار بها جلادا ارتاب منه كل حبان وأعر الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان وحمي الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أوليائه وخذل أعداءه وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة فافتحمها المسلمون عليهم وملكوهم أجمعين إلا من فر من مكان الوقعة ولم يدخل المدينة فأجبل السيف في الكافرين واستؤصلوا أجمعين إلا من استرق من أصاغرهم وفدي من أعاظمهم وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارئ وأصيب علي منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين نحو الخمسين كتب الله تعالى شهادتهم وقتل فيه من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدا الإفك انتهى

وليت طليطة البائسة استرجعت كهذه ومع هذا فقد غلب العدو بعد على الكل والله سبحانه المرجو في الإدالة

تطيلة وطرسونة

وقال ابن اليسع أخذ العدو مدينة تطيلة وأختها طرسونة سنة أربع وعشرين وخمسائة

بلنسية والقنبيطور

ولما صار أمر بلنسية إلى الفقيه القاضي أبي أحمد ابن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكن الأذفونش من طليطة فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين وقتله ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان ورجعت عنه طائفة الملتئمين الذين كان يعتد بهم وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيبطلء عليه وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة ردرىق الطاغية للاستيلاء على بلنسية فدخلها وعاهده القاضي ابن جحاف واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون فأقسم انها ليست عنده فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله فاتفق أنه وجدها عنده فأحرقه بالنار وعات في بلنسية وفيها يقول ابن خفاجة حينئذ

" عاتت بساحتك الظبا يادار ... ومحا محاسنك البلى والنار "

" فان تردد في جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار "

" أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدار "

" كتبت يد الحدثان في عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديار "

وكان استيلاء القنبيطور لعنه الله تعالى عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل في التي قبلها وبه جزم ابن الأبار قائلا فتم حصار القنبيطور إياها

عشرين شهرا وذكر أنه دخلها صلحا وقال غيره إنه دخلها عنوة وأحرقها وعات فيها وممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر ابن النبي الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعفا عنه فوجه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلي ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة وتوالى عليها أمراء الملتئمين ثم صارت ليحيى بن غانية الملتئم حين ولي جميع شرق الأندلس فقدم عليها أخاه عبدالله بن غانية ولما ثارت الفتنة في المائة السادسة أخرجه منها مروان بن عبدالعزيز إلى أن قام عليه جيش بلنسية سنة تسع وثلاثين وخمسائة وباعوا لابن عياض ملك شرق الأندلس ففر مروان إلى المرية ثم رجعت بلنسية إلى أبي عبدالله ابن مردنيش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض وقدم عليه أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش إلى أن رجع أبو

الحجاج إلى جهة بني عبدالمؤمن إلى أن ولي عليها السيد أبويزيد عبدالرحمن ابن السيد أبي عبدالله ابن أبي حفص ابن أمير المسلمين عبدالؤمن بن علي فلما نار العادل بمصرية تمنع واعتز وأظهر طاعة في باطنها معصية ودام على ذلك مع أبي العلاء المأمون وكان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بلنسية الأمير زيان بن أبي الحملات ابن أبي الحجاج ابن مردنيش فأخرجه من بلنسية وملكها وفر السيد إلى النصارى

نهاية بلنسية

ولم يزل أمر بلنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصراني فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبي زكريا ابن أبي حفص وأوفد عليه في هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبدالله ابن الأبار القضاعي صاحب كتاب التكملة واعتاب الكتاب وغيرهما فقام بين يدي السلطان منشدا قصيدته السينية الفريدة التي فضحت من بارها وكبا دونها من جارها وهي

" أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا "

" وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمساً "

" وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا "

" يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا "

" في كل شارقة إمام بائقة ... يعود ماتمها عند العدا عرسا "

" وكل غاربة اجحاف نائبة ... تثني الأمان حذارا والسرور أسى "

" تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا "

" وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا "

" مدائن حلها الإشراف مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتنسا "

" وصيرتها العوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا "

" فمن دساكر كانت دونها حرسا ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا "

" يا للمساحد عادت للعدا بيغا ... وللنداء غدا أثناءها جرسا "

" لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارس للمثاني أصبحت درسا "

" وأربعا نمنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا "

" كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواجها وعسا "

" وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلوسا "

" سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا ... عيث الدبا في مغانيها التي كبسا "

" وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا "

" فأين عيش جنيناه بها خضرا ... وأين عصر جليناه بها سلسا "

" محاسنها طاغ أتيح لها ... مانام عن هضمها حيناً ولا نعسا "

" ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا "

" خلا له الجو فامتدت يدها إلى ... إدراك مالم تطأ رجلاه مختلسا "

" وأكثر الزعم بالتثليث منفردا ... ولو رأي راية التوحيد ما نبسا "

" صل حبلى أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا "

" وأحي ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدي ما طمسا "

" أيام صرت لنصر الحق مستبقا ... ويت من نور ذاك الهدى مقتبسا "

" وقمت فيها بأمر الله منتصرا ... كالصارم اهتز أو كالعارض أنيجسا "

" تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم ... والصبح ماحية أنواره الغلسا "

" وتفتضي الملك الجبار مهجته ... يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا "

" هذي رسائلها تدعوك من كتب ... وأنت أفضل مرجو لمن ينسا "

" وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الأمير الرضى والسيد الندسا "

" خاضت خضارة يعليها ويخفضها ... عبايه فتعاني اللين والشرسا "

" وربما سبحت والريح عاتبة ... كما طلبت بأقصى شدة الفرسا "

" تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي ... حفص مقبلة من تره القدسا "

" ملك تقلدت الأملاك طاعته ... دينا ودنيا فغشاها الرضى لبسا "

" من كل غاد على يمناه مستلما ... وكل صاد إلى نعماه ملتمساً "

" مؤيد لو رمى نجما لأثبتته ... ولو دعا أفقا لبي وما احتبسا "

" تا لله إن الذي ترجى السعود له ... ماجال في خلد يوما ولا هجسا "

" إمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا "

" يبدي النهار بها من ضوته شنبا ... ويطلع الليل من ظلماته لعسا "

" ماضى العزيمة والأيام قد نكلت ... طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا "

" كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا "

" تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسى الورى وأسا "

" قامت على العدل والإحسان دولته ... وأنشرت من وجود الجود ما رمسا "

" مبارك هديه باد سكينته ... ماقام إلا إلى حسنى وما جلسا "

" قد نور الله بالتقوى بصيرته ... فما بيالي طروق الخطب ملتبسا "

" برى العصاة وراش الطائعين فقل ... في الليث مفترسا والغيث مرتجسا "

" ولم يغادر على سهل ولا جبل ... حيا لقاها إذا وافيته بخسا "

" فرب أصيد لا تلغي به صيدا ... ورب أشوس لا تلقى له شوسا "

" إلى الملائك ينمى والملوك معا ... في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا "

" من ساطع النور صاغ الله جوهرة ... وصان صيقله أن يقرب الدنسا "

" له الثرى والثريا خطتان فلا ... أعز من خطيته ما سما ورسا "

" حسب الذي باع في الأخطار يركبها ... إليه محياه أن البيع ما وكسا "

" إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته ... عصاه محترما بالعدل محترسا "

" فظل يوطن من أرجائها حرما ... ويات يوفد من أضوائها قبسا "

" بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا ... آماله ومن العذب المعين حسا "

" كأنما يمتطي واليمن يصحبه ... من البحار طريقا نحوه يبسا "

" فاستقبل السعد وضاحا أسرته ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا "

" وقيل الجود طفاحا غواربه ... من راحة غاص فيها البحر وانغمسا "

" يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا "

" وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا "

" طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة مالم تغسل النجسا "

" واوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطاطىء رأسا كل من رأسا "

" وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعا تهمني زكا وخسا "

" هم شبيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء متى لم تباشر حسمه انتكسا "

" فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها ... جردا سلاهب أو خطبة دعسا "

" واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى "

فبادر السلطان بإعانتهم وشحن الأساطيل بالمداد إليهم من المال والأقوات والكسى فوجدوهم في هوة الحصار إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس وكان تغلب العدو على بلنسية صلحا يوم الثلاثاء السابع عشر لصف من سنة ست وثلاثين وستمائة فهزت هذه القصيدة من الملك عطف ارتياح وحركت من جنانه أخفض جناح ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها فجاوبها غير واحد وحال العدو بين بلنسية وبينه وتعاهد أهلها مع النصراني على أن يسلمهم في أنفسهم وذلك سنة سبع وثلاثين وستمائة أعادها الله تعالى

للإسلام

كتندة - 514

وقد كانت وقعة كتندة على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدة وكتندة ويقال قتندة بالقاف من حيز دورقة من عمل سرقسطة من الثغر الأعلى وكانت

الهيمنة على المسلمين جبرهم الله تعالى قتل فيها من المطوعة نحو من عشرين ألفا ولم يقتل فيها من العسكر أحد وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذي ألف الفتح باسمه فلائذ العقيان وكانت سنة أربع عشرة وخمسمائة وممن حضرها الشيخ أبو علي الصدفى السابق الذكر وقرينه في الفضل أبو عبدالله ابن الفراء خرجا غازيين فكانا ممن فقد فيها وقال غير واحد إن العسكر انصرف مفلولا إلى بلنسية وإن القاضي أبا بكر ابن العربي كان ممن حضرها وسئل مخلصه منه عن حاله فقال حال من ترك الخباء والعباء وهذا مثل عند المغاربة معروف يقال لمن ذهب ثيابه وخيامه بمعنى أنه ذهب جميع ما لديه

لوشة 622

ودخل العدو لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة مع السيد أبي محمد البياسي في الفتنة التي كانت بينه وبين العادل فعاثوا فيها أشد العيث ثم ردها المسلمون إلى أن أخذت بعد ذلك كما يأتي
المرية - 542

ودخل العدو مدينة المرية يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة عنوة وحكي أبو زكريا الجعيدي عن أبي عبدالله ابن سعادة الشاطبي المعمر أن أبا مروان ابن ورد اتاه في النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه في عضديه من خلفه وهزه هزا عنيفا حتى أربعه وقال له قل

" ألا أيها المغرور ويحك لا تنم ... فالله في ذا الخلق أمر قد انبهم "

" فلا بد أن يرزوا بأمر يسوءهم ... فقد أحدثوا جرما على حاكم الأمم "

قال وكان هذا في سنة أربعين وخمسمائة فلم يَمْضِ إلا يسير حتى تغلب الروم على المرية في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة بعد تلك الرؤيا بعامين أو نحوهما وهو مما حكاه ابن الأبار الحافظ في كتاب التكملة له

ترجمة الرشاطي

وفي وقعة المرية هذه استشهد الرشاطي الإمام المشهور وهو أبو محمد عبدالله بن علي بن عبدالله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي الرشاطي المريي وكانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ وهو صاحب كتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار أخذه الناس عنه وأحسن فيه وجمع وما قصر وهو على أسلوب كتاب أبي سعد ابن السمعان الحافظ المسمى بالأنساب وولد الرشاطي سنة 466 بقرية من أعمال مرسية يقال لها أوربواله بفتح الهمزة وسكون الواو وكسر الراء وضم المثناة التحتية وبعد الألف لام مفتوحة وبعدها هاء وتوفي شهيدا بالمرية عند تغلب العدو عليها صبيحة الجمعة العشرين من جمادي الأولى سنة 542 والرشاطي بضم الراء وفتح الشين المخففة وذكر هو أن أحد أجداده كان في جسمه شامة كبيرة وكانت حاضنته عجمية فإذا لاعبته قالت رشاطة وكثر ذلك منها فقبل له الرشاطي انتهى ملخصا من وفيات الأعيان وبعضه بالمعنى

استرداد المرية وضياعتها نهائيا

وبعد أخذ النصارى المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين واستنفذها الله تعالى على يد الموحدون وبقيت بأيدي أهل الإسلام سنين وكان أول الولاة عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبدالمؤمن بن علي رجلا يقال له يوسف ابن مخلوف فثار عليه أهل المرية وقتلوه وقدموا على أنفسهم الرميمي فأخذها النصارى منه عنوة كما ذكرنا وأحصي عدد من سبي من أبقارها فكان أربعة عشر ألفا

وقال ابن حبيش آخر الحفاظ بالأندلس كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله تعالى للإسلام فتقدمت إلى زعيم الروم السليطين وهو ابن بنت الأذفونش وقلت له إني أحفظ نسبك منك إلى هرقل فقال لي قل فذكرته له فقال لي اخرج أنت وأهلك ومن معك طلقاء بلا شيء

وابن حبيش شيخ ابن دحية وابن حوط الله وأبي الربيع الكلاعي رحمهم الله تعالى ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصر النصارى بها وزحف إليهما أبو عبدالله ابن مردنيش ملك شرف الأندلس محاربا لهما فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلا وخارجا ثم رأى ابن مردنيش العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل فقال النصارى مارحل ابن مردنيش إلا وقد جاءهم مدد فاصطلحوا ودخل الموحدون المدينة وقد خربت وضعفت إلى أن أحيا رمقها الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال وذلك أن أخته أخذت سبية في دخلة عبدالمؤمن

لبجانة فاحتلت بقصره واعتنت بأخيها فولاه بلده فصلح به حالها وكان جوادا حسن المحاولة كثير الرفق واشتهر من ولاتها في مدة بني عبد المؤمن في المائة السابعة الأمير أبو عمران ابن أبي حفص عم ملك إفريقية أبي زكريا

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثار الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بمرسية قام في المرية بدعوة ابن هود أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن أبي يحيى ابن الرميمي وحده أبو يحيى هو الذي أخذها النصارى من يده ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بمرسية وولاه وزارته وصرف إليه سياسته وأل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة المرية ويجعلها له عدة وهو يبغى ذلك عدة لنفسه وترك ابن هود فيها جارية تعلق ابن الرميمي بها

واجتمع معها فبلغ ذلك ابن هود فبادر الى المرية وهو مضمر الإيقاع بابن الرميمي فتغدى به قبل أن يتعشى به وأخرج من قصره ميثا ووجهه في تابوت إلى مرسية في البحر واستبد ابن الرميمي بملك المرية ثم ثار عليه ولده وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابن الأحمر صاحب غرناطة وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو الكافر عندما طوي بساط بلاد الأندلس كما سننبه عليه والله غالب على أمره

شعر في العقاب

وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي في هزيمة العقاب بإشبيلية
" وقائلة أراك تطيل فكرا ... كأنك قد وقفت لدى الحساب "
" فقلت لها أفكر في عقاب ... غذا سببا لمعركة العقاب "
" فما في أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب "

ابن وزير

وقول القائد أبي بكر ابن الأمير ملك شلب أبي محمد عبدالله بن وزير يخاطب منصور بني عبدالمؤمن وقد التقى هو وأصحابه مع جماعة من الفرنج فتناصفوا ثم كان الظفر للمسلمين
" ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا ... فمننا ومنهم طائحون عديد "
" وجال غرار الهند فينا وفيهم ... فمننا ومنهم قائم وحصيد "
" فلا صدر إلا فيه صدر مثقف ... وحول الوريد للحسام ورود "
" صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا ... كلانا على حر الجلاد جليد "
" ولكن شدتنا شدة فتبلدوا ... ومن يتبلد لا يزال يحيد "
" فولوا وللسمر الطوال بهامهم ... ركوع وللبيض والرقاق سجود "
وكان المذكور من فرسان الأندلس وكان ابنه الفاضل أبو محمد غير مقصر عنه فروسية وقدرًا وأدبا وشعرا وولاه ناصر بني عبدالمؤمن مدينة قصر أبي دانس في الجهة الغربية وقتله ابن هود بإشبيلية وزعم أنه يروم القيام عليه ومن شعره قوله في ابن عمرو صاحب أعمال إشبيلية
" لا تياسن من الخلافة بعدما ... ولى ابن عمرو خطة الأشراف "
" تبا لدهر هذه أفعاله ... يضع النوافج في يدي كناف "

ضياع ماردة

رجع - ودخل العدو كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست وعشرين وستمائة وكانت مفتتح المصائب على يده أعادها الله تعالى للإسلام وهي قاعدة بلاد الجوف في مدة العرب والعجم والحضرة المستجدة بعدها هي مدينة بطليوس وبين ماردة وقرطبة خمسة أيام

المظفر ابن الأفطس وابنه المتوكل

وملك بطليوس وماردة وما إليها المظفر محمد بن المنصور بن الأفطس مشهور وهو من رجال القلائد والذخيرة وهو أديب ملوك عصره بلا مدافع ولا منازع وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم ب التذکر المظفري خمسون مجلدا اشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع علوم الأدب وقال يوما والله ما يمنعني من إظهار الشعر إلا كوني لا أقول مثل قول أبي العشائر ابن حمدان

" أقرأت منه ما تخط يد الوغى ... والبيض تشكل والأسنة تنقط "

وقول أبي فراس ابن عمه

" وجررنا العوالي في مقام ... تحدث عنه ربات الحجال "

" كان الخيل تعلم من عليها ... ففي بعض على بعض تعالي "

فأين هذا من قولني

" أنفت من المدام لأن عقلي ... أعز علي من أنس المدام "

" ولم أرتح إلى روض وزهر ... ولكن للحمائل والحسام "

" إذا لم املك الشهوات قهرا ... فلم أبغي الشفوف على الأنام "

وله رحمه الله تعالى

" يا لحظه زد فتورا ... تزد علي اقتدارا "

" فاللحظ كالسيف امضاه ... ما يرق غرارا "

وابنه المتوكل من رجال القلائد والمسهب وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بن عباد بإشبيلية قد اناخت الآمال بحضرتهمما وشدت رجال الآداب إلى ساحتهمما يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواسم بين جنتين وينظر الأدب منهما عن مقلتين والمعتمد أشعر والمتوكل أكتب

شعر لأبي عبدالله الفازاري
 رجع - وقال الفاضل الكاتب أبو عبدالله محمد الفازاري وقيل إنها وجدت برقعة في جيبه يوم موته
 " الروم تضرب في البلاد وتغنم ... والجور يأخذ ما بقي والمغرم "
 " والمال يورد كله قشتالة ... والجند تسقط والرعية تسلم "
 " وذوو التعين ليس فيهم مسلم ... إلا معين في الفساد مسلم "
 " أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلف بالجمع ويرحم "
 وقيل إن هذه الأبيات رفعت إلى سلطان بلده فلما وقف عليها قال بعدما بكى صدق رحمه الله
 تعالى ولو كان حيا ضربت عنقه

ترجمة أبي زيد الفازاري

وهذا الفازاري اخو الشاعر الشهير الكاتب الكبير أبي زيد عبدالرحمن الفازاري صاحب الأمداح في سيد الوجود وهو كما قال فيه بعضهم صاحب القلم الأعلى والقدر المعلى أبرع من ألف وصف وأبدع من قرط وشفق فقد طاع القلم لبنانه والنظم والنثر لببانه كان نسيح وحده رواية وأخبارا ووحد نسجه روية وابتكارا وفرد وقته خبرا وإخبارا وصدر عصره إيرادا وإصدارا صاحب فهوم ورافع ألوية علوم اما الأدب فلا يسبق فيه مضماره ولا يشق غباره إن شاء إنشاء أنشى ووشى سائل الطبع عذب النبع له في مدح النبي قد خضع لها البيان وسلم أعجز بتلك المعجزات نظما ونثرا وأوجز في تحبير تلك الآيات البيئات فجلا سحرا ورفع للقوافي راية استظهار تخير فيها الأظهر فعجم وعشر وشفق وأوتر وأما الأصول فهي من فروع في متفرق منظومه ومنثور مجموعته وأما النسب فألى حفظه انتسب واما الأيام والدول ففي تاريخه الأواخر والأول وقد سبك من هذه العلوم في منثوره وموزونه ما يشهد بإضافتها إلى فنونه وله سماع في الحديث ورواية وفهم بقوانينه ودراية سمع من أبي الوليد اليزيد بن عبدالرحمن بن بقي القاضي ومن أبي الحسن جابر بن احمد القرشي التاريخي وهو آخر من حدث عنه ومن أبي عبدالله التجيبي كثيرا وهو اول من سمع عنه في حياة الحافظ أبي الطاهر السلفي إذ قدم عليهم تلمسان وأجازه الحافظ السهيلي وابن خلف الحافظ وغيرهما وولد بعد الخمسين والخمسمائة وتوفي بمراكش سنة 637 رحمه الله تعالى انتهى ملخصا

سقوط ميورقة عن ابن عميرة

رجع ولما ثارت الأندلس على طائفة عبدالمؤمن كان الوالي بجزيرة ميورقة ابو يحيى ابن أبي عمران التينملي فأخذها الفرنج منه كذا قال ابن سعيد وقال ابن الأبار إنها أخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع وعشرين وستمائة وقال المخزومي في تاريخ ميورقة إن سبب أخذها من المسلمين ان أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحد أعيانها ووليها سنة ست وستمائة واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية فعلم بها والى طرطوشة فجهز إليها من أخذها فعظم ذلك على الوالي وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم وكان ذلك رأيا مشؤوما ووقع بينه وبين الروم وفي آخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه ان مسطحا من برشلونة ظهر على يابسة ومركبا آخر من طرطوشة انضم إليه فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل مرسى يابسة ووجد فيه لأهل جنوة مركبا كبيرا فأخذه وسار حتى أشرف على المسطح فقاتله وأخذه وظن أنه غالب الملوك وغاب عنه انه أشأم من عاقر الناقة وان الروم لما بلغهم الخبر قالوا لملكهم وهو من ذرية أذفونش كيف يرضى الملك بهذا الأمر ونحن نقاتل بنفوسنا واموالنا فأخذ عليهم العهد بذلك وجمع عشرين ألفا من اهل البلاد وجهز في البحر ستة عشر ألفا وشرط عليهم حمل السلاح وفي سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر امر هذه الغزوة فاستعد لها الوالي وميز نيفا على ألف فارس من فرسان الحضر والرعية مثلهم ومن الرجال ثمانية عشر ألفا وذلك في شهر ربيع الأول من السنة ومن سوء الاتفاق ان الوالي أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء مصر فساقهم وضرب أعناقهم وكان فيهم ابن خاله وخالهما أبو حفص ابن سيرى ذو المكانة الوحيدة فاجتمعت الرعية إلى ابن سيرى فأخبروه بما نزل وعزوه فيمن قتل وقالوا هذا أمر لا يطاق ونحن كل يوم إلى الموت نساق وعاهدوه على طلب الثار وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال والناس من خوفه في أهوال ومن أمر العدو في إهمال فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي وأخبره بأن الروم قد أقبلت وأنه عد فوق الأربعين من القلوع وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال إن اسطول العدو قد تظاهر وقال إنه عد سبعين شرعا فصح الأمر عنده فسمح لهم بالصفح والعفو

وعرفهم بخبر العدو وأمرهم بالتجهز فخرجوا إلى دورهم كأنما نشروا من قبورهم ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد فإنهم عدوا مائة وخمسين قلعا ولما عبر وقصد المرسى أخرج الوالي جماعة تمنعهم النزول فباتوا على المرسى في الرجل والخيل وفي الثامن عشر من شوال وهو يوم الاثنين وقع المصاف وانهزم المسلمون وارتحل النصارى إلى المدينة ونزلوا منها على الحربة الحزينة من جهة باب الكحل ولم يزل الأمر في شدة وقد أشرفوا على أخذ البلد ولما رأى ابن سيرى ان العدو قد استولى على البلد خرج

إلى البادية ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديدا ولما كان يوم الأحد أخذ البلد وأخذ منه أربعة وعشرون ألفا قتلوا على دم واحد وأخذ الوالي وعذب وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوما ومات تحت العذاب واما ابن سيرى فإنه صعد إلى الجبل وهو منيع لا ينال من تحصن فيه وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل ومازال يقاتل إلى أن قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة وجده من آل جبلة بن الأيهم الغساني واما الحصون فأخذت في آخر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومي ملخصا

وكان بميوقرة جماعة أعلام وشعراء ومن شعر ابن عبد الولي الميوقري " هل أمان من لحظك الفتان ... وقوام يميل كالخيزران "

" مهجتي منك في جحيم ولكن ... جفوني قد منعت في جنان "

" فتننتني لواحظ ساحرات ... لست أخشى من فتنة الشيطان "

سعيد بن حكم في منورقة

ولما استولى النصارى على ميوقرة في التاريخ المتقدم ثار بجزيرة منورقة وهي قريبة منها الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي وكان وليها من قبل الوالي أبي يحيى المقتول وتصلح مع النصارى على ضريبة معلومة واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى وضبطها أحسن ضبط قال أبو الحسن على بن سعيد أخبرني أحد من اجتمع به أنه لقي منه برا حب اليه الإقامة في تلك الجزيرة المنقطعة وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف ضيقة وقد أثرت في عنقه فأمر له بإحسان وغناز وكتب معه

" حمالة السيف توهي جيد حاملها ... لا سيما يوم إسراع وإنجاز "

" وخير ما استعمل الإنسان يومئذ ... لحسم علتها لباس غناز "

والغناز عند أهل المغرب صنف من الملبوس غليظ يستر العنق

وأصل أبي عثمان من مدينة طيبة من غرب الأندلس وقد ألقت باسمه التآليف المشهورة بالمغرب ككتاب روح الشجر وروح الشعر وغيره وأخذ العدو منورقة بعد مدة

سقوط عدة مدن

وأخذ العدو جزيرة شقر صلحا سنة تسع وثلاثين وستمائة في آخرها

وأخذ العدو دمره الله تعالى مدينة سرقسطة يوم الأربعاء لأربع خلون من رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسائة

وكان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة وغيرها واجلاؤهم من يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة

وكان استيلاء العدو دمره الله تعالى على مدينة قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال من سنة ست وثلاثين وستمائة

وكان تملك العدو مرسية صلحا ظهر يوم الخميس العاشر من شوال قدم أحمد بن محمد بن هود ولد والي مرسية بجماعة من وجوه النصارى فملكهم إياها صلحا ولا حول ولا قوة إلا بالله

وحصر العدو إشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب قشتالة صلحا بعد منازلها حولا كاملا وخمسة أشهر أو نحوها وقال ابن الأبار في ترجمة أبي علي الشلوين من التكملة

ماصورته وتوفي بين يدي منازل الروم إشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس وأربعين وستمائة وفي العام القابل ملكها الروم

موقعة أنيشة - 634 وترجمة أبي الربيع ابن سالم

وكانت وقعة أنيجة التي قتل بها الحافظ أبو الربيع الكلاعي رحمه الله تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة ولم يزل رحمه الله تعالى متقدما أمام الصفوف زحفا إلى الكفار مقبلا على العدو ينادي بالمنهزمين أعن الجنة تفرون حتى قتل صابرا محتسبا برد

الله تعالى مضجعه وكان دائما يقول إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها في صغره فكان كذلك ورثاه تلميذه الحافظ أبو عبدالله ابن الأبار بقصيدته الميمية الشهيرة التي أولها " ألما بأشلاء العلا والمكارم ... تقد بأطراف القنا والصوارم " وعوجا عليها مآربا وحفاوة ... مصارع خست بالطللى والجماجم " نحبي وجوها في الجنان " وحيهة ... بما لقيت حمرا وجوه الملاحم " وأحساد إيمان كساها نجيعها ... مجاسد من نسج الطبى واللهازم " وهي طويلة

ومن شعر الحافظ أبي الربيع المذكور " تولت ليال للغواية جون ... ووافى صباح للرشاد مبين " " ركاپ شباب أزمعت عنك رحلة ... وحيش مشيب جهزته منون " " ولا أكذب الرحمن فيما أجنه ... وكيف ولا يخفى عليه جنين " " ومن لم يخل أن الرياء يشينه ... فمن مذهبي أن الرياء يشين " " لقد ريع قلبي للشباب وفقده ... كما ريع بالعلق الفقيد ضنين " " وآلمني وخط المشيب بلمتي ... فخطت بقلبي للشجون فنون " " وليل شبابي كان أنضر منظرا ... وأتق مهما لا حظته عيون " " فأها على عيش تكدر صفوه ... وأنس خلا منه صفا وحجون " " ويا ويح فودي او فؤادي كلما ... تزيد شيبني كيف بعد يكون " " حرام على قلبي سكون بغرة ... وكيف مع الشيب الممض سكون " " وقالوا شباب المرء شعبة جنة ... فما لي عراني للمشيب جنون " " وقالوا شجاك الشيب حدثان ما اتى ... ولم يعلموا أن الحديث شجون " وقوله

" أمولي الموالى ليس غيرك لي مولى ... وما أحد يارب منك بذا أولى " " تبارك وجه وجهته نحوه المنى ... فأوزعها شكرا وأوسعها طولا " " وما هو إلا وجهك الدائم الذي ... أقل حلى عليائه يخرس القولا " " تبرأت من حولي إليك وقوتي ... فكن قوتي في مطلبي وكن الحولا " " وهب لي الرضى ما لي سوى ذلك مبتغى ... ولو لقيت نفسي على نيله الهولا " وكان رحمه الله تعالى حافظا للحديث مبرزا في نقده تام المعرفة بطرقه ضابطا لأحكام أسانيده ذاكرا لرجاله ريان من الأدب خطب بيلنسية واستقصى وكان مع ذلك من أولي الحزم والبسالة والإقدام والجزالة حضر الغزوات وياشر القتال بنفسه وأبلى بلاء حسنا وروى عن أبي القاسم ابن حبيش وطبقته وصنف كتبا منها مصباح الظلم في الحديث والأربعون عن أربعين شيخا لأربعين من الصحابة والأربعون السباعية والسباعيات من حديث الصدفي وحلية الأمالي في الموافقات والعوالي وتحفة الورد ونجعة الرواد والمسلسلات والإنشادات وكتاب الاكتفاء في مغازي رسول الله الثلاثة الخلفاء وميدان السابقين وحلية الصادقين المصدقين في غرض كتاب الاستيعاب ولم يكمله والمعجم فيمن وافقت كنيته كنية زوجته من الصحابة والإعلام بأخبار البخاري الإمام والمعجم في مشيخة أبي القاسم ابن حبيش وبرنامج رواياته وجلي الرطب في سني الخطب ونكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال وجهد النصيح في معارضة المعري في خطبة الفصيح والامثال لمثال المبهج في ابتداء الحكم واختراع الأمثال ومفاوضة القلب العليل ومناذرة الأمل الطويل بطريقة المعري في ملقي السبيل ومجاز فتيا اللحن للاحن الممتحن مائة مسألة ملغزة ونتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم في مثال النعل النبوية على لابسها أفضل قال ابن رشيد لو قال وزكاة النثر والنظيم لكان أحسن وله كتاب الصحف المنشورة في القطع المعشرة وديوان رسائله سفر وديوان شعره سفر وكتب إلى الأديب الشهير أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي عقب انفصاله من

بيلنسية سنة 587

" أحن الى نجد ومن حل في نجد ... وماذا الذي يغني حنيني أو يجدي " " وقد أوطنوها وادعين وخلفوا ... محبهم رهن الصباة والوجد " " تبين بالبين اشتياقي إليهم ... ووجدني فساوى ما أحن الذي أبدي " " وضافت علي الأرض حتى كأنها ... وشاح بخصر أو سوار على زند " " إلى الله أشكو ما ألقى من الجوى ... وبعض الذي لاقيته من جوى يردي "

" فراق أخلاء وصد أحية ... كأن صروف الدهر كانت على وعد "
 " فيا سرحتي نجد نداء متيم ... له أبدا شوق إلى سرحتي نجد "
 " ظمئت فهل ظل يبرد لوعتي ... ضحيت فهل ظل يسكن من وجدي "
 " ويا زمنا قد بان غير مذمم ... لعل الأنس قد تصرم من رد "
 " ليالي نجني الأنس من شجر المنى ... ونقطف زهر الوصل من شجر الصد "
 " وسقيا لاخوان بأكناف حاجر ... كرام السجايا لا يحولون عنه عهد "
 " وكم لي بنجد من سري ممجد ... ولا كابن إدريس أخي البشر والمجد "
 " اخو همة كالزهر في بعد نيلها ... وذو خلق كالزهر غب الحيا العد "
 " تجمعت الأضداد فيه حميدة ... فمن خلق سبط ومن حسب جعد "
 " أيا راحلا أودى بصري رحيله ... وفلل من عزمي وثلم من حدي "
 " أتعلم ما يلقي الفؤاد لبعدكم ... ألا مذ نايتم ما يعيد ولا يبدي "
 " فيا ليت شعري هل تعود لنا المنى ... وعيش كما نممت حاشيتي برد "
 " عسى الله أن يدني السرور بقربكم ... فيبدو ومنا الشمل منتظم العقد "
 ابن العربي ومعركة 527

وقال الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن عند تفسير قوله تعالى " انفروا خفافا وثقالا " التوبة 41 ما صورته ولقد نزل بنا العدو قصمه الله تعالى سنة سبع وعشرين وخمسائة فجاس ديارنا وأسر جيرتنا وتوسط بلادنا في عدد حدد الناس عدده فكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه فقلت للوالي والمولى عليه هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة فلتكن عندكم بركة ولتكن منكم إلى نصره الدين المتعينة عليكم حركة فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط به فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له فغلبت الذنوب ورجفت بالمعاصي القلوب وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوي إلى وجاره وإن رأى المكيدة بجاره فإنما لله وإنا إليه راجعون وحسبنا الله ونعم الوكيل انتهى ولا خفاء أن هذا كان قبل أخذ العدو شرق الأندلس وسرقسطة وميورقة وغيرها مما قدمنا ذكره والبيدات عنوان على النهايات

قصيدة الوقشي في مدح أبي يعقوب

وقال أبو جعفر الوقشي البلبنسي نزيل مالقة يمدح أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبدالمؤمن بن علي

" أبت غير ماء بالنخيل ورودا ... وهامت به عذب الجمام برودا "
 " وقالت لحاديها أتم زيادة ... على العشر في وردى له فأزيذا "
 " غلبتك ما هذا القنوع وما انا ... عهدتك لا تتنين عنه وريدا "
 " أنونا إذا ما كنت منه قريبة ... وضبا إذا ما كان عنك بعيدا "
 " ردي حضرة الملك الظليل رواقه ... لعمرى ففيها تحمدين ورودا "
 " بحيث إمام الدين يوسع فضله ... جميع البرايا مبدئا ومعيدا "
 " أعاد إليها الأنس بعد شروده ... وأحيا لنا ما كان منه أبيدا "
 " ولين أيام الزمان بعدله ... وكانت حديدا في الخطوب حديدا "
 " فلا ليلة إلا يروك حسننها ... ولا يوم إلا عاد يفضل عيدا "
 ومنها يصف حال الأندلس ويبعث على الجهاد
 " ألا ليت شعري هل يمد لي المدى ... فأبصر شمل المشركين طريدا "
 " وهل بعد يقضى في النصارى بنصرة ... تغادرهم للمرهفات حصيدا "
 " ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب ... يعيد عميد الكافرين عميدا "
 " ويلقي على إفرنجهم عبء كلكل ... فيتركهم فوق الصعيد هجودا "
 " يغادرهم جرحى وقتلى مبرحا ... ركوعا على وجه الفلا وسجودا "
 " ويفتك من أيدي الطغاة نواعما ... تبدلن من نظم الحجول قيودا "
 " وأقبلن في خشن المسوح وطالما ... سحبن من الوشي الرقيق برودا "
 " وغبر منهن التراب تراثبا ... وخذد منهن الهجير خدودا "
 " فحق لدمعي أن يفيض لأزرق ... تملكها دمج المدامع سودا "
 " ويا لهف نفسي من معاصم طفلة ... تجاوز بالقد الأليم نهودا "
 " ويا أسفا ما إن يزال مرددا ... على شمل أعياد أعيد بديدا "

" وأها تمد الصوت منتحبا على ... خلو ديار لو يكون مفيدا "

وقال في آخرها وهو مما استحسنته الناس

" حملت إليه من نظامي قلادة ... يلقبها أهل الكلام قصيدا "

" غدت يوم إنشاد القريض وحيدة ... كما قصدت في المعلوات وحيدا "

ولما تمهدت الأندلس لعبدالمؤمن وبنيه كان لهم فيها وقائع مع عدو الدين وإجتاز إليها عبدالمؤمن ثم لما ولي بعده ملكه ابنه يوسف دخل الأندلس سنة 566 وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين فنزل بإشبيلية

فخافه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش صاحب شرق الأندلس مرسية وأعمالها وما انضاف إليها فحمل على قلبه فمرض فمات وشرع السلطان يوسف في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج فاتسعت مملكته بالأندلس وأغارت سراياه على طليطلة إذ هي قاعدة ملكهم ثم إنه حاصرها فاجتمعت طائفة الفرنج عليه واشتد الغلاء في عسكره فرحل عنها وعاد إلى حضرة ملكه مراكش المحروسة

قصيدة في استنهاض الحفصي بعد سقوط بلنسية

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى دمرهم الله تعالى على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار بالنظم والنثار فلم ينفعمهم ذلك حتى اتسع الخرق وأعضل الداء أهل الغرب والشرق فمن القصائد الموجهة في ذلك قول بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقيا أبا زكريا ابن عبدالواحد بن أبي حفص

" نادتك أندلس قلب نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها "

" صرخت بدعوتك العلية فاجبها ... من عاطفاتك ما بقي حوباءها "

" واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها ... تردد على أعقابها أرزاءها "

" هي دارك القصى أوت لإيالة ... ضمنت لها مع نصرها إيواءها "

" وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى ... سبل الضراعة يسلكون سواءها "

" خلعت قلوبهم هناك عزاءها ... لما رأت أبصارهم ما ساءها "

" دفعوا الأبكار الخطوب وعوزها ... فهم الغداة يصابرون عناءها "

" وتكررت لهم الليالي فاقتضت ... سراءها وقضتهم ضراءها "

" تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها "

" رش أيها المولى الرحيم جناحها ... واعقد بأرشيبة النجاة رشاءها "

" أشفى على طرف الحياة ذماؤها ... فاستبق للدين الحنيف ذمائها "

" حاشاك أن تغنى حشاشتها وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها "

" طافت بطائفة الهدى أمالها ... ترجو بيحيى المرتضى إحياءها "

" واستشرفت أمصارها لإمارة ... عقدت لنصر المستضام لواءها "

" ياحسرتي لعقائل معقولة ... سئم الهدى نحو الضلال هداءها "

" إيه بلنسية وفي ذكراك ما ... يمرى الشؤون دماءها لا ماءها "

" كيف السبيل الى احتلال معاهد ... شب الأعاجم دونها هيجاءها "

" وإلى ربى وأباطح لم تعر من ... حلل الربيع مصيفها وشتاءها "

" طاب المعرس والمقيل خلالها ... وتطلعت غرر المنى أثناءها "

" بأبي مدارس كالتول دوارس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها "

" ومصانع كسف الضلال صباحها ... فيخاله الرائي إليه مساءها "

" راحت بها الورقاء تسمع شدوها ... وغدت ترجع نوحها وبكاءها "

" عجبا لأهل النار حلوا جنة ... منها تمد عليهم أفياءها "

" أملت لهم فتعجلوا ما املوا ... أيامهم لا سوغوا إملاءها "

" بعدا لنفس أبصرت إسلامها ... فتوكفت عن حزبها إسلاءها "

" أما العلوج فقد أحالوا حالها ... فمن المطيق علاجها وشفاءها "

" أهدي إليها بالمكاره جرح ... للكفر كره ماءها وهواءها "

" وكفى أسى أن الفواجع جمه ... فمتى يقاوم أسوها أسواءها "

" هيهات في نظر الإمارة كف ما ... تخشاه ليت الشكر كان كفاءها "

" مولاي هاك معادة أنباءها ... لتنبيل منك سعادة أبناءها "

" جرد طباك لمحو آثار العدا ... تقتل ضراغمها وتسب طباءها "

" واستدع طائفة الإمام لغزوها ... تسبق إلى أمثالها استدعاءها "

" لا غرو أن يعزى الظهور لملة ... لم يبرحوا دون الورى ظهراءها "

" إن الأعاجم للأعارب نهبة ... مهما أمرت بغزوها أحياءها "

" تالله لو دبت لها دبابها ... لطوت عليها أرضها وسماءها "

" ولو استقلت عوفها لقتالها ... لاستقبلت بالمقربات عفاءها "

" أرسل جوارحها تحنك بصيدها ... صيدا وناد لطحنها أرحاءها "

" هبوا لها يامعشر التوحيد قد ... أن الهبوب وأحرزوا عليهاها "

" إن الحفائظ من خلالكم التي ... لا يرهب الداعي بهن خلاءها "

" هي نكتة المحيا فحيهلا بها ... تجدوا سناها في غد وسناءها "

" أولوا الجزيرة نصره إن العدا ... تبغى على أقطارها استيلاءها "

" نقصت بأهل الشرك من أطرفها ... فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها "

" حاشاكم أن تضمروا إلغائها ... في أزمة أو تضمروا إقصاءها "

" خوضوا إليها بحرها يصبح لكم ... رهوا وجوبوا نحوها ببداءها "

" وافى الصريخ ماثوبا يدعو لها ... فلتجملوا قصد الثواب ثواءها "

" دار الجهاد فلا تفتكم ساحة ... ساوت بها أحيائها شهداءها "

" هذي رسائلها تتاجي بالتي ... وقفت عليها ريثها ونجاءها "

" ولربما أنهت سوابل للنهي ... من كائنات حملت أنهاءها "

" وفدت على الدار العزيرة تجتني ... آلاءها أو تجتلي آراءها "

" مستسقيات من غيوث غياثها ... ما وقعته يتقدم استسقاءها "

" قد أمنت في سبلها أهواءها ... إذ سوغت في ظلها أهواءها "

" وبحسبها أن الأمير المرتضى ... مترقب بفتوحها آناءها "

" في الله ما ينويه من إدراكها ... بكلاءة يفدي أبي أكلاءها "

" بشرى لأندلس تحب لقاءه ... ويحب في ذات الإله لقاءها "

" صدق الرواة المخبرون بأنه ... يشفي ضناها أو يعيد رواءها "

" إن دوخ العرب الصعاب مقادة ... وأبى عليها أن تطيع إباءها "

" فكأن بفيلقه العرمرم فالقا ... هام الأعاجم ناسفا أرحاءها "

" أنذرهم بالبطشة الكبرى فقد ... نذرت صوارمه الرفاق دماءها "

" لا يعدم الزمن انتصار مؤيد ... تتسوغ الدنيا به سراءها "

" ملك أمد النيرين بنوره ... وأفاده للألأوه للألاءها "

" خضعت جبابرة الملوك لعزه ... ونضت بكف صغارها خيلاءها "

" أبقى أبو حفص إمارته له ... فسما إليها حاملا أعباءها "

" سل دعوة المهدي عن آثاره ... تنبيك أن ظباه قمن إزاءها "

" فغزا عداها واسترق رقابها ... وحمى حماها واسترد بهاءها "

" قبضت يدها على البسيطة قبضة ... قادت له في قدة أمراءها "

" فعلى المشارق والمغارب ميسم ... لهداه شرف وسمه أسماءها "

" تظمو بتونسها بحار جيوشه ... فيزور زاخر موحها زوراءها "

" وسع الزمان فضاك عنه جلالة ... والأرض طرا ضنكها وفضاءها "

" ما أزمع الإيغال في أكنافها ... إلا تصيد عزمه زعماءها "

" دانت له الدنيا وشم ملوكها ... فاحتل من رتب العلا شماءها "

" ردت سعادته على أدراجها ... ليل الزمان ونهنت غلواءها "

" إن يعتم الدول العزيرة بأسه ... فالآن يولي جوده إعطاءها "

" تقع الجلائل وهو راس راسخ ... فيها يوقع للسعود جلاءها "

" كالطود في عصف الرياح وقصفها ... لا رهوها يخشى ولا هوجاءها "

" سامي الذوائب في أعز ذؤابة ... أعلت على قمم النجوم بناءها "

" بركت بكل محلة بركاته ... شفعا يبادر بذلها شفعاءها "

" كالغيث صب على البسيطة صوبه ... فسقى عمائرها وجاد قواءها "

" ينميه عبدالواحد الأرضى إلى ... عليا فتمنح بأسها وسخاءها "

" في نبعة كرمت وطابت مغرسا ... وسمت وطالت نضرة نظراءها "

" ظهرت لمحتدها السماء وجاوزت ... لسرادقات فخارها جوزاءها "

" فنة كرام لا تكف عن الوعى ... حتى تصرع حولها أكفءها " وتكب في نار القري فوق الذرا ... من "

" عزة ألويها وكبءها "

" قد خلقوا الأيام طيب خلائق ... فثنت إليهم حمدتها وثناءها "

" ينضون في طلب النفائس انفسا ... حبسوا على احرازها إمضاءها "

" وإذا انتصوا يوم الكريهة بيضهم ... أبصرت فيهم قطعها ومضاءها "

" لا عذر عند المكرمات لهم متى ... لم تستبين لعفاتهم عذراءها "

" قوم الأمير فمن يقوم بما لهم ... من صالحات أفحمت شعراءها "

" صفحا جميلا أيها الملك الرضى ... عن محكمات لم نطق إحصاءها "

" تقف القوافي دونهن حسيرة ... لا عيها تخفي ولا إعياءها "

" فلعل علياكم تسامح راجيا ... إصغاءها ومؤملا إغضاءها "

في رثاء طليطلة

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى للإسلام

" لثكلك كيف تبتسم الثغور ... سرورا بعدما سبيت ثغور "

" أما وأبي مصاب هد منه ... ثبير الدين فاتصل الثبور "

" لقد قصمت ظهور حين قالوا ... أمير الكافرين له ظهور "

" ترى في لدهر مسرورا بعيش ... مضى عنا لطيته السرور "

" أليس بها أبي النفس شهيم ... يدير على الدوائر إذ تدور "

" لقد خضعت رقاب كن غلبا ... وزال عتوها ومضى النفور "

" وهان على عزيز القوم ذل ... وسامح في الحريم فتى غير "

" طليطلة أباح الكفر منها ... حماها إن ذا نبأ كبير "

" فليس مثالها إيوان كسرى ... ولا منها الخورنق والسدير "

" محصنة محسنة بعيد ... تناولها ومطلبها عسير "

" ألم تك معقلا للدين صعبا ... فذللته كما شاء القدير "

" وأخرج أهلها منها جميعا ... فصاروا حيث شاء بهم مصير "

" وكانت دار ايمان وعلم ... معالمها التي طمست تنير "

" فعادت دار كفر مصطفاه ... قد اضطربت بأهلها الأمور "

" مساجدها كنائس أي قلب ... على هذا يقر ولا يطير "

" فيا أسفاه يا أسفاه حزنا ... يكرر ما تكررت الدهور "

" وينشر كل حسن ليس يطوى ... إلى يوم يكون به النشور "

" أدبلت قاصرات الطرف كانت ... مصونات مساكنها القصور "

" وأدركها فتور في انتظار ... لسرب في لواحظه فتور "

" وكان بنا وبالقبينات أولى ... لو انضمت على الكل القبور "

" لقد سخنت بحالتهن عين ... وكيف يصح مغلوب قرير "

" لئن غبنا عن الاخوان إنا ... بأحزان وأشجان حضور "

" نذور كان للأيام فيهم ... بمهلكهم فقد وقت النذور "

" فإن قلنا العقوبة أدركتهم ... وجاءهم من الله النكير "

" فأنا مثلهم وأشد منهم ... نجور وكيف يسلم من يجور "

" أئامن أن يحل بنا انتقام ... وفينا الفسق أجمع والفجور "

" وأكل للحرام ولا اضطرار ... إليه فيسهل الأمر العسير "

" ولكن جرة في عقر دار ... كذلك يفعل الكلب العقور "

" يزول الستر عن قوم إذا ما ... على العصيان أرخيت الستور "

" يطول علي ليلى رب خطب ... يطول لهوله الليل القصير "

" خذوا ثار الديانة وانصروها ... فقد حامت على القتلى النسور "

" ولا تهنوا وسلوا كل غضب ... تهاب مضاربا منه النحور "

" وموتوا كلكم فالموت أولى ... بكم من ان تجاروا أو تجورا "

" أصبرا بعد سبي وامتحان ... يلام عليها القلب الصبور "

" فأم الثكل مذكور ولود ... وأم الصقر مقلات نذور "

" نخور إذا دهينا بالرزايا ... وليس بمعجب بقر يخور "

" ونجبن ليس نزار لو شجعنا ... ولم نجبن لكان لنا زئير "

" لقد ساءت بنا الأخبار حتى ... أمات المخبرين بها الخبير "

" أتتنا الكتب فيها كل شر ... وبشرنا بأحسننا البشير "

" وقيل تجمعوا لفراق شمل ... طليطلة تملكها الكفور "

" فقل في خطة فيها صغار ... يشيب لكربها الطفل الصغير "

" لقد صم السميع فلم يعول ... على نيا كما عمي البصير "

" تجاذبنا الأعادي باصطناع ... فينجذب المخول والفقير "

" فباق في الديانة تحت خزي ... تثبطه الشويهة والبعير "

" وآخر مارق هانت عليه ... مصائب دينه فله السعير "

" كفى حزنا بأن الناس قالوا ... إلى أين التحول والمسير "

" أتترك دورنا ونفر عنها ... وليس لنا وراء البحر دور "

" ولا ثم الضياع تروق حسنا ... نباكرها فيعجبنا البكور "

" وظل وارف وخرير ماء ... فلا قر هناك ولا حرور "

" ويؤكل من فواكهها طري ... ويشرب من جداولها نمير "

" يؤدى مغرم في كل شهر ... ويؤخذ كل صائفة عشور "

" فهم أحمى لحوزتنا وأولى ... بنا وهم الموالي والعشير "

" لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وعر القوم بالله الغرور "

" فلا دين ولا دنيا ولكن ... غرور بالمعيشة ما غرور "

" رضوا بالرق يا لله ماذا ... رآه وما أشار به مشير "

" مضى الإسلام فابك دما عليه ... فما ينفي الجوى الدمع الغزير "

" ونح وانذب رفاقا في فلاة ... حيارى لا تحط ولا تسير "

" ولا تجتح إلى سلم وحارب ... عسى أن يجبر العظم الكسير "

" أنعمى عن مراشدنا جميعا ... وما إن منهم إلا بصير "

" ونلقى واحدا ويفر جمع ... كما عن قانص فرت حمير "

" ولو أنا ثبتنا كان خيرا ... ولكن ما لنا كرم وخير "

" إذا ما لم يكن صبر جميل "

" فليس بنافع عدد كثير "

" ألا رجل له رأي أصيل ... به مما نحاذر نستجير "

" يكر إذا السيوف تناولته ... وأين بنا إذا ولت كرور "

" ويطعن بالقنا الخطار حتى ... يقول الرمح ما هذا الخطير "

" عظيم أن يكون الناس طرا ... بأندلس قتيل أو أسير "

" أذكر بالقراع الليث حرصا ... على أن يقرع البيض الذكور "

" يبادر خرقها قبل اتساع ... لخطب منه تنخسف البدور "

" يوسع للذي يلقاه صدرا ... فقد ضاقت بما تلقى صدور "

" تنغصت الحياة فلا حياة ... وودع جيرة إذ لا مجير "

" فليل فيه هم مستكن ... ويوم فيه شر مستطير "

" ونرجو أن يتيح الله نصرا ... عليهم إنه نعم النصير "

نونية الرندي وشيء من شعره

ومن مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى

" لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان "

" هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته ازمان "

" وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان "

" يمزق الدهر حتما كل سايغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان "

" وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان "

" أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان "

" وأين ما شاده شداد في إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان "

" وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان "

" أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا "

" وصار ماكان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسان "

" دار الزمان على دارا وقاتله ... وأم كسرى فما أواه إيوان "

" كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان "

" فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان "

" وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان "

" دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد نهلان "

" أصابها العين في الإسلام فامتحتت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان "

" فأسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان "

" وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان "

" وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن "

" قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان "

" تبكي الحنيفة البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان "

" على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران "

" حيث المساجد قد صارت كنانس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان "

" حتى المحارب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترتي وهي عيدان "

" ياغافلا وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سنة فالدهر يقطان "

" وماشيا مرحا بلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان "

" تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها من طول الدهر نسيان "

" يا راكبين عناق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان "

" وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران "

" وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان "

" أعندكم نيا من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركيان "

" كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان "

" ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان "

" ألا نفوس أبيات لها همم ... اما على الخير أنصار وأعوان "

" يامن لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان "

" بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عيدان "

" فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان "

" ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان "

" يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان "

" وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كانما هي ياقوت ومرجان "

" يقودها العليج للمكروه مكرهه ... والعين باكية والقلب حيران "

" لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان "

انتهت القصيدة الفريدة ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف وما اعتمده منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه ومن له أدني ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب فكان بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات وقد بينت ذلك في أزهار الرياض فليراجع

وصالح بن شريف الرندي صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس ومن بديع نظمه قوله

" سلم على الحي بذات العرار ... وحي من أجل الحبيب الديار "

" وخل من لام على حبهم ... فما على العشاق في الذل عار "

" ولا تقصر في اغتنام المنى ... فما ليالي الأانس إلا قصار "

" وإنما العيش لمن رame ... نفس تدارى وكؤوس تدار "

" وروحه الراح ربحانه ... في طيبه بالوصل أو بالعقار "

" لا صبر للشيء على ضده ... والخمر والههم كماء ونار "

" مدامه مدنية للمنى ... في رقة الدمع ولون النضار "

" مما أبو ريق أباريقها ... تنافست فيها النفوس الكبار "

" معلتي والبرء من علتي ... ما أطيب الخمرة لولا الخمار "

" ما أحسن النار التي شكله ... كالماء لو كف شرار الشرار "

" وبي وإن عذبت في حبه ... ببعده على اقتراب المزار "

" ظبي غرير نام عن لوعتي ... ولا أذوق النوم إلا غرار "

" ذو وحنة كأنها روضة ... قد بهر الورد بها والبهار "

" رجعت للصبوة في حبه ... وطاعة اللهو وخلع العذار "

" ياقوم قولوا بدمام الهوى ... أهكذا يفعل حب الصغار "

" وليلة نبهت أجفانها ... والفجر قد فجر نهر النهار "

" والليل كالمهزوم يوم الوغى ... والشهب مثل الشهب عند الفرار "

" كأنما استخفى السها خيفة ... وطولب النجم بثار فثار "

" لذاك ما شابت نواصي الدجى ... وطارح النسر أخاه فطار "

" وفي الثريا قمر سافر ... عن غرة غير منها السفار "

" كأن عنقودا تثنى به ... إذ صار كالعرجون عند السرار "

" كأنها تسبك ديناره ... وكفها يقتل منه السوار "

" كأنما الظلماء مظلومة ... تحكم الفجر عليها فجار "

" كأنما الصبح لمشتاقه ... عز غنى من بعد ذل افتقار "

" كأنما الشمس وقد أشرقفت ... وجه أبي عبد الإله استنار "

" محمد محمد كاسمه ... شخص له في كل معنى يشار "

" أما المعالى فهو قطب لها ... والقطب لا شك عليه المدار "

" مؤئل المجد صريح العلا ... مهذب الطبع كريم النجار "

" تزهى به لخم وساداتها ... وتنتمى قيس له في الفجار "

" يفيض من جود يديه على ... عافيه ما منه تحار البحار "

" اليمين من يمانه حكم جرى ... واليسر من شيمة تلك اليسار "

" أخ صفا منه لنا واحد ... فالدهر مما قد جنى في اعتذار "

" فإن شكرنا فضله مرة ... فقد سكرنا من نداء مرار "

" ونحن منه في جوار العلا ... تدور للسعد بنا منه دار "

" الحافظ الله وأسمائه ... لذلك الجار وذاك الجوار "

رسالة ابن عميرة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية
رجع - وقد رأيت أن أثبت هنا رسالة خاطب بها الكاتب البارع القاضي أبو المطرف ابن عميرة
المخزومي الشيخ الحافظ أبا عبدالله ابن الأبار يذكر له
أخذ العدو مدينة بلنسية وهي

" ألا فيئة للدهر تدنو بمن نأى ... ويقيا يرى منها خلاف الذي رأى "

" ويا من عذيري منه يغدر من أوى ... إليه ولا يدري سوى خلف من وأى "

" ذخائر مافي البر والبحر صيده ... فلا لؤلؤا أبقي عليه ولا وأى "

أبها الأخ الذي دهش ناظري لكتابه بعد أن أدهش خاطري من إغبابه وسرني من بشره إيماض بعد
أن ساءني من جهته إعراض جرت على ذكره الصلة فقوم قدح نبعثها وروى أكتاف تلعتها وأحدث
ذكرا من عهدنا الماضي فنقط وجه عروسه وشعشع خمر كؤوسه وسقى بماء الشبيبة ثراه وأبرز
مثل مرأة الغريبة مرآه فيورك فيه أحوديا وصل رحمه وكسا منظره من البهجة ما كان حرمه وحيا الله
تعالى منه وليا على سالف عهدي تمادى وشعار ودي نادى وبين الإحسان شيمته وأبان والبيان لا
تجانب عنه ديمته ولا تغلو بغير قلمه قيمته واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها ودعوة ذكر وجوم النادي
لها ثم أرسلها ترجف بوادرها من خيفة وتوغر بوغم صدر قلم وصحيفة وتنذر من ربحانه فريش أن
تمنعه عرفها وتحقق إليه طرفها واتقى غارة على غره من الناجي برأس طمرة ولم يأمن هجران
المهاجر بعد وصله وعكر عكرمة المغطي بحلمه على أبي جهله وعند ذكر كتيبة خالد أجحم وذكر
يوم أحاطت به فارس فاستلحم فاعتذر عما قال وأضمر الحذر إلا أن يقال فمهلا أيها الموفى على
علمه النافث بسحر قلمه أظن منزلتك في البلاغة ومهيعة لاحب ومنزعها بالعقول لالعاب تسفل
وقد ترفعت أو تخفى وإن تلفعت عرفناك ياسودة وشهرت حلة

عطارد الملاحة والجودة فلم حين تهيب الأخ الأوحى من قصي غطاريفها ولو استثار من حفائظها
تالدها وطريفها لم يذكر يد قومه عند أبيها وقد رام خطة أشرف على تأيها حين أهاب بكم لمهمة
ودعا منكم أخاه لأمه ولولا ذلك لما خلا له وجه الكعبة ولا خلس من تلك المضايق الصعبة وبأن
أعرتموه نجدتكم الموصوفة غلب على ما كان بأيدي صوفه فكيف نجحد اليد عند عمنا او نشخذ
أسنة الألسنة لذمنا أو كيف نلقاتكم بجدنا وأبوكم أبو بكر معدنا وما تيامنكم إلى سبأ بن يشجب وإن
أطلنا فيه التعجب بالذي يقطع أرحامنا ويمنع اشتباكتنا والتحامنا بعد أن شددنا فعالنا بفعالكم ورأينا
أقدامنا في نعالكم ولو شئتم توعدتكم بأسود سؤددكم عند الإقدام والحاح إلحافكم في ضرب الهام
لكن نقول إن قومنا لكرام ولو شاءوا كان لنا منهم شرة وعرام
واعود من حيث بدا الأخ الذي أبته شوقي وأنطعم حلاوة عشرته بقية في حاسة ذوفي طارحني
حديث مورد جف وقطين خف فيا لله لأتراب درجوا وأصحاب عن الأوطان خرجوا قصت الأجنحة وقيل
طيروا وانما هو القتل أو الأسر أو تسيروا فتفرقوا أيدي سبا وانتشروا ملء الوهاد والرهبى ففي كل
جانب عويل وزفرة وبكل صدر غليل وحسرة ولكل عين عبرة لا ترقأ من أجلها عبرة داء خامر بلادنا
حين اتاها وما زال بها حتى سجدى على موتاها وشجا ليومها الأطول كهلهما وقتاها وأنذر بها في
القوم بحران أنيعة يوم أثاروا أسدها المهيجة فكانت تلك الحطمة طل الشؤوب وباكورة البلاء
المصوب أنكلتنا إخوانا أبكانا نعيمهم ولله أحوذيمهم
وألعميهم ذاك أبو ربيعا وشيخ جميعنا سعد بشهادة يومه ولم ير ما يسوءه في أهله وقومه وبعد
ذلك أخذ من الأم بالمخني وهي بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق وما لبث أن أخرج من
مسجدها لسان الأذان وأخرج من جسدها روح الايمان فبرح الخفاء وقيل على آثار من ذهب العفاء
وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء فأودت الخفة والحصافة وذهب الجسر والرصافة
ومزقت الحلة والشملة وأوحشت الجرف والرملة ونزلت بالحارة وقعة الحرة وحصلت الكنيسة من
جآذرها وظبائها على طول الحسرة فأين تلك الخمائيل ونضرتها والجداول وخضرتها والأندية وأرجها
والأودية ومنعرجها والنواسم وهبوب مبتلها والأصائل وشحوب معتلها دار ضاحكت الشمس بحرها
وبحيرتها وأزهار ترى من أدمع الطل في أعينها ترددها وحيرتها ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها
وشقرها حتى أحاطت بجزيرة شقرها فأها لمسقط الرأس هو نجمه ولفادح الخطب سرى كلمه
ويالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها وروضة أجاد أبو إسحاق نعتها وإنما كانت داره التى فيها دب
وعلى أوصاف محاسنها أكب وفيها اتته منيته كما شاء وأحب ولم تعدم بعده محبين قشبيهم إليها
ساقوه ودمعهم عليها أراقوه وقد أثبت من النظم ما يليق بهذا الموضع وإن لم يكن له ذلك الموقع
" أقلوا ملامى أو فقولوا وأكثروا ... ملومكم عما به ليس يقصر "
" وهل غير صب ما تنى عبراته ... إذا صعدت أنفاسه تتحدر "
" يحن وما يجدي عليه حنينه ... إلى أربع معروفها متنكر "
" ويندب عهدا بالمشقر فاللوى ... وأين اللوى منه وأين المشقر "
" تغير ذاك العهد بعدي وأهله ... ومن ذا على الأيام لا يتغير "
" وأقفر رسم الدار إلا بقية ... لسائلها عن مثل حالى تخبر "
" فلم تبقى إلا زفرة إثر زفرة ... ضلوعى لها تنقد أو تنفطر "
" وإلا اشتياق لا يزال يهزني ... فلا غاية تدنو ولا هو يغتر "
" أقول لساري البرق في جنح ليلة ... كلانا بها قد بات يبكي ويسهر "
" تعرض مجتازا فكان مذكرا ... بعهد اللوى والشيء بالشيء يذكر "
" أتأوي لقلب مثل قلبك خافق ... ودمع سفوح مثل قطرك يقطر "
" وتحمل انفاسا كومضك نارها ... إذا رفعت تبدو لمن يتنور "
" يقر بعيني أن أعين من نأى ... لما أبصرته منك عيناى تبصر "
" وأن يتراءك الخليط الذين هم ... بقلبي وإن غابوا عن العين حضر "
" كفى حزنا أنا كأهل محصب ... بكل طريق قد نفرنا ونفر "
" وأن كلينا من مشوق وشائق ... بنار اغتراب فى حشاه تسعر "
" ألا ليت شعري والأمانى ضلة ... وقولي ألا يا ليت شعري تحير "
" هل النهر عقد للجزيرة مثلما ... عهدنا وهل حصابؤه وهي جوهر "
" وهل للصبا ذيل عليه تجره ... فيزور عنه موجه المتكسر "
" وتلك المغاني هل عليها طلاوة ... بما راق منها أو بما رق تسحر "
" ملاعب أفراس الصباية والصبا ... تروح إليها تارة وتبكر "

" وقبلي ذاك النهر كانت معاهد ... بها العيش مطلول الخميطة أخضر "
 " بحيث بياض الصبح أزرار جيبه ... تطيب وأردان النسيم تعطر "
 " ليال بماء الورد ينضح ثوبها ... وطيب هواء فيه مسك وعنبر "
 " وبالجبل الأدنى هناك خطى لنا ... إلى اللهو لا تكبو ولا تتعثر "
 " جناب بأعلاه بهار ونرجس ... فأبيض مفتر الثنايا وأصفر "
 " وموردنا في قلب قلت كمقلة ... حذارا علينا من قذى العين تستر "
 " وكم قد هبطنا الفاع نذعر وحشه ... وباحسنه مستقبلا حين يذعر "
 " نقود إليه طائعا كل جارح ... له منخر رجب وخصر مضمر "
 " إذا ما رميناه به عبث به ... مؤللة الأطراف عنهن تكشر "
 " تضم لأروى النيق حزان سهلها ... وقد فقدت فيها مهارة وجؤذر "
 " كذاك إلي ان صاح بالقوم صائح ... وأنذر بالبين المشتت منذر "
 " وفرقهم أيدي سبا وأصابهم ... على غرة منهم قضاء مقدر "

ونعود إلى حيث كنا من تبدد شمل الجيرة وطبي بساط الجزيرة اما شاطبة فكانت من قصبها شوساء الطرف ويبطحائها عروسا في نهاية الطرف فتخلى عن الذروة من أخلاها وقيل للكافر شأنك وأعلاها فقبل أن تضع الحرب أوزارها كشط عنها إزارها فاستحل الحرمة أو تأولها وما انتظر أقصر المدة ولا أطولها واما تدميره فجاد عودها على الهصر وامكنت عدوها من القصر فداحى الكفر الايمان وناجى الناقوس الأذان وما وراءها من الأصقاع التى باض الكفر فيها وفرخ وانزل بها ما أنسى التاريخ ومن أرخ فوصفكم على الحادثة فيها أتى وفي ضمان القدرة الانتصاف من عدو عثا وعتا وإنا لنرجوها كرة تفك البلاد من أسرها وتجبرها بعد كسرها وإن كانت الدولة العامرية منعت بالقرع ذمارها ورفعت على اليفاع نارها فهذه العمرية بتلك المنقبة أخلق والعدو لها أهيب ومنها أفرق وما يستوي نسب مع البقل نبت وبالمستفيض من النقل ما ثبت وآخر علت سماؤه على اللمس ورسا ركنه في الإسلام رسو قواعده الخمس وكان كما قال أبو حنيفة في خبر المسح جاءنا مثل الشمس والأيام العمرية هي أم الوقائع المحكية ومن شاء عدوها من اليرموكية إلى الأركية وهذه الأيام الزاهرة هي زبدة حلاوتها وسجدة تلاوتها وإمامتها العظمى أيدها الله تعالى تمهل الكافر مدة إملائه ثم تشفي الإسلام من دائه وتطهر الأرض بنجس دمائه بفضل الله تعالى المرجو زيادة نعمه قبلها وآلاته

راجعت سيدي مؤديا ما يجب أداؤه ومقتديا وما كل أحد يحسن اقتداؤه وإنما ناضلت ثعليا وعهدي بالنضال قديم وناظرت جدليا وما عندي للمقال تقديم وأطعته في الجواب ولقريحتي يعلم الله تعالى نكول ورويتي لولا حق المسألة بطير الحوادث المرسله عصف مأكول أتم الله تعالى عليه آلاءه وحفظ مودته وولائه ومتع بخلته الكريمة أخلاءه بمنه والسلام انتهت الرسالة ورأيت في رحلة ابن رشيد لما ذكر أبا المطرف ما صورته واما الكتابة فقد كان حامل لوائها كما قال بعض أصحابنا ألان الله تعالى له الكلام كما ألان الحديد لداود عليه السلام وأخبرني شيخنا أبو بكر أن شيخه أبا المطرف رأى رسول الله في النوم فأعطاه حزمة أقلام وقال استعن بهذه على كتابتك أو كما قال انتهى

رسالة ابن الأبار التي أجاب أبو المطرف عنها

وبعد كتبي لهذه الرسالة رأيت ان أذكر رسالة الحافظ ابن الأبار التي هذه جواب عنها وهي من غرض ما نحن فيه فلنقتبس نور البلاغة منها وهي سيدي وإن وجم لها النادي وجمجم بها المنادي ذلك لصغرنا عن كبره في المعارف الأعلام وصدرها يوغر صدور الصحائف والأقلام وأعيد ربحانة قريش ان تروح من حفيظتها في جيش قد هابتها مغاوير كل حي وأجابتها الغطاريف من قصي تدلف بين يديها كتيبة خالد وتحلف لا قدحت نار الهيجاء بزند صالد او تنصف من غامطها وتقذف به وسط غطامطها لا جرم أني من جريمتي حذر وعمما وضحت به قيمتي للمجد معتذر إلا أن يصوح من الروض نبتة وجناته ويصرح بالقبول حلمه وإناته الحديث عن القديم شجون والشان بتقاضي الغريم شؤون فلا غرو أن أطارحه إياه وأفاتحه الأمل في لقياه ومن لي بمقالة مستقلة أو إخالة غير مخلة أبت البلاغة إلا عمادها وعلى ذلك فاستنبىء عمادها درجات اللدات والأتراب وخرجت الروم بنا إلى حيث الأعراب أيام دفعنا لأعظم الأخطار وفجعنا بالأوطان والأوطار فالإم نداري برح الألم وحتام نساري النجم في الظلم جمع أوصاب ما له من انقضاض ومضض اغتراب شذ عن ابن مضاض فلو سمع الأول بهذا الحادث ماضرب المثل بالحارث يالله من جلاء ليس به يدان وثناء قلما يسفر عن تدان وعد

الجد العاثر لقاءه فأنجز ورام الجلد الصابر انقضاءه فأعجز هؤلاء الاخوان مكثهم لا يتمتع به أوان وبينهم كنبت الأرض ألوان بين هائم بالسرى ونائم في الثرى من كل صنيدي بطل أو منطيق غير ذي خطأ ولا خطل قامت عليه النوادب لما فعدت النوائب وهجمت بيوتها لمنعاه الجماجم والدوائب وأما الأوطان المحبب عهدا يحكم الشباب المشبب فيها بمحاسن الأحباب فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد وأخنى عليها الذي أخنى على ليد أسلمها الإسلام وانتظمها الانتثار والاصطلام حين وقعت أنسرها الطائفة وطلعت أنحسها الغائرة فغلب على الجذل الحزن وذهب مع المسكن السكن

" كزعزع الريح صك الدوح عاصفها ... فلم يدع من جنى فيها ولا غصن "

" وأها وأها يموت الصبر بينهما ... موت المجامد بين البخل والجبن "

أين بلنسية ومغانبها وأغاريد ورقها وأغانبها أين حلى رصافتها

وجسرهما ومنزلا عطائها ونصرها أين أفاؤها تندى غصارة وذكاؤها تبدو من خضارة أين جداولها الطفاحة وخمائنها أين جنائبها النفاحة وشمائنها شد ما عطل من قلائد أزهارها نحرها وخلعت شعشعانية ضحاهها بحيرتها وبحرها فأية حلية لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان وهل كانت حتى بانث إلا رونق الحق وبشاشة الإيمان ثم لم يلبث داء عقرها أن دب إلى جزيرة شقرها فأمر عذبتها النمير وذوى غصنها النضير وخرست حمائم أدواحها وركدت نواسم أرواحها ومع ذلك اقتحمت من الأيام دانية فنزحت قطوفها وهي دانية ويا لشاطبة وبطحائها من حيف الأيام وإنحائها والهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها وحيان وقلاعها وقرطبة ونوادبها وحمص وواديها كلها رعي كلؤها ودهي بالتفريق والتمزيق ملؤها عض الحصار أكثرها وطمس الكفر عينها وأثرها وتلك البيرة بصدد البوار وربة في مثل حلقة السوار ولا مرية في المرية وخفضها على الجوار إلى بنيات لواحق بالأمهات ونواطق بهاك لأول هاتف بهات

ما هذا النفخ بالمعمور اهو النفخ في الصور أم النفر عاريا من الحج المبرور وما لأندلس أصيبت بأشرافها ونقصت من أطرافها قوض عن صوامعها الأذان وصمت بالنواقيس فيها الأذان أجت ما لم تجن الأصقاع أعقت الحق فحاق بها الإيقاع كلا بل دانت للسنة وكانت من البدع في أحسن جنة هذه المروانية مع اشتداد أركانها وامتداد سلطانتها ألفت حب آل النبوة في حبات القلوب وألوت ما ظفرت من خلعه ولا قلعه بمطلوب إلى المرابطة بأقاصي الثغور والمحافظة على معالي الأمور والركون إلى الهضبة المنيعية والروضة المريعة من معاداة الشيعة وموالاة الشيعة فليت شعري بم استوتق تمحيصها ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها اللهم غفرا طالما ضر ضجر ومن الأنبياء ما فيه مزدجر جرى بما لم نقدره المقدر فما عسى أن ينفت به المصدر وربنا الحكيم العليم فحسبنا التفويض له والتسليم ويا عجباً لبني الأصغر أنسيت مرج الصفر ورميها يوم البرموك بكل أغلب غضنفر دع ذا فالعهد به بعيد ومن اتعظ بغيره فهو سعيد هلا تذكرت العامرية وغزواتها وهابت العمرية وهبواتها أما الجزيرة بخيلها محدقة وبأحاديث فتحها مصدقة هذا الوقت المرتقب والزمان الذي زجيت له الشهور والحقب وهذه الإمامة أيدها الله تعالى هي المنقذة من أسرها والمنقذة لسلطانتها مراسم نصرها فيتاح الأخذ بالثار ويزاح عن الجنة أهل النار ويعلم الكافر لمن عقبى الدار حاورت سيدي بشار الفاجي الفاجع وحاولت براء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع وبودي لو تقع في الأرجاء مصاقبة فترفع من الأرزاء معاقبة أليس لديه أسو المكوم وتدارك المظلوم ويديه أزمة المنثور والمنظوم خيال يختر في اقناع إياد وصوغ ما لم يخطر على قلب زيد ولا بخاطر زياد بست الجبال الطوامح فما بست وأبو فتحها وغيضت البحار الطوافح فمن يعبأ بالركايا ومتحها أين أبو الفضل ابن العميد من العماد الفاضل وضمصامة عمرو من قلمه الفاضل هذا مدرهها الذي فعل الأفاعيل وأحمدتها الذي سما على ابراهيم وإسماعيل وهما اماما الصناعة وهما البراعة والبراعة بهما فخر من نطق بالضاد وبسببهما حسدت الحروف الصاد لكن دفعهم بالراح وأعرى مدرعهم من المراح وشرف دونهم ضعيف القصب على صم الرماح أبغاه الله تعالى وبيانه صادق الأنواء وزمانه كاذب الأسواء ولا زال مكانه مجاوزا ذؤابة الجوزاء وإحسانه مكافأ بأحسن الجزاء والسلام

فصول من درر السمط لابن الأبار

وقد عرفت بابن الأبار في أزهار الرياض بما لا مزيد عليه غير أنني رأيت هنا أن أذكر فصولا مجموعة من كلامه في كتابه المسمي بدر السمط في خبر السبط قال رحمه الله تعالى رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت فروع النبوة والرسالة ونبايح السماحة واليسالة صفوة آل أبي طالب وسراة بني لؤي بن غالب الذين حباهم الروح الأمين وصلاحهم الكتاب المبين فقل في قوم شرعوا الدين القيم ومنعوا البيتم ان يقهر والأيم ماقد من أديم آدم أطيب من أبيهم طينة ولا أخذت الأرض أجمل من مساعيمهم زينة لولاهم ماعبد الرحمن ولا عهد الإيمان وعقد

الأمان ذؤابة غير أشابة فضلهم ما شأنه نقص ولا شابه سرارة محلثهم سر المطلوب وقرارة محبتهم حبات القلوب أذهب الله عنهم الرجس وشرف بخلقهم الجنس فان تميزوا فيشريعتهم البيضاء او تحيزوا فلعشيرتهم الحمراء من كل يعسوب الكتيبة منسوب لنجيب ونجبية نجاره الكرم وداره الحرم نمته العرائن من هاشم إلى النسب الأوضح إلى نبعة فرعها في السماء ومغرسها سررة الأبطح اولئك السادة أحيي وأفدي والشهادة بحبهم أوفي وأؤدي ومن يكتمها فإنه أثم قلبه

فصل - ما كانت خديجة لتأتي بخداج ولا الزهراء لتلد إلا ازاهر كالسراج مثل النحلة لا تأكل إلا طيبا ولا تضع إلا طيبا خلدت بنت خويلد ليزكو عقبها من الحاشر العاقب ويسمو مرقبها على النجم الثاقب لم تخد بمثلها المهاري ولم يلد له غيرها من المهاري أمت من بعولتها قبله لتصل السعادة بحبلها حبله ملاك العمل خواتمه رب ربات حجال أنفذ من فحول رجال

" وما التانيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهِلال "

هذه خديجة من أخيها حزام أحزم ولشعار الصدق من شعارات القص أزم ركنت إلى الركن الشديد وسددت للهدى كما هديت للتسديد يوم نبيء خاتم الأنبياء وأنبيء بالنور المنزل عليه والضيء فصل - وكان قبيل المبعث وبين يدي لم الشعث يثابر على كل حسنى وحسنة ويجاور شهرا من كل سنة يتحرى حراء بالتعهد وبزحني تلك المدة في التعبد وذلك الشهر المقصور على التبرر المقذور فيه رفع التضمر شهر رمضان المنزل فيه القرآن فبيناه لا ينام قلبه وإن نامت عيناه جاءه الملك مبشرا بالنجح وقد كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح فغمره بالكلاءة وأمره بالقراءة وكلما تحبس له غطه ثم أرسله وإذا أراد الله بعبد خيرا عسله

" تريدين إدراك المعالي رخيصة ... ولا بد دون الشهد من ابر النحل "

كذلك حتى عاذ بالأرق من الفرق وقد علق فاتحة العلق فلا يجري غيرها علي لسانه وكانما كتبت كتابا في جنانه

فصل ولما أصبح يؤم الأهل وتوسط الجبل يريد السهل وقد قضى الأجل وما نضا الوجل نوحى بما في الكتاب المسطور ونودي كما نودي موسى من جانب الطور فعرض له في طريقه ما شغله عن فريقه فرفع رأسه متاملا فأبصر الملك في صورة رجل متمثلا يشرفه بالنداء ويعرفه بالاجتباء وإنما عضد خبر الليلة بعيان اليوم وأري في اليقظة مصداق ما أسمع في النوم ليحق الله الحق بكلماته وعلى ما ورد في الأثر وسرد رواة السير فذلك اليوم كان عيد فطرننا الان وغير بدع ولا بعيد ان يبدأ الوحي بعيد كما ختم بعيد " اليوم أكملت لكم دينكم " المائدة 3 فبهت لما سمعه وراءه وثبت لا يتقدم امامه ولا يرجع وراءه

" وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متقدم عنه ولا متأخر "

ثم جعل في الخوف والرجاء لا يقلب وجهه في السماء إلا تعرض له في تلك الصورة وعرض عليه ما أعطاه الله سبحانه من السورة فيقف موقف التوكل ويمسك حتى عن التأمل

" تتوق إليك النفس ثم أردتها ... حياء ومثلي بالحياء حقيق "

" أذود سوام الطرف عنك وماله ... إلى أحد إلا إليك طريق "

فصل - وفطنت خديجة لاحتباسه فأمعنت في التماسه تزوجوا الودود الولود ولغورها بل لغورها بعثت في طلبه رسلها وانبعثت تأخذ عليه شعاب مكة وسبلها

" إن المحب إذا لم يستزر زارا "

طال عليها الأمد فطار إليها الكمد والمحب حقيقة من لا يفيق فيقه بالنفس النفيسة سماحه وجوده وفي وجود المحبوب الأشرف وجوده

" كأن بلاد الله مالم تكن بها ... وإن كان فيها الخلق طرا بلاقع "

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والههم بالليل جامع " " نهاري نهار الناس حتى إذا " " دجا ... لي الليل هزنتي إليك المضاجع "

" لقد ثبتت في القلب منك محبة ... كما ثبتت في الراحيتين الأصابع "

فصل وبعد لأي ماورد عليها وقعد مضيئا إليها فطفقت بحكم الإجلال تمشح أركانه وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه فباح له بالسرا المغيب وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب فعلمت انه الصادق المصدوق وحكمت بانه السابق لا المسبوق اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وما زالت حتى أزلت ما به من الغمة وقالت إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة

" إني تفرست فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أن ما خانني البصر "

" أنت النبي ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب فقد أزرى به القدر "

لا ترهب فسوف تبهر وسيبدو أمر الله تعالى ويظهر أنت الذي سجعت به الكهان ونزلت له من صوامعها الرهبان وسارت بخير كرامته الركبان أنت الذي ما حملت أخف منه حامل ودرت ببركته الشاة فإذا هي حافل

" وأنت لما ولدت أشرقت الأرض ... وضاءت بنورك الأفق "

" فنحن في ذلك الضياء وفي النور ... وسبيل الرشاد نخترق "

فصل - وما لبثت أن أغلقت أبوابها وجمعت عليها أبوابها وانطلقت إلى ورقة بن نوفل تطلبه بتفسير ذلك المجمل وكان يرجع إلى عقل حصيف ويبحث عمن يبعث بالدين الحنيف فاستبشر به ناموسا وأخبر انه الذي كان يأتي موسى فإزدادت إيمانا وأقامت على ذلك زمانا ثم رأت أن خبر الواحد قد يلحقه التفتيد ودرت أن المجتهد لا يجوز له التقليد طلب العلم فريضة على كل مسلم فرجعت أدراجها في ارتياد الإقناع وألقي في روعها إلقاء الخمار والقناع فهناك وضح لها البرهان وضح لها أن الآني ملك لا شيطان

" تدلى عليه الروح من عند ربه ... ينزل من جو السماء ويرفع "

" تشاوره فيما نريد وقصدنا ... إذا ما اشتهدى أنا نطيع ونسمع "

فصل - سبقت لها من الله تعالى الحسنى فصنعت حسنا وقالت حسنا ومن يؤمن بالله يهد قلبه ما فتر الوحي بعدها ولا مطل الحق الحي وعددها وعد الله لا يخلف الله وعده دانته لحب ذي الإسلام فحياها الملك بالسلام من الملك السلام من كان لله كان الله له أغنت غناء الأبطال فغناها لسان الحال

" هل تذكرين فدتك النفس مجلسنا ... يوم التقينا فلم أنطق من الحصر "

" لا أرفع الطرف حولي من مراقبة ... بقيا علي وبعض الحزم في الحذر "

يسرت لاحتمال الأذى والنصب فبشرت ببيت في الجنة من قصب هل أمنت إذ أمنت من الرعب حتى غنيت عن الشيع بما في الشعب

لا تحسب المجد تمرا أنت أكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا " وإها لها احتملت عض "

الحصار وما أطاقك فقد المختار

يطول اليوم لا ألقاك فيه ... وشهر نلتقي فيه قصير " والحبيب سمع المحب وبصره وله طول "

محياه وقصره

" أنت كل الناس عندي فإذا ... غبت عن عيني لم ألق أحدا "

مكثت للرياسة مواسية وأسية فثلثت في بحوحة الجنة مريم وأسية ثم ربعته البتول فبرعت نطقت بذلك الآثار وصدعت خير نساء العالمين أربع فصل - إلى البتول سير بالشرف التالد وسيق الفخر بالأم الكريمة والوالد حلت في الجيل الجليل وتحلت بالمجد الأثيل ثم تولت إلى الظل الظليل وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل " وأبيها إن أم أبيها لا تجد لها شبيها "

ثره النبي وطله الوصي وذات

الشرف المستولي على الأمد القصي كل ولد الرسول درج في حياته وحملت هي ما حملت من آياته ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء لا فرع للشجرة المباركة من سواها فهل جدوى أوفر من جدواها والله أعلم حيث يجعل رسالاته حفت بالتطهير والتكريم وزفت إلى الكفو الكريم فوردا صفو العارفة والمنة وولدا سيدي شباب أهل الجنة عوضت من الأمتعة الفاخرة بسيدي الدنيا والآخرة ما أثقل نحوها ظهرا ولا بذل غير درعه مهرا كان صفر اليدين من البيضاء والصفراء وبحالة لا حيلة معها في اهداء الحلة السبراء فصاهره الشارع وخالله وقال في بعض صلوك لا مال له نرفع درجات من نشاء

فصل

" أنتهب الأيام أفلاذ أحمد ... وأفلاذ من عاداهم تتعدد "

" ويضحى ويظما أحمد وبناته ... وبنات زياد وردها لا يصرد "

" أفي دينه في أمنه في بلاده ... تضيق عليهم فسحة تتورد "

" وما الدين إلا دين جدهم الذي ... به أصدروا في العالمين واوردوا "

انتهى ما سنح لي ذكره من درر السمط وهو كتاب غاية في بابه ولم اورد منه غير ما ذكرته لأن في الباقي ما تشم منه رائحة التشيع والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه

رجع إلى ما كنا بسبيله فنقول قد ذكرنا في الباب الثاني رسالة أبي المطرف ابن عميرة إلى أبي جعفر ابن أمية وهي مشتملة على التلطف على الجزيرة الأندلسية حين أخذ العدو بلنسية وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقي

من الأندلس فراجعها فيما سبق وإن كان التناسب التام في ذكرها هنا فالمناسبة هناك حاصلة أيضا والله سبحانه الموفق وذكرنا هنالك أيضا جملة غيرها من كلامه رحمه الله تعالى تتعلق بهذا المعنى وغيره فلترجع ثمة

نهاية الأندلس كما صورها كتاب جنة الرضى لابن عاصم

ورأيت أن أثبت هنا ما رأيته بخط الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي أشي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته

حدثني الفقيه العدل سيدي حسن ابن القائد الزعيم الأفضل سيدي إبراهيم العراف أنه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة من غرناطة بسبب البناء والإصلاح وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوبا فيه

" إبان غرناطة الغراء معتبر ... طلسمه بولاة الحال دوار "

" وفارس روحه ربح تدبره ... من الجماد ولكن فيه أسرار "

" فسوف يبقي قليلا ثم تطرقه ... دهيا يخرب منها الملك والدار "

وقد صدق قائل هذه الأبيات فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس له في الحسن مثال ونسل الخطب إليه من كل حدب وانثال وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه ومقدميه وقضاته وامرائه ووزرائه فكل يوم الرياسة لنفسه ويجر نارها لقرصه والنصارى لعنهم الله تعالى يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد ويضربون عمرا منهم يزيد حتى تمكنوا من أخذ البلاد والاستيلاء على الطارف والتلاد قال الرئيس القاضي العلامة الكاتب الوزير أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى في كتابه جنة الرضى في التسليم

لما قدر الله تعالى وقضى ما صورة محل الحاجة منه ومن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة علم أن النصارى دمرهم الله تعالى لم يدركوا في المسلمين ثارا ولم يرحضوا عن أنفسهم عارا ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة وتحريشهم بالكيد والخلافة بين حمائها في الفتن المبيرة ومهما كانت الكلمة مؤتلفة والآراء لا مفترقة ولا مختلفة والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة فالحرب إذ ذاك سجال والله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال وللممانعة في غرض المدافعة ميدان

رحب ومجال وروية وارتجال

إلى أن قال وتناولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة ومضاربة ومقارعة ومنازلة ومنازعة وموافقة وممانعة ومحاربة وموادعة ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين وإعمال الحيلة على المؤمنين وإضمار المكيدة للموحدين واستبطان الخديعة للمجاهدين وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى ومهتم بمراعاة أمورهم ونظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم وهو يسر حسوا في ارتغائه ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه فبا لعقول تقبل مثل هذا المحال وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه وعرض هذا المسموع على مدركات حسه وراجع أوليات عقله وتجربيات حدسه وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه فأنا أناشده الله هل بات قط بمصالح النصارى وسلطانهم مهتما وأصبح من خطب طرفهم مغتما ونظر لهم نظر المفكر في العاقبة الحسنة أو قصد لهم قصد المدير

في المعيشة المستحسنة أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القرية أربابهم وصلبانهم أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه احبارهم ورهبانهم فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ولم يشرب قلبه حب التثليث ويكون صادق اللهجة منصفا عند قيام الحججة فسيعترف أن ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مر له ببال وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط ويفعله ذا اهتبال وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال وأشد على قلبه من وقع النبال هذا وعقده التوحيد وصلاته التحميد وملته الغراء وشريعته البيضاء ودينه الحنيف القويم ونيه الرؤوف الرحيم وكتابه القرآن الحكيم ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم فكيف نعتقد هذه المريية الكبرى والمنقبة الشهري لمن عقده التثليث ودينه المليث ومعبوده الصليب وتسميته التصليب وملته المنسوخة وقضيته المفسوخة وختانه التغطيس وغافر ذنبه القسيس وربيه عيسى المسيح ونظره ليس البين ولا الصحيح وإن ذلك الرب قد ضرج بالدماء وسقي الخل عوض الماء وأن اليهود قتلته مصلوبا وأدركته مظلوبا وقهرته مغلوبا وأنه جزع من الموت وخاف إلى سوى ذلك مما يناسب هذه الأقاويل السخاف فكيف يرحى من هؤلاء الكفرة من الخير مقدار الذرة أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة

اللهم احفظ علينا العقل والدين واسلك بنا سبيل المهتمدين

ثم قال بعد كلام ما صورته كانت خزانة هذه الدار النصرية مشتملة على كل نغيسة من الياقوت وبتيمة من الجوهر وفريدة من الزمرد وثمانية من الفيروز وعلى كل واق من الدروع وحام من العدة وماض من الأسلحة وفاخر من الآلة ونادر من الأمتعة فمن عقود فذة وسلوك جملة وأقراط تفضل على قرطي مارية نفاسة فائقة وحسنا رائقا ومن سيوف شواذ في الإبداع غرائب في الإعجاب منسوبات الصفائح في الطبع خالصات الحلى من التبر ومن دروع مقدره السرد متلاحمة النسج وافية للناس في يوم

الحرب مشهورة النسبة إلى داود نبي الله ومن جواشن سابغة اللبسة ذهبية الحلية هندية الضرب ديباجية الثوب ومن بيضات عسجدية الطرق جوهريّة التنضيد زبرجدية التقسيم ياقوتية المركز ومن مناطق لجينية الصوغ عريضة الشكل مزججة الصفح ومن درق لمطية مصمتة المسام لبنة المجسة معروفة المنعة صافية الأديم ومن قسي ناصعة الصبغة هلالية الخلقة منعطفة الجوانب زارية بالحواجب إلى آلات فاخرة من أتوار نحاسية ومنابر بلورية وطيافير دمشقية وسبحات زجاجية وصحاف صينية واكواب عراقية وأقداح طباشيرية وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف ولا يستوفيه العد وكل ذلك التهيبه شواظ الفتنة والتقمه تيار الخلاف والفرقة فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله وتقصّر ديار الملوك المؤتلة النعمة عن بعضه فضلا عن كله انتهى كلامه رحمه الله تعالى

رجع - ولما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة ونحوها وضاق الملوك بعد اتساعه وصار تنين العدو يلتقم كل وقت بلدا أو حصنا ويهصر من دوح تلك البلاد غصنا وملك هذا النزر اليسير الباقي من الجزيرة ملوك بني الأحمر فلم يزالوا مع العدو في تعب وممارسة كما ذكره ابن عاصم قريبا وربما أثخنوا في الكفار كما علم في أخبارهم وانتصروا بملوك فاس بني مرين في بعض الأحيان ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مرين يستنجدونه وعينوا للرسالة الشيخ أبا اسحاق ابن أبي العاصي والشيخ أبا عبدالله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي نفع الله تعالى بهم ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل ولم يوافقهم سلطان المغرب فقضى الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كسر النصارى في الساعة التي كسر خواتمهم فيها صاحب المغرب وظهرت في ذلك كرامة لسيدي أبي عبدالله الطنجالي رحمه الله تعالى

ثم إن بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجبل كانوا في جهاد وجلاذ في غالب أوقاتهم ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم الهرم الذي يلحق الدول فلما كان زمان السلطان أبي الحسن على بن سعد النصرى الغالبى الأحمرى واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبدالله محمد ابن سعد المدعو بالزغل قد بوع بمالقة بعد ان جاء به القواد من عند النصارى وبقي بمالقة برهة من الزمان ثم ذهب إلى أخيه وبقي من بمالقة من القواد والرؤساء فوضى وآل الحال إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن وانقضت الفتنة واستقل السلطان أبو الحسن بملك ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس وجاهد المشركين وافتتح عدة اماكن ولاحت له بارقة الكرة على العدو الكافر وخافوه وطلبوا هدنته وكثرت جيوشه فأجمع على عرضها كلها بين يديه وأعد لذلك مجلسا أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غرناطة وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة ولم تزل الجنود تعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرم السنة التى تليها وهو يوم ختام العرض وكان معظم المنتزهين والمتفرجين بالسبيكة وماقارب ذلك فبعث الله تعالى سيلا عرما على وادي حدره بحجارة وماء غزير كأفواه القرب عقابا من الله سبحانه وتأيديا لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر واحتمل الوادي ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق ويبلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم

ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد وكان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف فبعضهم استقل بملك قرطبة وبعض بإشبيلية وبعض بشريش وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات وركن الى الراحة وأضاع الأجناد وأسند الأمر إلى بعض وزرائه واحتجب عن الناس ورفض الجهاد والنظر في الملك ليقتضي الله تعالى ما شاء وكثرت المغارم والمظالم فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه وكان أيضا قد قتل كبار القواد وهو يظن ان النصارى

لا يغزون بعد البلاد ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد واتفق ان صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد والطريق إلى الاستيلاء على البلاد وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطان أبي عبدالله الأيسر وكان قد اصطفى علي أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية فخيخ ان يقدم أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب لميل بعضهم إلى أولاد الحرة وبعض إلى أولاد الرومية وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمد حدوده وضربوه ولما تم امد الصلح وافق وقته هذا الشان بين أولياء الدولة بسبب الأولاد وتشكى الناس مع ذلك بالوزير والعمال لسوء ما عاملوا به الناس من الحيف والجور فلم يصغ إليهم وكثر الخلاف واشتد الخطب وطلب الناس تأخير الوزير وتفاقم الأمر وضح عند النصارى لعنهم الله تعالى ضعف الدولة واختلاف القلوب فبادروا إلى الحامة فأخذوها غدرا آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة وغدوا للقلعة وتحصنوا بها ثم شرعوا في أخذ البلد فملأوا الطرق خيلا ورجالا وبدلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ونهبوا

الحريم والناس في غفلة نيام من غير استعداد كالسكارى فقتل من قضي الله تعالى بتمام أجله وهرب البعض وترك اولاده وحريمه واحتوى العدو على البلد بما فيه وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم وكان النصارى عشرة آلاف بين ماش وفارس وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه وإذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا فرجع العدو الى البلد فحاصروهم المسلمون وشدوا في ذلك ثم تكاثر المسلمون خيلا ورجالا من جميع بلاد الأندلس ونازلوا الحامة وطمعوا في منع الماء عن العدو وتبين للعامة ان الجند لم ينصحوا فأطلقوا أسننتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير وبينما هم كذلك إذا بالنذير جاء ان النصارى أقبلوا في جمع عظيم لإغاثة من بالحامة من النصارى فأقلع جند المسلمين من الحامة وقصدوا ملاقة الواردين من بلاد العدو ولما علم بهم العدو ولوا الأديار من غير ملاقة محتجين بقلتهم وكان رئيسهم صاحب قرطبة

ثم إن صاحب إشبيلية جمع جندا عظيما من جيش النصارى الفرسان والرجالة واتى لنصرة من في الحامة من النصارى وعندما صح هذا عند العسكر اجتمعوا وأشاعوا عند الناس انهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد والصلاح الرجوع إلى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة والعدد فعندما أقلع المسلمون عنها دخلتها النصارى والواردون وتشاوروا في اخلائها أو سكتها واتفقوا على الاقامة بها وحصنها وجعلوا فيها جميع ما يحتاج إليه وانصرف صاحب إشبيلية وترك أجناده وفرق فيهم الأموال ثم عاد المسلمون لحصارها وضيقوا عليها وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة عنه ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى فعادوا عليهم وتردى بعضهم من أعلى الجبل وقتل أكثرهم وكانوا من أهل بسطة ووادي آش فانقطع أمل الناس من الحامة ووقع الإياس من ردها وفي جمادى الأولى من السنة تواترت الأخبار أن صاحب قشتالة أتى في جنود لا تحصى ولا تحصر فاجتمع الناس بغرناطة وتكلموا في ذلك وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصدا ان يضيفها إلى الحامة وجاء بالعدة والعدد واغارت على النصارى جملة من المسلمين فقتلوا من لحقوه وأخذوا جملة من المدافع الكبار ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة وناوشوا النصارى فألجؤوهم إلى الخروج عن الخيام وأخذوها وغيرها فهرب النصارى وتركوا طعاما كثيرا وآلة ثقيلة وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة

وفي هذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفا من أبيهما أن يفتك بهما بإشاره حظيته الرومية ثريا واستقرا بوادي آش وقامت بدعوتهما ثم بايعتهما تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة وفي صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميع رؤساء النصارى وقصدوا قرى مالقة وبلش في نحو الثمانية آلاف وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شربش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة وغيرهم فلم يتمكنوا من اخذ حصن ونشبو في اوعار ومضايق وخنادق وجبال واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة وصار المسلمون ينالون منهم في كل محل حتى بلغوا مالقة ففر كبيرهم ومن بقي أسر أو قتل وكان السلطان ابو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب وبقي أخوه أبو عبدالله بمالقة ومعه بعض الجند وقتل من النصارى في هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف وأسروا نحو ألفين من جملتها خال السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شربش وصاحب أنتقيرة وغيرهم وهم نحو الثلاثين من الأكابر وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة ويعقب ذلك

سافر أهل مالقة لبلاد النصارى فكسروا هنالك كسرة شنيعة قتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس ولما استقر السلطان أبو عبدالله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها وأتى ابنه السلطان أبو عبدالله في جند غرناطة والجهة الشرقية والتفوا في موضع يعرف بالدب فكسر السلطان أبو عبدالله ولما سمع السلطان أبو عبدالله صاحب غرناطة بان عمه بمالقة غنم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية وذلك في ربيع الأول من السنة إلى ان بلغ نواحي لشانة وقتل وأسر وغنم فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعه كبير قبزة وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار فانكسر الجند وأسر من الناس كثير وقتل آخرون وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبدالله ولم يعرف ثم علم به صاحب لشانة وأراد صاحب قبزة أن يأخذه منه فهرب به ليلا وبلغه الى صاحب قشتالة ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد وتفاءل به فقلما توجه لجهة أو بعث سرية إلا وبعثه فيها

ولما أسر السلطان أبو عبدالله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس وذهبوا لمالقة للسلطان أبي الحسن وذهبوا به لغرناطة وبايعوه مع انه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره وأصابه ضرر ولما تعذر أمره قدم أخاه أبا عبدالله وخلع له نفسه ونزل بالمنكب فأقام بها إلى أن مات واستقل أخوه أبو عبدالله المعروف بالزغل بالملك بعده

وأما أبو عبدالله ابن السلطان أبي الحسن فهو في أسر العدو وفي شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو في قوة إلى نواحي مالقة بعد ان كان في السنة قبلها استولى على حصون فاستولى هذه السنة على بعض الحصون وقصد ذكوان فهد أسوارها وكان بها جملة من اهل الغربية ورندة ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة فأظفر الله تعالى بهم أهل ذكوان فقتلوهم جميعا ثم طلبوا الأمان وخرجوا

ثم انتقل في جمادى الأولى إلى رندة وحاصرها وكان اهلها خرجوا إلى نصره ذكوان وسواها فحاصر رندة وهد أسوارها وخرج اهلها على الأمان وطاعت له جميع تلك البلاد ولم يبق بغربي مالقة إلا من دخل في طاعة الكافر وتحت ذمته وضيق بمالقة وفرق حصصه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة وعاد إلى بلاده

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطة لتحصين بعض البلاد وبينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه ان محلة العدو خارجة لذلك الحصن

وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن كانوا قد سرروا إليه ليلا وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين فقاتلهم المسلمون من غير تعبية فاختل نظام المسلمين ووصل النصارى إلى خباء السلطان ثم التحم القتال واشتد وقوى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى بشر هزيمة وقتل منهم خلائق وقصر المسلمون خوفا من محلة سلطان النصارى إذ كانت قادمة في أثر هذه ولما رجعت إليهم الفلول رجعوا القهقري واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كله بالحصن ولم يحدث شيء بعد إلى رمضان فتوجه الكافر لحصن قنبيل ونازله وهد أسواره ولما رأى المسلمون ان الحصن قد دخل طلبوا الأمان وخرجوا بأموالهم واولادهم مؤمنين وفر الناس من تلك المواضع من البراجلة هاربين واستولى العدو على عدة حصون مثل مشافر وحصن اللوز وضيق العدو بجميع بلاد المسلمين ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ولا قصد جهة إلا اطاعته وحصلها ثم إن العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوة فبعث إلى السلطان أبي عبدالله الذي تحت أسره وكساه ووعد به بكل ما يتمناه وصرفه لشرقي بسطة وأعطاه امال والرجال ووعد ان من دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنه في الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلطانين وخرج لبلش فاطاعه اهلها ودخلت بلش في طاعته ونودي بالصلح في الأسواق وصرخت

به في تلك البلاد الشياطين وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى وتبعهم بعض المفسدين المحبين في تفريق كلمة المسلمين وممن مال الى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتحسين إلى أن قام ريش البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسورا عند المشركين ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها بين المسلمين لما أراده الله تعالى من استيلاء العدو على تلك الأقطار ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة وعظم الخطب وكانت الثورة ثالث شهر ربيع لأول عام احد وتسعين وثمانمائة ودامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام وبلغ الخبر ان السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين

عمه الزغل صاحب قلعة غرناطة بان العم يكون له الملك وابن أخيه تحت إيلته بلوشة او بأي المواضع أحب ويكونون يدا واحدة على عدو الدين وبينما هم في هذا إذا يصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدد وعدد ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبدالله الذي كان أسيرا وضيع بها الحصار وقد كان دخلها جماعة من اهل البيازين بنية الجهاد والمعاضدة وليهم وخاف اهل غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة فلم يأت لنصرتهم غير البيازين واشتد عليهم الحصار وكثرت الأفاويل وصرحت الألسن بان ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ودخل على اهل لوشة في ريضهم وخافوا من الاستئصال فطلبوا الأمان في اموالهم وأنفسهم وأهليهم فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك واخذ البلد في السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة احدى وتسعين وثمانمائة وهي أعني لوشة كانت بلد سلف الوزير لسان الدين ابن الخطيب كما ذكرناه مستوفى في غير هذا الموضع وهاجر اهل لوشة الى غرناطة وبقي السلطان أبو عبدالله الذي كان مأسورا مع النصراني بلوشة فصرح عند ذلك اهل غرناطة بانه ماجاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر ويجعلها فداء له وقيل إنه سرح له حينئذ ابنه إذ كان مرهونا في الفداء وكثر القيل والقال بينهم وبين اهل البيازين في ذلك وظهر بذلك ما كان كامنا في القلوب ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور

وفي نصف جمادى الثانية خرج إلى البيرة فهد بعض الأسوار وتوعد الناس فأعطاه اهله الحصن على الأمان فخرجوا وقدموا على غرناطة ثم فعل بحص المتلين مثل ذلك وقتلوا قتالا شديدا ولما ضاقوا ذرعا اعطوه بالمقادة على الأمان فخرجوا الى غرناطة وأطاع اهل قلنبيرة من غير قتال فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى منت فريد فرمى عليهم بالمحرقات وغيرها وأحرق دار العدة فطلبوا الأمان وخرجوا إلى غرناطة وانتقل للصخرة فأخذها وحصن هذه الحصون كلها وشحنها بالرجال والعدة ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة ثم عاد الكافر لبلاده وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأن من دخل في حكمه وتحت امره فهو في الأمان التام وأشعاعوا ان ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية فخرج لبليش واطاعته ثم بعث لمن والاه من البلاد انه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق وان من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه وأن معه وثائق يخطوط السلاطين فلم يقبل الناس ذلك إلا القليل منهم مثل اهل البيازين فلهجوا بهذا الصلح وأقاموا على صحته الدلائل وتكلموا في اهل غرناطة بالكلام القبيح مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب فبعث له اهل البيازين انه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتبعه الناس وقاموا بدعوته من غير التباس فأتى على حين غفلة ولم يكن يظن إتيانه بنفسه فأتى البيازين ودخلها ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح فلم يقبل ذلك منه اهل غرناطة وقالو ما بعهد لوشة من قدم ودخل ريض البيازين سادس شوال سنة احدى وتسعين وثمانمائة وعمه بالحمراء

انتقل للقلعة واشتد امر الفتنة ثم إن صاحب قشتالة أمد صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها واشتد أمره بذلك وعظمت أسباب الفتنة وفتشا في الناس القتل والنهب ولم يزل الامر كذلك إلى السايح والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة فعزم اهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عنوة وتكلم اهل العلم فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعتهم ومن أطاعه عصى الله ورسوله ودخلوا على اهل البيازين دخول فشل ثم إن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من اهل بسطة ووادي أش والمرية والمنكب وبلش ومالقة وجميع الاقطار وتجمعوا بغرناطة وتعاهدوا وتحالفوا على أن يدهم واحدة على اعداء الدين ونصرة من قصده العدو من المسلمين وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلته قاصدا نواحي بلش وكان صاحب البيازين بعث وزيره إلى ناحية مالقة وإلى حصن المنشأة يذكر ويخوف ومعه النسخة من عقود الصلح فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته ودخلوا في إيلته خوفا من صاحب قشتالة وصولته وطمعا في الصلح وصحته ثم اجتمع كبار مالقة مع اهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة والسبب الحامل لهم على ذلك فلم يرجع اهل بلش عما عاهدوا عليه اهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق

وخرج صاحب قشتالة قاصدا بلش مالقة ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ولما صح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس فأشاروا بالمسير لإغاثة بلش للعهد الذي عقده واتي اهل وادي أش وغيرها وحشود البشترات وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ووصل بلش فوجد العدو نازلا عليها برا وبحرا فنزل بجبل هنالك وكثر لغط الناس وحملوا على النصارى من غير تعبئة وحين حركتهم للحملة بلغ السلطان الزغل ان غرناطة بايعت صاحب البيازين فالتقوا مع النصارى فشلين وقبل الالتحام انهزموا وتبددت جموعهم

مع كون

النصارى خائفين وجليين منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله فرجعوا منهزمين وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان فقصدوا وادي آش وعاد النصارى الى بلش بعد ان كانوا رتبوا جيوشهم للقاء السلطان واهل غرناطة فلما عادوا إلى بلش دخلوا عنوة ربهضا وضيقوا بها وكانت ثورة غرناطة خامسي جمادى الأولى

ولما رأى اهل بلش تكالب العدو عليهم وادبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة واطاعت النصارى جميع البلاد التى بشرقي مالقة وحصن قمارش

ثم انتقل العدو الى حصار مالقة وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين وأتى إليها النصارى بالميرة ولما نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شربيش الذي كان مأسورا عندهم فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها برا وبحرا وقتله أهلها قتالا عظيما بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم وطال الحصار حتى اداروا على مالقة من البر الخنادق والصور والأجفان من البحر ومنع الداخل إليها ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار وحاربوا حريا شديدا وقربوا المدافع ودخلوا الأرياض وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشي والخيل والحمير وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم احد وأثر فيهم الجوع وفشا في أهل نجدتهم القتل ولم يظهروا مع ذلك هلعا ولا ضعفا إلى أن ضعف حالهم وبئسوا من ناصر او مغيث من البر والبحر فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم فوعتبتوا على ماصد منهم وما وقع من الجفاء وقيل لهم لما تحقق العدو التجاءهم تؤمنون من الموت وتعطون مفتاح القلعة والحصن والسلطان ما يعاملكم إلا بالخير اذا فعلتم وهذا خداع من الكفار فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسرى وذلك اواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ولم يبق في تلك النواحي موضع إلا وملكه النصارى وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو الكافر إلى الشرقية وبلش التى كانت في الصلح فاستولى عليها واحتجوا بالصلح فلم يلتفت إليهم وأخذ تلك البلاد كلها صلحا ثم رجع لبلادها وفي عام أربعة وتسعين وثمانمائة خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب واستولى على ما هنالك من الحصون ثم نازل بسطة وكان صاحب وادي آش لما تعين العدو بمحلته بعث جميع جنده وقواده وحشد اهل نجدة تلك البلاد من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات فلما نزل العدو بسطة اتت الحشود المذكورة ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تفهقر العدو عن قرب بسطة ولم يقدر على منع الداخل والخارج ويبقى الأمر كذلك رجبا وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد ثم ان العدو شد الحصار وجد في القتال وقرب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخل والخارج بعض منع واشتد الحال في ذي القعدة وذي الحجة وقل الطعام وفي آخر ذي الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا الا القليل وكانوا طامعين في اقلع العدو عند دخول فصل الشتاء وإذا بالعدو بنى وعزم على الإقامة وقوي اليأس على المسلمين فتكلموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن وظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء وان ذلك هو الملجىء لهم للكلام وفهموا عنه ذلك فاحتالوا في إظهار جميع انواع الطعام بالأسواق وأبدوا للعدو القوة مع كونهم في غاية الضعف والحرب خدعة فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عين ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس وعند تحققهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون من اعانهم من أهل

وادي آش والمنكب والمرية والبشرات فإن دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الأمان وإلا فلا فلم يوافق أهل البلد على هذا وطال الكلام وخاف أهل البلد من كشف الستر فاتفقوا على ان تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات ففعلوا ذلك ودخل جميع هؤلاء فى طاعة العدو على شروط شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم وقبض الخواص مالا وحصلت لهم فوائد وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها ولم يعلم القوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام وقالوا لهم من بقي بموضعه فهو آمن ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالما ثم أخرج العدو المسلمين من البلد وأسكنهم بالريض خوف الثورة ثم ارتحل العدو للمرية وأطاعته جميع تلك البلاد ونزل صاحب وادي آش للمرية ليلقاه بها فلقبه وأخذ الحصون والقلاع والبروج ويابح له السلطان أبو عبدالله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التى تحت حكمه كما أحب فوعده بذلك وانصرف معه إلى وادي آش ومكنه من قلعتها أوائل صفر

من العام المذكور وأطاعته جميع البلاد ولم يبق غير غرناطة وقراها وجميع ماكان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين وجعل في كل قلعة قائدا نصرانيا وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالا من عند صاحب قشتالة إكراما منه لهم بزعمهم فتبا لعقولهم وما ذلك منه إلا توفير لرجاله وعدته ودفع بالتى هي أحسن ثم أخذ برج الملاحة وغيره وبناه وحصنه وشحن الجميع بالرجال والذخيرة وأظهر الصحة والصلح مع صاحب وادي آش وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرما منه وخداعا ودهاء ثم بعث في السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما يمكنه عمه من القلاع والحصون ويكون تحت إيلته ويعطيه مالا جزيلا على ذلك وأي بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه قالوا وأطمعه صاحب غرناطة في ذلك فخرج العدو في محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة وهذا في سر بين السلطانيين فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامية وأخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه وليس لنا إلا احدى خصلتين الدخول تحته أو القتال فاتفق الرأي على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح وخرج بمحلته ثم إن صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة وطلب من أهل غرناطة الدخول في طاعته وإلا أفسد عليهم زروعهم فأعلنوا بالمخالفة فأفسد الزرع وذلك في رجب سنة خمس وتسعين وثمانمائة ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت وهدم بعض الحصون وأصلح برج همدان والملاحة وشحنهما بما ينبغي ثم رجع إلى بلاده وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التي في يد النصارى ففتحها عنوة وقتل من فيها من النصارى وأسكنها المسلمين ورجع لغرناطة ثم أعمل الرحلة الى البشيرات في رجب المذكور فأخذ بعض القرى وهرب من بها من النصارى والمرتين أصحابهم ثم أتى حصن أندرش فتمكن منه وأطاعته البشيرات وقامت دعوة الإسلام بها وخرجوا عن ذمة النصارى وهنالك عمه أبو عبدالله محمد بن سعد بجملته وافرة فقصدتهم في شعبان من غرناطة واستقر عمه بالميرية وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشيرات إلى برجة ثم تحرك عمه مع النصارى إلى أندرش فأخذها لرمضان وخرج صاحب غرناطة لقربة همدان وكان برجها العظيم مشحونا بالرجال والعدة والطعام فحاصره أهل غرناطة ونصبوا عليه انواعا من الحرب ومات فيه خلق كثير منهم ونقبوا البرج الأول والثاني والثالث وأجؤوهم للبرج الكبير وهو القلعة فنقبوها ثم أسروا من كان بها وهم ثمانون ومائة واحتووا على ما هنالك من عدة وآلات حرب وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب فلما وصل حصن شلوبانية نزله وأخذ عنوة بعد حصاره وامتنعت القلعة وجاءتهم الأمداد من مالقة بحرا فلم تقدر على شيء وضيقوا بالقلعة فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة فارتحل صاحب غرناطة عن قلعة شلوبانية وجاء غرناطة ثالث شوال وبعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجنون وبعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحة وإخلائه وبرج آخر وتوجه إلى وادي آش فأخرج المسلمين منها ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الريض وهدم قلعة أندرش وحاف على البلاد ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبدالله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدو فجاز لوهران ثم لتلمسان واستقر بها وبها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الأندلس ودخل صاحب قشتالة لأقاصي مملكته بسبب فتنة بينه وبين الإفرنج ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها وأخذها وأسر من كان بها من النصارى وأرادت فتياه القيام على النصارى فجاء صاحب وادي آش ففتك فيهم وفي ذي القعدة من السنة رفع صاحب غرناطة من السند وخلت تلك الأوطان من الانس وفي ثاني عشرين جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة وأفسد الزرع ودوخ الأرض وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالصور والحفير وأحكم بناءه وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرف الهمة إلى الحصار والإقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين غير أن النصارى على بعد والطريق بين غرناطة والبشيرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شليبر إلى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج فانسد باب المرافق وقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشيرات ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة وقل الطعام ثم تفاقم الخطب فاجتمع

ناس مع من يشار اليه من أهل العلم وقالوا انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة وتكلموا في هذا المعنى وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكان ظننا انه يقلع عنا في فصل الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرب منا فانظروا لأنفسكم وأولادكم فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ثم عدوا مطالب وشروطا أرادوها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط إذا امكنوه من حمراء غرناطة والمعاقلة والحصون ويحلف على عادة النصارى في العهود وتكلم الناس في ذلك وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا إليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة من الحمراء

وفي ثاني ربيع الأول من السنة أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر وكانت الشروط سبعة وستين منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم

وعقارهم ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم احد عليهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصوا أحدا وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكة ولا سواه والسلطان يدفع ثمنه لمالكة ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء وان لا يؤخذ أحد بذنب غيره وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثه ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى أمنا في نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من امور دينه ومن ضحك منه يعاقب ويتركون من المغارم سنين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده وامثال هذا مما تركنا ذكره

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائدا بالحمراء وحكاما ومقدمين بالبلد ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح وشملهم حكمه على هذه لشروط ثم امر العدو الكافر ببناء ما يحتاج إليه في

الحمراء وتحصينها وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهارا وبييت بمحلته ليلا إلى أن اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خيرا بما يرومه ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وانها تكون له وسكناه بأندرش فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ثم احتال في ارتحاله لبر العدو وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد ان يمنع مولاي أبا عبدالله من السفر حيث أراد من بر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له فصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء ووباء

ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم على المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد امور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى ان يرجعوا قهرا للكفر ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو ان يقولوا للرجل المسلم إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر قالوا لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من

الموت وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى واماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى اعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقبض الله لهم ناصرا إلى ان كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب اعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا اموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المعرة واما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطاوين وسلا ومنيحة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكريا جزارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام وهم لهذا العهد على ما وصف والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبدالله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ومحيت رسومها ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الأنيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس العائد منها لملكه في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج

ابن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي رحمهم الله تعالى جميعا وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه متلهفا على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنان الأندلس رأيتها ودخلتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين اسم احدهما يوسف والآخر أحمد وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن وعهدي بذريته بفاس سنة 1027 يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

رسالة المخلوع أبي عبدالله إلى الشيخ الوطاسي

وقد رأيت ان أذكر هنا الرسالة التي كتب بها المخلوع المذكور الى سلطان فاس الشيخ الوطاسي وهي من انشاء الكاتب المجيد البارع البليغ ابي عبدالله محمد بن عبدالله العربي العقيلي رحمه الله تعالى وسماها بالروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس ونصها بعد الافتتاح

" مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم "

" بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم "

" حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا ... وأفطع الخطب ما يأتي على الرغم "

" حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم "

" وهي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم "

" كنا ملوكا لنا في ارضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم "

" فأيقظتنا سهام للردى صيب ... يرمى بأفجع حتف من بهن رمي "

" فلا تتم تحت ظل الملك نومتنا ... وأي ملك بطل الملك لم ينم "

" يبكي عليه الذي قد كان يعرفه ... بأدمع مزجت أمواها بدم "

" كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا ... يشم بو الصغار الأنف ذا الشمم "

" وصل اواصر قد كانت لنا اشتبكت ... فالملك بين ملوك الأرض كالرحم "

" وأبسط لنا الخلق المرجو باسطه ... واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم "

" لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم ... نذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم "

" فما أطقنا دفاعا للقضاء ولا ... أرادت انفسنا ما حل من نقم "

" ولا ركوبا بازعاج لسابحة ... في زاخر باكف الموج ملتطم "

" والمرء ما لم يعنه الله أضيع من ... طفل تشكى بفقد الام في اليتيم "

" وكل ما كان غير الله يحرسه ... فإن محروسة لحم على وضم "

" كن كالسيموأل إذ سار الهمام له ... في حجفل كسواد الليل مرتكم "

" فلم يبح أدرع الكندي وهو يرى ... أن ابنه البر قد أشفى على الرجم "

" أو كالمعلى مع الضليل الاروع إذ ... أجاره من أعايب ومن عجم "

" وصار يشكره شيكرا يكافىء ما ... أسدى إليه من الآلاء والنعم "

" ولا تعاتب على أشياء قد قدرت ... وخط مسطورها في اللوح بالقلم "

" وعد عما مضى إذ لا ارتجاع له ... وعد أحرارنا في جملة الخدم "

" إبه حنانيك يا ابن الأكرمين على ... ضيف ألم بفاس غير محتشم "

" فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت ... بنا إليها خطا الوخادة الرسم "

" رحماك ياراحما ينمى إلى رحما ... في النفس والأهل والأتباع والحشم "

" فكم مواقف صدق في الجهاد لنا ... والخيل عالكة الأشداق وللجم "

" والسيف يخضب بالمحمر من علق ... ما ابيض من سيل واسود من لمم "

" ولا ترى صدر غضب غير منقصف ... ولا ترى متن لدن غير منحطم "

" حتى دهينا بدهيا لا افتدار بها ... سوى على الصون للأطفال والحرم "

" فقل من لم يشاهدها فرينما ... يخال جامحها يقتاد بالخطم "

" هيهات لو زينت الحرب كان بها ... أعيبى يدا من يد جالت على رجم "

" تا لله ما أضمرت غشا ضمائرنا ... ولا طوت صفة منها على سقم "

" لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت ... ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم "

" فخاننا عنده الجد الخؤون ومن ... تقعد به نكبات الدهر لم يقم "

" فاسود ما اخضر من عيش دهنه عدا ... بالأسمر اللدن او بالأبيض الخدم "

" وشتت البين شملا كان منتظما ... والبين أقطع للموصول من جلم "

" قرب مبنى شديد قد أناخ به ... ركب البلا فقرته أدمع الديم "

" قمنا لديه أصيلا نساثله ... أعيا جوابا وما بالرعب من ارم "

" وما ظننا بان نقى إلى زمن ... نرى به غرر الأحباب كالحمم "

" لكن رضى بالقضا الجاري وإن طويت ... منا الضلوع على برج من الألم "

" لبيك يامن دعانا نحو حضرته ... دعاء ابراهم الحجاج للحرم "

" واعط الأمان الذي رصت قواعده ... على أساس وفاء غير منهدم "

" خليفة الله وافاك العبيد فكن ... في كل فضل وطول عند ظنهم "

" وبين اسلافنا ماقد علمت به ... من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم "

" وأنت منهم كأصل مطلع غصنا ... أو كالشراك الذي قد من آدم "

" وقد خطوت خطاهم في مآثرهم ... فلم يذموا إذن فيها ولم تدم "

" وصيت مولى الورى الشيخ الامام غدا ... في الناس أشهر من نار على علم "

" سلالة الأمراء الجلة الكبراء ... العلية الظهراء القادة البهم "

" بنو مريث ليوث في عرين ابوا ... رؤيا قرين لهم في البأس والكرم "

" النازلين من البيضاء وسط حمى ... أحمى من الأبلق السامي ومن إرم "

" والجائسين بدهم الخيل كل ذرا ... والداعسين بسمر الخط كل كمي "

" يريك فارسهم إن هز عامله ... في مارق بلظى الهيجاء مضطرم "

" ليثا على أجدل عار من أجنحة ... يسطو بأرقم لداغ بغير فم "

" في اللام يدغم من عساله ألفا ... ولم نجد ألفا أصلا بمدغم "

" أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم ... من عصمة الله ما يربي على العصم "

" يا من تطير شرار منه محرقة ... لكل مدرع بالحزم محتزم "

" هم بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثل ما يفتك السرحان بالغنم "

" وإن يلثمهم يوم الوغى رهج ... أنسوك ما ذكروه عن ذوي اللثم "

" تضىء أراؤهم في كل معضلة ... إضاءة السرج في داج من الظلم "

" هذا ولو من حياء ذاب محتشم ... لذاب منهم حياء كل محتشم "

" طابت مدائحهم إذ طابت أنفسهم ... فاشتقت النسمات اسما من النسم "

" لله درهم والسحب باخلة ... بدرهن على الأنعام والنعم "

" بحيث ألقى يرى من لون حمرة ... كالشيب يخضب بالحناء والكنم "

" هناك تنهل أيديهم بصوب حيا ... يحيي بالاجداث ما فيها من الرمم "

" وأن بيتي زياد طالما ذكرا ... إذ ألمت أحاديث بذكرهم "

" أحلام عاد وأجسام مطهرة ... من لمعقة والآفات والأثم "

" يرون حقا عليهم حفظ جارهم ... فلم يضر نازل فيهم ولم يضم "

" فروعه بالدواهي لا يراع ولا ... يغم منها بما يعرفون من الغمم "

" هم البحار سماحا غير ان بها ... ماقد أناف على الأطواد من همم "

" وليس يسلم من حتف محاربههم ... حتى يكون إليهم ملقي السلم "

" كم فيهم من أمير اوحد ندس ... يقرطس الغرض المقصود بالفهم "

" ولا كسبب أبي حسون من حسنت ... امداحه حسن ما فيه من الشيم "

" هذاكم ابن أبي ذكرى الهمام فقل ... في أصله المنتقى من مجده العمم "

" خليفة الله حقا في خليقته ... كنائب ناب في حكم عن الحكم "

" مهما تنر قسما من نيرة ... تيل بنازله ماجل من نعم "

" فوجهه بدجى أو كفه بجدى ... أبهى من الزهر أو أندى من الديم "

" وفضله وله الفضل المبين جرى ... كجري الامثال في الأقطار والأمم "

" وجوده المتوالي للبرية ما ... وجوده بينها طرا بمنهم "

" إذا ابتغت نعما منه العفاة له ... لم يسمعوا كلمة منه سوى نعم "

" وإن يعبس زمان في وجوههم ... لم يبصروا غير وجه منه ميتسم "

" وجه تبين سمات المكرمات به ... كما تبين سمات الصدق في الكلم "

" وراحة لم تزل في كل أونة ... في نيلها راحة الشاكي من العدم "

" لله ما التزمته من نوافله ... أيام لا فرض مفروض بملتزم "

" أنسى الخلائف في حلم وفي شرف ... وفي سخاء وفي علم وفي فهم "

" فجاز معتمدا منهم ومعتصدا ... وامتاز عن واثق منهم ومعتصم "

" وناصر الدين في الإقبال فاق وفي ... محبة العلم أزرى بابنه الحكم "

" أفعال أعدائه معتلة أبدا ... متى يرم جزمها بالحذف تنجزم "

" فويل أهل القلى من حية ذكر ... للمتلئب اللهم المجر ملتقم "

" رموا عداوة من إن شاء غادرهم ... مثل الأحاديث عن عاد وعن إرم "

" فسوف ياكلهم من جيشه لجب ... بكل قرم إلى لجمانهم قرم "

" وإن الأعراب إذ ساروا لغايته ... لسائرون إلى لقم على لقم "

" وهم كما قاله ماض أرى قدمي ... بسعيه نحو حتفي قد أراق دمي "

" فقل إذن للمناوي الناو لان أذى ... ياغر غرك ما أبصرت في الحلم "

" له صوارم لو ناجتك أسننها ... لبشرتك بعمر منك منصرم "

" وأن روحك عن قرب سيقبضه ... قبض المسلم ماقد حاز من سلم "

" فهو الذي ما له ند يشابهه ... من كل متصف بالدهي متسم "

" يدبر الأمر تدبيرا يخلصه ... مما عسى أن يرى فيه من الوهم "

" ويبصر الغيب لحظ الذهن منه إذا ... تعمى عن ادراكه ألحاظ كل عمي "

" وينعم النظر المفضي بناظره ... لصوب وجه صواب واضح اللقم "

" ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه ... عن مبطل بخصام المبطل الخصم "

" ومسمع ليس يصغى للوشاة فلم ... ينفق لديه الذي عنهم إليه نمي "

" فعقله لا توازيه العقول وهل ... يوازن الطود ماقد طال من أكم "

" إبه جميع الورى من بدو أو حضر ... نداء مرتبط بالنصر مرتسم "

" شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تهنوا ... قد لفها الليل بالسواقة الحطم "

" هذا الإمام المريني السعيد له ... سعد يؤيده في كل مصطم "

" قد أقسمت انه المنصور السنة ... من نخبة الأوليا مبرورة القسم "

" فشيوعه ووالوه تروا عجا ... وتظفروا معه بالأجر والغنم "

" والحمد لله إذ أبقى خلافته ... كهفا لنا من يخيم فيه لم يرم "

" حرز حريز وعز قائم وندي ... غمر دراك بلا من ولا سام "

" دامت ودام لها سعد يساعدها ... في كل مبتدئ منه ومختتم "

" فالله عز اسمه قد زانها بحلى ... من غر امداحه كالدرد في النظم "

" الواهب الألف بعد الألف من ذهب ... كالجمر يلمع في مستوفد الضرم "

" والفاعل الفعل لم يههم به احد ... والقائل القول فيه حكمة الحكم "

" ذاكم هو الشيخ فاعجب إنه هرم ... جودا وحاشاه ان يعزى إلى هرم "

" وحسبنا ان أيدينا به اعتصمت ... من حبله بوثيق غير منغصم "

" فما مخالفه يوما بمضطهد ... ولا مؤالفه يوما بمهتضم "

" ولا موافيه في جهد بمطرح ... ولا مصافيه في ود بمتهم "

" ولا محيا محبيه بمنكسف ... ولا رجاء مرجيه بمنخرم "

" وما تكرمه سرا بمنكشف ... ولا تنكره جهرا بمكتم "

" وليس لامح مرأه بمكثب ... وليس راضع جدواه بمنغطم "

" ولا مقبل يمناه الكريمة في ... محل ممتهن بل دست محترم "

" وما وسيلتنا العظمى إليه سوى ... ما ليس ينكر ما فيها من العظم "

" وإنما هي وما أدراك ماهي من ... وسيلة ردها أدهى من الوخم "

" نبينا المصطفى الهادي بخير هدى ... محمد خير خلق الله كلهم "

" داعي الوري من اولي خيم وأهل قري ... إلى طريق رشاد لاحب أمم "

" عليه منا ما ذكرت ... امن تذكر جيران بذي سلم "

" وما تشفع فيها بالشفيع له ... دخيل حرمة العلياء في الحرم "

ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم نعم المولى ونعم النصير

اما بعد حمد الله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه محمد الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح يدعو إلى سبيل

كل فلاح أولي قلوب غافلة ونفوس سواه والرضى عن آله وأصحابه وعترته الأكرمين وأحزابه الذين تلقوا بالقبول ما اورده عليهم من اوامر ونواه وعزروه ونصروه في حال قربه ونواه فيا مولانا الذي اولانا من النعم ما اولانا لا حط الله تعالى لكم من العزة رواقا ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصانا ولا اوراقا ولا زالت مخضرة العود مبتسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود ممطورة بسحاب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود هذا مقام العائذ بمقامكم المتعلق بأسباب زمامكم المترجى لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم المقبل الأرض تحت أقدامكم المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم وما الذي يقول من وجهه خجل وفؤاده وجل وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل بيد اني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر واحترامي اليه اكبر اللهم لا بريء فأعتذر ولا قوي فانتصر لكني مستقيل مستنيل مستعتب مستغفر " وما أبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء "

هذا على طريق التنزل والإنصاف بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلي حيز الإنصاف واما على جهة التحقيق فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق والله إنني لأعلم اني إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم اني منه بريئة لأقول ما لم يكن ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني فأقول ما قاله أبو يوسف صبر جميل والله المستعان على ما تصفون على اني لا انكر عيوبى فانا معدن العيوب ولا أحد ذنوبي فانا جبل الذنوب إلى الله أشكو عجري ويجري وسقطاتي وغلطاتي نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول المشنع المهول الناطق بغم الشيطان المسول ومن أمثالهم سبني واصدق ولا تفتّر ولا تخلق أفتلي كان يفعل امثالها ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها وبهلك نفسه ويحبط أعمالها عيادا بالله

من خسران الدين وإيثار الجاحدين والمعتدين قد ضللت إذا وما انا من المهتدين وإيم الله لو علمت شعرة في فودي تميل إلى تلك الجهة لقطعها بل لقطفت ماتحت عمامتي من هامتي وقطعتها غير ان الرعاع في كل وقت واوان للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان كان أحق أو أجهل من أبي ثروان أو أعقل أو أعلم من أشج بني مروان رب متهم بري ومسريل بسربال وهو منه عري وفي الأحاديث صحيح وسقيم ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم ولكن ثم ميزان عقل تعتبر به أوزان النقل وعلى الراجح الاعتماد ثم إشاعة الأحقاد المتصل المتباد وللمرجوح الاطرح ثم التزام الصراح بعد النفض من الراجح وأكثر ما تسمعه الكذب وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله تعالى إليه

منجذب ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ورمينا بما لا يرمى به الكفار فضلا عن الفجار وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ما لديكم منه حفظ الجار وإذا عظم الإنكاء فعلى تكاءة التجلد الاتكاء أكثر المكثرون وجهد في تعشيرنا المتعشرون ورمونا عن قوس واحدة ونظمونا في سلك الملاحظة اكفرا أيضا كفرا غفرا اللهم غفرا اعد نظرا ياعبد قيس فليس الأمر على ما خيل لك ليس وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحققنا فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائطين فانفتق علينا فتق لم يمكننا له رتق وما كنا للغيب حافظين ويعد فاسأل أهل الحل والعقد والتميز والنقد فعند جهيتهم تلقى الخبر يقينا وقد رضينا بحكمهم يؤثنا فيوبقنا أو يبرئنا فيقينا إبه يا من اشرب إلى ملامنا وفدح حتى في اسلامنا رويدا رويدا فقد وجدت قوة وأيدا ويحك إنما طال لسانك علينا وامتد بالسوء

إلينا لأن الزمان لنا مصغر ولك مكبر والأمر عليك مقبل وعنا مدبر كما قال كاتب الحجاج الموير وعلى الجملة فهينا صرنا إلى تسليم مقالك جدلا وذهبنا فأقررنا بالخطأ في كل ورد وصدر فله در القائل " إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر "

وكأنما بمعترف إذا وصل إلى هنا وعدم انصافه يعلمه إلها وقد ازور متجانفا ثم افتر متهانفا وجعل يتمثل بقولهم إذا عيروا قالوا مقادير قدرت وبقولهم المرء يعجزه المحال فيعارض الحق بالباطل والحالي بالعاطل ومنزع بقول القائل رب مسمع هائل وليس تحته من طائل وقد فرغنا أول أمس من جوابه وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به وسنلم الآن بما يوسعنا تسكيننا ويقطعه تبكيننا فنقول له ناشدناك الله تعالى هل اتفق لك قط وعرض خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض مع اجتهادك أثناءه في اصدارك وإبرادك في وقوعه على وفق اقتراحك ومرادك أو جميع ما تزاوله بإدارتك لايقع الا مطابقا لإرادتك أو كل ما تقصده وتنويه تحززه كما تشاء وتحويه فلا بد أن يقر اضطرارا بأن مطلوبه يشذ عنه مرارا بل كثيرا ما يفلت صيده من أشراكه ويطلبه فيعجز عن ادراكه فنقول ومسألتنا من هذا القبيل أيها النبي النبيل ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شينا مما يسايرنا في غرضنا منه وبما شينا كقوله كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس وقوله أيضا لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه أو كما قال

فأخلق به أن يلوذ باكناف الإحجام ويؤزم على نفته فيه كأنما ألجم بلجام حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاله وقهره بحجته وعلاه ليس لك من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله وفي محاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم ويرخص عن أثواب أعراضنا ما عسى ان يعلق بها من درن الوصم وكيفما كانت الحال وإن ساء الرأي والانتحال ووقعنا في أوجال وأوجال فثل عرشنا وطويت فرشنا ونكس لوانا وملك مثنوانا فنحن أمثل من سوانا وفي الشر خيار ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفا ولا عدمننا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفا وإلا فتك بغداد دار السلام ومتبوا الإسلام المحفوف بفرسان السيوف والأقلام مثابة الخلافة العباسية ومقر العلماء والفضلاء أولي السير الأويسية والعقول الإياسية قد نوزلت بالجيوش ونزلت وزوولت بالزحوف وزلزلت وتحيف جوانبها الحيف ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف ولا تسل إذ ذاك عن كيف أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية وجرت الدماء في الشوارع والطرق كالأنهار والأودية وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم في رقابهم والأردية وللنجيع سيول تخوضها الخيول فتخضبها الى أرساغها وتهم ظماؤها بوردها فتتك عن تجرعها ومساغها فطاح عاصمها ومستعصمها وراح ولم يعد ظالمها ومتظلمها وخربت مساجدها وديارها واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف حسبما عرفت أو حسبما تعرف فلا تك متشككا متوقفا فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا فأين تلك الجحافل والآراء المدارة في المحافل حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر لم تجد ولا قلامه ظفر إذن فمن سلمت له نفسه التى هي رأس ماله وعياله واطفاله اللذان هما من أعظم أماله وكل أو جل أو أقل رياشه وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سبيلا الى الخلاص في حال مياسرة ومساهلة دون تعصب واعتياص بعدما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص فما أحقه حينئذ وأولاه أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه على ما أسداه إليه من رفته وخيره ومعافاته مما ابتلي به كثير من غيره ويرضى بكل ايراد وإصدار تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار فالدهر غدار والدنيا دار مشحونة بالأكدار والقضاء لا يرد ولا يصد ولا يغالب ولا يطالب والدوائر تدور ولا بد من نقص وكمال للبدور والعبد مطيع لا مطاع وليس يطاع إلا المستطاع وللخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للأذهان عن مداه انقطاع

ومالي والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول بين يدي ذي الجلال والمجادة والفضل والطول فله من العقل الارجح ومن الخلق الأسجح مال ا تلتاط معه تهمتي بصفرة ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عد من نفره ولا فاز قدحه بظفره والمولى يعلم ان الدنيا تلعب باللاعب وتجر براحتها إلى المتاعب وقيديا للأكياس من الناس خدعت وانحرفت عن وصالهم أعقل ماكانوا وقطعت وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب تلك التي جبت وجدعت ولئن رهصت وهصرت فقد نهبت وبصرت ولئن قرعت وامعضت لقد أرشدت ووعظت ويا ويلنا من تنكرها لنا بمرة ورميها لنا في غمرة أي غمرة أيام قلبت لنا ظهر المجن وغيم أفقها المصحي وأدجن فسرعان ما عاينا حبالها منبته ورأينا منها مالم نحتسب كما تقوم الساعة بغتة فمن استعاذ من شيء

فليستعذ مما صرنا إليه من الحور بعد الكور والانحطاط من النجد إلى الغور " فبيننا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة تنتصف "

" فأف لدينا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف "

وأبيها لقد أرهقتنا ارهاقا وجرعتنا من صاب الأوصاب كأسا دهاقا ولم نفرغ الى غير بابكم المنيع الجناب المنفتح حين سدت الأبواب ولم نلبس غيرلباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأتواب وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان وعند الشدائد تمتاز السيوف في الأحقان من الأحناف ووجه الله تعالى يبقى وكل من عليه فان وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول حسبي هذا وكفان ولا ريب في اشتمال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم من الأخذ باليد عند زلة القدم وقرع الأسنان وعض البنان من الندم دينا تدينت حتى مع اختلاف الأديان وعادة اطردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان

ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها وأعطى من امانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر ولا سوغ لنا الايمان الإقامة بين ظهرانى الكفر وما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة وأمنا من المطالب المشاغب حمة شر لنا لاسعة وادكرنا أي ادكار قول الله تعالى المنكر لذلك غايى الإنكار " ألم تكن أرض الله واسعة " وقول الرسول عليه المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام انا بريء من مؤمن مع كافر لا تتراءى ناراهما وقول الشاعر الحاث على

حث المطية المتناقلة عن السير في طريق منجاتها البطية

" وما انا والتلدد نحو نجد ... وقد عصت تهامة بالرجال "

ووصلت أيضا من الشرق إلينا كتب كريمة المقاصد لدينا تستدعي الانحياز الى تلك الجنبات وتتضمن مالا مزيد عليه من الرغبات فلم نختر إلا دارنا التى كانت دار آبائنا من قبلنا ولم نرتض الانصواء إلا لمن بحبله وصل حبلنا وبريش نبله ريش نبيلنا إدلالا على محل إخاء متوارث لا عن كلاله وامتنالا لوصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا في الايضاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا ان لا يبتغوا إذا دههمم داهم بالحضرة الميرنية بدلا ولا يجدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقها معدلا فاخترقنا الى الرياض الأريضة الفجاج وركبنا إلى البحر الفرات ظهر البحر الأجاج فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين ويشفى النفس الشاكية من ألم البين ومن توصل هذا التوصل وتوصل بمثل ذلك التوصل تطارحا على سدة أمير المؤمنين المحارب للمحاربين والمؤمن للمستأمنين فهو الخليق الحقيق بان يسوغ أصفى مشاربه ويبلغ أوفى مآربه على توالي الأيام والشهور والسنين ويخلص من الثبور إلى الحبور ويخرج من الظلمات الى النور خروج الجنين ولعل شعاع سعادته يفيض عينا ونفحة قبول إقباله تسري إلينا فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر

" عطفنا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا تنفرق "

" ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدا كلانا في المعالي معرق "

" إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل منها وانت مطوق "

لا بل الاحرى بنا والأحجى والأنجح لسعينا والأرجى ان نعدل عن هذا المنهاج ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج وينشد ماقال في الشيرازي ابن حجاج

" الناس يقدونك اضطرارا ... منهم وأفديك باختياري "

" وبعضهم في جوار بعض ... وأنت حتى أموت جاري "

" فعش لخيزي وعش لمائي ... وعيش لداري وأهل داري "

ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه وتعاطمت نعمائوه رحمة تجعل في يد الهداية أعنتنا وعصمة تكون في مواقف المخاوف جنتنا وقبولا يعطف علينا نوافر القلوب وصنعا يسني لنا كل

مرغوب ومطلوب ونسأله وطالما بلغ السائل سؤلاً ومأمولاً متاباً صادقاً على موضوع الندم محمولاً ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً عن أرض أورثها من شاء من عباده معقياً لهم ومدبلاً وسادلاً وسادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً " سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً " الفتح 23 فليطير طائر الوسواس المرفرف مطيراً كان ذلك في الكتاب مسطوراً لم نستطع عن مورده صدوراً وكان امر الله قدراً مقدوراً ألا وإن لله سبحانه في مقامكم العلي الذي أيده وإعانه سرا من النصر يترجم عنه لسان من النصل وترجع فروع البشائر الصادقة بالفتوحات المتلاحقة من قاعدته المتأصلة إلى أصل فيمثلته يجب اللياذ والعياذ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ولأمر ما أثرناه واخترناه بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ومنه جل جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين ويؤوينا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وحناب رفيع أمين أمين ونرجو أن يكون ربنا الذي هو في جميع الأمور حسبنا قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا وساقنا توفيقه وحدانا إلى الاستجارة بملك حفي كريم وفي أعز جارا من أبي دواد وأحمى انفا من الحارث بن عباد يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد إن أعات ملهوقاً فما الأسود بن قنان يذكر وإن انعش حشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر جليسه كجليس الققعاع بن شور ومذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب إلى ثور إلى التحلي بامهات الفضائل التي أضدادها امهات الرذائل وهي الثلاث الحكمة والعدل والعفة التي تشملها الثلاثة الأقوال والأفعال والشمائيل وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم وعلم وحلم وتيقظ وتحفظ واتقاء وارتقاء وصول وطول وسماح ونائل فبنور حلاه المشرق يفخر المغرب على المشرق وبمحتده السامي خطره في الأخطار وبيته الذي ذكره في النباهة والنجاة قد طار بياهي جميع ملوك الجهات والأقطار وكيف لا وهو الرفيع المنتمى والنجار الراضع من الطهارة صفو ألبان الناشيء من السراوة وسط أحجار في ضئىء المجد وبحبوح الكرم وسراوة أسرة المملكة التي أكنافها حرم وذؤابة الشرف التي مجاذبتها لم ترم من معشر بخلوا إن وهبوا ما دون اعمارهم وجبنوا إن لم يحموا سوى ذمارهم بنومرين وما أدراك ما بنو مدين

" سم العداة وأفة الجزر "

" النازلون بكل معترك ... والطيبون معاهد الأزر "

لهم من الهفوات انتفاء وعندهم من السير النبوية اكتفاء انتسبوا إلى بر ابن قيس فخرجوا في البر عن القيس مالهم القديم المعروف قد نفذ في سبيل المعروف وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف من طرق القنا والسيوف على الحسن من المقاصد موقوف تحمد من صغيرهم وكبيرهم ذابلهم ولدنهم فله آباء أنجبوهم وامهات ولدنهم " شم الأنوف من الطراز الأول "

إليهم في الشدائد الاستناد وعليهم في الأزمان المعول ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الأطول كانما عناهم بقوله جرول " أولئك قوم أن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا " " وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا " " وتعذلني أبناء سعد عليهم ... وما قلت إلا بالتي علمت سعد " ويقوله الوثيق مبناه البليغ معناه

" قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم ... شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا "

يزيحون عن التنزيل كل نازح قاصم وليس له منهم عائب ولا واصم فهم أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم

" لا يفتنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جوارهم فطن "

حلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعل ارفض مزنهم منه عن غيث ملث يمحو آثار اللزبة وأنشق غيلهم منه عن ليث صار متقبض على برائته للوثبة فقل لسكان الفلا لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم فلا يبالي السرحان المواشي سواء مشى إليها النقرى أو الجفلى بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عرنين ثم يبتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التنين فهو هو كما عرفوه وعهدوه وألفوه أخو المنايا وابن جلا وطلاع الثنايا مجتمع أشده قد احتنكت سنه وبان رشده جاد مجد محتزم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد " لا يشرب الماء إلا من قليب دم ... ولا يبيت له جار على وجل " أسدي القلب آدمي الرواء لابس جلد النمر يزوي العناد والنواء

" وليس بشاوي عليه دمامة ... إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم "
" ولكنه يسعى عليه مفاضة ... دلاص كأعيان الجراد المنظم "
فالنساء النجاء سامعين له طائعين والوحى الوحى لاحقين به خاضعين قبل أن تساقوا إليه مقرنين
في الأصفاد وبعيا الغداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد حينئذ يعرض ذو الجهل والغدامة على
يديه حسرة وندامة إذا رأى

أبطال الجنود تحت خوافق الرايات والبنود قد لفحتهم نار ليست بذات خمود وأخذتهم صاعقة مثل
صاعقة الذين من قبلهم عاد وتمادى زعقات تؤز الكتائب أزا وهمزا محققا للخيل بعد المد المشبع
للأعنة همزا وسلا للهندية سلا وهزا للخطية هزا حتى يقول النسر للذئب " هل تحس منهم من
أحد أو تسمع لهم ركزا " ثق خليفة الله بذاك في كل من رام أذى رعبتك أو ذاك فتلك عادة الله
سيحانه وتعالى في ذوي الشقاق والنفاق الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق
وينصبون حبات البغي والفساد في جميع النواحي والأفاق فلن يجعلهم الله عز وجل من الأمنين
أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين وها
نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم بعدما زينا معاطفها باستعطافكم
بدر ثناء أبهى من در العقد النظيم منتظمين في سلك أوليائكم متشرفين بخدمة عليائكم ولا فقد
عزه ولا عدمها من قصد ميثابكم العزيزة وخدمها وإن المترامي على سنائكم لجدير بحرمتمكم
واعتنائكم وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصنا حصينا عاش بقية عمره محروبا من الضيم مصونا وقد
قيل في بعض الكلام من فعدت به نكايه الأيام أقامته إغاثة الكرام ومولانا أيده الله تعالى ولي ما
يزفه إلينا من مكرمة بكر ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر ويروي معنعن
حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر وغيره من ينام عن ذلك فيوقف
ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ وما عهد منذ وجد إلا سريعا إلى داعي الندى والتكريم برينا
من الضجر بالمطال والتبرم حافظا للجار الذي أوصى النبي بحفظه مستفرغا وسعه في رعيه
المستمر ولحظه أخذا من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه

" فهو من دوحة السنا فرع عز ... ليس يحتاج مجتنيه لهز "

" كفه في الأمحال أعزر ويل ... وذراه في الخوف امنع حرز "

" حلمه يسفر اسمه لك عنه ... فتفهم يامدعي الفهم لغزي "

" لا تسله شيئا ولا تستنله ... نظرة منه فيك تغني وتجزى "

" فنداه هو الفرات الذي قد ... عام فيه الأنام عوم الإوز "

" وحماه هو المنيع الذي ترجع ... عنه الخطوب مرجع عجز "

" فدعوا ذهنه يزاول قولي ... فهو أدري بما تضمن رمزي "

" دام يحيى بكل صنع ومن ... ويعافى من كل بؤس ورجز "

وكانا به قد عمل على شاكلة جلاله من مد ظلالة وتمهيد حلاله وتلقى ورودنا بحسن تهله
واستهلاله وتأسيسنا بجميل قبوله وإقباله وإيرادنا على حوض كوتره المترع بزلاله والله سبحانه
يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حله وارتحاله ومآله وحاله ويؤيد جنده المظفر ويؤيدنا بتأييده
على نزال عدوه واستنزاله وهز الذوايل لإطفاء ذباله وهو سبحانه وتعالى المسؤول ان يريه قره
العين في نفسه وأهله وخدامه وأمواله وأنظاره وأعماله وكافة شؤونه واحواله وأحق ما نصل
بالسلام وأولى على المقام الجليل مقام الخليفة المولى أزكى على خاتمة انبيائه وأرساله سيدنا
ومولانا محمد وعلى جميع أصحابه وآله صلاة وسلاما دائمين أبدا موصولين بدوام الأبد واتصاله
ضامين لمجددهما ومرددهما صلاح فاسد أعماله وبلوغ غاية آماله وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه
وفضله وإفضاله انتهى

ترجمة محمد العربي كاتب الرسالة عن الوادي أشي

وكاتب هذه الرسالة على لسان السلطان المخلوع قال الوادي أشي في حقه

إنه إمام الصناعة وفارس حلبة القرطاس واليراعة وواسطة عقد البلاغة واليراعة الذي قطف الكمال
لما نور ورتب محاسن البديع في درر فقره وطور وعرف من بحر عجاج واقتطف من خاطر وهاج أبو
عبدالله محمد بن عبدالله العربي العقيلي وما احسن قوله فيمن قد ظفر به المسلمون

" ألا رب مغرور تنصر ضلة ... فحاق به شؤم الضلال وشره "

" فإن يرتفع عند النصارى بالابتدا ... فكم عندنا من حرف حبل يجره "

وقال الوادي أشي أيضا في موضع آخر ما نصه ولشاعر العصر ومالك زمامي النظم والنثر والفقير
العالم المتقن التمكن العارف الأوحى النبيل سيدي محمد العربي وصل الله تعالى رفعة قدره

وحرس من غير الأيام أشعة بدره
 " الحب في جمهور انواره ... فأين الاخوان والأحباب "
 " وأين أين الاجتماعات قد ... تهيأت لهن الاسباب "
 " وأين بنت لجبن مهما بدت ... طارت إليها شوقا الباب "
 " وأين الألبان لأكوابها ... في برم الأرز تسكاب "
 " واللحم بالسياس قد ألفت ... لطبخه في القدر الاحطاب "
 " والعود ذو دندنة يطبي ... آثارها للطار دبداب "
 " وملح الاصوات قد طورحت ... وجاء معبد وزرياب "
 " وفض للهو ختام ولم ... يسد في وجه الهوى باب "
 " وقيل للوقار قم قبل أن ... تسلب عنك الآن الاثواب "
 " وكل انسان وما يشتهي ... ليس على مناه حجاب "
 " مسترسلا ليس له عدل ... كلا ولا عليه رقاب "
 " في راحة خلعت أرسانها ... لمثلها تعصر الاعناب "
 " فكل بستان قد استأسدت ... فيه النواوير والاعشاب "
 " وأطلع التراب أدواجه ... كأنها العرب الاتراب "
 " لما تحلت بحلى زهرها ... داخلها بالحسن الاعجاب "
 " عرائس ليس لها في سوى ... مائة او بنية خطاب "
 " أيام تبدى ثمرات بدا ... في جنباتهن الارطاب "
 " كأنه في العين ياقوت أو ... كأنه في الفم جلاب "
 " هيهات هيهات أمان لها ... خلب برق لك خلاب "
 " ماحوت الرؤوس امثالها ... فكيف تحويهن الاذئاب "
 " قد عاق عن ذلك دهر به ... تعدم الافراح والاطراب "
 " يروم الانسان غلابا له ... والدهر للانسان غلاب "
 " وقال رحمه الله تعالى لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة
 " بالطبل في كل يوم ... وبالنفيز نراع "
 " وليس من بعد هذا ... وذاك إلا القراع "
 " يارب جبرك يرجو ... من هيبض منه الذراع "
 " لا تسلبني صبرا ... منه لقلبي ادراع "
 " وله رحمه الله تعالى في الموشحات اليد الطولى فمن ذلك قوله
 " بدر أهل الزمان ... الرفيع القدر "
 " لا تزال في أمان ... من كسوف البدر "
 " وله من أخرى
 " هل يصح الأمان ... من شبيه البدر "
 " وهو مثل الزمان ... منتم للغدر "
 " لم يغر الأغر ... غير غمر جاهل "
 " عيشه الحلو مر ... وهو فيه ناهل "
 " والصبا الغض مر ... وهو عنه ذاهل "
 " مرشف البهرمان ... فوق ثغر الدر "
 " طمع للأمان ... باقتراب الدر "
 " وعارض رحمه الله تعالى بهاتين الموشحتين الموشحة المشهورة
 " ضاحك عن جمان ... سافر عن بدر "
 " ضاق عنه الزمان ... وحواه صدري "
 " وممن عارض هذه الموشحة ابن أرقم إذ قال
 " مبسم البهرمان ... في المحيا الدر "
 " صاد قلبي وبان ... وأنا لم أدر "
 " والإنصاف ان معارضة العربي أحسن من هذه
 " وله أيضا معارضان غير ما تقدم الأولى قوله
 " بان لي ثم بان ... ذا حدود حمر "

" ينثني مثل بان ... في ثياب خضر "

والثانية قوله

" هل لمراك ثان ... في سنانه الدرري "

" أو لحوباي ثان ... عن هواها العذري "

" يا مليحا جلا ... عن محيا جميل "

" همت فيه ولا ... هيومان جميل "

" مل قليلا الى ... من إليك يميل "

" عاشق فيك فان ... كاتم للسر "

" لك منه مكان ... في صميم الصدر "

ومن نظم العربي المذكور لما عرض عليه السلطان رياسة كتابه من قصيدة

" أوجه سعدي انحط عنه اللثام ... أم بدر أفق فض عنه الغمام "

" أم انا في حالي لا عقل لي ... أم حلم قد لاح لي في المنام "

" يالك مرأى من رأى حسنه ... هيح للقلب غراما فهام "

" كأنما اقبس نور البها ... من وجه مولانا الامام الهمام "

" ابن أبي الحسن الأسرى الذي ... قد كان للأملاك مسك الختام "

" ضرغام قد أنجب شبها له ... في صدق بأس ومضاء اعتزام "

" حامى وسامى فأفاعيله ... تنقلها أبناء سام وحام "

" دام له النصر الذي جاءه ... والسيف من طلى أعاديه دام "

" فيا أمير المؤمنين الذي ... له بعروة اليقين اعتصام "

" أبشر بجد مقبل لم يؤل ... إلى انصراف لا ولا لانصرام "

" وعزة لم يفض بنيانها ... إلى انهداد لا ولا لانهدام "

" لله منك ملك جنده ... زهر النجوم وهو بدر التمام "

ومنها

" يطرب من مادحه مثلما ... يطرب قلب الصب سجع الحمام "

" فيفعل الشعر بأعطافه ... مالميس تفعل بهن المدام "

" وإن حكى في حسنه يوسف ... فمدحه يشبه زهر الكمام "

ومنها

" فداره ليست ببغدادهم ... مع انها تدعى بدار السلام "

ومنها

" أسأله الإعفاء من كل ما ... أعجز عن حمل له والتزام "

ومنها

" مستشفعا له بخير الورى ... محمد عليه أركى السلام "

ومنها

" وكل انسان وما اختاره ... ورب ذي عذر قد أضحى يلام "

وأخرها

" فالحمد لله على ان غدا ... للشمل بعد الانصداع التئام "

ولنختم هذه الترجمة بقوله

" جز بالبساتين والرياض فما ... أبهج مرئيهما واحلاه "

" واعجب بها للنبات ولتك في ... أسفله ناظرا وأعلاه "

وقدس الله عند ذاك وقل ... سبحانه لا إله إلا هو " سبحان وارث الأرض ومن عليها وهو خير "

الوارثين والحمد لله رب العالمين انتهى المجلد الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم الباب الأول

في أولية لسان الدين وذكر أسلافه الذين ورث عنهم المجد وارتضع در أخلافه وما يناسب ذلك مما

لا يعدل المنصف إلى خلفه

أقول هو الوزير الشهير الكبير لسان الدين الطائر الصيت في المغرب والمشرق المزري عرف الثناء

عليه بالعنبر والعبير المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها

ومصنفاته تخبر عن ذلك ولا يبتك مثل خبير علم الرؤساء الأعلام الوزير الشهير الذي خدمته

السيوف والأقلام وغني بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام واعترف له بالفضل أصحاب

العقول الراجحة والأحلام

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد الأحمر نزيل فاس رحمه الله في كتابه المسمى بفرائد الجمال فيمن نظمني وإياه الزمان في حق المذكور ما نصه ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب

وقال القاضي ابن خلدون المغربي المالكي رحمه الله في تاريخه الكبير عندما أجرى ذكر لسان الدين ما نصه أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج وعلى وادي شنجيل ويقال شنيل المخترق في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال كان له بها سلك معدود في وزرائها وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام انتهى

وقال غيره إن بيتهم يعرف قديما ببني الوزير وحديثا ببني الخطيب وسعيد جده أول من تلقب بالخطيب وكان من أهل العلم والدين والخير وكذلك سعيد جده الأقراب كان على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب خيرا صدرا توفي عام ثلاثة وثمانين وستمئة وأبوه عبد الله كان من أهل العلم بالأدب والطب وقرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر ابن الزبير وغيرهما وأجازه طائفة من أهل المشرق وتوفي بطريف عام أحد وأربعين وسبعمئة شهيدا يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى من العام المذكور مفقودا ثابت الجاش شكر الله فعله

قلت وما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذ من كلامه عند تعريفه رحمه الله بنفسه آخر الإحاطة ولنذكر ملخصه إذ صاحب البيت أدري بالذي فيه مع ما فيه من الزيادة على ما سبق وهي تتم للطالب أمله وتوفيه

قال رحمه الله يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خطله في ساعات أضعها وشهوة من شهوات اللسان أطاعها وأوقات للإشتغال بما لا يعنيه استبدل بها للهو لما باعها أما بعد حمد الله الذي يغفر الخطية ويحث من النفس اللجوج المطية فتحرك ركائبها البطية والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ميسر سبل الخير الوطية والرضى عن آله وصحبه منتهى الفضل ومناخ الطية فإنني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضل النشاط مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية والارتباط والتفت إليه فراقني منه صوان درر ومطلع غرر قد تخلدت مآثرهم مع ذهاب أعيانهم وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم نافتهم في اقتحام تلك الأبواب ولباس تلك الأتواب وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب وحرصت على أن أنال منهم قريبا وأخذت أعقابهم أدبا وحبا وكما قيل ساقى القوم آخرهم شربا فأجريت نفسي مجراهم في التعريف وحذوت بها حذوهم في بابي النسب والتصريف بقصد التشريف والله سبحانه لا يعدمني وإياهم واقفا يترحم وركاب الاستغفار بمنكيه يزحم عندما ارتفعت وظائف الأعمال وانقطعت من التكسبات حبال الآمال ولم يبق إلا رحمة الله تنتاش النفوس وتخلصها وتعينها بميسم السعادة وتخصصها جعلنا اللهم حسن ذكره ووقف على التماس ما لديه فكره بمنه محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني قرطبي الأصل ثم طليطية ثم لوشية ثم غرناطية يكنى أبا عبد الله

ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين

أوليتي يعرف بيتنا في القديم بوزير ثم حديثا بلوشة ببني الخطيب انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيجيى بن يحيى الليثي وأمثاله عند وقعة الرض الشهيرة إلى طليطلة ثم تسربوا محومين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبهاء تضمن منهم ذكر خلق كعبد الرحمن قاضي كورة باغه وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها جاريا مجرى التسمية بالمركب في تاريخ الغافقي وغيره وسكن عقبهم بها وسكن بعضهم منتقيرين مملكين إياها مختطين جبل التحصن والمنعة فنسبوا إليها

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل وزكاء الطعمة أوقفني الوزير أبو الحكم ابن محمد المنتقيري وهو بقية هذا البيت وإخباريه على جدار برج بعض ربي أملاكنا بلوشة تطؤه الطريق المارة من غرناطة إلى إشبيلية وقال كان جدك يذيع بهذا المكان فصولا من العلم ويجهز بتلاوة القرآن فيستوقف الرفاق المدلجة الحنين إلى نعمته والخشوع إلى صدقه فتعرس رجالها لصق جداره وتريح ظهرها موهنا إلى أن يأتي على ورده

وتوفي وقد أصيب بأهله وحرمه عندما تغلب العدو على بلده عنوة في خبر طويل
وقفت على مكتوبات من المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود أمير المسلمين بالأندلس في
غرض إعانتته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة بما يدل على تباهته قديما
ويفيد إثارة عبرة واستقالة عثرة

وتخلف ولده عبد الله جاريا مجراه في التجلد والتمعش من حر النشب والتزيي بالانقباض والتحلي
بالنزاهة إلى أن توفي وتخلف ولده سعيدا جدنا الأقرب وكان صدرا خيرا مستوليا على خلال حميدة
من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب نافس جيرته بني الطنجالي الهاشميين وتحول إلى غرناطة
عندما شعر بعملهم على الثورة واستطلاعهم إلى النزوة التي خضت الشوكة واستأصلت منهم
الشأفة وصاهر بها الأعيان من بني أضحي بن عبد اللطيف الهمداني أشرف جند حمص الداخلين
إلى الجزيرة في طليعة بلج بن بشر القشيري ولحقه من جراء منافسيه لما جاهروا السلطان
بالخلعان اعتقال أعتبه السلطان بعده وأحطاه على تفتته وولاه الأعمال النبيلة والخطط الرفيعة
حدثني من أتق به قال عزم السلطان على أن يفعد جدك أستاذًا لولده فأنتت من ذلك أم الولد
إشفاقا عليه من فظاظة كانت فيه

ثم صاهر القواد من بني الجعدالة على أم أبي ومشت إلى زوج السلطان بينوة الخؤولة فنيه القدر
وانفسخت الحظوة واثال على البيت الرؤساء والقراية وكان على قوة شكيمته وصلابة مكسره
مؤثرا للخموم محبا في الخير حدثني أبي عن أمه قالت قلما تهنأنا نحن وأبوك طعاما حافلا لإيثاره
به من كان يكمن بمسجد جواره من أهل الحاجة وأحلاف الضرورة يهجم علينا منهم بكل وارد
ويجعل يده مع يده ويشركه في أكيلته ملتذا بموقعها من فؤاده
وتوفي في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة صهرته الشمس مستسقيا في بعض المحول
وقد استغرق في ضراسته فدللت الحنف على نفسه
وتخلف والدي نابتا في الترف نبت العليق يكنفه رعي أم تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر
عليه النسيم إذا سرى ففاته لترفه حظ كبير من الاجتهاد وعلى ذلك فقرا على الخطيب أبي
الحسن البلوطي والمقرئ أبي عبد الله ابن مسمغور وأبي جعفر ابن الزبير خاتمة الجلة وكان
يفضله

وانقل إلى لوشة بلد سلفه مخصوصا بلقب الوزارة إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطيا إلى
الحضرة هاويا إلى ملك البيضة فعضد أمره وأدخله بلده لدواع يطول استقصاؤها ولما تم له الأمر
صحب ركابه إلى دار ملكه بشقص عريض من دنياه وكان من رجال الكمال طلق الوجه مع الظرف
وتضمن كتاب التاج المحلي والإحاطة رائقا من شعره وفقد في الكائنة العظمى بطريف يوم الإثنين
سابع جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ثابت الجأش غير جزوع ولا هياية حدثني
الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة الفقيه أبو عبد الله ابن اللوشي قال كبا بأخيك الطرف وقد
غشي العدو وجنحت إلى إردافه فانحدر إليه والدك وصرفني وقال أنا أولى به فكان آخر العهد بهما
انتهى

ومما رثي به والد لسان الدين وأخوه ما ذكره في الإحاطة في ترجمة أبي محمد عبد الله الأزدي إذ
قال ما نصه ومما كتب إلي فيما أصابني بطريف
" خطب ألم فأذهب الأخ والأبا ... رغما لأنف شاء ذلك أو أبي "
" قدر جرى في الخلق لا يجد امرؤ ... عما به جرت المقادر مهريا "
" إما جزعت له فعذر بين ... قضت الدواهي أن تحل له الحبا "
" لاكان يومهما الكرية فكم وكم ... فيه المجلي والمصلي قد كبا "
" يوم لوى ليانه لم يبق للإسلام ... حد مهند إلا نبا "
" وتجمعت فيه الضلال فقابلت ... فيه الهدى فتفرقت أيدي سبا "
" أها لعز المحتدين صرامة ... لأذل عز المهتدين وأذها "
" دهم المصاب فعم إلا أنه ... فيما يخلصك ما أمر وأصعبا "
" يا ابن الخطيب خطاب مكثرث لما ... قد أزم البث الألد وأوجبا "
" قاسمتك الشجو المقاسمة التي ... صارت بخالص ما محضتك مذهبا "
" لم لا وأنت لدي سابق حلبة ... تزهي بمن في السابقين تأدبا "
" لا عاد يوم نال منك ولا أنت ... سنة به ما الليل أبدى كوكبا "
" يهنئ الشهيدان الشهادة إنها ... سبب يزيد من الإله تقريبا "
" وردا على دار النعيم وحورها ... كلغا ببرهما يزدن ترحبا "

" فاستغن بالرحمن عمن قد ثوى ... من حزب خير من ارتضى ومن اجتبى "
فأجبتة بقولي
" أهلا بمقدمك السنني ومرحبا ... فلقد حبانني الله منك بما حبا "
" وافيت والدنيا علي كأنها ... سم الخياط وطرف صبري قد كبا "
" والدهر قد كشف القناع ولم يدع ... لي عدة للروع إلا أذهبها "
" صرف العنان إلي غير مدافع ... عني وأثبت دون نصرتي الشبا "
" خطب تأويني يضيق لهوله ... رحب الفضا وتهدى لموقعه الربى "
" لو كان بالورق الصوادح في الدجى ... ما بي لعاق الورق عن أن تندبا "
" فأنرت من ظلماء همي ما دجا ... وقدحت من زند اصطباري ما خبا "
" فكأنني لعب الهجير بمهجتي ... وبعثت لي من نفحها نفس الصبا "
" لا كان يومك يا طريف فطالما ... أطلعت للأمال برقا خلبا "
" ورميت دين الله منك بفادح ... عم البسيط مشرقا ومغربا "
" وخصصتني بالرزء والثكل الذي ... أوهى القوى مني وهد المنكبا "
" لا حسن للدنيا لدي ولا أرى ... للعيش بعد أبي وصنوي مأربا "
" لولا التعلل بالرحيل وأنا ... ننضي من الأعمار فيها مركبا "
" فإذا ركضنا للشبيبة أدهما ... حال المشيب به فأصبح أشهبها "
" والملتقى كتب وفي ورد الردى ... نهل الورى من شاء ذلك أو أبى "
" لجريت طوع الحزن دون نهاية ... وذهبت من خلع التصبر مذهبا "
" والصبر أولى ما استكان له الفتى ... رغما وحق العبد أن يتأدبا "
" وإذا اعتمدت الله يوما مفرعا ... لم تلف منه سوى إليه المهربا "
واقعة طريف

واقعة طريف هذه استشهد فيها جماعة من الأكابر وغيرهم وكان سببها أن سلطان فاس أمير المسلمين أبا الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس برسم الجهاد ونصرة أهلها على عدوهم حسبما جرت بذلك عادة سلفه وغيرهم من ملوك العدو وشمر عن ساعد الاجتهاد وجر من الجيوش الإسلامية نحو ستين ألفا وجاء إليه أهل الأندلس بقصد الإمداد وسلطانهم ابن الأحمر ومن معه من الأجناد فقضى الله الذي لا مرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولا وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولا ونجا برأس طمرة ولجام ولا تسل كيف وقتل جمع من أهل الإسلام ولمة وافرة من الأعلام وأمضى فيهم حكمه السيف وأسر ابن السلطان وحريمه وخدمه ونهبت ذخائره واستولت على الجميع أيدي الكفر والحيف واشرب العدو الكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريث وثبتت قدمه إذ ذاك في بلد طريف وبالجملة فهذه الواقعة من الدواهي المعضلة الداء والأرزاء التي تضعف لها ركن الدين بالمغرب وقرت بذلك عيون الأعداء ولولا خشية الخروج عن المقصود لأوردت قصتها الطويلة وسردت منها ما يحق لسامعه أن يكثر بكاءه وعويله وقد ألم بها الولي قاضي القضاة ابن خلدون المغربي في كتاب العبر وديوان والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر فليراجعه من أراد في المجلد الثامن من هذا التاريخ الجامع فإنه ذكر حين ساق هذه الكائنة ما يخرس الألسن ويصم المسامع والله الأمر من قبل ومن بعد

واقعة الرضى

وقول لسان الدين رحمه الله في أولية سلفه إنهم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية إلى آخره أشار بذلك إلى واقعة الرضى الشهيرة التي ذكرها ابن حيان في تاريخه الكبير المسمى بالمفتبس في تاريخ الأندلس وقص أمرها غير واحد كابن الفرضي وابن خلدون وملخصها أن أهل رضى قرطبة ثاروا على الأمير الحكم الأموي وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب إمامنا مالك رضي الله عنه وغيره فكانت النصره للحكم فلما ظفر وقتل من شاء أجلى من بقي إلى البلاد وبعض إلى جزيرة إقريطش ببحر الإسكندرية وفي قصتهم طول وليس هذا محلها

والد لسان الدين

وقال لسان الدين رحمه الله أيضا في حق والده ما حصله عبد الله بن سعيد ابن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي بن السلماني أبو محمد غرناطي الولادة والاستيطان لوشي الأصل طليطلية

قرطبية

وقال في الإكليل إن طال الكلام وجمحت الأفلام كنت كما قيل مادح نفسه يقرئك السلام وإن
إحمت فما سديت في الثناء ولا ألحمت وأضعت الحقوق وخفت ومعاذ الله العقوق هذا ولو أني
زحرت طير البيان من أوكاره وجئت بعون الإحسان وأبكاره لما قضيت حقه بعد ولا قلت إلا بالتي
علمت سعد فقد كان رحمه الله ذمر عزم ورجل رخاء وأزم تروق أنوار خلاله الباهرة وتضيء مجالس
الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة ذكاء يتوقد وطلاقة يحسد نورها الفرقد وكانت له في الأدب
فريضة وفي النادرة العذبة منادح عريضة تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتا
من شعري ورقاعا من إنشائي فتهلل وما برح أن ارتجل

" الطب والشعر والكتابة ... سماتنا في بني النجابة "

" هن ثلاث مبلغات ... مراتبا بعضها الحجابة "

ووقع لي يوما بخرطة على ظهر أبيات بعثتها إليه أعرض عليه نمطها

" وردت كما صدر النسيم بسحرة ... عن روضة جاد الغمام رباها "

" وكأنما هاروت أودع سحره ... فيها وأثرها به وحبها "

" مصقولة الألفاظ يبهز حسنها ... فيمثلها افتخر البليغ وباهي "

" فقررت عينا عند رؤية حسنها ... إنني أبوك وكنت أنت أباه "

ومن نظمه قوله

" وقالوا قد دنا فاصبر ستشفى ... فترياق الهوى بعد الديار "

" فقلت هبوا بأن الحق هذا ... بقلبي يمموا فم اصطباري "

وقال

" عليك بالصمت فكم ناطق ... كلامه أدى إلى كلمه "

" إن لسان المرء أهدي إلى ... غرته والله من خصمه "

" يرى صغير الجرم مستضعفا ... وجرمه أكبر من جرمه "

وقال

" أنا بالدهر يا بني خبير ... فإذا شئت علمه فتعالا "

" كم مليك قد ارتعى منه روضا ... لم يدافع عنه الردى ما ارتعى لا "

" كل شيء تراه يفنى ويبقى ... ربنا الله ذو الجلال تعالى "

مولده بغرناطة في جمادى الأولى عام اثنين وسبعين وستمائة وفقده يوم الواقعة الكبرى بظاهر

طريف يوم الإثنين سابع جمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبعمائة ورثيته بقصيدة أولها

" سهام المنايا لا تطيش ولا تخطي ... وللدهر كف تسترد الذي تعطي "

" وأنا وإن كنا على ثبح الدنا ... فلا بد يوما أن نحل على الشط "

" تساوى على ورد الردى كل وارد ... فلم يغن رب السيف عن ربة القرط "

" وسيان ذل الفقر أو عزة الغنى ... ومن أسرع السير الحثيث ومن يبطي "

وهي طويلة

قال ورثاه شيخنا أبو زكريا ابن هذيل بقصيدة يقول فيها

" إذا أنا لم أرث الصديق فما عذري ... إذا قلت أبياتا حسانا من الشعر "

" ولو كان شعري لم يكن غير ندبة ... وأجريت دمعي لليراع عن الحبر "

" لما كنت أقضي حق صحبته التي ... توخيتها عونا على نوب الدهر "

" رمانى عبد الله يوم وداعه ... بداهية دهيا قاصمة الظهر "

" قطعت رجائي حين صح حديثه ... فإن يوف لي دمعي فقد خانني صبري "

" وهل مؤنس كابن الخطيب لوحشتني ... أث له همي وأودعه سري "

ومنها

" تولى وأخبار الجلالة بعده ... مؤرحة الأنباء طيبة النشر "

" رضينا بترك الصبر من بعد بعده ... على قدر ما في الصبر من عظم الأجر "

" أتى بفتيت المسك فوق جبينه ... نجيعا يفوق المسك في موقف الحشر "

" لقد لقي الكفار منها بعزيمة ... لها لقيته الحور بالبر والبشر "

" تجلت عروسا جنة الخلد في الوغى ... تقول لأهل الفوز لا يغللكم مهري "

" فكان من القوم الذين تبادروا ... إلى العالم الأعلى مع الرفقة الغر "

" تعالوا بنا نسقي الأباطح والرى ... بقطر دموع غالبات على القطر "

" ألا لا تلم عيني لسكب دموعها ... فما سكبت إلا على الماجد الحر "

ومنها

" أخواننا جدوا فكم جد غيركم ... وسيروا على خف من الحوب والوزر "

" على سفر أنتم لدار تأخرت ... وما الفوز في الأخرى سوى خفة الظهر "

" وما العيش إلا بقطة مثل نومة ... وما العمر إلا كالخيال الذي يسري "

" على الحق أنتم قادمون فشمروا ... فليس لمخدول هنالك من عذر "

وهي طويلة تجاوز الله عنا وعنهم أجمعين انتهى ما لخصته من كلام لسان الدين رحمه الله
ترجمة أبي بكر ابن عاصم

قلت على منوال كلامه في تحلية أبيه النبيه شيخ الوزير الكاتب الشهير القاضي أبو يحيى ابن عاصم القيسي الأندلسي رحمه الله في وصف أبيه القاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب التحفة في علم القضاء وهو محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي قاضي الجماعة الرئيس أبو بكر ونص المحتاج إليه في هذا المحل من كلام ولده قوله رحمه الله إن بسطت القول أو عدت الطول وأحكمت الأوصاف وتوخيت الإنصاف أنفدت الطروس وكنت كما يقول الناس في المثل من مدح العروس وإن أضربت عن ذلك صفحا فليئسا صنعت ولسر ما أمسكت المعروف ومنعت ولكم من حقوق الأبوة

أضعت ومن ثدي للمعقة رضعت ومن شيطان لغمصة الحق أطعت ولم أرد إلا الإصلاح ما استطعت وإن توسطت واقتصرت وأوجزت واختصرت فلا الحق نصرت ولا أفنان البلاغة هصرت ولا سبيل الرشد أبصرت ولا عن هوى الحسدة أقصرت هذا لو أني أجهدت أسنة البلاغة فجهدت وأيقظت عيون الإحادة فسهدت واستعرت مواقف عكاظ على ما عهدت لما قررت من الفضل إلا ما به الأعداء قد شهدت ولا استقصيت من المجد إلا ما أوصت به الفئة الشائنة لخلفها الأبر وعهدت فقد كان رحمه الله علم الكمال ورجل الحقيقة وقارا لا يخف راسيه ولا يعرى كاسيه وسكونا لا يطرق جانبه ولا يرهب غالبه وحلما لا تزل حصاته ولا تهمل وصاته وانقباضها لا يتعدى رسمه ولا يتجاوز حكمه ونزاهة لا ترخص قيمتها ولا تلين عزيمتها وديانة لا تحسر أذيالها ولا يشف سربالها وإدراكا لا يفل نصله ولا يدرك خصله وذهنا لا يخبو نوره ولا ينبو مطوره وفهما لا يخفى فلقه ولا يهزم فيلقه ولا يلحق بحره ولا يعطل نحره وتحصيلا لا يفلت قنيصه ولا يسام حريصه بل لا يحل عقاله ولا يصدأ صقاله وطلبا لا تتحد فنونه ولا تتعين عيونه بل لا تحصر معارفه ولا تقصر مصارفه يقوم أتم قيام على النحو على طريقة متأخري النحاة جمعا بين القياس والسماع وتوجيه الأقوال البصرية واستحضار الشواهد الشعرية واستظهار اللغات والأعرية واستبصار في مذاهب المعربة محليا أجياد تلك الأعراب من علمي البديع والبيان بجواهر أسلاك ومجليا في آفاق تلك الأساليب من فوائد هذين الفنين زواهر أفلاك إلى ما يتعلق بذلك من قافية للعروض وميزان وما للشعر من بحور وأوزان تطلع بالفراءات أكمل اضطلاع مع التحقيق والاطلاع

فيقنع ابن الباذش من إقناعه ويشرح لابن شريح ما أشكل من أوضاعه ويقصر عن رتبته الداني ويجوز صدر المنصة من حرز الأمانى ويشارك في المنطق وأصول الفقه والعدد والفرائض والأحكام مشاركة حسنة ويتقدم في الأدب نظما ونثرا وكتبا وشعرا إلى براعة الخط وإحكام الرسم وإتقان بعض الصنائع العملية كتفسير الكتب وتنزيل الذهب وغيرهما نشأ بالحضرة العلية لا يغيب عن حلقات المشيخة ولا يريم عن مظان الاستفادة ولا يفتر عن المطالعة والتقييد ولا ينسالم من المناظرة والتحصيل مع المحافظة التي لا تتخرم ولا تنكسر والمفاوضة في الأدب ونظم القريض والفكاهة التي لا تقدح في وقار انتهى ملخصا

وقد أطال في تعريفه بأوراق عدة ثم قال مولده في الربع الثالث من يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى من عام ستين وسبعمائة كما نقلته من خط ابنه ثم قال وله مسائل متعددة في فنون شتى ضمنها كل سديد من البحث وصحيح النظر وأما كتبه فالدر النفيس والياقوت الثمين والروض الأنف والزهر النضير نصاعة لفظ وأصالة غرض وسهولة تركيب ومتانة أسلوب انتهى ثم ذكر مشيخته وأطال ثم سرد تأليفه الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام والأرجوزة المسماة بمهيع الوصول في علم الأصول أصول الفقه والأرجوزة الصغرى المسماة بمرتقى الوصول للأصول كذلك والأرجوزة المسماة بنيل المنى في اختصار الموافقات والقصيدة المسماة بإيضاح المعاني في القراءات الثماني والقصيدة المسماة بالأمل المرقوب في قراءة يعقوب والقصيدة المسماة بكنز المفاوض في علم الفرائض والأرجوزة المسماة بالموجز في النحو حاذى بها رجز ابن مالك في غرض البسط له والمحاذاة لقصده والكتاب المسمى بالحدائق في أغراض شتى من الآداب

والحكايات

توفي بين العصر والمغرب يوم الخميس حادي عشر شوال عام تسعة وعشرين
وثمانمائة انتهى كلام الوزير ابن عاصم وإنما ذكرته لأن أهل الأندلس يقولون في حقه إنه ابن
الخطيب الثاني ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض إنشائه ونظمه فإنه في الذروة العليا وقد ذكرت
جملة من ذلك في أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل
ارتياض

ولنرجع إلي الترجمة المقصودة فنقول والسلماني نسبة إلى سلمان بإسكان اللام على الصحيح
قال ابن الأثير والمحدثون يفتحون اللام وسلمان حي من مراد من عرب اليمن القحطانيين دخل
الأندلس منهم جماعة من الشام وسلف لسان الدين رحمه الله تعالى ينتسبون إليهم كما سبق
في كلامه وهو مشهور إلى الآن بالمغرب بابن الخطيب السلماني ولذلك خاطبه شيخه شيخ

الكتاب الرئيس أبو الحسن ابن الجياب حين حل مالقة بقوله
" أيا كتابي إذا ما جئت مالقة ... دار الكلام من مثنى ووحدان "

" فلا تسلم على ربيع لذي سلم ... بها وسلم على ربيع لسلمان "

فأجاب لسان الدين رحم الله تعالى الجميع بقوله

" يا ليت شعري هل يقضي تألفنا ... ويثني الشوق عن غاياته الثاني "

" أو هل يحن على نفسي معذبها ... أو هل يرق لقلبي قلبي الثاني "

عبد العزيز الفشتالي وتونيته

وعلى ذكر نسبة ابن الخطيب لسلمان فقد تذكرت هنا بيتا أنشدني لنفسه صاحبنا الوزير الشهير
الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي صب الله تعالى عليه
شباب رحماه من قصيدة نونية مدح

بها سيد الوجود وتخلص إلى مدح مولانا السلطان المنصور بالله أبي العباس أحمد الحسن أمير
المؤمنين صاحب المغرب رحمه الله تعالى وهو

" أولئك فخري إن فخرت على الوري ... ونافس بيتي في الولا بيت سلمان "

وأراد كما أخبرني بيت سلمان القبيلة التي منها لسان الملة والدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى
أشار إلى ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين السلماني رحمه الله تعالى كذلك وفيه مع ذلك
تورية بسلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه

وقد رأيت أن أسرد هنا هذه القصيدة الفريدة لبلاغتها التي بذت شعراء اليتيمة والخريدة ولأن

شجون الحديث الذي جر إليها شوقني إلى معاهدي المغربية التي أكثر البكاء عليها بحضرة

المنصور بالله الإمام سقى الله تعالى عهادها صوب الغمام حيث الشباب غض يانع والمؤمل لم

يحجبه مانع والسلطان عارف بالحقوق والزمان وهو أبو الوري لم يشب بره بالعقوق والليالي

مسالمة غير رامية من البين بنبال والغربة الجالبة للكربة لم تخطر ببال ورؤساء الدولة الحسنية

السنية ساعون فيما يوافق الغرض ويلائم والأيام تغورها بواسم وأوقاتها أعياد ومواسم وأفراح وولائم

فله فيها عيش ما نسيناه وعز طالما اقتبسنا نور الهدى من طور سيناه

" مضى ما مضى من حلو عيش ومره ... كأن لم يكن إلا كأضغاث أحلام "

وهذا نص القصيدة

" هم سلبوني الصبر والصبر من شاني ... وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني "

" وهم أخفروا في مهجتي ذمم الهوى ... فلم يثنهم عن سفكها حبي الجاني "

" لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسي ... فشوقهم أضحى سميدي وندماني "

" وإن غادرتني بالعراء حمولهم ... لقي إن قلبي جاهد إثر أظعاني "

" قف العيس واسأل ربهم أية مضوا ... أألجزع ساروا مدلجين أم البان "

" وهل باكروا بالسفح من جانب اللوي ... ملاعب آرام هناك وغزلان "

" وأين استقلوا هل بهضب تهامة ... أناخوا المطايا أم على كذب نعمان "

" وهل سال في بطن المسيل تشوقا ... نفوس ترامت للحمي قبل جثمان "

" وإذ زجروها بالعشي فهل ثني ... ازمتها الحادي إلى شعب بوان "

" وهل عرسوا في دير عبدون أم سروا ... يؤم بهم رهبانهم دير نجران "

" سروا والدحي صبغ المطارف فانتنى ... بأحداجهم شتى صفات وألوان "

" وأدلج في الأسحار بيض قبايهم ... فلحن نجوما في معارج كئيبان "

" لك الله من ركب يرى الأرض خطوة ... إذا زمها بدنا نواعم أبدان "

" أرحها مطايا قد تمشي بها الهوى ... تمشي الحميا في مفاصل نشوان "

" وبمم بها الوادي المقدس بالحمى ... به الماء صدا والكلاب نبت سعدان "

" وأهد حلول الحجر منه تحية ... تفوح عرفا ذاك الرند والبان "

" لقد نفحت من شيخ يثر نفحة ... فهاجت مع الأسحار شوقي وأشجاني "

" وفتت منها الشرق في الغرب مسكة ... سحبت بها في أرض دارين أرداني "

" وأذكرني نجدا وطيب عراره ... نسيم الصبا من نحو طيبة حياني "

" أحن إلى تلك المعاهد إنها ... معاهد راحتني وروحي وريحاني "

" وأهفو مع الأشواق للوطن الذي ... به صح لي أنسي الهني وسلواني "

" وأصبوا إلى أعلام مكة شائقا ... إذ لاح برق من شمام وتهلان "

" أهيل الحمى ديني على الدهر زورة ... أحث بها شوقا لكم عزمي الواني "

" متى يشنفي جفني القريح بلحظة ... تزج بها في نوركم عين إنساني "

" ومن لي بأن يدنو لقاكم تعظفا ... ودهري عني دائما عطفة ثاني "

" سقى عهدهم بالخيف عهد تمده ... سوافح دمع من شؤوني هتان "

" وأنعم في شط العقيق أراكة ... بأفيائها ظل المنى والهوى داني "

" وحبيا ربوعا بين مروة والصفاء ... تحية مشتاق بها الدهر حيران "

" ربوعا بها تتلو الملائكة العلا ... أفانين وحي بين ذكر وقرآن "

" وأول أرض باكرت عرصاتها ... وطرزت البطحا سحائب إيمان "

" وعرس فيها للنبوة موكب ... هو البحر طام فوق هضب وغيطان "

" وأدى بها الروح الأمين رسالة ... أفادت بها البشرية مدائح عنوان "

" هنالك فض ختمها أشرف الورى ... وفخر نزار من معد بن عدنان "

" محمد خير العالمين بأسرها ... وسيد أهل الأرض م الإنس والجان "

" ومن بشرت في بعته قبل كونه ... نوامس كهان وأخبار رهبان "

" وحكمة هذا الكون لولاه ما سمت ... سماء ولا غاضت طوافح طوفان "

" ولا زخرفت من جنة الخلد أربع ... تسبح فيها آدم حور وولدان "

" ولا طلعت شمس الهدى غب دحية ... تجهم من ديجورها ليل كفران "

" ولا أهدت بالمذنبين شفاعة ... يزود بها عنهم زباني نيران "

" له معجزات أخرست كل جاحد ... وسلت على المرتاب صارم برهان "

" له انشق قرص البدر شقين وارثي ... بماء همى من كفه كل ظمان "

" وأنطقت الأصنام نطقا تبرأت ... إلى الله فيه زخارف ميان "

" دعا سرحة عجا فلبت وأقبلت ... تجر ذيول الزهر ما بين أفنان "

" وضاءت قصور الشام من نوره الذي ... على كل أفق نازح القطر أو داني "

" وقد بهج الأنبا بدعوته التي ... كست أوجه الغبراء بهجة نيسان "

" وإن كتاب الله أعظم آية ... بها افتضح المرتاب وابتأس الشاني "

" وعدي على شاؤ البليغ بيانه ... فهيهات منه سجع قس وسحبان "

" نبي الهدى من أطلع الحق أنجما ... محا نورها أسداف إفك وبهتان "

" لعزتها ذل الأكاسرة الألى ... هم سلبوا تيجانها آل ساسان "

" وأحرز للدين الحنيفي بالطبي ... تراث الملوك الصيد من عهد يونان "

" ونقع من سمر القنا السم قيصرنا ... فجرعه منه مجاجة ثعبان "

" وأضحت ربوع الكفر والشك بلقعا ... يناغي الصدى فيهن هاتف شيطان "

" وأصبحت السمحا ترف نضارة ... ووجه الهدى بادي الصبابة للرائي "

" أيا خير أهل الأرض بيتا ومحتدا ... وأكرم كل الخلق عجم وعربان "

" فمن للقوافي أن تحيط بوصفكم ... ولو ساجلت سيقا مدائح حسان "

" إليك بعثناها أمانني أجدبت ... لتسقى يمز من أياديك هتان "

" أجرتني إذا أبدى الحساب جرائمي ... وأثقلت الأوزار كفة ميزاني "

" فأنت الذي لولا وسائل عزه ... لما فتحت أبواب عفو وغفران "

" عليك سلام الله ما هبت الصبا ... وماست على كثنانها ملد قضبان "

" وحمل في جيب الجنوب تحية ... يفوح بمسراها شذا كل توفان "

" إلى العمرين صاحبيك كليهما ... وتلوهما في الفضل صهرك عثمان "

" وحباً علياً عرفها وأريجها ... ووالى علي سبطيك أوفر رضوان "

" إليك رسول الله صممت عزمة ... إذا أزمعت فالشحط والقرب سيان "

" وخاطبت مني القلب وهو مقلب ... على جمرة الأشواق فيك فلباني "

" فإليت شعري هل أزم فلانصي ... إليك بداراً أو أقلقل كيراني "

" وأطوي أديم الأرض نحوك راحلاً ... نواجي المهاري في صحاح فيعان "

" يرنحها فرط الحنين إلى الحمى ... إذا غرد الحادي بهن وغناني "

" وهل تمحون عني خطايا افترفتها ... خطأ لي في تلك البقاع وأوطان "

" وماذا عسى يثني عناني وإن لي ... بآلك جاهها صهوة العز أمطاني "

" إذا ند عن زوارك البأس والعنا ... فوجود ابنك المنصور أحمد أغناني "

" عمادي الذي أوطا السماكين أحمصا ... وأوفى علي السبع الطباق فأدنانني "

" متوج أملاك الزمان وإن سطا ... أحل سيوفا في معاهد تيجان "

" وقاري أسود الغاب بالصيد مثلها ... إذا اضطرب الخطي من فوق جدران "

" هزبر إذا زار البلاد زثيره ... تضاءل في أخياسها أسد خفان "

" وإن أطلعت غيم القتام جيوشه ... وأرزم في مركومه رعد نيران "

" صبين على أرض العداة صواعقا ... أسلن عليهم بحر خسف ورجفان "

" كتائب لو يعلون رضوى لصدعت ... صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان "

" عديد الحصى من كل أروع معلم ... وكل كمي بالرديني طعان "

" إذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا ... هدتهم إلى أوداجها شهب خرسان "

" من اللاء جرعن العدا غصص الردى ... وعفرن في وجه الثرى وجه بستان "

" وفتحن أقطار البلاد فأصبحت ... تؤدي الخراج الجزل أملاك السودان "

" إمام البرايا من علي نجاره ... ومن عترة سادوا الورى آل زيدان "

" دعائم إيمان وأركان سؤدد ... ذوو همم قد عرست فوق كيوان "

" هم العلويون الذين وجوههم ... بدور إذا ما أحلكت شهب أزمان "

" وهم آل بيت شيد الله سمكه ... على هضبة العلياء ثابت أركان "

" وفيهم فشا الذكر الحكيم وصرحت ... بفضلهم آيات ذكر وفرقان "

" فروع ابن عم المصطفى ووصيه ... فناهيك من فخرين قربي وقربان "

" ودوحة مجد معشب الروض بالعلا ... وجود بأمواه الرسالة ريان "

" بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت ... معد على العرياء عاد وقحطان "

" أولئك فخري إن فخرت على الورى ... ونافس بيتي في الولا بيت سلمان "

" إذا اقتسم المداح فضل فخارهم ... فقسمي بالمنصور ظاهر رجحان "

" إمام له في جبهة الدهر ميسم ... ومن عزه في مفرق الملك تاجان "

" سيما فوق هامات النجوم بهمة ... يحوم بها فوق السموات نسران "

" وأطلع في أفق المعالي خلافة ... عليها وشاح من علاه وسمطان "

" إذا ما احتبى فوق الأسرة وارتمى ... على كبرياء الملك نخوة سلطان "

" توسمت لقمان الحجى وهو ناطق ... وشاهدت كسرى العدل في صدر إيوان "

" وإن هزه حر الثناء تدفقت ... أنامله عرفاً تدفق خلجان "

" أيا ناظر الإسلام شم بارق المنى ... وياكر لروض في ذرا المجد فينان "

" قضى الله في عليك أن تملك الدنيا ... وتفتحها ما بين سوس وسودان "

" وأنت تطوي الأرض غير مدافع ... فمن أرض السودان إلى أرض بغداد "

" وتملؤها عدلاً يرف لواؤه ... على الهرمين أو على رأس غمدان "

" فكم هنأت أرض العراق بك العلا ... ووافت بك البشرى لأطراف عمان "

" فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم ... أذاك استلاباً تاج كسرى وخاقان "

" ولو نشر الأملاك دهرك أصبحت ... عيالا على عليك أبناء مروان "

" وشايحك السفاح يقتاد طائعا ... برايته السوداء أهل خراسان "

" فما المجد إلا ما رفعت سماكه ... على عمدي سمر الطوال ومران "

" وهاتيك أبار القوافي جليتها ... تغار لهن الحور في دار رضوان "

" أنتك أمير المؤمنين كأنها ... لطائم مسك أو خمائل بستان "

" تعاضن حسناً أن يقال شبيها ... فرائد در أو قلائد عقيان "

" فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها ... وللدن تحميه بملك سليمان "

" ولا زلت بالنصر العزيز مؤزرا ... تقاد لك الأملاك في زي عبدان "

نونية أبي الفتح التونسي

انتهت القصيدة التي في تغزلها شرح الحال وإعراب عما في ضمير الغربة والارتحال ولنعرزها بأختها
في البحر والروي قصيدة القاضي الشهير الذكر الأديب الذي سلبت النهى كواعب شعره إذ أبرزها
من خدور الفكر الشيخ الإمام سيدي أبو الفتح محمد بن عبد السلام المغربي التونسي نزيل
دمشق الشام صب الله على ضريحه سجال الرحمة والإنعام فإنها نفت مصدر غريب وبث معذور
أريب فارق مثلي أوطانه وما سلاها وقرأ آيات الشجو وتلاها وتمنى أن يوجد له الدهر برؤية مجتلاها
وهي قوله رحمه الله وأنشأها بدمشق عام واحد وخمسين وتسعمائة

" سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني ... وعمما بقلبي من لواعج نيران "

" ولا تسألوا غير الصبا عن صبايتي ... وشدة أشواقني إليكم وأشجانني "

" فما لي سواها من رسول إليكم ... سريع السرى في سيره ليس بالواني "

" فيا طال بالأسحار ما قد تكلفت ... بإنعاش محزون وإيقاظ وسان "

" وتنفيس كرب عن كتيب متيم ... يحن إلى أهل ويصو لأوطان "

" فله ما أذكرى شذا نسمة الصبا ... صباحا إذا مرت على الرند والبان "

" وسارت مسير الشمس وهنا فأصبحت ... من الشرق نحو الغرب تجري بحسبان "

" وقد وقفت بالشام وقفة حامل ... نوافج مسك من طباء خراسان "

" لترتاض في تلك الرياض هنيئة ... وتزداد من أزهارها طيب أردان "

" وما غربت حتى تضاعف نشرها ... بواسطتي روح هناك وريحان "

" فكم نحوكم حملتها من رسالة ... مدونة في شرح حالي ووجداني "

" وناشدتها بالله إلا تفضلت ... بتبليغ أحبابي السلام وجيرانني "

" تحية مشيتاق إلى ذلك الحمى ... وسكانه والنازحين بأطعان "

" سقى الله هاتيك الديار وأهلها ... سحائب تحكي صوب مدمعي القاني "

" وحيا ربوع الحي من خير بلدة ... تخيرها قدما أفاضل يونان "

" هي الحضرة العليا مدينة تونس ... أنيسة إنسان رآها بإنسان "

" لها الفخر والفضل المبين بما حوت ... من الأنس والحسن المنوط بإحسان "

" لقد حل منها آل حفص ملوكها ... مراتب تسمو فوق هامة كيوان "

" وسادوا بها كل الملوك وشيدوا ... بها من ميان العز أفخر بنيان "

" وكان لهم فيها بهاء وبهجة ... وحسن نظام لا يعاب بنقصان "

" وكان لهم فيها عساكر جمعة ... تصول بأسياف وتسطو بمران "

" وجيوش وفرسان يضيق بها الفضا ... ويحجم عنها الفرس من آل ساسان "

" وكان لأهلها المفخر والعلا ... وكان بها حصنا أمان وإيمان "

" وكان على الدنيا جمال بحسنها ... وحسن بنيتها من ملوك وأعيان "

" وكانت لطلاب المعارف قبلة ... لما في حماها من أئمة عرفان "

" وكان لأهل العلم فيها وجاهة ... وجاه وعز مجده ليس بالفاني "

" وكان بواديها المقدس فتية ... تقدر باربها بذكر وقرآن "

" ومن أدباء النظم والنثر معشر ... تفوق بناديها بلاغة سحبان "

" وكانت على الأعداء في حومة الوعي ... تطول بأبطال وتسطو بشجعان "

" وما برحت فيها محاسن جمعة ... وفي كل نوع أهل حذق وإتقان "

" إلى أن رمتها الحادثات بأسهم ... وسلت عليها سيف بغي وعدوان "

" فما لبثت تلك المحاسن أن عفت ... وأقفر ريع الأنس من بعد سكان "

" وشتت ذاك الشمل من بعد جمعه ... كما انتشرت يوما قلائد عقيان "

" فأعظم برزء خص خير مدينة ... وخير أناس بين عجم وعربان "

" لعمرى لقد كادت عليها قلوبنا ... تضرم من خطب عراها بنيران "

" وقد عمنا غم بعظم مصابها ... وإن خصني منه المضر بجثمانني "

" وما بقيت فيما علمناه بلدة ... من الشرق إلا ألبست ثوب أحزان "

" فصبرا أخي صبرا على المحنة التي ... رمتك بها الأقدار ما بين إخوان "

" فما الدهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزية مال أو تفرق خلان "

" أحبابنا إن فرق الدهر بيننا ... وطال مغيبي عنكم منذ أزمان "

" فإني على حفظ الوداد وحقكم ... مقيم وما هجر الأحبة من شاني "

" ووالله والله العظيم الية ... على صدقها قامت شواهد برهان "

" لقد زاد وحدي واشتياقي إليكم ... وبرح بي طول البعاد وأضناني "

" فلا تحسبوا أنني تسليت بعدكم ... بشيء من الدنيا وزخرفها الفاني "

" ولا أنني يوما تناسيت عهدكم ... بحال ولا أن التكاثر الهاني "

" ولا راقني روض ولا هش مسمعي ... لنغمة أطيّار ورنة عيدان "

" ولا حل في فكري سواكم بخلوة ... ولا جلوة ما بين حور وولدان "

" ولا اختلجت يوما ضمائر مهجتي ... لغيركم في سر سري وإعلاني "

" ولو لم أسل النفس بالقرب واللقا ... لأدرج جسمي في مقاطع أكفاني "

" فما أنا في عودي إليكم بأيس ... فما اليأس إلا من علامة كفران "

" عليكم سلام الله في كل ساعة ... تحية صب لا يدين بسلوان "

" مدى الدهر ما ناحت مطوقة وما ... تعاقب بين الخافقين الجديدان "

نونية ابن الخطيب

ولصاحب الترجمة لسان الدين ابن الخطيب قصيدة طنانة بهذا الوزن والقافية مدح بها السلطان أبا سالم المريني حين فتح تلمسان وقد رأيت إيرادها في هذا الباب لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الإغتراب الذي حير الألباب وللمناسبة أسباب لا تخفى على من له فكر مصيب وكل غريب للغريب نسيب وهي

" أطاع لساني في مديحك إحساني ... وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان "

" فأطلعتها تفتت عن شنب المنى ... وتسفر عن وجه من السعد حياياني "

" كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا ... وجف بخد الورد عارض نيسان "

" كما صفقت ربح الشمال شمولها ... فبان ارتياح السكر في غصن البان "

" تهنيك بالفتح لذي معجزاته ... خوارق لم تذخر سواك لإنسان "

" خففت إليها والجفون ثقيلة ... كما خف شثن الكف من أسد خفان "

" وقدت إلى الأعداء فيها مبادرا ... ليوث رجال في مناكب عقبان "

" تمد بنود النصر منهم ظلّالها ... على كل مطعام العشيّيات مطعان "

" جحاحجة غر الوجوه كأنما ... عمائمهم فيها معاهد تيجان "

" أمذك فيها الله بالملأ العلا ... فجيشك مهما حقق الأمر جيشان "

" لقد جليت منك البلاد لخاطب ... لقد جنبت منك الغصون إلى جاني "

" لقد كست الإسلام بيعتك الرضى ... وكانت على أهليه بيعة رضوان "

" ولله من ملك سعيد ونصبة ... قضى المشتري فيها بعزلة كيوان "

" وسجل حكم العدل بين بيوتها ... وقوفا مع المشهور من رأي يونان "

" فلم تخش سهم القوس صفحة بدرها ... ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان "

" ولم يعترض مبرزها قطع قاطع ... ولا نازعت نوبهرها كف عدوان "

" تولى اختيار الله حسن اختيارها ... فلم يحتج الفرغان فيها لفرغان "

" ولا صرفت فيها دقائق نسبة ... ولو خفقت فيها طوالع بلدان "

" وجوه القضايا في كمالك شأنها ... وجوب إذا خست سواك بإمكان "

" ومن قاس منك الجود بالبحر والحيا ... فقد قاس تمويها قياس سفسطاني "

" وطاعتك العظمى بشارة رحمة ... وعصيانك المحذور نزغة شيطان "

" وحبك عنوان السعادة والرضى ... ويعرف مقدار الكتاب بعنوان "

" ودين الهدى جسم وذاتك روحه ... وكم وصلة ما بين روح وثمان "

" تضن بك الدنيا وبحرسك العلا ... كأنك منها بين لحظ وأجفان "

" بنيت على أساس أسلافك العلا ... فلا هدم المبني ولا عدم الباني "

" وصاحت بك العليا فلم تك غافلا ... ونادت بك الدنيا فلم تك بالواني "

" ولم تك في خوض البحار بهائب ... ولم تك في نيل الفخار بكسلان "

" لقد هز منك العزم لما انتضيته ... ذوائب رضوى أو مناكب ثهلان "

" ولله عينا من رآها محلة ... هي الحشر لا تحصى بعد وحسبان "

" وتور عزم فار في إثر دعوة ... يعم الأقصي والأداني بطوفان "

" عجائب أقطار ومألف شارذ ... وأفلاذ آفاق وموعد ركبان "

" إذا ما سرحت اللحظ في عرصاتها ... تلبد منك الذهن في العالم الثاني "

" جنى حان والنصر العزيز اهتصاره ... إذا انتظمت بالقلب منها جناحان "

" فمن سحب لاحت بها شهب القنا ... ومن كذب بيض بدت فوق كئيبان "

" مضارب في البطحاء بيض قبارها ... كما قلبت للعين أزهار سوسان "

" وما إن رأى الرءون في الدهر قبلها ... قرارة عز في مدينة كتان "

" تفوت التفات الطرف حال اقتبالها ... كأنك قد سخرت جن سليمان "

" فقد أطرقت من خوفها كل بيعة ... وطأطأ من إجلالها كل إيوان "

" وقد ذعرت خولان بين بيوتها ... غداة بدت منها البيوت بخولان "

" فلو رميت مصر بها وصعيدها ... لأضحت خلاء بلقعا بعد عمران "

" ولو يميمت سيف بن ذي يزن لما ... تقرر ذاك السيف في غمد غمدان "

" تراع بها الأوثان في أرض رومة ... إذا خيمت شرقا على طرق أوثان "

" وتجفل إجحاف النعامي ببرقة ... ليوث الشرى ما بين ترك وعربان "

" وعرضا كيوم العرض أذهل هوله ... عياني وأعياني تعدد أعيان "

" وجيشا كقطع الليل للخيول تحته ... إذا صهلت مفتنة رجع ألحان "

" فيومض من بيض الطيبي ببوارق ... ويقذف من سمر الرماح بشهبان "

" ويمطر من ودق السهام بحاصب ... سحائبه من كل عوجاء مرنان "

" وجردا إذا ما ضمرت يوم غاية ... تعجبت من ربح تقاد بأرسان "

" تسابق ظلمان الغلاة بمثلها ... وتذعر غزلان الرمال بغزلان "

" ودون مهيب العزم منك قواضب ... أبي النصر يوما أن تلم بأجفان "

" نظرت إليها والنجيع لباسها ... فقلت سيوف أم شقائق نعمان "

" تفتح وردا خدها حين جردت ... ولا ينكر الأقوام خجلة عربان "

" كأن الوغى نادت بها لوليمة ... قد احتفلت أوضاعها منذ أزمان "

" فإن طعمت بالنصر كان وضوءها ... نجيعا ووافاها الغبار بأشنان "

" لقد خلصت لله منك سجية ... جزاك على الإحسان منك بإحسان "

" فسيفك للفتح المبين مصاحب ... وعزمك والنصر المؤزر إلفان "

" فرح واغد للرحمن تحت كلاءة ... وسرحان في غاب العدا كل سرحان "

" ودم المنى تدني إليك قطافها ... ميسر أوطار ممهد أوطان "

" وكن واثقا بالله مستنصرا به ... فسلطانه يعلو على كل سلطان "

" كفاك العدا كاف لمملك كافل ... فصدك نضو ميت بين أكفان "

" رضى الوالد المولى أبيك عرفته ... وقد أنكر المعروف من بعد عرفان "

" فكم دعوة أولاك عند انتقاله ... إلى العالم الباقي من العالم الفاني "

" فعرفت في السراء نعمة منعم ... وألحفت في الضراء رحمة رحمان "

" عجبت لمن يبغي الفخار بدعوة ... مجردة من غير تحقيق برهان "

" وسنة إبراهيم في الفخر قد أتت ... بكل صحيح عن علي وعثمان "

" ومن مثل إبراهيم في ثبت موقف ... إذا ما التقى في موقف الحرب صفان "

" إذا هم لم يلفت بلحظة هائب ... وإن من لم ينفث بلفظه منان "

" فصاحة قس في سماحة حاتم ... وإقدام عمرو تحت حكمة لقمان "

" شمائل ميمون النقيبة أروع ... له قصبات السيق في كل ميدان "

" محبته فرض على كل مسلم ... وطاعته في الله عقدة إيمان "

" هنيئا أمير المسلمين بنعمة ... حبيت بها من مطلق الجود منان "

" لزبت أجياد المنابر بالتي ... أتاح لها الرحمن في آل زيان "

" قلائد فتح هن لكن قدرها ... ترفع أن يدعى قلائد عقيان "

" أمولاي حبي في علاك وسيلتي ... ولطفك بي دأبا بمدحك أعراني "

" أياديك لا أنسى على بعد المدى ... نعوذ بك اللهم من شر نسيان "

" فلا جحد ما خولتني من سجيّتي ... ولا كفر نعماك العميمة من شانني "

" ومهما تعجلت الحقوق لأهلها ... فإنك مولاي الحقيق وسلطاني "

" وركني الذي لما نبا بي منزلي ... أجاب ندائي بالقبول وأواني "

" وعالج أيامي وكانت مريضة ... بحكمة من لم ينتظر يوم بحران "

" فأمنني الدهر الذي قد أخافني ... وجدد لي السعد الذي كان أبلاني "

" وخولني الفضل الذي هو أهله ... وشيكا وأعطاني فأفعم أعطاني "

" تخونني صرف الحوادث فأنثى ... يقبل أرداني ومن بعد أرداني "

" وأزعجني من منشئي ومبوءي ... ومعهد أحبابي ومألف جيراني "

" بلادي التي فيها عقدت تماثمي ... وجم بها وفري وجل بها شاني "

" تحدثني عنها الشمال فتنثني ... وقد عرفت مني شمائل نشوان "

" وأمل أن لا أستفيق من الكرى ... إذا الحلم أوطاني بها تراب أوطاني "

" تلون إخواني علي وقد جنت ... علي خطوب جملة ذات ألوان "

" وما كنت أدري قبل أن يتنكروا ... بأن خواني كان مجمع خواني "

" وكانت وقد حم القضاء صنائعي ... علي بما لا أرتضي شر أعواني "

" فلولاك بعد الله يا ملك العلا ... وقد فت ما ألفت من يتلافاني "

" تداركت مني بالشفاعة منعما ... بريئا رماه الدهر في موقف الجاني "

" فإن عرف الأقوام حقا وفقوا ... وإن جهلوا بأءوا بصفقة خسران "

" وإن خلطوا عرفا بنكر وقصروا ... وزنت بقسطاس قويم وميزان "

" وحرمة هذا اللحد يابى كمالها ... هزيمة رد أو حطيطة نقصان "

" وقد نمت عن أمري ونهت همة ... تحدق من علو إلى صرح هامان "

" إذا دانت الله النفوس وأملت ... إقالة ذنب أو إنالة غفران "

" فمولاك يا مولاي قبلة وجهتي ... وعهدة إسراي وحجة إعلاني "

" وقفت على مثنواه نفسي قائما ... بترديد ذكر أو تلاوة قرآن "

" ولو كنت أدري فوقها من وسيلة ... إلى ملكك الأرضى لشمرت أرداني "

" وأبلغت نفسي جهدها غير أنني ... طلابي ما بعد النهاية أعياني "

" قرأت كتاب الحمد فيك لعاصم ... فصح أدائي واقتدائي وإتقاني "

" فدونكها من بحر فكري لؤلؤا ... يفصل من حسن النظام بمرجان "

" وكان رسول الله بالشعر يعتني ... وكم حجة في شعر كعب وحسان "

" ووالله ما وفيت قدرك حقه ... ولكنه وسعي ومبلغ إمكانني "

رسالة لسان الدين إلى أبي سالم

وكتب لسان الدين رحمه الله قبل هذه القصيدة نثرا من إنشائه يخاطب به السلطان أبا سالم المذكور وذلك أنه ورد على لسان الدين وهو بشالة سلا كتاب السلطان المذكور بفتح تلمسان وكان وروده يوم الخميس سابع عشر شعبان عام واحد وستين وسبعمائة ونص ما كتب به لسان الدين

مولاي فتاح الأقطار والأمصار فائدة الأزمان والأعصار أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار قدوة أولي الأيدي والأبصار ناصر الحق عند قعود الأنصار مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار مصداق دعاء الأب المولى في الأوائل والأسجار أبقاكم الله سبحانه لا تقف إياتكم عند حد ولا تحصي فتوحات الله تعالى عليكم بعد ولا تفيق اعداؤكم من كد ميسرا على مقامكم ما عسر على كل أب كريم وجد عبدكم الذي خلص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور المعترف لأدنى رحمة من رحمتكم بالعجز عن شكرها والقصور الداعي إلى الله سبحانه أن يقصر عليكم سعادة العصور وبذل بعز طاعتكم أنف الأسد الهصور ويبقى الملك في عقبكم وعقب عقبكم إلى يوم ينفخ فيه الصور فلان من الضريح المقدس بشالة وهو الذي تعددت على المسلمين حقوقه وسطع نوره وتلأأ شروقه وبلغ مجده السماء لما بسقت فروعه ووشجت عروقه وعظم ببيوتكم فخره فما فوق البسيطة فخر يفوقه حيث الجلال قد رست هضابه والملك قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قبابه والبيت العتيق قد ألحفت الملاحف الإمامية أثوابه والقرآن العزيز ترتل أحزابه والعمل الصالح يرتفع إلى الله ثوابه والمستجير يخفي بالهبة سؤاله فيجهر بنعرة العز جوابه وقد تقياً من أوراق الذكر الحكيم حديقة وخميطة أنيقة وحط بجودي الجود نفسا في طوفان العز غريقة والتحف رفرق الهبة التي لا تهدي النفس فيها إلا بهداية الله تعالى طريقة واعتز بعزة الله وقد توسط جيش الحرمة المرينية حقيقة إذ جعل المولى المقدس المرجوم أبا الحسن مقدمة وأباه وجده سيقية يرى بركم بهذا اللحد الكريم قد طنّب عليه من الرضى فسطاقا وأعلق به يد العناية المرينية اهتماما واعتباطا وحرر له أحكام الحرمة نسا جليا واستنباطا وضمن له حسن العقبي

التزاما واشتراطا وقد عقد البصر بطريقة رحمتكم المنتظرة المرتقبة ومد اليد إلى لطائف شفاعتكم التي تتكفل بعثق المال كما تكفلت بعثق الرقبة وشرع في المراح بميدان نعمتكم بعد اقتحام هذه العقبة لما شنفت الأذن البشرية التي لم يبق طائر إلا سجع بها ولا شهاب دجنة إلا اقتبس من نورها واقتدح ولا إلا انشرح ولا غصن عطف إلا مرح بشرى الفتح القريب وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب فتح تلمسان الذي قلد المنابر عقود الابتهاج ووهب الإسلام منيحة النصر غنية عن الانتهاج وألحف الخلق ظلا ممدودا وفتح باب الحج وكان مسدودا وأقر عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياما وقعودا وأضرع بسيف الحق جباها أبية وخدودا وملكمكم حق أبيكم الذي أهان عليه الأموال وخاض من دونه الأهوال وأخلص فيه الضراعة والسؤال من غير كد يغمز عطف المسرة ولا جهد يكدر صفو النعم الثرة ولا حصر ينفذ به المنجنيق ذؤابته ويظهر بتكرار الركوع إنابته

فالحمد لله الذي أقال العثار ونظم بدعوتكم الإنتثار وجعل ملككم يجدد الآثار ويأخذ الثار والعبد يهنئ مولاه بما أنعم الله تعالى به عليه وأولاه فإذا أجال العبيد قداح السرور فللعبد المعلى والرقيب إذا استهموا حظوظ الجذل فلي القسم الوافر والنصيب وإذا اقتسموا فريضة شكر الله فلي الحظ والتعصيب لتضاعف أسباب العبودية قبلي وترادف النعم التي عجز عنها قلبي وعملي وتقاصر في ابتغاء مكافأتها وحدي وإن تطاول أمني فمقامكم المقام الذي نفس الكربة وأنس الغربة ورعى الوسيلة والقربة وأنعش الأرماق وفك الوثاق وأدر الأرزاق وأخذ على الدهر بالاستقالة العهد والميثاق

وإن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء ويمثل بين يدي الخلافة العظيمة السنا والسناء ويمد بسبب اليد إلى تلك السماء فقد باشر به اليد التي يحن مولاي لتذكر تقبيلها ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكميلها ووقفت بين يدي ملك الملوك الذي أجال عليها القداح ووصل في طلب وصالها بالمساء الصباح وكان فتحه إياها أبا عذرة الافتتاح وقلت يهنيك يا مولاي رد ضالتك المنشودة وجبر لقطعك المعرفة المشهودة ورد أمتك المودودة فقد استحقها وارثك الأرضى وسيفك الأمضى وقاضي دينك وقررة عينك مستنفذ دارك من يد غاصبها وراد ربتك إلى مناصبها وعامر المثنوى الكريم وسائر الأهل والحريم مولاي هذه تلمسان قد طاعت وأخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت والأمم إلى هنائه قد تداعت وعدوك وعدوه قد شرذته المخافة وانضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة وعن قريب تتحكم فيه يد احتكامه وتسلمه السلامة إلى حمامه فلتطب يا مولاي نفسك وليستبشر رمسك فقد نمت بركتك وزكا غرسك نسأل الله أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما تفتح له أبواب السماء قبولاً وبترادف إليك مددا موصولا وعددا آخرته خير لك من الأولى ويعرفه بركة رضاك طعنا وحلولا ويضفي عليك منه سترا مسدولا ولم يقنع العبد بخدمة النثر حتى أجهد القريجة التي ركضها الدهر فأنضأها واستشفها الحادث الجلل فنقضها فلفق من خدمة المنظوم ما يتعمد حلمكم تقصيره ويكون إغضاؤكم إذا لقي معرة العتب وليه ونصيره وإحالة مولاي

على الله في نفسي جبرها ووسيلة عرفها مجده فما أنكرها وحرمة بضريح مولاي والده شكرها ويطلع العبد منه على كمال أمله ونجح عمله وتسويغ مقترحه وتتميم جذله

" ... أطاع لساني في مديحك إحساني "

إلى آخر القصيدة التي تقدمت
نونية الفقيه عمر الزجال

وحيث اقتضت المناسبة جلب هذه النونيات فلنضف إليها قصيدة أديب الأندلس الفقيه عمر صاحب الأرزجال إذ هو من فرسان هذا المجال وقد وطأ لها بنثر وجعل الجميع مقامة ساسانية سماها تسريح النصال إلى مقاتل الفصال ونصها يا عماد السالكين ومحط المستفيدين والمتبركين وثمان الضعفاء والمساكين والمتروكين في طريقك يتنافس المتنافس وعلى أعطافك تزهى العباءات وتروق الدلافس وكتابك تحيا جوامد الأفهام ومذنبك تشرذ ذباب الأوهام وفي زنبيلك يدس التالد والطارف ويعصاك يهش على بدائع المعارف الله الله في سالك ضاقت عليه المسالك وشاد رمي بإبعاد أدركته متاعب الحرفة وأقيم من صف أهل الصفة فلا يجد نشاطا على ما يتعاطى ولا يلقي اغتباطا إن حل زاوية أو نزل رباطا أقصي عن أهل القرب والتخصيص وابتلى بمثل حالة برصيص فأحيل عليك وتوقفت إقالته على

توبة بين يديك فكاتبك استدعاء واستوهب منك هداية ودعاء ليسير على ما سويت ويتحمل عنك أشتات ما رويت فيلقى الأكفاء الظرفاء عزيزا وبياهي بك كل من خاطبك مستجيزا فاصرف إلي محيا الرضى وعد من إيناسك للعهد الذي مضى ولا تلقى معرضا ولا معرضا وأصخ لي سمعك كما قدر

الله تعالى وقضى

" تعال نجددها طريقة ساسان ... نعص عليها ما توالى الجديدان "

" ونصرف إليها من مثار عزائم ... ونحلف عليها من مؤكد أيمان "

" ونعقد على حكم الوفاء هواءنا ... لنا من أقوال زور وبهتان "

" ونقسم على أن لا نصدق وأشيا ... يروح ويغدو بين إثم وعدوان "

" يطوف حوالينا ليفسد بيننا ... بمنطق إنسان وخدعة شيطان "

" على أننا من عالم كلما بدا ... تعوذ منه عالم الإنس والجان "

" وحاشاك أن تلقي على الصلح معرضا ... إلى الصلح آلت حرب عيس وذيبيان "

" وإني أهتمني شؤون كثيرة ... وصلحت أولى ما أقدم من شاني "

" فأنت إمامي إن كلفت بمذهب ... وأنت دليلي إن صدعت بيرهان "

" سأرعاك في أهل العباءات كلما ... رأيتك في أهل الطيالس ترعاني "

" ويا لابسني تلك العباءات إنها ... لباس إمام في الطريقة دهقان "

" تفرقت الألوان منها إشارة ... بأنك تأتي من حلاك بألوان "

" ويا بأبي الفصال شيخ طريقة ... خلوب لألباب لعوب بأذهان "

" إذا جاء في الثوب المحبر خلته ... زنبيرة قد مد منها جناحان "

" فما تأمن الأبدان أفة لسعها ... وإن أقبلت في سابغات وأبدان "

" سأدعوك في حالات كيدي وكديتي ... بشيخي ساسان وعمي هامان "

" فإن كان في الأنساب منا تباين ... فما تنكر الآداب أنا نسيان "

" ألا فادع لي في جنح ليلك دعوة ... لتنجح آمالي ويرجح ميزاني "

" لك الطائر الميمون في كل وجهة ... سربت إليها غير نكس ولا واني "

" فكم من فقير بئس قد عرفته ... فرفت عليه نعمة ذات أفنان "

" وكم من رفيع الحياة واليت أنسه ... فعاش قرير العين مرتفع الشان "

" فلو كنت للفتح بن خاقان صاحباً ... لما خانته المقذور في ليلة الخان "

" ولو كنت للصابي صديقا ملاطفاً ... لما قبلت فيه مقالة بهتان "

" ولو كنت من عبد الحميد مقرباً ... لما هزم السفاح أشياع مروان "

" ولو كنت قد أرسلتها دعوة على ... أبي مسلم ما حاز أرض خراسان "

" ولو كنت في يوم الغبيط مراسلاً ... لبسطام لم تهزم به آل شيان "

" ولو كنت في حرب الأمين لطاهر ... لما هام في يوم اللقاء ابن ماهان "

" ولو كنت في مغزى أبي يوسف لما ... رماه بغدر عبده في تلمسان "

" ولو أن كسرى يزدجرد عرفته ... لما لاح مقتولا على يد طحان "

" ولو أن لذريقا وطئت بساطه ... لما أثرت فيه مكيدة اليان "

" وفيما مضى في فاس أوضح شاهد ... غني لدينا عن بيان وتبيان "

" ولما اعتنى منك السعيد بكتاب ... رأى ما ابتغى من عز ملك وسلطان "

" فلا تتسني من أهل ودك إنني ... أخاف الليالي أن تطول فتنساني "

" ولا خير إن تجعل كفاء قصيدي ... كفاء ابن دراج على مدح خيران "

" فجد بدنابير ولا تكن التي ... ألم بها الكندي في شعب بوان "

" فجدك فينا الغيث في رمل عالج ... وفضلك فينا الخبز في دار عثمان "

" وما زلت من قبل السؤال مقابلاً ... مرادي بإحساب وقصدي بإحسان "

" ولا تنس أياما تقضت كريمة ... بزاوية المحروق أو دار همدان "

" وتأليفنا فيها لقبض إتاوة ... وإغرام مسنون وقسمة حلوان "

" وقد جلس الطرفون بالبعد مطرفاً ... يقول نصيبي أو أبوح بكتمان "

" عريفني يلحاني إذا ما أتيته ... ولم أنصرف عنكم بواجب الحان "

" وقد جمعت تلك الطريقة عندنا ... أئمة حساب وأعلام كهان "

" إذا استنزلوا الأرواح باسم تبادرت ... طوائف ميمون وأشياع برقان "

" وإن بخروا عند الحلول تآرجت ... مباخرهم عن زعفران ولوبان "

" وإن فتحوا الدارات في رد أبق ... ثنت عزمه أوهام خوف وخذلان "

" فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به ... ركائبه سرعان رجل وركبان "

" وقد عاشرتنا أسرة كيموية ... أقامت لدينا في مكان وإمكان "

" فله من أعيان قوم تألفوا ... على عقد سحر أو على قلب أعيان "

" ونحن على ما يغفر الله إنما ... نروح ونغدو من رباط إلى خان "

" مع الصبح نصفها عباءة صفة ... وبالليل نلويها زنانير رهبان "

" أتذكر في سفح العقاب مبيتكم ... ثمانين شخصا من إناث وذكران "

" لديكم من الألوان ما لم يجئ به ... طهور ابن ذنون ولا عرس بوران "

" وكم شائق منكم إلى عقد تكة ... وكم هائم فيكم على حل هميان "

" فأطفأت قنديل المكان تعمدًا ... وأومات فانقضوا كأمثال عقبان "

" وناديت في القوم الركوب فأسرعوا ... فريق لنسوان وقوم لذكران " فأقسم بالأيمان لولا "

" تعففي ... عن السوء لانحلت عقيدة إيماني "

" فعد للذي كنا عليه فإن لي ... علي الغير إن صاحبتة حقد غيران "

" فمن يوم إذا صيرت ودي جانبًا ... وأعرضت عني ما تناطح عنزان "

" ولا روت الكتاب بعد نفارنا ... محاورة من ثعلبان لسرحان "

" وما هو قصدي منك إلا إجازة ... تخولني التفضيل ما بين خلاني "

" وإنك إن سخرت لي وأجزتني ... لنعم ولي صان ودي وجازاني "

" ولم لا ترويني وأنت أجل من ... سقاني من قبل الرحيق فرواني "

" ألا فأجزني يا إمام بكل ما ... رويت لمدغليس أو لابن قزمان "

" ولا تنس للدباغ نظما عرفته ... فإنكما في ذلك النظم سيان "

" ومزدوجات ينسبون نظامها ... إلي ابن شجاع في مديح ابن بطان "

" وألم بشيء من خرافات عنتر ... وألمع ببعض من حكايات سوسان "

" وإن كنت طالعت اليتيمة واسني ... بلامية في الفحش من نظم واساني "

" أجزني بكشف الدك أرضى وسيلة ... وخير جليس في بساط ودكان "

" وناولني المصباح فهو لغربتي ... ميسر أغراضني ورائد سلواني "

" وألحق به شمس المعارف إنني ... أسائل عن إسناده كل إنسان "

" وقد كنت قبل اليوم عرفتنني به ... ولكنني أسيته بعد عرفان "

" ولا بد يا أستاذ من أن تجيزني ... ببدء ابن سبعين وفصل ابن رضوان "

" وكتب ابن أحلى كيف كانت فإنها ... لوزن دقيق القوم أكرم ميزان "

" ولا تنس ديوان الصباة والصفاء ... لإخوان صدق في الصبا خير إخوان "

" وزهر رياض في صفوف أضاحك ... وجيد كساء في مكابد نسوان "

" كذاك فناولني كتاب حباب ... وزدني تعريفا بها وببرجان "

" ولي أمل في أن أروى رسالة ... مضمنة أخبار حي بن يقظان "

" وحبس على الكوز والكاس والعصا ... فإنك مثر من عصي وكيزان "

" وصير لي الدلفاس أرفع لبسة ... فقد جل قدري عن حرير وكتان "

" وقد رق طبعي واعترتني خشية ... تكاد بها روعي تفارق جثمانني "

" وخل مفاتيح الطريقة في يدي ... وسوغ لهم حكمي مزبدي ونقصاني "

" فإنني لم أخدمك إلا بنية ... وإنني لم أتبعك إلا بإحسان "

" فكن لي بالأسرار أفصح معلن ... فإنني قد أخلصت سري وإعلاني "

وليس قصدي علم الله بجلب هذه القصيدة ما فيها من المجون بل ما فيها من التلميحات التي يرغب في مثله أهل الأدب والحديث شجون على أن أمثال هؤلاء الأعلام لا يقصدون بمثل هذا الكلام إلا مجرد الإحماض فينبغي أن ينظر كلامهم الواقف عليه بعين الإغضاء عن النقد والإغماض ولا يبادر بالإعتراض من لم يعلم في الأصول برهان القطع والإفتراض والله سبحانه المسؤول في التجاوز عن الزلات والنجاة من الأمور المضلات فغفوه سبحانه وراء جميع ذلك والله تعالى المطلع على أسرار الضمائر والخبير بما هنالك لا رب غيره ولا خير إلا خيره

نونية ابن زمرك

وحيث ذكرنا هذه القصائد النونية التي اتفق فيها البحر والروي وجزت من البلاغة على النهج السوي فلا بأس أن نعزها بقصيدة الرئيس الوزير أبي عبد الله ابن زمرك سامحه الله تعالى وهي قصيدة ميلادية أنشدها سلطان الأندلس عام خمسة وستين وسبعمائة ونجعلها مكفرة لما مر في قصيدة الفقيه عمر من المجون ومبلغه للناظرين في هذا التأليف ما يرجون والحديث شجون وهي قوله

" لعل الصبا إن صافحت روض نعمان ... تؤدي أمان القلب عن ظبية البان "

" وماذا على الأرواح وهي طليقة ... لو احتملت أنفاسها حاجة العاني "

" وما حال من يستودع الريح سره ... ويطلبها وهي النجوم بكتمان "

" وكالطيب أستقره في سنة الكرى ... وهل تنقع الأحلام غلة ظمان "

" أسائل عن نجد ومرمى صيأتي ... ملاعب غزلان الصريم بنعمان "

" وأبدي إذا ربح الشمال تنفست ... شمائل مرتاح المعاطف نشوان "

" عرفت بهذا الحب لم أدر سلوة ... وإني لمسلوب الفؤاد بسلوان "

" فيا صاحبي نجواي والحب غاية ... فمن سابق جلى مداه ومن واني "

" وراء كما ما اللوم يئني مقادتي ... فأني عن شأن الملامة في شان "

" وإني وإن كنت الأبى قيادة ... ليأمرني حب الحسان وينهاني "

" وما زلت أرعى العهد فيمن يضيعة ... وأذكر إلفي ما حبيت وينساني "

" فلا تنكرا ما سامني مفض الهوى ... فمن قبل ما أودى بقيس وغيلان "

" لي الله إما أومض البرق في الدجى ... أقلب تحت الليل مقلة وسنان "

" وإن سل من غمد الغمام حسامه ... برى كيدي الشوق الملم وأضناني "

" تراءى بأعلام الثنية باسم ... فأذكرني العهد القديم وأبكاني "

" أسامر نجم الأفق حتى كأننا ... وقد سدل الليل الرواق حليفان "

" ومما أناجي الأفق أعديه بالجوى ... فأرعى له سرح النجوم ويرعاني "

" ويرسل صوب القطر من فيض أدمعي ... ويقدح زند البرق من نار أشجاني "

" وضاعف وجددي رسم دار عهدتها ... مطالع شهب أو مراتع غزلان "

" علي حين شرب الوصل غير مصدر ... وصفو الليالي لم يكدر بهجران "

" لئن أنكرت عيني الطلول فإنها ... تمت إلى قلبي بذكر وعرفان "

" ولم أر مثل الدمع في عرصاتها ... سقى تربها حين استهل وأظماني "

" ومما شجاني أن سرى الركب موهنا ... تقاد به هوج الرياح بأرسان "

" غوارب في بحر السراب تخالها ... وقد سيحت فيه مواخر غربان "

" على كل نضو مثله فكأنما ... رمى منهما صدر المفازة سهمان "

" ومن زاجر كوما مخطفة الحشا توسد منها فوق عوجاء مرنان "

" نشاوى غرام يستميل رؤوسهم ... من النوم والشوق المبرح سكران "

" أجابوا نداء البين طوع غرامهم ... وقد تبلغ الأوطار فرقة أوطان "

" يؤمون من قبر الشفيق مثابة ... تطلع منها جنة ذات أفنان "

" إذا نزلوا من طيبة بجواره ... فأكرم مولى ضم أكرم ضيفان "

" بحيث علا الإيمان وامتد ظله ... وزان حلى التوحيد تعطيل أوثان "

" مطالع آيات مثابة رحمة ... معاهد أملاك مظاهر إيمان "

" هنالك تصفو للقبول موارد ... يسقون منها فضل عفو وغفران "

" هناك تؤدي للسلام أمانة ... يحييهم عنها بروح وريحان "

" ينجون عن قرب شفيعهم الذي ... يؤمله القاصي من الخلق والدان "

" لئن بلغوا دوني وخلفت إنه ... قضاء جرى من مالك الأرض ديان "

" وكم عزيمة ملية نفسي صدقها ... وقد عرفت مني مواعد ليان "

" إلى الله نشكوها نفوسا أبية ... تحيد عن الباقي وتغتر بالفاني "

" ألا ليت شعري هل تساعدني المنى ... فأترك أهلي في رضاه وجيراني "

" وأقضي لبانات الفؤاد بأن أرى ... أعفر خدي في ثراه وأجفاني "

" إليك رسول الله دعوة نازح ... خفوق الحشا رهن المطامع هيمنان "

" غريب بأقصى الغرب قيد خطوة ... شباب تقضى في مراح وخسران "

" يجد اشتياقا للعقيق ويانه ... ويصبو إليها ما استجد الجديدان "

" وإن أومض البرق الحجازي موهنا ... يردد في الظلماء أنه لهفان "

" فيا مولى الرحمى ويا مذهب العمى ... ويا منجي الغرقى ويا منقذ العاني "

" بسطت يد المحتاج يا خير راحم ... وذنبي الجاني إلى موقف الجاني "

" وسيلتي العظمى شفاعتك التي ... يلوذ بها عيسى وموسى بن عمران "

" فأنت حبيب الله خاتم رسله ... وأكرم مخصوص بزلفى ورضوان "

" وحسبك ان سماك أسمائه العلا ... وذاك كمال لا يشاب بنقصان "

" وأنت لهذا الكون علة كونه ... ولولاك ما امتاز الوجود بأكوان "

" ولولاك للأفلاك لم تجل نيرا ... ولا فلدت لباتهن بشهبان "

" خلاصة صفو المجد من آل هاشم ... ونكتة سر الفخر من آل عدنان "

" وسيد هذا الخلق من نسل آدم ... وأكرم مبعوث إلى الإنس والجان "

" وكمر آية أطلعت في أفق الهدى ... يبين صباح الرشيد منها ليقظان "

" وما الشمس يجلوها النهار لمبصر ... بأجلى ظهورا أو بأوضح برهان "

" وأكرم بآيات تحديتنا بها ... ولا مثل آيات لمحكم فرقان "

" وماذا عسى يثني البليغ وقد أتى ... ثناؤك في وحي كريم وقرآن "

" فصلى عليك الله ما انسكب الحيا ... وما سجعت ورقاء في غصن البان "

" وأيد مولانا ابن نصر فإنه ... لأشرف من ينمي لملك وسلطان "

" أقام كما يرضيك مولدك الذي ... به سفر الإسلام عن وجه جذلان "

" سمى رسول الله ناصر دينه ... معظمه في حال سر وإعلان "

" ووارث سر المجد من آل خزرج ... وأكرم من تنمي قبائل قحطان "

" ومرسلها ملء الفضاء كتائبها ... تدين لها غلب الملوك بإذعان "

" حدائق خضر والدروع غدائر ... وما انبتت إلا ذوابل مران "

" تجاوب فيها الصاهلات وترتمي ... جوانبها بالأسد من فوق عقبان "

" فمن كل خوار العنان قد ارتمى ... به كل مطعام العشيات مطعان "

" وموردها ظمأى الكعوب ذوابلا ... ومصدرها من كل أملد ريان "

" ولله منها والربوع مواحل ... غمام ندى كفت بها المحل كفان "

" إذا أخلف الناس الغمام وأمحلوا ... فإن نداء والغمام لسيان "

" إمام أعاد الملك بعد ذهابه ... إعادة لا نابي الحسام ولا واني "

" فغادر أطلال الضلال دوارسا ... وجدد للإسلام أرفع بنيان "

" وشيدها والمجد يشهد دولة ... محافظها تزهى بيمين وإيمان "

" وراق من الثغر الغريب ابتسامة ... وهز له الإسلام أعطاف مزدان "

" لك الخير ما أسنى شماتلك التي ... يقصر عن إدراكها كل إنسان "

" ذكاء إياس في سماحة حاتم ... وإقدام عمرو في بلاغة سحبان "

" أمولاي ما أسنى مناقبك التي ... هي الشهب لا تحصى بعد وحسبان "

" فلا زلت يا غوث البلاد وأهلها ... مبلغ أوطار ممهد أوطان "

ولابن زمرك المذكور ترجمة تأتي بها في هذا التأليف إن شاء الله تعالى في محلها وهو من تلامذة لسان الدين ومن عداد خدامه فحين نبا به الزمان وتعرض الخوف بعد الأمان كان أحد الساعين في قتله كما سنذكره وصرح بدمه وهجوه بعد أن كان ممن يشكره وهكذا عادة بني الدنيا يدورون معها حيث دارت ويسيرون حيث سارت ويشربون من الكأس التي أدارت وقد تولى المذكور الوزارة عوضا عن ابن الخطيب وصدق طير عزه بعده على فنن من الإقبال رطيب ثم آل الأمر به إلى القتل كما سعى في قتل لسان الدين وكان الجزء له من جنس عمله والمرء يدان بما كان به يدين وعفو الله سبحانه مرجو للجميع في الآخرة وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن ينيلنا وإياهم المراتب الفاخرة فإنه لا يتعاطمه ذنب وليس لكل غيره من رب

رجع إلى ما كنا بسبيله وأما لوشة التي ينسب إليها لسان الدين فقد تقدم من كلام ابن خلدون أنها على مرحلة من حضرة غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج وقد أجرى ذكرها لسان الدين في الإحاطة وقال إنها بنت الحضرة يعني غرناطة وقال ذلك في ترجمة ابن مرج الكحل ولنذكر الترجمة بكمالها تنميما للغرض فنقول

ترجمة ابن مرج الكحل
قال رحمه الله ما نصه محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم من أهل جزيرة شقر يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن مرج الكحل
حاله كان شاعرا مقلقا غزلا بارع التوليد رقيق الغزل وقال الأستاذ أبو جعفر شاعر مطبوع حسن الكتابة ذاكر للأدب متصرف فيه قال ابن عبد الملك وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته وكان مبتذل اللباس على هيئة أهل البادية ويقال إنه كان أميا من أخذ عنه روى عنه أبو جعفر ابن عثمان الورد وأبو الربيع ابن سالم وأبو عبد الله ابن الأبار وابن

عسكر وابن أبي البقاء وأبو محمد ابن عبد الرحمن ابن برطلة وأبو الحسن الرعيني
شعره ودخوله غرناطة قال في عشية بنهر الغنداق من خارج بلدنا لوشة بنت الحضرة والمحسوب
من دخلها أنه دخل البيرة وقد قيل إن نهر الغنداق من أحواز برجة وهذا الخلاف داع لذكره
" عرج بمنعرج الكتيب الأعفر ... بين الفرات وبين شط الكوثر "
" ولتغتيقها قهوة ذهبية ... من راحتي أحوى المرأشف أحور "
" وعشية كم كنت أرقب وقتها ... سمحت بها الأيام بعد تعذر "
" فلنا بهذا ما لنا في روضة ... تهدي لناشقها شميم العنبر "
" والدهر من ندم يسفه رأيه ... فيما مضى فيه بغير تكدر "
" والورق تشدو والأراكة تنثي ... والشمس ترفل في قميص أصفر "
" والروض بين مفضض ومذهب ... والزهر بين مدرهم ومدنر "
" والنهر مرقوم الأباطح والربى ... بمصنل من زهرة ومعصفر "
" وكأنه وكان خضرة شطه ... سيف يسيل على بساط أخضر "
" وكأنما ذاك الحباب فرندة ... مهما طفا في صفحة كالجوهر "
" وكأنه وجهاته محفوفة ... بالأس والنعمان خد معذر "
" نهر يهيم بحسنه من لم يهيم ... ويجيد فيه الشعر من لم يشعر "
" ما أصفر وجه الشمس عند غروبها ... إلا لفرقة حسن ذاك المنظر "
ولا خفاء ببراعة هذا الشعر وقال منها
" أرأت جفونك مثله من منظر ... ظل وشمس مثل خد معذر "
" وجداول كأراقم حصاؤها ... كبطونها وحبابها كالأظهر "
وهذا تميم عجيب لم يسبق إليه ثم قال منها
" وقرارة كالعشر بين خميلة ... سالت مذانبها بها كالأسطر "
" فكأنها مشكولة بمصنل ... من يانع الأزهار أو بمعصفر "
" أمل بلغناه بهضب حديقة ... قد طرزته يد الغمام الممطر "
" فكأنه والزهر تاج فوqe ... ملك تجلى في بساط أخضر "
" راق النواظر منه رائق منظر ... يصف النضارة عن جنان الكوثر "
" كم قاد خاطر خاطر مستوفز ... وكم استغز جمالها من مبصر "
" لو لآح لي فيما تقادم لم أقل ... عرج بمنعرج الكتيب الأعفر "
قال أبو الحسن الرعيني وأنشدني لنفسه
" وعشية كانت قنيصة فتية ... ألفوا من الأدب الصريح شيوخا "
" فكأنما العنقاء قد نصبوا لها ... من الإنحاء إلى الوقوع فخوخا "
" شملتهم آدابهم فتجاذبوا ... سر السرور محدثا ومصيخا "
" والورق قرأ سورة الطرب التي ... ينسيك منها ناسخ منسوخا "
" والنهر قد صفحت به نارنجة ... فتيمنت من كان فيه منيخا "
" فتخالهم خلل السماء كواكبا ... قد قارنت بسعودها المريخا "
" خرق العوائد في السرور نهارهم ... فجعلت أبياتي له تاريخا "
ومن أبياته في البديهة قوله
" وعندي من مرأشفها حديث ... يخبر أن ريقتها مدام "
" وفي أجفانها السكرى دليل ... وما ذقنا ولا زعم الهمام "
" تعالى الله ما أجرى دموعي ... إذا عنت لمقلتي الخيام "
" وأشجاني إذا لاحت بروق ... وأطربني إذا غنت حمام "
ومن قصيدة
" عذيري من الآمال خابت قصودها ... ونالت جزيل الحظ منها الأخابث "
" وقالوا ذكرنا بالغنى فأجبتهم ... خمولا وما ذكر مع البخل ماكث "
" يهون علينا أن يبيد أثاثنا ... وتبقى علينا المكرمات الأثاث "
" وما ضر أصلا طيبا عدم الغنى ... إذا لم يغيره من الدهر حادث "
وله يتشوق إلى عمرو بن أبي غياث
" أيا عمرو متى تقضي الليالي ... بلقياكم وهن قصصن ريشي "
" أبت نفسي هوى إلا شريشا ... ويا بعد الجزيرة من شريش "

وله من قصيدة

" طفل المساء وللنسيم توضع ... والأنس يجمع شملنا ويجمع "
" والزهر يضحك من بكاء غمامة ... ريعت لشيم سيوف برق تلمع "
" والنهر من طرب يصفق موجه ... والغصن يرقص والحمامة تسجع "
" فأنعم أبا عمران واله بروضة ... حسن المصيف بها وطاب المريع "
" يا شادن البان الذي دون النقا ... حيث التقى وادي الحمى والأجرع "
" الشمس يغرب نورها ولربما ... كسفت ونورك كل حين يسطع "
" إن غاب نور الشمس لسنا نتقي ... بسناك ليل تفرق يتطلع "
" أفلت فتاب سناك عن إشراقها ... وجلا من الظلماء ما يتوقع "
" فأمنت يا موسى الغروب ولم أقل ... فوددت يا موسى لو أنك يوشع "

وقال

" ألا بشروا بالصبح من كان باكيا ... أضرب به الليل الطويل مع البكا "
" ففي الصبح للصب المتيمة راحة ... إذا الليل أجرى دمه وإذا شكا "
" ولا عجب أن يمسك الصبح عبرتي ... فلم يزل الكافور للدم ممسكا "
ومن بديع مقطوعاته قوله

" مثل الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك "
" أنت لا تدركه متبعا ... فإذا وليت عنه تبعك "

وقال

" دخلتم فأفسدتم قلوبا بملكها ... فأنتم على ما جاء في سورة النمل "
" وبالجود والإحسان لم تتخلقوا ... فأنتم على ما جاء في سورة النحل "
وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور رأيت لابن مرج الكحل مرجا أحمر قد أجهد نفسه في خدمته
فلم ينجب فقلت

" يا مرج كحل ومن هذي المروج له ... ما كان أحوج هذا المرج للكحل "
" ما حمرة الأرض من طيب ومن كرم ... فلا تكن طمعا في رزقها العجل "
" فإن من شأنها إخلاف أملها ... فما تفارقها كيفية الخجل "

فقال مجيبا

" يا قائلا إذ رأى مرجي وحمرة ... ما كان أحوج هذا المرج للكحل "
" هو احمرار دماء الروم سيلها ... بالبيض من مر من آبائي الأول "
" أحببته أن حكى من قد فتنت به ... في حمرة الخد أو إخلافه أملي "
وفاته توفي ببلده يوم الإثنين لليلتين خلنا من شهر ربيع الأول عام أربعة وثلاثين وستمئة ودفن
في اليوم بعده

انتهى ما في الإحاطة في شأن ابن مرج الكحل
وكتب أبو الحسن علي بن لسان الدين علي أول ترجمته ما نصه شاعر جليل القدر من مشايخ
شعراء الأندلس من أهل بلنسية وسكن جزيرة شقر
وكتب على قوله والنهر مرقوم الأباطح ما صورته لم يصف أحد النهر بأرق ديباجة ولا أطرف من هذا
الإمام رحمة الله عليه انتهى كلام ابن لسان الدين

رائية شمس الدين الكوفي

قلت وما رأيت رائية تقرب من التي لابن مرج الكحل السابقة التي أولها
عرج بمنعرج الكتيب الأعفر إلا رائية شمس الدين الكوفي الواعظ وهي قوله
" روح الزمان هو الربيع فبكر ... وانهض إلى اللذات غير منكر "
" هذا الربيع يبيع من لذاته ... أصناف ما تهوي فأين المشتري "
" فافرح به فلفرحة بقدمه ... رفل الشقائق في القباء الأحمر "
" والكون مبتهج وخفاق الصبا ... يحيي القلوب بنشره المتعطر "
" والغيم يبكي والأقاحي باسم ... ليكائه كنيسم المستبشر "
" والسرور إن عبث النسيم فهز أعطاف ... الغصون يميمس ميس موفر "
" وكأنما القداح فستق فضة ... يهدي إليك أريج مسك أذفر "
" وكأنما المنثور في أثوابه ... ألوان ياقوت أنيق المنظر "
" وترى البهار كعاشق متخوف ... متشوق باد بوجه أصفر "

" وكأنما النارج في أوراقه القنديل ... والأوراق شبه مسحر "
 " وكأنما الخشخاش قوم جاءهم ... خبر يسرهم بطيب المخبر "
 " فثنوا ملايسهم لفرط سرورهم ... كي يخلعوا فرحا بقول المخبر "
 " فتعلقت أذيالها بأكفهم ... وتعلقت أزيافها بالمنحر "
 " والطل من فوق الرياض كأنه ... درر نثرن على بساط أخضر "
 " وترى الربى بالنور بين متوج ... ومدملج ومخلخل ومسور "
 " ورياضها بالزهر بين مقرطق ... ومطوق وممنطق ومزئر "
 " والورد بين مضعف ومشنف ... ومكتف وملطف لم يهصر "
 " والزهر بين مفضض ومذهب ... ومرصع ومدرهم ومدنر "
 " والنثر بين مطيب وممسك ... ومعطر ومصنل ومعنير "
 " والورق بين مرجع وموجع ... ومفجع ومسجع في منبر "
 " ومغرد ومردد ومعدد ... ومبدد في الخد ماء المحجر "
 ولكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مذاقا وكل منهما لم يقصر رحمهما الله تعالى فلقد أجادا فيما
 قاله إلى الغاية وليس الخبر كالعيان

عود إلى ابن مرج الكحل

ومن نظم ابن مرج الكحل قوله
 " الشمس يغرب نورها ولربما ... كسفت ونورك كل حين يسطع "
 " أفلت فنب سناك عن إشراقها ... وجلا من الظلماء ما يتوقع "
 " فأمنت يا موسى الغروب ولم أقل ... فوددت يا موسى لو أنك يوشع "
 ولمح بهذه الأبيات إلى قول الرصافي الأندلسي البلسني يخاطب من اسمه موسى بقصيدة أولها
 " ما مثل موضعك ابن رزق موضع ... زهر يرف وجدول يتدفع "
 ومنها
 " وعشية ليست ثياب شحوبها ... والجو بالغيم الرقيق مقنع "
 " بلغت بنا أمد السرور تألغا ... والليل نحو فراقنا يتطلع "
 " فابلل بها ريق الغبوق فقد أتى ... من دون قرص الشمس ما يتوقع "
 " سقطت ولم يملك نديمك ردها ... فوددت يا موسى لو أنك يوشع "
 قلت ومن نثر ابن مرج الكحل المذكور ما كتبه إلى أديب الأندلس أبي بحر صفوان بن إدريس مراجعا
 له بعد نظم ونص الجميع
 " يا من تبوأ في العلياء منزلة ... جداه قد أسساها أي تأسيس "
 " لم يتركا في العلا حضا لملتمس ... سيان هذا وهذا ابن إدريس "
 " وأفى كتابكم فارتد لي جذلي ... واعتضت من فرط أشواقى بتأسيس "
 " وللنوى لوعة تطفو فيطفئها ... مسك المداد وكافور القراطيس "
 حرس الله سناءك وسناك وأظفر يمينك بيمينك ودي الأسلم كما تعلم وعهدي الأقدم لم تزل له قدم
 وأنا دام عزكم إن اتفق معكم انتسابا فلم أنفق في شأو الأدب باعا ولا قاربتكم طباعا وانطباعا بل
 بذلك الإتفاق تشرفت وسموت إلى ذروة العلا واستشرفت وأقررت بذلك الفضل واعترفت وكرعت
 في مناهله واعترفت ولقد وافى كتابكم فقلت لقد نثر الدر من فيه وبلغ نفسي مما كانت تنويه من
 التنويه

" حديث لو أن الميت نودي ببعضه ... لأصبح حيا بعدما ضمه القبر "
 ولولا ما طالعني وجه من رضاكم وسيم وسقاني مزن اهتبالكم ما أروى به وأسيم وحياني منكم
 روض ونسيم لما ساعدني الفكر بقسيم لا زلتم في ظل من العيش وارف مرتدين رداء المعارف
 والسلام انتهى

رسالة صفوان إلى ابن مرج الكحل
 وكانت مخاطبة صفوان له التي أجاب عنها بما نصه
 " يا قاطع البيد يطوبها وينشرها ... إلى الجزيرة ينضي بدن العيس "
 " الثم بها عن أخي حب وذي كلف ... يد العلا والقوافي وابن إدريس "
 وأبلغها إليه تحية كالمسك صدرا ووردا وكالماء الزلال عذوبة ووردا يسري بها إلى دار ابن نسيم
 ويسفر منها بجزيرة شقر وجه وسيم وهي وإن
 كانت تذيب المسك خجلا وتستفز بصوتها وجلا فما هي إلا خائفة تتربق وسافرة تكاد تنتقب

تمشي على استحياء وتعثر من التقصير في ذيل إعياء هذا لأنها جلبت إلي هجر تمرأ وإلى شبام
وبيت رأس خمرا ولكن على المجد أن يبدي في قبول عذرها ويعيد لعلمه أنه يتيمم ممن لم يجد إلا
الصعيد فله الفضل أن لا يلفحها بنار النقد ولا يعرضها على ما هنالك من الحل والعقد والله يبقي
ذكره في مقلة الأدب حورا وفي قلب الحسود خورا ويديمه والقوافي طوع قريحته والأغراض الجميلة
ملء تعريضته وتصريحته وزهر البيان تطلع في سماء جنانه وزهر التبيان يونغ في أنداء جنانه وعذرا
إليه فأني كتبت والحامل يمسك زمامه وبلتفت في البيداء أمامه والسلام

خطبة نكاح من إنشاء صفوان

ومن إنشاء صفوان خطبة نكاح نصها الحمد لله الذي تطول بالإحسان من غير جزاء ولا ثواب والبس
المخلوقات من فواضله سوايغ المطارف وكواسي الأثواب وجاءوا على أقدام الرجاء إلى محال نوافله
فوجدوها مفتحة لهم الأبواب وسألوه كفاية المؤنة فكان الفعل بدل القول والإسعاف بدل الجواب
خلق البرية من غير افتقار ولا اضطرار ونقلهم من الطفولية إلى غيرها نقل البدر من التمام إلى
السرار وشرف هذه الطبقة الإنسانية فرزقها الإدراكات العقلية والإبانات اللسانية ف ضرب سرادق
اعتنائه عليها وأنشأها من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ومع صنعه الرفيق بهم
اللطيف وتنويهه الحاف بأرجائهم المطيف رزقهم أحسن الصور الحيوانية وأجملها وأتاح لهم أتم
أقسام الاعتناء وأكملها وبعث إليهم الرسل صلوات الله عليهم صنعا منه جميلا وربا للصنيعة لديهم
وتكميلا فبشروا وأندروا وأمنوا وحذروا وبأينوا بين الحرام والحلال مباينة إدراك البصير بين الكدر
والزلزال ودلوا على السمات الأهدى

ونصوا أعلام التوفيق والهدى ولم يدعوا شيئا سدى بل توازنت بهم مقادير الأقوال والأعمال وكانت
إشاراتهم ثمال الهدايا وأي ثمال فأب كل متسحب إلى الارتباط وشد كل موفق على الاعتلاق
بحالهم يد الاعتباط فصلوات الله الزاكية عليهم ونوافح رحمته النامية تغدو وتروح إليهم وأتم الصلاة
والسلام على علم أولئك الأعلام الداعي على بصيرة إلى دار السلام السراج المنير المبشر النذير
محمد وعلى آله وصحبه صلاة تؤول بهم إلى فسيح رضوانه ورحبه بعته الله رحمة للعالمين عامة
وأرسله نعمة للناس موفورة تامة فأخذ بحجز مصدقيه عن التهافت في مداحض الأقدام والتتابع في
مزلات الجرأة على العصيان والإقدام فأقام الحجة وأوضح المحجة ودل على المقامات التي تمحض
الأولياء وأفصح عن الكرامات التي تنفذ الأنقياء وقال وأهلا به من قائل تناكحوا فأني مكاثر بكم
الأنبياء حرصا منه على الزيادة في أهل الإسلام والنماء ودفعنا في صدر الباطل بواضح الحق الصادع
غيهب الظلماء وحض على ذات الدين الحصان وأغرى بالإعتصام والإحصان ونصب أعلام النكاح
مشيدة المباني وجاء بها سنة عذبة المجاني وقال من تزوج فقد كمل نصف دينه فليتيق الله في
النصف الثاني وأمر بالنكاح الذي توافقت فيه الطبيعة والشريعة ولبته النفوس وهي سريعة
وأخصبت به ربوة التناسل فهي مروضة مريضة وسدت به عن اتباع الهوى وارتكاب المحارم الذريعة
وحفظت به الأنسال والأنساب وفاض به نهر الائتنام السلسال المنساب إذ لا سبيل لأن يستغني
بذاته من كان أسير هواه ومأمور لذاته وإنما الانفراد والاستغنا لمن له الكمال والغنى ولا يجوز أن
يتعاقب عليه الإنى لا إله إلا هو له السناء والسنا وإن فلانا لما ارتقت همته إلى اتباع الصالحات
وسمت ووسمته النجابة من أعلامها اللائحة بما وسمت رأى أن الاعتصام بالنكاح أولى ما حمى به
دينه ووقاه وأهم ما رفع إليه اعتناؤه ورفاه فخطب إلى فلان ابنته فلانة خطبة تصافر فيها اليمن
والقبول ونفحت بها شمال من الجد المصمم وقبول وارتقى بها إلى اللوح المحفوظ والديوان الممكنون
عمل مقبول فتلقى فلان خطبته بالإجابة لما توسم فيه من مخايل النجابة حرصا منه على
المساعدة والعون واعتباطا بمياسرة أهل الرشد والصون وانعقد النكاح بينهما على بركة الله التي
يتضاعف بها العدد القليل ويتزيد ويمنه الذي ينتهض به من اعتمده ويتأيد وحسن توفيقه الذي يرتبط
به من أخلص ضميره ويتقيد على أن أصدقها كذا تزوجها بكلمة الله التي علت الكلمات وبهرتها
وعلى سنة نبيه التي أحييت الحنيفية وأظهرتها وأبغت الملة من أرجاس الجاهلية وطهرتها وهداية
مهديا التي غلبت الأباطل وقهرتها ولتكون عنده بأمانة الله التي هي جنة واعتصام وعهدته
للزوجات على أزواجهن التي ليس لعروتها انفصام وعلى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان
وتسلسل في ميدان التناصف وأرسان وله عليها من حسن العشرة التي هي بحقيق الإتفاق
عائدة مثل ذلك ودرجة زائدة والله تعالى يمهد لهما مهاد نعمته الوثير ويخلف منهما الطيب الكثير
وبرزقهما التوفيق الباعث لطول المرافقة المثير بمنه ونعمته

من رسالة عتاب لصفوان

وله رحمة الله من رسالة عتاب أدام الله سبحانه مدة الأخ الذي أستديم إخاءه وإن واجهتني زعازعه

أرتقب رخاءه وتجاوزت عن يومه لأمسه وأغضيت عن ظلامه لشمسه إناء واعتناء وإنذارا وإعذارا
ورحم الله من اعتمد على الأفهام وعصى أوامر الأوهام ورأى الخليفة في المعقول لا في المختلق
المنقول وبعد فإنه وصل كلامك بل ملامك وكتابك بل عتابك ورسالتك بل بسالتك أسمعتني
بألفاظك العذاب سوء العذاب وأريتني لمعان

الحسام من فقرك الوسام
وقال صفوان رحمه الله اجتمعت مع ابن مرج الكحل يوما فاشتكى إلي ما يجد لفراقي وأطال عتب
الزمان في إشامه وإعراقني فقلت إذا تفرقنا والنفوس مجتمعة فما يضر أن الجسوم للرحيل مزمنة
ثم قلت له

" أنت مع العين والفؤاد ... دنوت أو كنت ذا بعد "

فقال وهو من بارع الإجازة

" وأنت في القلب في السويدا ... وأنت في العين في السواد "

وإذ جرى ذكر صفوان فلا حرج أن نترجمه فنقول

ترجمة صفوان

قال في الإحاطة ما ملخصه صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس
التجيبى المرسى أبو بحر كان أديبا حسييا ممتعا من الطرف ريان من الأدب حافظا سريع البديهة
ترف النشأة على تصاون وعفاف جميلا سريا ممن تساوى حظه في النظم والنثر على تباين الناس
في ذلك روى عن أبيه وخاله وابن عم أبيه القاضي أبي القاسم ابن إدريس وأبي بكر ابن مغاور
وأبي رجال ابن غلبون وأبي العباس ابن مضا سمع عليه صحيح مسلم وأبي القاسم ابن حبيش
وابن حوط الله وأبي الوليد ابن رشد وأجاز له ابن بشكوال وروى عنه أبو إسحاق اليايى وأبو الربيع
ابن النبي وأبو عبد الله ابن أبي البقاء وأبو عمر ابن سالم وابن عيشون وله تواليى أدبية
منها زاد المسافر وكتاب الرحلة وكتاب العجالة سفران يتضمنان من نظمه ونثره أدبا لا كفاء له
وانفرد من تأيين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركته في حكايات كثيرة

ثم سرد لسان الدين جملة من نظمه إلى أن قال وقال في غرض الرصافي من وصف بلده وذكر
إخوانه يساجله في الغرض والروي عقب رسالة سماها طراد الجياد في الميدان وتنازع اللدات
والأخدان في تقديم مرسية على غيرها من البلدان

" لعل رسول البرق يغتنم الأجر ... فينثر عني ماء عبرته نثرا "

" معاملة أربي بها غير مذنب ... فأقضيه دمع العين عن نقطة بحرا "

" ليسقي من تدمير قطرا محبا ... يقر بعين القطر أن تشرب القطرا "

" ويرضعه ذوب اللجين وإنما ... توفيه عيني من مدامعها تبرا "

" وما ذاك تقصيرا بها غير أنه ... سحبة ماء البحر أن يذوي الزهرا "

" خليلي قوما فاحسبا طرق الصبا ... مخافة أن يحمى بزفرتي الحرى "

" فإن الصبا ريح علي كريمة ... بأية ما تسري من الجنة الصغرى "

" خليلي أعني أرض مرسية المنى ... ولولا توخي الصدق سميتها الكبرى "

" محلي بل حوى الذي عبقت به ... نواسم أدابي معطرة نشرا "

" ووكري الذي منه درجت فليتنى ... فجعت بريش العزم كي ألزم الوكرا "

" وما روضة الخضراء قد مثلت بها ... مجرتها نهرا وأنجمها زهرا "

" بأبهج منها والخليج مجرة ... وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا "

" وقد أسكرت أعطاف أغصانها الصبا ... وما كنت أعتد الصبا قبلها خمرا "

" هنالك بين الغصن والقطر والصبا ... وزهر الربى ولدت أدابي الغرا "

" إذا نظم الغصن الحيا قال خاطري ... تعلم نظام النثر من ههنا شعرا "

" وإن نثرت ريح الصبا زهر الربى ... تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا "

" فوائد أسجار هناك اقتبستها ... ولم أر روضا غيره يقرئ السحرا "

" كأن هزيز الرياح يمدح روضها ... فتملأ فاه من أزهارها درا "

" أيا زنقات الحسن هل فيك نظرة ... من الجرف الأعلى إلى السكة الغرا "

" فأنظر من هذي لتلك كأنما ... أغير إذ غازلتها أختها الأخرى "

" هي الكاعب الحسناء تتم حسنها ... وقدت لها أوراقها حللا خضرا "

" إذا خطبت أعطت دراهم زهرها ... وما عادة الحسناء أن تنقد المهرا "

" وقامت بعرس الأنس فينة أيكها ... أغاربها تسترقص الغصن النضرا "

" فقل في خليج يلبس الحوت درعه ... ولكنه لا يستطيع بها نصرا "

" إذا ما بدا فيها الهلال رأيتَه ... كصفحة سيف وسمها قبعة صفرا "

" وإن لاح فيها البدر شبهت متنه ... بشط لجين ضم من ذهب عشرا "

" وفي جرفي روض هناك تجافيا ... بنهر يود الأفق لو زاره فجرا "

" كأنهما خلا صفاء تعانبا ... وقد بكيا من رقة ذلك النहरا "

" وكم لي بأبيات الحديد عشية ... من الأنس ما فيه سوى أنه مرا "

" عشايا كان الدهر غص بحسنها ... فأجلت بساط البرق أفراسها الشقرا "

" عليهن أجري خيل دمعي بوجنتي ... إذا ركبت حمرا ميادينها الصفرا "

" أعهدي بالغرس المنعم دوحة ... سقتك دموعي إنها مزنة شكرا "

" فكم فيك من يوم أغر محجل ... تقضت أمانيه فخلدتها ذكرا "

" على مذنب كالبحر من فرط حسنه ... تود الثريا أن يكون لها نجرا "

" سقت أدمعي والقطر أيهما انبرى ... نفا الرملة البيضاء فالنهر فالجسرا "

" وإخوان صدق لو قضيت حقوقهم ... لما فارقت عيني وجوههم الزهرا "

" ولو كنت أقضي حق نفسي ولم أكن ... لما بت أستحلي فراقهم المرا "

" وما اخترت هذا البعد إلا ضرورة ... وهل تستجيز العين أن تفقد الشفرا "

" قضى الله أن تنأى بي الدار عنهم ... أراد بذاك الله أن أعتب الدهرا "

" ووالله لو نلت المنى ما حمدتها ... وما عادة المشغوف أن يحمد الهجرا "

" أيا نس باللذات قلبي ودونهم ... مرام يجد الكرب في طيها شهرا "

" ويصحب هادي الليل راء حروفه ... وصادا ونونا قد تقوس واصفرا "

" فديتهم بانوا وضنوا بكتبهم ... فلا خيرا منهم لقيت ولا خيرا "

" ولولا علا هماتهم لعنتهم ... ولكن عراب الخيل ولا تحمل الزجرا "

" ضربت غبار البيد في مهرق السرى ... بحيث جعلت الليل في ضربه حبرا "

" وحققت ذاك الضرب جمعا وعدة ... وطرحا وتجميلا فأخرج لي صفرا "

" كأن زمني حاسب متعسف ... يطارحني كسرا وما يحسن الجبرا "

" فكم عارف بي وهو يحسن رتبتي ... فيمدحني سرا وبشتمني جهرا "

" لذلك ما أعطيت نفسي حقها ... وقلت لسرب الشعر لا ترم الفكرأ "

" فما برحت فكري عذارى قصائدي ... ومن خلق العذراء أن تألف الخدرا "

" ولسنت وإن طاشت سهامي بأيس ... فإن مع العسر الذي يتقى يسرا "

وقال يراجع أبا الربيع ابن سالم عن أبيات مثلها

" سقى مضرب الخيمات من علمي نجد ... أسح غمامي أدمعي والحي الرغد "

" وقد كان في دمعي كفاء وإنما ... يجففها ما بالصلوع من الوقد "

" فإن فترت نار الصلوع هنيهة ... فسوف ترى تفجيرها للحي العد "

" وإن صن صوب المزن يوما فأدمعي ... تنوب كما ناب الجميع عن الفرد "

" وإن هطلا يوما بساحتها معا ... فارواهما ما صاب من منتهى الود "

" أرى زفرتي تذكي ودمعي ينهمي ... نقيضين قاما بالصلاء وبالورد "

" فهل بالذي أبصرتهم أم سمعتم ... غمام بلا أفق وبرق بلا رعد "

" لي الله كم أهذي بنجد وأهلها ... وما لي بها إلا التوههم من عهد "

" وما بي إلى نجد نزوع ولا وهدي ... خلا أنهم شنوا القوافي على نجد "

" وجاءوا بدعوى حسن الشعر زورها ... فصارت لهم في مصحف الحب كالحمد "

" شغلنا بأبناء الزمان عن الهوى ... وللدرع وقت ليس يحسن للبرد "

" إلى الله أشكوريب دهر يغص بي ... نوائبه قد أجمت ألسن العد "

" لقد صرفت حكم الفؤاد إلى الهوى ... كما فوضت أمر الجفون إلى السهد "

" أما تتوقى ويحها أن أصيبها ... بدعوة مظلوم على جورها يعدي "

" أما راعها أن زحزحت عن أكارم ... فراقهم دل القلوب على حدي "

" أعاتبها فيهم فنزداد قسوة ... أجذك هل عاينت للحجر الصلد "

" أما علمت أن القساوة نافت ... طباع بني الآداب إلا من الرد "

" إذا وعدت يوما بتأليف شملنا ... فألمم بعرقوب وما سن من وعد "

" وإن عاهدت أن لا تؤلف بيننا ... تذكرت آثار السمومال في العهد "

" خليلي أعني الظم والنثر أرسلنا ... جياذ كما في حلبة الشكر والحمد "
 " قفا ساعداني إنه حق صاحب ... بريء جمام الكتم من كدر الحقد "
 " بأية ما قيدتما ألسن الورى ... بذكري فيا ويح الكناني والكندي "
 " فأين بياني أو فأين فصاحتي ... إذا لم أعد ذكر الأكارم أو أبدي "
 " فيا خاطري وف الثناء حقوقه ... وضعه كما قالوا سوار على زند "
 " ولا تلزمني بالتكاسل حجة ... تشببها نار الحياء على خدي "
 " تكلت القوافي وهي أبناء خاطري ... وغيبها الإقحام عني في لحد "
 " لئن لم أصغ زهر النجوم فلادة ... وآت ببدر التم واسطة العقد "
 " إلى أن يقول السامعون لرفقتي ... نعم طار ذاك السقط عن ذلك الزند "
 " أحبي بريها جناب ابن سالم ... فيقرع فيه الباب في زمن الورد "

وهي طويلة

ومن مقطوعات قوله

" يا قمرا مطلعاه أضلعي ... له سواد القلب فيها غسق "
 " وربما استوقد نار الهوى ... فناب فيها لونها عن شفق "
 " ملكنتني في دولة من صبا ... وصدتني في شرك من حدق "
 " عندي من حبك ما لو سرت ... في البحر منه شعلة لاحترق "

وقال

" قد كان لي قلب فلما فارقوا ... سوى جناحك للغرام وطارا "
 " وجرت سحاب للدموع فأوقدت ... بين الجوانح لوعة وأوارا "
 " ومن العجائب أن فيض مدامعي ... ماء ويثمر في ضلوعي نارا "
 " وشعره الرمل والقطر كثرة فلنختمه بقوله "
 " قالوا وقد طال بي مدى خطئي ... ولم أزل في تجرمي ساهي "
 " أعددت شيئا ترجو النجاة به ... فقلت أعددت رحمة الله "

وكتب يهنئ قاضي الجماعة أبا القاسم ابن بقي برسالة منها لأن محله دام عمره وامتلئ نبيه الشرعي وأمره أعلى رتبة وأكرم محلا من أن يتحلى بخطة هي به تتحلى كيف يهنا بالقعود لسماع دعاوي الباطل والمعاناة لإنصاف الممطول من الماثل والتعب في المعادلة بين ذوي المجادلة أما لو علم المتشوفون إلى خطة الأحكام المستشرفون إلى ما لها من التبسط والاحتكام ما يجب لها من اللوازم والشروط الجوازم كبسط الكنف ورفع الجنف والمساواة بين العدو ذي الذنب والصاحب بالجنب وتقديم ابن السبيل على ذي الرحم والقبيل وإيثار الغريب على القريب والتوسع في الأخلاق حتى لمن ليس له من خلاق إلى غير ذلك مما علم قاضي الجماعة أحصاه واستعمل خلقه الفاضل أدناه وأقصاه لجعلوا خمولهم مأمولهم وأضربوا عن ظهورهم فنبذوه وراء ظهورهم اللهم إلا من أوتى بسطة في العلم وربا طودا في ساحة الحلم وتساوي ميزانه في الحرب والسلم وكان كمولانا في المماثلة بين أجناس الناس فقصاراه أن يتقلد الأحكام للأجر لا للتعنيف والزجر ويتولاهما للثواب لا للغلظة في رد الجواب وبأخذها لحسن الجزاء لا لقبيح الاستهزاء ويلتزمها لجزيل الذخر لا للإرزاء والسخر فإذا كان كذلك وسلك المتولي هذه المسالك وكان مثل قاضي الجماعة ولا مثل له ونفع الحق به علله ونفع غلله فيومئذ تهنى به خطة القضاء وتعرف ما الله تعالى عليها من اليد البيضاء

ورحل إلى مراكش في جهاز بنت بلغت التزويج وقصد دار الإمارة مادحا فما تيسر له شيء من أمله ففكر في خيبة قصده وقال لو كنت أملت الله سبحانه ومدحت نبيه وآل بيته الطاهرين لبلغت أمني بمحمود عملي ثم استغفر الله تعالى من اعتماده في توجهه الأول وعلم أن ليس على غير الثاني معول فلم يك إلا أن صرف نحو هذا المقصد همته وأمضى فيه عزمته وإذا به قد وجه إليه فأدخل على الخليفة فسأله عن مقصده فأخبره مفصحا به فأنفذه وزاده عليه وأخبره أن ذلك لرؤيا رسول الله في النوم يأمر بقضاء حاجته فانفصل موفى الأعراض واستمر في مدح أهل البيت عليهم السلام حتى اشتهر بذلك وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وسنه دون الأربعين وصلى عليه أبوه فإنه كان بمكان من الفضل والدين رحم الله تعالى الجميع انتهى كلام ابن الخطيب في حق المذكور ملخصا ولا بأس أن نزيد عليه ما حضر فنقول قال ابن سعيد وغيره ولد صفوان سنة ستين وخمسمائة أو في التي بعدها قال وديوان شعره مشهور بالمغرب انتهى

ومن نظمه قوله

" أومض ببرق الأضلع ... واسكب غمام الأدمع "

" واحزن طويلا واجزع ... فهو مكان الجزع "

" وانثر دماء المقلتين ... تألما على الحسين "

" وابك بدمع دون عين ... إن قل فيض الأدمع "

وهذا من قصيدة عارض بها الحريري في قوله

" ... خل ادكار الأربع "

وله أيضا مطلع قصيدة فيه

" يا عين سحي ولا تشحي ... ولو بدمع بحذف عين "

وقال ابن الأبار توفي صفوان بمرسية ليلة الإثنين السادس عشر من شوال سنة ثمان وتسعين

وخمسمائة وثكله أبوه وصلى عليه وهو دون الأربعين إذ مولده سنة إحدى وستين وخمسمائة

وكان من جلة الكتاب البلغاء ومهرة الأدباء الشعراء نافدا فصيحاً مدركاً جليل القدر متقدماً في النظم

والنثر ممن جمع ذلك وله رسائل بديعة وقصائد جلييلة وخصوصاً في مراثي الحسين رضي الله

تعالى عنه

رثاء ناهض الوادي آشي للحسين

وقد تذكرت هنا قول ناهض بن محمد الأندلسي الوادي آشي في رثاء الحسين رضي الله تعالى

عنه

" أمرنة سحجت بعود أراك ... قلبي مولهة علام بكاك "

" أحفالك إلفك أم بليت بفرقة ... أم لاح برق بالحمى فشجاك "

" لو كان حقا ما ادعيت من الجوى ... يوما لما طرق الجفون كراك "

" أو كان روعك الفراق إذا لما ... ضنت بماء جفونها عيناك "

" ولما ألفت الروض يارج عرفه ... وجعلت بين فروع مغناك "

" ولما اتخذت من الغصون منصة ... ولما بدت مخضوية كفاك "

" ولما ارتدبت الريش بردا معلما ... ونظمت من قرح سلوك طلاك "

" لو كنت مثلي ما أفقت من البكا ... لا تحسبي شكواي من شكواك "

" إيه حمامة خبريني إنني ... أبكي الحسين وأنت ما أبكاك "

" أبكي قتيل الطف فرع نبينا ... أكرم بفرع للنبوة زاكي "

" ويل لقوم غادروه مضرجا ... بدمائه نضوا صريع شكاك "

" متعفرا قد مزقت أشلاؤه ... فريا بكل مهند فتاك "

" أيزيد لو راعيت حرمة جده ... لم تقتنص ليث العرين الشاكي "

" أو كنت تصغي إذ نفرت بنغره ... قرعت صماخك أنه المسواك "

" أتروم ويك شفاعة من جده ... هيهات لا ومدبر الأفلاك "

" ولسوف تنبذ في جهنم خالدا ... ما الله شاء ولات حين فكاك "

وتوفي ناهض المذكور بوادي آش سنة 615

رجع إلى أخبار صفوان بن إدريس رحمه الله تعالى فنقول ومن شعر صفوان قوله

" قلنا وقد شام الحسام مخوفا ... رشأ بعادية الضراغم عابث "

" هل سيفه من طرفه أم طرفه ... من سيفه أم ذاك طرف ثالث "

وقوله

" غيري يروع بسيفه ... رشأ تشاجع ساخرا "

" إن كف عني طرفه ... فالسيف أعف ناصرا "

وقال صفوان المذكور رحمه الله تعالى حبيت بعض أصحابنا بزهرة سوسن فقال

حيا بسوسنة أبو بحر ... فقلت مجيزا "

" ... نضراء تفضح يانع الزهر "

" عجبا لها لم تذوها يده ... من طول ما مكث على الصدر "

وقال أيضا ماشيت الوزير الكاتب أبا محمد ابن حامد يوما فاتفق أن قال لأمر تذكره

" بين الكثيب ومنبت السدر ... ريم غدا مئواه في صدري "

فقلت أجيظه

" لوشاحه قلم بلا ألم ... ولقرطه خفق بلا دعر "

" لو كنت قد أنصفت مقتله ... برأت هاروتا من السحر "

" أو كنت أقضي حق مرشفه ... أعرضت لا ورعا عن الخمر "

وناولته يوما وردة مغلقة فقال

" ومحمرة تختال في ثوب سندس ... كوجنة محبوب أطل عذاره "

فقلت أجيذه

" كتطريف كف قد أحاطت بنانها ... بقلب محب ليس يخبو أواره "

وقال رأني الوزير أبو إسحاق وأنا أقيد أشعارا من ظهر دفتر فقال

" ... ما الذي يكتب الوزير "

قلت

" ... بدائع ما لها نظير "

فقال

" در ولكنة نظيم ... من خير أسلاكه السطور "

فقلت

" من أظهر الكتب أفتنيها ... وخل ما تحتوي البحور "

" بتلك تزهو النحور لكن ... بهذه تزدهي الصدر "

ولكن الإنصاف واجب هو قال المعنى الأخير نثرا وأنا سببته نظما

وقال جلسنا بعض العشايا بالولجة خارج مرسية والنسيم يهب على النهر فقال أبو محمد ابن حامد

" ... هب النسيم وماء النهر يطرد "

فقلت على جهة المداعبة لا الإجازة

" ... وبار شوقي في الأحشاء تتقد "

فقال أبو محمد ما الذي يجمع بين هذا العجز وذاك الصدر فقلت أنا أجمع بينهما ثم قلت

" فصاغ من مائة درعا مفضضة ... وزاد قلبي وقدا للذي يجد "

" وإنما شب أحشائي لحاجته ... إذ ليس دون لهيب يصنع الزرد "

وخطرنا بلقنت على ثمرة تهزها الريح فقال أبو محمد

" وسرحة كاللواء تهفو ... بعطفها هبة الرياح "

فقلت

" كأن أعطافها سقتها ... كف النعامى كؤوس راح "

فقال

" إذا انتحاها النسيم هزت ... أعطافها هزة السماح "

فقلت

" كأن أغصانها كرام ... تقابل الضيف بارتياح "

ولصفوان رحمه الله

" تحية الله وطيب السلام ... على رسول الله خير الأنام "

" على الذي فتح باب الهدى ... وقال للناس ادخلوا بالسلام "

" بدر الهدى غيم الندى والسدى ... وما عسى أن يتناهى الكلام "

" تحية تهزأ أنفاسها ... بالمسك لا أرضى بمسك الختام "

" تخصه مني ولا تتثنى ... عن أهله الصيد السراة الكرام "

" وقدرهم أرفع لكنني ... لم ألف أعلى لفظة من كرام "

وقال

" يقولون لي لما ركبت بطالتي ... ركوب فتى جم الغواية معتدي "

" أعندك شيء ترتجي أن تناله ... فقلت نعم عندي شفاعة أحمد "

وشرف وكرم ومجد وعظم وبارك وأنعم ووالي وكمل وأتم

الباب الثاني

في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ثم قلبه له ظهر المجن على عادته في مصافاته ومنافاته وارتبائه وشبائه وما لقي من إحن الحاسد ذي المذهب الفاسد ومحن الكائد المستأسد وآفاته وذكر قصوره وأمواله وغير ذلك من أحواله في تقلباته عندما قابله الزمان بأحواله في بدئه وإعادته إلى وفاته

أقول كان مولد الوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله كما في الإحاطة في الخامس والعشرين

من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة وقال الرئيس الأمير أبو الوليد ابن الأحمر رحمه الله نشأ لسان الدين ابن الخطيب على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله ابن عبد المولى العواد تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيحاطي وقرأ عليه العربية وهو أول من انتفع به وقرأ على الخطيب أبي القاسم ابن جزى ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله ابن الفخار البيري شيخ النحويين لعهدده وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر وتأدب بالرئيس أبي الحسن ابن الجياب وروي عن كثير من الأعيان وسرد ابن الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان الدين سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى ثم قال وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هذيل ولازمه انتهى

وقال بعضهم في حق لسان الدين هو الوزير العلامة المتحلي بأجمل الشمائل وأفضل المناقب المتميز في الأندلس بأرفع المراقي وأعلى المراتب علم الأعلام ورئيس أرباب السيوف والأقلام جامع أشنات الفضائل والمربي بحسن سياسته وعظيم رياسته على الأواخر والأوائل حائز رتبة رياسة السيف والقلم والقائم بتدبير الملك على أرسخ قدم صاحب القلم الأعلى الوارد من البراعة المنهل الأحملي صاحب الأحاديث التي لا تمل على كثرة ما تتلى والمحاسن التي صورها على منصة التنويه تجلى انتهى

وقال لسان الدين في الإحاطة بعد ذكر سلفه رحمهم الله تعالى ما ملخصه وخلفني يعني أباه عبد الله عالي الدرجة شهير الخطة مشمول بالقبول مكنوفا بالعناية فقلدني السلطان سره ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن معززة بالقيادة ورسوم الوزارة واستعملني في السفارة إلى الملوك واستناني بدار ملكه ورمى إلي يدي بخاتمته وسيفه وأتممني على صوان حضرته وبيت ماله وسجوف حرمه ومعقل امتناعه ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي وأعلى مجلسي وقصر المشورة على نصحي إلى أن كانت عليه الكائنة فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمر به فسجل الاختصاص وعقد القلادة ثم حملة أهل الشحنة من أهل أعوان ثورته على القبض علي فكان ذلك وتقبض علي ونكت ما أبرم من أمانتي واعتقلت بحال ترفيه وبعد أن كسبت المنازل والدور واستكثر من الحرس وختم على الأعلاق وأبرد إلى ما ناء واستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات

الأمثال في تبحر الغلة وفراة الحيوان وغبطة العقار ونظافة الآلات ورفعة الثياب واستجادة العدة

ووفور الكتب إلى الأنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والذخيرة والمضارب والأبنية واكتسحت السائمة وثيران الحرث وظهر الحمولة وقوام الفلاحة والخيل فأخذ ذلك البيع وتناهبها الأسواق وصاحبها البخس ورزاتها الخونة وشمل الخاصة والأقارب الطلب واستخلصت القرى وأعملت الحيل وطوقت الذنوب وأمد الله تعالى بالعون وأنزل السكينة وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلاص من الهفوة

" تخلصت منها نكبة مصحفية ... لفقداني المنصور من آل عامر "

ووصلت الشفاعة في مكتبة بخط ملك المغرب وجعل خلاصي شرطا في العقدة ومسالمة الدولة فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب وبالحق ملكه في بري منزلا رجبا وعيشا خفصا وإقطاعا جما وجراية ما وراءها مرمى وجعلني بمجلسه صدرا ثم أسعف قصدي في تهيو الخلوة بمدينة سلا منوه الصكوك مهنا القرار متفقدا باللها والخلع مخول العقار موفور الحاشية مخلي بيني وبين إصلاح معادي إلى أن رد الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه وصير إليه حقه فطاليني بوعد ضربته وعمل في القدوم عليه بولده أحكمته ولم يوسعني عذرا ولا فسح في الترك مجالا فقدمت عليه بولده وقد ساءه بإمساكه رهينة ضده ونغص مسرة الفتح بعده على كل حال من التقشف

والزهدي فيما بيده وعزف عن الطمع في ملكه وزهد في رفته حسبما قلت من بعض المقطوعات

" قالوا لخدمته دعاك محمد ... فأنفتها وزهدت في التنويه "

" فأجبتهم أنا والمهيمن كاره ... في خدمة المولى محب فيه "

عاهدت الله تعالى على ذلك وشرحت صدري للوفاء به وجنحت إلى الانفصال لبيت الله الحرام نشيدة أمني ومرمى نيتي وعملي فعلق بي وخرج لي عن الضرورة وأراني أن موازرتة أبر القرب وراكنني إلى عهد بخطه فسح لعامين أمد الثواء واقتدى بشعيب صلوات الله عليه في طلب الزيادة على تلك النسبة وأشهد من حضر من العلية ثم رمى إلي بعد ذلك بمقاليد رأيه وحكم عقلي في

اختيارات عقله وغطى من جفائي بحلمه وحثا في وجوه شهواته تراب زجري ووقف القبول على وعظي وصرف هواي في التحول ثانيا وقصدي واعترف بقبول نصحي فاستعنت الله تعالى وعاملت وجهه فيه من غير تلبس بحراية ولا تثبت بولاية مقتصرا على الكفاية حذرا من النقد شامل المركب معتمدا على المنسأة مستمشيا بخلق النعل راضيا بغير النبيه من الثوب مشفقا من موافقة الغرور هاجرا للزخرف صادعا بالحق في أسواق الباطل كافا عن السخال برائن السباع ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطة بل بالجزيرة فيما سلف من المدة فتأتي بمنه الله تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية والأمن ورم الثغور وتتمير الجباية وإنصاف الحماة والمقاتلة ومفارقة الملوك المجاورة في إثار المصلحة الدينية والصدع فوق المنابر ضمنا من السلطان بترياق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ما الله تعالى المجازي عليه والمعوض

من سهر خلعتة على أعطافه وخطر اقتحمته من أجله لا للثريد الأعفر ولا للجرد تمرح في الأرسان ولا للبدر تنقل للأكتاد فهو الذي لا يضيع عمل من عمل ذكر أو أنثى سبحانه وتعالى ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشروع والاستعراض للمحذور والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء ورعاية سخطة أرزاق السماء وقتلة الأنبياء وعبدة الأهواء ممن لا يجعل لله تعالى إرادة نافذة ولا مشيئة سابقة ولا يقبل معذرة ولا يجمل في الطلب ولا يتلبس مع الله بأدب ربنا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا والحال إلى هذا العهد وهو منتصف عام وستين وسبعمئة على ما ذكرته أداله الله بحال السلامة وبفيأة العافية والتمتع بالعبادة وربك يخلق ما يشاء ويختار

" وعلي أن أسعى وليس ... علي إدراك النجاح "

ولله سبحانه فينا علم غيب نحن صائرون إليه ألحفنا الله لباس التقوى وختم لنا بالسعادة وجعلنا في الآخرة من الفائزين نغنت عن بث وتأوهت عن حمى ليظهر بعد المنقلب قصدي ويدل مكتبتي على عقدي انتهى وجله بلفظه

وكان رحمه الله تعالى عارفا بأحوال الملوك سريع الجواب حاضر الذهن حاد النادرة ومن حكاياته في حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال حضرت يوما بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقده في إطرء ذلك العدو وما عرفته من فضله فأنكر علي بعض الحاضرين ممن لا يحطب إلا في حبل السلطان فصرفت وجهي وقلت أيدكم الله تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء بل غير ذلك أحق وأولى فإن كان السلطان غالب عدوه كان قد غلب غير حقيير وهو الأولى بفخره وجلالة قدره وإن غلبه العدو لم يغلبه حقيير فيكون أشد للحسرة وأكد للفضيحة فوافق رحمه الله تعالى على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض انتهى

وكان رحمه الله تعالى مبتلي بداء الأرق لا ينام من الليل إلا النزر اليسير جدا وقد قال في كتابه الوصول لحفظ الصحة في الفصول العجب مني مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب وعملي ذلك لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي أو كما قال ولذا يقال له ذو العمرين لأن الناس ينامون في الليل وهو ساهر فيه ومؤلفاته ما كان يصنف غالبا إلا بالليل وقد سمعت بالمغرب بعض الرؤساء يقول لسان الدين ذو الوارئين وذو العمرين وذو الميئين وذو القبرين انتهى وسيأتي ما يعلم منه معنى الأخيرين

التعريف بالسلطان أبي الحجاج

وقد عرف رحمه الله تعالى بالسلطان أبي الحجاج في الإحاطة فقال ما حاصله يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي أمير المسلمين بالأندلس أبو الحجاج تولى الملك بعد أخيه بوادي السفائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمئة وسنه خمسة عشر يوما وثمانية أشهر أمه أم ولد وكان له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده وتلوه

أخوه إسماعيل محجوره وثالثهم قيس شقيق إسماعيل وذكر لسان الدين أنه وزر له بعد شيخه ابن الجياب وتولي كتابة سره مضافة إلى الوزارة في أخريات شوال عام تسعة وأربعين وسبعمئة انتهى وقد علم أنه وزر بعده لابنه محمد كما تقدم ويأتي وأما إسماعيل بن أبي الحجاج فهو الذي تغلب على الأمر وانتهاز الفرصة في ملك أخيه محمد كما تقدم وفيه وفي أخيه قيس حين قتل يقول لسان الدين

" ... بإسماعيل ثم أخيه قيس "

البيتين

وقد ذكر أيضا رحمه الله تعالى حكاية وفاة السلطان أبي الحجاج ما حصله أنه هجم عليه رجل من عداد الممرورين وهو في الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعمائة قطعنه بخنجر وقبض عليه واستفهم فتكلم بكلام مخلط واحتمل إلى منزله على فوت لم يستقر به إلا وقد قضى وأخرج قاتله إلى الناس فقتل لحينه وأحرق بالنار ودفن عشية اليوم المذكور في مقبرة قصره ضجيع والده وولي أمره ولده محمد ورثيته في غرض ناء عن الجزالة مختار ولده

" العمر نوم والمنى أحلام ... ماذا عسى أن يستمر مقام "

" وإذا تحققنا لنشيء بدأه ... فله بما تقضي العقول تمام "

" والنفس تجمح في مدى آمالها ... ركضا وتأبى ذلك الأيام "

" من لم يصب في نفسه فمصابه ... بحبيبه نفذت بذا الأحكام "

" بعد الشببية كبرة ووراءها ... هرم ومن بعد الحياة حمام "

" ولحكمة ما أشرفت شهب الدجى ... وتعاقب الإصباح والإظلام "

" دنياك يا هذا محلة نقلة ... ومناخ ركب ما لديه مقام "

" هذا أمير المسلمين ومن به ... وجد السماح وأعدم الإعدام "

" سر الأمانة والخلافة يوسف ... غيث الملوك وليثها الضرغام "

" قصده عادية الزمان فأقصدت ... والعز سام والخميس لهام "

" فجعت به الدنيا وكدر شربها ... وشكا العراق مصابه والشام "

" أسفا على الخلق الجميل كأنما ... بدر الدجنة قد جللاه تمام "

" أسفا على العمر الجديد كأنه ... زهو الحديقة زهرة بسام "

" أسفا على الخلق الرضى كأنه ... زهر الرياض هما عليه غمام "

" أسفا على الوجه الذي مهما بدا ... طاشت لنور جماله الأفهام "

" يا ناصر الثغر الغريب وأهله ... والأرض ترجف والسما قتام "

" يا صاحب الصدقات في جنح الدجى ... والناس في فرش النعيم نيام "

" يا حافظ الحرم الذي بظلاله ... ستر الأرامل واكتسى الأيتام "

" مولاي هل لك للقصور زيارة ... بعد انتزاح الدار أو إمام "

" مولاي هل لك للعبيد تذكر ... حاشاك أن ينسى لديك ذمام "

" يا واحد الأحاد والعلم الذي ... خفقت بعزة نصره الأعلام "

" وإفاك أمر الله حين تكاملت ... فيك النهى والجود والإقدام "

" ورحلت عنا الركب خير خليفة ... أثنى عليك الله والإسلام "

" نعم الطريق سلكت كان رفيقه ... والزاد فيه تهجد وصيام "

" وكسفت يا شمس المحاسن ضحوة ... فالיום ليل والضيء ظلام "

" وسفك عيد الفطر كأس شهادة ... فيها من الأجل الوحي مدام "

" وختمت عمرك بالصلاة فحبذا ... عمل كريم سعيه وختام "

" مولاي كم هذا الرقاد إلى متى ... بين الصفائح والتراب تنام "

" أعد التحية واحتسبها قرية ... إن كان يمكنك الغداة كلام "

" تبكي عليك مصانع شيدتها ... بيض كما تبكي الهديل حمام "

" تبكي عليك مساجد عمرتها ... فالناس فيها سجد وقيام "

" تبكي عليك خلائق أمنتها ... بالسلم وهي كأنها أنعام "

" عاملت وجه الله فيما رمته ... منها فلم يبعد عليك مرام "

" لو كنت تغدى أو تجار من الردى ... بذلت نفوس من لدنك كرام "

" لو كنت تمنع بالصوارم والقنا ... ما كان ركنك بالغلاب يرام "

" لكنه أمر الإله وما لنا ... إلا رضى بالحكم واستسلام "

" والله قد كتب الفناء على الورى ... وقضاؤه جفت به الأقلام "

" نم في جوار الله مسرورا بما ... قدمت يوم تزلزل الأقدام "

" واعلم بأن سليل ملكك قد غدا ... في مستقر علاك وهو إمام "

" ستر تكف منه من خلفته ... ظل ظليل فهو ليس يضام "

" كنت الحسام وصرت في غمد الثرى ... ولنصر ملكك سل منه حسام "

" خلفت أمة أحمد لمحمد ... فقضت بسعد الأمة الأحكام "

" فهو الخليفة للورى في عهده ... ترعى العهود وتوصل الأرحام "
 " أبقى رسومك كلها محفوظة ... لم ينتثر منها عليك نظام "
 " العدل والشيم الكريمة والتقى ... والدار والألقاب والخدام "
 " حسبي بأن أغشي ضريحك لاثما ... وأقول والدمع السفوح سجام "
 " يا مدفن التقوى ويا مثوى الهدى ... مني عليك تحية وسلام "
 " أخفيت من حزني عليك وفي الحشا ... نار لها بين الضلوع ضرام "
 " ولو أنني أدبت حقا لم يكن ... لي بعد فقدك في الوجود مقام "
 " وإذا الفتى أدى الذي في وسعه ... وأتى بجهد ما عليه ملام "
 قال لسان الدين وكتبت في بعض معاهده
 " غبت فلا عين ولا مخبر ... ولا انتظار منك مرقوب "
 " يا يوسف أنت لنا يوسف ... وكلنا في الحزن يعقوب "

انتهى ورحم الله تعالى الجميع بمنه وقد قدمنا ما كتبه لسان الدين على لسان سلطانه إلى السلطان أبي عنان في شأن قتل السلطان أبي الحجاج في الباب الثامن من القسم الأول

الغني ولسان الدين بلجآن للمغرب

وقال لسان الدين في كتابه اللوحة البدرية في الدولة النصرية في ذكر ما يتعلق بخلع سلطانه وقيام أخيه عليه وفي خلال ذلك ما نصه كان السلطان أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه قد أزم أخاه إسماعيل قسرا من قصور أبيه بجوار داره مرفها عليه متممة وظائفه له وأسكن معه أمه وأخواته منها وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه الكائنة في بيتها فوجدت السبيل إلى السعي لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد ابن الرئيس أبي عبد الله الذي تجمعهم جرتومته وشمر الصهر المذكور عن مساعد عزمه ووجه وهو ما هو من الإقدام ومداخلة ذويان الرجال واستعان بمن أسفته الدولة وهفت به الأطماع فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنمين شفا صعب المرتقى واتخذوا آلة تدرك ذروته لعود بنية كانت به عن التمام وكبسوا حرسيا بأعلاه بما اقتضى صماته فاستووا به ونزلوا إلى القلعة سحور الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة فاستظهروا بالمشاعل والصراخ وعالجوا دار الحاجب رضوان ففصوا أغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده وانتهبوا ما اشتملت عليه داره وأسرعت طائفة مع الرئيس الصهر فاستخرجت الأمير المعتقل إسماعيل وأركبته وقرعت الطبول ونودي بدعوته وقد كان أخوه السلطان متحولا بولده إلى سكنى الجنة المنسوبة للعرى لصق داره وهي المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل يفصل بينهما وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع فما راعه إلا النداء والعجيج وأصوات الطبول وهب إلى الدخول إلى القلعة فألفاها قد أخذت دونه شعابها كلها ونقابها وفذفته الحراب ورشقتة السهام فرجع أدراجه وسدده الله تعالى في محل الحيرة ودس له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس كان مرتبطا عنده وصار لوجهه فأعيا المتبع وصبح مدينة وادي آش ولم يشعر حافظ قصبته إلا به وقد تولج عليها فالتف به أهلها وأعطوه صفقتهم بالذب عنه فكان أملك بها وتجهزت الحشود إلى منازلته وقد جدد أخوه المتغلب على ملكه عقد السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين من أمته واغتبط به أهل المدينة فذبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ ووصله رسول صاحب المغرب مستنزلا عنها ومستدعيا إلى حضرته لما عجز عن إمساكها وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من معول فانصرف ثاني يوم عيد النحر المذكور وتبعه الجمع الوافر من أهل المدينة خيلا ورجلا إلى مريلة من ساحل إجازته وكان وصوله إلى مدينة فاس مصحوبا من البر والكرامة بما لا يزيد عليه في السادس من شهر محرم فاتح عام أحد وستين وسبعمائة وركب السلطان للقائه ونزل إليه عندما سلم عليه وبالغ في الحفاية به وكنت قد ألحقت به مغلتا من شرك النكية التي استأصلت المال وأوهمت سوء الحال بشفاة السلطان أبي سالم قدس الله روحه فقمت بين يديه في الحفل المشهود يومئذ وأنشدته

" سلا هل لديها من مخبره ذكر ... وهل أعشب الوادي ونم به الزهر "
 " وهل باكر الوسمي دارا على اللوى ... عفت أيها إلا التوهم والذكر "
 " بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر "
 " وجوى الذي ربي جناحي وكره ... فما أنا ذا ما لي جناح ولا وكر "

" نبت بي لا عن جفوة وملالة ... ولا نسخ الوصل الهنيء بها هجر "

" ولكنها الدنيا قليل متاعها ... ولذاتها دأبا تزور وتزور "

" فمن لي بقرب العهد منها ودوننا ... مدى طال حتى يومه عندنا شهر "

" والله عينا من رأنا وللأسى ... ضرام له في كل جانحة جمر "

" وقد بددت در الدموع يد النوى ... وللشوق أشجان يضيق لها الصدر "

" بكينا على النهر الشروب عشية ... فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر "

" أقول لأطعاني وقد غالها السرى ... وأنسها الحادي وأوحشها الزجر "

" رويدك بعد العسر يسر أن أبشري ... بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر "

" والله فينا سر غيب وربما ... أتى النفع من حال أريد بها الضر "

" وإن تخن الأيام لم تخن النهى ... وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر "

" وإن عركت مني الخطوب مجربا ... نقابا تساوى عنده الحلو والمر "

" فقد عجمت عودا صليبا على الردى ... وعزما كما تمضي المهنددة البئر "

" إذا أنت بالبيضاء قررت منزلي ... فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر "

" زجرنا بإبراهيم برء همومنا ... فلما رأينا وجهه صدق الزجر "

" بمنتجب من آل يعقوب كلما ... دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر "

" تناقلت الركبان طيب حديثه ... فلما رأته صدق الخبر الخبر "

" ندي لو حواه البحر لذ مذاقه ... ولم يتعقب مده أبدا جزر "

" وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى ... وترفل في أثوابه الفتكة البكر "

" أطاعته حتى العصم في قنن الربي ... وهشمت إلى تأميله الأنجم الزهر "

" قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر "

" كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رابنا منها التعسف والكبر "

" وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الذعر "

" ولما أتينا البحر يرهب موجه ... ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر "

" خلافتك العظمى ومن لم يدن بها ... فأيمانها لغو وعرفانه نكر "

" ووصفك يهدي المدح قصد صوابه ... إذا ضل في أوصاف من دونك الشعر "

" دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت ... وقد طاب منها السر لله والجهر "

" ومدت إلى الله الأكف ضراعة ... فقال لهن الله قد قضى الأمر "

" وألبسها النعمى ببيعتك التي ... لها الطائر الميمون والمحتد الحر "

" فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا ... وقد كان مما نابه ليس يفتر "

" وأمنت بالسلم البلاد وأهلها ... فلا طبة تعرى ولا روعة تعرو "

" وقد كان مولانا أبوك مصرحا ... بأنك في أبنائه الولد البر "

" وكنت حقيقا بالخلافة بعده ... على الفور لكن كل شيء له قدر "

" وأوحشت من دار الخلافة هالة ... أقامت زمانا لا يلوح بها البدر "

" فرد عليك الله حقه إذ قضى ... بأن تشمل النعمى وينسدل الستر "

" وقاد إليك الملك رفقا بخلقه ... وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا "

" وزادك بالتمحيص عزا ورفعة ... وأجرا ولولا السبك ما عرف التبر "

" وأنت الذي تدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذي ترجى إذا أخلف القطر "

" وأنت إذا جار الزمان محكم ... لك النقض والإبرام والنهي والأمر "

" وهذا ابن نصر قد أتى وحناحه ... مهيب ومن عليك يلتمس الجبر "

" غريب يرجى منك ما أنت أهله ... فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر "

" ففز يا أمير المسلمين ببيعة ... موثقة قد حل عروتها الغدر "

" ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيا لمرين جاءه العز والنصر "

" وخذ يا إمام الحق بالحق ثاره ... ففي ضمن ما تأتي به العز والأجر "

" وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم ... بحق فما زيد يرجى ولا عمرو "

" فإن قيل مال مالك الدثر وافر ... وإن قيل جيش عندك العسكر المجر "

" يكف بك العادي وبجيا بك الهدى ... وبينك بك الإسلام ما هدم الكفر "

" أعده إلى أوطانه عنك راضيا ... وطوقه نعماك التي ما لها حصر "

" وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها ... فقد صدهم عنه التغلب والقهر "

" وهم يرقبون الفعل منك وصفقة ... تحاولها يملك ما بعدها خسر "

" مرامك سهل لا يؤودك كلفة ... سوى عرض ما إن له في العلا خطر "

" وما العمر إلا زينة مستعارة ... ترد ولكن الثناء هو العمر "

" ومن باع ما يفنى بباق مخلد ... فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر "

" ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى ... جياذ المذاكي والمججلة الغر "

" وراد وشقر واضحات شياتها ... فأجسامها تبر وأرجلها در "

" وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة ... مطهمة غارت بها الأنجم الزهر "

" وأسد رجال من مرين مخيفة ... عمائمها بيض وأسالها سمر "

" عليها من الماذي كل مفاضة ... تدافع في أعطافها اللجج الخضر "

" هم القوم إن هبوا لكشف ملمة ... فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر "

" إذا سئلوا أعطوا وإن نوزعوا سطوا ... وإن واعدوا وفوا وإن عاهدوا بروا "

" وإن مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم ... نشاوى تمشت في معافطهم خمر "

" وإن سمعوا العوراء فروا بأنفس ... حرام على هاماتها في الوغى الفر "

" وتبسم ما بين الوشيج ثغورهم ... وما بين قضب الدوح بيتسم الزهر "

" أمولاي غاضت فكرتي وتبلدت ... طباعي فلا طبع يعين ولا فكر "

" ولولا حنان منك داركنني به ... وأحييتني لم تبق عين ولا أثر "

" فأوجدت مني فائتا أي فائت ... وأنشرت ميتا ضم أشلاءه قبر "

" بدأت بفضل لم أكن لعظيمه ... بأهل فجل اللطف وانفرج الصدر "

" وطوقتني النعمى المضاعفة التي ... يقل عليها مني الحمد والشكر "

" وأنت بتتميم الصنائع كافل ... إلى أن يعود الجاه والعز والوفر "

" جزاك الذي أسنى مقامك عصمة ... يفك بها عان وينعش مضطر "

" إذا نحن أئينا عليك بمدحة ... فهيهات يحصى الرمل أو يحصر القطر "

" ولكننا نأتي بما نستطيعه ... ومن بذل المجهود حق له العذر "

فلا تسأل عن امتعاض وانتفاض وسداد أنحار في التأثر لنا وأغراض والله غالب على أمره
وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه
إلى الأندلس وقد ألح صاحب قشتالة في طلبه وترجح الرأي على قصده فقعد السلطان بقية
العرض من جنة المصاراة وبرز الناس وقد أسمعهم البريح واستحضرت البنود والطبول والآلة والبس
خلعة الملك وقيدت له مراكبه فاستقل وقد التف عليه كل من جلا عن الأندلس من لدن الكائنة في
جملة كثيفة ورأى من رقة الناس وإجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد إذ كان مظنة
ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة إلى كونه مظلوم
العقد منتزع الحق فتبعته
الخواطر وحमित عليه الأنفس وانصرف لوجهته وهو الآن برندة مستقل بها وبجهاتها ومتمعلل بألقاب
ومقتنع برسم وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن علي بن يوسف ابن كماشة
الحضرمي وكتابته الفقيه أبو عبد الله ابن زمرك وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ للأمر
والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر كان الله لنا وله بفضل انتهي كلام لسان الدين ابن الخطيب في
اللمحة البدرية

رسالة لسان الدين عن الغني إلى المنصور بن قلاوون

وقد علمت أنه بعد هذا التاريخ عاد سلطانه إلى حضرة غرناطة واستبد بملك الأندلس وعاد لسان
الدين إليه حسيما أحسن سياق ذلك لسان الدين رحمه الله تعالى في كتاب من إنشائه على
لسان سلطانه الغني بالله وخاطب به ملك الحرمين مصر والشام السلطان المنصور بن أحمد بن
الناصر بن قلاوون وقد ذكرنا منه ما يتعلق بالأندلس في الباب الثاني من القسم الأول وقال بعد ذلك
فيما يتعلق بالخلع المذكور ما نصه ولما صير الله إلينا تراثهم الهني وأمرهم السنني وبناءهم العادي
وملكهم الجهادي أحرانا وله الطول على سننهم ورفع أعلامنا في هضابهم المشرفة وقننهم وحملنا
فيهم خير حمل ونظم بنا لهم أي شمل وألبس إيماننا سلما فسح الدارة وأحكم الإدارة وهنا الإمارة
ومكن العمارة وأمن في البحر والبر السيارة والعبارة لولا ما طرقتهم فينا من تمحيص أجلي عن
تخصيص وتمحض تبره بعد تخليص ومرام عويص نبثكم بته ونوالي لديكم حثه ونجمع منبته فإن في
الحوادث ذكرا ومعروف الدهر لا يؤمن أن يعود نكرا وشر الوجود
معاقب بخيره والسعيد من اتعظ بغيره والحزم أفضل ما إليه ينتسب وعقل التجربة بالمرانة يكتسب

وهو أن بعضا ممن ينسب إلينا بوشائج الأعراق لا بمكارم الأخلاق ويمت إلينا بالقرابة البعيدة لا بالنسبة السعيدة ممن كفلناه يتيما وصناه ذميما شتيما وبوأناه مبوأ كريما بعد أن نشأ جرشوفا دميما وملعوننا لثيما ونوهناه من خموله بالولاية ونسخنا حكم تسحبه بأية العناية داخل أختنا لنا كنا أزمناه الاقتصار على قصره ولم نجعل أداة تدل على حصره وسامحناه في كثير من أمره ولم نرتب بزیده ولا عمره وأغتررنا برماد علا على جمره فاستدعى له من الصعاليك شيعته كل درب بفك الأغلاق وتسرّب أنفاق النفاق وخارق للإجماع والإصفاق وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفساق وتسور بهم القلعة من ثلم شرع في سده بعد هذه ولم تكمل الأقدار المميزة في ليلة أثرنا مبيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا واستنبتنا من يضطلع بأمرنا فاستتم الحيلة التي شرعها وإقترحم القلعة واقترعها وجدل حرس النوبة وصرعها وكبس محل النائب عنا وجد له ولم ينشب أن جد له واستخرج الأخ البائس فنصبه وشد به تاج الولاية وعصبه وابتز أمرنا وغصبه وتوهم الناس أن الحادثة على ذاتنا قد تمت والدائرة بنا قد أمت ولقد همت فخذل الناصر وانقطعت الأواصر وأقدم المتقاصر واقترحت الأبهاء والمقاصر وتفرقت الأجزاء وتحللت العناصر وفقد من عين الأعيان النور الباصر فأعطوه طاعة معروفة وأصبحت الوجوه إليه مصروفة وركضنا وسرعان الخيل تقفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها وتكفي السماء والله يكفيها إلى أن خلصنا إلى مدينة وادي آش خلوص القمر السرار لا نملك إلا نفسا مسلمة لحكم الأقدار ملقية لله مقادة الاختيار مسلوية بموجب الإستقرار وناصحنا أهل تلك المدينة فعملوا على الحصار واستبصروا في الدفاع عنا أتم الاستبصار ورضوا لبيوتهم المصحرة وبساتينهم المستبحرة

بفساد الحديد وعباث النار ولم يرضوا لجوارهم بالإخفار ولا لنفوسهم بالعار إلى أن كان الخروج عن الوطن بعد خطوط تسبح فيها الأقلام سيحا طويلا الشجون شرحا وتأويلا وتلقي القصص منها على الأذان قولاً وجزنا البحر وضلوع موجه إشفاقا علينا تخفق وأكف رياحه حسرة تصفق ونزلنا من جناب سلطان بني مرين على المثوى الذي رحب بنا ذرعه ودل على كرم الأصول فرعه والكريم الذي وهب فأجزل ونزل لنا عن الصهوة وتنزل وخير وحكم ورد على الدهر الذي تهكم واستعبر وتبسم وألى وأقسم ويسمل وقدم واستركب لنا واستخدم

ولما بدا لمن وراءنا سيئات ما كسبوا وحققوا ما حسبوا وطفا الغناء ورسبوا ولم ينشب الشقي الخزي أن قتل البائس الذي موه بزيفه وطوقه بسيفه ودل ركب المخافة على خيفه إذ أمن المضعوف من كيده وجعل ضرغامه بازيا لصيده واستقل على أريكته استقلال الظليم على تريكته حاسر الهامة متنفقا بالشجاعة والشهامة مستظهرا بأول الجهالة والجهامة وساءت في محاولة عدو الدين سيرته ولما حصص الحق انكشفت سريرته وارتابت لجبنه المستور جبرته وفغر عليه طاغية الروم فمه فالتقمه ومد عليه الصليب ذراعه فراعه وشد الكفر عليه يده فما عضده الله ولا أيده وتخرمت ثغور الإسلام بعد انتظامها وشكت إليه باهتضامها وغصت بأشلاء عباد الله وعظامها ظهور أوضاعها ووكلت السنة والجماعة وانقطعت من النجح الطماعة واشتدت المجاعة وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة وأجزنا البحر تكاد جهتها تتقاربان تيسيرا ورياحه لا تعرف في غير وجهتنا مسيرا وكان ماءه ذوب لقي إكسيرا ونهضنا يتقدمنا الرعب ويتقد منا الدعاء وتجاجئ بنا الإشارة ويحفزنا الاستدعاء

وأقصر الطاغية عن البلاد بعد أن ترك ثغورها مهتومة والإخافة عليها محتومة وطوابعها مفضوضة وكانت بنا محتومة وأخذت الخائن الصيحة فاختبل وظهر تهوره الذي عليه جبل فجمع أوباشه السفلة وأوشابه وبهرجه الذي غش به المحض وشابه وعمد إلى الذخيرة التي صانتها الأغلاق الحريزة والمعائل العزيزة فملا بها المناطق واستوعب الصامت والناطق والوشح والقراطق واحتمل عدد الحرب والزينة وخرج ليلا عن المدينة واقتضت آراؤه الفائلة ونعامته الشائلة ودولة بغيه الزائلة أن يقصد طاغية الروم بقضه وقضيضه وأوجه وحضيضه وطويله وعريضه من غير عهد اقتضى وثيقة ولا أمر عرف حقيقته إلا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة واستئصال الأمة المسلمة فلم يكن إلا أن تحصل في قبضته ودنا من مضجع ريضته واستشار نصحاءه في أمره وحكم الحيلة في جناية غدره وشهره ببلده وتولى قتله بيده وألحق به جميع من أمده في غيه وظاهره على سوء سعيه وبعث إلينا برؤوسهم فنصبت بمسور غدرها وقلدت لبة تلك البنية بشذرها وأصبحت عبرة للمعتبرين وأية للمستبصرين وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين

وعدنا إلى أريكة ملكنا كما رجع القمر إلى بيته بعد كيته وكيته أو العقد إلى جيده بعد انتشار فريده أو الطير إلى وكرة مفلتا من غول الشرك ومكره ينظر الناس إلينا بعيون لم ترو مد غبنا من محيا رحمة ولا طشت عليها بعدنا غمامة رحمة ولا باتت للسياسة في ذمة ولا ركنت لدين ولا همة فطوبنا

بساط العتاب طي الكتاب وعالجنا سطور بالاضطراب وأنسنا نفوس أولي الاقتراف بالاقتراب وسهلنا
إلينا واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا فلا تسألوا عما أثار ذلك من استدرارك ندم ورسوخ قدم
واستمتاع بوجود بعد عدم فسبحان الذي يمحص ليشيب ويأمر بالدعاء ليحيب وينبه من الغفلة
ويهب ويحتبي إليه من يشاء ويهدي
إليه من ينيب

ورأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسببها للمفاتحة المعتمدة وتمهيدا للموالة المجددة
فأخبار الأقطار مما تنفقه الملوك على أسمارها وترقم بدائعه هالات أقمارها وتستفيد منه حسن
السير والأمان من الغير وتستعين على الدهر بالتجارب وتستدل بالشاهد على الغائب وبلادكم
ينبوع الخير وأهله ورواق الإسلام الذي يأوى قريبه ويعيده إلى ظله ومطلع نور الرسالة وأفق
الرحمة المثالة منه تقدم علينا الكواكب تضرب آباط أفلاكها وتتخلل مداريها المذهبية غدائر أحلاكها
وتستعلي البدور ثم يدعوها إلى المغرب الحدور وتطلع الشمس متجردة من كمائم ليلها متهادية
في دركات ميلها ثم تسحب إلى الغروب فضل ذيلها ومن تلقانكم ورد العلم والعمل وأرعى الهمل
فنحن نستوهب من مظان الأجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام المدد ويعدل منه الشيء بالمال والعدد
ففي دعاء المؤمن بظهر الغيب ما فيه مما ورد وإياه سبحانه نسأل أن يدفع عنا وعنكم دواعي
الفتن وغوائل المحن ويحملنا على سنن السنن ويلبسنا من تقواه أوقى الجنن وهو سبحانه يصل
لأبوتكم ما تستقل لدى قاضي القضاة رسومه فتكتب حقوقه وتكتب خصومه ولا تكلفه الأيام ولا
تسومه بفضل الله وعزته وكرمه ومنته والسلام الكريم الطيب المبارك بدءا بعد عود وجودا إثر جود
ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى

وللسان الدين ابن الخطيب رحمه الله عن سلطانه المذكور كتاب آخر في هذه الكائنة إلى كبير
الموحدين أبي محمد عبد الله بن تفرجين ولعلنا نذكره إن
شاء الله تعالى في الباب الخامس من هذا القسم عند تعرضنا لبعض نثر لسان الدين رحمه الله
تعالى

نقل عن ابن خلدون في خلع الغني

وقد ساق هذه القضية قاضي القضاة الشهير الكبير ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي
رحمه الله تعالى في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان الشهير أبي سالم ابن السلطان أبي
الحسن المريني صاحب المغرب مما نصه الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان
ومقدمه على السلطان لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونصب ابنه
محمد للأمر واستبد عليه رضوان مولى أبيه وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه
وعلى أمه من محبته فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم وكان له صهر من ابن عمه
محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فكان يدعو سرا إلى القيام بأمره حتى أمكنته فرصة
في الدولة بخروج السلطان إلى بعض منتزهاته برياضه فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين
لرمضان من سنة ستين في أوشاب جمعهم من الطعام لثورته وعمد إلى دار الحاجب رضوان
فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمة وبناته وقربوا إلى إسماعيل فرسه وركب فأدخلوه القصر وأعلنوا
بيعته وقرعوا طبولهم بسور الحمراء وفر السلطان من مكانه بمنتزهه فلحق بوادي آش وغدا الخاصة
والعامية على إسماعيل فبايعوه واستبد عليه هذا الرئيس بن عمه فخلعه لأشهر من بيعته واستقل
بسلطان الأندلس ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان واتصل
الخبر بالمولى السلطان أبي سالم امتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيًا لما سلف له في
جوارهم وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف

من أهل مجلسه لاستقدامه فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من
وادي آش إلى المغرب وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله ابن الخطيب كانوا اعتقلوه لأول
أمرهم لما كان رديفا للحاجب رضوان وركنا لدولة المخلوع فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه
فأطلقوه ولحق مع الرسول أبي القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب
وأجاز لذي القعدة من سنته وقدم على السلطان بفاس وأجل قدومه وركب للقائه ودخل به إلى
مجلس ملكه وقد احتفل ترتيبه وغص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان
قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ويستحثه لمظاهرته على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى
الناس شفقة له ورحمة ثم سرد ابن خلدون القصيدة وقد تقدمت
ثم قال بعد ما صورته ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله وقد فرشت له القصور وقربت
له الجياد بالمراكب الذهبية وبعث إليه بالكسا الفاخرة ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي

وبطانتة من الصنائع وحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أديا مع السلطان واستقر في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره انتهى المقصود جلبة من كلام ابن خلدون في هذه الواقعة وفيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق في اللمحة البدرية إذ قال فيها إن الثورة عليهم كانت ليلة ثمان وعشرين من رمضان وابن خلدون جعلها ليلة سبع وعشرين منه والخطب سهل وقال في اللمحة إن انصرف السلطان من وادي آش كان ثاني يوم النحر وقال ابن خلدون في ذي القعدة ولعله غلط من الكاتب حيث جعل مكان الحجة القعدة

ورأيه ابن الخطيب التي ذكرها هي من حر كلامه وعرر شعره على أنه كله عرر إذ جمع فيها المطلوب في ذلك الوقت بأبداع لفظ وأحسن عبارة في ذلك المحفل العظيم ولم نزل نسمع في المذاكرات بالمغرب أنه لما انتهى فيها إلى قوله فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر قال له بعض من حضر ولعله أراد الغض منه أحسنت يا وزير فيما قلت وفي وصف الحال والسلطان غير أنه بقي عليك شيء وهو ذكر قرابة السلطان مولينا بني مرين وهم من هم ولا ينبغي السكوت عنهم فارتجل ابن الخطيب حينئذ قوله ومن دون ما تبغيه إلى آخره حتى تخلص لمدح بني مرين أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه ثم قال بعد ذلك معذرا أمولاي غاضت فكرتي إلى آخره وهذا إن صح أبلغ مما وقع لأبي تمام في سيبته حيث قال لا تنكروا ضربي له البيتين لأن أبا تمام ارتجل بيتين فقط ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتا مع ما هو عليه من الخروج عن الوطن وذهاب الجاه والمال فأين الحال من الحال

وقد كرر ابن خلدون رحمه الله تعالى في تاريخه قضية اعتقال لسان الدين وخلع سلطانه في موضع آخر ولنذكره وإن سبق بعضه لاشتماله على منشأ الوزير لسان الدين وجملة من أحواله إلى قريب من مهلكه فنقول قال رحمه الله تعالى بعد ذكره عبد الله والد لسان الدين وأنه انتقل من لوشة إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام ما حصله ونشأ ابنه محمد هذا يعني لسان الدين ابن الخطيب بقرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب وأخذ عن أشياخه وامتلأ من حول اللسان نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ونبع في الشعر والترسيل بحيث لا يجاري فيهما

وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره وملاً الدنيا بمدائحه وانتشرت في الآفاق فرقاه السلطان إلى خدمته وأثبتته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوسا بأبي الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية وكاتب السلطان بقرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه فاستبد ابن الخطيب برياسة الكتاب ببابه مثناه بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ثم داخله السلطان في تولية العمال على يده بالمشارطة فجمع له بها أموالا وبلغ به في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة معزيا بأبيه السلطان أبي الحسن فجلى في أغراض سفارته ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة عدا عليه بعض الزعانف في سجنه للصلاة وطعنه فأشواه وفاط لوقته وتعاورت سيوف الموالى المعلوجي هذا القاتل فمزقوه أشلاء وبوع ابنه محمد لوقته وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصغر من ملوكهم واستبد بالدولة وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه وجعل ابن الخطيب رديفا لرضوان في أمره ومشاركا في استبداده معه فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبي عنان منه على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على السلطان بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في

إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم

" خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح في الدجى قمر "

" ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس بسطيع دفعه البشر "

" وجهك في النائبات بدر دجى ... لنا وفي المحل كفك المطر "

" والناس طرا بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا "

" وجملة الأمر أنه وطن ... في غير عليك ما له وطر "

" ومن به مذ وصلت حبلهم ... ما جحدوا نعمة ولا كفروا "

" وقد أهتمهم بأنفسهم ... فوجهوني إليك وانتظروا "

فاهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه في جده الرئيس أبي سعيد وتحين خروج السلطان إلى منتزهه خارج الحمراء وتصور دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضوان في بيته فقتله ونصب للملك إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج بما كان صهره على شقيقته وكان معتقلا بالحمراء فأخرجه وباع له وقام بأمره مستبدا عليه وأحس السلطان محمد بفرع الطبول وهو بالبستان فركب ناجيا إلى وادي آش وضبطها وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك أبائه بالمغرب وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس وكان غالبا على هوى السلطان أبي سالم فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زونا على أهل الأندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحو إلى ملك المغرب فقبل ذلك منه وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي

آش إليه وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب وحل معتقله فأطلق وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش وسار في ركاب سلطانه وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتز لقدم ابن الأحمر وركب في الموكب لتلقيه وأجلسه إزاء كرسيه وأنشد ابن الخطيب قصيدته يستصرخ السلطان لنصره فوعده وكان يوما مشهودا ثم أكرم مثواه وأرغد نزله ووفر أرزاق القادمين مع ركابه وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والإقطاع ثم استيأس واستأذن السلطان في التجوال بجهات مراكش والوقوف على أعمال الملك بها فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه فتبادروا في ذلك وحصل منه علي حظ وعندما مر بسلا إثر قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدة روي الراء يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها " إن بان منزله وشطت داره ... قامت مقام عيانه أخباره "

" قسم زمانك عبرة أو عبرة ... هذي ثراه وهذه آثاره "

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة فشفعوه واستقر هو بسلا منتبذا عن سلطانه طول مقامه بالعدوة ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى مكة بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة وبعث عن خلفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ الوزير عمر بن عبد الله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره فسر السلطان لقدمه وردة إلى منزلته كما كان مع رضوان كافلة وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية ملك النصارى في ركاب أبيه عندما أحسن بالشر من الرئيس صاحب غرناطة وأجاز يحيى من هنالك إلى العدو وأقام عثمان بدار الحرب فصحب السلطان في مثنوى اغترابه هنالك وتقلب في مذاهب خدمته وانحرفوا عن الطاغية عندما يئسوا من الفتح على يده فتحولوا عنه إلى تغور بلادهم وخاطبوا الوزير عمر بن عبد الله في أن يمكنهم من بعض التغور الغربية التي لطاعتهم بالأندلس يرتقبون منها الفتح وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية وخاصة متأكدة فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله وحملته على أن يرد عليه مدينة رندة إذ هي من تراث سلفه فقبل إشارتي في ذلك وتسوغها السلطان المخلوع ونزل بها وعثمان بن يحيى في جملته وهو المقدم في بطانته ثم غزوا منها مالقة فكانت ركابا للفتح وملكها السلطان واستولى بعدها على دار ملكه بغرناطة وعثمان بن يحيى متقدم القدم في الدولة عريق في المخالصة وله على السلطان دالة واستبداد على هواه فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده وأعادته إلى مكانه في الدولة من علو يده وقبول إشارته أدركته الغيرة من عثمان ونكر على السلطان الاستكفاء به وأراه التخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق ثم غربهم بعد ذلك وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة وخلق بنيه بندمائه وأهل خلوته وانفراد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشي بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتفننوا في السعيات فيه وقد هم السلطان عن قبولها ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب فشمر عن ساعده في التفويض واستخدم للسلطان

عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدو يومئذ في القبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبدالحق كانوا قد نصبوه شيخا على الغزاة بالأندلس لما أجاز من العدو بعدما جاس خلالها لطلب الملك وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مرين فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس فأجاز هو ووزيره مسعود ابن ماساي ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبعة وستين وسبعمائة فأكرم نزلهم وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة فقدم عبد الرحمن مكانه وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله فغص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك وتوقع انتقاض أمره منهم ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسر بها في بني مرين فجزع لذلك وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شغبيهم على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطة على يد سفيره إلى الأندلس وكاتبه أبي يحيى ابن أبي مدين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماساي فتقبض عليهما واعتقلهما وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه عليه فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب واستأذن السلطان في تفقد الثغور وسار إليها في لمة من فرسانه وكان معه ابنه علي الذي كان خالصة للسلطان وذهب لطيبته فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدو مال إليه وسرح إذنه بين يديه فخرج قائد الجبل لتلقيه وقد كان السلطان عبد العزيز

أوعز إليه إليه بذلك وجهز له الأسطول من حينه فأجاز إلى سبته وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم ثم سار لقصد السلطان فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامه من تلمسان فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ومن دولته بمكان التنويه والعزة وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى ابن أبي مدين سفيرا إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ثم أكثر المنافسون له في شأنه وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وإبداء ما كان كامنا في نفسه من سقطاته وإحصاء معايبه وشاع على السنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن ابن الحسن فاسترعاهها وسجل عليه بالزندقة وراجع صاحب الأندلس رأيته فيه وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الإنتقام منه بتلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه فصم عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواربي ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس في جملته فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان سار هو في ركاب الوزير أبي بكر ابن غازي القائم بالدولة فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنان وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره انتهى

رواية ابن خلدون عن نهاية لسان الدين

وقال ابن خلدون في تاريخه ما صورته كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من ردة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين وقتل له الطاغية عدوة الرئيس المنتزي على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع واستوى على كرسيه واستقل بملكه ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب فاستخلصه وعقد له على وزارته وفوض إليه في القيام بملكه فأسولى عليه وملك هواه وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي علي ويخشونهم على أمرهم ولما لحق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني عمه من الأعياص فكانت له آثار في الاضطلاع بها ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه وكان ابن الخطيب ساعيا في مرضاته عند سلطانه فدرس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم وتنكر له فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم

من الوسائل ومهد من السوابق فقبله السلطان وأحلّه من مجلسه محل الإصطفاء والقرب وخطب ابن الأحمر في أهله وولده فبعثهم إليه واستنقر في جملة السلطان ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ونمى ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلا انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه فأبى السلطان من ذلك ونكره ولما هلك السلطان واستبد الوزير ابن غازي بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب وداخله وخطبه ابن الأحمر بمثل ما خاطب به السلطان عبد العزيز فلج واستنكف عن ذلك وأقبح الرد وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته فأطلق ابن الأحمر لحيته عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماساي ونهض يعني ابن الأحمر إلى جبل الفتح فنارله بعساكره ونزل عبد الرحمن ببطوية

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا تركته لطوله وملخصه أن الوزير أبا بكر ابن غازي الذي كان تحيز إليه ابن الخطيب ولى ابن عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفا عليها من ابن الأحمر ونهض هو أعني الوزير إلى منازل عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه فامتنع عليه وقاتله أياما ثم رجع إلى تازا ثم إلى فاس واستولى عبد الرحمن على تازا وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأي إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم وهو المعروف بذي الدولتين وهذه هي دولته الأولى وذلك أن ابن عم الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنقة وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب وفاستعتب له وقبح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر ابن غازي من الاستغلاظ له في شأن ابن الخطيب وغيره فوجد ابن

الأحمر في ذلك السبيل إلى غرضه وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة وأن يقيمه للمسلمين سلطانا ولا يتركهم فوضى وهملا تحت ولاية الصبي الذي لم يبلغ ولا تصح ولايته شرعا وهو السعيد بن أبي فارس الذي بايعه الوزير أبو بكر ابن غازي بتلمسان حين مات أبوه واستبد عليه واختص ابن الأحمر أحمد بن أبي سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من الموات وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطا منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذي هو محاصر له وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بني مريين ليكونوا تحت حوطته وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه فانعقد أمرهم على ذلك وتقبل محمد بن عثمان شروطه وركب من سبتة إلى طنجة واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه وحمل الناس على طاعته واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا وخطب أهل جبل الفتح فبايعوا وأفرج ابن الأحمر عنهم وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح وخطب أهله بالرجوع إلى طاعته فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه ودخله ومحا دولة بني مريين مما وراء البحر وأهدى للسلطان أبي العباس وأمه بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالا للإعانة على أمره ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر ابن غازي قامت عليه القيامة وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يموه بأن هذا عن أمره فتنبرا من ذلك ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر فاعتل له بانعقاد البيعة لأبي العباس وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى ما رامه منه بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر فوجم وأعرض عن ابن عمه ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن فاهتبل في غيبته ابن عمه محمد بن عثمان ملك المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشية نحو ستمائة وعسكر آخر من

الغزاة وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه السلطان أحمد ومظاهرتة واجتماعهما على ملك فاس وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من تازا فانفض معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية العرائس وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون فصمد إليه الوزير بعساكره فاقتل مصافه ورجع على عقبه مفلولا وانتهب عسكره ودخل البلد الجديد وجأأ بالعرب أولاد حسين فبعسكروا بالزيتون ظاهر فاس فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف وشردهم إلى الصحراء وشارف السلطان أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزناتة إلى ولي دولتهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصره الذي اختطه بملوية وأطلعوه على كامن أسرارهم فأشار عليهم بالإتتماع والإتفاق فاجتمعوا بوادي النجا وتحالفوا ثم

ارتحلوا إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم الوزير بعساكره فانهمزمت جموعه وأحيط به وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق واضطرب معسكر السلطان أبي العباس بكدية العرائس ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه وضربوا على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر فأحكموا الحصار وتحكموا في ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس فهدموها وعاثوا فيها ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابن عمه الوزير أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان لكون الحصار قد اشتد به ويئس وأعجزه المال فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له عن أعمال مراكش بدل سجالماسة فعقدوا له على كره وطووا على المكر وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلى سبيله من الوزارة ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها انتهى

رواية ابن الأحمر

وقال حفيد السلطان ابن الأحمر في تاريخه ما صورته لما لحق الرئيس أبو عبد الله ابن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين وسبعمائة وكان من وفاة مجيره والمحامي عنه السلطان عبد العزيز ما ألمعنا بذكره شد الوزير أبو بكر ابن غازي يده على ابن الخطيب بانبا على أشد الأشياء ألا يسلمه لمولانا جدنا مع توقع البغضاء واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز في إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالمقذع من مويقات ابن الخطيب ولج في الغلواء وسجل موجبات الوفاء والبواعث من مولانا جدنا تتزايد والأساطيل تتجهز والآراء بالقصد الخطير ينتقي منها الصواب ويتخير حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح وكان إذ ذاك راجعا إلى إيالة المغرب فأناخ عليه ككل الجيش وأهمهم ثقل الوطأة ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار من شأبيب الأنفاط والجوار من باب الشطائين قريب والخالصة من الثقات مستتريب والنجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب ولم يبق بغرناطة من له خلوص ولا من ترامى به هممة إلا وأعمل السير الحثيث ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب حتى اهل العلم والرجاحة والحلم ولا كالسيد الإمام الأستاذ أبي سعيد قطب الجملة وعميد الملة وهو الذي بلغنا نظمه في هذه الوجهة وعندما ألقى عصا التسيار في الجهة القريبة من أولي العداوة ومن ذلك قصيدته المشهورة التي أولها

" يا جبل الفتح استلمت نفوسنا ... فلا قلب إلا نحو مغناك قد سبق "

" فأرسلت إذ جنناك فينا صواعقا ... تخال بها جو السماء قد انطبق "

وقوله في إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موطئا معجبا رحمة الله تعالى عليه

" وذموا وما يعنون إلا مذمما ... وأنت بحمد الله تدعى محمدا "

وقول حامل اللواء الآتي ذكره في تضاعيف الأسماء

" أما مرامك في عراض البيد ... فمبلغ ما شئت من مقصود "

" والهجر إن ألقته السنة العدا ... ياباه فضل مقامك المحمود "

" سحقا لهم سفهاء كل قبيلة ... شذت مقالتهم عن المعهود "

" قد ضلت الأحلام منهم رشدها ... هذا ومنك الحلم غير بعيد "

" مع عزمة لو شئت هدت كل ما ... قد أحكموا من معلم ومشيد "

إلى أن قال الخبر عن اجتماع الأميرين أبي العباس وأبي زيد متصاحبين ومترافقين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزير أبي بكر ابن غازي بن الكاس وكتب الرئيس أبو عبد الله ابن زمرك في مخلص هذه الكائنة حث الوزير محمد ابن عثمان السير في وسط عام خمسة وسبعين وسبعمائة وتلاقى بسلطانه أبي العباس مع الأمير أبي زيد عبد الرحمن واستقلا بالطائفة وحصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير وعلى وزيره أبي بكر ابن غازي في متسع الخطة ورحيب ذرع الخلافة وتصالحا عن رضى وتسليم منهما ومن أشياعهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان في طنجة من الأمراء واتصل السلطان عبد الرحمن بمراكش فكان ملكها وجابي أموالها وتملك السلطان أبو العباس مدينة فاس وما إلى البلاد الساحلة وسواها مما يحتوي عليه ملك المدينة البيضاء برا وبحرا

وعبر كاتب الدولة عن المدينة وعن الطفل متملكها بقوله وإلى هذا فقد ارتفع الالتباس واطرد القياس وغير خفي عن ذي عقل سليم وذي تفويض للحق وتسليم أن دار الملك المريني كمامة بلا زهر ورياض بلا نهر إن لم يقتعد كرسيتها من يزين جيدها ويجيد حليها وأن أوان البشرية لمن يمتعض

للدين والآن فلادة التقوى منوطة بقلم اعلام الملوك المهتدين ثم ذكر ما يطول من فصول وربما

اشتملت على فضول وملخصه مثل ما ذكر ابن خلدون

تتمة الخبر عن نهاية لسان الدين نقلا عن ابن خلدون

ثم ساق قاضي القضاة ابن خلدون بعد ما تقدم جليه من تاريخه الكلام على محنة لسان الدين ابن الخطيب ووفاته مقتولا رحمه الله تعالى فقال ما صورته ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين استقل بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه وسليمان بن داود بن أعراب كبير بني عسكر رديفة وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بوع بطنجة على نكية الوزير ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقيه أبو بكر ابن غازي بساحة البلد الجديد فهزمه السلطان ولازمه بالحصار أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفا على نفسه فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب فقبضوا عليه وأودعوه السجن وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس متى أعاده الله تعالى إلى ملكه فلما استقر إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيرا عن الوزير عمر بن عبد الله ومقتضيا عهده من السلطان فصدده الوزير ابن الخطيب عن ذلك محتجا بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من بني عبد الحق لأنهم يعسوب زناة فرجع سليمان وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات

ينفث كل واحد منهما لصاحبه بما يحفظه مما كمن في صدورهما وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب وهو أبو عبد الله ابن زمرك فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالمشور في مجلسه الخاصة وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة فعظم النكير فيها فوبخ ونكل وامتنحن بالعذاب بمشهد ذلك الملام ثم تل إلى محبسه واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه وأفتى بعض الفقهاء فيه ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله فطرقوا السجن ليلا ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقا في محبسه وأخرج شلوه من الغد فدفن بمقبرة باب المحروق ثم أصبح من الغد على سافة قبره طريحا وقد جمعت له أعواد وأضمرت عليه نار فاحترق شعره واسود بشره فأعيد إلى حفرته وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته والله الفعال لما يريد

وكان عفا الله تعالى عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجهش هواتفه بالشعر يبكي نفسه ومما قال في ذلك رحمه الله تعالى

" بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت "

" وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت "

" وكنا عظاما فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت "

" وكنا شמוש سماء العلا ... غرين فناحت علينا السموت "

" فكم جدلت ذا الحسام الطيبي ... وذو البخت كم جدلته البخوت "

" وكم سيق للقبر في خرقة ... فتني ملئت من كسائه التخوت "

" فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذي لا يفوت "

" ومن كان يفرح منهم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت "

انتهى كلام ابن خلدون في ديوان العبر

عن ابن حجر

وقال الحافظ ابن حجر في أنباء الغمر بعد أن ذكر ما قدمناه على سبيل الاختصار ما نصه واشتهر أنه يعني لسان الدين نظم حين قدم للقتل الأبيات المشهورة التي يقول فيها

" وقل للعدا مضى ابن الخطيب ... وفات فسيحان من لا يفوت "

" فمن كان يشمت منكم به ... فقل يشمت اليوم من لا يموت "

والصحيح في ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولي الدين ابن خلدون أنه نظم الأبيات المذكورة وهو في السجن لما كان يستشعر من التشديد انتهى

ثم حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أن ابن الأحمر وجهه إلى ملك الإفرنج في رسالة فلما أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم ونثر فلما قرأها قال له مثل هذا كان ينبغي

أن لا يقتل ثم بكى حتى بل ثيابه انتهى كلام الحافظ وبعضه بالمعنى فانظر سدك الله تعالى العدو الكافر على هذا العلامة وقتل إخوانه في الإسلام له على حظ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لا رب غيره

تخميسي لأبيات لسان الدين

قلت ورأيت بحضرة فاس حاطها الله تعالى تخميسا لهذه الأبيات بديعا منسوباً إلى بعض بني الصباغ وزاد في الأصل بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون من هذه القطعة والمزيد يشبهه نفس لسان الدين ابن الخطيب فلعل ابن خلدون اختصر منها أو لم يقف على الزائد ولثبت جملته تميمياً للمقصود فنقول قال رحمه الله تعالى

"أيا جاهلاً غره ما يفوت ... وألهاه حال قليل الثبوت"

"تأمل لمن بعد أنس يقوت ... بعدنا وإن جاورتنا البيوت"

"... وجئنا بوعظ ونحن صموت"

"لقد نلت من دهرنا رفعة ... تقضت كبرق مضى سرعة"

"فهيها نرجو لها رجعة ... وأصواتنا سكنت دفعة"

"... كجهر الصلاة تلاه القنوت"

"بدا لي من العز وجه شباب ... يؤمل سيبي وبأسى يهاب"

"فسرعان مزق ذاك الإهاب ... ومدت وقد أنكرتنا الثياب"

"... علينا نسائجها العنكبوت"

"فآها لعز تقضى مناما ... منحنا به الجاه قوما كراما"

"وكنا نسوس أمورا عظاما ... وكنا عظاما فصرنا عظاما"

"... وكنا نقوت فيها نحن قوت"

"وكنا لدى الملك حلي الطلى ... فآها عليه زمانا خلا"

"نعوض من جده بالبلى ... وكنا شمس سماء العلا"

"... غربنا فناحت علينا السموت"

"تعودت بالرغم من صرف الليالي ... وحملت نفسي فوق احتمالي"

"وأيقنت أن سوف يأتي ارتحالي ... ومن كان منتظرا للزوال"

"... فكيف يؤمل منه الثبوت"

"هو الموت يا ما له من نبا ... يجوز الحجاب إلى من أبى"

"ويألف أخذ سني الحبا ... فكم أسلمت ذا الحسام الطبي"

"... وذا البخت كم جدلته البخوت"

"هو الموت أفصح عن عجمة ... وأيقظ بالوعظ من خفقة"

"وسلى عن الحزن ذا حرقه ... وكم سيق للقبر في خرقة"

"... في ملئت من كساه التخوت"

"تقضى زمانى بعيش خصيب ... وعندى لذني انكسار المنيب"

"وها الموت قد صبت منه نصيبي ... فقل للعدا ذهب ابن الخطيب"

"... وفات ومن ذا الذي لا يفوت"

"مضى ابن الخطيب كمن قبله ... ومن بعده يقتفي سبله"

"وهذا الردى نائر شمله ... فمن كان يفرح منهم له"

"فقل يفرح اليوم من لا يموت"

"هو الموت عم فما للعدا ... يسرون بي حين ذقت الردى"

"ومن فاته اليوم يأتي غدا ... سيلى الجديد إذا ما المدى"

"... تتابع أحاده والسبوت"

"أخي توخ طريق النجاة ... وقدم لنفسك قبل الممات"

"وشمر بجد لما هو آت ... ولا تغتر بسراب الحياة"

"... فإنك عما قريب تموت"

وقد ذكرني قوله رحمه الله تعالى فمن كان يفرح منهم له إلى آخره قول بعض العلماء الشاميين

"يا ضاحكا بمن استقل غباره ... سيثور عن قدميك ذاك العثير"

"لا فارس بجنودها منعت حمى ... كسرى ولا للروم خلد قيصر"

"جدد مضت عاد عليه وجرهم ... وتلاه كهلان وعقب حمير"

" وسطا بغسان الملوك وكندة ... فلها دماء عنده لا تتأر "

" لعبت بهم فكأنهم لم يخلقوا ... ونسوا بها فكأنهم لم يذكروا "

فصل في الاعتبار لابن دحية

وما أحسن قول أبي الخطاب ابن دحية الحافظ بعد الكلام ما صورته وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان وقاسيت من الغربية أصناف الألوان ومررت على مدائن كسرى أنوشروان وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم الزاهد العابد المعمر سلمان وأعملت منها السير والإغذاذ إلى مدينة بغداد فنظرت إليها معالم وربوعا وأقمت بها مرة عامًا ومرة أسبوعًا وأسبوعًا وأنا أبدي في ندائهم وأعيد والترب قد علا على منازلهم والصعيد وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشد ولسان الحال يجاويني وينشد

" يا سائل الدار عن أناس ... ليس لهم نحوها معاد "

" مرت كما مرت الليالي ... أين جديس وأين عاد "

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبير المتعال أين الأنبياء من ولده والأرسال أهل النبوة والرسالة والوحي من الله ذي الجلالة أين سيدهم محمد الذي فضله عليهم ذو العزة والجلال وجعله شفيعهم مع أمته والناس في شدائد الأهوال أين القرون الماضية والأجيال أين التبابعة والأقبال أين ملوك همدان أين أولو الأبلق الفرد أو غمدان أين أولو التيجان والأكاليل أين الصيد والبهاليل بل أين النمارذة وأكبرهم نمرود إبراهيم الخليل أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليم الذي منهم فرعون موسى الكليم أين ملك الهدنانية هدد بن بدد الكردي الذي لم يكن غدره بمفيد له ولا مجدي وقد أخبر الحق جلي جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غصبا وزعم المؤرخون أنه كان أيضا يملأ القلوب رعبا ويسوم أصحابه قتلا وصلبا مع الطمع في المال وعدم النظر في عقبي المال أين الفرس وملوكها وعدلها وعدولها أين دارا بن دارا بن بهمان أين اسكندر بن فلبيس اليوناني الذي غلبه وملك بلاده في ذلك الزمان وأطاعه جميع ملوك الأقاليم وقدر الله به امتحان الخلق ذلك تقدير العزيز العليم أين كسرى وقيصر غلبهما من الموت الأسد القسور بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عمر لما ظهرت الملة الحنيفة كما ظهرت الشمس وبدا القمر أين أولاد جفنة وملوك غسان أين مبادئ زياد وحسان أين هريم بن سنان أين الملاعب بالسنان أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان أين بنو عيد المدان أين أرباب العواصم أين قيس بن عاصم أين العرب العرباء الأمة الفاضلة والجماعة المناضلة أين أولو لباس والحفاظ وذوو الحمية والإحفاظ حيث الوفاء والعهد والحباء والرغد إلى علو الهمم والوفاء بالذمم والعطاء الجزل والضيف والنزل وهبة الأقاليم والبزل وإنها لا تدين عزا ولا تقاد ولا ترام أنفة ولا تقاد أين قريش المغرورون في الجاهلية بالحج اللقاح والشعب الرقاح أين الماضون من ملوك بني أمية ذوو الألسن الذلق والأوجه الطلق والحمية أين خلفاء بني العباس بن عبد المطلب الذين شرفهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب ذوو الشرف الشامخ والفخر الباذخ والخلافة السنوية الرضية والمملكة العامة المرضية بلغتنا والله وفاتهم ولم يبق ذكرهم وصفاتهم قبض ملك الموت أرواحهم قبضا ولم يترك حراكا ولا نبضا ومزق الدود لحومهم قردا ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا إلا ما كان من أجساد الأنبياء أفضل التسليم فإن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء تكلمت على هذا الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم وخرجت طرقة في كتابي العلم المشهور بعون العزيز الرحيم فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه كم وعظه الدهر وكم وصاه يخلط الحقيقة بالمحال والعاطل بالحال ولا توبة حتى يشيب الغراب ويألف الدم التراب فيا لهفي لبعث الدار وانقراض الجدار وأنت هامة ليل أو نهار وقاعد من عمرك على شفا جرف هار تقرأ العلم وتدعيه ولا تفهمه ولا تعيه فهو عليك لا لك فأولى لك ثم أولى لك أما أن ليل الغي أن تنجلي أحلاكه ولنظم البيهقي أن تنتثر أسلاكه وأن يستقطع الجاني جناه وبأسف على ما اقترفه وجناه وأن يلبس عهاده بتا ويطلق الدنيا بتا ويفر منها فرار الأسد ويتيقن أنه لا بد من مفارقة الروح الجسد نبهنا الله تعالى من سنات غفلتنا وحسن ما ساء من صناعتنا الذميمة وسلاتنا وجعل التقوى أحسن عددنا وأوثق آلتنا اللهم إليك المأب وبيدك المتاب قد واقعنا الخطايا وركبنا الإجرام رواحل ومطايا فتب علينا أجمعين وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين الطائعين وصلى الله على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة وعلى آله الطاهرين وأصحابه أهل الرضوان المنتخبين وسلام الله عليه وعليهم إلى يوم الدين انتهى وهو آخر كتابه النبراس في تاريخ بني العباس وذكرته بطوله لمناسبته قلت وقد سلكت هذا المنحى نظما في خطبة هذا الكتاب كما مر ولسان الدين رحمه الله تعالى كلام قريب من هذا سيأتي في نثره إن شاء الله تعالى

وأقول إني قد تذكرت هنا قول القائل

" نطوي سبوتا وأحادا وننشرها ... ونحن في الطي بين السبت والأحد "

" فعد ما شئت من سبت ومن أحد ... لا بد أن يدخل المطوي في العدد "

وقول آخر

" ألم تر أن الدهر يوم ليلة ... يكران من سبت عليك إلى سبت "

" فقل لجديد العيش لا بد من بلى ... وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت "

نبذة عن أعداء لسان الدين

وأعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة لم يقدر أحد أن يواجهه بما يندس معاليه أو يطمس معالمه فلما قلبت الأيام له ظهر مجننا وعاملته بمنعها بعد منحها ومنها أكثر أعداؤه في شأنه الكلام ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربة الإسلام بتنقص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام والقول بالحلول والإتحاد والإنخراط في سلك أهل الإلحاد وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوي وكلمات كدروا بها منه علمه الروي ولا يدين بها ويفوه إلا الضال الغوي والظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها بري وجنايه سامحه الله تعالى عن لبسها عري وكان الذي تولى كبر محنته وقتله تلميذه أبو عبد الله ابن زمرك الذي لم يزل مضمرًا لخلته فلقد وقفت على خط ابن لسان الدين على أنه تسبب في قتل لسان الدين أبيه وسيأتي الإلماع والإلمام بابن زمرك المذكور في تلامذة لسان الدين مع أنه أعني لسان الدين حلاه في الإحاطة أحسن الحلوى وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلا وقد سبق في كلام ولي الدين ابن خلدون أنه قدم على السلطان أبي العباس أحمد المريني في شأن الوزير ابن الخطيب وأخرج إلى مجلس الخاصة وامتحن والمجالس بالأعيان غاصة ولا حول ولا قوة إلا بالله ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعي العبيد القاضي أبو الحسن ابن الحسن النباهي فكم قبل يده ثم جاهره بعد انتقال الحال وجد في أمره مع ابن زمرك حتى قتل لسان الدين وانقضت دولته فسيحان من لا يتحول ملكه ولا يبيد وقد سبق فيما جلبناه من كلام ابن خلدون أن القاضي ابن الحسن قدم على السلطان عبد العزيز في شأن لسان الدين والانتقام منه بسبب تلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه بمقتضاها فأبى السلطان من ذلك وقال هلا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم وامتنع لذمته أن يخفره فلما أراد الله بنفوذ الأمر وعدم نفع زيد وعمرو توفي السلطان عبد العزيز واختلت الأحوال واضطربت بالمغرب نيران الأهوال فقدم في شأنه الوزير الكاتب ابن زمرك خادمه الذي رباه وصنيعته فكان ما كان مما سبق به الإلمام

وقد ذكرنا في الباب الأول قول لسان الدين رحمه الله تعالى في قصيدته النونية

" تلون إخواني علي وقد جنت ... علي خطوب جمعة ذات ألوان "

" وما كنت أدري قبل أن يتنكروا ... بأن خواني كان مجمع خواني "

" وكانت وقد حم القضاء صنائعي ... علي بما لا أرتضي شر أعوان "

ولقد صدق رحمه الله تعالى على أنه قال هذه القصيدة في النكبة الأولى التي انتقل فيها مع سلطانه إلى المغرب كما مر مفصلاً وكأنه عبر عن هذه المحنة الأخيرة التي ذهبت فيها نفسه

على يد صنائعه الكاتب ابن زمرك والقاضي ابن الحسن سامح الله الجميع

ويرحم الله أبا إسحاق التلمساني صاحب الرجز في الفرائض حيث يقول

" الغدر في الناس شيمة سلفت ... قد طال بين الورى تصرفها "

" ما كل من قد سرت له نعم ... منك يرى قدرها ويعرفها "

" بل ربما أعقب الجزاء بها ... مضرة عز عنك مصرفها "

" أما ترى الشمس كيف تعطف بالنور ... على البدر وهو يكسفها "

وقال لسان الدين بعد ذكره أن ملك النصارى دون جانجه بن دون الفنش استنصر على أبيه

بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ولاذ به ورهن عنده تاجه ذخيرة

النصارى ولقيه بصخرة عباد من أحواز رندة فسلم عليه ويقال إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك

طلب بلسان زناتة الماء ليغسل يده به من قبلة الفنش أو مصافحته ما نصه والشيء بالشيء يذكر

فأثبت حكاية اتفقت لي بسبب ذلك أستدعي بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها وهي أن

اليهودي الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفنش

المذكور وصل إلينا بغرناطة في بعض حوائجه ودخل إلي بدار سكتاي مجاور القصر السلطاني

بحمراء غرناطة وعندني القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة وبيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن وكان محمد هذا قد فر إلى صاحب قشتالة واستدعى من قبله إلى الملك فسهل له ذلك وشرط عليه ما شاء وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطرانه فقال لي مولاي السلطان دن بطره يسلم عليك ويقول لك انظر مخاطبة هذا الشخص وكان بالأمس كلبا من كلاب بابه حتى ترى خسارة الكرامة فيه فأخذت الكتاب من يده وقرأته وقلت له أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرك إليه إلا خلو بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب وبالأسود وبمن تغسل الأيدي منهم إذا قبلوها فتعلم من الكلب الذي تغسل اليد منه ومن لا وإن جد هذا الولد هو الذي قبل جدك يده واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد للحفيد وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه وأنت معرض إلى اللجأ إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به فقال أبو الحسن المستقضي يبكي ويقبل يدي ويصغني بولي الله وكذلك من حضرني وتوجه إلى المغرب رسولا فقص علي بني مرين خبر ما شاهدته مني وسمعه وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير جعل الله تعالى ذلك خالصا لوجهه انتهى

وقد أثنى لسان الدين في الإحاطة على القاضي ابن الحسن المذكور كما سيأتي وقال في ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصه ثم قدم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن وهو عين الأعيان بمالقة الخصوص يرسم التجلة والقيام بالعقد والحل فسدّد وقارب وحمل الكل وأحسن مصاحبة الخطبة والخطبة وأكرم المشيخة مع النزاهة ولم يقف في التآتي على غاية فاتفق على رجائه ولم يقف في عند غاية انتهى وحين أظلم الجو بينه وبين لسان الدين ذكره في الكتيبة الكامنة بما يباين ما سبق ولقيه بالجسسوس

ولم يقنعه ذلك حتى ألف فيه خلع الرسن في وصف القاضي ابن الحسن

كتاب من النباهي إلى لسان الدين

وقد وقفت بفاس المحروسة على كتاب مطول كتبه ابن الحسن للسان الدين بعد تحوله عن الأندلس ونص ما تعلق به الغرض هنا

فشرعتم في الشراء وتشبيد البناء وتركتم الاستعداد لهاذم اللذات هيهات هيهات تبون ما لا تسكنون وتدخرون ما لا تأكلون وتؤملون ما لا تدركون " أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة " النساء 78 فأين المهرب مما هو كائن ونحن إنما نتقلب في قدرة الطالب شرفتم أو غربتم الأيام تنقاضي الدين وتنادي بالنفس الفرارة إلى أين وإلى أين ونترك الكلام مع الناقد فيما ارتكبه من تركية نفسه وعد ما جليه من مناقبه ما عدا ما هدد به من حديد لسانه خشية اندراجه في نمط من قال فيه رسول الله " إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه " ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه ونرحمه على ما أبداه أو أهدها من العيوب التي نسبها لأخيه واستراح على قوله بها فيه ونذكره على طريقة نصيحة الدين بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول الله وهو قوله " أتدرون من المفلس " قالوا المفلس فينا من لا دراهم له ولا متاع فقال إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا فيعطى هذا حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار " ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت

عن النذير الصادق هو الذي حملني على نصحتكم ومراجعتكم في كثير من الأمور منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتا لغير شيء حصل بيدكم وضررتم أنفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنص الكتاب والسنة قبلكم والرضى بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل وقد قلت لكم غير مرة عن أطراسكم المسودة بما دعوتهم إليه من البدعة والتلاعب بالشريعة إن حقها التخريق والتحريق وإن من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم والله الشهيد بأني نصحتكم وما غششتكم وليس هذا القول وإن كان ثقيلًا عليكم بمخالف كل المخالفة لما ذنبتكم به من تقدم المواجهة بالملاطفة والمعاملة بالمكارمة فليست المداراة بقادحة في الدين بل هي محمودة في بعض الأحوال مستحسنة على ما بينه العلماء إذ هي مقاربة في الكلام أم مجاملة بأسباب الدنيا لصلاحها أو صلاح الدين وإنما المذموم المداهنة وهي بذل الدين لمجرد الدنيا والمصانعة به لتحصيلها ومن خالط للضرورة مثلكم وزايله بأخلاقه ونصحه مخاطبة ومكاتبة واستدل له بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله على صحة مقالته فقد سلم والحمد لله من مداهنته وقام لله تعالى بما يجب عليه في حَقِّكم من التحذير والإنكار مع الإشفاق والوجل

وأكثرتم في كتابكم من المن بما ذكرتم أنكم صنعتم وعلى تقدير الموافقة لكم ليتكم ما فعلتم
فسلمنا من المعرة وسلمتم وجل القائل سبحانه " قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى
والله غني حليم " البقرة 263 وقلما شاركتم أنتم في شيء إلا بأغراض حاصلة في يدكم ولأغراض
دنيوية خاصة بكم فالملام إذن في الحقيقة إنما هو متوجه إليكم وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم
وكلامكم من التندم على فراق محلكم والتعلل بأخبار قطركم وأهلكم فتناقض منكم وإن كنتم فيه
بغدركم

" أتبكي علي ليلي وأنت تركتها ... فكنت كأت غيه وهو طائع "

" وما كل ما منتك نفسك مخليا ... تلاقى ولا كل له أنت تابع "

" فلا تبكين في إثر شيء ندامة ... إذا نزعته من يدك النوازع "

وعلى أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم والخروج لا لضرورة غالبية عن أوطانكم من
الواجب بكل اعتبار عليكم سيما وقد مددتم إلى التمتع بغيرها عينيك ولو لم يكن بهذه الجزيرة
الغريدة من الفضيلة إلا ما خصت به من بركة الرباط ورحمة الجهاد لكفاها فخرا على ما يجاورها من
سائر البلاد قال رسول الله رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه وقال عليه الصلاة
والسلام الروحة يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها وعلى كل تقدير فإذا لم
يكن يا أخي فراركم من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكملة والاستغفار مع الانقطاع في أحد
المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع وهي طيبة أو مكة أو بيت المقدس فقد خسرتكم صفقة
رحلتكم وتبين أن لغير وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم اللهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة
الرجل الذي قتل مائة نفس وسأل أعلم أهل الأرض فأشار عليه بعد إجماع التوبة بمفارقة المواطن
التي ارتكب فيها الذنوب واكتسب بها العيوب فأمر آخر مع أن كلام العلماء في هذا الحديث معروف
ويقال لكم من الجواب الخاص بكم فعليكم إذا بترك القيل والقال وكسر حبرة الجدل والقتال وقصر ما
بقي من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال

ووقعت في مكتوبكم كلمات أوردتها النقد في قالب الاستهزاء والازدراء والجهالة بمقادير الأشياء
ومنها ربح صرصر وهو لغة القرآن وقاع قرقر وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد ثبت في الصحيح
في باب التغليظ فيمن لا يؤدي زكاة ماله قيل يا رسول الله والبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولا غنم
لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان

يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا تنطحه بفرونها وتطؤه بأظلافها الحديث الشهير
قال صاحب المعلم بطح لها بقاع قرقر أي ألقي على وجهه والقاع المستوي من الأرض والقرقر
كذلك هذا ما حضر الجواب وبقي في مكتوبكم حشو كثير من كلام إقذاع وفحش بعيد من والحياء
رأيت من الصواب الإعراض عن ذكره ووصون اليد عن الاستعمال فيه والظاهر أنه إنما صدر منكم وأنتم
بحال مرض فلا حرج فيه عليكم أنسأ الله تعالى أجلكم ومكن أمنكم وسكن وحلكم ومنه جل اسمه
نسأل لي ولكم حسن الخاتمة والفوز بالسعادة الدائمة والسلام الأتم يعتمدكم والرحمات والبركات
من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن وفقه الله وذلك بتاريخ أحيات جمادى الأولى من عام ثلاثة
وسبعين وسبعمائة

وقيد رحمه الله تعالى في مدرج طي هذا الكتاب ما نصه يا أخي أصلحني الله وإياكم بقي من
الحديث شيء من الصواب الخروج عنه لكم إذ هذا أوانه وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه
وليكون البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله وحاصله أنكم عددتم ما شاركتمكم فيه بحسب
الأوقات وقطعتم بنسبة المور كلها إلى أنفسكم وإنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنتكم من غير
مشارك في شيء منها لكم ثم منتتم بها المن القبيح المبطل لعمل بركم على تقدير التسليم في
فعله لكم ورميتم غيركم بالتقصير في حاله كله طريقة من يبصر القذى في عين أخيه ويدع الجذع
في عينه وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس تقلد كلفة قضاء الجماعة وما كان إلا أن
وليتها بقضاء الله وقدره فقد تبين لكل ذي عقل سليم أنه لا موجد إلا الله وأنه إذا كان كذلك كان
الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلا بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه من غير عاصد له على
تحصيل مراده ولا معين ولكنه جلت قدرته وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه وواعد فاعل الشر
بالعقاب عدلا منه وكأنني بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة وما أحوجكم إلى
تأملها بعين اليقين فكابدت أيام تلك الولاية النكدية من النكاية باستحقاقكم للقضايا الشرعية
وتهاونكم بالأمور الدينية ما يعظم الله به الأجر وذلك في جملة مسائل منها مسألة ابن الزبير
المقتول على الزندقة بعد تقضي موجباته على كره منكم ومنها مسألة ابن أبي العيش المثقف
في السجن على آرائه المضلة التي كان منها دخوله على زوجه إثر تطبيقه إياها بالثلاث وزعمه أن

رسول الله أمره مشافهة بالاستمتاع بها فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجها من الثقافة من غير مبالاة بأحد ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه المطالبة بدم قتييل وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين فما وسعني ولي الدم وسرحتم الفتى المطلوب على الفور إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه ولا يجمل بي ولا بكم ذكره والمسألة الأخرى أتمت توليتكم كبرها حتى جرى فيها القدر بما جرى به من الانفصال والحمد لله على كل حال وأما الرمي بكذا وكذا مما لا علم لنا بسببه ولا عذر لكم من الحق في التكلم به فشيء قلما يقع مثله من البهتان ممن كان يرجو لقاء ربه وكلامكم في المدح والهجو هو عندي من قبيل اللغو الذي نمر به كراما والحمد لله فكثروا أو قللوا من أي نوع شئتم أنتم وما ترضونه لنفسكم وما فهت لكم بما فهت الكلام إلا على جهة الإعلام لا على جهة الانفعال لما صدر أو يصدر من الأقوال والأفعال فمذهبي غير مذهبكم وعندى ما ليس عندكم

وكذلك رأيتم تكثر في مخاطباتكم من لفظ الرقية في معرض الإنكار لوجود نفعها والرمي بالمنقصة والحمق لمستعملها ولو كنتم قد نظرت في شيء من كتب السنة وسير الأمة المسلمة نظر مصدق لما وسعكم إنكار ما أنكرتم وكتبه بخط يدكم فهو قاذح كبير في عقيدة دينكم فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنها خطاب للنبي وأنه المراد بها هو وأحد

أتمه وفي أمهات الإسلام أن رسول الله كان إذا اشتكى رفاه جبريل فقال بسم الله يبريك من كل داء يشفيك ومن شر حاسد إذا حسد ومن شر كل ذي عين وفي الصحيح أيضا أن ناسا من أصحاب رسول الله كانوا في سفر فمروا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم فقالوا هل فيكم راق فإن سيد الحي لديغ أو مصاب فقال رجل من القوم نعم فأتاه فرقاها بفاتحة الكتاب فبرئ الرجل فأعطى قطيعا من غنم الحديث الشهير قال أهل العلم فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن وهو قول مالك وأحمد والشافعي وأبي ثور وجماعة من السلف وفيه جواز المقارضة وإن كان ضد ذلك أحسن وفي هذا القدر كفاية وما رقيت قط أحدا على الوجه الذي ذكرتم ولا استرقيت والحمد لله وما حملني على تبين ما بينته الآن لكم في المسألة إلا إرادة الخير التام لجهتكم والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم فإني أخاف عليكم من الإفصاح بالطنع في الشريعة ورمي علمائها بالمنقصة على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم منكر علم الجزينات القائل بعدم قدرة الرب جل اسمه على جميع الممكنات وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام قلما تجوز عليهم حفظهم الله المغالطات فتأسركم شهادة العدول التي لا مدفع لكم فيها وتقع الفضيحة والدين النصيحة أعادنا الله من درك الشقاء وشماتة الأعداء وجهد البلاء

وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجناب الرفيع جناب سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله وسلامه عليه فإنه نقل عنكم في هذا الباب أشياء منكورة يكبر في النفوس بها أنتم تعلمونها وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم بعدكم مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم لكانت الأمة المسلمة امتعاضا لدينها ودنياها قد برزت بهذه الجهات

لطلب الحق منكم فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول ما صدر عنكم من العيث في الأيثار والأموال وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار وكشف الأسرار واستعمال المكر والحيل والغدر في غالب الأحوال للشريف والمشروف والخديم والمخدوم ولو لم يكن في الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتم به لنفسكم من الانتسام بسوء العهد والتجاوز المحض وكفران النعم والركون إلى ما تحصل من الحطام الزائل إلا عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم أيده الله بنصره وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه وفي كثير من أهل قطره لكفاكم وصمة لا يغسل دنسها البحر ولا ينسى عارها الدهر فإنكم تركتموه أولا بالمغرب عند تلون الزمان وذهبتكم للكدية والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك وتخلصت له بعد الجهد بالأندلس فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء وضربتم وجوه رجاله بعضا ببعض حتى خلا لكم الجو وتمكن الأمر والنهي فهمزتم ولمزتم وجمعتم من المال ما جمعتم ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء مكرًا منكم فلما بلغتكم أرض الجبل انحرفتكم عن الجادة وهربتم بأنقالكتم الهروب الذي أنكره عليكم كل من بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر في العدوتين من مؤمن وكافر وير وفاجر فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم أو يثق بكم في قول أو فعل صالح أو طالح ولو كان قد بقي لكم من العقل ما تتفكرون به في كيفية التي ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة في المغرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت في الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمانة من التورط والتنشب في أشطان

الآمال ودسائس الشيطان ونعوذ بالله من شرور الأنفس وسيئات الأعمال
وأما قولكم عن فلان إنه كان حشرة في قلوب اللوز وإن فلانا كان برغوثا في تراب الخمول فكلام
سفساف يقال لكم من الجواب عليه وأنتم يا هذا أين كنتم منذ خمسين سنة مثلا خلق الله الخلق
لا استظهارا بهم

ولا استكتارا وأنشأهم كما قدر أحوالا واطوارا واستخلفهم في الأرض بعد أمة أمما وبعد عصر أعصارا
وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هملا وامرهم ونهاهم ليلوهم أيهم أحسن عملا " إن أكرمكم
عند الله أتقاكم " الحجرات 13 وبكل اعتبار فلا تعلم في نمط الطلبة تدريجا كان أسمح من تدرجكم
وببدأ من كذا فإنه كان كذا وأكثر أهل زمانه تحملا وتقللا في نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ
أبو الحسن ابن الجياب ولكنه حين علم رحمه الله تعالى من نشأتكم وحالتكم ما علم نبد
مصاهرتكم وصرف عليكم صداقكم وكذلك فعلت بنت جزبي زوج الرهصي معكم حسبا هو مشهور
في بلدكم وذكرتم أنكم ما زلتهم من أهل الغنى حيث نقرتم بذكر العرض وهو بفتح العين والراء
حطام الدنيا على ما حكى أبو عبيد وقال أبو زيد هو بسكون الراء المال الذي لا ذهب فيه ولا فضة
وأى مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقافة على ما كان قد تبقى عنده من مجبى
قرية مترايل ثم من العدد الذي برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور
من أصحابكم وأما الفلاحة التي أشرتم إليها فلا حق لكم فيها إذ هي في الحقيقة لبيت مال
المسلمين مع ما بيدكم على ما تقرر في الفقهيات والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ولو قبل من
أهل المعرفة بكم بعض ما لديكم من سقطاتكم في القول والقييل ولم يصرف إلى دفع معرفتها عنكم
وجه التأويل لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبي الخير بل أبي الشر الحادثة أيام خلافة الحكم
المسطورة في نوازل أبي الأصغ ابن سهل فاعلموا ذلك ولا تهملوا إشارتي عليكم قديما وحديثا
بلزوم وحضور الجماعات وفعل الخيرات والعمل على التخلص من " إن وعد الله حق فلا تغرنكم
الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " لقمان 33

وقلم في كتابكم أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد وقد أذهب الله عنا بركة الملة المحمدية
عيبه الجاهلية في التفاخر بالآباء ولكني أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم إن كانت الإشارة
إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أمائل قطره
قال القاضي أبو عبد الله ابن عسكر وقد ذكر في كتابه من سلفى فلان بن فلان ما نصه وبيته بيت
قضاء وعلم وجلالة لم يزالوا يرتون ذلك كابرا عن كابر استقصى جده المنصور ابن أبي عامر وقاله
غيره وغيره ويدي من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة
الأندلس وإلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد والمنة لله
وحده وإن كانت الإشارة للغير من الأصحاب في الوقت حفظهم الله فكل واحد منهم إذا نظر إليه
بعين الحق وجد أقرب منكم نسبا للخطط المعتمدة وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساويا
على فرض المسامحة لكم قال رسول الله المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره
حرام دمه وماله وعرضه

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول من كان يا فلان من قومكم في عمود نسبكم نبيها مشهورا أو كاتبها
قبلكم معروفا أو شاعرا مطبوعا أو رجلا نبيها مذكورا ولو كان بالوشي وكان لكان من الواجب الرجوع
إلى التناصف والتواصل والتواضع وترك التحاسد والتباغض والتقاطع إن الله لا ينظر إلى صوركم
وأبدانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وكذلك العجب كل العجب من تسميتكم الخربات التي
شرعتم في بنائها بدار السلامة وهيئات الهيئات المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء
ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار في الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها لأغناكم عن
العلم اليقين بمآلها

وأظهرتم سرورا كثيرا بما قلمتم إنكم نلتهم حيث أنتم من الشهوات التي
ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والخرق والفعود بإزاء جارية الماء على نطح الجلد والإمساك أولى
بالجواب على هذا الفصل فلا خفاء بما فيه من الخسة والخباث والخبث وبالجملة فسرور العاقل
إنما ينبغي أن يكون بما يجمل تقدمه من زاد التقوى للدار الباقية فما العيش كما قال رسول الله إلا
عيش الآخرة فقدموا إن قلمتم وصاة الحبيب أو البغيض بعضا عسى أن يكون لكم ولا تخلفوا كلا
يكون عليكم هذا الذي قلته لكم وإن كان لدى من يقف من نمطه الكثير فهو باعتبار المكان وما مر
من الزمان في حيز اليسير في نفسه قول حق وصدق ومستند أكثره كتاب الله وسنة محمد رسول
الله وعلى سائر أنبيائه فاحمدوا الله العلي العظيم على تذكيركم به إذ هو جار مجرى النصيحة
الصريحة يسرني الله وإياكم لليسرى وجعلنا ممن ذكر فانتفع بالذكرى والسلام انتهى كلام القاضي

ابن الحسن النباهي في كتابه الذي خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى
ظهير من إنشاء لسان الدين بتولية النباهي خطة القضاء

وأين هذا الكلام الذي صدر من ابن الحسن في حقه من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى في
تولي ابن الحسن المذكور القضاء وهو

هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه ودل على ما يرضي الله عز وجل التماسه وأطلع نور
العناية الذي يجلو الظلام نبراسه واعتمد بمثابة العدل من عرف بافتراع هضبتها ناسه وألقى بيد
المعتمد به زمام الاعتقاد الجميل تروق أنواعه وأجناسه وشيد مبنى العز الرفيع في قبة الحسب
المنيع وكيف لا والله بانيه والمجد أساسه أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه أمير المسلمين
أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر أيد الله أوامره وخلصه مفاخره لقاضي حضرته العليا وخطيب
حمرائه السنوية المخصوص لديه بترفيح المزية

المصروف إليه خطاب القضاة بإيادته النصرية قاضي الجماعة ومصرف الأحكام الشرعية المطاعة
الشيخ الكذا أبي الحسن ابن الشيخ الكذا أبي محمد ابن الحسن وصل الله سعادته وحرس
مجادته وسنى من فضله إرادته عصب منه جبين المجد بتاج الولاية وإجال فداح الاختيار حتى بلغ
الغاية وتجاوز النهاية ما ألقى منه بيمين عرابية الراية وأحله منه محل اللفظ من المعنى والإعجاز
من الآية وحشر إلى مدعاة ترفيعه وجوه البر وأعيان العناية وأنطق بتجليله ألسن أهل جيله بين
الإفصاح والكناية ولما كان له الحسب الأصيل الذي شهدت به ورقات الدواوين والأصالة التي قامت
عليها صحاح البراهين والآباء الذين اعتد بمضاء قضائهم الدين وطبق مفاصل الحكم بسيوفهم الحق
المبين وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين فمن فارس حكم أو حكيم تدبير وقاض في الأمور
الشرعية ووزير أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير تعدد ذلك وإطرد ووجد مشرع المجد
عذبا فورق وقصرت النظراء عن مداه فانفرد وفري الفري في يد الشرع فأشبهه السيف البرد وجاء في
أعقابهم محييا لما درس بما حقق ودرس جانبا لما بذر السلف المبارك واغترس طاهر النشأة
وقورها محمود السجية مشكورها متحليا بالسكينة حالا من النزاهة بالمكانة المكيئة ساحبا أذبال
الصون بعيدا عن الإتياف بالفساد من لدن الكون فخطبته الخطط العلية واغتبطت به المجادة الأولية
واستعملته دولته التي ترتاد أهل الفضائل للرتب واستظهرت على المناصب بأبناء التقى والحسب
والفضل والمجد والأدب ممن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب فكان معدودا من عدول
قضائهم وصدور نبهائهم وأعيان وزرائهم وأولي آرائهم فلما زان الله تعالى خلافته بالتمحيص المتحلي
من التخصيص وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز بعد التخليص كان ممن
صحب ركابه الطالب للحق بسيف الحق وسلك في مظاهرته أوضح الطرق وجادل من حاده بأمضى
من الحداد الذلق واشتهر خبر وفاته في الغرب والشرق وصلى به صلاة السفر والحضر والأمن
والحذر وخطب به في الأماكن التي بعد بذكر الله عهدا وخطب عنه أيده الله تعالى المخاطبات
التي حمد قصدها حتى استقل ملكه فوق سريره وابتهج منه الإسلام بأميره وابن أميره ونزل
الستر على العباد والبلاد ببركة إيلته ويمن تدبيره وكان الجليس المقرب المحل والحظي المشاور
في العقد والحل والرسول المؤتمن على الأسرار والأمين على الوظائف الكبار مزين المجلس
السلطاني بالوقار ومتحف الملك بغريب الأخبار وخطيب منبره العالي في الجمعيات وقارئ الحديث
لديه في المجتمعات

ثم رأى أيده الله تعالى أن يشرك رعيته في نفعه ويصرف عوامل الخطوة على مزيد رفعه مجلس
الشارع صلوات الله عليه لإيضاح شرعه وأصله الوثيق وفرعه أعلى الله تعالى قدمه وشكر الآءه
ونعمه قاضيا في الأمور الشرعية وفاصلا في القضايا الدينية بحضرة غرناطة العلية تقديم الإختيار
والانتقاء وأبقى له فخر السلف على الخلف والله سبحانه يمتعه بطول البقاء فليتول ذلك عادلا في
الحكم مهتديا بنور العلم مسويا بين الخصوم حتى في لحظة والتفاته متصفا من الحلم بأفضل
صفاته مهيبا في الدين رؤوفا بالمؤمنين جزلا في الأحكام مجتهدا في الفصل بأمضى حسام مراقبا
لله عز وجل في النقص والإبرام

وأوصاه بالمشورة التي تقدر زناد التوفيق والتثبت حتى ينتج قياس التحقيق بارا بمشيخة أهل
التوثيق عادلا إلى سعة الأقوال عند المضيق سائرا من مشورة المذهب على الهدى طريق وصية
أصدرها له مصدر الذكرى التي تنفع ويعلي الله بها الدرجات ويرفع وإلا فهو عن الوصاة غني وقصده
قصد سني والله عز وجل ولي إعانته والحارس من التبعات أكناف ديانته
والكفيل بحفظه من الشبهات وصيانته

وأمر أيده الله تعالى أن ينظر في الأحباس على اختلافها والأوقاف على شتى أصنافها واليتامى

التي انسدت كفالة القضاة على إضعافها فيذود عنها طوارق الخلل ويجري أمورها بما يتكفل لها بالأمل وليعلم أن الله عز وجل يراه وأن فليات الحكم تعاوده المراجعة في أخراه فيدرج جنة تقواه " وسبحان من يقول " إن الهدى هدى الله فعلى من يقف عليه أن يعرف أمر هذا الإجلال صائنا منصبه من الإخلال مبادرا أمره الواجب بالامتثال بحول الله وكتب في الثالث من شهر الله المحرم فاتح عام أربعة وستين وسبعمئة عرف الله سبحانه فيه هذا المقام العي عوارف النصر المبين والفتح القريب بمنه وكرمه فهو المستعان لا رب غيره انتهى

ظهير من إنشائه بتولية ابن زمرك كتابه السر

ونظير هذا ما أنشأه لسان الدين على لسان سلطانه للكاتب أبي عبد الله ابن زمرك حين تولى كتابه السر ونصه

هذا ظهير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه وأفرد له متلو العز وجمعه وأوتره وشفعه وقربه في بساط الملك تقريبا فتح له باب السعادة وشرعه وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه ورعى له وسيلة السابقة عند استخلاص الملك لما ابتزه الله من يد الغاصب وانتزعه وحسبك من زمام لا يحتاج إلى شيء معه أمر به أمير الله تعالى له وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم وأقطعه جناب الإنعام الجسيم وأنشقه أراج الحظوة عاطرة النسيم ونقله من كرسي التدريس والتعليم إلى

مرقى التنويه والتكريم والرتبة التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم وجعل أقلامه جيادا لإجالة أمره العلي وخطابه السني في ميدان الأقاليم ووضع في يده أمانة القلم الأعلى جاريا من الطريقة المثلى على المنهج القويم واختصه بمزية على كتاب بابه والتقديم لما كان ناهض الفكر في طلبه حضرته زمن ولم تزل تظهر عليه لأولي التمييز مخايل هذه العناية فإن حضر في حلق العلم جلي في حلبة الحفاظ إلى الغاية وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة والمخاطبات المنقولة فاشتهر في بلده وغير بلده وصارت أزمة العناية طوع يده بما أوجب له المزية في يومه وغده

وحين رد الله عليه ملكه الذي جبر به جناح الإسلام وزين وجوه الليالي والأيام وأدال الضياء من الإظلام كان ممن وسمه الوفاء وشهره وعجم الملك عود خلوصه وخبره فحمد أثره وشكر ظاهره ومضمره واستصحب على ركابه الذي صحب اليمن سفره وأخلصت الحقيقة نوره وكفل الله ورده وصدره ميمون النقية حسن الضريبة صادقا في الأحوال المرية ناطقا عن مقامه بالمخاطبات العجيبة واصلا إلى المعاني البعيدة بالعبارة القريبة مبرزا في الخدم الغربية حتى استقام العماد ونطق بصدق الطاعة الحي والجماد ودخلت في دين الله أفواجا العباد والبلاد لله الحمد على نعمه الثرة العهاد وآلائه المتواليه الترداد رعى له أيده الله هذه الوسائل وهو أحق من يرعاها وشكر له الخدم المشكور مسعاها فنص عليه الرتبة الشماء التي خطبها بوفائه وألبسه أثواب اعتنائه وفسح له مجال آلائه وقدمه أعلى الله قدمه كاتب السر وأمين النهي والأمر تقديم الاختيار بعد الاختبار والاعتباط بخدمته الحسنة الآثار وتيمن باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار وغير ذلك من موجبات الإكبار

فليتول ذلك عارفا بمقداره مقتفيا لأثاره مستعينا بالكنم لأسراره والاضطلاع بما يحمد من أمانته وعفاؤه ووقاره معطيا هذا الرسم حقه من الرياسة عارفا بأنه أكبر أركان السياسة حتى يتأكد الاغتباط بتقريبه وإدناؤه وتتوفر أسباب الزيادة في إعلائه وهو إن شاء الله غني عن الوصاة فهما ثاقبا يهتدي بضيائه وهو يعمل في ذلك أقصى العمل المتكفل ببلوغ الأمل وعلى من يقف عليه من حملة الأقلام والكتاب الأعلام وغيرهم من الكافة والخدام أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام والتقديم الراسخ الأقدام ويوجبوا ما أوجب من البر والإكرام والإجلال والإعظام بحول الله وكتب في كذا انتهى

فانظر صانني الله وإياك من الأغيار وكفانا شر من كفر الصنيعة التي هي على النقص عنوان ومعيار إلى حال الوزير لسان الدين ابن الخطيب مع هذين الرجلين القاضي ابن الحسن والوزير ابن زمرك اللذين تسببا في هلاكه حتى صار أثرا بعد عين مع تنويهه بهما في هذا الإنشاء وغيره وتفبيهما كما هو معلوم ظلال خيره فقابلاه بالغدور وأظهره عند الإمكان حقد القلب وغل الصدر وسددا لقتله سهاما وقسيا وصيرا سبيل الوفاء نسيا منسيا ولا حول ولا قوة إلا بالله

ظهير ثالث بإضافة الخطابة إلى القضاء للنباهي

ومن إنشاء لسان الدين في حق القاضي ابن الحسن أيضا حيث أضيفت إليه الخطابة إلى القضاء على لسان سلطانه

هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء واختيارا واختبارا وأظهر معاني الكرامة والتخصيص انتقاء واصطفاء وإيثارا ورفع لواء الجلالة على من اشتمل عليه حقيقة واعتبارا ورقى في درجات العز من طاولها على بحر أنوارا ودينا

كرم في الصالحات آثارا وزكا في الأصالة نجارا وخلصا إلى هذا المقام العلي السعيد الذي راق إظهارا وإضمارا أمر به وأمضاه وأنفذ حكمه ومقتضاه أمير المسلمين عبد الله محمد إلى آخره للشيخ الكذا القاضي العدل الأرضي قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية المخصوص لدى المقام العلي بالحظوة السننية والمكانة الحفية الموقر الفاضل الحافل الكامل المبرور أبي الحسن ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأعز الماجد الأسنى المرفع الأحفل الأصلاح المبارك الأكمل الموقر المبرور المرحوم أبي محمد ابن الحسن وصل الله عزته ووالى رفعتة ومبرته ووهب له من صلة العناية الربانية أمله وبغيته لما أصبح في صدور القضاة العلماء مشارا إلى جلاله مستندا إلى معرفته المخصوصة بكماله مطرزا على الإفادة العلمية والأدبية بمحاسنه البديعة وخصاله محفوقا مقعد الحكم النبوي ببركة عدالته وفضل خلالته وحل في هذه الحضرة العلية المحل الذي لا يرقاه إلا عين الأعيان ولا يتوي مهاده إلا مثله من أبناء المجد الثابت الأركان ومؤملي العلم الواضح البرهان والمبرزين بالمآثر العلية في الحسن والإحسان وتصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان والأنظار الحسنة الأثر والعيان والمقاصد التي وقت بالغاية التي لا تستطاع في هذا الميدان فكم من قضية جلا بمعارفه مشكلها ونازلة مبهمة فتح بإدراكه مقفلها ومسألة عرف نكرتها وقرر مهملها حتى قرت بعدالته وجزالته العيون وصدقت فيه الآمال الناجحة والظنون وكان في تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير والخيرة ما عسى أن يكون كان أحق بالتشفيق لولايته وأولى وأجدر بمضاعفة النعم التي لا تزال تترادف على قدره الأعلى فلذلك أصدر له أيده الله هذا الظهير الكريم مشيدا بالترفيغ والتنويه ومؤكدا للإحتفاء الوجيه وقدمه أعلى الله قدمه وشكر نعمه خطيبا بالجامع الأعظم من حضرته مضافا ذلك إلى ولايته ورفيع منزلته مرافقا لمن بالجامع الأعظم عمره الله بذكره من عليية الخطباء وكبار العلماء وخيار النبهاء الصلحاء فليتناول ذلك في جمعانته مظهرها في الخطة أثر بركاته وحسناته عاملا على ما يقربه عند الله من مرضاته ويظفره بجزيل مثوباته بحول الله وقوته انتهى

فهذا ثناء لسان الدين المرحوم على القاضي ابن الحسن وإشادته بذكره وإيثارته وتديبره ولي قضاء القضاة وخطابة الجامع الأعظم بغرناطة وهذان المنصبان لم يكن في الأندلس في ذلك الزمان من المناصب الدينية أجل منهما ولما حصل للسان الدين رحمه الله تعالى ما حصل من النفرة عن الأندلس وإعمال الحيلة في الإنفصال عنها لعلمه أن سعايات ابن زمرك وابن الحسن ومن بعضهما تمكنت فيه عند سلطانه خلص منها على الوجه الذي قدمناه وشمر القاضي ابن الحسن عن ساعد أديته والتسجيل عليه بما يوجب الزندقة كما سبق جميعه مفصلا فحينئذ أطلق لسان الدين عنان قلمه في سب المذكور وثلبه وأورد في كتابه الكتبية الكامنة في أبناء المائة الثامنة من مثالبه ما أنسى ما سطره صاحب القلائد في ابن باجة المعروف بابن الصائغ حسبما نقلنا ذلك أعني كلام الفتح في غير هذا الموضوع ولم يقتنع بذلك حتى ألف الكتاب الذي سماه بخلع الرسن كما ألمعنا به فيما سبق والله سبحانه يتجاوز عن الجميع بمنه وكرمه

نماذج من براعة لسان الدين في القدح

واعلم أن لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية في المدح والقدح فتارة على طريق الترسل وطورا على غيرها وقد اقذع وبالغ رحمه الله تعالى في هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال وهو اشد من وقع النبال ومنه ما وصف به الوزير الذي كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر النائب على سلطان ابن الخطيب حسبما سبق الإمام بذلك والوزير هو إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوي إذ قال في المذكور وفي ابن عمه محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح العقرب الردي بعد كلام ما صورته

وما ظنك برجل مجهول الجد موصوم الأبوة إلى أن قال تنور خبز وبركة مرقة وثعبان حلواء وفاكهة مغفي في شح النفس متهالك في مسترذل الطبع عليه العذبوط الغبي ابن عمه بسداجة زعموا مع كونه قبيح الشكل بشيع الطلعة إلى أن قال وفي العشر الأول من رمضان عام واحد وستين وسبعمائة تقبض على الوزير المشؤوم وابن عمه الغوي العشوم وولد الغوي مرسل الظفيرة أبعد الناس في مهوى الاغترار يختال في السرقة والحيلة سم من سم القوارير وابتلاء من الله لذوي الغيرة يروح نشوان العشيات يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف يعاقرون النيبذ في السكك الغاصة وولد العقرب الردي بضده قماءة وتقطبا تنبو عنهما العيون ويكي منهما الخز كأنهما

صمتا عند المحاورة وإظلاما عند اللألاء من أدلاء بني النضير ومهتضمي خبير فثقفا مليا وبودر بهما إلى ساحل المنكب
قال المخبر فما رأيت منكوبين أقيح شكلا ولا أفقد صبرا من ذينك التيسين الحبقين صلح الرؤوس
ضخام الكروش مبهوري الأنفاس متلجلجي الألسنة قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منهما
شحمة أترجية كأنها سنام الحوار لا يثيرون دمعا ولا يستنزلون رحمة ولا يمهدون عذرا ولا يتزودون
من كتاب الله آية قد طبع الله على قلوبهم وأخذهم بغيهم وعجل لهم سوء سعيهم وللحين
أركبهم وجراءهم يعني أولادهم في جفن عزوي تحف بهم المساعير من الرجال واقتفى بهم أثر
قرقورة تحمل حاجا إلى الإسكندرية تورية بالقصد فلما لججوا قذف بهم في لجة بعد استخلاص
ما ضبثوا به وتلك الأصلع الغوي فأثبت بجراحة أشعر بها هديه واختلط العقرب الردي فنال من جناب
الله سخطا وضيقا تعالى الله عن نكيره فكان فرعون هذا الزمان جبروتا وعتوا وميته عجل الله لهم
العذاب وأغرقهم في اليم
فانظر كيف كان عاقبة الظالمين فسبحان من لا تضيع الحقوق مع عدله ولا تنفسخ الآماد منازعة
رداء كبريائه مرغم الأنوف وقاطع دابر الكافرين وفي ذلك أقول مستريحا وإن لم يكن علم الله تعالى
شاني ولا تكرر في ديواني

" وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ... ولكن من يبصر جفونك يعشق "

ومن أمثالهم من استغضب فلم يغضب فهو حمار والله سبحانه يقول ومن أصدق من الله قيلا "
وجزاء سيئة سيئة مثلها " الشورى 40 والعفو أقرب للتقوى والقرب والبعد بيده سبحانه وصدرت
هذه الكلمة لحين تعرف إجلائهم في الجفن إلى الإسكندرية وبعد ذلك صح هلاكهم

" كن من صروف الردى على حذر ... لا يقبل الدهر عذر معتذر "

" ولا تعول فيه على دعة ... فأنت في قلعة وفي سفر "

" فكل ري يفضي إلى ظميا ... وكل أمن يدعو إلى غير "

" كم شامخ الأنف ينثني فرحا ... بال عليه زمانه وخري "

" قل للوزير البليد قد ركضت ... في ربك اليوم غارة الغير "

" يا ابن أبي الفتح نسبة عكست ... فلا بفتح أتت ولا ظفر "

" وزارة لم يجد مقلدها ... عن شؤمها في الوجود من وزر "

" في طالع النحس حزت رتبته ... وكل شيء في قبضة القدر "

" أي اختبار لم تأل نصبته ... في جسد للنحوس أو نظر "

" بات له المشتري على غير ... وأحرق في قرصة القمر "

" يا طللا ما عليه من عمل ... يا شجرا ما لديه من ثمر "

" يا مغرط الجهل والغباوة لا ... يحسب إلا من جملة البقر "

" يا دائم الحقد والفظاظة لا ... يفرق ما بين ظالم وبري "

" يا كمد اللون ينطفئ كمد ... من حسد يستطير بالشر "

" يا عدل سرح يا دن مقتعد ... ملآن من ريبة ومن قدر "

" يا واصلا للجشاء ناشئة الليل ... ورب الضراط في السحر "

" من غير لب ولا مراقبة ... لله في مورد ولا صدر "

" يا خاملا جاهه الفروج برى ... صهر أولي الجاه فخر مفتخر "

" كانوا نبيطا في الأصل أو حبشا ... ما عنده عبرة بمعتبر "

" يا ناقص الدين والمروءة والعقل ... ومجري اللسان بالهذر "

" يا ولد السحق غير مكتتم ... حديثه يا ابن فاسد الدبر "

" يا بعل طاحونة يدور بها ... مجتهد السير مغمض البصر "

" في أشهر عشرة طحتهم ... فيا رحي الشؤم والبوار در "

" والله ما كنت يا مشوم ولا ... أنت سوى عرة من العرر "

" ومن أبو الفتح في الكلاب وهل ... لجاهل في الأنام من خطر "

" قد ستر الدهر منك عورته ... وكان لليوم غير مستتر "

" حانوت بز يمشي على فرش ... وثور عرس يختال في حبر "

" لا منة تتقى لمعتك ... ولا لسان يبين عن خبر "

" ولا يد تنتمي إلى كرم ... ولا صفاء يريح من كدر "

" عهدي بذاك الجبين قد ملئت ... غصونه الغبر بالدم الهدر "

" عهدِي بذاك القفا الغليظ وقد ... مد لوقع المهند الذكر "
 " أهدتك للبحر كف منتقم ... أقتك للحوت كف مقتدر "
 " يا يتم أولادك الصغار ويا ... حيرتهم بعد ذاك في الكبر "
 " يا تكل تلك الصماء أمهم ... وظاعن الموت غير منتظر "
 " والله لا نال من تخلفه ... من أمل بعدها ولا وطر "
 " والله يا مسخفان لا انتقلت ... رحلك منها إلا إلى سفر "
 " ألحفك الله بالهوان ولا ... رعاك فيمن تركت من عرر "
 " ما عوقب الليل بالصباح وما ... تقدم البرق عارض المطر "
 انتهى وقال موربا بدم الأخوين في شأن سلطان تلك الدولة الذي أضحى أثرا بعد عين
 " ياسماعيل ثم أخيه قيس ... تأذن ليل همي بانبلج "
 " دم الأخوين داوى جرح قلبي ... وعالجني وحسبك من علاج "
 وهذه تورية بديعة لأن الأطباء يقولون إن من خاصية دم الأخوين النفع من الجراح
 وقال رحمه الله تعالى قلت في رأس الغادر بالدولة حين عرض علي
 " في غير حفظ الله من هامة ... هام بها الشيطان في كل واد "
 " ما تركت حمدا ولا رحمة ... في فم إنسان ولا في فؤاد "
 وقال أيضا في تلك الدولة بعد كلام ما نصه

وانتدب قاضيهم الشيخ المتراخي الدبر والفك المنحل العصب والعقدة
 المعرق في العمومية المشهور بقبول الرشوة أبو فلان ابن فلان الغريب الاسم والولاية ومفتيهم
 معدن الرياء والهواذة والبعد عن التخصص والحشمة والمثل في العماة والطرف في التهالك في
 الحطام فلان البناء المسخر في بناء الحفيرة المستخدم في دار ابنه أجيرا مختضا بالطين مضايقا
 في رمق العيشة وحسبك به دليلا على الحياء وفضل البنوة فلفقوا من خيوط العناكب شبها
 تقلدوا بها حل العقد الموتى ديدنهم في معارضة صلب الملة بالأراء الخبيثة يتحكم الوقاح منهم في
 الحكم الذي نزل به شديد القوى على الذي لا ينطق عن الهوى بحسب شهوته تحكمه في غزل
 أمه إثارا للعاجل واسترابة بالوعيد ففسخوا النكاح وحللو محرم البضع للدائل وقد تأذن الله بفسخه
 وأجرى دمه نقدا قبل دفع فقده سبحانه حكم الحكام وقاهر الظلام وباء مشيخة السوء بلعنة الله
 وسوء الأحداث ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا انتهى
 ومن كلامه في نفاضة الجراب وقد ذكر وزير المغرب محمد بن علي ابن مسعود ما ملخصه وإنه
 مجنون أحول العين وحش النظرة يظن به الغضب في حال الرضى يهيج به المرار فيكمز زمانا خلف
 كلة مرقده يدخل إليه وعاء الحاجتين خوفا من إصهاره إلى فضاء منزله وتوحشه من أهله وولده
 إلى أن تضعف سورة المرة فيخف أمره قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة وتوفر داعية الغبطة
 لحلف جره الوسواس السوداوي نستدفع بالله شر بلائه فاستعان مستوزره منه برأي الفضل بن
 سهل ويحيى بن خالد وأمثالهما تدارك الله رمق الإسلام بلطفه انتهى

في عتاب ابن أبي رمانة

ولما دخل لسان الدين رحمه الله تعالى مدينة مكناسة الزيتون تأخر قاضيها الشيخ الفقيه أبو عبد
 الله محمد بن علي بن أبي رمانة عن لقائه يوم وصوله
 فكتب إليه ما نصه

" جفا ابن أبي رمانة وجه مقدمي ... ونكب عني معرضا وتحاماني "
 " وحجب عني حبه غير جاهل ... بأني ضيف والمبرة من شاني "
 " ولكن رأني مغربيا محققا ... وأن طعامي لم يكن حب رمان "

زيارة القاضي أصلحه الله لمتلي ممن لا يخافه ولا يرجوه تجب من وجوه أولها كوني ضيفا ممن لا
 يعد على الاختبار زيفا ولا تجر مؤانسته حيفا فضلا عن أن تشرع رمحا أو تسل سيفا وثانيها أنني
 أمت إليه من الطلب بنسب بين موروث ومكتسب وقاعدة الفضل قد قررها الحق وأصلها والرحم كما
 علم تدعو لمن وصلها وثالثها المبدأ في هذا الغرض ولكن الواو لا ترتب إلا بالعرض وهو اقتفاء سنن
 المولى أيده الله في تانيسي ووصفه إياي بمقربي وجليسي ورابعها وهو عدة كيسي وهزبر
 خيسي وقافية تجنيسي ومقام تلويني وتليبيسي مودة رئيس هذا الصنف العلمي ورئيسي فليت
 شعري ما الذي عارض هذه الأصول الأربعة ورجح مذاهبها المتبعة إلا أن يكون عمل أهل المدينة
 ينافيها فهذا بحسب النفس ويكفيها وإن تعذر لقاء أو استدعاء وعدم طعام أو وعاء ولم يقع نكاح ولا
 استرعاء فلم يتعذر عذر يقتضيه الكرم والمنصب المحترم فالجلة إلى التماس الحمد ذات استباق

والعرف بين الله والناس باق والغيرة على لسان مثله مفروضة والأعمال معروضة والله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة وإن كان لدى القاضي في ذلك عذر فليغده وأولى الأعذار به أنه لم يقصده والسلام انتهى

ويعني بالمولى السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني وبرئيس هذا الصنف العلامة الخطيب أبا عبد الله ابن مرزوق رحم الله الجميع

رسالته إلى ابن مرزوق ينصحه برفض الدنيا

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى رسالة في أحوال خدمة الدولة ومصائبهم وتنبههم على النظر في عواقب الرياسة بعيون بصائرهم عبر فيها عن ذوق ووجدان وليس الخبر كالعيان وخاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق وكأنه أعني لسان الدين أشار ببعض فصولها إلى نفسه ونطق بالغيب في نكته التي قادته إلى رمسه وكان ذلك منه عندما أراد التخلي عن خدمة الملوك والتحلي بزينة أهل التصوف والسلوك فلم يرد الله أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة وأراد سامحه الله وغفر له عمرا وأراد الله خارجه وصورة ما قاله رحمه الله تعالى

وأحسست منه يعني ابن مرزوق في بعض كتبه الواردة إلي صاغية إلي الدنيا وحينما لما بلاه من غرورها فحملني الطور الذي ارتكبته في هذه الأيام بتوفيق الله على أن أخاطبه بهذه الرسالة وحققها أن يجعلها خدمة الملوك ممن ينسب إلى نبل ويلم بمعرفة مصحفا يدرسه وشعارا يلتزمه وهي

سيدي الذي يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافاة ولم تختلف في مدحها الأفعال ولا تغيرت الصفات ولا تزال تعترف بها العظام الرفات أطلقك الله من أسر كل الكون كما أطلقك من أسر بعضه وزهدك في سمائه الغانية وفي أرضه وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يحملك على رفضه اتصل بي الخبر السار من تركك لشأنك وإجاء الله تعالى إياك ثمرة إحسانك وإنجاب ظلام الشدة الحالك عني أفق حالك فكبرت وفي الفرج من بعد الشدة اعتبرت لا بسوى ذلك من رضى مخلوق يؤمر فيأتمر ويدعوه القضاء فيبتدر إنما هو فيء وظل ليس له من الأمر شيء ونسأله جل وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا

وبنيها وأول معارج نفسك التي تقربها من الحق وتدينها وكأنني والله أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك ومضادتها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطبعك وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله تعالى في عالم الإنسان والآلة لبث العدل والإحسان والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان فأقول لبث شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا ونفرض المثال بحال إقبالها ووصل حبالها وخشوع جبالها وضراعة سبالها أتوقع المكروه صباحا ومساء وارتقاب الحوالة التي تدل من النعيم البأساء ولزوم المنافسة التي تعادي الأشراف والرؤساء الترتب العتب على التقصير في الكتب وضعينة جار الجنب وولوع الصديق بإحصاء الذنب النسبة وفائع الدولة إليك وأنت بري وتطويقك المويقات وأنت منها عري الاستهدافك للمضار التي تنتجها غيرة الفروج والأحقاد التي تضبطها ركية السروج وسرحة المروج ونجوم السماء ذات البروج أتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك وصحت إليه فاقتك من حاجة لا يقتضي قضاءها الوجود ولا يكفيها الركوع للملك والسجود أقطع الزمان بين سلطان يعبد وسهام للغيوب تكبد وعجاجة شر تلبد وأقبوحة تخلد وتؤبد الوزير يصانع وبيداري وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان وبماري وعورة لا توارى المباركة كل قرن حاسد وعدو مستاسد وسوق للإنصاف والشفقة كاسد وحال فاسد الوفود تتزاحم بسدتك مكلفة لك غير ما في طوقك فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك أجلساء ببابك لا يقطعون زمان رجوعك وإيابك إلا بقبوح اغتياك بالتصرفات تمقت والقواطع توقت والألاقي تبت والسعاليات تحت والمساجد يشتكى في حلقها البث يعتقدون أن السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور واليتيم المحجور والأسير المأمور ليس له شهوة ولا غضب ولا أمل في الملك ولا أرب ولا موجدة لأحد كامنه وللشر ضامنة وليس في نفسه عن رأي نفرة ولا بإزاء ما لا يقبله نزوة ولا طفرة إنما هو جارحة لصيدك وعان في قيدك وآلة لتصرف كيدك وأنك علة حيفه ومسلط سيفه

الشرار يسملون عيون الناس باسمك ثم يمزقون بالغيبة مرق جسمك قد تنخلهم الوجود أخت ما فيه واختارهم السفية بالسفيه إذ الخير يستره الله تعالى عن الدول ويخفيه ويقنعه بالقليل فيكفيه فهم يمتاحون بك وبولونك الملامة ويفتحون عليك القول ويسدون طرق السلامة وليس لك في أثناء هذه إلا ما يعوزك مع ارتفاعه ولا يفوتك مع انقشاعه وذهاب صداعه من غداء يشبع وثوب يقنع

وفراش بنيم وخديم يقعد ويقيم وما الفائدة في فرش تحتها جمر الغضا ومال من ورائه سوء القضا
وجاه يحلق عليه سيف منتضى وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك واللجاج حول المسقط
الذي تعلم أنها فيه تهلك فكيف تنسب إلى نبل أو تسير من السعادة في سبل وإن وجدت في
القعود بمجلس التحية بعض الأريحية فليت شعري أي شيء زادها أو معنى أفادها إلا مباركة وجه
الحاسد وذو القلب الفاسد ومواجهة العدو المستاسد أو شعرت ببعض الإيناس في الركوب بين
الناس ما التذت إلا يحلم أو جذبها غير الغرور جاذب إنما راكبك من يحدق إلى الحلية ويستطيل مدة
العزة ويرتاب إذا حدثت بخبرك ويتتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ويمنعك من مسaire أنيسك
ويحتال على فراغ كيسك ويضمّر الشر لك ولرئيسك وأي راحة لمن لا يباشر قصده ويمشي إذا شاء
وحده

ولو صح في هذه الحال لله تعالى حظ وهبه زهيدا وعين الرشيد عملا حميدا لساغ الصاب وخفت
الأوصاب وسهل المصاب لكن الوقت أشغل والفكر أوغل والزمن قد عمرته الحصص الوهمية
واستنفدت منه الكمية أما ليله ففكر أو نوم وعتب بجزاء الضرائر ولوم وأما يومه فتدبير
وقبيل ودبير وأمور يعيا بها ثبير وبلاء مبير ولغظ لا يدخل فيه حكم كبير وأنا بمثل ذلك خبير ووالله يا
سيدي ومن فلق الحب وأخرج الأب وذرا من مشي ومن دب وسمى نفسه الرب لو تعلق المال
الذي يجره هذا القدر ويوري سقيطه هذا القدر بأذيال الكواكب وزاحمت البدر بدرة بالمناكب لما
ورثه عقب ولا خلص به محتقب ولا فاز به سافر ولا منتقب والشاهد الدول والمشائيم الأول
فأين الرباع المقتناة وأين الديار المبتناة وأين الحوائط المغترسات وأين الذخائر المختلسات وأين
الودائع المؤملة وأين الأمانات المحملة تأذن الله بتببيرها وإدناء نار التبار من دنانيرها فقلما تلقى
أعقابهم إلا أعراء الظهور مترمقين لجرايات الشهور متعللين بالهواء المنثور يطردون من الأبواب التي
حجب عنها أبأؤهم وعرف منها إياؤهم وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم ولم تسامحهم الأيام
إلا في إرث محرر أو حلال مقرر وربما محقه الحرام وتعذر منه المرام
هذه أعزك الله حال قبولها مع الترفيه ومالها المرغوب فيه وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز
مستوفيه وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم وحوث بغى يبتلع ويلتقم ومطبق يحجب الهواء ويبطل
في الترب الثواء وثعبان قيد بعض الساق وشؤبوب عذاب يمزق الأبخار الرقاق وغيلة يهديها الواقب
الغاسق ويجرعها العدو الفاسق فصرف السوق وسلعته المعنادة الطروق مع الأفول والشروق فهل
في شيء من هذا مغتبط لنفس حرة أو ما يساوي جرعة حال مرة واحسرتنا للأحلام ضلت وللأقدام
زلت وبأ لها مصيبة جلت

ولسيدي أن يقول حكمت باستئصال الموعظة واستجفائها ومراودة الدنيا بين خلانها وأكفائها
وتناسي عدم وفائها فأقول الطيب بالعلل أدري والشفيق بسوء الظن مغرى وكيف لا وأنا أقف على
السعيات بخط يد سيدي

من مطارح الاعتقال ومثاقف النوب الثقال وخلوات الاستعداد للقاء الخطوب الشداد ونوشى الأسنه
الحداد وحيث يجمل بمثله أن لا يصرف في غير الخضوع لله تعالى بنانا ولا يثني لمخلوق عنانا
وأتعرف أنها قد ملأت الجو والدو وقصدت الجماد والبو تقتحم أكف أولي الشمام وحفظة المذمات
وأعوان النوب الملمات زيادة في الشقاء وقصدا برها من الاختيار والانتقاء مشتملة من التجاوز على
أغرب من العنقاء ومن النفاق على أشهر من البلقاء فهذا يوصف بالإمامة وهذا يجعل من أهل
الكرامة وهذا يكلف الدعاء وليس من أهله وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله إلى ما
أحفظني والله من البحث عن السموم وكتب النجوم والمذموم من العلوم هلا كان من ينظر في ذلك
قد قوطع بتاتا وأعتقد أن الله قد جعل لزمان الخير والشر ميقاتا وأنا لا نملك موتا ولا نشورا ولا حياتا
وأن اللوح قد حصر الأشياء محوا وإثباتا فكيف نرجو لما منع منالا أو نستطيع مما قدر إفلانا أفيدونا ما
يرجح العقيدة المتقررة فتتحول إليه وبينوا لنا الحق ونعول عليه

الله يا سيدي في النفس المرشحة والذات المحلاة بالفضائل الموشحة والسلف الشهير الخير
والعمر المشرف على الرحلة بعد حث السير ودع الدنيا لبنيها فما أوكس حظوظهم وأخس لحوظهم
وأقل متاعهم وأعجل إسراعهم وأكثر عناءهم وأقصر آناءهم
" ما ثم إلا ما رأيت ... وربما تعيي السلامة "
" والناس إما جائر ... أوجائر يشكو ظلامه "
" وإذا أردت العز لا ... ترزأ بني الدنيا قلامه "
" والله ما احتقب الحريص ... سوى الذنوب أو الملامة "
" هل ثم شك في المعاد ... الحق أو يوم القيامة "

" قولوا لنا ما عندكم ... أهل الخطابة والإمامة "

وان رميت بأحجاري وأوجرت المر من أشجاري فوالله ما تلبست اليوم منها بشيء قديم ولا حديث ولا استأثرت بطيب فضلا عن خبيث وما أنا إلا عابر سبيل وهاجر مرعى وبيل ومرتقب وعدا قدر فيه الإنجاز وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز قد فررت من الدنيا كما يفر من الأسد وحاولت المقاطعة حتى بين روعي والجسد الله قلبي والله الحمد من الطمع والحسد أبق عادة إلا قطعها ولا جنة للصبر إلا ادعتها أما اللباس فالصوف وأما الزهد فيما بأيدي الخلق فمعروف وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف ووالله لو علمت أن حالي هذه تتصل وعراها لا تنفصل وأن ترتبي هذا يدوم ولا يحيرني الوعد المحتوم والوقت المعلوم لمت أسفا وحسبي الله وكفى ومع هذا يا سيدي فالموعظة تتلقى من لسان الوجود والحكمة ضالة المؤمن يطلبها بذل المجهود وبأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا المحمود ولقد أعملت نظري فيما يكافىء عني بعض يدك أو ينتهي في الفضل إلى أمدك فلم أر لك للدنيا كفاء هذا لو كنت صاحب دنيا وألغيت بذل النفس قليلا لك من غير شرط ولا تنيا فلما ألهمني الله لمخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة في قالب الجفاء لمن لا يثبت عين الصفاء ولا يشيم بارقة الوفاء ولا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلي من المتدنسين بها المنهمكين وينظر عوارها القادح بعين اليقين ويعلم أنها المومسة التي حسنها زور وعاشقها مغرور وسرورها شرور تبين لي أنني قد كافيت صنيعتك المتقدمة وخرجت عن عهدتك الملتمزمة وامحضت لك النصح الذي يعز الله ذاتك ويطيب حياتك ويحيي مواتك ويريح جوارحك من الوصب وقلبك من النصب ويحقر الدنيا وأهلها في عينك إذا اعتبرت ويلاشي عظامها لديك إذا اختبرت

كل ما تقع عينك عليه فهو حقير قليل وفقير ذليل ولا يفضلك بشيء إلا باقتفاء رشد أو ترك غي أثوابه النبيهة يجردھا الغاسل وعروة عزه يفصلها الفاصل وماله الحاضر الحاصل يعيث فيه الحسام القاصل والله ما تعين للخلف إلا ما تعين للسلف ولا مصير المجموع إلا إلى التلف ولا صح من الهياط والمياط والسياح والعياط وجمع القيراط إلى القيراط والاستظهار بالوزعة والأشراط والخبط والخباط والاستكثار والاعتباط والغلو والاشتطاط وبناء الصرح وعمل الساباط ورفع العمدة وإدارة الفسطاط إلا أمل يذهب القوة وينسي الآمال المرجوة ثم نفس يصعد وسكرات تتردد وحسرات لفراق الدنيا تتجدد ولسان يثقل وعين تبصر الفراق وتمقل " قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون " ص 67 ثم القبر وما بعده والله منجز وعيده ووعده فالإضراب الإضراب والتراب والتراب

وان اعتذر سيدي بقلة الجلد لكثرة الولد فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق ويده من التسبب ما يتكفل بامساك أرقام أين النسخ الذي يتبلغ الإنسان بأجرته في كن حجرته لا بل السؤال الذي لا عار عند الحاجة بمعرته السؤال والله أقوم طريقا وأكرم رفيقا من يد تمتد إلى حرام لا يقوم بمرام ولا يؤمن من ضرام أحرقت فيه الحلل وقلبت الأديان والملل وضربت الأبخار ونحرت العشار ولم يصل منه على يدي واسطة السوء المعشار ثم طلب عند الشدة ففضح وبان شؤمه ووضح اللهم طهر منها أيدينا وقلوبنا وبلغنا من الإنصاف إليك مطلوبنا وعرفنا بمن لا يعرف غيرك ولا يسترفد إلا خيرك يا الله وحقيق على الفضلاء إن جنح سيدي منها إلى إشارة أو أعمل في اجتلابها إضارة أو لبس منها شارة أو تشوف لخدمة إمارة أن لا يحسنوا ظنونهم بعدها بآبن ناس ولا يغتروا بسمه ولا خلق ولا لباس فما عدا عما بدا تقضى العمر في سجن وقيد وعمرو وزيد وضر وكيد وطراد صيد وسعد وسعيد وعبد وعبيد فمتى تظهر الأفكار ويقر القرار وتلازم الأذكار وتتشام الأنوار وتستجلي الأسرار ثم يقع الشهود الذي يذهب معه الإخبار ثم يحق الوصول الذي إليه من كل ما سواه الفرار وعليه المدار وحق الحق الذي ما سواه فباطل والفيض الرحماني الذي ربابه الأبد هاطل ما شابت مخاطبتي لك شائبة تريب ولقد محضت لك ما يمحضه الحبيب للحبيب فتحمل جفائي الذي حملت عليه الغيرة ولا تظن بي غيره وإن لم تعذرني مكاشفة سيادتك بهذا النث في الأسلوب الرث فالحق أقدم وبنائه لا يهدم وشأنه معروف في مواجهة الجبابرة على حين يدي إلى ردهم ممدودة ونفسي في النفوس المتهافئة عليهم معدودة وشبابي فاحم وعلى الشهوات مزاحم فكيف بي اليوم مع الشيب ونصح الجيب واستكشاف العيب إنما أنا اليوم على كل من عرفني كل ثقيل وسيف العدل في كفي صقيل أعذل أهل الهوى وليست النفوس في القبول سوا ولا لكل مرض دوا وقد شفيت صدري وإن جهلت قدرتي فاحملني حملك الله تعالى على الجادة الواضحة وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة والسلام

انتهت الرسالة البديعة في بابها الآتية من الموعظة بلبابها ذات النصيحة الصريحة التي يتعين على كل عاقل خصوصا من يريد خدمة الملوك التمسك بأسبابها

تعليقات ابن مرزوق وابن لسان الدين على الرسالة

قلت وقد رأيت بخط الإمام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين أول الكلام وأحسست منه في بعض كتبه إلى آخره ما صورته توهم ما لا يقع بل لما تجلت عني سحب النكبة والامتحان جزمتم بالرحلة وعزمت على النقلة ونفرت عن خدمة السلطان وملازمة الأوطان قال ابن مرزوق والعجب كل العجب أن جميع ما خاطبني به أبغاه الله تعالى تحلى به أجمع وابتلى بما منه حذر كأنه خاطب نفسه وأنذرهما بما وقع له فالله تعالى يحسن له الخاتمة والخلاص انتهى وكتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخطه ابن لسان الدين علي ما نصه صدق والله سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق كان الله تعالى له قاله ولده ابن المؤلف انتهى

قلت وهذا الذي قاله ابن مرزوق كان في حياة ابن الخطيب ولذلك دعا له بالبقاء وبحسن الخاتمة والخلاص وقد أسفر الغيب عن محنته ثم قتله على الوجه الذي وصفه أثناء هذه الرسالة إذ قال وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم وحوث بغي يتلغ ويلتقم ومطبق يحجب الهواء وبطيل في التراب الثواء وثعبان قيد بعض الساق وشؤبوب عذاب يمزق الأبخار الرقاق وغيلة يهديها الواقب الغاسق ويجرعها العدو الفاسق فصرف السوق وسلعته المعتادة الطروق مع الأفول والشروق فإنه رحمه الله تعالى حصل له ما ذكر ثم اغتاله ليلا وخنقه في محبسه عدوه الفاسق سليمان بن داود كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فالله تعالى يشبه بهذه الشهادة

مرثية المنجنيقي

وقد تذكرت هنا مرثية ابن صابر المنجنيقي وهي
" هل لمن يرتجي البقاء خلود ... وسوى الله كل شيء يببب "
" والذي كان من تراب وإن عاش ... طويلا إلى التراب يعود "
" فمصير الأنام طرا لما صار ... إليه أبأؤهم والجدود "
" أين حوا أن أين آدم إذ فاتهما ... الملك والثوا والخلود "
" أين هابيل أين قابيل إذ هذا ... لهذا معاند وحسود "
" أين نوح ومن نجا معه بالفلك ... والعالمون طرا فقيد "
" أسلمته الأيام كالطفل للموت ... ولم يغن عمره الممدود "
" أين عاد بل أين جنة عاد ... إرم أين صالح وثمود "
" أين إبراهيم الذي شاد بيت الله ... فهو المعظم المقصود "
" أين إسحاق أين يعقوب أم أين ... بنوه وعدهم والعديد "
" حسدوا يوسفأ أخاهم فكادوه ... ومات الحساد والمحسود "
" وسليمان في النبوة والملك ... قضى مثلما قضى داود "
" ذهبأ بعدما أطاع لذا الخلق ... وهذا له ألين الحديد "
" وابن عمران بعد آياته التسع ... وشق الخضم فهو صعيد "
" والمسيح ابن مريم وهو روح الله ... كادت تقضي عليه اليهود "
" وقضى سيد النبيين والهادي ... إلى الحق أحمد المحمود "
" وبنوه وآله الطاهرون الزهر ... صلى عليهم المعبود "
" ونجوم السماء منتثرات ... بعد حين وللهواء ركود "
" ولنار الدنيا التي توقد الصخر ... خمود وللمياه جمود "
" وكذا للثرى غداة يقوم الناس ... منها تزلزل وهمود "
" هذه الأمهات نار وترب ... وهواء رطب وماء برود "
" سوف تفنى كما فنينا فلا يبقى ... من الخلق والد ووليد "
" لا الشقي الغوي من نوب الأيام ... ينجو ولا السعيد الرشيد "
" ومتى سلت المنايا سيوفا ... فالموالي حصيدها والعبيد "

العبرة من مرث أخرى

وأما قصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثى بها بني الأفطس وذكر فيها كثيرا من الملوك الذين أبادهم الدهر وطحنهم برحاه وصيرهم أثرا بعد عين ففيها ما يوظف النوام وأولها

" الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور "

وبالجملة فالأمر كما قال ابن الهبارية
" الموت لا يبقي أحد ... ولا والدا ولا ولد "
" مات لبيد ولبيد ... وخلد الفرد الصمد "
كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " اللهم اختم لنا بالحسنى وردنا إليك ردا " جميلا

وتذكرت هنا أيضا مرثية على روي مرثية المنجنيقي السابقة منها
" أين أهل الديار من قوم نوح ... ثم عاد من بعدهم وثمود "
" بينما هم على الأسرة والأنماط ... أفضت إلى التراب الخدود "
" ثم لم ينقض الحديث ولكن ... بعد ذا الوعد كله والوعيد "
" وأطباء بعدهم لحقوهم ... ضل عنهم سعوطهم واللدود "
" وصحيح أضحى يعود مريضا ... وهو أدنى للموت ممن يعود "
وما أحكم قول السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد المريني يخاطب أخاه السلطان أبا الحسن وقد حصره بسجلماسة حتى أخذه قسرا
" فلا يغرنك الدهر الخئون فكم ... أباد من كان قبلي يا أبا الحسن "
" الدهر مذ كان لا يبقي على صفة ... لا بد من فرح فيه ومن حزن "
" أين الملوك التي كانت تهابهم ... أسد العرين ثووا في اللحد والكفن "
" بعد الأسرة والتيجان قد محيت ... رسومها وعفت عن كل ذي حسن "
" فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمرا ... واستعن بالله في سر وفي علن "
" واختر لنفسك أمرا أنت أمره ... كأنني لم أكن يوما ولم تكن "
ودخل السلطان أبو الحسن سجلماسة عنوة على أخيه السلطان أبي علي عمر سنة 734 وجاء به في الكبل لفاس ثم قتله بالفصد والخنق في ربيع الأول من السنة وكان القبض عليه في المحرم رحمه الله تعالى

ومما وجد مكتوبا على قصر بعض السلاطين
" قد كان صاحب هذا القصر مغتبطا ... في ظل عيش يخاف الناس من باسه "
" فبينما هو مسرور ببلدته ... في مجلس اللهو مغبوط بجلاسة "
" إذ جاءه بغتة ما لا مرد له ... فخر ميتا وزال التاج عن راسه "
رجع إلى أخبار لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى قلت وقد زرت قبره مرارا رحمه الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له باب الشريعة وهو يسمى الآن باب المحروق وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض بل ينزل إليه بانحدار كثير ويزعم الجل من عوام فاس أن الباب المذكور إنما سمي بباب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه من حفرته كما مر وليس كذلك وإنما سمي باب المحروق في دولة الموحدين قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه بسبب نائر ثار على الدولة فأمسك وأحرق ذلك المحل والله غالب على أمره وحصل لي من الخشوع والحزن زيارة قبره رحمه الله تعالى ما لا مزيد عليه جعل الله له تلك المحن كفارة وطهره فإنه كان آية الله علما وجلالة وحكمة وشهرة

رسالة في العزاء بأبي جعفر ابن جبير
وقد تذكرت عند كتبي هذا المحل رسالة كتبها بعض أئمة المغرب في عزاء الوزير الشهير أبي جعفر ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى إلى بنيه وهي مما يصلح أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه الله تعالى وفيها عزاء بمن مضى ونصها
عزاء يا كواكب الهدى في بدركم الذي تحيفه الردى وفجع به الفضل والندى فقل لشهب أن تنكدر على فراقه وللصبح أن يخبو نور إشراقه وللريح أن تمزق صدارا وللأهله أن لا تعرف إبدارا وللليل أن يشتمل خميسة الحزن وللسماء أن تبكيه بأدمع المزن وللرعد أن ينتحب لوفاته وللبرق أن يحكي برجفاته أفئدة عفاته وللثريا ينغمس سوارها وللشمس أن تنكسف أنوارها وللنثرة تنثر كواكبها وللجوزاء أن تنفض مناكبها وللنيرات أن ترفض مواكبها وللرامح أن يبيت أعزلا وللبدر أن لا يألف منزلا وللمجرة أن يفيض دمعها وللغميصاء أن يطرد بكاؤها وسهرها وللروض أن يفارق إمراعه وللأوراق أن يهتف بما راعه وللغصون أن تنهصر لهتفه وتتقصف أسفا على حتفه ولكن هو الحمام يختل ويختل ولا يحفل بمن يتر يعدم ما أوجده الكون ويذيل من أكنفه الصون وأين بنا عن مكافح لا نقاتله ورام أرواحنا مقاتله لا يد به ناصرة وعزمته قاصرة للقيصرة ويمينه كاسرة للأكاسرة لم يبق من رسم لطسم ولا من إحسان لغسان ولا من أياد لإياد ولا من سلطان لقحطان

ولا من نجيب لتجيب ولاشرف ضخم للخم لم يكن له عن اليمينين إقصار ومنهم الأنصار وهم أسمع للنبي وأبصار وعمد إلى المصابيح من مضر يطفيها هذا والوحي ينتزل فيها ولم يصخ في الصديق إلى التصديق وأسمى الفاروق برداه وحكم فيه أيا لؤلؤة ومداه وأمكن صرف الأقدار من شهيد الدار ولم يرع من علي بالبسالة والذبل العسالة ولا أبقى سبطيه وقد تفقت عنهما بيضة الرسالة وأذهب الزبير حواري الرسول وحنظلة وهو بأيدي الملائكة مغسول وأفات ابن معاذ ولم يحفل بفوته على أنه اهتز العرش لموته وأودى بحمزة ومقعدة من النبوة مقعد الأبوة وشفى من عمار صدور الأسل وأردى مالكا بشرية من غسل ولم يعبا بمضاء عمرو ولا بحلم معاوية ودهاء عمرو فيا له من خطب مود بكل يابس ورطب يشرب ماء الأعمار ويجعل الأحداث منازل الأقمار ويلوك السوق والأملاك ولا ييالي آيه لآك لا يقبل شفيعا ولا يغادر منحطا ولا رفيعا ها هو اعتمد نور علا فكسفه وطود حلم فنسفه وأعلق المجد في حباله وأقصد الفضل بنباله وفجع كنانة بسهم لم ينثل مثله من كنانة فيا طارق الأعين لقد بؤت بأنفس الأغلاق ويا ناعيه لقد نعتت بأسق الأخلاق رويدا أسائك عمن لم تضع لديه وسائك أين سماحه وطلاقة أين كلفه بالحمد وعلاقته ما الذي ثنى عطفه من الارتياح أم أين عافيه من ذلك الإمتياح أم من يؤلف أمنية كما ألفت السحب أيدي الرياح فيا هبة الحمد اطوي عرفك فما تنشق ويا ربة المجد أقصري طرفك فما تعشق ويا معشر عفاته كيف حبيتم وقد علمتم بوفاته ويا زمر أماله صغرت أيديكم من إجماله ويا أخاير صحابه أين مواقع صحابه ويا بني ولاته من يتبوا مقام علائه ويا منافسي شيمه من يوجد بمثل ديمه ويا منازعي كرمه من يطيف المعنفين بمثل حرمه ويا حاسدي هممه من له كحفاظه وذممه سيدي لقد أضاءت مساعيك وأشرفت وأغصت الحاسدين طرا وأشرفت وحسبهم أن لم ينتهبوا إلا إذا نمت ولا نطقوا إلا حين مت وليهن ملاك وصحبك أن أحيتك صنائعك وقد قضيت نحبك وإن حم فناؤك فقد أبقى الحياة الخالدة ثناؤك

" ردت صنائعه عليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور "

" والناس ماتمهم عليه واحد ... في كل دار أنه وزفير "

سيدي أما تجيب صرخة لهفان أم عداك عن الجواب أنك فان سيدي من لأمك ببسط أناملك من للمرملات الضرائك بإرشادك من لقرائك بصلتك وحبائك من لأخيك بمواثق أواخيك لأبنائك بلطف أحيانك انفض شملهم وكان جميعا ونادوك لو نادوا منك سميحا هذاكبيرهم يدعوك فلا تجيبه وقد فت الأضلاع وجيبه بيكي عند تلك الرجام بأدمع سجام وقد ألهب الزفرات حشاه وألج الدمع بجفنه حتى أعشاه والأصاغر ما لهم بعدك مفزع ورضيعهم تسلب به الأنفس رحمة وتنزع لا يدري ما جزع عليك فيجزع لشد ما أذابتهم وقدة الأوار حين عدموا منك كرم النجوى والجوار أف لدهر رماهم بالأجوار وتركهم أنجما مسلوبة الأنوار لا جرم أن يحزنوا عليك ويكثرثوا فلقد تسلاوا عنك ببعض ما ورتثوا وما ورتثهم غير الحزن والبث وأمل في الحياة كالهباء المنبث كما تتلى محاسنك فاسمع طفقت عليك شؤون عيني تدمع أيا ضريحة كيف وجدت ريحه لقد أرج بك ذلك المعفر حتى ما ينافحه المسك الأذفر وكما ظفرت بوجوده فجد كل قبر بجوده ففيه سماء ثرة وغمام ونور انضم عليه منك كمام ولو علمت بمن بين جنبيك راقد لعلوت حتى تلوح في ذراك الفراق ويا دافنيه كيف هلتهم عليه الرغام أولم تنكروا على الشمس أن تغام هيهات لقد سمحتم بإقبار عف الشمال طيب الأخبار والحاد من لا نزاع في فضله ولا إلحاد أي نفس تخذتم له التراب مستودعا فأضحى عرنين المكارم مجدعا

" فتى مثل نصب السيف من حيث جنته ... لنائية نابتك فهو مضارب "

" فتى همه حمد على النأي رابح ... وإن بات عنه ماله وهو عازب "

أما وإن ازدحمت بمهلكه الأوصاب وفدح الرزء وجل المصاب حتى لا نألف النساء فلقد سر الموت من حيث ساء خلفنا بدهر ما فيه غير مصائب ولا ييالي من أقصد سهمه الصائب فيا فقيد الندى ما كان أحدرك بالخلود وأخلقك ويا جواد عمره ما كان أقصر طلقك ثوى حين استوى وتوارى إذ ملأ الأفق أنوارا وكسف حين بلغ الكمال فكان كالغصن عندما اعتدل مال أو كالشهاب عندما استقام حار " ... وكذاك عمر كواكب الأسحار "

هذه البراعة التحفت بعده الضنى والصحف تطوي على جهالة وتحنى وعهدي به إن امتطى راحته اليراع راع أو دبح الأوراق راق أو استدر طبعه السلسال سال وأي روض أراد راد ومتني أراغ الإنشاء أحسن إن شاء فحق للغواد أن يستعر بوقده وللمدامع أن تسيل دما على فقده بيد أنه الموت لا بد أن نرد مشرعه ونسيغ على شرق به جرعه فإنا زرع يحصده الذي ازدرعه وصبرا يا ذوي أرحامه وبنيه ومن مر في غلواء الوجد فالسلوان يثنيه وشحا على أجركم لا يذهب به الجزع ويفنيه والله

يزلف الفقيد من رحمته ويدنيه ويقطفه زهر رضوانه ويجنيه ويبسر لكم العزاء الأجل برحمته
ويسنيه والسلام انتهت

قطع زهدية

وبرحم الله القائل

" كل جمع إلى الشتات يصير ... أي صفو ما شابه تكدير "

" أنت في اللهو والأمانى مقيم ... والمنايا في كل وقت تسير "

" والذي غره بلوغ الأمانى ... بسراب وخب مغرور "

" ويك يا نفس أخلصي إن ربي ... بالذي أخفت الصدور بصير "

ولا خفاء على ذوي الأحلام من الأعلام أن الدنيا أضغاث أحلام

" يندم المرء على ما فاته ... من لبات إذا لم يقضها "

" وتراه فرحا مستبشرا ... بالتي أمضى كأن لم يمضها "

" إنها عندي كأحلام الكرى ... لقريب بعضها من بعضها "

وقال أبو منصور أسعد النحوي

" يجمع المرء ثم يترك ما يجمع ... من كسبه لغير شكور "

" ليس يحظى إلا بذكر حميل ... أو يعلم من بعده مآثور "

شيء من مواعظ ابن الجوزي

وقال الإمام الشهير أبو الفرج ابن الجوزي

" يا ساكن الدنيا تاهب ... وانتظر يوم الفراق "

" وأعد زادا للرجيل ... فسوف يحدى بالرفاق "

" وأبك الذنوب بأدمع ... تنهل من سحب المآق "

" يا من أضاع زمانه ... أرضيت ما يفنى بباق "

وكان ابن الجوزي المذكور آية الله في كثرة التأليف والكتابة والوعظ

والحفظ وأقل من كان يحضر مجلسه عشرة آلاف وربما حضر عنده مائة ألف وقال في آخر عمره

على المنبر كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة وتاب على يدي مائة ألف وأسلم على يدي عشرون

ألف يهودي ونصراني وأسمع رحمه الله تعالى الناس أكثر من أربعين سنة وحدث بمصنفاته مرارا

وقال الحافظ الذهبي في حقه الحافظ الكبير الواعظ المفتن صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في

العلوم المتعددة وعظ من صغره وفاق فيه الأقران ونظم الشعر المليح وكتب بخطه ما لا يوصف ورأى

من القبول والإحترام ما لا مزيد عليه وحزر مجلسه غير مرة بمائة ألف وحضر مجلسه المستضيء

مرارا من وراء الستر انتهى

ومن كلامه في بعض مجالسه والله ما اجتمع لأحد أمله إلا وسعى في تفريقه أجله وعقارب المنايا

تلسع الناس وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس

وقال في قوله أعمار أمتي من الستين إلى السبعين إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية فلما

شارفت الركب بلد الإقامة قيل حثوا المطي

وقال في الذين عبدوا العجل لو أن الله خار لهم ما خار لهم

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس فهمتم فهمتم

وقال في خلافة أبي بكر رضي الله عنه بعد أن ذكر أحاديث تدل على خلافته كقوله مروا أبا بكر

فليصل بالناس وغيره ما صورته فهذه أحاديث تجري مجرى النص فهمها الخصوص غير أن الرافضة

في إخفائها كاللصوص فقال السائل لما قال أفيلونني ما سمعنا مثل جواب علي رضي الله عنه والله

لا أقلناك فقال لما غاب علي عن البيعة في الأول أخلف ما فات بالمدح في المستقبل ليعلم

السامع والرائي أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي فهي رأيي ومثل ذلك الصدر لا يراني

يفتخر 51 وقال في قول فرعون " أليس لي ملك مصر " الزخرف

بما أجراه ما أجراه

وتواجد رجل في مجلسه فقل عجبنا كلنا في إنشاد الضالة سوا فلم وجدت وحدك ألم الجوى

وأنشد

" قد كتمت الحب حتى شفني ... وإذا ما كتم الداء قتل "

" بين عينيك علالات الكرى ... فدع النوم لربات الحجل "

ونظر يوما إلى أقوام يبكون في مجلسه ويتواجدون فأنشد

" ولو لم يهجنني الطاعنون لهاجنني ... حمائم ورق في الديار وقوع "

" تداعين فاستيكين من كان ذا هوى ... نوائح لم تقطر لهن دموع "

" وكيف أطيق العاذلين وذكرهم ... يورقني والعاذلون هجوع "

وقام رجل وتواجد فأنشد

" وما زال يشكو الشوق حتى كأنما ... تنفس من أحشائه وتكلما "

" وبيكي فأبكي رحمة ليكائه ... إذا ما بكى دمعا بكيت له دما "

وأعجبه يوما كلامه فأنشد

" تزدحم الألفاظ والمعاني ... علي فؤادي وعلى لساني "

" تجري بي الأفكار في ميدان ... أراحم النجم على مكان "

ووعظ المستضيء يوما فقال يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك وإن سكت خفت عليك فأنا أقدم خوفي عليك على خوفي منك لمحتبي لدوام أيامك وإن قول القائل اتق الله خير من قول القائل أنتم أهل بيت مغفور لكم وقال الحسن البصري لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تبلغ المأمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم يا أمير المؤمنين كان يوسف عليه السلام لا يشيع في زمان القحط لئلا ينسى الجياع وكان عمر رضي الله عنه يصر بطنه عام الرمادة فيقول قرقرى إن شئت أو لا تفرقرى فوالله لا شبعت والمسلمون جياع فتصدق الخليفة المستضيء بصدقات كثيرة وأطلق من في السجن وقال رحمه الله تعالى لبعض الولاة اذكر عدل الله فيك وعند العقوبة قدرة الله عليك وإياك أن تشفي غيظك بسقم دينك

وقال الطاعة تبسط اللسان والمعاصي تذل الإنسان

وقال له قائل ما نمت البارحة من شوقي إلى المجلس فقال نعم لأنك تريد أن تتفرج وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت فيه

وقيل له إن فلان أوصى عند الموت فقال طين سطوجه في كانون

وقال له قائل أسبح أم أستغفر فقال الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون من البخور

وسأله سائل ما الذي وفر في قلب أبي بكر رضي الله عنه فقال قوله ليلة المعراج إن كان قال فلقد صدق فله السبق

ولما قال له بعضهم سيف علي نزل من السماء فسعفة أبي بكر أين أجابه بقوله إن سعفة هزت يوم الردة فأثمرت سبيا جاء منه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند ثم قال يا عجا للروافض إذا مات لهم ميت تركوا معه سعفة من أين ذا المصطلح

وسئل عن معنى قوله من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر فقال الميت يقسم ماله ويكفن وأبو بكر أخرج ماله كله وتخلل بالعباء

وقال في قوله تعالى " ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا " الأعراف 43

قال علي إني والله لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ثم قال أبو الفرج إذا اصطح أهل الحرب فما بال النظارة

وقال قال جبريل لرسول الله سلم على عائشة ولم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها وواجه مريم لأنها لم يكن لها زوج فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل

قال أبو شامة وكان ابن الجوزي رحمه الله تعالى مبتلى بالكلام في مثل هذه الأشياء لكثرة الروافض ببغداد وتعنتهم بالسؤالات فيها فكان بصيرا بالخروج منها لحسن إشارته وانقطع القراء يوما عن مجلسه فأنشد

" وما الحلبي إلا زينة لنقيصة ... يثمم من حسن إذا الحسن قصرا "

" وأما إذا كان الجمال موفرا ... كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا "

وقيل له لم تغل موسى عليه السلام بسوف تراني فأنشد

" إن لم يكن وصل لديك لنا ... يشفي الصباة فليكن وعد "

ولما ذكر أن بلالا رضي الله عنه لما منع الطواف بالبيت كان يقف من بعيد وينظر إليه وبيكي أشد

" أمر على منازلهم وإني ... بمن أضحي بها صب مشرق "

" وأومي بالتحية من بعيد ... كما يومي بإصبعه الغريق "

ومن شعر أبي الفرج رحمه الله تعالى

" لعبت ومثلك لا يلعب ... وقد ذهب الأطيب الأطيب "

" وقد كنت في ظلمات الشباب ... فلما أضاء انجلي الغيب "

" ألا أين أقرانك الراحلون ... لقد لاح إذ ذهبوا المذهب "

ولنقتصر على هذا المقدار ونرجع إلى أحوال لسان الدين رحمه الله تعالى وارتحاله والاعتبار بحاله فنقول

ومما يناسب أن نذكره في هذا المحل ونثبته فيه ما حكاه العالم العلامة بليدنا سيدي أبو الفضل ابن الإمام التلمساني رحمه الله تعالى جدي الإمام قاضي القضاة سيدي أبي عبد الله المقرئ التلمساني رحمه الله تعالى أحد أشياخ لسان الدين كما يأتي إن شاء الله ذلك في محله قال كنت مع ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب في جامع إبيرة من الأندلس إذ مر بنا الاعتبار في تلك الآثار فأنشد ابن الخطيب ارتجالاً

" أقمنا برهة ثم ارتحلنا ... كذاك الدهر حال بعد حال "

" وكل بداية فإلى انتهاء ... وكل إقامة فإلى ارتحال "

ومن سام الزمان دوام حال ... فقد وقف الرجاء على المحال " انتهى "

وحكى لسان الدين في الإحاطة عن نفسه أنه خطط هذه الأبيات في مرحلة نزلها رحمه الله تعالى حسبما يأتي ذلك في شعره

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى

" لبسنا فلم نبِل الزمان وابلانا ... يتابع أحرانا على الغي أولانا "

" ونعتر بالآمال والعمر ينقضي ... فما كان بالرجعي إلى الله أولانا "

" وماذا عسى أن ينظر الدهر من عسا ... فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا "

" جزينا صنيع الله شر جزائه ... فلم نرع ما من سابق الفضل أولانا "

" فيا رب عاملنا بما أنت أهله ... من العفو واجبر صدعنا أنت مولانا "

وقد حكى غير واحد أنه رحمه الله تعالى ريء بعد موته في المنام فقال له الرائي ما فعل الله بك فقال غفر لي ببيتين قلتهما وهما

" يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تفتح له أغلاق "

" أبروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى على أخلاقك الخلاق "

وقد كرر رحمه الله تعالى هذا المعنى في قصيدة في حقه وشرف وكرم ومجد وعظم وبارك وأنعم وهو قوله

" مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على عليك نظم مديحي "

" وإذا كتاب الله أثنى مفصحا ... كان القصور قصار كل فصيح "

وستأتي هذه القصيدة في نظمه إن شاء الله تعالى

وقد رأيت بالمغرب تخميساً للبيتين الأولين منسوباً للأديب الشهير الذكر بالمغرب أبي عبد الله محمد بن جابر الغساني المكناسي رحمه الله تعالى ولا بأس أن نورد هنا وهو قوله رحمه الله تعالى

" يا سائلاً لصريح خير العالم ... ينهي إليه مقام صب هائم "

" بالله ناد وقل مقالة عالم ... يا مصطفى من قبل نشأة آدم "

" ... والكون لم تفتح له أغلاق "

" بئناك قد شهدت ملائكة السما ... والله قد صلى عليك وسلمنا "

" يا مجتبي وم عظما ومكرما ... أبروم مخلوق ثناءك بعدما "

" ... أثنى على أخلاقك الخلاق "

وما أحسن قول لسان الدين رحمه الله تعالى بعدما عرف بنفسه وسلفه وكأني بالحي ممن ذكر قد التحق بالميت وبالقبر قد استبدل من البيت

وقال رحمه الله تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته وقلت والبقاء لله وحده وبه يختم الهدر

" عد عن كيت وكيت ... ما عليها غير ميت "

" كيف ترجى حالة البقيا ... لمصباح وزيت "

وسياتي ذلك ولقد صدق رحمه الله تعالى ورقى درجته في الجنة تحقيق في نسبة بيتين

وأما البيتان الشائعان على السنة أهل المشرق والمغرب وأنهما قيلا في لسان الدين رحمه الله تعالى وبعضهم ينسبهما له نفسه فالصحيح خلاف ذلك كما سيأتي وهما

" قف كي ترى مغرب شمس والضحي ... بين صلاة العصر والمغرب "

" واسترحم الله قتيلا بها ... كان إمام العصر في المغرب "

وشرح بعض البيتين فقال إن قوله قتيلا بها من باب الاستخدام أي قتيلا بشمس الضحى التي هي المنغزل فيها
قد رأيت وأنا بالمغرب بخط الشيخ الأغصاوي أنهما لم يعن بهما فائلهما لسان الدين ابن الخطيب
وإنما هما مقولان في غيره ونسبهما ونسيت الآن ذلك لطول العهد والله أعلم
ويدل على ذلك أنه رحمه الله تعالى لم يقتل بين صلاة العصر والمغرب
وإنما قتل في جوف الليل كما علم في محله على أنه يمكن بتكليف تأويل ذلك بأنه قامت لقائلهما
قربة على أنه يصدد الموت في ذلك الوقت وهذا لو ثبت أنهما قتيلا فيه وقد علمت أن الأغصاوي
نفى ذلك فالله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك
ثم رأيت في كتاب إسماعيل بن الأحمر في ترجمة بعض العلماء ما نصه فمن قوله يرثي الأمراء
بالمغرب وقد حل رمسه بين صلاة العصر والمغرب
" قف كي ترى مغرب شمس العلا ... بين صلاة العصر والمغرب "
" واسترحم الله دفيننا به ... كان ملكك العصر في المغرب "
وهذا مما يبعد أنهما في لسان الدين من وجوه لا تخفى على المتأمل منها قوله كان ملكك العصر
فإن لسان الدين لم يكن كذلك وقد تقدم أنفا كان إمام العصر في المغرب وهو أحسن لما فيه من
التورية البديعة والله أعلم
ثلاث قصائد لابن زمرك
رجع إلى أخبار لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى وقد عرض عدوه الرئيس ابن زمرك في
بعض قصائده التي مدح بها سلطانه الغني بالله أبا عبد الله ابن نصر بما تسنى له من الظفر بابن
الخطيب ومن حماه منه وهو الوزير ابن الكاس على يد من عينه لملك المغرب وأعانه بجند وعضده
كما تقدم وهو السلطان أحمد المريني فقال من قصيدة عبيدة
" يهني زمانك أعياد مجددة ... من الفتوح مع الأيام تغشاه "
" غضبت للدين والدنيا بحقهما ... يا حبذا غضب في الله أراضه "
" فوقت للغرب سهما راشه قدر ... وسدد الله للأعداء مرماه "
" سهم أصاب وراميه بذى سلم ... لقد رمى الغرض الأقصى فأصماه "
" من كان بندك يا مولاي يقدمه ... فليس يخلفه فتح ترجاه "
" من كان جندك جند الله ينصره ... أناله الله ما يرجو وسناه "
" ملكته غربه خلدت من ملك ... للغرب والشرق منه ما تمناه "
" وسام أعداءك الأشقيين ما كسبوا ... ومن تردى رداء الغدر أرداه "
" قل للذي رمدت جهلا بصيرته ... فلم تر الشمس شمس الهدى عيناه "
" غطى الهوى عقله حتى إذا ظهرت ... له المراشد أعشاه وأعماه "
" هل عنده وذنوب الغدر توبقه ... أن الذي قد كساه العز أعراه "
" لو كان يشكر ما أوليت من نعم ... ما زلت ملجأه الأحمى ومنجاه "
" سل السعود وخل البيض مغمدة ... فالسيف مهما مضى فالسعد أقصاه "
" وأشرع من البرق نصلا راع مصلته ... وارفع من الصبح بندا راق مجلاه "
" فالعدوتان وما قد ضم ملكهما ... أنصار ملكك صان الله علياه "
" لا أوحش الله قطرا أنت مالكة ... وأنس الله بالألطف مغناه "
" لا أظلم الله أفقا أنت نيره ... لا أهمل الله سرحا أنت ترعاه "
" وإهنا بشهر صيام جاء زائره ... مستنزلا من إله العرش رحماه "
" أهل بالسعد فانهلت به ممن ... وأوسع الصنع إجمالا ووفاه "
" أما ترى بركات الأرض شاملة ... وأنعم الله قد عمت براياه "
" وعادك العيد تستحلي موارده ... ويجزل الأجر والرحمى مصلاه "
" جهزت جيش دعاء فيه ترفعه ... لذي المعارج والإخلاص رقاہ "
" أفضت فيه من النعماء أجزلها ... وأشرف البر بالإحسان زكاه "
" واليت للخلق ما أوليت من نعم ... والى لك الله ما أولى ووالاه "
وأول هذه القصيدة
" هذي العوالم لفظ أنت معناه ... كل يقول إذا استنتطقته الله "
" بحر الوجود وفلك الكون جارية ... وباسمك الله مجراه ومرساه "
" من نور وجهك ضاء الكون أجمعه ... حتى تشيد بالأفلاك مبناه "

" عرش وفرش وأملاك مسخرة ... وكلها ساجد لله مولاه "

" سبحان من أوجد الأشياء من عدم ... وأوسع الكون قبل الكون نعماه "

" من ينسب النور للأفلاك قلت له ... من أين أطلعت الأنوار لولاه "

" مولاي مولاي بحر الجود أغرقني ... والخلق أجمع في ذا البحر قد تاهوا "

" فالفلك تجري كما الأفلاك جارية ... بحر السماء وبحر الأرض أشباه "

" وكلهم نعم للخلق شاملة ... تبارك الله لا تحصى عطاياه "

" يا فاتق الرتق من هذا الوجود كما ... في سابق العلم قد خطت قضاياه "

" كن لي كماكنت لي إذ كنت لا عمل ... أرجو ولا ذنب قد أذنت أخشاه "

" وأنت في حضرات القدس تنقلني ... حتى استقر بهذا الكون مثواه "

" ما أقبح العبد أن ينسى وتذكره ... وأنت باللطف والإحسان ترعاه "

" غفرانك الله من جهل بليت به ... فمن أفاد وجودي كيف أنساه "

" مني علي حجاب لست أرفعه ... إلا بتوفيق هدى منك ترضاه "

" فعد علي بما عودت من كرم ... فأنت أكرم من أملت رحماه "

" ثم الصلاة صلاة الله دائمة ... على الذي باسمه في الذكر سماه "

" المجتبي وزناد النور ما قدحت ... ولا ذكا من نسيم الروض مسراه "

" والمصطفى وكمام الكون ما فتقت ... عن زهر زهر يروق العين مرأه "

" ولا تفجر نهر للنهار على ... در الدراري فغطاه وأخفاه "

" يا فاتح الرسل أو يا ختمها شرفا ... والله قدس في الحالين معناه "

" لم أدخر غير حب فيك أرفعه ... وسيلة لكريم يوم ألقاه "

" صلى عليك إله أنت صفوته ... ما طيبت بلذيد الذكر أفواه "

" وعم بالروح والريحان صحبته ... وجادهم من نمير العفو أصفاه "

" وخص أنصاره الأعلى صفوته ... وأسكنوا من جوار الله أعلاه "

" أنصار ملته أعلام بيعته ... مناقب شرفت أثنى بها الله "

" وأيد الله من أحيا جهادهم ... وواصل الفخر أخراه بأولاه "

" المنتقى من صميم الفخر جوهره ... ما بين نصر وأنصار تهاده "

العلم والحلم والإفضال شيمته ... والباس والجود بعض من سجاياه " وهي طويلة ولنقتصر منها "

على ما ذكر

وقد صرح ابن زمرك المذكور في قصيدة أخرى مدح بها سلطانه الغني بالله وهنأه بفتح المغرب على يد السلطان أحمد وذكر فيها ظفره بالوزير ابن الكاس وهو أعني ابن الكاس كان القائم بنصرة لسان الدين والمانع له والمجير له منهم حين طلبوه منه فلما لم يخفر ذمته تمكنت كما سبق أسباب العداوة وجر ذلك أن أغرى السلطان أحمد على تملك فاس واشتروا عليه كما مر القبض على لسان الدين وإرساله إليهم وقد نقلت أنا هذه القصيدة من تأليف لحفيد السلطان الغني بالله ونص محل الحاجة منه ومن ذلك أيضا قوله يعني ابن زمرك هناء لمولانا الجد رحمه الله تعالى بالفتح المغربي للسلطان أبي العباس ابن السلطان أبي سالم المريني

" هي نفحة هبت من الأنصار ... أهدتك فتح ممالك الأمصار "

" في بشرها وبشارة الدنيا بها ... مستمتع الأسماع والأبصار "

" هبت علي قطر الجهاد فروضت ... أرجاءه بالنفحة المعطار "

" وسرت وأمر الله طي برودها ... يهدي البرية صنع لطف الباري "

" مرت بأدواح المنابر فانبرت ... خطباؤها مفتنة الأطيوار "

" حنت معارجها إلى أعشارها ... لما سمعن بها حنين عشار "

" لو أنصفتك لكللت أدواحها ... تلك البشائر يانع الأزهار "

" فتح الفتوح أتاك في حلال الرضى ... بعجائب الأزمان والأعصار "

" فتح الفتوح جنيت من أفنانه ... ما شئت من نصر ومن أنصار "

" كم آية لك في السعود جلية ... خلدت منها عبرة استبصار "

" كم حكمة لك في النفوس خفية ... خفيت مداركها عن الأفكار "

" كم من أمير أم بابك فأننى ... يدعى الخليفة دعوة الإكبار "

" أعطيت أحمد راية منصوره ... بركاتها تسري من الأنصار "

" أركبته في المنشآت كأنما ... جهزته في وجهه لمزار "

" من كل خافقة الشراع مصفق ... منها الجناح تطير كل مطار "

" ألفت بأيدي الريح فضل عنانها ... فتكاد تسبق لمحة الأبصار "

" مثل الجياد تدافعت وتسابقت ... من طافح الأمواج في مضمار "

" لله منها في المجاز سوابح ... وقفت عليك الفخر وهي جوارى "

" لما قصدت بها مراسي سبتة ... عطفت على الأسوار عطف سوار "

" لما رأيت من صبح عزمك غرة ... محقوقة بأشعة الأنوار "

" ورأت جبيننا دونه شمس الضحى ... لبتك بالإجلال والإكبار "

" فأفضت فيها من نذاك مواهبا ... حسنت مواقعها على التكرار "

" ورأيت أهل الغرب عزم مغرب ... قد ساعدته غرائب الأقدار "

" وخطبت من فاس الجديد عقيلة ... لبتك طوع تسرع ویدار "

" ما صدقوا متن الحديث بفتحها ... حتى رأوه في متون شفار "

" وتسمعوا الأخبار باستفتاحها ... والخبر قد أغنى عن الأخبار "

" قولوا لقرء في الوزارة غره ... حلم مننت به على مقدار "

" أسكنته من فاس جنة ملكها ... متنعما منها بدار قرار "

" حتى إذا كفر الصنيعة وازدرى ... بحقوقها ألحقته بالنار "

" جرعت نجل الكأس كأسا مرة ... دست إليه الحنف في الإسكار "

" كفر الذي أوليته من نعمة ... لا تأنس النعماء بالكفار "

" فطرحته طرح النواة فلم يفز ... من عز مغربه بغير فرار "

" لم يتفق لخليفة مثل الذي ... أعطى الإله خليفة الأنصار "

" لم أدر والأيام ذات عجائب ... تردادها يحلو على التذكار "

" ألواء صبح في ثنية مشرق ... أم راية في جحفل جرار "

" وشهاب أفق أم سنان لامع ... ينقض نجما في سماء غبار "

" ومناقب المولى الإمام محمد ... قد أشرفت أم هن زهر دراري "

" فاق الملوك بهمة علوية ... من دونها نجم السماء الساري "

" لو صافح الكف الخضيب بكفه ... فخرت بنهر للمجرة جاري "

" والشهب تطمع في مطالع أفقها ... لو أحرزت منه منيع جوار "

" سل بالمشارق صحبها عن وجهه ... يفتر منه عن جبين نهار "

" سل بالغمائم صوبها عن كفه ... تنبيك عن بحر بها زخار "

" سل بالبروق صفاحها عن عزمه ... تخبرك عن أمضى شيا وعرار "

" قد أحرز الشيم الخطيرة عندما ... أمطى العزائم صهوة الأخطار "

" إن يلق ذو الإحرام صفحة صفحة ... فسح القبول له خطا الأعمار "

" يا من إذا هبت نواسم حمده ... أزلت بعرف الروضة المعطار "

" يا من إذا افترت مباسم بشره ... وهب النفوس وعاث في الإقتار "

" يا من إذا طلعت شمس سعوته ... تعشي أشعتها قوى الأبصار "

" قسما بوجهك في الضياء وإنه ... شمس تمد الشمس بالأنوار "

" قسما بعزمك في المضاء فإنه ... سيف تجرده يد الأقدار "

" لسماح كفك كلما استوهبته ... يزري بغيث الديمة المدرار "

" لله حضرتك العلية لم تزل ... يلقي الغريب بها عصا التسيار "

" كم من طريد نازح قذفت به ... أيدي النوى في القفر رهن سفار "

" بلغته ما شاء من آماله ... فسلا عن الأوطان بالأوطار "

" صيرت بالإحسان دارك داره ... تمتعت بالحسنى وعقبي الدار "

" والخلق تعلم أنك الغوث الذي ... يضيء عليها وافي الأستار "

" كم دعوة لك في المحول مجابة ... أغرت جفون المزن باستعبار "

" جادت مجاري الدمع من قطر الندى ... فرعى الربيع لها حقوق الجار "

" فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا ... متضاحكا بمباسم النوار "

" يا من مآثره وفضل جهاده ... تحدى القطار بها إلى الأقطار "

" حطت البلاد ومن حوته ثغورها ... وكفى بسعدك حاميا لذار "

" فلرب بكر للفتوح خطبتها ... بالمشرفية والقنا الخطار "

" وعقيلة للكفر لما رعتها ... أخرجت من ناقوسها المهذار "

" أذهبت من صفح الوجود كيائها ... ومحوها إلا من التذكار "

" عمروا بها جنات عدن زخرفت ... ثم انثنوا عنها ديار بوار "

" صبحت منها روضة مطلولة ... فأعدتها للحين موقد نار "

" واسود وجه الكفر من خزي متى ... ما احمر وجه الأبيض البتار "

" ولرب روض للقنا متاود ... ناب الصهيل به عن الأطيبار "

" مهما حكمت زهر الأسنة زهره ... حكمت السيوف معاطف الأنهار "

" متوقد لهب الحديد بجوه ... تصلى به الأعداء لفح أوار "

" فبكل ملتفت صقال مشهر ... قداح زند للحفيظة واري "

" في كف أروع فوق نهذ سابح ... متموج الأعطاف في الإحضار "

" من كل منخفر بلمحة بارق ... حمل السلاح به على طيار "

" من أشهب كالصبح يطلع غرة ... في مستهل العسكر الجرار "

" أو أدهم كالليل إلا انه ... لم يرض بالجوزاء حلي عذار "

" أو أحمر كالجمر يذكي شعلة ... وقد ارتمى من بأسه بشرار "

" أو أشقر حلي الجمال أديمه ... وكساه من زهو جلال نضار "

" أو أشعل راق العيون كأنه ... غلس يخالط سدفة بنهار "

" شهب وشقر في الطراد كأنها ... روض تفتح عن شقيق بهار "

" عودتها أن ليس تقرب منهلا ... حتى يخالط بالدم الموار "

" يا أيها الملك الذي أيامه ... غرر تلوح بأوجه الأعصار "

" يهني لواءك أن جدك زاحف ... بلواء خير الخلق للكفار "

" لا غرو أن فقت الملوك سيادة ... إذ كان جدك سيد الأنصار "

" السابقون الأولون إلى الهدى ... والمصطفون لنصرة المختار "

" متهللون إذا النزول عراهم ... سفروا له عن أوجه الأقمار "

" من كل وضاح الجبين إذا احتبى ... تلقاه معصوبا بتاج فخار "

" قد لاث صبحا فوق بدر بعدما ... لبس المكارم وارتدى بوقار "

" فاسأل بيدر عن مواقف بأسهم ... فهم تلافوا أمره ببدار "

" لهم العوالي عن معالي فخرها ... نقل الرواة عوالي الأخبار "

" وإذا كتاب الله يتلو حمدهم ... أودى القصور بمنة الأشعار "

" يا ابن الذين إذا تذوكر فخرهم ... فخورا بطيب أرومة ونجار "

" حقا لقد أوضحت من آثارهم ... لما أخذت لدينهم بالثار "

" أصبحت وارث مجدهم وفخارهم ... ومشرف الأعصار والأمصار "

" يا صادرا في الفتحة عن ورد المنى ... رد ناجح الإيراد والإصدار "

" واهنا بفتح جاء يشتمل الرضى ... جذلان يرفل في حلى استبشار "

" وإليكها ملء العيون وسامة ... حيثك بالأبكار من أفكار "

" تجري حداة العيس طيب حديثها ... يتعللون به عل الأكوار "

" إن مسهم لفح الهجير أبلهم ... منه نسيم ثنائك المعطار "

" وتميل من اصغى لها فكأنني ... عاطيته منها كؤوس عقار "

" قذفت بحور الفكر منها جوهرها ... لما وصفت أناملا ببحار "

" لا زلت للإسلام سترا كلما ... أم الحجيج البيت ذا الأستار "

" وبقيت يا بدر الهدى تجري بما ... شاءت علاك سوابق الأقدار "

انتهت

ولابن زمرك السابق قصيدة أخرى قالها بعد موت لسان الدين ابن الخطيب وخلع السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم الذي قتل ابن الخطيب في دولته وكان سلطان الأندلس موثلا للسلطان أحمد المذكور ولذلك امتعض لرده لملكه فقال ابن زمرك وزير صاحب الأندلس بعد ابن الخطيب هذه القصيدة يمدح بها سلطانه أثناء وجهته لتجديد الدولة الأحمدية المذكورة صدر عام تسعة وثمانين وسبعمائة

" هب النسيم على الرياض مع السحر ... فاستيقظت في الدوح أجفان الزهر "

" ورمى القصيب دراهما من نوره ... فاعتاض من ظل الغمام بها در "

" نثر الأزاهر بعدما نظم الندى ... يا حسن ما نظم النسيم وما نثر "

" قم هاتها والجو أزهر باسم ... شمساً تحل من الزجاجاة في قمر "

" إن شجها بالماء كف مديرها ... ترميه من شهب الحباب بها شرر "

" نارية نورية من ضوئها ... يقدر السراج لنا إذا الليل اعتكر "

" لم يبق منها الدهر إلا صيغة ... قد أرعشت في الكأس من ضعف الكبير "

" من عهد كسرى لم يفض ختامها ... إذ كان يدخر كنزها فيما دخر "

" كانت مذاب التبر فيما قد مضى ... فأحالها ذوب اللجين لمن نظر "

" جدد بها عرس الصبوح فإنها ... بكر تحيها الكرام مع البكر "

" وابلل بها رفق الأصيل عشية ... والشمس من وعد الغروب على خطر "

" محمرة مصفرة قد أظهرت ... خجل المريب يشوبه وجل الحذر "

" من كف شفاف تجسد نوره ... من جوهر لألاء بهجته بهر "

" تهوي البدر كماله وتود أن ... لو أوتيت منه المحاسن والغرر "

" قد خط نون عذاره في خده ... قلمان من أس هنالك ومن شعر "

" وإلى عليك بها الكؤوس وربما ... يسقيك من كأس الفتور إذا فتر "

" سكر الندامى من يديه ولحظه ... متعاقب مهما سقى وإذا نظر "

" حيث الهديل مع الهدير تناغيا ... فالطير تنشد في الغصون بلا وتر "

" والقضب مالت للعناق كأنها ... وفد الأحبة قادمين من السفر "

" متلاعبات في الحلبي ينوب في ... وجناتهن الوردحسنا عن خفر "

" والنرجس المطلول يرنو نحوها ... بلواحظ دمع الندى مهما انهمر "

" والنهر مصقول الحسام متى يرد ... درع الغدير مصفقا فيه صدر "

" يجري على الحصباء وهي جواهر ... متكسرا من فوقها مهما عثر "

" هل هذه أم روضة البشرى التي ... فيها لأرباب البصائر معتبر "

" لم أدر من شغف بها وبهذه ... من منهما فتن القلوب ومن سحر "

" جاءت بها الأحقان ملء ضلوعها ... ملء الخواطر والمسامع والبصر "

" ومسافر في البحر ملء عنانه ... وافى مع الفتح المبين على قدر "

" قادته نحوك بالحطام كأنه ... جمل يساق إلى القياد وقد نفر "

" وأراه دين الله عزة أهله ... بك يا أعف القادرين إذا قدر "

" يا فخر أندلس وعصمة أهلها ... للناس سر في اختصاصك قد ظهر "

" كم معضل من دائها عالجتة ... فشقيت منه بالبدار وباليدر "

" ماذا عسى يصف البليغ خليفة ... والله ما أيامه إلا غرر "

" ورثت هذا الفخر يا ملك الهدى ... من كل من أوي النبي ومن نصر "

" من شاء يعرف فخرهم وكمالهم ... فليتل وحي الله فيهم والسير "

" أبناؤهم أبناء نصر بعدهم ... بسيوفهم دين الإله قد انتصر "

" مولاي سعدك والصبح تشابها ... وكلاهما في الخافقين قد اشتهر "

" هذا وزير الغرب عبد أبق ... لم يلف غيرك في الشدائد من وزر "

" كفر الذي أوليته من نعمة ... والله قد حتم العذاب لمن كفر "

" إن لم يمت بالسيف مات بغيظه ... وصلى سعيرا للتأسف والفكر "

" ركب الفرار مطيه ينجو بها ... فجرت به حتى استقر على سقر "

" وكذا أبوه وكان منه حمامه ... قد حم وهو من الحياة على غرر "

" بلغته والله أكبر شاهد ... ما شاء من وطن يعز ومن وطر "

" حتى إذا جحد الذي أوليته ... لم تبق منه الحادثات ولم تذر "

" في حاله والله أعظم عبرة ... لله عبد في القضاء قد اعتبر "

" فاصبر تنل أمثالها في مثله ... إن العواقب في الأمور لمن صبر "

" رد حيث شئت مسوغا ورد المنى ... فالله حسبك في الورد وفي الصدر "

" لا زلت محروسا بعين كلاءة ... ما دام عين الشمس تعشي من نظر "

" ومنها وقد أضاف إليه من التغزل طوع بداره وحجة اقتداره فقال "

" والعود في كف النديم بسر ما ... تلقي لنا منه الأنامل قد جهر "

" غنى عليه الطير وهو بدوحيه ... والآن غنى فووه ظبي أعر "

" عود ثوى حجر القضيبي رعى له ... أيام كانا في الرياض مع الشجر "
 " لا سيما لما رأى من ثغره ... زهرا وأين الزهر من تلك الدرر "
 " ويظن أن عذاره من أسه ... ويظن تفاح الخدود من الثمر "
 " يسبي القلوب بلفظه ويلحظه ... وافتنتي بين التكلم والنظر "
 " قد قيدته لأنسنا أوتاره ... كالطبيبي قيد في الكناس إذا نفر "
 " لم يبيل قلبي قبل سمع غنائه ... بمعذر سلب العقول وما اعتذر "
 " جس القلوب بجسه أوتاره ... حتى كأن قلوبنا بين الوتر "
 " نمت لنا ألحانه بجميع ما ... قد أودعت فيه القلوب من الفكر "
 " يا صامتا والعود تحت بنانه ... يغنيك نطق الخبر فيه عن الخبر "
 " أغنى غناؤك عن مدامك يا ترى ... هل من لحاظك أم بنانك ذا السكر "
 " باحت أناملك اللدان بكل ما ... كان المتيتم في هواه قد ستر "
 " ومقاتل ما سل غير لحاظه ... والرمح هز من القوام إذا خطر "
 " دانت له منا القلوب بطاعة ... والسيف يملك ربه مهما قهر "

وسنلم إن شاء الله تعالى بترجمة ابن زمرك هذا في باب التلامذة ونشير هناك إلى كثير من أحواله وكيفية قتله مع أولاده وخدمه بمرأى ومسمع من أهله فكان الجزاء من جنس العمل وخاب منه الأمل إذ لسان الدين قتل غيلة بليل غاسق على يد مختلس في السجن فاسق وأما ابن زمرك فقتل بالسيف جهارا وتناوشته سيوف مخدومه بين بناته إبداء للتشفي وإظهارا وقتل معه من وجد من خدمه وأبنائه وأبعده الدهر وطالما أدناه وهكذا الحال في خدام الدول وذوي الملك أنهم أقرب شيء من الهلك ويرحم الله من قال إياك وخدمة الملوك فإنهم يستقلون في العقاب ضرب الرقاب ويستكثرون في الثواب رد الجواب انتهى

رجع إلى ما كنا فيه من أحوال لسان الدين ابن الخطيب وكان رحمه الله تعالى قبيل موته لما توفي السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني بتلمسان وتغلب على الأمر الوزير أبو بكر ابن غازي بن الكاس مبايعا لابن صغير السن من أولاد السلطان عبد العزيز ألف كتابه المسمى بأعمال الأعلام بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام ومراده بذلك تثبيت دولة الوزير الذي أبى أن يخفر عهده وذمته وامتنع أن يمكن منه أهل الأندلس فأكثروا القالة في الوزير بسبب مبايعته للصبى وبنوا ظاهر الأمر على أن ذلك لا يجوز بالشرع وأبدأوا وأعادوا في ذلك وأسروا ما كان من أمرهم حسوا في ارتغاء ومن جملة كلام لسان الدين ابن الخطيب في ذلك الكتاب قوله فمتى نيس أهل الأندلس يانكار بيعة صبي أو نياية صاحب أو وزير فقد عموا وضموا بريع الإنصاف فأعرضوا وما ألموا وبما سنوه لغيرهم ذموا انتهى

وكان رحمه الله تعالى ألف للسلطان عبد العزيز حين انحيازه إليه المباخر الطيبية في المفاجر الخطيبية يذكر فيه نباهة سلفه وما لهم من المجد وقصده الرد على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة القادحين في فخر سلفه ثم ألف للسلطان المذكور كتاب خلع الرسن في التعريف بأحوال ابن الحسن لكونه تولى كبر الحط منه والسعي في هلاكه كما مر وقال في حق هذا الكتاب إنه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف يسلي التكالي ونستغفر الله تعالى انتهى ومع هذا كله لما أنشبت المنية أظفارها لم تنفعه مما كتب تميمه ونال ما أمل فيه أهل السعاية والنميمة وسجلوا عليه المقالات الذميمة وقد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يحيى من العظم رميمه وينصف المظلوم من الظالم ويجازي الجاهل والعالم ويساوي بين المأمور والأمر والشريف والمشروف والعزير والحقير والمنكر والمعروف وعفوه سبحانه مؤمل بعد وهو لا يخلف الوعد ومن سبقت له العناية لم تضره الجناية

وقد كان لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى محبا في العفو حتى إنه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئز نفسه من ذلك ويقول ما معناه ما ضرهم لو عفوا ورأيت له رحمه الله تعالى في بعض مؤلفاته وقد أجرى ذكر استعطاف ذي الوزارتين أبي بكر ابن عمار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله

" سجايك إن عافيت أئدى واسمى ... وعذرك إن عاقبت أولى وأوضح "
 " وإن كان بين الخطيتين مزية ... فأنت من الأدنى إلى الله أجنح "
 " وماذا عسى الأعداء أن يتزبدوا ... سوى أن ذنبي ثابت ومصحح "
 " وإن رجائي أن عندك غير ما ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح "
 " أقلني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتوح "

" ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم ... فكل إناء بالذي فيه يرشح "
 " وقالوا سيجزيه فلان بذنبه ... فقلت وقد يعفو فلان ويصفح "
 " ألا إن بطشا للمؤيد يرتمي ... ولكن حلما للمؤيد يرجح "
 " وبين ضلوعي من هواه تميمة ... ستشفع لو أن الحمام يجلج "
 " سلام عليه كيف دار به الهوى ... إلي فيدنو أو علي فينرح "
 " ويهنيه إن رمت السلو فإنني ... أموت ولي شوق إليه مبرح "
 ما نصه ولاين عمار كلمات شهيرة تعالج بمراهمها جراح القلوب وتعفي عن هضبات الذنوب لولا ما
 فرغ عنه من القدر المكتوب والأجل المحسوب إلى أن قال وما كان أجمل بالمعتمد أن يبقي على
 جان من عبيده قد مكته الله من عنقه لا يؤمل الحصول على أمره ولا يحذر تعصب قبيله ولا يزيده
 العفو عنه إلا ترفعا وعزة وجلالة وهمة وذكرًا جميلا وأجرا جزيلًا فلا شيء أمحى للسيئة من
 الحسنة ولا أقتل للشر من الخير ورحم الله الشاعر إذ يقول
 " وطعنتمهم بالمكرمات وباللها ... في حيث لو طعن القنا لتكسرا "
 وقد تذكرت هنا قول الأديب أبي عبد الله محمد بن أحمد التجاني رحمه الله تعالى ورضي عنه
 " أنعجب أن حطت يد الدهر فاضلا ... عن الرتبة العليا فأصبح تحتها "
 " أما هذه الأشجار تحمل أكلها ... وتسقط منه كل ما طاب وانتهى "
 نكبة أبي جعفر ابن عطية

وحكى غير واحد من مؤرخي الأندلس أن الكاتب الشهير الوزير أبا جعفر ابن عطية القضاعي لما
 تغير له عبد المؤمن وتذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات ابن عمار السابقة قال ما كان المعتمد إلا
 قاسي القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات إلى العفو ووقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار
 واستعطف فما نفع ذلك وقتل رحمه الله تعالى ولنلم بذلك فنقول
 كان أبو جعفر هذا من أهل مراکش وأصله القديم من طرطوشة ثم بعد من دانية وهو ممن كتب
 عن علي بن يوسف بن تاشفين أمير لمتونة وعن ابنه تاشفين وإسحاق ثم استخلصه لنفسه
 سالب ملكهم عبد المؤمن بن علي وأسند إليه وزارته فنهض بأعبائها وتحبب إلى الناس بإجمال
 السعي والإحسان فعمت صنائعه وفشا معرفته وكان محمود السيرة مبخت المحاولات ناجح
 المساعي سعيد المآخذ ميسر المآرب وكانت وزارته زينا للوقت وكمالا للدولة وفي أيام توجهه
 للأندلس وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه والسعي به حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن
 عليه فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي وانبرى لمطالبة ابن عطية وجد في التماس عورارته
 وتشنيع سقطاته وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها
 " قل للإمام أطال الله مدته ... قولاً تبين لذي لب حقائقه "
 " إن الزرايين قوم قد وترتهم ... وطالب الثار لم تؤمن بوائقه "
 " وللوزير إلى آرائهم ميل ... لذاك ما كثرت فيهم علائقه "
 " فبادر الحزم في إطفاء نارهم ... فربما عاق عن أمر عوائقه "
 " هم العدو ومن والاهم كهم ... فاحذر عدوك واحذر من يصادفه "
 " الله يعلم أنني ناصح لكم ... والحق أبلج لا تخفى طرائفه "
 قالوا ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزيره أبي جعفر
 وأسر له في نفسه تغيراً فكان من أقوى الأسباب نكيتته
 وقيل أفضى إليه بسر فأفشاه وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقلق وعجل الانصراف
 إلى مراکش فحجب عند قدومه ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر
 الناس على طبقاتهم وقرروا على ما يعلمون من أمره وما صار إليه منهم فأجاب كل بما اقتضاه هواه
 وأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية وتوجه في إثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدي
 محمد بن تومرت فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة من
 لطائف الأدب نظماً ونثراً في سبيل التوسل بتربة إمامهم المهدي عجائب لم تجد شيئاً مع نفوذ قدر
 الله تعالى فيه ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلاً إلى مراکش فلما حاذى تاقمرت أنفذ الأمر
 بقتلهم بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحاة هنالك فمضيا لسبيلهما رحمهما الله
 تعالى

ومما خاطب به الخليفة عبد المؤمن مستعظفاً له من رسالة تغالى فيه فغالته المنية ولم ينل
 الأمنية وهذه سنة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما
 يخدش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم وعصمتهم قوله سامحه الله

تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة حتى سخرت بمن في الوجود
وأنفت لأدم من السجود وقلت إن الله تعالى
لم يوح في الفلك لنوح ووبريت لقدار ثمود نبلا وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا وخطت عن يونس
شجرة اليقطين وأوقدت مع هامان على الطين وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وافتربت على
العذراء البتول ففقدتها وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة وظهرت الأحزاب بالقصوى من العدو
وذممت كل قريش وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة
خليفة وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة
وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر وغادرت الوجه من الهامة
خضيبا وناولت من قرع سن الحسين قضيبا ثم أتيت حضرة المعلوم لائذا ويقبر الإمام المهدي عائذا
لقد آن لمقالتي أن تسمع وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع مع أي مقترف وبالذنب معترف
" ففعوا أمير المؤمنين فمن لنا ... برد قلوب هدها الخفقان "

وكتب مع ابن له صغير آخره

" عطفنا علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحزن "

" قد أغرقنا دنوب كلها لجح ... وعطفة منكم أنجى من السفن "

" وصادفتنا سهام كلها غرض ... ورحمة منكم أوقى من الجنن "

" هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارته رحماكم من المحن "

" من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشا من الزمن "

" فالثوب يطهر عند الغسل من درن ... والطرف ينهض بعد الركض في سنن "

" أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم ... من دون من عليهم لا ولا ثمن "

" ونحن من بعض من أحيت مكارمكم ... كلنا الحياتين من نفس ومن بدن "

" وصيبة كفراخ الورق من صغر ... لم يألوا النوح في فرع ولا فنن "

" قد أوجدتهم أباد منك سابقة ... والكل لولاك لم يوجد ولم يكن "

فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة " الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين " يونس 91

ومما كتب به من السجن

" أنوح على نفسي أم أنتظر الصفا ... فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحي "

" فها أنا في ليل من السخط حائر ... ولأهتدي حتى أرى للرضى صيحا "

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال ذهب ابن

عطية الأدب معه

وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قتل معه ولعطية هذا ابن أديب كاتب وهو أبو طالب عقيل ابن

عطية ومن نظمه في رجل تعشق قينة كانت ورثت من مولاها مالا فكانت تنفق عليه منه فلما فرغ

المال ملها

" لا تلحها أن مل من حبها ... فلم يكن ذلك من ود "

" لما رآها قد صفا مالها ... قال صفا الوجد مع الوجد "

وكان أبو جعفر ابن عطية من أبلغ أهل زمانه وقد حكى أنه مر مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق

مراكش فأطلت من شبك جارية بارعة الجمال فقال عبد المؤمن

" ... قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت "

فقال الوزير ابن عطية مجيزا له

" ... حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل "

فقال عبد المؤمن

" ... كأنما لحظها في قلب عاشقها "

فقال ابن عطية

" ... سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي "

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حفص وهي التي أورثته الرتبة العلية السنية والوزارة

الموحدية المؤمنية قوله

كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من امر الله الكريم ونصر الله تعالى المعهود المعلوم " وما

النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم " آل عمران 126 فتح بهر الأنوار إشراقا وأحرق بنفوس المؤمنين

إحداقا ونبه للأمانى النائمة جفونا وأحداقا واستغرق غاية الشكر استغراقا فلا تطيق الألسن لكنه

إدراكا ولا لحاقا جمع أشتات الطلب والأرب وتقلب في النعم أكرم وملاً دلاء الأمل إلى عقد الكرب " فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب "

وتقدمت بشارتنا به جملة حين لم تعط الحال بشرحه مهلة كان أولئك الضالون المرتدون قد بطروا عدوانا وظلما واقتطعوا الكفر معنى واسما وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا إثما وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته واستهوى القلوب بمهولاته ونصب له الشيطان من حالاته فأتته المخاطبات من بعد وكثب ونسلت إليه الرسل من كل حذب واعتقدته الخواطر أعجب عجب وكان الذي قادهم إلى ذلك وأوردتهم تلك المهالك وصول من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام واشتغل على زعمه بالقيام والصيام آناء الليالي والأيام لبسوا الناموس أثوابا وتدرعوا الرياء جلبابا فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا

ومنها في ذكر صاحبهم الماسي المدعي للهداية فصرع بحمد الله تعالى لحيته وبادرت إليه بوادر منونه وأتته واقفات الخطيئات عن يساره ويمينه وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه والنوائب لا تنوبه ويقول في سواه قولاً كثيراً ويخلق على الله تعالى إفاكا وزورا فلما رأوا هيئة اضطجاعه وما خطته الأسنان في أعضائه وأضلاعه ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه هزم من كان لهم من الأحزاب وتساقتوا على وجوههم تساقط الذباب وأعطوا عن بكرة أبيهم صفحات الرقاب ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب فامتلات تلك الجهات بأجسادهم وأذنت الأجال بانقراض أمادهم وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم فلم يعاين منهم إلا من خر صريعا وسقى الأرض نجيعا ولقي من أمر الهنديات فطيعا ودعت الضرورة بأقيهم إلى الترامي في الوادي فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ويسح طامعا في الخروج إلى ما ينجيه اختطفته الأسنان اختطافا وأذاقته موتا ذعافا ومن لج في الترامي على لججه ورام البقاء في ثبجه قضى عليه شرقه وألوى بذقنه غرقه ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعنا وضربا ويلقونهم بأمر الله تعالى هولا عظيما وكربا حتى انبسطت مرافات الدماء على صفحات الماء وحكت حمرتها على زرقة الشفق على زرقة السماء وجرت العبرة للمعتبر في جري ذلك الدم جري الأبحر

وبالجملة فالرجل كان نسيج وحده رحمه الله تعالى وسامحه وقضية لسان الدين تشبه قضيته وكلاهما قد ذاق من الذل بعد العز غصته وبدل الدهر نصيبه من الوزارة وحصته بعد أن اقتعد ذروة الأمر ومنصته رحم الله تعالى الجميع إنه مجيب سميع

الباب الثالث

في ذكر مشايخه الجلة هداة الناس ونجوم الملة وما يتعلق بذلك من الأخبار الشافية من العلة والمواعظ المنجية من الأهواء المضلة والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة أقول لا خفاء أن الشيخ لسان الدين رحمه الله تعالى أخذ عن جماعة من أهل العدة والأندلس عدة فنون وحدث عنهم ما يصدق الأقوال ويحقق الظنون

فمن أشياخه رحمه الله تعالى الفقيه الجليل الشريف النبيه الشهير رئيس العلوم اللسانية - 1 بالأندلس قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسن السبتي رحمه الله تعالى كان هذا الشريف آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب ويكفيه فضلا أنه شرح الخزرجية واقترع هضاب مشكلاتها بفهمه من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها وإيضاح رموزها وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي التي مدح بها أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا عبد الله محمدا الحفصي وسمى هذا الشرح برفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة وهذا

الشرح في مجلدين كبيرين وفيه من الفوائد ما لا مزيد عليه رأيت بالمغرب واستفدت منه كثيرا ومن فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وضوء رسول الله فأقبل بهما وأدبر إن أحسن الوجوه في تأويله أن يكون قدم الإقبال تفاعلاً ثم فسر بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل قال والعرب تقدم في كلامها ألفاظا على ألفاظ أخرى وتلتزمه في بعض المواضع كقولهم قام وقعد ولا تقول قعد وقام وكذلك أكل وشرب ودخل وخرج وعلى هذا النمط كلام العرب فتكون هذه المسألة من هذا قال ويؤيد ما قلناه وهو موضع النكتة تفسيره لأقبل وأدبر في باقي الحديث على معنى أدبر ثم أقبل ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتج إلى تفسير انتهى

وحدث رحمه الله تعالى عن جده لأمه قال كنت بالمشرق فدخلت على بعض القرائين فألفيت الطلبة يعربون عليه قول امرئ القيس

" كأن أبانا في أفانين ودقه ... كبير أناس في بجاد مزمل "

فأنشد ولا أدري هل هي له أو لغيره
" إذا ما الليالي جاورتك بساقط ... وقدرك مرفوع فعنه ترحل "
" ألم تر ما لاقاه في جنب جاره ... كبير أناس في بجاد مزمل "
وكان بعض الناس ينشد في هذا المقصد قول الآخر
" عليك بأرباب الصدور فمن غدا ... مضافاً لأرباب الصدور تصدرا "
" وإياك أن ترضى بصحبة ساقط ... فتنحط قدرا من علاك وتحقرا "
" فرفع أبو من ثم خفض مزمل ... يبين قولتي مغرباً ومحذرا "
وهذا معنى قول الشاعر
" إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى "
وما أحسن قول أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي رحمه الله تعالى
" إنا إلى الله من أناس ... قد خلعوا لبسة الوقار "
" جاورتهم فانخفضت هونا ... يا رب خفض على الجوار "
ومني نظم الشريف رحمه الله تعالى
" وأحور زان خديه عذار ... سبى الألباب منظره العجائب "
" أقول لهم وقد عابوا غرامي ... به إذ لاح للدمع انسكاب "
" أبعد كتاب عارضه يرجى ... خلاص لي وقد سبق الكتاب "
ومن الغريب في توارد الخواطر ما وجد بخط الأديب البارئ المحدث الكاتب أبي عبد الله محمد ابن
الشيخ الكبير أبي القاسم ابن جزي الكلبي رحمهما الله تعالى وسياطين ما معناه قلت هذه
القطعة
" ومعسول اللمى عادت عذابا ... على قلبي ثناياه العذاب "
" وقد كتب العذار بوجنتيه ... كتابا حظ قارئه اكتتاب "
" وقالوا لو سلوت فقلت خيرا ... وأنى لي وقد سبق الكتاب "
ثم عرضتها على شيخنا القاضي أبي القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة فقال لي قد نظمت
هذا المعنى بالعروض والقافية في هذه الأيام اليسيرة وأنشدني
وأحور زان خديه عذار ... " الأبيات السابقة "
وهذا يقع كثيرا ومنه ما وقع لابن الرقام حيث قال من شعر عمي قوله
" جل في البلاد تنل عزا وتكرمة ... في أي أرض فكن تبلغ منك بها "
" " جل الفوائد بالأسفار مكتسب ... والله قد قال " فامشوا في مناكبها "
فقال له الفقيه ابن حذلم مثل هذا وقع لأبي حيان إذ قال
" يا نفس ما لك تهوين الإقامة في ... أرض تعذر كل من مناكبها "
" " أما تلوت وعجز المرء منقصة ... في محكم الوحي " فامشوا في مناكبها "
فحصل العجب من هذا الاتفاق الغريب
ونقلت ممن نقل من خط الفقيه محمد بن علي بن الصباغ العقيلي ما صورته كان الشريف
الغرناطي رحمه الله تعالى آية زمانه وأزمة البيان طوع بنانه له شرح المقصود القرطاجنية أغرب ما
تتحلى به الأذان وأبدع ما ينشرح له الجنان إلى العقل الذي لا يدرك والفضل الذي حمد منه
المسلك حدثني بنادرة جرت بينه وبين مولاي الوالد من أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها قال
دخل والدك يوما لأداء الشهادة عنده فوجد بين يديه جماعة من الغزاة يؤدون شهادة فسمع
القاضي منهم وقال لهم هل ثم من يعرفكم فقالوا نعم يعرفنا علي الصباغ فقال القاضي أنعرفهم يا
أبا الحسن فقال له نعم يا سيدي معرفة محمد بن يزيد فما أنكر عليه شيئا بل قال لهم عرف
الفقيه أبو الحسن ما عنده فانظروا من يعرف معه رسم حالكم فانصرفوا راضين ولم يرتهن والدي
في شيء من حالهم ولا كشف القاضي لهم ستر القضية
قال محمد بن علي بن الصباغ أما قول والدي معرفة محمد بن يزيد فأشارة إلى قول الشاعر
" أسائل عن ثمالة كل حي ... فكلهم يقول وما ثماله "
" فقلت محمد بن يزيد منهم ... فقالوا الآن زدت بهم جهالة "
فتفطن القاضي رحمه الله تعالى لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتهن في شيء من معرفتهم ممنوعا من
إظهار ذلك بلفظه الصريح فكنى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح رحمهما الله تعالى انتهى
ومن فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النظار أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى ونصه
قال لي الشيخ القاضي الكبير الشهير أبو القاسم الحسن بن يزيد يوما وقد جرى ذكر حتى للابتداء

وأن معناها التي يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتم دونه أو لا بل لا يكون الأمر إلا كذلك قال وقد حدثني بعض الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشفاع رمضان فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى " ثم أتبع سبياً " الكهف 89 فوقف هنالك وركع وسجد قال فظننت أنه نسي ما بعد ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويعيد أول الكلام فلما قام من السجود ابتداء القراءة بقوله " حتى إذا بلغ " الكهف 90 فلما أتم الصلاة قلت له في ذلك فقال أليست حتى الإبتدائية قال القاضي الشريف المذكور فيجب أن يفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذكر انتهى

وقال الشاطبي أنشدني أبو محمد ابن حذلم لنفسه
 " شأن المحبين في أشجانهم عجب ... وحالتي بينهم في الحب أعجبها "
 " قد كنت أبعث من ريح الصبا رسلاً ... تأتي فتطفئ أشواقي فتذهبها "
 " والآن أرسل دمعي إثرها ديماً ... فتلتظي نار وجلي حين أسكبها "
 " فاعجب لنار اشتياق في الحشا وفتت ... أريح تذهبها والماء يلهبها "
 ثم قال الشاطبي ما نصه أخذ هذا المعنى فتممه من قطعة أنشدناها شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف رحمة الله تعالى عليه أذكر الآن آخر بيت منها وهو
 " يا من رأى النار إن تطفأ مخالفة ... فبالرياح وإن توقد فبالماء "
 وأخذ عن الشريف المذكور رحمه الله تعالى جماعة غير لسان الدين من أشهرهم العلامة النظار أبو إسحاق الشاطبي والوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك
 قال حفيد السلطان الغني بالله بن الأحمر رحمه الله تعالى في حق ابن زمرك إنه كان يتردد في الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء وبذ الأئمة البلغاء بما أوجب أن رثاه عند الوقوف على قبره بالقصيدة الفريدة التي أولها
 " ... أغرى سراة الحي بالإطراق "

وقال في موضع آخر ومما بذ به يعني ابن زمرك سبقاً وتبريزاً وعرضه على نقدة البيان فرأت منه كل مذهب خلصت إبريزاً مرثيته للقاضي المعظم الشريف أبي القاسم الحسني من شيوخه وهي
 " أغرى سراة الحي بالإطراق ... نبأ أصم مسامع الأفاق "
 " أمسى به ليل الحوادث داجياً ... والصبح أصبح كاسف الإشراق "
 " فجمع الجميع بواحد جمعت له ... شتى العلا ومكارم الأخلاق "
 " هبوا لحكمكم الرصين فإنه ... صرف القضاء فما له من واق "
 " نقش الزمان بصرفه في صفحة ... كل اجتماع مؤذن بفراق "
 " ماذا ترجى من زمانك بعدما ... علق الفناء بأنفس الأعلاق "
 " من تحسد السبع الطباق علاه ... عالوا عليه من الثرى بطباق "
 " إن المنايا للبرايا غاية ... سبق الكرام لخلصها بسباق "
 " لما حسبنا أن تحول أبؤسا ... كشفت عوان حروبها عن ساق "
 " ما كان إلا البدر طال سراره ... حتى رمته يد الردى بمحاق "
 " أنف المقام مع الفناء نزهة ... فنوى الرحيل إلى مقام باق "
 " عدم الموافق في مرافقة الدنا ... فنضى الركاب إلى الرفيق الباقي "
 " أسفا على ذاك الجلال تقلصت ... أفيأؤه وعهدن خير رواق "
 " يا أمري بالصبر عيل تصبري ... دعني عدتك لواعج الأشواق "
 " وذر اليراع تشي بدمع مداها ... وشي القريض يروق في الأوراق "
 " واحسرتا للعلم أقفر ريعه ... والعدل جرد أجمل الأطواق "
 " ركدت رياح المعلوات لفقدتها ... كسدت به الأداب بعد نفاق "
 " كم من غوامض قد صدعت بفهمها ... خفيت مداركها على الحذاق "
 " كم قاعد في البيد بعد قعوده ... قعدت به الآمال دون لحاق "
 " لمن الركائب بعد بعدك تنتضي ... ما بين شام ترتمي وعراق "
 " تغلى الفلا بمناسم مفلولة ... تسم الحصى بنجيعها الرقراق "
 " كانت إذا اشتكت الوجى وتوقفت ... يهفو نسيم تنائك الخفاق "
 " فإذا تنسمت الثناء أمامها ... مدت لها الأعناق في الإعناق "
 " يا مزجي البدن الفلاص خوافقا ... رفقا بها فالسعي في إخفاق "
 " مات الذي ورث العلا عن معشر ... ورثوا تراث المجد باستحقاق "

" رفعت لهم رايات كل جلالة ... فتميزوا في حلبة السباق "

" علم الهداة وقطب أعلام النهى ... حرم العفاة المجتنبى الأرزاق "

" رقت سجاياه وراقت مجتلى ... كالشمس في بعد وفي إشراق "

" كالزهر في لألانه والبيدر في ... عليائه والزهر في الإبراق "

" مهما مدحت سواه قيد وصفه ... وصفاته حمد على الإطلاق "

" يا وارثا نسب النبوة جامعا ... في العلم والأخلاق والأعراق "

" يا ابن الرسول وإنها لوسيلة ... يرقى بها أوج المصاعد راقى "

" ورد الكتاب بفضلكم وكمالكم ... فكفى ثناء الواحد الخلاق "

" مولاي إني في علاك مقصر ... قد ضاق عن حصر النجوم نطاقي "

" ومن الذي يحصي مناقب مجدكم ... عد الحصى والرمل غير مطاق "

" يهني قبورا زرتها فلقد ثوت ... منا مصون جوانح وحداق "

" خط الردى منها سطورا نصها ... لا بد أنك للفناء ملاق "

" ولحقت ترجمة الكتاب وصدرة ... وفوائد المكتوب في الإلحاق "

" كم من سراة في القبور كأنهم ... في بطنها در ثوى بحقاق "

" قل للسحاب اسحب ذبولك نحوه ... والعب بصارم برفك الخفاق "

" أودى الذي غيث العباد بكفه ... يزري بواكف غيثك الغيداق "

" إن كان صوبك بالمياه فدرها ... در يروض ما حل الإملاق "

" بشر كثير قد نعوا لما نعى ... قاضي القضاة وغاب في الأطباق "

" ألبستهم ثوب الكرامة ضافيا ... وأرحت من كد ومن إرهاق "

" يتفياون ظلال جاهك كلما ... لفحت سموم الخطب بالإحراق "

" عدموا المرافق في فراقك وانطوى ... عنهم بساط الرفق والإرفاق "

" رفعوا سريرك خافضين رؤوسهم ... مامنهم إلا حليف سياق "

" لكن مصيرك للنعيم مخلدا ... كان الذي أبقى على الأرماق "

" ومن العجائب أن يرى بحر الندى ... طود الهدى يسرى في الأعناق "

" إن يحملوك على الكواهل طالما ... قد كنت محمولا على الأحداق "

" أو يرفعوك على العواتق طالما ... رفعت ظهر منابر وعناق "

" ولئن رحلت إلى الجنان فإننا ... نصلى بنار الوجد والأشواق "

" لو كنت تشهد حزن من خلفته ... لثنى عنانك كثرة الإشفاق "

" إن جن ليل جن من فرط الأسى ... وسوى كلامك ما له من راق "

" فابعث خيالك في الكرى يبعث به ... ميت السرور لتاكل مشتاق "

" أغليت يا رزء التصبر مثلما ... أرخصت در الدمع في الآماق "

" إن يخلف الأرض الغمام فإنني ... أسقي الضريح بدمعي المهراق "

وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة

قال ابن الخطيب القسّمطيني في وفياته وفي هذه السنة يعني سنة 761 توفي شيخنا قاضي الجماعة بغرناطة حرسها الله تعالى أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني وكتب لي بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه وله شعر مدون سماه جهد المقل وله الشرح على الخزرجية في العروض وأقدم عليها بعد أن عجز الناس عن فكها وكان إماما في الحديث والفقه والنحو وهو على

الجملة ممن يحصل الفخر بلقائه ولم يكن أحد بعده مثله بالندلس انتهى

وقال في الإحاطة إن مولد الشريف كان سنة سبع وتسعين وستمائة وإن وفاته سنة ستين وسبعمائة وفي وفاته مخالفة لما تقدم والله أعلم

وما أحسن قول الشريف أبي القاسم المترجم به

" حدائق أنبتت فيها الغواصي ... ضروب النور رائقة البهاء "

" فما يبدو بها النعمان إلا ... نسبناه إلى ماء السماء "

ابنا الشريف

وكان للشريف أبي القاسم المذكور ابنان نجيبان أحدهما قاضي الجماعة أبو المعالي والآخر أبو العباس أحمد قال الراعي في كتابه الفتح المنير في بعض ما يحتاج إليه الفقير ما نصه حكاية تتعلق بالانقطاع نسأل الله تعالى العافية وقع للسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة أبي المعالي

ابن السيد الشريف أبي القاسم الحسن بن شارح الخزرجية ومقصورة حازم نفع الله تعالى بسلفهم الكريم وكانت أم السيد أبي المعالي حسينية فكان شريفا من الجهتين أنه كان قد ترك كبار الوظائف والرياسات وتجرد للعبادة ولبس المرقعة وسلك طريق القوم وكان من الدين والعلم والتعظيم في قلوب أهل الدنيا وأهل الآخرة على جانب عظيم يشار إليه بالأصابع وكان أخوه شيخي وأستاذي أبو العباس أحمد قاضيا بشرقي الأندلس فكان أخوه أبو المعالي المذكور لا يأكل في بيت شقيقه شيئا لأجل

ذلك ولعيشه من خدم السلطان وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهما من عنده اشتري له به ما يأكل وأقام على هذا الحالة الحسنة سنين كثيرة ثم إنه دخل يوما على الفقراء بزواية المحروق من ظاهر غرناطة وكان شيخ الفقراء بها في ذلك الوقت الشيخ أبا جعفر أحمد المحدود فقال لهم يا سادتي إنه كان معي قنديل أستضيء به فقدته في هذه الأيام وما بقيت أبصر شيئا فقال لهم شيخهم المذكور يا شريف أول رجل يدخل علينا في هذا المجلس يجيبك عن مسألتك فدخل عليهم رجل من خيارهم من أهل البادية فسلم وجلس فقال له الشيخ إن الشريف سأل الجماعة فقلت له أول رجل يدخل علينا يجيبك فوفقت أنت فأجبه عن مسألته فقال له ما سؤالك يا شريف فقال إنه كان لي قنديل أستضيء به فقدته وما بقيت أبصر شيئا فقال له الفقير هذا لا يصدر إلا عن سوء أدب أخبرنا بما وقع منك فقال له الشريف ما أعلم أنه وقع مني شيء غير أن المباشر فلانا طلبه السلطان للمصادرة فاستخفى منه فمررت ببابه يوما فناداني من شقة الباب يا سيدي اجعل خاطرك معي لله تعالى فقلت له أذكر الذكر الفلاني قلت وأنا أظن أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف فإنه سريع الإجابة في تفريح الشدائد والكرب نص عليه البيهقي في منتخبه وهو مجرب في ذلك وقد رواه لي عن بعض مشايخه السيد الشريف أحمد أخوه فقال له الفقير هل كان أذن لك في تلقينه قال لا قال له الفقير لا يعود إليك نورك أبدا لأنك قد أسأت الأدب فكان كما قال فانقطع وولي بعده قضاء الجماعة وعزل عن سخط وخدم الملوك وأكل طعامهم وحالته أولا وأخرا بغرناطة نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من المطرودين عن باب رحمته وكرمه انتهى كلام الراعي رحمه الله تعالى

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه وسامحه فنقول
2 - ومن مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن جابر الوادي أشي ولد بتونس وهو محمد ابن الإمام المحدث معين الدين جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد القيسي شيخ ممتع نبيل رحال متقن

قال الخطيب ابن مرزوق وعاشرته كثيرا سفرا وحضرا وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي وقرأت عليه الكثير وقيدت من فوائده وأنشدني الكثير فأول ما قرأت عليه بالقاهرة بمسجد " . . . " وقرأت عليه بمدينة فاس وبظاهر قسنطينة وبمدينة بجاية وبظاهر المهديّة وبمنزلي من تلمسان وقرأت عليه أحاديث عوالي من تخريج الدمياطي وفيها الحديث المسلسل بالأولية وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطي بشرطه ثم قرأت عليه أكثر كتاب الموطأ رواية يحيى وأعجله السفر فأتممته عليه في غير القاهرة وحدثني به عن جماعة ومعوله على الشيخين قاضي القضاة أبي العباس ابن الغماز الخزرجي وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبي محمد ابن هارون وهو عبد الله بن محمد القرطبي الطائي الكاتب المعمر الأديب بحق سماعه لأكثره على الأول وقراءته بأجمعه على الثاني قال الأول أخبرنا أبو الربيع ابن سالم بجميع طرقه فيه منها عن ابن مرزوق وأبي عبد الله ابن أبي عبد الله الخولاني عن أبي عمرو عثمان بن أحمد المعافري عن أبي عيسى بسنده وقال الثاني أخبرنا أبو القاسم ابن بقي بقرطبة أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الحق عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده

قال شيخنا وفي هذا السند غريبتان إحداهما أنه ليس فيه إجازة والثانية أن شيوخه كلهم قرطبيون قال ابن مرزوق قلت ولا غرابة في اتصال سماع الموطأ وقراءته فقد وقع لي علي قلة التحصيل متصلا من طرق ولله الحمد وقد روته عن قرطبي وهو أبو العباس ابن العشا ثم قرأت عليه كتاب الشفاء لعياض وحدثني به عن أبي القاسم عن أبي عبد الله ابن أبي القاسم الأنصاري المالقي نزيل سبتة ويعرف بها بابن حكم وبابن أخت أبي صالح عن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخزرجي عن أبي جعفر أحمد بن حكم عن المؤلف وحدثني به أيضا عن قاضي الجماعة ابن أبي الربيع ابن سالم عن أبي جعفر ابن حكم ثم قال ابن مرزوق بعد كلام ما صورته رويت عنه وأنشدني لأبي محمد ابن هارون " لا تطمعن في نفع ألك إنه ... ضرر وقل النفع عند الألك "

" أقصر رويدك إن ما أعلفته ... بالآل من اهل كمثل الآل "

ولابن هارون المذكور

" أقل زيارة الأحباب ... تزدد عندهم قربا "

" فإن المصطفى قد قال ... زر غبا تزد حبا "

ولابن هارون أيضا

" رمانني بالنوى زماني ... فشمّل الأنس مفترق "

" وليلبي كله فكر ... فقلبي منه محترق "

" وللآداب أبناء ... ببحر الفقر قد غرقوا "

" وكل منهم وجل ... بما يلقاه أو فرق "

" بغص بريقه منه ... كما في النطق أو شرق "

" وقد صفرت أكفهم ... فلا ورق ولا ورق "

" ولطف الله مرتقب ... به العادات تنخرق "

قال ابن مرزوق وشعره الفائق لا يحصر وهو عندي في مجلد كبير وولد ابن جابر سنة 67 وسمع

بمصر على جماعة وكتب بخطه كثيرا وله معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر وله نظم حسن

وتوفي بتونس سنة 779 وأخذ القراءات عن ابن الزيات وغيره وترجمة الحافظ ابن جابر رحمه الله

تعالى واسعة مشهورة وقد ذكرناه في غير هذا الكتاب بما جمعناه

أشعار لبعض شيوخ لسان الدين

ومما أنشده لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض المتصوفة من شيوخه ولم يسمه قوله

" هل تعلمون مصارع العشاق ... عند الوداع بلوعة الأشواق "

" والبين يكتب من نجيع ذمائمهم ... إن الشهيد بكم توى بفراق "

" لو كنت شاهد حالهم يوم النوى ... لرأيت ما يلقون غير مطاق "

" منهم كتيب لا يمل بكاءه ... قد أحرقت مدامع الأماق "

" ومحرق الأحشاء أشعل نارها ... طول الوجيب بقلبه الخفاق "

" وموله لا يستطيع كلامه ... مما يقاسي في الهوى ويلاقى "

" خرس اللسان فما يطبق عبارة ... ألم ألم وما له من راق "

" ما للمحب من المنون وقاية ... إن لم يجد محبوبه بتلاق "

" مولاي عبدك ذاهب بغرامه ... أدرك بفضلك من ذماه الباقي "

" إني إليك بذلتي متوسل ... فاعطف بلطف منك أو إشفاق "

وهذه الأبيات أوردها رحمه الله تعالى في الروضة في العشق بعد أن حده وتكلم عليه ثم أورد عدة

مقطوعات ثم ذكر منها هذه الأبيات كما ذكر

وأنشد لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض أشياخه وسماهم وأنسيته أنا الآن

" بما بيننا من خلوة معنوية ... أرق من النجوى وأحلى من السلوى "

" قفي ساعة في ساحة الدار وانظري ... إلى عاشق لا يستفيق من البلوى "

" وكمر قد سألت الريح شوقا إليكم ... فما حن مسراها علي ولا أوى "

وقوله أيضا

" أنست بوجدتي حتى لو أني ... أتاني الأنس لاستوحشت منه "

" ولم تدع التجارب لي صديقا ... أميل إليه إلا ملت عنه "

وقوله رحمه الله تعالى

" عليك بالعزلة إن الفتى ... من طاب بالقلة في العزلة "

" لا يرتجي عزلة وال ولا ... يخشى من الذلة في العزلة "

ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب رحمه الله تعالى جدي الإمام العلامة قاضي القضاة بحضرة - 3

الخلافة فاس المحروسة أبو عبد الله

قال في الإحاطة محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن

علي القرشي المقرئ يكنى أبا عبد الله قاضي الجماعة بفاس تلمساني

أوليته نقلت من خطه قال وكان الذي اتخذها من سلفنا قرارا بعد أن كانت لمن قبله مزارا عبد

الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرئ صاحب الشيخ

أبي مدين الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين وهو أبي الخامس فأنا محمد بن محمد

بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن وكان هذا الشيخ عروي الصلاة حتى إنه ربما امتحن

بغير شيء فلم يؤنس منه التفات ولا استشعر منه شعور ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين

هل المقري الجد قرشي

وكتب بعض المغاربة على هامش هذا المحل من الإحاطة ما صورته القرشي وهم انتهى فكتب تحته الشيخ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التلمساني رحمه الله تعالى ما نصه بل صحيح نطقت به الألسن والمكاتبات والإجازات وأعربت عنه الخلال الكريمة إلا أن البلدية يا سيدي أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية في إمام المغرب أبي عبد الله المقري وهما والحمد لله انتهى قلت وممن صرح بالقرشية في حق الجد المذكور ابن خلدون في تاريخه وابن الأحمر في نثر الجمان وفي شرح البردة عند قوله " ... لعل رحمة ربي حين ينشرها "

والشيخ ابن غازي والولي الصالح سيدي أحمد رزوق والشيخ العلامة علامة زمانه سيدي أحمد الونشريسي وغير واحد وكفى بلسان الدين شاهدا مزكى وقد ألف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفا استوفى فيه التعريف بمولاي الجد سماه النور البدر في التعريف بالفقيه المقري وهذا بناء منه على مذهبه أنه يفتح الميم وسكون القاف كما صرح بذلك في شرح الألفية عند قوله " ... ووضعوا لبعض الأجناس علم "

وضبطه غيرهم وهم الأكثرون بفتح الميم وتشديد القاف وعلى ذلك عول أكثر المتأخرين وهما لغتان في البلدة التي نسب إليها وهي مقرة من قرى زاب إفريقية وانتقل منها جده إلى تلمسان صحبة شيخه ولي الله سيدي أبي مدين رضي الله عنه رجع إلى تكملة كلام مولاي الجد في حق أوليته

قال رحمه الله تعالى بعد الكلام السابق في حق جده عبد الرحمن ما صورته ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار واتخذوا طبلا للرحيل وراية تقدم عند المسير وكان ولد يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومتا نسبي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بإيالاتن فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الإمام وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرحجان ويكاتبهما باحوال التجار وأخبار البلدان حتى اتسعت أموالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم ولما فتح التكرور كورة إيالاتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال ونصب دونها ودون مالهم القتال ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده وخاطبه بالصدق الأحب والخلاصة الأقرب ثم صار يكاتب من بتلمسان يستقضي منهم مآربه فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة وعندني من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبئ عن ذلك فلما استوثقوا من الملوك تذلت لهم الأرض للسلوك فخرجت أموالهم عن الحد وكادت تفوت الحصر والعد لأن بلاد الصحراء قبل أن يدخلها أهل مصر كان يجلب إليها من المغرب ما لا بال له من السلع فتعاوض عنه بما له بال من الثمن أي مدبر دنيا ضم جنبا أبي حمو وشمل ثوباه كان يقول لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع ومن سواهم يحمل منها الذهب ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ومنه ما يغير من العوائد ويجر السفهاء إلى المفاسد ولما درج هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمين قيامهم وصادفوا توالي الفتن ولم يسلموا من جور السلاطين فلم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمن فما أنا ذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فضوله عيشا وأصوله حرمة ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب وأسباب كثيرة تعين على الطلب ففرغت بحول الله عز وجل للقراءة فاستوعبت أهل البلد لقاء وأخذت عن بعضهم عرضا وإلقاء سواء المقيم القاطن والوارد والطاعن انتهى كلامه في أوليته وقد نقله لسان الدين في الإحاطة

وقال مولاي الجد رحمه الله تعالى كان مولدي بتلمسان أيام أبي حمو موسى عثمان بن يغمراسن بن زيان وقد وقفت على تاريخ ذلك ولكني رأيت الصفح عنه لأن أبا الحسن ابن مؤمن سأل أبا طاهر السلفي عن سنه فقال أقبل على شانك

فإني سألت أبا الفتح ابن زيان عن سنة فقال أقبل على شانك فإني سألت علي بن محمد اللبان عن سنة فقال أقبل على شانك فإني سألت أبا القاسم حمزة بن يوسف السهمي عن سنة فقال أقبل على شانك فإني سألت أبا بكر محمد بن عدي المنقري عن سنة فقال أقبل على شانك الشافعي عن سنة فقال أقبل على شانك فإني سألت الشافعي عن سنة فقال أقبل على شانك سألت مالك بن أنس عن سنة فقال أقبل على شانك من المروءة للرجل أن يخبر بسنة انتهى قلت ولما تذاكرت مع مولاي العم الإمام صب الله تعالى على مضجعه من الرحمة الغمام هذا المعنى الذي ساقه مولاي الجد رحمه الله تعالى أنشدني لبعضهم " احفظ لسانك لا تبخ بثلاثة ... سن ومال ما استطعت ومذهب "

" فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة ... بمكفر وبحاسد ومكذب "

قال الونشريسي في حق الجد ما نصه القاضي الشهير الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن محمد المقرئ التلمساني المولد والمنشأ الفاسي المسكن كان رحمه الله تعالى عالما عاملا طريفا نبيا ذكيا نبيلاً فهما متيقظا جزلاً محصلاً انتهى

وقد وقفت له بالمغرب على مؤلف عرف فيه بمولاي الجد وذكر جملة من أحواله وذلك أنه طلبه بعض أهل عصره في تأليف أخبار الجد فألف فيه ما ذكر وقال في الإحاطة في ترجمة مولاي الجد بعد ذكره أوليته ما صورته حاله هذا الرجل مشار إليه بالعدوة الغربية اجتهاداً ودؤوباً وحفظاً وعناية واطلاعا ونقلًا ونزاهة سليم الصدر قريب الغور صادق القول مسلوب التصنع كثير الهشة مفرط الخفة ظاهر السذاجة ذاهب أقصى مذاهب التخلق محافظ على العمل مثار على الإنقطاع حريص على العبادة مضائق في العقد والتوجه يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة ثم يغافض الوقت فيها ويوقعها دفعة متبعا إياها زعقة التكبير برحمة ينبو عنها سمع من لم تؤنسه بها العادة بما هو دليل على حسن المعاملة وإرسال السجدة قديم النعمة متصل الخيرية مكب على النظر والدرس والقراءة معلوم الصيانة والعدالة منصف في المذاكرة حاسر للذراع عند المباحثة راحب عن الصدر في وطيس المناقشة غير مختار للقرن ولا ضان بالفائدة كثير الالتفات متقلب الحدقة جهير بالحجة بعيد عن المرء والمباهتة قائل بفضل أولي الفضل من الطلبة يقول أتم القيام على العربية والفقه والتفسير وبحفظ الحديث ويتهجر بحفظ التاريخ والأخبار والآداب ويشارك مشاركة فاضلة في الأصليين والجدل والمنطق ويكتب ويشعر مصيبا غرض الإجابة ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ويعتني بالتدوين فيها شرف وحج ولقي جلة واضطين رحلة مفيدة ثم عاد إلى بلده فأقرأ به وانقطع إلى خدمة العلم فلما ولي ملك المغرب السلطان محالف الصنع ونشيدة الملك وأثير الله من بين القرابة والأخوة أمير المؤمنين أبو عنان اجتذبه وخلطه بنفسه واشتمل عليه وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس فاستقل بذلك أعظم الاستقلال وأنفذ الحق وألان الكلمة وأثر التسديد وحمل الكل وخفض الجناح فحسنت عنه القالة وأحبته الخاصة والعامة حضرت بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللد وتأنيه للحجج ورفقه بالخصوم ما قضيت منه العجب

دخوله غرناطة ثم لما أخر عن القضاء استعمل بعد لأي في الرسالة فوصل الأندلس أوائل جمادى الثانية من عام سبعة وخمسين وسبعمائة فلما قضى غرض رسالته وأبرم عقد وجهته واحتل مالقة في منصرفه بدا له في نبد الكلفة وإطراح وظيفة الخدمة وحل التقيد إلى ملازمة الإمرة فتقاعد وشهر غرضه ويت في الانتقال طمع من كان صحبته وأقبل على شأنه فخلي بينه وبين همه وترك وما انتحله من الانقطاع إلى ربه وطار الخبر إلى مرسله فأنف من تخصيص إيلته بالهجرة والعدول عنها يقصد التخلي والعبادة وأنكر ما حقه الإنكار من إبطال عمل الرسالة والانقباض قبل الخروج عن العهدة فوغر صدره على صاحب الأمر ولم يبعد حملة على الظنة والمواطأة على النفرة وتجهزت جملة من الخدام المجلين في مازق الشبهة المصطلعين بإقامة الحجة مولين خطة الملام مخيرين بين سحائب عاد من إسلامه مظنة إغلاق النعمة وإيقاع العقوبة أو الإشادة بسبب إجارته بالطبيعة والمنايذة وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فنذمم بمسجدها وجر بالانقطاع إلى الله وتوعد من يجبره بنكير من يجير ولا يجار عليه سبحانه فأهم أمره وشغلت القلوب أبدته وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعته اقتضى له فيها رفع التبعة وتركه إلى تلك الوجهة ولما تحصل ما تيسر من ذلك إنصرف محقوفا بعالمي القطر قاضي الجماعة أبي القاسم الحسن بن المذكور قبله والشيخ الخطيب أبي البركات ابن الحاج مسلمين لوروده مشافهين بالشفاعة في غرضه فانقشعت الغمة وتنفست الكربة واستصحبها من المخاطبة

السلطانية في أمره من إملائي ما يذكر حسبما ثبت في الكتاب المسمى بكناسة الدكان بعد انتقال السكان المجموع بسلا ما صورته

المقام الذي يحب الشفاعة ويرعى الوسيلة وينجز العدة ويتمم الفضيلة ويضفي مجده المنن الجزيلة ويعيي حمده الممدوح العريضة الطويلة مقام محل والدنا الذي كرم مجده ووضع سعده وصح في الله تعالى عقده وخلص في الأعمال الصالحة قصده وأعجز الألسنة حمده السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها وشفاعة يكرم مسعاها وأخلاق جميلة تجيب دعوة الطبع الكريم إذا دعاها معظم سلطانه الكبير وممجد مقامه الشهير المتشيع لأبوتة الرفيعة قولاً باللسان واعتقاداً بالضمير المعتمد منه بعد الله على الملجأ الأحمي والولي النصير فلان سلام كريم طيب بر عميم يخص مقامكم الأعلى وأبوتكم الفضلى ورحمة الله وبركاته

أما بعد حمد الله الذي جعل الخلق الحميد دليلاً على عنايته بمن جلاه حلاها وميز بها النفوس النفيسة التي اختصها بكرامته وتولاها حمداً يكون كفواً للنعم التي أولاهها وأعادها ووالاها والصلاة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله المترقي من درجات الاختصاص أرفعها وأعلاها الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها وإجلالها مطلع آيات السعادة يروق مجتلاها والرضى عن آله وصحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لما ابتلاها وعسل ذكهم في الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها والدعاء لمقام أبوتكم حرس الله تعالى علاها بالسعادة التي يقول الفتح أنا طلاع الثنايا وابن جلاها والصنائع

التي تخترق المفاوز بركائبها المبشرات فتفلي فلاها فإننا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم عزة مشيدة البناء وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الثناء وقلدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء من حمراء غرناطة حرسها الله والود باهر السنا ظاهر السناء مجدد على الأناء والتشيع ربح الدسيعة والفاء

وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم وحرس مجدكم فإننا خاطبنا مقامكم الكريم في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المقرئ خار الله تعالى لنا وله وبلغ الجميع من فضله العميم أملة جواباً عما صدر عن مثابكم فيه من الإشارة الممتثلة والمأرب المعملة والقضايا غير المهملة نصادركم بالشفاعة التي مثلها بأبوابكم لا يرد وطمأها عن منهل قبولكم لا تحلاً ولا تصد حسبما سنه الأب الكريم والجد والقبيل الذي وضح منه في المكارم الرسم والحد ولم تصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيلة وتبلج صبح الزهادة والفضيلة وجود النفس الشحيحة بالعرض الأدنى البخيلة وظهر تخليه عن هذه الدار واختلاطه باللغيف والعمار وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد ومداومة الاستغفار وكنا لما تعرفنا بإقامته بمالقة لهذا الغرض الذي شهره والفضل الذي أبرزه للعيان وأظهره أمرنا أن يعنني بأحواله ويعان على فراغ باله ويجري عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله وقلنا ما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله ففر من مالقة على ما تعرفنا لهذا السبب وقعد بحضرتنا مستور المنتمى والمنتسب وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لسكنى المتسمين بالخير والمحترفين ببضاعة الطلب بحيث لم يتعرف وروده ووصوله إلى ممن لا يؤبه بتعريفه ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلة تعريفه ثم تلاحق إرسالكم الجلة فوجبت حينئذ الشفاعة وعرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعة وقررنا ما تحققناه من أمره

وانقباضه عن زيد الخلق وعمره واستقباله الوجهة التي من ولى وجهه شطرها فقد أثر أثيراً ومن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلاً كبيراً وخيراً كثيراً وسألنا منكم أن تبيحوا له ذلك الغرض الذي رماه بعزمه وقصر عليه أقصى همه فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقي وقسمه ويتوسل الزاهد بزهده والعالم بعلمه ويعول البرئ على فضله وينق المذنب بحلمه فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان وهو أرب من آراب وفائدة من جراب ووجه من وجوه إعراب فرأينا أن المطل بعد جفاء والإعادة ليس ينقلها خفاء ولمجدكم بما ضمنا عنه وفاء وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله وأن يكون الانتقال عن رضى منه من صفة حاله وأن يقتضي له ثمرة المقصد ويبلغ طية الإسعاف في الطريق الأقصد إذ كان الأمان لمثله ممن تعلق بجناب الله مثلكم حاصلاً والدين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلاً وطالب كيمياء السعادة بإعانتكم واصلوا ولما مدت اليد في تسويق حالة هديكم عليها أبداً يحرض وعلمكم يصرح بمزيتها فلا يعرض فكملوا أبقاكم الله ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب والحقوا بالأصل حديث هذه الإياحة فهو أصح حديث في الباب ووفوا غرضنا من مجدكم وخلوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب وقصد غافر

الذنب وقابل التوب بإخلاص المتاب والتشمير ليوم العرض وموقف الحساب وأظهروا عليه عناية الجناب الذي تعلق به أعلق الله به يدكم من جناب ومعاذ الله أن تعود شفاعتنا من لدنكم غير مكملة الارباب

وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المناب ويقتضي خلاصها بالرغبة لا بالغلاب وهما فلان وفلان ولولا الأعدار لكان في هذا الغرض إعمال الركاب يسبق أعلام الكتاب وأتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل ويربي على التأميل ويكتب على الود الصريح العقد وثيقة التسجيل وهو سبحانه يبيدكم لتأييد المجد الأثيل وإنالة الرفد الجزيل والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ومثابنتكم الفضلى ورحمة الله تعالى وبركاته في الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة انتهى كلام ابن الخطيب في الإحاطة وذكر في الريحانة أنه كتب في هذا الغرض ما نصه

وإلى هذا فإننا وقفنا على كتابكم الكريم في شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبي عبد الله المقري وفقنا الله وإياه لما يزلف لديه وهدانا لما يقرب إليه وما بلغكم يتقاعده بمالقة وما أشترتم به في أمره فاستوفينا جميع ما قررتم واستوعبنا ما أجملتم في ذلك وفسرتم واعلموا يا محل والدنا أمتنا الله بيقائكم الذي في ضمنه اتصال السعادة وتعرف النعم المعادة أننا لما انصرف عن بابنا هو ومن رافقه عن انشراح صدور وتكليف جذل بما تفضلتم به وسرور تعرفنا أنه تقاعد بمالقة عن صحبه وأظهر الاشتغال بما يخلصه عنه ربه وصرف الوجه إلى التخلي مشفقاً من ذنبه واحتج بأن قصده ليس له سبب ولا تعين له في الدنيا أرب وأنه عرض عليكم أن تسمحوا له فيما ذهب إليه وتقروه عليه فيعجل البدار ويمهد تحت إيالتكم القرار فلما بلغنا هذا الخبر لم يخلق الله عندنا به مبالاة تعتبر ولا أعدناه فيما يذكر فكيف فيما ينكر وقطعنا أن الأمر فيه هين وأن مثل هذا الغرض لا تلتفت إليه عين فإن بابكم غني من طبقات أولي الكمال ملي بتسويغ الآمال موفور الرجال معمر بالفقهاء العارفين بأحكام الحرام والحلال والصلحاء أولي المقامات والأحوال والأدباء فرسان الروية والارتجال ولم ينقص بفقدان الحصى أعداد الرمال ولا يستكثر بالقطرة جيش العارض المنثال مع ما علم من إعانتكم على مثل هذه الأعمال واستمساكم بإسعاف غرض من صرف وجهه إلى ذي الجلال ولو علمنا أن شيئاً يهيجس في خاطر من أمر مقامه لقابلناه بعلاج سقامه ثم لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزا في طور التقلل والتخفيف خالطا

نفسه باللغيف قد صار نكرة بعد العلمية والتعريف وسكن بعض مواضع المدرسة منقبضا عن الناس لا يظهر إلا لصلاة يشهد جماعتها ودعوة للعباد يخاف إضاعتها ثم تلاحق إرسالكم الجلة الذي تحق لمثلهم النجلة فحضروا لدينا وأدوا المخاطبة الكريمة كما ذكر إلينا وتكلمنا معهم في القضية وتنخلنا في الوجوه المرضية فلم نجد وجهها أخلص من هذا الغرض ولا علاجاً يتكفل ببراء المرض من إن كلفناهم الإقامة التي يتبرك بيمن جوارها ويعمل على إثارتها بخلاف ما نخاطب مقامكم بهذا الكتاب الذي مضمونه شفاعة يضمن حباؤكم احتسابها ويرعى انتماءها إلى الخلوص وانسابها ويعيدها وقد أعملت الخطوة أثوابها ونقصدكم ومثلكم من يقصد في المهمة فأنتم المثل الذائع في عموم الحلم وعلو الهمة في أن تصدروا له مكتوبيا مكمل الفصول مقرر الأصول يذهب الوجل ويرفع الخجل ويسوغ من مآربه لديكم الأمل ويخلص النية ويرتب العمل حتى يظهر ما لنا عند أوتكم من تكميل المقاصد جريا على ما بذلتكم من جميل العوائد وإذا تحصل ذلك كان بفضل الله إياه وأناخت بعقوة وعدكم الوفي ركابه ويحصل لمقامكم عزه ومجده وثوابه وأنتم ممن يرعى أمور المجد حق الرعاية ويجري في معاملة الله تعالى على ما أسس من فضل البداية وتحقق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حوزة الإسلام والحماية هذا ما عندنا أعجلنا به الإعلام وأعملنا فيه الأقدام بعد أن أجهدنا الاختيار وتنخلنا الكلام وجوابكم بالخير كليل ونظركم لنا وللمسلمين جميل والله تعالى يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام انتهى

قلت هذه أفة مخالطة الملوك فإن مولاي الجد المذكور كان نزل عن القضاء وغيره فلما أراد التخلي إلى ربه لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت

شيوخ المقرئ الجد

وقد ذكر لسان الدين رحمه الله تعالى في الإحاطة شيوخ مولانا الجد فلنذكرهم من جزء الجد الذي سماه نظم اللآلي في سلوك الأمالي ومنه اختصر لسان الدين ما في الإحاطة في ترجمة مشيخته فنقول قال مولاي الجد رحمه الله تعالى

فممن أخذت عنه واستفدت منه علماها يعني تلمسان الشامخان وعالماها الراسخان أبو زيد - 12
عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام وكانا قد رحلا في شبابهما من

بلدهما برشك إلى تونس فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار والبيفرني وتلك الحلبة وأدركا المرجاني وطبقته من إعجاز المائة السابعة ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المسلمين أبي يعقوب وهو محاصر لها وفقهه حضرته يومئذ أبو الحسن علي بن يخلف التنسي وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد وارتفع شأنه عند أبي يعقوب حتى إنه شهد جنازته ولم يشهد جنازة أحد قبله وقام على قبره وقال نعم الصاحب فقدنا اليوم حدثني الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسي في الخيل حوالي روضة الشيخ أبي مدين فقال كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ هلا عرضتم هنالك وأشار إلي حيث المعراض الآن خشبة ففعلنا فلما قتل أبو يعقوب وخرج المحصورون أنكروا ذلك فأخبرتهما فأما أبو زيان وكان السلطان يومئذ فنزل وطأ رأسه ودخل

وأما أبو جمو وكان أميراً فوثب وخلفها ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصا ابني الإمام وكان أبو جمو أشد اعتناء بهما ثم بعده ابنه أبو تاشفين ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وفاة طريف بأشهر فزادت مرتبة أبي موسى عند السلطان إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الواقعة فتوجه صحبة ابنه أمير المسلمين أبي عنان إلى فاس ثم رده إلى تلمسان وقد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام قال لي خطيب الحضرة الفاسية أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبد الله الرندي لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القفول إلى تلمسان بت على تشييعهم فرأيتني كأني نظمت هذا البيت في المنام

" وعند وداع القوم ودعت سلوتي ... وقلت لها بيني فأنت المودع " فانتبهت وهو في في فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لي مثله ولما استحكم ملك أبي تاشفين واستوثق رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة فلقيا علاء الدين القونوي وكان بحيث إنني لما رحلت فلقيت أبا علي حسين بن حسين ببجاية قال لي إن قدرت أن لا يفوتك شيء من كلام القونوي حتى تكتب جميعه فافعل فإنه لا نظير له ولقيا أيضا جلال الدين القزويني صاحب البيان وسمعا صحيح البخاري على الحجار وقد سمعته أنا عليهما وناظرا تقى الدين بن تيمية وظهرها عليه وكان ذلك من أسباب محنته وكانت له مقالات فيما يذكر وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين حدثني شياخي العلامة أبو عبد الله الأبلبي أن عبد الله بن إبراهيم الزموري أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه

" محصل في أصول الدين حاصله ... من بعد تحصيله علم بلا دين " " أصل الضلالة والإفك المبين فما ... فيه فأكثره وحي الشياطين " قال وكان في يده قضيب فقال والله لو رأيت لضررت بهذا القضيب هكذا ثم رفعه ووضعه وبحسبك مما طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق أني لما حللت بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب وذلك أني قصدت قاضيه شمس الدين بن سالم ليضع لي يده على رسم أستوجب به هنالك حقا فلما أطلت عليه عرفه بي بعض من معه فقال إلي حتى جلست ثم سألتني بعض الطلبة بحضرته فقال لي إنكم معشر المالكية تبيحون للشامي يمر بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجحفة وقد قال رسول الله بعد أن عين المواقيت لأهل الأفاق هن لهن ولهن مر عليهن من غير أهلهن وهذا قد مر علي ذي الحليفة وليس من أهله فيكون له فقلت له إن النبي قال من غير أهلهن أي من غير أهل المواقيت وهذا سلب كلي وإنه غير صادق على هذا الفرد ضرورة صدق نقيضه وهو الإيجاب الجزئي عليه لأنه من بعض أهل المواقيت قطعاً فلما لم يتناول النص رجعا إلى القياس ولا شك أنه لا يلزم أحداً أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة فوجب عليه الإحرام من ميقاتها بخلاف أهل الجحفة فإنها بين أيديهم وهم يمرون عليها فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك فلما عرفت أتاني أت من أهل المغرب فقال لي تعلم أن مكانك في

نفوس أهل هذا البلد مكين وقدرك عندهم رفيع وأنا أعلم انقباضك عن ابني الإمام فإن سئلت فانتسب لهما فقد سمعت منهما وأخذت عنهما ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما فتضع من قدرك فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووارث علمهما وأن لا أحد فوقهما

" ... وليس لما تبني يد الله هادم "

وشهدت مجلسا بين يدي السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو ذكر فيه أبو زيد ابن الإمام أن ابن القاسم مقلد مقيد النظر بأصول مالك ونازعه أبو موسى عمران بن موسى المشدالي وادعى أنه مطلق الاجتهاد واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله واتى من ذلك بنظائر كثيرة قال فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين التلمساني مثل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزني إلى الشافعي فقال عمران هذا مثال والمثال لا تلزم صحته فصاح به أبو موسى ابن الإمام وقال لأبي عبد الله ابن أبي عمرو تكلم فقال لا أعرف ما قال هذا الفقيه الذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل فقال أبو موسى للسلطان هذا كلام أصولي محقق فقلت لهما وأنا يومئذ حديث السن ما أنصفتما الرجل فإن المثل كما تؤخذ على جهة التحقيق كذلك تؤخذ على طريق التقريب ومن ثم جاء ما قاله هذا الشيخ أعني ابن أبي عمرو وكيف لا وهذا سيبويه يقول وهذا مثال ولا يتكلم به فإذا صح أن المثال قد يكون تقريبا فلا يلزم صحة المثال ولا فساد الممثل لفساده فهذان القولان من أصل واحد

وشهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان قرئ فيه على أبي زيد ابن الإمام حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله في صحيح مسلم فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوي هذا الملقن محتضر حقيقة ميت مجازا فما وجه ترك محتضركم إلى موتاكم والأصل الحقيقة فأجاب أبو زيد بجواب لم يقنعه وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح فقلت زعم القرافي أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال مجازا في الاستقبال مختلفا فيه في الماضي إذا كان محكوما به أما إذا كان متعلق الحكم كما هنا فهو في حقيقة مطلقا إجماعا وعلى هذا التقرير لا مجاز فلا سؤال لا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر لأننا نقول أنه نقل الإجماع وهو أحد الأربعة التي لا يطالب مدعيها بالدليل كما ذكر أيضا بل نقول إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها بل هذا أشنع لكونه مما علم من الدين بالضرورة ثم إننا لو سلمنا نفي الإجماع فلنا أن نقول إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة لأن تلقينه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش فهو تنبيه على وقت التلقين أي لقنوا من تحكمون بأنه ميت أو نقول إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام ألا ترى اختلافهم فيه هل أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل أو حضور الجلاس ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصبها دليلا على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها وهو ما ذكرناه أو من حضور الموت وهو أيضا مما لا يعرف بنفسه بل بالعلامات فما وجب اعتبارها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها والله تعالى أعلم

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبي زيد وإذا سلم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم من خلفه لئلا يمر بين يدي أحد وقد ارتفع عنه حكمه فيكون كالدخل مع المسبوق جمعا بين الأدلة قلت وهذا من ملح الفقيه

اعترض عند أبي زيد قول ابن الحاجب ولبن الأدمي والمباح طاهر بأنه إنما يقال في الأدمي لبان فأجاب بالمنع واحتج بقول النبي اللبن للفحل وأجيب بأن قول ذلك لتشريكه المباح معه في الحكم لأن اللبان خاص به وليس موضع تغليب لأن اللبان ليس بعاقل ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل

تكلم أبو زيد يوما في مجلس تدريسه في الجلوس على الحرير فاحتج إبراهيم السلوي للمنع بقول أنس فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراض فحسب لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها وذكر حديثا فيه تغطية الحصير فقلت كلا الأمرين يسمى لباسا قال الله عز وجل " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن " البقرة 187 وفيه بحث

كان أبو زيد يصحف قول الخونجي في الجمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها فيقول والمفارقاة ولعله في هذا كما قال أبو عمرو ابن العلاء للأصمعي لما قرأ عليه

" ... وغررتني وزعمت أنك لابن بالضيف تامر "

فقال

" ... وغررتني وزعمت أنك لا تني بالضيف تامر "

فقال أنت في تصحيفك أشعر من الحطينة أو كما حكى عمن صلى بالخليفة في رمضان ولم يكن يومئذ يحفظ القرآن فكان ينظر في المصحف فصحف آيات صنعة الله أصيب بها من أساء إنما المشركون نحس وعددها

أباه تقيّة الله خير لكم هذا أن دعوا للرحمن ولدا لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه سمعت أبا زيد يقول إن أبا العباس الغماري التونسي أول من أدخل معالم الإمام فخر الدين للمغرب وبسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم ابن زيتون وسمعتة يقول إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهي من ستين ديوانا وحفظت من وجادة أنه ذكر عند أبي عبد الله ابن قطرال المراكشي أن ابن الحاجب اختصر الجواهر فقال ذكر هذا لأبي عمرو حين فرغ منه فقال بل ابن شاس اختصر كتابي قال ابن قطرال وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا في الشيء اليسير فهما أصلاه ومعتماه ولا شك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه وبعد مداه وكان أبو زيد من العلماء الذين يخشون الله حدثني أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد فقال له أبو زيد لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلي ركعتين كما فعل علي ابن أبي طالب وسأله أبو الفضل ابن أبي مدين الكاتب ذات يوم عن حاله وهو قاعد ينتظر خروج السلطان فقال له أما الآن فأنا مشرك فقال أعيذك من ذلك فقال لم أرد الشرك في التوحيد لكن في التعظيم والمراقبة وإلا فأني شيء جلوسي ههنا

والشيء بالشيء يذكر قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه فقام إلى جانبي شيخ من الطلبة وأنشدني لأبي بكر ابن الخطاب رحمه الله تعالى " أبصرت أبواب الملوك تغص بالراحين ... إدراك العلا والجاه " " مترقبين لها فمهما فتحت ... خروا لأذقان لهم وجباه " " فأنت من ذاك الزحام وأشفت ... نفسي على إنضاء جسمي الواهي " " ورأيت باب الله ليس عليه من ... متزاحم فقصدت باب الله " " وجعلته من دونهم لي عدة ... وأنت من غيي وطول سفاهي " يقول جامع هذا المؤلف رأيت بخط عالم الدنيا ابن مرزوق على هذا المحل من كلام مولاي الجد مقابل قوله ورأيت باب الله ما صورته قلت ذلك لسعته أو لقله أهله إن الكرام كثير في البلاد وإن ... قلو كما غيرهم قل وإن كثروا " " قل لا يستوي الخبيث والطيب " " الآية المائدة 100 انتهى

رجع إلى كلام مولاي الجد قال رحمه الله تعالى ورضي عنه وحدثني شيخ من أهل تلمسان أنه كان عند أبي زيد مرة فذكر القيامة وأهوالها فبكى فقلت لا بأس علينا وأنتم أمامنا فصاح صيحة واسود وجهه وكاد يتفجر دما فلما سري عنه رفع يديه وطرّفه إلى السماء وقال اللهم لا تفضحنا مع هذا الرجل وأخباره كثيرة

وأما شقيقه أبو موسى فسمعت عليه كتاب مسلم واستفدت منه كثيرا فمما سألته عنه قول ابن الحاجب في الاستلحاق وإذا استلحق مجهول النسب إلى قوله أو الشرع بشهرة نسبه كيف يصح هذا القسم مع فرضه مجهول النسب فقال يمكن أن يكون مجهول النسب في حال الاستلحاق ثم يشتهر بعد ذلك فيبطل الاستلحاق فكأنه يقول ألحقه ابتداء ودواما ما لم يكذبه أحد هذه هي إحدى الحالتين إلا أن هذا إنما يتصور في الدوام فقط ومما سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع وكثيرا ما ينكشف الأمر بخلافه ولو كتبوا مثلا ظاهر الصحة والجواز والطوع لبرئوا من ذلك فقال لي لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم لم يجمل ذكر الظن ولا ما في معناه احتمال فإذا أمكن العلم بمضمونها لم يجز أن يحمل على غيره فإذا تعذر كما ها هنا بني باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادة وأجري ظاهره على ما ينافي أصلها صيانة لرونقها ورعاية لما كان ينبغي أن تكون عليه لولا الضرورة قلت ولذلك عقد ابن فتوح وغيره عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير مع ان ذلك إنما يدرك بما غايته الظن في الحزر والتخمين وكانا معا يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد

وممن أخذت عنه أيضا حافظها ومدرسها ومفتيها أبو موسى عمران ابن موسى بن يوسف - 3 المشدالي صهر شيخ المدرسين أبي علي ناصر الدين على ابنته وكان قد فر من حصار بجاية فنزل الجزائر فبعث فيه أبو تاشفين وأنزله من التقريب والإحسان بالمحل المكين فدرس بتلمسان الحديث والفقهاء والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض وكان كثيرا الاتساع في الفقه والجدل مديد الباع فيما سواهم مما ذكر سألته عن قول ابن الحاجب في السهو فإن أخال الإعراض فمبطل عمدته فقال معناه أخال غيره أنه معرض فحذف المفعول لجوازه وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من أن وأن قال الله العظيم " الم

أحسب الناس أن يتركوا " العنكبوت 1 - 2 قلت وأقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثاني وحذف الثالث اختصاراً لدلالة المعنى عليه أي فإن أخال الإعراض كائنا قالوا قلت ذلك وقد أعربت الآية بالوجهين وهذا عندي أقرب ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم أعلم باستقلاله فلان أي أعلم فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقل فحذفوا الأول وصاغوا ما بعده المصدر سئل عمران وأنا عنده عما صبغ من الثياب بالدم فكانت حمرة منه فقال يغسل فإن لم يخرج شيء من ذلك في الماء فهو طاهر لأن المتعلق به على هذا التقدير ليس إلا لون النجاسة وإذا عسر قلعه بالماء فهو عفو وإلا وجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء قلت في البخاري قال معمر رأيت الزهري يصلي فيما صبغ بالبول من ثياب اليمن وتفسيره على ما ذكره عمران وكان قد صاهر لقاضي الجماعة أبي عبد الله بن هرية على ابنته فلم تزل عنده إلى أن توفي عنها ومنهم مشكاة الأنوار الذي يكاد زيتته يضيء ولو لم تمسسه نار الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن - 4 حكم السلوي رحمه الله تعالى ورد تلمسان بعد العشرين ثم لم يزل بها إلى أن قتل يوم دخلت على بني عبد الواد وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعمائة قال لي الشيخ ابن مرزوق ابتداءً أمر بني عبد الواد بقتلهم لأبي الحسن السعيد وكان أسمر لأم ولد تسمى العنبر وختم بقتل أبي الحسن ابن عثمان إياهم وهو بصفته المذكورة حذوك النعل بالنعل فسيحان من دقت حكمته في كل شيء ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي في رحلتهم على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة ثم كتب بها على جدار هناك

" انظر فقي إليك اليوم معتبر ... إن كنت ممن بعين الفكر قد لحظا "

" بالأمس أدعى سعيدي والورى خولي ... واليوم يدعى سعيديا من بي اعظا "

قال ابن حكم كان أول اتصالي بالأستاذ أبي عبد الله ابن أجروم أني دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب المفصل فوجدت الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت

" عهدي به الحي الجميع وفيهم ... قبل التفرق ميسر وندام "

وقد عمي عليهم خبر عهدي فقلت له قد سدت الحال وهي الجملة بعده مسده فقال لي بعض الطلبة وهل يكون هذا في الجملة كما كان في قولك ضربني زيدا قائما فقلت له نعم قال رسول الله أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ذكر أبو زيد ابن الإمام يوما في مجلسه أنه سئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين " ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون " الأنفال 23 فإنهما تستلزمان بحكم الإنتاج لو علم الله فيهم خيرا لتولوا وهو محال ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين فقال ابن حكم قال الخونجي والإهمال بإطلاق لفظ لو وإن في المتصلة فهاتان القضيتان على هذا مهملتان والمهملة في قوة الجزئية ولا قياس عن جزئيتين فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين وأخبرته بهذا وبما أحاب به الزمخشري وغيره مما يرجع إلى انتفاء تكرر الوسط قال لي الجوابان به في المعنى سواء لأن القياس على

الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرر الوسط فأخبرت بذلك شيخنا الأيلي فقال إنما يقوم القياس على الوسط ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالتين إلى سائر ما يشترط فقلت ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما ينبنى عليه من الوسط وغيره وإلا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين قال الأيلي وقد أجبت بجواب السلوى ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية لأن الشرطية لا تنتج جزئية فقلت هذا فيما يساق منها للحجة مثل " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " الأنبياء 22 أما في مثل هذا فلا ولما ورد تلمسان الأديب أبو الحسن ابن فرحون نزيل طيبة على تربتها السلام سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين

" رأيت قمر السماء فأذكرتني ... ليالي وصلها بالرقمتين "

" كلانا ناظر قمرنا ولكن ... رأيت بعينها ورأت بعيني "

ففكر ثم قال لعل هذا الرجل كان ينظر إليها وهي تنظر إلى قمر السماء فهي تنظر إلى القمر حقيقة وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة وأيضا فهو ينظر إلى قمر مجازا وهو لإفراط الاستحسان لها يرى أن قمر السماء هو المجاز فقد رأت بعينه لأنها ناظرة المجاز

قلت ومن ههنا تعلم وجه الغاء في قوله فأذكرتني لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته وصار القمر حقيقة

إياها كان قوله رأت قمر السماء فأذكرتني بمثابة قولك أذكرتني فتأمله فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ حق الفهم ينشده وأذكرتني فالفاء في البيت الأول مبنية على معنى البيت الثاني لأنها مبنية عليه وهذا النحو يسمى الإيذان في علم البيان ولما اجتمعنا بأبي الوليد ابن هانيء مقدمه علينا من غرناطة سأل ابن حكيم عن تكرار من في قوله تعالى " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به " الرعد 10 دون ما بعدها فقال لولا تكررها أولاً لتوهم التضاد بتوهم اتحاد الزمان فارتفع بتكرار الموضوع أما الآخر فقد تكرر الزمان فارتفع توهم التضاد فلم يحتج إلى زائد على ذلك فقلت فهلا اكتفى بسواء عن تكرار الموضوع لأن النسوية لا تقع إلا بين أمرين وإنما الجواب عندي أنها تكررت أولاً على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه ثم اختصرت ثانياً لفهم المراد من التفصيل بالأول مع أمن اللبس وقد أجاب الزمخشري بغير هذين فانظره

سألني ابن حكيم المذكور عن نسب المجيب في هذا البيت " ومهفف الأعطاف قلت له انتسب ... فأجاب ما قتل المحب حرام " ففكرت ثم قلت أراه تميمياً لإلغائه ما النافية فاستحسنه مني لصغر سني يومئذ تذاكرت يوماً مع ابن حكيم في تكملة البدر بن محمد بن مالك لشرح التسهيل لأبيه فضلت عليه كلام أبيه ونازعتني الأستاذ فقلت " ... عهود من الأبا توارثها الأبا " فمارأيت بأسرع من أن قال " ... بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى "

فبهت من العجب وتوفي الشيخ ابن مالك سنة اثنتين وسبعين وستمائة وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمي فقيل مات فيها إمام نحو وولد فيها إمام نحو سألت ابن حكيم عن قول فخر الدين في أول المحصل وعندني أن شيئاً منها غير مكتسب بمعنى لا شيء ولا واحد هل له أصل في العربية أو هو كما قيل من بقايا عجمته فقال لي بل له أصل وقد حكى ابن مالك مثله عن العرب فلم يتفق أن استوقفه عليه ثم لم أزل أستكشف عنه كل من أظن أن لديه شيئاً منه فلم أجد من عنده أثارة منه حتى مر بي في باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر الداخل عليها كان من شرح التسهيل قوله فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين نحو علمت زيدا أبو من هو اختيار نصبه لأن الفعل مسلط عليه فلا مانع ويجوز رفعه لأنه والذي بعد الاستفهام شيء واحد في المعنى فكأه في حيز الاستفهام والاستفهام مشتمل عليه وهو نظير قوله إن أحد إلا يقول ذلك وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفي ولكن لما كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئاً واحداً في المعنى تنزل منزلة واقع بعد نفي فعلمت أنه نجا إلى هذا لأن شيئاً ههنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفي في المعنى شيء واحد فكان شيئاً كأنه وقع بعد غير أي بعد النفي سأل ابن فرحون ابن حكيم هل تجد في التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها في هذا البيت " رأى فحب فرام الوصل فامتنعت ... فسام صبرا فأعيا نيله ففضى " ففكر ثم قال نعم " فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون إلى آخره " القلم 19 فمنعت له البناء في فتنادوا فقال لابن فرحون فهل عندك غيره فقال نعم " فقال لهم رسول الله " إلى آخر السورة فمنع له

بناء الآخرة لقراءة الواو فقلت امنع ولا تسند فيقال لك إن المعاني قد تختلف باختلاف الحروف وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه وأكثر ما وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد سواء بهذا الشرط وبدونه كقوله نوح عليه السلام " فعلى الله توكلت " الآية يونس 71 وكقول امرئ القيس " غشيت ديار الحي بالبكرات "

البيتين لا يقال فالحب سابع لأننا نقول إنه عطف على عاقل المجرد منها ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها وشأن اللسان عجيب وقوله في هذا البيت فحب لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيراً حتى استغنى به عن محب فلا تكاد تجده إلا في قول عنترة

" ولقد نزلت فلا تنظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم " ونظيره محسوس من حس والأكثر أحس ولا تكاد تجد محسباً وهذا التوجيه أحسن من قول القرافي في شرح التنقيح إنهم أجروا محسوسات مجرى معلومات لأن الحس أحد طرق العلم سمعت ابن حكيم يقول بعث بعض أدباء فاس إلى صاحب له

" ابعث إلي بشيء ... مدار فاس عليه "

" وليس عندك شيء ... مما أشير إليه "

فبعث إليه ببطة من مري يشير بذلك إلى الرياء

وحدث أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم حضر وليمة وكان كثير البلغم فوضع بين يديه صهرة أبو العباس ابن الأشقر غضارا من اللون المطبوخ بالمري لمناسبته لمزاجه فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء

وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوف في الناس فناوله القاضي غضار المقروض فاستحسن الحاضرون فطنته

ومنهم عالم الصلحاء وصالح العلماء وجليس التنزيل وحليف البكاء والعويل أبو محمد عبد الله بن - 5
عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي خطيب جامع القصر الجديد وجامع خططي التحديث والتجويد وبسميه أهل مكة البكاء ولما قدم أبو الحسين علي بن موسى البحيري سأله عنه فقيل له لو علم بك أنك فقال أنا أتى من سمعت سيدي أبا زيد الهزميري يقول له لأول ما رآه ولم يكن يعرفه قبل ذلك مرحبا بالفتى الخاشع أسمعنا من قراءتك الحسنة
دخلت عليه بالفقيه أبي عبد الله السطفي في أيام عيد فقدم لنا طعاما فقلت لو أكلت معنا فرجونا بذلك ما يرفع من حديث من أكل مع مغفور له غفر له فتبسم وقال لي دخلت على سيدي أبي عبد الله الفاسي بالإسكندرية فقدم طعاما فسألته عن هذا الحديث فقال وقع في نفسي منه شيء فرأيت النبي في المنام فسألته عنه فقال لي لم أقله وأرجو أن يكون كذلك
وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدي بمصافحته أبا العباس أحمد الملمثم بمصافحته المعمر بمصافحته رسول الله
وسمعتة يحدث عن شيخه أبي محمد الدلاصي أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد فكان يخصه لدينه وعقله بالنداء باسمه وإنما كان ينعي بمماليكه يا ساقى يا طباخ يا مزين فنأدى به ذات يوم يا فراش فظن ذلك لموجدة عليه فلما لم ير أثر ذلك وتصورت له به خلوة سأله عن مخالفته لعادته معه فقال لا عليك كنت حينئذ جنبا فكرهت ذكر رسول الله في تلك الحالة
ومما نقلته من خط المجاصي ثم قرأته عليه فحدثني به قال حدثني القاضي أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن أبي بكر ابن عصفور قال حدثني جدي يحيى المذكور أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبي المقرئ بتلمسان حدثنا الحافظ أبو محمد يعني والله أعلم عبد الحق الإشبيلي أخبرنا أبو غالب أحمد ابن الحسن المستعمل أخبرنا أبو الفتوح عبد الغافر بن الحسين بن أبي الحسن ابن خلف الألمعي أخبرنا أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابوري أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني أخبرنا محمد بن علي بن الحسين العلوي أخبرنا عبد الله بن إسحاق اللغوي وأنا سألته أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلدي أخبرنا عبد الله بن نافع بن عيسى بن پونس عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله قال لي جبريل ألا أعلمك الكلمات التي قالهن موسى حين انفلق له البحر قلت بلى قال قل اللهم لك الحمد واليك المشتكى وبك المستغاث وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله قال ابن مسعود فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ثم تسلسل الحديث على ذلك كل أحد من رجاله يقول ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان لشيخه وقد سمعت المجاصي

يكررها كثيرا وما تركتهن منذ سمعتهن منه

وأنشدني المجاصي قال أنشدني نجم الدين الواسطي أنشدني شرف الدين الدمياطي أنشدني

تاج الدين الأرموي مؤلف الحاصل قال أنشدني الإمام فخر الدين لنفسه

" نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال "

" وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال "

" ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا "

" وكم من رجال قد رأينا ودولة ... فبادوا جميعا مسرعين وزالوا "

" وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فماتوا والجبال جبال "

وتوفي المجاصي في العشر الآخر من شهر ربيع الأول عام أحد وأربعين وسبعمائة

ومنهم الشيخ الشريف القاضي الرحلة المعمر أبو علي حسن بن يوسف ابن يحيى الحسيني - 6
السبتي

أدرك أبا الحسين ابن أبي الربيع وأبا القاسم العزفي واختص بآبن عبيدة وآبن الشاط ثم رجل إلى المشرق فلقي ابن دقيق العيد وحلبته ثم قفل فاستوطن تلمسان إلى أن مات بها سنة أربع

وخمسين أو ثلاث وخمسين وسبعمئة قرأ علينا حديث الرحمة وهو أول حديث سمعته منه حدثنا الحسن بن علي بن عيسى ابن الحسن اللخمي وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا علي بن المطهر بن القاسم الدمشقي وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن بن أبي العز الواسطي وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا أبو العز عبد المغيث بن زهير وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامي وهو أول حديث سمعته منه " ح " قال الحسن بن علي وحدثنا أيضا عليا الحسن بن محمد البكري وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا أبو الفتوح محمد بن محمد بن محمد بن الجنيد الصوفي وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا زاهر بن طاهر وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الفضائل عبد الوهاب بن صالح عرف بابن المغرم إمام جامع همذان بها وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك وهو أول حديث سمعته منه حفظا أخبرنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن مخمش الزيادي وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم وهو أول حديث سمعته منه أخبرنا سفيان بن عيينة وهو أول حديث سمعته منه عن عمرو ابن دينار عن أبي قابوس مولى لعبد الله بن عمرو بن العاص عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله قال الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء

ح " وحدثني الشريف أيضا كذلك بطريقة عن السلفي بأحاديثه المشهورة فيه وهذا الحديث " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

قال لي الشريف قال لي القاضي أبو العباس الرندي لما قدم أبو العباس ابن الغماز من بلنسية نزل بجاية فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع

حذف

فجاء عبد الحق يوما وعليه برنس أبيض وقد حسنت شارته وكملت هيأته فلما نظر إليه ابن الغماز

أنشده

" لبس البرنس الفقيه فباهى ... ورأى أنه المليح فتأها "

" لو زليخا رأته حين تبدى ... لتمنته أن يكون فتأها "

وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يهلوه وجاء حفيد له صغير فأخبره أنه أهله فردداهم معه فأراهم إياه فقال ما أشبه الليلة بالبارحة وقع لنا مثل هذا مع أبي الربيع ابن سالم فأنشدنا فيه

" توارى هلال الأفق عن أعين الورى ... وأرعى حجاب الغيم دون محياه "

" فلما تصدى لارتقاب شقيقه ... تبدى له دون الأنام فحياه "

سمعت الشريف يقول أول زجل عمل في الدنيا

" بالله يا طير مدلل ... مر بي وسط القفار "

" إياك تجدد لعاده ... ترمي حجيرة في داري "

ومنهم قاضي جماعتها وكاتب خلافتها وخطيب جامعها أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي - 7 بن هدية القرشي من ولد عقبة بن نافع الفهري نزلها سلفه قديما وخلفه بها إلى الآن توفي في أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمئة وشهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين وولى ابنه أبا علي منصورا مكانه يومئذ ولما ثقل لسانه دعا ابنه هذا فقال له اكتب هذين البيتين فإني نظمتهما على هذه الحالة فكتب

" إلهي مضت للعمر سبعون حجة ... جنيت بها لما جنيت الدواهيا "

" وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه ... فجد لي برحمى منك نعم الدواهيا "

ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد المكودي من المغرب رفع إليه قصيدة أولها

" سرت والدجى لم يبق إلا يسيرها ... نسيم صبا يحيي القلوب مسيرها "

وفيهما الأبيات العجائب التي سارت سير الأمثال وهي قوله

" وفي الكلة الحمراء حمراء لو بدت ... لشكلى لولى ثكلها وثورها "

" فما يستوي مثوى لها من سوى القنا ... خيام ومن بيض الصفاح ستورها "

" وما بسوى صدق الغرام أرومها ... ولا بسوى زور الخيال أزورها "

فأحسن إليه وكلم السلطان حتى أرسل جرابته عليه وقد شهدت المكودي وهذه القصيدة تقرأ عليه

ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي - 8
أدرك ابن زيتون وأخذ عن أبي الطاهر ابن سرور وحلبته وعنه أخذت شرح المعالم له وولي القضاء
بتلمسان مرات فلم تستغزه الدنيا ولا باع الفقر بالغنى
ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور - 9
قاضي الجماعة بعد ابن أبي عمرو وكانت له رحلة إلى المشرق لقي بها
جلال الدين القزويني وحلبته وتوفي بتونس في الوياء العام في حدود الخمسين وسبعمائة
ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسين البروني - 10
قدم عليها من الأندلس فأقام إلى أن مات سمعته يقول البقر العدوية كالإبل المهملة في الصحراء
لا يجوز أن تباع بالنظر إليها لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها 11 - ومنهم أبو عمران موسى
المصمودي الشهير البخاري
سمعت البروني يقول كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخاري ورفيق له يدرس صحيح مسلم
فكانا يعرفان البخاري ومسلم فشهدا عنه قاض فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما فقال له أبو
إمران أتمكن من الإعذار في الصحيحين فضحك القاضي وأصلح بين الخصمين
سألته عما ضربه ابن هدية عليه من إباحة الاستياع في رمضان بقشر الجوز فقال لي نعم وبيع
ريقه تأول رحمه الله تعالى أن الخصال المذكورة في السواك إنما تجتمع في الجوز فكان يحمل كل
ما روى فيه عليه وهذا غلط فاحش لأن العرب لا تكاد تعرفه ونظر إلى ما في البخاري من قوله بعد
أن ذكر جواز السواك للصائم ولا بأس أن يتلغ ريقه يعني الصائم في الجملة فحمله على المستاك
بالجوز وكان رحمه الله تعالى قليل الإصابة في الفتيا كثير المصيبات عليها
ومنهم نادرة الأعصار أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار - 12
قال لي العلامة الأبلبي ما قرأ أحد علي حتى قلت له لم أبق عندي ما أقول لك غير ابن النجار
سمعت ابن النجار يقول مر عمل الموقتين على تساوي فضلتي ما بين المغرب والعشاء والفجر
والشمس فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثمانى عشرة درجة وبالفجر لبقائها والجاري على مذهب مالك
أن الشفق الحمرة وأن تكون فضلة ما بين العشاءين أقصر لأن الحمرة ثانية الغوارب والطوالع فتزيد
فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس فعرضت كلامه هذا على المزوار أبي زيد
عبد الرحمن بن سليمان اللجائي فصوبه
وذكرت يوما حكاية ابن رشد الاتفاق في الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر واعترضته بما في
الإكمال عن ابن وضاح أنها لا تطهر فقال لي لا معتبر بقول ابن وضاح هذا لأنه يلزم عليه تحريم الخل
لأن العنب لا يصير خلا حتى يكون خمرا وفيه بحث
وذكرت يوما قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة وهي أصول وفصول وأول أصوله
وأول فصل من كل أصل وإن علا فقال إن تركب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلت وإلا حرمت
فتأملته فوجدته كما قال لأن أقسام هذا الضابط أربعة التركب من الطرفين كإبن العم وابنة العم
مقابله كالأب والبنات التركب من قبل الرجل كابنة الأخ والعم مقابله كإبن الأخت والخالة
وأنشدت يوما عنده على زيادة اللام
" ... باعد أم العمر من أسيرها "
فقال لي وما يدريك أنه أراد العمر الذي أرادته المعري بقوله
" وعمر هند كان الله صوره ... عمرو بن هند يعني الناس تعنيها "
وأضاف اللام إليه كما قالوا أم الحليس قلت ولا يندفع هذا بثبوت كون المعنية أم عمرو لأن ذلك لا
يمنع إرادة المعنى الآخر فتكون أم عمرو وأم العمر
قال ابن النجار بعثت بهذه الأبيات من نظمي إلى القاضي أبي عبد الله ابن هدية فأخرج لغزها
" إن حروف اسم من كلفت به ... خفت على كل ناطق بفم "
" سائغة سهلة مخارجها ... من أجل هذا تزداد في الكلم "
" صحفه ثم اقلبن مصحفه ... فعل ذكي مهذب فهم "
" واطلبه في الشعر جد مطلبه ... تجده كالصيح لاح في الظلم "
" فإن تأملت بت منه علي ... علم وإلا فأنت عنه عمي "
واللغز سلیمان وموضعه تأملت بت وتوفي رحمه الله تعالى بتونس أيام الوياء العام
ومنهم الأستاذ المقرئ الراوية الرحلة أبو الحسن علي بن أبي بكر ابن سبع بن مزاحم - 13
المكناسي
ورد علينا من المشرق فأقام معنا أعواما ثم رحل إلى فاس فتوفي بها في الوياء العام جمعت عليه

السيح وقرأت عليه البخاري والشاطبيتين وغير ذلك فأما البخاري فحدثني به قراءة منه على أحمد بن الشحنة الحجار سنة ثلاثين وسبعمائة وكان الحجار قد سمعه على ابن الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة وهذا ما لا يعرف له نظير في الإسلام وقد قال عبد الغني الحافظ لا تعرف في الإسلام من وازاه غير عبد الله بن محمد البغوي في قدم السماع فإنه توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة قال ابن خلاد سمعناه يقول أخبرنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني سنة خمس وعشرين ومائتين وسمعه ابن الزبيدي على أبي الوقت بسنده قال لي ابن مزاحم هذا طريق كله سماع وأما الشاطبيتان فحدثني بهما قراءة عليه لجميعهما عن بدر الدين ابن جماعة بقراءتهما عليه عن أبي الفضل هبة الله بن الأزرق بقراءتهما عليه عن المؤلف كذلك وحدثني بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك وغير ذلك

وممن ورد عليها لا يريد الإقامة بها شيخي وبركتي وقدوتي أبو عبد الله محمد بن حسين - 14 القرشي الزبيدي التونسي

حدثني بالصحيحين قراءة لبعضهما ومناولة لجميعهما عن أبي اليمن ابن عساكر لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور وحدثني أيضا أن أبا منصور العجمي حدثه بمحضر الشيخين والده حسين وعمه حسن وأثنى عليه دينا وفضلا أنه أدخل بعض بلاد المشرق على المعمر أدخله عليه بعض ولد ولده فألفاه ملفوفا في قطن وسمع له دويا كدوي النحل فقبل له أقيت رسول الله ورأيت قال نعم قلت ليس في هذا ما يستراب منه إلا الشيخ المعمر فإن لا تعرف حاله فإن صح فحدثنا عنه

ثلاثي وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلا يسمى بعثمان معه تسعون حديثا يزعم أنه سمعها من المعمر وقد أخذت عنه وكتبت منه فهذا ثنائي وأمر المعمر غريب والنفس أميل إلي نفيه

ومنهم إمام الحديث والعربية وكتاب الخلافة العثمانية والعلوية أبو محمد عبد المهيم بن - 15 محمد الحضرمي السبتي

جمع فأوعى واستوهب أكثر المشاهير وما سعى فهو المقيم الطاعن الضارب القاطن سألني عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس فقلت له زعم الخسر وشاهي أنه ليس بالديار المصرية من يعرفه غيره وأنا أقول ليس في الدنيا عالم إلا وهو يعلمه غيره لأنه حكم لفظي أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوائين كعدل عمر ونحوه فاستحسن ذلك وكان ينكر إضافة الحول إلى الله عز وجل فلا يجيز أن يقال بحول الله وقوته قال لأنه لم يرد إطلاقه والمعنى يقتضي امتناعه لأن الحول كالحيلة أو قريب منها وتوفي بتونس أيام الوباء العام

ومنهم الفقيه المحقق الفرضي المدقق أبو عبد الله محمد بن سليمان بن - 16 علي السطحي قرأت عليه كتاب الحوفي علما وعملا قال لي في قول ابن الحاجب والثلث والثلث والسدس من أربعة وعشرين هذا لا يصح إذ لا يجتمع والثلث في فريضة وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحب المقدمات وسألت ابن النجار فقال لي إنما أراد المقام لأنه يجتمع مع الثلثين والإنصاف أنه لا يحسن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره فكان الوجه أن يقول والثلثان أو ومقام الثلث ونحو ذلك لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرا لا تحقيقا كما في الجواهر وانظر باب المدبر من كتاب الحوفي فإن فيه موافقة السبعة لعدد لا توافقه فهو من باب الفرض وعليه ينبغي أن يحمل كلام ابن الحاجب

ومنهم الأستاذ أبو عبد الله الرندي والقاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرزاق - 19 - 17 الجزولي والقاضي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي يحيى في كثير من الخلق فلنضرب عن هذا

ومن شيوخ الصلحاء الذين لقيت بها خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي - 20 الخياط أدرك أبا إسحاق الطبار وقد صافحته وأنا صغير لأنه توفي سنة تسع وعشرين بمصافحته أباه بمصافحته الشيخ أبا تميم بمصافحته أبا مدين بمصافحته أبا الحسن ابن حرزهم بمصافحته ابن العربي بمصافحته الغزالي بمصافحته أبا المعالي بمصافحته أبا طالب المكي بمصافحته أبا محمد الجريري بمصافحته الجنيد بمصافحته سريا بمصافحته معروفا بمصافحته داود الطائي بمصافحته حبيبا العجمي بمصافحته الحسن البصري بمصافحته علي بن أبي طالب بمصافحته رسول الله - 21 - ومنهم خطيبها المصقع أبو عبد الله محمد بن علي بن جمال أدرك محمد بن رشيد البغدادي صاحب الزهر والوتريات على حروف المعجم المذهبة وغيرها حدثني عنه أنه تاب بين يديه لأول

مجلس جلسه بتلمسان سبعون رجلا

ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان أبو عبد الله محمد وابو العباس أحمد ابنا ولي الله أبي - 22 23
عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق العجيسي
كساني محمد خرقة التصوف بيده كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله الحبشي خادم الشيخ
أبي مدين كما كساه أبو مدين قال محمد بن مرزوق وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين
وخمسمائة أبا مدين نحو من خمسة عشر عاما إلى أن توفي في عام تسعين وخمسمائة عاش
بعده أكثر من مائة سنة ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم ولبس ابن حرزهم من يد ابن العربي
واتصل اللباس اتصال المصافحة

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن الصنهاجي المكتب حديثا عن قاضيها أبي زيد عبد - 24
الرحمن بن علي الدكالي أنه اختصم عنده رجلان في شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر وادعى
الآخر أنها ضاعت منه فأوجب اليمين على المودع عنده أنها ضاعت من غير تضييع فقال كيف أضيع
وقد شغلتنني حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها فحكم عليه بالغرم فقبل له في
ذلك فقال تأولت قول عمر ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد الغزموني مكتبي الأول ووسيلتي إلى الله عز وجل قرأ - 25
على الشيخين أبي عبد الله القصري وأبي حريث وحج حجات وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة
دينار عيونا سافر إلى الحج وكان بصيرا بتعبير الرؤيا فمن عجائب شأنه فيه أنه كان في سجن أبي
يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان فيه من أهل تلمسان أيام محاصرته لها فرأى أبو
جمعة ابن علي التلالسي الجرائحي منهم كأنه قائم على سانية دائرة وجميع قواديسها يصب في
نقير في وسطها فجاء ليشرب فلما اغترف الماء إذا فيه فرث ودم فأرسله ثم اغترف فإذا هو كذلك
ثلاثا أو أكثر فعدل عنه فرأى خصمه ماء وشرب منها ثم استيقظ وهو النهار فأخبره فقال إن صدقت
رؤياك فنحن عما قليل خارجون من هذا المكان قال كيف قال السانية الزمان والنقير السلطان وأنت
جرائحي تدخل يدك في جوفه فينالها الفرث والدم وهذا ما لا تحتاج معه فلم يكن إلا ضحوة الغد وإذا
النداء عليه فأخرج فوجد السلطان مطعونا بخنجر فأدخل يده فنالها الفرث والدم فحاط جراحته ثم
خرج فرأى خصه ماء فغسل يديه وشرب ثم لم يلبث السلطان أن توفي وسرحوا
وتعداد أهل هذه الصفة يكثر فلنصفح عنهم ولنختم فصل من لقيته

بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة أحدهما عالم الدنيا والآخر نادرتهما
أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الأبلبي - 26
التلمساني سمع جده لأمه أبا الحسين ابن غلبون المرسي القاضي بتلمسان وأخذ عن فقهاها
أبي الحسين التنسي وابني الإمام ورحل في آخر لالمائة السابعة فدخل مصر والشام والحجاز
والعراق ثم قفل إلى المغرب فأقام بتلمسان مدة ثم فر أيام أبي حمو موسى بن عثمان إلى
المغرب

حدثني أنه لقي أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط شقيق شيخنا أبي عثمان المتقدم ذكره فشكا
له ما يتوقعه من شر أبي حمو فقال له عليك بالجبل فلم يدر ما قال حتى تعرض له رجل من غمارة
فعرض عليه الهروب به قال فخفت أن يكون أبو حمو قد دسه علي فتنكرت له فقال لي إنما أسير
بك على الجبل فتذكرت قول أبي إسحاق فواطأته وكان خلاصي على يده قال ولقد وجدت العطش
في بعض مسيري به حتى غلظ لساني واضطربت ركبتي فقال لي إن جلست قتلتك لئلا أفتضح
بك فكنت أقوي نفسي فمر على بالي في تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس وتوسله به فوالله ما
قلت شيئا حتى رفع لي غدير ماء فأرثته إياه فشرينا ونهضنا
ولما دخل المغرب أدرك أبا العباس ابن البناء فأخذ عنه وشافه كثيرا من علمائه قال لي قلت لأبي
الحسن الصغير ما قولك في المهدي فقال عالم سلطان فقلت له قد أبنت عن مرادي ثم سكن
جبال الموحدية ثم رجع إلى فاس فلما افتتحت تلمسان لقيته بها فأخذت عنه فقال لي الأبلبي
كنت يوما مع القاسم بن محمد الصنهاجي فوردت عليه طومارة من قبل القاضي أبي الحجاج
الطرطوشي فيها

" خيرات ما تحويه مبدولة ... ومطلبي تصحيف مقلوبها "

فقال لي ما مطلبه فقلت نارنج

دخل على الأبلبي وأنا عنده بتلمسان الشيخ أبو عبد الله الدباغ المالقي المتطبب فأخبرنا أن أديبا
استجدى وزيرا بهذا الشطر
" ... ثم حبيب فلما ينصف "

فأخذته فكتبته ثم قلبته وصحفته فإذا هو قصبتا ملف شحمي
ومر الدباغ علينا يوما بغاس فدعاه الشيخ فلباه فقال حدثنا بحديث اللطافة فقال نعم حدثني أبو
زكريا ابن السراج الكاتب بسجلماصة أن أبا إسحاق التلمساني وصره مالك بن المرحل وكان ابن
السراج قد لقيهما اصطحبا في مسير فأواهما الليل إلى مجشر فسالا عن طالبه فدلا فاستضافاه
فأضافهما فبسط قطيفة بيضاء ثم عطف عليهما بخبز ولبن وقال لهما استعملا من هذه اللطافة
حتى يحضر عشاؤكما وانصرف فتجاوز في اسم اللطافة لأي شيء هو منهما حتى ناما فلم يربح أبا
إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول قد وجدت اللطافة قال كيف قال أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم
يمر قط على مسمع هذا البدوي فضلا عن أن يراه ثم رجعت القهقري حتى وقعت على قول النابغة
" بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقد "

فسنح لبالي انه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق اللين فجعل
إحدى النقطين للطاء فصارت اللطافة اللطافة واللين واللين وإن كان قد صحف عنم بغنم وطن أن
يعقد جبن فقد قوي عنده الوهم فقال أبو إسحاق ما خرجت عن صوبه فلما جاء سالا فآخبر أنها
اللين واستشهد بالبيت كما قال مالك

ولا تعجب من مالك فقد ورد فاسا شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي عرف بابن المسفر
رسولا عن صاحب بجاية فراره الطلبة فكان فيما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين
يستشكلون كلاما وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ويستشكله الشيخ معهم
وهذا نصه ثبت في بعض العلوم العقلية أن المركب مثل البسيط في الجنس والبسيط مثل المركب
في الفصل وأن الجنس أقوى من الفصل فرجعوا به إلى الشيخ الأبلبي فتأمل ثم قال هذا كلام
مصحف وأصله أن المركب قبل البسيط في الحس والبسيط قبل المركب في العقل وأن الحس
أقوى من العقل فأخبروا ابن المسفر فلج فقال لهم الشيخ التمسوا النسخ فوجدوه في بعضها كما
قال الشيخ والله يؤتي فضله من يشاء

قال لي الأبلبي لما نزلت تازي بت مع أبي الحسن ابن بري وأبي عبد الله الترجالي فاحتجت إلى
النوم وكرهت قطعهما عن الكلام فاستكشفتها عن معنى هذا البيت للمعري
" أقول لعبد الله لما سقاؤنا ... ونحن بوادي عبد شمس وهاشم "
فجعلا يفكران فيه فنمت حتى أصبحا ولم يجدها فسألاني عنه فقلت معناه أقول لعبد الله لما وهى
سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس شم لنا برقا
قلت وفي جواز مثل هذا نظر

سمعت الأبلبي يقول دخل قطب الدين الشيرازي والدبيران على أفضل الدين الخونجي ببلده وقد
تريا بزى القونوية فسأله أحدهما عن مسألة فأجابه فتعايا عن الفهم وقرب التقرير فتعايا فقال
الخونجي متمثلا

" علي نحت المعاني من معادنها ... وما علي لكم أن تفهم البقر "
فقال له ضم التاء يا مولانا فعرفهما فحملهما إلى بيته
قلت سمعت الشيخ شمس الدين الأصبهاني بخانقاه قوصون بمصر يقول إن شيخه القطب توفي
عام أحد عشر وسبعمئة وله سبع وسبعون سنة وهذا يضعف هذه الحكاية عندي
سمعت الأبلبي يقول إن الخونجي ولي قضاء مصر بعد عز الدين بن عبد السلام فقدم شاهدا كان
عز الدين أخره فعذله في ذلك فقال إن مولان لم يذكر السبب الذي رفع يده من أجله وهو الآن غير
متمكن من ذكره

سمعت الشيخ الأبلبي يحدث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر في المائة السابعة من
المفاسد العظام ثلاث مذهب ابن سبعين وتملك الططر للعراق واستعمال الحشيشة
سمعت الأبلبي يقول قال أبو المطرف ابن عميرة
" فضل الجمال على الكمال بوجهه ... فالحق لا يخفى على من وسطه "
" وبطرفه سقم وسحر قد أتى ... مستظهرا بهما على ما استنبطه "
" عجبا له برهانه بشروطه ... معه فما مقصوده بالسفسطه "
قال فأجابه أبو القاسم ابن الشاط فقال
" علم التباين في النفوس وأنها ... منها مغلطة وغير مغلطة "
" فئاة رأته وجه الدليل وفرقة ... وأصغت إلى الشبهات فهي مورطة "
" فأراد جمعهما معا في ملكه ... هذي بمنجته وذو بمغلطة "
يعني قولهم في التام هو ما تحمل فيه البرهان الفصل

وأخبار الأبي وأسمعتي منه تحتل كتابا فلنقف على هذا القدر منها
وأما النادرة فأبو عبد الله محمد بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي صحب أبا زيد - 27
الهزميري كثيرا وأبا عبد الله ابن تجلات وأبا العباس ابن البناء وأضرايه من المراكشيين ومن جاورهم
ورزق بصحبة الصالحين حلاوة القبول فلا تكاد تجد من يستثقله وربما سئل عن نفسه فيقول ولي
مفسود

قلت له يوما كيف أنت فقال محبوبس في الروح وقال الليل والنهار حرسيان أحدهما أسود والآخر
أبيض وقد أخذنا بمجامع الخلق يجرانهم إلى يوم القيامة وإن مردنا إلى الله تعالى
وسمعتي يقول المؤمنون يدعون أولياء الله إلى بيته لعبادته فلا يصددهم عن دعائهم ظلمة ولا شتاء
ولا طين ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبين لهم فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم
ووجدته ذات يوم في المسجد ذاكرا فقلت له كيف أنت فقال " فهم في روضة يحبرون " الروم 15
فهمت بالانصراف فقال أين تذهب من روضة من رياض الجنة يقام بها على رأسك بهذا التاج وأشار
إلى المنار مملوءا الله أكبر

مر ابن شاطر يوما على أبي العباس أحمد بن شعيب الكاتب وهو جالس
في جامع الجزيرة طهره الله تعالى وقد ذهبت به الكفرة فصاح به فلما رفع رأسه إليه قال له انظر
إلى مركب عزرائيل هذا وأشار إلي نعش هنالك قد رفع شرعه ونودي عليه الطلوع يا غزي
وأكل يوما مع أبي القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلجلانا فقال له أبو القاسم إن في هذا
الجلجلان لضربا من طعم اللوز فقال ابن شاطر وهل الجلجلان إلا لوزة دقة
وسئل عن العلة في نضارة الحدائة فقال قرب عهدا بالله فليل له فمم تغير الشيوخ فقال من بعد
العهد من الله وطول الصحبة مع الشياطين فليل له فبخر أفواههم فقال من كثرة ما تغل الشياطين
فيها

وكان يسمى الصغير فأر المصطكي قال لي ابن شاطر لقيت عمي ميمونا المعروف بدبير لقرب موته
وقد اصفر وجهه وتغيرت حالته فقلت له ما بالك وكان قد خدم الصالحين ورزق بذلك القبول فقال
انسدت الزربطانة فطلع يعني العذرة يشير إلى الاحتقان للطبيعة
... أنشدني ابن شاطر قال أنشدني أبو العباس ابن البناء لنفسه " قصدت إلى الوجازة في كلامي
"

الآيات

وأخبار ابن شاطر عندي تحتل كراسة فلنقع منها بهذا القدر
فصل ولما دخلت تلمسان على بني عبد الواد تهيأ لي السفر منها فرحلت
إلى بجاية فلقيت بها أعلاما درجوا فأمست بعدهم خلاء بلقعا
فمنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي عرف بابن المسفر باحثه واستفدت منه - 28
وسألني عن اسم كتاب الجوهرى فقلت له من الناس من يقول الصحاح بالكسر ومنهم من يفتح
فقال إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح كما ذكره في باب صح قلت ويحتمل أن يكون مصدر صح كحنان
وكتب إلى بعض أصحابه بجواب رسالة صدره بهذين البيتين
" وصلت صحيفتكم فهزت معطفي ... فكأنما أهدت كؤوس القرقف "
" وكأنها نيل الأمان لخائف ... أو وصل محبوب لصب مدنف "

ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي فقيه ابن فقيه كان - 29
يقول من عرف ابن الحاجب أقرأ به المدونة قال وأنا أقرأ به المدونة
ومنهم أبو علي حسين بن حسين إمام المعقولات بعد ناصر الدين - 30
ومنهم خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران وكان قد ورد تلمسان وأورد بها على قول ابن - 31
الحاجب في حد العلم صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض الخاصة إلا أن يزداد في الحد لمن قامت
به لأنها إنما توجب فيه تمييزا لا تمييزا وهذا حسن

ومنهم الشيخان أبو عزيز وأبو موسى ابن فرحان وغيرهم من أهل عصرهم - 32 - 33
34 - ثم رحلت إلى تونس فلقيت بها قاضي الجماعة وفقهها أبا عبد الله ابن عبد السلام فحضرت
تدريسه وأكثرت مباحثه ولما نزلت بظاهر فسمطينة تلقاني رجل من الطلبة فسألني عن هذه
الآية " وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " المائدة 67 فإن طاهرها أن الجزء هو الشرط أي وإن لم
تبلغ فما بلغت وذلك غير مفيد فقلت بل هو مفيد أي وإن لم تبلغ في المستقبل لم ينفك تبليغك
في الماضي لارتباط أول الرسالة بأخرها كالصلاة ونحوها بدليل قصة يونس فعبر بانتفاء ماهية
التبليغ عن انتفاء المقصود منه إذ كان إنما يطلب ولا يعتبر بدونه كقوله عليه الصلاة والسلام لا

صلاة إلا بظهور ثم اجتمعت بآبن عبد السلام بجامع بوقير من تونس فسألته عن ذلك فلم يزد على أن قال هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله وقد علمتم ما قال الشيخ تقي الدين فيه قلت كلام تقي الدين لا يعطي الجواب عن الآية فتأمله

وقالضي المناكح أبا محمد الأحمي وهو حافظ فقهاؤها في وقته والفقيه أبا عبد الله ابن - 41 - 35 هارون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول والخطيب أبا عبد الله ابن عبد الستار وحضرت تدريسه بمدرسة المعروض والعلامة أبا عبد الله ابن الجياب الكاتب والفقيه أبا عبد الله ابن سلمة والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر وارث طريقة الشيخ أبي محمد المرجاني آخر المذكورين بإفريقية ورأيت ابن الشيخ المرجاني فحدثني أبو موسى ابن الإمام أنه أشبه به من الغراب بالغراب وسيدي أبا عبد الله الزبيدي المتقدم ذكره وأوقفني على خطب في كتاب الصحاح وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العين والأنف قال وفيه يقول ابن عمر في ابنه السالم " يديروني عن سالم وأديرهم ... وجلدة بين الأنف والعين سالم" قال وهذا أراد عبد الملك حيث كتب إلى الحجاج أنت مني كسالم وهذا خطأ فاحش وكان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضا لقوله عليه السلام عمارة جلدة ما بين عيني وأنفي وإنما يراد بمثل هذا القرب والتحمم

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم ثم قفلت إلى المغرب يسايرني رجل من أهل قسنطينة يعرف بمنصور الحلبي فما لقيت رجلا أكثر أخبارا ولا أطرف نوادر منه فمما حفظته من حديثه أن رجلا من الأدباء مر برجل من الغرباء وقد قام بين ستة أطفال جعل ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله وأخذ ينشد

" ما كنت أحسب أن أبقى كذا أبدا ... أعيش والدهر في أطرافه حنف "

" ساس بسنة أطفال توسطهم ... شخصي كاحرف ساس وسطها ألف "

قال فتقدمت إليه وقلت فأين تعريقة السين فقال طالب ورب الكعبة ثم قال الآخر من جهة يمينه قم فقام يجر رجله كأنه مبطول فقال هذا تمام تعريقة السين

ثم رحلت من تلمسان إلى المغرب فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم 53 - 41 بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسي والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتي والشيخ الفقيه الصالح أبا زهون عبد العزيز بن محمد القيرواني والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوني وكان حافظ وقته والفقيه أبا عبد الله ابن عبد الكريم وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي والأستاذ أبا العباس المكناسي وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس ابن حزب الله والأستاذ أبا عبد الله ابن القصار بتلمسان ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم وكنت قد لقيت بتازي الفقيه أبا عبد الله ابن عطية والأستاذ أبا عبد الله المجاصي والشيخ أبا الحسين الجيار وغيرهم

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات ثم وصلت إلى سبتة فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل - 67 - 53 بلد من لا بد من لقائه من علمائه وصلحائه ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء الله تعالى ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز فلقيت بمصر الأستاذ أنير الدين أبا حيان الغرناطي فرويت عنه واستفدت منه وشمس الدين الأصبهاني الآخر وشمس الدين بن عدلان وقرأ علي بعض شروحه لكتب المزني وناولني إياه وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها والشيخ الصالح أبا محمد المنوفي فقيه المالكية بها وتاج الدين التبريزي الأصم وغيرهم ممن يطول ذكرهم ثم حججت فلقيت بمكة إمام الوقت أبا عبد الله ابن عبد الرحمن التوزري المعروف بخليل وسألته يوم النحر حين وقف بالمشعر الحرام عن بطن محسر لأحرك فيه علي الجمل فقال لي تمالأ الناس على ترك هذه السنة حتى نسي بتركها محلها والأقرب أنه هذا وأشار إلى ما يلي الجابية التي على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعدا إلى منى وما رأيت أعلم بالمناسك منه والإمام أبا العباس ابن رضي الدين الشافعي وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد

وبالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي وغيره

ثم أخذت على الشام فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية صاحب الفقيه ابن تيمية وصدر الدين الغماري المالكي وأبا القاسم ابن محمد اليماني الشافعي وغيرهم وبيت المقدس الأستاذ أبا عبد الله ابن مثبت والقاضي شمس الدين بن سالم والفقيه المذكر أبا عبد الله ابن عثمان وغيرهم

ثم رجعت إلى المغرب فدخلت سجلماسة ودرعة ثم قطعت إلى الأندلس فدخلت الجبل وأصطبونة ومربلة ومالقة وبلش والحامة وانتهت بي الرحلة إلى غرناطة وفي علم الله تعالى ما لا علم وهو المسؤول أن يحملنا على الصراط الأقوم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم انتهى كلام جدي رحمه الله تعالى في الجزء الذي ألفه في مشيخته وقد لخصه لسان الدين في الإحاطة

ترجمة المقرئ بقلم ابن خلدون

ولنذكر هنا زيادات لا بأس بها فنقول ولما ألم ولي الدين ابن خلدون بذكر مولاي الجد في تاريخه الكبير عند تعريفه بنفسه وصفه بأنه كبير علماء المغرب ونص محل الحاجة من تاريخه لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين أقمنا في البحر نحو من أربعين ليلة ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت واقترع كرسى الملك دون أهله بني فلاوون وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاوية البلاد من سموه لذلك وتمهيد له واقمت بإسكندرية شهرا لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وستان العالم ومحشر الأمم ومدج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والأواوين في أوجه وتزهو الخوانق والمدارس بأفاهه وتضيء البدر والكواكب من علمائه وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثبجه ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم وما زلنا نحدث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ فقلت له كيف هي القاهرة فقال من لم يرها لم يعرف عز الإسلام وسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال كأنما انطلق أهله من الحساب يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب وحضرت صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة خمس وخمسين وسأله عن القاهرة فقال أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار إن الذي يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل

فيها فأعجب السلطان والحاضرون بذلك انتهى كلام ابن خلدون ولا يخلو عن فائدة زائدة

فوائد عن المقرئ الجد

ولا بأس أن نورد من فوائد مولاي الجد ما حضرني الآن فمن ذلك ما حكاه ابن عبد الرزاق عن ابن قطران قال سمع يهودي بالحديث المأثور نعم الإدام الخل فأنكر ذلك حتى كاد يصرح بالقدح فبلغ ذلك بعض العلماء فأشار على الملك أن يقطع عن اليهود الخل وأسبابه سنة قال فما تمت حتى ظهر فيهم الجذام

ومنها أنه قال أنشدني الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد قال أنشدني الشيخ التقى ابن دقيق العيد لنفسه في معنى لطيف حجازي

" إذا كنت في نجد وطيب نعيمه ... تذكرت أهلي باللوى فمحسر "

" وإن كنت فيهم زدت شوقا ولوعة ... إلى ساكني نجد وعيل تصبري "

" فقد طال ما بين الفريقين موقفي ... فمن لي بنجد بين أهلي ومعشري "

ومنها ما حكاه عن عبد الله بن عبد الحق عن ابن قطران قال كنت بالمدينة على ساكنها الصلاة والسلام إذ أقبل رافضي بفحمة في يده فكتب بها على جدار هناك

" من كان يعلم أن الله خالفه ... فلا يحب أبا بكر ولا عمرا "

وانصرف فألقى علي من الفطنة وحسن البديهة ما لم أعهد مثله من نفسي قبل فجعلت مكان يجب يسب ورجعت إلى مجلسي فجاء فوجده كما أصلحته فجعل يلتفت يمينا وشمالا كأنه يطلب من صنع ذلك ولم يتهمني فلما أعياه الأمر انصرف

ومنها أنه قال حدثت أن الزاهد أبا عمرة ابن غالب المرسي نزل تلمسان وقد لقيت غير واحد من أصحابه سأله بعض أن يشهد عقد ابنته فتعذر عليه فلم يزل به حتى أجاب بعد جهد فحضر العقد وطعم الوليمة ثم لما حضرت ليلة الزفاف استحضره في ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان فأجابه مسرعا فقبل له أين هذا التيسري من ذاك التعسير فقال من أكل طعام الناس

مشى في خدمتهم أو كما قال

ومنها أنه قال حدثت أن الفقيه أبا عبد الله ابن العواد العدل بتونس التقى يوما مع القاضي أبي علي ابن قداح وكان ابن العواد شيخا فقال له أبو علي كبرت أبا عبد الله فصرت تمشي كل شبر بدينار يوري بكثرة الفائدة في مشيه إلى الشهادة فقال له كنت إذ كنت في سنك أخرج رزقي من الحجر يعرض لابن قداح بأنه جيار وكذلك كان هو وأبوه رحمهم الله تعالى جميعا وهذا من مزاج الأشراف كما جرى بين معاوية والأحنف انظر صدر أدب الكتاب

ومنها أنه قال قال لي الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الواحد الرياطي كنا عند الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ففقد أحدنا نعليه فقال الشيخ كنا عند العلم التبريزي فدخل عليه رجل يدعى بشيرا فكلمه ثم خرج فلم يجد نعليه فرجع إلى العلم وأنشده

" دخلت إليك يا أمني بشيرا ... فلما أن خرجت خرجت بشرا "

" أعد يائي التي سقطت من اسمي ... فيائي في الحساب تعد عشرا "

وقال رحمه الله تعالى لما سعى أولاد الشيخ أبي شعيب بالقاضي أبي الحجاج الطرطوشي إلى السلطان وأمر بإشخاصه وكثر إرجاف المنتشيعين فيهم من بعده وخرج الأمر على خلاف ما أملوا منه قال في ذلك

" حمدت الله في قوم أثاروا ... شرورا فاستحالت لي سرورا "

" وقالوا النار قد شبت فلما ... دنوت لها وجدت النار نورا "

ومنها أنه حكى أن الشيخ أبا القاسم ابن محمد اليميني مدرس دمشق ومفتيها حكى له بدمشق أنه قال له شيخ صالح برياط الخليل عليه السلام نزل بي مغربي فمرض حتى طال علي أمره فدعوت الله أن يفرج عني وعنه بموت أو صحة فرأيت النبي في المنام فقال أطعمه الكسكسون قال يقوله هكذا بالنون فصنعت له فكأنما جعلت له فيه الشفاء وكان أبو القاسم يقول فيه كذلك ويخالف الناس في حذف النون من هذا الاسم ويقول لا أعدل عن لفظ رسول الله ثم قال قلت ووجه هذا من الطب أن هذا الطعام مما يعتاده المغاربة وبشتهونه على كثرة استعمالهم له وربما نبه منه شهوة أو رده إلى عادة

وقال الجد رحمه الله تعالى رأيت بجامع القسطنطينية من مصر فقيرا عليه قميص إلى جانبه دفاضة قائمة وبين يديه قلنسوة فذكر لي هنالك أنهما محشوتان بالبرادة وأن زنة الدفاضة أربعمائة رطل مصرية وهي ثلاثمائة وخمسون مغربية وزنة القلنسوة مائتا رطل مصرية وهي مائة وخمسة وسبعون مغربية فعمدت إلى الدفاضة فأخذتها من طوقها أنا ورجل آخر فأملناها بالجهد ثم أقمناها ولم نصل بها إلى الأرض وعدت إلى القلنسوة فأخذتها من إصبع كان في رأسها فلم أطق حملها فتركها وكان يوم الجمعة فلما قضيت الصلاة مررنا في جملة من أصحابنا بالفقير فوجدناه لابسا تلك الدفاضة في عنقه واضعا تلك القلنسوة على رأسه فقام إلينا وإلى غيرنا ومشى بهما كما يمشي أحدنا بثيابه فجعلنا نتعجب ويشهد بعضنا بعضا على ما رأى من ذلك ولم يكن بالعظيم الخلقة

وقال رحمه الله تعالى كان الأستاذ ابن حكم قد بعث إلي بمحرر لأبعث به إلي من يعرضه للبيع ثم بلغه أن أحمالا من المتاع التونسي قد وصلت إلى البلد فكتب إلي الحمد لله الذي أمر عند كل مسجد بأخذ الزينة وصلواته الطيبة وبركاته الصيبة على من ختم به شريعته وأكمل دينه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه والذين يتبعونه وبعد فما تعلق به الإعلام أن تعوضوا المحرر بإحرام لا يخفى على مثلكم جنسه ومجانسه ومن كلام العرب كل ثوب ولايسه وإن أرى على ثمن الأول ثمن الثاني فليست عن الزيادة والحمد لله بالواني

ومن فوائده أنه قال كتب في صدر رسالة إلى صاحبنا الشيخ الناسك أبي علي منصور ابن شيخ عصره وفريد دهره ناصر الدين المشدالي الشيخ الخاشع صاحبنا أبو الحسن علي بن موسى البحيري يذكره شوقه إلى لقائه لما كان يبلغه عنه حتى قدر باجتماعهما بوهران أيام قضاء البحيري بها

" أوحشتني ولو اطلعت على الذي ... لك في فؤادي لم تكن لي موحشا "

" يا محرقا بالنار قلب محبه ... أنسيت أنك مستكن في الحشا "

وقال رحمه الله تعالى أنشدني محمد البلفيقي قال أنشدني ابن رشيد قال أنشدني أبو حفص ابن الخيمي المصري لنفسه

" لو رأى وجه جيبني عاذلي ... لتفاصلنا على وجه جميل "

وقال رحمه الله تعالى قال لي محمد بن داود بن المكتب قال لي بلال الحبشي خادم الشيخ أبي مدين كان الشيخ كثيرا ما ينشد هذا البيت

" الله قل وذو الوجود وما حوى ... إن كنت مرتادا بصدق مراد " وقال رحمه الله تعالى دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولي وهو يوجد بنفسه وكنت قد رأيته قبل ذلك معافى فسألته عن السبب فأخبرني أنه خرج إلى لقاء السلطان فسقط عن دابته فنداعت أركانه فقلت ما حملك أن تتكلف مثل هذا في ارتفاع سنك فقال حب الرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين

وقال رحمه الله تعالى قال لي محمد بن مرزوق قال لي بعض أصحاب أبي إسحاق الطيار دفين عباد تلمسان إن أبا إسحاق أقام خمسا وعشرين سنة لا ينام إلا قاعدا فسألت ابن مرزوق لم لقب بالطيار فحدثني عن بعض أصحابه أنه نشر ذات يوم ثوبه في الشمس على بعض السطوح ثم فعد هنالك فمر به رجل فقال له طر فقال أعن أمرك قال نعم فطار حتى وقع على الأرض وما به من باس فقال الجد رحمه الله تعالى بعد هذا ما نصه فقلت إذا ما صار الحق للعبد سمعا وبصرا فسمع به وأبصر أصاح إلى الأحوال واجتلى المعاني فيرى من غير مبصر ويسمع من غير ناطق كما قال الشيخ أبو عبد الله الشوزي الحلوي دفين تلمسان

" إذا نطق الوجود أصاح قوم ... بأذان إلى نطق الوجود "

" وذاك النطق ليس به انعجام ... ولكن دق عن فهم البليد "

" فكن فطنا تنادي من قريب ... ولا تك من ينادى من بعيد "

وقال رحمه الله تعالى حدثت بمصر أن الشيخ سيدي عمر بن الفارض ولع بجمل فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به فقيل له لو اشتريته فقال المحبوب لا يملك فسألت في أي حال كان هذا منه فقيل لي في ابتداء أمره فقلت وجد اعتبار " أفلا ينظرون إلى الإبل " الغاشية 17 فوفقت به رؤية المعنى فيه عليه فأحبه مدلا وطلب مجلا

وقال رضي الله عنه حفظت من خط أبي زيد والد صاحبنا أبي الحسن قيل للغزالي ما تقول في العلاج فقال وما عسى أن أقول فيمن شرب بكأس الصفاء على بساط الوفاء فسكر وعربد فاستوجب من الله الحد فكان حده شهادته ثم قال بعد هذا قلت لعربد العلاج في الحضرة لما نسي بسكره وأمره فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلق اسمه وسدل الباطن على عذره حجاب الغيرة من إفشاء سره

" على سمة الأسماء تجري أمورهم ... وحكمة وصف الذات للحكم أجرت "

وقال رحمه الله تعالى سمعت شيخنا بيت المقدس يقول تجلى الله على المسجد الأقصى بالجمال وعلى المسجد الحرام بالجلال وعلى مسجد الرسول بالكمال قلت فذلك يوقف النواظر وذاك يملأ الخواطر وهذا يفتح البصائر

وقال رحمه الله تعالى أخبرني أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عنان فارس نصره الله أن جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن تهادي أهل الحب التفاح دون الخوخ وكلاهما حسن المنظر طيب المخبر شديد شبهه بأخيه شديد تشبيهه الوجنت به لمتوخيه فقال ما عند مولانا فقال أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذي يذكر بالحب والهوى والخبوخ على النوى الذي يذكر اسمه صفرة الجوى وقال رحمه الله تعالى قال لي أبو حيان بالقاهرة قال لي عمر بن الخيمي تجاذبت أنا ونجم الدين بن إسرائيل هذا البيت

" يا بارقا بأعالي الرقمتين بدا ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب "

فتحاكمتنا إلى ابن الفارض فأشار بأن ننظم قصيدة نضمنها البيت فنظم ونظمت

" يا مطلبيا ليس لي في غيره أرب ... إليك ألى التقضي وانتهى الطلب "

فقضى به لي

وقال رحمه الله تعالى حدثت أن أبا زيد الهزيميري بعث إلى أبي عمران التسولي وكان كثير الصلاة أنه لم يبق بينك وبين الله حجاب إلا الركيعات فرجع إليه ما معناه إن الاتصال كان منها فلا كان يوم الانفصال عنها يعني من رزق من باب فليزومه

وقال رحمه الله تعالى كنت بجامع تلمسان وإلى جانبي رجل ينتمي إلى طريقة العرفان فجعل سائل يشكو الجوع والألم فتصدق ذلك الرجل عليه بدرهم وقال إياك أن تشكو الرحمن إلى من لا يرحم فقلت أمره أن

يسأل عزيزا بمولاه ونهاه أن يشكو ذليلا إلى سواه

وكان الفارابي كثيرا ما يقول يا رب إليك المشتكى حتى إنه يوجد أثناء كلامه في غير موضعه فيعجب منه من لا علم عنده بمنزعه

وقال رحمه الله تعالى حدثت أن الفخر مر ببعض شيوخ الصوفية فقبل للشيخ هذا يقيم على الصانع ألف دليل فلو قمت إليه فقال وعزته لو عرفه ما استدل عليه فبلغ ذلك الإمام فقال نحن نعلم من وراء الحجاب وهم ينظرون من غير حجاب

وقال رحمه الله تعالى حدثت أن رجلا كان يجلس إلى أبي الحسن الحرالي وكان يشرب الخمر فسكر ذات يوم فسقط على زجاجة فشج وجهه فاخفى إلى أن برئ ثم عاد إلى مجالسة الشيخ فلما رآه أنشد

" أجريح كاسات أرقت نجيعها ... طلب الترات يعز منه خلاص "
" لا تسفكن دم الزجاجة بعدها ... إن الجروح كما علمت قصاص "
ففهمها الشاب فتاب

وقال رحمه الله تعالى كثيرا ما كنت أسمع أبا محمد المجاصي ينشد هذا البيت " هم الرجال وعيب أن يقال لمن ... لم يتصف بمعاني وصفهم رجل "

ثم يبكي وكان أهل البلد يسمونه البكاء وبعضهم الخاشع ووجدت بخط مولاي الجد على ظهر كتابه القواعد ما نصه الحمد لله تعالى جده قرأت صدر كتاب زهرة البساتين للفاسم بن الطيلسان ثم سمعت ثلاثة أحاديث من أوله بل حديثا وأثرا وإنشادا من في الشيخ الخطيب الصالح أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عياش الأنصاري ثم تناولت منه جميع الكتاب المذكور وأجازنيه بحق سماعه لبعضه وتناوله لجميعة من جده محمد المذكور بحق أخذه له عن مؤلفه صهره الفاسم المذكور وذلك بالمسجد الجامع من مالقة المحروسة قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن أحمد المقرئ في متم عشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعمئة

ويخطه رحمه الله تعالى حيث ذكر ما نصه الحمد لله مخالفة القواعد الشرعية للعوائد العرفية كإنكار الحشر وفتنة القبر ونحوهما من الأمر بالمعروف للركون إلى المشهور المألوف أو كالتقليد مع الدليل الذي ذمه الشرع في محكم التنزيل

ويخطه أيضا الحمد لله قد تتابع صفات العام حتى يصير كأنه أشير به إلى شخص بعينه فيختص ومن ثم قيل في قول الله عز وجل " ولا تطع كل حلاف مهين " القلم 10 إنه الأحنس بن شريق وفي قوله تعالى " ويل لكل همزة لمزة " الهمزة 1 إنه أمية ابن خلف وفي قوله تعالى " ذرني ومن خلقت وحيدا " المدثر 11 إنه الوليد بن المغيرة انتهى

ووجدت بخطه أيضا رحمه الله تعالى ما نصه الحمد لله قال لي المتوكل على الله أبو عنان أمير المؤمنين فارس بن علي كان جدنا أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق يقول الولايات ست ثلاث وفتها على اختياري الحجابة والقصة والشرطة وثلاث موكولة إليكم القضاء والإمامة والحسبة ثم قال رحمه الله تعالى وهذا تدبير حسن

ومن فوائده حدثني العدل أبو عبد الله محمد بن أبي زرع عن القاضي أبي عبد الله ابن أبي الصبر أنه أمر الوالي بفاس أن يبني فندق الشماعين وكان قد خرب فتوقف حتى يأذن السلطان فقال له أسلفني ما أبنيه به فإن أجاز ذلك السلطان وإلا رددته عليك ففعل فلما طوبى ذكر ما قال له القاضي

فغضب السلطان وبعث فيه فجعل المبعوثون يأتونه واحدا بعد واحد وهو متمهل في وضوئه وإصلاح برته ومركوبه ثم جعل يمشي الهوينا فلقية ابنه فقال له أسرع فقد أكثر السلطان من التوجيه إليك وهو واحد عليك فقال له مسكين أبو يحيى خاف وثبت على حاله فلما كان في الطريق لقي بعض العلماء فتعرض إليه فقال قل يخفي لطفك بلطف صنعك بجميل سترك دخلت في كنفك تشفعت بنبيك فحفظه ثم طلبه فلم يجده فجعل يقول ذلك فلما رآه السلطان سكن ما به ثم سأله عن ذلك برفق فقال له القاضي كرهت الخراب بقرب الفرويين وبالشماعين الذي هو عين فاس فسألت الوالي ذلك على أني أغرم إن لم تجز وقلت له المرجو من السلطان أن يجعله حبسا فقال قد فعلت ثم بعث إلى الشهود وحبسه على الجامع وشكر للقاضي صنيعه وصرفه مغبوطا

وهذا السلطان هو أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني وتوفي محاصرا لتلمسان في ذي القعدة من عام سنة وسبعمئة وكان ابتداء حصاره إياها سنة ثمان وتسعين وستمئة وكان جملة الحصار فيما حدثت ألف شهر انتهى

ومن فوائده مولاي الجد رحمه الله تعالى ما حكاه تلميذه أبو إسحاق الشاطبي في كتاب الإنشادات والإفادات ونصه إفادة حضرت يوما مجلسا في المسجد الجامع بغرناطة مقدم الأستاذ القاضي أبي عبد الله المقرئ في أواخر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وسبعمئة وقد جمع ذلك المجلس

القاضي أبو عبد الله والقاضي أبو القاسم الشريف شيخنا والأستاذ أبو سعيد ابن لب والأستاذ أبو عبد الله البلنسي وذا الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب وجماعة من الطلبة فكان من جملة ما جرى أن قال القاضي أبو عبد الله المقري سئلت في مسألة في الأصول لم أجد لأحد فيها نصا وهي تخصيص العام المؤكد بمنفصل فأجبت بالجواز محتجا بقول الله عز وجل " قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن " الأعراف 33 فهذا عام مؤكد وقد قال رسول الله لم يحل الله من الفواحش إلا مسألة الناسي انتهى

ومن الكتاب المذكور ما نصه إفادة حدثني الشيخ الفقيه القاضي الجليل الشهير الخطير أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري رحمه الله تعالى وأملاه علينا عن العالم الكبير أبي حيان ابن يوسف بن حيان أنه قال ورد كتاب من الأستاذ أبي عبد الله ابن مثبت الغرناطي إلى صاحب له بسمى حمزة وفيه سئل الشيخ قال أبو حيان يعني وجدت على ظهر نسخة من المفصل بخط عتيق سئل ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش علام انتصب قوله

مقالة أن قد قلت سوف أناله ... " فقال " ... " ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى "

فقال سألتك عن إعراب كلمة فأجبتني بشرط بيت فقال ابن الأبرش قد أجابك لو كنت تفهم قال أبو حيان فوقع عليه للحين إن هذا الشرط من قول الناغبة

" أتاني أبيت اللعن أنك لمتني ... وتلك التي تصطك منها المسامع "

" مقالة أن قد قلت سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائع "

يروى مقالة بالرفع على أنه بدل من أنك لمتني الفاعل وبالفتح على ذلك إلا أنه بناه لما أضافه إلى مبني

ومنه إفادة حدثني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقري رحمه الله تعالى قال سئل أبو العباس ابن البناء رحمه الله تعالى وكان رجلا صالحا في قوله تعالى " قالوا إن هذان لساحران " طه 63 لم لم تعمل إن في هذان فقال لما لم يؤثر القول في المقول لم يؤثر العامل في المعمول فقال له يا سيدي هذا لا ينهض جوابا فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إن فقال له إن هذا الجواب نواة لا تحتل أن تحك بين الأكف انتهى

ومنه إفادة قال لنا الشيخ الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقري رحمه الله تعالى إن أهل المنطق وغيره يزعمون أن الأسماء المعدولة لا تكاد توجد في كلام العرب وهي موجودة في القرآن وذلك قوله " ولا فارض ولا بكر ولا عوان بين ذلك " البقرة 68 فإن زعم زاعم أن ذلك على حذف المبتدأ ودخلت لا على الجملة وتقديره لا هي فارض ولا هي بكر قيل له إن كان يسوغ لك ذلك في هذا الموضوع فلا يسوغ في قوله تعالى " لا شرقية ولا غربية " النور 35 فصح أن الاسم المعدول موجود فصيح في كلام العرب

ومنه إفادة حدثنا الأستاذ أبو عبد الله المقري قال سئل عن قوله تعالى " وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون " الأنبياء 33 لم عاد ضمير من يعقل إلى ما لا يعقل فقال بعضهم لما اشرك مع من يعقل في السباحة وهي العوم عومل لذلك معاملته قال وهذا لا ينهض جوابا فإن السباحة لما لا يعقل كالحوت وإنما لمن يعقل العوم لا السباحة وأيضا فالحاقه بما العوم له لازم كالحوت أولى من إلحاقه بما هو غير لازم له قال وأجاب الأستاذ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي بأن الشيء المعظم عند العرب تعامله معاملة العاقل وإن لم يكن عاقلا لعظمه عندهم وأجبت أنا بأنه لما عوملت في غير هذا الموضوع معاملة من يعقل في نحو قوله تعالى " والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين " يوسف 4 لصدور أفعال العقلاء عنها أجرى عليها هنا ذلك الحكم للأنس به في موضعه

ومنه إفادة لقمني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقري رحمه الله تعالى لقمة بيده المباركة وقال لقمني الشيخ أبو عبد الله المسفر قال لقمني أبو زكريا المحياوي قال لقمني أبو محمد صالح قال لقمني الشيخ أبو مدين قال لقمني أبو الحسن ابن حرزهم قال لقمني ابن العربي قال لقمني الغزالي قال لقمني أبو المعالي قال لقمني أبو طالب المكي قال لقمني أبو محمد الحريري قال لقمني الجنيد قال لقمني قال لقمني معروف الكرخي قال لقمني داود الطائي قال لقمني العجمي قال لقمني الحسن البصري قال لقمني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال لقمني رسول الله قلت وبهذا السند صافحته أيضا رضي الله تعالى عنه انتهى

وللمحدثين في هذا السند كلام مشهور وانتصر بعضهم للسادة الصوفية رضي الله تعالى عنهم ومنه إنشادة أنشدني الشريشي الفقيه أبو عبد الله قال أنشدني القاضي المقري قال أنشدني

الرباطي قال أنشدني ابن دقيق العيد لنفسه من صدر رسالة كتب بها لبعض إخوانه بالحجاز
" يهيم قلبي طربا عندما ... أستلمح البرق الحجازيا "
" ويستميل الوجد قلبي وقد ... أصبح لي ثوب الحجى زيا "
" يا هل أقضي من منى حاجتي ... فأنحر البدن المهاريا "
" وأوتوي من زمزم فهى لي ... ألد من ريق المها ربا "

ومنه إفادة حدثنا الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقري رحمه الله تعالى قال رأيت لبعض من ألف
على كتاب الكشاف للزمخشري فائدة لم أرها لغيره في قوله تعالى " والراسخون في العلم " إذ
الناس يختلفون في هذا الموضوع اختلافا كثيرا فقال قوم الراسخون في العلم يعلمون تأويله والوقوف
عند قوله " والراسخون في العلم " وقال قوم إن الراسخين لا يعلمون تأويله وإنما يوقف عند قوله "
وما يعلم تأويله إلا الله " فقال هذا القائل إن الآية من باب الجمع والتفريق والتقسيم من أنواع البيان
وذلك لأن قوله تعالى " هو الذي نزل عليك الكتاب " هو جمع وقوله " منه آيات محكمات هن أم
الكتاب وأخر متشابهات " تفريق وقوله تعالى " فأما الذين في قلوبهم زيغ " إلى قوله تعالى "
وابتغاء تأويله " أحد طرفي التقسيم وقوله تعالى " والراسخون في العلم " الطرف الثاني وتقديره
وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به وجاء قوله تعالى " وما يعلم تأويله إلا الله " آل عمران 7
اعتراضا بين طرفي التقسيم قال وهذا مثل قوله تعالى " وأنا منا المسلمون - الآية " الجن 14
فقوله " وأنا " جمع وقوله " منا مسلمون ومنا القاسطون " تفريق وقوله " فمن أسلم " " وأما
القاسطون " تقسيم وهو من بديع التفسير قلت ومثله أيضا قوله تعالى " يوم يأت لا تكلم نفس إلا
بأذنه - الآيات " هود 105 انتهى

ومنه إنشادة أنشدنا الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقري في القول بالموجب لبعض العلماء
في ودیعة

" إن قال قد ضاعت فصدق أنها ... ضاعت ولكن منك يعني لو تعي "
" أو قال قد وقعت فصدق أنها ... وقعت ولكن منه أحسن موقع "

ومنه إنشادة أيضا من القول بالموجب لبعض الحنابلة
" يحجون بالمال الذي يجمعونه ... حراما إلى البيت العتيق المحرم "
" ويزعم كل أن تحط ذنوبهم ... تحط ولكن فوقهم في جهنم "

ومنه إفادة كتب لي بخطه شيخنا الفقيه القاضي الجليل أبو عبد الله المقري رحمه الله تعالى على
ظهر التسهيل لابن مالك الذي كتبه بخطي بعدما كتب لي بخطه روايته فيه عن أبي الحسن ابن
مزاحم عن بدر الدين ابن جماعة عن المؤلف فكتب بعد ذلك ما نصه قال محمد بن محمد المقري
بدر الدين ابن جماعة المذكور يدعى بقاضي القضاة علي ما جرت به عوائد أهل المشرق في
تسمية وأنا أكره هذا الاسم محتجا بقول النبي صلى الله عليه وسلم إن أخع اسم عند الله يوم
القيامة رجل تسمى الملوكة لا ملك إلا الله انتهى ما انتقيته من كتاب الإنشادات والإفادات
للشاطبي فيما يتعلق بجدي رحمه الله تعالى

ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله مما لم يذكر فيما سبق أنه حكى أن ابن أمجوط الموله دخل في
حلقة أبي عبد الله ابن رشيد بجامع القرويين وبين رجله قصة كأنها فرس وبيده أخرى كأنها رمح
فانتهره رجل فضربه برمحه على رأسه وقال له أسكت يا ميت فأبهت الناس لكلامه فقال له الشيخ
يا فقير أنت في حال ونحن في مقال وشأن أرباب الأحوال التسليم لأصحاب المقال فنظر إليه الموله
وانصرف ثم لم ينشب المنتهر أن توفي بعد ذلك بأيام فلائله
أخبار للمقري عن ابن شاطر

ومنها قلت لابن شاطر يوما كيف حالك فقال محبوس في الروح
وصدق لأن الدنيا سجن المؤمن ولا مخلص له من حبسه إلا بمفارقة نفسه
وقال سألت ابن شاطر عن معنى قول ابن الفارض

" فلم أله باللاهوت عن حكم مظهري ... ولم أنس بالناسوت موضع حكمتي "

فقال يقول ما أنا بالحلاج ولا ببلعام ثم قال مولاي الجد بعد هذا الكلام ما صورته قلت وهذا هو
الإنسان على الكمال والتمام ولقد سمعته يقول في الحلاج نصف إنسان يشير إلى البيت
وقال أيضا رحمه الله تعالى سمع ابن شاطر إنسانا يقول الجنة رخيصة فقال كيف تكون رخيصة والله
عز وجل يقول " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " التوبة 111 انتهى
ثم قال مولاي الجد بأثر هذا الكلام قلت ما الأنفس والأموال في جنب ما فيها مما لا عين رأت ولا
أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لا سيما وفوق هذه الحسنى زيادة الإكرام بالنظر والرضى

وقال أيضا قيل لابن شاطر صف لنا الدنيا فقال " كسراب ببيعة " النور 39 الآيتين فبلغ ذلك أبا زيد ابن الإمام فأنكر عائبا لاستحسان سامعه تاليا " يحرفون الكلم عن مواضعه " المائدة 13 ولقد أصيب المتعسف بأدهى منها وأمر فإنه أفحم يوما بعض أهل النظر فتلا عليه " فبهت الذي كفر " البقرة 58 على أن له أن يقول لم أخرج الآية عن مرادها فالبهت من انقطاع المعاند والكفر من جحد الجاحد ولنا أن نقول التحريف المذموم هو التحويل للإبطال وليس هذا في قصد الممثل الأول بالمثال انتهى

وهذا كله على مذهب جمهور المالكية في منع الاقتباس وللكلام على ذلك موضع غير هذا فليراجع في كتب البيان وغيرها

وقال رحمه الله تعالى حدثت أن المتوكل على الله أبا عنان رحمه الله تعالى أعطى ابن شاطر ألف دينار ليحج بها فمر بها إلى تلمسان يدفع منها شيئا فشيئا للمتفرجين بغدير الوريث شرقي عباد تلمسان إلى أن نفذت فلما ورد السلطان أبو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من منشبر الجلد فقال له ياسيدي أبا عبد الله حج مبرور فقال له إذا جهلت أصل المال فانظر مصارفه ويأبى الله إلا أن ينفق الخبيث في مثله فضحك السلطان وانصرف انتهى

وكان لابن شاطر هذا عجائب ولم يكن مخلًا بشيء من الحقوق الشرعية وكان معتقدا عند أهل وقته وكان السلطان أبو عنان على فقهه يعظمه ويصله ويسلم له وبات عنده ليلة بقصره وكان يدخل القصر ولا تحتجب منه الجوارى فاحتاج إلى البول فبال في قبة القصر عظيمة فانتهرت إحدى الجوارى وقالت له أتبول في قبة مولانا فقال لها إن قبة مولانا الخضراء أعظم من هذه وأنا أفعل تحتها ما هو أفظع من البول وما انتهرني قط فذكرت ذلك الجارية للسلطان فضحك وعلم أنه يريد السماء وكان يكتب القرآن والعمدة ولا يغلق حرفا مجوفا فإذا غلب على ذلك أصلحه حتى حكى أنه سافر لإصلاح حرف مجوف أغلقه سهوا من نسخة كان باعها ولم يتذكر ذلك حتى سافر مشتربها فما رجع حتى جدده

وحكى الشيخ أبو القاسم ابن داود الفخار السلوي أن الشيخ أبا عبد الله الشريف التلمساني صاحب المفتاح في أصول الفقه وشارح الجمل الخونجية المتوفى عام اثنين وسبعين وسبعمئة دفين المدرسة اليعقوبية من تلمسان المحروسة افتتح شرح العمدة بما نصه اللهم احمد نفسك عمن أمرته أن يتخذك وكيفا حمدا عائدا منك إليك متحديا بك دائما بدوام ملكك لا منقطعا ولا مفصولا

قال فقال لي أبو عبد الله ابن شاطر ما هو انفصال عالم الملك فقلت له بالضرورة الوقتية فقال لي ما أجهلك وأجهل سيدك أبا عبد الله وأجهل ابن سودكين الذي اخذ من كتابه هذا الحمد إذ قال لا منقطعا ولا مفصولا بعد قوله بدوام ملكك وهو بالضرورة الوقتية وهي منقطعة فهلا قال دائما بدوام قيومينك وعظيم قدرك ومجدك الأعلى وسبحات وجهك الأكرم لا منقطعا ولا مفصولا فبلغ لذلك أبا عبد الله الشريف فبدله انتهى

واخبار ابن شاطر كثيرة وقد مر ذكره في كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى وسيأتي ما ذكره لسان الدين به في الإحاطة

تتمة الفوائد عن المقرئ

ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله تعالى ما قاله إثر قول الرازي في التفسير الحس أقوى من العقل ونصه هذا على ما حكاه في المحصل من أن المعقولات فرع المحسوسات قال ولذلك من فقد حسا فقد فقد علما كالأكمه والعين ومذهب جمهور الفلاسفة أن اليقينييات هي المعقولات لا المحسوسات انظر المحصل انتهى

ومن فوائده رحمه الله تعالى أنه قال أنشدت يوما الأيلي قول ابن الرومي

" أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه ... ويكحله الأحياء والبصراء "

" فإذا مررت رأيت من عميانه ... أمما على أموانه قراء "

فاستعادني حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر وانفعاله له وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكرر الذي لا أعرف له ثانيا فيه فقال أظننت أنني أستحسن الشعر فقلت مثلك

يستحسن مثل هذا الشعر فقال إنما تعرفت منه كون العميان كانوا في ذلك الزمان يقرؤون على المقابر فإنني كنت أرى ذلك حديث العهد فاستفدت التاريخ

وقال مولاي الجد رحمه الله تعالى حدثني الأيلي أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الخطيب بتلمسان كان يقول في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد بالكسر

وكان الطلبة ينكرون عليه ذلك فلما ورد عليهم الراوية الرحلة أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري سمعه يقول ذلك فأنكر عليه في جملتهم وبلغ الخطيب ذلك فلم يرجع فلما قفل ابن رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبي الحسن ابن أبي الربيع بسبنة فهناه بالقدوم وقال له فيما قال رشدت يا ابن رشيد ورشدت لغتان صحيحتان حكاهما يعقوب في الإصلاح ثم قال مولاي الجد قلت هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة

وقال رحمه الله تعالى قال طالب لشيخنا الأبي يوما مفهوم اللقب صحيح فقال له الشيخ قل زيد موجود فقال زيد موجود فقال له الشيخ أما أنا فلا أقول شيئا فعرف الطالب ما وقع فيه فخجل وهذا الأبي تقدم في كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى أنه عالم الدنيا وهو تلمساني كما تقدم قال تلميذه أبو القاسم السلوي الفخار دخل علي شيخنا الأبي يوما وأنا أعجن طين الفخارة فقال لي ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة ترد عليها فقلت أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره فأدرکه وجد عظيم حتى إنه صاح وقام وقعد وبقي هنية مطرقا برأسه مفكرا ثم قال هكذا هي النفوس البشرية

قال وقال لي يوما وقد وجد الصبيان يصوتون بقصب رقاق على الذباب فإذا خرج قتلوه الغلط الداخل عليه من أي أنواع المغلطات هو فقلت له من إيهام العكس لما كان كل ذباب مصوتا ظن أن كل مصوت ذباب فاستحسن ذلك

قلت وحدثني مولاي العم الإمام شيخ الإسلام سيدي سعيد بن أحمد المقرئ رحمه الله تعالى عن شيخه ابن جلال مفتي حضرتي فأس وتلمسان أنه كان يحكي أن الغلط جاءه من عدم كلية الكبرى في الشكل الأول لأنه ركبها هكذا هذا مصوت وكل مصوت ذباب وقد علمت أنها هنا إنما تصدق جزئية لا كلية وإذا كانت جزئية بطل الإنتاج لأن ذلك من الضروب العقيمة انتهى ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله تعالى أنه قال سمعت شيخنا الأبي يقول ما في الأمة المحمدية أشعر من ابن الفارض

وقال أيضا رحمه الله تعالى سمعت شيخنا الأبي يقول إنما أفسد العلم كثرة التواليف وإنما أذهبه بنیان المدارس وكان ينتصف له من المؤلفين والباينين وإنه لكما قال غير أن في شرح ذلك طولا وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير وقد لا يحصل له من العلم إلا النزر اليسير لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوض عنه فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر وأما البناء فلأنه يجذب الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات فيقبل بها على من

يعينه أهل الرئاسة للأجراء والإقراء منهم أو ممن يرضى لنفسه الدخول في حكمهم ويصرفونها عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك وإن دعوا لم يجيبوا وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم ثم قال مولاي الجد رحمه الله تعالى ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغربية أربابها ونسبوا طواهر ما فيها إلى أمهاتها وقد نبه عبد الحق في تعقيب التهذيب على ما يمنع من ذلك لو كان من يسمع وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع ثم تركوا الرواية فكثر التصحيف وانقطعت سلسلة الاتصال فصارت الفتاوي تنقل من كتب من لا يدري ما زيد فيها مما نقص منها لعدم تصحيحها وقلة الكشف عنها ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسوغون الفتوى من تبصرة الشيخ أبي الحسن اللخمي لكونه لم يصحح على مؤلفه ولم يؤخذ عنه وأكثر ما يعتمد اليوم ما كان من هذا النمط ثم انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب المرضيين بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين ولم يكن هذا فيمن قبلنا فلقد تركوا كتب البراذعي على نيلها ولم يستعمل منها على كره من كثير منهم غير التهذيب الذي هو المدونة اليوم لشهرة مسائله وموافقته في أكثر ما خالف فيه المدونة لأبي محمد ثم كل أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول والكبار فاقترضوا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه وأفنوا أعمارهم في فهم رموزه وحل لغوزه ولم يصلوا إلى ردم ما فيه إلى أصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح بل هو حل مقفل وفهم أمر مجمل ومطالعة تقييدات

زعموا أنها تستنهض النفوس فبينا نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ أتيت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ فإننا لله وإننا إليه راجعون فهذه جملة تهديك إلى أصل العلم وتريك ما غفل الناس عنه انتهى ولنصلها بخاتمة تشير إلى حال العلماء أيضا اعلم أن شر العلماء علماء السلاطين وللعلماء معهم

أحوال فكان الصدر الأول يفرون منهم وهم يطلبونهم فإذا حضر واحد منهم أفرغوا عليه الدنيا إفرافاً ليقتنصوا بذلك غيره ثم جاء أهل العصر الثاني فطمحت أنفسهم إلى دنيا من حصل لهم ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم فكانوا لا يأتونهم فإن دعوهم أجابوهم إلا القليل فانتقصوا مما كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم ثم كان فيمن بعدهم من يأتهم بلا دعوة وأكثرهم إن دعى أجاب فانتقصوا بقدر ذلك أيضاً ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم فاستغنوا بهم عن دعاء غيرهم لا على جهة الفضل أو محبة المدحة منهم فلم يبقوا عليهم من ذلك إلا النزر اليسير وصرقوهم في أنواع السخر والخدم إلا القليل وهم ينتظرون صرفهم والتصريح بالاستغناء عنهم وعدم الحاجة إليهم ولا تستعظم هذا فعله سبب إعادة الحال جذعة عجب الله من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل وهذا كله ليظهر لك سر قول النبي لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه خلفهم قيل اليهود والنصارى قال فمن وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا سمعت العلامة الأبلي يقول لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم لأننا أتينا أكثر مما أتوا يشير

إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افتردت عليه بنو إسرائيل واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم وتعددت ملوكهم لاتساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائدهم حتى غلبوا بذلك على الخلافة فنزعت من أيديهم وساروا في الملك بسير من قبلهم مع غلبة الهوى وإندراس معالم التقوى لكننا آخر الأمم أطلعنا الله من غيرنا على أقل مما ستر منا وهو المرجو أن يتم نعمته علينا ولا يرفع ستره الجميل عنا فمن أشد ذلك إتلافاً لغرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيحة أن ذلك لم يكن بتبديل اللفظ إذ لا يمكن ذلك في المشهورات من كتب العلماء المستعملة فكيف في الكتب الإلهية وإنما كان ذلك بالتأويل كما قال ابن عباس وغيره وأنت تبصر ما اشتملت عليه كتب التفسير من الخلاف وما حملت الآي والأخبار من التأويلات الضعاف قيل لمالك لم اختلف الناس في تفسير القرآن فقال قالوا بأرائهم فاختلغوا أين هذه من قول الصديق أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله عز وجل برأيي كيف وبعض ذلك قد انحرف عن سبيل العدل إلى بعض الميل وأقرب ما يحمل عليه جمهور اختلافهم أن يكون بعضهم قد علم بقصد إلى تحقيق نزول الآية من سبب أو حكم أو غيرهما وآخرون لم يعلموا ذلك على التعيين فلما طال بحثهم ووطنوا عجزهم أرادوا تصوير الآية بما يسكن النفوس إلى فهمها في الجملة ليخرجوا عن حد الإبهام المطلق فذكروا ما ذكروه على جهة التمثيل لا على سبيل القطع بالتعيين بل منه ما لا يعلم أنه أريد لا عموماً ولا خصوصاً لكنه يجوز أن يكون المراد فإن لم يكن إياه فهو قريب من معناه ومنه أنه مراد لكن بحسب الشركة والخصوصية مع جواز أن يكون هو المراد بحسب الخصوصية ثم اختلط الأمران والحق أن تفسير القرآن من أصعب الأمور فالإقدام عليه جراءة وقد قال الحسن لابن سيرين تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب فقال له تفسر القرآن كأنك شهدت التنزيل وقد صح أن رسول الله لم يكن يفسر من القرآن إلا آيات معدودة وكذلك أصحابه والتابعون بعدهم وتكلم أهل النقل في صحة التفسير المنسوب لابن عباس إليه إلى غير ذلك ولا رخصة في تعيين الأسباب والناسخ والمنسوخ إلا بنقل صحيح أو برهان صريح وإنما الرخصة في تفهيم ما تفهمه العرب بطباعها من لغة وإعراب وبلاغة لبيان إعجاز ونحوها انتهى

ترجمة المقرئ من نيل الابتهاج

ولنرجع إلى بقية أبناء مولاي الجد رحمه الله فنقول قال صاحب نيل الابتهاج بتطريز الديباج ما صورته محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني الشهير بالمقرئ بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة كذا ضبطه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في كتابه العلوم الفاخرة وضبطه ابن الأحمر في فهرسته وسيدي أحمد زروق بفتح الميم وسكون القاف الإمام العلامة النظار المحقق القدوة الحجة الجليل الرحلة أحد فحول أكابر علماء المذهب المتأخرين الأثبات قاضي الجماعة بفاس ذكره ابن فرحون في الأصل يعني الديباج وأثنى عليه انتهى وقال الخطيب ابن مرزوق كان صاحبنا المقرئ معلوم القدر مشهور الذكر بالخير تبعه بعد موته من حسن الثناء وصالح الدعاء ما يرجى له النفع به يوم اللقاء وعوارفه معلومة عند الفقهاء ومشهورة بين الدهماء انتهى

وقال أبو العباس الونشريسي في بعض فوائده ومقره بفتح الميم بعدها قاف مفتوحة مشددة قرية من قرى بلاد الزاب من أعمال إفريقية سكنها سلفه ثم تحولوا إلى تلمسان وبها ولد الفقيه المذكور وبها نشأ وقرأ وأقرأ إلى أن خرج منها صحبة الركاب المتوكلي العناني أمير المؤمنين فارس عام تسعة وأربعين وسبعمائة إلى مدينة فاس المحروسة فولاه القضاء فنهض بأعبائه علماً وعملاً

وحمدت سيرته ولم تأخذه في الله لومة لائم إلى أن توفي بها إثر قدومه من بلاد الأندلس في غرض الرسالة لأبي عنان عام تسعة وخمسين وسبعمائة ثم نقل إلى مسقط رأسه تلمسان وقال في موضع آخر إنه توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى عام تسعة وخمسين وسبعمائة بمدينة فاس المحروسة ثم نقل إلى تلمسان محل ولادته ومقر أسلافه ودفن بها في البستان الملاصق لقبلي داره الكائنة بباب الصرف من البلد المذكور وهو الآن على ملك بعض ورثة الشيخ أبي يحيى الشريف انتهى

ومن أخبار مولاي الجد رحمه الله تعالى أنه قال شهدت الوقفة سنة أربع وأربعين وسبعمائة وكانت جمعة الخطيب في سابع ذي الحجة في الناس بالمسجد الحرام وقال إن جمعة هذه خاتمة مائة جمعة وقف بها من الجمعة التي وقف فيها رسول الله في حجة الوداع آخر عشر من الهجرة وشاع ذلك في الناس وذاع وكان علم ذلك مما تواتر عندهم والله أعلم وهم يزعمون أن الجمعة تدور على خمس سنين وهذا مناف لذلك ولكن كثير منهم ينكر اطراد هذا ويقول إنها قد تكون على خلاف ذلك فلا أدري

ومنها أنه قال شهدت شمس الدين بن قيم الجوزية قيم الحنابلة بدمشق وقد سأله رجل عن قوله عليه الصلاة والسلام من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار كيف إن أتى بعد ذلك بكبيرة فقال موت الولد حجاب والكبيرة خرق لذلك الحجاب وإنما يكون الحجاب حجابا ما لم يخرق فإذا خرق فقد زال عن أن يكون حجابا ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام الصوم جنة ما لم يخرقها ثم قال وهذا الرجل أكبر أصحاب تقى الدين ابن تيمية

ومن أخبار مولاي الجد الدالة على صرامته ما حكاه ابن الأزرقي عنه أنه كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان ليث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالا له إلا الشيخ المقرئ فإنه كان لا يقوم في جملتهم فأحس النقيب من ذلك وشكاه إلى السلطان فقال له السلطان هذا رجل وارد علينا على حاله إلى أن ينصرف فدخل النقيب في بعض الأيام على عادته فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس فنظر إلى المقرئ وقال له أيها الفقيه ما لك لا تقوم لي فنظر إليه المقرئ وقال له أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبته ولا يرتاب فيه أحد وأما شرفك فمظنون ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة ولو علمنا شرفك قطعاً لأقمنا هذا من هنا وأشار إلى السلطان أبي عنان وأجلسناك مجلسه فسكت انتهى قال ابن الأزرقي وعلى اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون فمن معني ذلك أيضا ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدي السلطان أبي عنان المذكور صحيح مسلم بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم فلما وصل إلى أحاديث الأئمة من قريش قال الناس إن قال الشيخ الأئمة من قريش وأفصح بذلك استوغر قلب السلطان وإن وري وقع في محذور فجعلوا يتوقعون له ذلك فلما وصل إلى الأحاديث قال بحضرة السلطان والجمهور أن الأئمة من قريش ثلاثا ويقول بعد كل كلمة وغيرهم متغلب ثم نظر إلى السلطان وقال له لا عليك فإن القرشي اليوم مظنون أنت أهل للخلافة إذ بعض الشروط قد توفرت فيك والحمد لله فلما انصرف إلى منزله بعث له السلطان بألف دينار انتهى

قال أبو عبد الله ابن الأزرقي قلت ويلزم أيضا من اعتذاره أن قيام السلطان لذى الشرف المحقق بالعلم أولى بالمحافظة على تعظيم حرمة الله وقد روي عن بعض الأمراء أنه تكبر على ذلك واستخف بمنزلة من عظم به غيره فسلبه الله ملكه وملك بنييه من بعده انتهى

ومن أجوبة مولاي الجد رحمه الله تعالى قوله سألتني السلطان عن لزمته يمين علي نفي العلم فحلف جهلا على البيت هل يعيد أم لا فأجبت بإعادتها وقد كان من حضر من الفقهاء أفتوا بأن لا تعاد لأنه أتى بأكثر مما أمر به علي وجه يتضمنه فقلت له اليمين على وجه الشك غموس قال ابن يونس والغموس الحلف على تعمد الكذب أو على غير يقين ولا شك أن الغموس محرمة منهي عنها والنهي يدل على الفساد ومعناه في العقود عدم ترتب أثره فلا أثر لهذه اليمين ويجب أن تعاد وقد يكون من هذا اختلافهم فيمن إذنها

السكوت فتكلمت هل يجترأ بذلك والإجزاء هنا أقرب لأنه الأصل والصمات رخصة لغلبة الحياة فإن قلت البيت أصل ونفي العلم إنما يعتبر عند تعذره قلت ليس رخصة كالصمات ومنها أنه قال سألتني بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم إذ لم يل امرهم من يسلك بهم الجادة ويحملهم على الواضحة بل من يغتر في مصلحة ديناه غافلا عن عاقبة أخراه فلا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة ولا يراعي عهدا ولا حرمة فأجبت بأن ذلك لأن الملك ليس في شريعتنا وذلك أنه كان فيمن كان قبلنا شرعا قال الله تعالى ممتنا على بني إسرائيل "

وجعلكم ملوكا " المائدة 20 ولم يكن ذلك في هذه الأمة بل جعل لهم خلافة قال الله تعالى " وعد الله الذين آمنوا منكم والذين عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض - الآية " النور 55 وقال تعالى " وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا " البقرة 247 وقال سليمان " رب اغفر لي وهب لي ملكا " ص 35 فجعلهم الله تعالى ملوكا ولم يجعل في شرعنا إلا الخلفاء فكان أبو بكر خليفة رسول الله وإن لم يستخلفه نسا لكن فهم الناس ذلك فهما وأجمعوا على تسميته بذلك ثم استخلف أبو بكر عمر فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد إلى سبيل الخلافة الذي هو النظر والإختيار ونص في ذلك على عهده ثم اتفق أهل الشورى على عثمان فأخرج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكا ثم تعين علي بعد ذلك إذ لم يبق مثله فبايعه من أثر الحق على الهوى واصطفى الآخرة على الدنيا ثم الحسن كذلك ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا والخشونة

لينا ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم فجعلها ميراثا فلما خرج بها عن وضعها لم يستقيم ملك فيها ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكا لأن سليمان رحمه الله تعالى رغب عن بني أمية إثارا لحق المسلمين ولئلا يتقلدها حيا وميتا وكان يعلم اجتماع الناس عليه فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط إلا خليفة وأما الملوك فعلى ما ذكرت إلا من قل وغالب أفعاله غير مرضية انتهى

وفوائد مولاي الجد وتحفه وطرفه ولطائفه ودقائقه يستدعي استقصاؤها مجلدات فلنكتف بما قدمناه

" ... وفي الإشارة ما يعني عن الكلم "

مؤلفات المقرري الجد

وأما تأليفه فكثيرة منها كتاب القواعد اشتمل على ألف قاعدة ومائتي قاعدة قال العلامة الونشريسي في حقه إنه كتاب غزي العلم كثير الفوائد لم يسبق إلى مثله بيد أنه يفتقر إلى عالم فتاح انتهى

وقد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة وهو قليل بهذه الديار المشرقية ولم أر منه بمصر إلا نسخة عند بعض الأصحاب وذكر أنها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر المعمور وأما قول لسان الدين في الإحاطة عند تعرضه لذكر تأليف مولاي الجد ما صورته ألف كتابا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ضمنها كل أصل من الرأي والمباحثة فهو غير القواعد بلا مرية ومنها كتاب الطرف والتحف غاية في الحسن والطرف قاله الونشريسي وقد وقعت على بعضه فرأيت العجب العجاب

ومنها اختصار المحصل ولم يكمله وشرحه لجمل الخونجي كذلك ومنها كتاب عمل من طب لمن حب وهو بديع في بابه مشتمل على أنواع الأول فيه أحاديث حكمية كأحاديث الشهاب وسراج المهتدين لابن العربي والنوع الثاني منه الكليات الفقهية على جملة أبواب الفقيه في غاية الإفادة والثالث في قواعد وأصول والرابع في اصطلاحات وألفاظ قال الونشريسي وقد أطلعني الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الخالق على نسخة من هذا الكتاب فتلطفت في استنساخها فلم يسمح به انتهى

قلت وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان وهو فوق ما يوصف وفيه يقول مولاي الجد رحمه الله تعالى

" هذا كتاب بديع في محاسنه ... ضمنته كل شيء خلته حسنا "

" فكل ما فيه إن مر اللبيب به ... ولم يشم عبيرا شام منه سنا "

" فخذ واشدد به كف الضنين وذذ ... حتى تحصله عن جفئك الوسنا "

وهذه الأبيات كافية في وصف هذا الكتاب إذ صاحب البيت أدري بالذي فيه

تقول من كتاب المحاضرات للمقرري الجد

ومنها كتاب المحاضرات وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير وقد ملكت منه بالمغرب نسختين فلنذكر منه بعض الفوائد فنقول قال رحمه الله تعالى قيل لصوفي لم تقول الله الله ولا تقول لا إله إلا الله فقال

نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب وهذا إن لم يكن في هذه الكلمة لأنها أفضل ما قالته الأنبياء فهو في كثير من التنزيه الذي يطلقه المتكلمون وغيرهم حتى قال الشاشي عنهم إنهم يتمندلون بأسماء الله عز وجل ما عرفه من كيفه ولا وحده من مثله ولا عبده من شبهه المشبه أعشى والمعطل أعشى المشبه متلوث بفرث التجسيم والمعطل نجس بدم الجحود ونصيب المحق لبن

خالص وهو التنزيه انزل من علو التشبيه ولا تعل قلل أباطيل التعطيل فالوادي المقدس بين الجبلين أبو المعالي من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبه ومن سكن إلى النفى المحض فهو معطل ومن قطع بموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد
" جل رب الأعراض والأجسام ... عن صفات الأعراض والأجسام "
" جل ربي عن كل ما اكتنفته ... لحظات الأفكار والأوهام "
" برىء الله من هشام وممن ... قال في الله مثل قول هشام "
" الدقاق المرید صاحب وله لأن المراد بلا شبه وقيل مثله الأعلى " ليس كمثله شيء
الجنيد أشرف كلمة في التوحيد قول الصديق الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته

القشيري يعني أن العارف عاجز عن معرفته والمعرفة موجودة فيه غيره ما عرف الله سوى الله لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك
" كل ما ترتقي إليه بوهم ... من جلال وقدرة وسناء "
" فالذي أبدع البرية أعلى ... منه سبحان مبدع الأشياء "
سأل المريسي الشافعي عن التوحيد بحضرة الرشيد فقال أن لا تتوهمه ولا تتهمه فأبتهت بشر الشبلي من توهم أنه واصل فليس له حاصل ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ومن تواجد فهو فاقد ومن أحاب عن التوحيد بالعبارة فهو غافل ومن سكت عنه فهو جاهل ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا نادته هواتف الحقيقة الذي تطلب أمامك وما تبرجت ظواهر المكونات إلا نادتك حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر

" ما ينتهي نظري منهم إلى رتب ... في الحسن إلا ولاحت فوقها رتب "
الجريري ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد
الحسن العجز عن درك الإدراك إدراك
" تبارك الله وارت غيبه حجب ... فليس يعرف إلا الله ما الله "
دعا نبي إلى الله عز وجل بحقيقة التوحيد فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد فعجب من ذلك فأوحى الله عز وجل إليه تريد أن تستجيب لك العقول قال نعم قال احبيني عنها قال كيف أحببك وأنا أدعو إليك قال تكلم في الأسباب وفي أسباب الأسباب فدعا الخلق من هذا الطريق فاستجاب له الجرم الغفير

ومنه سمع أعرابي اختلاف المتكلمين بمسجد البصرة في الإنسان وانتزاع كل واحد منهم الحجة على رأيه فخرج وهو يقول
" إن كنت أدري فعلي بدنه ... من كثرة التخليط في من أنه "
ومن عجز عن أقرب الأشياء نسبة منه فكيف يقدر على أبعد الأمور حقيقة عنه من عرف نفسه عرف ربه

ومنه دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره
لما احتضر الوليد ابن أبان قال لبيته هل تعلمون أحدا هو أعلم بالكلام مني قالوا لا قال فإني أوصيكم بما عليه أهل الحديث فإني رأيت الحق معهم وعن أبي المعالي نحوه
ومنه هجر أحمد المحاسبي لما صنف في علم الكلام فقال إنما قصدت إلى نصر السنة فقال ألسنت تذكر البدعة وشبهة البدعة قلت من تحقق كلام فخر الدين الرازي وجدته في تقرير الشبه أشد منه في الانفصال عنها وفي هذا ما لا يخفى
ومنه من آمن بالنظر إلى ظاهر الثعبان كفر بالاستماع إلى خوار العجل ومن شاهد مجاوزة القدرة الإلهية وسع القوة البشرية لم يكثرث بوعيد الدنيا ولم يؤثر الهوى على الهدى والتقوى
ومنه علي بن الحسين من عرف الله بالأخبار دون شواهد الاستبصار والاعتبار اعتمد على ما تلحقه التهم

ومنه قيل لطبيب بم عرفت ربك قال بالإهليلج يجفف الحلق ويلين البطن وقيل لأديب بم عرفت ربك قال بنحلة في أحد طرفيها عسل وفي الآخر لسع والعسل مقلوب اللسع وسأل الدهرية الشافعي عن دليل الصانع فقال ورقة الفرصاد تأكلها دودة الفز فيخرج منها الإبريسم والنحل فيكون منها العسل والظباء فينعد في نوافجها المسك والشاء فيكون منها البعر فأمنوا كلهم وكانوا سبعة عشر

قيل لأعرابي بم عرفت ربك فقال البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير وأثار الأقدام تدل على المسير فسماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج أما يدل ذلك على العليم القدير

" قد يستدل بظاهر عن باطن ... حيث الدخان يكون موقد نار " قيل لأعرابي بم عرفته الله قال بنقض عزائم الصدور وسوق الاختيار إلى حبات المقدور ومنه الدفاق لو كان إبليس بالحق عارفا ما كان لنفسه بالإضلال والإغواء واصفا ومنه التوحيد محو آثار البشرية وتجديد صفات الألوهية الحق واحد في ذاته لا ينقسم واحد في صفاته لا يماثل واحد في أفعاله لا يشارك لو كان موجودا عن عدم ما كان موصوفا بالقدم الحياة شرط القدرة دلت على ذلك الفطرة لو لم يكن حيا لاستحال أن يوجد شيئا لو لم يكن باقيا لكان للألوهية منافيا لو كان جسما ما استحق الإلهية اسما لو كان الباري جوهرًا لكان للحيز مفتقرا العرض لا يبقى والقديم لا يتغير ولا يفنى لو لم يكن بصفة القدرة موصوفا لكان بسمة العجز معروفا لو لم يكن عالما قادرا لاستحال كونه خالقا فاطرا دلت الفطرة والعبرة أن الحوادث لا تحصل إلا من ذي قدرة لو لم يكن بالإرادة قاصدا ما كان العقل بذلك شاهدا من تنوع إيجاده دل ذلك على أن الفعل مراده لو لم يكن بالسمع والبصر موصوفا لكان لصددهما مالوفا لو جاز سامع سمع له لجاز صانع لا صنع له لو كان سمعه بأذن لافتقرت إلى ركن من صدرت عنه الشرائع والأحكام كان موصوفا بالكلام ليس في الصفات

السبع ما لا يتعلق إلا الحياة ولا ما يؤثر إلا القدرة والإرادة كما جاز أن يأمر بما لا يريد جاز أن يريد ما لا يحب لا يسأل عما يفعل الواحد كاف وما زاد عليه متكاف ليس مع الله تعالى موجودات لأن الموجودات كلها كالظل من نور القدرة له رتبة التبعية لا رتبة المعية

" إن من أشرك بالله ... جهول بالمعاني "

" أحول العقل لهذا ... ظن للواحد ثاني "

قال جعفر بن محمد لو كان على شيء لكان محمولا ولو كان في شيء لكان محصورا ولو كان من شيء لكان محدثا

قيل لثمامة بن الأشرس متى كان الله فقال ومتى لم يكن فقيل فلم كفر الكافر فقال الجواب عليه قال خادم أبي عثمان قال لي مولاي يا محمد لو قيل لك أين معبودك ما كنت تجيب قال أقول بحيث لم يزل قال فإن قيل لك فأين كان في الأزل فقال أقول بحيث هو الآن فنزع قميصه وأعطانيه قيل لصوفي أين هو فقال محقك الله أطلب من العين أين

ومنه سمعت شيخنا يقول نقصنا صفة كمال له فينا يعني إذا وجب له كل الكمال وجب لنا كل

النقص وهذا على أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان وفيه كلام

ومنه بلغ أحمد أن أبا ثور قال في الحديث خلق الله آدم على صورته إن الضمير لآدم فهجره فأتاه أبو ثور فقال أحمد أي صورة كانت لآدم يخلقه عليها كيف تصنع بقوله خلق الله آدم على صورة الرحمن فاعتذر إليه وتاب بين يديه

ومنه أتى يهودي المسجد فقال أيكم وصي محمد فأشاروا إلى الصديق فقال إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو وصي

نبي قال سل قال فأخبرني عما ليس لله وعما ليس عند الله وعما لا يعلمه الله فقال هذه مسائل الزنادقة وهم بقتله فقال ابن عباس ما أنصفتموه إما أن تجيبوه وإما أن تصرفوه إلى من يجيبه فإني سمعت رسول الله يقول لعلي اللهم اهد قلبه وثبت لسانه فقال أبو بكر قم معه إلى علي فقال له أما ما لا يعلمه الله فقولكم في عزيز إنه ابن الله والله عز وجل لا يعلم له ولدا قال في التنزيل "

ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله - الآية " بونس 18 وأما ما ليس عند الله فالظلم وأما ما ليس له فالشريك فأسلم اليهودي فقبل أبو بكر رأس علي وقال له يا مفرج الكربات ووردت مثل هذه

المسائل عن الصحابة فالله تعالى أعلم

وقال العتابي لأبي قرّة النصراني عند المأمون ما تقول في المسيح قال من الله قال البعض من الكل على سبيل التجزيء والوالد من الوالد على طريق التناسل والخل من الخمر على وجه الاستحالة والخلق من الخالق على جهة الصنعة فهل من معنى خامس قال لا ولكن لو قلت بواحد منها ما كنت تقول قال الباري لا يتجزأ ولو جاز عليه ولد جاز له ثان وثالث وهلم جرا ولو استحال فسد والرابع مذهبنا وهو الحق

ومنه أول ما تكلم به عيسى في المهد أن قال " إني عبد الله " مريم 30 وهو حجة على الغالين

فيه يقال لهم إن صدق فقد كذبتم وإلا فمن عبدتم ولمن ادعيتهم

قال القاضي ابن الطيب للقسيس لما وجهه عضد الدولة إلى ملك الروم لم اتحد اللاهوت بالناسوت فقال أراد أن ينجي الناس من الهلاك قال

فهل درى أنه يقتل ويصلب أولا لم يدر لم يجز أن يكون إلها ولا ابنا وإن درى فالحكمة تمنع من

التعرض لمثل ما قلتُم إنه جرى
سأل القاضي هذا البطرك عن أهله وولده فأنكر ذلك النصارى فقال تبرئون هذا مما تثبتونه لربكم
سواء لهذا الرأي فانكسروا
ابن العربي سمعت الفقراء ببغداد يقولون إن عيسى عليه السلام كان إذا خلق من الطين كهيئة
الطير طار شيئاً ثم سقط ميتاً لأنه كان يخلق ولا يرزق ولو رزق لم يبق أحد إلا قال هو الله إلا من
أوتي هداية
سأل ابن شاهين الجنيدي عن معنى مع فقال مع الأنبياء بالنظر والكلاءة " إنني معكما " طه 46 ومع
العامّة بالعلم والإحاطة " إلا وهو معهم " المجادلة 7 فقال مثلك يصلح دليلاً على الله
ومنه سأل قذري علياً رضي الله عنه عن القدر فأعرض عنه فألح عليه فقال أخلقك كيف شئت كيف
شاء فأمسك فقال أتروني يقول كيف شئت والله أقتله فقال كيف شاء قال أحييك كيف تشاء أو كيف
يشاء قال كيف يشاء قال فيدخلك حيث تشاء أو حيث يشاء قال حيث يشاء قال اذهب فليس لك
من الأمر شيء
أبو سليمان أدخلهم الجنة قبل أن يطيعوه وأدخلهم النار قبل أن يعصوه جل حكم الأزل إن يضاف إلى
العلل سبق قضاؤه فعلة " إنني جاعل في الأرض خليفة " البقرة 30 وأوقفت مشيئته أمره " ولو شاء
ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً " يونس 99
قال الشاذلي أهبط آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه لأنه قال " في الأرض " ولم يقل في السماء ولا
في الجنة
الأوزاعي قضى بما نهى وحال دون ما أمر واضطر إلى ما حرم
" ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء "
قال الأوزاعي لغيلان مشيئتك مع مشيئة الله عز وجل أو دونها فلم يجب فقال هشام بن عبد
الملك فلو اختار واحدة فقال إن قال معها فقد زعم أنه شريك وإن قال وحدها فقد تفرد بالربوبية قال
لله درك أبا عمرو
من بيان عظمتهم " رفيع الدرجات " غافر 15 من آثار قدرته " بديع السموات " الرعد 2 توقيع أمره "
يأمر بالعدل والإحسان " واقع زجره " وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى " النحل 90 تنفيذ حكمه "
فعال لما يريد " البروج 16 دستور ملكه " لا يسأل عما يفعل " الأنبياء 23
إياس بن معاوية ما خاصمت أحداً بعقلي كله إلا القدرية قلت لقذري ما الظلم فقال أخذ ما ليس لك
قلت فإن الله له كل شيء
الواسطي ادعى فرعون الربوبية على الكشف وادعت المعتزلة الربوبية على الستر تقول ما شئت
فعلت
ومنه من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل إذا كان القدر حقا فالحرص باطل إذا كان الله عز وجل
عدلا في قضائه فمصيبات الخلق بما كسبت أيديهم
" ما عذر معتزلي موسر منعت ... كفاه معتزليا معسرا صفدا "
" أيزعم القدر المحتوم ثبته ... إن قال ذاك فقد حل الذي عقدا "
ومنه دخل محمد بن واسع على بلال بن فروة فقال ما تقول في القدر قال تفكر في جيرانك أهل
القبور فإن فيهم شعلا عن القدر
" وكل من أغرق في نعته ... أصبح منسوباً إلى العي "
المقادير تبطل التقدير وتنقض التدبير
قال معتزلي لسني لو أراد ثبوت أحد على الكفر لم يقل " ليخرجكم من الظلمات إلى النور "
الأحزاب 43 فقال السني لو لم يكن الإيمان من
" فعله لم يقل " ليخرجكم من الظلمات إلى النور
قال نفقور طاغية النصارى لأبي الحسن الشلباني أنت تقول إن الخير والشر من الله وذلك لأن
النصارى كلهم على مذهب القدرية في الاستطاعة قال نعم قال كيف يعذب عليه هل كان حقا
عليه أن يخلق فقال لم يضطره إلى ما خلق مضطر
قيل نزلت " وما أضلنا إلا المجرمون " الشعراء 99 في القدرية لأنهم أضفوا الحول والقوة في الشر
إلى البشر فأشركوهم في الخلق أما ترى قوله تعالى " إن المجرمين في ضلال وسعر " القمر 47
إلى قوله تعالى " إنا كل شيء خلقناه بقدر " القمر 49
" كنت دهرًا أقول بالاستطاعة ... وأرى الجبر ضلة وشناعة "
" ففقدت استطاعتي في هوى ظبي ... فسمعا لمن أحب وطاعة "

غيره
" ما لا يكون فلا يكون بحيلة ... أبدا وما هو كائن سيكون "

غيره
" تريد النفس أن تعطي منها ... ويأبى الله إلا ما يشاء "
شفاء الصدور في التسليم للمقدور
" إذا لم يكن إلا الأسنة مركب ... فلا رأي للمضطر إلا ارتكابها "

غيره
" أي يومي من الموت أفر ... يوم لا يقدر أم يوم قدر "
إذا كان الداء من السماء بطل الدواء
قال الحائط للوتد لم تشقني قال سل من يدقني
" الناس يلجون الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدور "
قيل لحكيم أخرج الهم من قلبك فقال ليس بإذني دخل
" نفسي تنازعتني فقلت لها فري ... موت يريحك أو صعود المنبر "
" ما قد قضيت سيكون فاصطبري له ... ولك الأمان من الذي لم يقدر "
" ولتعلمي أن المقدر كائن ... لا بد منه صبرت أو لم تصبري "
ومنه الهارب من المقدور كالمقلب في كف الطالب من كان السلطان يطلبه ضاق عليه مذهبه "
وما أنتم بمعجزين " الأنعام 134 يونس53 هود23 أسلى آية في التنزيل " ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم - إلى قوله تعالى بما أتاكم " الحديد 22
ومنه أخل رجل بخدمة صاحب الإسكندرية فتغيب ثم ظفر به عرفاؤه فقاده فانساب منهم ورمى نفسه في بئر وتحت الإسكندرية أسراب يسير فيها القائم من أول البلد إلى آخره فلم يزل يمشي حتى وجد بئرا صاعدة فتعلق بها فإذا هي في دار السلطان فأخذه فأدبه فانظر كيف فر من قودة السلطان مكرها وأتاه برجله طائعا
" ... ذهب القضاء بحيلة العقلاء "

ومنه قال يزيد بن المهلب لموسى بن نصير أنت أدهى الناس وأعلمهم
فكيف طرحت نفسك في يد سليمان فقال إن الهدهد يهتدي للماء في الأرض الفيفاء وينصب له الصبي الفخ بالدودة أو الحبة فيقع فيه
" ولو جرت الأمور على قياس ... لوفي شرها الفطن اللبيب "
الواسطي اختيار ما جرى لك في الأزل خير من معارضة الوقت
ابن معاذ عجت من ثلاثة رجل يريد تناول رزقه بتدبيره ورجل شغله غده وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط
ومنه شكى لبعض الأنبياء امرأة كانت تؤذي أهل زمانها فأوحى الله إليه أن فر من قدامها حتى تنقضي أيامها
ومنه ابن المعتز كرم الله عز وجل لا ينقض حكمته ولذلك لا تقع الإجابة في كل دعوة " ولو اتبع الحق أهواءهم " المؤمنون 71
" أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد ... وقصر علمي أن أنال المغيبا "
ومنه كان ابن مجاهد ينشد لبعضهم
" أيها المغتدي ليطلب علما ... كل علم عبد لعلم الكلام "
" تطلب الفقه كي تصح حكما ... ثم أغفلت منزل الأحكام "
ومنه قال الأحذب البغدادي للقاضي الباقلاني هل لله عز وجل أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه فقال إن أردتم بالتكليف القول المجرد فقد وجد " قل كونوا حجارة " الإسراء 50 " أنبتوني بأسماء هؤلاء " البقرة 31 " ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون " القلم 42 وإن أردتم به ما يضح فعله وتركه فالكلام متناقض وهذا هو الذي نعرفه لأن التكليف اقتضاء فعل ما فيه مشقة وما لا يطاق لا يفعل البتة فقال سئلت عن كلام مفهوم فطرخته في الاحتمالات فقال إني بينت الوجوه المحتملة فإن كان معك شيء فهاته
فقال عضد الدولة قد صدق وما جمعتكم إلا للفائدة لا للمهاترة ثم قال لقاضيه بشر بن الحسن المعتزلي تكلم فقال ما لا يطاق على ضربين أحدهما ما لا يطاق للإشتغال بضده وهذا سبيل الكافر لا يطيق الإيمان للإشتغال بالكفر وأما العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه ولو ورد لكان جائزا وقد أثنى الله عز وجل على من سأله أن لا يكلفه ما لا يطيقه فقال " ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا

به " البقرة 268 لأن الله له أن يفعل في ملكه ما يريد
ومنه خرج عمر بن عبد العزيز في سفر ليلا فقال له رجل انظر إلى القمر ما أحسنه فنظر فقال قد
علمت أنك أردت نزوله بالدبران ونحن لا نتطير بذلك ولا نعتقده
" إذا عقد القضاء عليك أمرا ... فليس يحله إلا القضاء "
" يدبر بالنجوم وليس يدري ... ورب النجم يفعل ما يشاء "
وقال آخر

" ليس للنجم إلى ضر ... ولا نفع سبيل "
" إنما النجم على الأوقات ... والسمت دليل "
غيره

" من كان يخشى زحلا ... أو كان يرجو المشتري "
" فإنني منه وإن ... كان أخي الأذنى بري "

لما وجه عضد الدولة القاضي ابن الطيب إلى ملك الروم قال له الوزير
أخذت الطالع لخرجك فسأله القاضي عن ذلك ففسره له فقال السعد والنحو بيد الله ليس
للكواكب فيه تأثير وإنما وضعت كتب النجوم ليتمعش بها العامة ولا حقيقة لها فاستحضر الوزير ابن
الصوفي ودعاها إلى مناظرة القاضي فقال لا أقوم على المناظرة وإنما أقول إذا كان من النجوم كذا
كان كذا وأما التعليل فمن علم المنطق والذي يتولى المناظرة عليه أبو سليمان المنطقي فأحضر
وأمر فقال هذا القاضي يقول إذا ركب عشرة أنفس في ذلك المركب الذي في دجلة فالله تعالى
قادر على أن يزيد فيهم آخر في ذلك الوقت فإن قلت له لا يقدر قطعتم لسانني فأني معنى
لمناظرتي فقال القاضي للوزير ليس كلامنا في القدرة لكن في تأثير الكواكب فانتقل هذا إلى ما
ترى لعجزه وأنا إن قلت إن الله تعالى قادر على ذلك فلا أقول إنه يخرق العادة الآن ولا يجوز عندنا
ذلك فهو فرار من الزحف فقال المنطقي المناظرة درية وأنا لا أعرف مناظرة هؤلاء القوم وهم لا
يعرفون مواضعنا فقال الوزير قد قبلنا اعتذارك والحق أبلج

رأس الدين صحة اليقين من سابق القدر عثر
" وإذا خشيت من الأمور مقدرًا ... وفررت منه فحوه تتوجه "

قيل لما وقع الوياء بالكوفة فر ابن أبي ليلى على حمار فسمع منشدا ينشده
" لن يسبق الله على حمار ... ولا على ذي منسر طيار "

أو يأتي الحتف على مقدار ... قد يصبح الله أمام الساري " فقال إذا كان الله أمام الساري فلا "
مهرب ورجع

ومنه شكا بعض الصالحين إلى الخليفة ضر الأتراك فقال أنتم تعتقدون أن هذا من قضاء الله وقدره
فكيف أردته فقال إن صاحب القضاء قال " ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض " البقرة
251 فردهم عنهم

القدر والطلب كالعدلين على ظهر الدابة كل واحد منهما معين لصاحبه فالقدر بالطلب والطلب
بالقدر

قيل لعارف إن كنت متوكلا فألق بنفسك من هذا الحائط فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك فقال إنما
خلق الله الخلق لي تجربهم لا لي تجربوه

الجوهري كف الله النار عن يد موسى لئلا تقول النار طبعي واحترق لسانه لئلا يقوم الكليم مكاني
وقال غيره لو لم يقل لنار إبراهيم سلاما لهلك من برد النار

قيل للجنيد أنطلب الرزق قال إن علمتم أين هو فاطلبوه قيل فنسأل الله قال إن خشيتم أن ينساكم
فذكروه قيل فنلزم البيوت قال التجربة منك شك قيل فما الحيلة قال ترك الحيلة يقول ليكن تصرفك

بإذنه لا بشهوتك فقد قيل ترك الطلب يضعف الهمة ويذل النفس ويورث سوء الظن

الطرطوشي القدر والطلب كأعمى ومقعد في قرية يحمل الأعمى المقعد وبدل المقعد الأعمى
قال رجل لبشر إنني أريد السفر إلى الشام وليس عندي زاد فقال اخرج لما قصدت إليه فإنه إن لم
يعطك ما ليس لك لم يمنعك ما لك

الناس في هذا الباب ثلاثة فرقة عاملت الله عز وجل على مقتضى شمول قدرته للبشر والخير
وأعرضوا عن الأسباب فأدركوا التوكل وفاتهم الأدب وهم بعض الصوفية وقد قيل اجعل أدبك دقيقا
وعلمك ملحا وهذا

إبليس لم تنفعه كثرة علمه لما دفعته قلة أدبه وفرقة عاملته على ذلك مع الجريان على عوائد
مملكته والتصرف بإذنه على مقتضى حكيمته وهم الأنبياء وخواص العلماء فأصابوا الأدب وما أخطأوا

التوكل والفرقة الثالثة وهم الجمهور أقبلوا على الأسباب ونسوا المسبب ففاتهم الأمران فهلكوا
ومنه جل الواحد المعروف قبل الحدود والحروف
" لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا "
" كما بطنت بما أبدت من حجب ... وكيف يبصر من بالعزة استترا "
سئل النصيبي عن الرؤية بمجلس عضد الدولة فأنكرها محتجا بأن كل شيء يرى بالعين فهو في
مقابلتها فقال له القاضي ابن الطيب لا يرى بالعين قال له الملك فيماذا يرى قال بالإدراك الذي
يحدثه الله في العين وهو البصر ولو أدرك المرئي بالعين لوجب أن يدرك بكل عين قائمة وهذا الأجر
عينه قائمة ولا يرى بها شيئا
ومنه ابن العربي للصوفية في إطلاق لفظ العشق على الحق تجاوز عظيم واعتداء كبير ولولا إطلاقه
للمحبة ما أطلقناها فكيف أن نتعدها
الدقاق العشق مجاوزة الحد في الحب ولما كان الحق لا يوصف بالحد لم يوصف بالمحدود إذ لو
جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ما يستحقه قدر الحق من الحب
خمسة أبهمت فلم تعين لعظم أمرها الاسم الأعظم وساعة الجمعة وليلة القدر والصلاة الوسطى
والكبائر لأن اجتنابها يكفر غيرها يعني على أحد الأقوال في المسألة
ومنه قيل في التسعة والتسعين اسما إنها تابعة لاسم الله وهو تمام المائة فهي عدد درج الجنة
لما في الصحيح من أن درجها مائة بين كل درجتين مسيرة مائة عام ولذلك قيل من أحصاها دخل
الجنة وهذه الأسماء مفضلة على غيرها مما لا يحصى ألا ترى قوله عليه السلام في الصحيح
بأسمائه الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم
ذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعا منه فلم يشر في شيء منها إلى خلقه وذكر الإنسان في
ثمانية عشر موضعا ثلث ذلك العدد فصرح في جميعها بخلقه قال ابن عطية وهذا يدل على أنه غير
مخلوق
أبو علي ابن أبي اللحم بت ليلة جمعة بمصر في أيام أبي حريش وكان يقول بخلق القرآن وأبي
خلف المعافري وكان يقول القرآن كلام الله ليس بمخلوق أفكر عن أيهما أخذ فلما نمت أتاني أت
فقال لي قم فقممت قال قل فقلت ما أقول فقال
" لا والذي رفع السماء ... بلا عماد للنظر "
" فتزينت بالساطعات ... اللامعات وبالقمم "
" والماليء السبع الطباقي ... بكل مختلف الصور "
" ما قال خلق في القرآن ... بخلقه إلا كفر "
" لكن كلام منزل ... من عند خلاق البشر "
ثم قال اكتبها فأخذت كتابا من كتبي وكتبتها فيه فلما أصبحت وجدت ذلك بخطي على كتاب من
كتبي فجلست في البيت إلى الزوال ثم خرجت فسألني إنسان عما رأيت البارحة فقلت ما أخبرت
أحدا فقال قد شاعت رؤياك في الناس
الخواص انتهت إلى رجل مصروع فجعلت أؤذن في أذنه فناداني الشيطان من جوفه دعني أقتله
فإنه يقول بخلق القرآن
عمرو بن دينار أدركت سبعة من الصحابة يقولون من قال القرآن مخلوق فهو كافر قلت قال مالك
يستتاب
ومنه كان عضد الدولة يحب العلم والعلماء فكان مجلسه يحتوي على عدد منهم أكثرهم الفقهاء
والمتكلمون وكان يعقد لهم مجالس للمناظرة فقال لقاضيه بشر بن الحسن إن مجلسنا خال عن
عافل من أهل الإثبات ينصر مذهبه فقال إنما هم عامة يرون الخير وضده ويعتقدونهما جميعا وإنما
أراد ذم القوم ثم أقبل يمدح المعتزلة فقال عضد الدولة محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر
فانظر قال بلغني أن بالبصرة شيئا يعرف بأبي الحسن الباهلي وفي رواية بأبي بكر ابن مجاهد
وشابا بابن الباقلاني فكتب إليهما فلما وصل الكتاب قال الشيخ قوم كفرة لأن الديلم كانوا روافض لا
يحل لنا أن نطأ بساطهم فقال الشاب كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن في عصرهم إن المأمون
فاسق لا يحضر مجلسه حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس وجرى عليه ما عرف ولو ناظره
لكفوه عن هذا الأمر وتبين له ما هم عليه بالحجة وأنت أيضا أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى
يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد ويقولون يخلق القرآن ونفي الرؤية وها أنا خارج إن لم تخرج
قال الشيخ إن شرح الله صدرك لهذا فاخرج فرد الله به الكرة
حفظ من كلام النبي المنتقى والمرسل أمثال المنزل ثم انتقي من ذلك صحة وفصاحة ما يبلغ

حجم المصحف أو يربى عليه فهل وجدت فيه ما يشبهه أو ينزع إليه أشهد أنه من عند الله تنزيل من لدنه

أول إعجاز القرآن الجهل بنوعه من جنس الكلام فإنه لا يدخل في مضمار الشعر ولا ينخرط في سلك الخطب ولا المواعظ والمقامات والكتب ولا في شيء مما يؤلف التخاطب به وتعرف فيه طبقات أهل مذهبه فإن

لم يتبين ما رسمت لك فاعرض كلامك في كل صنف من هذه الأصناف تجد لنفسك مع فحوله حالة القصور أو المماثلة أو الزيادة ولا تجد لكلامك نسبة إلى القرآن بل لا تدري ما تقول إن طلب منك البيان إلا أن تسلب العقل كمسيمة وأمثاله ممن ابتلى بالهذيان وقد تفتن للدلالة كافر غلبت عليه الجهالة انظر السيرة

الزمخشري ما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر سأل القاضي أبا بكر ملك الروم حين وجهه عضد الدولة إليه عن انشقاق القمر كيف لم يره جميع الناس فقال لأنهم لم يكونوا على أهبة وواعد قال فما النسبة التي بينكم وبين القمر حتى لم يره غيركم من الروم وغيرهم قال النسبة التي بينكم وبين المائدة حتى رأتموها دون اليهود والمجوس فدعا القسيس فأقر للقاضي فقال له القاضي أتقول إن الكسوف يراه جميع أهل الأرض أم أهل الإقليم الذي في محاذاته قال لا يراه إلا من في محاذاته قال فما تنكر من لا يرى انشقاق القمر إلا في تلك الناحية ممن تأهب لذلك قال هذا صحيح إلا أن الشأن في مثله أن لا ينقل أحادا لكن تواترا بحيث يصل العلم الضروري به إلينا وإلى غيرنا وانتفاء ذلك يدل على افتعال الخبر فقال الملك للقاضي الجواب فقال يلزمه في نزول المائدة ما ألزما في انشقاق القمر فبهت الذي كفر قال ملك الروم للقاضي ابن الطيب في هذه الرسالة ما تقول في المسيح قال روح الله وكلمته وعبده قال تقولون المسيح عبد قال بذلك ندين قال ولا تقولون إنه ابن الله قال ما اتخذ الله من ولد قال العبد يخلق ويحيى ويبرئ قال ما فعل المسيح ذلك قط قال هذا مشهور في الخلق قال لا قال ما قال أحد من أهل المعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات لكن الله تعالى يفعلها على أيديهم تصديقا لهم قال إن ذلك في كتابكم قال في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى ولو جاز أن يكون ذلك فعل المسيح لجاز أن يقال إن موسى قلب العصا وأخرج يده بيضاء وخلق البحر قل إن الأنبياء من لدن آدم كانوا يتضرعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون قال أفي لسان اليهود عظم لا يقولون معه إن المسيح كان يتضرع لموسى وكذلك أمة كل نبي لا فرق بين الموضين في الدعوى الجوزي في قوله عليه السلام يوشك أن ينزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم وإنما كان الإمام منا لئلا يتدنس بغير الشبهة وجه لا نبي بعدي

كان بالبصرة يهودي يقرر المتكلمين على نبوة موسى فإذا اقروا جحد نبوة محمد وقال نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن تتفق على غيره فسأل أبا الهذيل عن ذلك فقال إن كان موسى هذا الذي أخبر بمحمد وأقر بشرفه وأمر باتباعه فانا أقر بنبوته وإن كان غيره فانا لا أعرفه فتحير اليهودي ثم سأله عن التوراة فقال إن كانت التي نزلت على موسى المذكور فهي حق وإلا فهي عندي باطل ومنه قيل للحسن الملائكة أفضل أم الأنبياء فقال أين أنت من هذه الآية " ولا أقول إنني ملك " هود

31

ومنه وعن عمر وعلي رضي الله عنهما أن الخضر لقيهما وعلمهما هذا الدعاء وذكر فيه خيرا كثيرا لمن قاله إثر كل صلاة يا من لا يشغله سمع عن سمع ويا من لا تغلظه المسائل ومن لا يتبرم على إلحاح الملحجين أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك

ومنه سمع إياس يهوديا يقول ما أحقق المسلمين يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون فقال أوكل ما تأكله تحدثه قال لا لأن الله تعالى يجعل أكثره غداء قال فما تنكر أن يجعل

جميع ما يأكل أهل الجنة غداء

الرزية كل الرزية تضيع أمر المرأة الرندية وذلك أنه وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام وتلا " كانا يأكلان الطعام " المائدة 75 فأخذ الناس بيث ون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها فكشفن عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ما ذكر وسئلت هل تشتبهن الطعام فقالت هل تشتبهن التبن بين يدي الدواب وسئلت هل يأتيها شيء فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش فنامت فاتها أت في النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهي على تلك الحال تؤتى في المنام بالطعام والشراب إلى

الآن ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوما فلم يوقف لها على أمر بيد أني أردت أن يزداد في عدد العدول ويجمع إليهم الأطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل إليها ولا يترك أحد يخلو بها وبالجملة يبالغ في ذلك ويستندام رعيها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغني في فصل دون فصل ثم يكتب هذا في العقود ويشاع أمره في العالم وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الأحكام على الشريعة ويبين كيفية غذاء أهل الجنة وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتوليد ويوجب أن الاقتربات بالعبادات لا باللزوم وعند الأسباب لا بها إلى غير ذلك إلا أني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأسا لإيثار الدنيا على الدين فإننا لله وإنا إليه راجعون

وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها علي تلك الحالة وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك وأن عائشة بنت أبي يحيى اختبرتها أربعين يوما أيضا وكم من آية أضيعت وحجة نسيت هذا مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك أن يطول أمره فينسى ذكره ويكذب المحدث به إذا انقضى عصره وكم فيه أيضا من أدلة على أصول الملة

ومنه قال شيخ صالح الفقيه في عصرنا بفاس أو زرهون عبد العزيز ابن محمد القيرواني رحمه الله تعالى مات فقير عندنا بالمتذنة فوجدوا عنده ربطة من دراهم فوضعوها عند المؤذن فلما نزل ليحده سقطت من جيبه في القبر ولم يشعر حتى وراه فكشف عنه فإذا الدراهم قد لصقت بيدنه درهما إلى درهم كالنجوم فحاول قلع واحد منها فقامت معه قطعة من لحمه وتبعها من ذلك المحل ربح منتنة قال الشيخ فاطلعت على ذلك وشاهدته ثم ردوا التراب عليه وانصرفوا قال عبد الله بن إدريس لغيلان الممرور متى تقوم الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل غير أنه من مات فقد قامت قيامته قال فالمصلوب يعذب عذاب القبر قال إن حقت عليه الكلمة وما تدري لعل جسده في عذاب لا تدركه أبصارنا ولا أسمعنا فإن لله لطفا لا يدرك وانظر الحديث فلولا أن لا تدافعوا لدعوت الله أن يسمعكم ما أسمع من عذاب القبر

ومنه المازري مسألة التكفير بالمال مشكلة وقد اضطرب فيها قول مالك وهو إمام الفقهاء والقاضي أبي بكر وهو إمام المتكلمين الغزالي لا يقطع بتكفير الفلاسفة إلا في ثلاث مسائل قدم العالم ونفي العلم بالجزئيات وإنكار المعاد البدني وتوابعه القطعية أصل الفلاسفة اعتقاد المحسوسات معقولات والمعتزلة اعتقاد المشهورات قطعيات ومن ثم قيل لهم مخنثة الفلاسفة

لا يكفي التقليد في عقائد التوحيد لا فرق بين إنسان ينقاد وبهيمة تقاد ومنه كان أبو هاشم من أفسق الناس فجلس ذات يوم يعيب الإرجاء وكان في المجلس مرجىء فأنشد

" يعيب القول بالإرجاء حتى ... يرى بعض الرجاء من الجرائر "

" وأعظم من ذوي الإرجاء ذنبا ... وعيدي يصير على الكبائر "

كان مالك ينشد كثيرا

" وخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع "

ابن عقيل يشبه أن يكون واضح الإرجاء زنديقا فإن صلاح العالم في إثبات الوعيد واعتقاد الجزاء فلما لم يمكن هذا المائن جحد الصانع لمخالفة العقل أسقط فائدة الإثبات وهي الخشية والمراقبة وهدم سياسة الشريعة فهم شرطائفة على الإسلام

سئل مالك عن أشر الطوائف فقال الروافض

بيننا ابن المعلم شيخ الرافضة في بعض مجالس المناظرة مع أصحابه أقبل ابن الطيب فقال جاءكم الشيطان فسمعه على بعد فلما جلس إليهم تلا عليهم " ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على

الكافرين تؤزهم أزا " مریم 83

مالك أهل السنة من لا لقب له لا خارجي ولا قدرني ولا رافضي

البدیع

" يقولون لي ما تحب الوصي ... فقلت الثرى بغم الكاذب "

" أحب النبي وآل النبي ... وأختص آل أبي طالب "

" وأعطي الصحابة حق الولاء ... وأجرى على السنن الواجب "

" فإن كان نصبا ولاء الجميع ... فإنني كما زعموا ناصبي "

" وإن كان رفضا ولاء الجميع ... فلا برح الرفض من جانبي "

" أحب النبي وأصحابه ... فما المرء إلا مع الصحاب "

" أيرجو الشفاعة من سيهم ... بل المثل السوء للضارب "

" يوقى المكاره قلب الجبان ... وفي الشبهات يد الحاطب "

أخذ البيت الخامس من قول الشافعي

" إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أنني رافضي "

ومنه أبو حنيفة لقيت عطاء فقال لي ممن أنت فقلت من أهل الكوفة فقال من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا قلت نعم قال فممن أنت منهم قلت ممن يؤمن بالقدر ولا يسب السلف ولا يكفر بالذنب قال عرفت فالزم

ومنه الإرادة تطلق على المحبة وعلى قصد أحد الجائزين بالتخصيص وكل واحد من المعنيين يوجد

" ... بدون الآخر أما الأول فكقوله " تريد النفس أن تعطى منهاها وهو ظاهر وأما الثاني فكقصد المتوعد بالإهلاك إلي أمر عبده الذي أمره بأمر لينظر امتثاله ولدقة الفرق بينهما ضل المعتزلة في أمرهما فقالوا إن الله عز وجل لا يريد المعاصي لأنه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر قال عمار بن ياسر يوم صفين

" صدق الله وهو للصدق أهل ... وتعالى ربي وكان جليلا "

" رب عجل شهادة لي بقتل ... في الذي قد أحب قتلا جميلا "

ومنه العبدري قتل الحسين دعا إلي حرب وأخذ بثأره كذاب ثقيف ونوه باسمه أعداء ملة جده بنو عبید ليقصص من قضية بمثلها فيقرأ الفهم سورة تلك الصور ويتهجد اللبيب حروف تلك الحروب فيعلم أن الكل آلات مستعملات حسبما اقتضاه العلم القديم

ومنه أبو العباس الأيباني ثلاث لو كتبت على ظفر لوسعهن وفيهم خير الدنيا والآخرة اتبع لا تبتدع اتضع لا ترتفع اتزع لا تتسع

ومنه كانت سكينه بنى إسرائيل في التابوت فغلبوا عليها وسكينة هذه الأمة في القلوب فغلبوا بها استحفظوا كتابهم فحرفوا من أحكامه ووصفه وحفظ كتابنا فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

ومنه في الصحيح كان أبو ذر يقسم قسما أن " هذان خصمان اختصموا في ربهم " الحج 19 نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة وعتبة وشيبة والوليد قلت ففي الآية شهادة من الله تعالى لعلي بالجنة والشهادة أما الجنة فبنصها وأما الشهادة فلأنه وصاحبه استشهدوا وخصمهم قتلوا فهي رادة على الخوارج قطعاً

ومنه جاز أبو بكر ابن نافع بالكرخ أيام الديلم وقوة الرفض فقالت له امرأة سيدي أبا بكر فقال لبيك يا عائشة فقالت له متى كان اسمي عائشة فقال أيقتلونني وتخلصين

وفي آخر هذا الكتاب ما صورته فهذه جملة تراجم وفيها مقنع لمن أراد المحاضرة أو تنميق مجالس المناظرة وكان الفراغ من جمعها في آخر

يوم من شعبان المكرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة انتهى ما تعلق به الغرض من بعض كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى في كتابه المحاضرات

ولنرجع إلى سرد بقية تواليه رحمه الله تعالى فنقول ومنها شرح لغة قصائد المغربي الخطيب ومقالة في الطلعة المملكة وشرح التسهيل والنظائر وكتاب المحرك لدعاوي الشر من أبي عنان وإقامة المريد ورحلة المتبتل وحاشية بديعة جدا على مختصر ابن الحاجب الفقهي فيها أبحاث وتدقيقات لا توجد في غيرها وقد وقفت عليها بالمغرب ومن أشهر كتبه في التصوف كتاب الحقائق والرقائق وهو من الحسن بمكان لا يلحق وقد شرحه الشيخ الصالح شيخ شيخنا سيدي أحمد زروق رضي الله عنه ونفعنا به

نقول من كتاب الحقائق والرقائق للمقري

وقد سنجح لي أن أسرد هنا شيئا من هذا الكتاب الفذ في بابه فنقول

قال فيه مولاي الجد رحمه الله تعالى هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق فهو زبدة التذكير وخلاصة المعرفة وصفوة العلم ونقاوة العمل فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدليل وعلى الله قصد السبيل

حقيقة عمل قوم على السوابق وقوم على اللواحق والصوفي من لا ماضي له ولا مستقبل فإن

كان زجاجيا فبخ بخ
رقيقة من لم يجد ألم البعد لم يجد لذة القرب فإن اللذة هي التخلص من الألم
حقيقة لما انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل أنا الملك المكوكب فقالت الرياضة الزمني
وتعرف قدرك فإذا العقل عقال
رقيقة من ضحك في نوم الغفلة بكى عند الانتباه فإن الأضغاث أضداد
حقيقة أثر الزهد عقل دن سقراط على سراج غوطة أبي نصر فقل فأين اعتبار " أفلا ينظرون "
فقال " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " الذاريات 21
رقيقة طالب الدنيا يخاف الفوت وصاحبها يتربح الزوال ولو بالموت فإذا حمي الوطيس وحج الرئيس
أنشأ الزاهد بينهما ينشد
" عزيز النفس لا ولد يموت ... ولا أنس يحاذره يفوت "
حقيقة العابد طالب رياسة وحرمة والزاهد صاحب نفاسة وهمة والمعنى للعارف يعادي في الله
تعالى ويوالي ويرضى الله ولا يبالي
رقيقة من سابق سبق ومن رافق ارتفق ومن لاحق التحق والعجز والكسل مقدمتا الخيبة و
" ... على قدر أهل العزم تأتي العزائم "
حقيقة العمل دواء القلب وإذا كان الدواء لا يصلح إلا إذا كان على حمية البدن فكذلك العمل لا ينجح
إلا بعد صوم النفس فارق نفسك وتعال
رقيقة مثل دواعي الخير والشر في الإنسان كمثّل الخلط الفاعل والقوة الدافعة في العليل تغلب
القوة فيسكن الخلط فيجد الراحة وعن قليل يتحرك فيجد الألم
حقيقة العمل على السلامة مسالمة وعلى الغنيمة وعلى الأمر قرض فيضاعف له أضعافا كثيرة
رقيقة تطهر من أدناس هواك وتزين بلباس تقواك وقم لمسجد انقطاعك
على قدم شكواك وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نجواك تجد الحق عندك وليس بسواك
حقيقة وجد العارف فجاد بنفسه فوجد الله عنده وتواجد المرید فحاكى ومن لم ييك تباكى
رقيقة زك نفسك لقلبك ترك عند ربك بعها منه رخيصة فهي على ثمنها لديه حريصة " إن الله
اشترى " التوبة 111
حقيقة الزوال وقت المناجاة فطهر قلبك قبله من الحاجات وإياك والحظ فذهاب نقطته أسرع من
اللحظ
رقيقة الزاد لك وهو مكتوب والزائد عليك وهو مسلوب فأجمل في طلب المضمون ولا تلزم نفسك
صفقة المغبون
حقيقة أمر بالتوكل لتقصر الطرف عليه وإذن في التسبب لتتنصرف منه إليه فذاك مخبر بحقيقة
التفرد وهذا مطهر لحكمة التعبد
رقيقة الملك أبو الدنيا وهو مع ذلك محبوس فيها تبهم عليه الأبواب ويستدعي الحراس والحجاب
فإذا خرج حدقت إليه الألباط وأحدقت بجهاته الحفاظ أي حظ حظ من فقد نعمة " فامشوا في
مناكبها واكلوا من رزقه " الملك 15
حقيقة قال صاحب الزهر الأنيق علامات الحبة أربع الإفلاس والاستئناس والأنفاس والوسواس قلت
الإفلاس التجرد إلا عنه كالخليل والاستئناس التوحش إلا منه كالكلبم والأنفاس والوسواس صلة
الاسم وعائده
رقيقة ذكر مذكر بمالفة فقام الخطيب الشيخ الولي أبو عبد الله الساحلي بهذا البيت
" ليت شعري أفي زمام رضاكم ... كتب اسمي أم في زمام الهوان "
وكنت يوما مع السلطان والجنود يعرضون عليه وكان يسقط ويثبت وأنا أتفكر في البيت حتى خفت
أن أفتضح فقلت واهماه من هذا الإبهام ثم كدت أخلد بقبح العمل إلى الأرض فينشلني حسن
الظن بالله عز وجل فإنهض
" إن المقادير إذا ساعدت ... ألحقت العاجز بالحازم "
حقيقة إذا قابل إبرة القلب مغناطيس الحسن صبا فانجذب فإذا اتصل عشق فانقطع فإذا انجذ فني
فيقي حاشا الصوفي أن يموت
رقيقة افتخر الغراب بإقامة قرآن الفجر فليل حتى تغسل بول الشيطان من أذنك فطرب الديك فرحا
بالفوز وندب العصفور ترحا على الفوت
حقيقة الخلوة بيت الاعتبار وفي بيته يؤتى الحكم وباب هذا البيت العلم " واثتوا البيوت من أبوابها "
البقرة 189

رفيقة واقع فقير هناه ثم دخل خلوته فبدت له نفسه بوجه مومسة فقال ما أنت قالت أم الحياة فقال ما أحمل أن تبدل هاؤك همزة فقالت إذن لم تصنع ما شئت فانتبه لقرع العتاب فتاب حقيقة القلب إيوان الملك وسعني وعز الملك يأنف عن ذل المزاحمة أنا أغني الشركاء عن الشرك رفيقة لما وضع البسطامي أوزار حوبه فك طابع الصحيفة عن قلبه فلم يجد بها غير الطفرى فصاح بنفسه لك البشرى انزل طيفور عما تريد ليس في الدار أبو يزيد حقيقة قال شيخنا أبو هادي يوما لأصحابه بماذا يرتقي العبد عن مقامه إلى مقام أعلى منه قالوا بفضل الله ورحمته فقال إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر قالوا ما عند الشيخ قال يخلق الله له همة فيرتقي بها إلى رتبة أسمى من رتبته ومن هذا الكتاب

حقيقة التفت إلى مواهب الملوك تجدهم إنما يوسعون فيما قد يسترجعون فأما العلماء وكل من يعطي بحق فإنما يعطون بقصد " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم " طه 131 واصبر نفسك فعن قريب تنصرف عنهم

رفيقة قلت لقلبي كيف تجدك فقال أما من أمارتك ففي عناء الجهاد وأما من لوامتك فعلى جمر الصبر قلت فمتى الراحة قال إذا اطمأنت النفس فاضمحل الوهم وغاب الحس حقيقة قطع السوي طهارة المنيب ولا يقبل الله صلاة بغير طهور وكتابه النحيب والمكاتب عبد ما بقي عليه وبابه الدخول على الحبيب

نظر رجل إلى امرأة عفيفة فقالت يا هذا غض بصرك عما ليس لك تنفتح بصيرتك فترى ما هو لك رفيقا لما حنكت الطينة بتمر الجنة وغذيت بلبانها قطرت على محبتها انظروا إلى حب الأنصار التمر " ... فلم تطق الفطام عنها " وتأبى الطباع على الناقل فذاك ما تجد من الحنين إلى التلاق والأنين على الفراق والشغف بمدح العابر وذم الغابر وفي ذلك " كم أردنا ذاك الزمان بمدح ... فاشغلنا بدم هذا الزمان " وان لم تعرف عصرا خاليا ولا خلا نائيا لم يمر عليك مما تشتهييه أطيب مما أنت فيه " كم منزل في الأرض يألوه الفتى ... وحينه أبدا لأول منزل "

ومنه

حقيقة قيل عرض الكليم بطلب القوت في رحلة الهجرة " إنني لما أنزلت إلي من خير فقير " القصص 24 فحمل على كاهل " إن أبي يدعوك " القصص 25 وصرح في سفر التأديب " لو شئت لاتخذت عليه أجرا " الكهف 77 فحمل على كاهل " هذا فرق بيني وبينك " الكهف 78 قلت لما تمحض الطلب له اكتفى فلما تعلق حق الغير به وفى ولذلك قضى أبا المرأتين الأجلين رفيقة كان خرق السفينة إراءة لكرامة " فاخذ فيه في اليم " طه 39 في مرأة " وكان وراءهم ملك " الكهف 79

" ... وربما صحت الأجسام بالعلل "

وقتل الغلام إشارة إلى اشتمال قتله " ففضى عليه " القصص 15 على رحمة " فنجيناك من الغم " طه 40 برمز " فخشينا أن يرهقهما " الكهف 80 والمحن الصم حبال المنح وإقامة الجدار إثارة لفتوة " فسقى لهما " ليخفض له جناح " إنني لما أنزلت إلي من خير فقير " القصص 24 فيستظل من حر " لو شئت لاتخذت عليه " الكهف 77 في نية " هذا فراق بيني وبينك " الكهف 78

حقيقة قيل لمحمد بن حسن الزبيدي التونسي وأنا عنده بها كيف لم يصبر الكليم وقد ناط الصبر بالمشيئة " ستجدني إن شاء الله صابرا " الكهف 69 وقد جاء في الصحيح في قصة سليمان عليه السلام لو قال إن شاء الله لكان كما قال والمقام الموسوي أجل " واصطنعتك لنفسى " طه 41 وطلابه أفضل ما جميع أعمال البر والجهاد في طلب العلم إلا كبصقة في بحر فقال كان موسى على علم من علم الله وهو علم المعاملة لا يعلمه الخضر وكان الخضر على علم من علم الله لا يعلمه موسى فلم يظن أن ما لم يحط به خبرا ياباه حكم الظاهر وإلا كيف يلتزم الصبر عليه وقد أمر بصرف الإنكار إليه " ما منعك إذ رأيتهم ضلوا " طه 92 بل لم يعتد مثله من ملاقاته المشاق فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق وركوب الطبايق فما علقه بقوله فقد صدقه بفعله وما لم يستطع عليه صبرا فلم يدخل في التزامه اعتقادا ولا ذكرا

رفيقة قال لي عبد الرحمن بن يعقوب المكتب كان عندنا بالساحل سائح هجيراه إلهي بسطت لي أمني وأحصيت علي عملي وغيب عني أجلي ولا أدري إلى أي الدارين يذهب بي لقد أوقفتني موقف المحزونين ما أبقيتني

حقيقة تنازع القلب والنفس الخلق فقسما بينهما قاضي العقل فمن باع منهما حظه فلا شفعة

لصاحبه عليه

ومنه

حقيقة الحجب ثلاثة فحجاب الغيرة منع وحجاب الحيرة دفع وحجاب الغفلة قطع " أولئك كالأنعام بل هم أضل " الأعراف 179

رفيقة اللحم أيام التشريق مكروه وكل لذة عند أرباب الدنيا كاللحم عندك أيام الأضحى فلا ترينك الغفلة عن سرّك زيادة النعمة عندك

حقيقة الفقر إلى الله الاستغناء به عما سواه وهوية الرضى بالله أن لا يخطر بالبال إله

ومنه

حقيقة التلون مجون تارة طريا وطورا شجون والتمكن معرفة وأين الحال من الصفة

رفيقة قال لي محمد بن عبد الواحد الرباطي قال لي محمد بن عبد السيد الطرابلسي دخلت على

أبي الحسين الحرالي فقلت له كيف أصبحت فأشد

" أصبحت أطف من مر النسيم سرى ... على الرياض يكاد الوهم يؤلمني "

" من كل معنى لطيف احتسي قدحا ... وكل ناطقة في الكون تطربني "

حقيقة قال الطالب الوقت سيف وقال الواصل بل مقت فتلا العارف " قل الله ثم ذرهم في خوضهم

يلعبون " الأنعام 91

رفيقة لصاحب الوقت يومان

" يوم بأرواح يباع ويشترى ... وأخوه ليس يسام فيه بدرهم "

وفصل الفضل بينهما

" وما تفضل الأيام أخرى بذاتها ... ولكن أيام الملاح ملاح "

ومنه

حقيقة قال لي الشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي بعباد تلمسان قال لي أبو عبد الله

ابن حيون إنه وجد على ظهر كتاب بخط عتيق قال أبو يزيد البسطامي يظهر في آخر الزمان رجل

يسمى شعيبا لا تدرك له نهاية قالا وهو أبو مدين قلت وقف بظاهره مع الشريعة وذهب بباطنه مع

الحقيقة فما انقطع لصحة البداية ولا رجع لعدم الغاية

رفيقة قمت ببعض الأسحار على قدم الاستغفار وقد استشعرت الصبابة واستدثرت الكآبة فأملى

الجنان على اللسان بما نثت في روعه روح الإحسان

" منكسر القلب بالجنايا ... يدعوك يا مانح العطايا "

" أفعده الذنب عن رفيق ... حثوا لرضوانك المطايا "

ومنه إثر حقيقة في شأن العلاج ما نصه ثم قلت

" ولرب داع للجمال أطعته ... وأبى الجلال علي أن أتقدما "

" فأطعت بالعصيان أمرهما معا ... وجنحت للتسليم كيما أسلما "

ومنه

حقيقة قلت للسمر ما لك تحس من خلف الموانع فقال خرق شعاعي سور العوائق ثم انعكس إلي

بصور الحقائق فأصبحت كما قيل

" كان مرآة عين الدهر في يده ... يرى بها غائب الأشياء فلم يرغب "

رفيقة الليل رداء الرهبة تهاب الجبان فيه الأبطال وتتقي الحواس دونه الخيال " إن ناشئة الليل هي

أشد وطأ وأقوم قيلا " المزمل 6

حقيقة النهار معاش النفس فهو استعداد " إن لك في النهار سبحا طويلا " المزمل 7 والليل رياش

الأنس فهو معاد " وأذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا " المزمل 8 فهذا جمع وذلك فرق والحال أسرع

ذهابا من البرق

ومنه

حقيقة إن أكبرت النفس حالها فذكرها أصلها ومآلها فإنها تصغر عند ذلك وتستقيم بك على أرض

المسالك احتوا التراب في وجوه المداحين " منها خلقناكم وفيها نعيدكم " طه 55

رفيقة إنما يتعاضم من يجد الحقارة من نفسه ويتوهم المهانة عند أبناء جنسه فلذلك تراه مغمزا

للعيون مهمزا للطنون من أسر سريرة حسنة كساه الله رداءها

رفيقة رأيت الملوك لا يشمتون ولا يدعى لهم إلا بما يتعلق بأغراض الدنيا وأكثر ذلك مما تحيل

عقوده العوائد فعلمت أن الدنيا ضد الآخرة

حقيقة من لم يفر خور وذلك الجبن من خاف أدلج ورجا من لم يكر تمن وتلك الزمانة " يا ليتني كنت

معهم فأفوز فوزا عظيما " النساء 72
رقيقة سمعت أبا محمد المجاصي يقول رويت بالسند الصحيح أن عابدا رابط ببعض الثغور مدة فكان
كلما طلع الفجر يسمع من ينشد دون أن يرى شيئا
" لولا رجال لهم سرد يصومونا ... وآخرون لهم ورد يقومونا "
" لزلزلت أرضكم من تحتكم غضبا ... فإنكم فوم سوء لا تبالونا "
حقيقة ما حمد الله حق حمده إلا من عرفه حق معرفته وذلك مما لا ينبغي لغيره لا أحصي ثناء
عليك أنت كما أثنيت على نفسك
رقيقة قلت

" أشيم البرق من بين الثنايا ... وأشتم العبير من الثناء "
" فأبدو تارة وأغيب أخرى ... مثار الشوق مثني الحياء "
حقيقة تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسه في بحار العظمة وتعلق الشاكر بجمال الفعل
فوقف مع نفسه بسوق النعمة فهذا تاجر " لئن شكرتم لأزيدنكم " إبراهيم 7 وذاك ذاكر " وما بكم
من " النحل 53
ومنه

حقيقة الصبر مطية المرید والرضى سجية المراد فهذا يقوم للأمر وذاك يسعى للأجر
رقيقة الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف والصبر بغير حساب والرضى بالرضى وذلك سدرة
المنتهى

حقيقة النفس الأمانة أبدا لا تملك إلا بلطائف الحيل والمطمئنة ذلول لا تنفلت إلا ممن غفل "
وأخاف أن يأكله الذئب " يوسف 13
رقيقة الدنيا معشوق الطالب عاشق الهارب هذا يستخدمها وذاك يخدمها يبني الخادم المسجد
ليقال ويعمره المخدوم لينال فعلى الخادم السعي من غير جدوى
" ... وليس لرحل حطه الله حامل "

وللمخدوم الجدوى بغير سعي
" وليس لما تبني يد الله هادم ... إن السعادة أصلها التخصيص "
حقيقة الجمال رياش والحسن صورة والملاحة روح فذلك ستره عليك وهذا سره فيك " فإذا سويته
ونفخت فيه من روحي " الحجر 29

رقيقة أعطي يوسف شطر الحسن يعني حسن آدم لأنه إن لم يكن في الإمكان أبدع مما كان فقد
خلقه الحق بيده في أحسن تقويم ثم نفخ فيه من روحه لتتم علة الأمر بسجود التحية والتكريم
فكان كما قال من أنزل عليه الفرقان خلق الله آدم على صورة الرحمن فأدم إذا كمال الحسن وإلا
فهو المراد لأن الشطر يقتضي الحصر والنصف ينزع عن الوصف وأعطي محمد كمال الجمال فما
أبصره أحد إلا هابه وتمام الملاحة فما عرفه شخص إلا أحبه مع أبناء نوره في الآباء بأن أبوه المعنى
لسيد نجباء الأبناء كما قال العارف عمر

" وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي "
حقيقة لا يثنينك الخوف عن قرع الباب فتياأس فإنه لا يياأس من روح الله إلا القوم الكافرون ولا يدينك
الرجاء من الفترة فتأمن فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون فإن لم تستطع بعد الحرص أن
تعدل فلا تمل كل الميل مع النفس " إن النفس لأمانة بالسوء " يوسف 53
رقيقة أرفع قستك في رفة الإقبال على كف الرجاء خافضا من طرف الحياء وصوت الإدلال عاكفا في
زاوية الإنكماش من وراء ستر الخوف يخرج عليك حاجب القدر من باب الكرم بتوقيع " فاستجبنا له "
الأنبياء 848890

ومنه
حقيقة صدق مجاهدة الفاروق أيقظ الوسنان وطرد الشيطان وأرضى الرحمن ففاز بسلامة ما
سلكت فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجك وحقق مشاهدة الصديق أسمع من ناجى فحاز غنيمة
لو كشف الغطاء ما ازداد يقينا
رقيقة ذهب أبو بكر في السابقين ولحق عمر بأهل اليقين فما أدرك الصديق أداء التصلية حتى
استدرك الفاروق قضاء التقفية

" ولو كنت في أهل اليمين منعما ... بكيت على ما فات من زمن الصبا "
حقيقة النص سلاح والنظر مطية والإتباع جنة والورع نجا والخلاف فتنة والبدع مهالك وخير الأمور
أوساطها

ومنه

حقيقة تخير المساعد واختبر المضاعد وليكن همك في سفرك منك معرفتك كيف ترجع إليك فلن يحقق صفة الربوبية من لم يتحقق نعت العبودية
رفيقة حدثت أن سيدي أبا الحسن الشاذلي لما أزمع على التحول من طيبة على من بها الصلاة والسلام أوقف فعله على إذن رسول الله له فرأه في منامه فقال توحشنا يا علي فأخذ يعتل فأذن له وقال إذا جئت مصر فاقرا عز الدين بن عبد السلام مني السلام قال فلما التقينا بلغته المالكة سرا فلم تظهر نفسه لذلك فلما قام المزمزم قال
" صدق المحدث والحديث كما جرى ... وحديث أهل الحب ما لا يفترى "
فاستغفر الشيخ ثم كذب نفسه ثم حط للتسليم رأسه
حقيقة الوهم شيطان القلب يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وسائر الجهات لمراقبة " قل هو القادر " الأنعام 65 فمن ثم كان أشد تقبلا من المرجل على النار فإذا ذكر الله سكن " ألا بذكر الله تطمئن القلوب " الرعد 28
رفيقة فرق القلب من ذكر الله خوف " وجلت قلوبهم " الحج 35 ثم سكن لذكره رجاء " وتطمئن قلوبهم " الرعد 28 فعاد داء تقشعر منه دواء " ثم تلين " فنقع بلائمه
" ... دع عنك لومي فإن اللوم إغراء "
ثم هتف بمناديه

" ... وداوني بالتي كانت هي الداء "

حقيقة العبودية صفة نفسك لأنها حال أحد العبيد والعبودية صفة قلبك لأنها ملكة واحد العباد والعبادة قصد وجهك لأنها نعت الفردوس من العباد

ومنه

حقيقة إنما تزيد في الدنيا بقدر ما تنقص من الآخرة فإن تشييد الجدار على قدر انتقاص الجبل رفيقة من جر لنفسه جار على قلبه فلا تجوز شهادته عند ربه لأن العدل من ترك العدول والميل حقيقة لا تقدم إلا بدليل وإذن واحذر ما لا ينفع ما استطعت فقد تم انظر فلا حرج إن جهلت ما لم تكلف علمه وأخاف عليك سوء عاقبة الهجوم
رفيقة إذا اهتز العرش بالسحر لدعاء أهل " تتجافى جنوبهم " السجدة 16 انبعث من نسيمه ما أغشاهم طيبه الراحة " أمانة منه " الأنفال 11 وأهب المستغفر من نومه لإدراك فضل " رضي الله عنهم ورضوا عنه " المائدة 119 والمجادلة 22 والبيئة 8
حقيقة دع الغرب وما يربب واركب الجادة ولا تسلك بنيات الطريق " فتفرق بكم عن سبيله "
الأنعام 153

ومنه

حقيقة سفر المرید تجارة وسفر العارف عمارة فهذا يرحل للإقامة عند الحقيقة وذاك يطلب الاستقامة على الطريقة
رفيقة إياك أيها المصلي لنا أن تلتفت إلى غيرنا وأقبل علينا بصدق نيتك وناجنا بخلوص سريرتك فقد قمنا بينك وبين قلبك وناجيناك بلسان تلاوتك فإن غبت عنا فليست منا
حقيقة الشطح كناية والكرامة عناية والاعتراض جناية فإياك ولم فإن عرفت فاتبع وإن جهلت فسلم رفيقة الليل معاد الأنس " إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلا " المزمل 6 والنهار معاش النفس " إن لك في النهار سبعا طويلا " فهذا نشاط رغبة يتسع في مناكبه المجال وتعتور على مراكبه الأحوال وذلك حجاب رهبة تهوي إليه الأوجال وتجتمع فيه هموم الرجال ألا ترى كيف تهاب الجبان دونه الأبطال وتتقي الحواس خلفه الخيال كما قال
" نهاري نهار الناس حتى إذا دجا ... لي الليل هزرتني إليك المضاجع "
" أفضي نهاري بالحديث وبالمنى ... وجمعني والهيم بالليل جامع "
حقيقة حجب الطالب أربعة فحجاب الغيرة قاذع قيل لبعضهم أتحب أن تراه فقال لا قيل ولم قال أجل ذلك عن نظر مثلي وحجاب التيه قانع نزل فقير على ابن عجوز فبينما هي تصلح له الطعام غشي على الفتى فسألها الفقير فقالت له إنه يهوى ابنة عم له بتلك الخيمة فخطرت فاشتم غبار ذيلها فذهب الفقير ليخطبها عليه فقالت إذا لم يطق غبار ذيلي فكيف بيستطيع أن يشاهدني وحجاب الحيرة دافع ومن ثم حلا لأرباب الغيبة قال بعضهم يا دليل الحائرين زدني تحيرا ومر على أصحاب الرغبة والرهبنة كما قال
" قد تحيرت فيك خذ بيدي ... يا دليلا لمن تحير فيكا "

وحجاب الغفلة قاطع كان بعضهم يقول إن عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب ونظر آخر إلى امرأة فوقع عليه سهم فعوره وعليه مكتوب نظرت بعين العورة فرميناك بسهم الأدب ولو نظرت بعين الشهوة لرميناك بسهم القطيعة

رفيقة حدثت أن ابن الغارض دخل على الشيخ عز الدين وقد ذهب به التفكير فيما له عند الله عز وجل فكاشفه بأن أنشده من قصيدة له

" لك البشارة فأخلع ما عليك فقد ... ذكرت ثم على ما فيك من عوج "

فبدرته البشاشة وأظن أن قد خلع قماشه

حقيقة وقفت ذات يوم بالجبانة واستفهمت اسمي هل عرف منها مكانه فأملى بعد هنيئة من نظمه ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه

" كل ميت رآته عيني فأني ... ذلك الميت إن نظرت بقلبي "

" وجميع القبور قبوري لولا ... جهل نفسي بما لها عند ربي "

رفيقة أهم ما على السالك مراعاة قلبه أن يتلف في قلبه فذلك فساد حاله وذهاب رأس ماله تزوج فقير فلبس ثياب العرس فطلب قلبه فلم يجده فصاح خلقاني فأعطوه فأخذها وخرج

حقيقة حجب المطلوب ثلاثة فحجاب التيه جمال كما قال العارف عمر

" ته دلالة فأنت أهل لذاكا ... وتحكم فالحسن قد أعطاك "

وحجاب العزة جلال

" همت بإتيانا حتى إذا نظرت ... إلى المرأة نهاها وجهها الحسن "

وحجاب الكبرياء كمال أنشدت لرابعة

" أحبك حين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا "

" فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا "

" وأما الذي أنت أهل له ... فأنت ترفع الحجب حتى أراك "

" وما الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا "

وهذا معنى ما في الصحيح وما بين أهل الجنة وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن

ومنه

حقيقة الآثار منصة التجلي فمن لم يزر مهلب " ويتفكرون " زار عمير " يمرون " وبطل رصد الحجاج

رفيقة من تفكر تذكر ومن تذكر تبصر فإن أكمل وقف وإن قصر انصرف " إنا هديناه السبيل " الإنسان

3

" ... حقيقة الوحدة فهم والتوحيد علم والإتحاد حكم والاثنيونية وهم " ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومنه

حقيقة أهم ما على السالك مراعاة قلبه أن يتلف في قلبه فإن ذلك فساد حاله وذهاب رأس ماله

رؤي فقير ينادي في السوق ارحموا صوفيا ذهب رأس ماله فقيل له وهل للصوفي رأس مال فقال

نعم كان لي قلب ففقدته

ومنه

حقيقة تنازع القلب والنفوس الخلق فترافعا إلى العقل فقسمه بينهما فانفردت النفس بالهوى

والقلب بالتقوى فصرفت طرقهما إلى الجهتين وقطعت الشفعة فيهما بين الفتنتين

ومنه عند ختم الكتاب ما نصه

حقيقة لا يودع السر إلا عند أهله ولا يذيعه إلا من ضاق ذرعا بحمله

فإن عدا مودعه الرمز فقد زل وإن تعدى مذيعة الغمز فقد ضل

رفيقة الحسن خلق والجمال خلق وحسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن وحيث هو الجمال هو الجميل

حقيقة تحقق العلماء بالتوحيد فاستشعروا " والله خلقكم وما تعملون " الصافات 96 لكنهم اعتبروا خلق السبب والابتلاء به فتصرفوا بدلالة الإذن في مذهبه فاستقاموا على طريقة الأدب ولم يفتهم فصل التوكل ولم تتسع معارف الزهاد لما عرفوا المسبب بكيفية الإنصراف إلى السبب منه لدقة الفرق بينه وبين الانصراف عنه فوقفوا مع التوكل للعذر ولم يستعملوا أدب الجريان مع ابتلاء الأمر وعكف الغافلون على ظاهر السبب ففاتهم التوكل والأدب " أولئك كالأنعام بل هم أضل " الأعراف

179

رفيقة أبيت لعبد الحق الإشبيلي بيتا هو عندي أفضل من قصيدة وهو

" قد يساق المراد وهو بعيد ... ويريد المريد وهو قريب " ومن أراد معرفة قدر هذا البيت فليتل " الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب " الشورى 13

حقيقة أشرف أسمائك ما أضافك إليه وأكرم صفاتك ما دل فيك عليه " لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي " " ولا تصفني بالهوى عندها ... فعندها تحقيق أنبائي "

رقبة

" أعزز بمن سوداء قلبي مغرب ... لخياله وسواد عيني مشرق " " إن غاب عن سري فعنه لم يغب ... أو عن عياني فهو فيه محقق " " والعين تعجز أن ترى إنسانها ... والقلب بالروح اللطيف مصدق " " صن عينك عن قلبك لربك وقلبك عن نفسك لحبك ونفسك عن طبعك لوليك وطبعك عن هواك لعدوك وهواك عمن سواك وقد كنت من نسل الجنة وكان بينك وبين البلاء أوقى جنة لطف الله تعالى بي وبكم في مجاري أحكامه ويسرنا أجمعين للعمل بموجبات إكرامه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما كثيرا إلى يوم لقائه انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب الحقائق والرقائق لمولاي الجد الإمام سقى الله عهده صوب الغمام وما ذكرته من كلامه غيظ من فيض وقل من كثر ويكفي من الحلبي ما قل وستر العنق ولنذكر بعض نظمه رحمه الله تعالى وقد تقدم بعضه أثناء ما سبق من كلامه رضي الله عنه فراجعه إن شئت

من شعر المقرئ الجد

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى ما في الإحاطة ونصه نقلت من ذلك قوله هذه لمحة العارض لتكملة ألفية ابن الفارض سلب الدهر من فرائدها مائة وسبعة وسبعين فاستعنت على ردها بحول الله المعين

من فصل الإقبال

" رفضت السوى وهو الطهارة عندما ... تلفعت في مرط الهوى وهو زينتي " " وجئت الحمى وهو المصلى ميمما ... بوجهة قلبي وجهها وهو قبلتي " " وقمت وما استفتحت إلا بذكرها ... وأحرمت إحراما لغير تحلة " " فديني إن لاحت ركوع وإن دنت ... سجود وإن لاهت قيام بحسرة " " على أننا في القرب والبعد واحد ... تؤلفنا بالوصل عين التشتت " " وكم من هجير خضت ظمآن طاويا ... إليها وديجور طويت برحلة " " وفيها لقيت الموت أحمر والعدا ... بزرقاة أسنان الرماح وحدة " " وبينني وبين العذل فيها منازل ... تنسيك أيام الفجار ومؤتة " " ولما اقتسمنا خطبتنا فحامل ... فجار بلا أجر وحامل برة " " خلا مسمعي من ذكرها فاستعدته ... فعاد ختام الأمر أصل القضية " " وكم لي على حكم الهوى من تجلد ... دليل على أن الهوى من سجيّتي " " يقول سميري والأسى سالم الأسى ... ولا توضع الأوزار إلا لمحنة " " لو أن مجوسا بت موقد نارها ... لما ظل إلا منهلا ذا شريعة " " ولو كنت بحرا لم يكن فيه نضحة ... لعين إذا نار الغرام استحرت " " فلا ردم من نقب المعاول آمن ... ولا هدم إلا منك شيد بقوة " " فمم تقول الأسطقسات منك أو ... علام مزاج ركبت أو طبيعة " " فإن قام لم يثبت له منك قاعد ... وإلا فأنت الدهر صاحب قعدة " " فما أنت يا هذا الهوى ماء أو هوا ... أم النار أم دساس عرق الأمومة " " وإنني على صبري كما أنا واصف ... وحالي أقوى القائمين بحجة " " أقل الضنى أن عج من جسمي الضني ... وما شاكة معشار بعض شكيتي " " وأيسر شوقي أنني ما ذكرتها ... ولم أنسها إلا احترقت بلوعة " " وأخفى الجوى قرع الصواعق منك في ... جواي وأخفي الوجد صبر المودة " " وأسهل ما ألقى من العذل أنني ... أحب أقلّي ذكرها وفضيحتي " " وأوج حظوظي اليوم منها حضيضها ... بالأمس وسل حر الجفون الجزيرة " " وأوجز أمري أن دهري كله ... كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة "

" أروح وما يلقي التأسف راحتني ... وأغدو وما يعدو التفجع خطتي "
 " وكالبيض بيض الدهر والسمر سووده ... مساءتها في طي طيب المسرة "
 " وشأن الهوى ماقد عرفت ولا تسيل ... وحسبك أن لم يخبر الحب رؤيتي "
 " سقام بلا براء ضلال بلا هدى ... أوام بلا ري دم لا بقيمة "
 " ولا عتب فالأيام ليس لها رضى ... وإن ترض منها الصبر فهو تعنتي "
 " ألا أيها اللوام عني قوضوا ... ركاب ملامي فهو أول محنتي "
 " ولا تعذلوني في البكاء ولا البكى ... وخلوا سبيلي ما استطعتم ولوعتي "
 " فما سلسلت بالدمع عيني إن جنت ... ولكن رأيت ذاك الجمال فجنت "
 " تجلى وأرجاء الرجاء حوالك ... ورشدي غاو والعمامات عمت "
 " فلم يستين حتى كاني كاسف ... وراجعت إبصاري له وبصيرتي "

ومن فصل الاتصال

" وكم موقف لي في الهوى خضت دونه ... عباب الردى بين الطبي والأسنة "
 " فجاوزت في حدي مجاهدتي له ... مشاهدتي لما سمت بي همتي "
 " وحل جمالي في الجلال فلا أرى ... سوى صورة التنزيه في كل صورة "
 " وغبت عن الأغيار في تيه حيرتي ... فلم أنتبه حتى امتحى اسمي وكنيتي "
 " وكاتبتي ناسوتي بأمارة الهوى ... وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنة "
 " وعلم يقيني صار عينا حقيقة ... ولم يبق دوني حاجب غير هييتي "
 " وبدلت بالتلون تمكين عزة ... ومن كل أحوالي مقامات رفعة "
 " وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفي ... مع المحو والإثبات عند تثبتي "
 " وكم جلت في سم الخياط وضاق بي ... لبسطي وقبضي بسط وجه البسيطة "
 " وما اخترت إلا دن سقراط زاهدا ... وفي ملكوت النفس أكبر عبرة "
 " وفقرني مع الصبر اصطفت على الغنى ... مع الشكر إذ لم يحظ فيه مثوبتي "
 " وأكتم حبي ما كنى عنه أهله ... وأكني إذا هم صرحوا بالخيبة "
 " وإني في جنسي ومنه لواحد ... كنوع ففصل النوع عله حصتي "
 " تسببت في دعوى التوكل ذاهبا ... إلى أن أجدى حيلتي ترك حيلتي "
 " وآخر حرف صار مني أولا ... مريدا وحرف في مقام العبودة "
 " تعرفت يوم الوقف منزل قومها ... فبت بجمع سد خرق التشتت "
 " فأصبحت أفضي النفس منها منى الهوى ... وأفضي على قلبي برعي الرعية "
 " فبايعتها بالنفس دارا سكنتها ... وبالقلب منه منزلا فيه حلت "
 " فخلص الاستحقاق نفسي من الهوى ... وأوجب الاسترقاق تسليم شفعة "
 " فيا نفس لا ترجع تقطع بيننا ... ويا قلب لا تجزع ظفرت بوحدة "

ومن فصل الإدلال

" تبتد لعيني من جمالك لمحة ... أبادت فؤادي من سناها بلفحة "
 " ومرت بسمعي من حديثك ملحة ... تبتد لها فيك القران وقرت "
 " ملامي بن عذري استبن وحدي استعن ... سماعي أعن حالي ابن قائلي اصمت "
 " فمن شاهدي سخط ومن قائلي رضى ... وتلون أحوالي وتمكين رتبتي "
 " مرامي إشارات مراعي تفكر ... مراقبي نهايات مراسي تثبت "
 " وفي موقفي والدار أقوت رسوما ... تقرب أشواقي تبعد حسرتي "
 " معاني أمارات مغاني تذكر ... مباني بدايات مثاني تلفت "
 " وبث غرام والحبيب بحضرة ... ورد سلام والرقيب بغفلة "
 " ومطلع بدر في قضيب على نقا ... فويق محل عاطل دون دجية "
 " وممكن سحر بابلي له بما ... حوت أضلعي فعل القنا السمهرية "
 " ومنبت مسك من شقيق ابن منذر ... على سوسن غض بجنة وجنة "
 " ووصف اللآكي في اليواقيت كلما ... تعل بصرف الراح في كل سحرة "
 " سل السلسبيل العذب عن طعم ريقه ... ونكهته يخبرك عن علم خبرة "
 " ورمات كافور علته طوابع ... من الند لم تحمل به بنت مزنة "
 " ولطف هواء بين حقف وبانة ... ورقة ماء في قوارير فضة "
 " لقد عز عنك الصبر حتى كأنه ... سراقا لحظ منك للمتلفت "

" وأنت وإن لم تبق مني صباة ... منى النفس لم تقصد سواك بوجهة "
" وكل فصيح منك يسري لمسمعي ... وكل مليح منك يبدو لمقلتي "
" تهون علي النفس فيك وإنها ... لتكرم أن تغشى سواك بنظرة "
" فإن تنظريني بالرضى تشف علتي ... وإن تطفريني باللقا تطف غلتي "
" وإن تذكريني والحياة بقيدها ... عدلت لأمني منيتي بمنيتي "
" وإن تذكريني بعدما أسكن الثرى ... تجلت دجاه عند ذاك وولت "
" صليني وإلا جددي الوعد تدركي ... صباة نفس أيقنت بتفلت "
" فما أم بو هالك بتنوفة ... أقيم لها خلف الخلاب فدرت "
" فلما رأته لاينازع خلفها ... إذا هي لم ترسل عليه وضنت "
" بكت كلما راحت عليه وإنها ... إذا ذكرته آخر الليل حنت "
" بأكثر مني لوعة غير أنني ... رأيت وقار الصبر أحسن حلية "
" فرحت كما أعدو إذا ما ذكرتها ... أطامن أحشائي على ما أجت "
" أهون ما ألقاه إلا من القلى ... هوى ونوى نيل الرضى منك بغيتي "
" أخوض الصلا أطفئ العلا والعلو لا ... أصل السلا أرى الخلا بين عبرتي "
" ألا قاتل الله الحمامة غدوة ... لقد أصلت الأحشاء نيران لوعة "
" وقاتل مغناها وموقف شجوها ... على الغصن ماذا هيجت حين غنت "
" فغنت غناء أعجميا فهيجت ... غرامي من ذكرى عهد تولت "
" فأرسلت الأحفان سحبا ووافدت ... جواي الذي كانت ضلوعي أكنت "
" نظرت بصحراء البريقين نظرة ... وصلت بها قلبي فصل وصلت "
" فيا لهما قلبا شجيا ونظرة ... حجازية لو جن طرف لجنت "
" وواعجا للقلب كيف اعترافه ... وكيف بدت أسراره خلف ستره "
" وللعين لما سوئلت كيف أخبرت ... وللنفس لما وطنت كيف ذلت "
" وكنا سلطنا في صعود من الهوى ... يسامي بأعلام العلا كل رتبة "
" إلى مستوى ما فوقه فيه مستوى ... فلما توافينا ثبت وزلت "
" وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا ... على نحر قربان لدى قبر شبيبة "
" مؤكدة بالندى أيام عهده ... فلما تواتقنا شددت وحلت "

ومن فصل الاحتفال

" أزور اعتمارا أرضها بتنسك ... وأقصد حجا بيتها بتحلة "
" وفي نشأتي الأخرى ظهرت بما علت ... له نشأتي الأولى على كل فطرة "
" ولولا خفاء الرمز من لا ولن ولم ... تجدها لشملي مسلكا بتشتت "
" ولو لم يجدد عهدنا عقد خلة ... قضيت ولم يقض المنى صدق توبة "
" بعثت إلى قلبي بشيرا بما رأت ... على قدم عيناى منه فكفت "
" فلم يعد أن شام البشارة شام ما ... جفا الشام من نور الصفات الكريمة "
" فيا لك من نور لو أن التفاتة ... تعارض منه بالنفوس النفيسة "
" تحدث أنفاس الصبا أن طيبها ... بما حملته من حراقة حرقه "
" وتنبيء أصال الربيع عن الربى ... وأشجاره أن قد تجلت فجلت "
" وتخبّر أصوات البلابل أنها ... تغنت بترجيبي على كل أيقة "
" فهذا جمالي منك في بعد حسرتي ... فكيف به إن قربتني بخلة "
" تبدى وما زال الحجاب ولا دنا ... وغاب ولم يفقده شاهد حضرتي "
" له كل غير في تجليه مظهر ... ولا غير إلا ما محت كف غيره "
" تجلى دليل واحتجاب تنزه ... وإثبات عرفان ومحو تثبت "
" فما شئت من شيء وأليت أنه ... هو الشيء لم تحمد فجار أليتي "
" وفي كل خلق منه كل عجيبة ... وفي كل خلق منه كل لطيفة "
" وفي كل خاف منه مكمّن حكمة ... وفي كل باد منه مظهر جلوة "
" أراد بقلب القلب واللغز كامنا ... وفي الزجر والغال الصحيح الأدلة "
" وفي طي أوافق الحساب وسر ما ... يتم من الأعداد فابدأ بستة "
" وفي نفثات السحر في العقد التي ... تطوع لها كل الطباع الأبية "
" يصور شكلا مثل شكل ويعتلي ... عليه بأوهام النفوس الخبيثة "

" وفي خضرة الكمون تزجى شرابه ... مواعيد عرقوب على إثر صفرة "

" وفي شجر قد خوفت قطع أصلها ... فبان بها حمل لأقرب مدة "

" وفي النخل في تلقيحه واعتبر بما ... أتى فيه عن خير البرية واسكت "

" وفي الطابع السبتى والأحرف التي ... يبين منها النظم كل خفية "

" وفي صنعة الطلسم والكيمياء والكنوز ... وتغوير المياه المعينة "

" وفي حرز أقسام المؤدب محرز ... وحزب أصيل الشاذلي وبكرة "

" وفي سيمياء الخاتمي ومذهب ابن ... سبعين إذ يعزي إلى شر بدعة "

" وفي الملل الأولى وفي النحل الألى ... بها أوهموا لما تساموا بسنة "

" وفي كل ما في الكون من عجب وما ... حوى الكون إلا ناطقا بعجبة "

" فلا سر إلا وهو فيه سريرة ... ولا جهر إلا وهو فيه كحيلة "

" سل الذكرى عن إنصاف أصناف ما انبنى ... عليه الكلام من حروف سليمة "

" وعن وضعها في بعضها وبلوغ ما ... أتت فيه أمضى عدها وتثبت "

" فلا بد من رمز الكنوز لذي الحجي ... ولا ظلم إلا ظلم صاحب حكمة "

" ولولا سلام ساق للأمن خيفتي ... لعاجل مس البرد خوفي لميتتي "

" ولو لم تداركني ولكن يعطفها ... درجت رجائي أن نعتني خييتي "

" ولو لم تؤانسني عنا قبل لم ولم ... قضى العتب مني بغية بعد وحشي "

" ونعم أقامت أمر ملكي بشكرها ... كما هونت بالصبر كل بلية "

ومن فصل الاعتقال

" سر بفؤادي إذ سرت فيه نظرتي ... وسارت ولم تن العنان بعطفة "

" وذلك لما أطلع الشمس في الدجى ... محيا ابنة الحيين في خير ليلة "

" يمانية لو أنجدت حين أنجدت ... لما أبصرت عينك حيا كमित "

" لأصحمة في نصحتها قدم بنى ... لكل نجاشي بها حصن ذمة "

" أملت فحظت رحلها ثم لم يكن ... سوى وقفة التوديع حتى استقلت "

" فلو سمحت لي بالتفات وحل من ... مهاوي الهوى والهون جد تفلتي "

" ولكنها همت بنا فتذكرت ... قضاء فضاة الحسن قدما فصدت "

" أجلت خيالاً إنني لا أجله ... ولم أنتسب منه لغير تعلقة "

" على أنني كلي وبعضي حقيقة ... وباطل أوصافي وحق حقيقتي "

" وجنسي وفصلي والعوارض كلها ... ونوعي وشخصي والهواء وصورتني "

" وجسمي ونفسي والحشا وغرامه ... وعقلي وروحانيتي القدسية "

" وفي كل لفظ عنه ميل لمسمعي ... وفي كل معنى منه معنى للوعتي "

" ودهرني به عيد ليوم عروبة ... وأمري أمري والورى تحت قبضتي "

" ووقتي شهود في فناء شهدته ... ولا وقت لي إلا مشاهد غيبة "

" أراه معي حسا ووهما وإنه ... مناط الثريا من مدارك رؤيتي "

" وأسمعه من غير نطق كأنه ... يلقن سمعي ما توسوس مهجتي "

" ملأت بأنوار المحبة باطني ... كأنك نور في سرار سريرتي "

" وجليت بالإجلال أرجاء ظاهري ... كأنك في أفقي كواكب زينة "

" فأنت الذي أخفيه عند تستري ... وأنت الذي أبدية في حين شهرتي "

" فته أحتمل واقطع أصل واعل أستغل ... ومر أمثل واملل أمل وارم أثبت "

" فقلبي إن عاتبته فيك لم أجد ... لعتبي فيه الدهر موقع نكتة "

" ونفسي تنبو عن سواك نفاسة ... فلا تنتمي إلا إليك بمنة "

" تعلقت الآمال منك بفوق ما ... أرى دونه ما لا ينال بحيلة "

" وحامت حواليتها وما وافقت حمى ... سحائب يأس أمطرت ماء عبرتي "

" فلو فاتني منك الرضى ولحقتني ... بعفو بكيت الدهر فوت فضيلة "

" ولو كنت في أهل اليمن منعما ... بكيت على ما كان من أسبقية "

" وكم من مقام قمت عنك مسانلا ... أرى كل حي كل حي وميت "

" أتيت بفاراب أبا نصرها فلم ... أجد عنده علما يبرد غلتي "

" ولم يدر ما قولني ابن سيئنا سائلا ... فقل كيف أرجو عنده برء علتي "

" فهل في ابن رشد بعد هذين مرتجى ... وفي ابن طفيل لاحتثاث مطييتي "

" لقد ضاع لولا أن تداركني حمى ... من الله سعي بينهم طول مدتي "
 " فقيض لي نهجا إلى الحق سالكا ... وأيقظني من نوم جهلي وغفلتي "
 " فحصنت أنظار الجنيد جنيدها ... بترك فلي من رغبة ربح رهبة "
 " وكسرت عن رجل ابن أدهم أدهما ... وأنقذته من أسر حب الأسرة "
 " وعدت على حلاج سكري بصلبه ... وألقيت بعام التفاتي بهوة "
 " فقولي مشكور ورأيي ناجح ... وفعلي محمود بكل محلة "
 " رضيت بعرفاني فأعليت للعلا ... وأجلسني بعد الرضى فيه جلتي "
 " فعشيت ولا ضيرا أخاف ولا قلى ... وصرت حبيبا في ديار أحبتي "
 " فها أناذا أمسي وأصبح بينهم ... مبلغ نفسي منهم ماتمنت "
 " ومن نظمه أيضا ما حكى عنه في الإحاطة إذ قال وأنشدني قوله في حال قبض وقيدتها عنه
 " إليك بسطت الكف أستنزل فضلا ... ومنك قبضت الطرف أستشعر الذلا "
 " وها أناذا قد قمت يقدمني الرجا ... ويحجم في الخوف الذي خامر العقلا "
 " أقدم رجلا إن يضىء برق مطمع ... وتظلم أرجائي فلا أنقل الرجلا "
 " ولي عثرات لست أمل إن هوت ... بنفسي أن لا أستقيل وأن أصلى "
 " فإن تدركني رحمة أنتعش بها ... وإن تكن الأخرى فأولى بي الأولى "
 " ومن نظمه رحمه الله تعالى

" وجد تسعره الضلوع ... وما تبرده المدامع "
 " هم تحركه الصباة ... والمهابة لا تطاوع "
 " أمل إذا وصل الرجا ... أسبابه فالموت قاطع "
 " بالله يا هذا الهوى ... ما أنت بالعشاق صانع "
 " وقال رحمه الله تعالى كما في الإحاطة ومما كتبت به لمن بلغني عنه بعض الشيء
 " نحن إن تسأل بناس معشر ... أهل ماء فجرته الهمم "
 " عرب من بيضهم أرقاهم ... ومن السمر الطوال الخيم "
 " عرضت أحسابهم أرواحهم ... دون نيل العرض وهي الكرم "
 " أورثونا المجد حتى إننا ... نرتضي الموت ولا نزدحم "
 " ما لنا في الناس من ذنب سوى ... أننا نلوي إذا ما اقتحموا "
 " وقال مما قلته مذيلا به قول القاضي أبي بكر ابن العربي
 " أما والمسجد الأقصى ... وما يتلى به نسا "
 " لقد رقصت بنات الشوق ... بين جوانحي رقفا "

قولي
 " فأقلع بي إليه هوى ... جناحا عزمه قفا "
 " أفل القلب واستعدى ... على الجثمان فاستعصى "
 " فقامت أجول بينهما ... فلا أدنى ولا أقصى "
 " قال رحمه الله تعالى ومما قلته في التورية بشأن راوي المدونة
 " لا تعجبني لطبي قد دها أسدا ... فقد دها أسدا من قبل سحنون "
 " ومن نظم مولاي الجد مما لم يذكره في الإحاطة قوله حسبما ألفي بخطه على ظهر نسخة من
 تأليفه القواعد

" ناديت والقلب بالأشواق محترق ... والنفوس من حيرة الإبعاد في دهش "
 " يا معطشي من وصال كنت أمله ... هل فيك لي فرج إن صحت واعطشي "
 " ومن نظمه ما أسنده الونشريسبي إليه
 " خالف هواك وكن لعقلك طائعا ... تجد الحقيقة عند طرف الناظر "
 " ومنه مما نسبه له المذكور ورأيت من ينسبهما لغيره
 " لما رأيناك بعد الشيب يا رجل ... لا تستقيم وأمر النفس تمتثل "
 " زدنا يقينا بما كنا نصدقه ... بعد المشيب يشب الحرص والأمل "
 " وفي الإحاطة في ترجمة شعره ما صورته قال ومما قلته من الشعر وبه نختم الكلام
 " أنبت عودا لنعماء بدأت بها ... فضلا والبستها بعد اللجا الورقا "
 " فظل مستشعرا مستدثرا أرجا ... ريان ذا بهجة يستوقف الحدقا "
 " فلا تشنه بمكروه الجنى فلکم ... عودته من جميل من لدن خلقا "

" وانف القذى عنه واثر الدهر منبته ... وغذه برحاء واسقه غدقا "

" واحفظه من حادثات الدهر أجمعها ... ما جاء منها على ضوء وما طرقا "

انتهى ما قصدته من ترجمة مولاي الجد على ما اقتضاه الوقت ولو أرسلت عنان القلم في شأنه لضاع هذا الديوان عن ذلك وبرحم الله شيخ شيوخ شيوخنا عالم المغرب سيدي أبا العباس الونشريسي ثم التلمساني نزيل فاس صاحب المعيار وغيره قال في تأليفه الذي عرف فيه بمولاي الجد لما سأله بعضهم في ذلك وذكر حضره ما نصه ولقد استوفى شيخ شيوخنا المحقق النظار أبو عبد الله ابن مرزوق الحفيد ترجمة المقري في كتاب سماه النور البدي في التعريف بالفقيه المقري وقد تقدمت الإشارة إلى أن اسم هذا التأليف مبني على أن المقري بفتح الميم وسكون القاف وقد علمت ما في ذلك مما مضى

قلت وقد ملكت بفاس مجلدا ضخما بخط مؤلفه وهو أحد علماء مدينة فاس ألفه برسم مولاي الجد وسماه بالزهر الباسم وأطال فيه في مدح مولاي الجد والثناء عليه والتنويه بقدره وذكر محاسنه ولم يحضرنني الآن لكوني تركته مع جملة كتبي بالمغرب وقد تعلق بحفظي ما قاله في أوله من جملة أبيات

" إذا ذكرت مفاخر أهل فاس ... ذكرنا من أتى من تلمسان "

" وقلنا هل رأيتم في قضاة ... شبيها للفقيه العدل ثاني "

إلى أن قال

" ونفس العلم إن شانت لشخص ... فما للمقري في العلم شاني "

تلامذة المقري الجد

وقد أخذ عنه رحمه الله تعالى جماعة أعلام مشهورون منهم لسان الدين ابن الخطيب ذو الوزارتين والوزير أبو عبد الله ابن زمرك والأستاذ العلامة أبو عبد الله القيجاطي الآية في علم القراءات والشيخ الفقيه القاضي الرحال

الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزموري الدار المعروف بنقشابو والولي ابن خلدون صاحب التاريخ وفي بعض المواضع يعبر عنه بصاحبنا وفي بعضها بشيخنا والنظار أبو إسحاق الشاطبي والعلامة أبو محمد عبد الله بن جزى والحافظ ابن علاق وغيرهم ممن يطول تعدادهم ولا كالشيخ الولي الشهير الكبير العارف بالله سيدي محمد بن عباد الرندي شارح حكم ابن عطاء الله فإنه ممن يفتخر مولاي الجد رحمه الله تعالى بكونه مثله تلميذا له ولا بأس أن نورد ترجمته تبركا به في هذا الكتاب ولو لم تقتضه المناسبة التي راعيناها في هذا التأليف فكيف وقد اقتضته فنقول

ترجمة تلميذه ابن عباد الرندي

قال في حقه صاحبه الشيخ أبو زكريا السراج ما صورته شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشي الإمام العالم المنصف السالك العارف المحقق الرباني ذو العلوم الباهرة والمحاسن المتظاهرة سليل الخطباء ونتيجة العلماء أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الواعظ الخطيب البليغ العلم الحظي الوجيه الحسيب الأصيل أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عباد كان حسن السميت طويل الصمت كثير الوقار والحياء جميل اللقاء حسن الخلق والخلق على الهمة متواضعا معظما عند الخاصة والعامة نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن ابن سبع سنين ثم تشاغل بعد بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية حتى رأس فيها وحصل معانيها ثم أخذ في طريق الصوفية والمباحثة على الأسرار الإلهية حتى أشير إليه وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات وألف فيه تواليف عجيبة وتصانيف

بديعة غريبة وله أجوبة كثيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين ودرس كتبا وحفظها أو جملها كشهاب القضاعي والرسالة ومختصري ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريري وفصيح ثعلب وغيرها وقوت القلوب أخذ ببلده رندة عن أبيه القرآن وغيره وعن خاله الشيخ الفقيه القاضي عبد الله الفريسي العربية وغيرها وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن أبي الحسن الرندي حرف نافع وعرض عليه الرسالة ويتلمسان وفاس عن السيد الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبي عبد الله التلمساني الحسني جمل الخونجي تفهما وغيره وعن الشيخ الفقيه القاضي العالم أبي عبد المقري كثيرا من المختصر الفرعي لابن الحاجب وفصيح ثعلب وبعض صحيح مسلم كلها تفقها وعن الشيخ الفقيه العالم أبي محمد عبد النور العمراني الموطأ والعربية وعن الإمام العالم أبي عبد الله الألبلي الإرشاد لأبي المعالي وجميع كتاب ابن الحاجب الأصلي وعقيدة ابن الحاجب تفقها وعن الشيخ الفقيه الحافظ أبي الحسن الصرصري بعض التهذيب تفقها

وعن الشيخ الأستاذ المقرئ الصالح أحمد بن عبد الرحمن المجاصي شهر بالمكناسي كثيرا من جمل الزجاج وتسهيل ابن مالك وعن الشيخ الفقيه الصالح أبي مهدي عيسى المصمودي جميع كتاب ابن الحاجب له أيضا تفقها وتفقه على الفقيه العالم أبي محمد الوانغيلي في كتاب ابن الحاجب وأخذ عنه حرف نافع وعن الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالحلفاويين أبي محمد عبد الله الفشتالي كثيرا من التهذيب وعن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة أبي عبد الله محمد بن أحمد القشتالي كثيرا من التهذيب تفقها وكذا عن غيرهم ولقي بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة قال قصدتهم لوجدان السلامة معهم ثم رحل لطنجة فلقني بها الشيخ الصوفي أبا مروان عبد الملك قال لازمته كثيرا

وقرأت عليه وسمعت منه وأنشدني من شعره وشعر غيره وترددت بيني وبينه مسائل في إقامته بسلا وانتفعت به عظيما في التصوف وغيره وأجازني إجازة عامة مولده برندة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وتوفي بعد العصر يوم الجمعة ثالث رجب عام اثنين وتسعين وسبعمائة وحضر جنازته الأمير فمن بعده وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به ولم أر جنازة أحفل ولا أكثر خلقا منها ورتاه الناس بقصائد كثيرة انتهى كلام السراج

وقال غيره في حقه محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفري نسبا الرندي بلدا الشهير بابن عباد الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف بالله تعالى

وقال في حقه الشيخ ابن الخطيب القسطيني في كتابه أنس الفقير وعز الحقيير وهو الخطيب الشهير الصالح الكبير وكان والده من الخطباء الفصحاء النجباء ولأبي عبد الله هذا عقل وسكون وزهد بالصالح مقرون وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبي عمران موسى العبدوسي رحمه الله تعالى وهو من أكابر أصحاب ابن عاشر ومن خيار تلامذته وأخذ عنه وله كلام عجيب في التصوف وصنف فيه كما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير وله في ذلك قلم انفرده به وسلم له فيه بسببه ومن تصانيفه شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله في سفر رأيته وعلى ظهر نسخة منه مكتوب

" لا يبلغ المرء في أوطانه شرفا ... حتى يكيل تراب الأرض بالقدم "

ومن كلامه فيه الاستئناس بالناس ومن علامات الإفلاس فتح باب الأئس بالله تعالى الاستيحاش من الناس ومن كلامه فيه من لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه ولم تفتح له طريق الغيوب الملكوتية ولا خلص بسره إلى

فضاء مشاهدة الوجدانية فهو مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته إلى غير ذلك من كلامه وكان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان وهو لا يريد ذلك وما رأيت قط في غير مجلس جالسا مع أحد وإنما حظ من يراه الوقوف معه خاصة وكنت إذا طلبته بالدعاء احمر وجهه واستحيا كثيرا ثم يدعو لي وأكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير ويتولى أمر خدمته بنفسه ولم يتزوج ولم يملك أمة ولباسه في داره مرقعة فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض وله تلامذة كلهم أخيار مباركون وبلغني عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهبيا وهو الآن إمام جامع القرويين بفاس وخطيبه وأكثر قراءته في صلاة الجمعة " إذ جاء نصر الله " وأكثر خطبته وعظ ومثله من يعظ الناس لأنه اتعظ في نفسه وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام يا عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني ذكره الغزالي وعهدي به أنه على صفة البلاء الصادقين النبلاء كثر الله مثله في الإسلام انتهى

قلت وقد زرت قبره مرارا بفاس ودعوت الله تعالى عنده وهو عند أهل فاس بمثابة الشافعي عند أهل مصر ومن ممن الله سبحانه علي أني سكنت محله لما توليت الخطابة والإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة مضافين إلى الفتوى والدار المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تعرف بدار الشيخ ابن عباد وأقمت على ذلك خمس سنين وأشهرها ثم قوضت الرحال للمشرق وها أنا إلى الآن فيها والله يبسر الخير حيث كان

وقال الشيخ سيدي أحمد زروق في شأن الشيخ ابن عباد إنه ولد برندة وبها نشأ في عفاف وصون ثم رحل لفاس وتلمسان فقرأ بهما الفقه والأصول والعربية ثم عاد فصحب بمدينة سلا أفضل أهل زمانه علما وعملا سيدي أحمد

ابن عاشر نفعنا الله به فأظهر الله تعالى عليه من بركاته ما لا يخفى على متأمل ثم نقل بعد وفاة الشيخ فجعل خطيبا بجامع القرويين من مدينة فاس وبقي بها خمس عشرة سنة خطيبا فتوفاه

الله تعالى بها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ودفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح وكان رضي الله عنه ذا صمت وسمت وتجمل وزهد معظما عند الكافة معولا في حل المشكلات على فتح الفتاح العليم

" ومن علمه أن ليس يدعى بعالم ... ومن فقره أن لا يرى يشتكي الفقرا "

" ومن حاله أن غاب شاهد حاله ... فلا يدعى وصلا ولا يشتكي هجرا "

كذا رأيت بخط من أتق به في تعريفه مختصرا مع زيادة ما تحققت وكتبته شاهدة بكماله علما وعملا فهي كافية في تعريفه وكان الذي طلبه في وضع الشرح على الحكم سيدي أبو زكريا السراج الذي أكثر رسائله له وسيدي أبو الربيع سليمان بن عمر انتهى

وقال في موضع آخر سيدنا العارف المحقق الخطيب البليغ نسيح وحده ومقدم من أتى من بعده أبو عبد الله قرأ بفاس وتلمسان العربية والأصول والفقه ككتاب الإرشاد ومختصر ابن الحاجب الفقهي والأصلي وتسهيل ابن مالك وتوفي بفاس وقبره بها مشهور ومزيته معروفة شرقا وغربا وقد كتب مسائل معروفة أكثرها لسيدي يحيى السراج وله كتب الشرح مع سيدي سليمان بن عمر الذي قال في حقه إنه ولي بلا شك بطلبهما لذلك ورأيت كتابا في الإمامة سماه تحقيق العلامة في أحكام الإمامة فذكرته لشيخنا القوري رحمه الله تعالى وكان معتنيا بكتبه معولا عليها في حاله فقال أظنه لوالده سيدي إبراهيم وقد كان خطيبا بالقصبة إذ كانت عامرة وله خطب عظيمة الفصاحة حسنة الموقع انتهى

وقال الشيخ أبو يحيى ابن السكاك أما شيخي وبركتي أبو عبد الله ابن عباد رضي الله عنه فإنه شرح الحكم وعقد درر منثورها في نظم بديع وجمعت من إنشائه مسائل مدارها على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوة فيها نذ كأنفاس الأكابر مع حسن التصرف في طريق الشاذلي وجودة تنزيله على الصور الجزئية وبسط التعبير مع إنهاء البيان إلى أقصى غاياته والتفنن في تقريب الغامض إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية فقرب بها حقائق الشاذلية تقريبا لم يسبق إليه كما قرب الإمام ابن رشد مذهب مالك تقريبا لم يسبق إليه وكان مع ذلك آية في التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة وعدم المبالاة بالمدح والذم بل له مقاصد نفيسة في الإعراض عن الخلق وعدم المبالاة بهم وأعظم أخلاقه التي لا يبصر عنها ويضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضر حيث ينسى الحق لا سيما إن كان نسيان الحق بالنسبة إليه فهو الذي يقلقه ويضيق صدره على اتساعه ووفور انشراحه عن ذلك ولقد ذكر بعض من كان من أخص الناس به ومنقطعاً إليه أحوال رجال الرسالة القشيرية والحلية وما منحوا من المواهب قال فلما مات الشيخ واستبصرت ما أشاهده منه من أفعال تدل على القطع بصديقيته لاح لي أن تلك الصفات التي يذكر مشخصة فيه نشاهدها عيانا ولو لم أر الشيخ لقلت إنني لم أر كمالا وعلى الجملة فهو واحد عصره بالمغرب ذكر لي عن قطب المعقول بالمغرب والمشرق الأبلي أنه كان يشير إليه في حال قراءته عليه أعني الشيخ ابن عباد ويقول إن هناك علما جما لا يوجد عند مشاهير أهل ذلك الوقت إلا أنه كان لا يتكلم رضي الله عنه وشهد له المقطوع بولايتهم بالتقدم وأفروا له بالشيخوخة وتبركوا به كسيدي سليمان اليازغي وسيدي محمد المصمودي وسيدي سليمان بن يوسف ابن عمر الأنفاسي وأمثالهم وكان شيخه الحجة الورع أحمد بن عاشر يشيد بذكره ويقدمه على سائر أصحابه وبأمرهم بالأخذ عنه والانتفاع به

والتسليم له ويقول ابن عباد أمة وحده ولا شك أنه كذلك كان أعني غريبا فإن العارف غريب الهمة بعيد القصد لا يجد مساعدا على قصده وكان الغالب عليه الحياء من الله تعالى والتنزل بين يدي عظمته وتنزيله نفسه منزلة أقل الحشرات لا يرى لنفسه مزية على مخلوق لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة المالك وشهود المنة نظارا إلى جميع عباد الله تعالى بعين الرحمة والشفقة والنصيحة العامة مع توفية المراتب حقها والوقوف مع الحدود الشرعية واعتبارهم من حيث مراد الله تعالى بهم هذا دأبه مع الطائع والعاصي ما لم يظهر له من أحد مخايل حب التعظيم والمدح والتعجب على المساكين ورؤية الحق إذ هي دعوى لا تليق بالعبد ومن كانت هذه صفته فقد وصل حد الخذلان بل هي علامة تقارب القطع على أنه شقي مسلم إلى غضب الله تعالى ومقته أعاذنا الله تعالى منه وكان من حال هذا السيد تألف قلوب الأولاد الصغار فهم يحبونه محبة تفوق محبتهم لأبائهم وأمهاتهم فينتظرون خروجه للصلاة وهم عدد كثير يأتون من كل أوب ومن المكاتب البعيدة فإذا رأوه ازدحموا على تقبيل يده وكذا كان ملوك زمانه يزدحمون عليه ويتذللون بين يديه فلا يحفل بذلك وذكر لي بعض تلامذته أن أقواله تشبه أفعاله لما منحه الله تعالى من فنون الاستقامة مع ما في كلامه من النور والحلاوة التي استغرت ألباب المشاركة بحيث صار لهم بحث عريض على

توالمفه انههى كلام ابن السكالك

وله من التواليف الرسائل الكبرى والصغرى وشرح الحكم ونظمها في ثمانمائة بيت من الرجز وحدث الشىخ أبو مسعود الهراس قال كنت أقرأ في صحن جامع القرويين والمؤذنون يؤذنون بالليل فإذا أبو عبد الله ابن عباد قد خرج من باب داره وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربع حتى دخل في البلاط الذي حول الصومعة ثم مشيت فوجدته يصلي حول المحراب وسأله السراج عن أبي حامد الغزالي فقال هو فوق الفقهاء وأقل من الصوفية ومما نقل من خطه رحمه الله تعالى ولا يدري هل هي له أم لا

" الحزم قبل العزم فاحزم واعزم ... وإذا استبان لك الصواب فصمم "

" واستعمل الرفق الذي هو مكسب ... ذكر القلوب وجد وأجمل واحلم "

" واحرس وسر واشجع وصل وامن وصل ... واعدل وأنصف وارع واحفظ وارحم "

" وإذا عدت فعد بما تقوى على ... إنجازها وإذا اصطنعت فتمم "

وذكر الشىخ الفقيه الخطيب القاضي الحاج الرحيل أبو سعيد ابن أبي سعيد السلوي أنه رأى في حائط جامع القرويين أبياتا مكتوبة بفحم بخط الشىخ أبي عبد الله ابن عباد وهي

" أيتها النفس إليه اذهبي ... فحبه المشهور من مذهبي "

" مفضض الثغر له نقطة ... من عنبر في خده المذهب "

" أياسني التوبة من حبه ... طلوعه شمسا من المغرب "

قال الشىخ أبو سعيد فاستشكلت هذه الأبيات لما اشتملت عليه من التغزل وذكر الخال والخذ والثغر ومقام الشىخ ابن عباد يجلب عن الاشتغال بمثل هذا فلقيت يوما أبا القاسم الصيرفي فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها فقال لي مقامك عندي أعلى من أن تستشكل مثل هذا هذه أوصاف ولي الله القائم بأمر الله المهدي فشكرته على ذلك انتهى

قلت رأيت بخط الونشريسبي إثر هذه الحكاية ما نصه قلت في صحة هذه الحكاية عن الشىخ نظر لما احتوت عليه من تعبير الحسن وقدر الشىخ وورعه أعلى من هذا فهذان إشكالان والله أعلم وحكى أن الشىخ ابن عباد رحمه الله تعالى لما احتضر جعل رأسه في حجر أبي القاسم هذا وأخذ في قراءة آية الكرسي إلى قوله " الحي القيوم " ثم يقول يا الله يا حي يا قيوم فيلقنه من حضر " لا تأخذه سنة ولا نوم " فيمتنع الشىخ من قراءتها ويقول يا الله يا حي يا قيوم فلما قربت وفاته سمع منه هذا البيت وكان آخر ما تكلم به

" ما عودوني أحبابي مقاطعة ... بل عودوني إذا قاطعتهم وصلوا "

ولما توفي الشىخ ابن عباد رضي الله عنه في التاريخ المتقدم حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد بن السلطان أبي سالم وأهل البلدتين يعني فاسا الجديد التي هي مسكن السلطان وخواص أتباعه وفاسا العتيق التي هي محل الأعلام والخاص والعام من الناس في ذلك القطر إذ هي إذ ذاك حضرة الخلافة وقبة الإسلام في المغرب وتقدم بعده للإمامة والخطبة بجامع القرويين نائبه أيام مرضه الشىخ الصالح الورع أبو زيد عبد الرحمن الزرهوني حسبما قاله الجاديري رحمه الله تعالى

وحكى الونشريسبي رحمه الله تعالى أن الشىخ ابن عباد كلم ابن دريدة الوالي في مظلمة فلم يقبل فلما كان يوم الجمعة ونزل السلطان أبو العباس للصلاة بجامع القرويين وراء الشىخ ابن عباد قال الشىخ في خطبته من الأمور المستحسنة أن لا يبقى الوالي سنة انتهى وللشىخ ابن عباد خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدي الناس ويقرؤون منها ما يتعلق بالمولد النبوي الشريف بين يدي السلطان تبركا بها وكذا يقرؤونها في المجتمعات في المواسم كأول رجب وشعبان ونصفهما والسابع والعشرين منهما كرمضان وقد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشرة وألف قراءة كراسة الشىخ في المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بين يدي مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الشريف الحسني رحمه الله تعالى وقد احتفل لذلك المولد بأمر يستغرب وقوعها جازاه الله تعالى عن نيته خيرا وقد أشرت إلى ذلك في كتابي الموسوم بروضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس وسردت جملة من القصائد والموشحات في وصف ذلك التصنيع ورحمة الله وراء الجميع رجع إلى مشايخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى فنقول

ومنهم الشىخ الفقيه القاضي بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد ذكره - 4 في نفاضة الجراب وقال إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمئة وكان من أهل المعرفة والحصافة قائما على كتاب أبي عمرو ابن الحاجب في مذهب مالك وكان ممتازا به فيما

دون تلمسان قرأه على الشيخين علمي الأفق المغربي أبي موسى وأبي زيد ابني الإمام عالمي تلمسان والمغرب جميعا قال لسان الدين في النفاضة وتصدر المذكور لإقرائه الآن فما شئت من اضطلاع ومعرفة واطلاع وقيده جزءا نبيلاً على فتوى الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي المسماة بالحاكمة وسماه

بالخدمة على الرسالة الحاكمة أجاد فيه وأحسن وقرأت عليه بعضه وأذن في تحمله انتهى ومن أشياخ لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية - 5 والونشريسسي له عناية بفروع الفقه وولي القضاء بقصر كتامة ومنهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف المتصدر لقراءة كتاب - 6 الشفاء النبوي لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الصباغ وشاركه في قراءتها على الإمام أبي عبد الله الألبلي

ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية أبو علي عمر بن عثمان الونشريسسي قال لسان - 7 الدين حضرت مذاكرته في مسألة أعوزت عليه وطال عنها سؤاله وهي قول الشاعر " الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ... ما لم يروا عنده آثار إحسان " بصورة السؤال كيف صح وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف إذ أوقع الشاعر أكيس بين الناس وبين أن يمدحوا وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ولا يوصف بذلك انتهى

قلت الإشكال مشهور والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر وقد أشار إليه أبو حيان في الارتشاف وجماعة آخرون في قول بعض المؤلفين كصاحب التخليص أكثر من أن تحصى ولولا السأمة لذكرت ما قيل في ذلك وخلاصة ما قالوه أن في الكلام تقديراً والله أعلم وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخباري الأديب المشارك أبو جعفر - 8 أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي الخباز من أهل الظرف والانطباع والفضيلة وهو كاتب عاقد للشروط ناظم نائر مشارك في فنون من العلم مؤلف وقد ذكرنا في غير هذا المحل ما دار بينه وبين لسان الدين من المحاورة والمراجعة فليراجع قال لسان الدين رحمه الله تعالى ناولني المذكور تأليفه الحسن الذي سماه المنهل المورود في شرح المقصد المحمود شرح فيه وثائق الجزيري فأرى بيانا وإفادة وإجادة وأذن لي في حمله عنه وهو في ثلاث مجلدات وأنشدني كثيراً من شعره ومنهم القاضي بها أبو عبد الله ابن أبي رمانة قال لسان الدين لقيته بمكناسة وكان من أهل - 9 الحياء والحشمة وذوي السذاجة والعفة ثم ذكر ما داعبه به حين تأخر عن لقائه وقد ذكرنا ذلك في غير هذا الموضوع

وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان ابن عطية - 10 والونشريسسي قال وكان فقيها عدلاً من أهل الحساب والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه ومن ذوي السذاجة والفضل ويقرض الشعر وله أرجوزة في الفرائض مبسوطه العبارة مستوفية المعنى انتهى

وقال ابن الأحمر في حقه هو شيخنا الفقيه المفتي المدرس القاضي الفرضي الأديب الحاج أبو علي ابن الفقيه الصالح أبي سعيد عثمان التجاني المنعوت بالونشريسسي أجازني عامة أخذ عن الفقيه المفتي الأديب الخطيب المعمر القاضي المحدث الراوية خاتمة المحدثين بالمغرب أبي البركات ابن الحاج البليقي انتهى ومولده في حدود أربع وعشرين وسبعمائة

وذكر صاحب المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي إفريقية والأندلس والمغرب جملة من فتاويه وقال في وثائقه وقد أجرى ذكره ما صورته إن بليدينا الشيخ القاضي العلامة أبا علي الحسن وقعت له قضية مع عدول مكناسة وذلك أن السلطان أبا عنان فارساً كان أمر بالاعتصام على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة وكتب اسم الشيخ أبي علي هذا في العشرة فشق ذلك على بعض شيوخ العدول المؤخرين لحدائث سن أبي علي فلما علم تشغيهم صنع رجلاً ورفعاه إلى مقام المتوكّل على الله أبي عنان نصح

" نبداً أولاً بحمد الله ... ونستعينه على الدواهي "

" ثم نوالي بالصلاة والسلام ... على نبي دونه كل الأنام "

" وبعد ذا نسأل رب العالمين ... أن يهب النصر أمير المؤمنين "

" خليفة الله أبا عنان ... لا زال في خير وفي أمان "

" ملكه الله من البلاد ... من سوس الأقصى إلى بغداد "

" ويسر الحجاز والجهادا ... وجعل الكل له مهادا "
 " يا أيها الخليفة المظفر ... دونك أمري إنه مفسر "
 " عبدكم نجل عطية الحسن ... قد قيل لا يشهد إلا إن أسن "
 " وهو في أمركم المعهود ... من جملة العشرة الشهود "
 " نص عليه أمركم تعيينا ... وسنه قارب أربعينا "
 " مع الذي ينتسب العبد إليه ... من طلب العلم وبحثه عليه "
 " على الفرائض له أرجوزة ... أبرز في نظامها إبريزة "
 " ومجلس له على الرسالة ... فكيف يرجو حاسد زواله "
 " حاشا أمير المؤمنين ذاك ... وعدله قد بلغ السماكا "
 " وعلمه قد طبق الآفاقا ... وحلمه قد جاوز العراقا "
 " وجوده مشتهر في كل حي ... قصر عن إدراكه حاتم طي "
 وحكى بعض الحفاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطان أمر بإقراره على ذلك وقد وقفت على رجزه المذكور وله شرح عليه لم أره والظاهر أنه ممن تدبج معه لسان الدين رحم الله الجميع وهو معدود في جملة من لقيه

ومن مشايخ لسان الدين رحمه الله ذو الكرامات الكثيرة والمقامات الكبيرة سيدي الحاج أبو - 11 العباس أحمد بن عاشر الصالح المشهور كان لسان الدين رحمه الله تعالى حريصا على لقائه بسلا أيام كان بها وقد لقيه ولم يتمل منه لشدة نفوره من الناس خصوصا أصحاب الرياسة ولذا قال لسان الدين لما ذكر أنه لقيه في نفاضة الجراب ما صورته يسر الله لقاءه على تعذره انتهى
 " ... وسنترجم الولي المذكور في نظم لسان الدين حيث وصفه بقوله " بولي الله فابدأ وابتدر وقبره الآن بسلا محط رجاء الطالبين وكعبة قصد الراغبين تلوح عليه أنوار العناية وتستمد منه أنواء الهداية وهو على ساحل البحر المحيط بخارج مدينة سلا المحروسة وقد زرتة ولله الحمد عند توجهي إلى حضرة مراکش
 سنة ألف وتسع والناس يشدون الرحال إليه من أقطار المغرب نفعا الله تعالى به وأعاد علينا من بركاته بجاه نبينا محمد

رجع إلى مشايخ لسان الدين الوزير ابن الخطيب رحمه الله تعالى
 ومنهم الأستاذ المحقق العلامة الكبير النحوي الشهير أبو عبد الله محمد بن علي الفخار - 12 البيري رحمه الله تعالى
 كان شيخ النجاه بالأندلس غير مدافع وأخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبي أبي إسحاق صاحب شرح الألفية والوزير ابن زمرك وغيرهما وقد حكى عنه مسائل غريبة تلميذه الشاطبي وقال لسان الدين في الإحاطة في ترجمة مشيخته ما صورته ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله ابن الفخار البيري الإمام المجمع على إمامته في فن العربية المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظا واطلاعا واضطلاعا ونقلها وتوجيها بما لا مطمع فيه لسواه انتهى

ولنورد بعض فوائد ابن الفخار فنقول
 ومن فوائد ابن الفخار المذكور التي حكاها عنه الشاطبي قوله حدثني أن بعض الشيوخ كان إذا أتى بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ إجازة ما وزنه وما تصريفه ثم قال الشاطبي ولما حدثنا بذلك سألناه عنها فأملى علينا ما نصه وزان إجازة في الأصل إفعالها وأصلها إجازة فأعلت بنقل حركة الواو إلى الجيم حملا على الفعل الماضي استثقلا فتحركت الواو في الأصل وانفتح ما قبلها في اللفظ فانقلبت ألفا فصارت إجازة بألفين فحذفت الألف الثانية عند سيبويه لأنها زائدة والزائد أولى بالحذف من الأصلي وحذفت الأولى عند الأخفش لأنها لا تدل على معنى وهو المد وقول سيبويه أولى لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف في نحو زنادقة والتاء زائدة وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلي للتناسب ووزنها في اللفظ عند سيبويه إفعلة وعند الأخفش إفالة لأن العين عنده محذوفة انتهى

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى لما توفي شيخنا الأستاذ الكبير العلم الخطير أبو عبد الله ابن الفخار سألت الله عز وجل أن يرنيه في المنام فيوصيني بوصية أنتفع بها في الحالة التي أنا عليها من طلب العلم فلما نمت في تلك الليلة رأيت كأنني أدخل عليه في داره التي كان يسكن بها فقلت له يا سيدي أوصني فقال لي لا تعترض على أحد ثم سألتني بعد ذلك في مسألة من

مسائل العربية كالمؤنس لي فأجبتة عنها ولا أذكرها الآن انتهى
وقال الشاطبي أيضا ما صورته حدثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد الله محمد بن الفخار شيخنا
رحمه الله تعالى قال حدثني بسببته بعض المذاكرين أن ابن خميس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها
اجتمع إليه عيون طلبتها فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال فحاد عن الجواب عنها بأن قال
لهم أنتم عندي كرجل واحد يعني أن ما ألقوه عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد وهو ابن
أبي الربيع فكأنه إنما يخاطب رجلا واحدا إزدراء بهم فاستقبله أصغر القوم سنا وعلمنا بأن قال له إن
كنت بالمكان الذي تزعم فأجيني عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التي أذكرها
لك فإن أحبب بالصواب لم تحظ بذلك في نفوسنا لصغرنا بالنظر إلى تعاطيك من الإدراك والتحصيل
وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد وهي عشر الأولى أنتم يا زيدون تغزون والثانية أنتن يا هندات
تغزون والثالثة أنتم يا زيدون ويا هندات تغزون والرابعة أنتن يا هندات تخشين والخامسة
أنتن يا هندت تخشين والسادسة أنتن يا هندت ترمين والسابعة أنتن يا هندات ترمين والثامنة أنتن يا
هندات تمحون أو تمحين كيف تقول والتاسعة أنتن يا هندت تمحين أو تمحون كيف تقول والعاشرة
أنتم تمحوان أو تمحيان كيف تقول وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة أو بعضها مبني وبعضها
معرب وهل هي كلها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة علينا السؤال وعليك التمييز لنعلم
الجواب فبهت الشيخ وشغل المحل بأن قال إنما يسأل عن هذا صغار الوالدان قال له الفتى فأنت
دونهم إن لم تجب فانزعج الشيخ وقال هذا سوء أدب ونهض منصرفا ولم يصبح إلا بمالقة متوجها
إلى غرناطة حرسها الله تعالى ولم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه
انتهى

ثم قال الشاطبي والجواب عن هذه المسائل ما يذكر أما الجواب عن تغزون الأولى فإنه معرب ووزنه
أصلا تفعلون ولفظا تفعون وعن الثانية فمبني للحاق نون الإناث ووزنه تفعلين وعن الثالثة على
التغليب فعلى رده للأول يلحق بالأول وللثاني كالثاني وأما تخشين من الرابعة فمبني للنون ووزنه
تفعلن وعن الخامسة فمعرب ووزنه أصلا تفعلين ولفظا تفعين وأما ترمين من السادسة فمعرب
ووزنه أصلا تفعين ولفظا تفعين ومن السابعة مبني للنون ووزنه تفعلن وأما تمحون وتمحين الثامنة
فهما لغتان وهما مبنيان للنون والتاسعة لا يقال إلا تمحين خاصة لتتفق اللغتان ووزنها تفعين
كتخشين وأما تمحيان من العاشرة فعلى لغة الياء لا إشكال وعلى الواو فيظهر من كلام النحويين
أنه لا يجوز إلا بالواو انتهى
وقد أورد هذه الحكاية عالم الدنيا سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق رحمه الله تعالى في شرحه
الواسع العجيب المسمى بتمهيد المسالك إلى شرح ألفية ابن مالك ونص محل الحاجة منه وقد
حكى أن بعض طلبة سبته أورد

على أبي عبد الله ابن خميس عشر مسائل من هذا النوع وهي أنتم يا زيدون تغزون وأنتن يا
هندات تغزون وأنتم يا زيدون ويا هندات تغزون وأنتن يا هندات تخشين وأنتن يا هندت تخشين وأنتن يا
هندت ترمين وأنتن يا هندات ترمين وأنتن يا هندات تمحون أو تمحين كيف تقول وأنتن يا هندت تمحون أو
تمحين كيف تقول وأنتم تمحوان أو تمحيان على لغة من قال محوت كيف تقول وهل هذه الأمثلة
كلها مبنية أو معربة أو مختلفة وهل وزنها واحد أو مختلف قالوا ولم يجب بشيء قلت ولعله
استسهل أمرها فأما المثال الأول فمعرب ووزنه تفعلون كتنظرون إذ أصله تغزؤون فاستثقلت ضمة
الواو التي هي لام فحذفت ثم حذفت الواو أيضا لالتقاء ساكنة مع واو الضمير وكانت أولى بالحذف
لأن واو الضمير فاعل ولغير ذلك مما تقدم بعضه وأما الثاني فمبني ووزنه تفعلن كتخرجن وأما الثالث
فكأول إعرابا ووزنا لأن فيع تغليب المذكر على المؤنث وأما الرابع فمبني ووزنه تفعلن مثل تفرحن
لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل لإسناده إلى نون جماعة النسوة ردت الياء إلى أصلها لأنها
إنما قلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها والآن ذهبت حركتها لاستحقاقها السكون وأما الخامس
فمعرب ووزنه تفعلين كتفرحين وأصله تخشين فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ثم حذفت
لالتقاء ساكنة مع ياء الضمير وترك فتحة الشين دالة على الألف وأما السادس فمعرب ووزنه
تفعلين كتصيرين وأصله ترميين حذفت كسرة الياء لاستثقالها ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع
ياء الضمير وأما السابع فمبني ووزنه تفعلن كتصيرين وأما الثامن والتاسع فمضارع محي ورد بالأوزان
الثلاثة فمن قال يمحو قال في المضارع من جماعة النسوة تمحون مثله من غزا بناء ووزنا ومن قال
يمحي قال فيه تمحين كترمين بناء

ووزنا ومن قال يمحي قال فيه تمحين كتخشين بناء ووزنا ويقال في المضارع للواحدة على اللغة
الأولى تمحين كتدعين إعرابا ووزنا وتصريفا وقد تقدم في كلام المصنف وعلى الثانية كما يقال لها

من رمى إعرابا ووزنا وتصريفا وعلى الثالثة كما يقال لها من تخشى أيضا وقد تقدما وليس ما وقع في السؤال كما نقل من خط بعض الشارحين أنه يقال فيها تمحون كتفرحن بشيء وأمر التثنية ظاهر انتهى بحروفه

وما قاله رحمه الله تعالى في الاعتذار عن ابن خميس هو اللائق بمقامه فإن مكان ابن خميس من العلوم غير منكر وقد مدحه ابن خطاب بقوله

" رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضك لي وهاج رسيسي "

" ولمثله يصبو الحليم ويمتري ... ماء الشؤون به وسير العيس "

" لك في البلاغة والبلاغة بعض ما ... تحويه من أثر محل رئيس "

" نظم ونثر لا تبارى فيهما ... عززت ذلك وذا بعلم الطوسي "

يعني أبا حامد الغزالي

ترجمة ابن خميس

وقال لسان الدين ابن الخطيب في عائد الصلة في حق أبي عبد الله محمد ابن خميس التلمساني المذكور ما صورته كان رحمه الله تعالى نسيج وحده زهدا وانقباضا وبأوا وهمة حسن الشيبة جميل الهيئة سليم الصدر قليل التصنع بعيدا عن الرياء عاملا على السياحة والعزلة عارفا بالمعارف القديمة

مضطلعًا بتفاريق النحل قائما على العربية والأصليين طبقة الوقت في الشعر وفحل الأوان في المطول أفدر الناس على اجتلاب الغريب ثم ذكر من أحواله جملة إلى أن قال وبلغ الوزير أبا عبد الله ابن الحكيم أنه يروم السفر فشق ذلك عليه وكلفه تحريك الحديث بحضرته وجرى ذلك فقال الشيخ أنا كالدّم بطبعي أتحرّك في كل ربيع انتهى

وقال ابن خاتمة في مزية المربة على غيرها من البلاد الأندلسية إنه نظم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حليت بها لبات الآفاق وتنفست عنها صدور الرفاق وكان من فحول الشعراء وأعلام البلغاء يصرف العويص ويرتكب مستعصبات القوافي ويطير في الفريض مطار ذي القوادم الباسقة الخوافي حافظا لأشعار العرب وأخبارها وله مشاركة في العقلية واستشراق على الطلب وقعد لإقراء العربية بحضرة غرناطة ومال بأخرة إلى التصوف والتجوال والتجلي بحسن السميت وعدم الاسترسال بعد طي بساط ما فرط له في بلده من الأحوال وكان صنع اليدين حدثي بعض ما لقيت من الشيوخ أنه صنع قدحا من الشمع على أبداع ما يكون في شكله ولطافة جوهره وإتقان صنعته وكتب بدائرة شفته

" وما كنت إلا زهرة في حديقة ... تبسم عني ضاحكات الكمائم "

" فقلبت من طور لطور فما أنا ... أقبل أفواه الملوك الأعظم "

وأهداه خدمة للوزير أبي عبد الله ابن الحكيم

وأنشدنا شيخنا القاضي أبو البركات ابن الحاج وحكى لنا قال أنشدني أبو عبد الله ابن خميس وحكى لي قال لما وقعت على الجزء الذي ألفه ابن سبعين وسماه الفقيرية كتبت على ظهره

" الفقر عندي لفظ ذق معناه ... من رامه ذوي الغايات عناه "

" كم من غبي بعيد عن تصوّره ... أراد كشف معناه فعماه "

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان ابن ليون غير مرة قال سمعت أبا عبد الله ابن خميس ينشد وكان يحسب أنهما له ويقال إنهما لابن الرومي

" رب قوم في منازلهم ... عرر صاروا بها غررا "

" ستر الإحسان ما بهم ... ستري لو زال ما سترا "

ثم قال ابن خاتمة وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضي أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم الحضرمي في جزء سماه الدر النفيس في شعر ابن خميس وعرف به صدره وقدم ابن خميس المربة سنة

ست وسبعمائة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن ابن كماشة من خدام الوزير ابن الحكيم فوسع له في الإيثار والمبرة ويسط له وجه الكرامة طلق الأسرة وبها قال في مدح الوزير المذكور

قصيدته التي أولها

" العشي تعيبا والنوابغ ... عن شكر أنعمك السوابغ "

ووجه بها إليه من المربة وهي طويلة ومنها

" ودسائغ ابن كماشة ... مع كل بازغة وبازغ "

" تأتي بما تهوى النغانغ ... من شهيات اللغانغ "

ومنها

" ما ذاق طعم بلاغة ... من ليس للحوشي ماضع "
ويقال أن الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية فابتدأ منها مطلعها وهو قوله
" لمن المنازل لا يجيب صداها ... محيت معالمها وصم صداها "
وذلك آخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبعمائة ثم لم يزد على ذلك إلي أن توفي رحمه الله
تعالى فكان آخر ما صدر عنه من الشعر وقد أشار معناه إلى منعه وأذن أولاه بحضور أخراه وكانت
وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة وهو ابن نيف
وستين سنة وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم أصابه قاتله بحقده على مخدومه وكان آخر
ماسمع منه " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله " غافر 28 واستفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن
يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه فكان يصيح ويستغيث ابن خميس يطالبني ابن
خميس بضربني ابن خميس يقتلني وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال نعوذ
بالله من الورطات ومواقعات العثرات انتهى ملخصا
وحكى غيره أن بعضهم كتب بعد قوله لمن المنازل لا يجيب صداها ما نصه لابن الحكيم ومن بديع
نظم ابن خميس قوله

" تراجع من دنياك ما أنت تارك ... وتسألها العتبي وها هي فارك "
" تؤمل بعد الترك رجوع وداها ... وشر وداها ما تود الترائك "
" حلا لك منها ما حلا لك في الصبا ... فأنت على حلوائه متهالك "
" تظاهر بالسيلوان عنها تجملا ... فقلبك محزون وتغرك ضاحك "
" تنزهت عنها نخوة لا زهادة ... وشعر عذارى أسود اللون حالك "
وهي طويلة طنانة وفي آخرها يقول
" فلا تدعون غيري لدفع ملامة ... إذا ما دهى من حادث الدهر داهك "
" فما إن لذاك الصوت غيري سامع ... وما إن لبيت المجد بعدي سامك "
" يغص ويشجي نهشل ومجاشع ... بما أورثتني حمير والسكاسك "
" تغارقني الروح التي لست غيرها ... وطيب ثنائي لاصق بي صائك "
" وماذا عسى ترجو لذاتي وأرتجي ... وقد شمطت مني اللحي والأفانك "
" يعود لنا شرح الشباب الذي مضى ... إذا عاد للدنيا عقيل ومالك "

ومما اشتهر من نظمه قوله
" أرق عيني بارق من أثال ... كأنه في جنح ليلى ذبال "
" أثار شوقا في ضمير الحشا ... وعبرتي في صحن خدي أسأل "
" حكى فؤادي فلقا واشتعال ... وجفن عيني أرقا وانهمال "
" جوانح تلفح نيرانها ... وأدمع تنهل مثل العزال "
" قولوا وشاة الحب ما شئتم ... ما لذة الحب سوى أن يقال "
" عذرا للوامي ولا عذر لي ... فزلة العالم ما إن تقال "
" قم نطرد الهم بمشمولة ... تقصر الليل إذا الليل طال "
" وعاطها صفراء ذمية ... تمنعها الذمة من أن تنال "
" كالمسك ريحا واللمى مطعما ... والتبر لونا والهوى في اعتدال "
" عتقها في الدن خمارها ... والبكر لا تعرف غير الحجال "
" لا تتقب المصباح لا واسقني ... على سنا البرق وضوء الهلال "
" فالعيش نوم والردى يقظة ... والمرء ما بينهما كالخيال "
" خذها على تنعيم مسطارها ... بين خوابيها وبين الدوال "
" في روضة باكر وسميها ... أحمل دارين وأنسي أوال "
" كأن فأر المسك مفتوقة ... فيها إذا هبت صبا أو شمال "
" من كف ساجي الطرف ألحاطه ... مفوقات أبدا للنضال "
" من عاذري والكل في عاذر ... من حسن الوجه قبيح الفعال "
" من خلبي الوعد كذابه ... ليان لا يعرف غير المطال "
" كأنه الدهر وأي امرئ ... يبقى على الدهر إذا الدهر حال "
" أما تراني أخذا ناقضا ... عليه ما سوغني من محال "
" ولم أكن قط له عائبا ... كمثل ما عابته قبلي رجال "
" يابى ثراء المال علمي وهل ... يجتمع الضدان علم ومال "

" وتأنف الأرض مقامي بها ... حتى تهاداني ظهور الرجال "

" لولا بنو زيان ما لذ لي العيش ... ولا هانت علي الليال "

" هم خوفوا الدهر وهم خففوا ... على بني الدنيا خطاه الثقال "

" لقيت من عامرهم سيذا ... غمر رداء الحمد جم النوال "

" وكعبة للوجود منصوبة ... يسعى إليها الناس من كل بال "

" حذها أبا زيان من شاعر ... مستملح النزعة عذب المقال "

" يلتقط الألفاظ لقط النوى ... وينظم الألاء نظم اللال "

" مجاريا مهيار في قوله ... ماكنت لولا طمعي في الخيال "

وقصيدة مهيار مطلعها

" ما كنت لولا طمعي في الخيال ... انشد ليلى بين طول الليال "

ومن نظم ابن خميس قوله

" نظرت إليك بمثل عيني جؤذر ... وتبسمت عن مثل سمطي جوهر "

" عن ناصع كالدرا أو كالبرق أو ... كالطلع أو كالأفحوان مؤشر "

" تجري عليه من لهاها نطفة ... بل خمرة لكنها لم تعصر "

" لو لم يكن خمرا سلافا ريقها ... تزري وتلعب بالنهي لم تخطر "

" وكذلك ساجي جفنها لو لم يكن ... فيه مهند لحظها لم يحذر "

" لو عجت طرفك في حديقة خدها ... وأمنت سطوة صدغها المتنمر "

" لرتعت من ذاك الحمى في جنة ... وكرعت من ذاك اللمى في كوثر "

" طرفتك وهنا والنجوم كأنها ... حصاء در في بساط أخضر "

" والركب بين مصعد ومصوب ... والنوم بين مسكن ومنفر "

" بيضا إذا اعتكرت ذوائب شعرها ... سفرت فأزرت بالصباح المسفر "

" سرحت غلائلها فقلت سبيكة ... من فضة أو دمية من مرمر "

" منحتك ما منعك يقظانا فلم ... تخلف مواعدها ولم تتغير "

" وكأنما خافت بغاة وشاتها ... فأتتك من أردافها في عسكر "

" ويجزع ذاك المنحنى أدمانة ... تعطو فتسطو بالهزير القصور "

" وتحية جاءتك في طي الصبا ... أذكى وأعطر من شميم العنبر "

" جرت على وإديك فضل رائها ... فعرفت فيها عرف ذاك الإذخر "

" هاجت بلابل نازح عن إلفه ... متشوق ذاك الحشا متسعر "

" وإذا نسيت ليالي العهد التي ... سلفت لنا فتذكريها تذكري "

" رحنا تغينا ونرشف ثعرها ... والشمس تنظر مثل عين الأخر "

" والروض بين مفوض ومعسجد ... والجو بين ممسك ومعصفر "

وكان السلطان أمير المؤمنين أبو عنان المريني رحمه الله تعالى كثير العناية بنظم ابن خميس وروايته قال رحمه الله تعالى أنشدنا القاضي خطيب حضرتنا العلية أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق بقصر المصاراة يمنه الله قال أنشدنا بلفظه شيخ الأدباء وفحل الشعراء أبو عبد الله ابن خميس لنفسه

" أنبت ولكن بعد طول عتاب ... وفرط لجاج ضاع فيه شبابي "

" وما زلت والعلباء تعني غريمها ... أعلل نفسي دائما بمتاب "

" وهيهات من بعد الشباب وشرخه ... يلذ طعامي أو يسوغ شرابي "

" خدعت بهذا العيش قبل بلائه ... كما يخدع الصادي بلمع سراب "

" تقول هو الشهد المشور جهالة ... وما هو إلا السم شيب بصاب "

" وما صعب الدنيا كبر وتغلب ... ولا ككليب ريء فخل ضراب "

" إذا كعت الأبطال عنها تقدموا ... أعاريب غرا في متون عراب "

" وإن ناب خطب أو تفاقم معضل ... تلقاه منهم كل أصيد ناب "

" تراءت لجساسة مخيلة فرصة ... تأتت له في جينة وذهاب "

" فجاء بها شوهاة تنذر قومها ... بتشبيد أرحام وهدم قباب "

" وكان رغاء السقب في قوم صالح ... حديثا فأنساه رغاء سراب "

" فما تسمع الأذان في عرصاتهم ... سوى نوح ثكلى أو نعيب غراب "

" وسل عروة الرجال عن صدق بأسه ... وعن بيته في جعفر بن كلاب "

" وكانت على الأملاك منه وفادة ... إذا أب منها أب خير مآب "

" يجير على الحيين قيس وخندف ... بفضل يسار أو بفضل خطاب "

" زعامة مرجو النوال مؤمل ... وعزمة مسموع الدعاء مجاب "

" فمر يزجها حواسر ظلعا ... بما حملوها من منى ورغاب "

" إلى فدك والموت أغرب غاية ... وهذا المنى يأتي بكل عجاب "

" تبرض صفو العيش حتى استشفه ... فدا ف له البراض قشب حباب "

" فأصبح في تلك المعاطف نهزه ... لنهب ضباع أو لنهس ذئاب "

" وما سهمه عند النضال بأهزع ... ولا سيفه عند الصراع بناي "

" ولكنها الدنيا تكرر على الفتى ... وإن كان منها في أعز نصاب "

" وعادتها أن لا توسط عندها ... فإما سماء أو تخوم تراب "

" فلا ترج من دنياك ودا وإن يكن ... فما هو إلا مثل ظل سحاب "

" وما الحزم كل الحزم إلا اجتنابها ... فأشقى الوري من تصطفي وتحابي "

" أبيت لها ما دام شخصي أن ترى ... تمر ببابي أو تطور جناي "

" فكم عطلت من أربع وملاعب ... وكم فرقت من أسرة وصحاب "

" وكم عفرت من حاسر ومدجج ... وكم أثلكت من معصر وكعاب "

" إليكم بني الدنيا نصيحة مشفق ... عليكم بصير بالأمور نقاب "

" طويل مراس الدهر جذل مباحك ... عريض مجال الهم حلس ركاب "

" تأتت له الأهوال أدهم سابقا ... وغصت به الأيام أشهب كابي "

" ولا تحسبوا أني على الدهر عاتب ... فأعظم ما بي منه أيسر ما بي "

" وما أسفي إلا شباب خلعتة ... وشيب أبي إلا نصول خضاب "

" وعمر مضى لم أحل منه بطائل ... سوى ما خلا من لوعة وتصابي "

" ليالي شيطاني على الغي قادر ... وأعذب ما عندي أليم عذاب "

" عكسنا قضايانا على حكم عادنا ... وما عكسها عند النهى بصواب "

" على المصطفى المختار أركى تحية ... فتلك التي أعتد يوم حساب "

" فتلك عتادي أو ثناء أصوغه ... كدر سحاب أو كدر سخاب "

ومن مشهور نظم ابن خميس قوله

" عجبا لها أيدوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمر ببالها "

" وأنا الفقير إلى تعلقة ساعة ... منها وتمنعني زكاة جمالها "

" كم زاد عن عيني الكرى متألق ... يبدو ويخفي في خفي مطالها "

" يسمو لها بدر الدجى متضائلا ... كتضاؤل الحسناء في أسمالها "

" وابن السبيل يحيى يقبس نارها ... ليلا فتمنحه عقيلة مالها "

" يعتادني في النوم طيف خيالها ... فتصيني الحاظها بنبالها "

" كم ليلة جادت به فكأنما ... زفت علي ذكاء وقت زوالها "

" أسرى فعملها وعطل شهيقها ... بأبي شذا المعطار من معطالها "

" وسواد طرته كجنح ظلامها ... وبياض غرته كضوء هلالها "

" دعني أشم بالوهم أدنى لمعة ... من ثغرها وأشم مسكة خالها "

" ما راد طرفي في حديقة خدها ... إلا لقنته بحسن دلالتها "

" أنسيب شعري رق مثل نسيمها ... فشمول راحك مثل ربح شمالها "

" وانقل أحاديث الهوى واشرح غريب ... لغاتها واذكر ثقات رجالها "

" وإذا مررت برامة فتوق من ... أطلاتها وتمش في أطلالها "

" وأنصب لمغزلها حباله قانص ... ودع الكرى شركا لصيد غزالها "

" وأسل جداولها بغيض دموعها ... وانضح جوانحها بفضل سجالها "

" أنا من بقية معشر عركتهم ... هذي النوى عرك الرحي بثقالها "

" أكرم بها فئة أريق نجيعها ... بغيا فراق العين حسن مالها "

" حلت مدامة وصلها وحلت لهم ... فإن انتشوا فبحلوها وحلالها "

" بلغت بهرمس غاية ما نالها ... أحد وناء لها لبعدها منالها "

" وعدت على سقراط سورة كأسها ... فهريق ما في الدن من جريالها "

" وسرت إلى فاراب منها نفحة ... قديسة جاءت بنخبة آلهها "

" ليصوغ من ألعانه في حانها ... ما سوغ القسيس من أرمالها "
 " وتغلغت في سهرورد فأسهرت ... عينا يؤرقها طروق خيالها "
 " فخبأ شهاب الدين لما أشرقت ... وخوى فلم يثبت لنور جلالها "
 " ما جن مثل جنونه أحد ولا ... سمحت يد بيضا بمثل نوالها "
 " وبدت على الشوذي منها نشوة ... ما لاح منها غير لمعة ألها "
 " بطلت حقيقته وحالت حاله ... فيمايعبر عن حقيقة حالها "
 " هذي صابنهم ترق صباة ... فيروق شاربها صفاء زلالها "
 وهي طويلة

قال السلطان أبو عنان رحمه الله تعالى أخبرني شيخنا الإمام العالم العلامة
 وحيد زمانه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي رحمه الله تعالى قال لما توجه الشيخ الصالح
 الشهير أبو إسحاق التنسي من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هنالك بقاضي القضاة تقي
 الدين بن دقيق العيد فكان من قوله له كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله ابن خميس وجعل
 يحليه بأحسن الأوصاف ويطنب في ذكر فضله فبقي الشيخ أبو إسحاق متعجبا وقال من يكون هذا
 الذي حليتموه بهذا الحلبي ولا أعرفه ببلده فقال له هو القائل
 " ... عجا لها أيدوق طعم وصالها "

قال فقلت له إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم إنما هو عندنا شاعر فقط فقال له
 إنكم لم تنصفوه وإنه لتحقيق بما وصفناه به
 قال السلطان وأخبرنا شيخنا الأبلي المذكور أن قاضي القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة
 المذكورة بخزانة كانت له تعلق موضع جلوسه للمطالعة وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأملها
 والنظر فيها ولقد تعرفت أنه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضي القضاة تقي الدين المذكور لم
 يقرأها حتى قام إجلالا لها انتهى

وكان ابن خميس رحمه الله تعالى بعد مفارقة بلده تلمسان سقى الله أرجاءها أنواء نيسان كثيرا ما
 يتشوق لمشاهدها ويتأوه من تذكره لمعاهدها وينشد القصائد الطنانة في ذلك سالكا من الحنين
 إليها المسالك فمن ذلك قوله

" تلمسان لو أن الزمان بها يسخو ... منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ "
 " وداري بها الأولى التي حيل دونها ... مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ "
 " وعهدي بها والعمر في عنفوانه ... وماء شبابي لا آجين ولا مطخ "
 " قرارة تهيام ومغنى صباة ... ومعهد أنس لا يلذ به لطح "
 " إذ الدهر مثني العنان منهنه ... ولا ردع يثني من عناني ولا ردخ "
 " ليالي لا أصغي إلى عذل عاذل ... كأن وقوع العذل في أذني صمخ "
 " معاهد أنس عطلت فكأنها ... ظواهر ألفاظ تعمدتها النسخ "
 " وأربع آلاف عفا بعض أيها ... كما كان يعرو بعض الواحنا اللطح "
 " فمن يك سكرانا من الوجد مرة ... فإنني منه طول دهري لملتخ "
 " ومن يقتدح زندا لموقد جذوة ... فزند اشتياقي لا عفار ولا مرخ "
 " أنسى وقوفي لاهيا في عراضها ... ولا شاغل إلا التودع والسبخ "
 " وإلا اختيالي ماشيا في سماطها ... رخيا كما يمشي بطرته الرخ "
 " وإلا فعدوي مثلما ينفر الطلا ... وليدا وحجلي مثلما ينهض الفرخ "
 " كاني فيها أردشير بن بابك ... ولا ملك لي إلا الشبيبة والشرخ "
 " وإخوان صدق من لداتي كأنهم ... جآذر رمل لا عجاف ولا بزخ "
 " وعاة لما يلقى إليهم من الهدى ... وعن كل فحشاء ومنكرة صلخ "
 " هم القوم كل القوم سيان في العلا ... شبابهم الفرعان والشيخة السلخ "
 " مضوا ومضى ذاك الزمان وأنسه "
 " ومير الصبا والمال والأهل والبذخ "
 " كأن لم يكن يوما لأقلامهم بها ... صرير ولم يسمع لأكعبهم جبخ "
 " ولم يكن في أرواحها من ثنائهم ... شميم ولا في القضب من لينهم ملخ "
 " ولا في محيا الشمس من هديهم سنا ... ولا في جبين البدر من طيبهم ضمخ "
 " سعيتهم بني عمور في شت شملنا ... فما تجركرم ربح ولا عيشنا ريخ "
 " دعيتهم إلى ما يرتجى من صلاحكم ... فردكم عنه التعجرف والجمخ "

" تعاليتم عجا فطم عليكم ... عباب له في رأس عليائكم جليخ "

 " وأوغلتم في العجب حتى هلكتم ... جماح غواة ما ينهنهم قفخ "

 " كفاكم بها سجننا طويلا وإن يكن ... هلاك لكم فيها فهى لكم فح "

 " فكم فنة منا ظفرتم بنيلها ... بأبشارها من حجن أظفاركم برخ "

 " كأنكم من خلفها وأمامها ... أسود غياض وهى ما بينكم أرخ "

 " فللسوق منها القيد إن هى أغريت ... وللهام إن لم تعط ما رعت النقخ "

 " كأن تحتها من شدة القلق القطا ... ومن فوقها من شدة الحذر الفتخ "

 " وأقرب ما تهذي به الهلك والتوى ... وأيسر ما تشكو به الذل والفتخ "

 " فماذا عسى نرجوه من لم شعئها ... وقد حز منها الفرع واقتلع الشلخ "

 " وما يطمع الراجون من حفظ أيها ... وقد عصفت فيها رياحهم النبخ "

 " زعانف أنكاد لثام عناكل ... متى قبضوا كفا على إثره طخوا "

 " ولما استقلوا من مهاوي ضلالهم وأوموا إلى أعلام رشدهم زخوا "

 " دعاهم أبو يعقوب للشرف الذي ... يذل له رضوى ويعنو له دمخ "

 " فلم يستجيبوه فذاقوا وبالهم ... وما لامرء عن أمر خالقه نخ "

 " وما زلت أدعو للخروج عليهم ... وقد يسمع الصم الدعاء إذا أصخوا "

 " وأبذل في استئصالهم جهد طاقتي ... وما لظنايب ابن سابعة قفخ "

 " تركت لمينا سببة كل نجعة ... كما تركت للعز أهضامها شمش "

 " وأليت أن لا أرتوي غير مائها ... ولو حل لي في غيره المن والمذخ "

 " وأن لا أحط الدهر إلا بعقرها ... ولو بوأتني دار إمرتها بلخ "

 " فكم نعتت من غلة تلكم الأضا ... وكم أبرأت من علة تلكم اللبخ "

 " وحسبي منها عدلها واعتدالها ... وأبحرها العظمى وأربافها النفخ "

 " وأملاكها الصيد المقاوله الألى ... لعزهم نعنو الطراخمة البلخ "

 " كواكب هدي في سماء رياسة ... تضيء فما يدجو ضلال ولا يطخو "

 " ثواقب أنوار ترى كل غامض ... إذا الناس في طخياء غيهم التخوا "

 " وروضات آداب إذا ما تآرجت ... تضائل في أفياء أفنانها الرمخ "

 " مجامر ند في حدائق نرجس ... تنم ولا لفح يصيب ولا دخ "

 " وأبحر علم لا حياض رواية ... فيكبر منها النضح أو يعظم النضخ "

 " بنو العزفيين الألى من صدورهم ... وأيديهم تملأ القراطيس والطرخ "

 " إذا ما فتى منهم تصدى لغاية ... تأخر من ينحو وأقصر من ينخو "

 " رياسة أخيار ومملك أفاضل ... كرام لهم في كل صالحه رضخ "

 " إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا ... علينا وإن حلت بنا شدة رخوا "

 " نزورهم حذا نحافا فنثنى ... وأجمالنا دلح وأبداننا دلخ "

 " يربوننا بالعلم والحلم والنهى ... فما خرجنا بز ولا حدنا برخ "

 " وما الزهد في أملاك لخم ولا التقى ... بيدع وللدنيا لزوق بمن يرخو "

 " وإلا ففي رب الخورنق غنية ... فما يومه سر ولا صيته رضخ "

 " تطلع يوما والسدير أمامه ... وقد نال منه العجب ما شاء والجفخ "

 " وعن له من شيعه الحق قائم ... بحجة صدق لا عيام ولا وشخ "

 " فأصبح يجتاب المسوح زهاده ... وقد كان يؤذي بطن أخمصه النخ "

 " وفي واحد الدنيا أبى حاتم لنا ... دواء ولكن ما لأدوائنا نتخ "

 " تخلى عن الدنيا تخلي عارف ... يرى أنها في ثوب نخوته لتخ "

 " وأعرض عنها مستهينا لقدرها ... فلم يثنه عنها اجتذاب ولا مضخ "

 " فكان له من قلبها الحب والهوى ... وكان لها من كفه الطرح والطح "

 " وما معرض عنها وهى في طلابه ... كمن في يديه من معاناتها نبخ "

 " ولا مدرك ما شاء من شهواتها ... كمن حظه منها التمجع والنجخ "

 " ولكننا نعمى مرارا عن الهدى ... ونصلح حتى ما لأدائنا صمخ "

 " وما الامرء عما قضى الله مزحل ... ولا لقضاء الله نقض ولا فسخ "

 " أبا طالب لم تبق شيمه سؤدد ... يساد بها إلا وأنت لها سنخ "

 " لسوغت أبناء الزمان أياديا ... لدرتها في كل سامعة شخ "

" وأجريتها فيهم عوائد سؤدد ... فما لهم كسب سواها ولا نخ "

 " غدتهم غواديها فهي في عروقهم ... دماء وفي أعماق أعظمهم مخ "

 " وعمتهم حزنا وسهلا فأصبحوا ... ومرعاهم وزخ ومرعيهم ولخ "

 " بني العزفيين ابلغوا ما أردتم ... فما دون ما تبغون وحل ولا زلخ "

 " ولا تقعدوا عنم أراد سجالكم ... فما غريكم جف ولا غرفكم وضخ "

 " وخلو وراء كل طالب غاية ... وتيهوا على من رام شأوكم وانخوا "

 " ولا تذروا الجوزاء تغلوا عليكم ... ففي رأسها من وطء أسلافكم شدخ "

 " لأفواه أعدائي وأعين حسدي ... إذا جليت خائيتي الغض والفضخ "

 " دعوها تهادي في ملاءة حسننها ... ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ "

 " يمانية زارت يمانين فانتنت ... وقد جد فيها الزهو واستحکم الزمخ "

 " وقد بسط في الإحاطة ترجمة ابن خميس المذكور ومما أنشد له قوله

 " سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء ... فعند صباها من تلمسان أنباء "

 " وفي خفقان البرق منها إشارة ... إليك بما تنمي إليها وإيماء "

 " تمر الليالي ليلة بعد ليلة ... وللأذن إصغاء وللعين إكلاء "

 " وإنني لأصبو للصبيا كلما سرت ... وللنجم مهما كان للنجم إصباء "

 " وأهدي إليها كل يوم تحية ... وفي رد إهداء التحية إهداء "

 " وأستجلب النوم الغرار ومضجعي ... فتاد كما شاءت نواها وسلاء "

 " لعل خيالا من لذنها يمر بي ... ففي مره بي من جوى الشوق إبراء "

 " وكيف خلوص الطيف منها ودونها ... عيون لها في كل طالعة راء "

 " وإنني لمشتاق إليها ومنبىء ... ببعض اشتياقي لو تمكن إنباء "

 " وكم قائل تغنى عراما بحبها ... وقد أخلقت منها ملاء وأملاء "

 " لعشرة أعوام عليها تجرمت ... إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء "

 " يطنب فيها عائثون وخراب ... ويرحل عنها قاطنون وأحياء "

 " كأن رماح الناهيين لملكها ... قداح وأموال المنازل أبداء "

 " فلا تبغين فيها مناخا لراكب ... فقد قلصت منها ظلال وأفياء "

 " ومن عجب أن طال سقمي ونزعها ... وقسم إضناء علينا وإطناء "

 " وكم أرحفوا غيظا بها ثم أرحاوا ... فيكذب إرحاف ويصدق إرجاء "

 " يرددها عيابها الدهر مثلما ... يردد حرف الغاء في النطق فافاء "

 " فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ... ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء "

 " وهل للظى الحرب التي فيك تلتطي ... إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء "

 " وهل لي زمان أرتجي فيه عودة ... إليك ووجه البشر أزهو وضاء "

 ومنها

 " أحن لها ما أطلت النيب حولها ... وما عاقها من مورد الماء أظماء "

 " فما فاتها مني نزع على النوى ... ولا فاتني منها علي القرب إحشاء "

 " كذلك جدي في صحابي وأسرتي ... ومن لي به في أهل ودي إن فأؤوا "

 " ولولا جوار ابن الحكيم محمد ... لما فات نفسي من بني الدهر إقماء "

 " حماني فلم تنتب محلي نواب ... بسوء ولم ترزأ فؤادي أرزاء "

 " وأكفا بيتي في كفالة جاهة ... فصاروا عبيدا لي وهم لي أكفاء "

 " يؤمون قصدي طاعة ومحبة ... فما عفته عافوا وما شئته شأؤوا "

 " دعاني إلى المجد الذي كنت أملا ... فلم يك لي عن دعوة المجد إبطاء "

 " وبوأي من هضبة العز تلة ... يناجي السها منها صعود وطأطاء "

 " يشيعني منها إذا سرت حافظ ... ويكلؤني منها إذا نمت كلاء "

 " ولا مثل نومي في كفالة غيره ... وللدئب إمام وللصل إيماء "

 " بغيضة ليث أو بمرقب خالب ... تبز كسا فيه وتقطع أكساء "

 " إذا كان لي من نائب الملك كافل ... ففي حيثما هومت كن وإدفاء "

 " وإخوان صدق من صنائع جاهه ... يبادرنى منهم قيام وإيلاء "

 " سراع لما يرحى من الخير عندهم ... ومن كل ما يخشى من الشر أبراء "

 " إليك أبا عبد الإله صنعتها ... لزومية فيها لوجدي إفشاء "

" مبرأة مما يعيب لزومها ... إذا عاب إكفاء سواها وإيطاء "
 " أذعت بها السر الذي كان قبلها ... عليه لأحناء الجوانح إضناء "
 " وإن لم يكن كل الذي كنت أملا ... وأعوز إكلاء فما عاز إكماء "
 " ومن يتكلف مفحما شكر منة ... فما لي إلى ذاك التكلف إلجاء "
 " إذا منشد لم يكن عنك ومنشئ ... فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء "
 رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفوائده

قال الشاطبي حدثنا الأستاذ الكبير أبو عبد الله ابن الفخار قال جلس بعض الطلبة إلى بعض الشيوخ المقرئين فأتى المقرئ بمسألة الزوائد الأربع في أول الفعل المضارع وقال يجمعها قولك نأيت فقال له ذلك الطالب لو جمعتها بقولك أنبت لكان أملح ليكون كل حرف تضعيف ما قبله فالهمزة لواحد وهو المتكلم والنون لاثنتين وهما الواحد ومعه غيره والواحد المعظم نفسه والياء لأربعة للواحد الغائب وللغائبين وللغائبات والتاء لثمانية للمخاطب وللمخاطبين وللمخاطبين والمخاطبة والمخاطبتين والمخاطبات وللغائبة وللغائبتين فاستحسن الشيخ ذلك منه

وحكى الشاطبي أيضا أن شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالاً وهو كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختياراً وبين قوله " ... جرى المدميان بالخبر اليقين "

فلم ينقدح لنا شيء فقال الجواب أن الأول ممنوع عند الفقهاء شرعاً ورد اللام في دم في التثنية ممنوع عند النحاة قياساً وكلاهما في حكم المعدوم حساً وإذا كان كذلك كان الأول بمنزلة من صلى بادي العورة اختياراً فتلزمه الإعادة وكان الثاني بمنزلة ما باشر فيه عين دم علم التثنية فتلزمه الفتحة وإن كان أصلها السكون قال وهذه المسألة تشبه مسألة ابن جنبي في الخصائص قال أقيت يوماً على بعض من كان يعتادني مسألة فقلت له كيف تجمع بين قوله " لدن بهز الكف يعسل منته ... فيه كما عسل الطريق الثعلب "

وبين قوله اختصر زيد وعمرو فلم ينقدح فيها شيء وعاد مستفهما فقال له اجتماعهما أن الواو اقتصر به على بعض ما وضع له من الصلاحية الملازمة مطلقاً والطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له

قال الشاطبي وحدثني أيضا قال كان لقاضي القضاة علماً وجزالة أبي جعفر ولد يقرأ علي بمالقة وكان ابناً نبياً فهما ونبلاً فسأل مني يوماً مسألة يذكرها لأقرانه وكان معجبا بالغرائب فجرى علي لساني أن قلت له بين علي زيد فعل أمر وفاعل والأصل أبين علي زيد ثم سهل بالنقل والحذف علي قياس التسهيل فصار بين كما ترى فأعجب بالمسألة حتى ناظر فيها ليلة أباه وكان انحنى نحاة أهل عصره فأعجب مما يرى من ابنه من النبل والتحصيل فبلغت المسألة الشيخ الأستاذ أبا بكر ابن الفخار رحمه الله تعالى فاعتنى بها وحاول في استخراج وجه من وجوه الاعتراض على عادة المصلحين من طلبة العلم فوجد في مختصر العين أن الكلمة من ذوات الواو ولم يذكر صاحب المختصر غير ذلك ولم يكن رحمه الله تعالى رأى قول أبي الحسن اللحياني في نوادره إنه مما يتعاقب علي لامة الواو والياء فيقال بأي يباي أبواً وبأيا كما يقال شأى يشأى شأواً وشأياً فلم يقدم شيئاً علي أن اجتمع بالقاضي المذكور فقال له ألم تسمع ما قال فلان بين علي زيد وإنما هو بون علي زيد لأنه من ذوات الواو ونص على ذلك صاحب المختصر وحمله على أن يرسل إلي ويردني عن ذلك الذي قلته في المسألة واجتمعت أنا معه وحدثني بما جرى له مع الأستاذ ابن الفخار فذكرت له ما حكاه أبو الحسن اللحياني في نوادره وما قاله ابن جنبي في سر الصناعة فسر بذلك وأرسل بعد إلى الأستاذ ابن الفخار وذكر له نص اللحياني وقول ابن جنبي وجمع القاضي بيننا وعقد في قلوبنا مودة فكان الأستاذ ابن الفخار يومئذ يقصدني في منزلي وفي المواسم ويستشيرني في أموره على سبيل التأنيس رحمة الله عليه فأواه على فقد الناس أمثاله

وقال الشاطبي أيضا أنشدني الفقيه الأستاذ الكبير أبو عبد الله ابن الفخار رحمه الله تعالى وقال ألقى في سري بيت لم أسمع قط في السادس عشر من شهر رجب عام ستة وخمسين وسبعمئة

" لتكن راجياً كما أنت ترجو ... ولأرأى من الذي أنت راجي "

قال الشاطبي وقرر لنا الأستاذ ابن الفخار المذكور يوماً توجيه قول أبي الحسن الأخفش في كسرة الذال من نحو يومئذ إنها إعرابية لا بنائية إذ لم يذكر أحد وجه هذا المذهب قبل قال ابن جنبي إن

الفارسي اعتذر له بما يكاد يكون عذرا فلما تم التوجيه قلت له وانا حينئذ صغير السن هب أن الأمر على ما قاله الأخفش من أن الكسرة إعرابية فما يصنع ببناء الزمان المضاف إلى إذ في أحد الوجهين والإضافة إلى المفرد المعرب تقتضي الإعراب دون البناء فتعجب من صدور هذا السؤال مني لصغر سني وأجاب عنه بأنه قد يذهب السبب ويبقى حكمه كما قاله ابن جني في اسم الإشارة في ترجمة سيبويه هذا علم ما الكلم من العربية على أن يكون سيبويه وضعه غير مشير به وتركه مبنيا وأزال سبب البناء ونظر ذلك باب التسوية على ما هو مقرر في موضعه قال ونظير ذلك ما قرر من إضافة حيث إلى المفرد مع بقاء البناء فيما ذكره الزمخشري وذلك قوله " ... أما ترى حيث سهيل طالعا "

وقوله أنشدنا ابن الأعرابي لبعض المحدثين " ونحن سعينا بالبلايا لمعقل ... وقد كان منكم حيث لي العمائم " وقد كان حقها أن تعرب لزوال سبب البناء وهو الإضافة إلى جملة وحصول سبب الإعراب وهو الإضافة إلى المفرد ولكنه لم يعتبر النادر وأبقى الحكم الشائع وقال الشاطبي أيضا كان شيخنا ابن الفخار يأمرنا بالوقف على قوله تعالى في سورة البقرة " قالوا الآن " ونبئديء " جئت بالحق " وكان يفسر لنا معنى ذلك قولهم الآن أي فهمنا وحصل البيان ثم قيل جئت بالحق يعني في كل مرة وعلى كل حال وكان رحمه الله تعالى يرى هذا الوجه أولى من تفسير ابن عصفور له من أنه على حذف الصفة أي بالحق البين وكان يحافظ عليه وقال الشاطبي أنشدني صاحبنا الفقيه الأجل الأديب البارع أبو محمد ابن حذلم لنفسه أبياتا أنشدنيها يوم عيد على قبر سيدنا الإمام الأستاذ الكبير الشهير أبي عبد الله بن الفخار يرثيه بها " أيا جدنا قد أحرز الشرف المحضا ... بأن صار مثوى السيد العالم الأرضي " " عجبت لما أحرزته من معارف ... وشتى معال لم تزل تعمر الأرضا " " طويت عليه وهو عين زمانه ... فيا جفن عين الدهر كم تؤثر الغمضا " " فحيك من صوب الحيا كل ديمة ... تديم له في الجنة الرفع والخفضا " " فها نحن في عيد الأسى حول قبره ... وقوفا لنقضي من عيادته الفرضا " " كمثل الذي كنا وقوفا ببابه ... بعيد الأمانى زائرين له أيضا " " ومنا سلام لا يزال يخصه ... يذكره من بعض أشواقنا البعض " ترجمة ابن حذلم

قلت وابن حذلم المذكور له باع مديد في العلم والأدب وهو أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن حذلم ومن نظمه قوله " أبت المعارف أن تنال براحة ... إلا براحة ساعد الجد " " فإذا ظفرت بها فلست بمدرك ... أربا بغير مساعد الجد " وقوله رحمه الله " كم من صديق حال في وده ... ولم أزل أزويه عن محضه " " حضوره عين على وده ... وغيبه عين على بغضه " " ولم أكن أجهل هذا ولا ... عجزت أن أجري على قرضه " " لكن من قد سرني بعرضه ... أحب أن أصفح عن بعرضه " وقوله رحمه الله يوم عيد وهو مما ألهج به أنا كثيرا " يقولون لي خل عنك الأسى ... ولذ بالسرور فذا يوم عيد " " فقلت لهم والأسى غالب ... ووجدني يحيى وشوقي يزيد " " توعدني مالكي بالفراق ... فكيف أسر وعيدي وعيد " وقوله رحمه الله " حبيب زارني في الليل سرا ... فأحيا نفس مشتاق إليه " " وعللني بنشر المسك منه ... وحياني بصفحة وجنتيه " " وعانقني عناق الود صفحا ... وفارقتني فيا لهفي عليه " رجع وتوفي الأستاذ سيبويه زمانه أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار أستاذ الجماعة بقرنطة ليلة الإثنين ثاني عشر رجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة رحمه الله تعالى رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى ومنهم الأستاذ ابن العواد قال في الإحاطة قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيح وحده - 13

في تحمل المنزل حق حمله تقوى وصلاحا وخصوصية وإتقاناً ونغمة وعناية وحفظاً وتبحراً في هذا الفن

واضطلاعاً بغرائبه واستيعاباً لسقطات الأعلام الأستاذ الصالح أبي عبد الله ابن عبد الولي العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويداً على مقراً أبي عمرو ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ومطية الفنون ومفيد الطلبة الشيخ الخطيب المتفنن أبي الحسن على القيجاطي فقرأت عليه القرآن والعربية وهو أول من انتفعت به انتهى

ومن أشياخه رحمه الله الشيخ العلامة أبو عبد الله ابن بيبش وله رحمه الله تعالى نظم جيد - 14
فمنه قوله ملغزا في مسطرة الكتابة

" ومقصورة خلف الحجاب وسرها ... مضاع فما يلقاك من دونها ستر "

" لها جثة بيضاء أسبل فوقها ... ذوائب زانتها وليس لها شعر "

" إذا ألبست مثل الصباح وبرقعت ... رأيت سواد الليل لم يمحه الفجر "

" عقيلة صون لا يفرق شملها ... سوى من أهمته الخطابة والشعر "

وقوله في ترتيب حروف الصحاح

" أساجعة بالواديين تبوئي ... ثمارا جنتها حاليات خواضب "

" دعني ذكر روض زاره سقي شربه ... صباح ضحى طير ظماء عواصب "

" غرام فؤادي قاذف كل ليلة ... متى ما نأى وهنا هدها يراقب "

وله جواب عن البيتين المشهورين

" يا ساكنا قلبي المعنى ... وليس فيه سواك ثاني "

" لأي معنى كسرت قلبي ... وما التقى فيه ساكنان "

فقال

" نحلتنني طائعا فؤادا ... فصار إذ حزته مكاني "

" لا غرو إذ كان لي مضافا ... أني على الكسر فيه باني "

وقد ذكرت ذلك في غير هذا الموضوع مع زيادة بلفظ لسان الدين فليراجع في الباب الخامس من هذا الكتاب

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبو عبد الله ابن بكر - 15
قال في الإحاطة وقرأت على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله تعالى انتهى

وقاضي الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضي القضاة عند المشاركة فليعلم ذلك وابن بكر المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن بكر بن سعيد الأشعري المالقي من ذرية أبي موسى الأشعري كان من صدور العلماء وأعلام الفضلاء سذاجة ونزاهة ومعرفة وتفننا فسيح الدرس أصيل النظر واضح المذهب مؤثرا للإنصاف عارفا بالأحكام والقراءة مبرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً وتعديلاً وجرحاً حافظاً للأنساب والأسماء والكنى قائماً على العربية مشاركا في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب مخفوض الجناح حسن الخلق عطوفاً على الطلبة محباً في العلم والعلماء مطرحاً للتصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم تقدم ببلده مالقة ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة وترك الشوائب وأنفذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً

للأوقات حريصاً على الإفادة ثم ولي القضاء بقرنطة المحروسة سنة 737 فقام بالوظائف وصدع بالحق وبهرج الشهود فزيف منهم ما ينيف على سبعين واستهدف بذلك إلى معاداة ومناضلة خاض ثبحها وصادم تبارها غير مبال بالمغبة ولا حافل بالتبعة فناله لذلك من المشقة والكيد العظيم ما ناله مثله حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً ولا يطمئن على حاله وجرت له في ذلك حكايات إلى أن عزم عليه الأمير أن يرد للعدالة بعض من أخره فلم يجد في قناته معجزاً ولا في عوده معجماً وتصدر لبت العلم بالحضرة يقرى فنونا جملة فنقع وخرج وأقرأ القرآن ودرس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على انشراح صدر وحفظ تجمل وخفض جناح قال القاضي ابن الحسن إنه كان صاحب عزم ومضاء وحكم صادق وقضاء أحرق قلوب الحسدة وأعز الخطة بإزالة الشوائب وذهب وفضي الحق بمعارفه ونفذ في المشكلات وثبت في المعضلات واحتج وبكت وتفقه ونكت وحدثنا صاحبنا أبو جعفر الشقوري قال كنت جالسا بمجلس حكمه فرفعت إليه امرأة رقعة مضمنها أنها محبة في مطلقها وتبتغي الشفاعة لها في ردها فتناول الرقعة ووقع على ظهرها بلا مهلة الحمد لله من وقف على ما بالقلوب فليصخ لسماعه إصاخة مغيث وليشفع للمرأة عند زوجها تأسيا بشفاعة الرسول لبريرة في مغيث والله يسلم لنا العقل والدين

وبسلك بنا سبيل المهتدين والسلام من كاتبه
قال الشقوري قال لي بعض الأصحاب هلا كان هو الشفيغ لها فقلت الصحيح أن الحاكم لا ينبغي أن
يباشر ذلك بنفسه على المنصوص

قرأ ابن بكر المذكور على الأستاذ ابن أبي السداد الباهي القرآن جمعا وإفرادا والعربية والحديث
ولازمه وتآدب به وعلى الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن عياش كثيرا من كتب الحديث وسمع عليه
جميع صحيح مسلم إلا دولة واحدة وأخذ عن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير والخطيب ابن رشيد
والولي الصالح أبي الحسين ابن فضيلة والأستاذ أبي عبد الله ابن الكماد وأجازة العدل الراوية أبو
فارس عبد العزيز بن الهواري وأبو إسحاق التلمساني ومن أهل إفريقية المعمر أبو محمد ابن هارون
ومحمد بن سيد الناس ومن أهل مصر الشرف الدمياطي وجماعة من أهل الشام والحجاز فقد
رحمه الله تعالى في المصاف يوم المناجزة بطريف زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها وأشار عليه بعض
المنهزمين بالركوب فلم يقدر وقال له انصرف هذا يوم الفرح إشارة لقوله تعالى " فرحين بما آتاهم
الله من فضله " آل عمران 170 وذلك ضحى يوم الإثنين 7 جمادى الأولى سنة 741 رحمه الله تعالى
ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ أبو إسحاق ابن أبي يحيى - 16
الشهير الذكر في المغرب وقد عرف به في الإحاطة في اسم إبراهيم من ترجمة الغراء بما نصه
إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي من أهل تازي يكنى أبا سالم ويعرف بابن أبي يحيى
حاله من الكتاب المؤتمن كان هذا الرجل قيما على التهذيب ورسالة ابن أبي زيد حسن الإقراء لهما
وله عليهما تقييدان نبيلان قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير حضرت مجالسه
بمدرسة عدوة الأندلس من فاس ولم أر في متصدي بلده أحسن تدريسا منه كان فصيح اللسان
سهل الألفاظ موفيا حقوقها وذلك لمشاركته الحضر فيما بأيديهم من الأدوات وكان مجلسه وقفا
على التهذيب والرسالة وكان مع ذلك سمحا فاضلا حسن اللقاء على خلق بائنة على أخلاق أهل
مصره امتحن بصحبة السلطان فصار يستعمله في الرسائل فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعا
لا في راحة دنيا ولا في نصب آخرة ثم قال وهذه سنة الله فيمن خدم الملوك ملتفتا إلى ما يعطونه
لا إلى ما يأخذون من عمره وراحته أن يبوء بالصفقة الخاسرة لطف الله بمن ابتلى بذلك وخلصنا
خلاصا جميلا

ومن كتاب عائد الصلة الشيخ الفقيه الحافظ القاضي من صدور المغرب مشاركة في العلم وتبحرا
في الفقه كان وحيها عند الملوك صحبهم وحضر مجالسهم واستعمل في السفارة فلقيناه بقرناتة
وأخذنا بها عنه تام السراوة حسن العهد مليح المجالس أنيق المحاضرة كريم الطبع صحيح المذهب
تصانيفه قيد على المدونة بمجلس شيخه أبي الحسن كتابا مفيدا وضم أجوبته على المسائل في
سفر وشرح كتابه الرسالة شرحا عظيم الإفادة

مشيخته لازم أبا الحسن الصغير وهو كان قارئ كتب الفقه عليه وجل انتفاعه في التفقه به وروى
عن أبي زكريا ابن يس قرأ عليه كتاب
الموطأ إلا كتاب المكاتب وكتاب المدبر فإنه سمعه بقراءة الغير وعن أبي عبد الله ابن رشيد قرأ عليه
الموطأ وشفاء عياض وعن أبي الحسن ابن عبد الجليل السدراتي قرأ عليه الأحكام الصغرى لعبد
الحق وأبي الحسن ابن سليمان قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد وعن غيرهم
وفاته فلج بأخرة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان ومن دونه وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين
وسبعمائة انتهى

وقال ابن الخطيب القسطيني إن ابن أبي يحيى المذكور توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة
انتهى

ومن أشياخ لسان الدين الطنجالي الهاشمي وهو محمد بن أحمد قال في عائد الصلة كان - 17
على سنن سلفه كثرة حياء وسمة صلاح وشدة انقباض وإفراط وقار وحشمة بذ الكهولة على
حدائة سنه في باب الورع والدين والإغراق في الصلاح والخير وتقدم خطيبا ثم قاضيا ببلده فأظهر
من النزاهة والعدالة ما يناسب منصبه ففرغ الناس إليه في كائنة الوباء العظيم بأموالهم وقلدوه
عهود صدقاتهم فاستقر في يده من المال الصامت والحلى والذخيرة والعدة ما تضيق بيوت أموال
الملك عنه وصرف ذلك مصارفه ووضع وفق عهوده فلم يتلبس منه بنفير ولا قطمير وكان مدركا
أصيل الرأي قائما على الفرائض والحساب ثم تخرج وطلب الإعفاء فأسعف به على حال ضنانه وفي
ذلك يقول قريبه صاحبنا الفقيه القاضي أبو الحسن ابن الحسن يخاطبه
" لك الله يا بدر السماحة والبشر ... رفعت بأعلى رتبة راية الفخر "
" ولا سيما لما وليت أمورها ... فرويتها من عذب نائلك الغمر "

" ودارت قضاياها عليك بأسرها ... على حين لا بر يعين على بر "

" فقامت بها خير القيام مصمما ... علي الحق تصميم المهنדה البتر "

" فسر بك الإسلام يا ابن حمامة ... وأمست بك الأيام باسمه الثغر "

" تعيد عليك الحمد السن حالها ... وتتلو لما يرضيك من سور الشكر "

" لذاك أمير المسلمين بعدله ... أقامك تقضي الزمان على جبر "

" فأحييت رسم العلم بعد مماته ... وغادرت وجه الحكم أسنى من البدر "

" ولكنك استعفيت عنه تورعا ... وتلك سبيل الصالحين كما تدري "

" فكم من ولي فر عنه لعلمه ... به كأبي الحجاج جدك من ذخر "

" فزاد اتصالا عزة باجتنابه ... له وسما قدرا على فنة النسر "

" جريت على نهج السلامة في الذي ... تبعته له فأبشر بأمنك في الحشر "

" وأرضاك مولاي الإمام بفضله ... وأعفاك إعفاء الكرامة والبر "

" فانت على الحاليين أفضل من قضى ... وأشرف من يعفي إلى آخر الدهر "

" لما حزت من شتى المعالي التي بها ... تحليت عن أسلافك السادة الغر "

" صدور مقامات المعارف كلها ... بحور النوال الجم في اليسر والعسر "

" هم النفر الأعلون من آل هاشم ... وناهيك من مجد أثيل ومن فخر "

وهي طويلة انتهى

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الخطيب الرئيس سيدي أبو عبد الله - 18
ابن مرزوق ولنلخص ترجمته من الإحاطة وغيرها
فبقول هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني يكنى
أبا عبد الله ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين
قال أبو الحسن علي بن لسان الدين ابن الخطيب في حقه سيدي وسند أبي فخر المغرب وبركة
الدول وعلم الأعلام ومستخدم السيوف والأقلام ومولى أهل المغرب على الإطلاق أبواه الله تعالى
وأمتع بحياته وأعانني على ما يجب في حقه قال تربيته وولده علي ابن المؤلف انتهى يعني ابن
الخطيب

وقال لسان الدين هذا الرجل من طرف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة مليح التوسل حسن اللقاء
مبذول البشر كثير التودد نظيف البزة لطيف التاني البيت طلق الوجه خلوب اللسان طيب الحديث
مقدر الألفاظ بالأبواب درب على صحبة الملوك والأشراف متفاض لإيثار السلاطين والأمراء يسحرهم
بخلاصة لفظه ويفتلهم في الذروة والغارب بتنزله ويهتدي إلى أغراضهم الكميته بحذقه ويصطنع
غاشيتهم بتلطفه ممزوج الدعاية بالوقار والفكاهة بالنسك والحشمة بالبسط عظيم لأهل وده
والتعصب لإخوانه ألف مألوف كثير الأتباع والعلق مسخر الرقاع في سبيل الوساطة مجدي الجاه
غاص المنزل بالطلبة منقاد للدعوة بارع الخط أنيقه عذب التلاوة متسع الرواية مشارك في فنون من
أصول وفروع وتفسير يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف فلا يعدو السداد في ذلك منبر غير جزوع ولا هيب
رحل إلى المشرق في كنف حشمة جناب والده رحمه الله تعالى فحج وجاور ولقي الجلة ثم فارقه
وقد عرف بالمشرق حقه وصرف وجهه إلى المغرب فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره
اشتمالا خلطه بنفسه وجعله مفضي سره وإمام جمعه وخطيب منبره وأمين رسالته فقدم في
غرضها على الأندلس أواخر عام ثمانية وأربعين

وسبعمئة ولما حالت بالأمير المذكور الحال استقر بالأندلس مغلثا من النكبة في وسط عام اثنين
وخمسين وسبعمئة فاجتذبه سلطانها رحمه الله وأجراه على تلك الوتيرة فقلده الخطبة بمسجده
في السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعمئة وأقعدته للإقراء بالمدرسة من حضرته وفي
أخريات عام أربعة وخمسين صرف عنه جفن بره في أسلوب طماج ودالة وسبيل هوى وقحة
فاغتتم الفترة وانتهاز الفرصة وأنفذ في الرحيل العزيمة وانصرف عزيز الرحلة مغبوط المنقلب فاستقر
بباب ملك المغرب أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محل تجلة وبساط قرب مشترك الجاه مجدي
التوسط ناجع الشفاعة والله يتولاه ويزيده من فضله

مشيخته من كتابه المسمى عجاله المستوفز المستجاز في ذكر من استجازني من المشايخ دون
من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز فممن لقيه بالمدينة المشرفة على ساكنها الصلاة
والسلام الإمام العالم العلامة عز الدين أبو محمد الحسن ابن علي ابن إسماعيل الواسطي صاحب
خطتي الإمامة بالمسجد الكريم النبوي وأفرد جزءا في مناقبه والشيخ الإمام الدين أبو عبد الله
محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي تحمل عن عفيف الدين أبي محمد

عبد السلام بن مزروع وأبي اليمن وغيره والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ونائب الإمامة والخطابة به ومنشد الأمداح النبوية هنالك والشيخ الصالح الثقة المعمر محيي الدين أبو زكريا يحيى بن محمد المغراوي التونسي سمع ابن حامل والتوزري والشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن محمد الحجار الفرائش بحرم رسول الله والوفاد به وكان مقصودا من كل قطر والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني نائب القضاء بالمدينة والشيخ الإمام قاضي القضاة بالمدينة شرف الدين بن محرز الإخميمي بن الأسيوطي والشيخ الصالح عز الدين خالد بن عبد الله الطواشي والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله المعيشي سمع ابن مزروع البصري وغيره والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعي المصري الخطيب بالمسجد الكريم بها والشيخ الخطيب أبو طلحة الزبير ابن أبي صعصعة الأسواني والشيخ عفيف الدين المطري والشيخ الأديب أبو البركات أيمن بن محمد بن محمد إلى أربعة عشر ابن أيمن التونسي المجاور والشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي المجاور أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبي ركبون التونسي بها على أبيه القرآن العظيم قال وكانت قراءتي عليه بالمدينة عند قبره عليه الصلاة والسلام

وبمكة شرفها الله تعالى الشيخ المعمر الثقة شرف الدين أبو عبد الله عيسى ابن عبد الله الحجبي المكي المتوفى وقد قارب المائة والشيخ زين الدين أحمد ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي والشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي وشيخ شيوخ رباط الأعجام حيدر بن عبد الله المقرئ والشيخ مقرئ الحرم برهان الدين إبراهيم ابن مسعود بن إبراهيم الأيلي المصري والشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد الله العجمي والإمام الصالح أبو الصفاء خليل بن عبد الله القسطلاني التوزري والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسعد الشافعي الحجة انتهت إليه الرئاسة العلمية والخطط الشرعية بالحرم والشيخ فخر الدين عثمان بن أبي بكر النويري المالكي والشيخ الإمام المدرس بالحرم شهاب الدين أحمد بن الحرازي اليمني والشيخ قاضي القضاة نجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبد الله بن المحب الطبري والشيخ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن براجين القشيري التلمساني وقرأ بها على أبيه وألبسه بها الخرقه والشيخ الملك شرف الدين عيسى بن محمد بن أبي بكر بن أيوب والشيخة فاطمة بنت محمد ابن محمد بن أبي بكر بن أيوب والشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن

محمد بن إبراهيم الطبري المكية والشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان المراكشي السفاح والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكنانى قاضي القضاة بالديار المصرية وبمصر الشيخ علاء الدين القونوي والتقي السعدي وقاضي القضاة القزويني وهو شهير الذكر رفيع القدر وقاضي القضاة البرهان الحنفي والشرف أفضى القضاة الإخميمي والشيخ المحدث المسند البدر محمد بن محمد الفارقي والقطب الحافظ محمد ابن منير والشهاب أحمد الجوهري الحلبي والمعمر الشرف يحيى المقدسي بن المصري والشيخ محسن القرشي والشهاب الحنبلي وفتح الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس اليعمري والشيخ المسند شمس الدين أبو بكر بن سيد الناس أخوه والإمام أبو حيان والحافظ النسابة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن طي ابن حاتم بن خيش الزبيري المصري يبلغ شيوخه نحو من ألفي شيخ والشيخ الشمس بن عدلان والشهاب البوشي المالكي والشيخ المتصوف تاج الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثعلب المصري مدرس المالكية والشمس ابن كتشغري الخطابي الصيرفي والعماد ابن النجم الدمياطي والتاج الأشعري والتقي الثعلبي والفتح بن عبد القوي والشمس الورجمي والتقي الأشموني والعلامة التقي السبكي والمعروف ابن بنت الشاذلي وأبو الحسن التميمي والبرهان الخيمي والشمس الأسواني والبرهان الحكري والشمس بن جابر الوادي أشي وأبو محمد عبد الكريم الطوسي وأبو فارس الزروالي التونسي وصالح بن عبد العظيم بن يونس وأبو عبد الله ابن القماح والتاج التبريزي والشيخ محمود الأصبهاني والشرف المغيلي والبرهان السفاقي

ومن النساء الشيخة المسندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد الفيومي البكري وببليس أسد الدين يوسف بن داود الأيوبي من أبناء الملوك ومن الشاميين بالقدس علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب وخطيب القدس النور ابن الصائغ المقدسي ومحمد بن علي بن مثبت الأندلسي والبرهان الجعبري إمام

الخليل

ومن أهل دمشق البرهان بن الفرکاح والشمس بن مسلم قاضي الحنابلة
وبالإسكندرية أحمد المرادي بن العشاب وأبو القاسم ابن علي بن البراء والناصر بن المنير
وبطرابلس الخطيب أبو محمد جابر بن عبد الغفار
وبتونس الزبيدي والقاضي ابن عبد الرفيق والقاضي ابن عبد السلام وابن راشد وأبو موسى هارون
والمحدث أبو عبد الله التلمساني والحافظ أبو زكريا يحيى بن عصفور التلمساني نزيل تونس وأبو
محمد بن سعد الله بن أبي القاسم بن البراء
وببلاد الجريد الشيخ الخطيب أبو عبد الملك ابن حيون
وبالزاب ابن أبي والشيخ أبو محمد ابن راشد
وبجاية الإمام النظار المجتهد أبو علي ناصر الدين المشدالي والحافظ فقيه زمانه أبو عبد الله محمد
بن عبد الله بن يلبخت الزواوي والشيخ الفقيه أبو عبد الله الخطيب المسفر
وبتلمسان الشيوخ الإمام ابن الإمام وقاضي القضاة بها أبو عبد الله ابن هدية والخطيب أبو
محمد المجاصي والشريف أبو علي حسن بن يوسف بن يحيى الحسني والشيخ أبو عثمان سعيد
بن إبراهيم بن علي المعروف بابن إسحاق الخياط وغيرهم
محنته اقتضى الخوض الواقع بين يدي تأميل الأمير أبي الحسن رحمه الله
تعالى عودة الأمر إليه وقد ألقاه اليم إلى الساحل بمدينة الجزائر أن قبض عليه بتلمسان أمراؤها
المتوثبون عليها في هذه الفترة من بني زيان إرضاء لقبيلهم المتهم بمداخلته وقد رحل عنهم
دسيسا من أميرهم عثمان بن يحيى فصرف ماخوذاً عليه طريقه منتها رحله منتهكة حرمة
وأسكن قرارة مطبق عميق القعر مقفل المسلك حريز القفل ثاني اثنين انتهى ملخصا
ورأيت بخط ابن مرزوق على قوله وقد رحل عنهم دسيسا إلى آخره ما نصه لم أرحل عنهم إلا
بإذنه واقترحهم علي في الإصلاح بينهم لكنهم غدروا تقية على أنفسهم قاله ابن مرزوق انتهى
وكتب تحته ولد ابن الخطيب ما صورته نعم ما ترى
" ... وعند الله تجتمع الخصوم "

انتهى

رجع إلى كلام لسان الدين في حقه قال بعد الكلام السابق ما ملخصه ولأيام قتل ثانية ذبحا
بمقربة من شفا تلك الركبة وانقطع أثره وأيقن الناس بفوات الأمر فيه ولزمان من محنته ظهرت عليه
بركة سلفه في خبر ينظر بطرفه إلى الكرامة فيجا ولا تسل كيف وخلصه الله خلاصا جميلا وقدم
على الأندلس والله ينفعه بنيتة انتهى
وكتب ابن مرزوق على هذا المحل ما نصه لم يكن المقتول حين قتل معي ولا قتل ذبحا قاله ابن
مرزوق انتهى وكتب بعض علماء مصر تحته ما نصه هذه دعوى والمؤرخ أعرف انتهى فكتب آخر بعد
هذا ما نصه أتخبرني عني انتهى

رجع ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره ما صورته ركب مع السلطان
بخارج الحمراء أيام ضربت اللوز قبائها البيض وزينت الفحص العريض والروض الأريض فارتجل في ذلك
" انظر إلى النوار في أغصانه ... يحكي النجوم إذا تبدت في الحلك "

" حيا أمير المسلمين وقال قد ... عميت بصيرة من بغيرك مثلك "

" يا يوسف حزت الجمال بأسره ... فمحاسن الأيام تومي هيت لك "

" أنت الذي صعدت به أوصافه ... فيقال فيه ذا مليك أو ملك "

إلى أن قال ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ما أشد عنه وبين يديه ليلة الميلاد المعظم من

عام ثلاثة وستين وسبعمئة

" قل لنسيم السحر ... لله بلغ خبري "

" إن أنت يوما بالحمى ... جررت فضل المنزر "

" ثم حثت الخطو من ... فوق الكتيب الأعفر "

" مستقريا في عشبه ... مخفي وطء المطر "

" تروي عن الضحاك في الروض ... حديث الزهر "

" مخلوق الأذيال بالعبير ... أو بالعنبر "

" وصف لجيران الحمى ... وجدي بهم وسهري "

" وحققهم ما غيرت ... ودي صروف الغير "

" لله عهد فيه قضيت ... حميد الأثر "

" أيامه هي التي ... أحسبها من عمري "
 " ويا لليل فيه ما ... عيب بغير القصر "
 " العمر فينان ووجه ... الدهر طلق الغرر "
 " والشمل بالأحباب منظوم ... كنظم الدرر "
 " صفو من العيش بلا ... شائبة من كدر "
 " ما بين أهل تقطف الأنس ... جني الثمر "
 " وبين آمال تبيح ... القرب صافي الغدر "
 " يا شجرات الحي حياك ... الحيا من شجر "
 " إذا أجال الشوق في ... تلك المغاني فكري "
 " خرجت من خدي حديث ... الدمع فوق الطرر "
 " وقلت يا خد آرو من ... دمعي صحاح الجوهري "
 " عهدي بحادي الركب كالورقاء ... عند السحر "
 " والعيس تجتاب الفلا ... واليعملات تنبري "
 " تخطب بالأخفاف مظلوم ... البرى وهو بري "
 " قد عطفت عن ميد ... والتفتت عن حور "
 " قسي سير ما سوى العزم ... لها من وتر "
 " حتى إذا الأعلام حلت ... لحفي البشر "
 " واستبشر النازح بالقرب ... ونيل الوطر "
 " وعين الميقات للسفر ... نجاح السفر "
 " فالناس بين محرم ... بالحج أو معتمر "
 " لبيك لبيك إليه ... الخلق باري الصور "
 " ولاحت الكعبة بيت ... الله ذات الأثر "
 " مقام إبراهيم والمأمن ... عند الذعر "
 " وأغتنم القوم طواف ... القادم المبتدر "
 " وأعقبوا ركعتي السعي ... استلام الحجر "
 " وعرفوا في عرفات ... كل عرف أذفر "
 " ثم أفاض الناس سعيا ... في غد للمشعر "
 " فوقفوا وكبروا ... قبل الصباح المسفر "
 " وفي منى نالوا المنى ... وأيقنوا بالظفر "
 " وبعد رمي الجمرات ... كان حلق الشعر "
 " أكرم بذاك السفر والله ... وذاك السفر "
 " يا فوزه من موقف ... يا ريحه من متجر "
 " حتى إذا كان الوداع ... وطواف الصدر "
 " فأني صبر لم يخن ... أو جلد لم يغدر "
 " وأي وجد لم يطر ... وسلوة لم تهجر "
 " ما أفجع البين لقلب ... الواله المستعبر "
 " ثم ثنوا نحو رسول ... الله سير الضمر "
 " فعابنوا في طيبة ... لألاء نور نير "
 " رأوا رسول الله واستشفوا ... بلثم الجدر "
 " نالوا به ما أملوا ... وعرجوا في الأثر "
 " على الضجيعين أبي ... بكر الرضى وعمر "
 " زيارة الهادي الشفيع ... جنة في المحشر "
 " فأحسن الله عزاء ... قاصد لم يزر "
 " ريع ترى مستنزل الآي ... به والسور "
 " وملتقى جبريل بالهادي ... الزكي العنصر "
 " وروضة الجنة بين ... روضة ومنبر "
 " منتخب الله ومختار ... الورى من مضر "
 " والمنتقى والكون من ... ملابس الخلق عري "

" إذ لم يكن في أفق ... من زحل ومشتري "
 " ذو المعجزات الغر أمثال ... النجوم الزهر "
 " يشهد بالصدق له ... منها انشقاق القمر "
 " والضب والطبي إلى ... نطق الحصى والشجر "
 " من أطعم الألف بصاع ... في صحيح الخير "
 " والجيش رواه بماء ... الراحة المنهمر "
 " يا نكتة الكون التي ... فانت منال الفكر "
 " يا حجة الله على ... الرائح والمبتكر "
 " يا أكرم الرسل على الله ... وخير البشر "
 " يا من له التقدم الحق ... على التأخر "
 " يا من لدى مولده ... المقدس المطهر "
 " إيوان كسرى ارتج إذ ... ضاءت قصور قيصر "
 " وموقد النار طفي ... كأنه لم يسعر "
 " يا عمدتي يا ملجئي ... يا مفزعي يا وزري "
 " يا من له اللواء والحوض ... وورد الكوثر "
 " يا منقذ الغرقى وهم ... رهن العذاب الأكبر "
 " إن لم تحقق أمني ... بؤت بسعي المخسر "
 " صلى عليك الله يا ... ثمال كل معسر "
 " صلى عليك الله يا ... نور الدجى المعتكر "
 " يا ويح نفسي كم أرى ... في غفلة من عمري "
 " واحسرتي من قلة الزاد ... وبعد السفر "
 " يحجني والله بالبرهان ... وعظ المنبر "
 " يا حسنها من خطب ... لو حركت من نظري "
 " يا حسنها من شجر ... لو أوقرت من ثمر "
 " أومل الأوبة والأمر ... بكف القدر "
 " أسوف العزم به ... من شهر لشهر "
 " من صفر لرجب ... من رجب لصفر "
 " ضيقت في الكبرة ما ... أعدته في صغري "
 " وليس ما مر من ... الأيام بالمنتظر "
 " وقلما أن حمدت ... سلامة في غرر "
 " ولي غريم لا يني ... في طلب المنكسر "
 " يا نفس جدي قد بدا ... الصبح ألا فاعتبري "
 " واتعظي بمن مضى ... وارثي وازدجري "
 " ما بعد شيب الفود من ... مرتقب فشمري "
 " أنت وإن طال المدى ... في قلعة وسفر "
 " وليس من عذر يقيم ... حجة المعتذر "
 " يا ليت شعري والمنى ... تسرق طيب العمر "
 " هل أرتجي من عودة ... أو رجعة أو صدر "
 " فأبرد الغلة من ... ذاك الزلال الخصر "
 " مقتديا بمن مضى ... من سلف ومعتشر "
 " نالوا جوار الله وهو ... الفخر للمفتخر "
 " أرجو بإبراهيم مولانا ... بلوغ الوطر "
 " فوعده لا يمتري ... في الصدق منه ممتري "
 " وهو الإمام المرتضى ... والخير ابن الخير "
 " أكرم من نال العلا ... بالمرهفات البتر "
 " ممهّد الملك وسيف ... الحق والليث الجري "
 " خليفة الله الذي ... فاق بحسن السير "
 " وكان منه الخبر في ... العلياء وفق الخبر "

" فصدق التصديق من ... مرآه للتصور "
 " ومستعين الله في ... ورد له وصدر "
 " فاق الملوك الصيد بالمجد ... الرفيع الخطر "
 " فأصبحت ألقابهم ... منسية لم تذكر "
 " وجاز منه أوحده ... وصف العديد الأكثر "
 " برأيه المأمون أو ... عسكره المظفر "
 " بسيفه السفاح أو ... بعزمه المقتدر "
 " بالعلم المنصور أو ... بالذابل المنتصر "
 " يا ابن الإمام الطاهر البر ... الزكي السير "
 " مدحك قد علم نظم ... الشعر من لم يشعر "
 " جهد المقل اليوم من ... مثلي كوسع المكثر "
 " فإن يقصر ظاهري ... فلم يقصر مضمري "

قلت قول لسان الدين في حق هذه القصيدة إنها من الشعر المنسوب إلى محاسنه فيه تعريض خفي بأن هذه القصيدة يحتمل أن تكون قيلت علي لسانه حسيما جرت بذلك عادة الأكابر والرؤساء أن ينسب إليهم ما ليس من كلامهم في نفس الأمر وليس الواقع عندي كذلك لأن باع ابن مرزوق في النظم والنثر مديد فأنى يقصر عن هذا القصيد ومن يصدر منه على البديهة قوله " ... انظر إلى النوار في أعصانه "

الآيات السابقة في اللوز لا يستغرب منه مثل هذا ولذ كتب ابن لسان الدين على قول والده من الشعر المنسوب إلى محاسنه ما صورته حضرت إنشائها وإنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور واستحسنها شعراء العدوتين وهي مما لا ينكر على مدارك سيدي أبي عبد الله ورسوخه في علم

النظم والنثر قاله علي بن الخطيب انتهى

وكتب بعضهم على قوله في هذه القصيدة " أيامه هي التي ... أعدها من عمري "

ما نصه ولت والله انتهى فكتب ابن مرزوق بعده ما نصه لكنها بدلت بخير منها والحمد لله وحسنت الخاتمة ببركة رسول الله تسليما انتهى وكتب ابن لسان الدين على قوله " وقلما أن حمدت ... سلامة في غرر "

ما نصه كذلك كان وليت والدي رحمه الله تعالى كذلك انتهى

وكتب على قوله برأيه المأمون إلخ ما نصه لو كان له رأي مأمون ما نزل على قلعة الملك لسكنى القصبه بدخيلة طلب الراحة فضربت عنقه وكانت الراحة منه انتهى وكتب بعض أثر هذا ما صورته القدر لا يغالب الحذر ينفع ما لم يأتك القدر فإذا أتى قدر لم ينفع حذر انتهى

وكتب ابن لسان الدين قوله فلم يقصر مضمري ما صورته صدق والله انتهى

ثم قال لسان الدين باب السلطان الكبير العالم أبي عنان فبلوت من مشاركته وحميد سعيه ما يليق بمثله ولما نكبه لم أقصر عن ممكن حيلة في أمره فلما هلك السلطان أبو عنان وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد

الولد المسمى بالسعيد كان ممن دانت له الطاعة وأناخ راحلة الملك وحلب ضرع الدولة وخطب عروس الموهبة فأنشبت ظفره في متات معقود من لدن الأب مشدود من لدن القرابة فاستحكم عن قرب واستغلظ عن كتب فاستولى على أمره وخلطه بنفسه ولم يستأثر عنه بيته ولا انفرد بما سوى بضع أهله بحيث لا يقطع في شيء إلا به و عن رأيه ولا يمحو ويثبت إلا واقفا عند حده فغشيت بابه الوفود وصرفت إليه الوجوه ووقفت عليه الآمال وخدمته الأشراف وجلبت إلى سدته بضائع العقول والأموال وهادته الملوك فلا تحدو الحدأة إلا إليه ولا تحط الرجال إلا لديه إن حضر أجرى الرسم وأنفذ الأمر والنهي لحظا أو سرارا أو مكاتبة وإن غاب ترددت الرقاع واختلفت الرسائل ثم انفرد أخيرا ببيت الخلوة ومنتبذ المناجاة من دونه معصب الوزراء وغايات الحجاب فإذا انصرف تبعته الدنيا وسارت بين يديه الوزراء ووقفت ببابه الأمراء وقد وسع الكل لحظه وشملهم بحسب الرتب والأحوال رعيه ووسم أفذاذهم تسويده وعقدت بينان عليتهم بنانه لكن رضى الناس الغاية التي لا تدرك والحسد بين بني آدم قديم وقبيل الملك مباين لمثله فطويت الجوانح على سل وحنيت الضلوع

على بث وأغضيت الجفون على قذى إلى أن كان من نكبته الثالثة ما هو معروف جعلها الله له ظهورا ولما جرت الحادثة على الدولة بالأندلس وكان لحاق جميعنا بالمغرب جنيت ثمرة ما أسلفته من وده فوفي الكيل وأشرك في الجاه وأدر الرزق ورفع المجلس بعد التسبب في الخلاص والسعي في الجبر جبره الله تعالى وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم " الشعراء 89 انتهى وكتب ابن لسان الدين على هذا المحل ما صورته هذا لسان أبي عليه في الغيبة والحضور انتهى ومما خاطبه به لسان الدين مهننا من طريق القدوم على الأبواب المرينية مغلتا من البلية بشفاعته ما نصه سيدي الذي إليه انقطاعي وانحياشي وملأذي وملجئي الذي يسر خلاصي وسني انتياشي ومنعمي الذي جبر جناحي وأنبت رياشي ومولى هذا الصنف العلمي ولا أحاشي كتبه صنيع نعمتكم الخالصة الحرة ومسترق فضلكم الذي تألقت منه في ليل الخطوب الغرة ابن الخطيب لطف الله به من كذا وقد شد إلى إبلاغ النفس عذرها في مباشرة تقبيل اليد التي لها اليد العظمى والسجية الرحمى فلكم طوقت من نعمى وجمال النعم قد أثقلت الظهر واستغرقت السر والجهر فبأي لسان أو بأي بنان ولا أثر بعد عيان تقابل نعمة تداركت الرمق وقد أشفى وأبقت الذماء والشروع في استئصالها لا يخفى فيا لك من فرد هزم ألفا ووعد نصر لم يعرف خلفا ونية خلصت تبتغي إلى الله زلفى لقد صدع بها مولاي غريبة في الزمن بالغا حسن صنيعها صنعاء اليمن مترفعة عن الثمن وإن لم يقم بها مثله وإلا فمن فليهن سيدي ما ذاع لمجده بها من فخر وما قدم يوم تزل الأقدام من دخر وما جلب للمقام المولوي الإبراهيمي من طيب ذكر واستفاضة حمد وشكر لقد ارتهن دعاء الحافي والناعل والداد على الخير شريك الفاعل والذي أحيا النفس جدير برد عدتها وإنجاز عدتها وأنا قد قويت بجاهكم وإن كنت ضعيفا واستشعرت سعدا جديدا وقدرنا منيفا وأيقنت أن الله عز وجل كان بي لطيفا إذ هيا لي من رحمة ذلك المقام المولوي على يدكم نصرا عزيزا وبوأني من جاهه حرزا حريزا وقد استأسدت الأعداء وأعضل الداء وأعمل الاعتداء وعز الغداء فانفرج الضيق وتيسرت للخير الطريق وساغ الريق ونجا الغريق غريبة لا تمثل إلا في الحلم ولطيفة فيها اعتبار لأولي العلم اللهم جاز سيدي في نفسه وولده وحاله وبلده ومعاذه بعد طول عمره وانفساح أمده وكن له نصيرا أحوج ما يكون إلى نصر واجعل له سعة من كل حصر واقصر عليه جاه كل قصر كما جعلت ذاته فوق كل ذات وعصره فوق كل عصر وليعلم سيدي أن من أراد بي منافسة وحسدا وزار علي أسدا لما استقل على الكرسي جسدا من غير ذنب تبين ولا حد تعين أصابه من خلاصي المقيم المقعد ووعد النفس بأمل أخلف منه الموعد لما استنقذني الله برحمته من بين ظفره ونابه وغطاني بستر جنابه وكثرتني في العيون على قلة وأعزني بعز نصره على حال ذلة لم يدع حيلة إلا نصيها أمامي ليحبط ذلك المقام الكريم ذمامي ويكدر حمامي ويستدرك حمامي وزعم أن بيده على البعد زمامي وبأبى ذلك رأي يفرق بين الحق وضده وعدل لا يخرج الشيء عن حده فنبهت سيدي خوفا أن تتجه حيلة أو تفسد وسيلة وأنا قادم بالأهل والولد ليعمل في رب الصنعة على شاكلة الحمد الذي هو له أهل فما بابتدائه جهل ولا يختلف في عظم ما أسداه غر ولا كهل ولا ينبه مثله على تميم وإجزال فضل عميم ومؤانسة غريب وصلة نصر عزيز وفتح قريب بحول الله تعالى

وقال لسان الدين بعد ما سبق نقله عنه في حق ابن مرزوق ولما انقضى أمر سلطانه رحمه الله تعالى متجنى عليه بسببه محمولا عليه من أجله تقبض عليه وأجمع الملاء على قتله وشد اعتقاله وطلب بالمال العريض وانتهبت أمواله واعتقلت رباعه وجنبت مراكيه واصطفيت أمهات أولاده وتمادى به الإعتقال والشدة إلى أن عادته عوائد الله في الخلاص من الشدة والانتياش من الورطة ظاهرة عليه بركة سلفه قائمة له حجة الكرامة في أمره

حكى أمير المسلمين سلطاننا أعزه الله قال عرض لي والدي رحمه الله تعالى في النوم فقال يا ولدي اشفع في الفقيه ابن مرزوق فقبلت يده واقتضيت حظه وحكيت داعيته وعينت للوجهة في ذلك قاضي الحضرة فكان في ذلك ابتداء الفرج

وحدثني الثقة من خدام السلطان أبي عنان عنه مخبرا عن نفسه لما نفس عنه من نكبته وأجاره من سخطه قال رأيت رسول الله فأمرني بذلك وكفى بها جاها وحرمة قلت فترك سبيله وأتيح له ركوب البحر إلى البلاد المشرقية بأهله وولده فسار في كنف الستر وتحت جناح الوقاية في وسط رجب من عام أربعة وستين وسبعمائة من ساحل باديس صحب الله وجهته وختم عصمته انتهى ما لخصته من كلام لسان الدين بلفظه

ورأيت على هامش هذا المحل من الإحاطة بخط المذكور ما صورته أقول وأنا ابن مرزوق المسمى

فيه إنبي قد وصلت إلى تونس المحروسة في شهر رمضان من سنة خمس وستين فلقبت بها من المبرة والكرامة والوجاهة فوق ما يعهده أمثالي ووليت خطابة جامع ملكها وتدریس أم المدارس فيها وهي المعروفة بمدرسة الشماعين كل ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة لمجلس ملكها إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين ثم مع ولده وابن أخيه إلى أن رحلت في البحر في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين فحللت بالديار المصرية ولقيت من ملكها الذي لم أر في الملوك مثله حلما وفضلا وحياء وجودا وتلطفا ورحما السلطان المالك الملك الأشرف ناصر الدين والدنيا شعبان بن حسين فأحسن لي وأجرى علي وعلى أولادي ما قام به الحال دروسا ومدارس وأهلني للمثول بين يديه والحال على ذلك حتى الآن وذلك من فضل الله ومعهود إحسانه والمرجو من الله حسن العاقبة وكتب في رمضان سنة خمس وسبعين انتهى

وكتب بعده أبو الحسن علي بن لسان الدين رحمهما الله تعالى ما صورته صدق وهو فوق ذلك كله فقدره معروف ولطالما كان ملك المغرب يفتخر به فصار يفتخر بتقليد الدروس

" ... والدهر لا يبقى على حالة "

انتهى

قال في الإحاطة ولما شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى واستبحر فيه وأكثر النقل وبذل الجهد طلب أهل العدوتين نظم

مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور وإطراء مؤلفه فانثال عليه من ذلك الطم والرم بما تعددت منه الأوراق واختلفت في الإجادة وغيرها الأرزاق إثارا لغرضه ومبادرة من كل الجهات لإسعاف أربه وطلب مني أن ألم في ذلك بشيء فكتبت له في ذلك

" شفاء عياض للصدور شفاء ... فليس بفضل قد حواه خفاء "

" هدية بر لم يكن لمديلتها ... سوى الأجر والذكر الجميل كفاء "

" وفي لنبي الله حق وفائه ... وأكرم أوصاف الكرام وفاء "

" وجاء به بحرا يقول بفضله ... على البحر طعم طيب وصفاء "

" وحق رسول الله بعد وفاته ... رعاه وإغفال الحقوق جفاء "

" هو الذخر يغني في الحياة عتاده ... ويترك منه للبنين رفاء "

" هو الأثر المحمود ليس يناله ... دثور ولا يخشى عليه عفاء "

" حرصت على الإطناب في نشر فضله ... وتمجيدته لو ساعدتني فاء "

واستزاد من هذا الغرض الذي لم يقنع فيه بالقليل فبعثت إليه من محل انتقاله من مدينة سلا حرسها الله تعالى

" أراهير رياض ... أم شفاء لعياض "

" جدل الباطل للحق ... بأسيايف مواض "

" وجلا الأنوار برهانا ... بحق وافتراض "

" وشفى من يشتكى الغلة ... في زرق الحياض "

" أي بنیان مقال ... آمن خوف انقراض "

" أي عهد ليس برمي ... بانتكات وانتقاض "

" ومعان في سطور ... كأسود في غياض "

" وشفاء لصدور ... من ضنى الجهل مراض "

" حرر القصد فما شين ... بنقض واعتراض "

" يا أبا الفضل أدر أن الله ... عن سعيك راض "

" فاز عبد أقرض الله ... برجحان القراض "

" وجبت غر المزايا ... من طوال أو عراض "

" لك يا أصدق راو ... لك يا أعدل قاض "

" لرسول الله وفيت ... بجد وانتهاض "

" خير خلق الله في حال ... وفي آت ومماض "

" سدد الله ابن مرزوق ... إلى تلك المراضى "

" زبدة العرفان معني ... كل نسك وارتياض "

" فتولى بسط ما أجملت ... من غير انقباض "

" ساهرا لم يدر في استخلاصه ... طعم اغتماض "

" إن يكن دينا على الأيام ... يا قدحان التقاضى "

" دام في علو ومن عاداه ... يهوي في انخفاض "

" ما وشي الصبح الدياجي ... بسواد في بياض "

ثم نظمت له أيضا في الغرض المذكور والإكثار من هذا النمط في هذا الموضوع ليس على سبيل التبحر بإجادته وغرابتة ولكن على سبيل الإشادة بالشرح المشار إليه فهو بالغ غاية الاستبحار

" حبيت يا مختط سبت بن نوح ... بكل مزن يغتدي أو يروح "

" وحمل الريحان ريح الصبا ... أمانة فيك إلى كل روح "

" دار أبي الفضل عياض الذي ... أضحت برياه رياضاً تفوح "

" يا ناقل الآثار يعنى بها ... وواصلنا في العلم جري الجموح "

" طرفك في الفضل بعيد المدى ... طرفك للمجد شديد الطموح "

" كفاك إعجازا كتاب الشفا ... والصبح لا ينكر عند الوضوح "

" لله ما أجزلت فينا به ... من منحة تقصر عنها المنوح "

" روض من العلم همى فوقه ... من صيب الفكر الغمام السفوح "

" فمن بيان الحق زهر ند ... ومن لسان الصدق طير صدوح "

" تأرج العرف وطاب الجنى ... وكيف لا يثمر أو لا يفوح "

" وحلة من طيب خير الورى ... في الجيب والأعطاف منها نضوح "

" ومعلم للدين شيدته ... فهذه الأعلام منها تلوح "

" فقل لها مان كذا أو فلا ... يا من أضل الرشد تبني الصروح "

" في أحسن التقويم أنشأته ... خلقا جديدا بين جسم وروح "

" فعمره المكتوب لا ينقضي ... إذا تقضى عمر سام ونوح "

" كأنه في الحفل ريح الصبا ... وكل عطف فهو غصن مروح "

" ما عذر مشغوف بخير الورى ... إن هاج منه الذكر أن لا ييوح "

" عجبت من أكباد أهل الهوى ... وقد سطا البعد وطال النزوح "

" إن ذكر المحبوب سالت دما ... ما هن أكباد ولكن جروح "

" يا سيد الأوضاع يا من له ... بسيد الأرسال فضل الرجوح "

" يا من له الفضل على غيره ... والشمس تخفى عند إشراق يوح "

" يا خير مشروح وفى واكتفى ... من ابن مرزوق بخير الشروح "

" فتح من الله حباه به ... ومن جناب الله تأتي الفتوح "

ثم قال وعلى الجملة والتفصيل فهذا الرجل نسيح وحده شهرة وجلالة وخصالا وأبوة صالحة تولاه الله وكان له وانصرف بجملته إلى بلاد المشرق عام أربعة وستين وسبعمائة تولاه الله تعالى وأسعد منقلبه ومولده بتلمسان عام أحد عشر وسبعمائة انتهى كلام لسان الدين تراجم أخرى لابن مرزوق

ولنزد في هذه الترجمة على ما ذكره فنقول قال ابن خلدون صاحبنا الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق من أهل تلمسان كان سلفه نزل الشيوخ أبي مدين بالعباد ومتوارثين ترتبه من لدن جدهم خادمه في حياته وكان جده الخامس أو السادس أبو بكر ابن مرزوق معروفا بالولاية فيهم ونشأ محمد هذا بتلمسان ومولده فيما أخبرني عام عشرة وسبعمائة انتهى وهو مخالف لما ذكره لسان الدين فيما مر عنه

ثم قال ابن خلدون وارتحل مع والده إلى الشرق سنة ثلاث عشرة وسمع ببجاية على الشيخ ناصر الدين ولما جاور أبوه بالحرمين رجع إلى القاهرة فأقام وبرع في الطلب والرواية وكان يجيد الخطين ورجع سنة ثلاث وثلاثين إلى

المغرب ولقي السلطان أبا الحسن محاصرا لتلمسان وقد شيد بالعباد مسجدا عظيما وكان عمه محمد بن مرزوق خطيبا به على عادتهم في العباد وتوفي فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه وسمعه يخطب على المنبر ويشيد بذكره ويثني عليه فحلي بعينيه فقربه وهو مع ذلك يلازم ابني الإمام ويأخذ نفسه بقاء الأفاضل والأكابر والأخذ عنهم وحضر مع السلطان وقعة طريف ثم استعمله في الرسالة إلى الأندلس ثم إلى ملك قشتالة في تقرير الصلح ولده المأسور يوم طريف ورجع بعد وقعة القيروان مع زعماء النصارى إلى المغرب ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمه حظيه أبي الحسن ثم رجع إلى تلمسان وأقام بالعباد وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت والسلطان أبو الحسن بالجزائر وقد حشد هنالك فأرسل أبو

سعيد ابن مرزوق المذكور إليه سرا في الصلح فلما اطلع أخوه أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه فبعثوا من حبس ابن مرزوق ثم أجازوه البحر إلى الأندلس فنزل علي أبي الحجاج سلطانها بقرنطة فقربه واستعمله علي الخطبة بجامع الحمراء فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه واستيلائه على تلمسان وأعمالها فقدم عليه ورعى له وسائله ونظمه في أكابر أهل مجلسه ثم بعثه لتونس على ملكها سنة ثمان وخمسين ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى فردت الخطبة واختفت بتونس ووشي إلي السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها فسخطه لذلك وأمر بسجنه فسجن مدة ثم أطلقه قبل موته

ولما استولى أبو سالم على السلطنة أثره وجعل زمام الأمور بيده فوطىء الناس عقبه وغشي أشراف الدولة بابه وصرفوا إليه الوجوه فلما وثب عمر بن عبد الله بالسلطان آخر عام اثنين وستين حبس ابن مرزوق ثم أطلقه

بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله فمنعه منهم ثم لحق بتونس سنة أربع وستين ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته أبي محمد ابن تافراكين فأكرموه وولوه الخطابة بجامع الموحدين وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو يحيى سنة سبعين وولي ابنه خالد ثم لما قتل السلطان أبو العباس خالداً واستولى على السلطنة وكان بينه وبين ابن مرزوق شيء لميله مع ابن عمه محمد صاحب بجاية عزله عن الخطبة فوجم لها فأجمع الرحلة إلى المشرق وسرحه السلطان فركب السفينة ونزل بالإسكندرية ثم ارتحل إلى القاهرة ولقي أهل العلم وأمراء الدولة ونفقت بضائعه عندهم وأوصلوه إلى السلطان الأشرف فولاه الوظائف العلمية فلم يزل بها موافق الرتبة معروف الفضيلة مرشحاً لقضاء المالكية ملازماً للتدريس إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين انتهى ملخصاً

وقال الحافظ ابن حجر إنه لما وصل تونس أكرم إكراماً عظيماً وفوضت إليه الخطابة بجامع السلطان وتدریس أكبر المدارس ثم قدم القاهرة فأكرمه الأشرف شعبان ودرس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية وكان حسن الشكل جليل القدر مات في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين انتهى

وقال ابن الخطيب القسمطيني هو شيخنا الفقيه الجليل الخطيب توفي بالقاهرة ودفن بين ابن القاسم وأشهب وله طريق واضح في الحديث ولقي أعلاماً وسمعنا منه البخاري وغيره في مجالس ولمجلسه لباقة وجمال وله شرح جليل على العمدة في الحديث انتهى

وكتب بخطه بلدينا أبو عبد الله ابن العباس التلمساني ما نصه نقلت من خط بعض السادات كتبه للإمام زعيم العلماء الحفيد ابن مرزوق أنه وجد بخط جده

الخطيب ابن مرزوق لما ثقفه عمر بن عبد الله على يد الشيخ أبي يعقوب كتب ما نصه الحمد لله على كل حال خرج الطبري في منسكه وأبو حفص الملاي في سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهم قالوا وقف رسول الله على الثنية التي بأعلى مكة وليس بها يومئذ مقبور فقال يبعث الله من ههنا سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب وجوههم كالقمر ليلة البدر فقال أبو بكر من هم يا رسول الله قال هم الغرباء من أمتي الذين يدفنون ههنا ففي هذا الموضوع دفن والذي رحمه الله تعالى وبعد سماعه لهذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه أفتراه لا يشفع فيمن أقال عثرة ولده أفما يشتري هذا بأموال الأرض أفلا يرعى لي ثمانية وأربعين منبراً في الإسلام شرقاً وغرباً وأندلساً أفلا يرعى لي أنه ليس اليوم يوجد من يسند أحاديث الصحاح سماعاً من باب إسكندرية إلى البرين والأندلس غيري ونحو من مائتين وخمسين شيخاً والله ما أعلمه لكن حرمني الله تعالى نبذت الاشتغال به وأثرت اتباع الهوى والدنيا فهويت اللهم غفرانك أفلا يرعى لي مجاورة نحو اثني عشر عاماً وختم القرآن في داخل الكعبة والإحياء في محراب النبي والإقراء بمكة ولا أعلم من له هذه الوسيلة غيري أفلا يرعى لي الصلاة بمكة وغربتي بينكم ومحتني في بلدي علي محبتكم وخدمتكم من ذا الذي خدمكم من الناس يخرج علي هذا الوجه أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله من ذنوبي وذنوبي أعظم وربّي أعلم وربّي أرحم والسلام انتهى

ففي هذا دليل على عظم قدره ومكانته في الدين والدنيا

قلت ولقد رأيت مصحفه بتلمسان عند أحفاده وعليه خطه الرائق الذي أعرفه وهو يقول قرأت في هذا المصحف تجاه الكعبة المشرفة اثني عشر ألف ختمة انتهى

ومع هذا فقد نسي في المصحف المذكور لفظة إليك من قوله تعالى " ينقلب إليك البصر " حتى كتبه بخطه فوق السطر حفيده العلامة سيدي أبو عبد الله محمد ابن مرزوق رحم الله الجميع

قال الخطيب المذكور رحمه الله تعالى في بعض تعاليقه ما صورته ومن أشياخ والدي سيدي محمد

المرشدي لقيه في ارتحالنا إلى الشرق وحين حملني إليه وأنا ابن تسع عشرة سنة نزلنا عنده ووافقنا صلاة الجمعة ومن عادته أن لا يتخذ للمسجد إماما وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء من لا يمكن اجتماع مثلهم في غير ذلك المشهد قال فقرب وقت الصلاة فنشوف من حضر من الفقهاء والخطباء إلى التقديم فإذا الشيخ قد خرج فنظر يمينا وشمالا وأنا خلف والدي فوق بصره علي فقال لي يا محمد تعال قال فقممت معه حتى دخلت معه في موضع خلوة فباحثني في الفروض والشروط والسنة قال فتوضأت وأخلصت النية فأعجبه وضوئي ودخل معي إلى المسجد وقادني إلى المنبر وقال لي يا محمد ارق المنبر فقلت له يا سيدي والله لا أدري ما أقول فقال لي ارق وناولني السيف الذي يتوكأ عليه الخطيب عندهم وأنا جالس مفكر فيما أقول إذا فرغ المؤمنون فلما فرغوا ناداني بصوته وقال لي يا محمد قم وقل بسم الله قال فقممت وانطلق لساني بما لا أدري ما هو إلا أنني كنت أنظر إلى الناس ينظرون إلي ويخشعون من موعظتي فأكملت الخطبة فلما نزلت قال لي أحسنت يا محمد

قراك عندنا أن نوليك الخطابة وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت ثم سافرنا فحججنا وأراد والدي الجوار وأمرني بالرجوع لأونس عمي وقرابني بتلمسان وأمرني بالوقوف على سيدي المرشدي هنالك فوقفت عليه وسألني عن والدي فقلت له يقبل أيدكم ويسلم عليكم فقال لي تقدم يا محمد واستند إلى هذه النخلة فإن شعيبا يعني أبا مدين عبد الله عندها ثلاث سنين ثم دخل خلوته زمانا ثم خرج فأمرني بالجلوس بين يديه ثم قال لي يا محمد أبوك من أحبابنا وإخواننا إلا أنك يا محمد إلا أنك يا محمد فكانت هذه إشارة إلي ما امتحنت به من مخالطتي أهل الدنيا والتخليط ثم قال لي يا محمد أنت متشوش من جهة أبيك تتوهم أنه مريض ومن بلدك أما أبوك فيخير وعافية وهو الآن عن يمين منبر رسول الله وعن يمينه خليل المالكي وعن يساره أحمد قاضي مكة وأما بلدك فسم الله فخط دائرة في الأرض ثم قام فقبض إحدى يديه على الأخرى وجعلهما خلف ظهره يطوف بتلك الدائرة ويقول تلمسان تلمسان حتى طاف بتلك الدائرة مرات ثم قال لي يا محمد قد قضى الله الحاجة فيها فقلت له كيف يا سيدي فقال ستر الله إن شاء الله على من فيها من الذراري والحريم ويملكها هذا الذي حصرها يعني السلطان أبا الحسن فهو خير لهم ثم جلس وجلست بين يديه فقال لي يا خطيب فقلت يا سيدي عبدك ومملوكك فقال لي كن خطيبا أنت الخطيب وأخبرني بأمر وقال لي لا بد أن تخطب بالجامع الغربي وهو الجامع الأعظم بالإسكندرية ثم أعطاني شيئا من كعيكات صغار وزودني بها وأمرني بالرحيل وأما خبر تلمسان فدخلها المريني كما ذكر وستر الله من فيها من الذراري والحريم وكان هذا المرشدي يتصرف في الولاية كتصرف سيدي أبي العباس السبتي نفعنا الله بهما وللخطيب ابن مرزوق المذكور تأليف منها شرحه الجليل على العمدة في خمسة أسفار جمع فيه بين ابن دقيق العيد والفاكهاني مع زوائد وشرحه النفيس على الشفاء ولم يكمل وشرحه على الأحكام الصغرى لعبد الحق وشرحه على ابن الحاجب الفرعي سماه إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب وله غيرها وديوان خطب بالغرب مشهور كقصديته التي قالها في تكبته بتلمسان وأولها " رفعت أموري لباري النسمة ... وموجدنا بعد سبق العدم "

ومن نظمه عند وداعه أهل تونس
" أودعكم وأنتي ثم أثني ... على ملك تطاول بالجميل "
" وأسأل رغبة منكم لربي ... بتيسير المقاصد والسبيل "
" سلام الله يشملنا جميعا ... فقد عزم الغريب على الرحيل "
ومن نظم أبي المكارم منديل بن أجروم يسلي المذكور عندما سجن بعد قتل السلطان أبي سالم رحمهم الله أجمعين

" يا شمس علم أفلت بعدما ... أضاءت المشرق والمغربا "
" حجت فسرا عن عيون الوري ... والشمس لا ينكر أن تحجبا "
وهو بيت علم وولاية وصلاح لعمة وجدته وأبيه وجد أبيه ولولديه محمد وأحمد وحفيده عالم الدنيا البحر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق وولد حفيده المعروف بالكفيف وحفيده المعروف بالخطيب وهو آخر المذكورين منهم فيما نعلم

ابن مرزوق الكفيف

قلت كان مرادي أن أعرف بجمعهم ولكني خشيت الطول فلنلم بذكر الحفيد عالم الدنيا وإبنة العلامة المشهور بالكفيف لأنه أعني الكفيف والد أم جدي أحمد لأنني أحمد بن محمد بن أحمد فوالدة الجد أحمد بنت الكفيف المذكور وهو أعني الكفيف محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب

الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق المتقدم الذكر وكان الكفيف إماما عالما علامة ووصفه ابن داود البلوي بأنه الشيخ الإمام علم الأعلام فخر خطباء الإسلام سلالة الأولياء وخلف الأتقياء الأريضاء المسند الراوية المحدث العلامة المتفنن القدوة الحافل الكامل وأخذ العلم عن جماعة منهم عالم الدنيا أبوه قرأ عليه الصحيحين والموطأ وغير ما كتاب من تأليفه وغيرها وتفقه عليه وأجازه عموما وعن عالمي تلمسان أبوي الفضل ابن الإمام والعقباني وغيرهما واللجائي والثعالبي وللنظار أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم المشدالي وقاضي الجماعة ابن عقاب وحافظ الإسلام ابن حجر العسقلاني وكل هؤلاء أجازه وقرأ عليهم مشافهة إلا ابن حجر فمكاتبة ومولده غرة ذي القعدة عام أربعة وعشرين وثمانمائة نصف ليلة الثلاثاء ومن شيوخه العلامة ابن العباس التلمساني وغيره وقال السخاوي قدم الكفيف مكة سنة إحدى وستين وثمانمائة وسمعت سنة إحدى وسبعين وثمانمائة أنه في الأحياء انتهى

وأخذ عنه جماعة أئمة كالسنوسي صاحب العقائد الشهيرة وغيرها والونشريسي صاحب المعيار والعلامة أبي عبد الله ابن العباس وحلاه بشيخنا ومفيدنا علم الأعلام وحجة الإسلام آخر حفاظ المغرب وقال قرأت عليه الصحيحين وبعض مختصري ابن الحاجب الفرعي والأصلي وحضرت عليه جملة من التهذيب وبعض الخونجي وغيرها وأخذ عنه بالإجازة عالم فاس ابن غازي حسبما ذكره في كتابه المسمى بالتعلل برسوم الإسناد بعد انتقال الساكن والناد

وقال بعض الحفاظ إن وفاته عام أحد وتسعمائة بتلمسان وزرت قبره مرارا رحمه الله تعالى ونقل عنه المازوني في نوازله المسماة بالدرة المكنونة في نوازل مازونة

ابن مرزوق الحفيد

وأما والده عالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد فهو البحر الإمام المشهور الحجة الحافظ العلامة المحقق الكبير النظار المطلع المنصف التقي الصالح الناصح الزاهد العابد الورع البركة الخاشع الخاشي النبيه القدوة المجتهد الأبرع الفقيه الأصولي المفسر المحدث الحافظ المسند الراوية الأستاذ المقرئ الموجود النحوي اللغوي البياني العروضي الصوفي الأبواب الولي الصالح العارف بالله الأخذ من كل فن بأوفر نصيب الراعي في كل علم مرعاه الخصيب حجة الله على خلقه المفتي الشهير الرحلة الحاج فارس الكراسي والمنابر سليل الأكابر سيد العلماء الأخيار وإمام الأئمة وآخر الشيوخ ذوي الرسوخ بدر التمام الجامع بين المعقول والمنقول والحقيقة والشريعة بأجل محصول وآخر النظار الفحول شيخ المشايخ صاحب التحقيقات البديعة والإختراعات الأنيقة والأبحاث الغربية والفوائد الغزيرة المتفق على علمه وصلاحه

وهديه الذكي الفهامة القدوة الذي لا يسمح الزمان بمثله أبدا أوحد الأفراد في جميع الفنون الشرعية ذو المناقب العديدة والأحوال السديدة شيخ الإسلام وإمام المسلمين ومفتي الأنام الذي له القدم الراسخ في كل مقام ضيق والرحب الواسع في حل كل مشكل مقفل صاحب الكرامات والاستقامات السني السني الحريص على تحصيل السنة ومجانبة البدعة السيف المسلول على أهل البدع والأهواء الزائغة الذي أفاض الله تعالى على خلقه به بركته ورفع بين البرية محلته ودرجته ووسع على خليفته به نحلته معدن العلم وشعلة الفهم وكيمياء السعادة وكنز الإفادة ابن الشيخ الفقيه العالم أبي العباس أحمد ابن الإمام العلامة الرئيس الكبير الخطيب الحافظ الرحلة الفقيه المحدث الشهير شمس الدين محمد ابن الشيخ العالم الصالح الولي المجاور أبي العباس أحمد ابن الفقيه الولي الصالح الخاشع محمد ابن الولي الكبير ذي الكرامات والأحوال الصالحة محمد بن أبي بكر ابن مرزوق العجيسي التلمساني كان رحمه الله تعالى آية الله في تحقيق العلوم والاطلاع المفرط على النقول والقيام التام على الفنون بأسرها أما الفقه فهو فيه مالك ولأزمة فروعه حائر ومالك فلو رآه الإمام قال له تقدم فلك العهد والولاية فتكلم فمك يسمع فقهي وفروعي ومثلك من راعى ما ينبغي فروعي أو ابن القاسم لقر به عينا وقال له طالما دفعت عن المذهب عينا وشينا أو المازري لعلم أنه بمنظرته حري أو الحافظ ابن رشد لقال هلم يا حافظ الرشد أو اللخمي لأبصر منه محاسن التبصرة أو القرطبي لنال منه التذكرة أو القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة أو ابن الحاجب لاستند إلى بابه في كشف الإشكالات المحررة إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودرره والاضطلاع بحقائق التأويل وعرره فلو

راه مجاهد لعلم أنه في التحقيق خير جاهد أو مقاتل لقال مثلك طبق من الفهوم الكلي وأصاب المقاتل أو الزمخشري لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة وقال لكتابه تنج لهذا الحبر عن سلوك الطريقة أو ابن عطية لركب في الرحلة إلى الاستفادة منه المطية أو أبو حيان لغرق في

نهره ولم تسل له نقطة من بحره إلى الإحاطة بالحديث وفنونه والاطلاع على أسانيده وامتونه ومعرفة منكره ومعروفه ونظم أنواعه ورصف صنوفه إذ إليه الرحلة انتهت في رواياته ودراياته وعليه المعول في حل مشكلاته وفتح مقفلاته وأما الأصول فالعضد ينقطع عند مناظرته ساعده والسيف يكل عند بحثه حده حتى يترك ما عنده ويساعده والبرهان لا يهتدي معه لحجة والمقترح لا يركب في بحره لجة وأما النحو فلو رآه محمود لتلجلج في قراءة المفصل واستقل ما عنده من القدر المحصل أو الرماني لاشتاق إلى مفاكحته وارتاح واستجدى من ثمار فوائده وامتاح أو الزجاج لعلم أن زجاجة لا يقوم بجواهره وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلا في طواهره بل لو رآه الخليل لقال هذا هو المقصد الجليل وأثنى عليه بكل جميل وقال لفرسان النحو ما لكم إلى لحوق عربيته من سبيل وأما البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح وصاحب المفتاح لا يهتدي معه إلى الفتح والقرويني يلقي علومه لإيضاح المعاني والسعد يرقى بمفهومه في مطالع المثاني وكم له من مناقب تتحط عن منالها الثواقب ومواهب تجلو بأنوارها الغياهب وأما زهده وصلاحه فقد سارت به الركبان واتفق عليه الثقلان فمن وصفه بالبحر فقل له دون علمه البحر أو البدر فما يصل خلقه البدر أو الدر فأنى يشبه منطقة الدر وبالجملة فالوصف يتقاصر عن صفاته وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته فهو شيخ العلماء في أوانه وإمام الأئمة في عصره وزمانه شهد بنشر علومه العاكف والبادي وارتوى من بحار تحقيقاته الظمان والصادي " حلف الزمان ليأتين بمثله ... حننت يمينك يا زمان فكفر "

هكذا وصفه بعض العلماء وهو فوق ذلك كله

وقال في حقه بلدنا الشيخ أبو الفرج ابن أبي يحيى الشريف التلمساني رحمه الله تعالى هو شيخنا الإمام العالم العلم جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظا وفهما وتحقيقا راسخ القدم رافع لواء الإمامة بين الأمم ناصر الدين بيده ولسانه وبنانه وبالقلم محيي السنة بالفعال والمقال والشيم قطب الوقت في الحال والمقام والنهج الواضح والسبيل الأمم مستمر على الإرشاد والهداية والتبليغ والإفادة والرواية والدراية والعناية ملازم الكتاب والسنة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع في زمن لا عاصم فيه من أمر الله إلا من رحم ذو همة عالية ورتبة سنية وأخلاق مرضية وفضل وكرم إمام الأئمة وعلم الأمة الناطق بالحكم ومنير الظلم سليل الصالحين وخالصة مجد التقى والدين نتيجة مقدمات المهتمدين حجة الله على العلم والعالم جامع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة متمسك بالكتاب لا يفارق رفيقه الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد اتصلت به فأوبت منه إلى ربوة ذات قرار ومعين وقصرت توجهي عليه ومثلت بين يديه فأنزلني أعلى الله قدره منزلة ولده رعاية للذمم وحفظا على الود الموروث من القدم فأفادني من بحار علمه ما تقصر عنه العبارة

ويكل دونه القلم فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث صحيح البخاري بقراءتي وقراءة غيري مرارا وصحيح مسلم كذلك وسنن الترمذي وأبي داود بقراءتي والموطأ سماعا وتفقهها والعمدة ومن علم الحديث أرجوزته الحديقة وبعض الكبرى وهي الروضة تفقهها ومن العربية نصف المقرب تفقهها وجميع سيويه كذلك وألفية ابن مالك وأوائل شرح الإيضاح لابن أبي الربيع وبعض المغني لابن هشام وفي الفقيه التهذيب كله تفقهها وابن الحاجب الفرعي وبعض مختصر الشيخ خليل والتلغين وثلثي الجلاب وجملة من المنبسطية والبيان لابن رشد وبعض الرسالة وكل ذلك قراءة تفقه وتفقهت عليه من كتب الشافعية في تنبيه الشيرازي ووجيز الغزالي من أوله إلى كتاب الإقرار ومن كتب الحنفية مختصر القدوري تفقهها ومن كتب الحنابلة مختصر الخرقى تفقهها ومن أصول الفقه المحصول ومختصر ابن الحاجب والتنقيح وكتاب المفتاح لجدي وقواعد عز الدين وكتاب المصالح والمفاسد له وقواعد القرافي وجملة من النظائر والأشباه للعلائي وإرشاد العميدي ومن أصول الدين المحصل والإرشاد تفقهها وفي القراءات قصيدة الشاطبي تفقهها وابن بري وفي البيان التلخيص والإيضاح والمصباح وكلها تفقهها وفي التفقه الإحياء للغزالي سوى الربع الأخير منه وألبسنى خرقه التصوف كما ألبسه أبوه وعمه وهما ألبسهما أبوهما جده انتهى ملخصا وكتب المذكور تحت هذا ما نصه صدق السيد بن السيد أبو الفرج المذكور فيما ذكر من القراءة والسمع والتفقه وبر وقد أجزته في ذلك كله فهو حقيق بها مع الإنصاف وصدق النظر جعلني الله وإياه ممن علم وعمل لآخرته واعتبر قاله محمد بن مرزوق انتهى

وقال تلميذه الولي أبو زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها فأخذت عنه كثيرا وسمعت عليه جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن

شيخنا محمد القلشاني وختمت عليه أربعينيات النووي قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم فكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع ثم يأخذ في البكاء فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب وكان من أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية واشتهر ذكره في البلاد فكان يذكره تطرز المجالس وجعل الله تعالى حبه في قلوب العامة والخاصة فلا يذكر في مجلس إلا والنفوس مشوقة إلى ما يحكى عنه وكان في التواضع والإنصاف والإعتراف بالحق في الغاية وفوق النهاية لا أعلم له نظيرا في ذلك في وقته ثم ذكر كثيرا جدا من الكتب مما سمعه عليه وأطال في ذلك

وقال في موضع آخر هو سيدي الشيخ الإمام الحبر الهمام حجة أهل الفضل في وقتنا وخاتمهم ورحلة النقاد وخلصتهم ورئيس المحققين وقادتهم السيد الكبير الإبريز والعلم الذي نصبه التمييز بن البيت الكبير الأثير ومعدن الفضل الكثير سيدي أبو عبد الله محمد بن الإمام الجليل الأوحى الأصيل جمال الفضلاء سليل الأولياء أبي العباس أحمد ابن العالم الكبير العلم الشهير تاج المحدثين وقوة المحققين أبي عبد الله محمد بن مرزوق

وقال أيضا في موضع آخر هو شيخني الإمام العلم الصدر الكبير المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين وإمام الحفظة الأقدمين والمحدثين سيد وقته وإمام عصره وورع زمانه وفاضل أقرانه أعجوبة أوانه وفاروق زمانه ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنينة والأعمال الفاضلة الزكية أبو عبد الله

وقال في حقه المازوني في أول نوازله شيخنا الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ذو التواضع العجبية والفوائد الغريبة مستوفي المطالب والحقوق أبو عبد الله بن مرزوق وقال تلميذه الحافظ العلامة أبو عبد الله التنسي عند ذكره إن إمامنا مالكا سئل عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين لا أدري وحنة العالم لا أدري ما نصه ولم نر فيمن أدركنا من شيوخنا من تمرن على هذه الخصلة الشريفة وبكثر استعمالها غير شيخنا الإمام العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبي عبد الله محمد بن مرزوق

وقال الشيخ أبو الحسن الفلصادي في رحلته أدركت كثيرا من العلماء والعباد والزهاد والصلحاء أولاهم في الذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا أبو عبد الله ابن مرزوق حل كنف العلم والعلا وجل قدره في الجلة الفضلا قطع الليالي ساهرا وقطف من العلم أزاهرا فأثمر وأورق وغرب وشرق حتى توغل في فنون العلم واستغرق إلى أن طلع للأبصار هلالا لأن الغرب مطلعته وسما في النفوس موضعه وموقعه فلا ترى أحسن من لقائه ولا أسهل من إلقائه لقي الشيوخ الأكابر وبقي حمده متعرفا من بطون الكتب والسنة الأقلام وأفواه المحابر وكان رضي الله عنه من رجال الدنيا والآخرة وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا ونهارا من صلاة وقراءة قرآن وتدريب علم وفتيا وتصنيف وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهورة وكانت له بالعلم عناية تكشف بها العمياء ودراية تعضدها الرواية ونباهة تكسب النزاهة قرأت عليه رضي الله عنه بعض كتابه في الفرائض وأواخر إيضاح الفارسي وشيئا من شرح التسهيل وعرضت عليه إعراب القرآن وصحيح البخاري والشاطبيتين وأكثر ابن الحاجب الفرعي والتلقين وتسهيل ابن مالك والألفية والكافية وابن الصلاح في علم الحديث ومنهاج الغزالي وبعض الرسالة وغيرها ثم توفي يوم الخميس بمصر رابع عشر شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمائة وصلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة وحضر جنازته السلطان فمن دونه ولم أر مثلها قبل وأسف الناس لفقدته وآخر بيت سمع منه قبل موته

" إن كان سفك دمي أقصى مرادكم ... فما غلت نظرة منكم بسفك دمي "

انتهى ملخصا

وفي فهرست ابن غازي في ترجمة شيخه أبي محمد الوريجلي ما صورته وممن لقي من شيوخ تلمسان المحروسة الإمام العلم العلامة الصدر الأجل الأوحى المحقق النظار الحجة العالم الرياني أبو عبد الله محمد بن مرزوق وقد حدثني بكثير من مناقبه وصفة إفرائه وقوة اجتهاده وتواضعه لطلبة العلم وشدته على أهل البدع وما اتفق له مع بعضهم إلى غيرها من شيمه الكريمة ومحاسنه العظيمة انتهى

وقال بعضهم في حقه إنه كان يسير سيرة سلفه في العلم والتخلق والحلم والشفقة وحب المساكين آية الله في الفهم والذكاء والصدق والعدالة والنزاهة واتباع السنة في الأقوال والأفعال ومحبة أهلها في جميع الأحوال مبعضا لأهل البدع ومحبا سد الذرائع وله كرامات انتهى

أخذ العلم عن جماعة أجراء فمنهم العلامة السيد عبد الله الشريف التلمساني وعالم المغرب القاضي سيدي سعيد العقباني التلمساني والولي العابد الصالح أبو إسحاق سيدي إبراهيم المصمودي وأفرد ترجمته بتأليف وعن عمه وأبيه ويروي عن جده بالإجازة وابن عرفة وأبي العباس القصار التونسي ويفاس عن النحوي أبي حيان وأبي زيد المكودي وجماعة غيرهما وبمصر عن السراج البلقيني والزين الحافظ العراقي والشمس الغماري والسراج ابن الملقن وصاحب القاموس والمحب ابن هشام ابن صاحب المغنى والنور النويري والولي ابن خلدون والقاضي التنسي وغيرهم

وأخذ عنه جماعة كالثعالبي والقاضي عمر القلشاني وابن العباس والعلامة نصر الزواوي والولي سيدي الحسن أبركان وابنه وأبي البركات الغماري وأبي الفضل المشدالي وقاضي غرناطة أبي العباس ابن أبي يحيى الشريف وإبراهيم بن فائد وأبي العباس الندرومي وابنه الكفيف وسيدي علي بن ثابت والشهاب بن كحيل التجاني والعلامة أحمد بن يونس القسطيني والعلامة يحيى بن يدير وأبي الحسن القلصادي والشيخ عيسى بن سلامة البسكري وغيرهم كالحافظ التنسي التلمساني

قلت وسندي إليه عن عمي الإمام سيدي سعيد المقرئ عن الشيخ أبي عبد الله التنسي عن والده الحافظ أبي عبد الله محمد التنسي المذكور عن ابن مرزوق المذكور بكل مروياته وتأليفه وقال السخاوي في حقه هو أبو عبد الله يعرف بحفيد ابن مرزوق وقد يختص بابن مرزوق وقد تلا لنافع على عثمان الزروالي وانتفع في الفقه بأبي عبد الله ابن عرفة وأجازه أبو القاسم محمد بن الخشاب ومحمد بن علي الحفار الأنصاري ومحمد القيحاوي وحج قديما سنة تسعين وسبعمئة رقيقا لابن عرفة وسمع من ابن البهاء الدماميني والنور العقيلي بمكة وفيها قرأ البخاري على ابن صديق ولازم المحب ابن هشام في العربية وكذا حج سنة تسع عشرة وثمانمئة ولقيه الزيني رضوان بمكة وكذا لقيه ابن حجر انتهى وأما تواليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة وسمي الأكبر إظهار صدق المودة في شرح البردة واستوفى فيه غاية الاستيفاء وضمنه سبعة فنون في كل بيت والأوسط والأصغر المسمى بالاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب ومنها الغاية القراطيسية في شرح الشقراطيسية والمفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخرزجية ورجز في علوم الحديث سماه الروضة ومختصره في رجز سماه الحديقة ورجز في الميقات سماه المقنع الشافي مشتمل على ألف وسبعمئة بيت ونهاية الأمل في شرح الجمل أي جمل الخونجي واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة وهو أجوبة عن مسائل في فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبي يحيى ابن عقيب فاجابه عنها والمعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج في كراسة ونصف أجاب به أبا القاسم ابن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية وأنوار اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين وهو حديث أول حلية أبي نعيم في شأن البدلاء وغيرهم والدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي والنصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص في سبعة كراريس رد به على عصرية الإمام أبي

الفضل قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية لما صوب العقباني صنيعهم وخالفه هو ومختصر الحاوي في الفتاوى لابن عبد النور والروض البهيج في مسائل الخليج وأنوار الدراري في مكررات البخاري وأرجوزة نظم تلخيص ابن البناء ورجز تلخيص المفتاح نظمه في حال صغره ورجز حرز الأمانى ورجز جمل الخونجي ورجز اختصار ألفية ابن مالك وتأليفه في مناقب شيخه المصمودي وتفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء وهذه كلها تامة وأما ما لم يكمل من تأليفه فالمتجر الرياح والسعي والرجيح والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح وروضة الأريب في شرح التهذيب والمنزع النبيل في شرح مختصر خليل شرح منه كتاب الطهارة في مجلدين ومن الأفضية إلى آخره في سفرين وإيضاح السالك على ألفية ابن مالك إلى اسم الإشارة أو الموصول مجلد كبير في قدر شرح المرادي وشرح شواهد شرح الألفية إلى باب كان مجلد وله خطب عجيبة

وأما أجوبته وفتاويه على المسائل المنوعة فقد سارت بها الركبان شرقا وغربا بدوا وحضرا وقد نقل المازوني والونشريسسي منها جملة وافرة ومن تأليفه أيضا عقيدته المسماة عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد والآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات والدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم وإسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم وذكر السخاوي أن من تواليفه شرح ابن الحاجب الفرعي وشرح التسهيل

انتهى

ومولده كما ذكره في شرحه على البردة ليلة الاثنين رابع عشرين ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة قال حدثني أمي عائشة بنت الفقيه الصالح القاضي أحمد بن الحسن المديوني وكانت من الصالحات ألفت مجموعا في أدعية أختارتها وكانت لها قوة في تعبير الرؤيا اكتسبها من كثرة مطالعتها لكتب الفن أنه أصابني مرض شديد أشرفت منه على الموت ومن شأنها وأبيها أنهما لا يعيش لهما ولد إلا نادرا وكانوا أسموني أبا الفضل أول الأمر فدخل عليها أبوها أحمد المذكور فلما رأى مرضي وما بلغ بي غضب وقال ألم أقل لكم لا تسموه أبا الفضل ما الذي رأيتم له من الفضل حتى تسموه أبا الفضل سموه محمدا لا أسمع أحدا يناديه بغيره إلا فعلت به وفعلت يتوعد بالأدب قالت فسميناك محمدا ففرج الله عنك انتهى ومن فوائده ما حكى في بعض فتاويه قال حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عرفة رحمه الله تعالى أول مجلس حضرته فقرا " ومن يعيش عن ذكر الرحمن " الزخرف 36 فجرى بيننا مذكرات رائقة وأبحاث حسنة فائقة منها أنه قال فرئ يعيشو بالرفع ونقيض بالجزم ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته وذكر أن في النسخة خللا وذكر بعض ذلك الكلام فاهتديت إلى تمامه فقلت يا سيدي معنى ما ذكره أن جزم نقيض بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة فوافق رحمه الله تعالى وفرح كما أن الإنصاف كان طبعه وعند ذلك أنكر علي جماعة من أهل المجلس وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط فقلت نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو الذي يأتيني فله درهم من ذلك فنازعوني في ذلك وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل فقلت قال ابن مالك فيما يشبه المسألة وقد يجزم متسبب عن صلة الذي تشبها بجواب الشرط وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر

" كذاك الذي يبغى على الناس طالما ... تصبه على رغم عواقب ما صنع "

فجاء الشاهد موافقا للحال انتهى بنقل تلميذه المازوني

وقد ذكر الشيخ ابن غازي الحكاية في فهرسته في ترجمة شيخه الأستاذ الصغير وفيها بعض مخالفة لما تقدم فلنسقه قال حدثني أنه بلغه عن ابن عرفة أنه كان يدرس من صلاة الغداة إلى الزوال يقرئ فوننا وبيئديء بالتفسير وأن الإمام ابن مرزوق أول ما دخل عليه وجده يفسر هذه الآية " ومن يعيش عن ذكر الرحمن " فكان أول ما فاتحه أن قال له هل يصح كون من هنا موصولة فقال ابن عرفة كيف وقد جزمتم فقال له تشبها لها بالشرط فقال ابن عرفة إنما يقدم على هذا بنص من إمام أو شاهد من كلام العرب فقال أما النص فقول التسهيل كذا وأما الشاهد فقول الشاعر

" فلا تحفرن بئرا تريد أبا بها ... فإنك فيها أنت من دونه تقع "

" كذاك الذي يبغى على الناس طالما ... تصبه على رغم عواقب ما صنع "

فقال ابن عرفة فانت إذا ابن مرزوق قال نعم فرحب به انتهى وهو خلاف ما تقدم والأول أصوب لنقل غير واحد أن جزم الموصولات إنما يكون في الجواب لا في الشرط والله تعالى أعلم وفي بعض المجاميع أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انقضى المجلس ومن فوائده أنه كان يصرف لفظ أبي هريرة بناء على أن جزء العلم غير علم وخالفه أهل فاس في ذلك لما بلغهم ومال الأستاذ الصغير والحافظ القوري إلى منع الصرف لوجه ليس هذا موضعها ومنها قول ابن مالك

" ... ولاضطرار كينات الأوبر "

فإنه مؤذن بان جزء العلم علم وقد ألف في المسألة ابن العباس التلمساني تأليفا سماه الاعتراف في ذكر ما لفظ أبي هريرة من الإنصاف انتهى

ومن نظمه رحمه الله تعالى

" بلد الجدار ما أمر نواها ... كلف الفؤاد بحبها وهواها "

" يا عادلي كن عاذري في حبها ... يكفيك منها ماؤها وهواها "

يعني ببلد الجدار تلمسان ولذلك قال في رجز في علم الحديث ما صورته

" ومن بها أهل ذكاء وفطن ... في رابع من الأقاليم قطن "

" يكفيك أن الداودي بها دفن ... مع ضجيعه ابن عزلون الفطن "

قلت وحدثني عمي الإمام سيدي سعيد المقرئ رحمه الله تعالى أن العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان فأجابهم إلى ذلك وعينوا له محل البدء فطالع فيه فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك وهو

قوله تعالى " فمثله كمثل الكلب " الآية الأعراف 176 وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به فوجم هنيهة ثم تفجر بينابيع العلم إلى أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة وساقها أحسن مساق وأنشد عليها الشواهد وجلب الحكايات حتى عد من ذلك جملة ثم قال في آخرها فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله غير أن فيه واحدة ذميمة وهي إنكاره الضيف ثم افترق المجلس وأخبرني أنه أطال في ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر وقد طال عهدي بالحكاية وإنما نقلتها بمعناها من حفظي وهي من الغرائب ولولا الإطالة لذكرت ما وقع له مع بعض علماء برصه في الحجاز حسبما ذكره في مناقب شيخه المصمودي رحم الله الجميع رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين فنقول

ومن مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن علي بن الجياب وهو كما في الإحاطة علي بن - 19 محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري الغرناطي أبو الحسن قال وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ ومن مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي وخلق قال وقد دونت شعره فمن معشراته قوله في حرف الجيم

" جريئاً على الزلات غير مفكر ... جباناً على الطاعات غير معرج "

" جمعت لما يفنى اغتراراً بجمعه ... وضيعت ما يبقى سجية أهوج "

" جنونا بدار لا يدوم سرورها ... فدعها سدى ليست بعشك فأدرجي "

" جياذك في شأو الضلال سوابق ... تفوت مدى سن الوجيه وأعوج "

" جهلت سبيل الرشيد فأقصد دليله ... تجد دار سعد بابها غير مرتج "

" جناب رسول ساد أولاد آدم ... وقرب في السبع الطبايق بمعرج "

" جمال أنار الأرض شرقاً ومغرباً ... فكل سنا من نوره المتبلج "

" جلا صدأ المرتاب أن سيح الحصى ... لديه بنطق ليس بالمتلجلج "

" جعلت امتداحي والصلاة عليه لي ... وسائل تحظيني بما أنا مرتج "

وقال من الأغراض الصوفية السلطانية

" هات اسقني صرفاً بغير مزاج ... راحي التي هي راحتي وعلاجي "

" إن صب منها في الزجاج قطرة ... شف الزجاج عن السنن الوهاج "

" وإذا الخليع أصاب منها شربة ... حاجاه بالسر المصون مجاجي "

" وإذا المرید إصاب منها جرعة ... ناجاه بالحق المبين مناجي "

" تاهت به في مهمه لا يهتدي ... فيه لتأوب ولا إدلاج "

" يرتاح من طرب بها فكأنما ... غنته بالأرمان والأهزاج "

" هبت عليه نسمة قدسية ... في فيء باب دائم الإرتاج "

" فإذا اتثنى يوماً وفيه بقية ... سارت به قصدا على المنهاج "

" وإذا تمكن منه سكر معربد ... فليصبرن لمصرع العلاج "

" قصرت عبارة فيه عن وجدانه ... فغدا يفيض بمنطق لجلاج "

" أعشاه نور للحقيقة باهر ... فتراه يخبط في الظلام الداجي "

" رام الصعود بها لمركز أصله ... فرمت به في بحرهما الموج "

" فلئن أمد برحمة وسعادة ... فليخلصن من بعد طول هياج "

" وليرجعن بنعمة موفورة ... ما شيب عذب شرابها بأجاج "

" ولئن تخطاه القبول لما جنى ... فليرجعن نكسا على الأدرج "

" ما أنت إلا درة مكنونة ... قد أودعت في نطفة أمشاج "

" فاجهد على تخليصها من طبعها ... تعرج بها في أرفع المعراج "

" واشدد يدك معا على حبل التقى ... فإن اعتصمت به فأنت الناجي "

" ولدى العزيز ابسط بساط تذلل ... وإلي الغني امدد يد المحتاج "

" هذا الطريق له مقدمتان صادقتان ... أنتجتا أصح نتاج "

" فاجمع إلى ترك الهوى حمل الأذى ... واقنع من الإسهاب بالإدماج "

" حرفان قد جمعا الذي قد سطروا ... من بسط أقوال وطول حجاج "

" والمشرّب الأصفى الذي من ذاقه ... فقد اهتدى منه بنور سراج "

" أن لا ترى إلا الحقيقة وجدها ... والكل مضطر إليها لاجي "

" هذي بدائع حكمة أنشأتها ... بإشارة المولى أبي الحجاج "

" وسع الأنام بفضله وبعده ... ويحلّمه ويجوده الثجاج "

" من آل نصر نخبة الملك الرضى ... أمن المروع هم وغيث الراجي "

" من آل قبيلة ناصري خير الورى ... والخلق بين تخاذل ولجاج "

" ماذا أقول وكل قول قاصر ... في وصف بحر زاخر الأمواج "

" منه لباعي العرف در فاخر ... ولمن يعادي الدين هول فاجي "

" دامت سعودك في مزيد والمنى ... تأتيك أفواجا على أفواج "

وقال من المطولات

" لمن المطايا في السراب سوابجا ... تغلى الفلاة غواديا وروانجا "

" عوج كأمثال القسي ضوامر ... يرمين في الآفاق مرمى نازحا "

وقال يمدح ويصف مصنعا سلطانيا

" زارت تجر بنخوة أذيالها ... هيفاء تخلط بالنفار دلالتها "

" فالشمس من حسد لها مصفرة ... إذ قصرت عن أن تكون مثالها "

" وافتك تمزج لينها بقساوة ... قد أدرجت طي العتاب نوالها "

" كم رمت كتم مزادها لكنه ... صحت دلائل لم تطق إعلالها "

" تركت على الأرجاء عند مسيرها ... أرجا كأن المسك فت خلالها "

" ما واصلتك محبة وتفضلا ... لو كان ذاك لواصلت إفضالها "

" لكن توقعت السلو فجددت ... لك لوعة لا تتقي ترحالها "

" فوحبها قسما يحق بروره ... لتجشمنك في الهوى أهوالها "

" حسنت نظم الشعر في أوصافها ... إذ قبحت لك في الهوى أفعالها "

" يا حسن ليلة وصلها ما ضرها ... لو أتبع من بعدها أمثالها "

" لما سكرت بريقها وجفونها ... أهملت كأسك لم ترد إعمالها "

" هذا الربيع أنك ينشر حسنه ... فافسح لنفسك في مداه مجالها "

" واخلع عذارك في البطالة جامحا ... واقرن بأسحار الهنا أصلها "

" في جنة تجلو محاسنها كما ... تجلو العروس لدى الزفاف جمالها "

" شكرت أيادي للحيا شكر الورى ... شرف الملوك همامها مفضالها "

" وصميمها أصلا وفرعا خيرها ... ذاتا وخلقاً سمحها بذالها "

" الطاهر الأعلى الأمين المرتضى ... بحرالمكارم غيظها سلسالها "

" حاز المعالي كابرا عن كابر ... وجرى لغايات الكرام فنالها "

" إن تلقه في يوم بذل هباته ... تلق الغمام أرسلت هطالها "

" أو تلقه في يوم جرب عداته ... تلق الضراغم فارقت أشبالها "

" ملك إذا ما صال يوما صولة ... خلت البسيطة زلزلت زلزالها "

" فبسيبه وبسيفه نلت المنى ... واستعجلت أعداؤه آجالها "

" الواهب الآلاف قبل سؤالها ... فكفى العفاة سؤالها ومطالها "

" القائل الآلاف قبل قراعتها ... فكفى العداة قراعتها ونزالها "

" إن قلت بحر كفه قصرت إذ ... شبهت بالملح الأجاج نوالها "

" ملأ البسيطة عدله وأمانه ... فالوحش لا تعدو على من غالها "

" وسقى البرية فيض كفيه فقد ... عم البلاد سهولها وجبالها "

" جمع العلوم عناية بعيونها ... آدابها وحسابها وجدالها "

" منقولها معقولها وأصولها ... وفروعها تفصيلها إجمالاً "

" فإذا عفاتك عاينوك تهللوا ... لما رأوا من كفك استهللالها "

" وإذا عداتك أبصروك تيقنوا ... أن المنية سلطت رثبالها "

" بددت شملهم بيض صوارم ... رويت من علق الكمأة نصالها "

" وأبحت أرضهم فأصبح أهلها ... خورا تغادر نهبة أموالها "

" فتحت إمارتك السعيدة للورى ... أبواب بشرى واصلت إقبالها "

" وبنت مصانع رائقات ذكرت ... دار النعيم جنانها وظلالها "

" وأجلها قدرا وأرفعها مدى ... هذا الذي سامى النجوم وطالها "

" هو جنة فيها الأمير مخلد ... بلغت إمارته بها أمالها "

" ولأرض أندلس مفاخر أنتم ... أربابها أضغيتم سربالها "

" فحميتم أرجاءها وكفيتم ... أعداءها وهديتم ضلالها "

" فبال نصر فاخرت لا غيرهم ... لم تعتمد من قبلهم أقيالها "

" بمحمد ومحمد ومحمد ... قصرت على الخصم الألد نضالها "

" فهم الألى ركبوا لكل عظيمة ... جردا كسين من النجيع جلالها "

" وهم الألى فتحوا لكل ملمة ... بابا أزاح بفتحها إشكالها "

" متقلدون من السيوف عضابها ... متأبطون من الرماح طولها "

" الراكبون من الجياد عرابها ... والضاريون من العدا أبطالها "

" أولي عهد المسلمين ونخبة الأملاك ... صفوة محضها وزلالها "

" إن العباد مع البلاد مقرة ... بفضائل لك مهدت أحوالها "

" فتفك غانيها وتحمي سربها ... وتفيد حلما دائما جهالها "

وقال يرثي ولده أبا القاسم رحمهما الله تعالى

" هو البين حتما لا لعل ولا عسى ... فما بال نفسي لم تفض عنده أسى "

" وما لفؤادي لم يذب منه حسرة ... فتبا لهذا القلب سرعان ما قسا "

" وما لجفوني لا تفيض موردا ... من الدمع يهمني تارة ومورسا "

" وما للسانني مفضحا بخطابه ... وما كان لو أوفى بعهد لينبسا "

" أمن بعد ما أودعت روحي في الثرى ... ووسدت مني فلذة القلب مرمسا "

" وبعد فراق ابني أبي القاسم الذي ... كسانني ثوب الثكل لا كان ملبسا "

" أوئل في الدنيا حياة وأرتضي ... مقبلا لذى أبنائها ومعرسا "

" فأها وللمفجوع فيها استراحة ... ولا بد للمصدور أن يتنفسا "

" على عمر أفنيت فيه بضاعتي ... فأسلمني للقبر حيران مغلسا "

" ظللت به في غفلة وجهالة ... إلى أن رمى سهم الفراق فقرطسا "

" إلى الله أشكو برح حزني فإنه ... تليس منه القلب ما قد تلبسا "

" وهدة خطب نازلتنني عشية ... فما أغنت الشكوى ولا نفع الأسا "

" فقد صدعت شملي وأصمت مقاتلي ... وقد هدمت ركني الوثيق المؤسسا "

" ثبت لها صبرا لشدة وقعها ... فما زلزلت صبري الجميل وقد رسا "

" وأطمع أن يلقي برحمته الرضى ... وأجزع أن يشقي بذنب فينكسا "

" أبا القاسم اسمع شكو والدك الذي ... حسا من كؤوس البين أقطع ما حسا "

" وقفت فؤادي مذ رحلت على الأسى ... فأشهد لا ينفك وقفا محبسا "

" وقطعت أمالي من الناس كلهم ... فليست أبالي أحسن المرء أم أسا "

" تواريت يا بدري وشمسي ناظري ... فصار وجودي مذ تواريت حندسا "

" وخلفت لي عبنا من الثكل فادحا ... فما أتعب الثكلان نفسا وأتعسا "

" أحقا ثوى ذاك الشباب فلا أرى ... له بعد هذا اليوم حولي مجلسا "

" فيا غصنا نضرا ثوى عندما استوى ... وأوحشني أضعاف ما كان أنسا "

" ويا نعمة لما تبلغتها انقضت ... فأنعم أحوالي بها صار أبؤسا "

" لودعته والدمع تهمني سحابه ... كما أسلم السلك الفريد المخمسا "

" وقبلت في ذاك الجبين مودعا ... لأكرم من نفسي علي وأنفسا "

" وحققت من وجدي به قرب رحلتي ... وماذا عسى أن ينظر الدهر من عسا "

" فيا رحمة للشيب ييكي شبيبة ... قياس لعمرى عكسه كان أقيسا "

" فلو أن هذا الموت يقبل فدية ... حيوانه أموالا كراما وأنفسا "

" ولكنه حكم من الله واجب ... يسلم فيه من بخير الورى اتنسى "

" تغمذك الرحمن بالعمفو والرضى ... وكرم مثواك الجديد وقديسا "

" وألف منا الشمل في جنة العلا ... فنشرب تسنيما ونلبس سندسا "

وكتب إلى القاضي الشريف وهو بوادي أش

" أهزلا وقد جدت بك اللمة الشمطا ... وأمنا وقد ساورت يا حية رقطا "

" أغرك طول العمر في غير طائل ... وسرك أن الموت في سيره أبطا "

" رويدا فإن الموت أسرع وافد ... على عمرك الغاني ركائبه حطا "

" فإذا ذاك لا تستطيع إدراك ما مضى ... بحال ولا قبضا تطيق ولا بسطا "

" تاهب فقد وافى مشيك منذرا ... وها هو في فوديك أحرقه خطا "

" فوافقت منه كاتب السر واشيا ... له القلم الأعلى يخط به وخطا "

" معمى كتاب فكه احذر فهذه ... سفينة هذا العمر قاربت الشطا "

" وإن طالما خاضت به اللجج التي ... خبطت بها في كل مهلكة خطا "

" وما زلت في أمواجه متقلبا ... فأونة رفعا وأونة حطا "

" فقد أوشكت تلقيك في فعر حفرة ... تشد عليك الجانبين بها ضغطا "

" وليست على علم بما أنت بعدها ... ملاق أرضوانا من الله أم سخطا "

" وأعجب شيء منك دعواك في النهى ... وهذا الهوى المردي على العقل قد غطى "

" قسطت عن الحق المبين جهالة ... وقد خالفتك النفس فادعت الفسطا "

" وطاوعت شيطاننا تجيب إذا دعا ... وتقبل إن أغوى وتأخذ إن أعطى "

" تنأى عن الأخرى وقد قربت مدى ... تدانى من الدنيا وقد أزمعت شحطا "

" وتمنحها حبا وفرط صباية ... وما منحت إلا القنادة والخرطا "

" فها أنت تهوي وصلها وهي فارك ... وتأمل قريبا من حماها وقد شطا "

" صراط هدى نكبت عنه عماية ... ودار ردى أوعيت في سحتها سرطا "

" فما لك إلا السيد الشافع الذي ... له فضل جاه كل ما يرتجي يعطي "

" دليل إلى الرحمن فانهج سبيله ... فمن حاد عن نهج الدليل فقد أخطا "

" محبته شرط القبول فمن خلت ... صحيفته منها فقد فقد الشرطا "

" وما قبلت منه لدى الله قربة ... وما زكت الأعمال بل حبطت حبطا "

" به الحق وضاح به الإفك زاهق ... به الفوز مرجو به الذنب قد حطا "

" هو الملجأ الأحمى هو الموثل الذي ... به في غد يستشفع المذنب الخطا "

" لقد مازجت روحي محبته التي ... بقلبي خطت قبل أن أعرف الخطا "

" إليك ابن خير الخلق بنت بديهة ... تقبل تبجيلا أناملك السبطا "

" وحيدة هذا العصر وافت وحيدة ... لتبسط من شتى بدائعها بسطا "

" وتتلو آيات التشيع إنها ... لموثقة عهدا ومحكمة ربطا "

" لك الشرف الماثور يا ابن محمد ... وحسبك أن تنمى إلى سبطه سبطا "

" إلى شرفي دين وعلم تظاهرا ... تبارك من اعطى وبورك في المعطى "

" ورهطك أهل البيت بيت محمد ... فأعظم به بيتا وأكرم به رهطا "

" بعثت به عقدا من الدر فاخرا ... وذكر رسول الله درته الوسطى "

" وأهديت منها للسيادة غادة ... نظمت من الدر الثمين بها سمطا "

" وحاشيتها من كل ما شأنها فإن ... تجعد حوشي تجد لفظها سبطا "

" وفي الطبيين الطاهرين نظمها ... فساعدها من أجل ذلك حرف الطا "

" عليك سلام الله ما ذر شارق ... وما رددت ورقاء في غصن لغطا "

وقال

" لله عصر الشباب عصرا ... فتح للخير كل باب "

" حفظت ما شئت فيه حفظا ... كنت أراه بلا ذهاب "

" حتى إذا ما المشيب وافى ... ند ولكن بلا إياب "

" لا تعتنوا بعدها بحفظ ... وقيدوا العلم بالكتاب "

وقال

" يا أيها الممسك البخيل ... إلهك المنفق الكفيل "

" أنفق وثق بالإله تريح ... فإن إحسانه جزيل "

" وقدم الأقربين واذكر ... ما روي أبدأ بمن تعول "

وقال

" وقائله لم عراق المشيب ... وما إن بعهد الصبا من قدم "

" فقلت لها لم أشب كبرة ... ولكنه الهم نصف الهرم "

وقال

" أيعتادني سقم وأنت طبيب ... وتبعد آمالي وأنت قريب "

" يقيني أن الله جل جلاله ... يقيني فراحي الله ليس يخيب "

وقال

" هي النفس إن أنت سامحتها ... رمت بك أقصى مهاوي الخديعه "

" وإن أنت جشمتها خطة ... تنافي رضاها تجدها مطيعه "

" فإن شئت فوزا فناقض هواها ... وإن وصلتك اجزها بالقطيعة "

" ولا تعبأ بميعادها ... فميعادها كسرأب بقية "

وقال

" من أنت يا مولى الورى مقصوده ... طوبى له قد ساعدته سعوده "

" فليشهدنك له فؤاد صادق ... وشهوده قامت عليه شهوده "

" وليغنين عن نفسه ورسومه ... طرا وفي ذاك الغناء وجوده "

" وليحفظنه بارق يرقى به ... في أشرف المعراج ثم يعيده "

" حتى يظل وليس يدري دهشة ... تقريبه المقصود أن تبعده "

" لكنه ألقى السلاح مسلما ... فمراده ما أنت منه تريده "

" فلقد تساوى عنده إكرامه ... وهوانه ومفيده ومبيده "

وقال ملغزا في حجل

" حاجيت كل فطن لبيب ... ما اسم لأنثى من بني يعقوب "

" ذات كرامات فزرها قرية ... فزورها أحق بالتقريب "

" تشركها في الاسم أنثى لم تزل ... حافظة لسرها المحجوب "

" وقد جرى في خاتم الوحي الرضى ... لها حديث ليس بالمكذوب "

" وهو إذا ما الفاء منه صحفت ... صبغ الحياء لا الحيا المسكوب "

" فهاكها واضحة أسرارها ... فأمرها أقرب من قريب "

وقال أيضا في أب

" حاجيتكم ما اسم علم ... ذو نسبة إلى العجم "

" يخبر بالرجعة وهو ... راجع كما زعم "

" وصف الحبيب هو بالتصنيف ... أو بدء قسم "

" دونكه أوضح من ... نار على رأس علم "

وقال في كانون

" وما اسم لسبيين ... ولم يجمعهما جنس "

" فهذا كلما يأتي ... فبالآخر لي أنس "

" وهذا ما له شخص ... وهذا ما له حس "

" وهذا ما له سوم ... وذا قيمته فلس "

" وهذا أصله الأرض ... وهذا أصله الشمس "

" وهذا واحد من سبعة ... تحيا بها النفس "

" فمن محموله الجن ... ومن موضوعه الإنس "

" فقد بان الذي ألغزت ... ما في أمره لبس "

وقال في سلم

" ما اسم مركب مفيد الوضع ... مستعمل في الوصل لا في القطع "

" ينصب لكن أكثر استعمال من ... يعنى به في الخفض أو في الرفع "

" هو إذا حقيقته مغيرا ... تراه شملا لم يزل ذا صدع "

" فالاسم إن طلبته تجده في ... خامسة من الطوال السبع "

" وهو إذا صحفته يعرب عن ... مكسر في غير باب الجمع "

" له أخ أفضل منه لم تزل ... آثاره محمودة في الشرع "

" هما جميعا من بني النجار والأفضل ... أصل في حنين الجذع "

" فهاكه قد سطعت أنواره ... لا سيما لكل زاكي الطبع "

وقال في مائدة

" حاجيت كل فطن نظار ... ما اسم لأنثى من بني النجار "

" وفي كتاب الله جاء ذكرها ... فقلما يغفل عنها القاري "

" في خبر المهدي فاطلبها تجد ... إن كنت من مطالعي الأخبار "

" ما هي إلا العيد عيد رحمة ... ونعمة ساطعة الأنوار "

" يشركها في الاسم وصف حسن ... من وصف قضب الروضة المعطار "

" فهاكه كالشمس في وقت الضحى ... قد شف عنها حجب الأستار "

ثم قال لسان الدين وأما نثره فمطولات عرفت بما تخللها من الأحوال متونها وقلت لمكان البديهة

والاستعجال عيونها وقد اقتنصت جزءا منها سميت تافه من جم ونقطة من يم وولد بغرناطة في جمادى الأولى عام ثلاثة وسبعين وستمائة وأنشدت من نظمي في رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة تسعة وأربعين وسبعمائة وأنشدت من نظمي في رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة

" ما للبراع خواضع الأعناق ... طرق النعي فهن في إطراق "

" وكأنما صبغ الشحوب وجوهها ... والسقم من جزع ومن إشفاق "

" ما للصحائف صوحت روضاتها ... أسفا وكن نصيرة الأوراق "

" ما للبيان كؤوسه مهجورة ... غفل المدير لها ونام الساقبي "

" ما لي عدمت تجلدي وتصيري ... والصبر في الأزمات من أخلاقي "

" خطب أصاب بني البلاغة والحجي ... شب الزفير به عن الأطواق "

" أما وقد أودى أبو الحسن الرضى ... فالفضل قد أودى على الإطلاق "

" كنز المعارف لا تبعد نقوده ... يوما ولا تفنى على الإنفاق "

" من للبدائع أصبحت سمر السرى ... ما بين شام للورى وعراق "

" من للبراع يجيل من خطيها ... سم العدا ومفتاح الأرزاق "

" قضب ذوابل مثمرات بالمنى ... وأراقم ينفثن بالترباق "

" من للرقاع الحمر يجمع حسنها ... خجل الخدود وصيغة الأحداق "

" تغتال أحشاء العدو كأنها ... صفحات دامية الغرار رفاق "

" وتهز اعطاف الولي كأنها ... راح مشعشعة براحة ساقبي "

" من للفنون يجيل في ميدانها ... خيل البيان كريمة الأعراق "

" من للحقائق أبهمت أبوابها ... للناس يفتحها على استغلاق "

" من للمساعي الغر تقصد جاهه ... حرما فينصرها على الإخفاق "

" كم شد من عقد وثيق حكمه ... في الله أو أفتى بحل وفاق "

" رحب الذراع بكل خطب فادح ... أعيت رياضته على الحذاق "

" صعب المقادة في الهوادة والهوى ... سهل على العافين والطراق "

" ركب الطريق إلى الجنان وحورها ... يلقيه بتصافح وعناق "

" فأعجب لأنس في مظنه وحشة ... ومقام وصل في مقام فراق "

" أمطيبا بمحامد العمل الرضى ... ومكفنا بمكارم الأخلاق "

" ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى ... رضوى تسير به على الأعناق "

" ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى ... أن اللحد خزائن الأعلاق "

" يا كوكب الهدى الذي من بعده ... ركد الظلام بهذه الآفاق "

" يا واحدا مهما جرى في حلبة ... جلى بغرة سابق السباق "

" يا ثاوي بطن الصريح وذكره ... أبدا رفيق ركائب ورفاق "

" يا غوث من وصل الصريح فلم يجد ... في الأرض من وزر ولا من واق "

" ما كنت إلا ديمة منشورة ... من غير إرعاد ولا إبراق "

" ما كنت إلا روضة ممطورة ... ما شئت من ثمر ومن أوراق "

" يا مزمعا عنا العنشي ركابه ... هلا ثويت ولو بقدر فواق "

" رفقا أبانا جل ما حملتنا ... لا تنس فينا عادة الإشفاق "

" واسمح ولو بمزار لبقيا في الكرى ... تبقي بها منا على الأرماق "

" وإذا اللقاء تصرمت أسبابه ... كان الخيال تعلقة المشتاق "

" عجبا لنفس ودعتك وأيقنت ... أن ليس بعد نواك يوم تلاقي "

" ما عذرها إن لم تقاسمك الردى ... في فضل كأس قد شربت دهاق "

" إن قصرت أجفاننا عن أن ترى ... تبكي النجيع عليك باستحقاق "

" واستوقفت دهشا فإن قلوبنا ... نهضت بكل وظيفة الأماق "

" ثق بالوفاء على المدى من فتية ... بك تقتدى في العهد والميثاق "

" سجعت بما طوقتها من منة ... حتى زرت بحمائم الأطواق "

" تبكي فراقك خلوة عمرتها ... بالذكر في طفل وفي إشراق "

" أما الثناء على علاك فذائع ... قد صح بالإجماع والإصفاق "

" والله قد قرن الثناء بأرضه ... بثنائه من فوق سبع طباق "

" جادت ضريحك ديمة هطالة ... تبكي عليه بواكف رفاق "

" وتعمدتك من الإله سعادة ... تسمو بروحك للمحل الراقي "
 " صبيرا بنى الجياب إن فقيدكم ... سيسر مقدمه بما هو لاق "
 " وإذا الأسى لفح القلوب أواره ... فالصير والتسليم أي رواق "
 " وأنشد في هذا الغرض الفقيه أبو عبد الله ابن جزى "
 " ألم تر أن المجد أقوت معالمه ... فأطنابه قد قوضت ودعائمه "
 " هوى من سماء المعلوات هلالها ... وخانت جواد المكرمات قوائمه "
 " وتلت من الفخر المشيد عروشه ... وقلت من العز المنيع صوارمه "
 " وعطل من حلي البلاغة قسها ... وعري من جود الأنامل حاتمته "
 " أجل إنه الخطب الذي جل وقعه ... وثلم غرب الدين والعلم هاجمه "
 " وإلا فما للنوم طار مطاره ... وما للزيم الحزن قصت قوادمه "
 " وما لصباح الأنس أظلم نوره ... وما لمحيا الدهر قطب باسمه "
 " وما لدموع العين فضت كأنها ... فواقع زهر والجفون كمائمه "
 " قضى الله في قطب الرياسة أن قضى ... فشتت ذاك الشمل من هو ناظمه "
 " ومن قارع الأيام سبعين حجة ... ستنبو غراره ويندق قائمه "
 " وفي مثلها أعبا النطاسي طبه ... وضل طريق الحزم في الرأي حازمه "
 " تساوى جواد في رداه وباخل ... فلا الجود واقبه ولا البخل عاصمه "
 " وما نفعت رب الجياد كرامه ... ولا منعت منه الغني كرائمه "
 " وكل تلاق فالغراق أمامه ... وكل طلوع فالغروب ملازمه "
 " وكيف مجال العقل في غير منفذ ... إذا كان باني مصنع هو هادمه "
 " لييك عليا مستجير بعدله ... يصاخ لشكواه ويمنع ظالمه "
 " لييك عليا مائح بحر علمه ... يروى بأنواع المعارف هائمه "
 " لييك عليا مظهر فضل نصحه ... يحلا عن ورد المائم حائمه "
 " لييك عليا معترف جود كفه ... يواسيه في أمواله ويقاسمه "
 " لييك عليا ليله وهو قائم ... يكابده أو يومه وهو صائمه "
 " لييك عليا فضل كل بلاغة ... يخلده في صفحة الطرس راقمه "
 " وشخص ضئيل الجسم يرهب نفته ... ليوث الثرى في خيسها وضراغمه "
 " تكفل بالرزق المقدر للورى ... إذا الله أعطى فهو في الناس قاسمه "
 " يسدده سهما وينضوه صارما ... ويشعره رمحا فكل يلائمه "
 " إذا سال من شقيه سائل حيره ... بما شاء منه سائل فهو عالمه "
 " لييك عليه اليوم من كان باكيا ... فتلك مغانيه خلت ومعالمه "
 " تقلد منه الملك غضب بلاغة ... يقدر السلوقي المضاعف صارمه "
 " وقلده مثنى الوزارة فاكتفى ... بها ألمعي حازم الرأي عازمه "
 " ففي يده وهو الزعيم بحقها ... براعته والمشرقي وخاتمته "
 " سخي على العافين سهل قياده ... أبي على العادين صعب شكائمه "
 " إذا ضلت الآراء في ليل حادث ... رأها براي يصدع الخطب ناجمه "
 " وقام بأمر الدين والملك حاميا ... فذل معاديه وذل مراغمه "
 " وقد كان نيط العلم والحلم والتقى ... به وهو ما نيطت عليه تمانمه "
 " ودوخ أعناق الليالي بهمة ... يبيت ونجم الأفق فيها يراحمه "
 " وزاد على بعد المنال تواضعا ... أبى الله إلا أن تتم مكارمه "
 " سقيت الغواذي أي علم وحكمة ... ودين متين ذلك القبر كاتمته "
 " وما زال يستسقى بدعوتك الحيا ... وها هو يستسقى لقبرك ساجمه "
 " بكت فقدك الكتاب إذ كان شملهم ... يؤلفه من دوح فضلك ناعمه "
 " وطوقتهم بالبر ثم سقيتهم ... نذاك فكنت الروض ناحت حمائمته "
 " وبيكيك مني ذاهب الصبر موجع ... توقد في جنبه للحزن جاحمه "
 " فتى نال منه الدهر إلا وفاءه ... فما وهنت في حفظ عهد عزائمته "
 " عليل الذي زرت عليه جيوبه ... قريح الذي شدت عليه حزائمته "
 " فقد كنت ألقى الخطب منه بجنة ... تعارض دوني بأسه وتصادمه "
 " سأصبر مضطرا وإن عظم الأسى ... أحارب حزني مرة وأسالمه "

" وأهدبك إذ عز اللقاء تحية ... وطيب ثناء كالعبير نواسمه "
 وأنشد الفقيه القاضي أبو جعفر ابن جزى قصيدة أولها
 " أبثكما والصبر للعهد ناكث ... حديثا أملتة علي الحوادث "
 وأنشد القاضي أبو بكر ابن علي القرشي قصيدة أولها
 " هي الآمال غايتها نفاذ ... وفي الغايات تمتاز الجياد "
 وأنشد الفقيه الكاتب القاضي أبو القاسم ابن الحكم قصيدة أولها
 " لينع الحجى والحلم من كان ناعيا ... ويرع العلا والعلم من كان راعيا "
 قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض فكان هذا التأبين غريبا لم يتقدم به عهد بالحضرة
 لكونها دار ملك والتجلة في مثل هذا مقصورة على أولي الأمر انتهى ما لخصته من ترجمته في
 الإحاطة

ولنرد فنقول ومن ألغازه في الدرهم
 " ما يغيض إلى الكرام خصوصا ... وحبیب إلى الأنام عموما "
 " فاعجبوا منه كيف يحمي ويحمى ... ويكف الغدا ويغني العديما "
 " إن تغير شطريه فالأول اسم ... يالف الضرع والغمام السجوما "
 " ويكون الثاني كبير أناس ... حطمتة حياته تحطیما "
 " فإذا ما قلبت أول شطر ... رد منطوق لغزه مفهوما "
 " وإذا ما قلبت ثاني شطر ... كان كفا وليس كفا رقيما "
 " قلبه بعد حذفك الفاء منه ... وهو شيء يحلل التحريما "
 " أو صغير مستحسن لم يؤدب ... إن تعلمه يقبل التعليما "
 " فلتبين ما قلته ولتعين ... وبه فلتقم مقاما كريما "

وقال في المسك
 " ما طاهر طيب ولكن ... ما أصله من ذوي الطهارة "
 " من الأطباء الحسان لكن ... إذا تأملتة ففاره "
 " نص حديث الرسول فيه ... شهادة تقتضي بشاره "
 " تصحيفه بعد حذف حرف ... منزلك الأهل العمارة "

يعني مبني

وقال في فلك

" ما اسم لشيء مرتقي ... في مغرب ومشرق "
 " إذا حذفت فاءه ... كان لك الذي بقي "

وقال أيضا في الفنار

" ما اسم إذا حذفت منه ... فاءه المنوعة "
 " فإنه ابنة الزنا ... مضافة لأربعة "

يعني ابنة الزناد وهي النار

وقال في النوم

" ما اسم مسماه به ... يسقط حكم التكليف "
 " وإن دخلت البيت ... بالتصحيف حق التعنيف "
 " وإن أردت شبهه ... فقلبه بالتصحيف "
 " بينه فهو في كتاب ... الله بادي التعريف "

وقال في غزال

" حاجيتكم ما اسم شيء ... يروق في الوصف حسنا "
 " له محاسن شتى ... منها فرادى ومثنى "
 " 000000 ... له بل الشعر أثنى "
 " مهما تنله بحذف ... أذاك حرفا لمعنى "
 " إن زال أول حرف ... زال الذي منه يعنى "
 " أو زال ثانيه منه ... فالقتل أدهى وأفنى "
 " أو زال ثالثه فهو ... لغو صب معنى "
 " أو زال رابعه ... فالجهاد فيه تسنى "
 " فأوضح القصد يا من ... قد فاق عقلا وذهنا "

وقال في النمل

" ما حيوان اسمه ... قد جاء في الذكر الحكيم "

" وهو إذا قلبته ... لمن به أنت عليم "

" وإن تصحف اسمه ... فبعض أوصاف اللئيم "

وقال في دواة

" وما أنثى بها رعي الرعايا ... وإمضاء المنايا والقضايا "

" وتقصدها بنوها من رضاع ... إذا انبعثوا لإبرام القضايا "

" لها اسم إن أزلت النقط منه ... فعذ بالله من شر البلايا "

" وإن أبدلت آخره بهمز ... فقد أبرأت نازلة الشكايا "

" وإن بدلت أوله بنون ... أتيت ببعض أرزاق المطايا "

" فأوضح ما رمزناه بفكر ... سديد القصد مبد للخفايا "

وقال في سفينة

" ما ذات نفع وغناء عظيم ... لها حديث في الزمان القديم "

" أوحى بها الله إلى عبده ... فحيزا فعل الرسول الكريم "

" وعابها فيما مضى صالح ... حسبك ما نص الكتاب الحكيم "

" وفي كتاب الله ترددها ... فاقراً تجده في قضايا الكلیم "

" إن أنت صحفت اسمها تلقه ... محل أنس أو بلاء مقيم "

" أو هو فعل لك فيما مضى ... لكن إذا أبرأت داء السقيم "

" فهاكه قد لاح برهانه ... مبينا لكل فكر سليم "

وقال أيضا في المسك

" كتبتم كثيرا ولم تكتبوا ... كهذا الذي سبله واضحة "

" فما اسم جرى ذكره في الكتاب ... فإن شئته فاقرا الفاتحة "

" ففيها مصحف مقلوبه ... يعبر عن حالة صالحه "

" وليست بغادية فاعلموا ... ولكنها أبدا راتحه "

ويعني بقوله في الفاتحة قوله أول الأبيات كتبتم فافهم

وقال في صقر

" حاجيتكم ما اسم لبعض السباع ... تصحيفه ما لك فيه انتفاع "

" وعكسه إن شئت عكسا له ... يوجد لكن عند دور السماع "

" وإن تصحف بعد قلب له ... فمذهب يعزي لأهل النزاع "

" فبين الإلغاز وارفع لنا ... بنور فكر منك عنه القناع "

وقال في الحوت

" ما حيوان في اسمه ... إن اعتبرته فنون "

" أحرفه ثلاثة ... والكل منها هو نون "

" إن أنت صحفت اسمه ... فما جناه المذنبون "

" أو أبيض أو أسود ... أو صفة النفس الخؤون "

" قلب اسمه مصحفا ... عليه دارت السنون "

" كانت به فيما مضى ... عبرة قوم يعقلون "

" أودع فيه زمنا ... سر من السر المصون "

" فهاكه كالنار في الزند ... له فيها كمون "

وقال في لبن

" أديقك ما اسم إذا ما ... صحفته فهو سبع "

" وإن تصحف بعكس ... ففيه للقط شرع "

" والاسم يعرب عما ... لديه ري وشيع "

" في النحل يلفى ولكن ... لا يتقي فيه لسع "

" فليس للنحل أصل ... ولا لها فيه فرع "

" فهاكه قد تبدى ... لحجبه عنه رفع "

وقال في القلم

" وماموم به عرف الإمام ... كما باهت بصحبته الكرام "

" له إذ يرتوي طيشان صاد ... ويسكن حين يعروه الأوامر "

" ويذري حين يستسقي دموعا ... يرقن كما يروق الإبتسام "

وله رحمه الله تعالى كثير من هذا ولم أر أحدا أحكم الإلغاز مثلما أحكمه ابن الجياب المذكور ولولا الإطالة لذكرت منها ما يستدل به على صحة الدعوى وفيما ذكرنا كفاية

ومن نظم الرئيس ابن الجياب المذكور في رثاء عمر بن علي بن عتيق القرشي الهاشمي الغرناطي قوله

" قضي الأمر فيا نفس اصبري ... صبر تسليم لحكم القدر "

" وعزاء يا فؤادي إنه ... حكم ملك قاهر مقتدر "

" حكمه أحكمها تديره ... نحن منها في سبيل السفر "

" أجل مقدر ليس بمستقدم ... يوما ولا مستأخر "

" أحسن الله عزاء كل ذي ... خشية لربه في عمر "

" في إمامنا التقى الخاشع ... الطاهر الذات الزكي النير "

" قرشي هاشمي منتقى ... من صميم الشرف المطهر "

" يشهد الليل عليه أنه ... دائم الذكر طويل السهر "

" في صلاة بعثت وفودها ... زمرا للمصطفى من مضر "

" قائما وراكعا وساجدا ... لطلوع فجره المنفجر "

" جمع الرحمن شملنا غدا ... بحبيب الله خير البشر "

" وتلقته وفود رحمة الله ... تأتي بالرضى والبشر "

قلت هذا النظم وإن برد ما فيه من الزحاف فله من الوعظ وذكر الله ورسوله خير لحاف

قال لسان الدين ولما نظم القاضي أبو بكر ابن شبرين بيت الكتابة ومألف الجملة هذين البيتين

" ألا يا محب المصطفى زد صباية ... وضح لسان الذكر منك بطيبة "

" ولا تعبان بالمبطلين فإنما ... علامة حب الله حب حبيبه "

وأخذ الأصحاب في تذييل ذلك قال الشيخ الرئيس أبو الحسن ابن الجياب رحمه الله تعالى ورضي عنه

" فمن يعمر الأوقات طرا بذكره ... فليس نصيب في الهدى كنصيبه "

" ومن كان عنه معرضا طول ذكره ... فكيف يرجيه شفيع ذنوبه "

وقال أبو القاسم ابن أبي العافية

" أليس الذي جلى دجى الجهل هديه ... بنور أقمنا بعده نهدي به "

" ومن لم يكن من ذاته شكر منعم ... فمشهده في الناس مثل مغيبه "

وقال أبو بكر ابن أرقم

" نبي هदानا من ضلال وحيرة ... إلى مرتقى سامي المحل خصيبه "

" فهل ينكر الملهوف فضل مجيره ... ويغمط شاكي الداء شكر طبيبه "

فانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد ابن أبي المجد فقال

" ومن قال مغرورا حجابك ذكره ... فذلك مغمور طريد عيوبه "

" وذكر رسول الله فرض مؤكد ... وكل محق قائل بوجوبه "

وقال يوما الشيخ أبو الحسن ابن الجياب تجربة للخاطر على العادة

" جاهد النفس جاهدا فإذا ما ... فنيت منك فهو عين الوجود "

" وليكن حكمها المسدد فيها ... حكم سعد في قتله لليهود "

فأجاب أبو محمد ابن أبي المجد بقوله

" أيها العارف المعبر ذوقا ... عن معان عزيزة في الوجود "

" إن حال الفناء عن كل غير ... كمقام المراد غير المرید "

" كيف لي بالجهاد غير معان ... وعدوي مظاهر بجنود "

" ولو أني حكمت فيمن ذكرتم ... حكم سعد لكنت جد سعيد "

" فأراها حباية بي فتونا ... وأراني في حيا كيزيد "

" سوف أسلو بنصحك عن هواها ... ولو أبدت فعل المحب الودود "

" ليس شيء سوى إلهك يبقى ... واعتبر صدق ذا بقول لييد "

ترجمة ابن أبي المجد

وابن أبي المجد المذكور هو عبد الله بن عبد البر بن علي بن سليمان بن محمد بن محمد بن أشعيب الرعييني من أجدونه من كورة ربة يكنى أبا محمد ويعرف بابن أبي المجد كان من أعلام الكورة سلفا وصلاحا ونية في الصالحين كثير الإيثار بما تيسر مليح التخلق حسن السميت طيب النفس حسن الظن له حظ من الأدب والفقه والقراءات والفرائض وخوض في التصوف قطع عمره خطيبا وقاضيا ببلده ووزيرا قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير وابن فضيلة المعافري وابن رشيد وأجازه طائفة كبيرة توفي ليلة النصف من شعبان عام تسعة وثلاثين وسبعمائة رحمه الله تعالى رجع إلى ابن الجياب

ومن نظم ابن الجياب ما كتب على باب المدرسة العلمية بغرناطة
" يا طالب العلم هذا بابه فتحا ... فادخل تشاهد سنانه لاح شمس ضحى "
" واشكر مجيرك من حل ومرتحل ... إذ قرب الله من مرمك ما نزحا "
" وشرفت حضرة الإسلام مدرسة ... بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا "
" أعمال يوسف مولانا ونيته ... قد طرزت صحفا ميزانها رجحا "
ومنه قوله

" أبى الله إلا أن تكون اليد العليا ... لأندلس من غير شرط ولا ثنيا "
" وإن هي عصتها بنوب نواب ... فصيرت الشهد المشور بها شريا "
" فما عدمت أهل البلاغة والحجى ... يقيمون فيها الرسم للدين والدنيا "
" إذا خطبوا قاموا بكل بليغة ... تجلي القلوب الغلف والأعين العميا "
" وإن شعروا جاءوا بكل غريبة ... تخال النجوم النيرات لها حليا "
" فأسأل في الدنيا من الله ستره ... علينا وفي الأخرى إذا حانت اللقيا "

وقال أبو الحسن ابن الجياب
" أرى الدهر في أطواره متقلبا ... فلا تأمنن الدهر يوما فتخدعا "
" فما هو إلا مثلما قال قائل ... مكر مفر مقبل مدبر معا "
وحكي أنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رمانا ثم دخل عليه عائدا فلما رآه قال له يا فقيه نعم بالهدنة زمانك أراد نعمت الهدية رمانك وكان هذا قبل موته من مرضه ببسير وهو مما يدل على ثبوت ذهنه حتى قرب الموت سامحه الله تعالى

ومن نثر ابن الجياب رحمه الله تعالى ما كتبه عن سلطانه إلى بعض سلاطين وقته وهو السلطان أبو سعيد المريني صاحب فاس ونصه المقام لدى الملك المنصور الأعلام والفضل الثابت الأحكام والمجد الذي أشرفت به وجوه الأيام والفخر الذي تتدارس أخباره بين الركن والمقام والعز الذي تغلو به كلمة الإسلام مقام محل الأب الواجب الإكبار والإعظام السلطان الكذا أبقاه الله في ملك منيع الذمار وسعد باهر الأنوار ومجد رفيع المقدار وسلطان عزيز الأنصار كريم المآثر والآثار كفيل بالإعلاء لدين الله والإظهار معظم مقامه وموقره ومجل سلطانه ومكبزه المثني على فضله الذي أرى على ظاهره مضمرة الشاكر لمجده الذي كرم أثره المعتد بابوته العلية في كل ما يقدمه ويؤخره ويورده ويصدره الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في سعد سام مظهره حام عسكره فلان سلام كريم طيب عميم يخص مقامكم الأعلي ورحمة الله وبركاته

أما بعد حمد الله الذي أولاكم ملكا منصورا وفخرا مشهورا وأحيا بدولتكم العلية لمكارم الأخلاق ذكرا منشورا والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي اختاره بشيرا ونذيرا وشرح بهدأيته صدورنا وجعل الملاء الأعلى له ظهيرا والرضى عن آله وصحبه الذين ظاهروه في حياته وخلفوه في أمته بعد وفاته فنالوا في الحالين فضلا مسطورا وأجرا موفورا والدعاء لمقامكم الأعلى أسماه الله تعالى بنصر لا يزال به الإسلام محبوا محبورا وسعد يملأ أرجاء البسيطة نورا فكتبت كتب الله لكم عوائد السعادة وحباكم من آلائه بالحسني والزيادة من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله سبحانه ثم ببركته مقامكم أيد الله تعالى سلطانه إلا الخير الأكمل واليسر الأشمل والحمد لله كثيرا كما هو أهله فلا فضل إلا فضله

وأما الذي عند معظم أمركم من الإعظام لمقامكم والإكبار والثناء المردد المجدد على توالي الأعصار والشكر الذي تتلى سورة أناء الليل والنهار والعلم بما لكم من المكارم التي سار ذكرها في الأقطار أشهر من المثل السيار والاعتداد بسلطانكم العلي في الإعلان والإسرار والاستناد لى جنابكم الكريم في الأقوال والأفعال والأخبار فذلك لا يزال بحمد الله تعالى محفوظا ملحوظا بعين الاستبصار والله ولي العون على ذلك بفضله وطوله وإلى هذا أيد الله تعالى سلطانكم ومهد أوطانكم فقد تقدمت مطالعة

مقامكم أسماه الله أن ملك قشنتال دس من يتحدث في عقد صلح يعود بالهدنة على البلاد ويرتفع به عنها مكابדתه من جهة الأعداء وقدرنا أولاً أن ذلك ليس على ظاهر الحال فيه وأنه يبدي به غير ما يخفيه ولكن جرينا معه في المضمار قصداً للتشوف على الأخبار فلما دار الحديث في هذا الحكم منه أنه قد جنح للسلم وكان خديماً نقرور بحكم الاتفاق قد ورد إشبيلية لبعض أشغاله فاستحضره وأخذ معه في أمر الصلح وشرح أحواله وأعادته إلى معظمكم ليستفهم ما عنده ويعلم مذهبه وقصده فأعيد إليه بأنه إن أراد المصالحة على صلح والده مع هذه الدار النصرية من غير زيادة على شروط تلك القضية ولا يعرض لاسترجاع معقل من المعائل التي أخلصت من يد النصرانية وإن يكون عقده على الجزيرة الخضراء ورندة وغيرهما من البلاد الأندلسية فلا بد من مطالعة محل والدنا السلطان أمير المسلمين أبي سعيد أبيه الله واستطلاع ما يراه وحينئذ نعمل بحسب نظره الجميل ومقتضاه وأكد على نقرور في أنه إن انقاد لهذا الأمر فليعقد معه هدنة لأمد من الدهر بقدر ما يتسع لتعريفكم بهذه الحال وإعلامكم وبسببها فيها نظر مقامكم فما هو إلا أن عاد يوم تاريخ هذا بكتاب ملك قشنتال وقد أجاب إلى الصلح وانقاد إليه على حسب ما شرط عليه وأعطى مهادنة مدة شهر فبربر ليعرف فيها مقامكم ويعلم ما لديه ووافق ذلك وصول الشيخ الفقيه الأجل أبي عبدالله ابن حبشية أعزه الله من بابكم الكريم أسماه الله فأخذ معه في هذا القصد واستفهم عما لديه من مقامكم في ذلك من الإمضاء أو الرد فذكر أنكم قد أذنتم لمعظمكم في عقد السلم على ما يراه من الأحكام إذ ظهر فيها المصلحة لأهل الإسلام فلما عرف مذهبكم الصالح وقصدكم الناجح رأى أن يوجه إلى ملك النصارى من يخلص معه حال الصلح على ما يعود إن شاء الله تعالى على المسلمين بالنجح وقدم تعريفكم بما دار من الحديث بين يدي جوابه الوافد على مقامكم صحة الفقيه أبي عبدالله أعزه الله تعالى ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد في الوقت إلى هدنة يستدرك بها رمقها مما لقيته من جهد الحرب وما حل بها في هذه السنين من القحط والجذب فالصلاح بحمد الله في هذه الحال باذي الظهور وإلى الله عاقبة الأمور هذا ما تزيد لدى معظم مقامكم وما يتزيد بعد فليس إلا المبادرة إلى مطالعتكم وإعلامكم وما كان إمساك الفقيه أبي عبد الله ابن حبشية في هذه الأيام إلا لانتظار خبر الصلح حتى يأتيكم به مستوفى الشرح وها هو قد أخذ في الرجوع إلى بابكم الأسمى والقدوم إلى حضرتكم العظمى والله يصل سعودكم وبحرس وجودكم ويبلغكم أملككم ومقصودكم والسلام ومن إنشأ ابن الجياب رحمه الله تعالى في العزاء بالسلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد الصدر

أما بعد حمد الله الواحد القهار الحي القيوم حياة لا تتقيد بالأعصار القادر الذي كل شيء في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطراب الغني في ملكوته فلا يلحقه لاحق الافتقار المرید الذي يارادته تصريف الأقدار وتقدير الآجال والأعمار العالم الذي لا تعزب عن علمه حفايا الأسرار وخبايا الأفكار مالك الملك وأهله ومدبر الأمور بحكمته وعدله تذكرة لأولي الألباب وعبرة لأولي الأبصار خالق الموت والحياة لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار الذي نهدي بهديه الكريم في الإبراد والإصدار والإحلاء والإمرار في الشدة والرخاء والسراء والضراء بسيره الكريمة الآثار ونتعزى بالمصيبة به عما دهم من المصائب الكبار ونتقدم منه إلى ربنا شفيهاً ماحياً للأوزار وأخذاً بالحجز عن النار ونعلم أننا باتباع سبيله نسعد سعادة الأبرار وبإقامة ملته وحماية شرعته ننال مرضاة الملك الغفار والرضى عن آله وصحبه وأوليائه وحزبه الذين ظاهروه في حياته على إقامة الحق الساطع الأنوار وخلفوه في أمته قائمين بالعدل حامين للذمار والدعاء لمحل أئبنا والدكم قدس الله روحه ويرد ضريحه بالرحمة التي تتعهد روضته التي هي أذكى من الروض المعطار والرضوان الذي يتبوأ به ميوماً صدق في الملوك المجاهدين الأخيار ولمقامكم الأعلى بسعادة المقدر وتمهيد السلطان وبلوغ الأوطار فإننا كتبناه كتب الله لكم عوائد النصر وربط على قلبكم بالصبر من حمراء غرناطة جرسها الله تعالى عندما تحقق لدينا النبأ الذي فت في الأعضاء وشب نار الأكباد والحادث الذي هد أعظم الأطواد وزلزل الأرض الراسية الأوتاد والواقع الذي لولا وجودكم لمحا رسم الأجواد وعطل رسوم الجهاد وكسا الأفاق ثوب الحداد والخطب الذي ضاقت له الأرض بما رحبت وأمرت الدنيا بما عذبت من وفاة محل أئبنا أكبر ملوك المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين والدكم أرحمهم الله تعالى برود رضاه وجعل جنته نزله ومثواه ونفعه بما أسلف من الأعمال الكريمة وما خلده من الآثار العظيمة فإننا لله وإنا إليه راجعون تسليمًا لما قضاه ورضى بما أنفذه وأمضاه وعند الله نحتسب منه والدا شفيهاً حانياً رفيقاً لم يزل يولي الجميل قوله وفعله ويصل لنا من أسباب عنايته ما اقتضاه

فضله وما هو أحق به وأهله
وكنا طول حياته لم نجد أثرا لفقد الوالد لما أولانا من جميل العوائد وكرم المقاصد جزاه الله أحسن
جزائه وأعانا على توفية حقه وأدائه ولمثل هذه المصيبة ولا مثل لها تظلم الأرجاء ويضيق الفضاء
وتبكيه مسومة الجياد ومعالم الجهاد والسيوف في الأغماد وشتى العباد والبلاد فلا تسألوا كيف
هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم والحادث المقعد المقيم والرزية التي لا رزية مثلها والحادثة التي
أصيبت بها الملة وأهلها فوجدنا لفقده

يتضاعف مع الآناء ويتجدد تذكرك ما أسلف من أعمال الملوك الفضلاء ولكنه أمر حتم وقضاء من الله
جزم وسبيل يسلك عليها الأول والآخر والآتي والغابر وليس إلا التسليم لما حكم به الحكيم العليم
ولما انتهى إلينا هذا النبا الذي ملأ القلب حسرة والعين عبرة وتوارت شتى الأنباء وغلب اليأس
فيها على الرجاء وجدنا له ما يوجد لفقد الأب الذي ابتداء بالإحسان والإجمال وأولى عوارف القبول
والإقبال ولكنه ما أطفا نار ذلك الوجد وجبر كسر ذلك الفقد إلا ما من الله به علينا وعلى المسلمين
من تقلدكم ذلك الملك الذي بكم سمعت معالمه وقامت مراسمه وعليكم انعقد الإجماع ويولايتمكم
استبشرت الأصفاء وكيف لا تستبشر بولاية الملك الصالح الخاشع الأواب صاحب الحرب والمجرب
عدة الإسلام وعلم الأعلام من ثبت فضائله أوضح من محيا النهار وسارت مكارمه في الآفاق أشهر
من المثل السيار

وقد كان محل أئبنا والدكم رضي الله عنه لما علم من فضائلكم الكريمة الآثار وما قتمتم به من حقه
الذي وفيتموه توفية الصلحاء الأبرار ألقى إليكم مقاليد سلطانه وأثر إليكم أثر قبوله ورضوانه حتى
انفصل عن الدنيا وقد ألبسكم من أثواب رضاه ما تتالون به قرّة العين وعز الدارين والظفر بكتنا
الحسنين فتلك المملكة بحمد الله تعالى قد قام بها حامي ذمارها وابن خيارها ومطلع أنوارها
الملك الرضي العدل الطاهر قوام الدياجي وصوام الهواجر حسنة هذا الزمان ونخبة ذلك البيت
المؤسس على التقوى والرضوان فالحمد لله على أن جبر بكم صدع الإيمان وانتضى منكم سيفا
مسلولاً على عبدة الصليان وأقر بكم ملك أبائكم الملوك الأعظم وتدارك بولايتمكم أمر هذا الرزء
المتفامق فإن فقدنا أعظم مفقود فقد ظفرنا بأكرم مقصود وما مات من أبقي منكم سلالة طاهرة
تحيي سنن المعالي والمكارم وتعمل على شاكلة أسلافها الأكارم فتلك المملكة قد أصبحت بحمد
الله ونور سعدكم في أرجائها طالع وسيف

بأسكم في أعدائها قاطع وعزمكم الأمضى لأمرها جامع مانع قد أوت منكم إلى الملجأ الأحمى
واستمسكت بإيالتكم العظمى وعرفت أنكم ستبدون فيها من آثار دينكم المتين وفضلكم المبين
ومعاليكم القاطعة البراهين ما يملؤها عدلاً وإحساناً وتبلغ به آمالها مثنى ووجدانا فهنيئاً لنا ولها أن
صارت في ملككم وأن تشرفت بملككم وألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها ويدفع عداها وليهن
ذلك المقام الأعلى ما أولاه من العز المكين وما قلده من الملك الذي هو نظام الدنيا والدين وأن
أعطاه راية الجهاد فتلقاها باليمين لينصر بها ملة الرسول الصادق الأمين فله الفخر بذلك على
جميع السلاطين

وأما هذه البلاد الأندلسية حماها الله فهي وإن فقدت من السلطان الأعلى أبي سعيد أكرم ظهير
ووقع مصابه منها بمحل كبير فقد لجأت منكم إلى من يحميها ويكف بأس أعاديها ويتغني مرضاة
خالقها فيها فملككم بحمد الله تعالى مقتبل الشباب جديد الأثواب عريق الأنساب أصيل الأحساب
ومجدكم جار على أعراقه جري الجياد العراب

وإنا لما ورد علينا هذا النبا معقبا بهذه البشرية ووفد علينا ذلك الخبر مردفا بهذه المسرة الكبرى
علمنا أن الله سبحانه قد رأب ذلك الصدع بهذا الصنع الجميل وتلافى ذلك الخطب بهذا الخير الجزيل
فأخذنا من مساهمتكم في الأمور النصيب الوافر ورأينا أن آمالنا منكم قد جلت عن محياها السافر
وعينا للوفادة على بابكم لينوب عنا في العزاء والهناء عين الأعيان الفضلاء ووجه القواد والكرماء
ولنقتصر على هذا المقدار من كلام الرئيس ابن الجياب رحمه الله تعالى ويظهر لي أن نظمه أعلى
طبقة من نثره وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظماً ولا نثراً رحمه الله تعالى ورضي عنه وعامله
بمحض فضله

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الفقيه الكاتب البار العلامة - 20
النحوي اللغوي صاحب العلامة بالمغرب الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي قال في
الإحاطة فيه ما ملخصه عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن
عبد الله بن محمد الحضرمي أبو محمد شيخنا الرئيس صاحب القلم الأعلى بالمغرب
من الإكليل تاج المفروق وفخر المغرب على المشرق أطلع منه نورا أضاءت له الآفاق وأثر منه بذخيرة

حملت أحاديثها الرفاق ما شئت من مجد سامي المصاعد والمراقب عزيز عن لحاق النجم الثاقب
وسلف زينت سماؤه بنجوم المناقب نشأ بسبته بلده بين علم يقيده وفخر يشيده وطهارة يلتحف
مطارفها ورياسة يتفياً وارفها وأبوه رحمه الله تعالى قطب مدارها ومقام حجبها واعتمارها فسلك
الوعوث من المعارف والسهول وبذ على حداثة سنه الكهول فلما تحلى من الفوائد العلمية بما
تحلى واشتهر اشتها الصباح إذا تجلى تنافست فيه همم الملوك الأخير واستأثرت به الدول على
عادتها في الاستئثار بالذخائر فاستقلت بالسياسة ذراعه وأخدم الذوابل والسيوف براعه وكان عين
الملك التي بها يبصر ولسانه الذي يسهب به أو يختصر وقد تقدمت له إلى هذه البلاد الوفاة
وجللت به عليها الإفادة وكتب عن بعض ملوكها وانتظم في عقودها الرفيعة وسلوكها وله في الآداب
الراية الخافقة والعقود المتناسقة ومشىخته حافلة تزيد عن الإحصاء وشعره منحط عن محله من
العلم والشهرة وإن كان داخلا تحت طور الإحادة فمن ذلك قوله
" تراءى سحيرا والنسيم عليل ... وللنجم طرف بالصباح كليل "
" ولفجر نهر خاضه الليل فاعتلت ... شوى أدهم الظلماء منه حجول "
" بريق بأعلى الرقمتين كأنه ... طلائع شهب في السماء تجول "
" فمزق ساجي الليل منه شراره ... وخرق ستر الغيم منه نصول "
" تبسم ثغر الروض عند ابتسامه ... وفاضت عيون للغمام همول "
" ومالت غصون البان نشوى كأنها ... يدار عليها من صباه شمول "
" وغنت على تلك الغصون حمائم ... لهن حفيف فوقها وهديل "
" إذا سجعت في لحنها ثم قرقرت ... يطيح خفيف دونها وثقل "
" سقى الله ربحا لا تزال تشوقني ... إليه رسوم دونها وطلول "
" وجاد رياه كلما ذر شارق ... من الودق هتان أحش هطول "
" وما لي أستسقي الغمام ومدمعي ... سفوح على تلك العراض همول "
" وعاذلة بانت تلوم على السرى ... وتكثر من تعذالها وتطيل "
" تقول إلى كم ذا فراق وغربة ... ونأي على ما خيلت ورحيل "
" ذريني أسعى للتي تكسب العلا ... سناء وتبقي الذكر وهو جميل "
" فإما ترينني من ممارسة الهوى ... نحيلة فحد المشرفي نحيل "
" وفوق أنابيب اليراعة صعدة ... تزين وفي قد القناة ذبول "
" ولولا السرى لم يجتل البدر كاملا ... ولا بات منه للسعود نزيل "
" ولولا اغتراب المرء في طلب العلا ... لما كان نحو المجد منه وصول "
" ولولا نوال ابن الحكيم محمد ... لأصبح ربع المجد وهو محيل "
" وزير سما فوق السماك جلاله ... وليس له إلا النجوم قبيل "
" من القوم أما في الندى فإنهم ... هضاب وأما في الندى فسيول "
" حووا أشرف العلياء إرثا ومكسبا ... وطابت فروع منهم وأصول "
" وما جونة هطالة ذات هيدب ... مرتها شمال حرجف وقبول "
" لها زحل من رعددها ولوامع ... من البرق عنها للعيون كلول "
" كما هدرت وسط القلاص وأرسلت ... شقاشقها عند الهياج فحول "
" بأجود من كف الوزير محمد ... إذا ما توالى للسنين محول "
" ولا روضة بالحسن طيبة الشذا ... ينم عليها إذخر وجليل "
" وقد أذكبت للزهر فيها مجامر ... تعطر منها للنسيم ذبول "
" وفي مقل النوار للطل عبرة ... ترددها أجفانها وتجيل "
" بأطيب من أخلاقه العر كلما ... تفاقم خطب للزمان يهول "
" حويت أبا عبد الإله مناقبا ... تفوت يدي من رامها وتطول "
" فغرناطة مصر وأنت خصيها ... ونائل يمينك الكريمة نيل "
" فذاك رجال حاولوا درك العلا ... ببخل وهل نال العلاء بخيل "
" تخيرك المولى وزيرا وناصحا ... فكان له مما أراد حصول "
" وألقى مقاليد الأمور مفوضا ... إليك فلم يعدم يمينك سول "
" وقام بحفظ الملك منك مؤيد ... نهوض بما أعيأ سواك كفيل "
" وساس الرعايا منك أشوس باسل ... مييد العدا للمعتفين منيل "
" وأبلج وقاد الجبين كأنما ... على وجنتيه للنضار مسيل "

" تهيم بها العلياء حتى كأنها ... بثينته في الحب وهو جميل "

" له عزمات لو أعير مضاءها ... حسام لما نالت ظباه فلول "

" سرى ذكره في الخافقين فأصبحت ... إليه قلوب العالمين تميل "

" وأعدى قريضي جوده وثناؤه ... فأصبح في أقصى البلاد يجول "

" إليك أيا فخر الوزارة أرقلت ... برحلي هوجاء النجاء ذلول "

" فليت إلى لقبك ناصية الفلا ... بأيدي ركاب سيرهن ذميل "

" تسددني سهما لكل ثنية ... ضوامر أشباه القسي نحول "

" وقد لفظتني الأرض حتى رمت إلى ... ذراك برحلي هوجل وهجول "

" فقيدت أفراسي به وركائبي ... ولذ مقام لي به وحلول "

" وقد كنت ذا نفس عزوف وهمة ... عليها لأحداث الزمان ذحول "

" وتهوى العلا حظي وتغري بضده ... لذاك اعترته رقة ونحول "

" وتأبى لي الأيام إلا إدالة ... فصونك لي إن الزمان مديل "

" فكل خضوع في جنابك عزة ... وكل اعتزاز قد عداك خمول "

وقال

" أبت همتي أن يراني امرؤ ... على الدهر يوما له ذا خضوع "

" وما ذاك إلا لأنني اتقيت ... بعز القناعة ذل الخشوع "

مولده بسنة عام ستة وسبعين وستمائة وتوفي بتونس ثاني عشر شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة في الطاعون وكانت جنازته مشهورة رحمه الله تعالى انتهى وحكى أن السلطان أبا الحسن المريني سب الشيخ عبد المهيم الحضرمي بمجلس كتابه فأخذ عبد المهيم القلم وكسره وقال هذا هو الجامع بيني وبينك ثم إن السلطان أبا الحسن ندم وأفضل عليه وخجل مما صدر منه وأحسن إليه وكان عبد المهيم ينطق بالكلام معربا ويرتفع نسبه إلى العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله وأصل سلفه من اليمن وكان جدهم الأعلى عبدون لحقه الضيم ببلده فارتحل إلى المغرب فنزل سبتة

ولعبد المهيم الحضرمي شيوخ أجلاء كابن أبي الربيع النحوي وابن الشاط وابن مسعود وغيرهم وكان سعد وسؤدد حسن الخط رأيت خطه بإجازته لأبي عبد الله بن مرزوق وغيره وكان الهمة سرى أعطى المنصب حقه وكان لا يحتمل الضيم واحتقار العلم وكان سريع الجواب حكى أن القاضي المليلي وأبا محمد عبد المهيم الحضرمي المذكور صاحب العلامة للسلطان أبي الحسن حضرا مجلس السلطان فجرى ذكر الفقيه ابن عبد الرزاق فقال المليلي جمع من الفنون كذا حتى وضع يده على أبي محمد عبد المهيم وقال مخاطبا للسلطان ويكتب لك أحسن من ذا فوضع عبد المهيم يده على المليلي وقال نعم يا مولاي ويقضي لك أحسن من ذا

وقال ابن الخطيب القسمطيني الشهير بابن قنغذ في وفياته ما نصه وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة توفي الشيخ الراوية المحدث الكاتب أبو محمد عبد المهيم ابن محمد بن عبد المهيم بن محمد بن علي بن محمد الحضرمي السبتي ومن أشياخه الأستاذ ابن أبي الربيع وابن الغماز وابن صالح الكناني وغيرهم من الأعلام انتهى وقال غيره إن والد عبد المهيم توفي غرة صفر سنة اثنتي عشرة وسبعمائة رحمه الله تعالى وحكى أن الشيخ أبا محمد عبد المهيم ذكر يوما بني العزفي فأثنى عليهم فقال له أحد الحسينيين وكان بينهم شيء إنهم كانوا لا يحبون أهل البيت فكيف حبك أنت لهم يعني لأهل البيت فقال أحبهم حب التشيع لا حب التشيع انتهى

قيل يعني بالعزفيين أهل الدولة الثانية وأما أهل الأولى فكانوا من المختصين بمحبة الآل وهم أحدثوا بالمغرب تعظم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام ومن أغرب ما وقع للرئيس عبد المهيم الحضرمي من التشبيه قوله " لقد راقني مرأى سجد ماسة الذي ... يقر له في حسنه كل منصف "

" كأن رؤوس النخل في عرصاتها ... فواتح سورات بأخر مصحف "

وهذا من التشبيه العقيم لم يسبق إليه فيما أظن وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرك لقتال أخيه السلطان أبي علي عمر بسجد ماسة فظفر به استمطر أنواء أفكار الكتاب وغيرهم في تشبيه النخل فقال عبد المهيم ما مر فلم يترك مقالا

لقائل

وقد أنشد الحافظ ابن مرزوق الحفيد قال أنشدني شيخنا ولي الدين الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي لشيخه الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي رحمه الله تعالى قوله

" يجفى الفقير ويغشى الناس قاطبة ... باب الغني كذا حكم المقادير "

" وإنما الناس أمثال الفراش فهم ... يلفون حيث مصابيح الدنانير "

قلت ورأيت هذين البيتين في كتاب روح الشحر وروح الشعر للعالم الكاتب ابن الجلاب منسوبين لأبي المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي قال أنشدني أبو الحجاج الحافظ قال أنشدني الهيثم فذكر البيتين وكان تاريخ وفاته قبل أن يخلق عبد المهيمن فتعين أن البيتين ليسا من نظمه وإنما تمثل بهما ونسبتهما له وهم لا محالة والله أعلم

وأما ما اشتهر على الألسنة بالمغرب من أن أبا حيان مدح عبد المهيمن بقوله

" ليس في الغرب عالم ... مثل عبد المهيمن "

" نحن في العلم أسوة ... أنا منه وهو مني "

فقد نسبته ابن غازي إلى ابن حيان كما اشتهر لكن تاريخ مرور أبي حيان بالمغرب كان قبل ظهور عبد المهيمن بلا خفاء وهو عندي محمول على أحد أمرين أن المراد عبد المهيمن جد عبد المهيمن المذكور أو أن أبا حيان كتب بالبيتين من مصر بعدما ظهر عبد المهيمن وصارت له الرياسة بالمغرب إذ أبو حيان عاش إلى ذلك الزمان بلا ريب ولذا لما ذكر لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الكتيبة الكامنة في أبناء أهل المائة الثامنة الشيخ أبا حيان قال وهذا الرجل طالت حياته حتى أجاز ولدي ولعبد المهيمن المذكور أخبار غير ما قدمناه منع منها الاختصار وقد ألف الخطيب ابن مرزوق باسم ولد فهرسته المشهورة وحلاه في صدرها أحسن

حلية وهو أهل لذلك وقد ذكره مولاي الجد في شيوخه كما تقدم وقال فيه إنه إمام الحديث

والعربية وكاتب الدولة العثمانية والعلوية فليراجع ذلك فيما سبق في ترجمة الجد

وأبو سعيد ابن عبد المهيمن كان عالي الهمة كآبائه ولما بويع السلطان أبو عنان طلب منه أن يكون مرتسما في جملة كتاب بابيه فامتنع وقال لا أكون تحت حكم غيري وعنى بذلك أن أباه كان رئيس الكتاب فكيف يكون هو مرؤوسا بغيره فلم ترض همته رحمه الله تعالى إلا برتبة أبيه أو الترك وارتحل أبو سعيد محمد المذكور وكان فقيها عالما من فاس لسبته إلى أن توفي بها سنة 787 وكان قليل الكلام جميل الرواء حسن الهيئة والبرة والشكل روى عن والده وعن الحجار وكتب له سنة 724 وروى عن الفقيه أبي الحسن ابن سليمان والرحالة ابن جابر الوادي أشي وابن رشيد وغيرهم وابن أبي سعيد هذا اسمه عبد المهيمن كجده وكان صاحب القلم الأعلى روى عن أبيه وجده وغيرهما رحم الله الجميع

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الإمام العلامة قاضي الجماعة أبو البركات ابن الحاج - 21 البليفي نادرة الزمان وشاعر ذلك الأوان وهو محمد ابن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الشيخ الولي أبي إسحاق ابن الحاج البليفي وكان أبو البركات أحد رجال الكمال علما ومجدا وسؤدا موروثا ومكتسبا وقد عرف به في الإحاطة بترجمة مد فيها النفس وكتب ابنه على أول الترجمة ما صورته

رحمك الله تعالى يا فقيه الأندلس وحسيبها وصدرها وشيخها وبرد ضريحك فله ما أفدت من نادرة واكتسبت من فائدة انتهى

وحكى في الإحاطة أنه لما استسقى وحصلت الإجابة أنشده لسان الدين

" ظمئت إلى السقيا الأباطح والرى ... حتى دعونا العام عاما مجدبا "

" والغيث مسدول الحجاب وإنما ... علم الغمام قدومكم فتأدبا "

ثم ذكر في الإحاطة تأليف أبي البركات وشعره إلى أن قال حاكيا عن أبي البركات ما صورته ومما نظمته وقد أكثروا من التعجب لملازمتي البناء وحفر الآبار

" في احتفار الأساس والآبار ... وانتقال التراب والجيار "

" وفعودي ما بين رمل وأجر ... وجص والطوب والأحجار "

" وامتهاني بردي بالطين والماء ... ورأسي ولحيتي بالغبار "

" نشوة لم تمر قط على قلب ... خليع وما لها من خمار "

" من غريب البناء أن بنيه ... متعبون يهون طول النهار "

" يبتغون الوصال من صانعيه ... والبدار إليه كل البدار "

" فإذا حل في ذراهم تراهم ... يشتهون منه بعيد المزار "

" من عذيري من لائم في بنائي ... وهو لي الترجمان عن أخباري "

" ليس يدري معناه من ليس يدري ... أن ما عنده على مقدار "

" أفتدي بالذي يقول بناها ... ذلك الخالق الحكيم الباري "

" وبمن يرفع القواعد من بيت ... عتيق للحج والزوار "

" وبمن كان ذا جدار وقد كان ... أبوه من صالح الأبرار "

" وبما قد أقامه الخضر المخصوص ... علما بباطن الأسرار "

" كان تحت الجدار كنز وما أدراك ... ما كان تحت كنز الجدار "

" وبمن قد مضى من أبائي الغر ... الألى شيّدوا رفيع المنار "

" فالذي قد بنوه نبي له مثلا ... ونجري له على مضمار "

" قد بنينا من المساجد دهرا ... ثم نبي لجارها خير جار "

" مثلما قد بنيت للمجد أمثال ... مبانهم بكل اعتبار "

" فالمباني لسان حالي ولي فيها ... لعمرى ذكر من الأذكار "

" روح أعمالنا المقاصد لكن ... حيث تخفى تخفى مع الأعذار "

" فعسى من قضى ببنيان هذي الدار ... يقضي لنا بعقبى الدار "

ثم قال في الإحاطة بعد كلام ومن نظمه في الإنحاء على نفسه واستبعاد وجود المطالب في جنسه قال مما نظمته يوم عرفة عام خمسين وسبعمائة وأنا منزو في غار ببعض جبال المرية

" زعموا أن في الجبال رجالا ... صالحين قالوا من الأبدال "

" وادعوا أن كل من ساح فيها ... فسيلقاها على كل حال "

" فاخترقنا تلك الجبال مرارا ... بنعال طوراً ودون نعال "

" ما رأينا بها خلاف الأفاعي ... وشبا عقرب كمثل النبال "

" وسباع يجرون بالليل عدوا ... لا تسلني عنهم بتلك الليالي "

" ولو أنا كنا لدى العدو الأخرى ... رأينا نواجه الرئبال "

" وإذا أظلم الدجى جاء إبليس ... إلينا يزور طيف خيال "

" هو كان الأنيس فيها ولولاه ... أصيبت عقولنا بالخيال "

" خل عنك المحال يا من تعنى ... ليس يلقي الرجال غير الرجال "

وجمع شعره وسماه العذب والأجاج من كلام أبي البركات ابن الحاج

وسمى أبو القاسم الشريف ما استخرجه منه باللؤلؤ والمرجان من بحر أبي البركات ابن الحاج يستخرجان

ومن نظم الشيخ أبي البركات ابن الحاج قوله رحمه الله تعالى

" ألا ليت شعري لما أنا أرتجي ... من الله في يوم الجزاء بلاغ "

" وكيف لمثلي أن ينال وسيلة ... لها عن سبيل الصالحين مراغ "

" وكمرمت دهرى فتح باب عبادة ... يكون بها في الفائزين مساغ "

" فكدت ولم أفعل وكيف وليس لي ... المعينان فيها صحة وفراغ "

" لأصبت من قوم دعاهم إلى الرضى ... منادى الهدى فاستنكروه فراغوا "

" أباغ ترى أخراه من يزدهيه من ... زخارف دنياه الدنية باغ "

" ويضرب صفحا عن حقيقة ما طوت ... فيلهيه زور قد أتته مصاغ "

" إذا ما بدا للرشد نهج بيانه ... يراع به عن وحشة فيراغ "

" فيا رب برد العفو هب لي إذا غلت ... من الحر في يوم الحساب دماغ "

" فمن حرق للنفس فيه لواعج ... ومن خجل للوجد فيه صباغ "

" وعظمتك نفسي لو أنبت وفي الذي ... وعظت به لو ترعوبين بلاغ "

وأشيد القاضي أبو البركات في هذا الروي قول شيخه الأستاذ أبي علي ابن سليمان القرطبي

" ألا هل إلى ما أرتضيه بلاغ ... وكيف يرى يوما إليه فراغ "

" وقد قطعت دوني قواطع جمّة ... أراع لها مهما جرت وأراع "

" وما لي إلا عفورب وفضله ... ففيه إلى ما أرتجيه بلاغ "

وكان القاضي أبو البركات من بيت كبير علما وصلاحا وزهدا وحده الإمام الولي العارف سيدي أبو إسحاق ابن الحاج أشهر من نار على علم وقبره مشهور بمراكش وقد زرته بها وله كرامات مشهورة وحكى في مزية المرية من كراماته جملة قال حفيده الشيخ أبو البركات دخلت على الشيخ الصالح

العابد المجتهد الحاج أبي عبد الله محمد بن علي البكري المعروف بابن الحاج في منزله بالمرية عائدا قال أظنه في مرضه الذي مات فيه فقال حين سألته عن حاله ادع لي فقلت له يا سيدي بل أنت تدعو لي فقال لي شرح الله صدرك ونور قلبك بنور معرفته فمن عرف الله لم يذكر غيره فقد حكى سيدي أبو جعفر ابن مكنون عن جدك قال كنت مع سيدي أبي إسحاق ابن الحاج بمراكش فقال لي هل ترى في المنام شيئا فقلت نعم أرى كأنني في المرية أمشي من الدار إلى المسجد ومن كذا إلى كذا فأعرض عني وقال ألا ترى إلا الله قال ثم مر به في أثناء كلامه ابنه محمد فقال لي رأيت هذا والله ما أدري أن لي ابنا حتى يمر بي ولا أذكره إذا غاب عني ولا أرى إلا الله انتهى ومن تأليف أبي البركات رحمه الله تعالى كتاب ذكر فيه أخبار سلفه رضي الله عنهم وذكر جملة من كرامات جدي سيدي أبي إسحاق المذكور نفعنا الله به

ومن شعر جده المذكور قوله

" ألا كرم الله البلاد بخطبة ... هم حسنات الدهر لا نابهم خطب "

" رعايتهم فرض على كل مسلم ... وحبهم حقا قد أوجه الرب "

" إذا ما سألت الله شيئا فسل بهم ... فتعظيمهم قرب وغيبتهم حرب "

وقوله

" شكا فشكا قلبي خيالا مبرحا ... على غير علم كان مني بشكواه "

" وما التقت الأسرار إلا بجامع ... من النعت سلطان الحقيقة سواه "

" فيا فرحة المجهود إن بات سره ... وسر الذي يهواه مأواه مأواه "

" ومن أجله قد كان بالبعد راضيا ... فكيف ترى معناه والقلب مثواه "

" بدا فبدت أعلام ضدين في الهوى ... هما عجب لولا الدليل وفجواه "

" برؤيته فارقت موتي لبعده ... ومت بها من أجل علمي ببلواه "

" فها أنا حي ميت بلقائه ... ولم ينح من لم يسعد الفهم نجواه "

" إذا لم تكن أنت الحبيب بعينه ... رضى وعتابا ضل من قال يهواه "

" وأكذب ما يلفى الفتى وهو صادق ... إذا لم يحقق بالأفاعيل دعواه "

وقوله رضي الله تعالى عنه

" الحب في الله نور يستضاء به ... والهجر في ذاته نور على نور "

" جنب أبا حدث في الدين ذا غير ... إن المغير في نكس وتغيير "

" حاشا الديانة أن تبنى على خبل ... سبحان خالقنا من قول مثبور "

" إن الحقائق لا تبدو لمبتدع ... كذا المعارف لا تهدى لمغرور "

" تالله لو أبصرت عيناه أو ظفرت ... يمانه ما ظل في ظن وتقدير "

" حقق ترى عجبا إن كنت ذا أدب ... ولا يغرنك الجهال بالزور "

" إن الطريقة في التنزيل واضحة ... وما تواتر من وحي ومشهور "

" فافهم هديت هدى الرحمن واهد به ... هدى يفيدك يوم النفخ في الصور "

" وقوله صدر رسالة وجه بها إلى ابنه محمد أيام قراءته بإشبيلية "

" إذا شئت أن تحظى بوصلتي وقربتي ... فجنب قرين السوء واصرم حباله "

" وسابق إلي الخيرات واسلك سبيلها ... وحصل علوم الدين واعرف رجاله "

وكان رحمه الله تعالى كثيرا ما يتمثل بيتي مهيار الديلمي وهما

" ومن عجب أني أحن إليهم ... وأسأل شوقا عنهم وهم معي "

" وتبكيهم عيني وهم في سوادها ... ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي "

وحدث القاضي أبو البركات حفيده عن ابن خميس التلمساني المتقدم الذكر قال سمعت بعض الأشياخ يقول كان الشيخ أبو إسحاق البليفي الكبير يقول اجتمع لنا في الله أربعون ألف صاحب وحكى الشيخ أبو البركات المذكور عن الشيخ الصالح الحاج الصوفي أبي الأصبغ ابن عزرة قال هذه صلاة على النبي أخذتها عن رابعك الشيخ الصالح الحاج أبي عبد الله محمد بن علي بن الحاج مشافهة وقال لي إنها صلاة أبي إسحاق ابن الحاج جدك وهي اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة دائمة مستمرة تدوم بدوامك وتبقى ببقائك وتخلد بخلودك ولا غاية لها دون مرضاتك ولا جزاء لقاتلها ومصلحتها غير جنتك والنظر إلى وجهك الكريم

ونقل أبو البركات المذكور عن جده أنه كان يستفتح مجلسه بالمرية بهذا الدعاء اللهم اجعلنا في عياد منك منيع وحصن حصين وولاية جميلة حتى تبلغنا أجالنا مستورين محفوظين مبشرين برضوانك يوم لقائك قال وفي وسط الدعاء وآخره واكفنا عدونا إبليس وأعداءنا من الجن والإنس

بعافيتنا وسلامتنا

وكان الشيخ رضي الله عنه يواصل أربعين يوما ومن مآثره أنه بنى ثمانية عشر جبا في مواضع متفرقة ونحو عشرين مسجدا وبنى أكثر سور حصن بلفيق كل ذلك من ماله وقال رضي الله عنه في بعض رسائله الصوفي عبارة عن رجل عدل تقي صالح زاهد غير منتسب لسبب من الأسباب ولا مخل بأدب من الآداب قد عرف شأنه وزمانه وملكت مكارم الأخلاق عنانه لا ينتصر لنفسه ولا يتفكر في غده وأمسه العلم خليله والقرآن دليله والحق حفيظه ووكيله نظره إلى الخلق بالرحمة ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمه انتهى وأحوال هذا الشيخ عجيبة وكراماته شهيرة وإنما ذكرنا هذا النزر اليسير تبركا بذكره رضي الله عنه في هذا الكتاب وتطفلا على رب الأرباب أن ينفعنا بأمثاله ويحقق لنا النجاة والتمتأب إنه على ذلك قدير

رجع إلى أخبار أبي البركات ولما وقع بينه وبين ابن صفوان ما يقع بين المتعاصرين رد عليه ابن صفوان فانتصر لأبي البركات بعض طلبته بتأليف سماه شواط من نار ونحاس يرسل على من لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول وألفي على ظهره بخط الشيخ أبي البركات ما صورته

" قد شبع الكلب كما ينبغي ... من حجر صلد ومن مقرع "

" فإن يعد من بعد ذا للذي ... قد كان منه فهو ممن نعي "

ومن بديع نظم الشيخ أبي البركات رحمه الله تعالى قوله

" يلومونني بعد العذار على الهوى ... ومثلي في وجدي له لا يفند "

" يقولون أمسك عنه قد ذهب الصبا ... وكيف أرى الإمساك والخيط أسود "

وقوله في المجنات

" ومصفرة الخدين مطوية الحشا ... على الجبن والمصفر يؤذن بالخوف "

" لها بهجة كالشمس عند طلوعها ... ولكنها في الحين تغرب في الجوف "

وفي هذين البيتين تورية متعددة

وحدث القاضي أبو البركات أنه لما أراد الانصراف عن سبته قال له السيد الشريف أبو العباس رحمه الله متى عزمت على الرحيل فأنشد أبو البركات

" أما الرحيل فدون بعد غد ... فمتى تقول الدار تجمعنا "

فأنشد الشريف رحمه الله تعالى

" لا مرحبا بغد ولا أهلا به ... إن كان تفريق الأحبة في غد "

وحكي أن السيد أبا العباس الشريف المذكور ساير القاضي أبا البركات في بعض أسفاره زمن الشباب ببر الأندلس أعاده الله تعالى فلما انتهيا إلى قرية ترليانة وأدركهما النصب واشتد عليهما حر الهجير نزلا وأكلا من باكر التين الذي هناك وشربا من ذلك الماء العذب واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلا بظلها ثم التفت إلى السيد أبي العباس وقال

" ماذا تقول فدتك النفس في حالي ... يفنى زمني في حل وترحال "

وأرتج عليه فقال لأبي العباس أجز فقال بديها

" كذا النفوس اللواتي العز يصحبها ... لا ترتضي بمقام دون آمال "

" دعها تسر في الفيافي والقفار إلى ... أن تبلغ السؤل أو موتا بتجوال "

" الموت أهون من عيش لدى زمن ... يعلي اللئيم ويدني الأشرف العالي "

ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه الحرة العربية أم العباس عائشة بنت الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكتاني ثم المغيلي طلبة كتب نسختها بما نصه بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آل محمد يقول عبد الله الرازي رحمته محمد المدعو بأبي البركات ابن الحاج خار الله له ولطف به إن الله جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة وغرائز شتى ففهم السخي والبخيل والشجاع والجبان والغبي والفظن والكيس والعاجز والمسامح والمناقش والمتكبر والمتواضع إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق كانت العشرة لا تستمر بينهم إلا بأحد أمرين إما بالاشتراك في الصفات أو في

بعضها ولما بصبر أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك ولما علم الشارع أن بني آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه من عيل صبره على صاحبه وتوسعة عليهم وإحسانا منه إليهم فلأجل العمل على هذا طلق كاتب هذا عبد الله محمد المذكور زوجه الحرة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيني النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدس المرحوم أبي عبد

الله محمد المغيلي طلقة واحدة ملكت بها أمر نفسها دونه عارفا قدره قصد بذلك إراحتها من عشرته طالبا من الله أن يغني كلا من سعته مشهدا بذلك على نفسه في صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الثاني عام أحد وخمسين وسبعمئة انتهى ومن نوادره رحمه الله تعالى أنه لما استناب بعض قضاة المرية الفقيه أبا جعفر المعروف بالقرعة في القضاء بخارج المرية من عمله فاتفق أن جاء بعض الجنانين بفحص المرية يشتكي من جائحة أو أذاية أصابت جنانه ففسدت غلته لذلك فأخذ ذلك الجنان قرعة وأشار إليها متشكيا وقال هذه القرعة تشهد بما أصاب جناني فقال الشيخ أبو البركات عند ذلك غريبتان في عام واحد القرعة تقضي والقرعة تشهد وكان له رحمه الله تعالى من هذا النمط كثير وقال رحمه الله تعالى نظمت صبيحة يوم السبت السابع والعشرين لرجب عام خمسة وأربعين وسبعمئة وقد رأيت في النوم كأنني أريد إتيان امرأة لا تحل لي فيأتي رقيب فيحول بيني وبين ذلك المرة بعد المرة قولتي

" ألا كرم الله الرقيب فإنه ... كفاني أمورا لا يحل ارتكابها "

" وبالغ في سد الذريعة فاغتندي ... يلاحظني نوما ليغلق بابها "

وقال رحمه الله أنشدني شيخي أبو عبد الله ابن رشيد عند قراءة علي عليه شرحه لقوافي أبي الحسن حازم وقد باحثته يوما مناقشة في بعض ألفاظه من الشرح المذكور

" تسامح ولا تستوف حقا كله ... وأغض فلم تستوف قط كريم "

ومن نظم الشيخ أبي البركات قوله

" ألا خل دمع العين يهمني بمقلنتي ... لفرقة عين الدمع وقف على الدم "

" فللماء فيه رنة شجنية ... كرتة مسلوب الفؤاد متيم "

" وللطير فيه نغمة موصلية ... تذكرني عهد الصبا المتقدم "

" وللحسن أقمار به يوسفية ... ترد إلى دين الهوى كل مسلم "

وله رحمه الله تعالى

" ما كل من شد على رأسه ... عمامة يحظى بسمت الوفار "

" ما قيمة المرء بأثوابه ... السر في السكان لا في الديار "

وله سامحه الله تعالى

" إذا ما كنت السر عنم أوده ... توهم أن الود غير حقيقي "

" ولم أخف عنه السر من ضنة به ... ولكنني أخشى صديق صديقي "

وله وقد جلس في حلقة بعض المشايخ واستدبر بعض الفضلاء ولم يره بسبته

" إن كنت أبصرتك لا أبصرت ... بصيرتي في الحق برهانها "

" لا غرو أني لم أشاهدكم ... فالعين لا تبصر إنسانها "

ومما يعجبه رحمه الله من قوله قال في الإحاطة ويحق أن يعجبه

" تطالبنني بما ليس لي به ... يدان فأعطيها الأمان فتقبل "

" عجبت لخصم لج في طلباته ... يصلح عنها بالمحال فيفصل "

ومما أورد له في الإحاطة وذكر أنه لو رحل راحل إلى خراسان لما أتى إلا بهما

" رعى الله إخوان الخيانة إنهم ... كفونا مؤونات البقاء على العهد "

" فلو قد وفوا كنا أسارى حقوقهم ... نراوح ما بين النسبنة والنقد "

وقد تمثل أبو البركات في مخاطبة له للسان الدين بقول القائل

" أيتها إليه اذهبي ... فحبه المشهور من مذهبي "

" أياسنني التوبة من حبه ... طلوعه شمساً من المغرب "

وحكى غير واحد منهم ابن داود البلوي أن القاضي أبا البركات لما عزم على الرحلة إلى المشرق كتب إليه ابن خاتمة بما صورته

" أشمس الغرب حقا ما سمعنا ... بأنك قد سئمت من الإقامة "

" وأنك قد عزمت على طلوع ... إلي شرق سموت به علامه "

" لقد زلزلت منا كل قلب ... بحق الله لا تقم القيامة "

قال الحاكي فحلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا انتهى يشير بقوله لقد زلزلت إلخ إلى طلوع الشمس من مغربها

قلت ولما عزمت على هذا الرحلة كتب إلي بعض أصحابنا المغاربة بالأبيات المذكورة متمثلا ولم

أرجع عن العزم والله غالب علي أمره
قال الوزير لسان الدين رحمه الله تعالى وما أحسن قول شيخنا أبي البركات معتذرا عن زرقة عينيه
" حزنت عليك العين يا مغني الهوى ... فالدمع منها بعد بعدك ما رفا "
ولذاك ما ظهرت بلون أزرق ... أو ما ترى ثوب المآثم أزرقا " قال رحمه الله تعالى وهو من الغريب "
وقال بعض الشيوخ كنت أقرأ على الشيخ أبي البركات التفسير فنسيت ذات ليلة السفر الذي كنت
أقرأ فيه بمنزلي فاتفق أن أحضر الجامع الصحيح للبخاري فقال الشيخ بعد أن أردت القراءة عليه من
أوله افتح في أثناء الأوراق ولا تعين وما خرج لك من ترجمة لجهة اليمين فاقرأها ففعلت فإذا غزوة
أحد فقرأت الحديث الأول من الباب وهو عن عقبة بن عامر قال إن رسول الله صلى على قتلى أحد
بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ثم طلع المنبر فقال إني بين أيديكم فرط وأنا شهيد
عليكم وإن موعدكم الحوض وإني لأنظر إليه من مقامي هذا وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا
ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها قال فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله فقال الشيخ
قوله صلى على قتلى أحد لفظ الصلاة يطلق لغة على الدعاء وشرعا على الأفعال المخصوصة
المعلومة وإذا دار اللفظ بين الشرعي واللغوي فحملة على الشرعي أولى حتى يدل الدليل على
خلافه فقوله صلى على قتلى أحد يحتمل الصلاة الشرعية ويكون ذلك منسوخا إذ قد تقرر أنه لا
يصلى على شهيد المعتكف ولا على من قد صلى عليه ولم يعارضه أن يقول إن قتلى أحد
متفرون في أماكن فلا تنأت الصلاة الشرعية عليهم إذ الصلاة الشرعية إنما تنأت لو كانوا
مجتمعين والجواب أنهم وإن كانوا متفرقين تجمعهم جهة واحدة وليس بعد ما بينهم بحيث لا تنأت
معه الصلاة عليهم هذا وإن احتمل حمله على الصلاة اللغوية وقوله كالمودع للأحياء والأموات أما
وداعه للأحياء فلا إشكال فيه وأما الأموات فمعنى وداعه لهم وداع الدعاء لهم لأنه إذا مات فقد حيل

بينه وبين
الدعاء لهم فلا جرم يودعهم بالدعاء لهم قبل أن يحال بينه وبين ذلك وقوله إني بين أيديكم أي أتقدم
قبلكم وقوله بين أيديكم فرط أي متقدم وبين إذا أضيفت إلى الأيدي تستعمل فيما قبل زمانك وفيما
بعده والمعنى هنا في قوله بين أيديكم أي أتقدم قبلكم وقوله وأنا شهيد عليكم فيه وجهان
أحدهما أن يخلق الله في قلبه علما ضروريا يميز به بين البر والفاجر فيشهد بما خلق الله في قلبه
من ذلك إذ لا تكون الشهادة إلا على أمر مشاهد ومعلوم أنه لم يشاهد ما فعل بعده من أمته
فيخلق الله له علما بذلك الوجه الثاني أن يخبره الله تعالى بذلك كما في حديث الحوض ليذادن عنه
أقوام كما يذاد البعير الصال فأقول ألا هلم ألا هلم فيقال إنهم قد غيروا بعدك فأقول فسحقا فسحقا
فسحقا فشهد بما أخبره الله تعالى به وهو نظير ما روي في تفسير قوله تعالى " وكذلك جعلناكم
أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " البقرة 143 من أن قوم نوح
يقولون كيف تشهدون علينا وزمانكم متأخر عن زماننا فيقولون لأن الله تعالى قص علينا أخباركم في
كتابه فقال " إنا أرسلنا نوحا إلى قومه - إلى آخره " نوح 1 وقوله الله عليه وسلم وإن موعدكم
الحوض وإني لأنظر إليه من مقامي هذا نظره صلى الله عليه وسلم الحوض فيه وجهان أحدهما أن
يكون نظره إليه بقلبه إذ كان قد أطلعه الله عليه ليلة الإسراء فصار مرتسما في قلبه فيكون نظره
إليه بعين قلبه كما يرتسم في قلب أحدنا شكل بيته وما فيه من المتاع والثياب وغير ذلك الثاني
أن يكون الله تعالى قد كشف له عنه فيكون نظره إليه بعينه مشاهدة وقوله وإني لست أخشى
عليكم أن تشركوا إن قيل كيف قال ذلك وقد ارتد عن الإسلام من ارتد من العرب بعده فالجواب أنه
إنما خاطب بذلك من لم يشرك من أصحابه ومن بعدهم من التابعين وغيرهم من أمته ولم يرع

رعاع العرب
وجها لهم إذ لا اعتبار بهم لاحتقارهم وقوله عليه الصلاة والسلام ولكني أخشى عليكم الدنيا أن
تنافسوها قد وقع ما خشي منه عليه الصلاة والسلام من المنافسة في الدنيا فكان كما ذكر

انتهى
وحدث الشيخ أبو البركات قال كنت ببجاية بمجلس الإمام ناصر الدين المشدالي أيام قراءتي عليه
وقد أفاض طلبه مجلسه بين يديه هل الملائكة أفضل أم الأنبياء فقلت الدليل لأن الملائكة أفضل أن
الله أمرهم بالسجود لآدم قال فجعل الطلبة ينظر بعضهم إلى بعض حتى قال لي بعضهم استند يا
سيدنا كأنه يقول إلى حائط ليزول هوس رأسك وكانت عبارتهم في ذلك وكل منهم يقول نحو ذلك
إزراء وقال لي الإمام ناصر الدين أبصر فإنهم يقولون لك الحق وكانت لغته أن يقول أبصر قال فقلت
أتقولون إن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار قالوا نعم قلت أفيختبر العبد بتقبيل يد
سيده ليرى تواضعه قالوا لا فإن ذلك من شأن العبد دون أن يؤمر بل السيد يختبر تواضعه بأن يؤمر

بالسجود للعبد قلت فكذا الملائكة لو أمرت بالسجود لأفضل منها لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده قال فكأنما ألقمتهم حجرا
قال الشيخ أبو البركات وهذه كحكاية أبي بكر ابن الطيب مع بعض رؤساء المعتزلة وذلك أنه اجتمع معه في مجلس الخليفة فناظره في مسألة رؤية الباري فقال له رئيسهم ما الدليل أيها القاضي على جواز رؤية الله تعالى قال قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " فنظر بعض المعتزلة إلى بعض وقالوا جن القاضي وذلك أن هذه الآية هي معظم ما احتجوا به على مذهبهم وهو ساكت ثم قال لهم أتقولون إن من لسان العرب الحائظ لا يبصر قالوا لا قال أتقولون إن من لسان العرب لا يأكل قالوا لا قال فلا يصح إذا نفي الصفة إلا عما من شأنه صحة إثباتها له قالوا نعم قال فكذلك قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " لولا جواز إدراك الأبصار له لم يصح نفيه عنه فأذعنوا لما قال واستحسنوه

وقال الشيخ أبو البركات كنت ببجاية وقدم علينا رجل من فاس برسم الحج يعرف بابن الحداد فركب الناس في الأخذ عنه والرواية لما يحمله كل صعب وذلول مع أنه لم تكن منزلته هناك في العلم فعجبت لذلك حتى قلت لبعض الطلبة لقد أخذتموه بكلتا اليدين ولم أركم مع من هو أعلى قدرا منه كذلك فقالوا لي لأنه قدم علينا ونحن لا نعرفه وهو في زي حسن بخادم يخدمه يظن من يراه أن أباه من أعيان أهل بلده فسالناه أحي أبوه أم لا قال بل حي قلنا أهو من أهل العلم قال لا هو دلال في سوق الخدم فلذلك أثرناه على من هو فوقه في العلم قال فقلت لهم حق له أن ترتفع منزلته ويعلو صيته لتخلفه وفضله وفوائد أبي البركات كثيرة

ومن تواليفه المؤتمن على أبناء أبناء الزمن كتاب مفيد جدا وهو رضي الله عنه من ذرية العباس بن مرداس السلمى صاحب رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وقال الشيخ أبو البركات ذكر لي أن الفقيه الكاتب أبا الحسن ابن الجياب يحدث عني ولا أذكر الآن أني قلت ذلك ولكنني لما سمعته علمت أنه مما من شأنني أن أقوله وهو أني قلت مثل العالم مثل رجل يصب ماء في قفة واضب على صب الماء بقيت القفة ملأى وإن ترك صب الماء بقيت القفة لا شيء فيها من فكذلك العالم إن واضب على طلب العلم بقي العلم لم ينقص منه شيء وإن ترك الطلب ذهب علمه انتهى

ونقلت ممن رأى كلام ابن الصباغ في ترجمة أبي البركات ما نصه لما ورد مدينة فاس في غرض الهناء والعزاء على أمير المسلمين أبي بكر السعيد ابن أمير المؤمنين أبي عنان وأبصر الدار غاصة بأرباب الدولة الفاسية ولم يعد منها عدا شخصه والولد على أريكة أبيه أنشد " لما تبدلت المجالس أوجها ... غير الذين عهدت من جلسائها " " ورأيته محفوفة بسوى الألى ... كانوا حماة صدورها وبنائها " " أنشدت بيتا سائرا متقدما ... والعين قد شرقت بجاري مائها " " أما القباب فإنها كقبابهم ... وأرى نساء الحي غير نساها " وأظن أنه تمثل بالأبيات في سره وإلا فيبعد أن يقولها في ذلك الحفل لما في ذلك من التعرض للهلك والله سبحانه أعلم

وحكى بعضهم انه كان جالسا في دهليز بيته مع بعض الأصحاب فدخلت زوجته من الحمام وهي بغير سراويل لقرب الحمام من البيت فانكشف ساقها فدخل خلفها مسرعا وغاب ساعة ثم خرج وأنشد

" كشفت على ساق لها فرأيت ... متلألئا كالجوهر البراق " " لا تعجبوا إن قام منه قيامتي ... إن القيامة يوم كشف الساق " وله في خديم اسمه يحيى احتجم محجمة واحدة " أراني يحيى صنعة في قفائه ... مهذبة لما تبادر للباب " " أرى الخمس فيها لا تفارق ساعة ... فصور بالموسى بها شكل محراب " وتوفي الشيخ القاضي أبو البركات المذكور بشوال سنة 771 رحمه الله تعالى ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الحكيم العلامة التعاليمي الشاعر البليغ - 22 أعجوبة زمانه في الإطلاع على علوم الأوائل أبو زكريا يحيى بن هذيل وقد قال في الإحاطة في حقه ما ملخصه يحيى

ابن احمد بن هذيل التجيبي أبو زكريا شيخنا جرى ذكره في التاج المحلى بما نصه درة بين الناس مغفلة وخزانة على كل فائدة مقفلة وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة أبدع من رتب التعاليم

وعلمها وركض في الألواح قلمها وأتقن من صور الهيئة ومثلها وأسس قواعد البراهين وأثلها وأعرف من زاول شكاية ودفع عن جسم نكاية إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم والوصول من المجهول إلى المعلوم والمحاضرة المستفزة للحلوم والدعابة التي ما خالغ العذار فيها بالملوم فما شئت من نفس عذبة الشيم وأخلاق كالزهر من بعد الديم ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر وله أدب ذهب في الإجادة كل مذهب وارتدى من البلاغة بكل رداء مذهب والأدب نقطة من حوضه وزهرة من زهرات روضه وسيمر له في هذا الديوان ما يبهر العقول ويحاسن بروائه ورائق بهائه الفرند المصقول فمن ذلك ما خرجته من ديوانه المسمى بالسليمانيات والعزفيات قوله

" ألا استودع الرحمن بدرا مكملا ... بفاس من الدرب الطويل مطالعه "
" ففي فلك الأزرار يطلع سعده ... وفي أفق الأكباد تلقى مواقعه "
" يصير مرآه منجم مقلتي ... فتصدق في قطع الرجاء قواطعه "
" تجسم من ماء الملاحه خده ... وماء الحيا فيه تخرج مائعه "
" تلون كالحرباء في خلجاته ... فيحمر قانيه وبييض ناصعه "
" إذا اهتز غنى حليه فوق نحره ... كغصن النقا غنت عليه سواجعه "
" يؤكد حتف الصب عامل قدره ... وتعطف من واو العذار توابعه "
" أعد الورى سيفا كسيف لحاظه ... فهذا هو الماضي وذاك مضارعه "

وقال

" وصالك هذا أم تحية بارق ... وهجرك أم ليل السليم لثائق "
" أناديك والأشواق تركض جمرها ... بصفحة خدي من دموع سوابق "
" أبارق ثغر من عذيب رضابه ... قضت مهجتي بين العذيب وبارق "

ومنها

" فلا تتعبن ريح الصبا في رسالة ... ولا تخجل الطيف الذي كان طارقي "
" متى طعمت عيني الكرى بعد بعدكم ... فإني في دعوى الهوى غير صادق "

وقال

" بدا بدر تم فوقه الليل عسعسا ... وجنة أنس في صباح تنفسا "
" حوى النجم قرطا والدراري مقلدا ... وأسبل من مسك الذوائب حندسا "
" كأن سنا الإصباح رام يزورنا ... وخاف العيون الرامقات فغلسا "
" أتى يحمل التوراة ظيبا منزرا ... لطيف التثني أشنب الثغر ألعسا "
" وقابل أخبار اليهود بوجهه ... فبارك ربي عليه وقدسا "
" فصير دمعي أعينا شرب سبطه ... وعمري تيبها والجوانح مقدسا "

ومنها

" رويت ولوعي عن ضلوعي مسلسلا ... فأصبحت في علم الغرام مدرسا "
" نفى النوم عني كي أكون مسهدا ... فأصبحت في صيد الخيال مهندسا "
" غزال من الفردوس تسقيه أدمعي ... وبأوي إلى قلبي مقيلا ومكنسا "
" طغى ورد خديه بجنات صدغه ... فأضعفه بالأس نبتا وما أسا "

وهذا البيت محال على معنى فلاحى قال أهل الفلاحة إن الأس إذا اغترس بين شجر الورد أضعفه بالخاصية

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه

" نام طفل النبت في حجر النعامى ... لاهتزاز الطل في مهد الحزامى "
" وسما الوسمي أغصان النقا ... فهوت تلثم أفواه الندامى "
" كحل الفجر لهم جفن الدجى ... وغدا في وجنة الصبح لثاما "
" تحسب البدر محيا ثمل ... قد سقته راحة الصبح مداما "
" حوله الزهر كؤوس قد غدت ... مسكة الليل عليهن ختاما "
" يا عليل الريح رفقا علني ... أشف بالسقم الذي حزت سقاما "
" أبلغن شوقي عربيا باللوى ... همت في أرض بها حلوا غراما "
" فرشوا فيها من الدر حصى ... ضربوا فيها من المسك خياما "
" كنت أشفي غلة من صدكم ... لو أذنتم لجفوني أن تناما "
" واستفدت الروح من ريح الصبا ... لو أتت تحمل من سلمى سلاما "

وقال منها أيضا

" نشأت للصب منها زفرة ... تسكب الدمع على الربيع سجاما "

" طرب البرق مع القلب بها ... وبها الأناث طارحن الحماما "

" طلل لا تشتفي الأذن به ... وهو للعينين قد ألقى كلاما "

" ترك الساكن لي من وصله ... ضمة الجدران لثما والتزاما "

" نزعات من سليمان بها ... فهم القلب معانيها فهاما "

" شادن يرعى حشاشات الحشا ... حسب حظي منه أن أرعى الذماما "

وقال

" أأرجو أمانا منك واللحظ غادر ... وبثبت عقلي فيك والطرف ساحر "

ومنها

" أعد سليمان أليم عذابه ... لطائر قلبي فهو للبين صائر "

" أشاهد منه الحسن في كل نظرة ... وناظر أفكاره بمغناه ناظر "

" دعت للهوى أنصار سحر جفونه ... فقلبي له عن طيب نفس مهاجر "

" إذا شق عن بدر الدجى أفق زره ... فإني بتمويه العواذل كافر "

" وفي حرم السلوان طابت خواطري ... وقلبي لما في وجنتيه مجاور "

" وقد ينزع القلب المبلى لسلوة ... كما اهتز من قطر الغمامة طائر "

" يقابل أغراضه بضد مرادها ... ولم يدر أن الضد للضد قاهر "

" ونار اشتياقي صعدت مزن أدمعي ... فمضمر سري فوق خدي ظاهر "

" وقد كنت باكي العين والبين غائب ... فقل لي كيف الدمع والبين حاضر "

" وليس النوى بالطبع مرا وإنما ... لكثرة ما شقت عليه المرائر "

وقال

" يا بارقا قاد الخيال فأومضا ... اقصد بطيفك مدنفا قد غمضا "

" ذاك الذي قد كنت تعهد نائما ... بالسهد من بعد الأحبة عوضا "

" لا تحسبني معرضا عن طيفه ... لكن منامي عن جفوني أعرضا "

ومنها

" عجب الوشاة لمهجتي أن لم تذب ... يوم النوى وتشككت فيما مضى "

" خفيت لهم من سر صبري أية ... ما فهمت إلا سليمان الرضى "

" لله درك ناهجا سيل الهوى ... فلمثله أمر الهوى قد فوضا "

" أمنت نملا فوق خدك سارحا ... وسللت سيفا من جفونك منتضى "

وقال في المدح

" حريص على جر الذوائب والقنا ... إذا كعت الأبطال والجو عابس "

" ويعتق الأبطال لولا سقوطها ... لقلت لتوديع أنته الفوارس "

" إذا اختطفتهم كفه فسروجهم ... مجال وهم في راحتيه فرائس "

" وقال يمدح السلطان أبا الوليد ابن نصر عند قدومه من فتح أشكر "

" بحيث البنود الحمر والأسد الورد ... كتائب سكان السماء لها جند "

" وتحت لواء النصر ملك هو الورى ... تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو "

" تأمنت الأرواح في ظل بنده ... كأن جناح الروح من فوقه بند "

" فلو رام إدراك النجوم لنالها ... ولو هم لانقادت له السند والهند "

ومنها

" بعيني بحر النقع تحت أسنة ... تمنمه وهنا كما نمم البرد "

" سماء عجاج والأسنة شهبها ... ووقع القنا رعد إذا برق الهند "

" وظنوا بأن الرعد والصعق في السما ... محاق به من أيده الصعق والرعد "

" عجائب أشكال سما هرمس بها ... مهندسة تأتي الجبال فتنهد "

" ألا إنها الدنيا تريك عجائبا ... وما في القوى منها فلا بد أن يبدو "

وقال وهو معتقل

" تباعد عني منزل وحبیب ... وهاج اشتياقي والمزار قريب "

" وإني على قرب الحبيب مع النوى ... يكاد إذا اشتد الأنين يجيب "

" لقد بعدت عني ديار قريبة ... عجبت لجار الجنب وهو غريب "

" أعاشر أقواما تقر نفوسهم ... فللهم فيها عند ذاك ضروب "

" إذا شعروا من جارهم بتأوه ... أجابته منهم زفرة ونحيب "

" فلا ذاك يشكو هم هذا تأسفا ... لكل امرئ مما دهاه نصيب "

" كأني في غاب الليوث مسالم ... يروعني منه الغداة وثوب "

" تحكم فيها الدهر والعقل حاضر ... بكل قياس والأديب أديب "

" ولو مال بالجهال ميلته بنا ... لجاء بعذر إن ذا لعجيب "

" رفيق بمن لا ينثني عن جريمة ... بطوش بمن ما أوبقته ذنوب "

" ويطعمنا منه بوارق خلب ... نقول عساه يرعوي فيؤوب "

" إذا ما تشبنا بأذيال برده ... دهتنا إذا جر الخطوب خطوب "

" أدار علينا صولجانا ولم يكن ... سوى أنه بالحادثات لعوب "

ومنها

" أيا دهر إنني قد سئمت تهدفي ... أجرني فإن السهم منك مصيب "

" إذا خفق البرق الطروق أجابه ... فؤادي ودمع المقلتين سكوب "

" وإن طلع الكف الخضيب بسحرة ... فدمعي بحناء الدماء خضيب "

" تذكرني الأسحار دارا ألفتها ... فيشتد حزبي والحمام طروب "

" إذا علقت نفسي بليت وربما ... تكاد تفيض أو تكاد تذوب "

" دعوتك ربي والدعاء ضراعة ... وأنت تناجي بالدعا فتجيب "

" لئن كان عقبى الصبر فوزا وغبطة ... فإنني على الصبر الجميل دروب "

قال وبعثت إليه هدية من البادية فقال يصف منها ديكا

" أيا صديقا جعلته سنندا ... فراح فيما أحبه وغدا "

" طلبت منكم سرديكا خنثا ... وحنتم لي مكانه لبدا "

" صير مني مؤرخا ولكم ... ظللت في علمه من البلدا "

" قلت له آدم اتعرفه ... قال حفيدي بعصرنا ولدا "

" نوح وطوفانه رأيتهما ... قال علونا بفيضة أحدا "

" فقلت هل لي بجرهم خبر ... فقال قومي وحيرتي السعدا "

" فقلت فحطان هل مررت به ... قال نفثنا ببرده العقدا "

" فقلت صف لي سبا وساكنها ... فعند هذا تنفس الصعدا "

" فقال كم لي بدجنهم سحرا ... من صرخة لي وللنؤوم هذا "

" فقلت هاروت هل سمعت به ... فقال ريشي لسهمه نفدا "

" فقلت كسرى وآل شرعته ... فقال كنا بجيشه وفدا "

" ولوا وصاروا وها أنا لبد ... فهل رأيتم من فوقهم أحدا "

ديك إذا ما انثنى لفكرته ... رأى وجودا طرائقا قددا " ... " يرفل في طيلسانه ولها ... قد صير "

" الدهر لونه كمدا

" إذا دجا الليل غاب هيكله ... كأن حبرا عليه قد جمدا "

" كأنما جلنار لحيته ... برجان جازا من الهواء مدى "

" كأن حصنا علا بهامته ... أعده للقتال فيه عدا "

" يرنو بياقوتتي لواحظه ... كأنما اللحظ منه قد رمدا "

" كأن متجالتي ذوائبه ... قوس سماء من أصله بعدا "

" وعوسج مدد من مخالفه ... طغى بها في نقاره وعدا "

" فذاك ديك جلت محاسنه ... له صراخ بين الديوك بدا "

" يطلبني بالذي فعلت به ... فكم فللنا بلبتيه مدى "

" وجهته محنة لأكله ... والله ما كان ذاك منك سدى "

ولم نزل بعد نستعدي عليه بإقراره بقتله ونطلبه بالقود عند تصرفه بالعمل فيوجهه الدية لنا في ذلك رسائل

وقال في غرض أبي نواس

" طرقتنا ديور القوم وهنا وتغليسا ... وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى "

" وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤوسهم ... وقد قدسوا الروح المقدس تقديسا "

" فما استيقظوا إلا لصكة بابهم ... فأدهش رهبانا وروع قسيسا "

" وقام بها البطريق يسعى مليبا ... وقد لين الناقوس رفعا وتأنيسا "
 " فقلنا له أمانا فإنه عصابة ... أتينا لتثليث وإن شئت تسديسا "
 " وما قصدنا إلا الكؤوس وإنما ... لحنا له في القول خبثا وتديسا "
 " ففتحت الأبواب بالرحب منهم ... وعرس طلاب المدامة تعريسا "
 " فلما رأى رقي أمامي ومزهري ... دعاني أتأنيسا لحت وتليسا "
 " وقام إلى دن يفض ختامه ... فكيس أجرام الغياهب تكبسا "
 " وطاف بها رطب البنان مزنر ... فأبصرت عبدا صير الحر مرؤوسا "
 " سلافا حواها القار لبسا فخلتها ... مثلا من الياقوت في الحبر مغموسا "
 ومنها
 " إلى أن سطا بالقوم سلطان نومهم ... ورأس فتيل الشمع نكس تنكيسا "
 " وثبت إليه بالعناق فقال لي ... بحق الهوى هب لي من الضم تنفيسا "
 " كتبت بدمع العين صفحة خده ... فطلس حبر الشعر كتبي تطليسا "
 " فبنس الذي احتلنا وكدنا عليهم ... ونس الذي قد أضمروا قبل ذا بيسا "
 " فبتنا يرانا الله شر عصابة ... نطبع بعصيان الشريعة إبليسا "
 " وقال بديهة في غزالة من النحاس ترمي الماء على بركة "
 " عنت لنا من وحش وجرة طيبة ... جاءت لورد الماء ملء عنانها "
 " وأظنها إذا حددت أذانها ... ريعت بنا فتوقفت بمكانها "
 " حيث بقرنى رأسها إذ لم تجد ... يوم اللقاء تحية بينانها "
 " حنت على الندمان من إفلاسهم ... فرمت قضيب لجينها لحنانها "
 " لله در غزالة أبدت لنا ... در الحباب تصوغه بلسانها "
 قال لسان الدين وفلج المذكور فلزم منزلي لمكان فضله ووجوب حقه وقد كانت زوجته توفيت وصحبه
 عليها وجد فلما ثقل وقربت وفاته استدعاني وكاد لسانه لا يبين فأوصاني وقال
 " إذا مت فادفني حذاء حليتي ... يخالط عظمي في التراب عظامها "
 " ولا تدفني في البقيع فإنني ... أريد إلى يوم الحساب التزامها "
 " ورتب ضريحي كيفما شاءه الهوى ... تكون أمامي أو أكون أمامها "
 " لعل إله العرش يجبر صدعتي ... فيعلي مقامي عنده ومقامها "
 ومات رحمه الله تعالى في الخامس والعشرين لذي قعدة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ودفن
 بحذاء زوجته كما عهد رحمه الله تعالى انتهى
 ومن نظم ابن هذيل
 " وطبي زارني والليل طفل ... إلى أن لاح لي منه اكتهال "
 " وألغى الشك من وصل فقلنا ... بليل الشك يرتقب الهلال "
 ومن أشياخ لسان الدين الشيخ أبو بكر ابن ذي الوزارتين وهو أعني أبا بكر الوزير الكاتب - 23
 الأديب الفاضل المشارك المتفنن المتبحر في الفنون أبو بكر محمد ابن الشيخ الشهير ذي الوزارتين
 أبي عبد الله بن الحكيم الرندي ومن نظمه قوله
 " تصبر إذا ما أدركتك ملمة ... فصنع إله العالمين عجيب "
 " وما يلحق الإنسان عار بنكبة ... ينكب فيها صاحب وحيب "
 " ففي من مضى للمرء ذي العقل أسوة ... وعيش كرام الناس ليس يطيب "
 " ويوشك أن تهمني سحائب نعمة ... فيخصب ربع للسرور جديب "
 " إلهك يا هذا قريب لمن دعا ... وكل الذي عند القريب قريب "
 قال ابن خاتمة وأنشدني الوزير أبو بكر مقدمه على المربة غازيا مع الجيش المنصور قال أنشدني
 أبي
 " ولما رأيت الشيب حل بمفرقي ... نذيرا بترحال الشباب المفارق "
 " رجعت إلى نفسي فقلت لها انظري ... إلى ما أرى هذا ابتداء الحقائق "
 ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم
 وبيتهم بيت كبير وأخذ عن غير واحد وعن والده وهو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن
 بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي الكاتب البليغ الأديب الشهير الذكر بالأندلس وأصل سلفه من
 إشبيلية من أعيانها ثم انتقلوا إلى رندة في دولة بني عباد ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم
 لطفه وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر إثر

قفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله ابن رشيد الفهري فألقه السلطان بكتابه وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء إلى أن توفي هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله المخلو فقلده الوزارة والكتابة وأشرك معه في الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني فلما توفي أبو سلطان أفرد السلطان بالوزارة ولقبه ذا الوزارتين وصار صاحب أمره إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلًا نفعه الله تعالى غدوة يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة وذلك لتاريخ خلع سلطانه وخلافة أخيه أمير المسلمين أبي الجيوش مكانه ومولده برندة سنة ستين وستمائة

وكان رحمه الله تعالى علما في الفضيلة والسرارة ومكارم الأخلاق كريم النفس واسع الإيثار متين الحرمة عالي الهمة كاتبًا بليغًا أديبًا شاعرًا حسن الخط يكتب خطوطًا على أنواع كلها جميلة الانطباع خطيبًا فصيح القلم زاكي الشيم مؤثرًا لأهل العلم والأدب برا بأهل الفضل والحسب نفقت بمدته للفضائل أسواق وأشرفت بإمداده للأفاضل آفاق ورحل للمشرق كما سبق فكانت إجازته البحر من المرية فقضى فريضة الحج وأخذ عن لقي هنالك من الشيوخ فمشيخته متوافرة وكان رفيقه كما مر الخطيب أبا عبد الله ابن رشد الفهري فتعاونوا على هذا الغرض وقضيا منه كل نفل ومفترض واشتركا فيمن أخذًا عنه من الأعلام في كل مقام وكانت له عناية بالرواية وولوج بالأدب وصباة باقتناء الكتب جمع من أمهاتها العتيقة وأصولها الرائقة الأنيقة ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه ولا ظفرت به يده أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق ابن أبي العاصي وتدبج معه رفيقه أبو عبد الله ابن رشيد وغير واحد وكان ممدحا وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي والرئيس أبو الحسن ابن الجياب وناهيك بهما

ومن بديع مدح ابن الجياب له قصيدة رائية رائقة يهنيه فيها بعيد الفطر منها في أولها

" يا قادما عمت الدنيا بشائره ... أهلا بمقدمك الميمون طائرته "
" ومرحبا بك من عيد تحف به ... من السعادة أجناد تظافره "
" قدمت فالخلق في نعمى وفي جذل ... أبدى بك البشر بادية وحاضره "
" والأرض قد لبست أثواب سندسها ... والروض قد بسمت منه أزاهره "
" حاكت يد الغيث في ساحاته حللا ... لما سقاها دراكا منه باكره "
" فلاح فيها من الأنوار باهرها ... وفاح فيها من النوار عاطره "
" وقام فيها خطيب الطير مرتجلا ... والزهر قد رصعت منه منابره "
" موشى ثوب طواه الدهر آونة ... فها هو اليوم للأبصار ناشره "
" فالغصن من نشوة يثني معاطفه ... والطير من طرب تشدو مزاهره "
" وللكمام انشقاق عن أزاهرها ... كما بدت لك من خل ضماثره "
" لله يومك ما أركى فضائله ... قامت لدين الهدى فيه شعائره "
" فكم سريرة فضل فيك قد خبئت ... وكم جمال بدا للناس ظاهره "
" فافخر بحق على الأيام قاطبة ... فما لفضلك من ند يظاهره "
" فأنت في عصرنا كابن الحكيم إذا ... قيست بفخر أولي العليا مفاخره "
" يلتاح منه بأفق الملك نور هدى ... تضاءل الشمس مهما لاح زاهره "
" مجد صميم على عرش السماك سما ... طالت مبانیه واستعلت مظاهره "
" وزارة الدين والعلم التي رفعت ... أعلامه والندى الفياض زاخره "
" وليس هذا بدع من مكارمه ... ساوت أوائله فيه أواخره "
" يلقي الأمور بصدر منه منشرح ... بحر وأراؤه العظمى جواهره "
" راعى أمور الرعايا معملا نظرا ... كمثل علياه معدولا نظائره "
" والملك سير في تدبيره حكما ... تنال ما عجزت عنه عساكره "
" سياسة الحلم لا بطش يكدرها ... فهو المهيب وما تخشى بوادره "
" لا يصدر الملك إلا عن إشارته ... فالرشد لا تتعداه مصايره "
" تجري الأمور على أقصى إرادته ... كأنما دهره فيه يشاوره "
" وكم مقام له في كل مكرمة ... أنست موارده فيها مصادره "
" ففضلها طبق الآفاق أجمعها ... كأنه مثل قد سار سائره "
" فليس يجحده إلا أخو حسد ... يرى الصباح فيعشى منه ناظره "
" لا ملك أكبر من ملك يدبره ... لا ملك أسعد من ملك يوازره "
" يا عز أمر به اشتدت مضاربه ... يا حسن ملك به ازدانت محاضره "

" تنهي البلاد وأهلوها بما عرفوا ... ويشهد الدهر آتية وغابره "

" بشرى لآمله الموصول مأمله ... تعسا لحاسده المقطوع دابره "

" فالعلم قد أشرفت نورا مطالعه ... والجود قد أسبلت سحا مواطره "

" والناس في بشر والملك في ظفر ... عال على كل عالي القدر قاهره "

" والأرض قد ملئت أمنا جوانبها ... بيمن من خلصت فيها سرائره "

" وإلى أياديه من مثني وموحدة ... تساجل البحر إن فاضت زواخره "

" فكل يوم تلقانا عوارفه ... كساه أمواله الطولى دفاتره "

" فمن يؤدي لما أولاه من نعم ... شكرا ولو أن سحبانا يظاهره "

" يا أيها العيد بادر لثم راحتته ... فلثمها خير مأمول تبادره "

" وافخر بأن قد لقيت ابن الحكيم على ... عصر يباريك أو دهر تفاخره "

" ولي الصيام وقد عظمت حرمته ... فأجره لك وافيته ووافره "

" وأقبل العيد فاستقبل به جذلا ... واهنا به قادما عمت بشائره "

ومن نثر ذي الوزارتين آخر إجازة ما صورته وها أنا أجري معه على حسن معتقده وأكله في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودده وأجيز له ولولديه أقر الله بهما عينه وجمع بينهما وبينه رواية جميع ما نقلته وحملته وحسن اطلاعه يفصل من ذلك ما أجملته فقد أطلقت لهم الإذن في جميعه وأبحت لهم الحمل عني ولهم الإختيار في تنويحه والله سبحانه يخلص أعمالنا لذاته ويجعلها في ابتغاء مرضاته قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامدا لله عز وجل ومصليا

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم قوله

" ما أحسن العقل وآثاره ... لو لازم الإنسان إيثاره "

" يصون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصون الحر أسرارته "

" لا سيما إن كان في غربة ... يحتاج أن يعرف مقداره "

وقوله رحمه الله

" إني لأعسر أحيانا فيلحقني ... يسر من الله إن العسر قد زالا "

" يقول خير الورى في سنة ثبتت ... أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا "

وهو من أحسن ما قال رحمه الله

ومن شعر ذي الوزارتين المذكور قوله

" فقدت حياتي بالعراق ومن غدا ... بحال نوى عمن يحب فقد فقد "

" ومن أجل بعدي عن ديار ألفتها ... جحيم فؤادي قد تلظى وقد وقد "

وقد سبقه إلى هذا القائل

" أوارى أوارى بالدموع تجلدا ... وكم رمت إطفاء اللهب وقد وقد "

" فلا تعذلوا من غاب عنه حبيبه ... فمن فقد المحبوب مثلي فقد فقد "

كذا رواه ابن خاتمة ورواه غيره هكذا

" ... أوارى أوارى والدموع تبينه "

وهو الصواب قال ابن خاتمة وأنشدني رئيس الكتاب الصدر البليغ

الفاضل أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري قال أنشدني رئيس الكتاب الجليل أبو محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي قال أنشدني رئيس الكتاب ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم رحمه الله

" صح الكتاب وعنه ... واختم على مكتبته "

" واحذر عليه من مخالسة ... الرقيب بجفنه "

" واجعل لسانك سجنه ... كيلا ترى في سجنه "

قال ابن خاتمة وفي سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل

وحكى أن ذا الوزارتين المذكور لما اجتمع مع الجليل الفقيه الكاتب ابن أبي مدين أنشده ابن أبي مدين

" عشقتكم بالسمع قبل لقاكم ... وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفه "

" وحبيني ذكر الجليس إليكم ... فلما التقينا كنتم فوق وصفه "

فأنشد ذو الوزارتين ابن الحكيم

" ما زلت أسمع من عليك كل سنا ... أبهى من الشمس أو أجلى من القمر "

" حتى رأى بصري فوق الذي سمعت ... أذني فوق بين السمع والبصر "

ويجبني في قريب من هذا المعنى قول الحاج الكاتب أبي إسحاق الحسناوي رحمه الله
" سحر البيان بناني صار يعقده ... والنفت في عقده من منطقي الحسن "

" لا أنشد المرء يلقاني وبيصرني ... أنا المعيدي فاسمع بي ولا ترني "

رجع وقال لسان الدين في عائد الصلة في حق ذي الوزارتين ابن الحكيم
ما صورته كان رحمه الله فريد دهره سماحة وبشاشة ولودعية وانطباعا رقيق الحاشية نافذ العزمة
مهتزا للمديح طلقا للأمل كهفا للغريب برمكي المائدة مهلبي الحلوي ريان من الأدب مضطلعا
بالرواية مستكثرا من الفائدة يقوم على المسائل الفقهية ويتقدم الناس في باب التحسين والتفحيح
ورفع راية الحديث والتحديث نفق بضاعة الطلب وأحيا معالم الأدب وأكرم العلم والعلماء ولم تشغله
السياسة عن النظر ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع وأفرط في اقتناء الكتب حتى
ضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أنديته من ذخائرها قام له الدهر على رجل وأخدمه صدور البيوتات
وأعلام الرياسات وخوطف من البلاد النازحة وأمل في الآفاق النائية انتهى المقصود منه
ومن أحسن ما رثي به الوزير ابن الحكيم رحمه الله قول بعضهم
" قتلوك ظلما واعتدوا ... في فعلهم حد الوجوب "

" ورموك أشلاء وذا ... أمر قضته لك الغيوب "

" إن لم يكن لك سيدي ... قبر فقبرك في القلوب "

وقال لسان الدين في الإحاطة في حق رحلة ذي الوزارين ابن الحكيم ما صورته رحل إلى الحجاز
الشريف من بلده على فناء سنة أول عام ثلاثة وثمانين وستمائة فحج وزار وتجول في بلاد
المشرق منتجعا عوالي الرواية في مظانها ومنقرا عنها عند مسني شيوخها وقيد الأناشيد الغربية
والأبيات المرقصة وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فأخذ بها
عن جماعة وانصرف إلى المدينة المشرفة ثم قفل مع الركب الشامي إلي دمشق ثم كر إلى
المغرب لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا روى أو روى واحتل رندة حرسها الله أواخر عام خمسة
وثمانين وستمائة وأقام بها عينا في قرابته وعلمها في أهله معظما لديهم إلى أن أوقع السلطان
بالوزراء من بني حبيب الوقية البرمكية وورد رندة في أثر ذلك فتعرض إليه وهناه بقصيدة طويلة من
أوليات شعره أولها
" هل إلى رد عشيات الوصال ... سبب أم ذاك من ضرب المجال "

فلما أنشدها إياه أعجب به وبحسن خطه ونصاعة ظرفه فأثني عليه واستدعاه إلى الوفادة على
حضرته فوفد آخر عام ستة وثمانين فأثبته في خواص دولته وأحطاه لديه إلى أن رفاه إلى كتابة
الإنشاء ببابه واستمرت حاله معظم القدر مخصوصا بالمزية إلى أن توفي السلطان ثاني الملوك من
بني نصر وتقلد الملك بعده ولي عهد أبو عبد الله فزاد في إحطائه وتقريبه وجمع له بين الكتابة
والمؤازرة ولقبه بذي الوزارتين وأعطاه العلامة وقلده الأمر فبعد الصيت وطاب الذكر إلى أن كان من
أمره ما كان انتهى ملخصا
وقال في الإحاطة بعد كلام طويل في ترجمته قال شيخنا الوزير أبو بكر ابن الحكيم ولده وجدت
بخطه رحمه الله تعالى رسالة خاطب بها أخاه الأكبر أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها
" ذكر اللوى شوقا إلى أقماره ... فقضى أسى أو كاد من تذكاره "

" وعلا زفير حريق نار ضلوعه ... فرمى على وجناته بشراره "

وقد ذكرناها في غير هذا المحل
وقال مما يكتب على قوس
" أنا عدة للدين في يد من غدا ... لله منتصرا على أعدائه "

" أحكي الهلال وأسهمي في رحمها ... لمن اعتدى تحكي رجوم سمائه "

" قد جاء في القرآن أني عدة ... إذ نص خير الخلق محكم آية "

" وإذا العدو أصابه سهمي فقد ... سبق القضاء بهلكه وفنائه "

قال لسان الدين ومن توقيعه ما نقلته من خط ولده يعني أبا بكر في كتابه المسمى بالموارد
المستعذبة وكان بوادي أش الفقيه الطرائفي فكتب إلى خاصة والدي أبي جعفر ابن داود قصيدة
على روي السنين ينشكى فيها من مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم ابن حسان منها
" فيا صفى أبي العباس كيف ترى ... وأنت أكيس من فيها من أكياس "

" ولوه إن كان ممن ترتضون به ... فقد دنا الفتح للأشراف في فاس "

ومنها يستطرد ذكر ذي الوزارتين
" للشرق فضل فمنه أشرقت شهب ... من نورهم أقبسونا كل مقباس "

فوقع عليها رحمه الله تعالى
 " إن أفرطت بآبن حسان غوائله ... فالأمر يكسوه ثوب الذكر والبأس "
 " وإن تزل به في جورة قدم ... كان الجزء له ضربا على الراس "
 " فقد أقامني المولى بنعمته ... لبث أحكامه بالعدل في الناس "
 ثم أطال في أمره إلى أن قال في ترجمة قتله ما صورته واستولت يد الغوغاء على منازلهم شغلهم
 بها مدير الفتنة خيفة من أن يعاجلوه قبل تمام أمره فصاع بها مال لا يكتب وعروض لا يعلم لها قيمة
 من الكتب والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخرثي وأخفرت ذمته وتعدى به عدوه القتل
 إلى المثلة وقانا الله مصارع السوء فطيف بشلوه وانتهب فضاع ولم يقبر وجرت فيه شناعة كبيرة
 رحمه الله تعالى انتهى المقصود منه

رجع

ومن مشايخ لسان الدين الأستاذ أبو الحسن علي القيجاطي - 24
 وقال في حقه في الإحاطة ما محصله علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني القيجاطي أبو
 الحسن أوجد زمانه علما وتخلقا وتواضعا وتفننا ورد على غرناطة مستدعى عام اثني عشر
 وسبعمائة وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنونا من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب وولي
 الخطابة وناب عن بعض القضاة بالحضرة مشكور المأخذ حسن السيرة عظيم النفع وقصده الناس
 وأخذوا عنه وكان أدبيا لودعيا فكها حلوا وهو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة
 المكتب وله تأليف في فنون وشعر ونثر فمن شعره قوله
 " روض المشيب تفتحت أزهاره ... حتى استبان ثغامه وبهاره "
 " ودجى الشباب قد استبان صباحه ... وظلامه قد لاح فيه نهاره "
 " فأتى حمام لا يعاف وقوعه ... ومضى غراب لا يخاف مطاره "
 " والعمر مثل البدر يبدو حسنه ... حينما ويعقب بعد ذاك سراره "
 " ما للإخاء تقلصت أفيأوه ... ما للصفاء تكدرت آثاره "
 " والحر يصفح إن أخل خليله ... والبر يسمح إن تجرأ جاره "
 " فتراه يدفع إن تمكن جاهه ... وتراه ينفع إن علا مقداره "
 " ولأنت تعلم أنني زمن الصبا ... ما زلت زندا والحياة سواره "
 " ولأنت تعلم أنني زمن الصبا ... ما زلت ممن عفا فيه إزاره "
 " والهجر ما بين الأحبة لم يزل ... ترك الكلام أو السلام مثاره "
 " ولكم تجافى عن جفاء خليله ... فطن وقد ظفرت به أظفاره "
 " ولكم أصر على التدابير مدير ... أفضى إلى ندم به إصراره "
 " فأقام كالكسعي بأن نهاره ... أو كالفرزدق فارقت نواره "
 " أنكرتم من حق معترف لكم ... بالحق ما لا ينبغي إنكاره "
 " والشرع قد منع التقاطع نصه ... قطعا وقد وردت به أخباره "
 " والسن سن تورع وتبرع ... وتسرع لتشرع تختاره "
 " ما يومنا من أمسنا قدك اتند ... ذهب الشباب فكيف ينفي عاره "
 " هلا حظرتم أو حذرتم منه ما ... حق عليكم حظره وحذاره "
 " عجا لمن يجري هواه لغاية ... محدودة إضماره مضماره "
 " يأتي ضحى ما كان يأتيه دجى ... فكانه ما شاب منه عذاره "
 " فيعد ما تفني به حسناته ... ويعيد ما تبقى به أوزاره "
 " فالنفس قد أجزته ملء عنانها ... يشند في مضمارها إحضاره "
 " والمرء من إخوانه في جنة ... بل جنة تجري بها أنهاره "
 " واليمن قد مدت إليه يمينه ... واليسر قد شدت عليه يساره "
 " شعر به أشعرت بالنصح الذي ... يهديه من أشعاره إشعاره "
 " ولو اختبرتم نقده بمحكمة ... لامتاز بهرجه ولاح نضاره "
 " هذا هدى فبه اقتده تمل المنى ... أو أنت في هذا وما تختاره "
 " وعليك مني سلام مثلما ... أرجحت بروض يانع أزهاره "

وقال من قصيدة رثائية

" حمام حمام فوق أيك الأسى تشدو ... تهيج من الأشجان ما أوجد الوجد "
 " وذلك شجو في حناجرنا شجا ... وذلك هزل في ضمائرنا جد "

" أرى أرجل الأرزاء تشتد نحونا ... وأيديها تسعى إلينا فتمتد "
 " ونحن أولو سهو عن الأمر ما لنا ... سوى أمل إيجابنا عنده جحد "
 " فإن خطرت للمراء ذكرى بخاطر ... فتسبيحة الساهي إذا سمع الرعد "
 " مصاب به قدت قلوب وأنفس ... لدينا إذا في غيره قطعت برد "
 " تلين له الصم الصلاب وتنهمي ... عيون وبيكي عنده الحجر الصلد "
 " فلا مقلة ترنو ولا أذن تعي ... ولا راحة تعطو ولا قدم تعدو "
 " وقد كان يبدو الصبر منا تجلدا ... وهذا مصاب صبرنا فيه ما يبدو "
 " ومولده عام خمسين وستمائة وتوفي بغرناطة ضحى السبت في السابع والعشرين لذي حجة عام
 ثلاثين وسبعمائة وحضره السلطان فمن دونه رحمه الله تعالى انتهى
 ومنهم العلامة شيخ الشيوخ أبو سعيد فرج بن لب - 25

قال في الإحاطة في حقه ما محصله فرج بن قاسم بن أحمد بن لب
 قال ابن الصباغ من شعر ابن لب يمدح رسول الله
 " إذا القلب ثار أثار ادكارا ... لقلبي فأذكى عليه أوارا "
 " تروم جفوني لنار الهوى ... خمودا فتهمي دموعا غزارا "
 " فماء جفوني يسح انهمالا ... ونارفؤادي تهيج استعارا "
 " أطيل العويل صباحا مساء ... كئيبا ولسنت أطيق اصطبارا "
 " رقيت مراقي للحب شتى ... فأفنى مرارا وأحيا مرارا "
 " أحن اشتياقا لريح سرت ... وأبدي هياما لبرق أنارا "
 " حنيننا وشوقا إلى معلم ... حوى شرفا خالدا لا يجارى "
 " به أسكن الله أسمى الورى ... نبيا كريمة وصحبا خيارا "
 " هو المصطفى المنتقى المجتبي ... أرى معجزات وآيا كبارا "
 " يحق علينا ركوب البحار ... وجوب القفار إليه ابتدارا "

ومنها

" فيا فوز من فاز في طيبة ... بلثم المغاني جدارا جدارا "
 " وألصق خدا على تربها ... وأكمل حجا بها واعتمارا "
 " وأهدى السلام لخير الأنام ... على حين وافى عليه مزارا "
 " فبا هادي الخلق دار نعيم ... تناهت جمالا وطابت قرارا "
 " لأنت الوسيلة والمرتجى ... ليوم يرى الناس فيه سكارى "
 " وما هم سكارى ولكنهم ... دهتهم دواه فهموا حيارى "
 " ترى المرء للهول من أمه ... ومن أقربيه يطيل الفرارا "
 " وكل يخاف على نفسه ... فيكسوه خوف الإله انكسارا "
 " فصلى الإله رسول الهدى ... عليك وأبقى هداك منارا "
 " وقدس ربي ترى روضة ... يعم الجهات سناها انتشارا "
 " أعير شذا المسك منها الثرى ... بل المسك منه شذاه استعارا "
 " هنيئا لمن بهداك اهتدى ... ومغناك وافى وإياك زارا "

وقصد رحمه الله تعالى بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التي نظمها بالحجاز في
 طريق المدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام وهي طويلة ومطلعها
 " وصلنا السرى وهجرنا الديارا ... وجئناك تطوي إليك القفارا "
 " وقد تبارى الشعراء في هذا الوزن وهذا الروي ومنه القصيدة المشهورة
 " ... أقول وأنست بالحي نارا "

ولابن لب رحمه الله تعالى الفتاوي المشهورة

وقال في الإحاطة في حقه ما محصله فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي غرناطي أبو سعيد
 من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن الخلق رأس بنفسه وبرز بمزية إدراكه وحفظه
 فأصبح حامل لواء التحصيل وعليه مدار الشورى وإليه مرجع الفتوى لقيامه على الفقه وغزارة علمه
 وحفظه إلى المعرفة بالعربية واللغة ومعرفة التوثيق والقيام على القراءات والتبريز في التفسير
 والمشاركة في الأصليين والفرائض والأدب وجودة الحفظ وأقرأ بالمدرسة النصرية في الثامن
 والعشرين لرجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة معظما عند الخاصة والعامه مقرونا اسمه
 بالتسويد قعد للتدريس ببلده على وفور الشيوخ وولي الخطابة بالجامع قرأ على القيجاطي والعربية

على ابن الفخار وأخذ عن ابن جابر الوادي أشبه فمن شعره في النسب
 " خذوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقي ... فما زال قلبي كله للهوى رقا "
 " دعوا القلب يصلى في لظى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقى "
 " سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا ... فكل الذي يلغون بعض الذي ألقى "
 " فإن كان عبد يسأل العتق سيديا ... فلا أبتغي من مالكي في الهوى عتقا "
 " بدعوى الهوى يدعو أناس وكلهم ... إذا سئلوا طرق الهوى جهلوا الطرقا "
 " فطرق الهوى شتى ولكن أهله ... يحوزون في يوم السباق بها السبقا "
 " وكم جمعت طرق الهوى بين أهلها ... وكم أظهرت عند السوى بينهم فرقا "
 " بسيما الهوى تسمو معارف أهله ... فحيث ترى سيما الهوى فاعرف الصدا "
 " فمن زفرة تزجي سحائب عبرة ... إذا زفرة ترقى فلا عبرة ترقا "
 " إذا سكتوا عن وجدهم أعربت به ... بواطن أحوال وما عرفت نطقا "
 وقال في وداع شهر رمضان
 " أزمعت يا شهر الصيام رحيلاً ... وقاربت يا بدر الزمان أفولا "
 " أجدك قد جدت بك الآن رحلة ... رويدك أمسك للوداع قليلاً "
 " نزلت فأزمت الرحيل كأنما ... نوبت رحيلاً إذ نوبت نزولاً "
 " وما ذاك إلا أن أهلك قد مضوا ... تغانوا فأبصرت الديار طولاً "
 " تفكرت في الأوقات ناشئة التقى ... أشد به وطأ وأقوم قيلاً "
 وهي طويلة

وكان موجوداً عند تأليف الإحاطة رحمه الله تعالى انتهى بالمعنى
 وقال الحافظ ابن حجر إنه صنف كتاباً في الباء الموحدة وأخذ عنه شيخنا بالإجازة قاسم بن علي
 المالقي ومات سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة انتهى
 وقال تلميذه المنتوري ما نصه من شيوخه الشيخ الأستاذ الخطيب المقرئ
 المتفنن المفتي أبو سعيد ابن لب مولده سنة إحدى وسبعمائة وتوفي ليلة السبت لسبع عشرة
 ليلة مضت من ذي الحجة عام اثنين وثمانين انتهى
 وهو مخالف لما سبق عن ابن حجر لكن صاحب البيت أدري إذ المنتوري تلميذه ونحوه للشيخ أبي
 زكريا السراج في فهرسته إذ قال شيخنا الفقيه الخطيب الأستاذ المقرئ العالم العلم الصدر
 الأوحد الشهير كان شيخ الشيوخ وأستاذ الأستاذين بالأندلس إليه انتهت فيها رئاسة الفتوى في
 العلوم كان أهل زمانه يقفون عندما يشير إليه قرأ على أبي علي القيجاطي بالسبع وتفقه عليه
 كثيراً في أنواع العلوم ولازمه إلى أن مات وأجازه عامة وعليه اعتمد وأخذ عن أبي جعفر ابن الزيات
 وأبي إسحاق ابن أبي العاصي وابن جابر الوادي أشبه وقاضي الجماعة أبي بكر سمع عليه
 البخاري وتفقه عليه وقرأ عليه أكثر عقيدة المقترح تفهما وبعض الإرشاد وبعض التهذيب وعن أبي
 محمد ابن سلمون والبركة أبي عبد الله الطنجالي الهاشمي وأجازه انتهى بمعناه
 وبالجملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال المواق فيه شيخ الشيوخ أبو سعيد ابن
 لب الذي نحن على فتاويه في الحلال والحرام انتهى
 وقل من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته فممن أخذ عنه الشاطبي وابن علاق وأبو محمد ابن
 جزى والأستاذ القيجاطي والأستاذ الحفار والشيخ الوزير ابن الخطيب السلماني والكاتب ابن زمرك
 في خلق كثير من طبقتهم ثم من الطبقة الثانية أبو يحيى ابن عاصم وأخوه القاضي أبو بكر ابن
 عاصم والشيخ أبو القاسم ابن سراج والمنتوري في خلق لا يحصون
 وله تاليف فمنها شرح جمل الزجاجي وشرح تصريف التسهيل
 وكتاب ينبوع عين الثرة في تفرع مسألة الإمامة بالأجرة وله فتاوي مدونة بأيدي الناس وممن
 جمعها الشيخ ابن طركاظ الأندلسي وله كتابة في مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيئة
 المعروفة وقد رد عليه في هذا التاليف تلميذه أبو يحيى ابن عاصم الشهيد في تأليف نبيل انتصارا
 لشيخه أبي إسحاق الشاطبي رحم الله تعالى الجميع
 ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب أبو القاسم ابن جزى ففي الإحاطة ما ملخصه محمد بن - 26
 أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزى الكلبي أبو القاسم من
 أهل غرناطة وذوي الأصالة والنباهة فيها شيخنا وأصل سلفه من ولية من حصن البراجلة نزل بها
 أولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي وعند خلع دولة المرابطين كان
 لجدهم يحيى رئاسة وانفراداً بالتدبير وكان رحمه الله تعالى على طريقة مثلى من العكوف على

العلم والاقتران على الاقتيات من حر النشب والاشتغال بالنظر والتقيد والتدوين فقيها حافظا قائما على التدريس مشاركا في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث حفظة للتفسير مستوعبا للأقوال جماعة للكتب ملوكي الخزانة حسن المجلس ممتع المحاضرة قريب الغور صحيح الباطن تقدم خطيبا بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنة فاتق على فضله وجرى على سنن أصالته قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير العربية والفقه والحديث والقرآن وعلى ابن الكماد ولازم الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد وطبقتهم كالحضرمي وابن أبي الأحوص وابن برطال وأبي عامر ابن ربيع الأشعري والولي أبي عبد الله الطنجالي وابن الشاط

وله تواليف منها وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم والأنوار السنية في الكلمات السنية والدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار والقوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية وكتاب تقريب الوصول إلى علم الأصول وكتاب النور المبين في قواعد عقائد الدين وكتاب المختصر البارع في قراءة نافع وكتاب أصول القراءة الستة غير نافع وكتاب الفوائد العامة في لحن العامة إلى غير ذلك مما قيده في التفسير والقراءات وغير ذلك وله فهرسة كبيرة اشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب ومن شعره قوله في الأبيات الغينية ذاهبا مذهب المعري وابن المظفر والسلفي وأبي الحجاج ابن الشيخ وأبي الربيع ابن سالم وابن أبي الأحوص وغيرهم من علماء المشرق والمغرب " لكل بني الدنيا مراد ومقصد ... وإن مرادي صحة وفراغ "

" لأبلغ في علم الشريعة مبلغا ... يكون به لي للجنان بلاغ "

" ففي مثل هذا فلينافس أولو النهى ... وحسبي من دار الغرور بلاغ "

" فما الفوز إلا في نعيم مؤبد ... به العيش رغد والشراب يساغ "

وقال

" أروم امتداح المصطفى فيردني ... قصوري عن إدراك تلك المناقب "

" ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر ... ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب "

" ولو إن أعضائي غدت السنن إذا ... لما بلغت في المدح بعض ما ربي "

" ولو أن كل العالمين تألفوا ... على مدحه لم يبلغوا بعض واجب "

" فأمسكت عنه هيبة وتأدبا ... وعجزا وإعظاما لأرفع جانب "

" ورب سكوت كان فيه بلاغة ... ورب كلام فيه عتب لعاتب "

وقال

" يا رب إن ذنوبي اليوم قد كثرت ... فما أطيق لها حصرا ولا عددا "

" وليس لي بعذاب النار من قبل ... ولا أطيق لها صبرا ولا جلدا "

" فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكني ... ولا تذيقني حر الجحيم غدا "

وقال

" وكم من صفحة كالشمس تبدو ... فيسلي حسنها قلب الحزين "

" غضضت الطرف عن نظري إليها ... محافظة على عرضي وديني "

مولده يوم الخميس تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وستمائة وفقده وهو يحرض الناس يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الإثنين تاسع جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة وعقبه ظاهر بين القضاء والكتابة انتهى

شعر لابن لؤلؤة

وأذكرني روي الغين الصعب قول الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني

الأندلسي المعروف بابن لؤلؤة رحمه الله ورضي عنه

" أمن بعد ما لاح المشيب بمفرقي ... أميل لزور بالغرور يصاغ "

" وأرتاح للذات والشيب منذر ... بما ليس عنه للأنام مراغ "

" ومن لم يمت قبل الممات فإنه ... يراع بهول بعده ويراغ "

" فيا رب وفقني إلى ما يكون لي ... به للذي أرجوك منه بلاغ "

توفي المذكور بالطاعون سنة 750 وكان خطيبا بحصن قمارش رحمه الله تعالى

من نظم ابن جزري

ومن نظم ابن جزري المذكور قوله

" أيا من كفت النفس عنه تعففا ... وفي النفس من شوقي إليه لهيب غرام "

" ألا إنما صبري كصبر وإنما ... على النفس من تقوى الإله رقيب لجام "
 وهما من التخيير المعلوم في فن البديع
 وقول لسان الدين رحمه الله تعالى وله عقب ظاهر بين القضاء والكتابة يريد به بنيه البارع أبا بكر
 والعلامة أبا عبد الله والقاضي أبا محمد عبد الله

تراجم أولاد ابن جزى

ولنذكرهم فنقول أما أبو بكر أحمد فهو الذي ألف أو أبوه الأنوار السننية وهو من أهل الفضل والنزاهة
 وحسن السمات والهمة واستقامة الطريقة غرب في الوقار ومال إلى الانقباض وله مشاركة حسنة
 في فنون من فقه وعربية وأدب وخط ورواية وشعر تسمو ببعضه الإجابة إلى غاية بعيدة وقرأ على
 والده ولازمه واستظهر ببعض تأليفه وتفقه وتآدب به وقرأ على بعض معاصري أبيه ثم ارتسم في
 الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبي الحجاج ابن نصر وولي القضاء ببرجة وبأندرش ثم بوادي
 أش مشكور السيرة معروف النزاهة

ومن شعره

" أرى الناس يولون الغني كرامة ... وإن لم يكن أهلاً لرفعة مقدار "
 " ويلوون عن وجه الفقير وجوههم ... وإن كان أهلاً أن يلاقي باكبار "
 " بنو الدهر جاءتهم أحاديث جمّة ... فما صححوا إلا حديث ابن دينار "
 ومن بديع نظمه الصادر عنه تصديره أعجاز قصيدة امرئ القيس بن حجر الكندي بقوله
 " أقول لعزمي أو لصالح أعمالى ... ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي "
 " أما واعظي شيب سما فوق لمتي ... سمو حباب الماء حالا على حال "
 " أنار به ليل الشباب كأنه ... مصايح رهبان تشب لقفال "
 " تهانى عن غي وقال منبها ... ألسنت ترى السمار والناس أحوالى "
 " يقولون غيره لتنعم برهة ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي "
 " أغالط دهري وهو يعلم أنني ... كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي "
 " ومؤنس نار الشيب يقبح لهوه ... بأنسة كأنها خط تمثال "
 " أشيخا وتأتى فعل من كان عمره ... ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال "
 " وتشغفك الدنيا وما إن شغفتها ... كما شغف المهنوءة الرجل الطالي "
 " ألا إنها الدنيا إذا ما اعتبرتها ... ديار لسلمى عافيات بذى خال "
 " فأين الذين استأثروا قبلنا بها ... لناموا فما إن من حديث ولا صال "
 " ذهلت بها غيا فكيف الخلاص من ... لعوب تنسيني إذا قمت سربالي "
 " وقد علمت مني مواعد توبتي ... بأن الفتى يهذي وليس بفعال "
 " ومد وثقت نفسي بحب محمد ... هصرت بغصن ذي شماريخ ميال "
 " وأصبح شيطان الغواية خاسئا ... عليه قتام سيء الظن والبال "
 " ألا ليت شعري هل تقول عزائمي ... لخليكي كرى كرة بعد إجفال "
 " فأنزل دارا للرسول نزيلها ... قليل هموم ما يبيت بأوجال "
 " فطوبى لنفس جاورت خير مرسل ... بيثرب أدنى دارها نظر عالي "
 " ومن ذكره عند القبول تعطرت ... صبا وشمال في منازل قفال "
 " جوار رسول الله مجد مؤتل ... وقد يدرك المجد المؤتل أمثالي "
 " ومن ذا الذي يثني عنان السرى وقد ... كفاني ولم أطلب قليل من المال "
 " ألم تر أن الطبية استشفعت به ... تميل عليه هونة غير مجفال "
 " وقال لها عودي فقلت له نعم ... ولو قطعوا رأسي لذيك وأوصالي "
 " فعادت إليه والهوى قائل لها ... وكان عداؤ الوحش مني على بال "
 " رثى لبعير قال أزمع مالكي ... ليقتلني والمرء ليس بفعال "
 " وثور ذبيح بالرسالة شاهد ... طويل القرا والروق أخنس ذبال "
 " وحن إليه الجذع حنة عاطش ... لغيث من الوسمي رائده خال "
 " وأصليين من نخل قد التأمأ له ... فما احتبسنا من لبن مس وتسهاال "
 " وقبضة ترب منه ذلت لها الطبي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال "
 " وأضحى ابن جحش بالعسيب مقاتلا ... وليس بذى رمج وليس بنبال "
 " وحسبك من سوط الطفيل إضاءة ... كمصباح زيت في قناديل ذبال "
 " وبذت به العجفاء كل مطهم ... له حجبات مشرفات على الفال "

" ويا خسف أرض تحت باغية إذ علا ... على هيكل نهج الجزيرة جوال "

" وقد أخدمت نار لفارس طالما ... أصابت غضا جزلا وكفت بأجزال "

" أبان سبيل الرشيد إذ سبل الهدى ... يقلن لأهل الحلم ضلا بتضلال "

" لأحمد خير العالمين انتقيتها ... وريضة فذلت صعبة أي إذلال "

" وإن رجائي أن ألقاه غدا ... ولست بمقلي الخلال ولا قالي "

" فأدرك آمالي وما كل أمل ... بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي "

ولا خفاء ببراءة هذا النظم وإحكام هذا النسج وشدة هذه العارضة
قصيدتان لحازم

قلت وقد أذكرني هذا التصدير قصيدة الأديب حازم صاحب المقصورة
إذ صدر قصيدة امرئ القيس قفا نيك ولنذكرها هنا قال رحمه الله تعالى

" لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل ... قفا نيك من ذكر حبيب ومنزل "

" وفي طيبة فانزل ولا تغش منزلا ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل "

" وزر روضة قد طالما طاب نشرها ... لما نسجتها من جنوب وشمال "

" وأثوابك اخلع محرما ومصدا ... لدى الستر إلا لبسة المتفضل "

" لدى كعبة قد فاض دمعي لبعدها ... على النحر حتى بل دمعي محملي "

" فيا حادي الأبال سر بي ولا تقل ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل "

" فقد حلفت نفسي بذاك وأقسمت ... علي وألت حلفه لم تحلل "

" فقلت لها لاشك أني طائع ... وأنك مهما تأمري القلب يفعل "

" وكم حملت في أظهر العزم رحلها ... فيا عجبا من رحلها المتحمل "

" وعانيت العجز الذي عاق عزمها ... فقالت لك الويلات إنك مرحلي "

" نبي هدى قد قال للكفر نوره ... ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي "

" تلا سورا ما قولها بمعارض ... إذا هي نصته ولا بمعطل "

" لقد نزلت في الأرض ملة هديه ... نزول اليماني ذي العياب المحمل "

" أنت مغربا من مشرق وتعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل "

" فغازت بلاد الشرق من زينة بها ... بشق وشق عندنا لم يحول "

" فصلى عليه الله ما لاح بارق ... كلمع اليدين في حبي مكلل "

" نبي غزا الأعداء بين ثلاثع ... وبين إكام بعد ما متأمل "

" فكلم ملك وإفاه في زي منجد ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل "

" وكم من يمان واضح جاءه اكتسى ... بضاف فويق الأرض ليس بأعزل "

" ومن أبطحي نيط منه نجاده ... بجيد معم في العشيرة مخول "

" أزالوا بيدر عن بروجهم العدا ... كما زلت الصفواء بالمتنزل "

" وفادوا طباهم لا بفتك فتى ولا ... كبير أناس في بجاد مزمل "

" وفضي جموعا فدفا جامعا بها ... لنا بطن حقف ذي ركام عقنقل "

" وأحموا وطيسا في حنين كأنه ... إذا جاش فيه حميه غلي مرحل "

" ونادوا بنات النبع بالنصر أثمري ... ولا تبعدينا من جناك المعلل "

" وممن له سددت سهمين فاضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتل "

" فما أغنت الأبدان درع بها اكتست ... ترائبها مصقولة كالسجنجل "

" وأضحت لواليتها ومالكها العدا ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل "

" وقد فر منصاع كما فر خاضب ... لدى سميرات الحي ناقف حنظل "

" وكم قال يا ليل الوغى طللت فانيلج ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل "

" فليت جوادي لم يسر بي إلى الوغى ... وبات بعيني قائما غير مرسل "

" وكم مرتق أوطاس منهم بمسرح ... متى ما ترق فيه تسهل "

" وقرطه خرصا كمصباح مسرح ... آمال السليط بالذبال المفتل "

" فيرنو لهاذ فوق هاديه طرفه ... بناظرة من وحش وجرة مطفل "

" ويسمع من كافورتين بجانبه ... أثيث كقنو النخلة المتعكل "

" ترفع أن يعزى له شد شادن ... وإرخاء سرحان وتقريب تنفل "

" ولكنه يمضي كما مر مزيد ... يكب على الأذقان دوح الكنهبل "

" ويغشى العدا كالسهم أو كالشهاب أو ... كجلمود صخر حطه السيل من عل "

" جياذ أعادت رسم رستم دارسا ... وهل عند رسم دارس من معول "

" وريعت بها خيل القياصر فاخفت ... جواحرها في صرة لم تزيل "

" سبت عربا من نسوة العرب تستبي ... إذا ما اسبكرت بين درع ومجول "

" وكم من سبابا الفرس والصفير أسهرت ... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل "

" وحزن بدورا من ليالي شعرها ... تضل العقاص في مثنى ومرسل "

" وأبقت بأرض الشام هاما كأنها ... بأرجائها القصوى أنابيش عنصل "

" وما جف من حب القلوب بغورها ... وقيعانها كأنه حب فلغل "

" لخضراء ما دبت ولا نبتت بها ... أساريع ظبي أو مساويك إسحل "

" شدا طيرها في مثمر ذي أرومة ... وساق كأنبوب السقي المذلل "

" فشدت بروض ليس يذبل بعدها ... بكل مغار القتل شدت يذبل "

" وكم هجرت في القيط تحكي ذوارعا ... عذارى دوار في ملاء مذيبل "

" وكم أدلجت والقتر يهفو هزيه ... ويلوي بأثواب العنيف المثقل "

" وخضن سيولا فغن بالبيد بعدما ... أثرن غبارا بالكديد المركل "

" وكم ركزوا رمحا بدعص كأنه ... من السيل والغناء فلكه مغزل "

" فلم تبين حصنا خوف حصنهم العدا ... ولا أطما إلا مشيدا بجندل "

" فهدت بغضب شيب بعد صفاله ... بأمراس كتان إلى صم جندل "

" وجيش بأقصى الأرض ألقى جرانه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل "

" يدك الصفا دكا ولو مر بعضه ... وأيسره عالي الستار ويذبل "

" دعا النصر والتأييد راياته اسحبي ... على أثرينا ذيل مرط مرحل "

" لواء منير النصل طاو كأنه ... منارة ممسى راهب متبتل "

" كان دم الأعداء في عذباته ... عصارة حناء بشيب مرحل "

" صحاب بروا هام العداة وكم قروا ... صفيف شواء أو قدير معجل "

" وكم أكثروا ما طاب من لحم جفرة ... وشحم كهذاب الدمقس المفتل "

" وكم جبن من غرباء لم يسق نبتها ... دراكا ولم ينضح بماء فيغسل "

" حكى طيب ذكراهم ومر كفاحهم ... مداك عروس أو صلاية حنظل "

" لأمداح الخلق قلبي قد صبا ... وليس فؤادي عن هواها بمنسل "

" فدع من لأيام صلحن له صبا ... ولا سيما يوم بدارة جلجل "

" وأصبح عن أم الحويرث ما سلا ... وجارتها أم الرياب بمأسل "

" وكن في مديح المصطفى كمدبج ... يقلب كفيه بخيط موصل "

" وأمل به الأخرى ودنياك دع فقد ... تمتعت من لهو بها غير معجل "

" وكن كنبيث للفؤاد منابث ... نصيح على تعذاله غير مؤتل "

" ينادي إلهي إن ذنبي قد عدا ... علي بأنواع الهموم لبيتلي "

" فكن لي مجيرا من شياطين شهوة ... علي حراص لو يسرون مقتلي "

" وينشد دنياه إذا ما تدلت ... أفاطم مهلا بعض هذا التدلل "

" فإن تصلي حبلي بخير وصلته ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي "

" وأحسن بقطع الحبل منك وبتة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسل "

" أيا سامعي مدح الرسول تنشقوا ... نسيم الصبا جاءت بربا القرنفل "

" وروضة حمد للنبي محمد ... غذاها نمير الماء غير المحلل "

" ويا من أبى الإصغاء ما أنت مهتد ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلي "

" فلو مطغلا أنشدتها لفظها ارعوت ... فألهيتها عن ذي تائم محول "

" ولو سمعته عصم طود أمالها ... فأنزل منها العصم من كل منزل "

وقد عرفت بحازم هذا في أزهار الرياض وذكرت جملة من نظمه ومن بارع ما وقع له قوله

" أدر المدامة فالنسيم مؤرج ... والروض مرقوم البرود مديج "

" والأرض قد لبست برود جمالها ... فكأنما هي كاعب تتبرج "

" والنهر مما ارتاح معطفه إلى ... لقا النسيم عبايه متموج "

" يمسي الأصيل بعسجدي شعاعه ... أبدا يوشى صفحه ويديج "

" وتروم أيدي الريح تسلب ما اكتسى ... فتزيده حسنا بما هي تنسج "

" فارتج لشرب كؤوس راح نورها ... بل نارها في مائها تتوهج "

" واسكر بنشوة لحظ من أحبيته ... أو كأس خمر من لماه تمزج
" واسمع إلى نغمات عود تطبي ... قلب الخلي إلى الهوى وتهيج "
" بم وزير يسعدان مثنيا ... ومثلًا طبقاتها تتدرج "
" من لم يهيج قلبه هذا فما ... للقلب منه محرك ومهيج "
" فأحب فقد نادى بألسن حاله ... للأنس دهر للهموم مفرج "
" طربت جمادات وأفصح أعجم ... فرحا وأصبح من سرور يهزج "
" أفيفضل الحي الجماد مسرة ... والحي للسراء منه أحوج "
" ما العيش إلا ما نعمت به وما ... عابك فيه الكأس ظبي أدعج "
" ممن يروك منه ردف مردف ... عبل وخصر ذو اختصار مدمج "
" فإذا نظرت لطرة ولغرة ... ولصفحة منه بدت تتأجج "
" أيقنت أن ثلاثهن وما غدا ... من تحتها ينأد أو يتموج "
" ليل على صبح على بدر على ... غصن تحمله كئيب رجرج "
" كأس ومحبوب يظل بلحظه ... قلب الخلي إلى الهوى يستدرج "
" يا صاح ما قلبي بصاح عن هوى ... شيئان بينهما المنى تستنتج "
" وبمهجتي الظبي الذي في أضلعي ... قد حل وهو يشيها ويؤجج "
" ناديت حادي عيسه يوم النوى ... والعيس تحدى والمطايا تحدج "
" قف أيها الحادي أودع مهجة ... قد حازها دون الجوانح هودج "
" لما توافقنا وفي أحداجها ... قمر منير بالهلال متوج "
" ناديتهم قولوا لبدركم الذي ... بضائه تسري الركاب وتدلج "
" يحيي العليل بلفظة أو لحظة ... تطفي غليلا في الحشا يتأجج "
" قالوا نخاف يزيد قلبك لاعجا ... فأجبتهم خلوا اللواعج تلعج "
" ويكيت واستبكيك حتى ظل من ... عبراتنا بحر ببحر يمرج "
" وبقيت أفتح بعدهم باب المنى ... ما بيننا طورا وطورا يرتج "
" وأقول يا نفس اصبري فعسى النوى ... بصباح قرب ليلها يتيلج "
" فترقب السراء من دهر شجا ... والدهر من ضد لصد يخرج "
" وترج فرجة كل هم طارق ... فلكل هم في الزمان تفرج "

وتذكرت هنا جيمية ابن قلايس وهي

" عرضت لمعترض الصباح الأبلج ... حوراء في طرف الظلام الأدعج "
" فتمزقت شيم الدجى عن غرتي ... شمسين في أفق وكلة هودج "
" ووراء أستار الجمول لواحظ ... غازلن معتدل الوشيح الأعوج "
" من كل مبتسم السنان إذا جرى ... دمع النجيع من الكمي الأهوج "
" ولقد صحبت الليل قلص برده ... لعباب بحر صباحه المتموج "
" وكأن منتثر النجوم لآلىء ... نظمت على صرح من الفيروزج "
" وسهرت أرقب من سهيل خافقا ... متفردا وكأنه قلب الشجي "
" واستعبرت مقل السحاب فأضحكت ... منها ثعور مغوف ومدبج "

ولنعد إلى ذكر أبي بكر ابن جزى فنقول

وله تقييد في الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية ورجز في الفرائض وإحسانه كثير
وتقدم قاضيا للجماعة بحضرة غرناطة ثامن شوال عام ستين وسبعمئة ثم صرف عنها ثم لما توفي
الأستاذ الخطيب العالم الشهير أبو سعيد فرج بن لب رحمه الله تعالى وكان خطيب الجامع الأعظم
بغرناطة ولي عوضا عنه أستاذا وخطيبا عام اثنين وثمانين وسبعمئة فيقي في الخطابة ثلاثة أعوام
ثم توفي وأظن وفاته آخر عام خمسة وثمانين وسبعمئة رحمه الله تعالى
وأما أخوه أبو عبد الله محمد فهو الكاتب المجيد أعجوبة الزمان وتوفي بغاس رحمه الله تعالى عام
ثمانية وخمسين وسبعمئة وقيل وهو الصواب إن وفاته آخر شوال من السنة قبلها حسبما ألفيته
بخط بعض أكابر الثقات بداره من البيضاء وهي فاس الجديدة قرب مغرب يوم الثلاثاء التاسع
والعشرين من شوال من عام سبعة وخمسين وسبعمئة وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصر
وراء الحائط الشرقي الذي بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء وكان مولده في شوال من عام واحد
وعشرين وسبعمئة انتهى
قال الأمير ابن الأحمر في نثر الجمان أدركته ورأيته وهو من أهل بلدنا غرناطة وكان أبوه أبو القاسم

محمد أحد المغتربين بها عالم الأندلس الطائفة فتياه منها إلى طرابلس وقتل شهيدا بطريف بعد أن أبلى بلاء حسنا وأبو عبد الله ابنه هذا كتب بالأندلس في حضرة ابن عم أبينا أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف وله فيه أمداح عجيبة ولم يزل كاتباً في الحضرة الأحمريّة النصرية إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج انتهى ويعني ابن الأحمر بهذا الامتحان أنه ضربه بالسياط من غير ذنب اقترفه بل ظلّمه ظلماً مبيهاً هكذا ألفيته في بعض المقيدات

ثم قال ابن الأحمر فقوض الرجال عن الأندلس واستقر بالعدوة فكتب بالحضرة المرينية لأمر المسلمين أبي عنان إلى أن توفي بها رحمه الله تعالى وكان رحمه الله تعالى طلع في سماء العلوم بدرًا مشرقًا وسارت براعته مغربًا ومشرقًا وسما بشعره فوق الفردقين كما أرى بنثره على الشعري والبطين له باع مديد في التاريخ واللغة والحساب والنحو والبيان والآداب بصير بالفروع والأصول والحديث عارف بالماضي من الشعر والحديث

إن نظم أنسك أبا ذؤيب برقته ونصيباً بمنصبه ونخوته وإن كتب أرى على ابن مقلة بخطه وإن أنشأ رسالة أنسك العماد بحسن مساقها وضبطه وهو رب هذا الشأن وفارس هذا الميدان ومع تفننه في الشعر فهو في العلوم قد نبغ وما بلغ أحد من شعراء عصره منه ما بلغ بل سلموا التقدم فيه إليه وألقوا زمام الاعتراف بذلك في يديه ودخلوا تحت راية الأدب التي حمل إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس في الحمل أنشدني لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل عم أبينا ابن جدنا الرئيس الأمير أبي سعيد فرج هذه القصيدة البارعة وحذف منها الرءاء المهملة

"قسما بوضاح السنا الوهاج ... من تحت مسدول الذوائب داج "
"وبأبلج بالمسك خطت نونه ... من فوق وسان اللواظ ساجي "
"وبحسن خد دبجت صفحاته ... فعدت تحاكي مذهب الديباج "
"وبميسم كالعقد نظم سلكه ... ولمى حكى الصهباء دون مزاج "
"ويمنطق تصبو القلوب لحسنه ... أنسى المسامع نغمة الأهزاج "
"ويمائس الأعطاف تننيه الصبا ... فيميس كالخطي يوم هياج "
"ومنعم مثل الكتيب يقله ... مستضعف يشكو من الإدماج "
"وبموعد للوصل أنجز فجأة ... من بعد طول تمنع ولجاج "
"وبأكؤس أطلعن في جنح الدجى ... شمس السلافة في سماء زجاج "
"وحدائق سحب السحاب ذيوله ... فيها وبات لها النسيم يناجي "
"وجداول سلت سيوفا عندما ... فجئت بجيش للصبا عجاج "
"وبأقحوان قد تضاحك إذ بكت ... عين الغمام بمدح ثجاج "
"وقدود أعصان يملن كأنها ... تخفي حديثاً بينها وتناجي "
"وحمائم يهتفن شجوا بالضحى ... فهديلهن لذي الصباة شاجي "
"إن المعالي والعوالي والندى ... والبأس طوع يدي أبي الحجاج "
"ملك تتوج بالمهابة عندما ... لم يستجز في الدين لبس التاج "
"وأفاض حكم العدل في أيامه ... فالحق أبلج واضح المنهاج "
"هو منقذ العاني ومغني المعتفي ... ومذلل العاني وغوث اللاجي "
"ماضي العزيمة والسيوف كليلة ... طلق المحيا والخطوب دواجي "
"علم الهدى والناس في عمياء قد ... ضلوا لوقع الحادث المهتاج "
"غيث الندى والسحب تبخل بالحيا ... والمحل بيدي فاقه المحتاج "
"ليت الوعى والخيل تزجي بالقنا ... والبيض تنهل في دم الأوداج "
"ينقشع الإظلام إذ يبدو له ... وجه كمثل الكوكب الوهاج "
"من آل قبيلة من ذؤابة سعدتها ... أعلى بني قحطان دون خلاج "
"حيث العلا ممدودة الأطناب لم ... تخلق معالمها يد الإنهاج "
"والأعوجيات السوابق تمتطي ... فتظلل الآفاق سحب عجاج "
"والبيض والأسل العوامل تفتضي ... مهج الكمأة بأبلغ الإزعاج "
"مجد ليوسف جمعت أشتاته ... أعيا سواه بعد طول علاج "
"مولاي هاك عقيلة تزهو على ... أخواتها كالعادة المغنّاج "
"إنشاء عبد خالص لك حبه ... ومن العبيد مداهن ومداجي "

" آوى إلى أكناف نعمك التي ... ليست إليه صلاتها بخداج "

" سباق ميدان البلاغة والوعى ... لشعاب كل منهما ولاج "

" جانب أخت الزاي منها عامدا ... فأنت من الإحسان في أفواج "

" فافتح لها باب القبول وأول من ... أهداها ما يبتغي من حاج "

ثم قال ابن الأحمر وأنشدني أيضا لنفسه يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله أبا عنان فارس ملك المغرب

" إن قلبي لعهدة الصبر ناكث ... عن غزال في عقدة السحر نافث "

" أضرم النار في فؤادي وولي ... قائلا لا تخف فإني عابث "

" ورماني من مقلتيه بسهم ... ثم قال اصطبر لثان و ثالث "

" كم عدول أتى يناظر فيه ... كان تعذاله على الحب باعث "

" ويمين أليتها بالتسلي ... ففضى حسنه بأني حانث "

" جبر الله صدع قلب عميد ... صدعت شمله صروف الحوادث "

" فهو يهفو إلى البروق وبروي ... عن نسيم الصبا ضعاف الأحادث "

" سلبته الأشجان إلا بقايا ... من أمانى حبالهن رثائث "

" وبكاء على عهود مواض ... ملأت صدره هموما حدائث "

" لست وحدي أشكو بليلة وحدي ... إن داء الغرام ليس بحادث "

" يا مضيع العهود والله يعفو ... عنك إنى ارتضيت خطه ناكث "

" غرني منك والجمال غرور ... وطبى اللحظ في القلوب عواث "

" مقل يقتسمن أعشار قلبي ... بالرضى منى اقتسام الموارث "

" كيف غيرت بانتزاحك حالي ... وتغيرت لي ولست بحارث "

" فرط حبي وفرط بخلك ألى ... أن عينيك بالفتور نوافث "

" وندى فارس وحسبك ردا ... قول من قال سد باب البواعث "

" ملك البأس والندى فهو بالسيف ... وبالسيب عاث أو غاث "

" محرز المجد والثناء فهذا ... سائر في الورى وذلك لا يث "

" أوطأ الشهب رحله وترقى ... صاعدا في سموه غير ماكث "

" فدرار تسري وما لحفته ... ونجوم خلف القصور لو ابث "

" وله المقربات لا بل هي العقبان ... من فوقها الليوث الدلاهث "

" مطلعات من كل نعل هلالا ... فلماذا تجلو دجى كل حادث "

" إن ترافقن فالجبال الرواسي ... أو تسابقن فالغيوث الحثاث "

" والمواضي كأنها قد أعيرت ... حدة الذهن منه عند المباحث "

" هي نار محرقات الأعادي ... وهي ماء مطهرات الخباث "

" فيردن الوغى ذكورا عطاشا ... ثم يصدرن ناهلات طوامث "

" من معانيه قد رأينا عيانا ... كل فضل ينصه من يحادث "

" خلق كالنسيم مر سحيرا ... بالأزاهير في البطاح الدماث "

" في سبيل الإله يقصي ويدني ... ويوالي في ذاته ويناكث "

" شرف الملك منه سام وحام ... ففدته سام وحام ويافث "

" هاكها من بنات فكري بكرا ... ليس يسمولها من الناس طامث "

" ذات لفظ لا يعتربه اختلال ... ومعان لا تنتجها المباحث "

" زعماء القريض أبقوا بقايا ... كنت دون الورى لهن الوارث "

" من أراد انتقادها فهي هذي ... عرضة البحث فليكن جد باحث "

ورأيت بخط ابن الصباغ العقيلي على هامش قوله وندى فارس وحسبك ردا 1000 البيت ما نصه ما أبدع تخلصه للمدح وأطبعه فإنه أشار إلى قول الشاعر رادا عليه بالتبكيث ومعقبا له بالتعنيث

" قالوا تركت الشعر قلت ضرورة ... باب السماحة والملاحة مغلث "

" مات الكرام فلا كريم يرتجي ... منه النوال ولا مليح يعيش "

وقيل إن السلطان أبا عنان أطل من برج يشاهد الحرب بين الثور والأسد على ما جرت به عادة الملوك فقال ابن جزى المذكور في وصف الحال

" لله يوم بدار الملك مر به ... من العجائب ما لم يجر في خلدي "

" لاح الخليفة في برج العلا قمرا ... يشاهد الحرب بين الثور والأسد "

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله
" أبا حسن إن شئت الدهر شملنا ... فليس لود في الفؤاد شتات "
" وإن حلت عن عهد الإخاء فلم يزل ... لقلبي على حفظ العهود ثبات "
" وهبني سرت مني إليك إساءة ... ألم تتقدم قلبها حسنات "
وقوله وهو بحال مرض
" إن يأخذ السقم من جسمي مأخذه ... وأصبح القوم من أمري على خطر "
" فإن قلبي بحمد الله مرتبط ... بالصبر والشكر والتسليم للقدر "
" فالمرء في قبضة الأقدار مصرفه ... للبرء والسقم أو للنفع والضرر "
وحكي أن الفقيه الرحال أبا اسحاق إبراهيم ابن الحاج النميري بقي في خلوته جميع شهر رمضان
المعظم من عام سبعة وخمسين وسبعمئة فلما خرج في يوم عيد الفطر أنشده صهره أبو عبد الله
ابن جزى المذكور لنفسه
" ما سرار البدور إلا ثلاث ... فلماذا أرى سرارك شهرا "
" أنعجلته سرارا لعام ... ثم تبقى في سائر العام بدرا "
وحكي أنه كتب للرئيس صاحب القلم الأعلى والعلامة بغاس أبي القاسم ابن رضوان يطلب منه
شراب سكنجيين وقصد التصحيف بقوله أحسن زان بيتك نجيب تسر به بر مرضي تصحيفه أحب
شراب سكنجيين شره برء مرضي قال فجاوبني ابن رضوان بقوله أن برك نفيس تصحيفه مقلوبا
يشفيك ربنا
ومن نظم ابن جزى المذكور قوله
" رعى الله عهدا بالمرية ما أرى ... به أبدا ما عشت في الناس بالناسي "
" وكيف ترى بالله صحة معشر ... مجاهد بعض منهم وابن عباس "
وقوله في الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان
" هذا محل الفضل والإيثار ... والرفق بالسكان والزوار "
" دار على الاحسان شيدت والتقى ... فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار "
" هي ملجأ للواردين ومورد ... لابن السبيل وكل ركب ساري "
" آثار مولانا الخليفة فارس ... أكرم بها في المجد من آثار "
" لا زال منصور اللواء مظفرا ... ماضي العزائم سامي المقدار "
" بنيت على يد عبدهم وخديم بابهم ... العلي محمد بن جدار "
" في عام أربعة وخمسين انقضت ... من بعد سبع مئين في الاعصار "
ومن نظمه قوله موريا
" وما أنسى الأحبة يوم بانوا ... تخوض مطيهم بحر الدموع "
" وقالوا اليوم منزلنا الحنايا ... فقلت نعم ولكن من ضلوعي "
وقوله موريا أيضا
" ورب يهودي أتى متطببا ... ليأخذ ثارات اليهود من الناس "
" إذا جس نبض المرء أودى بنفسه ... سريعا ألم تسمع بفتكة حساس "
وقوله
" من أي أشجاني التي جنت النوى ... أشكو العذاب وهن في تنويع "
" من وصلي الموقوف أو من هجري الموصول ... أو من نومي المقطوع "
" أو من حديث تولهي وتولعي ... خبرا صحيحا ليس بالموضوع "
" يرويه خدي مسندا عن أدمعي ... عن مقلتي عن قلبي المفجوع "
وأول هذه القصيدة
" ذهبت حشاشة قلبي المصدوع ... بين السلام ووقفه التوديع "
وقد ضمن شطرها الفقيه عبيد شارح الحلية إذ قال من قصيدة مطلعها
" اهمي دموعك ساعة التوديع ... يا مقلتي ممزوجة بنجيع "
يقوله
" يوم استقلت عيسهم وترحلوا ... ذهبت حشاشة قلبي المصدوع "
يقوله
" بخدي وجسمي والفؤاد وأدمعي ... شهود بهم دعوى الغرام تصح "
" ومن عجب أن رحج الناس نقلهم ... وكلهم ذو جرحه فيه تقدح "

" فجسمي ضعيف والفؤاد مخلط ... ودمعي مطروح وخذي مجرح " وقوله

" يا محيا كتب الحسن به ... أحرفا أبدع فيها وبرع "

" ميم ثغر ثم نون حاجب ... ثم عين هي تتميم البدع "

" أنا لا أطمع في وصلك لي ... وعلى وجهك مكتوب منع "

ثم قال ابن الأحمر ومن إنشائه البارع موربا بالكتب ورفعها لأمير المؤمنين

المتوكل على الله أبي عنان فارس رحمه الله تعالى يهنيه بإبلال ولده ولي عهده الأمير أبي زيان محمد بن مرضي

" ماذا عسى أدب الكتاب يوضح من ... خصال مجدك وهو الزاهر الزاهي "

" وما الفصيح بكليات موعبها ... كاف فيأتي بأبناء وإنباه "

أبقى الله تعالى مولانا الخليفة ولسعادته القدر المعلى ولزاهر كماله التاج المحلى تجلى من حلاه نزهة الناظر ويسير بعلاه المثل السائر ويتسق من سنانه العقد المنظم ويتضح بهداه القصد الامم ولا زالت مقدمات النصر له مبسوسة ومعونة السعد بإشارته منوطة وهدايته متكفلة باحياء علوم الدين وإيضاح منهاج العابدين وإرشاده يتولى تنبيه الغافلين ويأتي من شفاء الصدور بالنور المبين وميقات الخدمة ببابه مطمح الانفس وملخص الجود من كفه بغية الملتمس قد حكم ادب الدين والدنيا بأنك سراج الملوك لما أتت عوارفك بالمشرع والسلسل ومعارفك بنظم السلوك ووضحت معالم مجدك ووضوح انوار الفجر وزهت بعدلك المسالك والممالك زهو خريدة القصر فلك في جمهرة الشرف النسب الوسيط ومن جمل المآثر الخلاصة والبسيط وسيل الخيرات لها برعايتك تيسير ومحاسن الشريعة لها بتحصيلك تحبير وانبت حجة العلماء الذي تقصر عن تقصي مآثره فطن الاذكياء ان انبهم التفسير ففي يدك ملاك التأويل أو اعتاص تفرغ الفقه فعندك فصل البيان له والتحصيل وان تشعب التاريخ فلديك استيعابه أو تناول الادب ففي ايجاز بيانك اقتضابه وان ذكر الكلام ففي انتقائك من برهانه المحصول أو المنطق ففي موجز أمالك لبابه المنخول وليس اساس البلاغة الا ما تأتي به من فصل المقال ولا جامع

الخير الا حزته من تهذيب الكمال ولذلك صارت خدمتك غاية المطلوب وحبك قوت القلوب ولا غرو ان كنت من العلياء درتها المكونة فاسلافك الكرام هم جواهرها الثمينة بحماستهم أصيبت مقاتل الفرسان ويوجد جودهم تسنى ري الظمان ويتسهل عدلهم وضحت شعب الايمان وانت المنتقى من سيمط جمانهم والواسطة في فلائد عقيانهم عنك تؤثر سيرة الاكتفاء وعن فروعك السعداء تروى أخبار نجباء الأبناء فهم لمملكك العلية بهجة مجالسها وأنس مجالسها وقطب سرورها ومطالع نورها وولي عهدك درتهم الخطيرة وذخيرتهم الأثيرة لا زال كامل سعادته بطول مقامك محكما وحرز أمانيه بالجمع بين الصحيحين حبك ورضاك معلما وقد وجبت التهنئة بما كان في حيلة برئه من التيسير وما تهيأ في استقامة قانون صحته من نجاح التدبير ولم يكن الا ان بعدت به عنك المسالك واعوز نور طرفه تقرب المدارك وتذكر ما عهده من الايناس الموطأ جنباه عند أفضل مالك فوري شوقه سقط الزند والتهب في جوانحه قبس الوجد فأمددته من دعائك بحلية الاولياء فظفر لما شارف مشارق الأنوار من حضرتك بالشفاء وقد حاز اكمال الأجر بذلك العارض الوجيه وكان له كتشبيب الابريز وها هو قادم بالطالع السعيد آيب بالمقصد الأسنى من الفتح والتمهيد يطلع بين يدك طلوع الشهاب ويبسم عن مفصل الثناء في الهناء بذلك زهر الآداب فاعد له تحفة القادم من احسانك الكامل واخصه بالتكملة من إيناسك الشامل فهو الكوكب الدرّي المستمد من أنوارك السنية وفي تهذيب شمائله ايضاح للخلق الكريمة الفارسية لازالت تزدان بصحاح مآثرك عيون الاخبار وتتعطر بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار وتتلى من محامدك الآيات البيّنات وتتوالى عليك الألفاظ الالهيات بمن الله سبحانه وفضله والسلام الكريم يعتمد المقام العلي ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى وللمذكور عدة مقطعات يوري فيها بأسماء الكتب فمنها قوله " ظبي هو الكامل في حسنه ... وثغره أبهى من العقد "

" جماله المدهش لكنما ... أخلاقه تحكي صبا نجد "

وقوله أيضا

" لك الله من خل حبابي برقعة ... حبتني من آياتها بالنوادر "

" رسالة رمز في الجمال نهاية ... ذخيرة نظم أنحفت بالجواهر "

وقوله

قصتي في الهوى المدونة ... الكبرى وأخبار عشقي المبسوطة " " حجتي في الغرام واضحة " "

 إذ ... لم تزل مهجتي بوجد منوطة

 نماذج من التورية بأسماء الكتب

 وتذكرت بالتورية بأسماء الكتب قول الأرجاني

 " لما تألق بارق من ثغره ... جادت دموعي بالسحاب الممطر "

 " فكأن عقد الدر حل قلائد العقيان ... منه على صحاح الجوهري "

 وقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى

 " وطبي لأوضاع الجمال مدرس ... عليم بأسرار المحاسن ماهر "

 " أرى جيده نص المحلى وقررت ... ثناياه ما ضمت صحاح الجواهر "

 وقول ابن خاتمة

 " ومعظم الأنفاس يبسم دائما ... عن در ثغر زانه ترتيب "

 من لم يشاهد منه عقد جواهر "

 " لم يدر ما التنقيح والتهذيب

 وقوله أيضا

 " سفهني عاذلي عليه ... وقال لي وده عليل "

 " فقلت معتل أو صحيح ... يودعه عينه الخليل "

 وقوله أيضا

 " حازالجمال بصورة قمرية ... تجلو عليك مشارق الأنوار "

 " وحوى الكمال بصورة عمرية ... تتلو عليك مناقب الأبرار "

 وقول الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي

 " من اغتدى موطأ أكنافه ... صح له التمهيد في أحواله "

 " وقابل استذكاره بالمنتقى ... من رأيه المختار من أعماله "

 " وأضحت المسالك الحسنى له ... تدني تقصيا قصى أماله "

 " وسار من مشارق الأنوار في ... أدنى المدارك إلى إكماله "

 ولما وقف على هذه القطعة الفاضل أبو علي حسين بن صالح بن أبي دلالة عارضها وزاد ذكر

 القبس والمعلم

 " قل للموطأ للورى أكنافه ... بشراه بالتمهيد في الأحوال "

 " وإذا اكتفى بالمنتقى استذكاره ... وفى له المختار في الأعمال "

 " ومسالك الحسنى تؤديه إلى ... أقصى التقصي من قصى الآمال "

 " ويلوح من قبس الهداية رشده ... من معلم التفصيل والإجمال "

 رجع إلى ابن جزى ومن نظمه

 " يا دوحة الأنس من بطحاء وأسجة ... هل من سبيل إلى أيامك الأول "

 " إذ تجتلي أوجه الإيناس مسفرة ... ونجتني ثمر اللذات والغزل "

 ومن نظمه رحمه الله تعالى عند خروجه إلى بلاد المغرب وورى بكتابي تحفة القادم وزاد المسافر

 فقال

 " وإنني لمن قوم يهون عليهم ... ورود المنايا في سبيل المكارم "

 " يطيرون مهما أزور للدهر جانب ... بأجنحة من ماضيات العزائم "

 " وما كل نفس تحمل الذل إني ... رأيت احتمال الذل شأن البهائم "

 " إذا أنا لم أظفر بزاد مسافر ... لديكم فعند الناس تحفة قادم "

 وزاد المسافر لصفوان والتحفة لابن الأبار

 ومن نظمه قوله

 " نصب الحبائل للورى بالحسن إذ ... رفع اللثام وذيله مجرور "

 " وأماله عني العواذل غيلة ... فهو الممال وقلبي المكسور "

 وقوله أيضا

 " تلك الذؤابة ذبت من شوقي لها ... واللحظ يحميها بأي سلاح "

 " يا قلب فانج وما إخالك ناجيا ... من فتنة الجعدي والسفاح "

 وقوله أيضا

 " وعاشق صلى ومحربه ... وجه غزال ظل يهواه "

" قالوا تعبدت فقلت نعم ... تعبدنا يفهم معناه "

وقوله رحمه الله تعالى

" لاتعد صنفك إن ذهبت لصاحب ... تعتده لكن تخير وانتق "

" أوما ترى الأشجار مهما ركبت ... إن خولفت أصنافها لم تعلق "

وقوله رحمه الله تعالى

" أيتها النفس قفي عندما ... ألزمت فعلا كان أو قولاً "

" فمن يكن يرضى بما ساءه ... أوسره فهو له الأولى "

" لا يترك العبد وما شاءه ... إلا إذا أهمله المولى "

وقوله أيضا

" لولا ثلاث قد شغفت بحبها ... ما عفت في حوض المنية موردي "

" وهي الرواية للحديث وكتبه ... والفقه فيه وذاك حسب المهتدي "

وأما أخوهما القاضي أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جزي فهو الإمام العالم العلامة المعمر رئيس العلوم اللسانية قال في الإحاطة هذا الفاضل قريع بيت نبيه وسلف شهير وأبوة خير وأخوة بليغة وخوولة أديب حافظ قائم على فن العربية مشارك في فنون لسانية ظرف في الإدراك جيد النظم مطواع القريحة باطنه نبل وظاهره غفلة قعد للإقراء ببلده غرناطة معيدا ومستقلا ثم تقدم للقضاء بجهات نبيهة على زمن الحداثة أخذ عن والده

الأستاذ الشهير الشهيد أبي القاسم أشياء كثيرة وعن القاضي أبي البركات ابن الحاج وقاضي الجماعة الشريف السبتي والأستاذ البياني والأستاذ الأعرف أبي سعيد ابن لب والشيخ المقرئ أبي عبد الله ابن بيش وأجازه رئيس الكتاب أبو الحسن ابن الجياب وقاضي الجماعة أبو عبد الله ابن بكر وأبو محمد ابن سلمون والقاضي ابن شبرين والشيخ أبو حيان وقاضي الجماعة أبو عبد الله المقرئ وأبو محمد الحضرمي وجماعة آخرون وشعره نبيل الأغراض حسن المقاصد انتهى المقصود منه

وممن أخذ عنه العباس البقني شارح البردة والقاضي أبو بكر ابن عاصم وبالإجازة الإمام ابن مرزوق الحفيد وغيرهم

وقد عرف ابن فرحون في الديباج المذهب بأبيه الشهيد أبي القاسم وأخيه القاضي أبي بكر دونه وعرف ابن الخطيب في الإحاطة بأبيه وأخوه أبي بكر وأبي عبد الله وفيما ذكرنا من أمرهم كفاية ومما نسبه الوادي أشي لأبي محمد عبد الله بن جزي قوله

" يا من أتاني بعده بعدما ... عاملته بالبر واللفظ "

" إنني تأملت وقد سرنني ... بجملة من سورة الكهف "

وله أيضا

" لقد قطعت قلبي يا خليلي ... بهجر طال منك على العليل "

" ولكن ما عجيب منك هذا ... إذ التقطيع من شأن الخليل "

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى

27 - ومنهم القاضي الأديب جملة الظرف أبو بكر ابن شبرين

وقد استوفى ترجمته في الإحاطة وذكره أيضا في ترجمة ذي الوزارتين ابن الحكيم بأن قال بعد حكايته قتل ابن الحكيم ما صورته وممن رثاه شيخنا أبو بكر ابن شبرين رحمه الله تعالى بقوله

" سقى الله أشلاء كرم على البلي ... وما غص من مقدارها حادث البلا "

" ومما شجاني أن أهين مكانها ... وأهمل قدر ما عهدناه مهملًا "

" ألا اصنع بها يا دهر ما أنت صانع ... فما كنت إلا عيدها المتذلا "

" سفكت دما كان الرقوء نواله ... لقد جئتما شنعاء فاضحة الملا "

" بكفي سبنتي أزرق العين مطرق ... عدا فغدا في غيه متوغلا "

" لنعم قتيل القوم في يوم عيده ... قتيل تكيه المكارم والعا "

" ألا أن يوم ابن الحكيم لمثكل ... فؤادي فما ينفك ما عشت مثكلا "

" فقدناه في يوم أغر محجل ... ففي الحشر نلقاه أغر محجلا "

" سمت نحوه الأيام وهو عميدها ... فلم تشكر النعمى ولم تحفظ الولا "

" تعاورت الأسياف منه ممدحا ... كريما سما فوق السماكين مزحلا "

" وخاتته رجل في الطواف به سعت ... فناء بصدر للعلوم تحملا "

" وجدل لم يحضره في الحي ناصر ... فمن مبلغ الأحياء أن مهلهلا "

" يد الله في ذاك الأديم ممزقا ... تبارك ما هبت جنوبا وشمالا "
" ومن حزني أن لست أعرف ملحدا ... له فأرى للترب منه مقبلا "
" رويدك يا من قد غدا شامتا به ... فبالأمس ما كان العماد المؤملا "
" وكنا نغادي أو نراوح بابه ... وقد ظل في أوج العلا متوقلا "
" ذكرناه يوما فاستهلت جفوننا ... بدمع إما ما أمحل العام أخضلا "
" ومازج منا الحزن طول اعتبارنا ... ولم ندر ماذا منهما كان أطولا "
" وهاج لنا شجوا تذكر مجلس ... له كان يهدي الحي والملا الألى "
" به كانت الدنيا تؤخر مدبرا ... من الناس حتما أو تقدم مقبلا "
" لتبك عيون الباكيات على فتى ... كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلا "
" على خادم الآثار تتلى صحائجا ... على حامل القرآن يتلى مفضلا "
" على عضد الملك الذي قد تضرعت ... مكارمه في الأرض مسكا ومنذلا "
" على قاسم الأموال فينا على الذي ... وضعنا لديه كل إصر على علا "
" وأنى لنا من بعده متعلل ... وما كان في حاجاتنا متعللا "
" ألا يا قصير العمر يا كامل العلا ... يمينا لقد غادرت حزنا مؤثلا "
" يسوء المصلى أن هلكت ولم تقم ... عليك صلاة فيه يشهدها الملا "
" وذاك لأن الأمر فيه شهادة ... وسنتها محفوظة لن تبدا "
" فيا أيها الميت الكريم الذي قضى ... سعيدا حميدا فاضلا ومفضلا "
" لتهنك من رب السماء شهادة ... تلاقى ببشرى وجهك المتهللا "
" رثيتك عن حب ثوى في جوانحي ... فما ودع القلب العميد وما قلنى "
" ويا رب من أوليته منك نعمة ... وكنت له ذخرا عتيدا وموئلا "
" تناسك حتى ما تمر بباله ... ولم يذكر ذاك الندى والتفضلا "
" يرايض في مثواك كل عشية ... صفيف شواء أو قديرا معجلا "
" لحي الله من ينسى الأذمة رافضا ... ويذهل مهما أصبح الأمر مشكلا "
" حنانيك يا بدر الهدى فليشد ما ... تركت بدور الأفق بعدك أفلا "
" وكنت لأمالي حياة هنيئة ... فغادرت مني اليوم قلبا مقتلا "
" فلا وأبيك الخير ما أنا بالذي ... على البعد ينسى من ذمامك ما خلا "
" فأنت الذي أويتني متغربا ... وأنت الذي أكرمتني متطفلا "
" فأليت لا ينفك قلبي مكمدًا ... عليك ولا ينفك دمعي مسبلا "

وكتب ابن لسان الدين على هامش هذه القطعة ما صورته شكر الله وفاءك يا ابن شيرين وقدس
لحدثك وأين مثلك في الدنيا حسنا ووفاء وعلمًا لا كما صنع ابن زمرك في ابن الخطيب مخدومه قاله
علي بن الخطيب انتهى

ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ الأستاذ العلامة العلم الأوحى - 28
الصدر المصنف المحدث الأفضل الأصلح الأورع الأتقى الأكمل أبو عثمان سعد ابن الشيخ الصالح
التقي الفاضل المبرور المرحوم أبي جعفر أحمد بن ليون التجيبي رضي الله تعالى عنه وهو من
أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح وله توالييف مشهورة منها اختصار بهجة
المجالس لابن عبد البر واختصار المرتبة العليا لابن راشد القفصي وكتاب في الهندسة وكتاب في
الفلاحة وكتاب كمال الحافظ وجمال الالفاظ في الحكم والوصايا والمواعظ وكان مولعا باختصار الكتب
وتوالييفه تزيد على المائة فيما يذكر وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين
ومما حكى عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلا طويلا فقال لمن
حضره لو رآه ابن ليون لاختصره إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب
ومن توالييفه كتاب نفح السحر في اختصار روح الشجر وروح الشعر لابن الجلاب الفهري رحمه الله
ومنها كتاب أنداء الديم في الوصايا والمواعظ والحكم وكتاب الأبيات المهدية في المعاني المقربة
وكتاب نوائح الأحياب وصحائح الآداب أورد فيه مائتي قطعة من شعره تتضمن نوائح متنوعة ولننقح
منها نبذه فنقول منها في التحريض على العلم قوله رحمه الله تعالى
" زاحم أولي العلم حتى ... تعند منهم حقيقة "
" ولا يردك عجز ... عن أخذ أعلى طريقة "
" فإن من جد يعطى ... فيما يحب لحوقه "
وقوله

" شفاه داء العي حسن السؤال ... فاسأل تنل علما وقل لا تبال "

" واطلب فالاستحياء والكبر من ... موانع العلم فما إن ينال "

وقوله

" علمت شيئا وغابت عنك أشياء ... فانظر وحقق فما للعلم إحصاء "

" للعلم قسمان ما تدري وقولك لا ... أدري ومن يدعي الإحصاء هذاء "

وقوله

" من لم يكن علمه في صدره نشبت ... يداه عند السؤالات التي ترد "

" العلم ما أنت في الحمام تحضره ... وماسوى ذلك التكليف والكمد "

وقوله

" الدرس رأس العلم فاحرص عليه ... فكل ذي علم فقير إليه "

" من ضيع الدرس يرى هاذا ... عند اعتبار الناس ما في يديه "

" فعزة العالم من حفظه ... كعزة المنفق فيما عليه "

وقال رحمه الله تعالى في غير ما سبق

" ثلاث مهلكات لا محالة ... هوى نفس يقود إلى البطالة "

" وشح لا يزال يطاع دأبا ... وعجب ظاهر في كل حاله "

وقال

" اللهو منقصة بصاحبه ... فاحذر مذلة مؤثر اللهو "

" واللغو نزه عنه سمعك لا ... تجنح له لا خير في اللغو "

وقال

" لا تمالئ على صديقك وادراً ... عنه ما اسطعت من أذى واهتضام "

" ما تناسى الذمام قط كريم ... كيف ينسى الكريم رعي الذمام "

" تطعم الكلب مرة فيحامي ... عنك والكلب في عداد اللئام "

وقال

" احذر مؤاخاة الدنيء فإنها ... عار يشين ويورث التضريرا "

" فالماء يخبث طعمه لنجاسة ... إن خالطته ويسلب التطهيرا "

وقال

" تحفظ من الناس تسلم ولا ... تكن في تقريهم ترغب "

" ولا تترك الحزم في كل ما ... تريد ولا تبغ ما يصعب "

وقال

" إخوانك اليوم إخوان الضرورة لا ... تثق بهم يا أخي في قول أو فعل "

" لا خير في الأخ إلا أن يكون إذا ... عرتك نائبة يقيك أو يسلى "

وقال

" طلب الإنصاف من قلة ... إنصاف فساهل "

" لا تناقش وتغافل ... فاللبيب المتغافل "

" قلما يحظى أخو الإنصاف ... في وقت بطائل "

وقال

" من خافه الناس عظموه ... وأظهروا بره وشكره "

" ومن يكن فاضلا حليما ... فإنما حظه المضرة "

" فامرر وكن صارما مبيرا ... يهيك من قد تخاف شره "

وقال

" إن تبغ عدلا فما ترضى لنفسك من ... قول وفعل به أعمل في الورى تسد "

" وكل ما ليس ترضاه لنفسك لا ... تفعله مع أحد تكن أبا رشدا "

وقال

" حسبني الله لقد ضلت بنا ... عن سبيل الرشدا أهواء النفوس "

" عجباً أن الهوى هون وأن ... نؤثر الهون وإذلال الرؤوس "

وقال

" من يخف شره يوف الكرامة ... ويوالي الرعاية المستداهمه "

" وأخو الفضل والعفاف غريب ... يحمل الذل والجفا والملامه "

وقال
 " دع من يسيء بك الظنون ولا ... تحفل به إن كنت ذا همه "
 " من لم يحسن ظنه أبدا ... بك فاطرحه تكتفي همه "
 وقال
 " نزه لسانك عن قول تعاب به ... وارغب بسمعك عن قيل وعن قال "
 " لا تبغ غير الذي يعينك واطرح الفضول ... تحيا قيرير العين والبال "
 وقال
 " كثرة الأصدقاء كثرة غرم ... وعتاب يعيي وإدخال هم "
 " فاغن بالبعض قانعا وتغافل ... عنهم في قبيح فعل وذم "
 وقال
 " ذل المعاصي مينة يا لها ... من مينة لا ينقضي عارها "
 " عز التقى هو الحياة التي ... ذو العقل والهمة يختارها "
 وقال
 " لا تسمع يوما صديقك قولا ... فيه غض ممن يحب الصديق "
 " إن بر الصديق لا شك منه ... لصديق الصديق أيضا فريق "
 وقال
 " للجار حق فاعتمد بره ... واحمل أذاه مغضيا ساترا "
 " فالله قد وصى به فاغترف ... زلله الباطن والظاهرا "
 وقال
 " سالم الناس ما استطعت وداري ... أخسر الناس أحق لا يداري "
 " ضرك الناس ضر نفسك يجني ... لا يقوم الدخان إلا لنار "
 وقال
 " النصح عند الناس ذنب فدع ... نصح الذي تخاف أن يهجر "
 " الناس أعداء لنصاحهم ... فاترك هديت النصح فيمن ترك "
 وقال
 " تجري الأمور على الذي قد قدرا ... ما حيلة أبدا ترد مقدرا "
 " فارض الذي يجري القضاء به ولا ... تضجر فمن عدم الرضى أن تضجرا "
 وقال :
 " أخوك الذي يحميك في الغيب جاهدا ... ويستمر ما تأتي من السوء والقيح "
 " وينشر ما يرضيك في الناس معلنا ... ويغضي ولا يألو من البر والنصح "
 وقال
 " لا تصحب الأردى فتردى معه ... وربما قد تقتفي منزعه "
 " فالجبل إن يجزر على صخرة ... أبدى بها طريقة مشرعة "
 وقال
 " ما فات أو كان لا تندم عليه فما ... يفيد بعد انقضاء الحادث الندم "
 " ارجع إلى الصبر تنعم أجره وعسى ... تسلو به فهو مسلاة ومغتنم "
 وقال
 " السخط عند النائبات زيادة ... في الكرب تنسي ما يكون من الفرج "
 " من لم يكن يرضى بما يقضى فيا ... لله ما أشقى وأصعب ما انتهج "
 وقال
 " إن تبغ الإخوان ما إن تجد ... أخا سوى الدينار والدرهم "
 " فلا تهنهما وعززهما ... تعش عزيزا غير مستهضم "
 وقال
 " من يستهن بصديقه ... يعن العدو على أذاته "
 " بر الصديق مهابة ... للمرء تخمل من عداته "
 " فاحفظ صديقك ولتكن ... تبدي المحاسن من صفاته "
 وقال
 " نعوذ بالله من شر اللسان كما ... نعوذ بالله من شر البريات "

" يجني اللسان على الإنسان ميته ... كم للسان من آفات وزلات "

وقال

" من لم يكن مقصده مدحة ... فقد أتى بحبوة العافية "

" محبة المدحة رق بلا ... عتق وذل يا له داهيه "

" من لا يبالي مدحا ولا ... ذما أصاب العيشة الراضية "

وقال

" شر إخوانك من لا ... تهتدي فيه سبيلا "

" يظهر الود ويخفي ... مكره داء دخيلا "

" يتقي منك اتقاء ... وهو يوليئك الجميلا "

وقال

" قوام العيش بالتدبير فاجعل ... لعيشك منه في الأيام قسطا "

" وخذ بالصبر نفسك فهو عز ... تلوذ به إذا ما الخطب شطا "

وقال

" العيش ثلث فطنة ... والغير منه تغافل "

" فتغافل أن كنت امرأ ... إثثار عيشك تأمل "

وقال

" ينفذ المقدور حتما لا يرد ... فعلاء الحرص دأبا والكمد "

" أرح النفس تعش في غبطة ... وكل الأمر إلى الله فقد "

" وقال زر من تحب وزره ثم زره ولا ... تمل واجعله دأبا موضع النظر "

" لولا متابعة الأنفاس ما بقيت ... روح الحياة ولا دامت مدى العمر "

وقال

" لا تترك الحزم في شيء فإن به ... تمام أمرك في الدنيا وفي الدين "

" من ضيع الحزم تصحبه الندامة في ... أيامه ويرى ذل المهاوين "

وقال

" كن إذا زرت حاضر القلب واحذر ... أن تمل المزور أو أن تطيلا "

" لا تتقل على جليس وخفف ... إن من خف عد شخصا نبيلًا "

وقال

" من خلا عن حاسد قد ... مات في الأحياء ذكره "

" إنما الحاسد كالنار ... لعود طاب نشره "

" لا عدمننا حاسدا في ... نعمة ليست تسره "

وقال

" حبيبك من يغار إذا زللتا ... ويغلظ في الكلام متى أسأتا "

" يسر إن انصف بكل فضل ... ويحزن إن نقصت أو انتقصتا "

" ومن لا يكثر بك لا يبالي ... أحدث عن الصواب أم اعتدلتا "

وقال

" لن لمن تخشى أذاه ... والقه في باب داره "

" إنما الدنيا مداراة ... فمن تخشاه داره "

وقال

" حسد الحاسد رحمه ... لا يرى إلا لنعمه "

" إنما الحاسد يشكو ... حر أكباد وغمه "

" لا عدمننا حاسدا في ... نعمة تكثر همه "

وقال

" تبديل شخص بشخص ... خسران الاثنين جملة "

" فاشدد يدك على من ... عرفت وارفع محله "

" فإن قطع خليل ... بعد التواصل زله "

وقال

" أنت بخير ماتركت الظهور ... والقال والقبيل وطرق الشرور "

" من خاض بحرا فهو لا بد يبتل ... ومن يجر يصبه العثور "

" سلامة المرء اشتغال بما ... يهمله لنفسه من أمور "

وقال

" أنت حر ما تركت الطمعا ... وعزيز ما تبعت الورعا "

" وكفى بالعز مع حربة ... شرفا يختاره من قنعا "

وقال

" خل بنيات الطرق ... ووافق الناس تفق "

" من خالف الناس أتى ... أعظم أبواب الحمق "

" فكن مع الناس فترك ... جملة الناس خرق "

وقال

" لا تضق صدرا يحاسد ... فهو في نار يكابد "

" من يرى أنك خير ... منه تعرفه شداًند "

" إنما الحاسد يشقى ... وهو لا يحظى بعائد "

وقال

" من يستمع في صديق قول ذي حسد ... لا شك يقصيه فاحذر غيلة الحسد "

" يهابك الناس ما تدني الصديق فإن ... أقصيته زدت للأعداء في العدد "

وقال

" كم من أخ صحبته ... والنفس عنه راغبة "

" خشيت إن فارقته ... بالهجر سوء العاقبة "

وقال

" إذا كانت عيوبك عند نقد ... تعد فأنت أجدر بالكمال "

" متى سلمت من النقد البرايا ... وحسبك ما تشاهد في الهلال "

وقال

" إذا انطوت القلوب على فساد ... فإن الصمت ستر أي ستر "

" فلا تنطق وقلبك فيه شيء ... بغير الحق واحذر قول شر "

وقال

" إن كنت لا تنصر الصديق فدع ... سماعك القول فيه واجتنب "

" سماع عرض الصديق منقصة ... لا يرتضيها الكريم ذو الحسب "

وقال

" أنت في الناس تقاس ... بالذي اخترت خليلاً "

" فاصحب الأخيار تعلو ... وتتل ذكرا جميلاً "

" صحبة الخامل تكسو ... من يواخيه خمولا "

وقال

" اسمح يزنك السماح ... إن السماح رياح "

" لا تلق إلا ببشر ... فالبشر فيه النجاح "

" تقطيبك الوجه جد ... أجل منه المزاح "

وقال

" من كنت تعرفه كن فيه مثمداً ... يكفيك من خلقه ما أنت تعرفه "

" لا تبغ من أحد عرفته أبداً ... غير الذي كنت منه قبل تألفه "

وقال

" حاسب حبيبك كالعدو تدمر له ... ولك المحبة فالتناصف روحها "

" من كان يغمض في حقوق صديقه ... نقصت مودته وشيب صريحها "

وقال

" تغافل في الأمور ولا تناقش ... فيقطعك القريب وذو المودة "

" مناقشة الفتى تجني عليه ... وتبدله من الراحات شده "

وقال

" إن شئت تعرف نعمة الله التي ... أولاك فانظر كل من هو دونك "

" لا تنظر الأعلى فتنسى ما لديك ... ومن من الضعفاء يستجدونك "

وقال

" عجباً أن ترى قبيح سواك ... وتعادي الذي يرى منك ذاك "

" لو تناصفت كنت تنكر ما فيك ... وترضى الوصاة ممن نهاك "

وقال

" جرب الناس ما استطعت تجدهم ... لا يرى الشخص منهم غير نفسه "

" فالسعيد السعيد من أخذ العفو ... ودارى جميع أبناء جنسه "

وقال

" فرط حب الشيء يعمي ويصم ... فليكن حبك قصدا لا يصم "

" نقص عقل أن يغطي حسك الحب ... أولهيك عن أمر مهم "

وقال

" سلم وعض احتسابا ... فذا هو اليوم أسلم "

" النقد نار تخلي ... في القلب جمرا تضر "

" فاطو اعتراضك واغفل ... عن عيب غيرك تسلم "

وقال

" عدة الكريم عطية ... لا مطل في عدة الكريم "

" المطل تحريض العداة ... وذاك من فعل اللئيم "

" فدع المطال إذا وعدت ... فإنه عمل ذميم "

وقال

" من تناسى ذنوبه قتلته ... وأبانت عنه الولي الحميما "

" ذكرك الذنب نفرة عنه تبقى ... لك إنكار فعله مستديما "

وقال

" عجباً لمادح نفسه لا يهتدي ... لتنقص يديه فيه مدحها "

" مدح الفتى عند التحدث نفسه ... ذكرى معايبه فيدرى فبحها "

وقال

" ومن حسنت أخلاقه عاش في ... نعمى وفي عز هنيء وود "

" ومن تسؤ للخلق أخلاقه ... يعيش حقيرا في هموم وكد "

وقال

" من كان يحمي ناسه صار ذا ... عز و هابته نفوس البشر "

" ومن يكن يخذل أحبابه ... هان ومن هان فلا يعتبر "

وقال

" قارب وسدد إذا ما كنت في عمل ... إن الزيادة في الأعمال نقصان "

" ما حالف القصد في كل الأمور هوى ... نفس وكل هوى شؤم وحرمان "

" وقال " بقدر همته يعلو الفتى أبدا ... لا خير في حامل الهمة ممتن "

" هيهات يعلو فتى خمول همته ... يقوده لابتذال النفس والمهن "

وقال

" اصحب ذوي الحدة وارغب عن الخبيث ... فالصحة ذا داؤها "

" وانظر إلى قول نبي الهدى ... خيار أمتي أحداؤها "

قال

" ما صديق الإنسان في كل حال ... يا أخي غير درهم يقتنيه "

" لا تعول على سواه فتغدو ... خائب القصد دون ما بتغيه "

" وقال " يستغز الهوى للإنسان حتى ... لا يرى غير محنة أو ضلال "

" ويرى الرشد غير رشد ويغدو ... يحسب الحق من ضروب المحال "

وقال

" لا تبالغ في الشر مهما استطعتا ... وتغافل واحلم إذا ما قدرتا "

" فانقلاب الأمور أسرع شيء ... وتجازي بضعف ما قدرتا "

وقال

" مثل عواقب ما تأتي وما تذر ... واحذر فقد ترتجي أن ينفع الحذر "

" لا تقدمن على أمر بلا نظر ... فإن ذلك فعل كله خطر "

" وانظر وفكر لما ترجو توقعه ... فعمدة العاقل التفكير والنظر "

وقال
" حافظ على نفسك من كل ما ... يشينها من خلل أو زلل "
" واحرص على تخليصها بالذي ... تنجو به من قول أو من عمل "
وقال
" سكر الولاية ما له صحو ... وكلامها وحراكها وزهو "
" يهذي الفتى أيام عزتها ... فإذا تقضت نابه شجو "
" فحذار لا تغرك صولتها ... وزمانها فثبوتها محو "
وقال
" دع الجدل ولا تحفل به أبدا ... فإنه سبب للبغيض ما وجدا "
" سلم تعيش سالما من غير متعبة ... قرير عين إذا لم تعترض أحدا "
وقال
" إذا ترى المبتلي اشكر أن نجوت ولا ... تشمت به ولتسل من ربك العافية "
" وخف من أن تبلى كما ابتلي فترى ... كما تراه وما تفيك من واقية "
وقال
" العمر ساعات تقضى فلا ... تقضها في السهو والغفلة "
" واعمل لما أنت له صائر ... ما دمت من عمرك في مهلة "
" ولا تكن تأوي لدينا وقل ... لا بد لابد من النقلة "
وقال
" كن رفيقا إذا قدرت حليما ... وتغافل تسلك طريقا قوبما "
" لا تظن الزمان يبقى على من ... سره أو ينيل عزا سليما "
" إن للدهر صولة وانقلابا ... ولهذا نعيمه لن يدوما "
وقال
" من لم يكن ينفع في الشدة ... فلا تكن معتمدا وده "
" لا تعتمد إلا أبا حرمه ... إن ناب خطب تلفه عده "
" وخل من يهزأ في وده ... ولا ترى في معضل جده "
وقال
" أخوك الذي تلفيه في كل معضل ... يدافع عنك السوء بالمال والعرض "
" ويستتر ما تأتي من القبح دائما ... وينشر ما يرضى وإن سؤته يبغي "
وقال
" ولا تنه عما أنت فاعله ... وانظر لما تأتيه من ذنب "
" وأبدأ بنفسك فانزهها فإذا ... تقفو الصواب فأنت ذو لب "
وقال
" ليس الصديق الذي يلقاك مبتسما ... ولا الذي في التهاني بالسرور يرى "
" إن الصديق الذي يولي نصيحتة ... وإن عرت شدة أغنى بما قدرا "
وقال
" عجا لمستوف منافع نفسه ... ويرى منافع من سواه تصعب "
" ما ذاك إلا عدم إنصاف ومن ... عدم التناصف كيف يرجو يصحب "
وقال
" من عدم الهمة في راحة ... من أمره يكرم أو يهتضم "
" وإنما يشقى أخو همة ... فإن الانكاد بقدر الهمم "
وقال
" قلما تنفع المداراة إلا ... عند أهل الحفاظ والأحساب "
" من يداري اللئيم فهو من يستعمل ... الدر في نحور الكلاب "
وقال
" دنياك هذي عرض زائل ... تفتن ذا الغرة والغفلة "
" فاعمل لأخراك وقدم لها ... ما دمت من عمرك في مهله "
وقال
" نصيحة الصديق كنز فلا ... ترد ما حييت نصح الصديق "

" وخذ من الأمور ما ينبغي ... ودع من الأمور ما لا يليق "

وقال

" أنت حر ما لم يقيدك حب ... أو تكن في الورى يرى لك ذنب "

" الهوى كله هوان وشغل ... والمعاصي ذل يعانى وكره "

وقال

" هون عليك الأمورا ... تعيش هنيئا قريبا "

" واعلم بأن الليالي ... تبلي جديدا خطيرا "

" وتستبيح عظيما ... ولا تجير حقيرا "

وقال

" ألف صديق قليل ... والود منهم جميل "

" كما عدو كثير ... إذ ضره لا يزول "

" فلا تضيع صديقا ... فالنفع فيه جليل "

وقال

" دع الحسود تعاتبه لظى حسده ... حتى تراه لقي بموت من كمده "

" ما للحسود سوى الإعراض عنه وأن ... يبقى إلى كربه في يومه وغده "

وقال

" الناس حيث يكون الجاه والمال ... فخل عنك ولا تحفل بما قالوا "

" وعد عن قول العلم قصدهم ... أو الصلاح أما تبدو له الحال "

" انظر لماذا هم يسعون جهدهم ... بين لك الحق لا يعرفه إشكال "

وقال

" توسط في الأمور ولا تجاوز ... إلى الغايات فالغايات غي "

" كلا الطرفين مذموم إذا ما ... نظرت وأخذك المذموم عي "

وقال

" عامل جميع الناس بالحسنى ... إن شئت أن تحظى وأن تهنا "

" ولا تسيء يوما إلى واحد ... فتجمع الراحة والأمن "

وقال

" لا تفكر فللأمور مدبر ... وارض ما يفعل المهيمن واصبر "

" أنت عبد وحكم مولاك يجري ... بالذي قد قضى عليك وقدر "

وقال

" إذا رأيت القبيحا ... فقل كلاما مليحا "

" وأغض واستر وسلم ... وكن حليما صفوحا "

" تعيش هنيئا وتلقى ... برا وشكرا صريحا "

وقال

" من ينكر الإحسان لا توله ... ما عشت إحسانا فلا خير فيه "

" البذر في السبخ ما إن له ... نفع فذره فهو فعل السفية "

وقال

" من لم يكن ينفع في وده ... دعه ولا تقم على عهده "

" ود بلا نفع عناء فلا ... تعن بشيء حاد عن حده "

وقال

" در مع الدهر كيفما ... دار إن شئت تصحبه "

" ودع الحذق جانبا ... ليس بالحذق تغلبه "

" وحذار انقلابه ... فكثير تغلبه "

وقال

" من لبيس يغني في مغيب عنك لا ... تحفل به فوداده مدخول "

" يئني عليك وأنت معه حاضر ... فإذا تغيب يكون عنك يميل "

وقال

" دع نصح من يعجبه رأيه ... ومن يرى ينجحه سعيه "

" النصح وإرشاد فلا توله ... إلا فتى يحزنه غيه "

" لا يقبل النصح سوى مهتد ... يقوده لرشده هديه "

وقال

" البخت أفضل ما يؤتي الفتى فإذا ... يفوته البخت لا ينفك يتضع "

" يكفيك في البخت تيسير الأمور وأن ... يكون ما ليس ترضى عنك يندفع "

وقال

" افعل الخير ما استطعت ففعل الخير ... ذكر لفاعليه وذخر "

" وتواضع تمل علاء وعزا ... فاتضاع النفوس عز وفخر "

وقال

" صديق المرء درهمه ... به ما دام يعظمه "

" فصنه ما استطعت ولا ... تكن في اللهو تعدمه "

" فقفر المرء ميته ... لذا تغدو فترحمه "

وقال

" لاتقرب ما اسطعت خل عدو ... فخليل العدو حلف عداوة "

" وتحفظ منه وداره وانظر ... هل ترى من سيماه إلا القساوة "

وقال

" لا تعد ذكر ما مضى فهو أمر ... قد تقضى وقد مضى لسبيله "

" وتكلم فيما تريد من الآتي ... ودبر للشيء قبل حلوله "

وقال

" قساوة المرء من شقائه فإذا ... يلين ساد بلا أين ولا نصب "

" لا يرحم الله إلا الراحمين فمن ... يرحم ينل رحمة في كل منقلب "

وقال

" جىء بالسماح إذا ما جئت في غرض ... ففي العبوس لدى الحاجات تصعب "

" سماحة المرء تنبي عن فضيلته ... فلا يكن منك مهما اسطعت تقطيب "

وقال

" لا تسامح يوما دنيا إذا ما ... قال في فاضل كلاما رديا "

" إن قصد الدني إنزال أهل الفضل ... حتى يرى عليهم عليا "

وقال

" خذ من القول بعضه فهو أولى ... وتحفظ مما يقول العداة "

" ربما تأخذ الكلام بجد ... وهو هزل قد نمقته عدات "

" فاحترز من غرور الأقوال واعلم ... أن الأقوال بعضها كذبات "

وقال

" نافس الأخيار كيما ... تحرز المجد الأثيلا "

" لا تكن مثل سراب ... ريء لم يشف غليلا "

" إنما أنت حديث ... فلتكن ذكرا جميلا "

وقال

" الصمت عز حاضر ... وسلامة من كل شر "

" فإذا نطقت فلا تكثر ... واجتنب قول الهذر "

" وحذار مما يتقى ... وحذار من طرق الغرر "

وقال

" سلامة الإنسان في وحدته ... وأنسه فيها وفي حرفته "

" ما بقي اليوم صديق ولا ... من ترتجي النصرة في صحبتها "

" ففر في بيتك تسلم ودع ... من ابتلى بالناس في محنته "

وقال

" مطاوعة النساء إلى الندامة ... وتوقع في المهانة والغرامة "

" فلا تطع الهوى فيهن واعدل ... ففي العدل الترضي والسلامة "

وقال

" كانت مشاورة الإخوان في زمن ... قول المشاور فيهم غير متهم "

" والآن قد يخدع الذي تشاوره ... إشماتا أو حسدا يلقى في الندم "

" فاضرع إلى الله فيما أنت تقصده ... يهديك للرشد في الأفعال والكلم " وقال

" عد عمن يراك تصغر عنه ... وتحفظ من قربه وأبنه "

" إن من لا يراك في الناس خيرا ... منه فالخير في التحفظ منه " وقال

" رزاة المرء تعلي قدره أبدا ... وطيشه مسقط له وإن شرفا "

" فاربأ بنفسك من طيش تعاب به ... وإن تكن حزت معه العلم والشرفا " وقال

" الصدق عز فلا تعدل عن الصدق ... واحذر من الكذب المذموم في الخلق "

" من لازم الصدق هابته الورى وعلا ... فالرمة دأبا تغز بالعز والسبق " وقال

" ليس التفضل يا أخي أن تحسنا ... لأخ يجازي بالجميل من الثنا "

" إن التفضل أن تجازي من أسالك ... بالجميل وأنت عنه في غنى " وقال

" من واصل اللذات لا بد أن ... تعقبه منها الندامات "

" فخذ من اللذات واترك ولا ... تسرف ففي الإسراف آفات " وقال

" دع معجبا بنفسه ... في غيه ولبسه "

" لا يقبل النصح لها ... من نخوة برأسه "

" فخله لكيده ... وعجبه بنفسه " وقال

" عتب الصديق دلالة ... منه على صدق المودة "

" فإذا يقول فقصده التنزيه ... عما قام عنده "

" فاحلم إذا عتب الصديق ... ولا تخيب فيك قصده " وقال

" ترتجى في النوائب الإخوان ... هم لدى كل شدة أعوان "

" فإذا لم يشاركوا فسواء ... هم والأعداء كيفما قد كانوا " وقال

" انصر أخاك على علاقته أبدا ... تهب وتسلك سبيل العز والظفر "

" ولا تدعه إلى الإشتمات مطرحا ... فإن ذلك عين الذل والصغر " وقال

" من عز كانت له الأيام خادمة ... تزيه آماله في كل ما حين "

" ومن يهن أولغت فيه المدى وأدت ... له النوائب في أثوابها الجون " وقال

" خل المنجم يهذي في غوايته ... واقصد إلى الله رب النجم والفلك "

" لو كان للنجم حكم لم تجد أحدا ... يخالف النجم إلا انههد في درك " وقال

" حماية المرء لمن يصحب ... تدل أن أصله طيب "

" لا خير فيمن لا يرى ناصرا ... صديقه وهو له ينسب " وقال

" يا عاتبا من لا له همة ... ألا اتند إلى متى تعتب "

" هل يسمع الميت أو يبصر الأعمى ... محال كل ما تطلب " وقال

" لا يعرف الفضل لأهل الفضل ... إلا أولو الفضل من أهل العقل "

" هيهات يدري الفضل من ليس له ... فضل ولو كان من اهل النبيل " وقال

" لا تطلب المرء بما اعتدت من ... أخلاقه والمرء في وهن "

" تنتقل الأخلاق لا شك مع ... تنقل الحالات والسن "

وقال
" لا تعامل ما عشت غيرك إلا ... بالذي أنت ترتضيه لنفسك "
" ذاك عين الصواب فالزمه فيما ... تبتغيه من كل أبناء جنسك "
وقال
" باعد الناس بوالوكا ... واعتزل عنهم يهابوكا "
" فإذا ما تصطفهم وقعوا فيك وعابوكا "
وقال
" إياك لا تخذل الصديقا ... وارع له العهد والحقوقا "
" نصرته ما قدرت عز ... تمهده للعلا طريقا "
" فلا تسامح به عدوا ... وكن له ناصرا حقيقا "
وقال
" حدث جليسك ما أصغى إليك فإن ... تراه يعرض فاقطع عنه وانصرف "
" خفف فقد يضجر الذي تجالسه ... طول المقام أو التحديث في سرف "
وقال
" جماع الخير في ترك الظهور ... وإظهار التواضع والبرور "
" وفي أصدادها من غير شك ... جميع وجوه أنواع الشرور "
وقال
" محبة الدرهم طبع البشر ... فاقنع من المرء بما قد حضر "
" وقس على نفسك في بذله ... تقف على تحقيق عين الخبر "
وقال
" لايلم غير نفسه كل من قد ... عرض النفس أن تهان فذلا "
" ينظر العاقل الأمور فيأبى ... أن يرى منه غير ما هو أولى "
وقال
" أعذر الناس من أتته المضرة ... من أخ كان يرتجي منه نصره "
" مثل من غص بالشراب فكان ... الهلك فيما رجاه يدفع ضره "
وقال
" سلم تعش سالما مما يقال ... من يعترض يعترض في كل حال "
" نقد الفتى غافلا عن عيبه ... لا يرتضى عند أرباب الكمال "
وقال
" تواضع المرء ترفيع لرتبته ... وكبره ضعة من غير ترفيع "
" في نخوة الكبر ذل لا اعتزاز له ... وفي التواضع عز غير مدفوع "
وقال
" إياك لا تنكر فضيلة كل من ... تدري فضيلته فترمي بالحسد "
" إنكارها يجني عليك تنقضا ... ويزيده شرفا يديم لك الكمد "
وقال
" انصر أخاك ما استطعت فإنما ... تعنز بالإخوان ما عزوا "
" من يخذل الإخوان يخذل نفسه ... ويهن وما لهوانه عز "
وقال
" إذا جزاك بسوء من أسأت له ... فذاك عدل وما في العدل من زلل "
" جزاء سيئة بالنص سيئة ... لا حيف في ذلك في قول ولا عمل "
وقال
" نفس وشيطان ودنيا والهوى ... يارب سلم من شرور الأربعة "
" أنت المخلص من رجاك وإنني ... أرجوك فيما أتقي أن تدفعه "
وقال
" لا تعظم يا أخي نفسك ... إن شئت السلامة "
" من يعظم نفسه يجن ... امتهانا وملامة "
" فتواضع تلق عزا ... واحتفاء وكرامة "
وقال

" دع لذة الدنيا فمن يتلى ... بحبها ذاق عذاب السموم "

" لذاتها حلم وأيامها ... لمح ولكن كم لها من هموم "

" محبة الدنيا هلاك فمن ... يرومها أهلكه ما يروم "

وقال

" كل خل ما أنت تخطي ... لا تعول على صفاء وداده "

" إنما الخل من تناسى خطاياك ... ويبقى له جميل اعتقاده "

وقال

" من عامل الناس بالإنصاف شاركهم ... في ما لهم وأحبوه بلا سبب "

" إنصافك الناس عدل لا تزال به ... تعلو إلى أن ترى في أرفع الرتب "

وقال

" قل جميلا ان تكلمت ولا ... تقل الشر فعقبي الشر شر "

" من يقل خيرا ينل خيرا ومن ... يقل الشر اذا يخشى الضرر "

وقال

" اذا التأمت أمورك بعض شيء ... بأرضك فاستقم فيها ولازم "

" فما في غربة الانسان خير ... وما بالغربة الدنيا تلايم "

" وقال " الى متى تسرح مرخي العنان ... قل يا أخي حتى متى ذا الحران "

" ارجع الى الله وخل الهوى ... فما الهوى يا صاح الا هوان "

" قد أنذر الشيب فهل سامع ... أتن فمصغ للذي قد أبان "

وقال

" من يكفر النعمة لا بد أن ... يسلبها من حيث لا يشعر "

" ومن يكن يشكرها معلنا ... دامت له نامية تكثر "

" اعذر أخا الفقر في أن ... يضيق ذرعا بنفسه " وقال

" الفقر موت ولكن ... من للفقير برمسه "

" إن الفقير لميت ... ما بين أبناء جنسه "

وقال

" كما تدين أنت يا صاحبي ... تدان فاعمل عمل الفاضل "

" أنت كما أنت فخل الذي ... تزين النفس من الباطل "

" وأين أنت ثم أنت أدر ذا ... حسبك فاحذر زلل العاقل "

وقال

" مالك ما أنفقته قرية ... لله والباقي حساب عليك "

" فقدم المال ترد أمنا ... من بعده وهو ثواب لديك "

" وقال " دع مدح نفسك ان أردت زكائها ... فبمدح نفسك من مقامك تسقط "

" ما أنت تخفضها يزيد علاؤها ... والعكس فانظر أيما لك أحوط "

وقال

" ذو النقص يصحب مثله ... فالشكل يألف شكله "

" فاصحب أخا الفضل كيما ... تقفو بفعلك فعله "

" أما ترى المسك دأبا ... يكسب طيبا محله "

وقال

" من عيني المرء يبدو ما يكتمه ... حتى يكون الذي يرعاه يفهمه "

" ما يضم المرء يبدو من شمائله ... لناظر فيه يهديه توسمه "

وقال

" انما الدنيا خيال ... وأمانيتها خيال "

" حبها سكر ولكن ... وصلها ما ان ينال "

" فتنزه عن هواها ... فهوى الدنيا ضلال "

وقال

" قلما يؤذيك من لا يعرفك ... فتحفظ من صديق يألفك "

" لا تثق بالود ممن تصطفي ... كم صديق تصطفيه يتلفك "

وقال

" لا تضجرن في الامور وارض بما ... يقضي به الله فهو مكتتب "

" ما قدر الله لا مرد له ... فما يفيد العناء والتعب "

وقال

" تنزه عن دنيات الأمور ... وخذ بالحزم في الامر الخطير "

" فأشرف الأمور لها جمال ... وخطر في البهاء وفي الظهور "

" وفي سفسافها لا شك وهن ... وتمهين يشين مدى الدهور "

وقال

" من يتلى من أهله بمنغص ... يصبر فما أحد بغير منغص "

" ومن أزممت بالوجه منه قرحة ... يعزم على ضرر يشين مخصص "

وقال

" من كان في عزته داره ... وكرر المشي الى داره "

" قبل يدا تعجز عن قطعها ... ولن لمن تخشى من اضراره "

وقال

" لا تبتغ النعمة من جائع ... لم يرها قبل لآبائه "

" لا يشرح الاناء ما لم يكن ... ملآن قد أفعم من مائه "

وقال

" مروءة المرء رأس ماله ... وصونه أشرف اعتماله "

" من لم يصن نفسه تردى ... وزال عن رتبة اكتماله "

وقال

" ترك المطامع عزه ... واليأس أهنا وانزه "

" هيهات يعتز مثر ... أضحى للاطماع نهزه "

" نزاهة النفس عز ... ما ذل من يتنزه "

وقال

" تعظيمك الناس تعظيم لفسك في ... قلوب الأعداء طرا والأوداء "

" من يعظم الناس يعظم في النفوس بلا ... مؤونة وينل عز الأعداء "

وقال

" اقنع من الناس بمقدار ما ... يعطون لا تبتغ منهم مزيد "

" حسبك من كل امرئ قدر ما ... يعطيك فالأطماع ما إن تفيد "

وقال

" لن إذا كانت الأمور صعبا ... وتواضع لها تجدها قرايا "

" دار من شئت تنتفع منه واترك ... صوله الكبر فهي تجني عذابا "

" لا تكن تأخذ الأمور بعنف ... من يعاني الأمور بالعنف خابا "

وقال

" سامح الناس إن أسأؤوا إليك ... وتغافل إذا تجنوا عليك "

" ما ترى كيف أنت تعصي ومولاك ... يزيد الإنعام دأبا لديك "

وقال

" اغتتم ساعة الأنس ... وانس ما كان بالأمس "

" ليس للمرء من الدنيا ... سوى راحة نفس "

" من يكن حلف هموم ... باع دنياه ببخس "

وقال

" حبك الشيء يغطي قبحه ... فتراه حسنا في كل حال "

" لا يرى المحبوب إلا حسنا ... كان قبح فيه مع ذا أو جمال "

" حتم الحب على ذي الحب أن ... لا يرى المحبوب إلا في كمال "

وقال

" يحسب الناقص أن الناس قد ... غفلوا عن حاله في ضعته "

" لا يرى الناقص إلا أنه ... كامل من نعته في صفته "

" غلط المرء يغطي عقله ... أن يرى النقص الذي في جهته "

وقال

" أيام عمرك هذي ... ساعاتها رأس مالك "

" فاحرص على الخير فيها ... قبل أوان ارتحالك "

" فإنما أنت طيف ... تجتاب سبل المهالك "

وقال

" تجد الناس على النقص ولا ... تجد الكامل إلا من ومن "

" زمن الباطل وافى أهله ... وكذاك الناس أشباه الزمن "

وقال

" قل جميلا إذا أردت الكلام ... تجن عزا مهناً مستداما "

" إن قول القبيح يورث بغضا ... وصغارا عند الورى وملاما "

وقال

" حسن الظن تعش في غبطة ... إن حسن الظن من أوقى الجنن "

" من يظن السوء يجرى مثله ... فلما يجرى قبيح بحسن "

وقال

" إن تبغ إخوان الصفاء فهم ... تحت التراب انتقلوا للقبور "

" إخوانك اليوم كأزمانهم ... مشتبهون في جميع الأمور "

وقال

" ومستقبح من أخ خلة ... وفيه معايب تسترذل "

" كأعمى يخاف على أعور ... عثارا وعن نفسه يغفل "

وقال

" من يتبع الود من الناس ... يكن لما قالوه بالناسي "

" أغض عن الناس تنل ودهم ... إنك لا تغني عن الناس "

وقال

" أعيت مع الناس الحيل ... وبار فيهم العمل "

" في أي وجه أملوا ... يخيب منهم الأمل "

" فآثر العزلة عن ... هم تنج من كل خلل "

وقال

" لا ترج غير الله في شيء تنل ... ما تتبغيه وتكف كل تخوف "

" الله أعظم من رجوت فثق به ... فهو الذي أعطى وأنجى من كفي "

وقال

" توصل إلى الله في كل ما ... تحب بمحبوبه المصطفى "

" تنل ما تحب كما تنبغي ... وحسبك جاها به كفى "

انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور

وهذه نبذة من كتابه الأبيات المهدية في المعاني المقربة فمن ذلك قوله

" اكتم السر واجعل الصدر قبره ... لا تبج ما حييت منه بذرة "

" أنت ما لم تبج بسرك حر ... فإذا بحت صرت عبدا بمرّة "

" من يرد أن يعيش عيشا هنيئا ... يتحفظ مما عسى أن يضره "

وقال

" عداوة العاقل مع عسرها ... آمن من صداقة الأحمق "

" يمكن الأحمق من نفسه ... عمدا ومن أحيابه يتقي "

" لا يحفظ الأحمق خلا ولا ... يرضاه للصحة إلا شقي "

وقال

" إذا أمعنت في الدنيا اعتبارا ... رأيت سرورها رهن انتخاب "

" بعاج عن تدان وافتقار ... عن استغنا وشيب عن شباب "

" حياة كلها أضغاث حلم ... وعيش ظله مثل السراب "

وقال

" من تره يسرف في ماله ... يتلفه في لذة وانهماك "

" فذلك المغبون في رأيه ... يسلك بالنفس سبيل الهلاك "

وقال

" من لا يرى نفسه في الناس قاصرة ... عن الكمالات لم يكمل له أدب
" ومن يكن راضيا عن نفسه أبدا ... فذاك غر عن الآداب محتجب "
" آداب الانسان تحقيقا تواضعه ... وجره دائما على الذي يجب "
وقال "

" يحق الحق حتما دون شك ... وإن كره المشكك والملد "
" صريح الحق قد يخفى ولكن ... بعيد خفائه لا شك بيدو "
وقال "

" كل ما قد فات لا رد له ... فلتكن عن ذاك مصروف الطمع "
" أيعود الحسن من بعد الصبا ... قلما أدبر شيء فرجع "
وقال "

" اغتنم غفلة الزمان وبادر ... لذة العيش ما بقيت سليما "
" أمر هذي الحياة أيسر من ان تغتدي فيه لأنما أو ملوما "
وقال "

" لا تغرنك صولة الجاه يوما ... أو تظنن أنها تتمادى "
" صولة الجاه لفح نار ولكن ... كل نار لا بد تلفى رمادا "
وقال "

" تنح عن الناس مهما استطعت ... ولا تك في الناس بالراغب "
" من اعتمد الناس يشقى ولا ... يرى غير منتقد عائب "
وقال "

" لا تقل يوما أنا ... فتقاسي محنا "
" من يعظم نفسه ... يلق هونا وعنا "
" شر ما يأتي الفتى ... مدحه لو فطنا "
وقال "

" الناس إخوان ذي الدنيا وإن قبحت ... أفعاله وغدا لا يعرف الدنيا "
" يعظمون أبا الدنيا وإن عثرت ... يوما به أولغوا فيه السكاكينا "
وقال "

" العدل روح به تحيا البلاد كما ... هلاكها أبدا بالجور ينحتم "
" الجور شين به التعمير منقطع ... والعدل زين به التمهيد ينتظم "
" يا قاتل الله أهل الجور كم خربت ... بهم بلاد وكم بادت بهم أمم "
وقال "

" اليأس أسلى وأغنى ... من نيل ما يتمنى "
" يسلو أخو اليأس ... حتى يهنا ولا يتعنى "
" لليأس برد فمن لم ... يذقه لم يتهنا "
قال "

" إذا عظمت نفس امرئ صار قدره ... حقيرا وحيث احتل فالذل صاحبه "
" يسود ويعلو ذو التواضع دائما ... ويحظى كما يرضى وتقضى مآربه "
وقال "

" ود من يصطفيك للنفع زور ... والجميل الذي يريك غرور "
" إنما الود ود من ليس يخشى ... فيك ممن يلوم أو من يضير "
وقال "

" اشكر لمن والاك معروفا ... تكن بفضل النفس معروفا "
" شكر أخي المنة عدل فكن ... بالعدل مهما اسطعت موصوفا "
" من يكفر الإحسان لا بد أن ... يلقى عن الإحسان مصروفا "
وقال "

" حسب الإنسان ماله ... وهو في الدنيا كماله "
" يضجر الفقر أبا الحلم ... وإن طال احتماله "
" عزة المرء غناه ... وبه تحسن حاله "
وقال "

" لا تصاحب أبدا من ... عقله غير متين "
" إن نقص العقل داء ... يتقى مثل الجنون "
" صحبة الأحقق عار ... لاحق في كل حين "

وقال

" وافق الناس إن أردت السلامة ... إن روح الوفاق روح كرامه "
" من يوافق يعيش هنيئا قريبا ... أمنا من أذية وملامه "
" فتوق الخلاف واحذر أذاه ... فركوب الخلاف عمدا ندامه "

وقال

" ظلمات الخطوب مهما ادلهمت ... يجلها كالصباح فجر انفراج "
" أرح النفس لا تبت حلف هم ... كم هموم فيها السرور يفاجي "

وقال

" من لم يكن يقصد أن يحمدا ... يعيش هنيئا وينل أسعدا "
" من يتبغي المدحة لا بد أن ... يلحقه الذل وأن يجهدا "
" عيش الفتى في ترك تقيده ... وموته البحت إذا قيذا "

وقال

" قل لأهل الحاجات مهما ابتغوها ... حسبكم ما أتى من التنبيه "
" إن تريدوا الحاجات من غير بقاء ... فاطلبوها عند الحسان الوجوه "

وقال

" خذ الأمور برفق واتند أبدا ... إباك من عجل يدعو إلي وصب "
" الرفق أحسن ما تؤتى الأمور به ... يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطب "
" من يصحب الرفق يستكمل مطالبه ... كما يشاء بلا أين ولا تعب "

وقال

" من يتبغي السؤدد لا بد أن ... يرهقه الجهد فلا يضجر "
" يصعب إدراك المعالي فمن ... يرم لحاق بعضها يصبر "
" لا يحصل السؤدد هينا ولا ... يظفر بالبغية إلا جري "

وقال

" عاش في الناس من درى قدر نفسه ... ثم دارى جميع أبناء جنسه "
" علم الإنسان قدره نبل عقل ... وذكاء يبين عن فضل حدسه "

وقال

" عظم الناس نبل تعظيمهم ... واجتنب تحقيرهم فهو الردى "
" من ير الناس بتحقير يكن ... عندهم مؤذى حقيرا أبدا "
" لا يفرنك إهمال امرئ ... ربما يؤذي الذباب الأسدا "

وقال

" حب الرياسة يا له من داء ... كم فيه من محن وطول عناء "
" طلب الرياسة فت أعضاد الورى ... وأذاق طعم الذل للكبراء "
" إن الرياسة دون مرتبة التقى ... فإذا اتقيت علوت كل علاء "

وقال

" لا تركن إلى بشر ... إن شئت تأمن كل شر "
" ذهب الذين إذا ركنت ... لهم أمنت من الضرر "
" لم يبق إلا شامت ... أو من يضر إذا قدر "

وقال

" خل رأي الجهال ما اسطعت واتبع ... رأي أهل الحلوم والتجرب "
" لا تحد عن مشورة في مهم ... فهي مما تنمي حياة القلوب "
" رأي أهل الصلاح نور يجلي ... ظلمة الكرب في ليالي الخطوب "

وقال

" لا يرتضي بالدون إلا امرؤ ... مقصر ذو هممة حاملة "
" الموت خير من حياة الفتى ... مهتضا ذا رتبة ساقلة "
" روح حياة المرء في عره ... من ذل مات الميتة العاجله "

وقال

" استغن عن تشاء ... فالله يغنيك عنه "
" من أمل الناس يشقى ... وليس يقنع منه "
" فإن ظفرت بحر ... فاحفظ عليه وصنه "

وقال

" خذ من صديقك قدر ما يعطيك ... لا تبغ أزيد واحذر أن يجفوكا "
" من يبغ مقدار الذي يحتاجه ... من أخيه يبق مخيبا متروكا "
" شأن الألى رزقوا الحجى أن يقنعوا ... فابغ القناعة إنها تغنيكا "

وقال

" هن إذا عز أخوكا ... واخش أن يقرض فيكا "
" إن من عاند أقوى ... منه قد ضل سلوكا "
" نقص عقل أن تعادى ... بشرا لا يتقيكا "

وقال

" تنزه ما حبيت عن القبيح ... وخالف من يرى رد النصيح "
" وخذ بالحزم مهما اسطعت واحذر ... من أن يلقيك حزمك في فضوح "
" فلا تعدل عن الحق التفاتا ... لغير الحق من بعد الوضوح "

وقال

" لا تخف في الحق لوما ... صدقه ينجيك حتما "
" ينجلي الحق ويبدو ... نوره لا يتعمى "
" شأن ذي الحق اهتداء ... وأخو الباطل أعمى "

وقال

" عامل بجد جميع الناس تحظ به ... وجنب الهزل إن الهزل يرديك "
" الجد أحسن ماتديه من خلق ... والجد أشرف ما في الناس يعليك "
" من لازم الجد هابته النفوس ومن ... يهزل يكن أبدا في الناس مهتوكا "

وقال

" كفاك الله شر من اصطفينا ... وضر من اعتمدت ومن عرفنا "
" جميع الناس موتى عنك إلا ... معارفك الذين لهم ركننا "
" تحفظ من قريب أو صديق ... وكن في الغير دهرك كيف شئتنا "

وقال

" من كان يرغب عن أحبابه ويرى ... تقرب أعدائه لا شك يهتضم "
" يدني العدو فلا تدنو مودته ... هيهات كل معاد قربه ندم "
" فاحفظ صديقك واحذر أن تعاديه ... إن الصديق إذا عاديته يصم "

وقال

" حامل عدوك كي يلين حقه ... فيكف بعض البعض من إيذائك "
" واحفظ صديقك ما استطعت فإنه ... أدري بطرق الضر من أعدائك "

وقال

" إذا ظفرت بمن أنحى عليك فخذ ... بالحلم فيه ودع ما منه قد فرطا "
" إن المسيء إذا جازيته أبدا ... بفعله زده في غيه شيططا "
" العفو أحسن ما يجزى المسيء به ... يهينه أو يريه أنه سقطا "

وقال

" قاتل عدوك بالفضائل إنها ... أعدى عليه من السهام النفذ "
" كسب الفضائل عدة تعليق في ... رتب بها سبل السعادة تحتذى "
" فاحرص على نيل الفضائل جاهدا ... إن الفضيلة صعبة في المأخذ "

وقال

" وعد الكريم وفاء ... تجنيه كيف تشاء "
" ما حال قط كريم ... ولا ثناه التواء "
" فأنجز الوعد مهما ... وعدت فهو الزكاء "

وقال

" ليس الغني عن كثرة العرض ... إن الغني في النفس إن ترض "

" رأس الغني ترك المطامع عن ... زهد بلا ميل ولا غرض "

" فازهد تعش أغنى البرية في ... عز بلا هم ولا مضض "

وقال

" زمن الفضائل قد مضى لسبيله ... ولوى بطيب العيش وشك رحيله "

" ركدت رياح الجد بعد هبوبها ... وعلا فريق الهزل بعد خموله "

" هيهات ما زمن الكرام وما هم ... ذهبوا وجد الدهر في تحويله "

وقال

" مروءة المرء ثوبه ... والعري في الناس عيبه "

" بثوبه المرء يعلو ... قدرا ويحفظ قره "

" من لم يصن ثوبه لم ... يصن وإن لاح شيبه "

وقال

" لا تصخ ما بقيت حيا لقول ... ليس يجني عليك إلا المضره "

" واطرح ما اتاك منه وجنب ... من يرى بالفضول واتق ضره "

وقال

" ثقيل تراه النفس في العين كالغذى ... وكالجبل الراسي على الصدر والقلب "

" تثير غموم المرء رؤية وجهه ... وتشكو جفاه الأرض شكوى ذوي الكرب "

وقال

" أما ترى الأشجار مصفرة ... أوراقها كالشمس عند المغيب "

" ما هي إلا صفرة آذنت ... بأنها ترحل عما قريب "

وقال

" كل ما تحب وتشتهي ... ودع الطبيب وما يرى "

" حفظ الغذاء مشقة ... ليست ترد مقدرًا "

" كم عد من متحفظ ... كم صح ممن قصرا "

" كل التحفظ زائد ... لا بد مما قدرا "

وقال

" من كان يأكل ما اشتهى ... ويرى مخالفة الطبيب "

" سيرى مضرة ما أتى ... بطرا ويندم عن قريب "

" إن التحفظ في الأمور ... لشيمة الفطن اللبيب "

" من لم يكن متحفظا ... يخطي ويبعد أن يصيب "

وقال

" وللحمام حاءات إذا ما ... ظفرت بها عثرت على النعيم "

" فحناء وحكاك مجيد ... وقل حجر يمر على الأديم "

" وحوض مفعم ماء لذيذا ... وحجام على النهج القويم "

" وللحلق الحديدية حين تنمى ... وأطيبها حديث أخ كريم "

وقال في الغزل وهي آخر كتابه المذكور

" الله أكبر جلت فتنة البشر ... بنور غرتك المغني عن البصر "

" شمس تطلع في أفق الجمال لها ... نور تألق في داج من الشعر "

" ووردة الخد في أبراد سوسنها ... شقائق زانها التغليف بالدرر "

" ومسكة الخال فوق الخد شاهدة ... بأن إبداعها إحكام مقتدر "

وهذه نبذة من كتابه أنداء الديم في المواعظ والوصايا والحكم وكل ما فيه كالذي قبله من نظمه

رحمه الله تعالى فمن ذلك قوله رحمه الله

" العلم نور وهدى ... فكن بجد طالبه "

" واحرص عليه واعتمد ... فيه الأمور الواجبة "

" من لازم العلم علا ... على الأنام يخاطبة "

وقال

" خالف النفس عند قصد هواها ... تبق ما عشت سالما من أذاها "

" فاتباع الهوى هوان ولكن ... هان للنفس كي تنال مناها "

وقال
" من يخالف في شيء الناس يرجع ... هدفا للسهام من كل راشق "
" كم مع الناس كيف كانوا ووافق ... إن من لا يوافق الناس مائق "
وقال
" أرح النفس تنتفع بحياتك ... واغنم العيش قبل يوم وفاتك "
" واطرح عيب من سواك وسالم ... جملة الناس يغفلوا عن أذاتك "
" واعتبر بالذين بادوا وبادر ... ما يدانيك من سبيل نجاتك "
وقال
" سالم الناس ما استطعت وجامل ... من يعادبك إن أردت السلامه "
" وتنزه عن القبيح وجنب ... من يرى بالفضول واحذر كلامه "
وقال
" صديقي أنت ما أبقى بخير ... وموتي غير محتاج إليكا "
" فإن أحتج إليك فأنت مني ... بريء لا صداقة لي عليكا "
وقال
" من أنت عنه غني ... كن فيه مثل اعتقاده "
" فإن يكن منه ود ... فجازره بوداده "
" وإن يكن منه بعد ... فخله لبعاده "
وقال
" عليك بنفسك لا تشتغل ... بشيء سواها وخل الفضول "
" تعش رائح القلب في غبطة ... فلا من يضر ولا من يقول "
وقال
" اترك الفكر في الأمور ودعها ... فكما قدرت تكون الأمور "
" كل فكر وكل رأي وحزم ... غير مجد إذا جرى المقذور "
وقال
" هون عليك خطوب الدهر إن لها ... نهاية والتناهي عنده الفرج "
" واصبر فإن لحسن الصبر عاقبة ... بصحبها ظلمة المكروب تنبلج "
وقال
" احذر البخل إنه شر خلق ... يتحلى به وشر طريقه "
" من يجد غير مسرف فهو في الناس ... موقى تثني عليه الخليقه "
وقال
" الذل في طلب الإفادة عزة ... فاحرص على نيل الإفادة ترشد "
" إن التعزز في الذي تحتاجه ... كبر وكبر المرء أفبح مقصد "
وقال
" دع من عرفت ولا تشدد عليه يدا ... وداره وتحفظ منه ما بقيا "
" أما ترى البلد الذي نشأت به ... محقرا كلما أصبحت معتليا "
" وغيره من بلاد الله قاطبة ... يعليك لا سيما إن كنت متقيا "
وقال
" ينبغي للذي تحلى بعقل ... أن يرى كالبازي مدة عمره "
" بين أيدي الملوك أو في فلاه ... خيفة من شرور أبناء دهره "
وقال
" العزل يضحك ذله ... من تيه سلطان الولاية "
" فإذا وليت فسر على ... نهج الدمائه والرعاية "
" واقصد مداراة الورى ... واحذر كيود ذوي السعاية "
وقال
" لا تقبل الحكم على بلدة ... نشأت فيها إنه يحقد "
" رياسة المرء على الأهل والجيران ... والخلان لا تحمد "
وقال
" هي الدنيا إذا فكرت فيها ... رأيت نعيمها سما نقيعا "

" فلا تجفل بها واحذر أذاها ... فإن لسمها قتلا ذريعا "
" ولا تأسف على ما فات منها ... وبادر في حياتك أن تطيعا "
وقال
" كن وحيدا ما عشت تحيا بخير ... سالما ... من شرور كل البرية "
" إن من لا يخالط الناس يبقى ... دهره لا تعرفه منهم أذية "
وقال
" لا تبح ما حييت يوما بسر ... لصديق ولا لغير صديق "
" إن سرا يجاوز الصدر فاش ... يدريه العدا ومن في الطريق "
وقال
" لا تصاحب ما عشت إلا الكبارا ... تتم ذكرا وتعتلي مقدارا "
" إن من ماشى في طريق حقيرا ... يكتسي منه مهنة واحتقارا "
" فتحفظ من أن تؤاخي دنيا ... فهو يعديك ذلة وصغارا "
وقال
" محدثات الأمور أردى الشرور ... فتحفظ من محدثات الأمور "
" إنما المحدثات غي فدعها ... واجتهد أن ترى مع الجمهور "
" كل من يتبع الحوادث يشقى ... ويرى نفسه بغير نظير "
وقال
" من تفضلت عليه ... أنت لا شك أميره "
" ومن احتجت إليه ... أنت بالرغم أسيره "
" ومن استغيت عنه ... أنت في الدنيا نظيره "
وقال
" لم يبق من يطمع في وده ... كلا ولا من ترتضى صحبته "
" الناس أشباه ذئاب فهل ... يعلم ذئب حسنت عشرته "
" من يبتغي اليوم صديقا كما ... يرضى فقد زلت به بغيته "
وقال
" فاعل الخير موقى كل ما ... يتقي من ضر أو من فتنة "
" ليس يخشى فاعل الخير أذى ... إن فعل الخير أوقى جنة "
وقال
" تحفظ من صديقك في أمور ... فريتما يضر بك الصديق "
" من اعتمد الصديق ولم يبال ... يصبه الضر وهو به خليق "
وقال
" لا تركن لمخلوق وكن أبدا ... ممن توكل في الدنيا على الله "
" ولا تمل لسواه ما حييت فمن ... يرجو سوى الله هاو حبله واهي "
وقال
" طلب الغاية اتباع غوايه ... فاعتمد في الأمور ترك النهاية "
" من يكن راضيا بما يتسنى ... عاش عيش الملوك دون أذاه "
وقال
" لا تعتمد أبدا على مخلوق أن ... تبغ النجاح وتقصد الرشدا "
" من يرج غير الله يحرم رشده ... ويذل وهو مخيب قصدا "
وقال
" سفر المرء قطعة من عذابه ... فيه تخليق جسمه وثيابه "
" إنما العيش للفتى بين أهليه ... وخلانه وفي أحبائه "
" من يرده بخير الله يكفى ... كرب تجواله وذل اغترابه "
وقال
" سلم ولا تعترض يوما على أحد ... إن شئت تسلم من حقد وأضرار "
" من يعترض يعترض لا شك وهو حر ... بذاك فالشر مقدار بمقدار "
وقال
" إن الصديق لعون ... في كل ما تبتغيه "

" فلا تسيء لصديق ... واحذر وقوعك فيه "

" فالمرء قيل كثير ... بنفسه وأخيه "

وقال

" افعل الخير ما استطعت تنل ما ... تبتغيه من الثناء الجميل "

" فاعل الخير آمن ليس يخشى ... صرف دهر ولا حلول جليل "

وقال

" يحق الحق حتما دون شك ... وإن كره المشكك والملد "

" صريح الحق قد يخفى ولكن ... بعيد خفائه لا شك يبدو "

وقال

" إن شئت عزا دائما ... فاسلك سبيل من افتنع "

" إن القناعة عزة ... والذل عاقبة الطمع "

" المرء إن قنع اعتلى ... قدرا وإن طمع اتضع "

وقال

" استعن في الأمور بالكتمان ... وتحفظ من شر كل لسان "

" كل ما لا يدري من أمرك فضل ... ليس فيه شيء من الخسران "

وقال

" من مال عنك بشير ... مل أنت عنه بميل "

" فالله يغنيك عنه ... فمنه كل جميل "

" فليس في الود خير ... مع ترك حسن القبول "

وقال

" لا تقطعن صديقا ... وإن يضق بك صدرا "

" واحرص عليه وزده ... إن يجف برا وشكرا "

" فإن قطع صديق ... لا شك يعقب ضرا "

وقال

" خل التأنيق في اللباس وسر على ... نهج الأفاضل في اختصار الملابس "

" إن التأنيق في اللباس يكثر الحساد ... والأعداء للمتلبس "

" فالبس كمثل الناس لا تخرج عن المعتاد ... في شيء فتحظى أو تسي "

وقال

" لا تحقرن عدوا ... ولو يكون كذره "

" واحذره ما استطعت واجهد ... أن لا تحرك شره "

" إن البعوضة تؤذي الملوك ... فوق الأسرة "

وقال

" ما أهنأ الإنسان في عيشه ... ما بين أهليه وفي منزله "

" الذل في الغربة يا كربيها ... وكرب من قوض عن معقله "

" وفي اقتلوا أو اخرجوا شاهد ... ساوى خروج المرء مع مقتله "

وقال

" المال يستر عيب المرء فاقتنه ... واحفظه تبق موقى مدة الزمن "

" من ضيع المال أبدى عيبه وجنى ... تمهينه أبدا من كل ممتهن "

وقال

" سريرة المرء تبديها شمانله ... حتى يرى الناس ما يخفيه إعلانا "

" فاجعل سريرتك التقوى ترى أملا ... في كل ما انت تبغي وبرهانا "

وقال

" ما تمت الدنيا لشخص ولا ... أمل ذا فيها سوى من فتن "

" عادتها الفتك بمن رامها ... وكل من أعرض عنها أمن "

" فلا تغرنك بلذاتها ... فإن من غربها قد عبن "

وقال

" لا يكن عندك الخديم نديما ... إن قدر الخديم دون النديم "

" من ينادم خديمه يتأذى ... ويصير الخديم غير خديم "

" إنما يصلح الخديم ابتعاد ... واشتغال بشأنه المعلوم "

وقال

" تثبت في الأمور ولا تبادر ... لشيء دون ما نظر وفكر "

" قبيح أن تبادر ثم تخطي ... وترجع للتثبت دون عذر "

وقال

" كن في زمانك كيف يرضى أهله ... ولا تعد طورهم ولا تتبدل "

" فإذا ترى الحمقى تحامق معهم ... وإذا ترى العقلاء فلتتعقل "

" من لم يكن أبدا كأهل زمانه ... يشقى ولا يحظى بنيل مؤمل "

وقال

" الفاضل اليوم غريب بلا ... عون على شيء من الحق "

" إن غاب لم يحضر وإن قال لم ... يسمع ولم يؤبه بما يلقي "

" ما أضيع الفاضل يا ويحه ... كانه ليس من الخلق "

وقال وهو آخر أنداء الديم

" العز عاقبة التقى ... والذل عاقبة الرياسة "

" فإذا اتقيت علوت في ... أهل المجادة والنفاسة "

" وإذا رأست نزلت في ... طرق التخلق والسياسة "

" فلتختر التقوى ولا ... ترأس فتخطيك الكياسة "

وكان تاريخ فراغه من كتاب أنداء الديم نصف شعبان عام واحد وثلاثين وسبعمائة
ولنذكر بعض أناشيده التي كان ينشدها أهل مجلسه ببلد قصة المرية أعادها
الله تعالى فما أنشده رحمه الله تعالى لأبي العباس أحمد بن العريف صاحب محاسن المجالس

" من لم يشاور عالما بأصوله ... فيقينه في المشكلات ظنون "

" من أنكر الأشياء دون تيقن ... وتثبت فمعاند مفتون "

" الكل تذكّر لمن هو عالم ... وصوابها بمجالها معجون "

" والفكر غواص عليها مخرج ... والحق فيها لؤلؤ مكنون "

وأنشده رحمه الله تعالى من وجادة

" أعوذ بالله من أناس ... تشيخوا قبل أن يشيخوا "

" احذروبا وانحنوا رياء ... فاحذرهم إنهم فخوخ "

وأنشده لنفسه رحمه الله تعالى

" أقلل العشرة تغبط ... وإن من أكثر ينحط "

" وعليك الصدق واحذر ... أن ترى في القول تشتت "

" والزم الصمت إذا ما ... خفت أن تلحى فتغلط "

" فعلى الفاضل يلقى ... كل مفضول مسلط "

وأنشده لنفسه أيضا

" جنة العالم لا أدري ... إذا ما احتاج جنة "

" فإذا ما ترك الجنة ... بانت فيه جنة "

" فالزم الجنة تسلم ... إنما الجنة جنة "

وأنشده للحلاج رحمه الله تعالى

" يا بدر يا شمس يا نهار ... أنت لنا جنة ونار "

" تجنب الإثم فيك واثم ... وخشية العار فيك عار "

" يخلع فيك العذار قوم ... فكيف من لا له عذار "

وأنشده مما ينسب للحلاج أيضا

" سقمي في الحب عافيتي ... ووجودي في الهوى عدمي "

" وعذاب ترتضون به ... في فمي أحلى من النعم "

" ما لضر في محبتكم ... عندنا والله من ألم "

وأنشده لسيد أبي العباس ابن العريف في محاسن المجالس وهي أحسن ما قيل في طول الليل

" لست أدري أطال ليلى أم لا ... كيف يدري بذاك من يتقلّى "

" لو تفرغت لاستطالة ليلى ... ولرعي النجوم كنت مخلّا "

" إن للعاشقين عن قصر الليل ... وعن طوله من الفكر شغلا "

وأنشد رحمه الله تعالى مما أنشده بعض الوعاظ الغبراء
 "عانقت لام صدغها صاد لثمي ... فأرتها المرأة في الخد لصا "
 "فاسترايت لما رأت ثم قالت ... أكتابا أرى ولم أر شخصا "
 "قلت بالكشط ينمحي قالت اكشط ... بالثنايا وتابع الكشط مصا "
 "ثم لما ذهبت أكشط قالت ... كان لصا فصار والله فضا "
 "قلت إن الفصوص تطيع باللثم ... على خد كل من كان رخصا "
 وأنشد لابن خفاجة
 "وأغر كاد لطافة وطلاقة ... ينساب ماء بيننا مسكوبا "
 "قد قام في سطر الندامى فاستوي ... فحسبه ألفا به مكتوبا "
 "وأكب يشربها وتشرب ذهنه ... فرأيت منه شاربا مشروبا "
 "مشمولة بينا ترى في فكه ... ماء ترى في خده ألهويا "
 وأنشد لابن عبد ربه صاحب العقد مما نسبه له الفتح في مطمح الأنفس ومسرح التأنس
 "يا لؤلؤ يسبي العقول أنيقا ... ورشا بتقطيع القلوب رقيقا "
 "ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... درا يعود من الحياء عقيقا "
 "وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ... ألفيت وجهك في سناه عريقا "
 "يا من تقطع خصره من رقة ... ما بال قلبك لا يكون رقيقا "
 وأنشد لابن عبد ربه أيضا
 "ودعتني بزفرة واعتناق ... ثم قالت متى يكون التلاقي "
 "وتصدت فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق "
 "يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق "
 "إن يوم الفراق أفضع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق "
 وأنشد له أيضا
 "هيج البين دواعي سقمي ... وكسا جسمي ثوب الألم "
 "أبها البين أقلني مرة ... فإذا عدت فقد حل دمي "
 "يا خلي الذرع نم في غبطة ... إن من فارقت لم ينم "
 "ولقد هاج لقلبي سقما ... حب من لو شاء داوى سقمي "
 وأنشد للمصحفي
 "صفراء تطرق في الزجاج فإن سرت ... في الجسم دبت مثل صل لاذع "
 "عبث الزمان بجسمها فتسترت ... عن عينه برداء نور سايع "
 "خفيت على شرابها فكأنما ... يجدون ربا في إناء فارغ "
 وأنشد لابن شهيد
 "هب من رقدته منكسرا ... مسبل للكمر مرخ للردا "
 "يمسح النعسة عن عيني رشا ... صائد في كل يوم أسدا "
 "شربت أعطافه خمر الصبا ... وسقاه الحسن حتى عريدا "
 "رشا بل عادة ممكورة ... عممت صبحا بليل أسودا "
 "أححت من عضتي في نهدها ... ثم عضت حر وجهي عمدا "
 "فأنا المجروح من عضتها ... لا شفاني الله منها أبدا "
 وأنشد لصفوان بن إدريس
 "حمى الهوى قلبه وأوقد ... فهو على أن يموت أو قد "
 "وقال عنه العذول سال ... قلده الله ما تقلد "
 "وباللوى شاذن عليه ... جيد غزال ولحظ فرقد "
 "علله ريقه بخمر ... حتى انتشى طرفه فعريد "
 "لا تعجبوا لانهم طرفي ... فجيحش أجفانه مؤيد "
 "أنا له كالذي تمنى ... عبد نعم عبده وأزيد "
 "إن بسملت عينه لقتلي ... صلى فؤادي على محمد "
 وأنشد لأبي علي إدريس بن اليماني
 "علقته شادنا صغيرا ... وكنت لا أعشق الصغارا "
 "يسفر عن مستنير وجهه ... صير جنح الدجى نهارا "

" لم أر من قبل ذاك ماء ... أضرم فيه الحياء نارا "
وأُنشد للرمادي أو لابن برد القرطبي
" لما بدا في لازور ... دي الحرير وقد بهر "
" كبرت من فرط الجمال ... وقلت ما هذا بشر "
" فأجابني لا تنكروا ... ثوب السماء على القمر "
وأُنشده من وجادة
" يا ذا الذي عذب محبوبه ... أنخت عيس العز مغنى الهوان "
" لم ينبت الشعر على خده ... بل دب في أصدغه عقربان "
" رفقا على نفسك لا تفننها ... فجوهر الأنفس در يسان "
وأُنشد من حديقة ابن يربوع
" غزا القلوب غزال ... حجت إليه العيون "
" خطت بخديه نون ... وآخر الحسن نون "
وأُنشد من وجادة
" أودع فؤادي حرقا أو دع ... ذاتك تؤذي أنت في أضلعي "
" وارم سهام اللحظ أو كفها ... أنت بما ترمي مصاب معي "
" موقعها قلبي وأنت الذي ... مسكنه في ذلك الموضع "
وأُنشد من حديقة ابن يربوع
" يخط الشوق شخصك في ضميري ... على بعد التزاور خط زور "
" وتدنيك الأمانى من فؤادي ... دنو البرق من لمح البصير "
" فلا تذهب فإنك نور عيني ... إذا ما غبت لم تطرف بنور "
وأُنشد للوزير المصحفي
" لعينيك في قلبي علي عيون ... وبين ضلوعي للشجون فنون "
" لئن كنت صبا مخلقا في يد الهوى ... فحبك غض في الفؤاد مصون "
" نصيبي من الدنيا هواك وإنه ... عذابي ولكني عليه ضنين "
وأُنشد لصالح بن شريف
" أيها العاذل بالله اتد ... لك قلب في ضلوعي أو كبد "
" هي أجفاني فذرها تنهمي ... هي أحشائي فدعها تتقد "
" لا تظن الحب شيئا هينا ... ليس في الحب قياس يطرد "
" أنت خلو وأنا صب شج ... فإذا حدثت عني قل وزد "
" فاترك اليوم ملامي إنه ... يترك الشيء إذا ما لم يفد "
" أنا أسلو عن حبيبي ساعة ... يا عدولي قل هو الله أحد "
وأُنشد له أيضا
" وافى وقد زانه جماله ... فيه لعشاقه اعتذار "
" ثلاثة ما لها شبيه ... الوجه والخد والعدار "
" فمن رآه رأى رياضاً ... الورد والآس والبهار "
وأُنشد من حديقة ابن يربوع
" عليك بإكرام وبر لسته ... من الناس واحذر شرهم وتوقه "
" طيب وحجام وشيخ وشاعر ... وصاحب ديوان ومن يتفقه "
وأُنشد لبعض الصوفية
" ما ترى عند أحمق ... في أمور توسط "
" بل تراه في أمره ... مفرطاً أو مفرطاً "
وأُنشد لبعض الأدباء
" الصبر أولى بوقار الفتى ... من قلق يهتك ستر الوقار "
" من لازم الصبر على حالة ... كان على أيامه بالخيار "
ولنقتصر من ترجمة ابن ليون على هذا القدر فقد حصلت الإطالة بل ونكتفي من مشايخ لسان
الدين بمن ذكرنا ولنورد ما في الإحاطة في ترجمة مشيخته وإن تكرر مع ما تقدم ونصه
ثبت عام بشيوخ لسان الدين
المشيخة قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيح وحده في تحمل المنزل حق حملة تقوى

وصلاحا وخصوصية وإتقانا ونغمة وعناية وحفظا وتبحرا في هذا الفن وإطلاعا لغرائبه واستيعابا لسقطات الأعلام الأستاذ الصالح أبي عبد الله ابن عبد الولي العواد تكتيبا ثم حفظا ثم تجويدا إلى مقررات أبي عمرو رحمة الله عليهما ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ومطية الفنون ومفيد الطلبة الشيخ الخطيب

المتفنن أبي الحسن علي القيجاطي فقرأت عليه القرآن والعربية وهو أول من انتفعت به وقرأت على الخطيب الحسيب الصدر أبي القاسم ابن جزى رحمه الله تعالى ولازمت قراءة العربية والفقهاء والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله ابن الفخار البيري الإمام المجمع على إمامته في فن العربية المفتوح عليه من الله فيها حفظا وإطلاعا ونقلا وتوجيها بما لا مطمع فيه لسواه وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله وتأديت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى الصالح الفاضل أبي الحسن ابن الجياب ورويت عن الكثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية كالمحدث أبي عبد الله ابن جابر وأخيه أبي جعفر والقاضي الشهير الشيخ بقية السلف شيخنا أبي البركات ابن الحاج والشيخ المحدث الصالح أبي محمد ابن سلمون وأخيه القاضي أبي القاسم ابن سلمون وأبي عمرو ابن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير وله رواية عالية والأستاذ اللغوي أبي عبد الله ابن بيش والمحدث الكاتب أبي الحسن التلمساني المسن والحاج أبي القاسم ابن المهني المالقي والعدل أبي محمد السعدي يحمل عن الإمام ابن دقيق العيد والقائد الكاتب ابن ذي الوزارتين أبي بكر ابن الحكيم والقاضي المحدث الأديب جملة الظرف أبي بكر ابن شبرين والشيخ أبي عبد الله ابن عبد الملك والخطيب أبي جعفر الطنجالي والقاضي أبي بكر ابن منظور والرواية أبي عبد الله ابن حزب الله كلهم من مالقة والقاضي أبي عبد الله المقرئ التلمساني والشريف أبي علي حسن بن يوسف والخطيب الرئيس أبي عبد الله ابن مرزوق كلهم من تلمسان والمحدث الفاضل الحسيب أبي العباس ابن يربوع والرئيس أبي محمد الحضرمي

السبتيين والشيخ المقرئ أبي محمد ابن أيوب المالقي آخر الرواة عن ابن أبي الأحوص وأبي عثمان ابن ليون من أهل المرية والقاضي أبي الحجاج المنتشاقري من أهل رندة وطائفة كبيرة من المعاصرين تحملا وتديجا ومن أهل العدو الغربية والمشرق وإفريقية الكثير بالإجازة وأخذت الطب والتعاليم والمنطق وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا ابن هذيل ولازمته هذا على سبيل الإلماع ولو تفرغت لذكر أفذاذهم لخرج هذا التأليف عما وضع له انتهى كلامه في الإحاطة وقد ذكرت في هذا الباب زيادة في بعض التراجم على ما في الإحاطة على ما اقتضاه الحال إذ ذلك لا يخلو من فائدة زائدة وحكمة بالخير عائدة ولو لم يكن في هذا الكتاب غير هذا الباب لكان كافيا لاشتماله على تصوف وحكم وكرامات وآداب ووصايا وإنشادات وغيرها مما يغني عن خبره العيان ويشتاق إلى الوقوف عليه ذوو الملكة في البيان ولو لم يشتمل إلا على المدائح النبوية التي فيه لتمت محاسنه والله سبحانه وتعالى ينفع به بجاه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه انتهى المجلد الخامس

الباب الرابع

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه واجتلائهم أنوار رياسته الجليلة وكتبهم بعض المؤلفات باسمه ووقوفهم عند إشارته ورسمه وما يضاها ذلك في حظه وقسمه وسعيهم بين يديه اعلم سلك الله بى وبك الطريق الأقوم الأقوى وحلى صدور جميعنا بزينة التقوى أن لسان الدين ذكر في كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرها مما خاطبه به الملوك وغيرهم من تبجيل وتنويه ولنذكر بعض ذلك من كتبه ومن غيرها تنميما للمقصود وتبليغا لنفوس الناظرين في هذه العجالة ما تؤمله وتنويه

ظهير من أبي زيان المريني للسان الدين - 1

فمن ذلك ما ذكره في الإحاطة من إكرام السلطان أبي زيان المريني ابن الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن له وسرد ما كتب له به من قوله هذا ظهير الى قوله أيده الله ونصره وسنى له الفتح المبين ويسره

وبعده ما صورته للشيخ الفقيه الأجل الأسنى والأعز الأخطى الأرفع الأمجد الأسمى الأوحد الأنوه الأرقى العالم العلم الرئيس الأعراف المتفنن الأبرع المصنف المفيد الصدر الأحفل الأفضل الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأمجد الوجيه الأنوه الأحفل

الأفضل الحسيب الأصيل الأكمل المبرور المرحوم أبى محمد ابن الخطيب قابله أيده الله بوجه القبول والإقبال وأضفى عليه ملايس الإنعام والإفضال ورعى له خدمة السلف الرفيع الجلال وما تقرر من مقاصده الحسنة فى خدمة أمرنا العال وأمر فى جملة ما سوغه من الآلاء الوارفة الطلال الفسيحة المجال بأن يحدد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية فى كل شهر عن مرتب له ولولده الذى لنظره من مجبى مدينة سلا حرسها الله فى كل شهر ومن حيث جرت العادة أن يتمشى له ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك فلا يطلب فى شىء من ذلك بمغرم ولا وظيف ولا يتوجه فيه إليه بتكليف يتصل له حكم جميع ما ذكر فى كل عام تجديدا تاما واحتراما عاما أعلن بتجديد الحظوة واتصالها وإتمام النعمة وإكمالها من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ومن الآن الى ما يأتى على الدوام واتصال الأيام وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعى والمحاشاة فى السخر مهما عرضت والوظائف إذا افترضت حتى يتصل له تالد العناية بالطارف وتتضاعف أسباب المنن والعوارف بفضل الله وتحرر له الأزواج التى يحرثها بتالمغت من كل وجيبة وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة بالتحرير التام بحول الله وعونه ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه وليمض ما أمضاه إن شاء الله وكتب فى العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة وكتب فى التاريخ انتهى

وقوله وكتب فى التاريخ هو العلامة السلطانية فى ذلك الزمان يكتب بقلم غليط وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة صح فى التاريخ

ترجمة أبى زيان المرينى

وقد عرف لسان الدين فى الإحاطة بهذا السلطان بما نصه محمد بن يعقوب أبى عبد الرحمن بن على أمير المسلمين بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين بالمغرب إلى هذا العهد يكنى أبى زيان وصل الله نصره على عدو الدين وارشده الى سنن الخلفاء المهتدين

حاله فاضل سكون منقاد مشغل بخاسة نفسه قليل الكلام حسن الشكل درب بركض الخيل مفوض للوزراء عظيم التأتى لأعراضهم ووكل الأمور لمن استكفاه منهم استقدم من أرض النصارى بالأندلس وقد فر

إليهم خوفا على نفسه فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتطاط فكان وصوله إلى مدينة الملك بفاس يوم الاثنين الثانى والعشرين لصفر عام ثلاثة وستين وسبعمائة ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشترى من الكواكب السيارة وقد كان الوزير قيم الأمر والمثل فى الكفاية والاضطلاع بالعظيمة عمر بن عبد الله بن على اليابانى لما ثار بعمة السلطان أبى سالم رحمه الله تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبى عمر استدعى هذا المترجم به وقد نازله الأمير عبد الحليم ابن عمهم وتوجه عنه رسوله أثناء الحصار لما رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه فتلطف فيه إلى طاغية النصارى واستعان بالسلطان أبى عبد الله ابن نصر وقد جمعتهما إيالته فتم له اللحاق بالمغرب وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سجماسة فتملكها وتم الأمر للأمير أبى زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعا له فى خدمته أعانه الله تعالى وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه ووفدت عليه من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولى

" لمن علم فى هضبة الملك خفاق ... أفاقته به من غشية الهرج آفاق "

" تقل رياح النصر منه غمامة ... تمد لها أيد وتخضع أعناق "

" وبيعة شورى أحكم السعد عقدها ... وأعمل إجماع عليها وإصفاق "

" قضى عمر فيها بحق محمد ... فسجل عهد للوفاء وميثاق "

" أحلما ترى عيناي أم هي فترة ... أعندكما فى مشكل الأمر مصداق "

" وفاض لفضل الله فى الأرض تبتغى ... ومجتمعات لا تريب وأسواق "

" وسرح تهنيه الكلاءة بالكلا ... وفلح لسقى الغيث قام له ساق "

" وقد كان طيف الحلم لا يعمل الخطا ... وللغيتة العمياء فى الأرض إطباق "

" وللغيت إمساك وفى الأرض رجة ... وللدين والدنيا وجوم وإطراق "

" فكل فريق فيه للبعى راية ... وكل طريق فيه للغيث طراق "

" أجل إنه من آل يعقوب وارث ... يحن له البيت العتيق ويشتاق "

" له من جناح الروح ظل مسجف ... ومن رفر العز الإلهى رستاق "

" أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها ... دحى وعلى الأحداق للذعر إحداق "

" فأشرقت الأرجاء من نور ربها ... وساح بها لله لطف وإشفاق "

" فمن السنن لله بالشكر أعلنت ... وكان لها من قبل همس وإطباق "

" وليس لأمر أبرم الله ناقض ... وليس لمسعى أنجح الله إخفاق "

" محمد قد أحييت دين محمد ... وللخلق أذماء تفيض وأرماق "

" ولو لم تثب غطى على شفق الضحى ... دم لسيوف البغى فى الأرض مهراق "

" فأيمن بمشحون من الفلك سابح ... له باختيار الله حط وإيساق "

" اقلك والدأماء تظهر طاعة ... إليك وصفح الماء أزرق رقراق "

" إلى هدف السعد أنبرى منه والدجى ... يضل الحجى سهم من السعد رشاق "

" فخطت لتقويم القوام جداول ... وصحت من التوفيق واليمن أوفاق "

" تبارك من أهداك للخلق رحمة ... ومستبعد أن يهمل الخلق خلاق "

" هو الله يبلو الناس بالخير فتنة ... وبالشكر والأيام سم وترياق "

" سمت منك أعناق الورى لخليفة ... له فى مجال السعد وخذ وإعناق "

" وقالوا بنان ما استقل بكفه ... تفيض على العافين أم هى أرزاق "

" وأظنب فيك المادحون وأغرقوا ... فلم يجد إطناب ولم يغن إغراق "

" ألسنت من القوم الذين أكفهم ... غمام ندى ان أخلف الغيث غيداق "

" ألسنت من القوم الذين وجوههم ... بدور لها فى ظلمة الروع إشراق "

" رياض إذا العافى استظل ظلالها ... ففيها جنى ملء الأكف وإيراق "

" أبوك ولى العهد لو سالم الردى ... وجدك قد فاق الملوك وإن فاقوا "

" فمن ذا له جد كجدك أو أب ... لآلىء والمجد المؤئل نساق "

" وحسب العلا فى آل يعقوب أنهم ... هم الأصل فى العلياء والناس ألقاق "

" أسود سروح أو بدور أسرة ... فان حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا "

" يطول لتحصيل الكمال سهادهم ... فهم للمعالى والمكارم عشاق "

ومنها

" لئن نسيت إحسان جدك فرقة ... تزر على أعناقهم منه أطواق "

" أجازت خروج ابن أبنه عن ترائه ... ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق "

" ومن دون ما راموه لله قدرة ... ومن دون ما أموه للفتح أغلاق "

" خذ العفو وابدل فيهم العرف ولتسع ... جريرة من أبدي لك الغدر أخلاق "

" فربتما تنبو مهندة الطيبى ... وتهفو حلوم القوم والقوم حذاق "

" وما الناس إلا مذنب وابن مذنب ... ولله إرفاد عليهم وإرفاق "

" ولا ترج فى كل الأمور سوى الذى ... خزائنه ما ضرها قط إنفاق "

" إذا هو أعطى لم يضر منع مانع ... وإن حشدت طسم وعاد وعملاق "

" عرفت الردى واستأثرت بك للعدا ... تخوم بمختط الصليب وأعماق "

" فيسر لليسرى وأحيا بك الورى ... وللروع إرعاد عليك وإبراق "

" فجاز صنيع الله وازدد بشكره ... مواهب جود غيئها الدهر دفاق "

" وأوف لمن أوفى وكاف الذى كفى ... فأنت كريم طهرت منك أعراق "

" وتهنيك يا مولى الملوك خلافة ... شجتها تباريح اليك وأشواق "

" فقد بلغت اقصى المنى بك نفسها ... وكم فاز بالوصل المهنيا مشتاق "

" فلا راع منها السرب للدهر رائع ... ولا نال منها جدة السعد إخلاق "

" أمولاي راع الدهر سربى وغالنى ... فطرفى مذعور وقلبى خفاق "

" وليس لكسرى غيرك اليوم جابر ... ولا ليدي إلا بمجدك أعلاق "

" ولى فيك ود واعتداد غرسته ... فراقته به من يانع الحمد أوراق "

" وقد عيل صبرى فى ارتقابى خليفة ... تحل به للضر عنى أوهاق "

" وأنت حسام الله والله ناصر ... وأنت أمين الله والله بزاق "

" وأنت الأمان المستجار من الردى ... إذا راع خطب أو توقع إملاق "

" وأهون ما ترجى لديك شفاعة ... إذا لم يكن عزم حثيث وإرهاق "

" ودونكها من ذائع الحمد مخلص ... له فيك تقييد يروق وإطلاق "

" إذا قال أما كل سمع لقوله ... فمصغ وأما كل أنف فنشاق "

" ودم خافق الأعلام بالنصر كلما ... ذهبت لمسعى لم يكن فيه إخفاق "

وعدت منه ببر كثير واحترام شهير
دخوله غرناطة لحق بها مفلتا عند القبض على قرابته وبنى عمه وتقريبهم إلى مصارعهم فكان
وصوله فى رمضان من عام خمسين وسبعمئة ثم رابه رائب لحق لأجله بصاحب قشتالة وأقام فى
جملته إلى حين استدعائه المتقرر أنفا وهو لهذا العهد أمير المسلمين بالمغرب أعانه الله تعالى
على الخير وأطلق به يده وألهمه لما يرضى منه بفضله وكرمه انتهت الترجمة
ورأيت على هامش هذا المحل من الإحاطة يخط الخطيب الشهير الإمام
أبى عبد الله ابن مرزوق التلمساني رحمه الله ما صورته توفى يعنى السلطان أبا زيان مغتالا عام
ستة وستين على يد مظاهرة الخائن عمر بن عبد الله ابن على الوزير رداه فى بئر وأشاع انه أفرط
فى السكر وألقى نفسه فى البئر المعروفة برياض الغزلان ويبيع لعمه عبد العزيز ابن السلطان أبى
الحسن فسلطه الله عليه وأخذ حقوق الخلائق على يديه فقتله غيلة بعد أن كان تغلب عليه
فأعمل الحيلة فى قتله واستمر ملك عبد العزيز ظاهرا ظافرا قد جمع بين المغرب إلى أقصاه وبين
ملك تلمسان وقد شرد أهلها كل مشرد فعندما أقبلت الدنيا عليه واستقام ملكه وكاد يلحق ملك
أبيه أو يزيد مات رحمه الله تعالى قيل مطعونا وقيل غير ذلك وذلك فى حدود أربع وسبعين وولى
ولده ثم عزل باين عمه أبى العباس ابن السلطان أبى سالم وحاز ملك المغرب إلى حين كتب هذا
سنة سبع وسبعين وسبعمئة انتهى ما ألفيته بخط سيدي أبى عبد الله ابن مرزوق
ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبى الحسن على ما صورته رحمه الله عليك يا عمر بن عبد الله
بن على فلقد كنت غسلت ملك المغرب من درن كبير وقمت على ملك لهو وضعف شهير وشهرت
سيف الحق على الزواكرة الخرق فابتهج منبر الدين انتهى
ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق فى ذمه للوزير عمر وقوله الزواكرة لفظ يستعمله المغاربة
ومعناه عندهم المتلبس الذى يظهر النسك والعبادة ويبطن الفسق والفساد وعند الله تجتمع
الخصوم

2 - رسالة من أبى سالم الى لسان الدين

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول

ومما خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى من قبل سلطان المغرب المستعين بالله أبى سالم
إبراهيم ابن السلطان أبى الحسن المرينى ما صورته بعد البسملة والصلاة
من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ابن مولانا
أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد
فى سبيل رب العالمين أبى يوسف يعقوب ابن عبد الحق أيد الله أمره وأعز نصره إلى الشيخ الفقيه
الأجل الأسنى الأعز الأخطى الأوجه الأنوه الصدر الأجل المصنف البليغ الأعراف الأكمل أبى عبد الله
ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبى محمد ابن
الخطيب وصل الله عزته ووالى رفعتة سلام عليكم ورحمة الله وبركاته
أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى
والرضى عن آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى وصلوة الدعاء لهذا الأمر العلى العزيز
المنصور المستعيني بالنصر الأعز والفتح الأسنى فإننا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل
ونجح القول والعمل من منزلنا الأسعد بصفة وأدى ملوية يمنه الله وصنع الله جميل ومنه جزيل
والحمد لله ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل والعناية المتكفلة برعى الوسائل ذلكم لما تميزتم
به من التمسك بالجناب العلى المولى العلوى جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه وسقاه غيوث
رحمته وحنانه

وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا بخدمة تراه الطاهر والاشتمال بمطارف حرمة السامية المظاهر
والى هذا وصل الله حظوتكم ووالى رفعتكم فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده المقابل
بالإسعاف المستعذب ورده فوقفنا على ما نصه واستوفينا ما شرحه وقصه فأثرنا حسن تطفكم
فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا وفى الحين عينا
لكمال مطلبيكم وتمام ماريكم والتوجه بخطابنا فى حقكم والاعتماد بوقفكم خديمينا أبا البقاء ابن
تاسكورت وأبا زكريا ابن فرجاجة أنجدهما الله وتولاهما وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض
المعلوم بعد التأكيد عليهما فيه وشرح العمل الذى يوفيه فكونوا على علم من ذلكم وابسطوا له
جملة أمالكم وإنا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم وبرء اعتلاككم والله سبحانه وتعالى يصل مبرتمكم
ويتولى تكرمتم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتب فى الرابع والعشرين لرجب عام

واحد وستين وسبعمائة

جواب لسان الدين - 3

فراجعه ابن الخطيب بما نصه مولاي خليفة الله بحق وكبير ملوك الأرض عن حجة ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة أبقاكم الله تعالى عالي الدرجة فى المنعمين وافر الحظ عند جزاء المحسنين وأراكم ثمرة بر أبيكم فى البنين وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد وأذاق العذاب الأليم من أراد فى مثابتم بالحداد عبدكم الذى ملكتم رقه وأويتم غربته وسترتم أهله وولده وأسنيتم رزقه وجبرتم قلبه يقبل موطىء الأخمص الكريم من رحلكم الطاهرة المستوحبة بفضل الله تعالى لموقف النصر الفارعة هضبة العز المعملة الخطو فى مجال السعد وميسر الحظ ابن الخطيب من شاله التى تأكد بملككم الرضى احترامها وتجدد برعيكم عهدا واستبشر بملككم دفينها وأشرق بحسناتكم نورها

وقد ورد على العبد الجواب المولوي البر الرحيم المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعساء من رعى الدخيل والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الأب الكريم فتاب الرجاء وانبعث الأمل وقوى العصد وزار اللطف فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة وأعانكم على رعى ذمام الصالحين المتوسل اليكم أولا بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجداثهم ثم يقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذى تسبب فى وجودكم واختصكم بحبه وغمركم بلطفه وحنانه وعلمكم آداب الشريعة وأورثكم ملك الدنيا وهياتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء وفى علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النعرة عن طائر داست أفراخه ناقة فى جوار رئيس منهم وما انتهى إليه الامتعاض لذلك مما أهنت فيه الأنفس وهلكت الأموال وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا إلى رحماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها وصدقة حملتكم الحرية

على بذلها ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب واهى الفزعة يتغطى بردائه ويستجير بعليائه كأننى تراميت عليهم فى الحياة أمام الذعر الذى يذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة يا ليعقوب يا لمرين نسأل الله تعالى ان لا يقطع عنى معروفكم ولا يسلبنى عنايتكم ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ويتقبل دعائى فيكم

ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعت يازاته وقلت يا مولاي يا كبير الملوك وخليفة الله وبركة بنى مريين صاحب الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب عبدك المنقطع اليك المترامى بين يدي قبرك المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ابن الخطيب وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعى وجهك والتقرب إلى الله تعالى برعيك والاشتهار فى مشرق الدنيا وغربها ببرك وأنتم من أنتم من إذا صنع صنعة كملها وإذا من منة تتمها وإذا أبدى يدا أبرزها طاهرة بيبضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتفضة وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك حتى يتم أملى ويخلص قصدي وتحف نعمتك بى ويطمئن إلى مأمك قلبى

ثم قلت للطلبة أيتها السادة بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة

التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم فأمنوا على دعائى بإخلاص من قلوبكم

واندفعت فى الدعاء والتوسل الذى نرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه وخاطب العبد مولاه شاكرا

لنعمته مشيدا بصنيعته مسرورا بقبوله وشأنه من التعلق والتطرح شأنه حتى يكمل القصد ويتم

الغرض معمور الوقت بخدمة يرفعها ودعاء يردده والله المستعان

4 - رسالة من لسان الدين الى أبى سالم

وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور وكان ما سبق من كتاب السلطان جوابا له

وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراكش واستقراره فى مدينة سلا برباط شالة مدفن السلاطين

من بنى مريين ومنهم السلطان ابو الحسن والد السلطان أبى سالم المذكور ونص الكتاب

مولاي المرجو لإتمام الصنعة وصله النعمة وإحراز الفخر أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الأمثال فى

البر والرضى وعلو الهمة ورعى الوسيلة مقبل موطىء قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم

ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء فى القبة المقدسة وتذمم بالنزبة

الزكية وقعد بإزاء لجد المولى أبيكم ساعة إياه من الوجوه المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب

المعظمة وقد عزم أن لا يبرح طوعا من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم

ما يناسب هذا التطرح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم والتماس شفاعته

فى أمر سهل عليكم لا يجر إنفاد مال ولا افتحام خطر إنما هو إعمال لسان وخط بنان وصرف عزم وإحراز فخر وأجر وإطابة ذكر وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب وقال لى صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب يعنى ابن مرزوق سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم أنت يا فلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الغرضين وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين

وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم والعبد الآن يعرض عليكم الجواب وهو أنى لما فرغت من مخاطبة بمرأى من الملا الكبير والجم الغفير أكبت على اللحد الكريم داعيا ومخاطبا وأصغيت بأذنى عند قبره وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله فكأنى به يقول لى قل لمولاك يا ولدي وقرة عيني المخصوص برضاي وبري ومن ستر حريمى ورد ملكى وصان أهلى وأكرم صنائعي ووصل عملى أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك الدنيا دار غرور والآخرة خير لمن اتقى

"... وما الناس إلا هالك وابن هالك"

ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فنذكر وعرف فما أنكر وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري وتهمم بي وسبق الناس إلى رثائى وأنشدنى ومجدنى وبكاني ودعا لي وهنأني بمصير أمري اليك وعفر وجهه فى تربى وأملنى لما انقطعت منى آمال الناس فلو كنت يا ولدى حيا لما وسعنى أن اعمل معه إلا ما يليق لى وأن أستقل فيه الكثير وأحتقر العظيم لكن لما عجزت عن جزائه واكلته اليك وأحلتها يا حبيب قلبى عليك وقد أخبرنى أنه سلب المال كثير العيال ضعيف الجسم قد ظهر فى عدم نشاطه أثر السن وأمل أن ينقطع بجواري ويستتر بدخيلي وخدمتى ويرد عليه حقه بخدمتى ووجهى ووجه من ضاجعنى من سلفي ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتى وقد كنت تشوفت إلى استخدامه فى الحياة حسبما يعلمه حبيبا الخالص المحبة وخطيبنا العظيم المزية القديم القرية أبو عبد الله ابن مرزوق فأسأله يذكرك

واستخبره يخبرك فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات إلى أن نلحق جميعا برضوان الله تعالى ورحمته التى وسعت كل شىء وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك وينوب عنه فى ملازمة بيت كتابك وقد استقر بدارك قراره وتعين بأمرك مرتبة ودشاره فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب هذه رغبتى منك وحاجتى اليك واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يذكر ويتحدث به فى الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار فاعمل ما يبقى لك فخره ويتخلد ذكره وقد أقام مجاورا ضريحي تاليا كتاب الله تعالى على منتظرا ما يصله منك ويقرؤه على من السعى فى خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة فالله الله يا إبراهيم اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه ولسان الحال أبلغ من لسان المقال انتهى والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفة منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتحققوا أنى لو ارتكبت الجرائم ورزأت الأموال وسفكت الدماء وأخذت حسائف الملوك الأعزة ممن وراء النهر من الططر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى منى من غير عهد بعد أن بلغهم تدممي بهذا الدخيل ومقامى بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحدا منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التى لا يغفلها الكبار للكبار إلا الجود الذى لا يتعقبه البخل والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة فضلا عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى بموالاتكم فهو فاضل وابن ملوك أفاضل وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم لا سيما مولاي والدكم الذى أتوسل به اليكم وإليهم فقد كان يتبنى مولاي أبا الحجاج ويشمله بكنفه وصارخه بنفسه وأمده بأمواله

ثم صير الله تعالى ملكه إليكم وأنتم من أنتم ذاتا وقبيلا فقد قرت يا مولاي عين العبد بما رأت فى هذا الوطن المراكشى من وفور حشودكم وكثرة جنودكم وترادف أموالكم وعددكم زادكم الله تعالى من فضله ولا شك عند عاقل أنكم انحلثت عروة تأميلكم وأعرضتم عن ذلك الوطن استولت عليه يد عدوه

وقد علم تطارحى بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان وتلقى بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم وشهرة حرمة شالة معروفة حاش لله أن يضيعها أهل الأندلس وما

توسل إليهم قط بها إلا الآن وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغربية وأملى منكم أن يتعين من بين
يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة فى رد ما أخذ لى ويخبر بمثواي متراميا على قبر والدكم
ويقرر ما أزمكم بسبب هذا الترامى من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم
حيث كانوا وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائل
من صلب ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن فالحياء والحشمة
يأبيان العذر عن هذا فى كل ملة ونحلة

وإذا تم هذا الغرض ولا شك فى إنمامه بالله تعالى تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني
لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المولد فى جواره وبين
يديه وهو غريب مناسب لبركم به إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم وأعود داعيا مثنيا مستدعيا
للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب وأعوض من ذمتى بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها
ذريتى وقد ساومت فى شىء من ذلك منتظرا ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ولو ظننت أنهم
يتوقفون لكم فى مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته لكنهم أسرى وأفضل
وانقطاعى أيضا لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه وها أنا أرتقب جوابكم بما لى
عندكم

من القبول ويسعنى مجدكم فى الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض والله سبحانه يطلع من
مولاي على ما يليق به والسلام

وكتب فى الحادي عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمئة
وفى مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة

" مولاي ها أنا فى جوار أبيكا ... فابدل من البر المقدر فيكا "
" أسمع ما يرضيه من تحت الثرى ... والله يسمعك الذى يرضيك "
" واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة ... تهدي اليك النصر أو تهديكا "
" واجبر بجبرى قلبه نمل المنى ... وتطالع الفتح المبين وشيكا "
" فهو الذى سن البرور بأمه ... وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا "
" وابعث رسولك منذرا ومحذرا ... وبما تؤمل نبلة يأتيك "
" قد هز عزمك كل قطر نازح ... وأخاف مملوكا به ومليكا "
" فإذا سموت إلي مرام شاسع ... فغصونه ثمر المنى تجنيكا "
" ضمنت رجال الله منك مطالبى ... لما جعلتك فى الثواب شريكا "
" فلئن كفيت وجوهها فى مقصدي ... ورعيتها بركاتها تكفيكا "
" وإذا قضيت حوائجى وأريتنى ... أملا فريك ما أردت بريكا "
" واشدد على قولى يدا فهو الذى ... برهانه لا يقبل التشكيكا "
" مولاي ما استأثرت عنك بمهجتى ... إنى ومهجتى التى تفديكا "
" لكن رأيت جناب شالة مغنما ... يضى على العز فى ناديك "
" وفروض حقل لا تفوت فوقتها ... باق إذا استجزيته يجزيكا "
" ووعدتنى وتكرّر الوعد الذى ... أبت المكارم أن يكون أفيكا "
" أضفى عليك الله ستر عناية ... من كل محذور الطريق يفيكا "
" ببقاتك الدنيا تحاط وأهلها ... فالله جل جلاله يبيقيكا "

فلما وصل الكتاب إلى السلطان أحابه بما مر أنفا
ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبى عبد الله محمد بن الحداد الوادي أشى نزيل تلمسان على
هامش قول ابن الخطيب فى هذه الرسالة ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم إلخ ما
صورته كذلك وقع آخر الأمر وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقى من بلاد الأندلس
للإسلام فى محرم عام سبعة وتسعين وثمانمئة فرحم الله تعالى ابن الخطيب العاقل اللبيب وغفر
له برحمته انتهى

ومما خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم فى الغرض المتقدم قوله
" عن باب والدك الرضى لا أبرح ... ياسو الزمان لأجل ذا أو يجرح "
" ضربت خيامى فى حماه فصبيتي ... تجني الجميم به وبهمي تسرح "
" حتى يراعى وجهه فى وجهتى ... بعناية تشفى الصدور وتشرح "
" أيسوغ عن مثواه سيرى خائبا ... ومناير الدنيا بذكرك تصدح "
" أنا فى حماه وأنت أبصر بالذى ... يرضيه منك فوزن عقلك أرحح "

" فى مثلها سيف الحمية ينتضى ... فى مثلها زند الحفيظة يقدح " وعسى الذى بدأ الجميل يعيده ... وعسى الذى سد المذاهب يفتح " ترجمة ابى سالم المرينى " وقد عرف فى الإحاطة بالسلطان أبى سالم فقال بعد كلام أملاك المسلمين وحماة الدين وأمراء المغرب الأقصى من بنى مرين غيوت المواهب وليوث العرب ومعمد الصريخ وسهام الكافرين حفظ الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلهم وزين بيدور الدنيا والدين هالتهم وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم أو من

أقاربهم فما عسى أن يطنب اللسان فى مدحهم وأين تقع العبارة وماذا يحصر الوصف إلى أن قال وفاته وفى ليلة العشرين من ذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمئة ثار عليه بدار الملك وبلد الإمارة المعروف بالبلد الجديد من مدينة فاس الخائن الغادر مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن علي نسمة السوء وجملة الشؤم والمثل البعيد فى الجراءة على الله تعالى وقد اهتبل غرة انتقاله الى القصر السلطانى بالبلد القديم متحولاً إليه حذرا من قاطع فلكى كان يحذر منه استعجله بضعف نفسه وأعانه على فرض صحة الحكم به وسد الباب فى وجهه ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه وأصبح حائراً بنفسه يروم ارتجاع أمر ذهب من يده وبطوف بالبلد يلتمس وجها إلى نجاح حيلة فأعياه ذلك ورشقت من معه السهام وفرت عنه الأجناد والوجوه وأسلمه الدهر وتبرأ منه الجد وعندما جن عليه الليل فر لوجهه وقد التف عليه الوزراء فسففت حلومهم وفالت آراؤهم ولو قصدوا به بعض الجبال المنيعة لولوا أوجهم شطر مظنه الخلاص واتصفوا بإبلاغ الأعدار ولكنهم نكلوا عنه ورجعوا أدراجهم وتسللوا راجعين إلى يد غادر الجملة قد سلهم الله سبحانه لباس الحياء والرجولية وتأذن الله تعالى لهم بعد بسوء العاقبة

وقصد بعض بيوت البادية وقد فضحه نهار الغد واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه فسبق إلى مصرعه وقتل بظاهر البلد ثانى اليوم الذى غدر به فيه جعلها الله تعالى له شهادة ونفعه فلقد كان بقية البيت وآخر القوم دمانة وحياء وبعدا عن

الشرور وركونا للعافية وأنشدت على قبره الذى ووريت به جثته بالقلعة من ظاهر المدينة قصيدة أدبت فيها بعض حقه

" بني الدنيا بنى لمع السراب ... لدوا للموت وابنوا للخراب " انتهى المقصود من الترجمة

وكان يصف لسان الدين بمقربي وجليسي كما سبقت الإشارة إليه من كلام لسان الدين فيما خاطب به ابن أبى رمانة والله يسبل على الجميع رداء عفوه سبحانه وقد تقدم أنه شفع لابن الخطيب عند أهل الأندلس ولذلك قال يخاطبهم " سمي خليل الله أحببت مهجتي ... وعاجلني منك الصريخ على بعد "

فإن عشت أبلغ فيك نفسى عذرها ... وإن لم أعش فالله يجزيك من بعدي " ثناء المغاربة " والمشاركة على لسان الدين

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر فى حق ابن الخطيب ما صورته هو شاعر الدنيا وعلم المفرد والثنيا وكاتب الأرض إلى يوم العرض لا يدافع مدحه فى الكتب ولا يجنح فيه إلى العتب آخر من تقدم فى الماضى وسيف مقوله ليس بالكهام إذ هو الماضى وإلا فانظر كلام الكتاب الأول من العصبة كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصة للبراعة باليراعة وبه أسكت صائلهم وما

حمدت بكرهم وأصائلهم للجزالة المشربة بالحلاوة الممكنة من مفاصل الطلاوة وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين بالإطلاع على العلوم العقلية والإمتاع بالفهوم النقلية لكن صل لسانه فى الهجاء لسع ونجاد نطاقه فى ذلك اتسع حتى صدمنى وعلى القول فيه أقدمنى بسبب هجوه فى ابن عمي ملك الصقع الأندلسى سلطان ذلك الوطن فى النفر الجنسى المعظم فى الملوك بالقول الجنى والإنسى ثم صفحت عنه صفحة القادر الوارد من مياه الظفر غير القادر

لأن مثلى لا يليق به إظهار العورات ولا يجمل له تتبع العثرات اتباعاً للشرع فى تحريم الغيبة وضرباً عن الكريهة وإثباتاً لحظوظ النقيية الرغبية فما ضره لو اشتغل بذنوبه وتأسف على ما شربه من ماء اللهوى بذنوبه وقد قال بعض الناس من تعرض للأعراض صار عرضه هدفاً لسهام الأغراض انتهى ومثل هذا فى لسان الدين لا يقدح وما زالت الأشراف تهجى وتمدح وعلى تقدير صدور ما يخدش وجه جنابه الرفيع فالأولى أن ينشد

" وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع "

وممن أثنى على لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى بعض أكابر علماء تلمسان ولم يحضرنى الآن اسمه فى تأليف عرف فيه بالشيخ العلامة سيدي أبى عبد الله الشريف التلمساني

وابنيه العالمين أبى يحيى وسيدى عبد الله فقال بعد كلام فى حق الشريف ما نصه وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له حتى إن العالم الشهير لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبه والتأليف البديعة كلما ألف تأليفا بعثه إليه وعرضه عليه وطلب أن يكتب عليه بخطه وكان الشيخ الإمام الصدر المفتى أبو سعيد ابن لب شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها وطلب منه بيان ما أشكل عليه مقرا له بالفضل انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور

رجع

وكتب لسان الدين ابن الخطيب متمثلا بشيخه الأوحى قاضى الجماعة أبى البركات ابن الحاج البلفيقي رحمهما الله تعالى " أيتها النفس إليه اذهبي ... فحبه المشهور من مذهبي " " أياسنى التوبة من حبه ... طلوعه شمساً من المغرب " ويغلب على ظنى أنه خاطبه بذلك عند قدومه أعنى لسان الدين من المغرب إلى الأندلس والله تعالى أعلم

وكان قاضى القضاة برهان الدين الباعونى الشامى كثير الثناء على لسان الدين رحمه الله تعالى لأنه تلقى أخباره من قاضى القضاة ابن خلدون حسبما ذكرناه فى غير هذا الموضوع ولقد رأيت بخطه على هامش بعض تأليف لسان الدين فى الإنشاء ما نصه هذا بليغ إلى الغاية انتهى وكتب أثره بعض أكبر علماء المشرق ما نصه هذا خط العلامة قاضى القضاة برهان الدين الباعونى وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسى معظم له ولإنشائه وهو خليف بالتعظيم جدير بمزيد التمجيد والتكريم وكيف لا وهو شاعر مفلق وخطيب مصقع وكاتب مترسل بليغ لولا ما فى إنشائه من الإكثار الذى لا يكاد يخلو من عثار والإطناب الذى يفضى الى الاجتناب والإسهاب الذى يقدر الإهاب ويورث الالتهاب انتهى

قلت وهذا الانتقاد غير مسلم فإن لسان الدين وإن أطنب وأسهب فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب ويرحم الله تعالى العلامة البرهان الباعونى المذكور أعلاه إذ كتب بخطه فى آخر بعض تأليف لسان الدين فى الإنشاء ما صورته قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعونى لطف الله تعالى به الحمد لله على ما ألهم من البيان وعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم وفتت على هذا الكتاب من أوله إلى آخره وعمت من بحر بلاغته فى زاخره وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره فإنه برز فيه غاية التبريز وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز لا بل هو أبهى من الجواهر والنجوم الزواهر وعجيت من تلك الألفاظ المشبهة لسحر الألفاظ ورقة المعانى المحكمة المبانى انتهى فانظر أيدك الله تعالى بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل المنصف الكامل وقسه مع كلام ذلك المنتقد المتعصب الناقص الخامل مع أن الكلام الذى تعرض له ذاك بالقبح هو الذى تصدى له الباعونى بالمدح وكل إناء بالذى فيه ينضح وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح

رجع إلى ما كنا بصدده

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغنى بالله بعد كلام كثير ما صورة محل الحاجة منه وكان هذا السلطان من نيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مثله ممن نزع غرقا فى قوس الخلافة حكى لي شيخنا القاضى أبو العباس الحسنى أن كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذي الوزارتين أبى عبد الله ابن الخطيب أن يطلب من أبيه الغنى بالله أن يبادر بإعذاره إذ كان قد جاوز سن الإثغار دون إعذار لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمة فأسعده الشيخ بذلك وقال

للغنى بالله يا مولانا إن سيدي يوسف وكلنى على طلب إعذاره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه فقال له الغنى بالله حسبى الله وسكت سكتة لطيفة تشعر بفصل الكلام بعضه من بعض ثم قال ونعم الوكيل فعدها الأكياس من مدارك نبلة ومحاسن قوله وفعله انتهى قلت هذا من السلطان فى حق لسان الدين غاية التبجيل أعنى قوله ونعم الوكيل فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد حتى آل أمره إلى النحس بعد ذلك السعد وسقاه دهره بعد الحلاوة ما مر ولم يكن قتله إلا بتسبب السلطان المذكور كما مر

ثلاثة ليس لها أمان ... البحر والسلطان والزمان " 5 - رسالة ابن خاتمة الى لسان الدين " وقال لسان الدين رحمه الله تعالى ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ورجعنا الى أوطاننا من العدوة واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة والتهيه على السلطان والدولة والتكبر على أعلى

رتب الخدمة وتطارحت على السلطان فى استنجاز وعد الرحلة ورغبت فى تربة الذمة ونفرت عن الأندلس بالجملة خاطبنى يعنى أبا جعفر ابن خاتمة بعد صدر بلغ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله وإلى هذا يا سيدي ومحل تعظيمي واجلالى أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم وضاعف فى العز درجات ارتقائكم فإنه من الأمر الذى لم يغب عن رأى العقول ولا اختلف فيه أرباب المعقول أنكم بهذه الجزيرة شمس أفتحها وتاج مفرقها وواسطة سلكها وطراز ملكها وقلادة نحرها وفريدة دهرها وعقد جيدها المنصوص وتمام

زينتها على العموم والخصوص ثم أنتم مدار أفلاكها وسر سياسة أملاكها وترجمان بيانها ولسان إحسانها وطب مارستانها والذى عليه عقد إدارتها وبه قوام إمارتها فلدية يحل المشكل واليه يلجأ فى الأمر المعضل فلا غرو أن تنقيد بكم الأسماع والأبصار وتحقق نحوكم الأذهان والأفكار ويزجر عنكم السانح والبارح ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتخلج الجوارح استقراء لمرامكم واستطلاعاً لطالع اعترامكم واستكشافاً عن مرامى سهامكم لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق وظهوركم فى ملتزم بروق واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق حتى تستقر بكم الديار ويلقى عصاه التسيار ولها العذر فى ذلك إذ صدعها بغراقكم لم يندمل وسرورها بلقائكم لم يكتمل ولم يبرأ بعد جناحها المهيب ولا جم ماؤها المغيض ولا تميزت من داجيها ليايها البيض ولا استوى نهارها ولا تألفت أنهارها ولا اشتملت نعمائها ولا نسيت غماؤها بل هى كالنفاقة والحديث العهد بالمكاره يستشعر نفس العافية ويتمسح منكم باليد الشافية فبحنانكم عليها وعظيم حرمتكم على من لديها لا تشوبوا لها عذب المجاج بالأجاج وتفطموها عما عودت من طيب المزاج فما لدائها وحياة قريبكم غير طبكم من علاج

وانى لبيخطر بخاطرى محبة فيكم وعناية بما يعينكم ما نال جانبكم صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء وأن الوطن إحدى المواطن الأظار التى يحق لهن جميل الاحتفاء وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء فيغلب على ظنى أنكم لحسن العهد أحنح ويحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح وللتى هى أعظم قيمة من فضائلكم أوهب وأسجح وهب أن الدر لا يحتاج فى الإثبات إلى شهادة النحور واللبات والياقوت غنى فى المكان عن مظاهرة القلائد والتيجان أليس أنه أعلى للعيان وأبعد عن مكابرة البرهان تألقها فى تاج الملك أنو شروان فالشمس وإن كانت أم الأنوار وجلاء الأبصار مهما أغمى مكانها من الأفق قيل أليل هو أم نهار وكما فى علمكم ما فارق ذوو الأرحام وأولو الأحلام مواطن استقرارهم وأماكن قرارهم إلا برغمهم واضطرارهم واستبدال دار خير من دارهم ومتمى توازن الأندلس بالمغرب أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعباد وما فوقه مرابط جهاد ومعاهد ألوية فى سبيل الله ومضارب أوتاد ثم ييوا ولده ميوأ أجداده ويجمع له بين طارفه وتلاذه أعيد أنظاركم المسددة من رأى فائل وسعى طويل لم يحل منه بطائل فحسبكم من هذا الإياب السعيد والعود الحميد وهى طويلة

من لسان الدين إلى ابن خاتمة - 6

قال لسان الدين رحمه الله تعالى فأجبتة بقولى

" لم فى الهوى العذرى أو لا تلم ... فالعذل لا يدخل أسماعى "

" شأنك تعينفى وشانى الهوى ... كل امرئ فى شأنه ساعى "

أهلا بتحفة القادم وريحانة المنادم وذكر الهوى المتقادم لا يصغر الله مسراك فما أسراك لقد جبت إلى من همومى ليلا وجست رجلا وخيلا ووفيت من صاع الوفاء كيلا ووطننت بى الأسف على ما فات فأعملت الالتفات لكيلا فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدى أو كانت اللمة السوداء من عددى ما أفلت أشراكى المنصوبة لأمثالك حول المياه وبين المسالك ولا علمت ما هنالك لكنك طرقت حمى كسعته الغارة الشعواء وغيرت

ربعة الأنواء فحمد بعد ارتجاجه وسكت أذين دجاجه وتلاعبت الرياح الهوج فوق فجاجه وطال عهده بالزمن الأول وهل عند رسم دارس من معول وحيا الله ندبا إلى زيارتى نديك وبآدابه الحكيمية أدبك " فكان وقد أفاد بك الأمانى ... كمن أهدى الشفاء إلى العليل "

وهى شيمه بوركت من شيمه وهبة الله تعالى قبله من لدن المشيمه ومن مثله فى صلة رعى وفضل سعى وقول وعى

" قسما بالكواكب ... الزهر والزهرعاتمة "

" إنما الفضل ملة ... ختمت بابن خاتمه "

كسانى حله فضله وقد ذهب زمان التجمل وحملنى شكره وكتدى واه عن التحمل ونظرنى بالعين

الكليلة عن العيب فهلا أجاد التأمل واستطلع طلع نثى ووالى فى مبرك المعجزة حتى " إنما أشكو
بشى "

" ... ولو ترك القطا ليلا لنا ما "

وما حال شمل وتده مفروق وقاعدته فروق وصواع بنى أبيه مسروق وقلب قرحه من عضة الدهر
دام وجمرة حسرته ذات احتدام هذا وقد صارت الصغرى التى كانت الكبرى لمشيب لم يدع أن هجم
لما نجم ثم تهلل عارضة وانسجم

" لا تجمعى هجرا على وغربة ... فالهجر فى تلف الغريب سريع "

3 - ظرت فإذا الجنب ناب والنفس فريسة ظفر وناب والمال أكيلة انتهاب والعمر رهن ذهاب واليد
صفر من كل اكتساب وسوق المعاد مترامية والله سريع الحساب

" ولو نعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الزمان "

وهب أن العمر جديد وظل الأمن مديد ورأى الاغتباط بالوطن سديد فما الحجة لنفسى إذا مرت
بمطرح جفونها وملاعب هفوتها ومثاقف قناتها ومظاهر عزائها ومناها والزمان ولود وزناد الكون غير
صلود

" وإذا إمرؤ لدغته أفعى مرة ... تركته حين يجر حبل يفرق "

ثم إن المرغب قد ذهب والدهر قد استرجع ما وهب والعارض قد اشتهب وآراء الاكتساب مرجوحة
مرفوضة وأسماؤه على الجوار مخفوضة والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة والتوبة
بفضل الله عز وجل منقودة والمعاملة سامرية ودروع الصبر سابية والاقتصاد قد قرت العين بصحبته
والله قد عوض حب الدنيا بمحبته فإذا راجعها مثلى من بعد الفراق وقد رقى لدغتها ألف راق
وجمعتنى بها الحجرة ما الذى تكون الأجرة جل شانى وإن رضى الوامق وسخط الشانى إنى إلى
الله تعالى مهاجر وللعرض الأدنى هاجر ولأطعان السرى زاجر لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر لكن
دعانى للهوى إلى هذا المولى المنعم هوى خلعت نعلنى الوجود وما خلعت وشوقى أمرنى فأطعته
وغالب والله صبرى فما استطعته والحال أغلب وعسى أن لا يخيب المطلب فإن يسر رضاه فأمر
كامل وراحل احتمل وحاد أشجى الناقة والجمل وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق والتسليم
بمقامى لائق

" ... ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يصرف الأمر من حال إلى حال "

وأما تفضيله هذا الوطن ليمن طيره وعموم خيره وبركة جهاده وعمران رياه ووهاده بأشلاء عباده
وزهاده حتى لا يفضل إلا أحد الحرمين فحق برىء من المين لكننى للحرمين جنحت وفى جو
الشوق إليهما سنحت فقد أفضت إلى طريق قصدى محجته ونصرتنى والمنة لله تعالى حجته وقصد
سيدى استى قصد توخاه الحمد والشكر ومعروف عرف به النكر والأمال من فضل الله بعد تمتاز والله
تعالى يخلق ما يشاء ويختار ودعاؤه بظهر الغيب مدد وعدة وبره حالى الطعن والإقامة معتمل
معتمد ومجال المعرفة بفضل لا يحصره أمد والسلام أنتهى
ومن خط ابن الصباغ ما صورته يكفى ابن خاتمه الغاية التى سلمها له إمام الطريقة وواحدتها الفذ
على الحقيقة حيث قال

" إنما الفضل ملة ... ختمت بابن خاتمه "

ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة وطلب منه أن يعود فأبى وأنشد

" تقضى فى الكتابة لى زمان ... كشأن العبد ينتظر الكتابه "

" فمن الله من عتقى بما لا ... يطيق الشكر أن يملا كتابه "

" وقالوا هل تعود فقلت كلا ... وهل حر يعود إلى الكتابه "

فانظر حسن هذه التورية العجيبة انتهى

رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزى

ولابن خاتمة يخاطب ابن جزى يا أخى الذى سيما وده أن يجازى
وسيدى الذى علا مجده عن أن يوازى وصل الله تعالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز وكافاً ما لك من
الاختصاص بالفضائل والامتياز أما إنه لو وسع التخلف عن جواب أخ أعز ولم يجب التكلف عمن قد
عجز لغطيت عجزى عن عين تعجيزك ولما تعاطيت المثلول بين يدي مناهزك أو مجيزك لكنه فى
حكم الود المكنون المكنوز مما لا يحل ولا يجوز فلکم الفضل فى الإغضاء عن عاجز دعاه حكم
التكلف إلى القيام مقام مناجز وإن لم يكن ذلك عند الإنصاف وحميد الأوصاف من السائغ الجائز فعن
جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز ولم يحصل الحقيقة إلا على المجاز
أما ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التى أعجزت وبلغت من البلاغة الغاية التى عزت مناهضتها

وأعوزت فلم أكن لأستهدف ثانيا لمضاضة الإعجاز وأسجل على نفسي بالإفلاس والإعواز انتهى
وكتب قبلها قصيدة زائية أجابه بها عن قصيدة زائية التزم فيها ابن جزي ترك الرأى لأنه كان النغ
يبدلها غينا رحم الله تعالى الجميع
وقال لسان الدين فى ترجمة ابن خاتمة المذكور إنه الصدر المتفنن المشارك القوى الإدراك السيد
النظر الثاقب الذهن الكثير الاجتهاد الموفور الأدوات المعين الطبع الجيد القريحة الذى هو حسنة من
حسنات الأندلس أحمد بن على بن خاتمة من أهل المربة
رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين - 7
إلى أن قال ومما خاطبني به بعد إمام الركاب السلطانى ببلده وأنا صحبته ولقائه إياي بما يلقى
به مثله من تأنيس وبر وتودد وتردد
" يا من حصلت على الكمال بما رأت ... عيناي منه من الجمال الرائع "
" قمر يروق وفى عطاى برده ... ما شئت من كرم ومجد بارع "
" أشكو إليك من الزمان تحاملا ... فى فض شمل لى بقربك جامع "
" هجم البعاد عليه ضنا باللقا ... حتى تقلص مثل برق لامع "
" فلو أننى ذو مذهب لشفاعة ... ناديته يا مالكى يا شافعى "
شكواى إلى سيدى ومعظمى أقر الله تعالى بسنائها أعين المجد وأدر بثنائها ألسن الحمد شكوى
ظمان صد عن القراح العذب لأول وروده والهيمان رد عن استرواح القرب لمعضل صدوده من زمان
هجم على بابعاده على حين إسعاده ودهمنى بفرقه غب إنارة أفقى به وإشراقه ثم لم يكفه ما
احترم فى ترويع خياله الزاهر حتى حرم عن تشييع كماله الباهر فقطع عن توفية حقه ومنع من
تأدية مستحقه لا جرم أنه أنف لشعاع ذكائه من هذه المطالع النائية عن شريف الإنارة ويخل
بالإمتاع بذكائه عن هذه المسامع النائية عن لطيف العبارة فراجع أنظاره واسترجع معارة وإلا
فعهدى بغروب الشمس إلى الطلوع وأن البدر يتصرف بين الإقامة والرجوع فما بال هذا النير الأسعد
غرب ثم لم يطلع من الغد ما ذاك إلا لعدوى الأيام وعدوانها وشأنها فى تغطية إساءتها وجه
إحسانها وكما قيل عادت هيف إلى أديانها أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغتفر فى جانب ما
أولت من الأثر التى أزرى العيان فيها بالأثر وأربى الخبر على الخبر فقد سرت متشوفات الخواطر
وأقرت مستشرفات النواظر بما جوت من ذلكم الكمال الباهر والجمال الناضر الذى قيد خطا الأبصار
عن التشوف والاستبصار وأخذ بأزمة القلوب عن سبيل كل مأمول ومرغوب وأنى للعين بالتحول عن
كمال الزين أو بالطرف بالتنقل عن خلال الطرف أو للسمع من مراد بعد
ذلكم الإصدار الأدبى والإيراد أو للقلب من مراد غير تلكم الشيم الرافلة من ملابس الكرم فى حلل
وأبراد وهل هو إلا الحسن جمع فى نظام والبدر طالع لتمام وأنواع الفضل ضمها جنس اتفاق والتئام
فما ترعى العين منه فى غير مرعى خصيب ولا تستهدف الأذن بغير سهم فى حديق البلاغة
مصيب ولا تستطلع النفس سوى مطلع له فى الحسن والإحسان أوفر نصيب لقد أزرى بناظم حلاه
فيما يتعاطاه التقصير وإنفسح مدى علاه بكل باع قصير وسفه حلم القائل إن الإنسان عالم صغير
شكرا للدهر على يد أسداها بقرب مزاره وتحفة أهداها بمطلع أنواره على تغاليه فى ادخار نفائسه
ويخله بنفائس ادخاره لا غرو أن يضيق عنا نطاق الذكر ولا يتسع لنا سوار الشكر فقد عمت هذه
الأقطار بما شاءت من تحف بين تحف وكرامة واجتنت أهلها ثمرة الرحلة فى ظل الإقامة وجرى لهم
الأمر فى ذلك مجرى الكرامة
ألا وإن مفاتحتى لسيدى ومعظمى حرس الله تعالى مجده وضاعف سعده مفاتحة من ظفر من
الدهر بمطلوبه وجرى له القدر على وفق مرغوبة فشرع له إلى أهله بابا ورفع له من خجله جلبابا
فهو يكلف بالافتحام ويأنف من الإحجام غير أن الحصر عن درج قصده بقيده والبصر يبهرج نقده
فيقعه فهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ويجدد عزمًا ثم لا يتحرى فإن أبطأ خطابى فلواضح الأعدار
ومثلكم من قبل جليات الأقدار والله سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف ويحفظ بكم ما
للمجد من جوانب وأكناف إن شاء الله تعالى وكتب فى عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين
وسبعمائة انتهى
ومن خاتمة رسالة من إنشاء ابن خاتمة المذكور فلنصرف عن البطالة عن الإطالة ونسلم على
السيادة الطاهرة الأصالة بأطيب تسليم ختامة مسك ومزاجه من تسنيم
ومن نظم ابن خاتمة المذكور
" هو الدهر لا يبقى على عائد به ... فمن شاء عيشا يصطبر لنوائبه "
" فمن لم يصب بفي نفسه فمصابه ... بفوت أمانيه وفقد حباته " ومنه قوله "

" ملاك الأمر تقوى الله فاجعل ... تقاه عدة لصالح أمرك "

وبادر نحو طاعته بعزم ... فما تدري متى يقضى بعمرك " 8 - رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى "

لسان الدين

وقال لسان الدين وكتب إلى يعني ابن خاتمة المذكور عقب انصرافه من غرناطة في بعض قدماته عليها ما نصه مما قلته بديهة عند الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله مع النفر الذين أتحتهم سيادتكم بالإشراف عليه والدخول إليه وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه وإن كان يوما قد غابت شمسها ولم يتفق أن كمل أنسه وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعله لم يبلغكم وأن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث

" أقول وعين الدمع نصب عيوننا ... ولاح لبستان الوزارة جانب "

" أهذى سماء أم بناء سما به ... كواكب غضت عن سناها الكواكب "

" تناظرت الاشكال منه تقابلا ... على السعد وسطى عقده والحبائب "

" وقد جرت الامواه فيه مجرة ... مذاربها شهب لهن ذوائب "

" وأشرف من علياه بهو تحفه ... شماسي زجاج وشيها متناسب "

" يطل على ماء به الأس دائرا ... كما افتر ثغر أو كما اخضر شارب "

" هنالك ما شاء العلا من جلاله ... بها يزدهي بستانها والمراتب "

ولما أحضر الطعام هنالك داعي شيخنا القاضي أبو البركات فاعتذر أنه صائم قد بيته من الليل فحضرني ان قلت

" دعونا الخطيب أبا البركات ... لاكل طعام الوزير الأجل "

" وقد ضمنا في نداءه جنان ... به احتفل الحسن حتى كمل "

" فأعرض عنا لعذر الصيام ... وما كل عذر له مستقل "

فإن الجنان محل الجزاء ... وليس الجنان محل العمل " وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات

شيخنا أبا البركات فقال لي لو اتشدتنيها وانتم بعد لم تفرغوا منه لأكلت معكم برا بهذه الابيات والحوالة في ذلك على الله تعالى انتهى

ومن نظم ابن خاتمة المذكور في فران

" رب فران جلا صفحته ... لهب الفرن جلاء العسجد "

" يضرم النار بأحشاء الوري ... مثلما يضرم في المستوقد "

فكان الوجه منه خبزة ... فوقها الشعر كقدر أسود " احمد بن صفوان "

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى ولما قدمت مالقة آيبا من السفارة الى ملك المغرب محفوقا بفضل الله تعالى وجميل صنعه موفى المأرب مصحبا

بالاعانة لقيني على عادته مهنيا يعني احمد بن صفوان أحد أعلام مالقة وبقية أدبائها وصدور كتابها وأنشدني معيدا في الود مبديا وضمن غرضا له تعجل قضاءه والحمد لله تعالى

" قدمت بما سر النفوس اجتلاؤه ... فهنيت ما عم الجميع هناؤه "

" قدوما بخير وافر وعناية ... وعز مشيد بالمعالي بناؤه "

" ورفعة قدر لا يداني محلها ... رفيع وإن ضاهى السماء اجتلاؤه "

" عنيت بأمر المسلمين فكلهم ... بما يرتجيه قد توالى دعاؤه "

" بلغت الذي أملت من صلاحهم ... فأدركت مأمولا عظيما جزاؤه "

" فيا واحدا أغنت عن الجمع ذاته ... وقام بأعباء الامور غناؤه "

" تشوقك الملك الذي بك فخره ... وأنت حقيقا حسنه وبهاؤه "

" فلا زال مزدانا بحليك جوده ... ولا زال موفورا عليك اصطفاؤه "

" وخصصت من رب العباد بنعمة ... ينيلكها تخصيصه واحتفاؤه "

" وعشت عزيزا في النفوس محبا ... يلبي بتبجيل وبر نداؤه "

" وقد جاءني داعي السرور مؤديا ... لحق هنا فرض عين أداؤه "

" ولي بعد هذا مأرب متوقف ... على فضلك الرحب الجناب قضاؤه "

" هززت له عطف البطرني راجيا ... له النجح فاستعصى وخاب رجاؤه "

" ولم يدر اني من علائك منتض ... حساما كفيلا بالنجاح انتضاؤه "

" يصمم إن هزته كفى لمعضل ... فيكفي العنا تصميمه ومضاؤه "

" فحقق له دامت سعودك حرمتي ... لديك يرحني مطله والتواؤه "

" وشارك محبا خالصا لك حبه ... قديما كريما عهده ووفاءه "

" وصل بجزيل الرعى حبل ذمامه ... يصلك جزيلاً شكره وثناؤه "
 " بقيت وضع الله يدني لك المنى ... ويوليك من مصنوعة ما تشاؤه "
 " بحرمة من حفت سيادته على ... بني آدم والخير منه ابتداؤه "
 وجمعت ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجهي صحبة الركاب السلطاني إلى إصراخ الخضراء
 عام أربعة وأربعين وسبعمئة وقدمت صدره خطبة وسميت الجزء ب الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة
 أجازة ابن صفوان للسان الدين - 9

وطلبت منه أن يجيزني وولدي عبد الله رواية ذلك عنه فكتب بخطه الرائق بظهر المجموع ما نصه
 الحمد لله مستحق الحمد أحببت سؤال الفقيه الاجل الافضل السرى الماجد الأوحد الاحفل الاديب
 البارع الطالع في افق المعرفة والنباهة والرفعة المكيمة والوجاهة بابهى المطالع المصنف الحافظ
 العلامة الحائز في فني النظم والنثر واسلوبي الكتابة والشعر رتبة الرياسة والامامة محلي جيد
 العصر بتاليفة الباهرة الرواء ومجلي محاسن بنية الرائقة على منصة الاشادة والانباء ابي عبد الله
 ابن الخطيب وصل الله تعالى سعادته وحرس مجادته وسني من الخير الاوفر والصنع الابهر مقصده
 وارادته وبلغه في نجله الاسعد وابنه الراقي بمحتده الفاضل ومنشئه الاطهر محل الفرقد افضل ما
 يؤمل نحلته اياه من المكرمات وافادته واجزت له ولابنه عبد الله المذكور ابغاهما الله تعالى في عزة
 سنية الخلال وعافية ممتدة الافياء وارفة الظلال رواية جميع ما تقيد في الأوراق المكتتب على ظهر
 اول ورقة منها من نظمي ونثري وما توليت انشاءه واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاءه ايام
 عمري وجميع ما لي من تصنيف وتقييد ومقطوعة وقصيد وجميع ما أحمله عن أشياضي رضى الله
 تعالى عنهم من العلوم وفنون المنثور والمنظوم باي وجه تاذى ذلك الي وصح حملي له وثبت
 اسناده لدي اجازة تامة في ذلك كله عامة على سنن الاجازات الشرعي وشرطها
 المأثور عند أهل الحديث المرعى والله ينفعني وإياهما بالعلم وحمله وينظما جميعا فى سلك
 حزبه المفلح وأهله ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية العبد الفقير
 الى الله الغنى به أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ختم الله تعالى له بخير حامداً الله تعالى
 ومصلياً ومسلماً على نبيه المصطفى الكريم وعلى آله الطاهرين ذوى المنصب العظيم وصحابته
 البررة أولى الأثرة والتقديم فى سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمئة وحسبنا الله ونعم
 الوكيل انتهى

من العذرى إلى لسان الدين - 10
 وكتب الفقيه أبو جعفر ابن عبد الملك العذرى من أهل سبتة الى لسان الدين رحمه الله تعالى فى
 بعض الأغراض

" إني بمجدك لم أزل مستيقنا ... أن لا يهدم بالتغير ما بنى "
 " إذ أنت أعظم ماجد يعزى له ... صفح وأكرم من عفا عمن جنى " وكتب أيضا "
 " إن كان دهرى قد أساء وجارا ... فذمام مجدك لا يضيع جارا "
 " فلأنت أعظم ملجأ ينجى إذا ... ما الدهر أنجد موعدا وأغاراً "
 رسالة من لسان الدين الي ابن نفيس - 11

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى خاطبت الشيخ الشريف الفاضل أبا عبد الله ابن نفيس صحبة
 ثمن مسكن اشتريته منه وكان قد أهدانى فرسا عتيقا
 " جزيت يا ابن رسول الله أفضل ما ... جزى الإله شريف البيت يوم جزى "
 " إن أعجز الشكر منى منه ضعفت ... عن بعض حقك شكر الله ما عجزا "
 سيدى أبقى الله شرفك تشهد به الطبايع إذا بعدت المعاهد المقدسة والرباع وتعترف به الأبصار
 والأسماع وإن جحدت عارضها الإجماع باى لسان أثنى أم أي الأفنان أهصر واجنى أم أي المقاصد
 الكريمة أعنى أمطيت جوادك المبارك وأسكنت دارك وأوسعت مطلبي اصطبارك وهضمت حقك
 وبوات جوارك ووصلت للغرباء إيثارك أشهد بانك الكريم ابن الكريم لا أقف فى تعدادها عند حد إلى
 خير جد فإن أعان الدهر على مجازاة وإن ترفع كرمك عن موازاة فحاجة نفس قضيت وأحكام آمال
 أمضيت وإن اتصل العجز فعين على القذى أغضيت ومناصل عزم ما انتضيت وعلى كل حال فالثناء
 ذائع والحمد شائع واللسان والحمد لله طائع والله مشتر ما أنت بائع وقد وجهت من يحاول لسيدى
 ثمن ما اكتسبه مجده وسفر عنه حمده والعقيدة بعد التراضى وكمال التقاضى وحميد الصبر وسعة
 التقاضى وكونه الخصم والقاضى أنه هبة سوغها إنعامه وأكله هناها مطعماه نسأل الله تعالى أن
 يعلى ذكره ويتولى شكره وينمى ماله ويرفع قدره والولد جاره الغريب الذى برز إلى مقارعة الأيام
 عن خبره قاصرة وتجربة غير منجده على الدهر وناصرة قد جعلته وديعة فى كرم جواره ووضعتة فى

حجر إيناره فإن زاغ فيده العليا فى تبصيرة ومؤاخذته بتقصيره ومن نبه مثله نام ومن استنام إليه بمهمة أكرم بمن إليه استنام وإن تشوف سيدي لحال محبه فمطلق للدنيا من عقال ورافض أنقال ومؤمل اعتياض بخدمة الله تعالى وانتقال انتهى

12 - من لسان الدين إلى ابن رضوان

وقال رحمه الله تعالى مما خاطبت به صدر الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم ابن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه

" مرضت فأيامى لديك مريضة ... وبرؤك مقرون ببراءة اعتلالها "

" فلا راع تلك الذات للضر رائع ... ولا وسمت بالسقم غر خلالها "

وردت على من فئتى التى إليها فى معرك الدهر أتحيز ويفضل فضلها فى الأقدار المشتركة أتميز سحاة سرت وساءت وبلغت من القصدين ما شاءت أطلع بها سيدي صنيعه وده من شكواه على كل عابث فى السويداء موجب اقتحام البيداء مضمم نار الشفقة فى فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ولا من إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل ونوى مدت الغير ضرورة يرضاهما الخليل فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله أو عابد نوزع متقبل أعماله أو أمل ضويق فى فذلكة آماله لكننى رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ورايت الخط بيهر والحمد لله تعالى وبروق واللفظ الحسن تومض فى حبره للمعنى الأصيل بروق فقلت ارتفع الوصب ورد من الصحة المغتصب وآله الحس والحركة هى العصب وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه والروح خليط البدن والمرء بخليطة وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطى إلا الشرح ففيه يسكن الظما البرح وعذرا عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار والإطناب والإكثار وزند القلق فى مثلها أورى والشفيق بسوء الظن مغرى وسيدي هو العمدة التى سلمت لى الأيام فيها وقالت حسب آمالك ويكفيها فكيف لا أشفق ومن أنفق من عينه فأنا من عينى لا أنفق والله لا يحبط سعيتى فى سؤال عصمتها ولا يخفق ويرشد إلى شكره على ما وهب منها ويوفق والسلام الكريم على سيدي البر الوصول

الذى زكت منه الفروع لما طابت الأصول وخلص من وده لابن الخطيب المحصول ورحمه الله تعالى وبركاته

جواب ابن رضوان - 13

قال فراجعنى حفظ الله سيادته بما نصه

" متى شئت ألقى من علائك كل ما ... ينيل من الآمال خير منالها "

" كبرء اعتلال من دعائك زارنى ... وعادات بر لم ترم عن وصالها "

أبقى الله ذلك الجلال الأعلى متطولا بتأكيد البر متفضلا بموجبات الحمد والشكر وردتني سحائه المشتملة على معهود تشريفه وفضله الغنى عن تعريفه متحفيا فى السؤال عن شرح الحال ومعلنا بما تحلى به من كرم الخلال والشرف العال والمعظم على ما يسر ذلك الجلال الوزارى الرياسى أجراه الله تعالى على أفضل ما عوده كما أعلى فى كل مكرمة يده ذلك ببركة دعائه الصالح وحبه المخيم بين الجوانح والله سبحانه محمود على نعمه ومواهب لطفه وكرمه وهو سبحانه المسؤول أن يهيىء لسيدي قرار خاطر على ما يسره فى الباطن والظاهر بمن الله تعالى وفضله والسلام الكريم على جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته كتبه المعظم الشاكر الداعى الذاكر المحب ابن رضوان وفقه الله تعالى فى ذى الحجة ختام عام واحد وستين وسبعمائة انتهى من لسان الدين إلى الجنان - 14

وقال رحمه الله تعالى وفاتحته يعنى الشيخ الجنان محركا قريحته ومستثيرا ما عنده بقولى

" إن كانت الآداب أضحت جنة ... فلقد غدا جنانها الجنان "

" أقلامه القضب اللدان بدوحها ... والزهر ما رقمته منه بنان "

وذكر بعد البيتين سجعا بليغا

جواب الجنان - 15

ثم قال فراجعنى الجنان بما نصه

" يا خاطب الآداب مهلا فقد ... ردك عن خطبتها ابن الخطيب "

" هل غيره فى الأرض كفاء لها ... وشرطها الكفاة قول مصيب "

" أصبح للشرط بها معرسا ... فاستفت فى الفسخ فهل من مجيب "

أبها السيد الذى يتنافس فى لقائه ويتعالى ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى وتستننتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه وتقتنص شوارد العلوم بروايات كلامه فكيف بمدانة عيانه جلوت على من

بنات فكرك عقائل نواهد وأقمت بها على معارفك الجمّة دلائل وشواهد واقتنصت بشرك بديهتك من المعانى أوابد شوارد وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ثم كلفتني من إجراء طالعى فى ميدان ضليعها مقابلة الشمس المنيرة بسراج عند طلوعها فأخلدت إخلاد مهيبض الجناح وفررت فرار الأعزل عن شاكى السلاح وعلمت أنى إن أخذت نفسى بالمقابلة وأدليت دلو قريحتى للمساحلة كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها أو طلب ممن علتها السماء محاولة لمسها وإن رضيت من القريحة بسجيتها وأظهرت القدر الذى كنت امتحت من ركيثها أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ونبت عن أسمى دواوينهم نانها الجنان

أفلامه القضب اللدان بدوحها ... والزهر ما رقمته منه بنان " وذكر بعد البيتين سجعا بليغا 15 - "

جواب الجنان ثم قال فراجعنى الجنان بما نصح

" يا خاطب الآداب مهلا فقد ... ردك عن خطبتها ابن الخطيب "

" هل غيره فى الأرض كفاء لها ... وشرطها الكفاة قول مصيب "

" أصبح للشرط بها معرسا ... فاستغت فى الفسخ فهل من مجيب "

أيها السيد الذى يتنافس فى لقائه ويتعالى ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه وتقتنص شوارد العلوم بروايات كلامه فكيف بمدانة عيانه جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد وأقمت بها على معارفك الجمّة دلائل وشواهد واقتنصت بشرك بديهتك من المعانى أوابد شوارد وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ثم كلفتني من إجراء طالعى فى ميدان ضليعها مقابلة الشمس المنيرة بسراج عند طلوعها فأخلدت إخلاد مهيبض الجناح وفررت فرار الأعزل عن شاكى السلاح وعلمت أنى إن أخذت نفسى بالمقابلة وأدليت دلو قريحتى للمساحلة كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها أو طلب ممن علتها السماء محاولة لمسها وإن رضيت من القريحة بسجيتها وأظهرت القدر الذى كنت امتحت من ركيثها أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ونبت عن أسمى دواوينهم

كما تنبو عن الأشيب عيون العين ثم إن أمرك يا سيدى لا يحل وثيق مبرمه ولا يحل نسخ محكمه فامتثلته امتثال من لم يجد فى نفسه حرجا من قضائك ورجوت حسن تجاوزك واغضائك أبفاك الله تعالى قطبا لفلك المكارم والمآثر وفصا لخاتم المحامد والمفاخر والسلام انتهى

ترجمة ابن الجنان

والجنان المذكور مغربى من مكناسة الزيتون وهو الشيخ الفقيه العدل الأديب الأخبارى المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسى الجنان من أهل الطرف والانطباع والفضيلة كاتب عاقل ناظم ناثر مشارك فى فنون من العلم له تصنيف حسن فى ثلاث مجلدات سماه المنهل المورود فى شرح المقصد المحمود شرح فيه وثائق أبى القاسم الجزيرى المالكى فأرى على غيره بيانا وإفاده قال فى نفاضة الجراب وناولنى إياه وأذن لى فى حملى عنه وأنشدنى كثيرا من شعره فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنىء بها ناقها من مرض

" البس الصحة بردا قشيبا ... وارشف النعمة ثغرا شنيبا "

" واقطف الآمال زهرا نضيرا ... واعطف الإقبال غصنا رطيبا "

" إن يكن ساءك وعك تقضى ... تجد الأجر عظيما رحيبا "

" فانتعش فى دهرنا ذا سرور ... يصبح الحاسد منه كنيبا "

مقطعات وقصائد تكتب على المبانى

وقال أيضا لسان الدين فى النفاضة قرأت بالدور الخشيبى فى الدار التى نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتا منقشة استحسنتها لسهولتها فأخبرنى أنها من نظمه وهى

" انظر إلى منزل متى نظرت ... عينك يعجبك كل ما فيه "

" ينبىء عن رفعة لملكه ... وعن ذكاء الحجى لبانيه "

" يناسب الوشى فى أسافله ... ما يرقم النقش فى أعاليه "

" كأنه روضة مديحة ... جاد لها وابل بما فيه "

" فأظهرت للعيون زخرفها ... ووافقتها على تجليه "

" فهو على بهجة تلوح به ... ورونق للجمال بيديه "

" يشهد للساكين أن لهم ... من جنة الخلد ما يحاكيه "

قلت قد تذكرت هنا والشىء بالشىء يذكر ما رأيت مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة

تلمسان التى بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزيانى وهى من بدائع الدنيا وهو

" انظر بعينك بهجتى وسنائى ... وبيدع إتقانى وحسن بنائى "

" وبيدع شكلي واعتبر فيما ترى ... من نشأتى بل من تدفق مائى "

" جسم لطيف ذائب سيلانه ... صاف كذوب الفضة البيضاء "

" قد حف بى أزهار وشى نمقت ... فغدت كمثل الروض غب سماء "

وما أنشدته بعض أهل العصر في المغرب بقصد أن يرسم فى الأستار المذهبة المحكمة الصنعة
التي جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسنى رحمه الله تعالى لكى يستر بها
النواحي الأربع من القبة الكبيرة بالبيدع وتسمى هذه الستور عند أهل المغرب بالحائطى ففى
الجهة الأولى

" متع جفونك من بيدع لباسى ... وأدر على حسننى حميا الكاس "

" هذي الربى والروض من جرعائها ... مما اغتذى بالعارض الجاس "

" أنى لروض أن يروق بهاؤه ... مثلي وأن يجرى على مقياس "

" فالروض تغشاه السوام وانما ... تأوى الى كنفى طباء كناس "

وعلى الجهة الثانية

" من كل حسنا كالقضب إذا انثنى ... تزرى بغصن البانة المياس "

" ولقد نشرت على السماك ذوائبى ... ونظرت من شزر إلى الكناس "

" وجررت ذبلى بالمجرة عابثا ... فخرا بمخترعى أبى العباس "

" ما نيظ مثلى فى القباب ولا ازدهت ... بفتى سواه مراتب وكراسى "

وعلى الجهة الثالثة

" ملك تقاصرت الملوك لعزه ... ورماهم بالذل والإتعاس "

" غيث المواهب بحر كل فضيلة ... ليث الحروب مسعر الأوطاس "

" فرد المحاسن والمفاخر كلها ... قطب الجمال أخو الندى والباس "

ملك إذا وافى البلاد تأرجت ... منه الوهاد بعاطر الأنفاس " وعلى الجهة الرابعة "

" وإذا تطلع بدره من هالة ... يعشني سنانه نواظر الجلاس "

" أيامه غررا تجلت كلها ... ابهى من الأعياد والأعراس "

" لا زال للمجد السننى بشيده ... ويقيم ميناه على الأساس "

" ما مال بالغصن النسيم وحببت ... درر الندى فى جيده المياس "

وما أنشدنيه بعض العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب
المحقق أبى محمد الحسن بن أحمد المسفيوي المراكشى أحد مشاهير الكتاب بباب أمير
المؤمنين المنصور بالله أبى العباس الشريف الحسنى ملك المغرب صب الله تعالى على الجميع
أمطار الرضوان مما كتب فى بعض مبانى صاحبنا الوزير العلامة الأجل سيدى عبد العزيز الفشتالى
رحمه الله تعالى وهو

" أجل المعلى من قداح سرورى ... وأدر كؤوس الأنس دون شرور "

" خلعت على عطف البهاء محاسنى ... فكست به الأفاق ثوب حبور ... "

" وتباسق الوشى المغوف حلتى ... نسق الشذور على نحور الجور "

" شأو القصور قصورها عن رتبة ... لي بالسنا الممدود والمقصور "

" فى المبتنى المراكشى وأفقه ... أزرى على الزوراء والخابور "

" أعلى مقامى البارع الأسمى الذى ... قد حاز سبق النظم والمنثور "

" فإذا أقل بنانه أعلامه ... نفتت عقود السحر بين سطور "

" عبد العزيز أخو الجلالة كاتب ... سر الخليفة أحمد المنصور "

" لا زال فى يمن وأمن ما شددت ... ورق بروض بالندى ممطور "

وبعضه كتبته بالمعنى من حفظى لطول العهد والغاية فى هذا الباب ما أنشدنيه لنفسه الوزير أبو
فارس عبد العزيز الفشتالى المذكور وهى جملة من قصائد كتبت فى المبانى الملوكية المنصورية
بالحضرة المراكشية حاطها الله تعالى فمنها ما كتب خارج القبة الخمسينية أى التى فيها خمسون
ذراعا بالعمل وذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان القبة

" سموت فخر البدر دونى وانحطا ... وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا "

" وصغت من الإكليل تاجا لمفرقى ... ونيطت بى الجوزاء فى عنقى سمطا "

" ولاحت بأطواقى الثريا كأنها ... نثر جمان قد تتبعته لقطا "

" وعديت عن زهر النجوم لاننى ... جعلت على كيوان رحلى منحطا "

" وأجريت من فيض السماحة والندى ... خليجا على نهر المجرة قد غطى "

" عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت ... إليه وفود البحر تغرف ما أنطى "
 " تنضض ما بين الغروس كأنه ... وقد رقرقت حصاؤه حية رقطا "
 " حواليه من دوح الرياض خرائد ... وغيد تجر من خمائلها مرطا "
 " إذا أرسلت لدن الفروع وفتحت ... جنى الزهر لاح فى ذوائبها وخطا "
 " يرنحها مر النسيم إذا سرى ... كما مال نشوان تشرب إسفنتا "
 " يشق رياضاً جادها الجود والندى ... سواء لديها الغيث أسكب أم أخطا "
 " وسالت بسلسال اللجين حياضه ... بحارا غدا عرض البسيط لها شطا "
 " تطلع منها وسط وسطاه دمية ... هى الشمس لا تخشى كسوفها ولا غمطا "
 " حكت وحباب الماء فى جنباتها ... سنا البدر حل من نجوم السما وسطا "
 " إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها ... على جسمها الفضى نهرها بها لطا "
 " توسمت فيها من صفاء أديمها ... نقوشا كأن المسك ينقطها نقتا "
 " إذا اتسقت بيض القباب قلادة ... فإنى لها فى الحسن درتها الوسطى "
 " تكنفى بيض الدمى فكأنها ... عذارى نضت عنها القلائد والريطا "
 " قدود ولكن زانها الحسن عريها ... وأجمل فى تنعيمها النحت والخرطا "
 " نمت صعدا تيجانها فتكسرت ... قوارير أفلاك السماح بها ضغطا "
 " فى لك شأوا بالسعادة أهلا ... بأكنافه رحل العلا والهدى حطا "
 " وكعبة مجد شادها العز فانبرت ... تطوف بمغناها امانى الورى شوطا "
 " ومسرح غزلان الصريم كناسها ... حنايا قباب لا الكتيب ولا السقطا "
 " فلكن به ما طاب لا الأثل والخمطا ... ووسدن فيه الوشى لا السدر والأرطى "
 " تراه من المسك الفتيت مدبرا ... إذا مازحته السحب عاد بها خلطا "
 " وأن باكرته نسمة سحرا سرى ... إلى كل أنف عرف عنبره قسطا "
 " أقرت له الزهراء والخلد وانتقت ... أوأوبن كسرى الفرس تعبطه غبطا "
 " جناب رواق المجد فيه مطنب ... على خير من يعزى لخير الورى سيطا "
 " إمام يسير الدهر تحت لوائه ... وترسى سفان للعلا حيثما وطا "
 " وفتاح أقطار البلاد بفيلق ... يفلق هامات العدا بالطبى خبطا "
 " تطلع من خرصانه الشهب فانتنت ... ذوائب أرض الزنج من ضوئها شمطا "
 " كتائب نصر إن جرت لملمة ... جرت قبلها الأقدار تسبقها فرطا "
 " إذا ما عقدن راية علوية ... جعلن ضمان الفتح فى عقدها شرطا "
 " فما للسما تلك الأهلة إنما ... سنايكها أيقت مثالا بها خطا "
 " يطاوع أيدى المعلوات عنانها ... فيعتاض من قبض الزمان بها بسطا "
 " يد لأمير المؤمنين بكفها ... زمام يقود الفرس والروم والقبطا "
 " أدار جدارا للعلا وسرادقا ... يحوط جهات الأرض من رعية حوطا "
 " وقوله مما كتب ببهوها بمرمر اسود فى أبيض
 " لله بهو عز منه نظير ... لما زها كالروض وهو نصير "
 " رصفت نقوش حلاه رصف قلائد ... قد نضدتها فى النحور الحور "
 " فكأنها والتبر سال خلالها ... وشى وفضة تربها كافور "
 " وكان أرض قراره ديباجة ... قد زان حسن طرازها تشجير "
 " وإذا تصعد نده نوءا ففى ... أنماطه نور به ممطور "
 " شأوا القصور قصورها عن وصفه ... سيات فيه خورنق وسدير "
 " فإذا أجلت اللحظ فى جنباته ... يرتد وهو بحسنه محسور "
 " وكان موج البركتين أمامه ... حركات سجف صافحته دبور "
 " صفت بصفتها تماثل فضة ... ملك النفوس بحسنها تصوير "
 " فتدير من صفو الزلال معتقا ... يسرى إلى الأرواح منه سرور "
 " ما بين أساد بهيج زئيرها ... وأساود يسلى لهن صفير "
 " ودحت من الأنهار أرض زجاجة ... وأظلمها فلك يضىء منير "
 " راقت فمن حصائها ووقائع ... تطفو عليها اللؤلؤ المنتور "
 " يا حسنه من مصنع فيهاؤه ... باهى نجوم الأفق وهى تنور "
 " وكانما زهر الرياض بجنبه ... حيث التفت كواكب ويدور "

" ولدسته الأسمى تخير رصفه ... فخر الورى وإمامها المنصور "

" ملك أناف على الفراقد رتبة ... وأقلة فوق السماك سرير "

" قطب الخلافة تاج مفروق دولة ... رميت بجحفلها اللهام الكور "

" وجرى إلى أقصى العراق لرعيها ... جيش على جسر الفرات عبور "

" نجل النبى ابن الوصى سليل من ... حقن الدماء وعف وهو قدير "

" بحر الندى لكنه متموج ... سيف العلاء لكنه مطرور "

" طود يخف لحلمه ووقاره ... ولجيشه يوم النزال ثبير "

" دامت معاليه ودام ومجده ... طوق على جيد العلاء مزورور "

" وتعاهدته عن الفتوح بشائر ... يغدو عليه بها المسا وبكور "

" "

" ما دام منزل سعده يرقى به ... نصر يرف لواؤه المنشور "

" ومشتت به مرحا جياذ مسرة ... وأدار كاس الأنس فيه سمير "

وقوله مما كتب بداخل القبة المذكورة

" جمال بدائعى سحر العيون ... ورونق منظرى بهر الجفونا "

" وقد حسنت نقوشى واستطارت ... سنا يعشى عيون الناظرينا "

" وأطلع سمكى الأعلى نجوما ... ثواقب لا تغور الدهر حيننا "

" وجوى من دخان الند ألقى ... على أرضى الغياهب والدجوننا "

" علوت دوائر الأفلاك سبعا ... لذاك الدهر ما ألفت سكونا "

" فصغت من الأهلة والحنايا ... أساور والخلاخل والبرينا "

" تكفنى حياض مائحات ... أمامى والشمال أو اليميننا "

" يقيد حسننها الطرف انفساحا ... ويجرى الفلك فيها والسفينا "

" تدافع نهرها نحوي فلما ... تلاقى البحر فى جرى دفينا "

" ترى شهب السماء بهن غرقى ... فتحسبها بها الدر المصونا "

" وقد نشر الحباب على سماها ... لآلىء تزدري العقد الثميننا "

" فخرت وحق لى لما اجتبانى ... لمجلسه أمير المؤمنيننا "

" هو المنصور حائز خصل سبق ... وبانى المجد بنيانا مكينا "

" وليث وعى إذا زار امتعاضا ... يروع زئيره هندا وصينا "

" إذا أمت كتائبه الأعادى ... بعثن برعبه جيشا كميننا "

" يدير عليهم من كل حرب ... تدقهم رضى أو منجنونا "

" إمام بالمغرب لاح شمسنا ... بها الشرق اكنسى نورا مييننا "

" بقيت بذى القصور الغر بدرا ... تلوح بافقهن مدى السنينا "

" تحف بكم عواكف عند بابى ... ملائكة كرام كاتيوننا "

" لك البشرى أمير المؤمنين اد ... خلوها بسلام أميننا "

وقوله فى بعض المبانى المنصورية

" معانى الحسن تظهر فى المغانى ... ظهور السحر فى حدق الحسان "

" مشابه فى صفات الحسن أضحت ... تمت بها المغانى للغوانى "

" بكل عمود صبح من لجين ... تكون فى استقامة خوط بان "

" مفصلة القدود مثلثات ... مواصلة العناق من التدانى "

" تردت سابرى الحسن يبرى ... بحسن السابرى الخسروانى "

" وتعطو الخيزرانة من دماها ... بسالفة القطيع البرهمانى "

" لمجدك تنتمى لكن نماها ... إلى صنعاء ما صنع اليدان "

" يدين لك ابن ذى يزن ويعنو ... لها غمدان فى أرض اليمان "

" غدت حرما ولكن حل فيها ... لوفدكم الأمان مع الأمانى "

" مبان بالخلافة أهلات ... بها يتلواهدى السبع المثانى "

" هى الدنيا وساكنها إمام ... لأهل الأرض من قاص ودانى "

" قصور ما لها فى الأرض شبه ... وما فى المجد للمنصور ثانى "

وقوله رحمه الله تعالى مما كتب فى المصرية المطلة على الرياض المرتفعة

على القبة الخضراء من بديع المنصور وكان إنشاؤها فى جمادى الأولى من عام خمسة وتسعين

وتسعمائة

" باكر لدى من السرور كؤوسا ... وارض النديم أهلة وشموسا "

" واعرج على غرقي المنيف سماؤها ... تلق الفراق في حماي جلوسا "

" وإذا طلعت بأوجها فمر العلا ... لا ترتضى غير النجوم جليسا "

" شرق القصور بريقها لما اجتلت ... منى على بسط الرياض عروسا "

" واعتضت بالمنصور أحمد ضيغما ... وردا تحيز من بديعي خيسا "

" ملك أرى كل الملوك ممالكا ... لعلاه والدنيا عليه حبيسا "

" دامت وفود السعد وهي عواكف ... تصل المقييل لدي والتعريسا "

" وهناك يا شرف الخلافة دولة ... تلقى برايتها طلائع عيسى "

وقوله من جملة قصيدة من نمط ما تقدم لم أستحضر أولها

" سلبت تمانلها الحجى لما اغتدت ... تزهو بحسن طرازها تذهيبا "

" ولقد تشامخ فى العلو سماكها ... فجرى على الفلك المنير جنيا "

" وسما الى الشهب الزواهر فاغتدى ... الإكليل منها تاجها المعصوبا "

" هذا البديع يعز شبه بدائع ... أبدعتن به فجاء غريبا "

" أضنى الغزاة حسنة حسدا لذا ... أبدى عليها للأصيل شحوبا "

" وانقضت الزهر المنيرة إذ رأت ... زهر الرياض به ينور عجيبا "

" شيدت من مصانعا وصنائعا ... أنجزن وعدك للعلا المرفوبا "

" وحريت فى كل الفخار لغاية ... أدركتها أو ما مست لغوبا "

" فانعم بملكك فيه دام مؤيدا ... تجنى به فن النعيم رطيبا "

" وإليكها عذراء فكر أهديت ... وجعلت مدحك مهرها الموهوبا "

" ونظمت من درر البلاغة عقدها ... فغدا يروق بجيدها ترتيبا "

" ورفعتها لمقامكم تمشى على ... استجيا فيزعجها الولا ترغيبا "

" فأتت على شرف لكم فتوقفت ... لما رأت ذاك الجلال مهيبا "

" شفعت إليك بحب جدك أحمد ... لتنبليها منك الرضى المرغوبا "

" دامت بك الدنيا يروق جمالها ... وإلى القيامة أمركم مرهوبا "

" وكلاكم الله العظيم كلاءة ... يرعى بها خلفا لكم وعقبا "

رسالة من الفشتالى إلى المؤلف

ومحاسن صاحبنا المذكور فى النظم والنثر يضيح عنها هذا التأليف وكنت أثبت منها جملة فى غير هذا الموضوع

ولما أحس بعزمى على الرحلة إلى الحجاز واقتضائى من سلطان المغرب فى وعده لى بها النجاز كتب إلى من حضرة مراكش وأنا حينئذ بفاس ما صورته بعد سطر الافتتاح

" يا نسمة عطست بها أنف الصبا ... فتضمخت بعبيرها فنن الربى "

" هبى على ساحات أحمد وأشرحى ... شوقى إلى لقياه شرحا مطنبا "

" وصفى له بالمنحنى من أضلعى ... قلبا على جمر الغضا متقلبا "

" بان الأحبة عنه حتى قد توى ... منهم وآخر قد ناي وتغيبا "

" فعساک تسعد يا زمان بقربهم ... فأقول أهلا باللقاء ومرحبا "

السيادة التى سواها الله من طينة الشرف والحسب وغرس دوحته الطيبة بمعدن العلم الزاكى المحتد والنسب سيادة العالم الذى تمشى تحت علم فتياه العلماء الأعلام وتخضع لفصاحته وبلاغته صيارفة النثر والنظام وحملة الأفلام كلما خط أو كتب وإذا استطار بفكرة الوقاد سواجع السجع انثالت عليه من كل أو كارها ونسلت من كل حذب وحكت بانسجامها السيل والقطر فى صبب الفقيه العالم العلم والمحصل الذى ساجلت العلماء لتدرك فى مجال الإدراك شأوه فلم سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفتيا ومالك المملكة فى المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثنيا أبو العباس سيدى أحمد بن محمد المقرئ أبقاءه الله تعالى للعلم يفتض أبكاره ويبنى من روضه اليانع ثماره سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتبه المحب الشاكر عن ود راسخ العماد ثابت الأوتاد مزهر الأغوار والأنجاد ولا جديد إلا الشوق الذى تحن إلى لقياكم ركائبه وترتاح وتحوم على مورد الأنس بكم حوم ذات الجناح على العذب القراح جمع الله تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأسرة الهنا وأتاح للنفوس من حسن محاضرتكم قطف المشتهى وهو غض الجنى

وقد اتصل بالمحب الودود الرقيم الذي راقى من سواد النقش وبياض الطرس شباته وأرانا معجز
أحمد فبهرت آياته وخبا سقط الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته فأطربنا بتغريد طيور همزاته
على أغصان ألقانه وعودنا بالسبع المثاني بنانا أجادت نثر زهراته على صفحاته ثم مررنا بتضاعفه
بسوق الرقيق فرمنا السلوك على منحائها فعمى علينا الطريق وقلنا واهها على سوق ابن نباتة
وكساد رقيقها واستلاب البهجة عن نفيس دررها وأنيقها لا كسوق نفق فيها سوق الغزل وعلا
كعب الرامح والأعزل وتضافر على سحر النفوس والألباب هاروت الجد وماروت الهزل وقد ألقينا
السلاح وجنحنا للسلم وتهيأنا للسياحة فوقفنا بساحل اليم وسلمنا لمن استوت به سفينة
البلاغة على الجودي فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهامة والعى وقلنا ما لنا وللإنشاء فهو فضل
الله يؤتبه من يشاء

وعذرا أيها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنف الصبا فقذفت به البديهة
من الغم وشرقت به صدر قناة القلم كما شرقت صدر القناة من الدم
وأما ما تحمل الرسول من كلام فى صورة ملام لا بل مدام أترع به من سلاف المحبة كأس وجام
فلا وربك ما هى إلا نفحة نفحت لا سموم لفحت هزنا بها جذع أدبكم كى يتساقط علينا رطبا جنيا
ويهمى ودقه على الربيع المحيل من أفكارنا وسميا ووليا فجاد وأروى وأجاد فيما روى وأحيا من
القرائح ميتا كان حديثا يروى وطرسا بين أنامل الأيام ينشر ويطوى أحيا الله تعالى قلوبنا بمعرفة
ونواسم رحمته وعرج بأرواحنا عند الممات إلى المحل الأخص بالمؤمن من حضرته
وأهدى السلام المزرى بمسك الختام إلى الفقيهين الأجددين الصدرين الأنجدين الفذين التوأمين
الفاضلين المجيدين فارسى البراعة واليراعة ورئيسى الجماعة فى هذه الصناعة رضى لى
الأدب وواسطتى عقده ومجلى قدحه المعلى ومورى زنده الممتعين بشميم عراره ورنده
الكارعين بالبحر الفياض من هزله وجده الأئين بالجنس والفصل من رسمه وجده الكاتب البارع أبى
الحسن سيدي على ابن أحمد الشامى والكاتب البليغ أبى عبد الله سيدي محمد بن على
الوجدى وأقرر لهما الود المستحكم المعاهد الصافى المناهل العذب الموارد وأنى قائم بورد الثناء
عليكم وعليهما لدى المقام العلى الإمامى الناصرى دام سلطانه وتمهدت أوطاره وأوطانه
ونهى إليكم أن الفقيه المحب الأستاذ سيدي محمد بن يوسف طلق اللسان بالشكر صادق على
أيك الثناء عن تلکم السيادة بما واليتموه به من جزيل الإحسان وقابلتموه به عند الورود والصدر من
البشر والكرامة وجميل الأمتنان والسلام التام معاد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبه وجب
الكتب إليكم

والله سبحانه يرداكم فى يوم الخميس موفى عشرين من محرم الحرام فاتح سبعة وعشرين وألف
المحب الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد الفشتالى لطف الله تعالى به وخار له بمنه وكرمه
انتهى

ومن أراد شيئا من أخباره فعليه بكتابه الموسوم ب روضة الآس العاطر الأنفاس فى ذكر من لقيه
من أعلام مراكش وفاس وقد بلغتنى وفاته رحمه الله تعالى وأنا فى مصر بعد عام ثلاثين وألف
رحمه الله تعالى فلقد كان أوحد عصره حتى ان سلطان المغرب كان يقول إن الفشتالى نفتخر به
على ملوك الأرض ونيارى به لسان الدين ابن الخطيب رحم الله تعالى الجميع

تعريف بأبى الحسن الشامى

والشامى الذى أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوى البيوت بها وجده قدم من الشام على
حضره فاس فشهروا بنوه بالنسبة إلى الشام وقد بلغتنى وفاته أيضا بعد الثلاثين بعد الألف وقد أجاب
عن الأبيات البائية التى خاطبنى بها الوزير سيدي عبد العزيز الفشتالى المذكور رحم الله تعالى
الجميع بقوله

" نمت نوافج عرف أنفاس الصبا ... فمنى بها روض الوداد وأخصبا "

" نثرت جواهر سلكتها فتتوج ... الغصن النضير بدرها وتعصبا "

" ... ورمت محاجر منحنى ذاك الحمى ... فغدا بها خيف القلوب محصبا "

" وروت أحاديث الغرام صحيحة ... فشفت فؤادا من بعادك موصبا "

" لا غرو أن طارت حشاشة ليه ... طريا فما خلو الغرام كمن صبا "

لا زلتم والزهر ينشق عرفكم ... والزهر تحسد من كمالك منصبا " 4 "

ولنمسك عنان البنان ونرجع إلى ما كنا يصدده من شأن لسان الدين ابن الخطيب المرير منه بمنز
البلاغة والفصاحة جنان الجنان فنقول والله سبحانه ولى التوفيق والإمداد وليس إلا عليه الاعتماد

16 - بين ابن الجياب ولسان الدين

وقال ابن الصباغ العقيلي كان أبو الحسن ابن الجياب رئيس كتاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب اختصاصا تاما وأورثه رتبة من بعده وعهد بها إليه مشيرا بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره وتدريبه بذكائه حتى استحق أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ونال التي لا فوقها من الحظوة وبعد الصيت وسعادة البيخ اتفق له يوما بعدما عزم النصراني على ورود البلد وضافت به الصدور فأنشده ابن الجياب بديها بمحضر الكتاب

" هذا العدو قد طغى ... وقد تعدى ويغى "
 وقال لابن الخطيب أجز أبا عبد الله فأنشده بديها
 " وأظهر السلم وقد ... أسر حسوا فى ارتغا "
 " فبلغ الرحمن سيف ... النصر فيه ما ابتغى "
 " ورده رد ثمود ... والفصيل قد رغا "
 " حتى يرى وليمة ... لكل مرهوب الثغا "

- فقال ابن الجياب هكذا وإلا فلا وعجب الحاضرون من هذه البديهة انتهى 17
 قصيدتان للبلوى يخاطب بهما لسان الدين

ومما خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبى يحيى البلوى المرى رحم الله الجميع
 " عللوني ولو بوعد محال ... وصلوني ولو بطيف خيال "
 " واعلموا اننى أسير هواكم ... لست أنفك ذاتما عن عقال "
 " قدموعى من بينكم فى انسكاب ... وفؤادى من هجركم فى اشتغال "
 " يا أهيل الحمى كفانى غرامى ... لا تزيدوا حسبى بما قد جرى لى "
 " من مجبرى من لحظ ريم ظلوم ... حلل الهجر بعد طيب الوصال "
 " ناعس الطرف أسهر الجفن منى ... طال منه الجفا بطول الليالى "
 " بابلى اللحاظ أصمى فؤادى ... وزماه من غنجه بنبال "
 " وكسا الجسم من هواه نحولا ... قصده فى النوى بذاك انتحالى "
 " ما ابتدى فى الوصال يوما يعطف ... مذ روى فى الغرام باب اشتغالى "
 " ليس لى منه فى الهوى من مجير ... غير تاج العلا وقطب الكمال "
 " علم الدين عزه وسناه ... ذروه المجد بدر أفق الجلال "
 " هو غيث الندى وبحر العطايا ... هو شمس الهدى فريد المعالى "
 " إن وشى فى الرقاع بالنقش قلنا ... صفحة الطرس حليت باللاكى "
 " أو دجا الخطب فهو فيه شهاب ... زانه الصبح فى ظلام الضلال "
 " أو نبا الأمر فهو فى الأمر غضب ... صادق العزم عند ضيق المجال "
 " لست تلقى مثاله فى زمان ... جل فى الدهر يا أخى عن مثال "
 " قد نأى بى حبى له عن ديارى ... لا لجدوى ولا لنيل نوال "
 " لكن اشتقت أن ارى منه وجها ... نوره فاضح لنور الهلال "
 " وكما همت فيه أئثم كفا ... جاد لى بالنوال قبل السؤال "
 " هاكها ابن الخطيب عذراء جاءت ... تلتئم الأرض قبل شسع النعال "
 " وتوفى حق الوزارة عمن ... هو ملك لها على كل حال "

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنتا فى إعداره أولاده بعد نثر نصه يعتذر عن خدمة الإعدار ويصل المدح والثناء على بعد الدار بتاريخ الوسط من شهر شعبان عام تسعة وأربعين وسبعمائة

" لا عذر لى عن خدمة الإعدار ... ولئن نأى وطنى وشط مزارى "
 " أو عاقبى عنه الزمان وصرفه ... تقضى الأمانى عادة الاعصار "
 " قد كنت أرغب أن أفوز بخدمتى ... وأحط رحلى عند باب الدار "
 " بادى المسيرة بالصنيع وأهله ... متشمرا فيه بفضل إزارى "
 " من شاء أن يلقي الزمان وأهله ... ويرى جلالات شاع فى الأقطار "
 " فليات حى ابن الخطيب ملبيا ... فيفوز بالإعظام والإكبار "
 " كم ضم من صيد كرام قدرهم ... يسمو ويعلو فى ذوى الأقدار "
 " إن جئت ناديه فنب عنى وقل ... نلت المنى بتلطف ووفار "
 " يا من له الشرف القديم ومن له ... الحسب الصميم العد يوم فخار "

" يهنيك ما قد نلت من أمل به ... فى الفرقدن النبرين لسارى "

" نجلاك قطبا كل مجد بادخ ... أملان مرجوان فى الإعسار "

" عبد الإله وصنوه قمر العلا ... فرعان من أصل زكا ونجار "

" ناهيك من قمرين فى أفق العلا ... ينميها نور من الأنوار "

" زاكى الأرومة معرق فى مجده ... جم الفضائل طيب الأخبار "

" رقت طبائعه وراق جماله ... فكأنما خلقا من الأزهار "

" وحلت شمائل حسنة فكأنما ... خلعت عليه رقة الأسجار "

" فإذا تكلم قلت ظل ساقط ... أو وقع در من نحور جوارى "

" أو فت حبر المسك فى قرطاسه ... فالروض غب الواكف المدرار "

" تتبسم الأقلام بين بنانه ... فتريك نظم الدر فى الأسطار "

" فتخال من تلك البنان كمائما ... ظلت تفتح ناضر النوار "

" تلقاه فياض الندى متهللا ... يلقاك بالبشرى والاستبشار "

" بحر البلاغة قسها وإيادها ... سبحانها حبر من الأحبار "

" إن ناظر العلماء فهو إمامهم ... شرف المعارف واحد النظار "

" أرى على العلماء بالصيت الذى ... قد طار فى الآفاق كل مطار "

" ما ضره أن لم يجىء متقدما ... بالسبق يعرف آخر المضمار "

" إن كان أخره الزمان لحكمه ... ظهرت وما خفيت كضوء نهار "

" الشمس تحجب وهى أعظم نير ... وترى من الآفاق إثر درارى "

" يا ابن الخطيب خطبتها لعلاكم ... بكرا ترف لكم من خجل الأفكار "

" جاءتك من خجل على قدم الحيا ... قد طيبت بثنائك المعطار "

" وأنت تؤدى بعض حق واجب ... عن نازح الأوطان والأوطار "

" مدت يد التطفيل نحو علاكم ... فتوشحت من حليكم بنصار "

" فابذل لها فى النقد صفحك إنها ... تشكو من التقصير فى الأشعار "

لا زلت فى دعة وعز دائم ... ومسرة تترى مع الأعمار " ترجمة أبى يحيى البلوى "

قال لسان الدين فى حق المذكور فى الإحاطة هو محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوى من أبناء النعم وذوى البيوتات كثير السكون والحياة آل به ذلك أخيرا إلى لوثة لم يستفق منها لطف الله به حسن الخط مطبوع الأدب سيال الطبع معينة وناب عن بعض القضاة وهو الآن رهين ما ذكر يتمنى أهله موته والله ولى المعافاة

وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه من أولى الاتصال بأولى الخلال البارعة والخصال خفا رائقا ونظما بمثله لائقا ودعا به يسترهما تجهم

وسكونا فى طيه إدراك وتفهم عنى بالدراية والتقيد ومال فى النظم إلى بعض التوليد وله أصالة نبتت فى السرو عروفا وتألقت فى سماء المجادة بروقها وتصرف بين النيابة فى الأحكام الشرعية وبين الشهادات العلمية المرعية انتهى

ورأيت بخط أبى الحسن على بن لسان الدين على هامش هذا المحل من الإحاطة ما صورته رحمه الله عليه ما أعذب حلاوته وأعظم مروءته وأكرم أصالته وبنو البلوى ذوو حسب وأهل نعيم وتربية ملوكية حياهم الله وبياهم قال ذلك حبيبهم وأخوهم على بن الخطيب انتهى

من ابن مرزوق إلى لسان الدين - 18

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبى عبد الله محمد ابن مرزوق التلمسانى ما صورته ولما قدمت على مدينة فاس فى غرض الرسالة خاطبني بمنزل الشاطبى على مرحلة منها بما نصه

" يا قادما وافى بكل نجاح ... أبشر بما تلقاه من أفراح "

" هذى ذرى ملك الملوك فلذ بها ... تنل المنى وتفز بكل سماح "

" مغنى الإمام أبى عنان يممى ... تظفر ببحر فى العلا طفاح "

" من قاس جود أبى عنان فى الندى ... بسواه قاس البحر بالضحاح "

" ملك يفرض على العفاة نواله ... قبل السؤال وقبل بسطة راح "

" فلجود كعب وابن سعدى فى الندى ... ذكر محاه عن نداء ما حى "

" ما إن سمعت ولا رأيت بمثله ... من أريحي للندى مرتاح "

" بسط الأمان على الأنام فاصبحوا ... قد ألحفوا منه بظل جناح "

" وهمى على العافين سيب نواله ... حتى حكى سح الغمام الساحى "
 " فنواله وجلاله وفعاله ... فاقت وأعيت ألسن المداح "
 " وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت ... كل المنى تنقاد بعد جماح "
 " من كان ذا ترخ فرؤية وجهه ... متلافة الأجزان والأتراح "
 " فانهض أبا عبد الإله تغز بما ... تبغيه من أمل ونيل نجاح "
 " لا زلت ترتشف الأمانى راحة ... من راحة المولى بكل صباح "
 فالحمد لله يا سيدى وأخى على نعمة التى لا تحصى حمدا يؤم به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ
 الأمد الأقصى فطالما كان معظم سيدى للأسى فى خيال وللأسف بين اشتغال بال واشتعال بلبال
 ولقد ومكم على هذا المقام المولوي فى ارتقاب ولمواعيدكم بذلك فى تحقق وقوعه من غير شك
 ولا ارتياب فها أنت تجتلى من هذا المقام العلى بتشبيك وجوه المسرات صباحا وتتلقى أحاديث
 مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا بحول الله تعالى ولسيدى الفضل فى قبول مركوبه الواصل إليه
 بسرجه ولجامه فهو من بعض ما لدى معظم من إحسان مولاه وإنعامه ولعمري لقد كان وأفدا
 على سيدى فى مستقره مع غيره فالحمد لله الذى يسر فى إيصاله على أفضل أحواله
 جواب لسان الدين - 19

فراجعت بما نصه
 " راحت تذكرنى كؤوس الراج ... والقرب يخفض للجنوح جناحى "
 " وسرت تدل على القبول كأنما ... دل النسيم على انبلاج صباح "
 " حسناء قد غنيت بحسن صفاتها ... عن دملج وقلادة ووشاح "
 " أمست تحض على اللياذ بمن جرت ... بسعوده الأفلام فى الألواح "
 " بخليفة الله المؤيد فارس ... شمس المعالى الأزهر الوضاح "
 " ما شئت من شيم ومن همم غدت ... كالزهر أو كالزهر فى الأدواح "
 " فضل الملوك فليس يدرك شأوه ... أنى يقاس الغمر بالضحاح "
 " أنسى بنى عباسهم بلوائه ... المنصور أو بحسامه السفاح "
 " وغدت مغانى الملك لما حلها ... تزهى بيدى هدى وبحر سماح "
 " وحياة من أهداك تحفة قادم ... فى العرف منها راحة الأرواح "
 " ما زلت أجعل ذكره وثناءه ... روحى وربحانى الأريح وراحى "
 " ولقد تمازج حبه بجوارحى ... كتمازج الأجسام بالأرواح "
 " ولو أننى أبصرت يوما فى يدى ... أمرى لطرت إليه دون جناح "
 " فالآن ساعدنى الزمان وأيقنت ... من قربه نفسى بفوز قداحى "
 " إيه أبا عبد الإله وانه ... لنداء ود فى علاك صراح "
 " أما إذا استنجدتني من بعد ما ... ركدت لما جنت الخطوب رياحى "
 " فإليكها مهزولة وأنا امرؤ ... قررت عجزى واطرحت سلاحى "

سيدى أبقاك الله لعهد تحفظه وولى بعين الوفاء تلحظه وصلتنى رقعتك التى أبدعت وبالحق من
 مولى الخليفة صدعت وألفتني وقد سطت بى الأوجال حتى كادت تتلف الرجال والحاجة إلى الغذاء
 قد شممت كشح البطين وثانية العجاوين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين والفكر
 قد غاض معينه وضعف وعلى الله جزاء المولى الذى يعينه فغزتنى بكتيبة بيان أسدها هصور
 وعلمها منصور وأفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلى بالعجز فى
 المضايق حول ومنة وقول لا أدري للعالم فكيف لغيره جنة لكنها بشرتنى بما يقل لمؤديه بذل
 النفوس وإن جلت وأطلعتنى من السراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلت بما أعلمتنى به من
 جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله فى

عبده وصدق المخيلة فى كرم مجده وهذا هو الجود المحض والفضل الذى شكره هو الفرض وتلك
 الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدأ بالنوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للأسباب
 ولا مجازاة للأعمال نسأل الله تعالى أن يبقى منها على الإسلام أوفى الظلال ويبلغها من فضله
 أقصى الآمال ووصل ما بعثه سيدى صحبتها من الهدية والتحفة الودية وقبلتها امتثالا واستجليت
 منها عتقا وجمالا وسيدى فى الوقت أنسب لاتخاذ ذلك الجنس وأقدر على الاستكثار من إناث
 البهم والإنس وأنا ضعيف القدرة غير مستطيع على ذلك إلا فى الندوة فلو راء سيدى ورأه سداد
 وقصده فضل ووداد أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة مع وجود الحقوق المترتبة لسيط
 خاطرى وجمعه وعمل فى رفع المؤونة على شاكله حالى معه وقد استصحتت مركوبا يشق على

هجرة ويناسب مقامى شكله ونجره وسيدي فى الإسعاف على الله أجره وهذا أمر عرض وفرض فرض وعلى نظره المعول واعتماد إغضائه هو المعقول الأول والسلام على سيدي من معظم قدره وملتزم بره ابن الخطيب فى ليلة الأحد السابع والعشرين لذى قعدة خمس وخمسين وسبعمائة والسما قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان ووطن أنه الطوفان واللحاق فى غدها بالباب المولوى مؤمل بحول الله انتهى

من البرجى إلى لسان الدين - 20

وكتب القاضى أبو القاسم البرجى للسان الدين فى غرض الشفاعة لبعض قرابته قوله

" أيا سابقا فى مجال البراعة ... وفارس ميدان أهل البراعة "

" ومن بدره فى سماء المعالى ... يزين بوصف الكمال ارتفاعه "

" بما لك فى الفضل من حجة ... ومن إمره فى ذويه مطاعه "

" قضاءك فى معسر حل دين ... عليه فأرجأه قد أضاعه "

" وقد كان يبغى لديكم شفيعا ... توسط عندكم فى شفاعة "

" على أنه فى اقتضاء الوداد ... يوفى موازينه أو صواعه "

" وما هو فى سوق تقريرتكم ... ونشر حلاككم بمزجى البضاعة "

كتبت يا سيدي أدام الله تعالى علاكم وحرس مجدكم الطاهر وسناكم وأنا بين خجل مفحم وعجل مقحم أتذكر تسويغى بلقائكم حين سمح الدهر باقترابكم فأحجم وأفكر فى أن إحجامى عند ذلك بإرجائى عسى أن يكون وفق رجائى أفاتنى المقصود فأرى الحزم فى أن أقدم وموقفها بين يديكم فلان يطالبنى مطالبية الغريم وأروم مطاله فلا يبرح ولا يريم والانقياد فى زمام طاعته مما توجه المروة بعدما أوجبه الشارع إذ جعل له حظا فى الأبوة وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين وأنزلته من حماكم بربوة ذات قرار ومعين فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طرف اهتبال وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وجه إقبال فقد عاد دهره بعد النفار مواتيا ونزل على أهل المهلب شاتيا ومجدكم كفيل بتبليغ أمله وتوسيع جذله وذلكم يد على معظمكم شكرها وعلى الله أجرها انتهى ترجمة أبى القاسم البرجى

والبرجى المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن على بن إبراهيم الغسانى البرجى يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة قال فى الإحاطة هو فاضل مجمع على فضله صالح الأبوة طاهر النشأة بادى الصيانة والعفة

طرف فى الخير والحشمة صدر فى الأدب جم المشاركة ثاقب الفهم جميل العشرة ممتع المجالسة حسن الشعر والخط والكتابة فذ فى الانطباع صناع اليد محكم لعمل الكثير من الآلات العلمية ويجيد تفسير الكتب رحل إلى العدو ولقى جلة وتوسل إلى ملكها مجدد الرسم ومعتام أولى الشهرة وعامر دست الشعر والكتابة أمير المسلمين أبى عنان فاشتمل عليه ونوه به وملأ بالخير يده فاقنتى جده وحظوة وذكرها وشهرة وانقيض مع استرسال الملك لفضل عقله حتى تشكى إلى سلطانه بث ذلك عند قدومى عليه وأثر الراحة وجهد فى التماس الرحلة الحجازية ونبد الكل وقصر الخطوة وسلا الخطوة فأسعفه سلطانه بغرضه وجعل حبل همه على غاربه وأصعبه إلى النبى الكريم صلوات الله عليه رسالة من إنشائه وقصيدة من نظمه وكلاهما يعلن فى الخلفاء بعد شأوه ورسوخ قدم علمه وعراقة البلاغة فى نسب خصله ولما هلك وولى ابنه قدمه قاضيا بمدينة ملكه وضاعف له التنويه فأجرى الخطة على سبيل من السداد والنزاهة ثم لما ولى السلطان أبو سالم عمه أجراه على الرسم المذكور واستجلى المشكلات بصدقه وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطانى على تعدد مفاخره شعره ثبت فى كتاب نفاضة الجراب من تأليفنا عند ذكر المدعى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر من أنشد ليلتند من الشعراء ما نصه وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضى جملة السذاجة وكرم الخلق وطيب النفس وخذن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن

المتحيز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار العزوف عن فضول القول والعمل جامع المحاسن الأشتات من عقل رصين وطلب ممتع وأدب نقاوة ويد صناع أبو القاسم ابن أبى زكريا البرجى فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة

" أصغى إلى الوجد لما جد عاتبه ... صب له شغل عمن يعاتبه "

" لم يعط للصبر من بعد الفراق يدا ... فضل من ظل إرشادا يخاطبه "

" لولا النوى لم بيت حران مكتنبا ... يغالب الوجد كتما وهو غالبه "

" يستودع الليل أسرار الغرام وما ... تمليه أشجاناه فالدمع كاتبه "

" لله عصر بشرقى الحمى سمحت ... بالوصل أوقاته لو عاد ذاهبه "

" يا حيرة أودعوا إذ ودعوا حرقا ... يصلى بها من صميم القلب ذائبه "

" يا هل ترى تجمع الأيام ألفتنا ... كعهدنا أو يرد القلب سالبه "

" ويا أهيل ودادى والنوى قذف ... والقرب قد أبهمت دونى مذاهيه "

" هل ناقض العهد بعد البعد حافظه ... وصادع الشمل يوم الشعب شاعبه "

" ويا ربوع الحمى لا زلت ناعمة ... يبكى عهدك مضنى الجسم شاحبه "

" يا من لقلب مع الأهواء منعطف ... فى كل أوب له شوق يجاذبه "

" يسمو إلى طلب الباقي بهمته ... والنفس بالميل للفانى تطالبه "

" وفتنه المرء بالمألوف معضلة ... والأنس بالإلف نحو الإلف جاذبه "

" أبكى لعهد الصبا والشيب يضحك بى ... يا للرجال سبت جدى ملاعبه "

" ولن ترى كالهوى أشجاه سالفه ... ولا كوعد المنى أحلاه كاذبه "

" وهمه المرء تغليه وترخصه ... من عز نفسا لقد عزت مطالبه "

" ما هان كسب المعالى أو تناولها ... بل هان فى ذاك ما يلقاه طالبه "

" لولا سرى الفلك السامى لما ظهرت ... آثاره ولما لاحت كواكبه "

" فى ذمة الله ركب للعلا ركبوا ... ظهر السرى فأجابتهم نجائبه "

" يرمون عرض الفلا بالسير عن عرض ... طي السجل إذا ما جد كاتبه "

" كأنهم فى فؤاد الليل سر هوى ... لولا الضرام لما خفت جوانبه "

" شدوا على لهب الرمضاء وطأتهم ... فغاص فى لجة الظلماء راسبه "

" وكلفوا الليل من طول السرى شططا ... فخلفوه وقد شابت ذوائبه "

" حتى إذا أبصروا الأعلام مائلة ... بجانب الحرم المحمى جانبه "

" بحيث يأمن من مولاه خائفه ... من ذنبه وبنال القصد راغبه "

" فيها وفى طيبة الغراء لى أمل ... يصاحب القلب منه ما يصاحبه "

" إن أنس لا أنس أياما بظلهما ... سقى ثراه عميم الغيث ساكبه "

" شوقى إليها وإن شط المزار بها ... شوق المقيم وقد سارت حباته "

" إن ردها الدهر يوما بعدما عبثت ... فى الشمل منا يده لا نعاتبه "

" معاهد شرفت بالمصطفى فلها ... من فضله شرف تعلق مراتبه "

" محمد المجتبى الهادى الشفيق إلى ... رب العباد أمين الوحي عاقبه "

" أوفى الورى ذمما أسماهم همما ... أعلاهم كرما جلت مناقبه "

" هو المكمل فى خلق وفى خلق ... زكت حللاه كما طابت مناسبه "

" عناية قبل بدء الخلق سابقة ... من أجلها كان آتبه وذاهبه "

" جاءت تبشرنا الرسل الكرام به ... كالصبح تبدو تباشيرا كواكبه "

" أخباره سر علم الأولين وسل ... بدير تيماء ما أبداه راهبه "

" تطابق الكون فى البشرى بمولده ... وطبق الأرض أعلاما تجاوبه "

" فالجن تهتف إعلانا هواتفه ... والجن تقذف إحراقا ثوابه "

" ولم تزل عصمة التأييد تكنفه ... حتى انجلى الحق وانزاحت شوائبه "

" سرى وجنح ظلام الليل منسدل ... والنجم لا يهتدى فى الأفق ساربه "

" يسمو لكل سماء منه منفرد ... عن الأنام وجبرائيل صاحبه "

" لمنتهى وقف الروح الأمين به ... وامتاز قريبا فلا خلق يقاربه "

" لقاب قوسين أو أدنى فما علمت ... نفس بمقدار ما أولاه واهبه "

" أراه أسرار ما قد كان أودعه ... فى الخلق والأمر باديه وغائبه "

" وأب والبدر فى بحر الدجى غرق ... والصبح لما يؤب للشرق آبه "

" فأشرقت بسناه الأرض واتبعت ... سبل النجاة بما أبدت مذاهيه "

" وأقبل الرشيد والتاحت زواهره ... وادبر الغى فانجابت غياهبه "

" وجاء بالذكر آيات مفصلة ... يهدى بها من صراط الله لاحبه "

" نور من الحكم لا تخبو سواطعه ... بحر من العلم لا تفنى عجائبه "

" له مقام الرضى المحمود شاهده ... فى موقف الحشر إذ نابت نوابه "

" والرسول تحت لواء الحمد يقدمها ... محمد أحمد السامى مراتبه "

" له الشفاعات مقبولا وسائلها ... إذا دهى الأمر واشتدت مصاعبه "

" والحوض يروى الصدى من عذب مورده ... لا يشتكى غله الظمان شاره "

" محامد المصطفى لا ينتهى أبدا ... تعدادها هل يعد القطر حاسبه "

" فضل تكفل بالدارين يوسعها ... نعمى ورحمى فلا فضل يناسبه "

" حسبى التوسل منها بالذى سمحت ... به القوافى وجلتها غرائبه "

" حياه من صلوات الله صوب حيا ... تحدى إلى قبره الزاكى نجائبه "

" وخلق الله ملك المستعين به ... مؤيد الأمر منصورا كتائبه "

" إمام عدل بتقوى الله مشتمل ... فى الأمر والنهى يرضيه يراقبه "

" مسدد الحكم ميمون نقيته ... مظفر العزم صدق الراى صائبه "

" مشمر للتقى اذبال مجتهد ... جرار اذبال سحب الجود ساحبه "

" قد أوسعت أمل الراجى مكارمه ... وأحسبت رغبة العافى رغائبه "

" وفاز بالأمن محبوبا مسالمة ... وباء بالخزى مقهورا محاربه "

" كم وافد أمل معهود نائله ... أثنى وأثنت بما أولى حقائبه "

" ومستجير يعز من مثابته ... عزت مراميه وانقادت مآربه "

" وجاءه الدهر يسترضيه معتذرا ... مستغفرا من وقوع الذنب تائبه "

" لولا الخليفة إبراهيم لانبهت ... طرق المعالى ونال الملك غاصبه "

" سمت لنيل تراث المجد همته ... والملك ميراث مجد وهو غاصبه "

" ينميه للجز والعليا أبو حسن ... سمح الخلائق محمود ضرائبه "

" من آل يعقوب حسب الملك مفتخرا ... بباب عزهم السامى تعاقبه "

" أطواد حلم رسا بالأرض محتده ... وزاحمت منكب الجوزا الجوزا مناكبه "

" تحفها من مرين أبحر زخرت ... أمواجهها وغمام نار صائبه "

" بكل نجم لدى الهيجاء ملتعب ... ينقض وسط سماء النقع ثاقبه "

" أكفهم فى دياجيتها مطالعه ... وفى نحور أعاديهم مغاربه "

" يا خير من خلصت لله نيته ... فى الملك أو خطب العلياء خاطبه "

" جردت والفتنة الشعواء ملبسة ... سيفا من العزم لا تنبو مضاربه "

" وخضتها غير هيب ولا وكل ... وقلما أدرك المطلوب هائبه "

" صبرت نفسا لعقبى الصبر حامدة ... والصبر مذ كان محمود عواقبه "

" فليهن دين الهدى إذ كنت ناصرة ... أمن يواليه أو خوف يجانبه "

" لا زال ملكك والتأييد يخدمه ... تقضى بخفض مناويه قواضيه "

" ودمت فى نعم تصفو ملابسها ... فى ظل عز علا تصفو مشاربه "

" ثم الصلاة على خير البرية ما ... سارت إليه بمشتاق ركائبه "

ومن شعره ما قيده لى بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المرينية الفقيه الرئيس الصدر المتفنن أبو زيد ابن خلدون

" صحا القلب عما تعلمين فأقلعا ... وعطل من تلك المعاهد أربعا "

" وأصبح لا يلوى على حد منزل ... ولا يتبع الطرف الخلى المودعا "

" وأضحى من السلوان فى حرز معقل ... بعيد عن الأيام أن يتضعضا "

" يرد الجفون النجل عن شرفاته ... وإن لحظت عن كل أجد اتلعا "

" عزيز على داعى الغرام انقيادة ... وكان إذ ناداه للوجد أهطعا "

" أهاب به للشيب أنصح واعظ ... أصاخ له قلبا منيا ومسمعا "

" وسافر فى أفق التفكير والحجى ... زواهره لا تبرح الدهر طلعا "

" لعمرى لقد أنصيت عزمى تطلبا ... وقضيت عمرى رقة وتطلعا "

" وخضت عباب البحر أخضر مزيدا ... ودست أديم الأرض أغبر أسفعا "

وقال حسبما قيده المذكور

" نهاه النهى بعد طول التجارب ... ولاح له منهج الرشيد لاحب "

" وخاطبه دهره ناصحا ... بالسنة الوعظ من كل جانب "

" فأضحى إلى نصحه واعيا ... وألغى حديث الأمانى الكواذب "

" وأصبح لا تستبيه الغوانى ... ولا تزدره حظوظ المناصب "

ثم قال فى الإحاطة وإحسانه كثير فى النثر والنظم والقصار والمطولات واستعمل فى السفارة إلى

ملك مصر وملك قشتالة وهو الآن قاضى حضرة الملك
 نسيح وحده فى السلامة والتخصص واجتناب فضول القول والعمل كان الله له انتهى
 وكتب ابن المصنف بهامش ترجمة المذكور من الإحاطة ما صورته سيدى وشيخى علامة المغرب
 اليوم وحائز رتبة العلية من خطابه وقضاء وعلامة وهو أحق بها لخلاله الحميدة أبغاه الله تعالى قاله
 محبه على بن الخطيب انتهى
 وكتب على القصيدة الميلادية المتقدمة ما نصه رويتها عنه وسمعتها من لفظه وأجازنى إياها
 بتلمسان انتهى
 وكتب على حاشية قصيدته صحا القلب إلى آخره ما صورته سمعتها من لفظ سيدى وشقيق
 روحى الإمام العلامة الرئیس أبى زيد ابن خلدون بالأندلس أمتع الله به تعالى قال ذلك أخوه على
 بن الخطيب

انتهى 21 - مخاطبات ابن زمرك للسان الدين
 وقال فى الإحاطة فى ترجمة ابن زمرك ما صورته وشعره مترام إلى هدف الإجابة فخاجى النزعة
 كلف بالمعانى البديعة والألفاظ الصقيلة غزير المادة فمن ذلك ما خاطبنى به وهى من أول ما نظمها
 قصيدة مطلعها

" ... أما وانصداع النور من مطلع الفجر "

يقول فيها بعد أبيات

" لك الله من فذ الجلالة أوجد ... تطاوعه الآمال فى النهى والأمر "
 " لك القلم الأعلى الذي طال فخره ... على المرهفات البيض والاسل السمر "
 " يقلد أجياد الطروس تماثما ... بصنفي لآك من نظام ومن نثر "
 " تهيبك القرطاس فاحمر إذ غدا ... يقل بحورا من أناملك العشر "
 " كأن رياض الطرس خد مورد ... يطرزه وشى العذار من الخبر "
 " فشارة هذا الملك رائقة الحلوى ... بألوية حمر وبالصحف الحمر "
 " وما روضة غناء عاهدها الحيا ... تحوك بها وشى الربيع يد القطر "
 " تغنى قبان الطير فى جنباتها ... فيرقص غصن البان فى حلال خضر "
 " تمد لأكواس العرار أناملا ... من السوسن الغض المختم بالتبر "
 " ويحرس خد الورد صارم نهرها ... ويمنع ثغر النور بالذابل النضر "
 " يفاخر مرأها السماء محاسنا ... وتزرى نجوم الزهر منها على الزهر "
 " إذا مسحت كف الصبا جفن نورها ... تنفس ثغر الزهر عن عنبر الشجر "
 " بأعطر من ربا ثنائك فى السرى ... وأبهر حسنا من شمائلك الغر "
 " عجبت له يحكى خلال خميلة ... وتفرق منه الأسد فى موقف الذعر "
 " إذا أضرمت من بأسها الحرب جاحما ... تأجج منه العضب فى لجة البحر "
 " وإن كلك الأبطال فى حومة الوغى ... تفرق ماء البشر فى صفحة البدر "
 " لك الحسب الوضاح والسؤدد الذى ... يضيق نطاق الوصف فيه عن الحصر "
 " تشرف أفق أنت بدر كماله ... فغرناطة تختال تبيها على مصر "
 " تكلل تاج الملك منك محاسنا ... وفاخرت الأملاك منك بنو نصر "
 " بعزمه مضمون السعادة أوجد ... وغرة وضاح المكارم والنجر "
 " طوى الحيف منشور اللواء مؤيدا ... فعز حمى الإسلام بالطى والنشر "
 " ومد ظلال الأمن إذ قصر العدا ... فيتلى سناء الملك بالمد والقصر "
 " إذا احتفل الإيوان يوم مشورة ... وتضطرب الآراء من كل ذى حجر "
 " صدعت بفصل القول غير منازع ... وأطلعت آراء قبسن من الفجر "
 " فإن تظفر الخيل المغيرة بالضحى ... فعن رابك الميمون تظفر بالنصر "
 " فلا زلت للعليا تحمى ذمارها ... وتسحب أذبال الفخار على النسر "
 " وللعلم فخر الدين والفتك بالعدا ... بأوت به يا ابن الخطيب على الفخر "
 " فيهنك عيد الفطر من أنت عيده ... ويتنى بما أوليت من نعم غر "
 " جبرت مهيبا من جناحى ورشته ... وسهلت لى من جانب الزمن الوعر "
 " وبواتنى من ذروة العز معتلى ... وشرفتنى من حيث أدرى ولا أدرى "
 " وسوغتنى الآمال عذبا مسلسلا ... وأسميت من ذكرى ورفعت من قدرى "
 " فدهرى عيد بالسرور وبالمنى ... وكل ليالى العمر لى ليلة القدر "

فأصبحت مغبوطا على خير نعمة ... يقل لأدناها الكثير من الشكر " وهي طويلة انتهى " قلت هذا الرئيس ابن زمرك صرح هنا بأنه بجاه لسان الدين ابن الخطيب أدرك من العز ما أدرك ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك وحرّك من دواعى قتله ما حرّك وكم من صديق لك ضرك وعقك بعدما برك وساءك إثر ما سرّك ولذا رأيت بخط ابن لسان الدين على هامش قوله فى هذه القصيدة ومد ظلال الأمن الخ ما صورته هذا مدحه لحاه الله وعلى قوله وبوأنتى من ذروه العز إلخ ما مثاله هكذا شهادتك لحقه ثم تحولك عنه وكفر نعمته اغرب أخراك الله انتهى وكتب بهامش أول ترجمته من الإحاطة ما نصه أتبعه الله خزيا وعامله بما يستحقه فهذا ترجمه والذي مولاه الذى رفع من قدره فيه ولم يقتله أحد غيره كفانا الله تعالى شر من أحسنا إليه وكتب أيضا تحت هذا ما مثاله هذا الوغد ابن زمرك من شياطين الكتاب ابن حداد بالبيازين قتل أباه بيده أوجعه ضربا فمات من ذلك وهو أخس عباد الله تربية وأحقرهم صورة وأخملهم شكلا استعمله أبى فى الكتابة السلطانية فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر وهو كان السبب فى قتل أبى مصنف هذا الكتاب الذى رياه وأذبه واستخدمه حسبما هو معروف وكفانا الله شر من أحسنا إليه وأسأء إلينا انتهى

وقد ألممنا بترجمته فى هذا الكتاب فى باب تلامذه لسان الدين فلتراجع هنالك ومما كتب به ابن زمرك المذكور إلى لسان الدين ابن الخطيب جوابا عن رسالة قوله " حيث صباحا فأحيت ساكنى القصبة ... واسترجعت أنفسا بالشوق مغتصبه " " قضى البيان لها أن لا نظير لها ... فأحرزت من معانى خصله قصبه " " ناجت طليح سرى لا يستفيق لها ... هدت جوارحه واستوهنت عصبه " " فحركته على فتك الكلال به ... وأذهبت بسرور الملتقى نصبه " " وأذكرت عهد مهديها على شحط ... فعاود القلب من تذكاره وصبه " " ما كنت أسمح من دهرى بجوهره ... لو كان يسمح لى بالقلب من غصبه " " سل أدمع الصب من أعدى السحاب بها ... وقلبه بجمار الشوق من حصبه " " فالله يحفظ مهديها ويشكره ... فوجهها بعصاب الحسن قد عصبه " " من كان وارث آداب يشعشعها ... بالفرض إنى فى إرثى لها عصبه " " هو الملاذ ملاذ الناس قاطبة ... سبحان من لغيات الخلق قد نصبه "

وخاطبه كذلك بقوله

" يكلفنى مولاى رجح جوابه ... وما لتعاطى المعجزات وما ليا " " أحبيك للفضل الذى أنت أهله ... وأكتب مما قد أفدت الأماليا " " فأنت الذى طوفتني كل منه ... وأحسبت آمالى وأكسبت ماليا " " وأنت الذى أعدى الزمان كماله ... وصيرت أحرار الزمان مواليا " " فلا زلت للفعال الجميل مواصلا ... ولا زلت للشكر الجزيل مواليا "

وخاطبه كذلك بقوله

" طالعته دون الصباح صباحا ... لما جلت غرر البيان صباحا " " ولقد رأيت وما رأيت كحسنها ... وجها أعر ومبسما وضاحا " " عذراء ارضعها البيان لبانه ... وأطال مغدى عندها ومراحا " " فأنت كما شاءت وشاء نجيبها ... تذكى الحجى وتنعم الأرواحا " " لا بل كمثل الروض باكره الحيا ... وسقى به زهر الكمام ففاحا " " وطوت بساط الشوق منى بعدما ... نشرت على من القبول جناحا " " وخاطبه كذلك بقوله

" ذرونى فإنى بالعلاء خبير ... أسير فإن النيرات تسير " " وكم بت أطوى الليل فى طلب العلاء ... كانى إلى نجم السماء سفير " " بعزم إذا ما الليل مد رواقه ... يكر على ظلمائه فينير " " أخو كلف بالمجد لا يستغزه ... مهاده إذا جن الظلام وثير " " إذا ما طوى يوما على السر كئشه ... فليس له حتى الممات نشور " " وإنى وإن كنت الممنوع جاره ... لتسبى فؤادى أعين وتغور " " وما تعتربنى فترة فى مدى العلاء ... إلى أن أرى لحظا عليه فتور " " وفى السرب من نجد تعلقت ظبية ... تصول على البابنا وتغير " " وتمنع ميسور الكلام أبا الهدى ... وتبخل حتى بالخيال يزور "

" أسكان نجد جادها واكف الحيا ... هواكم بقلبي منجد ومغير "

" ويا سكني بالأجرع الفرد من منى ... وأيسر حظ من رضاك كثير "

" ذكرك فوق البحر والبعد بيننا ... فمدته من فيض الدموع بحور "

" وأومض خفاق الذؤابة بارق ... فطارت بقلبي أنه وزفير "

" ويهفو فؤادي كلما هبت الصبا ... أما لفؤادي فى هواك نصير "

" ووالله ما أدري أذكرك هزنى ... أم الكأس ما بين الخيام تدور "

" فمن مبلغ عنى النوى ما يسوءها ... وللبين حكم يعتدى ويجور "

" بأنا غدا أو بعده سوف نلتقى ... ونمسي ومنا زائر ومزور "

" إلى كم أرى أكنى ووجدى مصرح ... وأخفى اسم من أهواه وهو شهير "

" أمنجد آمالي ومغلى كاسدى ... ومصدر جاهى والحديث كثير "

" أنسى ولا أنسى مجالسك التى ... بها تلتقيني نضرة وسرور "

" نزورك فى جنح الظلام ونثنى ... وبين يدينا من حديثك نور "

" على أننى إن غبت عنك فلم تغب ... لطائف لم يحجب لهن سفور "

" نروح ونغدو كل يوم وعندها ... رواح علينا دائم ويكور "

" فظلك فوقى حيثما كنت وارف ... ومورد آمالي لديك نمير "

" وعذرا فإنى إن أطلت فإنما ... قصاراي من بعد البيان قصور " وكتب إليه خاتمه رسالة كذلك "

" وحقق ما استطعتم بعدك غمضة ... من النوم حتى أذن النجم بالغروب "

" وعارضت مسرى الريح قلت لعلها ... تنم برىا منك عاطرة الهبوب "

" إلى أن بدا وجه الصباح كأنه ... محياك إذ يجلو بغرته الخطوب "

" فقلت لقلبي استشعر الأنس وابتهج ... فإن تبعد الأجسام لم تبعد القلوب "

" وسر فى ضمان الله حيث توجهت ... ركابك لا تخش الحوادث ان تنوب "

قلت هذه غاية فى معناها لولا خروجها عن القواعد فى ترتيب قافيتها ومبناها فانظر إلى تحوله عن لسان الدين بعد هذه المدائح ونسبته إليه بعده القبايح والأنسان خوان إلا النادر من الإخوان ولا حول ولا قوة إلا بالله

22 - من ابن سلبطور إلى لسان الدين

قال فى الإحاطة فى ترجمة ابن سلبطور ما نصه ومما خاطبني به

" نالته ما أورى زناد القلق ... سوى بريق لاح لى بالأبرق "

" أيقنت بالحين فلولا نفحة ... نجديه منكم تلافى رمقى "

" لكنت أفضى بتلظى زفرة ... وحسرة بين الضلوع تلتقى "

" فأه من هول النوى وما جنى ... على القلوب موقف التفرق "

" يا حاكى الغصن اثنى متوجا ... بالبدر تحت لمة من غسق "

" الله فى نفس معنى اقصدت ... من لاعج الشوق بما لم تطق "

" أتى على أكثرها برح الأسى ... دع ما مضى منها وأدرك ما بقى " ... " ولو بالممام خيال فى "

" الكرى ... إن ساعد الجفن رقيب الأرق "

" فرب زور من خيال زائر ... أقر عينى وإن لم يصدق "

" شقيت من برح الأسى لو ان من ... أصبح رقى فى يديه معتقى "

" ففى معاناة الليالى عائق ... عن التصابى وفنون العلق "

" وفى ضمان ما يعانى المرء من ... نوائب الدهر مشيب المفرق "

" هذا لعمرى مع أنى لم أبت ... منها بشكوى روعة أو فرق "

" فقد أخذت من خطوب عدرها ... بابين الخطيب الأمن مما اتقى "

" فخر الوزارة الذى ما مثله ... بدر علا فى مغرب أو مشرق "

" ومذ أرائيه زمانى لم ابل ... من صرفه بمرعد أو مبرق "

" لا سيما منذ حططت فى حمى ... مقامه الأمتع رحل اينقى "

" أيقنت أنى فى رجائى لم أخب ... وأن مسعى بغيتى لم يخفق "

" ندب له فى كل حسن آية ... تناسبت فى الخلق أو فى الخلق "

" فى وجهه مسحة بشر إن بدت ... تبهرجت أنوار شمس الأفق "

" تعتبر الأبصار فى اللألاء ما ... عليه من نور السماح المشرق "

" كالدهر فى استينائه وبطشه ... كالسيف فى حد الطبى والرونق "

" إن بخل الغيث استهلته يده ... بوابل من غيث جود غدق "
 " وإن وشت صفحة طرس انجلى ... ليل دجاها عن سنا مؤتلق "
 " بمثلها من حبرات أخجلت ... حواشى الروض خدود المهرق "
 " ما راق فى الأذان أشناف سوى ... ملتقطات لفظه المفترق "
 " تود أجباد الغوانى أن يرى ... حليها من در ذاك المنطق "
 " فسلى به هل آده الأمر الذى ... حمل فى شرح الشباب المونق "
 " إذا رأى رأى فلا يخطئه ... يمن اختيار للطريق الأوفى "
 " إيه أبا عبد الإله هاكها ... عذراء تحثو فى وجوه السبق "
 " خذها إليك بكر فكر يزدري ... لديك بالأعشى لدى المحلق "
 " لا زلت مرهوب الجناب مرتجى ... موصول عز فى سعود ترتقى "
 " مبلغ الآمال فيما تنبغى ... مؤمن الأغراض مما تنقى "

ترجمة ابن سلبطور

وابن سلبطور هو محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمى
 قال فى الإحاطة من أهل المربة يكنى أبا عبد الله من وجوه بلده وأعيانه نشأ نبيه البيت ساحبا
 بنفسه وبماله ذيل الحظوة متحليا يخلص من خط وأدب وزير متجندا ظريفا دربا على ركوب البحر
 وقيادة الأساطيل ثم انحط فى هواه انحطاطا أضاع مروءته واستهلك عقاره وهدد بينه وألجأه أخيرا
 إلى اللحاق بالعدوة فهلك بها
 وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه مجموع شعر وخط وذكاء عن
 درجة الظرفاء غير منحنط إلى مجادة أثيلة البيت شهيرة الحي والميت نشأ فى حجر الترف والنعمة
 محفوف بالمالية الجملة فلما عقل عن ذاته وترعرع بين لداته أجرى خيول لذاته فلم يدع منها ربعا إلا
 أفقره ولا عقارا إلا عقره حتى حط بساحلها واستولى بسفر الإنفاق على جميع مراحلها إلا أنه
 خلص بنفس طيبة وسراوة سماؤها صيبة وتمتع ما شاء من زير وبم وتأنس لم يعط القيادة لهم وفى
 عفو الله سعة وليس مع التوكل عليه ضعة

شعره

من شعره قوله يمدح السلطان وأنشدها إياه بالمضارب من وادى الغيران عند قدومه المربة
 " أنعرك أم سمط من الدر ينظم ... وريقك أم مسك به الراح تختم "
 " ووجهك أم باد من الصبح نير ... وفرعك أم داج من الليل مظلم "
 " أعلل منك الوجد والليل متلفى ... وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم "
 " وأفنع من طيف الخيال بزورة ... لو أن جفونى بالمنام تنعم "
 ثم سرد لسان الدين القصيدة وهى طويلة
 ثم قال ومن شعره مذيلا على البيت الأخير حسبما نسب إليه بلده
 " نامت جفونك يا سؤلى ولم أنم ... ما ذاك إلا لفرط الوجد والسقم "
 " أشكو إلى الله ما بي من محبتكم ... فهو العليم بما ألقى من الألم "
 " إن كان سفك دمي أقصى مرادكم ... فما غلت نظرة منكم بسفك دمي "
 ومما ينسب إليه كذلك
 " قف بى وناد بين تلك الطلول ... أين الألى كانوا عليها نزول "
 " أين ليالينا بهم والمنى ... نجنيه غضا بالرضى والقبول "
 " لا حملوا بعض الذى حملوا ... يوم تولت بالقباب الجمول "
 " إن غبتهم يا أهل نجد ففى ... قلبى أنتم وضلوعى حلول "
 ثم قال ناب فى القيادة البحرية عن خاله القائد أبى على الرنداحى وولى أسطول المنكب برهة
 وتوفى بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعمائة رحمه الله تعالى انتهى
 من ابن راجح إلى لسان الدين - 23
 وقال لسان الدين كتب إلى أبو عبد الله ابن راجح التونسي بما يظهر من أبياته وهى
 " أما الذى لى فى حلاك من الحمد ... ومالك ملاكى لدى من الرقد "
 " لقد أشعرتنى النفس أنك معرض ... عن المسيرف الأتى لفضلك يستجدي "
 فإن زلة منى بدت لك جهرة ... فصفحا فما والله أذنبت عن قصد " 24 - جواب لسان الدين
 فراجعته بقولى
 " أجلك عن عتب يغض من الود ... وأكرم وجه العذر منك عن الرد "

" ولكننى أهدى إليك نصيحتى ... وإن كنت قد أهديتها ثم لم تجد "
 " إذا مقول الإنسان جاوز حده ... تحولت الأغراض منه إلى الضد "
 " فأصبح منه الجد هزلا مذمما ... وأصبح منه الهزل فى معرض الجد "
 " فما اسطعت قبضا للعنان فإنه ... احق السجايا بالعلاء وبالمجد "

ترجمة ابن راجح

وقال فى الإحاطة فى حق ابن راجح المذكور ما حصله محمد بن على ابن الحسن بن راجح الشريف الحسنى باعترافه " ولا تزر وازرة وزر أخرى " الزمر والاسراء والأنعام تونسى أبو عبد الله يعرف بابن راجح صاحب رواء وأبهة نظيف البزة فاره المركب مطفف مكيال الإطراء جموح فى إيجاب الحقوق مترام إلى أقصى أماد التوغل سخى اللسان بالثناء ثرثاره مرسل لعنانه فى كل المحافل متواضع متودد فكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة مخصوص حيث حل من الملوك والأمراء بالأثرة وممن دونهم بالمداخلة والصحبة ينظم الشعر ويحاضر بالأبيات ويقوم على تاريخ بلده ويثابر على لقاء أهل المعرفة والأخذ عن أولى الرواية قدم الأندلس عام خمسين وسبعمائة مغلنا من الوقيعة بالسلطان أبى الحسن فمهد له سلطانها كنف بره وأواه إلى سعة رعيه وتأكدت بينى وبينه صحبة

من لسان الدين إلى ابن راجح - 25

كتبت إليه أول قدمه بما نصه أخذو حذو أبيات ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمى خاطبه بها " أمن جانب الغربى نفحة بارح ... سرت منه أرواح الجوى فى الجوارح "
 " قدحت بها زند الغرام وإنما ... تجافيت فى دين السلو لقادح "
 " وما هى إلا نسمة حارجية ... رمى الشوق منها كل قلب بقادح "
 " رجحنا لها من غير شك كأنها ... شمائل أخلاق الشريف ابن راجح "
 " فتى هاشم سبفا إلى كل غاية ... وصبرا مغار الفتل فى كل فادح "
 " أصيل العلا جم السيادة ذكره ... طراز نضار فى برود المدائح "
 " وفرقان مجد يصدع الشك نوره ... حبا الله منه كل صدر بشارح "
 " وفارس ميدان البيان إذا انتضى ... صحائفه أنست مضاء الصفائح "
 " رقيق كما راقتك نعمة ساجع ... وجزل كما راعتك صولة جارح "
 " إذا ما احتبى مستحضرا فى بلاغة ... وخوض خضم القول منه بسابح "
 " وقد شرعت فى مجمع الحفل نحوه ... أسنة حرب للعيون اللوامح "
 " فما ضعفت منه لصولة صادع ... ولا ذهبت منه بحكمة ناصح "
 " تذكرت قسا قائما فى عكاظة ... وقد غص بالشم الأنوف الججاجح "
 " ليهنك شمس الدين ما حزت من علا ... خواتمه موصولة بالفواتح "
 " رعى الله ركبا أطلع الصبح مسفرا ... لمراك من فوق الربى والبطائح "
 " ولله ما أهدته كوما أوضعت ... برحلك فى قفر عن الأنس نازح "
 " أقول لقومى عندما حط كورها ... وساعدها السعدان وسط الأباطح "
 " ذروها وأرض الله لا تعرضوا لها ... بمعرض سوء فهى ناقة صالح "
 " إذا ما أردنا القول فيه فمن لنا ... بطوع القوافى وانبعث القرائح "
 " بقيت منى نفس وتحفة قادم ... ومورد ظمان وكعبة مادح "
 " ولا زلت تلقى البر والرحب حيثما ... أرحت السرى من كل غاد ورائح "

جواب ابن راجح - 26

فأجبنى بما نصه " أمن مطلع الأنوار لمحة لامح ... تعاد لموفؤود عن الحى نازح "
 " وهل بالمنى من مورد الوصل يرتوى ... غليل عليل للتواصل جانح "
 " فىا فيض عين الدمع ما لك والحمى ... ورنده الحمى والشيح شيخ الأشايح "
 " مرابع آرامى ومورد ناقتى ... فسقيا لها سقيا لناقة صالح "
 " سقى الله ذاك الحى ودقا فإنه ... حمى لمحات العين عن لمح لامح "
 " وأبدي لنا حور الخيام تزف فى ... حلى الحسن والحسنى وحلى الملامح "
 " ترى حى تلك الحور للهور مهيع ... يدل وهل حسم لداء التبارح "
 " ويا يا دوحة الريحان هل لى عودة ... لعفر عفار الأنس بين الأباطح "
 " وهل أنت إلا حلة حاتمىة ... تغص نواديها بغاد ورائح "

" أقام بها الفخر الخطيب منابرا ... لترتيل آيات الندى والمنايح "

" وشفع بالإنجيل حمد مديحه ... وأوتر بالتوراة شفع المدائح "

" وفرق بالفرقان كل فريقة ... نأت عن رشاد فيه محض النصائح "

" وهل هو إلا للبرية مرشد ... لكل هدى هاد لأرجح راجح "

" فيشرى لسان الدين ساد بك الورى ... وأورى الهدى للرشد أوضح وأوضح "

" متى قلت لم تترك مقالا لقائل ... وإن لم تقل لم يغن مدح لمادح "

" فمن حام بالحى الذى أنت ربه ... وعام ببحر من عطايك طافح "

" يحق له أن يشفع الحمد بالثنا ... ويغدو بذاك البحر اسبح سابح "

" ويا فوز ملك دمت صدر صدوره ... وبشرى له قد راح أريح رابح "

" بأرائك اللاتى تدل على الهدى ... وتبدي لمن خصصت سبل المناجح "

" ملكت خصال السبق فى كل غاية ... وملكيت ما ملكت يا ابن الججاجح "

" مطامح آمال لأشرف همة ... أقل مراميهها أجل المطامح "

" فدونكها يا مهدي المدح مدحة ... أجبت بها عن مدح أشرف مادح "

" تهنيك بالعام الذى عم مدحه ... مواهب هاتيك البحار الطوافح "

" فخذها سمى الفخر يا خير مسبل ... على الخلق إغضاء ستور التسامح "

" ودم خاطب العليا بها خير خاطب ... وأتوق تواق وأطمح طامح "

بغية ترجمة ابن راجح

ثم قال لسان الدين توفى يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمس وستين وسبعمائة وقد ناهز السبعين ودفناه بروصتنا إلييرة وأعفى شارب الشعر من ثانى مقصه عفا الله تعالى عنا وعنه انتهى

قلت رأيت بخط البدر البشتكى فى اختصاره لإحاطة لسان الدين وسماه ب مركز الإحاطة فى هذا المحل ما نصه قال كاتبه لو وفق الله تعالى هذا الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهداء ولعل ما فى كتاب أبى البركات الذى اسمه شعر من لا شعر له أنزل من هذه الطبقة انتهى وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق وأعفى شارب الشعر من ثانى مقصه فله دره من لودعى زان خاتم البراعة بفضة فلکم له من عبارة وجزيرة يقضى بها ما لم يستطيع غيره أن يعبر عنه بإطنابه فعلى كل من يروم التعبير عما فى الضمير أن يتمسك بأطنابه وقال ابن خاتمة حدثنى الشريف الأديب أبو عبد الله ابن راجح التونسى مقدمة علينا بالمرية قال سجن القاضى أبو عبد الله ابن عبد السلام شابا وسيما لحق تعين عليه فأنشدته مداعبا

" أفاضى المسلمين حكمت حكما ... غدا وجه الزمان له عبوسا "

" سجنى على الدراهم ذا جمال ... ولم تسجنه إذ غصب النفوسا "

فأجابنى بأن قال إنما شكاه لى أرباب الدراهم دون أرباب النفوس انتهى رجع إلى ما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى

من العشاب إلى لسان الدين - 27

ومما خاطبه به أبو عبد الله العشاب التونسى فى بعض الأعياد قوله

" بيمن أبى عبد الإله محمد ... تيمن هذا القطر وانسجم القطر "

" أفاض علينا من جزيل عطائه ... بحورا تديم المد ليس له جزر "

" وأنسنا لما عدنا مغانيا ... إذا ذكرت فى القلب ليس لها دعر "

" هنيئا بعيد الفطر يا خير ماجد ... كريم به تسمو السيادة والفخر "

ودمت مدى الأيام فى ظل نعمة ... تطيع لك الدنيا ويعنو لك الدهر " 28 - من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشى إلى لسان الدين

وقال لسان الرحمن الدين فى ترجمة ابن عبد الملك المراكشى ما صورته وخاطبنى بقوله

" وليت ولاية أحسنت فيها ... ليعلم أنها شرفت بقدرك "

" وكم وال أساء فليل فيه ... دنى القدر ليس لها بمدرك "

وقال أيضا يخاطبنى فى المعنى

" وليت فليل أحسن خير وال ... ففاق مدى مداركها بفضله "

" وكم وال أساء فليل فيه ... دنا فمحا محاسنها بفعله "

ترجمة ولد ابن عبد الملك

وفى الإحاطة ما محصله أن المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسى

كان شديد الانقباض محجوب المحاسن تنبو العين عنه جهامة ووحشة ظاهر وغرابة شكل وفى طى ذلك أدب غض ونفس حرة وحديث ممتع وأبوة كريمة أحد الصابرين على الجهد المستمسكين بأسباب الحشمة الراضين بالخصاصة وأبوه قاضى القضاة نسيح وحده الإمام العالم التاريخى المتبحر فى الآداب تغلبت به أيدى الليالي بعد وفاته لتبعة سلطت على نشبه فاستقر بمالقة مقدورا عليه لا يهتدي لمكان فضله إلا من عثر عليه ومن شعره قوله " من لم يصن فى أمل وجهه ... عنك فصن وجهك عن رده "

" واعرف له الفضل وعرف له ... حيث أحل النفس من قصده "

ثم قال توفى فى ذى القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة انتهى من المكودي إلى لسان الدين - 29

ومما مدح به لسان الدين قول أبى عبد الله محمد المكودي الفاسي رحمه الله تعالى " رحماك بى فلقد خلدت فى خلدي ... هوى أكابد منه حرقة الكبد "

" حللت عقد سلوى عن فؤادى إذ ... حللت منه محل الروح من جسدى "

" مرآك بدرى وذكراك التذاذ فمى ... ودين حبك إضمارى ومعتقدى "

" ومن جمالك نور لاح فى بصرى ... ومن وداك روح حل فى خلدي "

" لا تحسين فؤادى عنك مصطبرا ... فقبل حبك كان الصبر طوع يدي "

" وهاك جسمى قد أودى النحول به ... فلو طلبت وجودا منه لم تجد "

" بما بطرفك من غنج ومن حور ... وما بثغرك من در ومن برد "

" كن بين طرفى وقلبي منصفا فلقد ... حابيت بعضهما فاعدل ولا تحد "

" فقال لى قد جعلت القلب لى وطنا ... وقد قضيت على الأجان بالسهد "

" وكيف تطلب عدلا والهوى حكم ... وحكمه قط لم يعدل على أحد "

" من لى بأعيد لا يرثى لذى شجن ... وليس يعرف ما يلقاه ذو كمد "

" ما كنت من قبل إذعانى لسطوته ... إخال أن الرشا يسطو على الأسد "

" إن جاد بالوعد لم تصدق مواعده ... فإن قنعت بزور الوعد لم يعد "

" شكوته علتى منه فقال ألا ... سر للطبيب فما برء الضنى بيدي "

" فقلت إن شئت برئى أو شفا ألقى ... فبارتشاف لماك الكوثرى جد "

" وإن بخلت فلى مولى وجود على ... ضعفى ويبرىء ما أضنيت من جسدى "

وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب وكيف لا وقد ملأ من إحسانه الوطاب رحم الله تعالى الجميع

من اليتيم إلى لسان الدين - 30

وقال لسان الدين كتبت إلى أبى عبد الله اليتيم أسأل منه ما أثبت فى كتاب التاج من شعره فكتب إلى بهذه الأبيات

" أما الغرام فلم أخلل بمذهبه ... فلم حرمت فؤادى نيل مطلبه "

" يا معرضا عن فؤاد لم يزل كلفا ... بحبه ذا حذار من تجنبه "

" قطعت عنه الذى عودته فغدا ... وحظه من رضاه برق خليه "

" أيام وصلك مبذول وبرك بى ... مجدد قد صفا لى عذب مشربه "

" وسمع ودك عن إفك العواذل فى ... شغل وبدر الدجى ناس لمغربه "

" لا أنت تمنعنى نيل الرضى كرما ... ولا فؤادى بوان فى تطلبه "

" لله عرفك ما أذكى تنسبه ... لو كنت تمنحنى استنشاق طيبه "

" أنت الحبيب الذى لم أتخذ بدلا ... منه وحاشا لقلبي من تقلبه "

" يا ابن الخطيب الذى قد فقت كل سنا ... أزال عن ناظرى إظلام غيبه "

" محمد الحسن فى خلق وفى خلق ... أكملت باسمك معنى الحسن فازه به "

" حضرت أو غبت ما لى عن هواك غنى ... لا ينقص البدر حسنا فى تغيبه "

" سيان حال التدانى والبعاد وهل ... لمبصر البدر نيل فى ترقبه "

" يا من أحسن ظنى فى رضاه وما ... ينفك يهدى قبيحا من تغضبه "

" إن كان ذنبى الهوى فالقلب منى لا ... يصغى لسمع ملام من مؤنبه "

من لسان الدين - 31

إلى اليتيم

فأجبت بهذه الرسالة وهى ظريفة فى معناها يا سيدى الذى إذا رفعت راية ثائته تلقيتها باليدين

وإذا قسمت سهام وداده على ذوى اعتقاده كنت صاحب الفريضة والدين دام بفاؤك لطفة تبديها وغريبة تردفها بأخرى تليها وعقيلة بيان تجليها ونفس أخذ الحزن بكظمها وكلف الدهر بشت نظمها تؤنسها وتسليها لم أزل أشد على بدائعك يد الضنين وأقتنى درر كلامك ونفثات أقلامك اقتناء الدر الثمين والأيام بلقائك تعد ولا تسعد وفى هذه الأيام انثالت على سماؤك بعد قحط وتواترت لدى الأوك على شحط وزارتنى من عقائل بيانك كل فاتنة الطرف عاطرة العرف رافلة فى حلل البيان والظرف لو ضربت بيوتها بالحجاز لأقرت لها العرب العاربة بالإعجاز ما شئت من رصف المبنى ومطاوعة اللفظ لغرض المعنى وطيب الأسلوب والتثبث بالقلوب غير أن سيدى أفرط فى التنزل وخلط المخاطبة بالتغزل وراجع الالتفات ورام استدراك ما فات ويرحم الله تعالى شاعر المعرة فلقد أجاد فى قوله وأنكر مناجاة الشوق بعد انصرام حوله " أبعده حول تناجى الشوق ناحية ... هلا ونحن على عشر من العشر "

ولقد تجاوزت فى الأمد وأنسيبت أخبار صاحبك عبد الصمد فأقسم بألفات القدود وهمزات الجفون السود وحامل الأرواح مع الألواح بالغدو والرواح لولا بعد مزارك ما أمنت غائلة ما تحت إزارك ثم إنى حققت الغرض وبحتت عن المشكل الذى عرض فقلت للخواطر انتقال ولكل مقام مقال وتختلف الحوائج باختلاف الأوقات ثم رفع اللبس خير الثقات ومنها وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم والحنين إلى العهد القديم فسررت باستقامة حاله وفضل ماله وإن لاحظ

اللاحظ ما قال الجاحظ فاعتراض لا يرد وقياس لا يطرد حبذا والله عيش التأديب فلا بالضنك ولا بالجديب معاهدة الإحسان ومشاهدة الصور الحسان

يمينا إن المعلمين لسادة المسلمين وإنى لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب أمراء فوق المراتب من كل مسيطر الدرة متقطب الأسرة متنمر للوارد تنمر الهرة يغدو إلى مكنته كالأمير فى موكبه حتى إذا استقل فى فرشه واستوى على عرشه وترنم بتلاوة قالونه وورشه أظهر للخلق احتقارا وأزرى بالجبال وقارا ورفعت إليه الخصوم ووقف بين يديه الظالم والمظلوم فتقول كسرى فى إيوانه والرشيد فى أوانه أو الحجاج بين أعوانه فإذا استولى على البدر السرار وتبين للشهر الغرار تحرك إلى الخرج تحرك العود إلى الفرج أستغفر الله مما يشق على سيدى سماعه وتشمئز من ذكره طباعة شيم اللسان خلط الإساءة بالإحسان والغفلة من صفات الإنسان فأى عيش كهذا العيش وكيف حال أمير هذا الجيش طاعة معروفة ووجوه إليه مصروفة فإن أشار بالإنصات لتحقق القصات فكانما طمس على الأفواه ولأم بين الشفاه وإن أمر بالإفصاح وتلاوة الألواح علا الضجيج والعجيج وحف به كما حف بالبيت الحجيج وكم بين ذلك من رشوة تدس وغمزة لا تحس ووعد يستنجز وحاجة تستعجل وتحفز هنا الله سيدى ما خوله وأنساه بطيب أخراه أوله وقد بعثت بدعابتنى هذه مع إجلال قدره والثقة بسعة صدره فليتلقها بيمينه ويفسح لها فى المرتبة بينه وبين خدينه ويفرغ لمراجعتها وقتا من أوقاته عملا بمقتضى دينه وفضل يقينه والسلام

حذف

ترجمة أبى عبد الله البتيم

ثم قال ومن المداعبة التى وقعت إليها الإشارة ما كتب به إليه صديقه أبو على ابن عبد السلام " أبا عبد الإله نداء خل ... وفى جاء يمنحك النصيحة "

" إلى كم تألف الشبان غيا ... وخذلانا أما تخشى الفضيحة "

فأجابه بقوله " فديتك صاحب السمة المليحة ... ومن طابت أرومته الصريحه "

" ومن قلبى وضعت له محلا ... فما عنه يحل بأن أزيحه "

" نأيت فدمع عينى فى انسكاب ... وأكبادى لفرقتكم قريحه "

" وطرفى لا يتاح له رقاد ... وهل نوم لأجفان جريحه "

" وزاد تشوقى أبيات شعر ... أتت منكم بالفاظ فصيحه "

" ولم تقصد بها جدا ولكن ... قصدت بها مداعبة وفيحه "

" فقلت أتألف الشبان غيا ... وخذلانا أما تخشى الفضيحة "

" ففيهم حرفتى وقوام عيشى ... وأحوالى بخلطتهم نجيحه "

" وأمرى فيهم أمر مطاع ... وأوجههم مصايح صبيحه "

" وتعلم أننى رجل حصور ... وتعرف ذاك معرفة صبيحه "

ثم قال لسان الدين بعد إيراده ما مر ما صورته ولما اشتهر المشيب بعارضه ولمته وخفر الدهر

بعهود صباحه وأذمته أفلح واسترجع وتألّم لما فرط وتوجع وهو الآن من جلة الخطباء طاهر العرض والتوب خالص

من الشوب باد عليه قبول قابل التوب وتوفى فى أخريات صفر سنة خمسين وسبعمئة فى الطاعون رحمه الله تعالى وغفر له انتهى
والبيّيم المذكور هو أبو عبد الله محمد بن على العبدري الملقى وفى حقه يقول لسان الدين فى التاج ما مثاله هو مجموع أدوات حسان من خط ونغمة لسان أخلاقه روض تتضوع نسّماته وبشره صبح تتألق قسماته ولا تخفى سماته يقربس أغراض الدعاية وبصميتها ويفوق سهام الفكاهة إلى مراميتها فكلما صدرت فى عصره قصيدة هازلة أو أبيات منحنة عن الإحادة نازلة خمس أبياتها وذيلها وصرف معانيها وسيلها وتركها سمر الندمان وأضحوكة الأزمان وهو الآن خطيب المسجد الأعلى بمالقة متحل بوقار وسكينة حال من أهلها بمكانة مكينة لسهولة جانبه واتضح مقاصده فى الخير ومذاهبه واشتغل لأول أمره بالتكثيب ويبلغ الغاية فى التعليم والترتيب والشباب لم ينصل خضابه ولا سلت للمشييب عضابه ونفسه بالمحاسن كلفه صبه وشأنه كله هوى ومحبة ولذلك ما خاطبه بعض أودائه وكلاهما رمى أخاه بدائه حسبما يأتى خلال هذا المقول وفى أثنائه انتهى

وذكر نحو ما تقدم ذكره سامح الله الجميع بفضله

مخاطبة الكرسوطى للسان الدين - 32

وقال لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطى الفاسى نزيل مالقة ما صورته وأنشدنى وأنا بمالقه أحاول لوث العمامة وأستعين بالغير على الأحكام لها " أمعمما قمرا تكامل حسنة ... أربى على الشمس المنيرة فى البها " لا تلتمس ممن لديك زيادة ... فالبدر لا يمتار من نور السها "

ترجمة أبى عبد الله الكرسوطى

قال لسان الدين وهو فقيه محدث متكلم ألف كتبها منها الغرر فى تكميل الطرر طرر أبى إبراهيم الأعرج ثم كتاب الدرر فى اختصار الطرر المذكور وتقييدان على الرسالة كبير وصغير ولخص التهذيب لابن بشير وحذف أسانيد المصنفات الثلاثة والتزم إسقاط التكرار واستدرك الصحاح الواقعة فى الترمذى على البخارى ومسلم وقيد على مختصر الطليطلى وشرع فى تقييد على قواعد الإمام أبى الفضل عياض بن موسى برسم ولدى ويصدر منه الشعر مصدرا لا تكفه منه العناية وكانت له اليد الطولى فى عبارة الرؤيا ومولده بفاس عام تسعين وستمئة انتهى ملخصا

مخاطبة ابن الزبير للسان الدين - 33

وقال فى الترجمة أبى عمرو ابن الزبير ما صورته ومما خاطبنى به عند إيابى من العدو فى غرض الرسالة قوله

" نوالى الشكر للرحمن فرضا ... على نعم كست طولاً وعرضا "

" وكم لله من لطف خفى ... لنا منه الذى قد شا وأمضى "

" بمقدمك السعيد أتت سعود ... ننال بها نعيم الدهر محضا "

" فىا بشرى لأندلس بما قد ... به والاك بارينا وأرضى "

" ويا لله من سفر سعيد ... قد أقرضك المهيمن فيه قرضا "

" ورحت بنية أخلصت فيها ... فأبت بكل ما يبغى ويرضى "

" وثبت لنصره الإسلام لما ... علمت بأن الأمر إليك أفضى "

" لقد أحبيت بالتقوى رسوما ... كما أرضيت بالتمهيد أرضا "

" وقمت بسنة المختار فينا ... تمهد سنة وتقيم فرضا "

" ورضت من العلوم الصعب حتى ... جنيت ثمارها رطبا وعضا "

" فرأيك راجح فيما تراه ... وعزمك من مواضى الهند أمضى "

" تدبر أمر مولانا فيلقى ... المسىء لديك إشفاقا وإعضا "

" فأعقبنا شفاء وانبساطا ... وقد كانت قلوب الناس مرضى "

" ومن أضحى على ظميا وأمسى ... يرد إن شاء من نعماك حوضا "

" أبا عبد الإله إليك أشكو ... زمانى حين زاد الفقر عضا "

" ومن نعماك أستجدى لباسا ... تفيض به على الجاه فيضا "

" بقيت مؤملا ترجى وتخشى ... ومثلك من إذا ما جاد أرضى "

ترجمة أبى عمرو ابن الزبير

وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير أبوه الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير أستاذ

الزمان شيخ أبى حيان وغيره وقال فى الإحاطة فى حقه إنه فكه حسن الحديث ركض طرف الشيبية فى ميدان الراحة منكبا عن سنن أبيه وقومه مع شغوف إدراك وجوده حفظ كانا يطمعان والده فى نجاته فلم يعدم قادحا شرق فنال حظوة وجرت عليه خطوب ثم عاد إلى الأندلس فتطور بها وهو الآن قد نال منه الكبر يزجى لوفته بمالقة متعللا برمق من بعض الخدم المخزنية استجاز له والده الطم والرم من أهل المغرب والمشرق وبضاعته فى الشعر مزجاة ثم قال مات تاسع المحرم عام خمسة وستين وسبعمائة انتهى

ترجمة أبى يحيى الأكل

وقال فى ترجمة أبى يحيى محمد بن أحمد بن محمد بن الأكل ما صورته شيخ هيدورى الذقن خدوع الظاهر خلوب اللفظ شديد الهوى إلى الصوفية والكلف بإطراء أهل الخير من بيت صون وحشمة متقدم فى معرفة الأمور العلمية خائض فى غمار التصوف وانتحال كيمياء السعادة راكب متن دعوى عريضة فى مقام التوحيد تكذيبها أحواله الراهنة لمعاصرة خلقه على الرياضة واستيلاء الشره وغلبة سلطان الشهوة والمشاحة أيام الولاية والسباب الشاهد بالشدة والحلف المتصل بياض اليوم فى ثمن الخردلة باليمين التى فيها فساد الأنكحة والغضب الذى يقلب العين

مخاطبة الأكل للسان الدين - 34

خاطبنى بين يدي نكبتة ولم أكن أظن الشعر مما تلوكه جحفلته ولكنه من أهل الكفاية

- " رجوتك بعد الله يا خير منجد ... وأكرم مأمول وأعظم مرفد "
- " وأفضل من أملت للحادث الذى ... فقدت به صبرى وما ملكت يدي "
- " وحاشا وكلا أن يخيب مؤملى ... وقد علقت بابن الخطيب محمد "
- " وما أنا إلا عبد نعمته التى ... عهدت بها يمنى وإنجاح مقصدي "
- " وأشرف من حض الملوك على التقى ... وأبدي لهم رشدا نصيحة مرشد "
- " وساس الرعايا الآن خير سياسة ... مباركة فى كل غيب ومشهد "
- " وأعرض عن دنياه زهدا وإنها ... لمظهرة طوعا له عن تودد "
- " وما هو إلا الليث الغيث إن أتى ... له خائف أو جاء مغناه مجتدي "
- " ويحر علوم دره كلماته ... إذا رددت فى الحفل أي تردد "
- " صقيل مرانئ الفكر رب لطائف ... محاسنها تجلى بحسن تعبد "
- " بديع عروج النفس للملا الذى ... تجلت له الأسرار فى كل مصعد "
- " شفيق رفيق دائم الحلم راحم ... ورأى جميل للجميل معود "
- " صفوح عن الجاني على حين قدرة ... مواصل تقوى الله فى اليوم والغد "
- " أيا سيدى يا عمدتى عند شدتى ... ويا مشربى مهما ظمئت وموردى "
- " حنانيك والطف بى وكن لى راحما ... ورفقا على شيخ ضعيف منكذ "
- " رجاك رجاء للذى أنت أهله ... ووافقك يهدى للثناء المجدد "
- " وأمك مضطرا لرحمك شاكيا ... بحال كحر الشمس حر توقد "
- " وعندى افتقار لا يزال مواصلا ... لاکرم مولى حاز أجرا وسيد "
- " ترفق بأولاد صغار بكاؤهم ... يزيد لوقع الحادث المتزيد "
- " وليس لهم إلا إليك تطلع ... إذا مسهم ضر أليم التعهد "
- " أنلهم أيا مولاي نظرة مشفق ... وجد بالرضى وانظر لشمل مبدد "
- " وعامل أبا الكرب الشديد برحمة ... وأسعف بغفران الذنوب وأسعد "
- " ولا تنظرن إلا لفضلك لا إلى ... جريمة شيخ عن محلك مبدد "
- " وإن كنت قد أذنت إنى تائب ... فعود لى الفعل الجميل وجدد "
- " بقيت بخير لا يزال وعزة ... وعيش هنىء كيف شئت وأسعد "
- " وسخرك الرحمن للعبد إنه ... لمثن وداع للمحل المجد "
- ثم قال وهو الآن من مسطرى الأعمال على تهور واقتحام كبره من خط لا غاية وراءه فى الركافة كما قال المعرى
- تمشت فوقه حمر المنايا ... ولكن بعدما مسخت نمالا " 35 - مخاطبة ابن عياش للسان الدين "
- وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن على بن عياش بن مشرف الأمدى إنه من أهل الأصاله والحسب ظهرت منه على حداثة السن أبيات ونسب إليه شعر توسل به وتصرف فى الإشراف فحمدت سيرته وكتب إلى بقوله
- " سفرت شمس اليمين والإقبال ... وبدت بدور السعد ذات كمال "

" لقدوم سيدنا الوزير محمد ... أعزز به من سيد مفضل "

" قمر تجلى بين زهر تجتلى ... يهدى لفعل الخير لا الإضلال "

" سر أمانا لا تكثرث فلأنت فى ... حفظ الإله الواحد المتعالى "

" برا وبحرا لا تخاف ملامة ... وعدو ذاتك خلف ظهرك صالى "

" لا يستقر له قرار بعدكم ... مما يحل به من الاوجال "

" والآن ترجع سالما ومبشرا ... ببلوغ كل مسرة ومنال "

وهى طويلة نمطها متخلف عن الإجادة وهى من مثله مما يستظرف انتهى
مخاطبة أبى عبد الله الوادى أشى للسان الدين - 36
وقال فى ترجمة إبي عبد الله محمد بن محمد العراقى الوادى أشى فاضل
102 حذف

الأبوة بادي الاستقامة حسن الأخلاق تولى أعمالا كتب إلى وقد أبى عملا عرض عليه بقوله
" أأصمت ألفا ثم أنطق بالخلف ... وأفقد إلغا ثم أنس بالجلف "

" وأمسك دهرى ثم أطر علقما ... ويمحق بدرى ثم ألحق بالخسف "

" وعزكم لا كنت بالذل عاملا ... ولو أن ضعفى ينتهى بى إلى الحتف "

" فإن تعملونى فى تصرف عزة ... وعدل وإلا فاحسموا علة الصرف "

بقيتم وسحب العفو منكم تظلنى ... وحظ ثنائى دائما ثنائى العطف " 37 - مخاطبة أبى محمد "

الأزدى للسان الدين
وقال فى ترجمة أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدى ما صورته وخاطبني لما وليت خطة الإنشاء
وغيرها فى أواخر عام تسعة وأربعين وسبعمئة بما نصه
" حشاشة نفس أعلنت لمذيبها ... بتذكار أيام الوصال وطيبها "

" ونادته رحمى أحيها نفس مدنف ... تموت إذا لم تحيها بوجيبها "

" فداو بقرب منك لاعج وحدها ... وفيض أماقبها وطول نحيبها "

" وقد بلغت حدا به صح فى الهوى ... وأحكامه ثوب الضنى فى نصيبها "

" وهل يتداوى داء نفس تعيسة ... إذا كان يوما داؤها من طيبها "

" لعل أوار الوجد تخمد ناره ... فيبرد عنها ما بها من لهيبها "

" إليك حداها الشوق يا بدرها الذى ... يعز عليها منه طول مغيبها "

" سلكت بها سبل الهوى فهى تبتغى ... لقاك وتبغى غفلة من رقيبها "

" أجبها بابقاء عليها فإنها ... ستغنى إذا ما لم تكن بمجيبها "

" ومل نحوها بالود فهى قد أذعنت ... كما تذعن الأقلام لابن خطيبها "

" وحيد الزمان الماهر الباهر الحلى ... وجهذ آداب العلا وأديبها "

" إمام معاليها وبحر علومها ... وبدر دياجيبها وصدر شعوبها "

" مصرفها كيف أنثنت ومعيدها ... وميدنها حيث انتهت ومصيبها "

" ورافع أعلام البلاغة والذى ... أتى ناثرا أو ناظما بعجيبها "

" وحامل رايات الرياسة رفعة ... قضى المجد تخصيصا له بوجوبها "

" من الغر ممن أوجبت لشبابها ... معاليهم الفضل العظيم وشيبيها "

" من أبناء أرباب المنابر والأولى ... سما فخرهم بين الورى بركوبها "

" خلال ابن عبد الله طود الحجى أبى ... محمد باد حسنها من ضروبها "

" أجاد وأجدى فاسل عن ذكر طيء ... وحاتمها زهوا به وحيبها "

" ففى كل ما يبدي محمد عبره ... محاسنها تنبى بسر غيوبها "

" تجيب القوافى إن دعا ببعيدها ... وتنقاد طوعا إن دعا بقربها "

" تخير أخلاق الكرام فلم يكن ... نهى ولهى يرضى بغير رحيبها "

" تقدم فى دار الخلافة حاجبا ... لينجدها فى سلمها وحروبها "

" وقام لها فى ساحة العز كاتبا ... بمحضرها أسرارها ومغيبها "

" فأبدي من أنواع الفضائل أوجها ... تقرر لها بالحسن عين لبيها "

" هنيئا به يمنا بأسعد مائل ... لغرناطة قاض بصرف خطوبها "

" فللسعد تأثير يجىء إذا جرى ... به قدر كالريح عند هبوبها "

" أموقد نار الفكر يقدح زندها ... فيسبى به الألباب سحر نسيها "

" حدانى إليك الحب قدما ومال بى ... حديث لآمال خلت عن غريبها "

" فقدمتها نظما قوافى قصرت ... لديك بذاوى فكرتى ورطبيها "

" وكنت كمن وافى لدى الدار بالحصى ... يرفع منها ساهيا عن عيوبها "

" فصلها وخذ بالعفو فيها فلم أصل ... لأبلغ منها فاغتفر من ذنوبها "

قطع من شعر الأزدى

وصاحب هذا النظم من أهل بلش وله اقتدار على النظم والنثر قال فى الإحاطة ما محصله ومما وقع له أثناء مقامات وأعراض تشهد باقتداره مهملًا

" رعى الله عهدا حوى ما حوى ... لأهل الوداد وأهل الهوى "

" أراهم أمورا حلا وردها ... وأعطاهم السؤل كلا سوا "

" ولما حلا الوصل صالوا له ... وراموه مأوى وماء روا "

" وأوردهم سر أسرارهم ... ورد إلى كل داء دوا "

" وما أمل طال إلا وهى ... وما أمل صال إلا هوى "

وقال معجمه

" بث بينى يثنى فيض جفنى ... شغفى شغفى فشبت بينى "

" فتننتى بغنج طيبى تجنى ... تبتغى نقض نيتى بتجنى "

" بزة زينت قضيب تننى ... قضيت بغيتى ففرت بفن "

" خفت تشنيت بنيتى فجفتنى ... ثقة تنثنى فخيبت ظنى " وقال كلمة وكلمة "

" الهوى شغفى وأهمل جفنى ... أدمعا تنثنى دما بتثنى "

" أحور شب حر بثنى لما ... نقض العهد بين طول تجنى "

" حاكم يتقى ولا ذنب إلا ... شغف لم يخب لمسعاه ظنى "

" ما له ينقض العهود فيشجى ... ولها ينثنى مسهد جفن "

" لم يجز وصله فبت محالا ... يقتضى حل بغيتى كل فن "

وقال يرثى ديكا فقدته ويصف الوجد الذى وجده ويبكى عدم أذانه إلى غير ذلك من مستظرف شأنه

" أودى به الحتف لما جاءه الأجل ... ديكا فلا عوض منه ولا بدل "

" قد كان لى أمل فى أن يعيش فلم ... يثبت مع الحتف فى بقياه لى أمل "

" فقدته فلعمرى إنها عظة ... وبالمواعظ تدرى دمعتها المقل "

" ما كان أبدع مرآه ومنظره ... وصفا به كل حين يضرب المثل "

" كأن مطرف وشى فوق ملبسه ... عليه من كل حسن باهر حلل "

" كأن إكليل كسرى فوق مفرقه ... وتاجه فهو عالى الشكل محتفل "

" موقت لم يكن يعزى له خطأ ... فيما يرتب من ورد ولا خلل "

" كأن زرقال فيما مر علمه ... علم المواقيت مما رتب الأول "

" يرحل الليل يحيى بالصراخ فما ... يصدده كلل عنه ولا ملل "

" رأيته قد وهت منه القوى فهوى ... للأرض فعلا يربه الشارب الثمل "

" لو يفتدى بديوك الأرض قل له ... ذاك الفداء ولكن فاجأ الأجل "

" قالوا الدواء فلم يغن الدواء ولم ... ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا "

" أملت فيه ثوابا أجر محتسب ... إن نلت ذلك صح القول والعمل "

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النصريين وقد نظر إلى شلير وقد تردى بالثلج وتعمم

وكمل ما أراد من بزته وتمم أن ينظم فى وصفه فقال بديها

" وشيخ جليل القدر قد طال عمره ... وما عنده علم بطول ولا قصر "

" عليه لباس أبيض باهر السنن ... وليس بثوب أحكمته يد البشر "

" فطورا تراه كله كاسيا به ... وكسوته فيها لأهل النهى عبر "

" وطورا تراه عازيا ليس يكتسى ... بحر ولا برد من الشمس والقمر "

" وكمر مرت الأيام وهو كما ترى ... على حاله لم يشك ضعفا ولا كبر "

" وذاك شلير شيخ غرناطة التى ... ليهجتها فى الأرض ذكر قد اشتهر "

" بها ملك سامى المراقى أطاعه ... كبار ملوك الأرض فى حالة الصغر "

" تولاه رب العرش منه بعصمة ... تقيه مدى الأيام من كل ما ضرر "

وتوفى المذكور فى بلده بلش فى طاعون عام خمسين وسبعمئة انتهى

من لسان الدين إلى ابن رضوان - 38

وقال فى الإحاطة فى ترجمة صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبى القاسم ابن رضوان النجارى ما

صورته ولما ولى الإنشاء بباب ملك المغرب ظهر لسلطاننا بعض قصور فى المراجعات فكتبت إليه " أبا قاسم لا زلت للفضل قاسما ... بميزان عدل ينصر الحق من نصر " " مدادك وهو المسك طيبا ومنظرا ... وإلا سواد القلب والفود والبصر " " عهدناه فى كل المعارف مطنبا ... فما باله فى حرمة الود مختصر " " أظنك من ليل الوصال أنتخبته ... إلينا وذاك الليل يوصف بالقصر " " أردنا بك العذر الذى أنت أهله ... ومثلك لا يرمى بعى ولا حصر " 39 - جواب ابن رضوان " فراجعنى ولا أدري أهى من نظمه أم نظم غيره " " حقيق أبا عبد الإله بك الذى ... لمذهبه فى البر يتضح الأثر " " وان الذى نهت منى لم يكن ... نؤوما وحاشا الود أن أعطى الأثر " " ورب اختصار لم يشن نظم ناظم ... ورب اقتصار لم يعب نثر من نثر " " وعذرك عنى من محاسنك التى ... نظام حلاها فى المماذج ما انتثر " " ومن عرف الوصف المناسب منصفا ... تأتى له نهج من العذر ما دثر " ترجمة ابن رضوان

وهو عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجارى من أهل مالقة صاحب العلامة العلية والقلم الأعلى بالمغرب قرأ على جماعة منهم بتونس قاضى الجماعة ابن عبد السلام قال فى التاج فيه أيام لم يفهق حوضه ولا أزهر روضه ما نصه أديب أحسن ما شاء وفتح قلبه فملا الدلو وبل الرشاء وعانى على حدائته الشعر والإنشاء وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة ومجد ودبابة ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصون فما مال إلى فساد بعد الكون وله خط بارع وفهم إلى الغوامض مسارع وقد أثبت من كلامه ونفثات أقلامه كل محكم العقود زار بابنة العنقود فمن ذلك قوله

" لعلكما أن ترعيا لى وسائلا ... فبالله عوجا بالركاب وسائلا "

ومنها

" لقد جار دهرى إذ نأى بمطالبي ... وظل بما أبغى من القرب ماطلا " " عتبت عليه فاعتدى لى عاتبا ... وقال أصخ لى لا تكن قط عاذلا " " أتعبتنى أن قد أفدتك موقفا ... لدى أعظم الأملاك حلما ونائلا " " مليك حباه الله بالخلق الرضى ... وأعلى له فى المكرمات المنازلا " وهى طويلة

ومن نظم ابن رضوان المذكور

" تبرأت من حولى إليك وأيقنت ... برحماك آمالى أصح يقين " " فلا أرهب الأيام إذ كنت ملجأ ... وحسبى يقينى باليقين يقينى " " وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدیر فقال من أبيات " " ولرب يوم فى حماك شهدته ... والسرح ناشرة عليك ظلالها " " حيث الغدير يريك من صفحاته ... درعا تجيد به الرياح صقالها " " والمنشآت به تدير حبالا ... للصيد فى حيل تدير حبالها " " وتربك إذ يلقى بها اليم الذى ... أخفت جوانحه وغاب خلالها " " فحسبتها زردا وأن عواليا ... تركت به عند الطعان نصالها " وقال فيه أيضا

" أبصرت فى يوم الغدير عجائبا ... جاءت بأيات العجائب مبصره " " سمكا لدى شبك فقل ليل بدت ... فيه الزواهر للنواظر نيره " " فكأن ذا زرد تضاعف نسجه ... وكأن تلك أسنة متكسره " " ومما نظمه عن أمر الخلافة المستعينية ليكتب فى طرة قبة رياض الغزلان من حضرته

" هذا محل المنى بالأمن معمور ... من حله فهو بالأمال محبور " " مأوى النعيم به ما شئت من ترف ... تهوى محاسنه الولدان والخور " " ويطلع الروض منه مصنعا عجبا ... يضاحك النور من لألأته النور " " ويسطع الزهر من أرجائه أرجا ... ينافح الند نشر منه منشور " " مغنى السرور سقاه الله ما حملت ... غر الغمام وحلته الأزاهير " " انظر إلى الروض تنظر كل معجبه ... مما ارتضاه لراى العين تحبير "

" مر النسيم به يبغى القرى فقري ... دراهم النور تبيد وتنثير "

" وهامت الشمس فى حسن الظلال به ... ففرقت فوقها منه دنائير "

" والدوح ناعمة تهتز من طرب ... همسا وصوت غناء الطير مجهور "

" كأنما الطير فى أفنائها صدحت ... بشكر مالکها والفضل مشكور "

" والنهر شق بساط الروض تحسبه ... سيفا ولكنه فى السلم مشهور "

" ينساب للجة الخضراء أزرقه ... كالأيم جد انسيابا وهو مذعور "

" هذى مصانع مولانا التى جمعت ... شمل السرور وأمر السعد مأمور "

" وهذه القبة الغراء ما نظرت ... لشكلها العين إلا عز تنظير "

" ولا يرام بحصر وصف ما جمعت ... إلا ومنه لكل الحسن تصوير "

" ولا يرام بحصر وصف ما جمعت ... من المحاسن إلا صد تقصير "

" فيها المقاصير تحميها مهابته ... لله ما جمعت تلك المقاصير "

" كأنها الأفق تبدو النيرات به ... ويستقيم بها فى السعد تسيير "

" وينشأ المزن فى أرجائه وله ... من عنبر الشجر إنشاء وتسخير "

" وينهمى القطر منه وهو منسكب ... ماء من الورد يذكو منه تقطير "

" وتخفق الريح منه وهى ناسمة ... مما أهب به مسك وكافور "

" ويشرق الصبح منه وهو من غرر ... غر تلاً منهن الأسارير "

" وتطلع الشمس فيه من سنا ملك ... تبسم الدهر منه وهو مسرور "

" لله منه إمام عادل بهرت ... أوصافه فهى للأمداح تحبير "

" غيث السماح وليث البأسى فالىق به ... محيى الهدى وهو للعادين تبيير "

" قل للمبارى وإن لم تلقه أبدا ... ورب فرض محال وهو تقدير "

" فخر الأنام أحل الفخر منزله ... فكل مدح على علياه مقصور "

" إذا أبو سالم مولى الملوك بدا ... بدرا تضىء بمرآه الدياجير "

" فأى خطب يخاف الدهر أمله ... وأى سؤل له فى النيل تعذير "

" بشراك بشراك يا نجل الخلافة ما ... خولت من نيلها والصد مقهور "

" لك الخلود بعز الملك فى نعم ... لا يعترى صفوها فى الدهر تكدير "

" فانعم هنيئا بلذات مواصلة ... لا يأتليهن إمام وتكرير "

" لا زلت تلقى المنى فى غبطة أبدا ... ما دام لله تهليل وتكبير "

وقال وكتب به على قلم فضة

" إذا شهدت بالنصر خطية القنا ... فملكتم أمر الفتح من دون ما شرط "

" كفى شاهدا منى بفضلك ناطقا ... لسانى مهما أفصحت ألسن الخطى "

وقال وكتب به على سكين

" أرواح بأمر المستعين وأغدى ... لإذهاب طغيان اليراع الرواقم "

" ويفعل فى الأقلام حدى مصلحا ... كفعل ظبى أسيافه فى الأقالم "

قال ومما كتب به على قصيدة عيدية

" لما رأيت هدايا العيد أعظمها ... هدية الطيب فى حسن وتعجيب "

" ولم أجد فى ضروب العاطرات شذا ... يحكى ثناءك فى نشر وفى طيب "

" أهديت نحوك منه كل ذى أرح ... أنفاسه بين تشريق وتغريب "

" وفى القبول منال السعد فالىق به ... تلق الأمانى بتأهيل وترحيب "

وقال فى رجل يلقب بالبعير

" وذى لقب عنت له عند صحبه ... مآرب لم يسعد عليهن مسعد "

" دعوه بعيرا فاستشاط فقال مه ... أبا أحمد وارثد عنهم يهدهد "

" فقلت له عد نحوهم لتعود من ... مرامك بالمطلوب توفى وتحمد "

" فقال وقد غص الفضاء بصوته ... وقد هدرت منه الشقاشق تزيد "

" لئن عدت نادونى بعيرا كمثلها ... فقلت له لا تخش فالعود أحمد "

وقال

" ويخيل لما دعوه لسكنى ... منزل بالجنان ضن بذلك "

" قال لى مخزن بدارى فيه ... كل مالى فليست للدار تارك "

" قلت وفقت للصواب فحاذر ... قول خل مرغب فى انتقالك "

" لا تعرج علي الجنان بسكنى ... ولتكن ساكنا بمخزن مالك "

وقال رحمه الله تعالى فى مركب
 " يا رب منشأة عجبت لشانها ... وقد احتوت فى البحر أعجب شان "

" سكنت بجنيها عصابه شدة ... حلت محل الروح فى الجثمان "

" فتحررت بإرادة مع أنها ... فى جنسها ليست من الحيوان "

" وجرت كما قد شاءه سكانها ... فعلمت أن السر فى السكان "

وقال رحمه الله تعالى
 " وذى خدع دعوة لاشتغال ... وما عرفوه غثا من سمين "

" فأظهر زهده وغنى بمال ... وجيش الحرص منه فى كمين "

" وأقسم لا فعلت يمين خب ... فى عجا لحلاف مهين "

" يغر بيسره ويمين حنث ... ليأكل باليسار وباليمين "

وهو الآن بحالة الموصوفة انتهى

مخاطبة أبى بكر ابن عبد الملك للسان الدين - 40

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى خاطبنى أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الملك مستدعيا إلى إعدار ولده بقوله

" أريد من سيدى الأعلى تكلفه ... إلى الوصول إلى دارى صباح غد "

" يزيدنى شرفا منه ويبصر لى ... صناعة القاطع الحجام فى ولدى "

فأجبتة
 " يا سيدى الأوحى الأسمى ومعتدى ... وذا الوسيلة من أهلى ومن بلدى "

" دعوت فى يوم الأثنين الصباح ضحى ... وفيه ما ليس فى سبت ولا أحد "

" يوم السلام على المولى وخدمته ... فاصفح وإن عثرت رجلى فخذ بيدى "

" والعذر أوضح من نار على علم ... فعد إن غبت عن لوم وعن فند "

" بقيت فى ظل عيش لا نفاذ له ... مصاحبا غير محصور إلى أمد "

ترجمة أبى بكر ابن عبد الملك

وأبو بكر المذكور أصله من باغه ونشأ بلوشة وهو محسوب من الغرناطين
 وفى التاج فى حقه ما صورته فارض هاجى مداهن مداجى أخبت من نظر من طرف خفى وأعدر
 من تلبس بشعار وفى إلى مكيدة مبنوثة الحبال وأغراء يقطع بين الشعوب والقبائل من شيوخ
 طريقة العمل المتقليين من أحوالها بين الصحو والثلث المتعللين برسومها حين اختلط المرعى
 بالهمل وهو ناظم أرجاز ومستعمل حقيقة ومجاز نظم مختصر السيرة فى الألفاظ اليسيرة ونظم
 رجزا فى الرجز والغال نبه به تلك الطريقة بعد الإغفال انتهى
 قال ومن شعره

" إن الولاية رفعة لكنها ... أبدا إذا حققتها تنتقل "

" فانظر فضائل من مضى من أهلها ... تجد الفضائل كلها لا تعزل "

توفى بالطاعون بغرناطة عام خمسين وسبعمائة انتهى

مخاطبة أبى سلطان للسان الدين - 41

وقال فى ترجمة أبى سلطان عبد العزيز بن على الغرناطى بن يثت ما صورته ومما خاطبنى به قوله

" أطلت عتب زمان فل من أملى ... وسمته الذم فى حل ومرتل "

" عاتبتة ليلين العتب جانبه ... فما تراجع عن مطل ولا بخل "

" فعدت أمنحه العتبى ليشفق لى ... فقال لى إن سمعى عنك فى شغل "

" فالعتب عندى كالعتبى فلست أرى ... أصغى لمدحك إذ لم أصغ للعدل "

" فقلت للنفس كفى عن معاتبه ... لا تنقضى وجواب صيغ من وجل "

" من يعتلق فى الدنا بابت الخطيب فقد ... سما عن الذل واستولى على الجذل "

" قالت فمن لى بتقريبى لخدمته ... فقد أجاب قريبا من جوابك لى "

" فقال للناس كفوا عن محادثتى ... فليس ينفعكم حولى ولا حيلى "

" قد اشتغلت عن الدنيا بأخرتى ... وكان ما كان من أيامى الأول "

" وقد رعيت وما أهملت من منح ... فكيف يختلط المرعى بالهمل "

" ولست أرجع للدنيا وزخرفها ... من بعد شيب غدا فى الرأس مشتعل "

" ألسنت تبصر أطمارى وبعدى عن ... نيل الحظوظ وإغذاذى إلى أجلى "

" فقلت ذلك قول صح مجمله ... لكن من شأنه التفصيل للجمل "

" ما أنت جالب أمر تستعين به ... على المظالم فى حال ومقتبل "

" ولا تحل حراما أو تحرم ما ... أحل ربك فى قول ولا عمل "

" ولا تبع أجل الدنيا بعاجلها ... كما الولاة تبع اليم بالوشل "

" وأبن عنك الرشا إن ظلت تطلبها ... هذا لعمرى أمر غير منفعل "

" هل أنت تطلب إلا أن تعود إلى ... كتب المقام الرفيع القدر فى الدول "

" فما لأوحد هذا الكون قاطبة ... وأسمح الخلق من حاف ومنتعل "

" لم يلتفت نحو ما تبغيه من وطر ... ولم يسد الذى قد بان من خلل "

" إن لم تقع نظره منه عليك فما ... يصفو لديك الذى أملت من أمل "

" فدونك السيد الأعلى فمطلبكم ... قد نيط منه بفضل غير منفصل "

" فقد خبرت بنى الدنيا بأجمعهم ... من عالم وحكيم عارف وولى "

" فما رأيت له فى الناس من شبه ... قل النظر له عندى فلا تسئل "

" وقد قصدتك يا أسمى الورى همما ... وليس لى عن حمى عليك من حول "

" فما سواك لما أملت من أمل ... وليس لى عنك من زبغ ولا ميل "

" فانظر لحالى فقد رق الحسود لها ... واحسم زمانه ما قد ساء من علل "

" ودم لنا ولدين الله ترفعه ... ما أعقبت بكر الإصباح بالأصل "

" لا زلت معتليا عن كل حادثة ... كما علت ملة الإسلام فى الملل "

انتهى

ترجمة عبد العزيز أبى سلطان

والمذكور هو عبد العزيز بن على بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يشث من غرناطة يكنى أبا سلطان قال فى الإحاطة فى حقه فاضل حبي حسن الصورة بادی الحشمة فاضل البيت سرية كتب فى ديوان الأعمال فأتقن وترقى إلى الكتابة السلطانية وسفر فى بعض الأغراض الغربية ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية بالحضرة فظهرت عليه آثار ذلك فى نظمه ومقاصده فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاذ المعظم

" القلب يعيشق والمدامع تنطق ... برح الخفاء فكل عضو منطق "

" إن كنت أكنتم ما أكن من الجوى ... فشحوب لونى فى الغرام مصدق "

" وتذلللى عند اللقا وتملقى ... إن المحب إذا دنا يتملق "

" فلكم سترت عن الوجود محبتى ... والدمع يفضح ما يسر المنطق "

" ولكم أموة بالطلول وبالكنى ... وأخوض بحر الكنم وهو الأليق "

" ظهر الحبيب فليست أبصر غيره ... فبكل مرئى أرى يتحقق "

" ما فى الوجود تكثر لمكثر ... إن المكثر بالأباطل يعلق "

" فمتى نظرت فأنت موضع نظرتى ... ومتى نطقت فما بغيرك أنطق "

" يا سائلى عن بعض كنه صفاته ... كل اللسان وكل عنه المنطق "

" فاسلك مقامات الرجال محققا ... إن المحقق شأوه لا يلحق "

" مزق حجاب الوهم لا تحفل به ... فالوهم يستر ما العقول تحقق "

" واخلص إذا شئت الوصول ولا تتل ... فالعجز عن طلب المعارف موبق "

" إن التحلى فى التخلى فاقصد ... ذاك الجناب فبابه لا يغلق "

" ولتقتبس نار الكليم ولا تخف ... والغ السوى إن كنت منها تفرق "

" ومتى تجلى فيك سر جماله ... وضعقت خوفا فالمكلم يصعق "

" دع رتبه التقليد عنك ولا تته ... تلق الذى قيدت وهو المطلق "

" واقطع حبال علائق وعوائق ... إن العوائق بالمكاره تطرق "

" جرد حسام النفس عن جفن الهوى ... إن العوائد بالتجرد تخرق "

" فإذا فهمت السر منك فلا تبج ... فالسيف من بث الحقائق أصدق "

" بالذوق لا بالعلم يدرك علمنا ... سر بمكنون الكتاب مصدق "

" وبما أتى عن خير من وطىء الثرى ... سر الوجود وغيبه المتدفق "

" خير الورى وابن الذبيحين الذى ... أنواره فى هديها تتألق "

" من أخبر الأنباء قبل بيعته ... ولنصه سر الكتاب يصدق "

" رفعت له الحجب التى لم ترتفع ... إلا إليه فكل ستر يخرق "

" ورقى مقاما قصرت عن كنهه ... رتب الوجود وكع عنه السبق "

" وطوى البساط تدللا وجرى إلى ... أمد تناهى ما إليه مسبق "

" إنسان عين الكون مبلغ سره ... قطب الجمال وغيته المتدقق "

" سر الوجود ونكته الدهر الذى ... كل الوجود بجوده يتعلق "

" من جاء بالآيات يسطع نورها ... والذكر فهو عن الهوى لا ينطق "

" يا سيد الأرسال غير مدافع ... وأجلهم سبقا وإن هم أعنقوا "

" بالفقر جئتك موئلى لا بالغنى ... فالذل والإذعان عندك ينفق "

" فاجبر كسير جرائر وجرائم ... فالقلب من عظم الخطايا يقلق "

" أرجوك يا غوث الأنام فلا تدع ... باب الرضى دونى يسد ويغلق "

" حاشاك تطرد من أذاك مؤملا ... فلأنت لى منى أحن وأرفق "

" ومحبتى تقضى بأنك منغذي ... مما أخاف فما بغيرك أعلق "

" يا هل تساعدنى الأمانى والمنى ... وأحل حيث سنا الرسالة يشرق "

" إن كان ثبطنى القضا بمقيد ... فعنان عزمى نحو مجدك مطلق "

" ولئن ثوى شخص بأقصى مغرب ... فتشوقى منى إليك يشرق "

" فعليك يا أسنى الوجود تحية ... من طيب نفتحها البسيطة تعبق "

" وعلى صحابتك الذين تأنقوا ... رتب الكمال ومثلهم يتأنق "

" وعلى الألى أووك فى أوطانهم ... نالوا بذلك رتبة لا تلحق "

" أعظم بأنصار النبى وحزبه ... وبمن أتى بعباءة يتعلق "

" من مثل سعد أو كقيس نجله ... عرف السيادة من حماهم ينشيق "

" أكرم بهم وبمن أتى من سرهم ... عز النظر فمجدهم لا يلحق "

" من مثل نصر أو بنيه ملوكنا ... كل الأنام لعزهم يتملق "

" بمحمد نجل الخليفة يوسف ... عز الهدى فحماه ما إن يطرق "

" مولى الملوك وتاج مفرق عزهم ... وأجل من تحدى إليه الأيق "

" ملك يرى أن التقدم مغنم ... مهما تعرض موكب أو فيلق "

" تروى أحاديث الوغى عن بأسه ... فالسيف يسند والعوالى تطلق "

" ملك البسالة والمكارم والنهى ... فعداته منه تغص وتفرق "

" ملئت قلوب عداه منه مهابة ... فمغرب من خوفه ومشرق "

" مولاي يا أسمى الملوك ومن غدت ... عين الزمان إلى سناه تحدق "

" لا تقطعوا عنى الذى عودتم ... فالعبد من قطع العوائد يشفق "

" لا تحرمونى مطلبى فمحبتى ... تقضى لسعبي أنه لا يخفق "

" فأنعم بردى فى بساطك كاتبا ... وأعد لما قد كنت فهو الأليق "

" فاسلم أمير المسلمين لأمة ... أفواهم ما إن بغيرك تنطق "

" واهنا بها من ليلة نبوية ... جاءت بأكرم من به يتعلق "

" صلى عليه الله ما هبت صبا ... واهتز غصن فى الحديقة مورق "

ثم قال وهو الآن بحالته الموصوفة انتهى

رسالة من النباهى للسان الدين - 42

ومما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ما حكاه فى الإحاطة فى ترجمة القاضى أبى الحسن النباهى إذ قال ما نصه وخاطبني بسبته وأنا يومئذ بسلا بقوله يا أيتها الآية البالغة وقد طمست الأعلام والغرة الواضحة وقد تنكرت الأيام والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام أبواقم الله تعالى البقاء الجميل وأبلغكم غاية المراد ومنتهى التأميل أبى الله أن يتمكن المقام بالأندلس بعدكم وأن يكون سكون النفس إلا عندكم سر من الكون غريب ومعنى فى التشاكل عجيب أختصر لكم الكلام فأقول بعد التحية والسلام تفاقت الحوادث وتعاضمت الخطوب الكوارث واستأسدت الذئاب الأخابت ونكت الأكثر من ولد سام وحام وياث فلم يبق إلا كاشح باحث أو مكافح عابث وبأ ليت شعرى من الثالث فحينئذ وجهت وجهى للفاطر الباعث ونجوت بنفسى لكن منجى الحارث وقد عبرت البحر كسير الجناح دامى الجراح وإنى لأرجو الله سبحانه بحسن نيتكم أن يكون الفرج قريبا والصنع عجيبا فعمدادى أعان الله على القيام بواجبه هو الركن الذى ما زلت أميل على جوانبه ولا تزيدنى الأيام إلا بصيرة فى الإقرار بفضله والاعتداد به وقد وصلنى خطاب سيدي الذى جلى

الشكوك بنور يقينه ونصح النصح اللائق بعلمه ودينه وكأنه نظر إلى الغيب من وراء حجاب فأشار بما أشار به على سارية عمر بن الخطاب ومن العجب أنى عملت بمقتضى إشارته قبل بلوغ إضارته فله ما تضمنه مكتوبكم الكريم من الدر وحرره من الكلام الحر وإيم الله لو تجسم كان ملكا ولو تنسم كان مسكا ولو قبس كان شهابا ولو لبس كان شبابا فحل منى علم الله تعالى محل البرء من المريض وأعاد الأنس بما تضمنه من التعريض والكلم المزربة بقطع الروض الأريض فقبلته عن راحتكم وتخيلت أنه مقيم بساحتكم ثم وردت معينه الأصفى وكلت من بركات مواعظه بالمكيال الأوفى وليست بأول أياديكم وإحالتكم على الله فهو الذى يجازيكم وبالجملة فالأمور بيد الأقدار لا إلى المراد والاختيار " وما كل ما ترجو النفوس بنافع ... ولا كل ما تخشى النفوس بضرار "

انتهى
قلت أين هذا الكتاب من الذى قدمناه عنه فى الباب الثانى حين أظلم بينه وبين لسان الدين الجوه وعطفه إلى مهاجته ثانى وسفر فى أمره إلى العدو واجتهد فى ضرره بعد أن كان له به القدوة وقد قابله لسان الدين بما أذهب عن جفنه الوسن وألف فيه كما سبق خلع الرسن

ترجمة النباهى
على أنه عرف به فى الإحاطة أحسن تعريف وشرفه بحلاه أجمل تشريف إذ قال ما ملخصه على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن محمد بن الحسن الجذامى المالقى أبو الحسن ويعرف بالنباهى هذا الفاضل قرع بيت مجادة وجلالة وبقية تعيين وأصالة عف النشأة طاهر الثوب مؤثر للوفار والحشمة خاطب للشيخوخة مستعجل للشبية طاهر الحياء متحرك مع السكون بعيد الغور مرهف الجوانب

مع الانكماش مقتصد فى الملبس والآلة متظاهر بالسذاجة بريء من النوك والغفلة يقظ للمعارض مهتد إلى الملاحن طرف فى الجود حافظ مقيد طلبة إخبارى قائم على تاريخ بلده شرع فى تكميل ما صنف فيه ملازم للتقييد والتطير منقر عن الإجدات والفوائد استفدت منه فى هذا الغرض وغيره كثيرا حسن الخط ناظم نثر نثره يشف على نظمه ذاكر للكثير استظهر محفوظات منها النوادر للقالى وناهيك به محفوظا مهجورا ومسلكا غفلا فما ظنك بسواه نشأ ببلده حر الطعمة فاضل الأبوة وقرأ به ثم ولى القضاء بملتماس ثم ببلش وعملها فسيح الخطة مطلق الجراية بعيد المدى فى باب النزاهة ماضيا غير هيبوب حتى أربى فى الزمن القريب على المحتنكين وغير فى وجوه أهل الدربة وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا جارية على المسائل المشهورة ثم نقل منها إلى النظر فى أمور الحل والعقد بمالقة مضافة إليه الخطط النبيهة وصدر له منشور من إملائى إلى أن قال فى ترجمة نظمه قال نظمت سمح الله تعالى لى قطعتين موطننا فيهما على البيتين المشهورين إحداهما

" بنفسى من غزلان حزوى غزالة ... جمال محياها عن النسك زاجر "
" تصيد بلحظ الطرف من رام صيدها ... ولو أنه النسر الذى هو طائر "
" معطرة الأنفاس رائقة الحلى ... هواها بقلبي فى المهامه سائر "
" إذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحب ميعاد السلو المقابر "
والأخرى

" وقائلة لما رأت شيب لمتى ... لئن ملت عن سلمى فعذرك ظاهر "
" زمان التصابى قد مضى لسبيله ... وهل لك بعد الشيب فى الحب عاذر "
" فقلت لها كلا وإن تلف الفتى ... فما لهواها عند مثلى آخر "
" سيبقى لها فى مضمرة القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر "
وكتب على مثال النعل الكريم وأهداه لمزمع سفر
" فديتك لا يهدى إليك أجل من ... حديث نبى الله خاتم رسله "
" ومن ذلك الباب المثال الذى أتى ... به الأثر المأثور فى شأن نعله "
" ومن فضله مهما يكن عند حامل ... له نال ما يهواه ساعة حملة "
" ولا سيما إن كان ذا سفر به ... فقد ظفرت يميناه بالأمن كله "
" فدونك منه أيها العلم الرضى ... مثلا كريما لا نظير لمثله "

وقال مراجعا عن أبيات يظهر منها غرضها
" إذا كنت بالقصد الصحيح لنا تهوى ... فسلم لنا فى حكمنا ودع الشكوى "
" ولا تتبع أهواء نفسك والتفت ... لنا حيث كنا فى الرخاء وفى اللأوا "

" وكم من محب فى رضانا وحبنا ... محا كل ما يبدو سوانا له محوا "
" رأنا عيانا عين معنى وجوده ... فعاج عن الشكوى وفوض فى البلوى "
" وقال تحكم كيف شئت بما ترى ... رضيت بما تقضى وهمت بما تهوى "
" فحل لدينا بالخلوص وبالرضى ... محل اختصاص نال منه المنى صفوا "
" فإن كنت ترجو فى الصباية والهوى ... لحاقا بهم فاسلك طريقهم الأضوا "
" ومت فى سبيل الحب إن كنت مخلصا ... لنا فى الهوى تحيا حياة أولى التقوى "
" هنالك تؤتى ما تريد وتقتضى ... ديونك منا دون مظل ولا دعوى "
" وتشرب من عين اليقين وتغذى ... بخمر الصفا الصراف الزلال لكى تروى "
وقال

" لا تلجان لمخلوق من الناس ... من يافث كان أصلا أو من الياس "
" وثق بربك لا تياس تجد عجا ... فلا أضر على عبد من الياس "
وقال

" فديتك لا تصحب لئىما ولا تكن ... معينا له إن اللئيم خؤون "
" فلا عهد يرعى لا ولا نعمة يرى ... ولا سر خل عن عداه يصون "
وقال يخاطب أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان
" لك الله قلبى فى هواك رهين ... وروحي عنى إن رحلت طعين "
" ملكت بحكم الفضل كلى خالسا ... وملكك للحر الصريح يزين "
" فهب لى من نطقى بمقدار ما به ... يترجم سر فى الفؤاد دفين "
" فقد شملتنا من رضاك ملابس ... وسح لدينا من نذاك معين "
" أعنت على الدهر الغشوم ولم تزل ... بدنياك فى الأمر المهم تعين "
" وقصر من لم تعلم النفس أنه ... خذول إذا خان الزمان يخون "
" وأنى بحمد الله عنه لفى غنى ... وحسبى صبر عن سواك يصون "
" أبى لى مجد عن كرام ورثته ... وقوفا بباب للكريم يهين "
" ونفسي سمت فوق السماكين همه ... وما كل نفس بالهوان تدين "
" ولما رأت عينى محياك أقسمت ... بأنك للفعل الجميل ضمين "
" وعاد لها الأنس الذي كان قد مضى ... برية إذ شرخ الشباب خدين "
" بحيث نشأنا لابسين حلى التقى ... وكل بكل عند ذاك ضنين "
" أما وسنا تلك الليالى وطيبها ... ووجد غرامى والحديث شجون "
" وفتيان صدق كالشموس وكالحيا ... حديثهم ما شئت عنه يكون "
" لئن نرحت تلك الديار فوجدنا ... عليها له بين الضلوع أنين "
" إذا مر حين زاده الشوق جده ... وليس بعاب للربوع حنين "
" وأنى بمسلاها وللبين لذعة ... اقل أذاها للسليم جنون "
" لقد عبثت أيدى الزمان بجمعنا ... وحن افتراق لم نخله يحين "
" ويعد التقينا فى محل تغرب ... وكل الذى دون الفراق يهون "
" فقابلت بالفضل الذى أنت أهله ... وما لك فى حسن الصنيع قرين "
" وغبت وما غابت مكارمك التى ... على شكرها الرب العظيم يعين "
" يمينا لقد أوليتنا منك نعمة ... تلذ بها عند العيان عيون "
" ويقصر عنها الوصف إذ هى كلها ... لها وجه حر بالحيا مصون "
" ولما قدمت الآن زاد سرورنا ... ومقدمك الأسنى بذاك قمين "
" لأنك أنت الروح منا وكلنا ... جسوم فعند البعد كيف نكون "
" ولو كان قدر الحب فيك لقاؤنا ... إليك لكنا بالزوم ندين "
" ولكن قصدنا راحة المجد جهدنا ... فراحته شمل الجميع تصون "
" هنيئا هنيئا أيها العلم الرضى ... بما لك فى طى القلوب كمين "
" لك الحسن والإحسان والعلم والتقوى ... فحبك دنيا للمحب ودين "
" وكم لك فى باب الخلافة من يد ... أقرت لها بالصدق منك مرين "
" وقامت عليها للملوك أدلة ... فأنت لديها ما حبيت مكين "
" فلا وجه إلا وهو بالبشر مشرق ... ولا نطق إلا عن علاك ميين "
" بقيت لريع الفضل تحمى ذماره ... صحيحا كما قد صح منك يقين "

" ودونك يا قطب المعالي بنية ... من الفكر عن حال المحب تبين "

" أنتك ابن رضوان تمت بודהا ... وما لسوى الإغضاء منك ركون "

" فخل انتقاد البحث عن هفواتها ... ومهد لها بالسبح حيث تكون "

" وخذها على علاتها فحديثها ... حديث غريب قد عراه سكون "

وهو بحاله الموصوفة انتهى باختصار

43 - مخاطبات بين لسان الدين وابن الجياب

ولما كتب لسان الدين الى شيخه الرئيس الكاتب أبى الحسن الجياب قصيدة أولها

" أمستخرجا كنز العقيق بآماقى ... أناشدك الرحمن فى الرمق الباقى "

فقد ضعفت عن حمل صبرى طاقتى ... عليك وضافت عن زفيرى أطواقى " وهى طويلة أجابه "

عنها يقوله

" سقانى فأهلا بالمدامة والساقى ... سلافا بها قام السرور على ساق "

" ولا نقل إلا من بدائع حكمه ... ولا كأس إلا من سطور وأوراق "

" فقد أنشأت لى نشوة بعد نشوة ... تمد بروحانية ذات أذواق "

" فمن خطها الفانى متاع لناظرى ... ويسمعى وحظ الروح من خطها الباقى "

" أعادت شبابى بعد سبعين حجة ... فأثوابه قد جدت بعد إخلاق "

" وما كنت يوما للمدامة صاحبا ... ولا قبلتها قط نشأة أخلاقى "

" ولا خالطت لحمى ولا مزجت دمنى ... كفى شرها مولاى فالفضل للواقى "

" وهذا على عهد الشباب فكيف لى ... بها بعد ماء للشببية مهراق "

" تبصر فحكما القهوتين تخالفا ... فكم بين إثبات لعقل وإزهاق "

" وشتان ما بين المدامين فاعتبر ... فكم بين إنجاح لسعى وإخفاق "

" فتلك تهادى بين ظلم وظلمة ... وهذى تهادى بين عدل وإشراق "

" أيا علم الإحسان غير منازع ... شهادة إجماع عليها وإصفاق "

" فضائلك الحسنى على تواترت ... بمنهمر من سحب فكرك غيداق "

" خزائن آداب بعثت بدرها ... إلى ولم تمنن بخشية إنفاق "

" ولا مثل بكر حرة عربية ... زكية أخلاق كريمة أعراق "

" فأقسم ما البيض الحسان تبرجت ... تناجيك سرا بين وحى وإطراق "

" بدور بدت من أفق أطواقها على ... رياض شدت فى قطبها ذات أطواق "

" فناظر منها الأفحوان ثغورها ... وقابل منها نرجس سحر أحداق "

" وناسب منها الورد خدا موردا ... سقاها الشباب النضر بورك من ساق "

" وألسبن من صنعاء وشيا منمنما ... وحلين من در نفائس أعلاق "

" بأحلى لأفواه وأبهى لأعين ... وأحىي لألباب وأشهى لعشاق "

" رايت بها شهب السماء تنزلت ... إلى تحيينى تحية مشتاق "

" ألا إن هذا السحر لآسحر بابل ... فقد سحرت قلبى المعنى فمن راق "

" لقد أعجزت شكرى فضائل ماجد ... أبر بأحاب وأوفى بميثاق "

" تقاضى ديوان الشعر منى منبها ... رويدك لا تعجل على بإرهاق "

" فلو نشر الصادان من ملحديهما ... لإنصاف هذا الدين لاذا بإملاق "

" فخذ بزمام الفرق شيخا تقاصرت ... خطاه وعاهده بمعهود إشفاق "

" فلا زلت تحيى للمكارم رسمها ... وقدرك فى أهل العلا والنهى راقى "

قال وكتبت إليه فى عرض العتاب قصيدة أولها

" أدرنا وضوء الأفق قد صدع الفضا ... مدامة عتب بيننا نقلها الرضى "

" فله عينا من رآنا وللحيا ... حبى بأفاق البشاشة أومضا "

" نفر إلى عدل الزمان الذى أتى ... ونبرأ من جور الزمان الذى مضى "

" ونأسو كلوم اللفظ باللفظ عاجلا ... كذا قدح الصهباء داوى وأمرضا "

فراجعنى عنها بهذه القصيدة

" ألا حبذا ذاك العتاب الذى مضى ... وإن جره واش بزور تمضمضا "

" أغارت له خيل فما ذعرت حمى ... ولكنها كانت طلائع للرضى "

" تألق منه بارق صاب مزنه ... على معهد الحب الصميم فروضا "

" تلاً نورا للصدقة حافظا ... وإن ظن سيفا للقبيعة منتضى "

" فإن سود الشيطان منه صحيفة ... أتى ملك الرحى عليها فيضا "

" وما كان حب أحكم الصدق عهده ... ليرمى بوسواس الوشاة فيرفض "

" أعيد ودادا زاكى القصد وأفيا ... تخلص من أدراجه فتمحضا "

" ونية صدق فى رضى الله أخلصت ... سناها بأفاق البسيطة قد أضا "

" من الأفك الساعى ليخفى نورها ... أيخفى شعاع الشمس قد ملأ الفضا "

" وكيف يحل المبطلون بإفكهم ... معاقد حب أحكمتها يد القضا "

" تعرض يبغى هدمها فكأنه ... لتشبيد ميناها الوثيق تعرضا "

" وحرص فى تنفيره فكأنما ... على البر والتسكين والحب حرصا "

" وأوقد نارا فهو يصلى جحيمها ... يقرب منها القلب فى موقد الغضا "

" أيا واحدي المعدود بالألف وحده ... وبأ ولدى البر الرضى إن ارتضى "

" بعثت من الدر النفيس قلاندا ... على ما ارتضى حكم المحبة واقتضى "

" نتيجة آداب وطبع مهذب ... أطال مداه فى البيان وأعرضا "

" ولا مثل بكر باكرتنى أنفا ... كزورة خل بعدما كان أعرضا "

" هى الروضة الغناء أيع زهرها ... تناظر حسنا مذهبا ومفضضا "

" أو الغادة الحسناء راقت فينقضى ... مدى العمر فى وصفى لها وهو ما انقضى "

" تطابق منها شعرها وجبينها ... فذا الليل مسودا وذا الصبح أبيض "

" أو الشهب منها زينة وهداية ... ورحم لشيطان إذا هو قيضا "

" أنت بديع الشعر طورا مصرحا ... بأياتك الحسنى وطورا معرضا "

" ومهدت الأعذار دون جناية ... ولو أنك الجانى لكنت المغمضا "

" لك الله من بر وفى وصاحب ... محضت له صدق الضمير فامحضا "

" لسانك فى شكوى مفيض تفضلا ... فىا حسن ما أهدى وأسدى وأقرضا "

" وقلبك فاضت فيه أنوار خلتى ... فالقى يدي تسليمه لى مفوضا "

" وقصدك مشكور وعهدك ثابت ... وفضلك منشور وفعلك مرتضى "

" فهل مع هذا ربية فى مودة ... بحال وإن رابت فما أنا معرضا "

" فتق بولائى إننى لك مخلص ... هوى ثابتا يبقى فليس له انقضا "

" عليك سلام الله ما هبت الصبا ... وما بارق جنح الدجنة اومضا "

وقال لسان الدين من غريب ما خاطبنى به قوله

" أقسم بالقيسين والنابعين ... وشاعري طيء المولدين "

" وبابن حجر وزهير وابنه ... والأعشيين بعد ثم الأعميين "

" ثم بعشاق الثريا والرقيات ... وعزة ومى وبئين "

" وبأبى الشيص ودعبل ومن ... كشاعرى خزاعة المخضرمين "

" وولد المعتز والرضى ... والسرى ثم حسن وابن الحسين "

" واختم بقس وبسحبان وإن ... اوجب حق أن يكونا أولين "

" وحبلى نثرهم ونظمهم ... فى مشرقى أقطارهم والمغربين "

" إن الخطيب ابن الخطيب سابق ... بنثره ونظمه للحلبتين "

" راقتنى الصحيفة الحسناء التى ... شاهدت فيها المكرمات رأى عين "

" تجمع من براعة المعنى إلى ... براعة الألفاظ كلتا الحسينين "

" أشهد أنك الذى سبقت فى ... طريقى الآداب أقصى الأمدين "

" شعر حوى جزالة ورقة ... تصاغ منه حلة للشعريين "

" رسائل أزهارها منثورة ... سرور قلب ومتاع ناظرين "

" يا أحوذا يا نسيج وحده ... شهادة تنزهت عن قول مين "

" بقيت فى مواهب الله التى ... تقر عينيك تملأ اليدين "

انتهى

من سعيد الغرناطى إلى لسان الدين - 44

وحكى لسان الدين ان سعيد بن محمد الغرناطى الغسانى استعار منه كتابا فأرسله إليه وعلى ظهره هذه الأبيات

" هذا كتاب كله معجم ... أفحمنى معناه إفحاما "

" أعجمه منشئه أولا ... وزاده الناسخ إعجاما "

" أسقط من إجماله جملة ... وزاد فى التفصيل أقساما "
" وغير الألفاظ عن وضعها ... وصير الأيجاد إعداما "
" فليس فى إصلاحه حيلة ... ترجى ولو قوبل أعواما "
ولم أف على جواب لسان الدين له عنها والله تعالى أعلم
وولد سعيد المذكور سنة 699

مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين - 45

ومما خوطب به لسان الدين لما تقلد الكتابة العليا قول أبى الحسن على بن محمد بن على بن
البناء الوادي أشى رحمه الله تعالى

" هو العلاء جرى باليمن طائره ... فكان منك على الآمال ناصره "
" ولو جرى بك ممتدا الى امد ... لأعجز الشمس ما آبت عساكره "
" لقد حياه منبع العز خالقه ... بفاضل منك لا تحصى مآثره "
" فليزه فخرا فما خلق يعارضه ... ولا علاء مدى الدنيا يفاخره "
" لله اوصافك الحسنى لقد عجزت ... من كل ذى لسن عنها خواطره "
" هيهات ليس عجيبا عجز ذى لسن ... عن وصف بحر رمى بالدر زاخره "
" هل أنت إلا الخطيب ابن الخطيب ومن ... زانت حلى الدين والدنيا مفاخره "
" فان يقصر عن الأوصاف ذو أدب ... فما بدا منك فى التقصير عاذره "
" يا ابن الكرام الألى ما شب طفلهم ... إلا وللمجد قد شدت مأزره "
" مهلا عليك فما العليا قافية ... ولا العلاء بسجع أنت نآثره "
" ولا المكارم طرسا أنت راقمه ... ولا المناقب طبا أنت ماهره "
" ماذا على سابق يسرى إلى سنن ... ان كان من رفقه خل يسايره "
" سر حيث شئت من العليا متندا ... فما أمامك سباق تحاذره "
" أنت الإمام لأهل الفخر ان فخروا ... أنت الجواد الذى عزت أوافره "
" ما بعد ما حزنه من عزة وعلا ... شأو يطارد فيه المجد كابره "
" نادى بك الدولة النصرى محتدها ... نداء مستنجد أزرا يوازره "
" حليتها برداء البر مرتديا ... وصبح يمينك فجر السعد سافره "
" فالملك يرفل فى أبراده مرحا ... قد عمّت الأرض إشراقا بشآثره "
" فاهنا بها نعمة ما إن يقوم لها ... من اللسان ببعض الحق شاكره "
" وليهنها أنها القت مقالدها ... إلى زكى زكت منه عناصره "
" فإنه بدر تم فى مطالعها ... قد طبق الأرض بالأنوار نآثره "
وقال لسان الدين وأهدى الى قبايق خشب جوز وكتب معها
" هاكها ضمرا مطايا حسانا ... نشأت فى الرياض فضا لदानا "
" وثوت بين روضة وغدير ... مرضعات من النمير لبانا "
" لابسات من الظلال برودا ... دونها القضب رقة وليانا "
" ثم لما أراد إكرامها الله ... وسنى لها المنى والأمانا "
" قصدت بابك العلى ابتدارا ... ورجت فى قبلك الإحسانا "
قال فأجبتة

" قد قبلنا جبادك الدهم لما ... أن بلونا منها العتاق الحسانا "
" أقبلت خلف كل حجر تبع ... خلعت وصفها عليه عيانا "
" فعيننا برعيها وفسحنا ... فى ربوع العلا لها ميدانا "
" وأردنا امتطاءها فاتخذنا ... من شراك الأديم فيها عنانا "
" قدمت قبلها كتيبة سحر ... من كتاب سبت به الأذهانا "
" مثلما تجنب الجيوش المذاكى ... عدة للقاء مهما كانا "
" لم يرق مقلتى ولا راق قلبى ... كعلاها براعة وبيانا "
" من يكن مهديا فمثلك يهدى ... لم أجد للثنا عليك لسانا "
وقال لسان الدين ومن أبدع ما هز به الى إقامة سوقه ورعى حقوقه قوله
" يا معدن الفضل موروثا ومكتسبا ... وكل مجد إلى عليائه انتسبا "
" بباب مجدكم الأسمى أخو أدب ... مستصرخ بكم يستنجد الأدبا "
" ذل الزمان له طورا قبلغه ... من بعض آماله فوق الذى طلبا "

" والآن أركبه من كل نائبه ... صعب الأئنة لا يألو به نصبا "
" فحملته دواعى حبكم وكفى ... بذاك شافع صدق يبلغ الأربا "
" فهل سرى نسمة من جاهكم فيها ... خليفة الله فينا يمطر الذهبا "

ترجمة ابن البناء

وقال لسان الدين فى الإكليل فى حق المذكور ما صورته فاضل يروقك وقارة وصقر بعد مطاره قدم من بلده يروم للحاق بكتاب الإنشاء وتوسل بنظم أنيق ونسيب فى نسب الإجابة عريق تعرب براعته عن لسان ذليق وطبع طليق وذكاء بالأثرة خليق وبينما هو يلحم فى ذلك الغرض ويسدي ويعيد ويبيدي وقد كادت وسائله ان تنجح وليل رجائه أن يصبح اغتاله الحمام وخانته الأيام والبقاء لله تعالى والدوام توفى بالطاعون فى عام واحد وخمسين وسبعمائة وسنة دون الثلاثين رحمه الله تعالى انتهى

رسالة من لسان الدين الى سلطان تونس - 46

ولما خوطب لسان الدين من سلطان تونس بما لم يحضرنى الآن أجاب عنه بما نصه المقام الإمامى الإبراهيمي المولوي المستنصري الحفصى الذى كرم فرعا وأصلا وشرف جنسا وفصلا وتملى فى ظل رعاية المجد من لدن المهدي كرمنا وخصلا وصرفت متجردة الأقلام الى مثابة خلافته المنصورة الأعلام وجوه عبارة الكلام فاتخذ من مقام إبراهيم مصلى مقام مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام أبى إسحاق ابن مولانا أبى يحيى أبى بكر ابن الخلفاء الراشدين أبقاء الله تعالى تهوى إليه الأئدة كلما انتشت بذكره وتنافس الألسنة فى إحراز غاية حمده وشكره وتكفل الأقدار بإنفاذ نهيه وأمره وتغرى عوامل عوامله بحذف زيد عدوه وعمره ويتبرع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بيضه وسمره ولا زال حسامه الماضى يغنى يومه فى النصر عن شهره والروض يحييه بمباسم زهره ويرفع إليه رقع الحمد بنان قضبه الناشئة من معصم نهره وولى الدنيا والآخرة يمتعنا بهما بعد الإعانة على مهره يقبل بساطه المعود الاستلام بصفحات الخدود الرافع عماده ظل العدل الممدود عبد مقامه المحمود ووارد غمر إنعامه غير المنزور ولا المتمدود المثنى على نعمه العميمة ومنحه الجسيمة ثناء الروض الموجود على العهود ابن الخطيب من باب المولى الموجب حقه المتأكد الفروض الثابت العهود المعتد منه بالود الجامع الرسوم والحدود والفضل المتوارث عن الآباء والجدود يسلم على مثابتها سلام متلو على مثلها ان وجد المثل فى الثانى ويعود كمالها بالسبع المثانى ويدعو الله تعالى لسلطانها بتشبيد المبانى وتيسير الأمانى وينهى الى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدسة بمناسب التوحيد المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد أن مخاطبتها المولوية تاهت على الملوك فارعة العلا مزعفرة الحلل والحلى ذهبية المجلى تفيد العز المكين والدنيا والدين وترعى فى الآباء والبنين على مر السنين " صفراء فاقع لونها تسر الناظرين " البقرة وقد حملت من مدحها الكريم ما أخفى للمملوك من قررة عين وردة زين جبين الشرف الوضاح ومستوجب الحق على مثله من الخلق بالنسب الصراح والغرر والأوضاح والأرج الفواح فاقتنى دره النفيس ووجد المروع فى جانب الخلافة التنفيس وقراه لما قرأه التعظيم والتقدير وقال " يا أيها الملائكة ألقى إلى كتاب كريم " النمل وإن لم يكن بلقيس أعلى الله تعالى تلك اليد مطوقة الأيدي ومخجلة الغنائم والعوادى وأبقاها عامرة النوادى غالبية الأعادى وجعل سيفها السفاح ورأيها الرشيد وعلمها الهادى ووصل ما أطف به رعيها من أشنات بر بلغت وموارد فضل سوغت أمدتها سعادة المولى بمدد لم يضر معه البحر الهائل ولا العدو الغائل وأقام أودها عند الشدائد الفلك المائل لا بل الملك الذى له إلى الله الوسائل وحسب الجفن رسالتكم الكريمة لحظا فسان وأكرم وعوده فتعود بها وتحرم وتولى المملوك تنفيق عروضها بانسراح صدره وعلى قدره فوقعت الموقع الذى لم يقعه سواها فأما الخيل فأكرم مثاها وجعلت جنان الصون مأواها ولو كسيت الربيع المزهر حللا وأوردت فى نهر المجرة علا ونهلا وقلدت النجوم العواتم صجلا ومسحت أعطافها بمنديل النسيم وألحفت بأردية الصباح الوسيم وأفترشت لمرابطها الحشايا وأفضمت حبات القلوب بالعشايا لكان بعض ما يجب لحقها الذى لا يجحد فضله ولا يحتجب وما عداها من الرقيق والفتيان رعاها ذلك الفريق تكفله الاستحسان وأطنب الاعتقاد وإن قصر اللسان تولى الله تعالى تلك الخلافة بالشكر الذى يحسب العطاء والحفظ الذى يسبل الغطاء والصنع الذى يبسر من مطا الأمل الامتطاء وأما ما يختص بالمملوك فقد خصه بقبوله تبركا بتلك المقاصد التى سدها الدين وعددها الفضل المبين وأنشد الخلافة التى راق من مجدها الجبين " قلدتنى بفراند أخرجتها ... من بحر جودك وهو ملتطم الشج " " ورعيت نسبتها فإن سبيكة ... مما يلائم لونها قطع السبح "

والمملوك بهذا الباب النصرى أعزه الله تعالى على قدم خدمة وقائم بشكر منه لكم ونعمة وحاضر فى جملة الأولياء بدعائه وحبه ومتوسل فى دوام بقاء أيامكم ونصر أعلامكم إلى ربه وإن بعد جسمه فلم يبعد بقلبه والسلام الكريم الطيب البر العميم يخصها دائما متصلا ورحمه الله تعالى وبركاته انتهى

مخاطبة من ابن البربري الملقى إلى لسان الدين - 47
ومما خوطب به لسان الدين قول أبى الحسن على بن يحيى الفزارى الملقى المعروف بابن البربرى وكان ممن يمدح الملوک والكبراء
" لبابك أم الأملون ويمموا ... وفى ساحتى رحماك حطوا وخيموا "
" ومن راحتى كفيك جدواك تنهمى ... فتروى عطاش من نداءك وتنعم "
" وأنت لما راموه كعبه حجهم ... إذا شاهدوا مرآك لبوا وأحرموا "
" يطوفون سبعا حول بابك عندما ... يلوح لهم ذاك المقام المعظم "
" فيمنك يمن للرعايا ومنه ... ويسراك يسر للعفاة ومغنم "
" ولقياك بشر للنفوس وحنة ... ترن بها ورق المنى وترنم "
" فى واحد الأزمان علما ومنصبا ... ويا من به الدنيا تروق وتبسم "
" ومن وجهه كالبدر يشرق نوره ... ومن جوده كالغيث بل هو أكرم "
" ومن ذكره كالمسك فض ختامه ... وكالشمس نورا بشره المتوسم "
" لقد حزت فضل السبق غير منازع ... فأنت على أهل السباق مقدم "
" حويت من العلياء كل كريمة ... بها الروض يندى والربى تتبسم "
" وباهيت أقلام الأنام براعة ... فلا قلم إلا يراعك يخدم "
" إذا فآخر الأمجاد يوما وإنما ... لمجدك فى حال الفخار يسلم "
" وإن سكتوا كنت البليغ لديهم ... تعبر عن سر العلا وترجم "

ومنها

" فى صاحبى نجواي عوجا برامة ... على ربه حيث الندى والتكرم "
" وقولا له عبد ببابك يرتجى ... قضاء لباتان لديك تتمم "
" فليس له إلا علاك وسيلة ... ولا شىء أسمى من علاك وأعظم "
" فجد بالذى يرجوه منك فما له ... كعقد ثمين من نائك ينظم "
" بقيت ونجم السعد عندك طالع ... يضىء له بدر وتشرق أنجم "

توفى المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمئة انتهى

48 - مخاطبة من الجرائى الى لسان الدين

ومما خوطب به قول أبى القاسم قاسم بن محمد الجرائى الملقى القاضى بانتقيرة قبل وفاته
" عليك قصر المدح يا خير ماجد ... وأفضل موصوف بكل المحامد "
" ويا كهف ملهوف وملجأ خائف ... ومورد جود قد كفى كل وارد "
" لقد شهرت بالمجد منك شمائل ... محاسنها أزكى وأعدل شاهد "
" وكل الذى يبدو من الفضل بعض ما ... حبيت به أعظم بها من محامد "
" إذا أملت منك المكارم الغيت ... تنادي هلموا فزتم بالمساعد "
" عطاؤكم جزل فمن أمل الغنى ... فمثلكم يبغى فى سعد قاصد "
" وراثة مجد كابر بعد كابر ... وأصل زكى الفرع عذب الموارد "

ترجمة أبى القاسم الجوالى

وتوفى المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمئة وفى حقه يقول فى الإكليل مشمر فى الطلب عن ساق مثابر على اللحاق بدرجات الحذاق منتحل للعربية جاد فى إحصاء خلافها ومعاطاه سلافها وربما شرست فى المذاكرة أخلاقه إذا بهرحت أعلاقه ونوزع تمسكه بالحجة واعتلاقه وقال لسان الدين فى ترجمة شعر المذكور إنه ضعيف مهزول انتهى

رسالة من المنتشاقري الى لسان الدين - 49

ومما خوطب به قول أبى الحجاج يوسف بن موسى الجذامى المنتشاقري من أهل رندة ونصه
" حباك فؤادى نيل بشرى وأحياكا ... وحيد بأداب نفائس حياكا "
" بدائع أبدأها بديع زمانه ... فطاب بها يا عاطر الروض رياكا "
" أمهدبها أودعت قلبى علاقة ... وإن لم يزل مغرى قديما بعلياكا "
" إذا ما أشار العصر نحو فريده ... فإياك يعنى بالإشارة إياكا "

" لاتحبنى لقياك أسنى مؤملى ... وهل تحفة فى الدهر إلا بلقياكا "

" وأعقت إتحافى فرائدك التى ... وجوب ثناها يا لسانى أعيكاكا "

ووصل هذا النظم بنثر صورته خصصتنى أيها المخصوص بمآثر أعيا عدها وحصرها ومكارم طيب أرواح الأزاهر عطرها وسارت الركبان بثنائها وشملت الخواطر محبة علائها بفرائدك الأنيقة وفوائدك المزرية جمالا على أزهار الحديقة ومعارفك التى زكت حقا وحقيقة وهدت الضال عن سبيل الأدب مهيعه وطريقة وسبق تحفتك أعلى التحف عندي وهو مأمول لقائك والتمتع بالتماح سنالك الباهر وسنائك على حين امتدت لذلکم اللقاء أشواقى وعظم من فوت استنارتى بنور محياك إشفاقى وتردد لهجى بما يبلغنى من معاليك ومعانيك وما شاده فكرك الوقاد من مبانيك وما أهلت به بلاغتك من دراسه وما أضفيت على الزمان من رائق ملابسه وما جمعت من أشناته وأحييت من امواته وأيقظت من سناته وما جاد به الزمان من حسناته فلترداد هذه المحاسن من أنباتك وتصرف الألسنة بثنائك علقت النفس من هواها بأشد علاقة وجنحت إلى لفائك جنوح والهة مشتاقه والحوادث الجارية تصرفها والعوائق الحادثة كلما عطفت أملها إليه لا تتحفها به ولا تعطفها إلى إن ساعد الوقت وأسعد البخت بلقائكم فى هذه السفرة الجهادية وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيتى بأسنى هدية فلقبتكم لقا خجل ولمحت أنواركم لمحة على وجل ومحبتى فى محاسنكم الرائقة ومعاليكم الفائقة على

ما يعلمه ربنا عز وجل وتذكرت عند لقائكم المأمول إنشاء قائل يقول

" كانت مساءلة الركبان تخبر عن ... محمد بن الخطيب أطيب الخبر "

" حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى "

قسم لعمرى أقوله وأعتقده واعتده واعمده فلقد بهرت منك المحاسن وفقت من يحاسن وقصر عن شأوك كل بليغ لسن وسبقت فطنتك النارية النورية بلاغة كل فطن وشهد لك الزمان أنك وحيد ورييس عصبته الأدبية وفريدة فبورك لك فيما انلت من الفضائل وأوتيت من آيات المعارف التى بها نور الغزاة ضائل ولا زلت ترقى فى مراتب المعالى موقى صروف الأيام والليالى انتهى

رسالة لسان الدين - 50

الى المنتشاقرى

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصه

" حمدت على فرط المشقة رحله ... أتاحت لعينى اجتلاء محياكا "

" وقد كنت بالتذكار فى البعد قانعا ... وبالريح إن هبت بعاطر رباكا "

" فحلت لى النعمى بما أنعمت به ... على فحياها الإله وحياكا "

أيها الصدر الذى بمخاطبته يباهى ويتشرف والعلم الذى بالإضافة إليه يتعرف والروض الذى لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يتحف دمت تتزاحم على موارد ثنائك الألسن ويروى الرواة من أنباتك ما يصح ويحسن طالما مالت إليك النفوس منا وجنحت وزجرت الطائر الميمون من رفاعك كلما سنحت فالآن اتضح البيان وصدق الأثر العيان ولقد كنا للمقام بهذه الرحال نرتمض ويجن الظلام فلا نغتمض هذا يقلقه إصفار كيسه وهذا يتوجع لبعده أنيسه وهذا تروعه الأهوال وتضجره بتقلباتها الأحوال فمن أنه لا تنفع وشكوى إلى الله تعالى ترفع فلما ورد بقدمك البشير وأشار إلى ثنية طلوعك المشير تشوفت النفوس الصدئة إلى جلائها وصفالها والعقول إلى حل عقالها والأنفس المفحمة إلى فصل مقالها ثم إن الدهر راجع التفاته واستدرك ما فاته فلم يسمح من لفائك إلا بلمحة ولا بعث من نسيم روضك بغير نفحة فما زاد إن هيح الأشواق فالتهبت وشن غاراتها على الجوانح فانتهبت واعل القلوب وأمراضها ورمى ثغرة الصبر فأصاب غرضها فإن رأيت إن تنفس عن نفس شد الشوق مخنقها وكدر مشارب انسها وأذهب رونقها وتتحف من آدابك بدرر تقتنى وروضة طيبة الجنى فليست بدع فى شيمك ولا شاذة فى باب كرمك ولولا شاغل لا يبرح وعوائق أكثرها لا يشرح لناقست هذه السحاة فى القدوم عليك والمثول بين يديك فتشوقى إلى اجتلاء أنوارك شديد وتشيعى إلى ابلاء الزمان جديد انتهى

ترجمة ابى الحجاج المنتشاقرى

ووصف لسان الدين فى التاج المحلى أبا الحجاج المذكور بما صورته حسنة الدهر الكثير العيوب وتوبة الزمان الجرم الذنوب ما شئت من أدب يتألق وفضل تتعطر به النسمات وتتخلق ونفس كريمة الشمائل والضرائب وقريحة يقذف بحرها بدرر الغرائب إلى خشية لله تعالى تحول بين القلوب وقرارها وتتنى النفوس عن اغترارها ولسان ييوج بأشواقه وجفن يسخو بدرر أماقه وحرص على لقاء كل ذى علم وأدب ومن يمت إلى أهل الديانة والعبادة بسبب سبق بقطره الحلبة وفرع من الأدب

الهضبة ورفع الراية

وبلغ فى الإحسان الغاية فطارت قصائده كل المطار وتغنى بها راكب الفلك وحادى القطار وتقلد خطه القضاء ببلده وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده فوضحت المذاهب بفضل مذهبه وحسن مقصده وله شيمة فى الوفاء تعلم منها الآس ومؤانسة عذبه لا تستطيعها الأكواس وقد أثبت من كلامه ما تتحلى به مراتب المهارق ويجعل طيبه فوق المفارق وكنت أتشوق إلى لقائه فلقينته بالمحلة من جبل الفتح لقياً لم تبل صدق ولا شفت كمدا وتعذر بعد ذلك لقاؤه فخاطبته بهذه الرقعة

" ... حمدت على فرط المشقة رحله "

فذكر لسان الدين ما قدمنا إلى آخره

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلفاته ولنلخص بعض ذلك فنقول

ومن شعر أبى الحجاج المذكور يمدح الجهة الكريمة النبوية مصدرا بالنسب لبسط الخواطر النفسانية قوله

" لما تناهى الصب فى تشويقه ... درر الدموع اعتاضها بعقيقه "

" متلهف وفؤاده متلهب ... كيف البقا بعد احتدام حريقه "

" متموج بحر الدموع بخده ... أنى خلاص يرتجى لغريقه "

" متجرع صاب النوى من هاجر ... ما ان يحن للاعجاب مشوقه "

" يسبى الخواطر حسنه ببديعه ... يصبى النفوس جماله بأنيقه "

" قيد النواظر إذ يلوح لرامق ... لا تنتنى الأحداق عن تحديقته "

" للبدر لمحته كبشر ضيائه ... للمسك نفته كنشر فتيقه "

" سكرت خواطر لا محيه كأنهم ... شربوا من الصهباء كأس رحيقه "

" عطشوا لتغر لا سبيل لريقه ... إلا كلمحهم للمع بريقه "

" ما ضر مولى عاشقوه عبده ... لو رق اشفاقا لحال رقيقه "

" عنه اصطبارى ما أنا بمطيعه ... مثل السلو ولا أنا بمطيعه "

" سجع الحمام بشوق ترجيع الهوى ... فأثار شجو مشوقه بمشوقه "

" وبكت هديلا راعها تغريقه ... ويحق إن يبكى أخو تغريقه "

" وبكاء أمثالى أحق لأننى ... لم اقض للمولى أكيد حقوقه "

" وغفلت فى زمن الشباب المنقضى ... أقبح بنسخ بروره بعقوقه "

" وبدا المشيب وفيه زجر ذوى النهى ... لو كنت مزدجرا لشيم بروقه "

" حسبى ندامة أسف مما جنى ... يصل النشيج لوزره بشهيقه "

" ويروم ما خرم الهوى زمن الصبا ... ويروم من مولاه رتق فتوقه "

" ويردد الشكوى لديه تذلا ... عل الرضى يحييه درك لحوقه "

" فيصح من سكر التصابى سكره ... نسخا لحكم صبوحة وغبوقه "

" لو كنت يمتت التقى وصحبته ... وسلكت إيثار سواء طريقه "

" لأفدت منه فوائدا وفرائدا ... عرضت تسام لرابح فى سوقه "

" لله ارباب القلوب فانهم ... من حزب من نال الرضى وفريقه "

" قاموا وقد نام الأنام فنورهم ... هتك الدجى بضيائه وشروقه "

" وتأنسوا بحبيهم فلهم به ... بشر لصدق الفضل فى تحقيقه "

" قصرت عنهم عندما سبقوا المدى ... ولسابق فضل على مسبوقة "

" لولا رجاء تلمح من نورهم ... يحيي الفؤاد بسيره وطروقه "

" وتأرج يستاف من أرواحهم ... سبب انتعاش الروح طيب خلوقه "

" لغنيت من جرا جرائرى التى ... من خوفها قلبى حليف خفوقه "

" ومعى رجاء توصل أعددته ... ذخرا لصدقات الزمان وضيقة "

" حبى ومدحى أحمد الهادى الذى ... فوز الأنام يصح فى تصديقته "

" أسمى الورى فى منصب وبمنسب ... من هاشم زاكى النجار عريقه "

" الحق أظهره عقيب خفائه ... والدين نظمه لدى تغريقه "

" ونفى هداه ضلالة من جائر ... مستوثق بيغوته ويعوقه "

" سبحان مرسله الينا رحمة ... يهدى ويهدى الفضل من توفيقه "

" والمعجزات بدت بصدق رسوله ... وحقيقه بالمأثرات خليقه "

" كالظبي فى تكليمه والجذع فى ... تحنينه والبدر فى تشقيقه "
 " والنار إذ خمدت بنور ولادة ... وأجاج ماء قد حلا من ريقه "
 " والزاد قل فزاد من بركاته ... فكفى الجيوش بتمره وسويقه "
 " ونبوع ماء الكف من آياته ... وسلام أبحار غدت بطريقة "
 " والنخل لما إن دعاه مشى له ... ذا سرعة بعذوقه وعروقه "
 " والأرض عابنها وقد زويت له ... فقريب ما فيها رأى كسحيقه "
 " وكذا ذراع الشاة قد نطقت له ... نطق اللسان فصيحة وذليقة "
 " ورمى عداه بكف حصبا فأنثت ... هربا كمذعور الجنان فروقه "
 " وعليه آيات الكتاب تنزلت ... تتلى بعلو جلاله وسوقه "
 " وأذيق من كأس المحبة صرفها ... سيجان ساقيه بها ومذيقه "
 " حاز السناء وناله بعروجه ... جاز السماء طباقها بخروقه "
 " ولكم له من آية من ربه ... وعناية ورعاية بحقوقه "
 " يا خيرة الأرسال عند إلهه ... يا محرز العليا على مخلوقه "
 " علقت آمالى بجاهك عدة ... والقصد ليس يخيب فى تعليقه "
 " وعلقت من جبل اعتمادى عمدة ... لتمسكى بقويه ووثيقه "
 " ولئن غدوت أخيد ذنبي إننى ... أرجو بقصدك أن أرى كطليقه "
 " وكساد سوقى مذ لجأت لبابكم ... يقضى حصول نفوذه ونفوقه "
 " ويحن قلبى وهو فى تغريبه ... لمزاره لرباك فى تشريقه "
 " وتزيد لوعته متى حث السرى ... حاد حدا بجماله وبنوقه "
 " وأرى قشيب العمر أمسى باليا ... ومرور دهرى جد فى تمزيقه "
 " وأخاف أن أفضى ولم أفض المنى ... بنفوذ سهم منيتى ومروقه "
 " فمتى أحط على اللوى رحلى وقد ... بلغت ركابى للحمى وعقيقه "
 " وأمرغ الخدين فى ترب غدا ... كالمسك فى أرح شذا منشوقه "
 " وأعيد إنشائى وإنشادى الثنا ... ببديع نظم قريحتى ورقيقه "
 " حتى أميل العاشقين تطريا ... كالغصن مر صبا على ممشوقه "
 " وتحية التسليم أبلغ شافع ... وثنا المديح حديثه وعتيقه "
 " ولذى الفخار وذى الحلوى ووزيره ... صديقه وأخى الهدى فاروقه "
 " منى السلام عليهم كالزهر فى ... تأليفها والزهر فى تأنيقه "

وقال

" هواكم بقلبى ما لمحكمه نسخ ... ومن أجله جفنى بمدمعه يسخو "
 " ومن نشأتى ما ان صحت منه نشوتى ... سواء به عصر المشيب أو الشرخ "
 " عليه حياتى مذ تمادت وميتتى ... وبعثى إذا بالصور يتفق النفخ "
 " ولى خلد أضحى قبيص غرامه ... ولا شرك يدنى إليه ولا فخ "
 " قتلت سلوى حين أحبيت لوعتى ... وما اجتيح بالإقرار فى حالتى لطخ "
 " وأغدو الى سعدى بكرخ علاقتى ... وقصدى ليس سعدى ولا الكرخ "
 " وناصح كتمى إذ زكت بيناته ... يجول عليه من دموع الأسى نضخ "
 " وأرجو بتحقيقى هواكم بان أفى ... فعهد ولا نقض وعقد ولا فسخ "
 " وما الحب إلا ما استقل ثبوته ... لمبناه رص فى الجوانح أو رسخ "
 " إذا مسلك لم يستقم بطريقة ... سلكت اعتدالا مثلما يسلك الرخ "
 " بدا لضميرى من سناكم تلمح ... فبخ لعقل لم يطر عندها بخ "
 " على عود ذاك اللحم ما زلت ناديا ... كما تندب الورقاء فارقها الفرخ "
 " يدي بايادىكم وقلبى شاغل ... فمن فكرتى نسج ومن أنملى نسخ "

وقال

" إليك تحن النجب والنجباء ... فهم وهى فى أشواقهم شركاء "
 " تخب بركاب تحب وصولها ... لأرض بها باد سنا وسناء "
 " فأنفاسها ما إن تنى صعداؤها ... وأنفسهم من فوقها سعداء "
 " هم عالجا إذ عجل السير داءهم ... وأشباه مثلئى مدنفون بطاء "
 " فعدت ودونى للحبيب ترحلوا ... وما قاعد والراجلون سواء "

" له وعليه حب قلبى وأدمعى ... وقد صح لي حب وسح بكاء "
" بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها ... وإن تك أرضا فالحبيب سماء "
" شذا نفعها واللمح منها كأنه ... ذكاء عبير والضيء ذكاء "
" فيا حاديا غنى وللمركب حاديا ... عنانى بعد البعد عنك عناء "
" بسلع فسل عما أقاسى من الهوى ... وسل بقاء إذ يلوح قباء "
" وفى عالج منى بقلبي لاعج ... فهل لي علاج عنده وشفاء "
" وللرقتين أرقم الشوق لادغ ... ودرباقه أن لو يباح لقاء "
" أماكن تمكين وأرض بها الرضى ... وأرجاء فيها للمشوق رجاء "

وقال

" أدب الفتى فى أن يرى متيقظا ... لأوامر من ربه ونواه "
" فإذا تمسك بالهوى يهوى به ... والحبل منه لمن تيقن واه "

وقال

" يا من بدنياه ظل فى لجج ... حقق بأن النجاة فى الشاطى "
" تطمع فى إرثك الفلاح وقد ... أضعت ما قبله من اشراط "
" كن حذرا فى الذى طمعت به ... من حجب نقص وحجب إسقاط "

وقال

" ترى شعروا أنى غبطت نسيمة ... ذكت بتلقى الروض غب الغمام "
" كما قابلت زهر الرياض وقبلت ... ثغور أقاحيه بلا لوم لائم "
" ورد المشيب مبيضا بوروده ... ما كان من شعر الشبيبة حالكا "
" يا ليته لو كان بيض بالتقى ... ما سودته مأثم من حالكا "
" إن المشيب غدا رداء للردى ... فإذا علاك أجد فى ترحالكا "
" لوعة الحب فى فؤادى تعاصت ... أن تداوى ولو أتى ألف راق "

" كيف ييرا من علة وعليها ... زائد علة النوى والفراق "

" فانسكاب الدموع جار فجار ... والتهاب الضلوع راق فراق "

ومن غرائب الاتفاق أنه قال كنت جالسا بين يدي الخطيب أبى القاسم الناكرونى صبيحة يوم بمسجد مالقة فقال لنا فى أثناء حديثه رأيت البارحة فى عالم النوم كأن أبا عبد الله الجليانى يأتينى بيتي شعر فى يده وهما

" كل علم يكون للمرء شغلا ... بسوى الحق قادح فى رشاده "

" فإذا كان فيه لله حظ ... فهو مما يعده لمعاده "

قال فلم ينفصل المجلس حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجليانى والبيتان معه فعرضهما على الشيخ فأخبره أنه صنعهما البارحة فقال له كل من فى المجلس أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك فكان هذا من العجائب

ولأبى الحجاج المذكور تواليف منها كتاب ملاذ المستعين فى بعض خصائص سيد المرسلين أربعون حديثا وكتاب تخصيص القرب وتحصيل الأرب وقبول الرأى الرشيد فى تخميس الوترية النبوية لابن رشيد وانتشاق النسومات النجدية واتساق النزعات الجدية وعرر الأمانى المسفريات فى نظم المكفريات والنفحات الرندية واللمحات الرندية مجموع شعره وحقائق بركات المنام فى مرأى المصطفى خير الأنام والاستشفاء بالعدة والاستشفاع بالعمدة فى تخميس البردة وتوجع الراثى فى تنوع المرأى واعتلاق السائل بأفضل الوسائل ولمح البهيج ونفح الأريج فى ترجيز كلام الشيخ أبى مدين من عبارات حكمية وإشارات صوفية وكتاب تجريد رؤوس مسائل البيان والتحصيل لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل وفهرسة روايته ورجز ذكر مشايخ أبى عمر الطنجى وكتاب أرج الأرجاء فى مزج الخوف والرجاء أربعون حديثا فى الرجاء والخوف

وكان رحمه الله تعالى حيا حين ألف لسان الدين الإحاطة رحم الله تعالى الجميع

ورأيت على ظهر أول ورقة من الريحانة بخط الإمام الكبير الشهير الشيخ إبراهيم الباعونى الدمشقى رحمه الله تعالى ما نصه قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعونى غفر الله ذنوبه وستر عيوبه وبلغه من فضله مطلوبه صاحب كتاب الريحانة آية من آيات الله سبحانه لوجه أدبه طلاقة ولسانه ذلاقة

وللقلوب به علاقة وفى خطه غلاقة يعرفها من عرف اصطلاحه بمطالعه وينفتح له باب فهمها بتكرير مراجعته فليأمل الناظر اليه والمقبل عليه ما فيه من الجواهر والنجوم الزواهر بل الآيات

وقد تقدم بعض كلامه فيما مر ومن بديع نثره الذى يسلك به نهج ابن الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جليبت جملته فى أزهار الرياض واقتضرت هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته أما بعد فان الله على كل شىء قدير وانه بعباده لخبير بصير وهو لمن أهل نيته وأخلص طوبته نعم المولى ونعم النصير بيده الرفع والخفض والبسط والقبض والرشد والغى والنشر والطفى والمنح والمنع والضر والنفع والبطاء والعجل والرزق والأجل والمسرة والمساءة والإحسان والإساءة والإدراك والفوت والحياة والموت اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وهو الفاعل على الحقيقة وتعالى الله عما يقول الأفكون وهو الكفيل بان يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون وان فى احوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد وعبره لمن يفهم قوله تعالى " إن الله يفعل ما يشاء " الحج " إن الله يحكم ما يريد " المائدة بينما الدسوت عامرة والولادة أمره والفئة مجموعة والدعوة مسموعة والإمرة مطاعة والأجوبة سمعا وطاعة واذا بالنعمة قد كفرت والذمة قد خفرت

إلى أن قال والسعيد من انعط بغيره ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا جعلنا الله تعالى ممن قضى عمره بخيره وبينما الفرقة حاصلة والقطيعة فاصلة والمضرة واصلة والحبلى فى انبتات والوطن فى شتات والخلاف يمنع رعى متات والقلوب شتى من قوم أشتات والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ويلحظه لحظ الخائف على هضمه والأخذ بكظمه ويتوقع الحسرة أن يأذن الله بجمع شمله ونظمه على رغم الشيطان ورغمه واذا بالقلوب قد ائثلت والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت والأفئدة بالألفة قد اقتربت الى الله تعالى وازدلفت والمتضرعة الى الله تعالى قد ابتهلت فى اصلاح الحالة التى سلفت فألقت الحرب أوزارها وأدنت الفرقة النافرة مزارها وجلت الألفة الدينية أنوارها وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها أعذارها وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها وغضت الفئة المتعرضة أبصارها وأصلح الله تعالى أسرارها فجمعت الأوطان بالطاعة والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة وتسابقت الى لزوم السنة والجماعة وألقت الى الإمامة الفلانية يد التسليم والضراعة فتقبلت فيأتهم وأحمدت جياتهم وأسعدت آمالهم وارتضيت أعمالهم وكملت مطالبهم وتممت مأربهم وفضيت حاجاتهم واستمعت مناجاتهم وألستهم بالدعاء قد انطلقت ووجهتهم فى الخلوص قد صدقت وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت وكانت الإدالة فى الوقت على عدو الدين قد ظهرت وبرقت الى ان قال وكفت القدرة القاهرة والعزة الباهرة من عدوان الطاغية غوائل باعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبا شهد بذلك برهان الوجود " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " ابراهيم دليل على ما سوغ من الكرم والوجود انتهى المقصود منه وهو كلام بليغ ومن أراد جملته فعليه بأزهار الرياض - **من نظم ابن عاصم**

ومن نظم ابن عاصم
المذكور قوله مخاطبا شيخه قاضى الجماعة ابا القاسم ابن سراج وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة فظن أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان فأعده معتذرا ولم يصدق الظن " فديتك لا تسأل عن السر كاتباً ... فتلقاه فى حال من الرشد عاطل " " وتضطره إما لحالة خائن ... أمانته أو خائن فى الأباطل " " فلا فرق عندي بين قاض وكاتب ... وشىء ذا بسر أو قضى ذا بباطل "

قصيدة لابن الأزرق فى مدحه
ومن بديع ما نظم فى مدح الرئيس أبى يحيى ابن عاصم المذكور قول العلامة ابن الأزرق رحمه الله تعالى

" خضعت لمعطفه الغصون الميسر ... ورننا فهام بمقلتيه النرجس "
" ذو مبسم زهر الربى فى كسبه ... متنافس عن طيبه متنفس "
" ومورد من ورده أو ناره ... يتنعم القلب العميد وبيأس "
" فالورد فيه من دموعى يرتوي ... والنار فيه من ضلوعى تقبى "
" كملت محاسنه فقد ناصر ... ولو احظ نجل وثغر العس "
" صعب التعطف بالغرَام حبيته ... فالحب يحبى والتعطف يحبس "
" غرس التشوق ثم أغرى الوجد بى ... فالوجد يغرى والتشوق يغرس "
" ما كنت أشقى لو حللت بجنة ... من وصله تحيا لديها الأنفس "
" ألحاطه ورضابه وعذاره ... حور بها أو كوثر أو سندس "
" وليال أنس قد أمنت بهن من ... واش ينم ومن رقيب يحرس "

" أطلعت شمس الراح فيها فاهتدى ... عاش إلينا فى الدجى ومغلس "

" صفراء كالعقيان فى الألوان ... للندمان كالشهبان منها أكؤس "

" صبت شقيقا فاستحالت نرجسا ... فى مزجها فمورد ومورس "

" وحبابها يغنى بأسنى جوهر ... أنفى لغم المعدمين وأنفس "

" يجلى بها للغم منها هندسا ... قمر عليه من الذؤابة هندس "

" حتى إذا عمشت مرآة البدر من ... صبح بدا تلقاه إذ يتنفس "

" ناديته وسنا الصباح محصص ... ينجاب عنه من الظلام معسعس "

" يا مطلع الأنوار زهرا يجتنى ... ومشعشع الصهباء نارا تلمس "

" بك مجلس الأنس اطمأن ويا بن ... عاصم اطمأن من الرياسة مجلس "

" بدر بأنوار الهدى متطلع ... غيث بأشتات الندى متيجس "

" حامى فلم نرتع لخطب يعترى ... ووفى فلم نحفل بدهر بيخس "

" شيم مهذبة وعلم راسخ ... ومكارم هتن ومجد أفعس "

" لو كان شخصا ذكره لبدا على ... أعطافه من كل حمد ملبس "

" ذاكم أبو يحيى به تحمى العلا ... وبه خلال الفخر طرا تحرس "

" بيت على عمد الفخار مطنب ... مجد على متن السماك مؤسس "

" خيم وعرس فى حماه فكم حوى ... فيه المراد مخيم ومعرس "

" إنا لنعدو هيما فينيلنا ... ريا ويوحشنا النوى فيؤنس "

" حتى اقمنا والأمانى منهضات ... وابتسمنا والزمان معبس "

" لم ندر قبل يراعه وبنانه ... ان الذوابل بالغمائم تيجس "

" هن البراع بها يؤمن خائف ... ويحاط مذعور ويغنى مفلس "

" مهما انبرت فهى السهام يرى لها ... وقع لأغراض البيان مقرطس "

" يشفى بمأمله الشكى المعترى ... يحيا بمأمنه الحمام المؤسس "

" فتقص حين تشق منها ألسن ... وتسير حين تقط منها أروس "

" من كل وشاء بأسرار النهى ... درب بإظهار السرائر يهجس "

" قد جمع الأضداد فى حركاته ... فلذا اطراد فخاره لا يعكس "

" عطشان ذو ري يبيس مئمر ... غضبان ذو صفح فصيح أخرس "

" لله من تلك اليراع جواذب ... للسحر منك كأنها المغنيطس "

" رضنا شماس القول فى أوصافها ... فهى التى راضت لنا ما يشمس "

" وإليكما حللا تشابه نسجها ... مثلى يفصلها ومثلك يلبس "

" واهنا بعيد باسم مهلل "

" وإفاك يجهر بالسرور ويهمس "

" وأحبس لواء الفخر موفوفا فان ... الحمد موقوف عليك محبس "

قلت وعندى الآن شك فى صاحب هذه القصيدة هل هو قاضى الجماعة بغرناطة محمد بن الأزرق
أو ابن الأزرق الثانى القائل فيما يكتب على السيف
" ان عمّت الأفق من نفع الوغى سحب ... فشم بها بارقا من لمع إيماضى "

وان نوت حركات النصر أرض عدا ... فليس للفتح إلا فعلى الماضى " 3والله سبحانه أعلم "

رسالة ابن عاصم الى ابن طركاط

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم ابن طركاط وهو القضاء
حفظ الله تعالى كمالك وأنجح أمالك اذا لم يحطه العدل من كلا جانبيه سبيل معوج ومذهب لا
يوافق عليه مناظر ولا ينصره محتج كما أنه إذا حاطة العدل جاده للنجاة وسبب فى حصول رحمه
الله تعالى المرتجاة وسوق لنفاق بضاعة العبد المزجاة وأجمل العدل ما تحلى به فى نفسه الحكم
وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحكم حتى يكون عن البغى رادعا وبالقسط
صادعا ولأنف الأنفة من الإذعان للحق جادعا وأنت أجلك الله تعالى على سعة اطلاعك وشدة
ساعد قيامك بالطريقة واضطلاعك ممن لا ينبه على ما ينبغى ولا يرد على طلبته من الإنصاف
المتبغى فلك فى الطريقة القاضوية التبريز وأنت إذا كان غيرك الشبه الذهب الإبريز ولعلمية عدلك
التوشية بالنزاهة والتطريز وليتنى كنت لمظهرك الحكمى حاضرا ولإعلام القضاء بأرائك المرتضاة
محاضرا والوازع قد تمرس بالخصوم وجعل المتصدى للإذن فى محل المخصوم وأنت حفظك الله
تعالى قد قمت من غلط الحجاب بالمقام المعصوم ومثلت من سعة المنزل فى الفضل والطول

كالشهر المصوم والباب قد سد وداعى الشفاعة قد رد والميقات للإذن قد حد ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد حتى إذا قضى الواجب وأذن فى دخول الخصمين الحاجب وكبح السابقين الى الحد الذى

لا يعدونه وحفز إيماءه من تعده أو وقف دونه وقد حصل باللحظ واللفظ التساوى وأنتج المطالب الأربعة هذا اللازم المساوى ومجلسك قد رحج وقاره برضوى ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضوا وقد امتزت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها وتخصصت عنهم بملايس تعج عجيجا من جذامهم مطارفها بحيث تحد لخلع النعلين حدا لا يتجاوز طواه وتسد فى بعض الأوقات الباب سدا لا يرقع بالمحاجر كواه وتفصل بين الخصمين أحيانا بالنية دون الكلام ولكل امرىء ما نواه وهذه أعانك الله تعالى مكملات من العدل فى الحكم وقف عياض دون تحقيق مناطها وأعيت ابن رشد فلم يهتد بيانه ولا تحصيله لاستنباطها فما بال النازحة عنك حسا ومعنى النازلة من تقاضى دينك بمنزلة الممطول المعنى المعتقلة من ملكة رقبك بحيث أقصاها لاجع الشوق المعذبة من الصباية فيك بما شب عمره عن الطوق تتنفس الصعداء مما تشاهده منك من مبتدعات الجور وتردد البكاء على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغور وتقضى العجب مما تسمع من عدلك الذى لم تجتل لمحة من نوره ومن حلمك الذى أشقاها فلم تحضر لدكة طوره وتستصوب أنظار النحاة فى منع التهيئة والقطع فى العامل وتستجلب اصطلاح العروضيين فى المديد والبسيط دون الطويل والكامل فهلا راجعت فيها النظر وأنجزت لها الوعد المنتظر وكففت من عيونها دموعا مستهلة واجتليت من جبينها الوضاح ما أخلج بدورا مشرقة وأهلة ولم تحوجها الى ان ينطق قرينها الروحانى بالشعر على لسانها ولسانك ولم تضطرها فى هذه المعاملة الى ما لا ترتضيه من كفر إحسانك والعذر أظهر والبرهان أبهر وخلافك فى العالم أشهر وأنت ان لم يكن ما يعصم الله تعالى منه لمقتضى الطبيعة أقهر

وقد أدرجت لك فى طى هذا ما يصل الى يدك وتلهج به فى يومك وغدك منتظرة منك إطفاء الجوى بالجواب ومحو ما سبق من الخطأ بالخطاب ان شاء الله تعالى والله تعالى يصل سعادته ويحفظ مجادته ومعاد السلام من الشاكر الذاكر ابن عاصم وفقه الله تعالى فى أوائل ذى الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة انتهى وهو مما لم أذكره فى أزهار الرياض

ظهير بتقديم ابن عاصم للنظر فى أمور الفقهاء

ولنذكر هنا الظهير الذى جلبته فيها بتقديم المذكور للنظر فى أمور الفقهاء وغيرهم ونصه هذا ظهير كريم اليه انتهت الظهائر شرفا عليا وبه تقررت المآثر برهانا جليا وراقت المفارح قلائد وحليا وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقلام والمحابر اختصاصا مولويا

فهو وان تكاثرت المرسومات وتعددت وتوالت المنشورات وتجددت أكبر مرسوم تتم فى الاعتقاد نظرا خطيرا وأحكم فى التفويض أمرا كبيرا وأبرم فى الاستخلاص عزا أيا

اعتمد بمسطوره العزيز واختص بمنشوره الذى تلقاه اليمن بالتعزير من لم يزل بالتعظيم حقيقا وبالإكبار خليقا وبالإجلال حربا فهو شهير لم يزل فى الشهرة سابقا هاد لم يزل بالهدى ناطقا بليغ لم يزل بالبلاغة دريا عظيم لم يزل فى النفوس معظما علم لم يزل فى الأعلام مقدا كريم لم يزل فى الكرام سنيا اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين وحلت به المشورة فى الكنف المحوط والحرم الأمين فكان فى مشكاة الأمور هاديا وفى ميدان المرشد جريا فالى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص والى مرتبته تنتهى مراتب الاختصاص فيمن حاز خلاصا وزين حفلا وشرف نديا واستكمل همما واستحمل قلما واستخدم مشرفيا فله ما أعلى قدر هذا الشرف الجامع بين المتلد والمطرف السابق فى الفضل أمدا قصيا الحال من الاصطفاء مظهرا الفارع من العلاء منبرا الصاعد من العز كرسيا حاز الفضل إرثا وتعصيا واستوفى الكمال حقا ونصيبا ثناء أرحه كالروض لو لم يكن الروض ذابلا وهديا نوره كالبدور لو لم يكن البدر أفلا ومجد علوه كالسها لو لم يكن السها خفيا فما أشرف الملك الذى اصطفاه وكمل له حق التقريب ووفاه وأحله قرارة التمكين ومن اختصاصه بالمكان المكين فسبق فى ميدان التفويض وشأى ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى صادعا بالحق إماما علما موضعا من الدين نهجا أمما هاديا من الواجب صراطا سويا بانيا للمجد صرحا مشيدا مشهرا للعدل قولا مؤيدا مبرما للخير سببا قويا فالله تعالى يصل لمقام هذا الملك الذى طلع فى سمائه بدرا دونه البدور وصدرا تلوذ به الصدور سعدا لا تمطله الأيام فى تقاضيه ونصرا يمشى به نصل الجهاد فلا يزال ماضيه على الفتحة مبنيا ويوالى له عزا يذود عن حرم الدين ويمنحه تأييدا يصبح فى أعناق الكفر حديث سيفه قطعيا

أمر به مرسوما عزيزا لا تبلغ المرسومات الى مداه ولا يبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبداه عبد الله

أمير المسلمين محمد الغالب بالله أيد الله تعالى مقامه ونصر أعلامه وشكر إنعامه ويسر مرامه لإمام الأئمة وعلم الأعلام وعماد ذوى العقول والأحلام وبركة حملة السيوف والأقلام وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام الشيخ الفقيه أبى يحيى ابن كبير العلماء شهير العظماء حجة الأكابر والأعيان مصباح البلاغة والبيان قاضى القضاة وإمامهم أوجد الجلة وطود شمامهم الشيخ الفقيه أبى بكر ابن عاصم أبقاه الله تعالى ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ومواهب الملك به معهودة الإحسان وقلائد الأيادي منه متقلدة بجيد كل إنسان قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلا لبنيها والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها وبينها والكمال لا يصفى شره إلا لمن يؤمن سره أن هذا العلم الكبير الذى لا يفى بوصفه التعبير علم بآثاره يقتدى وبأنظاره يهتدى وبإشارته يستشهد وبإدارته يسترشد إذ لا أمد علو إلا وقد تخطاه ولا مركب فضل إلا وقد تمطاه ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ولا لبة فخر إلا وقد حلاها ولا نعمة إلا وقد أسداها ولا حرمة إلا وقد أبداها لما له فى دار الملك من الخصوصية العظمى والمكانة التى تسوغ النعمى والرتب التى تسمو العيون إلى مرتقاها وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتتلقاها حيث سر الملك مكتوم وقرطاسه مختوم وأمره محتوم والأقلام قد روضت الطروسى وهى ذابوة وقسمت الأرزاق وهى طاوية شقت ألسنتها فنطقت وقطت أرجلها فسيقت ويبست فأثمرت إنعاما ونكست فأظهرت قواما وخطت فأعطت وكتبت فوهبت ومشقت فرفقت وأبرمت فأنعمت فكم يسرت الجبر

وعفرت الهزبر وشنفت المسامع وكيفت المطامع وأقلت فيما ارتفع من المواضع وأحلت لما امتنع من المراضع فهى تنجز النعم وتحجز النقم وتبث المذاهب وتحت المواهب وتروض المراد وتنهض المراد وتحرس الأكناف وتغرس الأشراف مصيخة لنداء هذا العماد الأعلى طامحة لمكانه الذى سما واستعلى فيما يملى عليها من البيان الذى يقر له بالتفضيل الملك الضليل ويشهد له بالإحسان لسان حسان ويحكم له ببرى القوس حبيب بن أوس وبهيم بما من الأساليب عنده شاعر كنده ويستمطر سحبه الثرة فصيح المعرة الى منثور تزيل الفقر فقره وتدر الرزق درره لو أنهى الى قس إباد لشكر فى الصنعة أياديه واستمطر سحبه وغواديه أو بلغ الى سحبان لسحره وما فارقه عشيته ولا سحره ولو رآه الصابى لأبدى اليه من صوته ما أبدى أو سمعه ابن عباد لكان له عبدا أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائعه واستنزر بضائعه أو أتخف به البستى لأتخذه بستانا أو عرض على عبد الحميد لأحمد من صوبه هنانا فأعظم به من عال لا ترقى ثنيته ولا تحاز مزبته ولا يرحم أفته ولا يكتم حقه ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر ولا ينقاس به فى الفضل مناظر وهل تقاس الأجادل بالبعثات أو الحقائق بالأضغاث

ألا وان بيته هو البيت الذى طلع فى أفته كل كوكب وقاد ممن وشج به للعلوم اتقاء واتقاد وترامى به للمدارك ذكاء وانتقاد فأعظم بهم أعلاما وصدورا وأهله وبدورا خلدت ذكرهم الدواوين المسطرة وسرت فى محامدهم الأنفاس المعطرة الى أن نشأ فى سمائهم هذا الأوجد الذى شهرة فضله لا تجحد فكان قمرهم الأزهر ونيرهم الأظهر ووسيلة عقدهم الأنفس ونتيجة مجدهم الأفعس فأبعد فى المناقب أماده ورفع الفخر وأقام عماده وبنى على تلك الأساس المشيدة وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة

فسبق وحلى وشنف بذكره المسامع وحلى ورفع المشكل ببيانه وحرر الملتبس ببرهانه الى ان أحله قضاء الجماعة ذروة أفته الأصعد وبوآه عزيز ذلك المقعد فشرف الخطة واخذ على الأيدى المشتطة لا يراقب إلا ربه ولا يضمم إلا العدل ووجهه والمجلس السلطانى أسماه الله تعالى يختصه بنفسه ويفرغ عليه من حلال الاصطفاء ولبسه ويستمطر فوائده ويجرب بأنظاره حقوق الملك وعوائده فكان بين يديه حكما مقسطا ومقسما لحظوظ الإنعام مقسطا الى ان خصه بالكتابة المولوية ورأى له ذلك حق الأولوية إذ كان والده المقدس نعم الله تعالى ثراه ومنحه السعادة فى أخراه مشرف ذلك الديوان ومعلى ذلك الإيوان يجبر رفاع الملك فتروق وتلوح كالشمس عند الشروق فحل ابنه هذا الكبير شرفا الشهير سلفا مرتبته التى سمت وافترت به عن السعد وابتسمت فسحبت به للشرف مطارف وأحرزت به من الفخر التالد والطارف فهو اليوم فى وجهها غرة وفى عينها قره والله هو فى ملاحظة الحقائق ورعيها وسمع الحجج ووعياها فلقد فضل بذلك اهل الاختصاص وسبقهم فى تبين ما يشكل منها وما يعتاص إذ المشكلة معه جلية الأغراض والآراء لديه أمنة من مأخذ الاعتراض فكم رتبه عمرها بذويها فأكسبها تشريفا وتنويها وعلى ذلك فأعلام قضاه الوطن ومن عبر منهم وقطن مع أقدارهم السامية ومعاليهم التى هى للزهر مسامية إنما رقتهم وساطته التى أحسنت وزينت بهم المجالس وحسنت فيه أمضوا أحكامهم وأعملوا فى الأباطيل احتكامهم وكتبوا الرسوم وكتبوا الخصوم وحلوا دست القضاء وسلوا سيف المضاء وفى

زمانه تخرجوا

وفى بستانه تآرجوا ومن خلقه اكتسبوا والى طرقة انتسبوا وعلى مواردته حاموا وحول فوائده قاموا
وبتعريفه عرفوا وبتشريفه شرفوا وبصفاته كلفوا وبعرفاته وقفوا فأمنوا مع انسكاب سحب إفادته من
الجدب وقاموا بذلك الفرض بسبب ذلك الندب وهل العلماء وان عمت فوائدهم وانتظمت بجداد
الأذهان فرائدهم إلا من أنواره مستمدون والى الاستفادة من أنظاره ممتدون وببركاته معتدون
وبأسبابه مشتدون فبه اجتنيت من أفنان المنابر ثمراتهم وتآرجت فى روضات المعارف زهراتهم وبه
عمروا الحلق وانتلق من أنوارهم ما انتلق إذ كل من اصطناعه محسوب والى بركته منسوب فهو
بدرهم الأهدى وغينهم الأجدى وعقدهم المقتنى وروضهم المجتنى وبدر منازلهم وصدر محافلهم
وعلى ما أعلى المقام المولوي من مكانه وقضى به من استمكانه واعتمد من إبرامه وأبرم من
اعتماده ومهد من إكرامه وكرم من مهاده واختص من علاه وأعلى من اختصاصه واستخلص من
حلاه وحلا من استخلاصه ووفى من تكرمه وكرم من وفائه واصطفى من مجده ومجد من اصطفاؤه
وقدم من براعته وحكم من براعته وشفق من كتابته وانطق من خطابته وسجل من أنظاره وعجل
من اختياره فذكا ذكره وسطا سطره وأمعن معناه وأغنى مغناه أشار إليه الله تعالى باستئناف
خصوصيته وتجديدها وإثبات مقاماته وتجديدها لتعرف تلك الحدود فلا تتخطى وتكبر تلك المراتب فلا
تستعطي فأصدر له شكر الله تعالى إصداره وعمر بالنصر داره هذا المنشور الذى تآرج بمحامده
نشره وتضمن من مناقبه البديع فراق طيه ونشره وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكونه وأصبح
للمفاخر مالكا لما أتى به مدونه وخصه فيه بالنظر المطلق الشروط الملازم للتفويض ملازمة
الشرط للمشروط المستكمل الفروع والأصول المستوفى الأجناس والفصول فى الأمور التى تختص
بأعلام القضاة الأكابر وكتاب القضاة ذوى الأعلام والمحابر وشيوخ العلم وخطباء المنابر وسائر أرباب
الأقلام القاطن منهم والعاير بالحضرة العلية وجميع البلاد النصرية تولى الله تعالى جميع ذلك
بمعهود سنه ووصل لديه ما تعود من شفع اللطف ووتره يحوط مراتبهم التى قطفت من روضاتها
ثمرات الحكم وجنيت ويراعى أمورهم التى أقيمت على العوائد وبنيت وحقوقهم التى حفظت لهم
فى المجالس السلطانية ورعيت ويحل كل واحد منهم فى منزلته التى تليق ومرتبته التى هو بها
خليق على ما يقتضى ما يعلم من أدواتهم ويخير من تباين ذواتهم ويرشح كل واحد الى ما
استحقه ويؤتى كل ذى حق حقه اعتمادا على أغراضه التى عدلت وصدحت على أفنانها من
الأفواه طيور الشكر وهذلت واستنادا فى ذلك الى آرائه وتفويضه له فى هذا الشأن بين خلصاء
الملك وظهرائه وذلك على مقتضى ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا وانتهضوا بهمهمهم
واستبقوا كالشيخ الرئيس الصالح ابى الحسن ابن الجياب والشيخ ذى الوزارتين ابى عبد الله ابن
الخطيب رحمهما الله تعالى

فليقم أبغاه الله تعالى بهذه الأعمال التى سمت واعتزت ومالت بها اعطاف العدل واهتزت وسار بها
الخبر حثيث السرى وصار بها الحق مشدود العرى وعلى جميع القضاة الأمضياء والعلماء الأرضياء
والخطباء الأولياء والمقرئين الأزكياء وحملة الأقلام الأحظياء ان يعتمدوا هذا الولى العماد فى كل ما
يرجع الى عواندهم ويختص فى دار الملك من مراتبهم وفوائدهم وما يتعلق بولاياتهم وأمنياتهم
ويلىق بمقاصدهم ونياتهم فهو الذى يسوغهم المشارب ويبلغهم المآرب ويستقبل العلى بالعلى
والعاطل بالحللى والمشكل بالجللى والمفرق بالتاج والمقدمة بالانتاج وعلى ذلك فهذا المنشور
الكريم قد أقرهم على ولاياتهم وأبقاهم ولقاهم من حفظ المراتب ما رفاهم فليجروا
على ما هم بسبيله وليهتدوا بمرشد هذا الاعتناء ودليله وكتب فى صفر عام سبعة وخمسين
وثمانمائة انتهى

قلت وانما أتيت به لوجوه أحدها ما يتعلق بلسان الدين اذ وقعت الإشارة الى مرتبته فى آخره
والثانى ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب والثالث معرفة حال الرئيس أبى يحيى ابن عاصم
وتمكنه من الرياسة لأننا بنينا هذا الكتاب على ذكر ما يناسبه من انباء أهل المغرب لكون أهل هذه
البلاد المشرقية ليس لهم بها عناية والرابع أن بعض أكابر شيوخنا ممن ألف فى طبقات المالكية
لما عرف بابى يحيى ذكره فى نحو أسطر عشرة وقال هذا الذى حضرني من التعريف به والخامس
ان ابن عاصم المذكور كما قاله الوادى أشى وغيره كان يدعى فى الأندلس بابن الخطيب الثانى
ويعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة والسياسة

رجع إلى أخبار لسان الدين فنقول

وأما كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه الله تعالى فقد قال فى الإحاطة لما أجرى ذكر ذلك ما
صورته وأما ما رفع الى من الموضوعات العلمية والوسائل الأدبية والرسائل الإخوانية لما أقامنى

الملك صنما يعتمد وخيالا اليه يستند صادرة عن الأعلام وحملة الأعلام ورؤساء النثار والنظام فجم يضيئ عنه الإحصاء ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء وربما تضمن هذا الكتاب كتاب الإحاطة منه كثيرا ومنظوما أثيرا ودرا نثيرا جرى فى أثناء الأسماء وانتمى الى الإحادة أكرم الانتماء غفر الله تعالى لى ولقائله فما كان اولانى وإياه بستر زوره وإجراء الإضراب بغيره فأهون بما لا ينفع وإن ارتفع الكلم الطيب لا يرفع اللهم تجاوز عنا بفضلك وكرمك انتهى وقد تقدم فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطى الفاسى نزيل مالقة صاحب التأليف العديدة أنه ألف تقييدا على قواعد الإمام القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى وكذلك غير واحد من أهل عصره قصدوه بالنظم والنثر وهى سنة الله سبحانه وتعالى فى عبادة إذ السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق فيها والله سبحانه وتعالى ولى المكافأة لا رب غيره ولا مأمول سواه انتهى

حذف

الباب الخامس

فى إيراد جملة من نثره الذى عبق أريج البلاغة من نفحاته ونظمه الذى تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته وما يتصل به من أزراله وموشحاته ومناسبات رائعة فى فنون الأدب ومصطلحاته اعلم سلك الله تعالى بى وبك اوضح محجه وجعلنا ممن انتحى صوب الصواب ونهجه أن هذا الباب هو المقصود بتأليف هذا الكتاب وغيره كالتبع له وهما أنا أذكر ما حضرنى الآن من بنات أفكار لسان الدين التى هى بالمحاسن متقنة وللبدائع منتعلة فاقول أما نثره فهو البحر الزخار بل الدر الذى به الافتخار وناهيك أن كتبه الآن فى المغرب قبلة أرباب الإنشاء التى اليها يصلون وسوق درهم النفيسة التى يزينون بها صدور طروسهم ويحلون وخصوصا كتابه ريحانة الكتاب ونجعه المنتاب فإنه وإن تعددت مجلداته على فن الإنشاء والكتابة مقصور وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطباته لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين علم بلاغتهم منصور وقد تركت نسختى منه فى المغرب ولو حضرتنى لكفتنى عن هذه الفوائد التى أتعبت خاطرى فى جمعها من مقيداتى التى صحبتها معى وهى قليلة وقد مر فى هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه والذى نجلبه هنا زيادة على ما سبق وقال رحمه الله تعالى فى الإحاطة عند ترجمة نثره ما صورته وأما النثر فبحر زاخر ومدى طوله مستاخر وإنك لم يفخر عليك كفأخر وقد مر منه فى تصاعيف هذا الديوان كثير ونحن نجلب منه ما يشير اليه مشير انتهى 1 - فمن ذلك قوله فى غرض التحميد مما افتتح به الكتاب فى التاريخ المتضمن دولة بنى نصر الحمد لله الذى جعل الأزمنة كالأفلاك ودول الأملاك كأنجم الأحلاك تطلعها من المشارق نيره وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ثم تذهب بها غائرة متغيرة السائق عجل وطبع الوجود مرتجل والحى من الموت وجل والدهر لا معتذر ولا خجل بينما ترى الدست عظيم الزحام والموكب شديد الالتحام والوزعة تشير والأبواب يقرعها البشير والسرور قد شمل الأهل والعشير والأطراف تلتهمها الأشراف والطاعة يشهرها الاعتراف والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف والرايات تعقد والأعطيات تنقد إذ رأيت الأبواب مهجورة واللدسوت لا مؤملة ولا مزورة والحركات قد سكنت وأيدي الإدالة قد تمكنت فكانما لم يسمر سامر ولا نهى ناه ولا أمر أمر ما أشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط " به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح

ومن نثره قوله فى استدعاء إمداد وحض علي الجهاد أيها الناس رحمكم الله تعالى إخوانكم - 2 المسلمون بالأندلس 4 قد دهم العدو قصمه الله تعالى ساحتهم ورام الكفر خذله الله تعالى استباحتهم وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ومد الصليب ذراعيه عليهم وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى وهو دينكم فانصروه وجواركم الغريب فلا تخفروه وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه الجهاد الجهاد فقد تعين الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين الله الله فى الإسلام الله الله فى أمه محمد عليه الصلاة السلام الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله قد استغاث بكم الدين فأغيثوه قد تاكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه أعيينا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد صلوا رحم الكلمة واسوا بأنفسكم وأمواكم تلك الطوائف المسلمة كتاب الله بين أيديكم وألسنة الآيات تتادىكم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم والله سبحانه يقول فيه " يا أيها الذين

أمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم " الصف ومما صح عنه قوله " من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمهما الله على النار " ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم " " من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا " أدركوا رمق الدين قبل ان يفوت بادرُوا عليل الإسلام قبل ان يموت احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده جاهدوا فى الله بالألسن والأقوال حق جهاده " ماذا يكون جوابكم لنبيكم ... وطريق هذا العذر غير ممهد " ان قال لم فرطتم فى أمتى ... وتركتموهم للعُدو المعتدى " " تالله لو ان العقوبة لم تخف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد " اللهم اعطف علينا قلوب العباد اللهم بث لنا الحمية فى البلاد اللهم دافع عن الحریم والضعيف والأولاد اللهم انصرنا على أعدائك بأحبائك وأوليائك يا خير الناصرين اللهم أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا انتهى

ومن ذلك قوله فى صداق أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس فى فصل منه تضمن ذكر - 3 أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته

فضرب بفاس عمرها الله تعالى حلتها وأورث منها بالبيعة الزكية الرفيعة سراته وحلته فتبواوا من ذلك الغور المعشب الروض الأرح النور هالة سعد وأفق برق ورعد ودست وعيد ووعد يتناقلون رتب الشرف الصريح كابرا عن كابر ويروى مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجد كل حريص على عوالى المعالى مثابر " فالكف عن صلة والأذن عن حسن ... والعين عن قرّة والقلب عن جابر "

حيث الأنوف الشم والوجوه الغر والعزة القعساء والنسب الحر والفواطم فى صدف الصون من لدن الكون كأنهن الدر آل رسول الله ونعم الآك والموارد الصادقة اذا كذب الآك ومن اذا لم يصل عليهم فى الصلاة حبطت منها الأعمال طلبه الراكب ونشدة الطالب وسراة لؤى بن غالب وملتقى نور الله تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلي بن أبى طالب انتهى وهو طويل لم يحضرنى منه الآن سوى ما ذكرته 4 - ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى كتبت الى بعض السادة الفضلاء وقد بلغنى مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس الى الإيالة المرينية

وردت على من فنتى التى إليها فى معركة الدهر أتجيز وبفصل فضلها فى الأقدار المشتركة أتميز سحاة سرت وساءت وبلغت من القصد من شاءت أطلع بها سيدي صنيعة وده من شكواه على كل عابث فى السويداء موجب اقتحام البيداء مضمّر نار الشفقة فى فؤاد لم يبق من صبره الا القليل ولا من إفصاح لسانه الا الأنين والأليل ونوى مدت لغير ضرورة يرضاهم الخليل فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد الى رأس ماله أو عابد نوزع فى تقبل أعماله أو أمل ضويق فى فذلكة أماله لكنى رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ورايت الخط يبهر والحمد لله تعالى وبروق

واللفظ الحسن تومض فى خبره للمعنى الأصيل بروق فقلت ارتفع الوصب ورد من الصحة المغتصب وآلة الحس والحركة هى العصب واذا اشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه والروح خليط البدن والمرء بخليطه وعلى ذلك فبليد احتياطى لا يقنعه إلا الشرح فيه يسكن الظمأ البرح وعذرا عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار والإطناب والإكثار وزند القلق فى مثلها أورى والشفيق يسوء الظن مغرى والسلام 5 - ومن نثر لسان الدين ما ذكره فى الإحاطة فى ترجمة أبى عبد الله الشديد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن ابراهيم الأنصارى الجيانى الأصل ثم المالقى إذ قال ما صورته

جملة جمال من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله بلبل دوح السيع المثنى وماشطة عروس أبى الفرج ابن الجوزي وآية صقعه ونسيح وحده فى حسن الصوت وطيب النغمة اقتحم لذلك دسوت الملوك وجر أذيال الشهرة عذب الفكاهة ظريف المجالسة قادرا على المحاكاة متسورا حمى الوقار مليا داعى الانبساط قلد شهادة الديوان بمالقة فكان مغار حبل الأمانة شامخ مارن النزاهة لوحا للألقاب وعززت ولايته ببعض الألقاب النبيلة وهو الآن الناظر فى أمور الحسبة ببلده ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشير الى أضداده بما نصه

" يا أيها المحتسب الجزل ... ومن لديه الجد والهزل "

" يهنئك والشكر لمولى الورى ... ولاية ليس لها عزل "

كتبت أيها المحتسب المنتمى الى النزاهة المنتسب أهنيك ببلوغ تمنيك وأحذرك من طمع نفس بالغرور تمنيك فكأننى بك وقد طاقت بركابك الباعة ولزم أمرك السمع والطاعة

وارتفعت فى مصانعتك الطماعة وأخذت أهل الريب بغتة كما تقوم الساعة ونهضت تقعد وتقيم
وسطوتك الريح العقيم وبين يديك القسطاس المستقيم ولا بد من شرك ينصب وجماعة على ذى
جاه تعصب ودالة يمت بها الجناب الأخصب فإن غضضت طرفك أمنت على الولاية صرفك وإن ملأت
ظرفك رحلت عنها حرفك وإن كفتت فيها كفك حفك العز فيمن حفك فكن لقالى المجبنة قاليا
ولحوت السلة ساليا وأبد لدقيق الحواري زهد حواري وازهد فيما بأيدي الناس من العواري وسر فى
اجتناب الحلواء على السبيل السواء وارفص فى الشواء دواعى الأهواء وكن على الهراس وصاحب
ثريد الراس شديد المراس وثب على طبيخ الأعراس ليثا مرهوب الافتراس وأدب أطفال الفسوق
فى السوق لا سيما من كان قبل البلوغ والبسوق وضمم على استخراج الحقوق والناس أصناف
فمنهم خسيس يطمع منك فى أكله ومستعد عليك بوكزة أو ركلة وحاسد فى مطية تركب وعطية
تسكب فاحفض للحاسد جناحك وسدد الى حربه رماحك وأشيع الخسيس منهم مرقة فإنه حنق
ودس له فيها عظاما لعله يخنق واحفر لشربيرهم حفرة عميقة فانه العدو حقيقة حتى اذا حصل
وعلمت ان وقت الانتصار قد اتصل فأوقع وأوجع ولا ترجع وأولياءه من الشياطين فافجع والحق أقوى
وأن تعفو أقرب للتقوى سدك الله تعالى الى غرض التوفيق وأعلقك
من الحق بالسبب الوثيق وجعل قدومك مقرونا برخص اللحم والزيت والدقيق انتهى
ومما كتب به لسان الدين الى علي بن بدر الدين الطوسى بن موسى ابن رحو بن عبد الله بن - 6
عبد الحق من مدينة سلا ما نصه

" يا جملة الفضل والوفاء ... ما بمعاليك من خفاء "

" عندى بالود فيك عقد ... صحفه الدهر باكتفاء "

" ما كنت أقضى حلاك حقا ... لو جئت مدحا بكل فاء "

فأول وجه القبول عذرى ... وحسبك الشك في صفاء " س "

يدى الذى هو فصل جنسه ومزية يومه على أمسه فإن افتخر الدين من أبيك ببدرة افتخر منك
بشمسه رحلت على المنشأ والفرارة ومحل الصبوة والفرارة فلم تتعلق نفسى بذخيرة ولا عهد
جيرة خيرة كتعلقها بتلك الذات التى لطفت لطافة الراح واشتملت بالمجد الصراح شفقة أن تصيها
معرفة والله تعالى يقيها ويحفظها ويبقيها إذ الفضائل فى الأزمان الرذلة غوائل والضد عن ضده
منحرف بالطبع ومائل فلما تعرفت خلاص سيدي من ذلك الوطن والقائه وراء الفرضة بالعطن لم تبق
لى تعلقة ولا أحرصتني له علة ولا أوتى جمعى من قلة فكنت أهنىء نفسى الثانية بعد ههنا
نفسى الأولى وأعترف للزمان باليد الطولى فالحمد لله الذى جمع الشمل بعد شتاته وأحيا الأنس
بعد مماته سبحانه لا مبدل لكلماته وإياه أسأل ان يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه فلا يستطيع
حادث ان يصيبه وانا اخرج له عن بث كمين ونصح أنا به قمين

بعد أن أسير غوره وأخبر طوره وأرصد دوره فان كان له فى التشريق أمل وفى ركب الحجاز ناقة
وجمل والرأى فيه قد نجحت منه نية وعمل فقد غنى عن عرف البقرات بأزكى الثمرات وأطفا هذه
الجمرات برمى الجمرات وتأنس بوصل السرى ووصال السراة وأنا به ان رضينى أرضى مرافق ولواء
عزى به خافق وان كان على السكون بناؤه وانصرف الى الإقامة اعتناؤه فأمر له ما بعده والله يحفظ
من الغير سعده والحق ان تحذف الأبهة وتختصر ويحفظ اللسان ويغض البصر وينخرط فى الغمار
ويخلى عن المضمار ويجعل من المحظور مداخلة من لا خلاق له ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا
عمله فلا يكتم سرا ولا يتطوق من الرجولة زرا ويرفض زمام السلامة وترك العلامة على النجاة
علامة وأما حالى فكما علمتم ملازم كن ومهبط تجربة وسن أزجى الأيام وأروم بعد التفرق الألتنام
خالى اليد ملىء القلب والخلد بفضل الواحد الصمد عامل على الرحلة الحجازية التى أختارها لكم
ولنفسى وأصل فى التماس الإعانة عليها يومى بأمسى أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من
ود قررته الأيام والشهور والخلوص المشهور وما أطلت فى شىء عند قدومى على هذا الباب
الكريم إطالتي فيما يختص بكم من موالاته وبذل مجهود القول والعمل فى مرضاته وأما ذكركم فى
هذه الأوضاع فهو مما يقر عين المجادة والوظيفة التى ينافس فيها أولو السيادة والله يصل بقاءكم
وييسر لقاءكم والسلام انتهى

ومن نثر لسان الدين ما أثبتته فى الإحاطة فى ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذى تكرر نقلنا - 7
منه فى هذا التأليف

ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول قال رحمه الله تعالى فى الإحاطة ما نصه عبد الرحمن بن محمد بن
محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن
إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى من ذرية عثمان أخى كريب المذكور فى

نبيهاء ثوار الأندلس وينسب سلفهم الى وائل بن حجر وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك فاستقر بتونس منهم ثانی المحمدين محمد بن الحسن وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة وتصرف جد المترجم به فى القيادة وأما المترجم به فهو رجل فاضل حسن الخلق جم الفضائل باهر الخصل رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصى الزى على الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادة قوى الجأش طامح لقنن الرياسة خاطب للحظ متقدم فى فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور بارع الخط مغرى بالتجلة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة مقيم لرسم التعيين عاكف على رعى خلال الأصالة مفخر من مفاخر التخوم المغربية 3قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال والعربية على المقرئ الزواوي وغيره وتآدب بأبيه وأخذ عن المحدث أبى عبد الله ابن جابر الوادى أشى وحضر مجلس القاضى أبى عبد الله ابن عبد السلام وروى عن الحافظ أبى عبد الله السطى والرئيس أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى ولازم العالم الشهير ابا عبد الله الأبلق وانتفع به انصرف من إفريقية منشئة بعد ان تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة وعرف فضله وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن على بن عثمان واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبه الحضرة لبعده عن حسن التاتى وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك فأغروا به

السلطان إغراء عضده ما جبل عليه عهدئذ من إغفال التحفظ مما يريب لديه فأصابته شدة تخلصه منها أجله كانت مغرية فى جفاء ذلك الملك وهناة جواره وإحدى العواذل لأولى الهوى فى القول بفضله وعدم الخشوع واهمال التوسل وإبادة المكسوب فى سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجر المنزل الخشن الى ان أفضى الأمر الى السعيد ولده فأعنته قيم الملك لحينه وأعادته الى رسمه ودالت الدولة الى السلطان أبى سالم وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة الى آخر أيامه ولما ألفت الدولة مقادها بعده الى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر وله اليه وسيلة وفى حليه شركة وعنده حق رابه تقصيره عما ارتمى اليه أمله فساء ما بينهما بما آل الى انفصاله عن الباب المرينى وورد على الأندلس فى أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة واهتز له السلطان وأركب خاصته لتلقيه واكرم وفادته وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ولم يدخر عنه برا ومؤاكلة ومراكبه ومطاييه وفكاهة

وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن فأجبتة عنها بقولى - 8
" حللت حلول الغيث فى البلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل "
" يمينا بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهذا والكهل "
" لقد نشأت عندى للقياك غبطة ... تنسى إغتابى بالشبيبة والأهل "
أقسمت بمن حجت قريش لبيته وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته لو خيرت أيها الحبيب الذى زيارته الأمنية السننية والعارفة الوارفة واللطيفة المطيفة بين رجع الشباب يقطر ماء وبرف نماء ويغازل عيون الكواكب فضلا عن الكواعب إشارة وأيماء بحيث لا الوخط يلم بسياج لمتة أو يقدح ذباله فى ظلمته أو يقوم حوارية فى ملته من الأحابيش وأتمته وزمانه روح وراح ومغدى فى النعيم ومراح وقصف صراح ورقى وجراح وانتحاب واقتراح وصدور ما بها إلا انشراح ومسرات تردفها أفراح وبين قدومك خليع الرسن ممتعا والحمد لله باليقظة والوسن محكما فى نسك الجنيد أو فتك الحسن ممتعا بظرف المعارف مالئا أكف الصيارف ما حيا بانوار البراهين شيه الزخارف لما اخترت الشباب وان راقبى زمنه وأعيانى ثمنه وأجرت سحائب دمعى دمنه فالحمد لله الذى رقى جنون اغترابى وملكنى أزمة أرابى وغبطنى بمائى وترابى ومآلف أترابى وقد أعصنى بلذيد شرابى ووقع على سطوره المعتبرة إضرابى وعجلت هذه مغطية بمناخ المطية ومنتهى الطية وملتنقى السعود غير البطية وتهنى الآمال الوثيرة الوطية فما شئت من نفوس عاطشة الى ريك متجملة بزيك عاقلة خطى مهريك ومولى مكارمه نشيدة أمثالك ومطان مثالك وسيصدق الخبر ما هنالك ويسع فضل مجدك فى التخلف عن الإصحار لا بل اللقاء من وراء البحار والسلام

ولما استقر بالحضرة جرت بينى وبينه مكاتبات أقطعها الطرف جانبه وأوضح الأدب مذاهبه فمن - 9
ذلك ما خاطبته به وقد تسرى جارية رومية اسمها هند صبيحة الابتناء بها

" أوصيك بالشيخ ابى بكره ... لا تأمنن فى حالة مكروه "

" واجتنب الشك إذا جنته ... جنبك الرحمن ما تكره "

سيدى لا زلت تتصف بالوالج بين الخلاخل والدمالج وتركض فوقها ركض الهمالج أخبرنى كيف كانت الحال وهل حطت بالقاع من خير البقاع الرجال وأحكم بمرود المراودة الاكتحال وارتفع بالسقيا الإمحال وصح الانتحال وحصص الحق وذهب المحال وقد طولعت بكل بشرى وبشر وزفت هند منك الى بشر فلله من عشيه تمتعت من الربيع بفرش موشية وأبدلت منها أي أساد وحشية وقد أقبل طبى الكناس من الديماس ومطوق الحمام من الحمام وقد حسنت الوجه الجميل التطرية وأزيلت عن الفرع الأثيث الأبرية وصقلت الخدود فكأنها الأمرية وسلط الدلك على الجلود وأغرقت النورة بالشعر المولود وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس ولا تنالها البنان الخمس والسحنة يجول فى صفحتها الفضية ماء النعيم والمسواك يلبى من ثنية التعيم والقلب يرمى من الكف الرقيم بالمقعد المقيم وينظر الى نجوم الوشوم فيقول إنى سقيم وقد تفتح ورد الخفر وحكم لزنجى الضفيرة بالظفر واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ورش بماء الطيب ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب وأقبلت الغادة يهديها اليمين وترزفها السعادة فهى تمشى على استحيا وقد ذاع طيب الريا وراق حسن المحيا حتى إذا نزع الخف وقبلت الأكف وصخب المزمار وتجاوب الدف وذاع الأرج وارتفع الحرج وتجاوز اللوى والمنعرج ونزل على بشر بزيارة هند الفرج اهتزت الأرض وربت وعوصيت الطباع البشرية فأبت ولله در القائل

" ومرت فقلت متى نلتقى ... فهش اشتياقا اليها الخبيث "

" وكاد يمزق سرياله ... فقلت اليك يساق الحديث "

فلما انسدل جنح الظلام وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام وخاطت خيوط المنام عيون الأنام تأتي دنو الجلسة ومسارقة الخلسة ثم عضة النهد وقيلة الغم والخذ وإرسال اليد من النجد الى الوهد وكانت الإمالة القليلة قبل المد ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب ثم الإماطة لما يشوش ويشغب ثم إعمال المسير الى السرير

" وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة اي إذلال "

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة يراها الغيد من حسن السيرة ثم شرع فى التكة ونزع الشكة وتهيئة الأرض العزاز عمل السكة ثم كان الوحي والاستعجال وحمى الوطيس والمجال وعلا الجزء الخفيف وتضافت الخصور الهيف وتشاطر الطبع العفيف وتواتر التقبيل وكان الأخذ الوبيل وامتاز الأنوك من النبيل ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل فيا لها من نعم متداركة ونفوس فى سبيل القحة متهالكة ونفس يقطع حروف الحلق وسبحان الذى يزيد فى الخلق وعظمت الممانعة وكثرت باليد المصانعة وطال التراوغ والتراور وشكى التجاور وهنالك تختلف الأحوال وتعظم الأهوال وتخسر أو تريح الأموال فمن عصا تنقلب ثعبانا مبينا ونونة وتصير تينا وبطل لم يهمله المعترك الهائل والوهم الزائل ولا حال بينه وبين قرنه الحائل فتعدى فتكه السليك الى فتكه البراض وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج فى الاعتراض ثم شق الصف وقد خضب الكف بعد أن كان يصيب البوسى بطعنته ويؤء بمقت الله ولعنته

" طعنت ابن عبد الله طعنة ثائر ... لها نفذ لولا الشعاع أضاءها "

وهناك هدا القتال وسكن الخبال ووقع المتوقع فاستراح البال وتشوف الى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال وكثر السؤال عن المبال بما بال وجعل الجريح يقول وقد نظر الى دمه يسيل على قدمه

" إنى له عن دمي المسفوك معتر ... أقول حملته فى سفكه تعبنا "

ومن سنان عاد عنانا وشجاع صار جبانا كلما شابته شائبة ربيه أدخل يده فى جيبه فانجحرت الحية وماتت الغريزة الحية وهناك يزيغ البصر ويخذل المنتصر ويسلم الأشر ويغلب الحصر ويجف اللعاب ويظهر العاب ويخفق الفؤاد ويكبو الجواد ويسيل العرق ويشتد الكرب والأرق وينشأ فى محل الأمن الفرق ويدرك فرعون الغرق ويقوى اللجاج ويعظم الخرق فلا تزيد الحال إلا شدة ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلا ردة

" إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده "

فكم مغرى بطول اللبث وهو من الخبث يؤمل الكرة ليزيل المعرة ويستنصر الخيال ويعمل باليد الاحتيال

" إنك لا تشكو الى مصمت ... فاصبر على الحمل الثقيل أو مت "

ومعتر بمرض أصابه جرعه أو صابه ووجع طرقه جلب أرقه وخطيب أرتج عليه أحيانا فقال سيحدث

الله بعد عسر يسرا ويعد وعى بيانا اللهم إنا نعوذ بك من فضائح الفروج إذا استغلقت أفعالها ولم تتسم بالنجيع أغفاله ومن معرات الأقدار والنكول عن الأبيكار ومن النزول عن البطون والسرر والجوارح الحسنة الغرر قبل ثقب الدرر ولا تجعلنا ممن يستحيي من البكر بالغداة وتعلم منه كلال الأداة وهو مجال فضحت فيه رجال وفراش شكبت فيه أوجال وأعملت روية وارترجال فمن قائل " أرفعه طورا على إصبعي ... ورأسه مضطرب أسفله "

كالحنش المقتول يلقي على ... عود لكى يطرح فى مزبلة " وقائل " عدمت من أيرى قوى حسه ... يا حسرة المرء على نفسه " تراه قد مال على أصله ... كحائط خر على أسه "

وقائل

" أبجسدنى إبليسى داءين أصيحا ... برجلى ورأسى دملا وزكاما " فليتهما كانا به وأزيده ... رخاوة أير لا يطيق قياما " إذا نهضت للنيك أزباب معشر ... توسد إحدى خصيتيه وناما "

وقائل

" أقول لأيرى وهو يرقب فتكه ... به خبت من اير وعالتك داهيه " إذا لم يكن للأير بخت تعذرت ... عليه وجوه النيك من كل ناحيه " وقائل

" تعقف فوق الخصيتين كأنه ... رشاء الى جنب الركبة ملتف " كفرخ ابن ذى يومين يرفع رأسه ... الى أبويه ثم يدركه الضعف "

وقائل

" تكرش أيرى بعدما كان أملسا ... وكان غنيا من قواه فأفلسا " وصار جوابى للمها إن مررن بى ... ومضى الوصل الامنية تبعث الأسى "

وقائل

" بنفسى من حييته فاستخف بى ... ولم يخطر الهجران يوما على بالى " وقابلنى بالغور والنجد بعدما ... حططت به رحلى وجردت سربالى " وما أرتجى من موسر فوق تكة ... عرضت له شيئا من الحشف البالى " هموم لا تزال تبكى وعلل الدهر تشكى وأحاديث تقص وتحكى فإن كنت أعزك الله سبحانه من النمط الأول ولم تقل

" ... وهل عند رسم دارس من معول "

فقد جنيت الثمر واستطيت السمر فاستدع الأبواق من أقصى المدينة واخرج على قومك فى ثياب الزينة واستبشر بالوفود وعرف المسموع عازفة الجود وتبجح بصلابة العود وإنجاز الوعود واجن رمان النهود من أعصان القدود واقطف ببنان اللثم أقاح الثغور وورد الخدود وأن كانت الأخرى فأخف الكمد وارض التمد وانتظر الأمد وأكذب التوسم واستعمل التيسم واستكتم النسوة وأفض فيهن الرشوة وتقلد المغالطة وارتكب وجىء على قميصه بدم كذب واستنجد الرحمن واستعن على أمرك بالكتمان

" لا تظهرن لعاذل أو عاذر ... حاليك فى الضراء والسراء "

" فلرحمة المتفجعين حرارة ... فى القلب مثل شماتة الأعداء "

وانتشق الأرج وارثقب الفرج فكم غمام طما " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " الانفال واملك بعدها عنان نفسك حتى تتمكنك الفرصة وترفع اليك القصة ولا تشره الى عمل لا تفىء منه بتمام وخذ عن إمام ولله در الحارث بن هشام

" الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا مهري بأشقر مزيد "

" وعلمت أنى إن أقاتل دونهم ... أقتل ولم يضر عدوى مشهدي "

" ففررت منهم والأحبة فيهم ... طعما لهم بعقاب يوم مفسد "

والبليانات تلين وتجمح والمأرب تدنو وتنزح وتحرن ثم تسمح وكم من شجاع خام ويقظ نام ودليل أخطأ الطريق وأضل الفريق والله عز وجل يجعلها خلة موصولة وشملا أكنافه بالخير مشمولة وبنية أركانها لركائب اليمن مأمولة حتى تكثر خدم سيدي وجواربه وأسرتة وسراربه وتضفو عليه نعم باربه ما طورد قنيص واقتحم عيص وأدرك مرام عويص وأعطى زاهد وحرم حريص والسلام بقية ترجمة ابن خلدون عن الإحاطة

توآلفه شرح البردة شرحا بديعا دل به على انفساح ذرعه وتفنن إدراكه

وغزارة حفظه ولخص كثيرا من كتب ابن رشد وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييدا مفيدا فى المنطق ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازى وبه داعبته أول لقيه فقلت له لى عليك مطالبة فإنك لخصت محصلى وألف كتابا فى الحساب وشرع فى هذه الأيام فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشىء لا غاية فوفه فى الكمال

وأما نثره وسلطانياته السجعية فخلع بلاغة ورياض فنون ومعادن إبداع يفرغ عنها يراعه الجرىء شبيهة البدءات بالخواتم فى نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع

وأما نظمه فنهض لهذا العهد قدما فى ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه فانثال عليه جوه وهان عليه صعبه فأتى منه بكل غريبة

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها

" أسرفن فى هجري وفى تعذيبى ... وأطلن موقف عبرتى ونحيبى "

" وأبين يوم البين وقفة ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كتيب "

" لله عهد الطاعنين وغادروا ... قلبى رهين صباة ووجيب "

" غريت ركائبهم ودمعى سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبي "

" يا ناقعا بالعتب غلة شوقهم ... رحماك فى عدلى وفى تانيبى "

" يستعذب الصب الملام واننى ... ماء الملام لدى غير شريب "

" ما هاجنى طرب ولا اعتاد الجوى ... لولا تذكر منزل وحبيب "

" أهفو الى الأطلال كانت مطلعا ... للبدرمنهم أو كناس ريب "

" عبتت بها أيدى البلى وترددت ... فى عطفها للدهر آي خطوب "

" تبلى معاهدها وان عهدوها ... ليحدها وصفى وحسن نسيبى "

" واذا الديار تعرضت لمتيم ... هزته ذكراها الى التشيب "

" ايه على الصبر الجميل فإنه ... الوى بدين فؤادى المنهوب "

" لم أنسها والدهر يثنى صرفه ... ويغض طرفى حاسد ورفيب "

" والدار مونة محاسنها بما ... لبست من الأيام كل قشيب "

" يا سائق الأظعان تعتسف الفلا ... وتواصل الإساد بالتأويب "

" متهافتا عن رحل كل مذلل ... نشوان من اين ومس لغوب "

" تتجاذب النفحات فضل رذائه ... فى ملتقاها من صبا وجنوب "

" إن هام من ظمأ الصباة صحبه ... نهلوا بمورد دمعهم المسكوب "

" أو تعترض مسراهم سدف الدجى ... صدعوا الدجى بغرامه المشبوب "

" فى كل شعب منية من دونها ... هجر الأمانى أو لقاء شعوب "

" هلا عطفت صدورهن الى التى ... فيها لبانة أعين وقلوب "

" فتؤم من أكناف يثرب مأمنا ... يكفيك ما تخشاه من تثريب "

" حيث النبوة أيها مجلوة ... تتلو من الآثار كل غريب "

" سر غريب لم يحجبه الثرى ... ما كان سر الله بالمحجوب "

ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم

" يا سيد الرسل الكرام ضراعة ... تقضى منى نفسى وتذهب حوىي "

" عاقت ذنوبى عن جنابك والمنى ... فيها تعلقنى بكل كذوب "

" لا كالألئى صرفوا العزائم للتقى ... فاستأثروا منها بخير نصيب "

" لم يخلصوا لله حتى فرقوا ... فى الله بين مضاجع وجنوب "

" هب لى شفاعتك التى ارجو بها ... صفحا جميلا عن قبيح ذنوبى "

" ان النجاة وان أتيت لأمريء ... فبفضل جاهك ليس بالتسبيب "

" انى دعوتك واثقا باجابتى ... يا خير مدعو وخير مجيب "

" قصرت فى مدحى فإن يك طيبا ... فيما لذكرك من أريج الطيب "

" ماذا عسى يبغى المطيل وقد حوى ... فى مدحك القرآن كل مطيب "

" يا هل تبلغنى الليالى زورة ... تدنى الى الفوز بالمرغوب "

" امحو خطيئانئى بإخلاصى بها ... وأحط أوزارى واصر ذنوبى "

" فى فتية هجروا المنى وتعودوا ... إنضاء كل نجيبه ونجيب "

" يطوى صحائف ليلهم فوق الفلا ... ما شئت من خب ومن تقرب "

" إن رزم الحادى بذكرك رددوا ... أنفاس مشتاق اليك طروب "

" أو غرد الركب الخلى بطيبة ... حنوا لمغناها حنين النيب "

" ورتوا اعتساف البيد عن أبائهم ... إرث الخلافة فى بنى يعقوب "

" الطاعنون الخيل وهى عوايس ... يغشى مثار النقع كل سبيب "

" والواهبون المقربات صوافنا ... من كل خوار العنان لعوب "

" والمانعون الجار حتى عرضهم ... فى منتدى الأعداء غير معيب "

" تخشى بوادرهم ويرجى حلمهم ... والعز شيمة مرتجى ومهيب "

ومنها

" سائل به طامى العباب وقد سرى ... تزجى بريح العزم ذات هبوب "

" تهدية شهب أسنة وعزائم ... يصدعن ليل الحادث المرهوب "

" حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه ... وسطا الهدى بفريقها المغلوب "

" يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى ... واستأثروك بتاجها المعصوب "

" جمعوا بحفظ الدين آي مناقب ... كرموا بها فى مشهد ومغيب "

" لله مجدك طارفا أو تالدا ... فلقد شهدنا منه كل عجيب "

" كم رهبة أو رغبة لك والعلأ ... تقتاد بالترغيب والترهيب "

" لا زلت مسرورا بأشرف دولة ... يبدو الهدى من أفقها المرقوب "

" تحيي المعالى غاديا أو رائحا ... وجديد سعدك ضامن المطلوب "

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان اليه وفيها الزرافة

" قدحت يد الأشواق من زندي ... وهفت بقلبي زفرة الوجد "

" ونبذت سلوانى على ثقة ... بالقرب فاستبدلت بالبعد "

" ولرب وصل كنت أمله ... فاعتضت منه مؤلم الصد "

" لا عهد عند الصبر أطلبه ... إن الغرام أضاع من عهدى "

" يلحى العذول فما أعنفه ... وأقول ضل فأبتغى رشدى "

" وأعارض النفحات أسالها ... برد الجوى فتزبد فى الوفد "

" يهدى الغرام الى مسالكها ... لتعللى بضعيف ما تهدى "

" يا سائق الوجناء معتسفا ... طى الفلاة لطية الوجد "

" أرح الركاب فى الصبا نبأ ... يغنى عن المستنة الجرد "

" وسل الربوع برامة خيرا ... عن ساكنى نجد وعن نجد "

" ما لى تلام على الهوى خلقى ... وهى التى تأبى سوى الحمد "

" لأبيت إلا الرشيد مذ وضحت ... بالمستعين معالم الرشيد "

" نعم الخليفة فى هدى وتقى ... وبناء عز شامخ الطود "

" نجل السراة الغر شأنهم ... كسب العلأ بمواهب الوجد "

ومنها

" لله منى إذ تاوينى ... ذكراه وهو بشاهق فرد "

" شهم يغل بواترا قضا ... وجموع أقيال أولى ايد "

" أوربت زند العزم فى طلبى ... وفضيت حق المجد من قصدى "

" ووردت عن ظمأ مناهلة ... فرويت من عز ومن رفد "

" هى جنة المأوى لمن كلفت ... آماله بمطالب المجد "

" لو لم أعل بورد كوثرها ... ما قلت هذى جنة الخلد "

" من مبلغ قومى ودونهم ... قذف النوى وتنوفة البعد "

" أنى أنفت على رجائهم ... وملكك عز جميعهم وحدى "

ومنها

" ورقيمة الأعطاف حالية ... موشية بوشائع البرد "

" وحشية الأنساب ما أنست ... فى موحش البيداء بالقرد "

" تسمو بجيد بالغ صعدا ... شرف الصروح بغير ما جهد "

" طالت رؤوس الشامخات به ... ولربما قصرت عن الوهد "

" قطعت اليك تنائفا وصلت ... إسادها بالنص والوخذ "

" تخدي على استصعابها ذللا ... وتبيت طوع القن والقند "

" بسعودك اللائي ضمن لنا ... طول الحياة يعيشه رعد "

" جاءتك في وفد الأحابش لا ... يرجون غيرك مكرم الوفد "

" وافوك أنضاء تقلبهم ... أيدي السرى بالغور والنجد "

" كالطيف يستفري مضاجعه ... أو كالحسام يسلم من غمد "

" يثون بالحسنى التى سيقى ... من غير إنكار ولا جد "

" ويرون لحظك من وفادتهم ... فخرا على الأتراك والهند "

" يا مستعينا جل في شرف ... عن رتبة المنصور والمهدي "

" جازاك ربك عن خليفته ... خير الجزاء فنعم ما تسدي "

" وبقيت للنديا وساكنها ... في عزة أبدا وفي سعد "

وقال يخاطب عمر بن عبد الله مدير ملك الغرب

" يا سيد الفضلاء دعوة مشفق ... نادى لشكوى البث خير سميع "

" ما لي وللإفضاء بعد تعلقة ... بالقرب كنت لها أجل شفيق "

" وأرى الليالي رنقت لي صافيا ... منها فأصبح في الأجاج شروعي "

" ولقد خلصت إليك بالقرب التى ... ليس الزمان لشملمها بصدوع "

" ووثقت منك بأى وعد صادق ... أني المصون وأنت غير مضيع "

" وسما بنفسى للخليفة طاعة ... دون الأنام هواك قبل نزوع "

" حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم ... فصددهم عني وكنت منيعي "

" رغمت أنوفهم بنجح وسائلى ... وتقطعت أنفاسهم بصنيعي "

" ويغوا بما نقموا علي خلائقي ... حسدا فراموني بكل شنيع "

" لا تطمعنهم ببذل في التى ... قد صنتها عنهم بفضل قنوعي "

" أنى أضام وفي يدي القلم الذي ... ما كان طيعة ولهم بمطيع "

" ولي الخصائص ليس تأبى رتبة ... حسبى بعلمي ذاك من تفرعي "

" قسما بمجدك وهو خير ألية ... أعتدها لفؤادي المصدوع "

" إني لتصطحب الهموم بمضجعي ... فتحول ما بيني وبين هجوعي "

" عطفًا علي بوحدتي عن معشر ... نفت الإباء صدودهم في روعي "

" أعدوا إذا باكرتهم متجلدا ... وأروح أعتز في فضول دموعي "

" حيران أوحس عند نفسى خيفة ... فتسر في الأوهام كل مروع "

" أطوى على الزفرات قلبا أده ... حمل الهموم تجول بين ضلوعي "

" ولقد أقول لصرف دهر راينى ... بحوادث جاءت على تنوع "

" مهلا عليك فليس خطبك ضائرى ... فلقد لبست له أجن دروع "

" إنى ظفرت بعصمة من أوجد ... بذ الجميع بفضله المجموع "

وقال يخاطب بعض الوزراء فى حال وحشة

" هنيئا بصوم لا عداه قبول ... وبشرى بعيد انت فيه منيل "

" وهنيتها من عزة وسعادة ... تتابع أعوام بها وفصول "

" سقى الله دهرًا أنت إنسان عينه ... ولا مس ريعا فى حماك محول "

" فعصرك ما بين الليالى مواسم ... لها غرر وضاحة وحجول "

" وجانبك المأمول للجرد مشرع ... يحوم عليه عالم وجهول "

" عساک وان ضن الزمان منولى ... فرسم الأمانى من سواك محيل "

" أجرنى وليس الدهر لى بمسالمة ... اذا لم يكن لى فى ذراك مقيل "

" وأوليتنى الحسنى بما انا أمل ... فمئلك يولى راجيا وينيل "

" ووالله ما رمت الترحل عن قلبى ... ولا سخط للعيش فهو جزيل "

" ولا رغبة عن هذه الدار انها ... لظل على هذا الأنام ظليل "

" ولكن نأى بالشعب عنى حباب ... دعاهن خطب للفراق طويل "

" يهيج بهن الوجد أنى نازح ... وأن فؤادى حيث هن حلول "

" عزيز عليهن الذى قد لقيته ... وأن اغترابى فى البلاد يطول "

" توارت بانباتى البقاع كأننى ... تخطفت أو غالت ركابى غول "

" ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى ... فطارت بقلبي أنه وعويل "

" وحييت عن شوق رباك كأنما ... يمثل لى نؤي بها وطلول "

" أحبابنا والعهد بينى وبينكم ... كريم وما عهد الكريم يحول "
 " اذا انا لم ترض الحمول مدامعى ... فلا قربتنى للقاء حمول "
 " الام مقامى حيث لم ترد العلا ... مرادى ولم تعط القياد ذلول "
 " أجاذب فضل العمر يوما وليلة ... وساء صباح بينها وأصيل "
 " ويذهب فيما بين يأس ومطمع ... زمان بنيل المعلوات بخيل "
 " تغلبنى منه أمان خوادع ... ويؤيسنى ليان منه مطول "
 " أما لليال لا ترد خطوبها ... ففى كبدى من وقعهن فلول "
 " پروعنى من صرفها كل حادث ... تكاد له صم الجبال تزول "
 " أدارى على رغم العدا لا لريبة ... يصانع واش خوفها وعذول "
 " وأغدو بأشجانى عليلا كأنما ... تجود بنفسى زفرة وغليل "
 " وإنى وان أصبحت فى دار غربة ... تحيل الليالى سلوتى وتزبل "
 " وصدتنى الأيام عن خير منزل ... عهدت به ان لا يضام نزيل "
 " لأعلم أن الخير والشر ينتهى ... مداه وان الله سوف يدبل "
 " وأنى عزيز بابن ماساى مكثر ... وان هان أنصار ويان خليل "

وقال يمدح

" هل غير بابك للغريب مؤمل ... أو عن جنابك للأمانى معدل "
 " هى همة بعثت إليك على النوى ... عزما كما شحذ الحسام الصيقل "
 " متبوا الدنيا ومنتجع المنى ... والغيث حيث العارض المتهلل "
 " حيث القصور الزاهرات منيفة ... تعنى بها زهر النجوم وتحفل "
 " حيث الخيام البيض يرفع للعلا ... والمكرمات طرافها المتهدل "
 " حيث الحمى للعز دون مجاله ... ظل أفاءته الوشيح الذبل "
 " حيث الكرام ينوب عن نار القرى ... عرف الكباء بحيهم والمندل "
 " حيث الجياد أملهن بنو الوعى ... مما أطالوا فى المغر وأوغلوا "
 " حيث الوجوه الغر قنعها الحيا ... والبشر فوق جبينها يتهلل "
 " حيث الملوك الصيد والنفر الألى ... عز الجوار لديهم والمنزل "
 " وأنشد السلطان أبا عبد الله ابن الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام أربعة وستين
 " وسبعمائة هذه القصيدة

" حى المعاهد كانت قبل تحيينى ... بواكف الدمع يرويهما ويظمينى "
 " إن الألى نرحت دارى ودارهم ... تحملوا القلب فى آثارهم دونى "
 " وقفت أنشد صبورا ضاع بعدهم "
 " فيهم وأسأل رسما لا يناجينى "
 " أمثل الربيع من شوق وألثمة ... وكيف والفكر يذنيه ويقصينى "
 " وينهب الوجد منى كل لؤلؤة ... ما زال جفنى عليها غير مأمون "
 " سقت جفونى مغانى الربيع بعدهم ... فالدمع وقف على أطلاله الجون "
 " قد كان للقلب عن داعى الهوى شغل ... لو أن قلبى إلى السلوان يدعونى "
 " أحبابنا هل لعهد الوصل مذكر ... منكم وهل نسمة منكم تحيينى "
 " ما لى وللطيف لا يعتاد زائره ... وللنسيم عليلا لا يداوينى "
 " يا أهل نجد وما نجد وساكنها ... حسنا سوى حنة الفردوس والعين "
 " أعندكم أننى ما مر ذكركم ... إلا انثيت كأن الراج تثينى "
 " أصبو الى البرق من أنحاء أرضكم ... شوقا ولولاكم ما كان يصبينى "
 " يا نازحا والمنى تدينه من خلدي ... حتى لاحسبه قريبا يناجينى "
 " أسلى هواك فؤادى عن سواك وما ... سواك يوما بحال عنك يسلينى "
 " ترى الليالى أنستك اد كارى يا ... من لم يكن ذكره الأيام تنسينى "

ومنها

" أبعد مر الثلاثين التى ذهبت ... أولى الشباب يا حسانى وتحسينى "
 " أضعفت فيها نفيسا ما وردت به ... إلا سراب غرور لا يروينى "
 " واحسرتى من أمان كلها خدع ... تربش غيبي ومر الدهر يبرينى " ومنها فى وصف المشور "

المبنى لهذا العهد

" يا مصنعا شيدت منه السعود حمى ... لا يطرق الدهر ميناه بتوهين "
" صرح يحار لديه الطرف مفتتنا ... فيما يروقك من شكل وتكوين "
" بعدا لإيوان كسرى أن مشورك ... السامى لأعظم من تلك الأواوين "
" ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرون "
ومنها فى التعريض بالوزير الذى كان انصرافه بسببه
" من مبلغ عنى الصحب الألى جهلوا ... ودى وضاع حماهم إذ أضاعونى "
" أنى أويت من العليا الى حرم ... كادت مغانية بالبشرى تحيينى "
" واننى طاعنا لم ألق بعدهم ... دهرا أشاكى ولا خصما يشاكينى "
" لا كالتى أخفرت عهدي ليالى إذ ... أقلب الطرف بين الخوف والهون "
" سقيا ورعيا لأيامى التى ظفرت ... بداي منها بحظ غير مغبون "
" أرتاد منها مليا لا يماطلنى ... وعدا وأرجوا كريما لا يعينى "
ومنها
" وهاك منها قواف طيها حكم ... مثل الأزاهر فى طى الرياحين "
" تلوح ان جليت درا وإن تليت ... تشنى عليك بأنفاس البساتين "
" عانيت منها بجهدى كل شاردة ... لولا سعودك ما كانت تواتينى "
" يمانع الفكر عنها ما تقسمه ... من كل حزن بطى الصدر مكنون "
" لكن بسعدك ذلت لى شواردها ... فرضت منها بتحبير وتزيين "
" بقيت دهرك فى أمن وفي دعه ... ودام ملكك فى نصر وتمكين "
وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد استعمل فى السفارة إلى ملك قشتالة فراقه
وعرف حقه

مولده بتونس بلده فى شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة انتهى كلام لسان الدين فى حق
ابن خلدون

تعليق للمقرى والباعونى

قلت هذا كلام لسان الدين فى حق المذكور فى مبادئ أمره وأواسطه فكيف لو رأى تاريخه الكبير
الذى نقلنا منه فى مواضع وسماه ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ورأيت به فاس وعليه خطه فى ثمانى مجلدات كبار جدا وقد
عرف فى آخره بنفسه وأطال وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظى عند السلطان أبى عبد الله شمس
من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض فقوض الرجال ولم يرض من الإقامة بحال ولعب بكرته صوالجة
الأقدار حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار وتولى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور رحمه
الله تعالى

وكان أعنى الولى ابن خلدون كثير الثناء على لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى
ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم الباعونى الشامى فيما يتعلق بابن خلدون ما نص
محل الحاجة منه تغلبت به الأحوال حتى قدم الى الديار المصرية وولى بها قضاة المالكية فى
الدولة الشريفة الظاهرية وصحبتة رحمه الله تعالى فى سنة 803 عند قدومه الى الشام صحبة
الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق فى فتنة تمرلنك عليه من الله تعالى ما يستحقه وأكرمه
تمرلنك غاية الإكرام وأعادته الى الديار المصرية وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة
الحاصلة بينى وبينه وكان يكثر من ذكر لسان الدين ابن الخطيب ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به
الأسماع وينعقد على استحسانه الإجماع وتتقاصر عن إدراكه الأطماع فرحمه الله تعالى عليهما
وأزكى تحياته تهدي اليهما

ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان وله من النظم والنثر ما يزرى بعفود الجمان مع الهمة
العلية والتبحر فى العلوم النقلية والعقلية وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة 807 سقى الله تعالى
عهده ووطأ فى الفردوس مهده
قاله وكتبه الفقير الى الله تعالى إبراهيم بن أحمد الباعونى الشافعى غفر الله تعالى له زلله وأصلح
خلله انتهى

ومن نثر لسان الدين ما ذكره فى الإحاطة فى ترجمة يحيى بن إبراهيم ابن يحيى البرغواطى - 10
من بنى الترجمان ولنذكر الترجمة بجملتها لأشتمالها على ما ذكر وغيره فى حق المذكور بعد قوله
إنه من بنى الترجمان ما صورته
عزف عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين وصحبه الفقراء المتجردين وكان نسيح وحده فى طلاقة

اللسان حافظا لكل غريبة من غرائب الصوفية يتكلم فى مشكلاتهم حفظ منازل السائرين للهروى
وثانية ابن الفارض مليح الملبس مترفع عن الكدية حسن الحديث صاحب شهرة ومع ذلك
فمغضوض منه محمول عليه لما جبل عليه من رفض الاصطلاح واطراح التغافل مولع بالنقد
والمخالفة فى كل ما يطرق سمعه مرشحا ذلك بالجدل المبرم ذاهبا أقصى مذاهب القحة كثير
الفلتات نالته بسبب هذه البلية محن ووسم بالرهق فى دينه مع صحة العقل وهو الآن عامر الرباط
المنسوب إلى اللجام على رسم الشياخة عديم التابع مهجور الغناء قيد الكثير من الأجزاء منها فى
نسبة الذنب إلى الذاكر جزء نبيل غريب المأخذ ومنها فيما أشكل من كتاب أبى محمد ابن الشيخ
وصنف كتابا كبير الحجم فى الاعتقادات جلب فيه كثيرا من الحكايات رأيت عليه بخط شيخنا أبى
عبد الله المقرئ ما يدل على استحسانه

ومن البرسام الذى يجرى على لسانه بين الجد والقحة والجهالة والمجانة قوله لبعض خدام باب
السلطان وقد ضويق فى شىء أضجره منقولاً من خطه بعد رد كثير منه للإعراب ما نصه الله نور
السموات من غير نار ولا غيرها والسلطان ظل له وسراجه فى الأرض ولكل منهما فراش مما يليق
به ويتهاقت عليه فهو تعالى محرق فراشه بذاته ومغرفهم بصفاته وسراجه وظله هو السلطان
محرق فراشه بناره مغرفهم بزيتته ونواله ففراش الله تعالى ينقسم الى حافين ومسيحين
ومستغفرين وأمناء وشاخصين وفراش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشذ أحدهم عنها وهم
وزعة ابن وزعة وكتب ابن كلب وكتب مطلقا وعار ابن عار وملعون ابن ملعون وقط فأما الوزعة فهو
المغرق فى زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصيح وبذل الجهد والكلب ابن
الكلب هو الكيس المتحيز فى تهافتة من إحراق وإغراق يعطى بعض الحق ويأخذ بعضه وأما الكلب
مطلقا فهو المواجه وهو المشرد للسفهاء عن الباب المعظم القليل النعمة وأما العار ابن العار فهو
المتعاطى فى تهافتة ما فوق الطوق ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة اذا مر بهم جلف أو
متعاطم يقولون هذا العار ابن العار يحسب نفسه رئيسا وذلك لقرب المناسبة فهو موضوع لبعض
الرياسة كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة وأما الملعون
ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربه المنعم عليه فى كبريائه وسلطانه وأما القط فهو
الفقير مثلى المستغنى عنه لكونه لا تختص به رتبة فتارة فى حجر الملك وتارة فى السندس
وتارة فى أعلى الرتب وتارة محسن وتارة مسيء تغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة إذ هو من
الطوافين متطير بقتله وإهانتته تياه فى بعض الأحيان بعزة يجدها من حرمة أبغاها له الشارع وكل
ذلك لا يخفى

وأما الفرائش المحرق فهو عند الدول نوعان تارة يكون ظاهرا وحصته مسح المصباح وتصفية زيتته
وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه ووجود هذا شديد الملازمة ظاهرا
وأما المحرق الباطن فهو المشار اليه فى دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظمه الخلق ويترك لما هو
بسبيله فيكون وسيلة بينهم وبين ربهم وخليفته الذى هو مصباحهم فإذا أراد الله تعالى إهلاك
المروءة وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة وكان الأمر كما رأيتم والكل فراش متهاقت
وكل يعمل على شاكلته

قال الوزير لسان الدين وطلب منى الكتب عليه بمثل ذلك فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره - 11
واستدعاء لفكاهة انزعاجه ما نصه

وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبى زكريا البرغواطى على برسام محموم واختلاط مذموم
وانتساب زنج فى روم وكان حقه ان يتهيب طريقا لم يسلكها ويتجنب عقيله لم يملكها اذ المذكور
لم يتلق شيئا من علم الأصول ولا نظر من الإعراب فى فصل من الفصول إنما هى قحة وخلاف
وتهاون بالمعارف واستخفاف غير أنه يحفظ فى طريق القوم كل نادرة وفيه رجولية ظاهرة وعنده
طلاقة لسان وكفاية قلما تتأتى لإنسان فإلى الله نضرع ان يعرفنا مقادير الأشياء ويجعلنا بمعزل عن

الأغبياء وقد قلت مرتجلا من أول نظره واجتراء بقليل من كثره
" كل جار لغاية مرجوه ... فهو عندي لم يعد حق الفتوة "
" وأراك اقتحمت ليلا بهيما ... مولجا منك ناقة فى كوه "
" لا اتباعا ولا اختراعا أتتنا ... إذ نظرنا عروسك المجلوة "
" كل ما قلته فقد قاله الناس ... مقالا آياته متلوه "
" لم تزد غير أن أبحث حمى الإعراب ... فى كل لفظة مقروه "
" نسأل الله فكرة تلزم العقل ... الى حشمة تحوط المروه "
" وعزيز على ان كنت يحيى ... ثم لم تأخذ الكتاب بقوة "

ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت - 12
قصب السبق ولنثبت الكل هنا فنقول قال الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان رحمه الله
تعالى عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن
يغمراسن بن زيان رحمه الله تعالى ما صورته وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب كثيرا
ما يوجه إليه بالأمجاد ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة وذلك عندما أحس بتغيير سلطانه
عليه فجعلها مقدمة بين يدي نجواه لتمهد له مثواه وتحصل له المستقر إذا ألجأه الأمر إلى المفر
فلم تساعده الأيام كما هو شأنها في أكثر الأعلام وهي هذه
" أطلعن في سدف الفروع شموسا ... ضحك الظلام لها وكان عبوسا "
" وعطفن قضا للقدود نواعما ... بوئن أدواح النعيم غروسا "
" وعدلن عن جهر السلام مخافة ... الواشى فجئن بلفظه مهموسا "
" وسفرن من دهش الوداع وقومهن ... الى الترحل قد أناخوا العيسا "
" وخلصن من خلل الحجال إشارة ... فتركن كل حجالها مخلوسا "
" لم أنسها من وحشة والحى قد ... زجر الحمول وأثر التغليسا "
" لا الملتقى من بعدها كتب ولا ... عوج الركائب تسام التخيسا "
" فوقفت وقفة هائم برحاؤه ... وقفت عليه وحبت تحببسا "
" ودعوت عيني عاتبا وعيونها ... بعضا النوى قد بجست تبجيسا "
" نافست يا عيني در دموعهم ... فعرضت درا للدموع نفيسا "
" ما للحمى بعد الأحبة موحشا ... ولكم تراءى أهلا مانوسا "
" ولسربه حول الخميلة نافرا ... عمن يحس به وكان أنيسا "
" ولظله المورد غمر قليبه ... لا يقتضى وردا ولا تعربسا "
" حيينه فأجابنى رجع الصدى ... لا فرق بينهما إذا ما قيسا "
" ما ان يزيد على الإعادة صوته ... حرفا فيشفى بالمزيد نسيسا "
" نصب المعين وقلص الظل الذى ... ظلنا عكوكا عنده وجلوسا "
" نتواعد الرجعى ونغنم اللفا ... وندير من شكوى الغرام كؤوسا "
" فإذا سألت فلا تسائل مخبرا ... وإذا سمعت فلا تحس حسيسا "
" عهدى به والدهر يتحف بالمنى ... وقد اقتضت نعماه ان لا بوسا "
" والعيش غض الريع والدنيا قد ... اجتليت بمغناه على عروسا "
" أترى يعيد الدهر عهدا للصبا ... درست مغانى الأنس فيه دروسا "
" أوطان أوطار تعوض أبقها ... من رونق البشر البهى عبوسا "
" هيهات لا تغنى لعل ولا عسى ... فى مثلها إلا لآية عيسى "
" والدهر فى دست القضاء مدرس ... فإذا قضى يستأنف التدريس "
" تفتن فى جمل الورى أبحاثه ... لا سيما فى باب نعم وببسا "
" وسجية الإنسان ليس بناصل ... من صبغها حتى يرى مرموسا "
" يغتر مهما ساعدت آماله ... فإذا عراه الخطب كان يؤوسا "
" فلو أن نفسا مكنت من رشدتها ... يوما وقدها الهدى تقديسا "
" لم تستفز رسوخها النعمى ولا ... هلعت إذا كشرت إليها البوسى "
" قل للزمان اليك عن متذمم ... بضمن عز لم يكن ليخيسا "
" فإذا استحر جلاده فأنا الذى ... استغشيت من سرد اليقين لبوسا "
" وإذا طغى فرعونه فأنا الذى ... من ضره وأذاه عدت بموسى "
" أنا ذا أبو مثواه من يحمي الحمى ... ليثا ويعلم بالزئير الخيسا "
" يحمى أبى حمو حططت ركائبى ... لما اختبرت الليث والعريسا "
" أسد الهياج إذا خطا قدما سطا ... فتخلف الأسد الهزير فريسا "
" بدر الهدى يابى الضلال ضياؤه ... أبدا فيجلو الظلمة الحنديسا "
" جبل الوقار رسا وأشرف واعتلى ... وسما فطأطأت الجبال رؤوسا "
" غيث النوال إذا الغمام حلوبة ... مثلت بأيدي الحالبين بسوسا "
" تلقاه يوم الأنس روضا ناعما ... وتراه بأسا فى الهياج بببسا "
" كم غمرة جلى وكم خطب كفى ... ان أوطأ الجرد العتاق وطييسا "
" كم حكمة أبدى وكم قصد هدى ... للسالكين أبان منه دريسا "

" أعلى بنى زيان والفذ الذى ... ليس الكمال فزين الملبوسا "

" جمع الندى والبأس والشيم العلا ... والسؤدد المتواتر القدموسا "

" والحلم ليس بيبين الخلق الرضى ... والعلم ليس يعارض الناموسا "

" والسعد يغنى حكمه عن نصة ... تستخبر التريبع والتسديسا "

" كم راض صعبا لا يراض معاصيا ... كم خاض بحرا لا يخاض ضروسا "

" بلغ التى لا فوقها متمهلا ... وعلا السها واستسفل البرجيسا "

" يا خير من خفقت عليه سحابة ... للنصر تمطره أجش بجيسا "

" وأجل من حملته صهوة سابع ... ان كر ضعضع كره الكردوسا "

" قسما بمن رفع السماء بغير ما ... عمد ورفع فوقها إدريسا "

" ودحا البسيطة فوق لج مزبد ... ما ان يزال على القرار حبيسا "

" حتى يهيب بأهله الوعد الذى ... حشر الرئيس اليه والمرؤوسا "

" ما أنت إلا ذخر دهرك دمت فى ... الصون الحريز ممتعا محروسا "

" لو ساومته الأرض فيك بما حوت ... لرآك مستاما بها مبخوسا "

" حلف البرور بها اليه صادق ... ويمين من عقد اليمين غموسا "

" من قاس ذاتك بالذوات فإنه ... جهل الوزان واخطا التقييسا "

" لا تستوى الأعيان فضل مزبة ... وطبيعة فطر الإله وسوسا "

" لعناية التخصيص سر غامض ... من قبل ذرة الخلق خص نفوسا "

" من انكر الفضل الذى اوتيته ... جحد العيان وأنكر المحسوسا "

" من دان بالإخلاص فيك فعقده ... لا يقبل التمويه والتلييسا "

" والمنتمى العلوى عيصك لم تكن ... لترى دخيلا فى بنيه دسيسا "

" بيت البتول ومنبت الشرف الذى ... تحمى الملائك دوحه المغروسا "

" أما سياستك التى أحكمتها ... ورميت بالتقصير أسطاليسا "

" فلو ان كسرى الفرس أبصر بعضها ... ما كان يطمع ان يعدى سوسا "

" لو سار عدلك فى السنين لما اشتكت ... بخسا ولم يك بعضهن كيبسا "

" ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى ... إقدام عزمك ما خنسن خنوسا "

" قدت الصعاب فكل صعب سامح ... لك بالقياد وكان قبل شموسا "

" تلقى الليوث وللقتام غمامة ... قدح الصفيح وميضها المقبوسا "

" وكأنها تحت الدروع أرقام ... ينظرن من خلل المغافر شوسا "

" ما لابن مامة فى القديم وحاتم ... ضرب الزمان بجودهم ناقوسا "

" من جاء منهم مثل جودك كلما ... حسبوا المكارم كسوة أو كيسا "

" أنت الذى افتك السفين وأهله ... إذ أوسعت سبل الخلاص طموسا "

" أنت الذى أمددت ثعر الله ... بالصدقات تيلس كرة ابليسا "

" وأعنت أندلسا بكل سبيكة ... موسومة لا تعرف التدييسا "

" وشحينة بالبر فى سبل الرضى ... والبر قارب قاعها القاموسا "

" أن لم تجر بها الخميس فطالما ... جهزت فيها للنوال خميسا "

" وملأت ايديها وقد كادت على ... حكم القضاء تشافه التفليسا "

" صدقت للأمال صنعة جابر ... وكفيتها التشميع والتشميسا "

" والحل والتقطير والتصعيد ... والتخمير والتصويل والتكليسا "

" فسبكت من أمالها مالا ومن ... أوراقها ورقا وكن طروسا "

" بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا ... وزنا ولا لونا ولا ملموسا "

" وتدبر من قلب السطور سبائكا ... منها ومن طبع الحروف فلوسا "

" ونحوت نحو الفضل تعضد منه ... بالمسموع ما ألفيت منه مقيسا "

" وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا ... تغنى العديم وتطلق المحبوسا "

" ونشرت راية عزهم من بعد ما ... دال الزمان فسامها تنكيسا "

" احكمت حيلة برتهم بلطافه ... قد اعجزت فى الطب جالينوسا "

" وفللت من حد الزمان وانه ... أوحى وأمضى من غرار الموسى "

" وشحذت حدا كان قبل مثلما ... ونعشت جدا كان قبل تعيسا "

" لم ترج إلا الله جل جلاله ... فى شدة تكفى وجرح يوسى "

" قدمت صباحا فاستضأت بنوره ... ووجدت عند الشدة التنفيسا "
 " ما أنت إلا فالج متيقن ... بالنجح تعمر ممرعا وبييسا "
 " ومتاجر جعل الأريكة صهوة ... عربية والتمكا القربوسا "
 " ما ان تباع أو تشارى وثقا ... بالريح إلا المالك القدوسا "
 " والعزم يفترع النجوم بناؤه ... مهما أقام على التقى تأسيسا "
 " ومقام صبرك واتكالك مذكر ... بحديثه الشبلى أو طاووسا "
 " ومن ارتضاه الله وفق سعيه ... فرأى العظيم من الحظوظ خسيسا "
 " ما ازددت بالتمحيص إلا جده ... ونضوت من خلع الزمان لبيسا "
 " ولطالما طرق الخسوف أهله ... ولطالما اعترض الكسوف شموسا "
 " ثم انجلت قسماتها عن مشرق ... للسعد ليس بحاذر تنعيسا "
 " خذها اليك على النوى سينية ... ترضى الطبايق وتشكر التجنيسا "
 " ان طوولت بالدر من حول الطلى ... يوما تشكت حظها الموكوسا "
 " لولاك ما أصغت لخطبة خاطب ... ولعنست فى بيتها تنعيسا "
 " قصدت سليمان الزمان وقاربت ... فى الخطو تحسب نفسها بلقيسا "
 " لى فيك ود لم أكن من بعد ما ... أعطيت صفقة عهده لأخيسا "
 " كم لى بصحة عقده من شاهد ... لا يحذر التجريح والتدليسا "
 " يقفو الشهادة باليمين وانه ... لمؤمن من ان يعد فسيسا "
 " لا يستقر قرار أفكارى الى ... أن أستقر لدى علاك جليسا "
 " وأرى تجاهك مستقيم السير ... للقصد الذى أعملته معكوسا "
 " هى دين أيامى فإن سمحت به ... لم يبق من شىء عليه يوسى "
 " لا زال صنع الله مجنوبا الى ... مثواك يهدي البشر والتائيسا "
 " متتابعاً كتتابع الأيام لا ... يذر التعاقب جمعة وخميسا "
 " فلو أنصفتك إباله الملك التى ... رضت الزمان لها وكان شريسا "
 " قرنت بذكرك والدعاء لك الذى ... تختاره التسييح والتقديسا "
 " القلب أنت لها رئيس حياتها ... لم تعتبر مهما صلحت رئيسا "
 " ثم قال الحافظ التنسى رحمه الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه ان لسان الدين ابن الخطيب هذا فى هذه القصيدة السينية حذو أبى تمام فى قصيدته التى أولها
 " أقشيب ربهم أراك دريسا ... تقرى ضيوفك لوعة ورسيسا "

واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها انتهى

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصه

هذه القصيدة أبقى الله تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع والثناء المسموع والملك المنصور الجموع نفثة من باح بسر هواه ولبى دعوة الشوق العابت بلبه وقد ظفر بمن يهدى خبر جواه إلى محل هواه ويختلس بعث تحيته إلى مثير أريجته وهى بالنسبة إلى ما يعتقد

من ذلك الكمال الشاذ عن الآمال عنوان من كتاب وذواق من أوقار ذات أقتاب وإلا فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه أو يكافىء إحسانها إحسانه أو يستقل بوصفها يراعه أو تنهض بايسر وظيفها ذراعه ولا مكابرة بعد الاعتراف والبحر لا ينفد بالاغتراف لا سيما وذاتكم اليوم والله تعالى يبقيا ومن المكاره يبقيا وفى معارج القرب من حضرة القدس يرقيا ياقوته اختارها واعتبرها ثم ابتلاها بالتمحيص فى سبيل التخصيص واختبرها وسببها أخلصها مسجرتها فخلصها بتسجيده من الشوب وأبرزها من لباب الذوب وقصرت عن هذه الاثمان وسر بصدق دعواه البهرمان ليفاضل بين الجهام والصيب " ليميز الله الخبيث من الطيب " الانفال فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة وعرفكم بنفسه فى حال الشدة ثم فسح لكم بعد ذلك فى المدة لتعرفوه إذا دال الرخاء وهبت بعد تلك الزعازع الريح الرخاء وملأكم من التجارب وأوردكم من أطافه أعذب المشارب ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلاله ولم يسلبكم إلا حقيرا عند أوليائه وأعادكم المعاد المطهر والبسكم من أثواب اختصاصه المعلم المشهر فأنتم اليوم بعين العناية بالإفصاح والكناية قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجنابة فإن كان الملك اليوم علما يدرس وقوانين فى قوة الحفظ تغرس وبضاعة برصد التجارب تحرس فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة وأصمعى شعوبه المنسوبة إلى ما حزتم من أشتات الكمال المرية على الآمال فالبيت علوى المنتسب والملك بين الموروث والمكتسب والجود

يعترف به الوجود والدين يشهد به الركوع والسجود والبأس تعرفه التهائم والنجوم والخلق يحسده
الروض المجود والشعر يغترف من عذب نمير ويصدق ما قال بديء بأمير وختم بأمير وإن مملوككم
حوم

من بابكم على العذب البرود فعاقه الدهر عن الورود واستقبل افقه ليحقق الرصد ولكنه اخطأ القصد
ومن أخطأ الغرض اعاد ورجا من الزمان الاسعاد فربما خبيء نصيب او كان مع الخواطيء سهم
مصيب وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز فانتقلت الحقيقة منه الى المجاز وقطعت القواطع التي لم
ينلها الحساب ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب ومن طلب الايام ان تجرى على
اقتراحه وجب العمل على اطراحه فانما هي البحر الزاخر الذي لا يدرك منه الاخر والرياح متغايره
والسفينه الحائره فتارة يتعذر من المرسى الصرف وتاره تقطع المسافه البعيده قبل أن يرتد الطرف
هذا أن سالمها عطبها واعفي من الوقود حطبها ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم
عند الملوك تمام المطلوب ممن يجبر كسر القلوب فإنه مما انعقد على كماله الإجماع وضح في
عوالي معاليه السماع وارتفعت في وجود مثاله الاطماع اخلاقا هذبها الكرم الوضاح وسجية كلف
بها الكمال الفضاح وحرصا على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلا من سمت هممه وكرمت ذممه
وألفت الخلد رممه إذ الوجود سراب وما فوق التراب تراب ولا يبقى إلا عمل راق أو ذكر بالجميل
يسطر في أوراق حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له
طاعة فوفت بمقترحه استطاعه

" يمضى الزمان وكل فان ذاهب ... إلا جميل الذكر فهو الباقي "

" لم يبق من إيوان كسرى بعد ذاك ... الحفل إلا الذكر فى الأوراق "

" هل كان للسفاح والمنصور ... والمهدى من ذكر على الإطلاق "

" أو للرشيد وللأمين وصنوه ... لولا شياه يراعة الوراق "

" رجع التراب الى التراب بما اقتضت ... فى كل خلق حكمة الخلاق "

" إلا الثناء الخالد العطر الشذا ... يهدى حديث مكارم الأخلاق "

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب أن يمكنها من حسن المناب فتحظى بحلول ساحتها ثم بلثم
راحتها ثم بالإبتغاء ولا مزيد للإبتغاء الى ان ترتفع الوساطة وتغنى عن التركيب البساطة وينسى
الأثر بالعين ويحسن الدهر قضاء الدين ونسأل الذى أغرى بها القريحة ولم يجعل الباعث إلا المحبة
الصريحة أن يبقى تلك المثابة زينا للزمان وذخرا مكنوفا باليمن والأمان مظللا برحمة الرحمن بفضله
وكرمه انتهى

ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى الى الشيخ الرئيس الخطيب شيخه أبى عبد الله - 13

ابن مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزمة أمر المغرب بيده أيام السلطان أبى سالم ابن

السلطان أبى الحسن المرينى رحم الله تعالى الجميع ما صورته

سيدي بل مالكي بل شافعى ومنتشلى من الهفوة ورافعى وعاصمى عند تجويد حروف الصنائع

ونافعى الذى بجاهة أجزلت المنازل قرأى وفضلت أولاي والمنة لله تعالى أخراي وأصبحت وقول

الحسن هجيراى

" علقت بحبل من حبال محمد ... أمنت به من طارق الحدثان "

" تغطيت من دهرى بظل جناحه ... فعيني ترى دهرى وليس يرانى "

" فلو تسأل الأيام ما اسمى ما درت ... واين مكانى ما عرفن مكانى "

وصلت مكناسه حرسها الله تعالى حدانى حدو نذاك سحائب لولا الخصال المبرة قلت يداك وكان

الوطن لاغتباطه بجوارى أو ما رآه من انتياب زوارى

أوغر إلى بهت يقطع الطريق وأطلع يده على التفريق وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق فلم

يسع إلا المقام أياما قعودا فى البر وقياما واختيارا لضروب الأنس واعتياما ورأيت بلده معارفها أعلام

وهواؤها برد وسلام ومحاسنها تعمل فيها السنة وأقلام فحيا الله تعالى سيدي فلكم من فضل أفاد

وانس أحياء وقد باد وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد كما ملكه زمام الكمال فافتاد وأنا أطارح

عليه فى صلات تفقده وموالاه يده بأن يسهمنى فى فرض مخاطبته مهما خاطب معتبرا بهذه

الجهات ويصحبنى من مناصحته بكؤوس مسرة يعمل فيها هاك وهات فالعز بعزه معقود والسعد

بوجوده موجود ومنهل السرور بسروره مورود والله عز وجل يبقيه بقاء الدهر ويجعل حبه وظيفه

السر وحمده وظيفه الجهر ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام

والشهر بالشهر أمين أمين انتهى

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد الله ابن أبى - 14

القاسم بن أبى مدين يهنيه بتقلد المنصب من رسالة قوله
" تعود الأماني بعد انصراف ... ويعتدل الشئ بعد انحراف "
" فإن كان دهرك يوما جنى ... فقد جاء ذا خجل واعتراف "
طلع البشير أبقاك الله تعالى بقبول الخلافة المرينية والإمامة السننية خصها الله تعالى ببلوغ الأمانة
علي تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت وتأوهت العلياء لتذكر عهدا وبكت وكاد السرور ينقطع
لولا أنها تركت منك الوارث الذي تركت فلولا العذر الذي تأكدت ضرورته والمانع الذي ربما تقررت
لديكم صورته لكنت أول مشافه بالهناء ومصارف لهذا الاعتناء الوثيق البناء بنقود الحمد لله والثناء
وهى طويلة

ومما خاطب به رحمه الله تعالى قاضي الجماعة وقد نالته مشقة - 15
جرها غلط الخدام السوء واشترك الأسماء أعتبه عندها السلطان وخلع عليه وأشاد بقدره بما نصه
" تعرفت أمرا ساءنى ثم سرنى ... وفى صحة الأيام لا بد من مرض "
" تعمدك المحبوب بالذات بعدما ... جرى ضده والله يكفيه بالعرض "

فى مثلها سيدي يحمد الأختصار وتقصّر الأنصار وتصرف الأبصار إذ لم يتعين ظالم ولم يتبين يقظ ولا
حالم وإنما هى هدية أجر وحقيقة وصل أعقبت مجاز هجر وجرح جبار وأمر ليس به اعتبار ووقية لم
يكن فيها إلا غبار وعرثه القدم لا تنكر والله سبحانه يحمد فى كل حالة ويشكر وإذا كان اعتقاد
الخلافة لم يشبه شائب وحسن الولاية لم يعبه عائب والعري دائب والجاني تأيب فما هو إلا الدهر
الحسود لمن يسود خمش بيد ثم سترها ورمى عن قوس ما أصلحها والحمد لله ولا أوترها إنما بآء
بشينة وجنى من مزيد العناية محنة عينه ولا اعتراض على قدر أعقب بحظ معتذر وورد نغص بكر
ثم أنس بإكرام صدر وحسبنا أن نحمد الدفاع من الله تعالى والذب ولا نقول مع الكظم إلا ما يرضى
الرب وإذا سابق أولياء سيدي فى فخر مضمار وحماية ذمار واستباق إلى بر وابتدار بجهد اقتدار فأنا
ولا فخر متناول القصة وصاحب الدين من بين العصابة لما بلوت من بر أوجه الحسب والفضل
الموروث والمكتسب ونصح وضخ منه المذهب وتنفيق راق منه الرداء المذهب هذا مجمل وبيانه
إلى وقت الحاجة مؤخر ونبذه شره لتعجيلها يراع مسخر والله سبحانه يعلم ما أنطوى عليه لسيدي
من إيجاب الحق والسير من إجلاله على أوضح الطرق والسلام انتهى

16 - وقال رحمه الله تعالى خاطبت بعض الفضلاء بقولى مما يظهر من الجملة غرضه
" تعرفت قرب الدار ممن أحبه ... فكنت أجد السير لولا ضروره "
" لآتلو من أي المحامد سورة ... وأبصر من شخص المحاسن صورة "
كنت أبقاك الله تعالى لاغتباطى بولائك وسرورى بلفائك أود أن أطوى إليك هذه المرحلة وأجدد
العهد بليقائك المؤملة فممنع مانع وما ندرى فى الآتى ما الله صانع وعلى كل حال فشأنى قد وضح
منه سبيل مسلوك وعلمه مالك ومملوك واعتقادي أكثر مما تسعة العبارة والألفاظ المستعارة
وموصلها ينوب عنى فى شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة المتصفة بالعفاف والطهارة
والسلام

وقال سامحه الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله ابن نصر جبره الله تعالى عند وصول ولده - 17
من الأندلس

" الدهر أضيق فسحة من ان يرى ... بالحزن والكمد المضاعف يقطع "
" وإذا قطعت زمانه فى كربه ... ضيعت فى الأوهام ما لا يرجع "
" فاقنع بما أعطاك ربك واغتنم ... منه السرور وخل ما لا ينفع "

مولاي الذى له المنن والخلق الجميل والخلق الحسن والمجد الذى وضح منه السنن كتبه عبيدك
مهنتنا بنعم الله تعالى التى أفاضها عليك وجلبها إليك من اجتماع شملك بنجلك وقضاء دينك من قره
عينك الى ما تقدم من إفلاتك وسلامة ذاتك وتمزق أعدائك وانفرادك بأودائك والزمن ساعة فى
القصر لا بل كلمح البصر وكانى بالبساط قد طوى والتراب على الكل قد سوى فلا تبقى غبطة ولا
حسرة ولا كربة ولا يسرة وإذا نظرت

ما كنت فيه تجدك لا تنال منه إلا أكله وفراشا وكنا ورياضا مع توقع الوقائع وارتقاب الفجائع ودعاء
المظلوم وصداع الجائع فقد حصل ما كان عليه التعب وأمن الرهب ووضح الأجر المذهب والقدرة
باقية والأدعية راقية وما تدرى ما تحكم به الأقدار ويتمخض عنه الليل والنهار وأنت اليوم على زمانك
بالخيار فان اعتبرت الحال واجتنبت المحال لم يخف عليك أنك اليوم خير منك أمس من غير شك ولا
ليس وكان من أملى التوجه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتنى موانع ولا ندرى فى الآتى ما الله
تعالى صانع فاستنبت هذه فى تقبيل قدمه والهناء بمقدمه والسلام

وقال رحمه الله تعالى قلت أخاطب محمد بن نوار وقد أعرس بينت مزوار الدار السلطانية وهو - 18
معروف بالوسامة وحسن الصورة

" إن كنت فى العرس ذا قصور ... فلا حضور ولا دخاله "
" ينوب نظمى مناب تيس ... والنثر عن قفة النخاله "

هناكم الله سبحانه دعاء وخبرا والبسكم من السرور خبرا وعودكم بالخمسة حتى من عين
الشمس فلعمري لقد حصلت النسبة ورضيت هذه المعيشة الحسنة ومن يكن المزوار ذواقه كيف
لا يشق البدر أطواقه وينشر القبول عليه رواقه وأنتم أيضا بركان جمال وبقية رأس مال ويمين فى
الانطباع وشمال بمنزلكم اليوم بدر وهلال ولعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال فأنا أهنيكم
بتسنى أمانيكم والسلام

وقال رحمه الله تعالى مخاطبا عميد مراكش المتميز بالرأى والسياسة - 19

والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافى عن مال الجباية عامر بن محمد بن على الهنتاتى
" تقول لى الأظعان والشوق فى الحشا ... له الحكم يمضى بين ناه وأمر "

" إذا جبل التوحيد أصبحت فارعا ... فخير قرار العين فى دار عامر "

" وزر تربة المعلوم ان مزارها ... هو الحج يفضى نحوه كل ضامر "

" ستلقى بمتوى عامر بن محمد ... ثغور الأمانى من ثنايا البشائر "

" ولله ما تبلوه من سعد وجهه ... ولله ما تلقاه من يمن طائر "

" وتستعمل الأمثال فى الدهر منكما ... بخير مزور أو بأعبط زائر "

لم يكن همى أبقاك الله تعالى مع فراغ البال وإسعاف الآمال ومساعدة الأيام والليال إذ الشمل
جميع والزمان كله ربيع والدهر مطيع سميع إلا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ويواصل
أمنه بين النوم والأجفان وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية وكانت إليه العودة ومنه البداية فلما
حم الواقع وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع وحسنت من
استدعائك إياي المواقع وقوى العزم وإن لم يكن ضعيفا وعرضت على نفسى السفر بسببك
فألقيته خفيفا والتمست الإذن حتى لا نرى فى قبله السداد تحريفا واستقبلتك بصدور مشروح وزند
للعزم مقدوح والله سبحانه يحقق السؤل ويسهل بمتوى الأمثال المثلث ويهيبىء من قبل هنتاته
القبول بفضله

وللسان الدين ابن الخطيب مقامه عظيمة بديعة وصف بها بلاد الأندلس - 20

والعودة وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العجاب وقد تركتها مع كتبى بالمغرب ولم يحضرنى
منها الآن إلا قوله فى وصف مدينة سبتة ما صورته

قلت فمدينة سبتة قال عروس المجلى وثنية الصباح الأجلى تبرجت تبرج العقيلة ونظرت وجهها من
البحر فى المرأة الصقيلة واختص ميزان حسنها بالأعمال الثقيلة وإذا قامت بيض أسوارها وكان
جبل بنيونش شمامة أزهارها والمنارة منارة أنوارها كيف لا ترغب النفوس فى جوارها وتهيم
الخواطر بين أنجادها وأغوارها إلى المينا الفلكية والمراقى الفلكية والركية الزكية غير المنزورة ولا
البكية ذات الوقود الجزل المعد للأزل والقصور المقصورة على الجد والهزل والوجوه الزهر السحن
المضنون بها عن المحن دار الناشبة والحامية المضرمة للحرب المناشبة والأسطول المرهوب
المحذور الألهوب والسلاح المكتوب المحسوب والأثر المعروف المنسوب كرسى الأمراء والأشراف
والوسيطه لخامس أقاليم البسيطة فلا حظ لها فى الانحراف بصرة علوم اللسان وصنعاء الحلل
الحسان وثمره امتثال قوله تعالى " إن الله يأمر بالعدل والإحسان " النحل الأمانة على الاختزان
القومية المكيا والميزان محشر أنواع الحيتان ومحط قوافل العصير والحريز والكتان وكفاها السكنى
بنيونش فى فصول الأزمان ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان والمدفن المرجوم غير المزحوم
وخزانة كتب العلوم والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم إلا أنها فاعرة أفواه الجنوب للغيث المصبوب
عرضه للرياح ذات

الهبوب عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب وناهيك بحسنة تعد من
الذنوب فأحوال أهلها رقيقة وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة واقتصادهم لا تلتبس منه
طريقة وأنساب نفقاتهم فى تقدير الأرزاق عريقة فهم يمصون البلاله مص المحاجم ويجعلون الخبز
فى اللواتم بعدد الجماجم وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم وراعى الجديب بالمطر
الساجم فلا يفضلون على مدينتهم مدينة الشك عندي فى مكة والمدينة انتهى
وقد سلك فى هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفية ووفاه من المدح وضده أكمل
توفيه وعكس هذه الطريقة فى نفاضة الجراب فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع

مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القراب
 فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة مكناسة الزيتون وأطلت مدينة مكناسة فى مظهر النجد - 21
 رافلة فى حلل الدوح مبتسمة عن شنب المياه العذبة سافرة عن أجمل المراد قد أحكم وضعها
 الذى اخرج المرعى قيد النص وفذلكة الحسن فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا
 ووضعا من بلد دارت به المداشر المغلة والتفت بسورة الزياتين المفيدة وراق بخارجه للسلطان
 المستخلص الذى يسمو اليه الطرف ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف ربوة ومثلت
 بإزائها الزاوية القدمى المعدة للوراد ذات البركة النامية والمئذنة السامية والمرافق المتيسرة
 يضافها الخان البديع المنصب الحصين الغلق الخاص بالسابلة والجوابة فى الأرض يبتغون من فضل
 الله

تعالى تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية برويق الشيبية ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال
 الى ان قال وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهمم وأخذها التنجيد فجاءت
 فائقة الحسن ما شئت من أبواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها صافى الماء أعناق أسدية وفيها
 خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين وتفضل هذه المدينة كثيرا من لداتها بصحة
 الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر لجوار ترابها سليما من الفساد معافى من
 العفن إذ تقام ساحات منازلها غالبا على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها الموارث ويصحبها
 التعمير وتتجافى عنها الأرض ومحاسن هذه البلدة المباركة جملة قال ابن عبدون من أهلها والله دره

" إن تفتخر فاس بما فى طيها ... وبأنها فى زيتها حسناء "

" يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء "

وبسامتها شرقا جبل زرهون المنبجس العيون الظاهر البركة المتزاحم العمران الكثير الزياتين
 والأشجار قد جلله سكرًا ورزقا حسنا فهو عنصر الخير ومادة المجبى وفى المدينة دور نبيهة وبنى
 أصيلة والله سبحانه ولى من اشتملت عليه بقدرته وفيها أقول

" بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون "

" فضل الهواء وصحة الماء الذى ... يجرى بها وسلامة المخزون "

" سحت عليها كل عين ثرة ... للمزن هامية الغمام هتون "

" فاحمر خد الورد بين أباطح ... وافتر ثغر الزهر بين غصون "

" ولقد كفاها شاهدا مهما ادعت ... قصب السباق القرب من زرهون "

" جبل تضاحكت البروق بجوه ... فبكت عذاب عيونه بعيون "

" وكأنما هو بريري فاقد ... فى لوحة والتين والزيتون "

" حبيت من بلد خصيب أرضه ... مئوى أمان أو مناخ أمون "

" وضفت عليك من الإله عناية ... تكسوك ثوبى أمنة وسكون "

وقد وصفها فى مقامة البلدان على منوال السجع فقال مكناسة مدينة أصيلة وشعب - 22
 للمحاسن وفصيلة فضلها الله تعالى ورعاها وأخرج منها ماءها ومرعاها فجانبها مرع وخيرها سريع
 ووضعها له فى فقه الفضائل تفرغ اعتدل فيها الزمان وانسدل الأمان وفاقت الفواكه فواكهها ولا
 سيما الرمان وحفظ أقواتها الاختزان ولطفت فيها الأوانى والكيزان ودنا من الحضرة جوارها فكثر
 قصادها من الوزراء وزوارها وبها المدارس والفقهاء ولقصبته الأبهة والمقاصير والأبهة
 تعليق للمقري

ويعنى بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها أذ ذاك كرسى الخلافة ومكناسة مقر الوزارة وأهل

المغرب يعبرون عن المدينة التى فيها كرسى الخلافة بالحضرة

قلت دخلت مكناسة هذه مرارا عديدة وقد ابلى الدهر محاسنها التى كانت فى زمان لسان الدين
 ابن الخطيب جديدة واستولى عليها الخراب وتكدر منها بالفتن الشراب وعات فى ظاهرها الأعراب

وفى باطنها سماسرة الفتنة العائقة عن كثير من الآراب حتى صار أهلها حزينين لبس كثير من

أهلها ثياب البعد عنها والبين والله تعالى يجبر حالها ويعقب بالخصب إمحالها ويرحم الله تعالى ابن
 جابر إذ قال

" لا تنكرن الحسن من مكناسة ... فالحسن لم يبرح بها معروفا "

" ولئن محت أيدى الزمان رسومها ... فلربما أبقت هناك حروفا "

على أن ضواحيها كانت فى زمان لسان الدين مأوى للمحاربين واللصوص ومئوى للأعراب الذين
 أعزل داؤهم باقطار المغرب على العموم والخصوص ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله تعالى

" مكناسة حشرت بها زمر العدا ... فمدى بريد فيه ألف مرید "

" من واصل للجوع لا لرياضة ... أو لابس للصوف غير مرید "

" فإذا سلكت طريقها متصوفا ... فانو السلوك بها على التجريد "

وما أشار إليه رحمه الله تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القدمى والجديدة أشار به إلى زاويتين بناهما السلطان أبو الحسن المرينى الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس وكان بنى الزاوية القدمى فى زمان أبيه السلطان أبى سعيد والجديدة حين تولى الخلافة وله فى هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين عدة آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ومن أجل مآثره بها المدرسة الجديدة وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما أخبر السلطان بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراهها فقعده على كرسى من كراسى الوضوء حول صهريجها وجرى بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها فغرقها فى الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد

لا بأس بالعالى إذا قيل حسن ... ليس لما قرت به العين ثمن " وهذا السلطان أبو الحسن أشهر " ملوك بنى مرين وأبعدهم صيتا وكان قد ملك رحمه الله تعالى المغرب بأسره وبعض الأندلس وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقية فغدره بنو عبد الواد الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان وانتهزوا الفرصة فيه وهربوا إلى الأعراب عند المصافة فاقتل مصافة وهزم أقبح هزيمة ورجع الى تونس مغلوبا وركب البحر فى أساطيله وكانت نحو الستمئة من السفن فقضى الله تعالى ان غرقت جميعا ونجا على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب

وهم نحو أربعمئة عالم منهم السطى شارح الحوفى وابن الصباغ الذى أملى فى مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمئة فائدة

قال الأستاذ أبو عبد الله ابن غازى رحمه الله تعالى حدثنى بعض أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابن الصباغ المذكور سمع بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه

" يا قلب كيف وقعت فى أشراكهم ... ولقد عهدتكَ تحذر الأشراكا "

" أَرْضَى بَذَلٍ فِى هَوَى وَصِيَابَةٍ ... هَذَا لِعَمْرِ اللَّهِ قَدْ أَشْقَاكَ "

ومات رحمه الله تعالى غريقا فى أسطول السلطان ابى الحسن المرينى على ساحل تدلس هو والفقيه السطى والأستاذ الزواوى وغير واحد فى نكبة السلطان أبى الحسن المعروفة ومن نظم ابن الصباغ المذكور فى العلاقات المعتمدة فى المجاز وفى المرجحات له قوله رحمه الله تعالى

" يا سائلا حصر العلاقات التى ... وضع المجاز بها يسوغ ويحمل "

" خذها مرتبة وكل مقابل ... حكم المقابل فيه حقا يحمل "

" عن ذكر ملزوم يعوض لازم ... وكذا بعلته يعاض معلل "

" وعن المعمم يستعاض مخصص ... وكذاك عن جزء ينوب المكمل "

" وعن المحل ينوب ما قد حله ... والحذف للتخفيف مما يسهل "

" وعن المضاف إليه ناب مضافه ... والضد عن أضداده مستعمل "

" والشبه فى صفه تبين وصورة ... ومن المقيد مطلق قد يبدل "

" والشىء يسمى باسم ما قد كانه ... وكذاك يسمى بالبدل المبدل "

" وضع المجاور فى مكانه جاره ... وبهذه حكم التعاكس يكمل "

" واجعل مكان الشىء آتته وجرىء ... بمنكر قصد العموم فيحصل "

" ومعرف عن مطلق وبه انتهت ... ولجلها حكم التداخل يشمل "

وبكثرة وبلاغة ولزومه ... لحقيقة رجحانه يتحصل " انتهى كلام شيخ شيوخنا الإمام أبى عبد الله محمد بن غازى رحمه الله تعالى

وقد حكى ابن غازى المذكور عن شيخه القورى عن شيخه ابن جابر أن ابن الصباغ المذكور اعترض على القاضى ابن عبد السلام التونسى قال لما لقي ابن الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة مسألة لم ينفصل عن واحدة منها بل أقر بالخطأ فيها إذ ليس ينبغى اتصاف بالكمال إلا لربى الكبير المتعال انتهى

وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبى رحمه الله تعالى فى شرح مسلم عند تكلمه على احاديث العين ما معناه ان رجلا كان بتلك الديار معروفا بإصابة العين فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبى الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو الستمئة فنظر إليها الرجل العائن فكان غرقها بقدرة الله الذى يفعل ما يشاء ونجا السلطان برأسه وجرت عليه محن واستولى ولده السلطان أبو

عنان فارس على ملكه وكان خلفه بتلمسان ولم يزل فى اضطراب حتى ذهب الى سجلماسة
 ومنها خلس إلى جبل هنتاته قرب مراکش فذهب إلى حربه ابنه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه
 وأناخ على الجبل بكلكله ولم تخفر أهل هنتاته جواره لديهم ولا كبيراهم عامر بن محمد وأخوه
 وصبروا على الحصار وخراب الديار وحرق الأماكن حتى مات هناك رحمه الله تعالى ونقل بعد إلى
 شالة سلا مدفن أسلافه ومن أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب
 ابن مرزوق الذى ألفه فيه وسماه المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبى الحسن
 ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب الى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان
 المذكور وقد ألم بذكر ذلك فى نفاضة الجراب إذ قال وشاهدت بجبل هنتاته محل وفاة السلطان
 المقدس أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله تعالى حيث أصابه طارق الأجل الذى فصل الخطة
 وأصمت الدعوة ورفع المنازعة وعابنته مرفعا عن الابتذال بالسكنى مفترشا بالحصياء مقصودا
 بالابتهاال والدعاء فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت
 " يا حسنها من أربع وديار ... أضحت لباغى الأمن دار قرار "
 " وجبال عز لا تذلل أنوفها ... إلا لعز الواحد القهار "
 " ومقر توحيد وأسى خلافة ... آثارها تنبى عن الأخبار "
 " ما كنت أحسب أن أنهار الندى ... تجرى بها فى جملة الأنهار "
 " ما كنت أحسب أن أنوار الحجى ... تلتاح فى قنن وفى أحجار "
 " محت جوانبها البرود وان تكن ... شبت بها الأعداء جذوة نار "
 " هدت بناها فى سبيل وفاتها ... فكانها صرعى بغير عقار "
 " لما توعدنا على المجد العدا ... رضيت بعيث النار لا بالعار "
 " عمرت بجلة عامر وأعزها ... عبد العزيز بمرهف بتار "
 " فرسا رهان أحرزا قصب الندى ... والبأس فى طلق وفى مضمار "
 " ورثا عن الندب الكبير أبيهما ... محض الوفاء ورفع المقدار "
 " وكذا الفروع تطول وهى شبيهة ... بالأصل فى ورق وفى أثمار "
 " أزررت وجوه الصيد من هنتاته ... فى جوها بمطالع الأعمار "
 " لله أى قبيلة تركت لها ... النظراء دعوى الفخر يوم فجار "
 " نصرت أمير المسلمين وملكه ... قد أسلمته عزائم الأنصار "
 " وارت عليا عندما ذهب الردى ... والروع بالأسماع والأبصار "
 " وتخاذل الجيش اللهام وأصبح ... الأبطال بين تقاعد وفرار "
 " كفرت صنائعه فيمم دارها ... مستظهرا منها بعز جوار "
 " وأقام بين ظهورها لا يتقى ... وقع الردى وقد ارتمى بشرار "
 " فكأنها الأنصار لما أنست ... فيما تقدم غربه المختار "
 " لما غدا لحظا وهم أجفانه ... نابت سفارهم عن الأشجار "
 " حتى دعاه الله بين بيوتهم ... فأجاب ممتثلا لأمر البارى "
 " لو كان يمنع من قضاء الله ما ... خلصت اليه نوافذ الأقدار "
 " قد كان يأمل أن يكافىء بعض ما ... أولوه لولا قاطع الأعمار "
 " ما كان يقنعه لو امتد المدى ... إلا القيام بحققها من دار "
 " فيعيد ذاك الماء ذائب فضه ... ويعيد ذاك الترب ذوب نضار "
 " حتى تفوز على النوى أوطانها ... من ملكه بجلائل الأوطار "
 " حتى يلوح على وجوه وجوههم ... أثر العناية ساطع الأنوار "
 " ويسوغ الأمل القصى كرامها ... من غير ما تنيا ولا استعصار "
 " ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى ... عن درهم فيهم ولا دينار "
 " أو أن يتوج أو يقلد هامها ... ونحورها بأهله ودراري "
 " حق على المولى ابنه إيثار ما ... بذلوه من نصر ومن إيثار "
 " فلمثلها زخر الجزاء ومثله ... من لا يضيع صنائع الأحرار "
 " وهو الذى يقضى الديون وبره ... يرضيه فى علن وفى إسرار "
 " حتى تحج محله رفعا بها ... علم الوفاء لأعين النظار "
 " فيصير منها البيت بيتا ثانيا ... للطائفين اليه أي بدار "
 " تغنى قلوب القوم عن هدى به ... ودموعهم تكفى لرمى جمار "

" حبيبت من دار تكفل سعيها ... المحمود بالزلفى وعقبى الدار " وضفت عليك من الإله عناية ... ما كر ليل فيك إثر نهار " ويعنى بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن

ومن العجائب ان الرئيس عامر بن محمد الذى جرى فى هذه الأبيات ذكره كان يؤمل بإيوائه للسلطان أبى الحسن ونصرته له وعدم إخفار ذمته فيه أن ينال من أولاده الملوك بذلك عزا مستطيلا ورياسة زائدة على ما كان فيه ففضى الله تعالى أن كان حتفه على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن إذ نازله بجنوده وحاصره بمعتقله حتى استولى عليه وقتله حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضى القضاة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى المغربى نزيل مصر فى تاريخه الكبير الذى سماه ب كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر فمن شاء فليراجعه ثمه وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاتى المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله ابى الفضل محمد ابن أخى السلطان عبد العزيز المذكور فكان من قتله ما ذكر والله غالب على أمره

ولنرجع الى ما كنا فيه من نثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى عنه فنقول ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى فى كتابه أعمال الأعلام ما صورته - 23 وفى غرضى اذا من الله تعالى بانفراج الضيقة الوقتية ومعاودة الأزمان الهنية والنصبة النقية أن نضف فى التاريخ كتابا مبنيا على التطويل مستوعبا للكثير والقليل نسميه بضاعة المهولين فى أساطير الأولين يكون هذا الكتاب بالنسبة اليه الحصة من الرمال والقطرة من الغيث المثال بإعانة ذى القدرة والجلال انتهى ومن كلامه رحمه الله تعالى فما استبعد المرام من قصد الكرام وما فقد الإيناس من أمل - 24 الناس انتهى

وقد سلك لسان الدين رحمه الله تعالى فى كثير من كتبه ك الكتيبة الكامنة والتاج المحلى و الإكليل الزاهر وغيرها تحلية الأعلام من حملة السيوف والأفلام بالكلام المسجع الأخذ بحظه من الإبتقان على طريقة صاحب القلائد والمطمح أبى نصر بن الفتح بن عبيد الله المدعو بابن خاقان بليغ الأندلس غير مدافع وعلى نهج مبارية ابن بسام صاحب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة وهو كتاب ينبغى أن يراجع وقد رأيت أن أتى بشيء من كلام لسان الدين فيما ذكر ونلم بعد تحليته بالتعريف بحال من حلاه من الأعلام بحسب ما من به ويسره لى الملك العلام سبحانه وتعالى فنقول

قال لسان الدين رحمه الله تعالى فى بعض كتبه فى وصف بعض من عرف به ما نصه أي - 25 نفس صافية من الكدر وصدى طيب الورد والصدر ودوحه عهد تندی أوراقها ومشكاة فضل يستطلع إشراقها تمسك برضاع الكأس يرى ذلك من حسن عهده وقسم لحظاته بين أس الرياض وورده فلما حوم حمامه للوقوع وكاد يقوض رحله عن الربوع وشعر بحائل المنية تعلقه وسرعان خيل الأجل ترهقه أفلح عن فنه وأمر بسفك دمه ولجأ الى الله تعالى بأوبته وضرع الى الله تعالى فى قبول توبته وغفران حوبته فكان ذلك عنوان الرضى وعلامة عفو الله تعالى عما مضى دخلت عليه فى مرضه وأشرت باستعمال الدواء المسمى بلحية التيس عند الأطباء فاستعمله فوجد بعض خفة 26 - وقال فى آخر كثيف الحاشية معدود فى جنس السائمة والماشية تليت على العمال به سورة الغاشية تولى الأشغال السلطانية فذعرت الجباة لولايته وقامت قيامتهم لطلوع آيته وفنطوا كل القنوط وقالوا جاءت الدابة تكلمنا وهى إحدى الشروط من رجل صائم الحشوة بعيد من المصانعه والرشوة يتجنب الناس ويقول عند المخاطبة لا مساس وعلى مسافة نجهه وتجهم وجهه فكان خالطا إساءته بإحسانه مشتغلا بشانه غاضا من عنان لسانه عهدي به فى الأعمال يقدر فيها ويدبر ويرجح ويعبر ويحبط ويتبر وهو مع ذلك يكبر ويحسن من الأزمنة ويقبح وهو يسبح ولما شرع فى البحث والتنقير والمحاسبة على القطمير والنقير أتاه قاطع الأجل فحن ركابه فاقضى العجل وصدت عنه أبيات خضم فيها وقضم وحصل تحت القدر المشترك مع من نظم وقال فى آخر كودن حلبة الآداب وسنور عبد الله بيع بغيراط لما شاب هام بوادى الشعر مع من - 27 هام واستمطر منها الجهام فجاء بأبيات أوهى من بيت العنكبوت نسجا ومقاصد لا تبين قصدا ولا نهجا وله بيت معمور بقضاة أكابر فرسان أقلام ومحابر وعمال قادوا الدهر بأزمة أزمتهم وفرعوا الزهر بهمتهم وتكاثر عليه رحمه الله الإحن وتعاورته المحن وتصرف آخر عمره فى بعض الأعمال المخزنية فتعلل بنزى القوت الى الأجل الموقوت

- وقال فى آخر معدود فى وقته من أدبائه ومحسوب فى أعيان بلده وحسبائه كان رخمه الله - 28
تعالى من أهل العدالة والخير سائرا على منهج الاستقامة
أحسن السير وله أدب لا يقصر عن السداد وان لم يكن بطلا فمن يكثر السواد قد أثبت له ما عثرت
عليه مما ينسب الناس اليه
- وقال فى آخر معتز غير قانع ومنجع كل شهيم وخانع نشأ ببلدة مالقة ابرع من أورد البراعة فى - 29
نفس وهز غصنها فى روضة طرس إلا ما كان من سخافة عقله وعوده تحت المثل اخبر ثقله لا
يرتبط الى رتبه ولا ينتمى الى عصابة ولا يتلبس بسمت ولا يستقيم من أمت أخبرنى من عنى
بخبره وذكر عبره من صباه الى كبره أنه رشح فى بعض الدول وعرض لاكتساب الخيل والخول
وخلعت عليه كسوة فاخرة وشارة بزهر الرياض ساخرة فانقاد طوع حرمانه ونبذ صفقة زمانه وحمله
فرط النهم على ان ابتاع فى حجرة طعاما كثير الدسم وأقبل وأذباله منه تقطر كما اختلفت باللبن
الأشطر فطرد ونبذ وطرح بعدما جذب لقيته بمالقة وقد قلب له زمانه عينيه وسقط فى يديه فاتابنى
بأمداحه وتعاورنى بأجابه وقراحه
- وقال فى آخر أديب نار فكره تتوقد وأرب لا يعترض كلامه ولا ينقد أما الهزل فهو طريقته - 30
المثلى ركض فى ميدانها وحلى وطلع فى أفقها وتجلى فأصبح علم أعلامها وعابر أحلامها ان أخذ
بها فى وصف الكاس وذكر الورد والآس وألم بالربيع وفصله والحبيب ووصله والروض وطيبه والغمام
وتقطيبه شق الجيوب طريا وعل النفوس شربا وضربا وان ابتغى لاعتلال العشيبة فى فرش الربيع
الموشية ثم تعدها الى وصف الصبوح وأجهز على الرق المجروح وأشار الى نغمات الورق يرفلن
فى الحلل الزرق وقد اشتعلت فى عنبر الليل نار البرق وطلعت بنود الصباح فى
شرفات الشرق سلب الحليم وقاره وذكر الخليج كأسه وعقاره وحرك الأشواق بعد سكونها وأخرجها
من وكونها بلسان يتزاحم على موارد الخيال ويتدفق من حافاته الأدب السيال وبيان يقيم أود
المعانى ويشيد مصانع اللفظ محكمة المبانى ويكسو حلل الإحسان جسوم المثالث والمثنائى الى
نادرة لمثلها يشار ومحاضرة يجنى بها الشهد ويشار وقد أثبت من شعره المعرب وان كان لا يتعاطاه
إلا قليلا ولا يجاوز إلا تعليلا أبياتا لا تخلو عن مسحة جمال على صفحاتها وهبة طيب ينم فى
نفحاتها
- وقال أيضا فى آخر ظريف السجية كثير الأريحية ارتحل من لورقه فتحها الله تعالى واتخذ المرية - 31
دارا وألف بها استقرارا الى ان دعاه بها داعية وقام فيها ناعية
- وقال فى وصف آخر شيخ أخلاقه لينة ونفسه كما قيل فى نفس المؤمن هينة ينظم الشعر - 32
عذبا مساقه محكمة اتساقه على فاقة وحال ما لها من إفاقة أنشد المقام الكريم بظاهر بلده
قصيدة استغرب منه منزعها واستعذب من مثله مشرعها
- وقال فى آخر من أئمة أهل الزمام خليك برعى المئات والذمام ذو خط كما تفتح زهر الكمام - 33
وأخلاق أعذب من ماء الغمام كان بلده رحمه الله تعالى بدار إشرافه محاسبا ودره فى لجة الإغفال
راسبا صحيح العمل يلبس الطروس من براعته حسن الحلل وله شعر لا بأس به ولا خفاء بفضل
مذهبه
- وقال فى آخر خير من استبق الى داعي الفلاح استبقا وانتمى الى القوم الذين هم فى - 34
الآخرة أطول أعناقا وان كانوا فى الدنيا أضيق أرزاقا مردد أذكار ومسبح أسحار وعامر منذنة ومنار
كان بلده مؤذنا بجامعها
ومؤقتا بأم صوامعها ومعتبرا فيمن كان بها من السدنة ومن مثله قوله فكانما قرب بدنه وله لسان
مخيف وشعر سخيف توشح بحليته وجعله وسيلة كديته
- وقال فى آخر عظيم الهيئة حسن اللقاء أغرب فى حسن المداراة من العنقاء استمر عمره - 35
للحكم وصبر على حجج الصم والبكم وأفرط فى هشته وهزته وتنزل عن نخوة القضاء وعزته وله
سلف فى القضاء على المراقب مزاحم للنجم الثاقب وقد أثبت من شعره ما تيسر إثباته ونجح
بروض هذا المجموع نباته
- وقال فى آخر قاض توارث كل جلاله عن كلاله وجمع فى العلم الحسب بين الموروث - 36
والمكتسب أشرف بجيد معمر فى العشيرة مخول وألقت عليه مقاليدها من منقول ومثاول الى
نزاهة لا تغرها البيضاء ولا الصفراء وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستغفه الإغراء ووقار يستخف
الجبال الراسية ونظر يكشف الظلم العاشية تولى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاه وشام
سيوف الجزالة وانتضاه ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نضاه وسلك الطريق التى اختارها
السلف وارتضاه فاجتمعت الأهوال المفترقة عليه وصرف الثناء أعنة الألسن اليه ثم كر الى بلده

- واستقر خطيباً بقراره أهله وولده
- وقال فى آخر منتم الى معرفة متصف من الذكاء بأحسن صفة أقرأ ببلده علم اللسان وما حاد - 37
عن الإحسان وعانى الشعر فنظم قوافيه وما تكلف فيه وعلى غزارة مادته ووضوح جادته فشعره
قليل البشاشة ذاهب الحشاشة وذو الإكثار كمثل العثار وله سلف يخوض فى الحقائق وينتقل
بعض الكلام الرائق
- وقال فى آخر منتم لدين وعفة والى نفس بالعرض الأدنى - 38
مستخفة ممن نزع الى سلوك وريضة ويفيض فى طريق القوم بعض إفاضة
- وقال فى آخر ممن يتشوق الى المعارف والمقالات ويرتاح الى الحقائق والمحالات ويشتمل - 39
على نفس رقيقة ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ويعانى من الشعر ما يشهد بنبه
ويستظرف من مثله
- وقال فى آخر مشمر فى الطلب عن ساق مثير على اللحاق بدرجات الحذاق منتحل للعربية - 40
جاد فى إحصاء خلافها ومعاطاة سلافها وربما شرسى فى المذاكرة أخلاقه إذا بهرجت أعلاقه ونوزع
تمسكه بالحجة واعتلاقه ورحل الى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه ثم راجع أوطانه
- وقال فى آخر منتم الى زهد باذل فى التماس الخير الجهد نظمه لا يخلو من حلاوة ومعانيه - 41
فى طريقه عليها بعض طلاوة
- وقال فى آخر كاتب سجلات لا يساجل فى صحة فصولها وتوقيع فروعها على أصولها وكلما - 42
طلب بالنظم الفريضة وأعمل الفكرة الصريحة مع إقلاله وعدم استعماله أجابت ولبت وتنسمت
رباحها وهبت
- وقال رحمه الله تعالى وسامحه فى بعض العدول الصوفية الأخيار الذين وحدوا الله وفنوا عن - 43
سائر الأغيار خير عدل وممن له وقار وفضل متسم بخير معرض عن غير مشتمل بصفات مرضية ملم
بالنظم فى الطريقة الصوفية
- وللسان الدين رحمه الله تعالى ركض فى هذا الميدان لا يجارى فيه وثبوت فضل لا يستند الى دليل
جاحده ونافيه
- وقال رحمه الله تعالى فى كتابه التاج المحلى فى مساجلة القدح - 44
المعلى فى ترجمة محمى بن عبد الله بن محمد بن لب الأمى المربى ما صورته لج معرفة لا يغيض
وصاحب قنوت يأخذ فيها ويفيض نشأ ببلده مشمرا عن ساعد اجتهاده وسائرا فى قن العلم
ووهاده حتى اينع روضه وفهق حوضه ثم أخذ فى راحة ذاته وشام بارق لذاته ثم سار فى البطالة
سير الجموح وواصل الغبوق بالصبح حتى قضى وطره وسئم بطره وركب الفلك وخاض اللجج الحلك
واستقر بمصر على النعمة العريضة على شك فى قضاء حجة الفريضة وهو اليوم بمدريتها
الصالحية نبهه المكانة معدود فى أهل العلم والديانة انتهى
- وقال فى الإحاطة فى حق المذكور ما نصه من خط شيخنا ابى البركات فى الكتاب المؤتمن على
انباء انباء الزمن كان سهلا سلس القيادة لذيد العشرة دمت الأخلاق ميالا الى الدعة نفورا عن
النصب يركن الى فضل نباهة وذكاء يحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدؤوب على الطلب من
رجل يجرى من الألحان على مضمار لطيف ولم يكن له صوت رخيم يساوق انطباعه فى التلحين
فجبر ذلك بالأوتار وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما لاذ به الطرفاء منهم واستعمل بدار الأشراف
بالمربة فأحكم تلك الطريقة فى أقرب زمان وجاء زمانه يروق من ذلك العمل من شأنه ثم نهضت به
همته الى أرفع من ذلك فسار الى غرناطة فقرأ بها العربية وغيرها وانخرط فى سلك نهباء الطلبة
لأدنى مدة ثم رحل الى بلاد المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة فلم يتجاوز القاهرة لموافقة
هوائها علة كان يشكوها وأخذ فى إقراء العربية بها وعرف بها الى ان صار يدعى بأبى عبد الله
النحوي قال شيخنا المذكور ورأى فى صغره فارة أنثى فقال هذه قريبة فلقب بذلك وصار هذا اللقب
أغلب
عليه من اسمه ومعرفته
- ثم قال لسان الدين فى حق المذكور ما ملخصه إنه قرأ بالحضرة على الخطيب أبى على
القيجاطى وطبقته وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ ابى حيان وانتفع بجاهه نقل الينا الحاج الحافظ أبو
جعفر ابن غصن من شعره حسبما قيده عنه بمصر
" بعد المزار ولوعة الأشواق ... حكما يفيض مدامع الآماق "
" وخفوق نجدى النسيم اذا سرى ... أذكى لهيب فؤادى الخفاق "
" أمعللى ان التواصل فى غد ... من ذا الذى لغد فديتك باقى "

" ان الليالى سبق ان أقبلت ... واذا تولت لم تنل بلحاق "

" عج بالمطى على الحمى سقى الحمى ... صوب الغمام الواكف الرقراق "

" فيه لذى القلب السليم ودادة ... قلب سليم ما له من راق "

" قلب غداة فراقهم فارقته ... لا كان فى الأيام يوم فراق "

" يا ساريا والليل ساج عاكف ... يفرى الفلا بنجائب ونياق "

" عرج على مثنوى النبى محمد ... خير البرية ذى المقام الراقى "

" ورسول رب العالمين ومن له ... حفظ العهود وصحة الميثاق "

" الظاهر الآيات قام دليلها ... والطاهر الأخلاق والأعراق "

" بدر الهدى وهو الذى آياته ... وجبينه كالشمس فى الإشراق "

" الشافع المقبول من عم الورى ... بالجود والإرفاد والإرفاق "

" الصادق المأمون أكرم مرسل ... سارت رسالته الى الآفاق "

" أعلى الكرام ندى وأبسطهم يدا ... قبضت عنان المجد باستحقاق "

" وانشد خلق الله إقداما إذا ... حمى الوطيس وشمرت عن ساق "

" أمضاهم والخيل تعثر فى الوعى ... وتجول سبحا فى الدم المهراق "

" من صير الأديان ديننا واحدا ... من بعد إشراك مضى ونفاق "

" واحلنا من حرمة الإسلام فى ... ظل ظليل وارف الأوراق "

" لو ان للبدر المنير كماله ... ما ناله كسف ونكس محاق "

" لو ان للبحرين جود يمينه ... أمن السفين غوائل الإيساق "

" لو ان للأساد شدة بأسه ... لثنت عن الانجاد والإعراق "

" لو أن للآباء رحمه قلبه ... ذابت نفوسهم من الإشفاق "

" ذو العلم والحلم الخفى المنجلى ... والجاه والشرف القديم الباقي "

" آياته شهب وغر بنانه ... سحب النوال تدر بالأرزاق "

" ماجت فتوح الأرض وهو غيائها ... وريت ربي الإيمان وهو الساقى "

" ذو رافة بالمؤمنين ورحمة ... وهدى وتأديب بحسن سياق "

" وخصال مجد أفردت بالخصل فى ... مرمى الفخار وغاية السياق "

" ذو المعجزات الغر والآي التى ... كم آية فقدت وهن بواقى "

" ثنت المعارض حائرا لما حكى ... فلق الصباح وكان ذا إفلاق "

" يقظ الفؤاد سرى وقد هجع الورى ... لمقام صدق فوق ظهر براق "

" وسما وأملاك السماء تحفة ... حتى تجاوزهن سبع طباق " ومنها "

" يا ذا الذى اتصل الرجاء بحبله ... وانبت من هذا الورى بطلاق "

" حبى إليك وسيلتى وذخيرتى ... إنى من الأعمال ذو إملاق "

" واليك أعملت الرواحل ضمرا ... تختال بين الوخد والإعناق "

" نجبا إذا نشدت حلى تلك العلا ... تطوى الفلا ممتدة الأعناق "

" يحدو بهن من النجيب مردد ... وتقودهن أزمة الأشواق "

" غرض اليه فوفقتنا أسهما ... وهى القسى برين كالأفواق "

" فانختها بفنائك الرحب الذى ... وسع الورى بالنائل الدفاق "

" وقرى مؤمك الشفاعة فى غد ... وكفى بها هبة من الرزاق "

" وعليك يا خير الأنام تحية ... تحيي النفوس بنشرها الفتاق "

" تتأرج الأرجاء من نفحاتها ... أرج الندى بمدحك المصداق " ومنها "

" قسما بطيب تراب طيبة انه ... مسك الأنوف وإئتمد الأحداق "

" وبشأن مسجدها الذى يرجى به ... لمعامل الرحمن أي نفاق "

" لأجود فيه بأدمع اسلاكها ... منظومة بترائب وتراق "

" أعدو بتقبيل على حصائه ... وعلى كرائم جدره بعناق " ومنها "

" وعليك ذا النورين تسليم له ... نور يلوح بصفحة المهراق "

" كفؤ النبى وكفؤ أعلى جنة ... حيزت له بشهادة وصداق "

" وكفاه ما فى الفتح جاء ومصحف ... فى الفتح يحمده وفى الإطباق "

" وعلى ابى السبطين من سبق الألى ... سبقوا الى الاسلام يوم سياق "

" الطاهر الطهر ابن عم المصطفى ... شرف على التخصيص والإطلاق "

" مبدى القضايا من وراء حجابها ... ومفتح الأكمام عن أعلاق "
 " يغزو العداة بغلظة فيهدهم ... بصوارم تغري الفقار رفاق "
 " راياته لا شىء من عقبانها ... بمطار يوم وغي ولا بمطاق "
 " وعلى كرام ستة عشرت بهم ... عند النظام لالكيء النساق "
 " ما بين أروع ماجد نيرانه ... جنح الظلام تشب للطراق "
 " وأخى حروب صده رشق القنا ... عما قدود مثلهن رفاق "
 " ما غردت شجوا مطوقة وما ... شقت كمام الروض عن أطواق "
 " وعلى القرابة والصحابة كلهم ... والتابعين لهم ليوم تلاق "
 وذكر فى الإحاطة غير هذه

وقال لسان الدين فى التاج فى ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي أشى ما صورته ناظم - 45
 أبيات وموضح غرر وشيات وصاحب توقيعات وقيعات وإشارات ذوات شارات وكان شاعرا مكثرًا وجوادا
 لا يخاف عثارا دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه بعد انتشار سلكه وخروج الحضرة عن ملكه
 واستقراره بوادى أش مروع البال متعللا بالأمال وقد بلغه دخول طبرنش فى طاعته فأشده من
 ساعته

" خذها اليك طبرنشا ... شفغ بها وادى الأشا "
 " والأمر تأتى بنتها ... والله يفعل ما يشا " ومن نوادره العذبة ما كتبه اليه يطلب منه الحسبة "
 " أنلنى ايا خير البرية خطة ... ترفعننى قدرا وتكسينى عزا "
 " فأعز فى أهلى كما اعز بيدق ... على سفرة الشطرنج لما اثنى فرزا " فوقع له بما ثبت فى "
 ترجمته انتهى

وقال فى الإكليل فى ترجمة ابى عبد الله ابن العطار المزنى ما صورته ممن نبغ ونجب وحق - 46
 له البر بذاته ووجب تحلى بوقار وشعشع للأدب كأس عقار إلا انه احترم فى اقتبال وأصيب للأجل
 بنبال انتهى

وقال فى الإكليل فى ترجمة ابى عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن علي بن يحيى بن - 47
 خاتمه الأنصاري المزنى ما صورته ممن ثكلته البراعة وفقدته البراعة تأدب باخيه وتهذب وأراه فى
 النظم المذهب وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب فاقتفى واقتدى وراح فى الحلبة واغتنى
 حتى

نبل وشدا ولو أمهله الدهر لبلغ المدى وأما خطه فقيد الأبصار وطره من طرف الأمصار واعتبط يانع
 الشبيبة مخضر الكتيبة مات عام خمسين وسبعمائة وإورد له فى الإحاطة قوله
 " ومض البرق فثار القلق ... ومضى النوم وحل الارق "
 " مذ تذكرت لأيام خلت ... ضمنا فيها الحمى والأبرق "
 " وعشيات تقضت باللوى ... فى محيا الدهر منها رونق "
 " إذ شبابى والتصابى جمعا ... ورياض الأنس غض مورق "
 " شت يوم البين شملى ليت ما ... خلق البين لقلب يعشق "
 " أه من يوم قضى لى فرقة ... شاب منى يوم حلت مفرق " وقوله "
 " الرفع نعتكم لا خانكم أمل ... والخفض شيمة مثلى والهوى دول "
 هل منكم لى عطف بعد بعدكم ... إذ ليس لى منكم يا سادتى بدل " قلت البيت الثانى غاية فى "
 معناه وأما الأول فسافل وإن أسس علي الرفع مبناه والله اعلم

وقال فى الإكليل فى ترجمة ابى عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم ابن عيسى بن داود - 48
 الحميري المالقي ما صورته علم من أعلام هذا الفن ومشعشع راج هذا الدن مجموع أدوات وفارس
 براعة ودواة ظريف المنزع أنيق المرأى والمسمع اختص بالرياسة فأدار فلك إمارتها واتسم
 باسم كتابتها ووزارتها ناهضا بالأعباء صاعدا فى درج التقريب والاجتباء مصانعا دهره فى راح وراحة
 أويأ الى فضل وسماحة وخصب ساحة كلما فرغ من شأن خدمته وانصرف عن رب نعمته عقد شربا
 وأطفأ من الاهتمام بغير الأيام حربا وعكف على صوت يستعيده وظرف بيديه ويعيده فلما تقلبت
 بالرياسة الخال وقوضت منها الرجال استقر بالمغرب غريبا يقبل طرفا مستربيا ويلحظ الدنيا تبعه
 عليه وتتربيا وان كان لم يعدم من أمرائه حظوه وتقريبا وما برح يبوح بشجنه وبرتاح الى عهد وطنه
 ومما اعرب به عن براعة أدبه قوله

" يا نازحين ولم أفارق منهم ... شوقا تأجج فى الضلوع ضرامه "
 " غيبتم عن ناظرى وشخصكم ... حيث استقر من الضلوع مقامه "

" رمت النوى شملى فشتت نظمه ... والبين رام لا تطيش سهامه "

" وقد اعتدى فينا وجد مبالغا ... وجرت بمحكم جوره أحكامه "

أترى الزمان مؤخرا فى مدتى ... حتى أراه قد انقضت أيامه " تحملها يا نسيم نجدية النفحات "

وجدية اللفحات تؤدى عنى الى الأحبة نفحها سلاما وتورد عليهم لفحها بردا وسلاما ولا تقل كيف تحملنى نارا وترسل على الأحبة منى إعصارا كلا اذا أهديتهم تحية إيناسى وأنسوا من جانب هبوبك نار ضرام أنفاسى وارتاحوا الى هبوبك واهتزوا فى كف مسرى جنوبك وتعللوا بك تعليلا وأوسعوا آثار مهبك تقبيلًا أرسلها عليهم بليلا وخاطبهم بلطافة تطفك عليلا الم ترونى كيف جئتكم بما حملنى

" كذاك تركته ملقى بأرض ... له فيها التعلل بالرياح "

" اذا هبت اليه صبا اليها ... وان جاءت من كل النواحي "

" تساعده الحمام حين بيكى ... فما ينفك موصول النواحي "

" يخاطبهن مهما طرن شوقا ... أما فيكن واهبة الجناح " ولولا تعلله بالأمانى وتحدث نفسه بزمان التدانى لكان قد قضى نجه ولم أبلغكم إلا نعيه أو ندبه لكنه يتعلل من الآمال بالوعد الممطول ويتطرح باقتراحاته على الزمن المجهول ويحدث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالخلب ووثقت بمواعيد الدهر القلب فيناجيتها بوحى ضميره وإيماء تصويره كيف أحذك يوم الالتقاء بالأحباب والتخلص من ريقه الاغتراب أبائنه الحضور أم بادية الاضطراب كأنى بك وقد استفزك وله السرور فصرفك عن مشاهدة الحضور وعاقبتك غشاوة الاستعبار للاستبشار عن اجتلاء محيا ذلك النهار " يوم يداوى زماناتى من أزمانى ... أزال تنغيص أحيانى فأحيانى "

" جعلت لله نذرا صومه ايدا ... أفى به واوفى شرط إيمانى "

" إذا ارتفعنا وزال البعد وانقطعت ... أشطان دهر قد التفت باشطانى "

" أعده خير أعياد الزمان اذا ... أوطانى السعد فيه ترب أوطانى " أرايت كيف ارتياحى الى التذكار وانقيادى الى معللات توهمات الأفكار كأن البعد باستغراقها قد طويت شقته وذهبت عنى مشقته وكأنى بالتخيل بين تلك الخمائل أتسم صباها وأتسم رباها وأجتنى أزهارها وأجتلى أنوارها وأجول فى خمائلها وأتعمم بيكرها وأصائلها وأطوف بمعالما وأنتشق أزهار كمائمها وأصيخ بأذن الشوق الى سجع حمائمها وقد داخلتنى الأفراح ونالت منى نشوة الارتياح ودنا السرور لتوهم ذهاب الأتراح فلما أفقت من غمرات سكرى ووثبت من هفوات فكرى وجدت مرارة ما شابه لى فى استغراق دهرى وكأنى من حينئذ عالجت وقفه الفراق وابتدأت منازعه الأشواق وكأنما أغمضنى النوم وسمح لى بتلك الفكرة الحلم " ذكر الديار فهاجه تذكاره ... وسرت به من حينه أفكاره "

" فاحتل منها حيث كان حلوله ... بالوهم منها وإستقر قراره "

" ما أقرب الآمال من غفواته ... لو انها قضيت بها أوطاره " فاذا جئتها ايها القادم والأصيل قد خلع " عليها بردا مورسا والربيع قد مد على القيعان منها سندسا فاتخذها فديتك معرسا واجرر ذبولك فيها متبخترا وبث فيها من طيب نفحاتك عنبرا وافتح عليها من نوافج أنفاسك مسكا أذفرا واعطف معاطف بانها وأرقص قصب ريجانها وصافح صفحات نهرها ونافح نفحات زهرها هذه كلها أمارات وعن أسرار مقاصدى عبارات هنالك تنتعش بها صبايات تعالج بإقبالك وتعكف صبايات تتعلل بإقبالك وتعكف على لثم أذيلك وتبدو لك فى صفة الفانى المتهالك لاطفها بلطافه اعتلاك وترفق بها ترفق أمثالك فاذا مالت بهم الى هواك الأشواق ولووا اليك الأرواس والأعناق وسألوك عن اضطرابى فى الآفاق وتقلبى بين الإشام والإعراق فقل لهم عرض له فى أسفاره ما يعرض للبدر فى سراره من سرار السرار ولحاق المحاق وقد تركته وهو يسامر الفرقدىن ويساير النيرين وينشد اذا راعه البين وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا " لم يفارق وعناء الأسفار ولا ألقى " من يده عصا التسيار يتهداه الغور والنجد ويتداوله الإرقال والوخذ وقد لفحته الرمضاء وسئمه الإنضاء فالجهات تلفظه والآكام تبهظه يحمل همومه الرواسم وتحياته البواسم

" لا يستقر بأرض حين يبلغها ... ولا له غير حدو العيس إيناس " ثم اذا استوفوا سؤالك عن حالى " وتقلبى بين حلى وترحالى وبلغت القلوب منهم الحناجر وملأت الدموع المحاجر وابتلت ذبولك بمائها لا بل تضرجت بدمائها فحيهم عنى تحية منفصل ووداع مرتحل ثم اعطف عليك ركابك ومهد لهم جنابك وقل لهم اذا سألنى عن المنازل بعد سكانها والربوع بعد طعن أظعانها بماذا أجيبه وبماذا يسكن وجيبه فسيقولون لك هى البلاقع المقفرات والمعارف التى أصبحت نكرات

صم صداها وعفا رسمها ... واستعجمت غن منطق السائل " قل لهم كيف الروض وآسه وعم " تتأرجح أنفاسه عهدي به والحمام يردد به أسجاعه والذباب يغنى به هزجا فيحك بذراعه ذراعه وغصونه تعتنق وأحشاء جداوله تصطفق وأسحاره تتنسم وأصاله تتوسم كما كانت بقية نضرته وكما عهدتها أنيقة خضرته وكيف التفاته عن أزرق نهره وتأنقه فى تكليل إكليله بيانع زهره وهل رق نسيم أصائله وصفت موارد جداوله وكيف انفساح ساحاته والتفاف دوحاته وهل تمتد كما كانت مع العشى فينانه سرحاته وعهدى بها المديدة الظلال المزعفرة السربال وهل تحدف الآن به عيون نرجسه ويمد بساط سندسه وانى منه مجالس لداتى ومعاهد غدواتى وروحاتى اذ ابارى فى المجون لمن ابارى وأسابق الى اللذات كل من اجارى فسيقولون لك ذوت أفنانه وانقصت أغصانه وتكدرت غدرانه وتغير روحه وريحانه وأقمرت معالمه وأخرست حمائمها واستحالت حلل خمائله وتغيرت وجوه بكره وأصائله فإن صلصل حين رعد فعن قلبى لفراقه خفق وان تلالاً برق فعن حر حشاي ائتلق وان سحت السحب فمساعدة لجفني وان طال بكاؤها فعنى حياها الله تعالى منازل لم تزل بمنظوم الشمل أوأهل وحين انتثرت نثرت أزهارها أسفا ولم تن الریح من أغصانها معطفا أعاد الله تعالى الشمل فيها الى محكم نظامه وجعل الدهر الذى فرقه يتأنق فى إحكامه وهو سبحانه يجبر الصدع ويعجل الجمع إنه بالإجابة جدير وعلى ما يشاء قدیر

إية بنى كيف حال من استودعتهم أمانتك وألزمتهم صونك وصيانتك وألبستهم نسبك ومهدت لهم حسبك الله فى حفظهم فهو اللأثق بفعلك المناسب لشرف خلالك ارفع لهم الاغتراب لديك والانقطاع اليك فهم أمانة الله تعالى فى يدك وهو سبحانه يحفظك بحفظهم ويوالى بلحظك أسباب لحظهم وان ذهبتم الى معرفة الأحوال فنعم الله تعالى ممتدة الظلال وخيراتة وارفه السربال لولا الشوق الملازم والوجد الذى سكن الحيازم

وقال فى الإكليل فى ترجمة أبى بكر محمد بن محمد بن عبد الله ابن مقاتل الملقى ما نصه - 49 نابعة مالقية وخلف وبقية ومغربى الوطن أخلاقه مشرقية أزمع الرحيل الى المشرق مع اخضرار العود وسواد المفروق فلما توسطت السفينة للبحر وقارعت الشج هال عليها البحر فسقاها كأس الحمام وأولدها قبل التمام وكان فيمن اشتملت عليه اعوادها وانضم على نوره سوادها من جملة الطلبة والأدباء وأبناء السراة الحسباء أصبح كل منهم مطيعا لداعى الردى وسميعا وأحيوا فرادى وماتوا جميعا فأجروا الدموع حزنا وأرسلوا العبرات عليهم مزنا وكأن البحر لما طمس سبيل خلاصهم وسدها وأهال هضبة سفينتهم وهدها غار على نفوسهم النفيسة فاستردها والفقية ابو بكر مع إكثاره وانقياد نظامه ونثاره لم أظفر من أدبه إلا بالقليل التافه بعد وداعه وانصرافه فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثرا " ومهفهف هافى المعاطف احور ... فضحت أشعة نوره الأقمارا " " زلت له قدم فاصبح عاثرا ... بين الأنام لعا لذاك عثارا " " لو كنت أعلم ما يكون فرشت فى ... ذاك المكان الخد والأشفارا " وقال " " أيا لبنى الرفاء تفضي طبأؤهم ... جفون طباهم فالغواد كليم " " لقد قطع الأحشاء منهم مهفهف ... له التبر خد واللجين أديم " " يسدد إذ يرمى قسى حواجب ... وأسهمها من مقلتيه تسوم " " وتسقمنى عيناه وهى سقيمة ... ومن عجب سقم جناه سقيم " " ويذبل جسمى فى هواه صباة ... وفى وصله للعاشقين نعيم " كان غرقه فى أخريات عام تسعة " وثلاثين وسبعمائة انتهى

وقال فى الإكليل فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد الشديد الملقى ما نصه شاعر - 50 مجيد حوك الكلام ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام رحل الى الحجاز لأول أمره فطال بالبلاد المشرقية نواؤه وعميت أنباؤه وعلى هذا العهد وفتت له على قصيدة بخطه غرضها نبيل ومرعاها غير وبيل تدل على نفس ونفس وإضاءة قيس وهى

لنا فى كل مكرمة مقام ... ومن فوق النجوم لنا مقام " ومنها " " رويانا من مياه المجد لما ... وردناها وقد كثر الزحام " " فنحن هم وقل لى من سوانا ... لنا التقديم قدما والكلام " " لنا الأيدي الطوال بكل صوب ... يهز به لدى الروع الحسام " " ونحن اللابسون لكل درع ... يصيب السمر منهن انثلام " " بأندلس لنا أيام حرب ... موافقهن فى الدنيا عظام "

" ثوى منها قلوب الروم خوف ... يخوف منه فى المهد الغلام "
 " حمينا جانب الدين احتسابا ... فها هو لا يهان ولا يضام "
 " وتحت الراية الحمراء منا ... كتائب لا تطاق ولا ترام "
 " بنو نصر وما أدراك ما هم ... أسود الحرب والقوم الكرام "
 " لهم فى حربهم فتكات عمرو ... فللأعمار عندهم انصرام "
 " يقول عداتهم مهما ألموا ... أتونا ما من الموت اعتصام "
 " إذا شرعوا الأسنة يوم حرب ... فحقق ان ذاك هو الحمام "
 " كأن رماحهم فيها نجوم ... إذا ما اشبه الليل القتام "
 " أناس تخلف الأيام ميتا ... بحى منهم فلهم دوام "
 " رأينا من أبى الحجاج شخصا ... على تلك الصفات له قيام "
 " موقى العرض محمود السجايا ... كريم الكف مقدم همام "
 " يجول بذهنه فى كل شىء ... فيدركه وان عز المرام "
 " قويم الرأى فى نوب الليالى ... إذا ما الرأى فارقه القوام "
 " له فى كل معضلة مضاء ... مضاء الكف ساعدها الحسام "
 " رؤوف قادر يغضى ويعفو ... وان عظم اجتناء واجترام "
 " تطوف ببيت سؤدده القوافى ... كما قد طاف بالبيت الأنام "
 " وتسجد فى مقام علاه شكرا ... ونعم الركن ذلك والمقام "
 " أفرسها إذا ما الحرب أختت ... على أبطالها ودنا الحمام "
 " وممطرها إذا ما السحب كفت ... وكف أخى الندى أبدا غمام "
 " لك الذكر الجميل بكل قطر ... لك الشرف الأصيل المستدام "
 " لقد جبننا البلاد فحيث سرنا ... رأينا ان ملكك لا يرام "
 " فضلت ملوكها شرقا وغربا ... وبت لملكها يقظا وناموا "
 " فأنت لكل معلوة مدار ... وأنت لكل مكرمة إمام "
 " جعلت بلاد أندلس إذا ما ... ذكرت تغار مصر والشام "
 " مكان أنت فيه مكان عز ... وأوطان حللت بها كرام "
 " وهبتك من بنات الفكر بكرا ... لها من حسن لقياك ابتسام "
 " فنزه طرف مجدك فى حلاها ... فللمجد الأصيل بها اهتمام "

وقال فى الإكليل فى ترجمة الشريف محمد بن الحسن العمرانى من أهل فاس ما صورته - 51
 كريم الانتماء متظلل بأغصان الشجرة الشماء من رجل سليم الضمير ذى باطن أصفى من الماء
 النمير له فى الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ومضاء نصوله وذكر فى الإحاطة أن الشريف المذكور
 توفى فى حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة

وقال فى الإكليل فى ترجمة محمد بن أحمد بن ابراهيم المرادى العشاب وهو قرطبى الأصل - 52
 تونسى المولد والمنشأ ما صورته جواد لا يتعاطى طلقه وصبح فضل لا يماثل فلقه كانت كانت لأبيه
 رحمه الله تعالى من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل ومفاوضة فى العقد والحل ولم يزل تسمو
 به قدم النجابة من العمل الى الحجابة ونشأ ابنه هذا مقضى الديون مفدى بالأنفس والعيون
 والدهر ذو ألوان ومارق حرب عوان والأيام كرات تتلقف وأحوال لا تتوقف فألوى بهم الدهر وأنحى
 وأغام جوهم بعقب ما أصحى فشملمهم الاعتقال وتعاورتهم النوب الثقال واستقرت بالمشرق ركابه
 وحطت به أقتابه فحج واعتمر واستوطن تلك المعاهد وعمر وعكف على كتاب الله تعالى فوجد
 الحروف وقرأ المعروف وقيد وأسند وتكرر الى دور الحديث وتردد وقدم على هذا الوطن قدوم النسيم
 البليل على كبد العليل ولما استقر به قراره واشتمل على جفنه غراره بادرت الى مؤانسته وثابرت
 على مجالسته فاجتليت للسر شخصا وطالعت ديوان الوفاء مستقصى
 وشعره ليس بحائد عن الإحسان ولا غفل عن النكت الحسان انتهى

وقال فى الإكليل فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن عمر بن على ابن ابراهيم المليكىشى ما - 53
 صورته كاتب الخلافة ومشعشع الأدب الذى يزرى بالسلافة كان بطل مجال ورب روية وارتجال قدم
 على هذه البلاد وقد نبا به وطنه وضاق ببعض الحوادث عطنه فتلوم تلوم النسيم بين الخمائل وحل
 منها محل الطيف من الوشاح الجائل ولبت مدة إقامته تحت جراية واسعة وميرة يانعه ثم أثر قطره
 فولى وجهه شطره واستقبله دهره بالإناية وقلده خطة الكتابة فاستقامت حاله وحطت رحاله وله
 شعر أنيق وتصوف وتحقيق ورحلة الى الحجاز سعيها فى الخير وثيق ونسبها فى الصالحات عريق

ومن شعره قوله

" رضى نلت ما ترضين من كل ما يهوى ... فلا توقفينى موقف الذل والشكوى "
" وصفحا عن الجانى المسىء لِنفسه ... كفاه الذى يلقاه من شدة البلوى "
" بما بيننا من خلوة معنوية ... أرق من النجوى وأحلى من السلوى "
" قفى أتشكى لوعة البين ساعة ... ولا يك هذا آخر العهد بالنجوى "
" قفى ساعة فى عرصة الدار وانظري ... إلى عاشق ما يستفيق من البلوى "
" وكم قد سألت الريح شوقا اليكم ... فما حن مسراها على ولا الوى "
" فيا ريح حتى أنت ممن يغار بى ... ويا نجد حتى أنت تهوى الذى أهوى "
" خلقت ولى قلب جليد على النوى ... ولكن على فقد الأحبة لا يقوى "
وحدث بعض من عنى بأخباره أيام مقامه بمالقه واستقراره أنه لقي بباب الملعب من أبوابها ظبية من طبيبات الإنس وقينة من قينات هذا الجنس فخطب وصالها واتقى بفؤاده نصالها حتى همت بالانقياد وانعطفت انعطاف الغصن

الميار فأبقى على نفسه وأمسك وأنف من خلع العذار بعدما تنسك وقال
" لم أنس وقفنا بباب الملعب ... بين الرجا واليأس من متجنب "
" وعدت فكنت مراقبا لحديثها ... يا ذل وقفه خائف مترقب "
" وتدلت فذلت بعد تعزز ... ياتى الغرام بكل أمر معجب "
" بدوية أبدى الجمال بوجهها ... ما شئت من خد شريق مذهب "
" تدنو وتبعد نفرة وتجنبا ... فتكاد تحسبها مهة الربرب "
" ورنت بلحظ فاتن لك فاتر ... انضى وأمضى من حسام المضرب "
" وأرتك بابل سحرها بجفونها ... فسبت وحق لمثلها ان تستبى "
" وتضاحكت فحكمت بنير ثغرها ... لمعان نور ضياء برق خلب "
" بمنظم فى عقد سمطى جوهر ... عن شبه نور الأقحوان الأشنب "
" وتمايلت كالغصن أخضله الندى ... ريان من ماء الشبية مخصب "
" تثنية أرواح الصباية والصبا ... فتراه بين مشرق ومغرب "
" أبت الروادف ان تميل بميله ... فرست وجال كأنه فى لولب "
" متتوجا بهلال وجه لاح فى ... خلل السحاب لحاجب ومحجب "
" يا من رأى فيها محبا مغرما ... لم ينقلب الا بقلب قلب "
" ما زال مذ ولى يحاول حيلة ... تدنيه من نيل المنى والمطلب "
" فأجال نار الفكر حتى أوقدت ... فى القلب نار تشوق وتلهب "
" فنلاقت الأرواح قبل جسومها ... وكذا البسيط يكون قبل مركب "
" أرى لك يا قلبى بقلبي محبة ... بعثت بها سرى اليك رسولا "
" فقابله بالبشرى وأقبل عشيه ... فقد هب مسكى النسيم عليلا "
" ولا تعتذر بالقطر أو بلل الندى ... فأحسن ما يأتى النسيم بليلا "
توفى عام أربعين وسبعمائة بتونس رحمه الله تعالى انتهى

وقال فى الإكليل فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن على بن عمر العبدري التونسي - 54

الشاطبى الأصل ما نصه غذى نعمة هامية وقريع رتبة سامية صرفت إلى سلفه الوجوه ولم يبق من إفريقية إلا من يخافه ويرجوه وبلغ هو مدة ذلك الشرف الغاية من الترف ثم قلب الدهر له ظهر المجن واشتد به الخمار عند فراغ الدن ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مبيرة وشدة كبيرة فامتزج بسكانه وقطانه ونال من اللذات به ما لم ينله فى أوطانه واكتسب الشمائل العذاب وكان كابن الجهم بعث إلى الرصافة ليرق فذاب ثم حوم على وطنه تحويم الطائر وألم بهذه البلاد المام الخيال الزائر فأغتنمت صفقة وده لحين وروده وخطبت موالاته على انقباضه وشروده فحصلت منه على درة تقتنى وحديقة طيبة الجنى أنشدنى فى أصحاب له بمصر قاموا بيرة
" لكل أناس مذهب وسجيه ... ومذهب أولاد النظام المكارم "
" إذا كنت فيهم ثاوبا كنت سيذا ... وان غبت عنهم لم تنلك المظالم "
" أولئك صحبي لا عدمت حياتهم ... ولا عدموا السعد الذى هو دائم "
أغنى بذكراهم وطيب حديثهم ... كما غردت فوق الغصون الحمامم " وقال "
" أحببنا بمصر لو رأيتهم ... بكائى عند أطراف النهار "
" أكنتم تشفقون لفرط وحدي ... وما القاه من بعد الديار "

وقال فى الإكليل فى ترجمة أبى القاسم محمد بن أبى زكريا يحيى ابن أبى طالب عبد الله - 55
بن محمد بن احمد العزفى السبتي ما صورته فرع تاود من الرياسة فى دوحة وتردد بين غدوة فى
المجد وروحة نشأ والرياسة العزفية

تعله وتنهله والدهر ييسر أمله الأقصى ويسهله حتى اتسقت أسباب سعده وانتهت اليه رياسة
سلفه من بعده فألقت اليه رجالها وحطت وتمتعته بقربها بعدما شطت ثم كلح له الدهر بعدما تبسم
وعاد زعرعا نسيمة الذى كان يتنسم وعاق هلاله عن تمه ما كان من تغلب ابن عمه واستقر بهذه
البلاد نازح الدار بحكم الأقدار وإن كان نبيه المكانة والمقدار وجرت عليه جراية واسعة ورعاية
متتابعة وله أدب كالروض باكرته الغمام والزهر تفتحت عنه الكمائم رفع منه رايه خافقه واقام له
سوقا نافقه وعلى تدفق أنهاره وكثرة نظمه واشتهاره فلم أظفر منه إلا باليسير التافه بعد انصرافه
انتهى

وقال فى الإكليل فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المكودي الفاسى ما نصه - 56
شاعر لا يتقاضى ميدانه ومرعى بيان رف غضاه واينع سعدانه يدعو الكلام فيهطع لداعيه ويسعى
فى احتلاب المعانى فتنجح مساعيه غير أنه أفرط فى الانهماك وهوى إلى السمكة من أوج
السماك قدم على هذه البلاد مغلثا من رهق تلمسان حين الحصار صفر اليمين واليسار من اليسار
فل هوى انحى على طريفه وتلاذه واخرجه من بلاده ولما جد به البين وحل هذه البلدة بحال
تفتحمها العين والسياف بهزته لا بحسن بزته دعوانه إلى مجلس أعاره البدر هالته وخلع عليه
الأصيل غلالته وروض تفتح كمامه وهمى عليه غمامه وكأس أنس تدور فتلقى نجومها البدور فلما
ذهبت المؤانسة بخجله وتذكر هواه ويوم نواه حتى خفنا حلول أجله جذينا للمؤانسة زمامه
واستسقيناه منه غمامه فأمتع واحسب ونظر ونسب وتكلم فى المسائل وحاضر بطرف الأبيات
وعيون الرسائل حتى نشر الصباح رايته وأطلع النهار آيته فمما نسبه إلى نفسه وأنشدناه قوله

" غرامى فيك جل عن القياس ... وقد سقيتني بكل كاس "

" ولا أنسى هواك ولو جفانى ... عليك أقارى طرا وناسى "

" ولا أدرى لنفسى من كمال ... سوى أنى لعهدك غير ناسى " وقال "

" بعثت بخمر فيه ماء وإنما ... بعثت بماء فيه رائحة الخمر "

" فقل عليه الشكر إذ قل سكرنا ... فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر "

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن - 57
يببش العبدرى الغرناطى ما صورته معلم مدرب مسهل مقرب له فى صنعة العربية باع مديد وفى
هدفها سهم سديد ومشاركة فى الأدب لا يفارقها تسديد خاصي المنازع مختصرها مرتب الأحوال
مقررها تميز أول وقته بالتجارة فى الكتب فسلطت منه عليها أرضه أكله وسهم أصاب من رميتها
الشاكلة أثرى بسببها وأترب واغنى جهة وأفقر اخرى وانتقل لهذا العهد الأخير إلى سكنى مسقط
رأسه ومنبت غرسه وجرت عليه جراية من احباسها ووقع عليه قبول من ناسها وبها تلاحق به
الحمام فكان من ترابها البداية واليها التمام وله شعر لم يقصر فيه عن المدى وأدب توشح بالإحادة
وارتدى أنشدنى بسببه تاسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعمائة يجيب عن بيتى ابن
العفيف التلمسانى

" يا ساكنا قلبى المعنى ... وليس فيه سواك ثانى "

" لأي معنى كسرت قلبى ... وما التقى فيه ساكنان " فقال "

" نحلتنى طائعا فؤادا ... فصار إذ حزته مكانى "

" لا غرو إذ كان لى مضافا ... أنى على الكسر فيه بانى "

وقال يخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلاما

" أناملك الغر التى سيب جودها ... يفيض كفيض المزن بالصيب القطر "

" أنتنى منها تحفة مثل حدها ... إذا انتضيت كانت كمرهفة السمر "

" هى الصفر لكن تعلم البيض أنها ... محكمة فيها على النفع والضر "

" مهذبة الاوصال ممشوقة كما ... تصوغ سهام الرمى من خالص التبر "

" فقبلتها عشرا ومثلت أننى ... ظفرت بلثم فى أناملك العشر " وقال فى ترتيب حروف الصحاح "

" أساجعة بالواديين تبونى ... ثمارا جنتها حاليات خواضب "

" دعى ذكر روض زاره سقى شربه ... صباح ضحى طير ظماء عواصب "

" غرام فؤادى قاذف كل ليلة ... متى ما نأى وهنا هواه يراقب "

مولده فى حدود ثمانين وستمائة وتوفى بغرناطة فى رجب عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة انتهى

قلت رأيت بخط الجلال السيوطى على هامش جوابه عن بيتي ابن العفيف التلمساني ما صورته قلت فى هذا البيت تصريح بان المضاف إلى الياء مبنى على الكسر وهو رأي مرجوح عند النحاة ذهب إليه الجرجاني والصحيح أنه معرب على أن ذلك لا يحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل قاله عبد الرحمن السيوطى انتهى ويعنى بذلك أن الساكنين أنما يكسر احدهما لا محلها وألله سبحانه اعلم

وقال لسان الدين فى الإكليل فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن هانىء اللخمي السبتي - 58 وأصله من إشبيلية ما صورته علم تشير اليه الألف ويعمل إلى لقائه الحافر والخف رفع للعربية ببلده راية لا تتأخر ومرج

منها لجة تزخر فانفسخ مجال درسه وأثمرت أنواع غرسه فركض ماشاء ومرح ودون وشرح إلى شمائل يملك الظرف زمامها ودعايه راشته الحلاوة سهامها ولما أخذ المسلمون فى منازل الجبل وحصاره وأصابوا الكفر منه بجارحه إبصاره ورموا بالثكل فيه نازح امصاره كان ممن انتدب وتطوع وسمع النداء فاهطع فلازمه إلى أن نفذ لأهله القوت وبلغ من فسحة الأجل الموقوت فأقام الصلاة بمحراه وحياه وقد غير محياه طول اغترابه وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام فى قرابه أو يعلق أصل الدين فى ترابه وانتدب إلى الحصار ربه وتدرع ودعاه أجله فلبى وأسرع ولما هدر عليه الفنيق وركع إلى قبله المنجنيق اصيب بحجر دوم عليه كالجارح المحلق وانقض إليه انقضاض البارق المتألق فاقتنصه واختطفه وعمد إلى زهرة فاقتطفه فمضى إلى الله تعالى طوع نيته وصحبته غرابة المنازع حتى فى أمنيته انتهى

وقد جود ترجمته فى الإحاطة وقال أنه ألف كتبا منها شرح تسهيل الفوائد لابن مالك مبدع تنافس الناس فيه وكتاب الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة وكتاب انشاد الضوال وإرشاد السؤل فى لحن العامة وهو مفيد وكتاب قوت المقيم ودون ترسيل أبى المطرف ابن عميرة وضمه فى سفرين وله جزء فى الفرائض وحدثنى شيخنا الشريف القاضى أبو القاسم قال خاطبت ابن هانىء بقصيدة من نظمى أولها

هات الحديث عن الركب الذى شخصا " فاجابنى بقصيدة على رويها أولها " " لولا مشيب بفودي للفواد عصى ... أنضيت فى مهمه التشبيب لى قلصا " " واستوقفت عبراتى وهى جارية ... وكفاء توهم ريعا للحبيب قضا " " مسائلا عن لياليه التى انتهزت ... أيدى الأمانى بها ما شئته فرضا " " وكنت جاريت فيه من جرى طلقا ... من الإجادة لم يجمع ولا نكصا " " أصاب شاكلة المرمى حين رمى ... من الشوارد ما لولاه ما اقتنصا " " ومن اعد مكان النبل نبل حجى ... لم يرض إلا بابكار النهى قنصا " " ثم اثنتى ثانيا عطف النسب إلى ... مدح به قد غلا ما كان قد رخصا " " فطلت أرفل فيها لبسه شرفت ... ذاتا ومنتسبا أعزز بها قمصا " " يقول فيها وقد خولت منحتها ... وجرع الكاشح المغرى بها غمصا " " هذى عقائل وافت منك ذا شرف ... لولا أياديه بيع الحمد مرتخصا " " فقلت هلا عكست القول منك له ... ولم يكن قابلا فى مدحه الرخصا " " وقلت ذى بكر فكر من أخى شرف ... يردى ويرضى بها الحساد والخلصا " " لها حلى حسنيات على حلل ... حسنية تستبى من حل أو شخصا " " خولتها وقد اعتزت ملابسها ... بالبخت ينقاد للإنسان ما عوصا " " خذها ابا قاسم منى نتيجة ذى ... ود إذا شئت ودا للورى خلصا " " جاءت تجاوب عما قد بعثت به ... أن كنت تأخذ من در النحور حصى " وهى طويلة ومما ينسب " إليه

" ما للنوى مدت لغير ضرورة ... ولقبل ما عهدى بها مقصورة " " أن الخليل وأن دعتة ضرورة ... لم يرض ذلك فكيف دون ضروره " وقال مضمنا للثانى " " لا تلمنى عاذلى حين ترى ... وجه من اهوى فلومى مستحيل " " لو رأى وجه حبيبي عاذلى ... لتفارقنا على وجه جميل " وأجاب الشريف المذكور عن قصيدة " مهموزة بقوله

" يا أوحد الأدياء أو يا اوحد ... الفضلاء أو يا أوحد الشرفاء " " من ذا تراه أحق منك إذا التوت ... طرق الحجاج بان يجيب ندائى " " أدب أرق من الهواء وإن تشا ... فمن الهوا والماء والصهبا " "

" وأذ من ظلم الحبيب وظلمه ... بالظاء مفتوحا وضم الظاء "

ما السحر إلا ما تصوغ بنانه ... ولسانه من حليه الإنشاء " وهى طويلة يقول فيها بعد جملة أبيات "

" لله نفثه سحر ما قد شددت لى ... من نفث سحرك فى مشاد ثناء "

" عارضت صفوانا بها فأريت ما ... يستعظم الراوى لها والرائى "

" لو راء لؤلؤك المنظم لم يفز ... من نظم لؤلؤه بغير عناء "

" بواتنى منها أجل مبوا ... فلأخمصى مستوطىء الجوزاء "

" وبسما بها اسمى سائرا فانا بما ... أسديت ذو الأسماء فى الأسماء "

" وأشدت ذكرى فى البلاد فلى بها ... طول الثناء وان أطلت ثوائى "

" ولقومى الفخر المشيد بنيته ... يا حسن تشييد وحسن بناء "

" فليهن هانيهم يد بيضاء ما ... أن مثلها لك من يد بيضاء "

" حليت أبياتا له لخمىة ... تجلى على مضربة غراء "

فليشمخوا أنفا بما أوليتهم ... يا محرز الآلاء بالإيلاء " ووصلها بنثر نصه هذا بنى وصل الله سبحانه "

لك ولى بك علو المقدار

وأجرى وفق إرادتك وإرادتى لك جاريات الأقدار ما سنح به الذهن الكليل واللسان الغليل فى
مراجعة قصيدتك الغراء الجالية السراء الآخذة بمجامع القلوب الموفية بجوامع المطلوب الحسنة
المهيغ والأسلوب المتحلية بالحلى السننية العريقة المنتسب فى العلا الحسنية الجالية لصدإ
القلوب ران عليها الكسل وخانها المسعدان السؤل والأمل فمتى حامت المعانى حولها ولو أقامت
حولها شكت ويلها وعولها وحرمت من فريضة الفضيلة عولها وعهدي بها والزمان زمان وأحكامها
الماضية أمانى مقضية وأمان تتوارد الأفها ويجمع إجماعها وخلافها ويساعدها من الألفاظ كل سهل
ممتنع مفترق مجتمع مستأنس غريب بعيد الغور قريب فاضح الحلى واضح العلا وضاح الغرة
والجبين رافع عمود الصبح المبين أيد من الفصاحة بأياذ فلم يحفل بصاحبى طيىء وإياد وكسى
نصاعة البلاغة فلم يعبا بهمام وابن المراغة شفاء المحزون وعلم سر المخزون ما بين منثور
والموزون والآن لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا منهج عكست القضايا فلم تنتج فتبلد القلب الذكى
ولم يرشح القلم الزكى وعم الإفحام وعم الإحجام وتمكن الإكداء والإحبال وكورت الشمس وسيرت
الجبال وعلت سامة وغلبت ندامة وارتفعت ملامة وقامت لنوعى الأدب قيامة حتى إذا ورد ذلك
المهرق وفرع غصنه المورق وتغنى به الحمام الأورق وأحاط بعداد عداته الغصص والشرق وأمن من
ذلك الغصب والسرق وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفرق نفخ فى صور أهل المنظوم والمنثور وبعثر ما
فى القبور وحصل ما فى الصدور وتراءت للأدب صور وعمرت للبلاغة كور وهمت للبراعة درر ونظمت
البراعة درر وعندها تبين أنك واحد حلية البيان والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان فكان لك القدم
وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم فوحق نصاعة الفاظ أجدتها حين أوردتها وأسلتها
حين أرسلتها وأزنتها حين وزنتها وبراعة معان سلكتها حين ملكتها وأرويتها حين رويتها أو رويتها
وأصلتها حين فصلتها أو وصلتها ونظام جعلته بجسد البيان قلبا ولمعصمه قلبا وهصرت حدائقه غلبا
وارتكبت روية صعبا ونثار أتبعته له خديما وصيرته لمدير كأسه نديما ولحفظه ذمامه المدامى أو
مدامه الذمامى مديما لقد فتننتني حين أتنتنى وسبتنتني حين اطبتنتني فذهبت خفتها بوقاري ولم
يرعها بعد شيب عذارى بل دعت للتصابى فقلت مرحبا وحللت لفتنتها الحبا ولم أحفل بشيب
وألغيت ما رد تصابى نصيب وأن كنا فرسى رهان وسابقى حلية ميدان غير أن الجلدة بيضاء والمرجو
الإغضاء بل الإرضاء بنى كيف رأيت للبيان هذا الطوع والخروج فيه من نوع إلى نوع ابن صفوان بن
إدريس ومحل دعواه بين رحله وتعريسي كم بين ثغاء بقر الفلاة وبين الليث ذى الفريس كما أنى
أعلم قطعا وأقطع علما وأحكم مضاء وأمضى حكما أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة وفريدتك الحالية
الفائقة المعارضة بها قصيدته المنتسخة بها فريدته لذهب عرضا وطولا ثم اعتقد لك اليد الطولى
وأقر فارتفع النزاع وذهبت له تلك العلاقات والأطماع ونسى كلمته اللؤلؤية ورجع عن دعواه الأدبية
واستغفر ربه من تلك الآلية بنى وهذا من ذلك الجرى فى تلك المسالك والتبسط فى تلك المآخذ
والمتارك أينزغ غيري هذا المنزغ أم المرء بنفسه وابنه مولع حيا الله الأدب وبنيه وأعاد علينا من
أيامه وسنيه ما أعلى منازعه وأكبى منازعه وأجل مأخذه وأجهل تاركة واعلم أخذه وأرق طباعه
وأحق أشياعه وأتباعه وأبعد طريقه واسعد فريقه وأقوم نهجه وأوثق نسجه وأسمح ألفاظه وأفصح
عكاظه وأصدق معانيه وألفاظه وأحمد نظامه ونثاره
وأغنى شعاره ووثاره فعائنه مطرود وعاتبه مصفود وجاهله محصود وعالمه محسود غير أن الإحسان
فيه قليل ولطريق الإصابة فيه علم ودليل من ظفر بهما وصل وعلى الغاية القصوى منه حصل ومن

نكب عن الطريق لم يعد من ذلك الفريق فليهنك أيها الابن الذكى البر الرزكي الحبيب الحفى الصفى
الوفى أنك حامل رايته وواصل غايته ليس أولوه وآخروه لذلك بمنكرين ولا تجد أكثرهم شاكرين ولولا
أن يطول الكتاب وينحرف الشعراء والكتاب لفاضت بنابيع هذا الفضل فيضا وخرجت الى نوع آخر من
البلاغة أيضا قرت عيون أودائك وملئت غيظا صدور أعدائك ورقيت درج الآمال ووقيت عين الكمال
وحفظ منصبك العالى بفضل ربك الكبير المتعالى والسلام الأتم الأتم الأكمّل الأعم يخصك به من
طال فى مدحه إرفالك وإغذاذك وراد روض حمدك وإبلك وطلّك ورذاذك وغدت مصالح سعيه فى
سعى مصالحك وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنته معاذك ووسمت نفسك بتلميذه فسمت
نفسه بأنه أستاذك ابن هانىء ورحمه الله تعالى وبركاته
وكانت وفاته شهادة فى أواخر ذى القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمئة ورتاه شيخنا أبو القاسم
الحسنى بقصيدة أثبتت فى اسمه منها
سقى الله بالخضراء أشلاء سؤدد ... تضمنهن الترب صوب الغمام " ورتاه شيخنا أبو بكر ابن
شبرين فقال

" قد كان ما قال البريد ... فاصبر فحزنك لا يفيد "
" أودى ابن هانىء الرضى ... فاعتادنى للتكل عيد "
" بحر العلوم وصدرها ... وعميدها إذ لا عميد "
" قد كان زينا للوجود ... ففيه قد فجع الوجود "
" العلم والتحقيق والتوفيق ... والحسب التليد "
" تندى خلائقه فقل ... فيها هى الروض المجود "
" مغض عن الإخوان لا ... جهم اللقاء ولا كنود "
" أودى شهيدا باذلا ... مجهوده نعم الشهيد "
" لم أنسه حين المعارف ... باسمه فينا تشيد "
" وله صوب فى طلاب ... العلم يتلوه صعود "
" لله وقت كان ... ينظمنا كما نظم الفريد "
" أيام نغدو أو نروح ... وسعينا السعى الحميد "
" وإذا المشيخة جثم ... هضبات حلم لا تميد "
" ومرادنا جم النبات ... وعيشنا خضر برود "
" لهفى على الإخوان ... والأتراب كلهم فقيد "
" لو جئت أوطانى ... لأنكرنى التهائم والنجود "
" ولراع نفسى شيب من ... غادرته وهو الوليد "
" ولطفت ما بين اللحود ... وقد تكاثرت اللحود "
" سرعان ما عاث الحمام ... ونحن أيقاظ هجود "
" كم رمت إعمال المسير ... فقيدت عزمى قيود "
" والآن أخلفت الوعود ... وأخلفت تلك البرود "
" ما للفتى ما يبتغى ... فالله يفعل ما يريد "
" أعلى القديم الملك يا ... وبلاه يعترض العبيد "
" يا بين قد طال المدى ... أبرق وأرعد يا يزيد "
" ولكل شىء غاية ... ولربما لان الحديد "
" إبه أبا عبد الإله ... ودوننا مرمى بعيد "
" أين الرسائل منك ... تاتينا كما نسق العقود "
" أين الرسوم الصالحات ... تصرمت اين العهود "
" أنعم مساء لا تخطيك ... البشائر والسعود "
" وأقدم على دار الرضى ... حيث الإقامة والخلود "
" والى الأحبة حيث دار ... الملك والقصر المشيد "
" حتى الشهادة لم تفتك ... فنجمك النجم السعيد "
" لا تبعدن وعدا لو أن ... البدء فى الدنيا يعود "
" فليئن بليت فان ذكرك ... فى الدنا غض جديد "
" تالله لا تنساك ... أندية العلا ما اخضر عود "
" وإذا تسومح فى الحقوق ... فحقك الحق الأكيد "

" جادت صدك غمامة ... يرمى بها ذاك الصعيد "

" وتعهدتك من المهيمن ... رحمة ابدأ وجود "

وقوله أول هذه الرسالة عارضت صفوان بها إلى آخره يعنى بذلك همزية صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب ولنذكرها إفادة للغرض وهى

" جاد الربى من بانه الجرعاء ... نوءان من دمعى وغيم سماء "

" فالدمع يقضى عندها حق الهوى ... والغيم حق البانة الغناء "

" خلت الصدور من القلوب كما خلت ... تلك المقاصر من مها وطلباء "

" ولقد أقول لصاحبى وإنما ... ذخر الصديق لأكد الأشياء "

" يا صاحبى ولا أقل إذا أنا ... ناديت من أن تصغيا لندائى "

" عوجا نجارى الغيث فى سقى الحمى ... حتى يرى كيف انسكاب الماء "

" ونسن فى سقى المنازل سنة ... نمضى بها حكما على الطرفاء "

" يا منزلا نشطت إليه عبرتى ... حتى تبسم زهرة لبكائى "

" ما كنت قبل مزار ربك عالما ... أن المدامع أصدق الأنوار "

" يا ليت شعرى والزمان تنقل ... والدهر ناسخ شدة برحاء "

" هل نلتقى فى روضة موشية ... خفاقة الأغصان والأفياء "

" وننال فيها من تألفنا ولو ... ما فيه سخنة أعين الرقباء "

" فى حيث اتلعت الغصون سوالفا ... قد قلدت بلائىء الأنداء "

" وبتت ثغور الياسمين فقبلت ... عنى عذار الآسة الميساء "

" والورد فى شط الخليج كأنه ... رمد ألم بمقلة زرقاء "

" وكان غض الزهر فى خضر الربى ... زهر النجوم تلوح بالخضراء "

" وكأنما جاء النسيم مبشرا ... للروض يخبره بطول بقاء "

" فكساه خلعة طيبة ورمى له ... بدراهم الأزهار رمى سخاء "

" وكأنما احتقر الصنيع فبادرت ... للعدر عنه نغمة الوراق "

" والغصن يرقص فى حلى أوراقه ... كالخود فى موشيه خضراء "

" وافتتر ثغر الأفحوان بما رأى "

" طربا وقفه منه جرى الماء "

" أقدية من أنس تصرم فانقضى ... فكأنه قد كان فى الإغفاء "

" لم يبق منه غير ذكرى أو منى ... وكلاهما سبب لطول عناء "

" أو رقعة من صاحب هى تحفة ... إن الرقاع لتحفة النبهاء "

" كبطافة الوشقى إذ حيا بها ... ان الكتاب تحية الخلطاء "

" ما كنت أدرى قبل فض ختامها ... أن البطائق أكؤس الصهباء "

" حتى ثنيت معاطفى طربا بها ... وجررت أذيالى من الخيلاء "

" فجعلت ذاك الطرس كأس مدامة ... وجعلت مهدية من الندماء "

" وعجبت من خل يعاطى خله ... كأسا وراء البحر والبيداء "

" ورأيت رونق خطها فى حسنها ... كالوشى نمق معصم الحسناء "

" فوحقها من تسع آيات لقد ... جاءت بتأييدي على أعدائى "

" فكاننى موسى بها وكانها ... تفسير ما فى سورة الإسراء "

" لو جاء فكر ابن الحسين بمثلها ... صحت نبوته لدى الشعراء "

" سوداء إذ أبصرتها لكنها ... كم تحتها لك من يد بيضاء "

" ولقد رأيت وقد تأوبنى الكرى ... فى حيث شابت لمة الظلماء "

" أن السماء أتى إلي رسولها ... بهدية ضاءت بها أرجائى "

" بالفرقدين وبالثرى أدرجا ... فى الطى من كافورة بيضاء "

" فكفى بذاك الطرس من كافورة ... وينظم شعرك من نجوم سماء "

" قسما بها وينظمها وينثرها ... لقد انتحتنى ملء عين رجائى "

" وعلمت أنك أنت فى ابداعها ... لفظا وخطا معجز النبلاء "

" لا ما تعاطت بابل من سحرها ... لا ما ادعاه الوشى من صنعاء "

" ولقد رميت لها القيادة وانها ... لقضية أعيت على البلغاء "

" وطلبت من فكرى الجواب فعقتى ... وكبا بكف الذهن زند ذكائى "

" فلذا تركت عروضها وروبها ... وهجرت فيها سنة الأدباء "
" ويعتتها ألفية همزية ... خدعا لفكر جامع إيبائى "
علمت بقدرك فى المعارف فانبرت ... من خجلة تمشى على استحياء " انتهت القصيدة ومن خط " ناظمها صفوان نقلتها

رجع

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى فى ترجمة أبى محمد عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله - 59 الأزدى فى التاج ما صورته طويل القوادم والخوافى كلف على كبر سنة بعقائل القوافى شاب فى الأدب وشب ونشوق ربح البيان لما هب فحاول رقيقة وجزله وأجاد جده وأحكم هزله فان مدح صدح وأن وصف أنصف وأن عصف قصف وأن أنشأ ودون وتقلب فى أفانين البلاغة وتلون أفسد ما شاء الله وكون فهو شيخ الطريقة الأدبية وفتاها وخطيب حفلها كلما أتاها لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ولا يضيع لديه منها مفترض ولم تزل بروقه تتألق ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلق حتى برز فى أبطال الكلام وفرسانه وذعرت القلوب بسطوة لسانه وألقت إليه الصناعة زمامها ووفقت عليه أحكامها وعبر البحر منتجعا بشعره ومنفقا فى سوق الكساد من شعره فأبرق وأرعد وحذر وأوعد وبلغ جهد إمكانه فى التعريف بمكانه فما حرك ولا هز وذل فى طلب الرغد وقد عز وما برح أن رجع الى وطنه الذى اعتاده رجوع الحديث إلى قتاده وقد أثبت من نزاعه وبعض مخترعاته ما يدل على سعة باعه ونهضة ذراعه فمن النسب قول

" ما للمحب دواء يذهب الألم ... عنه سوى لمم فيه ارتشاف لمدى "
" ولا يرد عليه نوم مقلته ... إلا الدنو إلى من شفه سقما "
" يا حاكما والهوى فينا يؤيده ... هواك فى بما ترضاه قد حكما "

ثم سردها وقال فى المديح

" إليك جد بى التسيار تأميلا ... فلى على فضلك المأمول تعويلا "
" الحمد لله حمدا لا كفاء له ... بسعد أيامك المأمول قد نيلا "
" يا راغبا مرتجاه دفع معضلة ... فصبره بصروف الدهر قد عيلا "
" ألمم بحضرة ملك كل مفتخر ... بالملك يوليه بالتعظيم ترسيلا "
" فرع من الدوحة النصرية اجتمعت ... فيه الفضائل تميميا وتكميلا "
" لديه مما لدى الصديق تسمية ... وميسم وكفاه ذاك تفضيلا "

60 - وقال لسان الدين فى الإكليل فى ترجمة أبى الحسن على بن إبراهيم ابن على بن خطاب السكاك من أهل غرناطة ما صورته متسور على بيوت القريض فى الطويل من الكلام والعريض ممن أطاعته براعة الخط وسلمت لأقلامه رماح الخط عانى كتابة الشروط لأول أمره ثم ألظت به محنته على توفر خصاله ونبيل خلالته وهو الآن من كتاب ديوان الحساب يتعلل من الأمور المخزنية ببعض الألقاب انتهى

وقال فى التاج فى ترجمة أبى الحسن على بن محمد بن عبد الحق ابن الصباغ العقيلي - 61 الغرناطى ما صورته اللسن العارف الناقد لجواهر المعانى كما يفعل بالسكة الصيارف والأديب المجيد الذى تحلى به للعصر النحر والجيد أن أحال جياذ براعته فضح فرسان المهارق وأجمل بين بياض طرسه وسواد نفسه الطرر تحت المفارق وأن جلا أباكار أفكاره وأثار طير البيان من أوكاره سلب الرحيق المقدم فضل إسكاره إلى نفس لا يفارقها طرف وهمه لا يرتد إليها طرف وإبانة لا يفيل لها غرب ولا حرف وله أدب غض زهرة على مجتنيه منفض كتبت إليه أستنجز وعده فى الإتحاف برائقه والإمتاع بزهر حدائقه قولى

" عندي لموعدك افتقار محرج ... وعهودك افتقرت إلى إنجازها "
" والله يعلم فيك صدق مودتى ... وحقيقة الأشياء غير مجازها "
فاجابنى بقوله

" يا مهدى الدر الثمين منظما ... كلما لجال السحر فى ايجازها "
" أدركت حليات الأوائل وانيا ... ورددت أولاهها على أعجازها "
" أحزرت فى المضممار خصل سباقها ... ولأنت أسبقهم الى إجرارها "
" حليت بالسمطين منى عاطلا ... وبعثت من فكرى فتاه مغازها "
" فلأنجزن مواعدي مستعظفا ... فاسمح وبالإغضاء منك فجازها "

وقال فى الإحاطة فى حق المذكور إنه من أهل الفضل والسراوة والرجولة والجزالة فذ فى الكفاية ظاهر السذاجة والسلامة مصعب لأضداده شديد العصبية لأولى وداده يشتمل على خلال من خط

بارع وكتابة حسنة وشعر جيد ومشاركة فى فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة ممتعة ناب عن بعض القضاة وكتب الشروط وارتسم فى ديوان الجند وكتب عن شيخ الغزاة أبى زكريا يحيى بن عمر على عهده ثم انصرف إلى العدو سايق عشر جمادى الأولى من عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة فارتسم فى الكتابة السلطانية منوها به مستعملا فى خدم مجدبة بان غناؤه فيها وظفرت كفايته انتهى وقد وصفه بصاحبنا ثم قال ومن شعر المذكور قوله " ليت شعري والهوى امل ... وأمانى الصب لا تقف "

" هل لذك الوصل مرتجع ... أو لهذا الهجر منصوف "

وقال " وظبى سبى بالطرف والعطف والجيد ... وما حاز من غنح ولين ومن غيد " أشرت اليه بالدنو مداعبا ... فقال أيدنو الظبى من غابة الأسد " وقال فى مبدأ قصيدة مطولة " حديث المغانى بعدهن شجون ... وأوجه أيام التباعد جون " لجا الله أيام الفراق فكم شجت ... وغادرت الجدلان وهو حزين " وحيا ديارا فى ربي أغرناطة ... وأنى بذاك القرب منك ضنين " لأرخصت فيها من شبابى ما غلا ... وعزمتى على مال العفاف أمين " خليلي لا امر باربعها قفا ... فعندى إلى تلك الربوع حنين " الم تربانى كلما ذر شارق ... تصاعف عندى عبرة وأنين " إذا لم يساعدنى أح منكما فلا ... حدث لخؤون بعد ذاك أمون " اليس عجيبا فى البرية من له ... إلى عهد إخوان الزمان ركون " فلا تتقن من ذى وفاء بعهد ... فقد اجن السلسال وهو معين " لقلبي عذر فى فراق ضلوعه ... وللدمع فى ترك الشؤون شؤون " ومن ترك الحزم المعين فانه ... لعان بأيدى الحادثات رهين " رعى الله إيامى الوثيق ذمامها ... فإن مكاني فى الوفاء مكين " ولم أر مثل الدهر أما عدوه ... فحب وأما خله فخؤون " ولولا أبو عمرو وجود بنانه ... لما كان فى هذا الزمان معين " وقال " زار الخيال ويا لها من لذة ... لكن لذات الخيال منام " ما زلت أئنم مبسما منظومه ... در ومورده الشهى مدام " وأضم غصن البان من أعطافه ... وأشم مسكا فض عنه ختام "

مولده عام ستة وسبعمائة وتوفى بفاس وقد تخلفه السلطان كاتب ولده عند توجهه لإفريقية فى العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة رحمه الله تعالى وقد وهم لسان الدين فى شهر وفاة المذكور وإنما الصواب أنه توفى يوم الأحد ثامن شوال فاعلم ذلك والله سبحانه أعلم رجع

وقال فى التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى وفى الإكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم - 62 التاج من الجواهر وغيرهما مما ثبت فى حلى رؤساء الكتاب وحاملى ألوية الآداب فى ترجمة شيخه ابن الجياب ما نصه صدر الصدور الجلة وعلم أعلام هذه الملة وشيخ الكتابة وبانيها وهاصر أفنان البدائع وجانيها اعتمدهت الرياسة فناء بها على حبل ذراعه واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شباة يراعه فتفياً للعناية طلا ظليلا وتعاقبت الدول فلم تر به بديلا من ندب على علوه متواضع وحبر لثدى المعارف راضع لا تمر مذاكرة فى فن إلا وله فيه التبريز ولا تعرض جواهر الكلام على محكات الأفهام إلا وكلامه الإبريز حتى أصبح الدهر راويا لإحسانه وناطقا بلسانه وغرب ذكره وشرق وأشام واعرق وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق إلى نفس هذبت الآداب شمائلها وحادت الرياضة خمائلها ومراقبة لربه واستنشاق لروح الله من مهبه ودين لا يعجم عوده ولا تخلف وعوده وكل ما ظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين أو إشارة كما سيك اللجين فهى اليه منسوبة وفى حسناته محسوبة وإنما هى انفس راضها بأدابه وأعلقها بأهدابه وهذب طباعها كالشمسي تلقى على النجوم شعاعها والصور الجميلة تترك فى الأجسام الصقيلة انطباعها وما عسى أن أقول

فى إمام الأئمة ونورالدياجى المدلهمة والمثل السائر فى بعد الصيت وعلو الهمة وقد أثبت من عيون قصائده وأدبه الذى علق الإحسان فى مصادبه كل وثيق المعنى كريم المجنى جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى انتهى

والمذكور له ترجمة فى هذا الكتاب فى باب مشيخة لسان الدين فلتراجع

وقال فى الإكليل فى حق عمر بن على بن غفرون الكلبى من أهل منتفريد ما صورته شيخ - 63
خدم قام له الدهر فيها على قدم وصاحب تعريض ودهاء عريض وفائز من الدول النصرىة باياد بيض
أصله من حصن منتفريد خدم به الدولة النصرىة عند انتزاع أهله وكان ممن استنزلهم من حزنه إلى
سهله وحكم الأمر الغالبى فى يافعه وكهله فكسب حظوة أرضته ووسيلة أرهفته وأمضته حتى
عظم جاهة وماله وبسقت آماله ثم دالت الدول وتكررت أيامه الأول وتغلب من يجانسة وشقى بمن
كان ينافس فجعف عوده والتأنت سعوده وهلك والخمول يظله والدهر يقوته من صباه حرث كان
يستغله وله شعر لم يتقنه النظر ولا وضحت منه الغرر توفى فى ذى الحجة عام أربعة وأربعين
وسبعمائة انتهى

وقال فى الإكليل فى حق قاسم بن محمد بن الجد الفهرى المرى ما صورته هو من أئمة اهل - 64
الزمام خليق برعى الذمام ذو حظ كما تفتح زهر الكمام وأخلاق اعذب من ماء الغمام كان ببلده
حاسبا ودرا فى لجة الإغفال راسبا صحيح العمل يلبس الطروس من براعته أسنى الحلل قال يمدح
السلطان

" أرى اوجه الأيام قد اشرفت بشرا ... فقل لى رعاك الله ما هذه البشرى "
" وما بال انفاس الخزامى تعطرت ... فأرجت الأرجاء من نفحها عطرا "
" ونقبت الشمس المنيرة وجهها ... قصورا عن الوجه الذى أجعل البدرا "
وهى طويلة توفى المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون

وقال فى الإكليل فى حق أبى عثمان سعيد الغسانى ما صورته هو ممن يتشوق إلى - 65
المعرفة والمقالات ويتسقى الى الحقائق والمحالات ويشتمل على نفس رقيقة ويسير من تعليم
القرآن على خير طريقة ويعانى من الشعر ما يشهد بنبله ويستظرف من مثله انتهى
وقال فى الإكليل فى ترجمة أبى الحجاج يوسف بن على الطرطوشى ما صورته روض ادب لا - 66
تعرف الذواء أزهاره ومجموع فضل لا تخفى آثاره كان فى فنون الأدب مطلق الأعتة وفى معاركه
ماضى الطبى والأسنة فإن هزل وإلى تلك الطريقة اعتزل أبرم من الغزل ما غزل وبزل من دنان راحة
ما بزل وأن صرف إلى المغرب غرب لسانه وأعاره لمحمة من إحسانه أطاعه عاصية واستجمعت لدية
اقاصية ورد على الحضرة الأندلسية والدنيا شابة وريح القبول هابة فاجتلى محاسن أوطانها وكتب
عن سلطانها ثم كر إلى أوطانه وعطف واسرع للحاق كالبارق إذا خطف وتوفى عن سن عالية
وبرود من العمر عالية

وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن أحمد بن المتأهل العذري من أهل وادي آش ما - 67
صورته رجل غليظ الحاشية معدود فى جنس السائمة والماشية تليت على العمال به سورة
الغاشية ولى الأشغال السلطانية فذعرت الحياة لولايته وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته وقنطوا كل
القنوط وقالوا جاءت الدابة تكلمنا وهى إحدى الشروط من رجل صائم الحشوة بعيد عن المصانعة
والرشوة يتجنب الناس ويقول عند المخالطة لهم لا مساس عهدي
به فى الأعمال يحبط ويتبر وهو يهزل ويكبر ويحسن ويقبح وهو يسبح وقال يخاطب بعض أمراء
الدولة

" عمادي ملاذى مؤئلى ومؤملى ... ألا انعم بما ترضاه للمتأهل "
" وحقق بنيل القصد منك رجاءه ... على نحو ما يرضيك يا ذا التفضل "
" فانت الذى فى العلم يعرف قدره ... بخير زمان فيه لا زلت تعتنى "
" فهنيت يا معنى الكمال برتبة ... تقر لكم بالسبق فى كل محفل "
توفى عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة

انتهى وتذكرت بقوله ويحسن ويقبح وهو يسبح قول الآخر
" قد بلينا بأمير ... ظلم الناس وسبح "

فهو كالجزار فيهم ... يذكر الله ويذبح " رجع 68 - وقال لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله ابن
باق من التاج ما صورته مدير أكؤس البيان المعتق ولعوب بأطراف الكلام المشقق انتحل لأول أمره
الهزل من أصنافه فأبرز در معانية من أصدافه وجنى ثمرة الإبداع لحين قطافه ثم تجاوزه إلى المغرب
وتخطاه فآدار كاسه المترع وعاطاه فأصبح لفنيه جامعا وفى فلكيه شهابا لامعا وله ذكاء يطير شرره
وإدراك تتبلج غرره وذهن يكشف الغوامض ويسبق البارق الوامض وعلى ذلاقة لسانه وانفساح امد
إحسانه فشديد الصباية بشعره مغل لسعره انتهى والمذكور هو محمد بن إبراهيم بن على باق
الأموي مرسى الأصل غرناطى النشأة مالقى الاستيطان
وقال فى عائد الصلة كان رحمه الله تعالى كاتباً ذكياً لودعياً يجيد

الخط ويرسل النادرة ويقدم على العمل وبشارك فى الفريضة ويذ السياق فى الأدب الهزلى المستعمل بالأندلس غير زمانا من عمره محارفا للفاقة يعالج بالأدب الكدية ثم استقام له الميسم وأمكنه البخت من امتطاء غاربه فأنشبت الحظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد وحاسب ومدير تجر فأثرى ونما ماله وعظمت حاله عهد عندها شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين لتصرف فى وجوه من البر فتوهم انها كانت زكاة أمسك بها انتهى وقال أيضا أخبرنى الكاتب ابو عبد الله ابن سلمة انه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله فى رؤية

" أحرز الخصل من بنى سلمة ... كاتب تخدم الطبى قلمة "

" يحمل الطرس من أنامله ... أثر الحسن كلما رقمه "

" وتمد البيان فكرته ... مرسلها حيث يمت ديمه "

" خصنى متحفا يخمس إذا ... بسم الروض فغن مبتسمه "

" قلت أهدى زهر الربى خضلا ... فإذا كل زهرة كلمه "

" أقسم الحسن لا يفارقها ... فأبر انتقاؤها قسمه "

" خط أسطارها ونمقها ... فأنت كالعقود منتظمة "

" كاسيا من حلاه لى حللا ... رسمها من بديع ما رسمه "

" طالبا عند عاطش نهلا ... ولديه الغيوث منسجمه "

" يبتغى الشعر من أذى بله ... أخرس العى والقصور فمه "

" أيها الفاضل الذى حفظت ... ألسن المدح والثنا شيمه "

" لا تكلف اخاك مقترحا ... نشر عار لديه قد كتبه "

" وأبق فى عزة وفي دعة ... ضافى العيش واردا شيمه "

ما ثنى الغصن عطفه طربا ... وشدا الطير فوقه نغمه " ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط "

ابى الحسن على بن لسان الدين ما صورته

نعم ما خاطب به شيخنا وبركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد الله ابن سلمة ومن لفظه سمعتها بالقاهرة وأنها لمن النظم العالى المتسق نسق الدر فى العقود رحمه الله تعالى قاله ابن المؤلف انتهى

وقرأ ابن باق المذكور على الأستاذ أبى جعفر ابن الزبير والخطيب أبى عثمان ابن عيسى وتوفى بمالقة فى اليوم الثامن والعشرين لمجرم فاتح عام اثنين وخمسين وسبعمئة وأوصى بعد أن يحفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبى عبد الله الطنجالى وأبى عثمان ابن عيسى إن يدفن به وإن يكتب على قبره هذه الأبيات

" ترحم على قبر ابن باق وحيه ... فمن حق ميت الحي تسليم حيه "

" وقل أمن الرحمن روعه خائف ... لتفريطه فى الواجبات وغيه "

" قد اختار هذا القبر فى الأرض راجيا ... من الله تخفيفا بقدر وليه "

" فقد يشفع الجار الكريم لجاره ... ويشمل بالمعروف أهل نديه "

وأنى بفضل الله اوثق واثق ... وحسبى وأن أدنبت حب نبيه " انتهى "

وقال لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن سالم ابن فضيلة المعافري - 69

المرى المدعو بالننو من الإكليل ما نصه شيخ أخلاقه لينة ونفسه كما قيل هينة ينظم الشعر سهلا مساقه محكما اتساقه على فاقة ما لها من إفاقة انشد المقام السلطانى بظاهر بلده قوله

" سرت ربح نجد من ربي أرض بابل ... فهاجت إلى مسرى سراها بلابلى "

" وذكرنى عرف النسيم الذى سرى ... معاهد احباب سراه افاضل "

" فأصبحت مشغوبا بذكر منازل ... ألفت فواشوقى لتلك المنازل "

" فيا ربح هبى بالبطاح وبالربى ... ومرى على أعصان زهر الخمائل "

" وسيرى بجسمى للتى الروح عندها ... فروحى لديها من أجل الوسائل "

" وقولى لها عنى معنك بالنوى ... له شوق معمود وعبرة تاكل "

" فيا بابى هيفاء كالغصن تنثنى ... تقد بقد كاد ينقد مائل "

وهى طوبلة

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة

" بهرت كشمس فى غلاله عسجد ... وكبدر تم فى قضيب زبرجد "

" ثم اثنت كالغصن هزته الصبا ... طربا فتزرى بالغصون الميد "

" حوراء بارعة الجمال غريرة ... تزهى فتزرى بالقضيب الأملد "

" أن أدبرت لم تبق عقل مدير ... أو أقبلت قتلت ولكن لا تدي " قال القاضي أبو البركات ابن الحاج وابتلى المذكور باختصار كتب الناس فمن ذلك مختصره المسمى الدرر الموسومة فى اشتقاق الحروف المرسومة وكتاب حكايات يسمى دوحه الجنان وراحة الجنان وغير ذلك

وقال أبو البركات وسألته عن مولده فقال لى اليوم ستون سنة وقال ذلك ليلة الخميس السابع والعشرين لذى قعده عام اربعين وسبعمائة وتوفى آخر رمضان من عام تسعة واربعين رحمه الله تعالى انتهى رجع

قال لسان الدين فى الإكليل فى ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبى العباس احمد بن على - 70 المليانى المراكشى ما نصه الصارم الفاتك والكاتب الباتك اي اضطراب فى وقار وتجهم تحته انس العقار اتخذه ملك المغرب صاحب علامته وتوجه تاج كرامته وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثار عمه ويطوقهم دمه بزعمه ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه إذ سعوا فيه حتى اعتقل ثم جدوا فى امره حتى قتل فترصد كتابا إلى مراكش

يتضمن امرا جزما ويشمل من أمور الملك عزا جعل فيه الأمر بضرب رقابهم وسبى اسبابهم ولما اكد على حامل فى العجل وضايقه فى تقدير الأجل تانى حتى علم أنه قد وصل وان غرضه قد حصل فر إلى تلمسان وهى بحال حصارها فاتصل بانصارها حالا بين أنوفها وأبصارها وتعجب من فراره وسوء اغتراره ورجمت الطنون فى آثاره ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة فتركها شنيعة على الأيام وعارا فى الأقاليم على حملة الأقالام وأقام بتلمسان إلى أن حل مخنق حصرها وازيل هميان الضيقة عن خصرها فلحق بالأندلس ولم يعدم برا ورعيا مستمرا حتى أتاه حمامه وانصرفت أيامه انتهى

والمذكور ترجمه فى الإحاطة بقوله صاحب العلامة بالمغرب الكاتب الشهير البعيد الشأو فى اقتضاء الترة المثل المضروب فى الهمة وقوة الصريمة ونفاد العزيمة

حالة - كان نبيه البيت شهير الأصالة رفيع المكانة على سجية غريبة من الوقار والانقباض والصمت أخذًا يحظ من الطب حسن الخط مليح الكتابة قارضا للشعر تذهب نفسه فى كل مذهب وصمته فتك فتكه شهيرة أساءت الظن بحملة الأقالام على ممر الدهر وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة

شعره من شعره الذى يدل على بأوه وانفساح خطاه فى النفاسة وبعد شأوه قوله

" العز ما ضربت عليه قبابى ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابى "

" والزهر ما أهدها غصن براعتى ... والمسك ما أبداه نقس كتابى "

" فالمجد يمنع أن يراحم موردى ... والعزم يابى أن يضام جنابى "

" فإذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكرى أو جزيل ثوابى "

" وإذا عقدت مودة أجريتها ... مجرى طعامى من دمي وشرابى "

" وإذا طلبت من الفراقد والسها ... ثارا فاوشك أن أنال طلايبى "

وفاته توفى بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ودفن بجبانه باب البيرة تجاوز الله تعالى عنه انتهى

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه الله تعالى

فمن ذلك قوله فى الروضة فى ترجمة ضخام الغصون من شجرة السر المصون ما صورته وهى - 71 التى أفاءت الظل الظليل وزانت المرأى الجميل وتكفلت لمحاسن الشجرة الشماء بالتكفيل وتتعدد إلى غصون المحبوبات وأقسام موضوعاتها المكتنوبات وغصن المحبين أصنافهم المرتبين وغصن علامات المحبة وشواهد النفوس الصبة وغصن الأخبار المنقولة عن ذوى النفوس المصقولة وعند تعيين هذه الأغصان المقسومة كمل شكل الشجرة المرسومة والسرحة الموصوفة الموسومة ففاءت الظلال وكرمت الخلال فحيي من تفرد وتوجد واستنظل من استهدى واسترشد ووقف الهائم فخطب وأنشد

" يا سرحة الحى يا مطول ... شرح الذى بيننا بطول "

" عندى مقال فهل مقام ... تصغين فيه لما أقول "

" ولى ديون عليك حلت ... لو أنه ينفع الحلول "

" ماض من العيش كان فيه ... منزلنا ظلك الظليل "

" زال وماذا عليه ماذا ... يا سرح لو لم يكن يزول "

" حيا عن المذنب المعنى ... منبتك القطر والقبول "

وقال رحمه الله تعالى فصول فى المعرفة تغازل بها عيون الإشارة إذا قصرت عن تمام المعنى السن
العبارة والله در القائل
" وإذا العقول تقاصرت عن مدرك ... لم تتكل الا على أذواقها "
المعرفة اختراق المراتب الحسية والنفوس الجنسية والعقول القدسية والبروز إلى فضاء الأزل إذا
فنى من لم يكن وبقي من لم يزل مع عمران المراتب ورؤية الجائز فى الواجب
" ومن عجب أنى احن اليهم ... وأسأل شوقا عنهم وهم معى "
" وتبكيهم عيني وهم فى سوادها ... ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعي "
المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق وأقول وشروق وسل عروق ورد مسروق حتى يذهب الكيف
والأين ويتعين العين فيجمع العدد ويجمع وينحى السوى ومع ذلك لا يهمل
" للعدا منك نصيب ... ولك السهم المصيب "
" أما يومك يومان ... خصب وعصيب "
المعرفة مقام سامى المنعرج عاطر الأرج ينقل من السعة إلى الحرج ومن الشدة إلى الفرج
" طريقك لا تخفى به إن تتبعت ... خطاك ولا يخفى مبيتك فيه "
" متاعك منشور على كل خيمة ... ورؤياك أمن من ترفع تيه "
المعرفة عين أن لم تبصر أجزاءها أحسن الله عزاءها وحقيقة أن لم يجعل الفراق إزاءها كانت الغيرة
جزءها فهى دائرة مركزها يجمع ومحيطها فى التفريق يطمع يستغل الملك أجمع ويرى من يرى
ويسمع من يسمع
" بعد المحيط من المحدد واحد ... والكل فى حق الوجود سواء "
" والحق يعرف ذاته من ذاته ... صح الهوى فتلاشت الأهواء "
المعرفة صعود ونزول ووقوف ووصول فلا الوصول عن البداية يقطع ولا البداية عن النهاية تمنع
" من له الأمر اجمع ... كل ما شاء يصنع "
حصل القصد واستقر ... فلم يبق مطمع " العارف فى البداية يشكر الراكع والساجد ثم يعذر "
الواجد المتواجد ثم يرجم المنكر الجاحد فإذا انتهى ورد العدد إلى الواحد قال لسان حاله
" من رأى لى نشيدة ... أو على عينها أثر "
" فله الحكم قل له ... ذهب العين والأثر " إلى أن قال قال الرئيس العارق هش بش بسام فيجل "
الصغير من تواضعه مثلما يجل الكبير ويبسط من الخامل مثلما يبسط من النبيه ثم علل فقال وكيف
لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شىء فإنه يرى فيه الحق أنى لأجد ربح يوسف
" لمعت نارهم وقد عسعس الليل ... وضج الحادى وحر الدليل "
" فتأملتها وقلت لصحبي ... هذه النار نار ليلى فميلوا "
العارف شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت وجواد وكيف لا وهو بمعزل عن صحبة الباخل
وصفاح وكيف لا ونفسه أكبر من أن تخرجها زلة بشر ونساء للأحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق
وقالوا من عرف الله تعالى صفا له العيش وطابت له الحياة وهابة كل شىء وذهب عنه خوف
المخلوقين وأنس بالله رب العالمين
الشبللى ليس لعارف علاقة ولا لمحب شكوى ولا لعبد دعوى من عرف الله سبحانه انقطع بل
خرس وانقمع لا أحصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك انتهى
وقال رحمه الله تعالى فى بعض تراجم الروضة الفرع الصاعد إلى الهواء على خط الاستواء من - 72
رأس العمود القائم إلى منتهى الوجود الدائم ويشتمل على قشر لطيف وجرم شريف وأفنان ذوات
الوان قنوان وغير قنوان وطلع نضيد وجنى سعيد فالقشر الحدود والرسوم وخواص العارف الذى هو
المعروف بها والموسوم والفنون التى يقوم عليها والعلوم والجرم ظاهر الخلق المقسوم وعلاجه كما
تعالج الجسوم وباطنه المجاهدات التى عليها يقوم وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام
المعلوم ومادتها السلوك الذى بتدرج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم والزهرات اللوائح والطوالع
والبوادة التى لها الهجوم والواردات التى تدوم أو لا تدوم ثم الجنى وهو الولاية التى كان الغارس
عليها يحوم انتهى ثم فصل الكل رحمه الله تعالى فليراجع من أراد
ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يلبغا الخاصكى وهو - 73
إلى الأمير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين
المقلد بتدبيره السيد قلادة الدين المثنى على رسوم بره لمقامه لسان الحرم الأمين الأوى من
مرضاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى الربوة ذات القرار والمعين المستعين من الله
تعالى على ما تحمله وأمله بالقوى المعين سيف الدعوة ركن الدولة قوام الملة مؤمل الأمة تاج

الخواص أسد الجيوش كافي الكفاة زين الأمراء علم الكبراء عين الأعيان حسنة الزمان الأجل المرفع
الأسني الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظم الموقر الأمير الأوحد يلبغا الخاصكى
وصل الله له سعادة تشرق غرنتها وصناعات تسح فلا تنشح درتها وأبقى تلك المثابة فلاة الله تعالى
وهو درتها

سلام كريم طيب بر عميم يخص إمارتكم التي جعل الله تعالى الفضل على سعادتها أمانة واليسر
لها شارة فيساعد الفلك الدوار مهما أعملت إدارة وتمتثل الرسوم كلما أشارت إشارة
أما بعد حمد الله تعالى الذي هو يعلمه في كل مكان من قاص ودان وإليه توجه الوجوه وأن اختلفت
السير وتباعدت البلدان ومنه يلتمس الإحسان ويذكره ينشرح الصدر ويطمئن القلب ويمرح اللسان
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشان ونبيه الصادق البيان الواضح
البرهان والرضى عن آله واصحابه وأحزابه أحلاس الخيل ورهبان الليل وأسود الميدان والدعاء
لإمارتكم السعيدة بالعز الرائق الخبر والعيان والتوفيق الوثيق البنيان فانا كتبناه إليكم كتب الله
تعالى لكم حظا من فضله وأفرا وصنعا عن محيا السرور سافرا وفى جو الإعلام بالنعمة الجسام
مسافرا من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الأندلس دافع الله سبحانه عن حوزتها كيد
العداء واتحف نصلها بيوكر النصر المهداة ولا رائد إلا الشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التي
انتم عنوان كتابها المرقوم وبيت قصيدها المنظوم والتماس بركتها الثابتة الرسوم وتقرير المثل في
سبيل زيارتها بالارواح عند تعذره بالجسوم والى هذا فاننا كانت بين سلفنا تقبل الله تعالى جهادهم
وقدس

نفوسهم وأمن معادهم وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها مراسلة ينم عرف الخلوص
من خلالها وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها وتلتحم من أسطار طروسها مجاسن تلك
المعاهد الزاكية المشاهد وتعرب عن فضل المذاهب وكرم المقاصد اشتقنا إلى أن نجددها بحسن
منابكم ونواصلها بمواصله جنابكم ونعتم في عودها الحميد مكانكم ونؤمل لها زمانكم فخاطبنا
الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجلة من التقصير وجلة من الناقد البصير ونؤمل الوصول
في خفارة يدكم التي لها الأيادي البيض والموارد التي لا تغيض ومثلكم من لا تخب المقاصد في
شمائله ولا تضحى المآمل في ظل خمائله فقد اشتهر من حميد سيركم ما طبق الآفاق وصحب
الرفاق واستلزم الإصفاق وهذه البلاد مباركة ما أسلف أحد فيها مشاركة إلا وجدها في نفسه
ودينه وماله وعياله والله سبحانه أكرم من وفى لأمرىء بمكياله والله عز وجل يجمع القلوب على
طاعته وينفع بوسيلة النبي صلى الله عليه وسلم الذي نعول على شفاعته ويبقى تلك الأبواب
ملجأ للإسلام والمسلمين وظلا لله تعالى على العالمين وإقامة لشعائر الحرم الأمين ويتولى إعادته
امارتكم على وظائف الدين ويجعلكم ممن أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين والسلام الكريم
يخصكم ورحمه الله تعالى وبركاته انتهى

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في قضية امتناع بعض الموثقين من أكل طعامه - 74
بمدينة سلا وقد صدر به كتابه المسمى ب مثلى الطريقة في ذم الوثيقة وهذا نصه أما بعد حمد
الله الذي قرر الحكم وأحكمه وبين الحلال من الحرام بما اوضحه من الأحكام وعلمه ونوع جنس
المعاش وقسمه وماز كل نوع منه ووسمه فأنبته متفاوتا في درجات التفضيل ورسمة والصلاة
والسلام على مولانا محمد رسوله الذي فضله على الأنبياء وقربه وطهر من دنس الشبهات شيمه
فما استعمله في غير طاعته ولا استخدمه ولا أعمل في سوى
البر والهدى بنانه ولا قدمه والرضى عن آله واصحابه الذين رعوا ذممه واستمطروا ديمه وتواصوا من
أجله بالبر وتواصوا بالمرحمة فهذا كتاب مثلى الطريقة في ذم الوثيقة دعا إلى جمعه قلة الإنصاف
من المداهن والمعاصر والمباهت في مدرك النور الباصر ورضى مظنة النيل منهم بالباع القاصر
والمناضلة عن الحمى الذي لم يؤيده الحق بالولى ولا بالناصر ولوضعه حكاية ولنفتته شكاية إذ
معرفة الأشياء بعلمها مما يتشوق إليه ويحرص عليه وهو أنى لما قدمت على مدينة فاس حرسها
الله تعالى مستخلصا بشفاعته الخلافة ذات الإنافة مستدعى برسالة الإيالة ذات الجلالة فانسحب
والمنة لله الستر وانفسح الفتر وشفع من النعم الوتر واقتدى المرؤوس بالرئيس وتنافس الأعلام
في التأنيس واتصل الاحتفاء والاستدعاء وانتخب الموعى والوعاء وأخذ أعقاب الطيبات الوضوء
والطيب والدعاء تعرفت فيمن جمعته الأخونة والمداعى المتعينة برجل من نبهاء موثقها غرنى
بمخيلة البشاشة التي يستفز بها الغريب ويستخلص هوى من لم يعمل التجريب فأنست بمكانه
واستظهرت على ما يعرض من مكتب بديكانه وشانى فى الاغتباط بمن عرفت شانى فلست
للمقة بشانى واسترسالى حتى لمن أسا لى طوع عنانى

" أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... ضميرى ويتلوه يدي ولسان "

ولم يك إلا أن حللت بمدينة سلا حرسها الله تعالى مقصود المحل وإن رغم الدهر الذى رضى فأقصد معتمدا بفتوحات الله تعالى وإن أرتج الباب بزعمه وأوحد مصحبا بمدد عنايته وإن كمن وأرصد لا يمر فاضل الا عرج على مثنوى واتى من البر فوق هواي وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها وتعرفت عن صاحبى الفاسى أنه قدم علينا من سخر عملية فلا لها الدسر المنهوية وتخللها المسبحة المرهوية واغذى الأطعمة التى مرقتها الدموع ومطبختها الحمى المروع واستقر بالمدينة بعد إن لان وضرع وجدل وضرع نافق البقلة كاسد الورع

ونزل بمثنوى خمول ومحط مجهول وكنف ممقوت وجوار لا يبخل بغيبة ولا يسمح بقوت فبادرت استدعاه بفاضل من الطلبة ممن يتلقى به الوارد ويقتاد الشارد وقد أغرب بقراءة الاحتفاء والاحتفال واحب الإغفاء والإغفال وجهزت السرايا إلى التماس نعم الله تعالى فحلت الأنفال فلما عرض عليه الدعوة تعجزف ونفر ولما مسح عطفه بالاستئزاز نزا وطفر حتى بهت الرسول كما بهت الذى كفر وآب يحمل عذرا باردا واحتجاجا شاردا فأقطعت جانب شماسه وخليت بينه وبين وسواسه ومن الغد قصدنى فاعتذر وأكثر الهذر ولم ينبت الله النبات الحسن شيئا مما بذر وكان جوابى اياه ما نصه

" أبيت دعوتى إما لبأو ... وتابى لومة مثلى الطريقة "

" وبالمختار للناس اقتداء ... وقد حضر الوليمة والعقيقة "

" وغير غريبة ان رقى حر ... على من حاله مثلى رقيقة "

" واما زاجر الورع اقتضاها ... ويابى ذاك دكان الوثيقة "

" وغشيان المنازل لاختيار ... يطالب بالجليلة والدقيقة "

" شكرت مخيلة كانت مجازا ... لكم وحصلت بعد على الحقيقة "

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب وكلف بها الطالب والمطلوب وهش الى المراجعة عنها أحد الموثقين بسلا ممن يحوم حول حمى الإدراك ويروم درجة الاختصاص ببعض الفنون والاشترك وله فى الأدب مساس وحب الباس بما نصه

" رسولك لم بين لى عن طريقه ... تقرب من حديقتك الأنيقة "

" فلا باو لى ولا إباء ... ولكن ساء فى الغرض الطريقة "

" وهب انى أسات فكم صديق ... تدلل واعتدى فجفا صديقه "

" فلا عجب فديت لرفق حر ... يسكن عند خجلته رفيقه "

" وانى فيك معتقد ولكن ... أرى الأيام حاقدة حنيقه "

على ذى الود فيمن ود حتى ... يفارقه وان اضحى رفيقه " فراجعت بما نصه لما أسلفته من جزاء مصاعه وكلت له بصاعه

" من استغضبت من هذى الخليقه ... بمغضبة بانكار خليقه "

" ولم يغضب فتيس أو حمار ... مجازا لا لعمري بل حقيقه "

" بعثت بمرسل لك مع عتيقى ... فلم تطع الرسول ولا عتيقه "

" وطوقت السفير الذنب لما ... عجلت به ولم تبلعه ريقه "

" إمام جماعة وقرع تقوى ... ومبلغ حجة وحفيظ سيقه "

" فبؤت بها على الأيام داء ... عضالا لا تفيق عليه فيقه "

" وقد عارضت عذرك باعتراف ... فزدت مذمة تسم الطريقة "

" وهل بعد اعتراف من نزاع ... وهل بعد اتصال من وثيقه "

" ومن جهل الحقوق اطاع نفسا ... ببحر الجهل راسبه غريقه "

" ومنجى نيفة أمر بعيد ... اذا نصب المهندس منجنيقه "

فأمسك حينئذ وأقصر ورأى الأمر يطول فاخصر إلا أنه نعى لى عنه قوله ان دكان الوثيقة أن نافى الورع فيغير بلده وأذهلته لذة لدده عما هو بصدده فارتفعت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المساهل وينكره الأرعن الجاهل وتشد به المنازل والمناهل والمعالم والمجاهل مستندا إلى الحكم الشرعى والسنى المرعى والمشاهدة والحس وشهادة الجن والإنس

" ... ولو ترك القطا ليلا لناما "

والله يجعله موقظا من السنوات وازعا عن كثير من الهنات وينفع فيه بالنية فإنما الأعمال بالنيات وها أنا أبتدىء وعلى الله الإعانة وبحوله وقوته الإفصاح والإبانة قلت ينحصر الكلام فيه فى سبعة أبواب الباب الأول فى جواز الإجارة فيها عند العلماء الباب الثانى

فى الشركة المستعملة بين أربابها الباب الثالث فى محلها من الورع ان سوغها الفقه الباب الرابع فى منزلتها من الصنائع والمهن الباب الخامس فى أحوال منتحليها من حيث العلم غالبا الباب السادس فى أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه الباب السابع فى رد بعض ما يحتج به فيها انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه الله تعالى

وهذا التأليف فى نحو كراسة وقال فى آخره ما صورته فان قيل ترك الأجر وقبول العوض فى هذا الأمر يدعو الى تعطيله فيفقد الناس منفعة هذه الطريقة وغناها قلت الإنصاف فيها اليوم ان لو كان متوليها يرتزق من بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التى تسع ذلك وحال الجماهير فى فقدانها والاضطرار اليها ورفع أمورهم بها الى السلطان ورغبتهم فى نصب من يتولى ذلك حالهم فى فقدان أئمة الصلاة فى المساجد الراتبية فى جريانه من بيت المال بعلة التزامهم وارتباطهم فقط حسبما نقل الإجماع فيه القاضى ابو بكر ابن العريى رحمه الله تعالى ومنع الارتزاق من غيره إجماعا وقد كان بالمدن المعتبيرة من بلاد الأندلس جبرها الله تعالى ناس من أولى التعفف والتعين كبنى الجد باشبيلية وبنى الخليل وغيرهم بغيرها يتعيشون من فضول أملاكهم ووجائب رباعهم ويفقدون بدورهم عاكفين على بر منتابين لرواية وقتيا يقصدهم الناس فى الشهادة فيجاملونهم ويبركون على صفقاتهم ويهدونهم الى سبيل الحق فيها من غير أجر ولا كلفة إلا الحفظ على المناصب وما يجريه السلطان من الحرمة

والتفقد فى الضرورة وما يهديهم الناس من الإطراء والتجلة والله سبحانه ينيلهم من الأجر والثوبة وبلغنى اليوم ان حالها بمدينة سجلماسة ينظر الى هذا الحال من طرف خفى ولم يفسد بها كل الفساد وكذلك لم نزل نتعرف ان الأمر فى شأنها بمدينة تونس أقرب وبعض الشر أهون من بعض ولو بقيت بحالها لوجب تقرير فضلها وتقريب منتحليها فالصدق أنجى والحق عند الله احجى والله عز وجل يستعملنا فيما يرضيه ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه ويجعلنا ممن ختم له بالحسنى ويقربنا الى ما هو أقرب من رحمته وأدنى وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه انتهى

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخ شيخوينا الإمام الكبير المؤلف الشهير سيدي أحمد الونشريسى رحمه الله تعالى ما صورته الحمد لله جامع هذا الكلام المقيد هذا باول ورقة منه قد كد نفسه فى شىء لا يعنى الأفاضل ولا يعود عليه فى القيامة ولا فى الدنيا بطائل وأبنى طائفة من نفيس عمره فى التماس مساوئ طائفة بهم تستباح الفروج وتملك مشيدات الدور والبروج وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمجانة وانتزع عنهم جلاب الصدق والديانة سامحه الله تعالى وغفر له قال ذلك وخطه بيمينى يديه عبيد ربه احمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريسى خار الله سبحانه له انتهى ما ألفيته

وقد كان لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرا ما يعرض ويصرح بهجو بعض أهل سلا أو كلهم حتى قال

" أهل سلا صاحت بهم صائحه ... غادية فى دورهم رائحه "

" يكفيهم من عوز أنهم ... ريجانهم ليست له رائحه "

والله المرجو للعفو عن الزلات

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى خطبة كتابه فى المحبة الذى ما - 75

ألف فى فنه أجمع منه ولنوردها فإن فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب وهى اللهم طيب بريحان ذكرك أنفاس أنفسنا الناشقة وعلل بجريال حبك جوانح أرواحنا العاشقة وسدد الى اهداف معرفتك نبال نبلنا الراشقة واستخدم فى تدوين حمدك شبا أقلامنا الماشقة ودل على حضرة قدسك خطرات خواطرننا الذائقة وابن لنا سبيل السعادة التى جعلت فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس الناطقة واصرفنا عند سلوكها عن الفواطع العائقة حتى نأمن مخاوف أجيالها الشاهقة وأحزابها المنافقة وأوهامها الطارئة الطارقة وبرازخها القاسية الغاسقة فلا تسرق بضائعنا العوائد السارية السارقة ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية اللاحقة ولا الأنوار المغلظة البارقة ولا العقول المفارقة يا من له الحكمة البالغة والعناية السابقة وصل على عبدك ورسولك محمد درة عقود أحبابك المتناسقة وجالب بضائع توحيدك النافقة المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة ما أطلعت أفلاك الأدواح زهر أزهارها الرائقة وحدت قطار السحائب حداه رعودها السائقة وجمعت ربح الصبا بين قدود أعصانها المتعانقة

أما بعد فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله حدودها الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها وصل الله تعالى عوائد صنعه الجميل لديها وأبقاها دار

إيمان الى ان يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ديوان الصباية وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشاق على الكثير واستوعب من أفوالهم الحديثة والقديمة كل نظيم ونثير وأسدى فى غزل غزله وألحم ودل على مصارع شهدائهم من وقف وترحم فصدق الخبير المخبر وطمت اللجة التى لا تعبر وتأرجح من مسراه المسك والعنبر وقالت العشاق عند طلوع قمره الله أكبر

" مررت بالعشاق قد كبروا ... وكان بالقرب صبي كريم "

" فقلت ما بالهم قال لى ... القى للحب كتاب كريم "

ولا غرو ان أقام بهذه الآفاق أسواق الأشواق وزاحم الزفرات فى مسالك الأطواق وأسأل جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقائق وفنك نسيمها الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق

" جنى النسيم علينا ... وما تبينت عذره "

" إذ صير الخلق نجدا ... والأرض أبناء عذره "

فوقع للحجة المصرية التسليم وقالت السنة الأقلام معربة عن السنة الأقاليم

" سلمت لمصر فى الهوى من بلد ... يهديه هواؤه لدى استنشاقه "

" من ينكر دعواي فقل عنى له ... تكفى امرأة العزيز من عشاقه "

فغمر المحافل والمجالس واستجلس الراكب واستركب الجالس يدعو الأدب الى مآذبه فلا يتوقف ويلقى عصا سحره المصري فتلقف ما شئت من ترتيب غريب وتطريب من بنان أريب يشير الى الشعر فتنقاد اليه عيونه ويصيح بالأدب الشريد فقلبيه فنونه وانهى خبره للعلوم المقدسة ومدارك العز الموطدة المؤسسة سما به الجد صعدا الى المجلس السلطانى مقر الكمال ومطمح الأبصار والآمال حيث رفاق العز قد انسدت وموازين القسط قد عدلت وفصول الفضل قد اعتدلت وورق أوراق المحامد قد هدلت مجلس السلطان المجاهد الفاتح الماهد المتحلى فى ريعان العمر الجديد والملك السعيد بحلى القانت الزاهد شمس أفق الملة وفخر الخلفاء الجلة بدر هالات السروج المجاهدة أسد الأبطال البارزة الى حومة الهياج الناهدة معشى الأبصار المشاهدة مظهر رضى الله تعالى عن هذه الأمة الغربية عن الأنصار والأقطار من وراء أمواج

البحر الزخار باختياره لها واعتيامه وملبسها برود اليمن والأمان ببركة أيامه ومن أطلع الله تعالى أنوار الجمال من أفق جبينه وأنشا أمطار السماح من غمام يمينه وأجرى فى الأرض المثل السائر بحلمه وبسالته ودينه أمين الله تعالى على عهده الإسلام بهذا القطر وابن أمينه وابن أمينه فخر الأقطار والأمصار ومطمح الأيدي وملمح الأبصار وسلالة سعد بن عبادة سيد الأنصار ومن لو نطق الدين الحنيفى لحياة وفداه أو تمثل الكمال صورة ما تعده مولانا السلطان الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين ابى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين ابى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر الأنصارى الخرزجى جعل الله تعالى ثغر الثغر ميتسما عن شنب نصره والفتح المبين مذخورا لعصره كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قصره وسوغه من أشتات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حصره ولا زالت أفنان الأقلام تتحف الأقاليم بجنى فنون هصره فخصته عين استحسانه أبغاه الله تعالى بلحظة لحظ وما يلقاها إلا ذو حظ وصدرت الى منه الإشارة الكريمة بالإملاء فى فنه والمنادمة على بنت دته وحسب الشحم من ذى ورم والله سيحانه يجعلنى عند ظنه ومتى قورن المثرى بالمترب أو وزن المشرق بالمغرب شتان بين من تجلى الشمس منه فوق منصتها وبين من بشره أفقه الغربى لابتلاع فرصتها لكنى امتثلت ورشت ونثلت ومكرها لا بطلا مثلث وكيف يتفرغ للتأليف ويتبرع للوفاء بهذا التكليف من حمل الدنيا فى سن الكهولة على كاهله وركض طرف الهوى بين معارفه ومجاهله واشترى السهر بالنوم واستنفد سواد الليل وبياض اليوم فى بعث يجهز وفرصة تنزه وثمر للدين يسد وأزر للملك يشد وقصه ترفع ووساطة تنفع وعدل يحرض على بذله وهوى يجهد فى عذله وكريم قوم ينصف من نذله ودين تزاح الشوائب عن سبله وسياسة تشهد للسلطان بنبله وإصابة نبلة ما بين سيف وقلم وراحة وألم وحرب وسلم ونشر علم أو علم وجيش يعرض وعطاء

يفرض وقرض حسن لله تعالى يقرض فى وطن توافر العدو على حصره ودار به دور السوار على حصره وملك قصر الصبر والتوكل على قصره وعدد نسبته من العدد العظيم الطاقة الشديد الإضافة نسبة الشعرة من جلد الناقة وبالله نستدفع المكروه واليه نمد الأيدي ونصرف الوجوه وسألت منه أيدى الله تعالى القنوع بما يسره الوقت مما لا يناله المقنت والذهاب بهذا الغرض لما يليق بالترب والسن ويؤمن من اعتراض الإنس والجن وما كنت ممن أثر على الجد الهزل واعتاض من الغزل الرقيق الغزل بشيمة الجزل ولا أنف من ذكر الهوى بعد ان خضت غماره واجتنبت ثماره وأقمت مناسبته ورميت جماره وما أبرئ نفسى ان النفس لأمارة فالهوى أول تميمة قلدتنى الداية والترب

التي عرفتها فى البداية وانا الذى عن عروته نبت وبعثت الى الرصافة لأرق فذبت الى ان تبين
الرشد من الغى وصار النشر الى الطى وتصايح ولدان الحى كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم
كما من علي

" جزى الله عنى زاجر الشيب خير ما ... جزى ناصحا فازت يداي بخيره "

" ألفت طريق الحب حتى اذا انتهى ... تعوضت حب الله عن حب غيره "

حال السواد بحال الفؤاد وصوح المرعى فانقطعت الرواد ونهاني ازورار خيال الزوراء والتفات عاذل
الشيب عن المقلة الحوراء وكيف الأمان وقد طلع منه النذير العريان يدل على الخبر بخبره وينذر
بهازم اللذات على أثره والله در القائل

" دعتنى عينك نحو الصبا ... دعاء يردد فى كل ساعة "

" فلولا وحقك عذر المشيب ... لقلت لعينيك سمعا وطاعة "

ولولا ان طيف هذا الكتاب الوارد طرق مضجعى وقد كاد يبدو الحاجب ويضيع من الغرض الواجب
ويجب من نوم الغفلة العاجب لجريت معه فى
ميدانه وعقدت بنانى ببنانه وتركت شانى وان رغم الشانى لشانه وقلت معذرا عن التهويم فى
بعض أحيائه

" أهلا بطيفك زائرا أو عائدا ... تغديك نفسى غائبا أو شاهدا "

" يا من على طيف الخيال أحالنى ... أتظن جفنى مثل جفحك راقدا "

" ما نمت لكن الخيال يلم بى ... فيجمله طرفى فيطرق ساجدا "

ومن العصمة ان لا تجد هلا قبل المشيب ومع الزمن القشيب وقبل ان تمخض القرية وتبنى
الخانقاه والتربة وتؤنس بالله الغربية وعلى ذلك فقد أثر وباء قلبى المعثر اللهم لا أكثر

" وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهنا لمعانه "

" يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرا متمنع أركانه "

" فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظرا اليه ورددت أشجانه "

" فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحت به أجفانه "

وجعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيده الله تعالى علاوة وبعد الفراغ من ألوان ذلك الخوان حلاوة
وقلت أخطب مؤلف كتاب الصبا بما يعتمده جانب إنصافه ويغضى على نقص ان وقع فيه كمال
أوصافه

" يا من أدار من الصبا بيننا ... قدحا ينم المسك من رياه "

" وأتى بريحان الحديث فكلمنا ... سمح النديم براحة حياه "

" أنا لا أهيم بذكر من قتل الهوى ... لكن أهيم بذكر من أحياه "

وعن لى ان أذهب بهذا الحب المذهب المتأدى الى البقاء الموصل الى ذروة السعادة في معارج
الارتقاء الذى غايته نعيم لا ينقضى أمده ولا ينفد مدده ولا يفصل وصله ولا يفارق الفرع أصله حب
الله المبلغ الى قربه المستدعى لرضاه
وحبه المؤثر بالنظر الى وجهه ويا لها من غاية الملقى رحل المتصف به بعد قطع بحار الفناء على
ساحل الولاية

وكنت وقفت من الكتب المؤلفة فى المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام ويستخفه الهوام
ورسالة ابن واصل رسالة مهذارة تطفو من داره الى داره فى مطاردة هر وفارة وكتاب ابن الدباغ
القيروانى كتاب مفرقع ووجه المقصود منه متبرقع وكتاب ابن خلصون وهو أعدلها لولا بداوة تسم
الخرطوم وتناسب الجمل المخطوم فكنت بما ذكر لا اقنع وأقول ما أصنع فالله يعطى ويمنع

" قلت للساحر الذى ... رفع الأنف واعتلى "

" أنت لم تأمن الهوى ... لا تعير فتبتلى " شعر "

" وعذلت أهل العشق حتى ذفته ... فعجبت كيف يموت من لا يعشق "

ومن المنقول لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله وبيتليك

بلانى الحب فيك بما بلانى ... فشانى ان تفيض غروب شانى " أجل بلانى بالغرض الذى هو من "

القلوب سر أسرارها ومن أفنان الأذهان بمنزلة أزهارها ومن الموجودات وأطوارها قطب مدارها
ليكون كتابى هذا المقدم على المأزق المهلك المتشيع بما لا يملك وان يقنع الاتصاف فعسى ان
يشفع الإنصاف والافتراق يدرؤه الاعتراف انا عند المنكسرة قلوبهم ولا تجود يد إلا بما تجد وكل
ينفق مما أتاه الله

" وابن اللبون اذا ما لز فى قرن ... لم يستطع صوله البزل القناعيس "

وعسى الذى أنطق شوقا ان ينطق ذوقا والذى حرك سفلا ان يحرك فوقا والذى يسره مقالا ان يكفيه حالا

" فأول الغيث طل ثم ينسكب "

" الحرب اول ما تكون لاجاة "

" وان الحرب أولها الكلام "

نحمد الله سبحانه على الكلف بهذه الطريقة " وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم " فصلت وللأرض نصيب من كأس الكريم

" أليس قليلا نظره ان نظرتها ... اليك وكلا ليس منك قليل "

" فاتنى ان أرى الديار بطرفى ... فلعلى ارى الديار بسمعى "

وعلى ذلك فذهبت فى ترتيبه اغرب المذاهب وقرعت فى التماس الإعانة باب الجواد الواهب وأطلعت فصوله فى ليل طلوع نجوم الغياهب وعرضت كتاب العزيمة عرضا وأقرضت الله قرضا وجعلته شجرة وأرضا فالشجرة المحية مناسبة وتشبيها وإشارة لما ورد فى الكتب المنزلة وتنبيهها والأرض النفوس التى تغرس فيها والأغصان أقسامها التى تستوفىها والأوراق حكاياتها التى تحكيها وأزهارها أشعارها التى تحيىها والوصول الى الله تعالى ثمرتها التى ندخرها بفضل الله ونقنتيها شجرة لعمر الله يانعة وعلى الزعازع متمانعة ظلها ظليل والطرف عن مداها كليل والفائز بجناها قليل رست فى التخوم وسمت

الى النجوم وتنزهت عن أعراض الجسوم والرياح الحسوم وسقيت بالعلوم وغذيت بالفهوم وحملت كمامها بالزهر المكتوم ووفيت ثمرتها بالغرض المروم فاز من استأثر بجناها وتعنى من عنى بلفظها دون معناها فمن استصبح بدهنها استضاء بسناها ما أبعدا وما أدناها عينا ملأت الألف بغناها كم بين أوراقها من قلب مقلب وفى هوائها من هوى مغلب وكم فوق أفنانها من صادق وكم فى التماس سقيطها من كادح وكم دونها من خطب فادح ولأربابها من هاج ومادح تنوعت أسماؤها ولم تنوع أرضها ولا سماؤها فسميت نخله تهز وتجنى وزيتونه مباركة يستصبح بزيتها الأسنى وسدره اليها ينتهى المعنى أصلها للوجود أصل وليس لها كالشجر جنس ولا فصل وتربتها روح ونفس عقل وشرفها بعضه بديهة ونقل يحط الهائمون بفنائها ويصعد السالكون حول بنائها تخترق السبع الطباق ببراقها وتمحى ظلم الحس بنور إشراقها فسبحان الذى جعلها قطب الأفلاك ومدافن الأضواء والأحلاك ومغرد طيور الأملاك وسبب انتظام هذه الأسلاك لم يحل فيها طريد بعيد ولا اتصف بصفتها إلا سعيد ولا اعتلق بأوجها هاو فى حضيض ولا بمحض برهانها متخبط فى شرك نقيض ولا تعرض لشيم بوارقها متسم بسمة بغيض الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ومنه نستزيد الاستغراق فى بحارها والاستنشاق لنواسم أسرارها والاستدلال بذرى أفنانها عليه والوصول بسبب ذلك اليه انه ولى ذلك سبحانه فطاب لعمرى المنبت والنابت وسما الفرع الباسق ورسا الأصل الثابت وفاءت الأفنان وزخرفت الجنان وتعددت الأوراق والزهرات والأغصان ولم اترك فنا إلا جمعت بينه وبين مناسبه ولا فرعا إلا ضممته الى ما يليق به واستكثرت من الشعر لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذى يحرك عذبات أفنانها ويؤدى الى الأنوف روائح بستانها وهو المزمزم الذى ينفخ الشوق فى يراعتة والعزيمة التى تنطق مجنون الوجد من ساعته وسلعة السن العشاق وترجمان ضمير الأشواق

ومجتلى صور المعانى الرقاق ومكامن قنائص الأذواق به عبر الواجدون عن وجدهم ومشى المحبوب الى قصدهم وهو رسول الاستلطاف ومنزل الألفاظ اشتمل على الوزن المطرب والجمال المعجب المغرب وكان للأوطان مركبا ولانفعال النفوس سببا فلا شىء أنسب منه للحديث فى المحبة ولا أقرب للنفوس الصبة واجتليت الكثير من الحكايات وهى نوافل فروض الحقائق ووسائل مجالس الرقائق ومراوح النفوس من كد الأفكار واحماض مسارح الأخبار وحظ جارحة السمع من منح الاعتبار وبعض الجواذب لنفوس المحبين والبواعث لهمم السالكين وحجتها واضحة بقوله تعالى " وكلا نقص عليك " هود فى القرآن المبين ونقلت شواهد من الحديث والخبر تجرى صحاحها مجرى الزكاة من الأموال والخواطر من الأحوال ويجرى ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال ليكون هذا الكتاب لعموم خيره مسرحا للفرار وغيره ويجد كل ميدانا لسيره وملثقا لطيره ومحكا لغيره فمن فاق كلف باصوله ومن قصر قنع بفصوله ومن وصل حمد الله تعالى على وصوله وسميته روضة التعريف بالحب الشريف ويحتوى على أرض زكية وشجرات فلكية وثمرات ملكية وعيون غير بكية

والحب حياة النفوس الموات وعلة امتزاج المركبات وسبب ازدواج الحيوان والنبات وسر قوله عز وجل

" أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات " الانعام
ليس كالحب الذى دون فيه المدونون ولعبت بكرة أقباسه صوالج الجنون وقاد الهوى أهله بحبل
الهُون وسافت فيه المنى للمنون حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين ورضيت الأثر عن العين
وباعت الحق بالمين ولم تحصل إلا على خفى حنين وارحمتا لعشاق الصور وسباق ملاعب الهوى
والهور لقد كلفوا بالزخارف الحائنة الحائلة والمحاسن الزائفة الزائلة وسلع الجبانة وبضائع الإهانة
أزمان التمتع بهم قصيرة والأنكاد عليهم مغيرة فتراهم ما بين طعين بعامل
قد ومضج بدم خد واسير ثغر قد أعوز فداؤه وسقيم طرف قد أعزل داؤه وما شئت من ليل يسهر
ونداء به يجهر وجيوب تشق وبصائر تخطف إبصارها اذا لمع البرق ونواسم تحمل التحيات وخلع أيلك
تتلقى بخلع الأريحيات وربما اشتد الختل وأصابت النبل فكان الخبل قلوب اشتغلت عن الله فشغلها
الله بغيره وهب الحب الجسمانى لا تبعث عليه شهوة بهيمية ولا تدعو اليه قوة وهمية أليست
الداعية مرتفعة والباعثة منقطعة وصورة الحسن دائرة وأجزاؤه المتناظرة متناثرة أليس الجراب
العنصرى عائدا الى أصله أليس الجنس مفارقا لفصله والله در على رضى الله تعالى عنه وقد نظر
الى قدح الماء وقد أراد ان يشرب وعن الاعتبار أعرب فقال كم فيك من خد أسيل وطرف كحيل فأواه
مكررة مرددة ووالهفاة معادة مجددة على قلب أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية
على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا وحسبنا مرارة الفراق ذلا وفقد النقد قلا والغفلة
عن الله شقاء محتوما والكآبة على الفاتت شوما
" صدنى عن حلاوة التشبييع ... اتقائى مرارة التوديع "
" لم يقم أنس ذا بوحشة هذا ... فرأيت الصواب ترك الجميع "
وان كانت الشهوة فاحسس بها داعية والى الفضيحة ساعية حسبك من حمار يعلن بندا المحبة
نهاقة ويقذفه على السباق اهتياجه الى السفاد واشتياقه أسير خيال وصرع مبال اولى له ثم
اولى لو تأمل محاسن الحسوم ما أكذب رائدها المطري واخبث زخرفها المغربي واقصر مدة
استمتاعها وأكثر المساعى تحت قناعها
" على وجه مى مسحة من ملاحه ... وتحت الثياب العار لو كان باديا "
ما ثم إلا أنفاس تركد وتخبث وعلل تنشأ وتحدث وزخارف حسن تعاهد ثم
تتكث وتركيب يطلبه التحليل بدينه وياخذ أثره بعد عينه وأنس يفقد واجتماع كان لم يعقد وفراق ان
لم يكن فكان قد
" ومن سره أن لا يرى ما يسوءه ... فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا "
" منغص العيش لا ياوى الى دعه ... من كان ذا بلد أو كان ذا ولد "
" والساكن النفس من لم ترض همته ... سكنى مكان ولم يسكن الى أحد "
وقلت وقد مات سكن عزيز على أيام التغرب بسلا عظم جزعى عليه
" يا قلب كم هذا الجوى والخفوت ... ذمأك استبق لئلا يفوت "
" فقال لا حول ولا قول لى ... قد كان ما كان فحسبى السكوت "
" فارقنى الرشد وفارقتة ... لما تعشقت بشىء يموت "
والزمان لا يعتبر وحاصله خبر والحازم من نظر فى العواقب نظر المراقب وعرف الإضاعة ولم يجعل
الحلم بضاعة انما الحب الحقيق حب يصعدك ويرقيك ويخلدك ويبقيك ويطعمك ويسقيك ويخلصك
الى فئة السعادة مما يشقيك ويجعل لك الكون روضا ومشرب الحق حوضا وبغنيك زهر المنى
وبغنيك عن أهل الفقر والغنى ويخضع التيجان لنعلك ويجعل الكون متصرف فعلك ليس الا الحب ثم
الوصل والقرب ثم الشهود ثم البقاء بعدما اضمحل الوجود فشفيت الألام وسقط الملام وذهبت
الأضغاث والأحلام واختصر الكلام ومحيت الرسوم وخفيت الأعلام ولمن الملك اليوم والسلام فالحذر
الحذر أن يعجل النفس سيرها ويفارق القفص طيرها وهى بالعرض الفانى متنبطة وبنائى الثقيل
مرتبطة وبصحبة الفانى معتبطة " أن تقول نفس
يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من
المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين " الزمر وفى ذلك قلت
" أعشاق غير الواحد الأحد الباقي ... جنونكم والله أعيا على الراقى "
" جننتم بما يفنى وتبقى مضاضة ... تعذب بين البين مهجة مشتاق "
" وتربط بالأجسام نفسا حياتها ... مباينة الأجسام بالجوهر الراقى "
" فلا هى فازت بالذى علقت به ... ولا رأس مال كان ينفعها باقى "
" فراق وقسر وانقطاع وظلمة ... قنى البعد من نيل السعادة يا واقى "

" كأتى بها من بعد ما كشف الغطا ... صريعة أجزان لديغة أشواق "

" تقلب كفيها بخيط موصل ... رشيقة قد دون سبعة أطباق "

" فلا تطعموها السم فى الشهد ضلة ... فذلك سم لا يداوى بدرياق "

" بما اكتسبت تسعى الى مستقرها ... فأما بوفر محسب أو بإملاق "

" وليس لها بعد التفرق حيلة ... سوى ندم يذرى مدامع أفاق "

" ولو كان مرمي الحزن منها الى مدى ... لهان الأسى ما بين وخذ وإعناق "

" فجدوا فان الأمر جد وشمروا ... بفضل ارتياض او بإصلاح أخلاق "

" ولا تطلقوا فى الحس ثنى عنانها ... وشيموا بها للحق لمحمة إشراق "

" ودسوا لها المعنى رويدا وأيقظوا ... بصيرتها من بعد نوم وإغراق "

" ومهما أفاقت فافتحوا لاعتبارها ... مصاريع ابواب واقفال أغلاق "

" وعاقبة الفانى اشرحوا وتلففوا ... بأخلاقها المرضى تطف إشفاق "

" فان سكرت واستشرفت عند سكرها ... لماهية المسقى ومعرفة الساقى "

" أطلبوا على روض الجمال خطورها ... الى ان يقوم الوجد فيها على سباق "

" وخلوا لهيب الشوق يطوي بها الفلا ... الى الوجد فى مسرى رموز وأذواق "

" فما هو إلا أن تحط رحالها "

" بمثوى التجلي والشهود بإطلاق "

" وتفننى اذا ما شاهدت عن شهودها ... وقد فنى الفانى وقد بقى الباقى "

" هنالك تلقى العيش تضفو ظلاله ... وتنعم من عين الحياة برفراق "

وما قسم الأرزاق إلا عجيبة ... فلا تطرد السؤال يا خير رزاق "

وقد أخذ الكلام فى هذا الافتتاح حده وبلغ النهر مده فلاخذ أثر هذا الذى سردت فى تقرير ما أردت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه انيب فنقول ينقسم هذا الموضوع الى أرض وشجر غص وكل منها ميسور جده وفن على حدة ما شئت من مرأى ومستمتع فمن شاء أفرد ومن شاء جمع فلنبدا بالأرض والفلاحة والتكسير والمساحة وتعيين حدود تلك الساحة ثم نأتى بالشجرة التى نؤمل جناها وننظر إناها ونجعل الزاد المبلغ معناها قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون

برنامج هذا الكتاب الذى يحصر الأجناس والفصول ويرد الفروع الى الأصول ويسر الباحث عن مسائله بسبب الوصول بحول الله وقوته خطبة الأعراس وتوطئة الغراس وتنحصر فى جملتين الجملة الأولى فى صفة الأرض وأجزائها وجعل الاختيار بإزاتها وفيها رتب

الرتبة الأولى رتبة الأطباق المفروضة والاعتبارات المعروضة وفيه مقدمة وأطباق المقدمة فى تعيين الأرض المذكورة

الطبق الأول طبق القلب

الطبق الثانى طبق الروح

الطبق الثالث طبق النفس

الطبق الرابع طبق العقل

الرتبة الثانية رتبة العروق الباطنة والشعب الكامنة وفيها فصول

الفصل الأول فى العروق المعدنية

الفصل الثانى فى المقررات العينية

الفصل الثالث فى المدبرات البدنية

الفصل الرابع فى البحوث البرهانية

الجملة الثانية فى صفة الفلاحة والعمل المتكفل فيها بنيل الأمل وفيها اختيارات

الاختيار الأول فيما يصلح للاعتماد من هذه الأرض وفيه فصول

الفصل الأول فى أرض النفس المطمئنة

الفصل الثانى فى أرض النفس الأمانة

الفصل الثالث فى أرض النفس اللوامة

الاختيار الثانى فى محركات العزيمة لاعتماد هذه الأرض الكريمة وفيه فصول

الفصل الأول فى الجذب وما يتصل بذلك

الفصل الثانى فى الوعظ المثمر لليقظة

الفصل الثالث فى ذم الكسل

الاختيار الثالث يشتمل على جلب الماء لسقى هذه الأرض من عين العلم فى جدولى العقل

المحرر والنقل المقرر وفيه مقدمة فى فضل العلم وتعدد أجناسه وفصول
الفصل الأول فى جدول العقل
الفصل الثانى فى جدول النقل
الفصل الثالث فى مقدار الماء المجلوب للفلاح المطلوب
الفصل الرابع فى غبار التكوين وسبب التلوين
الاختيار الرابع فى الحرث وإخراج لبن هذه الفلاحة من بين الدم والفرث وفيه أقسام
اولها القليب الأول
ثانيها القليب الثانى الذى عليه المعول
ثالثها فى سكة الازدراع والتعمير وهو مظنة التثمين
الاختيار الخامس فى تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الخبيثة والجدر المعترضة والشعب
المذمومة وفيه فصول
الفصل الأول فى إزالة شكوك تسبق الى المعتقد غالبا
الفصل الثانى فى قلع الشجر التى تضر بهذه الأرض وتعاديها بالطبع
الاختيار السادس فى أمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة وفيه فصول
الفصل الأول فى أمراض يشرع فى علاجها مما يرجع لطبع الأرض ومزاجها
الفصل الثانى فى اختيار أنواعها وأجزائها
الفصل الثالث فى أقوال تليق بأفخاص الفلاح وإصحاره عند ملاحظة عجائب الكون وأثاره
الفصل الرابع فى الوقت المختار لغراسة الأسباب فى الحب اللباب وتنحصر فى مقدمة علمية
وجرثومة جرمية المقدمة العلمية فى ترتيب المحبة والمعرفة الجرثومة الجرمية تنقسم الى بيان
يعطى الصورة ويشرح الضرورة والى بطن وظهر وسر وجهر وباسط وبرزخ واسط فالباطن الشرع
والنقل وينقسم الى أصول
الأصل الأول الكلام فى النبوة من حيث النقل
الأصل الثانى فى الإيمان والاعتبار العامى
الأصل الثالث فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة فى حق غير المحتاج الى ذلك
الأصل الرابع فى تقرير العناية والتوفيق فى حق غير المحتاج الى ذلك
الأصل الخامس فى الموعدة والسماع من حيث تهذيب الجميع والظاهر الطبع والعقل وينقسم الى
أصول
الأصل الأول جزء الفلسفة العلمى والعملى
الأصل الثانى سلامة الفطرة فى حق المستغنى عن ذلك
الأصل الثالث فى معرفة الجمال والكمال
الأصل الرابع فى الاعتبار الخاصى
الأصل الخامس السلوك بالفكر
الأصل السادس فى التشبيه بالمبدأ الأول باسط الذكر الباسط والبرزخ الواسط الصاعد من التخوم
الى النجوم وهو من أخص الأشياء بباطن الشجرة وأصولها المعترية ويشتمل على مقدمة وثلاثة
أصول
الأصل الأول الأدعية والأذكار وله عشر شعب
الأصل الثانى أصل الأسماء وهى أصول الأرض والسماء وله تسع وتسعون شعبة
الأصل الثالث أصل السيمياء وهو الذى عفن بعضه وبقي الانتفاع ببعضه
العمود المشتمل على القشر والعود والجنى الموعود ينقسم قسمين قشر وخشب ودر مخشلب
والقشر ظاهر يكسر ويخزو وباطن ينمى ويغزو فظاهره الذى يكسر ويخزو يتضمن الكلام فى
المحبة وأقسامها من حيث اللسان لا من حيث نوع الإنسان وباطنه الذى ينمى ويغزو يتضمن الثناء
على المحبة طبعاً وعقلاً وشرعاً ونقلاً
الخشب الذى يتخذ منه النشب ينقسم الى أقسام
القسم الأول فى الحدود والمعرفات والأسماء الدالة عليها والصفات
القسم الثانى معقول معناها المتجلى فيه نور سناها
القسم الثالث ارتباطها بالمقامات واختصاصها فيها بالكرامات
القسم الرابع تبين ضرورتها وإيضاح مزيتها
الفرع الصاعد فى الهواء على خط الاستواء من رأس العمود القائم الى منتهى الوجود الدائم

ويشتمل على قشر لطيف وجرم شريف
القشر الحدود للمعرفة والرسوم وخواص العارف الذى هو المعروف بها والموسوم وينقسم الى
فصول
الفصل الأول فى حدود المعرفة ورسومها وما قيل فيها
الفصل الثانى فى أوصاف العارف
الفصل الثالث فى تفضيل العارف
الفصل الرابع فى علوم العارف
والجرم الشريف من الفرع المنيف ينقسم الى ظاهر وباطن وقلب فالظاهر ينقسم الى أقسام
الكلام فى الأخلاق ومنشئها وطباعها بحسب القوى النفسانية وإفراطها وتغريظها واعتدالها
وعلاجها وفيه المجاهدات
والباطن يتضمن الكلام فى أن النظر الى وجه الله تعالى هو السعادة الكبرى بكل نظر واعتبار
والقلب قلب الغصن يتضمن الرياضة والسلوك على المقامات كلها ويتفرع منه عشرة غصون
الغصن الأول غصن فروع البدايات
الغصن الثانى غصن فروع الأبواب
الغصن الثالث غصن فروع المعاملات
الغصن الرابع غصن فروع الأخلاق
الغصن الخامس غصن فروع الأصول
الغصن السادس غصن فروع الأدوية
الغصن السابع غصن فروع الأحوال
الغصن الثامن غصن فروع الولايات
الغصن التاسع غصن فروع الحقائق
الغصن العاشر غصن فروع النهايات ولكل فروع أوراق ويلحق به صورة السلوك بالذكر حتى يتانى
الوصول وعلى المقصود الحصول والكلام على زهرات الطوالج واللوائح والبواده والواردات ونختم
بالجنى المقترن بنيل المنى وهى الولاية
تفرع ضخام الغصون من شجرة السر المصون وهى
غصن المحبوبات وأقسامها وتنقسم إلى أربعة أفنان
الفن الأول فن الرب المحبوب
الفن الثانى فن العبد المحبوب
الفن الثالث فن الدنيا المحبوب
الفن الرابع فن الآخرة المحبوبة
غصن المحبين وأصنافهم المرتبين ينقسم الى مقدمة بيان وستة أفنان
الفن الأول فى رأى الفلاسفة الأقدمين
الفن الثانى فى رأى أهل الأنوار والإشراقين
الفن الثالث فى رأى الحكماء الإسلاميين
الفن الرابع فى رأى المكملين بزعمهم المتممين
الفن الخامس فى أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين
الفن السادس فى الصوفية سادة المسلمين
غصن علامات المحبة وشواهد النفوس الصبة وينقسم إلى ثلاثة أفنان
الفن الأول فيما يرجع إلى حقوق المحبوب
الفن الثانى فيما يرجع إلى باطن المحب
الفن الثالث فيما يرجع إلى ظاهره
غصن اختيار المحبين فى ميدان جهادهم وتباين أحوال أفرادهم وهو ثلاثة أفنان
الفن الأول فن المجاهد الصريح
الفن الثانى فن المنبت الجريح
الفن الثالث فن الصريح الطريح
جوائج الشجرة ومضار فلاحتها المعتبرة وينقسم الى جوائج من نسبتها بالنظر إلى مائها وترتيبها
وإلى ما هو راجح إلى الخواطر وهى على عدد الرياح وإلى ما سببه غفلة الفلاح عذر الطائر الصادح
على فرض القادح ووجود الهاجى والمادح

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر والجنى والأزاهر وآثارها للحسن الظاهر بفضل المرید القاهر لا إله إلا هو سبحانه له الحمد انتهت الخطبة التي تدل على ما وراءها وقال رحمه الله تعالى فى آخر هذا الكتاب ما نصه ونختم الكلام فى هذه الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات

" فلاحتنا لها القدر المعلى ... وسرحتنا الضمنية للنجاح "

" ألسنت ترى منادى الخمس نادى ... بمختلف الجهات أو النواحي "

" يردد فى الأذان لكل واع ... على الأذان حي على الفلاح "

وهذا طائر على الشجرة صادح ولاحق كادح ومعتذر أن قدح قادح وتعارض هاج ومادح قال المؤلف ولا بد لنا من درى صادح على هذه الأفنان وشاد يهيج أشجان الجنان وبشير شجو الرأفة والحنان وببين مجال الضرورة لذوى الاتصاف بكرم الأوصاف والناظرين إلى الهنات بعيون الإنصاف فيرحم من قد كان شره النقد ويعذر من تشوف لاستضعاف هذا القصد

والأعذار التي تقرر عنا هذا الطائر عديدة ومبدئه فى الصدق معيدة وقريبة من الحق لا بعيدة فمنها أن هذا الغرض اليوم بأكثر الأرض ميدان عدم فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله من يجيل كما يحب جوادا ونغير لا يجيبه إلا من يكثر سوادا قد طمست الأعلام وسقط الحمد والملام وما لجرح بميت إيلام فمدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مغرب وإكسير يحدث عنه غير واصل ولا مجرب إنما يرجع فيه إلى كتب مقفلة وأعراض مغفلة وما عسى أن يعول المسكين مثلى على قاصر إدراكه مع اقتسام باله واشتراكه قصر العلم والعمل فاختلط المرعى والهمل وأخفق المسعى وخاب الأمل ومنها شواغل الدنيا التي اختطفت من المكاتب وموهت بالمراتب ولقبت بالوزير والكاتب وأقامت العبد الذى لا يملك شيئا مقام العاتب ومن كان بهذه المثابة وأن عد يقظا حازما ونحريرا عالما فأنما هو غريق وثائة لا يبدو له طريق ولا ينساع له ريق ولا يطفأ ببرد اليقين منه حريق ولا يربح عليه من قصاد الله تعالى فريق ونستغفر الله فالذى ألهم لهذه العيوب يتكفل بإصلاح القلوب ومكاشفة الغيوب وأن كانت النفوس للحق جاحدة فما أمرى إلا واحدة

" لا تعجن لطالب نال العلا ... كهلا وأخفق فى الزمان الأول "

" فالخمر تحكم فى العقول مسنة ... وتداس أول عصرها بالأرجل "

ومنها الاشتغال بالهذر عن العلم والنظر منذ أزمان عديدة ومدد مديدة فلم يبق مما حصل وإليه مما فى الزمان القديم توصل إلا رسم بلقع وسمل ما له مرقع ومنها أننى لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذى قل من يتعاطاه ويثير قطاه ويقنع مطاه من تلقاء نفس جاهلة بعد مداه ومطل جداه ومطالبة مدعية بما كسبت منه يدها فلا يتجاوز طوره ولا يتعداه وإن طالب الحق من شرط وصوله سلب فصوله وحاله موته وانقطاع حسه فضلا عن صوته

لكنى خضت على عدم السباحة غمرا وامثلت مع سقوط الاستطاعة أمرا وجئت بما فى وسعى انقيادا وامتثالا ومثلت مثلا فضررتي بفضل الله تعالى مشروحة والدعوى عن كفى مطروحة وعلى ذلك فقد علم الذى يعلم الأسرار ويقرب الأبرار ويقيل العثار ويقبل الأعذار أن مدة الاشتغال به لم تجاوز شهرين اثنين بين كتب وكتم وابتداء وختم مع ما يتخلل الزمان من حمل لورمى به رضى لتدعدع أو أنزل على ثبير لخشع من خشية الله تعالى وتصدع مداراة عدو قد تكالب على الإسلام وسياسة سواد صم عن الملام وتعدي حدود النهى والأحلام وارتقاب هجوم جيش الأجال وراية الشيب من الأعلام وقد انذر بالفجر انقشاع الظلام وكاد يصعد الخطيب فينقطع الكلام جعلت لنقله حصة من جنح الظلام الغاسق والليل الواسق وعاطيت حمياه نديم الغارق وتعرضت لاقتناص خياله الطارق وسرقتة من أيدي الشواغل والليل معين السارق ولم يعمل فيه عبد القيس نظرا معادا ولا أنجز من تصحيحه علم الله تعالى ميعادا إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الحجر مختلط الترب بالتبر فيدفع ملموم الماسخ إلى يد الناسخ وكلفة المتناقل إلى كف الناقل وتقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل إذ كان الأمر أيده الله تعالى ونفعه حريضا على تعجيل المعارضة ومتحريا سبيل الشرع فى هذه المصارفة والمقارضة والجفن المشرق يعلن بالتبريح وينتظر مساعدة الريح فمن وقف عليه من فاضل أثار الله بصيرته وجبل على الإنصاف سيرته أو من كان من أهل الله الذى يعلم إن ما سوى الله تعالى ظل وفىء ويتحقق معنى قوله " ليس لك من الأمر شيء " فقد أوجب الإنصاف إن يحمو اقترافي باعترافي ويغضى أوصافى بإنصافى والرحماء يرحمهم الرحمن وقد عذر القنبرة سليمان ومع

الاستسلام الأمان ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا بأس إن يعرض بتلك الأخونة الخصيبة المثوى والمروج والحمل والفروج وفى السماء البروج وفى الأرض الفروج والأعرج يستندر منه العروج ونمد الأيدي

المستعملة فى التقصير إلى الولى النصير والناقد البصير اللهم استر بسترك فضائنا المخلفة
وقبائنا المجمعمة المؤلفة فهو كله تحويم حول حماك وندنة يا كريم بباب رحماك وزند أنت قدحته
وتألق بارق أنت الحته فصل السبب يا واصل الأسباب واجعلنا ممن تذكر فنفعته الذكرى وما يتذكر
إلا أولو الألباب اللهم دل نفوسنا الحائرة على عين الخبر واجذبها إلى المؤثر بزمام الأثر اللهم اجر
الضالة المثقلة الظهر وارفع عنها ملكة القهر وحيطة الدهر والسفر من بلد السر إلى بلد الجهر
اللهم أعلق بعروة الحق أيدينا الخابطة وأظفر بعدو الهوى عزائمنا المرابطة اللهم أوصل سببنا
بسببك واحملنا إليك بك لا إله إلا أنت وصل على عبدك ونبيك محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله
والصحابه أجمعين انتهى

وقال رحمه الله تعالى آخر بعض تراجم هذا الكتاب ما صورته خاتمة تشتمل على إشارات ونختال
من الحق فى شارات قال بعض من يطأ بمطية السلوك حمى الملوك وينقض زوايا الغيوب عن
المطلوب ببصر بصائر القلوب شهدت أصناف المحبين والعشاق على اختلاف البلاد وتباين الأفاق لا
أدرى أقال كشفها وشهودا أو فرضا أو وجودا أو يقظة أو هجودا وقد ركضوا مطايا الأشواق وضربوا
أباطها بعضى المشارب والأذواق وتزودوا ازواد الحقائق وودعوا أحباب العوائد والعلائق وتساهلوا فى
المحبوب اعتراض العوائق وتفاضلوا فى اختيار الجواد واقتحام المضائق والطرق إلى الله تعالى عدد
أنفاس الخلائق فمن خابط عشواء ومسقط أهواء يقول
" يا ليت أنى أوقد النارا ... فإن من يهواك قد حارا "

فيحييه الصدى

" ومن طلب الوصول لدار ليلى ... بغير طريقها وقع الضلال "

ومثبت بحيث لا يبدو علم ولا يقتص خوف ولا قدم فى مغازة وجود من حلها عدم وهو يصيح
بأبى وأمى والذى ملكت يدي ... أفدي الذى يهدي الطريق اللاحيا " ثم يقول "

" ولقد سررت إليك لكن حين لم ... يكن الدليل أجل قصد السالك "

ومن طاو نقد زاده وفرغ مزاده قد استسلم وعجز أن يتكلم ولسان حاله ينشد
" إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ... ندمت على التفريط فى زمن البذر "

وراكض يقطع الدو ويعرف الجو بثبت الأعلام الخافية ويقصد الموارد الصافية والظلال الصافية حادية
أمله ودليله علمه والراحلة عمله ينشد بأعلى صوته
قرب اللقاء فكيف لا ترتاح ... للقاء سكان الحمى الأرواح " وفرانق يركض البريد ويصحب التفريد بلغ "

الطية وأناخ المطية قبل وصول الرفقة البطية
سرى سلخ شهر فى فواق حلوية ... فله ما أنأى سراه وما أدنى " لو اطلعت عليهم لوليت "

منهم فرارا ولملئت منهم رعبا " الكهف وقلت "

" نهضوا وقد جن الدجى وتخالفت ... سبيل الردى فمسد دون وضلل "

" سلنى عن المنبت حين تقطعت ... أسبابه تيهها ولا من يسأل "

" قوم سبط بهم السباع وفرقه ... عطشوا وأين من الظماء المنهل "

" لفح الهجير وجوههم بسعيه ... فتهافتوا ببلاله وتعللوا "

" وجماعة ركبوا المفاوز دائما ... عثروا على أثر فشط المنزل "

" وركائب جعلوا الدليل أمامهم ... وسروا ففازوا بالذى قد أملوا "

" والليل متلفة ومدرجة الهوى ... لا يستقل بها المطى الذلل "

" والواصلون هم القليل وكيف لا ... قفر ومسبعة وليل أيل "

" يا رحمة للعاشقين تفحموا ... خطر النوى وعلى الشدائد عولوا "

" طارت بهم أشواقهم فعقولهم ... معقولة عن شأنها لا تعقل "

" عذرا لكم يا أهل عذرة شأنكم ... سلمت فيه لكم فقولوا وافعلوا "

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك وافلت من أفلت من الشرك وسلم من قتل المعترك
واشرفوا بركاب الآمال على ثنيه الجمال زعقوا بإزاء الباب ونادوا من وراء الحجاب
" كل كنى عن شوقه بلغاته ... ولربما أبكى الفصيح الأعجم "

وأوصلوا رفاع شكواهم بسير هواهم وبرزوا صفا واستظفروا بشفعائهم التى ظنوا أنها لا تخفى " ما
نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " الزمر وقد تعينت الأوصاف وتميزت وانتبذت الأصناف وتحيزت
والعشاق نجت وسلمت مذ علمت منهم الصفة والمجان والجرافيش والبهلوان ممن يعول على
ذراعه وملء كتمته وصواعه وطول باعه وصلابة طباعه وسلطنة لسانه وامتزاج إساءته بإحسانه
شأنه البحث عن المحبوب مع الشروق والغروب والتوصل إلى وصله المطلوب بالحركة الرشيقة

واللفظ الخلوب ومن اتسم بإذاعة الأسرار وصحبه الشرار
واللسان المهذار حسب من الأعيار ومنهم بذاة ليس لهم إلا المنادمة أداة تعذر عليهم تميز
المحبيب فغلطوا وعكفوا على تنزيهه فافرطوا
" ربما ضر عاشق معشوقا ... ومن البر ما يكون عقوقا "

وغلبت على سجيتهم السلامة ولم تنلهم لعدم الموصل والمعرف الملامة وليس للقبول عليهم
علامة ومنهم من شعاره الحشمة ولزيمه العفاف والعصمة أولو الحياء والوقار والكتم للأسرار
ومخالطة الأبرار والتوسل إلى المحبوب بالافتقار وصفاء الضمائر من الأكدار لا تختلجهم الشواغل ولا
يطرق شرابهم الواغل أغنتهم الشواهد عن الدعوى وأصمتهم الرضى عن الشكوى وتقسمت
معاملاتهم الآداب وضح منهم إلى مراتب المراقبة الانتداب والناقد بصير وكلام النيات قصير ومنهم
المغلوب الحال المحمول من فوق الرجال رقص وشطح وسكر فافتضح فهو بلخ الرفقة وملوع الحرقه
دعنى وعبيدي بلخ فانه يضحكنى سبع مرات فى اليوم ومنهم من لم يأخذه نعت ولا تعين له فوق
ولا تحت ولا حمد ولا مقت ولا حين ولا وقت لو نطق لقال أنا المعدوم الموجود والشاهد المشهود "
ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود " هود
" قضى وصلها لى وابتلاككم بحبها ... وهل يأخذ الإنسان غير نصيبه "
ولم يكن إلا أن خرجت الرقاع وفضلت البقاع " ووفيت كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون " آل
عمران
فكان فى رقعة طائفة أعود بالله من الشيطان الرجيم " وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من
وراء حجاب أو يرسل رسولا
فيوحى بإذنه ما يشاء " الشورى قلدتم العقل وله طور ورأيتم الحركات لا يتناهى لها دور وعالم
الجزئيات لا يسير له غور وحوار المعاد فى بعض الفروض لا يكون له كور ويا شر ما أصبحتم فى
المعاد الأول تعتقدونه أن جعلتم التصرف فى عالم الملك لمن دونه قفوا مكانكم ولوموا أنفسكم
ودعوا شأنكم
وكان فى أخرى أعود بالله من الشيطان الرجيم " ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا " الحديد أساطين
الحكمة المشرقية وفراس الأنوار الحقيقية دعونا من استكثار الأنوار واحتشاد الأطوار الحق نور
إرشاد لا يطبق حسن ذاته إلا من ركب ظهر شتاته فارفعوا الكلف واذكروا مجرى من تقدم وسلف
وكان فى أخرى أعود بالله من الشيطان الرجيم " قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون " الأنعام لم
تتركوا البراهين على أصلها ولا ناسبتهم جنس هذه الموضوعات بفصلها وأثرتم شغبا طويلا وأوسعتم
المتشابه تأويلا ولم تعتمدوا من العقل دليلا ولا وقفتهم فى مجازات العقول قليلا وهولتم باصطلاح
غيركم تهويلا وادعيتهم الشهود ولم يجعل الله تعالى فى الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلا وبنيتهم
الحقائق على قياس ونظر من غير عين للعقل والنقل ولا أثر
" رب خل أدار فى اعتقادا ... لم أكن قبله عرفت بفنه "
" حكمت نفسه على علم غيبي ... جعل الله باطنى عند ظنه "
وعسى أن تكونوا ممن أخطأ فى اجتهاده فأثيب واستغفر فسمع لا
تثريب فثمرتكم صحيحة والمقاصد من التبعة مريجة إذا كانت صريحة ولولا الافتيات لوضحت فى
ميدان السبق لكم الشيات لكن شأنكم الهذيان وقلبت منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان كابن
قسى وابن بركان فتبروا من أتباعكم المطيفة وأحزابكم المخيفة وأخلصوا فعل الأنصار يوم قتال
بنى حنيفة وحذا الحكم المقتدى ومن يهد الله فهو المهتدى واكبجوا الألسن عن طلاقها وذلاقتها
ولا تكلفوا العقول فوق طاقتها فلا بد من توقيف وتسليم وفوق كل ذي علم عليم وإذا محيتم فاثبتوا
أو نطق إنسان فاسكتوا ولا ترضوا أن تكتبوا مع الذين كتبوا ولكم الحظ السننى والوصل الهنى
وكان فى أخرى أعود بالله من الشيطان الرجيم " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لأعين ما
خلقناهما إلا بالحق " الأنبياء ذهب بوجودكم العدم وابتلع حدوثكم القدم ورضيتم بالإشراف فى
الاستشراف والتوغل لزيم الانحراف ومن جعل الحس وهما فقد كابر العيان ظلما والعقل الذى
غلطكم هو آلة حكمكم وأداة علمكم والعوالم أوثق من أن تكون تمويه راقش والوجود المطلق أبسط
من أن يصير أبا براقش ثم ما لكم والتنجح والتشيع والتعقب والتتبع ولم يغن العراك ووقع فى
ثمرتكم الاشتراك الفيلسوف يتحد بالعلة القريبة من الخلق ثم يتلاشى فى ذات الحق والحكيم
يجوز إلى عين الحق رتبة الفناء المطلق والمنتشرع قد
عضده ونصره كنت سمعه وبصره وإن كان معظم القول الهذر ففيكم بعد نظر
وكان فى أخرى أعود بالله من الشيطان الرجيم " والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع

المحسنين " العنكبوت أنتم الأحباب ولكم يفتح من الجنان الأبواب ركبتم ظهور الأعمال وركب غيركم ظهور الآمال وفزتم بسحب الأذيال ومن دونكم يحوك عناكب الخيال فبدأتكم الأساس الوثيق الذي يبنى عليه التحقيق ونهايتكم إليها ينتهى الطريق وبها يحط فريق الله تعالى ونعم الفريق أولكم المقرب المدرب وأوسطكم الفرد المعرب وآخركم الولي المقرب حضرتكم بذكر محبوبكم حتى غبتم فهنيئاً لكم طبتم حواس مسدودة وخبوط أفكار كلها ممدودة ومشاهد مشهودة ومغلطات تتجاوز حراسها وقواطع معترضة بحل مراسها إلى أن لا توجد تقية ولا تبقى بقية عند تجلى المعالم الخفية لو اشتمل العلم على عملكم لكان الكل من هملكم بحيث تتعين المراتب وتتميز وتتقرر المشارب وتتحيز فلا يعترض قاطع إلا وقد علم شأنه وتعين وقته ومكانه ولا تمثل غاية إلا ودرجها محدودة ومرآحها معدودة ومشاهدها قبل دخول الطريق مشهودة فهناك تطوى المراحل ويلوح فى اللمحة القريبة الساحل ويأمن طول الطريق الواصل

وكان فى رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأدخلوا من بعد ما تخيروا للاصطفاء وانتخلوا أعود بالله من الشيطان الرجيم " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض

والله سميع عليم " آل عمران أنتم الأحباب ولباب الألباب وبوساطتكم اتصلت بين النفوس وبين الحق الأسباب لولاكم لم يفتح الباب فلا يصل إلا من أوصلتم ولا يحجب إلا من قطعتم وفصلتم أنتم الرعاة والخلق الهمل وأنتم الدعاة لمن يريد نيل الأمل مهدت لكم سرر القرب تمهيداً ويعتتم إلى الناس ليوحدوا الله توحيداً " ولتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً " البقرة فطوبى لمن أصاح منكم إلى ندا واستضاء بنور هدى صلوات الله عليكم أبداً أنتم أولو الألوية المعقودة والعساكر المحشورة المشهورة ورؤساء أهل المحبة وأدلاء مبتغى الوسيلة والقربة ومسالككم قد بينتها الصحف المنزلة والملائكة المرسله ودخلت على العذارى خدورها وعمت السماء وبدورها وأغنت عن تقرير نحلها المكاتب المانجة بالصبيان والسنن المعقودة لها حلق التبيان والقواعد المفترضة على الأعيان والخزائن المرصوفة بعلوم الأديان " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " المائدة وقيل لأتباعهم من الجمهور وأقطاب فلكرم المشهور على قدر أتباعكم منافل أنواعكم وبحسب أفتدائكم يكون سماع ندائكم والمهاد لمن وثره " ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره " الزلزلة وتأخيركم فى التوقيع هو التقديم وساقى القوم آخرهم شرباً مثل قديم قال المخبر فرأيت وجوههم قد تهللت ونواسم المسرات نحوهم قد أقبلت ومن سواهم من خالص وزائف بين راج وخائف وسمعت أن طائفة استدعيت بحث حفى وأدخلت من باب خفى قيل لهم هم أصحاب الخبر المكتوم وأرباب المقام غير المعلوم جعلنا الله تعالى منهم برحمته

" ولولا الحب ما قطعوا الفيافى ... ولولا الحب ما قطعوا البحارا "

" فدعهم والذى ركبوا إليه ... وبحثا عن خلاصك واختيارا "

فلا تشغل بحب ديار ليلى ... ولكن حب من سكن الديارا " وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير " ما نصه وقد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه ومع ذلك مخبون وعلى آثار الحبيب مكبون ما كل طريق توصل ولا كل تجارة على الربح تحصل ومن العشاق مهجور ومطرود وموصل وموعود ومغبوط ومحسود ومحروم ومجدود ومرحوم ومردود

" يا غايتهى ولكل شىء غاية ... والحب فيه تأخر وتقدم "

" قل لى بأى وسيلة يحظى بما ... يرجوه غيرى من رضاك وأحرم "

ورقة ولكل دائرة مفروضة وهالة حول قمر الحق معروضة تعود الخطوط من محيطها المسدد إلى مركزها المحدد فالفيلسوف يروم التشبث بالعلة الأولى ويعنى بها ذات الحق أو أن يتحد بالثانية وهى مرآة وجه الحق والإشراقى يروم التجوهر بنور الأنوار المعبر عنه بالحق والاتصال به إما بواسطة من الحق أو بغير واسطة من الحق والحكيم أن يؤديه فكره إلى الحق ثم يفنى فى الحق ثم يبقى بالحق والمتشرع أن يجن فى جنة الحق ويحصل على حوار الحق وينظر إلى حوار الحق وصاحب الوحدة المطلقة أن يكون المتفرق عين الحق فسبحان الحق المعبود بالحق الموجد الجمع فى الفرق لا إله إلا هو وزيد فى هذا المحض الذى كثر فى قربه الدعداع وطال على الرؤوس منه الصداع ما تفرد له المقالة المختصرة والعناية الميسرة بحول من لا حول ولا قوة إلا به انتهى وقال رحمه الله تعالى فى عد ما عدد من فرق الاعتزال ما نصه

" الحب حركهم لكل جدال ... والحب أقحمهم على الأهوال "

" والحب قاطع بينهم وأضلهم ... عن نيل ما راموه كل ضلال "

" والحب أنشأ فيهم عصبية ... بالقليل أضرم نارها والقال "

وأنا استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمل حركات هذا الفراش المختلف الآراء عن ذبال الحق بيتغون إليه الوسيلة قوم بالطاعة وقوم بالمعصية وما منهم إلا مدع في المحبة متهاكك حريص على السعادة بزعمه " وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة " الغاشية ممن قصد الحق فأخطأه وأراد الصواب فضل عنه واشتهر بالحكمة بعد في الملة الإسلامية جماعة بالمشرق والأندلس فمن المشاركة أبو الفرج ويعقوب الكندي وحنين بن إسحاق وثابت بن قررة فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة والمزاولة إلى أن قال ومن أهل الأندلس محمد بن مسعدة السرقسطى وأحمد بن طاهر الطرطوشي ويحيى بن عمران القرطبي وطفيل بن عاصم وكليب بن همام البياسى والحسن بن حرب الدانى وابن مسرة ومسلمة المجريطى وأبو بكر ابن الصائغ وأبو بكر ابن طفيل وأبو الوليد ابن رشد وكل هؤلاء المتقدمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك قال الشاعر

" وعلى أن أسعى وليس ... علي إدراك النجاح "

" حيارى يميد بهم شجوههم ... كأنهم ارتضعوا الخندريسا "

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة " واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين " هود " فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة " الأعراف " قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " " قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين " الأنعام والخلق قد مدوا أبصارهم وآمالهم وتحركوا طوعا وكرها يعيشون إلى نور الله تعالى فمن أعمى أعمى لا يسمع ولا يبصر وأعمى فقط يجتزىء عن العيان بالمخبر وأحول يبصر الشىء شيئين والواحد اثنين كما قال الشاعر

" أحوى الجفون له رقيب أحول ... الشىء فى إدراكه شيئان "

" فيلوح فى عينى منه واحد ... ويلوح فى عينيه منه اثنان "

" يا ليته ترك الذى أنا مبصر ... وهو المخير فى الحبيب الثانى "

وضعيف لا يبصر من بعيد وأجهر لا يبصر من قريب وأعشى تكثر فى عينيه الأشعة وربما تندر وزرقاء اليمامة

" سبحان من قسم الحظوظ ... فلا عتاب ولا ملامة "

" أعشى وأعمى ثم ذو ... بصر وزرقاء اليمامة "

" لولا استقامة من هداه ... لما تبينت العلامة "

" ومجاور الغرر المخيف ... له البشارة بالسلامة "

أقام سبحانه الحجة وفرق بين الأمر والإرادة وأعطى الكفاية من القدرة " فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون " الحديد اقتصرنا من هذا البحر على نقطة ومن هذا الودق على قطرة

" ... ومن يسد طريق العارض الهطل "

" ... عد الحصى والقطر ليس يران "

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكرا من غير تبويب ولا تعيين لشياع آرائهم والعلم بمقاصد مللهم وأغراض دعواتهم من توحيد الله تعالى وتنزيهه وصفاته وأسمائه وكيف يحشر الناس ليوم لا ريب فيه " ولتجزى كل نفس بما كسبت " الجاثية وتعليم طرق النجاة وإيضاح سبيل الله تعالى والتحذير من الغفلة عمن إليه الرجعى وله الآخرة والأولى والتخويف من كل ما يقطع عنه والترغيب فيما يوصل إليه وشان الرياضة والتدريج فى أحوالها حتى تنتقل من الطواهر إلى البواطن وتسرى فى الخلف من السلف والندب إلى الاقتصار على الضرورة والفناعة بالبلاغ وتبين الرسم فيها والتعيين لحدودها قد تضمنت ذلك كله آيات الله التى تكفل بحفظها وسنة رسوله التى قبض مناخل الصدق لتصحيح نقلها فالمكاتب والمنة لله تعالى مائجة والمدارس حافلة فما لنا والإطالة فى الموجود الذائع والمشهور الشائع

" والشمس تكبر عن حلى وعن حلل "

" فهى الدراري فى التقليد بالدرر "

ما أغنى الشمس عن مدح المادح تحصيل الحاصل عناء " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " التوبة

فلنذكر بعض أرباب الآراء من قريب وبعيد وخلق جديد على صورة

المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذى تجزىء منه الحفنة عن الجفنة والقربة عن القرية
ونقتصر على اليسير لإقامة الترتيب وإحكام التبويب وليرى الواقف عليه أننا قد نفضنا الزوايا ورشفنا
الروايا وإمتكنا العظام واستقصينا النظام حرصا على نشيدة الحق أن تعقل وعلى الطباع أن تنقل
وعلى المرائى الصدئة أن تصقل وعلى صورة النجاة أن تمقل ونسأل الله تعالى هداية توصل إليه لا
إله إلا هو الرحمن الرحيم انتهى
وقال رحمه الله تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته غصن المحبين وأصنافهم المرتبين
ويشتمل على مقدمة بيان وستة أفنان
فالمقدمة فنقول أصناف المحبين والعشاق كثير وهباء نثير وجراد أثارها مثير بحيث يشق إحصاؤهم
ولا يتأتى استقصاؤهم
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى ... قتيلك قالت أيهم فهم كثر " ثم مد النفس بما لا يقتضى "
المقام الاختصاري ذكره فى هذا الموضوع
وقال رحمه الله تعالى فى بعض تراجم الروضة وهى الخاتمة التى تنبه النفوس الصبة على حكم
المحبة " ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة " الأنفال بعد كلام ما صورته فقر فى
معنى هذه الخاتمة فيها حكم تنثال وتجري مجرى الأمثال
المحبة بحر بعيد الشط وخط والفناء منتهى الخط " إنا عرضنا الأمانة " إلخ الأحزاب
المحبة مهوى بعيد ومجال وعد ووعيد مرجل يغلى ثم خيال يولي وليس له حد عليه يعول
المحبة ظهر لا يركبه من يرى الموت فيتنبكه ولا يعلوه من يأتى
إلى وادى الفناء فيسلوه " إن الله مبتليكم بنهر " البقرة كم قصمت المحبة من ظهر وكم سر صيرت
إلى جهر أولها العار المشهور وآخرها الطى المنشور ثم الموت ثم النشور " وأشرق الأرض بنور
ربها ووضع الكتاب " الزمر
المحبة أنس يستدرج ثم شوق يلجم ويسرج ثم فناء يزعج عن الوجود ويخرج
" على قدر أهل العزم تأتي العزائم "
المحبة كاس كم جردت من كاس وأس من شمه لم يجد من أس
" متى أرتجى يوما شفائى من الضنى ... إذا كان من يجنى على طيبي " "
تراجم أنفاس المحبين على خطرات الصبا تراجم الهباء على مطارح شعاع الدبا فلولا بليلها لالتهبت
وتعليل عليها لتلك الأرقام لذهبت
" عليلة فى حواشى مرطها بلل ... يهدى لكل عليل منه إبلال "
المحبة رقة ثم فكرة مسترقة ثم ذوق يطير به شوق ثم وجل لا يبقى معه طوق ثم لا تحت ولا
فوق
" أينما كنت لا أخلف رجلا ... من رأنى فقد رأنى ورحلى "
الهوى هوان وحمام له ألوان دمع ساجم ووجد هاجم وهيام لا يبرح ثم وراءه ما لا يشرح قال
" بمن جن وهل فى الورى ... ما يبعث الخبل سوى حبه "
من اقتحم بحر الهوى هوى لا تدخل فى بحر الهوى حتى تشاور صبرك وتجاوز قبرك فان كنت منا أو
فرح بسلام
الهوى طريق ولسلوكة فريق الزاد سر مكتوم ووفاء معلوم
" وللميادين أبطال لها خلقوا ... وللدواوين حساب وكتاب "
الحب حج ثان لا يثنى نفس المرید عنه ثان طريقة التجريد وزاده الذكر وطوافه المعرفة وإفاضته
الفناء " فإذا أفضمتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من
قبله لمن الصالين " البقرة
الغرام صعب المرام والدخول فيه حرام ما لم يكن فيه شروط كرام من عرف ما أخذ هان عليه ما ترك
" وربك يخلق ما يشاء ويختار " القصص ظهر الهوى طريقا سهلا فكثير التائهون جهلا
إذا لم يكن عون من الله للفتى ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد " والعكس "
قد يخبأ المحبوب فى مكروهاها ... من يخبأ المكروه فى المحبوب " وقال الشيخ "
" هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل ... فما اختاره مضى به وله عقل "
" وعش خاليا فالحب راحته عنا ... واوله سقم وآخره قتل "
" نصحتك علما بالهوى والذى أرى ... مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو "
" فمن لم يمت فى حبه لم يعيش به ... ودون اجتناء النحل ما جنت النحل "
طريق القوم مبنية على الموت وإليه الإشارة بقوله موتوا قبل أن تموتوا بيدى لا بيد عمرو وقال

بعضهم رأيت رب العزة فقلت يا رب بم أصل اليك قال فارق نفسك وتعال
" رفض السوى فرض على العين ... لا تخلطن الحق باليمين "
" والأين والكيف سوى ظاهر ... فاستغن عن كيف وعن أين "
الخشب الذى يتخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام وأجزاء جسام القسم الأول فى الحدود
والمعرفات والأسماء الواقعة والصفات
وللسان الدين رحمه الله تعالى فى المواعظ اليد الطولى قال فى الروضة فى الفصل الثانى فى
محركات العزيمة وهى اليقظة ما نصه قلت والمحركات المشتركة فى باعث اليقظة كثيرة منها
الوعظ السائق بمقود الشارد عن الله تعالى إلى مريب التوبة ومحرك العزيمة يردد أذانه على نوام
أهل الكهف وقد ضرب نوم الغفلة على أذانهم حتى يحول بينهم وبين أذانهم ويركبهم ظهر الرياضة
التي تلحقهم بالمجدوبين من إخوانهم ولما كان حب الدنيا هو المانع عن الشروع فى إطلاق العمل
والقاطع به بعده لم يجد أساة خبل الهوى وحنون الكسل أنجع من رقى العذل والتأنيب وتقبيح
المحبوب سيما إذا انزعجت نبال نبلة عن حنيات ضلوع الصدق وقال بعضهم الكلام إذا خرج من
القلب دخل القلب
" أوقد النار من رسالة ليلى ... واحذر السيل بعدها من دموعى "
ولا تعدل الوعظ البليغ باللسان الفصيح والقلب القريح فإذا رأيت الأرض قد اهترت وريت وهضاب
القلوب القاسية قد تقلبت فشمر للغراس والزراع عن الذراع واغتنم السراع والإسراع
" إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل عاصفة سكوتا "
" حفر لها ماء يربها بدأة ... واضمن لها حوضا وإن لم تحفر "
" واربا بنفسك عن تسامح بائع ... واغنم إذا سامتك شهوة مشترى "
قالوا الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط فى بساط اللذات وينقل
خطواتها عن الخطو فى ملعب الخطيئات ويمثل لها الصبر عيانا ويبين العواقب المحجوبة بيانا
وينشئ سحاب الحزن فى أجواف أجزائها ويذكرها بمآلها وانتهائها ويعرض عليها مصارع فنائها
وخراب بنائها وفراق حباؤها وأبنائها عند نزول هادم اللذات بفنائها فترجع إلى الله تعالى بحكم
الاضطرار أفكارها وتخضع من خيفة الله تعالى وجلاله أبقارها
والوعظ يكون بلسانين ويوجد فبين لسان حال ولسان مقال وربما كان لسان الحال ابلغ وهو يسمع
من القبور الموحشة والقصور الخالية والعظام البالية وفيه حكايات وأخبار ولسان المقال كقوله
سبحانه وتعالى " وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا
لكم الأمثال " إبراهيم وهو سبيل الله تعالى التى بعث بها النبيين وضمن فصولها الكتاب المبين
والسوط الذى يحمل على الأوبة ويسوق ذود المتطهرين إلى غدير التوبة ونحن نجعله هنيئة بين
يدي الفراسة لتزكية النفوس إن صدق حكم الفراسة فمن ذلك ما صدر عنى على لسان واعظ
الحمد لله الولى الحميد المبدى المعيد البعيد فى قربه من العبيد القريب فى بعده فهو أقرب من
حبل الوريد محبى ربوع العارفين بتحيات حياة التوحيد ومعنى نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار
إلى العرض الزهيد ومخلص خواطر المحققين من سجون دجون التقييد إلى فسح التجريد نجمده
وله الحمد المنتظمة درره فى سلوك الدوام وسموط التأييد حمد من نزه أحكام وحدانيته وأعلام
فردانيته عن مرابط التقليد ومخاطب الطبع البليد ونشكره بشكر من افتتح بشكره ابواب المزيد ونشهد
أنه الله الذى لا إله إلا هو شهادة نتخطى بها معالم الخلق إلى حضرة الحق على كبد التفريد
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله فلادة الجيد المجيد وهلال العيد وفذلكة الحساب وبيت القصيد
المخصوص بمنشور الإدلال
واقطاع الكمال بين مقام المراد ومقام المرید الذى جعله السبب الأوصل فى نجاة الناجى وسعادة
السعيد وخاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجتى الوعد والوعيد فكان مما أوحى به إليه وأنزل
الملك به عليه من الذكر الحميد ليأخذ بالحجز والأطواق من العذاب الشديد " ولقد خلقنا الإنسان
ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " ق الى قوله حديد صلى الله عليه
وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الأکید وتسرى إلى تربته الزكية من ظهور المواجد الجائية على
البريد
" قعدت لتذكير ولو كنت منصفا ... لذكرت نفسى فهى أحوج للذكرى "
" إذا لم يكن منى لنفسى واعظ ... فى ليت شعرى كيف أفعل فى الأخرى "
أه أي وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبائنا يسمع وفى ماذا وقد تبين الرشد من الغي يطمع يا من
يعطى ويمنع إذا لم تقم الصنعة فماذا نضع اجمعنا بقلوبنا يا من يفرق ويجمع ولين حديدها بنار

خشيتك فقد استعاذ نبيك صلى الله عليه وسلم من قلب لا يخشع ومن عين لا تدمع اعلموا رحمكم الله أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ومن الجماد والحيوان وما أملاه الملوان فإن الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل وانتم تدرن انكم فى أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رحله ولا تتأتى معها إقامة ولا مهلة من الأصلاح إلى الأرحام إلى الوجود إلى القبور إلى النشور إلى إحدى داري البقاء أفى الله شك فلو أبصرتم مسافرا فى البرية بينى وبغريش وبمهد وبعرش ألم تكونوا تضحكون من جهله وتعجبون من ركاكة عقله ووالله ما أموالكم ولا أولادكم وشواغلكم عن الله التى فيها اجتهدكم إلا بقاء سفر فى قفر أو إعراس فى ليلة نفر كأنكم بها مطرحة تعبر فيها المواشى وتنبو العيون عن خبرها المتلاشي " إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم " الانفال ما بعد المقلب إلا الرحيل ولا بعد الرحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الويل وانكم تستقبلون أهوالا سكرات الموت بواكر حسابها وعتب أبوابها فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الأبواب وما كل حقيقة يشرحها الكلام " يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " فاطر أفلا أعددتم لهذه الورطة حيلة وأظهرتم للاهتمام بها مخيلة اتعوبلا على عفوه مع المقاطعة وهو القائل فى مقام التهديد " إن عذابى لشديد " إبراهيم أمانا من مكره مع المنايذة " فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون " الاعراف أطمعا فى رحمته مع المخالفة وهو يقول " فسأكتبها للذين يتقون " الاعراف أمشاقة ومعاندة " ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب الحشر أشكا فى الله فتعالوا نعيد الحساب ونقرر العقد ونتصف بدعوة الحق أو غيرها من اليوم تفقد عقد العقائد عند التساهل بالوعيد فالعامى يدمي الإصبع الوجعة والعارف يضمدها مبدأ العصب " هكذا هكذا يكون التعامى ... هكذا هكذا يكون الغرور "

يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون " يس وما عدا عما بدا ورسولكم " الحريض عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى فعلام بعد هذا المعول وماذا يتأول اتقوا الله سبحانه فى نفوسكم وانصحوها واغتنموا فرص الحياة واربحوها " أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى " جنب الله وأن كنت لمن الساخرين "

الزمر وتتادي أخرى " هل إلى مرد من سبيل " الشورى وتستغيث أخرى " يا ليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل " الاعراف وتقول أخرى " رب ارجعون " المؤمنون فرحم الله من نظر لنفسه قبل غروب شمسه وقدم لغده من أمسه وعلم أن الحياة تجر إلى الموت والغفلة تقود إلى الفوت والصحة مركب الألم والشيبية سفينة تقطع إلى ساحل الهرم وأن شاء قال بعد الخطبة إخوانى ما هذا التوانى والكلف بالوجود الفانى عن الدائم الباقي والدهر يقطع الأمانى وهادم اللذات قد شرع فى نقض المبانى ألا معتبر فى عالم هذه المعانى ألا مرتحل عن مغابن هذه المغانى

" ألا أذن تصغى إلى سميعة ... أحدثها بالصدق ما صنع الموت " " مددت لكم صوتى فأواه حسرة ... على ما بدا منكم فلم يسمع الصوت " " هو القدر الأتى على كل أمة ... فتوبوا سراعاً قبل أن يقع الفوت " " يا كلفا بما لا يدوم يا مفتونا بغير الوجود المعدوم يا صريع جدار الأجل المهدوم يا مشتغلا ببنيان الطرق قد ظهر المناخ وقرب القدوم يا غريقاً فى بحار الأمل ما عساک تعوم يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب لا بد أن تهجر المشروب وتترك المطعوم دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر وطوي البساط وانت تكرب واقتلع جواهر الجوارح وقد وقع بك النهب ولم يبق إلا أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد

" لو خفف الوجد عنى ... دعوت طالب تاري " " كلا إنها كلمة هو فائلها " المؤمنون كيف التراخى والفوت مع الأنفاس ينتظر كيف الأمان وهاجم " الموت لا يبقى ولا يذر كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صح الخبر من فكر فى كرب الخمار تنغصت عنده

لذة النيذ من احس بلغظ الحريق فوق جداره لم يصغ بصوته لنغمه العود من تيقن بذل العزلة هان عليه ترك الولاية

" ما قام خيرك يا زمان بشره ... أولى لنا ما قل منك وما كفى " أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أن ضع يدك على متن ثور فبعدد ما حادثه من شعره تعيش سنين فقال يا رب وما بعد ذلك قال تموت قال يا رب فالآن

" رأى الأمر يفضى الى آخر ... فصير آخره أولا "

إذا شعرت نفسك بالميل الى شىء فاعرض عليها غصة فراقه " ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من
حي عن بينة " الانفال فالمفروح به هو المحزون عليه اين الأحباب مروا فيا ليت شعري اين استقروا
استكانوا والله واضطروا واستغاثوا بأوليائهم ففروا وليتهم إذا لم ينفعوا ما ضروا فالمنازل من بعدهم
خالية خاوية والعروش ذابلة ذاوية والعظام من بعد التفاضل متشابهة متساوية والمسكن تندب فى
أطلالها الذئاب العاوية

" صحت بالربع فلم يستجيبوا ... ليت شعري اين يمضى الغريب "

" ويجنب الدار قبر جديد ... منه يستسقى المكان الجديد "

" غاض قلبى فيه عند التماحى ... قلت هذا القبر فيه الحبيب "

" لا تسئل عن رجعتى كيف كانت ... أن يوم البين يوم عصيب "

" باقتراب الموت عللت نفسى ... بعد إلفى كل أت قريب "

أين المعمر الخالد اين الولد اين الوالد اين الطارف اين التالد اين المجادل اين المجالد " هل تحس
منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا " مريم وجوه علاهن الثرى وصحائف تفض وأعمال على الله تعرض
بحث الزهاد

والعباد والعارفون والأوتاد والأنبياء الذين يهدى بهم العباد عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده
فلم يجدوا إلا البعد عن الله تعالى وسببه حب الدنيا لن تجتمع أمتى على ضلالة
" هجرت حبايى من أجل ليلى ... فما لي بعد ليلي من حبيب "

" وماذا أرتجى من وصل ليلى ... ستجزي بالقطيعة عن قريب "

وقالوا ما أورد النفس الموارد وفتح عليها باب الحتف إلا الأمل كلما قومتها مثاقف الحدود فتح لها
أركان الرخص كلما عقدت صوم العزيمة أهداها طرف الغرور فى أطباق حتى وإذا ولكن وربما فأفرط
القلب فى تقلبيها حتى أفطر

" ما أويق الأنفس إلا الأمل ... وهو غرور ما عليه عمل "

" يفرض منه الشخص وهما ما له ... حال ولا ماض ولا مستقبل "

" ما فوق وجه الأرض نفس حية ... إلا قد انقض عليها الأجل "

" لو أنهم من غيرها قد كونوا ... لامتلأ السهل بهم والجبل "

" ما ثم إلا لقم قد هيئت ... للموت وهو الأكل المستعجل "

" والوعد حق والورى فى غفلة ... قد خودعوا بعاجل وضلوا "

" اين الذين شيدوا واغترسوا ... ومهدوا وافترشوا وظللوا "

" اين ذوو الراحة زادت حسرة ... إذ جنبوا إلى الثرى وانتقلوا "

" لم تدفع الأحباب عنهم غير أن ... بكوا على فراقهم وأعولوا "

" الله فى نفسك أولى من له ... ذخرت نصحا وعتابا يقبل "

" لا تتركها فى عمى وحيرة ... عن هول ما بين يديها تغفل "

" حقر لها الفانى وحاول زهدا ... وشوقها الى الذى تستقبل "

" وفد الى الله بها مضطرة ... حتى ترى السير عليها يسهل "

" هو الفناء والبقاء بعده ... والله عن حكمته لا يسأل "

" يا قرة العين ويا حسرتها ... يوم يوفى الناس ما قد عملوا "

يا طرداء المخالفة إنكم مدركون فاستبقوا باب التوبة فان رب تلك الدار يجير ولا يجار عليه فإذا أمنتهم
فاذكروا الله كما هداكم يا طفيلية الهمة دسوا أنفسكم بزمر التائبين وقد دعوا إلى دعوة الحبيب
فإن لم يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة قال بعض العارفين اذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى
انتشرت رعايا الطاعة فى عمالة الأعمال " وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب " الزمر معانى
هذا المجلس والله نسيم سحر إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق سعوط هذا الوعظ ينغص إن شاء
الله زكمه البطالة إن الذى أنزل الداء أنزل الدواء إكسير هذا الكتاب يقبل بحكمة جابر القلوب
المنكسرة عين من كان له قلب " إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله " الانعام إلهى
دلنا من حيرة يضل فيها إلا إن هديت الدليل واجرنا من غمرة وكيف إلا بإعانتك السبيل نفوس
صدى على مر الأزمان منها الصقيل ونبا بجنوبها عن الحق المقييل وأذان أنهضها القول الثقيل
وعثرات لا يقيلها إلا أنت يا مقييل العثار يا مقييل أنت حسبنا ونعم الوكيل انتهى
ومن مواعظ لسان الدين رحمه الله سبحانه ما أورده فى الروضة إثر ما سبق إذ قال إخوانى صمت
الأذان والنداء جهير وكذب العيان والمشار إليه شهير اين الملك واين الظهير اين الخاصة اين

الجماهير ابن القبيل والعشير ابن كسرى بن أردشير صدق والله الناعى وكذب البشير وغش
المستشار واتهم المشير وسئل عن الكل فأشار إلى التراب المشير
" خذ من حياتك للممات الآتى ... وبادر ما دام الزمان مواتى "
" لا تغترر فهو السراب بقية ... قد خودع الماضى به والآتى "
" يا من يؤمل واعظا ومذكرا ... يوما ليوقظه من الغفلات "
" هلا اعتبرت ويا لها من عبرة ... بمدافن الآباء والآمات "
" قف بالبيع وناد فى عرصاته ... فلکم بها من جيرة ولدات "
" درجوا ولست بخالد من بعدهم ... متميز عنهم بوصف حياة "
" والله ما استهللت حيا صارخا ... إلا وانت تعد فى الأموات "
" لا فوت عن درك الحمام لهارب ... والناس صرعى معرك الآفات "
" كيف الحياة لدارج متكلف ... سنة الكرى بمدارج الحيات "
" أسفا علينا معشر الأموات لا ... ننفك عن شغل بهاك وهات "
" ويغرنا لمع السراب فنغدى ... فى غفلة عن هاذم اللذات "
" والله ما نصح امرءا من غشه ... والحق ليس بخافت المشكاة "
يا من غدا وراح والى المراح يا من شرب الراح ممزوجة بالعذب القراح وقعد لعيان صروف الزمان مقعد
الأفراح كأنك والله باختلاف الرياح وسماع الصباح وهجوم غارة الاجتياح فأدليل الخفوت من الارتياح
ونسيت أصوات الغناء برنات الرياح وعوضت عبر النوب القباح من غر الوجوه الصباح وتناولت الجسوم
الناعمة أيدي الأطراح وتنوسيت العهود الكريمة بمر المساء عليها والصباح وأصبحت كماء النطاح من
تحت البطاح وخملت المهندة والرماح ذليلة من بعد الجماع
" ولو كان هول الموت لا شىء بعده ... لهان علينا الأمر واحتقر الهول "
" ولكنه حشر ونشر وجهه ... ونار وما لا يستقل به القول "
يا مشتغلا بداره ورم جداره عن إسرعه الى النجاة وبادره يا من صاح بإنذاره شيب عذاره يا من
طرف عين اعتذاره بأفذاره يا من قطعه بعد مزاره وثقل أوزاره يا معتلغا ينتظر هجوم جزاره يا مختلسا
للأمانة

324 - يرتقب مفتش ما تحت إزاره يا من أمعن فى خمر الهوى خف من إسكاره يا من خالف مولى
رقه توق من إنكاره يا كلغا بعارية ترد يا مفتونا بأنفاس تعد يا معولا على الإقامة والرحال تشد كاني
بك وقد أوثق الشد والصق بالوسادة الخد والرجل تقبض والأخرى تمد واللسان يقول " يا ليتنا نرد "
الانعام

" إنا إلى الله وأنا له ... ما أشغل الإنسان عن شأنه "
" يرتاح للأثواب يزهى بها ... والخيط مغزول لأكفانه "
" ويخزن الفلس لورائه ... مستنفدا مبلغ أكوانه "
" قوض عن الفانى رحال امرئ ... مد اليه عين عرفانه "
" ما ثم إلا موقف زاهد ... قد وكل العدل بميزانه "
" مفرط يشقى بتفريطه ... ومحسن يجزى بإحسانه "
يا هذا خفى عليك مرض اعتقادك فالتبس الشحم بالورم جهلت قيم المعادن فبعت الشبه بالذهب
فسد حس ذوقك ففككت بحنظلة ابن حرصك من أجلك أين قولك من عملك يدركك الحياء من
الطفل ففتحامى حمى الفاحشة فى البيت بسببه ثم تواقعها بعين خالق العين ومقدر الكيف والأين
تالله ما فعل فعلك بمعبوده من قطع بوجوده " ما يكون من نجوى ثلاثة - إلى عليم " المجادلة تعود
عليك مساعى الجوارح التى سخرها لك بالقناطر المقنطرة من الذهب والفضة فتبخل منها فى
سبيله بفلس واحد الأمرين لازم إما التكذيب وإما الحماقة وجمعك بين الحاليتين عجيب يرزقك
السنين العديدة من غير حق وجب لك وتسىء الظن به فى يوم توجب الحق وتعتذر بالغفلة فما
بال التماذي تعترف بالذنب فما
الحجة فى الإصرار " والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا " الاعراف يا
مدعى النسيان ماذا فعلت بعد التذكير يا معتذرا بالغفلة ابن ثمرة التنبيه يا من قطع بالرحيل ابن
الزاد يا ذبابه الحرص كم ذا تلجج فى ورطة الشهد يا نائما ملء عينيه حذار الأجل قد انذر يا ثمل
الاغترار قرب خمار الندم تدعى الحذق بالصنائع وتجهل هذا القدر تبذل النصح لغيرك وتغش نفسك
هذا الغش أندمل جرح توبتك على عظم قام ببناء عزمك على رمل نبتت خضراء دعوتك على دمنه
عقدت كفك من الحق على قبضة ماء " أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء

ويهدي من يشاء " فاطر إذا غام جو هذا المجلس وابتدأ رش غمام الدموع قالت النفس الأمانة
حوالينا لا علينا فدالت رياح الغفلة وسحاب الصيف هفاف كلما شد طفل العزيمة على درة التوبة
صانعه طئر الشهوة عن ذلك بعصفور إذا ضيق الخوف فسحة المهل سرق الأمل حدود الجار قال
بعض الفضلاء كانوا إذا فقدوا قلوبهم تفقدوا مطلوبهم ولو صدق الواعظ لأثر اللهم لا أكثر
" طبيب يداوي الناس وهو عليل "

والخطب جليل والمتفطن قليل فهل إلى الخلاص سبيل اللهم انظر إلينا بعين رحمتك التي وسعت
الأشياء وشملت الأموات والأحياء يا دليل الحائرين دلنا يا عزيز ارحم دلنا يا ولى من لا ولى له كن
لنا كلنا أن أعرضت عنا فمن لنا نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب فقلب قلوبنا يا مقلب القلوب واستر
عيوننا يا ستار العيوب يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب انتهى
ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى فى المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعدة
ونصه

" إذا لم انح يوما على نفسى التى ... بجرائها احببت كل حبيب "
" وقد صح عندي أن عادية الردى ... تدب لها والله كل ديبب "
" فمئذ الذى يبكى عليها بادمعى ... إذا كنت موصوفا برأي لبيب "
كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى انسانيه وقد ذبلت بالسقم نرجسه
لحظة وذوت وردة خده واصفرت لمغيب الفراق شمس حسنه وهو يوجد بنفسه التى كان يبخل
منها بالنفس يخاطب بلسان حالة مترجما وليت الفجل يهضم نفسه وأنت على أثر مسحبة إلى
دست الحكم " وما أدري ما يفعل بى ولا بكم " الاحقاف ومنها تالله لو لم يكن المخبر صادقا لنشب
بحلق العيش بعده شوكة الشك
" ولو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي "
" ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسال بعده عن كل شي "
فالحازم من بتر الآمال طوعا وقال بيدي لا بيد عمرو " يا أيها الناس أن وعد الله حق فلا تغرنكم
الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " فاطر وقال أمير الوعاظ رحمه الله تعالى
" وبضدها تتبين الأشياء " - 3

يا مقتولا ما له طالب ثار بريد الموت مطلق الأعنة فى طلبك وما يحميك حصن ثوب حياتك منسوج
من طاقات أنفاسك والأنفاس تستلب ذرات ذاتك وحركات الزمان قوية فى النسج الضعيف فى
سرعة التمزق يا رابطا مناهه بخيط الأمل إنه ضعيف القتل صياد التلف قد بث الصقور وأرسل العقبان
ونصب الأشراك وقطع المواد فكيف السلامة تهباً
لسرعة الموت وأشد منها قلب القلب ليت شعري لما يؤول الأمر
" فو الله لا أدري أيغلبنى الهوى ... إذا جد جد البين أم أنا غالبه "
" فان استطع أغلب وإن يغلب الهوى ... فمثل الذى لاقيت يغلب صاحبه "
مركب الحياة يجرى فى بحر البدن برحاء الأنفاس ولا بد من عاصف قاصف بفلكه ويغرق الركاب
" فاقضوا مآربكم عجالات إنما ... أعماركم سفر من الأسفار "
وقال كأنك بحرب التلف قد قامت على ساق وانهزمت جنود الأمل وإذا بملك الموت قد بارز الروح
يجذبها بخطاطيف الشدائد من قنات العروق وقد شد كتاف الذبيح وجر البصر لشدة الهول وملائكة
الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبواب الجنة وملائكة العذاب عن اليسار قد فتحوا أبواب النار وجميع
المخلوقات تستوكف الخبر والكون كله قد فاء على صيحة سعد فلان أو شقى فلان فهناك تنجلي
أبصار الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ويحك تهباً لتلك الساعة حصل زادا قبل الفوت
" تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار "
مثل لعينيك سرعة الموت وما قد عزمت أن تفعل حينئذ فى وقت الأسر فافعله فى وقت الإطلاق
وقال أبو العتاهية

" خانك الطرف اتند ... أيها القلب الجموح "
" فدواعى الخير والشر ... دنو ونزوح "
" كيف إصلاح قلوب ... إنما هن قروح "
" أحسن الله بنا ... أن الخطايا لا تفوح "
" فإذا المشهور منا ... بين ثوبيه فضوح "
" كم رأينا من عزيز ... طويت عنه الكشوح "
" صاح منه برحيل ... طائر الدهر الصدوح "

" موت بعض الناس فى الأرض ... على بعض فتوح "

" سيصير المرء يوما ... جسدا ما فيه روح "

" بين عيني كل حي ... علم الموت يلوح "

" كلنا فى غفلة ... والدهر يغدو ويروح "

" لبنى الدنيا من الدنيا ... غبوق وصبح "

" رحن فى الوشي واصبحن ... عليهن المسوح "

" كل نطاح من الدهر ... له يوما نطوح "

" نح على نفسك يا ... مسكين ان كنت تنوح "

" لتنوحن ولو عمرت ... ما عمر نوح " وقال فى المعنى "

" لمن طلل اسائله ... معطلة مناهله "

" غداة رأيتك تنعى ... أعاليه أسافله "

" وكنت أراه مأهولا ... ولكن باد أهله "

" وكل لاغتساف الدهر ... معرضة مقاتله "

" وما متملك إلا ... وريب الدهر شامله "

" فيصرع من يصارعه ... وينضل من يناضله "

" ينازل من يهزم به ... وأحيانا يخاتله "

" وأحيانا يؤخره ... وتارات يعاجله "

" كفاك به إذا نزلت ... على قوم كلاكه "

" وكم قد عز من ملك ... تحف به قبائله "

" ويثنى عطفه مرحا ... وتعجبه شمائله "

" فلما إن أتاه الحق ... ولى عنه باطله "

" فخفض عينه للموت ... واسترخت مفاصله "

" فما لبث السياق به ... إلى إن جاء غاسله "

" فجهزه إلى جدث ... سيكثر فيه خاذله "

" ويصبح شاحط المثوى ... مفجعة ثواكله "

" مخمشة نوادبه ... مسلبة حلائله "

" وكم قد طال من أمل ... فلم يدركه أمله "

" رأيت الحق لا يخفى ... ولا تخفى شواكله "

" ألا فانظر لنفسك أي ... زاد انت حامله "

" لمنزل وحدة بين ... المقابر أنت نازله "

" قصير السمك قد رضمت ... عليك به جنادله "

" بعيد تجاور الجيران ... ضيقة مداخله "

" أيتها المقابر فيك ... من كنا ننازله "

" ومن كنا نتاجره ... ومن كنا نعامله "

" ومن كنا نعاشره ... ومن كنا نداخله "

" ومن كنا نشاربه ... ومن كنا نؤاكله "

" ومن كنا نفاخره ... ومن كنا نطاوله "

" ومن كنا نراقبه ... ومن كنا نزايله "

" ومن كنا نكارمه ... ومن كنا نجامله "

" ومن كنا له إفا ... قليلا ما نزايله "

" ومن كنا له بالأمس ... إخوانا نواصله "

" فحل محله من حلها ... صرمت حباله "

" ألا ان المنية منهل ... والخلق ناهله "

" اواخر من ترى تغنى ... كما فنيت أوائله "

" لعمرك ما استوى فى الأمر ... عالمه وجاهله "

" ليعلم كل ذي عمل ... بان الله سائله "

" فأسرع فائزا بالخير ... قائله وفاعله "

ثم قال لسان الدين رحمه الله تعالى بعد ما سبق ما صورته وهذا الغرض بحر ويكفي من خزائنه

عرض ومن بيت ماله قرض ان شاء الله تعالى
ثم قال تنبيه يشتمل على سؤالين أحدهما أن يقال الوعظ غير مناسب للمحبة إذ لا يحصل إلا بعد الفراغ واليقظة الثانى أن يقال عظمت الحسرة لفراق عالم الحس وأطلتم فى قشور فنجيب عن الأول أنا لم نجلب الوعظ إلا بين يدي تأميل حضور المحبة فكأنه يجري مجرى الأسباب فإن الغرض به وجهة النفس من جو السرور واللعب بالزور إلى جو الحزن والارتماض ومن هنالك تأخذ بخطامها أيدي الاضطرار فتحصل اليقظة ثم التوبة ومنها يستقيم الطريق فى منازل السائرين إلى الحق " والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد الى قليل تقنع "

وعند ذلك يطوى بساط الزجر والوعظ ويمد بساط الاعتبار والحب أن شاء الله تعالى فإنها كالثكلى بطبعها لما فارقت من عنصر نور الله تعالى والعوالم الروحانية التى هى الشعار والدثار والأمل والدار والحياة والجمال والوجود والكمال وأن كانت لا تشعر بالسبب ولا تستحضر ذكر العلة فإذا ذكر الغراق أنت أو توشدت الآثار حنت ويطرقها الحزن عند الألحان الشجية وتحس بعض الأحيان بالمواجد العشقية

" وقالوا اتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك "
" فقلت لهم أن الأسى يبعث الأسى ... دعونى فهذا كله قبر مالك "
وعن الثانى أن كثيرا من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحس فضلا عن النظر فيه وأن شعرت بذلك عد منها نبلا ومن كان بهذه المثابة لا سبيل لندائه إلا من باب القشور " أولئك ينادون من مكان بعيد " فصلت إلى أن يتأتى النداء من باب الله تعالى بفضل الله تعالى فالنفوس الشخصية غير متساوية وهى بهوى الهوى هاوية فالقريب منها يجذب بالأنامل والبعيد بالجزل الكوامل وعلى قدر " المحمول تكون قوة الحامل " يضع الهناء مواضع النقب " يكفى اللبيب إشارة مكتومة ... وسواه يدعى بالنداء العالى "
" وسواهما بالزجر من قبل العصا ... ثم العصا هى رابع الأحوال "
وقال رحمه الله تعالى فى فصل ذم الكسل ما صورته ونحن نجلب بعض الأمثال فى ذمة مما يسهل حفظه ويجب لحظه فمن ذلك الكسل مزلفة الريح ومسخرة الصبح إذا رقدت النفس فى فراش الكسل استغرقتها نوم الغفلة " لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير " الملك الندامة فى الكسل كالسم فى العسل الكسل أفة الصنائع وأرضة فى البضائع العجز والكسل يفتحان الخمول ولا تسيل الفلاح إذا مل الحركة عدم البركة

" ظهر أن لا يبلغان المرء ان ركبا ... باب السعادة ظهر العجز والكسل "
وفى اغتنام الأيام من أضع الفرصة تجرع الغصة أن كان لك من الزمان شىء فالحال وما سواه فمحال تارك أمره إلى غد لا يفلح للأبد الإنسان ابن ساعته فليحطها من إضاعته التسويف سم الأعمال وعدو الكمال لم يحرم المبادر إلا فى النادر ما درجت أفراخ ذل إلا من وكر طماعة ولا بسقت فروع ندم إلا من جرثومة إضاعة العزم سوق والتاجر الجسور مرزوق من وثق بعهد الزمان علقته يده بحبل الحرمان الريح فى ضمن الجسارة والمضيق أولى بالخسارة

ومن أمثالهم فى نظر الإنسان لنفسه قبل غروب شمس قولهم اعلم أن كل حكيم صانع إذا فكر فى أمره ونظر فى العواقب علم أنه لا بد يوما ان يخرب دكانه الذى هو محل بضاعته وتتحل انقاضه وتكل ادواته وتضعف قوته وتذهب ايام شبابه فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان واستغنى عن السعى فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ولا إلى أدوات جديدة فيتجر بما اقتناه ويشغل بالانتفاع والالتذاذ بما كسبت يده وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد فبادر واجتهد واحرص واستعجل وتزود قبل

خراب دكانك وهدم بنيته فان خير الزاد التقوى قال حسان
" إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وأبصرت بعد اليوم من قد تزودا "
" ندمت على أن لا تكون كمثلته ... ولم تترصد مثل ما كان أرصدا "
قال ابو الفرج ابن الطيب البغدادي فى اغتنام الوقت فى كتابة فى السياسة والآراء الفاضلة يجب أن تعيد وتمثل فإن الفكر مضطرب متشوش بكثرة نوازع النفس واختلاف قواها والعمى فى بعض الاوقات فإذا سنج للنفس وقت فاضل بصفاء جوهرها وابرمت قانونا أو صورة متوسطة فاضلة يجب أن يقيد بذلك وقت سعد ربما لا يعاود أو يعاود انتهى

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ الموحدين - 76
بتونس ابن تافراجين يخبره بالتمحيص الجارى عليه ونصه من أمير المسلمين ابده الله ونصره وأعلى أمره واطهره إلى ولينا فى الله تعالى الذى له القدم الرفيع المناصب والمجد السامى

الذوائب والسياسة التي اخبارها سمر الركبان وحدو الركائب الشيخ الجليل الكبير الشهير الخطير
الهمام الأمضى الرفيع الأعلى الأمجد الأوحى الأسعد الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل
الأرضى الأنقى المعظم الموقر المبرور علم الأعلام سلالة أكابر اصحاب الإمام معيد دولة التوحيد
إلى الانتظام أبى محمد عبد الله ابن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الاسعد
الأمجد الحسيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكمل المعظم المقدس المرحوم أبى العباس
تافراجين وصل الله تعالى له عزة تناسب شهرة فضله وسعادة تتكفل له فى الدارين برفعة محله
سلام كريم يخص مجادتكم الفاضلة وربتكم الحافلة ورحمه الله تعالى وبركاته
أما بعد حمد الذى يمحص ليثيب ويأمر بالاستقالة ليجيب ويعقب ليل الشدة بصبح الفرج القريب
ويجنى من شجر التوكل عليه والتسليم إليه ثمر الصنع العجيب ويظهر العبر مهما كسر ثم جبر لكل
ذى قلب منيب والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى نلجأ إلى ظل شفاعته فى اليوم
العصيب ونستظهر بجاهه على جهاد عبدة الصليب ونستكثر عدد بركاته فى هذا النجر الغريب
ونصول منه على العدو بالحبيب والرضى عن آله وصحبه نجوم الهداية من بعد الأمانة من الأفول
والمغيب فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم عزة متصلة وعصمه بالأمان من نوب الزمان متكفلة من
حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله تعالى الذى لطف وجبر وأظهر فى الإقالة
وحسن الإدالة العبر ممن كتب الله تعالى له العقبى لما صبر الا الخبر الذى كسا الأعطاف الحبر
والصنع الذى صدق خبره والخبر والحمد لله تعالى كثيرا كما هو اهله فلا فضل إلا فضله ولمكاتكم
عندنا المحل الذى قررت شهرة فضلكم قواعده وأعلت مصاعده وأثبت التواتر شواهدة إذ لا نزال
نتحف بسيركم التى فى التدبيرات تقتفى وعلم يسترشد به إذا العلم اختفى والسبيل عفا وأن
تلك الدولة بكم استقام اودها وقامت والحمد لله عمدها وانكم رعيتم فى البنين حقوق آباءها
وحفظتم عليها ميراث عليائها ولو لم تتصل بنا انباؤكم الحميدة وأراؤكم السديدة بما يفيد العلم
بفضل ذاتكم ويفرى قوى الاستحسان بصفاتكم لغبطنا بمخاطبتكم
ومفاتحتكم ما نجد من الميل لكم طبعاً وجبله من غير أن نعتبر سبباً أو علة فالتعارف بين الارواح لا
ينكر والحديث الكريم يؤيد من ذلك ما ينقل ويذكر
ويحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به فى ملكنا القدر وحيث بلغ الورد وكيف كان الصدر
وربما اتصلت بكم الحادثة التى أكفاهها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاديا ولا برح فى
جوانب احسانها رائحا وغاديا يتيم حجرها الكافل ورضيع درها الحافل الشقى الخاسر الخائن الغادر
محمد بن اسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره الخفية عنا حيل مكره لخمول قدره
إذا دعاه محتوم الحين ليهلك إلى أن يهلك وسولت له نفسه الأمانة بالسوء أن يملك أخانا الخاسر
ثم يملك وسيحان الذى يقول " يا نوح انه ليس من أهلك " هود وكيف تم له ما أبرمه من تسور
الاسوار واقتحام البوار وتملك الدار والاستيلاء على قطب المدار وأنا كنفتنا عصمه الله تعالى
بمتحولنا الذى كان به ليلتئذ محل ثواننا وكفت القدرة الإلهية أكف أعدائنا وخلصنا غلابا بحال انفراد
إلا من عناية الله ونعم الرفيق وصدق اللجأ إلى رحمة الله تعالى التى ساحتها عن مثلنا لا تضيق
مهما تنكر الزمان أو تفرق الفريق وشرذمة الغدر تأخذ علينا كل فج عميق حتى أوبنا من مدينة
وادي آش إلى الجبل العاصم والحجة المرغمة أنف المخاصم ثم أجزنا البحر بعد معاناة خطوب
وتجهم من الدهر وقطوب وبلا الله هذا الوطن بمن لا يرجو لله وقارا ولا يألو شعائره المعظمة احتقارا
فأضرمه نارا وحلل وجوه وجوهه خزيا وعارا حتى هتك الباطل حماه وغير اسمه ومسماه وبدد
حاميته المتخيرة وشذ بها وسخم دواوينه التى محصها الترتيب والتجريب وهذبها وأهلك نفوسها
وأموالها وأساء لولا
تدارك الله تعالى أحوالها
ولما تأذن جل جلاله فى إقالة العثار ودرك الثار وأنشأت نواسم رضاه إدامة الاستغفار ورأينا قلادة
الإسلام قد أن انتثارها والملة الحنيفية كادت تذهب آثارها ومسائل الخلاف يتعدد مثارها وجعلت
الملتان نحونا تشير والملك يامل أن يوافيه بقدمونا البشير تحركنا حركة خفيفة تشعر أنها حركة
الفتح ونهضنا نبتدر ما كتب الله تعالى من المنح وقد امتعض لنا الكون بما حمل واستخدم الفلك
نفسه بمشيينته تعالى واكتمل وكاد يقرب لقرى ضيفنا الثور والحمل وظاهرنا محل أخينا السلطان
الكبير الرفيع المعظم المقدس أبى سالم الذى كان وطنه ماوى الجنوح ومهب النصر الممنوح رحمه
الله تعالى عليه مظاهره مثله من الملوك الأعظم وختم الجميل بالجميل والأعمال بالخواتم وأنف
حتى عدو الدين لنعمتنا المكفورة وحقوقنا المحجوبة المستورة فأصبح بعد العدو حبيبا وعاد بعد
الإبائة منيبا وسخر اساطيله تحضيا على الإجازة وترغيبا واستقبلنا البلاد وبحر البشر يزخر موجه

وملك الإسلام قد خر على الحضيض أوجه والروم مستولية على الثغور وقد ساءت ظنون المؤمنين بالعقبى والله عاقبة الأمور والخبيث الغادر الذى كان يموه بالإقدام قد ظهر كذب دعواه وهان مثواه وتورط في أشراك المندمة تورط مثله ممن اتبع هواه ووجد نعمة مولاه فلولا أن الله عز وجل تدارك جزيرة الأندلس بركابنا وعاجل أوارها بانسكابنا لكانت القاضية ولم ترلها من بعد تلك الريح العقيم من باقية لكننا والفضل لله تعالى رفعا عنها وطأة العدو وقد ناء بكلكل وابتزناه منها اي مشرب ومأكل واعتزنا عليه بالله تعالى الذى يعز ويذل ويهدى ويضل فلم نسامحه فى شرط يجر غصاصة ولا يخلف فى القلوب مضاضة وخضنا بحر الهول وبرئنا إلى الله تعالى ربنا عن القوة والحول وظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا وما بذلنا فى مصانعة

العدو عن الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا فقويت فينا أطماعهم وانعقد على التحرم بنا إجماعهم وقصدنا مالقة بعد أن انثالت الجهة الغربية وأذعنت المعازل الأبية فيسر الله تعالى فتحها وهياً منحها ثم توالى البيعات وصرخت بمآذن البلاد الدعاة واضطرب امر الخائن وقد دلفت المخاوف اليه وحسب كل صيحة عليه فاقتضت نعامته الشائنة ودولة بغيه الزائلة وأراؤه الفائلة ان ضم ما أمكنه من ذخيرة مكنونه وآله للملك مصونة واستركب أو باشه الذين استباح الحق دماءهم وعرف الخلق اعتزاهم للعدو وانتماءهم وقصد سلطان قشتالة من غير عهد ولا وثيقة ولا مثلى طريقة ولا شيمة بالرعى خليقة لكن الله عز وجل حملة على قدمه لإراقة دمه وزين الوجود بخدمه فلحين قدومه عليه راجيا أن يستغزه بعرض أو يحيل صحه عقده المبرم إلى مرض ومؤلما هو وشيعته الغادرة كرة على الإسلام مجهزة ونصره لمواعيد الشيطان منجزه تقبض عليه وعلى شيعته وصم عن سماع خديعته وأفحش بهم المثلة وأساء بحسن رأيه فيهم القتل فأراح الله تعالى بإبادتهم نفوس العباد وأحيا بهلاكهم أرماق البلاد

وحثنا السير إلى دار ملكنا فدخلناها فى اليوم الأغر المحجل وحصلنا منها على الفتح الإلهى المعجل وعدنا إلى الأريكة التى بنا بنا عنها التمهيص فما حسبناه إلا سرارا أعقبه الكمال ومرضا عاجله الإبلال فثابت للدين الآمال ونجحت الأعمال وبذلنا فى الناس من العفو ما غفر الذنوب وجبر القلوب وأشعنا العفو فى القريب والقصى وألبسنا المريب ثوب البري وتألفنا الشارد وأعدبنا الموارد وأجرينا العوائد وأسئنا الفوائد إلا ما كان من شردمة عظمت جرأئهم وخبث فى معاملة الله تعالى سرأئهم وعرف شومهم وصدق من يلومهم فأقصيناهم وشردناهم وأجليناهم عن هذا الوطن الجهادي وأبعدناهم

ولما تعرف سلطان قشتالة باستقلالنا واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا بادر يعرف بما كان من عمله فيمن لحق به من طائفة الغدر وإخوان الخديعة والمكر وبعث إلينا برؤوسهم ما بين رئيسهم الشقى ومرؤوسهم وقد طفا على جداول السيوف حبابها وراق بحناء الدماء خضابها وبرز الناس إلى مشاهدتها معتبرين وفى قدرة الله تعالى مستبصرين ولدفاع الناس بعضهم ببعض شاكرين وأحق الله تعالى الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين فأمرنا بنصب تلك الرؤوس بمسور الغدر الذى فرعته وجعلناها علما على عاتق العمل السيسى الذى اخترعته وشرعنا فى معالجة العلم وافضنا على العباد والبلاد حكم السلم فاجتمع الشمل كأحسن أحواله وسكن هذا الوطن بعد زلزاله وأفاق من أهواله

ولعلمنا بفضلكم الذى قضياه شائعة ومقدماته ذائعة أخبرناكم به على اختصار واجتزاء واقتصار ليسر دينكم المتين بتماسك هذا الثغر الأقصى بعد استرساله وإشرافه على سوء مآله وكنا نخاطب محل أحننا السلطان الجليل المعظم الأسعد الأوحى الخليفة امير المؤمنين أبى اسحاق ابن الخليفة أمير المؤمنين المعظم المقدس أبى يحيى ابن أبى بكر ابن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين وصل الله تعالى أسباب سعده وحرس أكناف مجده لولا اننا تعرفنا كونه فى هذه المدة مقيما بغير تلك الحضرة التونسية فاجتزأنا بمخاطبة جهتكم السنينة وبين سلفنا وسلفكم من الود الراسخ البنين والكريم الأثر والعيان ما يدعو إلى أن يكون سبب المخاطبة موصولا وأخرة الود خيرا من الأولى لكن الطريق جم العوائق والبحر مفروق البوائق وقبول العذر بشواغل القطر بالفضل لائق ومرادنا أن يتصل الود ويتجدد العهد والله عز وجل يتولى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه ويجمع قلوبهم حيث كانوا على طاعة الله تعالى ورضوانه وهو سبحانه يطيل سعادتكم ويحرس مجادتكم وينجح إدارتكم ويسنى إرادتكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة آله تعالى وبركاته ومن نثره رحمه الله تعالى ما أنشأه عن سلطانه الغنى بالله وذلك قوله يا أيها الناس ضاعف - 77 الله تعالى بمزيد النعم سروركم وتكفل بلطفه الخفى فى مثل هذا القطر الغربى أموركم أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم المترادفة بيمينه وسعادته نعم الله تعالى عليكم أمتع الله

تعالى الإسلام ببقائه وأيده على أعدائه ونصره فى أرضه بملائكة سمائه وأن الله تعالى فتح له
 الفتح المبين وأعز بحركة جهاده الدين وبيض وجوه المؤمنين وأظفره باطيريرة البلد الذى فجح
 المسلمين بأسرهم فجيعة تثير الحمية وتحرك الأنفس الأبية فانتقم الله تعالى منهم على يده
 وبلغه من استئصالهم غاية مقصده فصدق من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعد والوعيد وحكم
 بإبادتهم المبدىء المعيد " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة أن أخذه أيام شديد " هود
 وتحصل من سببه بعدما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة لم يسمع بمثله فى المدد المديدة
 والعهود البعيدة ولم يصب من إخوانكم المسلمين عدد يذكر ولا رجل يعتبر فتح هنى وصنع سنى
 ولطف خفى ووعد وفى فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته وقفوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته
 وقابلوا نعمه بالشكر يزدكم واستبصروا فى الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم واغتبطوا بهذه الدولة
 المباركة التى لم تعدموا من الله تعالى معها عيشا خصيبا ولا رأيا مصيبا ولا نصرا عزيزا ولا فتحا قريبا
 وتضرعوا فى بقائها ونصر لوائها إلى من يزل سميعة للدعاء مجيبا والله عز وجل
 يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ولا يعدمكم ولا أولى الأمر منكم توفيقا وسعادة والسلام الكريم
 يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته من مبلغ ذلك فلان انتهى

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما أنشاه عن سلطانه الغنى بالله تعالى حين وصله أبنه - 78
 الذى كان بفاس يخاطب سلطان فاس ما نصه

المقام الذى تقلد نافلة الفضل شفعا وجود سورة الكمال أفرادا وجمعا واستولى وجمع ببره المنح
 والتهنئة والفتح فاحرز اصلا وفرعا واستحق الشكر عقلا وشرعا وأغرى ايدي جوده بالقصد الذى هو
 حظ وليه من وجوده فآثار من جيش اللقاء نغقا ووسط به جمعا مقام محل أخينا الذى اقلام مقاصده
 دربه بحسن التوقيع وعيون فضله مذكاة لإحكام الصنيع وعذبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع
 ومكارمه تتفنن فيها مذاهب التنوع أبقاه الله تعالى والسن فضله ناطقة وأقيسة سعده صادقة
 وألويته بالنصر العزيز خافقة وبضائع مكارمه فى اسواق البر نافقة وعصائب التوفيق لركائب أغراضه
 موافقة السلطان الكذا ابن السلطان الكذا سلام كريم طيب بر عميم يخص
 مقامكم الأعلى وطريقتكم المثلى وأخوتكم الفضلى ورحمة الله تعالى وبركاته مجل قدركم وملتمزم
 بركم وموجب حمدكم وشكركم فلان

أما بعد حمد الله تعالى الذى جعل الشكر على المكرمات وقفا ونهج منه بإزائها سبيلا لا تلتبس ولا
 تخفى وعقد بينه وبين المزيد سببا وحلفا وجعل المودة فى ذاته مما يقرب إليه زلفى مريح تجارة
 من قصد وجهه بعمله حتى يرى الشىء ضعفا وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرام السيرة بمن
 يوسعها فضلا وعطفا ومدنى ثمار الآمال فتتمتع بها اجتناء وقطفا والصلاة والسلام على سيدنا
 ومولانا محمد النبى العربى الكريم الرؤوف الرحيم

الذى مد من الرحمة على الأمة سجفا وملأ قلوبها تعاطفا وتعارفا ولطفا القائل من أيقن بالخلف جاد
 بالعطية ووعد من عامل الله تعالى بربح المقاصد السنية وعدا لا يجد خلفا والرضى عن آله وأصحابه
 الذين كانوا من بعده للإسلام كهفا وعلى اهله فى الهواجر ظلا ملتفا غيوث الندى كلما شاموا
 سماحا وليوث العدى كلما شهدوا زحفا والدعاء لمقام أخوتكم الأسعد بالنصر الذى يكف من عدوان
 الكفر كفا والمجد الذى لا يغادر كتابه من المفاخر التى ترك الأول للأخر حرفا وإلى هذا أيدكم الله
 بنصر من عنده وحكم لملككم الأسمى باتصال سعده وانجز فى ظهوره على من عاند امره سابق
 وعده فاننا نقرر لدى مقامكم وأن كان الغنى باصالة عقله عن اجتلاء الشاهد ونقله وجلاء البيان
 وصقله أن الهدايا وأن لم تحل العين منها كما حلت أو تناولها الاستنزار فما نبهت فى لحظ الاعتبار
 ولا جلت أو كانت زيفا كلما أغري بها الاختبار قلت لا بد أن تترك فى النفوس ميلا وأن تستدعى من
 حسن الجزاء كيلا وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نيلا واي دليل اوضح محجة وابين حجة من
 قوله صلى الله عليه وسلم تهادوا تحابوا من غير تبين مقدار ولا اعمال اعتبار ولا تفرقة بين لجين
 ولا نزار فكيف إذا كانت الهدية فلذة الكبد التى لا يلذ العيش بعد فراقها ولا تضىء ظلم الجوانح إلا
 بطلوع شمسها واشراقها وجمع الشمم الذى هو اقصى آمال النفوس الألفة والبواطن المصاحبة
 للحنين المحالفة لا سيما إذا اقتعدت محل الهناء بالفتح الرائق السناء وحفت بها من خلفها وأمامها
 صنائع البر وقومه الاعتناء فهنالك تفخر السن الثناء وتتطابق اعلام الشكر السامية البناء
 وأنا ورد علينا كتابكم الذى سطره البر واملأه وكنفه اللحظ وتولاه ووشحه البيان وحلاه مهنتا بما
 منح الله جل جلاله من رد الحق وتعيين الجمع ورفع الفرق وتطويق الأمان وأمان الطوق واسعاد
 السعد

وبلوغ القصد وقطع دابر من جحد نعمة الأب والجد وسل سيف البغى دامى الحد والحمد لله تعالى

حمدا يلهمه ويتيح له ونسأله امدادا يسوغه ويبيحه على أن احسن العقبي وأعقب الحسنى وأرى
 النعم بين فرادى ومثنى وجمع الشمل الذى قد تبدد وجدد رسم السعادة لهذا القطر فتجدد واخذ
 الظالم فلم يجد من محيى وجمع لنا الاجر والفخر بين تخصيص وتمحيص وقلد برؤوس الفجرة
 الغدرة الفرضة التى فرعوها وأطفأ بمراق دمائمهم نار الضلالة التى شرعوها وكتب لقبيلكم الفضل
 الذى يحمد ويشكر والحق الذى لا يجحد وى ينكر فلقد اوى لما تبرات الخالصان وتحفى عندما تنكر
 الزمان وسبب الإدالة وطاوع الأصالة والجلالة حتى فرج الله تعالى الكربة وأنس الغربة واقال العثرة
 وتقبل القرية له الحمد على آلائه وصله نعمائه ملء أرضه وسمائه
 ووصل صحبته الولد مكنوفا بجناح اللطف ممهدا له ببركتكم مهاد العطف فبرزنا إلى تلقيه تنويها
 لهديتكم واشادة وابداء فى بركم واعادة واركننا الجيش الذى أثرتنا لحين استقللنا عرضه وقررنا
 بموجب الاستحقاق فرضه فبرز إلى الفضاء الأفيح حسن الترتيب سافرا عن المرأى العجيب ولولا
 الحنان الذى تجده النفوس للأبناء وتستشعره والشوق إلى اللقاء الذى لا يجحده منصف ولا ينكره
 لما شق علينا طول مقامه فى حجركم ولا ثاؤه لصق أريكة امركم فجواركم محل لاستفادة رسوم
 الإمارة وتعلم السياسة والإدارة حتى يرد علينا يقدم كتيبة جهادكم ويقود إلينا طليعة نصركم ايانا
 وامدادكم فنحن الآن نشكر مقاصدكم التى اقتضى الكمال سياقها وزين المجد آفاقها وقدرها فاحكم
 طباقها وتقرر لديكم أن حظنا من ودادكم ومحلنا من جميل اعتقادكم حظ بان رجحانه وفضله ولم
 يتأت بين من يسلف من السلف مثله من الصحبة فى المنزل الخشن وهى الوسيلة وفى رعيها
 تظهر الفضيلة والاشترار فى لازم الوصول إلى الحق وضم اشتات الخلق والمودة الواضحة الطرق
 إلى ما بين السلف من الود الأمن بدره من الكلف المذخورة أذمته للخلف فإذا كانت المعاملة جارية
 على حسبة وشعبها راجعة إلى مذهب جنى الإسلام ثمرة حافلة واستكفى الدين اياه كافلة
 فالله عز وجل يمهد البلاد بيمين تدبيركم ويجرى على مهب السداد جميع اموركم ويجعلكم ممن
 زين الجهاد عوانق اعماله وكان رضى الله تعالى عنه اقصى آماله حتى تربي ما تركم على مآثر
 اسلافكم الذين عرف هذا الوطن الجهادى امدادهم وشكر جهادهم وقبل الله تعالى فيه اموالهم
 واولادهم وحسن من اجله معادهم

وقد حضر بين يدينا رسولكم الذى وجهتم الولد اسعده الله تعالى لنظره وتخيرتموه لصحبه سفرة
 فلان وهو من الأمانة والفضل والرجاحة والعقل بحيث طابق اختياركم واستحق ايتاركم فاطنب فى
 تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان عينت الرد وضربت الوعد واخلصت فى سبيل الله تعالى
 القصد وغير ذلك مما يؤكد المودة المستقرة الأركان المؤسسة على التقوى والرضوان فأجبنه
 بأضعاف ذلك مما لدينا لكم وقابلنا بالثناء الجميل قولكم وعملكم والله تعالى يصل سعدكم ويحرس
 مجدكم والسلام الكريم يخصصكم ورحمة الله تعالى وبركاته

ومن ذلك ما كتبه رحمه الله تعالى على لسان الأمير سعد ابن سلطانه الغنى بالله تعالى إليه - 79
 وهو

مولاي ومولى كبيرى ومولى المسلمين ورحمتى المتكفلة بالسعد الراق الجبين يقبل قدمكم
 التى جعل الله تعالى العز فى تقبيلها والسعد فى اتباع سبيلها عبدكم الصغير فى سنه الكبير فى
 خدمتكم وخدمة كبيره فى حياتكم بفضل الله تعالى ومنه الهاش لتمرير وجهه فى كتابكم حسن
 الذراع المنبئة طباعة

عن العبودية الكامنه بالبدار إلى ذلك والاسراع عبدكم وولدكم سعد كتبه من بابكم المحوط بعز
 امركم المتحف أن شاء الله تعالى بانباء نصركم وقد وصل إلى عبدكم تشريفكم السابغ الحلل
 وتنويهكم المبلغ غايات الأمل وخط يدكم الكريمة وغمامة رحمتكم الهامية الديمة فى له من عز اثبت
 لى الفخر فى ابناء الملوك وسار بى من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج المسلوک قرر من
 عافيه مولاي وسعادته واقتران السعود حيث حل بوفادته ما تكفل ببلوغ الآمال وتمم لسان الحال
 فى شكر الله تعالى لسان المقال والله تعالى يديم أيام مولاي حتى يقوم بحق شكر النعم لسانه
 وتؤدى بعده جوارحه من الدفاع بين يدي سلطانه ما يسر به سلطانه وبعث جوابه منقولا ليد حامله
 من يده ليهنىء تقبيل اليد الكريمة بحال تأكيد ويقرر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد
 ويعرف شمول نعمة الله تعالى ونعمته لمن باباه من خدم وعبيد ويمد يد الرغبة لمولاه فى
 صلة الإنعام بتشريفه واعلامه بتزايدات حركته وتعريفه فى ضمن ذلك كل عز مشيد وخير جديد
 وينهى تحية أهل منزل مولاي على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه التى ياخذ منها كل
 بحظه والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته

وقال رحمه الله تعالى ومن نثري ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من مالقة وقد - 80

وصلت به إليه من المغرب
 مولاي الذي رضى الله تعالى مقرون برضاه والنجح مسبب عن نيته ودعاؤه وطاعته مرتبطة بطاعة
 الله ابقى الله تعالى علي بكم ظل رحماه وغمام نعماه وزادنى من مواهبه هداية فى توفيه حقه
 الكبير فإن الهدى هدى الله يقبل مواطىء اقدامكم التى تراها شرف الخدود وفخر الجباه ويقرر من
 عبوديته ما يسجل الحق مقتضاه ويسلم على مثابة رحمتكم السلام الذى يحبه الله تعالى ويرضاه
 ولدكم وعيدكم يوسف من منزل تأييدكم
 بظاهر ماله حرسها الله والوجود السن بالعز بالله ناطقة والأعلام والشجر الوية بالسعد خافقة
 وانواع التوفيق متوافقة وصنائع اللطيف الخبير مصاحبة مرافقة
 وقد وصل يا مولاي لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به على مقامكم وجادت به سحائب
 انعامكم ولمن تحت حجبه ستركم المسدول وفى ظل اهتمامكم الموصول ولمن ارتسم بخدمة
 ابوابكم الشريفة من الخدام واولى المراقبة والالتزام ما يضيق عنه بيان العبارة ويفتح فيه لسان
 القول والإشارة من عنايات سنوية ونعم باطنه وحليه وملاحظة مولايه ومقاصد ملكية فما شئت من
 قباب مذهبه وملابس منتخبه وأسرته مرتبة ومحاسن لا مستورة ولا محجبة واللواء الذى نشرتم
 على عبدكم ظله الظليل ومددتم عليه جناح العز الجليل جعله الله تعالى اسعد لواء يسير فى
 خدمتكم ومد على وعليه لواء حرمتكم حتى يكون لجهادى بين يديكم شاهداً وبالنصر العزيز والفتح
 المبين عليكم عائداً ولطائفه الخلوص لامركم قائداً ولأولياء بابكم هادياً ولأعدائكم كائداً
 واتفق يا مولاي أن كان عبدكم قد ركب مغتتما برد اليوم ومؤثراً للرياضة فى عقب النوم والتف عليه
 الخدام والأولياء الكرام فلما عدنا تعرضت لنا تلك العنايات المجلوة الصور المتلوة السور وقد حشر
 الناس وحضرت منهم الأجناس فعلا الدعا وانتشر الثنا وراقت الأبصار تلك الهمة العليا فنسال الله
 تعالى يا مولاي أن يكافىء مقامكم بالعز الذى لا يتبدل والنصر الذى يستأنف ويستقبل والسعد
 الذى محكمه لا يتأول والعبد ومن له على حال اشتياق للورود على ابوابكم الرفيعة المقدر وارتياح
 لقرب المزار

" وأبرح ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار "
 والعمل على تيسير الحركة متصل والدهر لأوامر السعد محتفل بفضل الله تعالى والسلام على
 مقام مولاي مقام الشفقة والرحمة والمنة والنعمة ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى
 ومن انشاء لسان الدين فى تولية الأمير يوسف المذكور مشيخة الغزاة على لسان السلطان - 81
 والده ما نصه

هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبنود وقود العساكر والجنود وأجال فى ميدان الوجود جياذ
 البأس والجدو واضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود على الطائفين والعاكفين والركع
 السجود عقد للمعتمد به عقد التشريف والقدر المنيف زاكى الشهود وواجب المنافسة بين
 مجالس السروج ومضاجع المهود وبشر السيوف فى الغمود وأنشا ربح النصر أمانة من الخمود
 أمضى احكامه وانهد العز امامه وفتح من زهر السرور والحبور كماومه أمير المسلمين عبد الله محمد
 ابن مولانا أمير المسلمين ابى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد ابن فرج بن نصر ايد الله
 تعالى امره وخلص ذكره لكبير ولده وسابق امده وربحانه خلدته وياقوتة الملك على يده الأمير الكبير
 الطاهر الظاهر الاعلى واسطة السلك وهلال سماء الملك ومصباح الظلم الحلك ومظنة العناية
 الأزلية من مدير الفلك ومجرى الفلك عنوان سعده وحسام نصره وعضده وسمى جده وسلالة
 فضله ومجده السعيد المظفرالهمام الأعلى الأمضى العالم العامل الأرضى المجاهد المؤمل المعظم
 أبى الحجاج يوسف البسه الله تعالى من رضاه عنه حللا لا تخلق جدتها الأيام ولا تبلغ كنهها
 الأفهام وبلغة فى خدمته المبالغ التى يسر بها الإسلام وتسيح فى بحار صنائعها الأقلام وحرس
 معاليها الباهرة بعينة التى لا تنام وكنفه بركنه الذى لا يضام فهو الفرع الذى جرى بخصله على
 أصله وارتسم نصره فى نصله واشتمل حده على فصله وشهدت السن خلاله برفعة
 جلاله وظهرت دلائل سعادته فى بدء كل أمر واعادته لما صرف وجهه إلى ترشيحه لافتراع هضاب
 المجد البعيد المدى وتوشيحة بالصبر والحلم والبأس والندى وارهف منه سيفاً من سيوف الله
 تعالى لضرب هام العدا واطلعه فى سماء الملك بدر هدى لمن راح وغدا واخذة بالأداب التى تقيم
 من النفوس اودا وتبذر فى اليوم فتجنى غدا ورفاه فى رتب المعالى طورا فطورا ترقى النبات ورفا
 ونورا ليحده بحول الله تعالى يدا باطنشة باعدائه ولسانا مجيبا عند ندائه وطراراً على حله علائه
 وغماما من غمائم الآله وكوكبا وهاجا بسماؤه وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من
 جنده قبل أن ينتقل عن مهده وظلله بجناح رايته وهو على كند دابته واستركب جيش الإسلام

ترحيبا بوفادته وتنبؤها بمجادته وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم سعادته رأى أن يزيد من عنايته ضروريا وأجناسا ويتبع أثره ناسا فناسا قد اختلفوا لسانا ولباسا واتفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماسا ممن كرم انتماؤه وزينت بالحسب العد سماؤه وعرف عناؤه وتأسس على المجادة بناؤه حتى لا يدع من العناية فنا إلا وجليه إليه ولا مقادة فخر إلا جعلها في يديه ولا حله عز إلا أضفى ملابسها عليه

ولما كان جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية أمن الله سبحانه خلالها وسكن زلزالها وصدق في رحمة الله تعالى التي وسعت كل شئء آمالها كلف همته ومرعى ذمته وميدان اجتهاده ومتعلق أمل جهاده ومعرج إرادته إلى تحصيل سعادته وسبيل خلاله إلى بلوغ كماله فلم يدع له علة إلا أزاحها ولا طلبه إلا أجال قداحها ولا عزيمة إلا أورى اقتداحها ولا رغبة إلا فسح ساحها أخذاً مدونته بالتهذيب ومصافه بالترتيب وآماله بالتقريب محسنا في تلقى الغريب

348 - 8 وتأسيس المريب مستنجزا له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ورفع عنه لهذا العهد نظر من حكم الأغراض في حماته واستشعر عروق الحسائف لتثذيب كمامته واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته وجليه جباته وتثمير ماله وتوفير أقواته ذاهبا أقصى مذاهب التعمير بآمد حياته فانفرج الضيق وخلص إلى حسن نظره الطريق وساغ الريق ورضى الفريق رأى والله الكفيل لنجح رايه وشكر سعيه وصلة حفظه ورعيه أن يجهد لهم اختياره ويحسن لديهم آثاره ويستتنبه فيما بينه وبين سيوف جهاده وأبطال جلاله وحماه أحوازه وآلات اعزازة من يجرى مجرى نفسه النفيسة في كل مبنى ويكون له لفظ الولاية وله أيده الله تعالى المعنى فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكنائس ومقادة الجنائب وأجمة الأبطال ومزنة الودق الهطال المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسياء الملوك الكرام وأعلام الإسلام وسائر قبائل بنى مرين ليوث العرين وغيرهم من أصناف القبائل وأولى الوسائل ليجوط جماعتهم ويعرف بتفقدته إطاعتهم ويستخلص لله تعالى ولابيه أيده الله تعالى طاعتهم ويشرف بإمارته مواكبهم ويزين بهلالة الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم تقديما أشرف له وجه الدين الحنيف وتهلل واحس باقتراب ما أمل فللخيل اختيال ومراح وللأسل السمر اهتزاز وارتياح وللصدور انشراح وللآمال مغدى في فضل الله تعالى ورواح

فليتول ذلك أسعده الله تعالى تولى مثله ممن أسره الملك اسرته واسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته والملك الكريم أصل لفرعه والنسب العربي منجد لطيب طبعه أخذاً أشرفهم بترفيح المجالس بنسبة أقدارهم مغربا حسن اللقاء بإيثارهم شاكرا غناءهم مستدعيا ثناءهم مستدرا لأرزاقهم موجبا المزية بحسب استحقاقهم شافعا لديه في رغباتهم المؤملة ووسائلهم المتحملة مسهلا الإذن لوفودهم المتلاحقة منفقا لبضائعهم النافقة

مؤنسا لغرمانهم مستجليا أحوال أهليهم وأبائهم مميزا بين أغفالهم ونبهائهم وعلى جماعتهم رعى الله تعالى جهادهم ووفر أعدادهم أن يطيعوه في طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ويكونوا يدا واحدة على دفاع أعداء الله تعالى وأعداية ويشدوا في مواقف الكربة أزره ويمثلوا نهيه وأمره حتى يعظم الانتفاع ويشهر الدفاع ويخلص المصالح لله تعالى والمصاع فلو وجد أيده الله تعالى غاية في تشريفهم لبلغها أو موهبة لسوغها لكن ما بعد ولده العزيز عليه مذهب ولا وراء مباشرتهم بنفسه معزب والله تعالى منجج الأعمال ومبلغ الآمال والكفيل بسعادة المال فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع وفخر مستند إلى إجماع ووجوب اتباع وليكن خير مرعى لخير راع بحول الله تعالى

وأقطع أيده الله تعالى ليكون بعض المواد لأزواد سفره وسماط نفره في جملة ما أولاه من نعمه وسوغه من موارد كرمه جميع القرية المنسوبة إلى عرب عنان وهى المحلة الأثيرة والمنزلة الشهيرة تنطلق عليها أيدي خدامه ورجاله جارية مجرى صريح ماله محررة من كل وظيفة لاستغلاله أن شاء الله تعالى فهو المستعان سبحانه وكتب في كذا انتهى

وكتب لسان الدين رحمه الله تعالى في شأن تقليد الأمير سعد أخی المذكور الأصغر منه سنا - 82 ما صورته

هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيرا وعقد منه في سبيل الله تعالى لواء منصورا واعطى المعتمد به باليمن كتابا منشورا " وما كان عطاء ربك محظورا " الإسراء واطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهر سفورا ويسطع نورا وأقر عيوننا للمسلمين وشرح صدورنا ووعد الأهلة أن تصير بإمداد شمس الهدى إياها بدورا وبشر الإسلام بالنصر المنتظر والفتح الرائق الغرر مواسط وثغورا وأتبع حماه الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعد بها أمرا وأكرم بها مأمورا أمر به

وامضى العمل بمقتضاه وحسبه امير المسلمين عبد الله محمد ابن امير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحجاج ابن امير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الوليد ابن فرج بن نصر أعلى الله تعالى رأيه وسدد رأيه وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه لقوة عينه ومقتضى حقه من العدو ودينه وغصن دوحه وآية لوحه ودره فلالته ودرى أفلاك مجادته وسيف نصره وهلال قصره وزينه عصره ومتقبل هديه ورشده ومظنة إشراق سعده وأنجاز وعده ولده الأسعد وسليل ملكه المؤيد الأمير الأجل الأعز الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى لايس أثواب رضاه ونعمته ومنحة الله لنصره وخدمته ومظهر عزه وبعد همته التقى الرضى العالم العامل الماجد حامى الحمى تحت ظل طاعته وكافى الإسلام الذى يأمن من إضاعته المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظ الشهر فى يومه وحظ اليوم فى ساعته الموقر المهيب المؤمل المعظم أبى النصر سعد عرفه الله تعالى ببركة سعد بن عبادة جده خال رسول الله صلى عليه وسلم وأعظم بمجده ووزيره فى حله وعقده واجناه ثمرة النصر الذى كناه به ووصل سببه بسببه فما النصر إلا من عنده وانتج له الفتح المبين من مقدمتى نصره وسعده لما صرف وجه عنايته إليه فى هذه البلاد الأندلسية التى خلص لله انفرادها وانقطاعها وتمحض لأن تكون كلمة الله هى العليا قراعاها وصدق مصالها فى سبيله جل وعلا ومصاعها إلى ما يمهد أرجاءها ويحقق رجاءها من سلم يعقد ولا يعدم الحزم معه ولا يفقد وعطاء ينقد ورأى لا يتعقب ولا ينقد وحرب تضم له الجياد ويعتقل الأسل المياد وكان الجيش روض أمله الذى فى جناه يسرح ومرمى فكره الذى عنه لا يبرح فديوانه ديوان أمانيه الذى تسهب فيه وتشرح أسهمه من سياسته أوفى الحظوظ

وأسناها وقصر عليه لفظ العناية ومعناها ووقف عليه موحدتها ومثناها فازاح علله واحيا امله وأنشا جذله ورفع عنه من لم يبذل الجدل له ولا أخلص لله فيه عمله واختار لقيادة مقانبه المنصورة وامارة غزواته المبرورة أقرب الناس إلى نفسه نسبا وأوصلهم به سببا واحقهم بالرتب المنيفة والمظاهر الشريفة ذاتا وأبا وحدا وشبا وأمره على أشرافه ودل به الأنفال على أعرافه وصرف إليه أماله واستعمل فى أسنته يمينه وفى اعنته شماله وعقد عليه الويته الخافقة لعزة نصره ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنى فهباه لهصره وأدار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره وبنه نفوس المسلمين على جلاله قدرة وقدمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الأشياخ من اولاد يعقوب كبار بنى مرين وسائر قبائلهم المكرمين وغيرهم من القبائل المحترمين ينوب عن امره فى عرض مسائلهم وقرى وافدهم واجراء عوائدهم تقديما تهلل له الإسلام واستبشر وتيقن الظفر فاستبصر لما علم بمن استنصر فليخلصوا له فى طاعته الكبرى الطاعة وليعلقوا بينان نداءه بنان الطماعة ويؤملوا على يديه نجاح الوسيلة الى مقامه والشفاعة ويعلموا أن اختصاصهم به هو العنوان على رفع محالهم لديه وعزة شأنهم عليه فلو وجد هضبة أعلى لفرعها لهم وعلاها أو عزة اعز لجلالها أو قبله ازكى لصرف وجوههم شطرها وولاهها حتى تجنى ثمرة هذا القصد وتعود بالسعد حركة هذا الرصد وتعلو ذؤابة هذا المجد وتشهد بنصر الدين على يده السنة الغور والنجد بفضل الله سبحانه

وعليه اسعد الله الدولة باستعماله مكافحا باعلامها وزينا لأيامها وسيفا فى طاعة إمامها أن يقدم منهم فى مجلسه أهل التقديم ويقابل كرامهم بالتكريم ويستدعى آراء مشايخهم فى المشكلات فى امور الحرب ويغضى جفون عزائمهم فى موقف الصبر والضرب ويتفقدتهم باحسانه عند الغناء ويقابل حميد سعيهم

بالثناء على هذا يعتمد وحسبه يعمل وهو الواجب الذى لا يهمل وقصده بالإعظام والإجلال والانقياد الذى يعود بالآمال وينجح الأعمال بحول الله تعالى متقبل وكتب فى كذا انتهى

ومما اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سلا إلى سلطانه الغنى بالله تعالى - 83

وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له وعودته إلى سلطانه

" هنيئا بما خولت من رفعة الشان ... وأن كره الباغى وأن رغم الشانى "

" وأن خصك الرحمن جل جلاله ... بمعجزة منسوبة لسليمان "

" اغار على كرسية بعض جنه ... فالقت له الدنيا مقالذ إذعان "

" فلما رآها فتنه خر ساجدا ... وقال الهى امنن على بغفران "

" وهب لى ملكا بعدها ليس ينبغى ... تقلده بعدى لإنس ولا جان "

" فأتاه لما أن اجاب دعاه ... من العز ما لم يؤت يوما لإنسان "

" وأن كان هذا الأمر فى الدهر مفردا ... فأنت له لما اقتديت به الثانى "

" فقابل صنيع الله بالشكر واستعن ... به واجز إحسان الإله يا احسان "

" وحق الذى سماك باسم محمد ... لو أن الصبا قد عاد منه بريغان "

" لما بلغ النعمى عليك سروره ... اليه واف لا اليه خوان "

" فانى أنا العبد الصريح انتسابه ... كما أنت مولاي العزيز وسلطانى "

" إذا كنت فى عز وملك وغبطة ... فقد نلت اوطاري وراجعت اوطانى "

مولاي الذى شأنه عجب والإيمان بعناية الله تعالى به قد وجب وعزة أظهره من برداء العزة احتجب إذا كانت الغاية لا تدرك فاولى إن تسلم وتترك ومنه الله تعالى عليك ليست مما يشرح قد عقل العقل فما يبرح وقيد اللسان فما يرتعى فى مجال العبارة ولا يسرح اللهم الهمننا على هذه النعمة شكرا

ترضاه وامدادا من لدنك نتقاضاه يا الله يا الله سعود انارت بعد افول شهابها وحياة كرت بعد ذهابها واحباب اجتمعت بعد فراقها واوطان دنت بعد شامها من عراقها واعداء اذهب الله تعالى رسم بغيهم ومحاه وبغاة ادار عليهم الدهر رحاه وعباد اعطوا من كشف الغم ما سالوه ونازحون لو سئلوا فى اتاحة القرب بما فى ارماقهم لبدلوه وسيحان الذى يقول " ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه " النساء فليهن الإسلام بياض وجهه بعد اسودادة وتغلب ايباله من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده وعودة الملك المظلوم إلى معتاده واستواء الحق النائى جنبه فوق مهاده ورد الإرث المغصوب الى مستحقه عن آباءه واجداده والحمد لله الذى غسل عن وجه الأمة الحنيفية العار وأقذ عهدتها وقد ملكها الذعار فرد المعار واعيد الشعار نحمدك اللهم حمدا يليق بقدسك لا بل لا نحصى ثناء عليك أنت كما ائثيت على نفسك

والعبد يا مولاي قد بهرت عقله آلاء الله تعالى قبلك فالفكر جائل واللسان ساكت والعقل ذاهل والطرف باهت فإن اقام رسما للمخاطبة فقلم مرح وركض وطرس هز جناح الارتياح ونفض ليس هذا المرام مما يرام ولا هذه العناية التى تحار فيها الأفهام مما تصمى غرضه السهام فنسأل الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين وباحكام تقليات الأيام من المعتبرين حتى لا يغيره السراب الخادع والدهر المرغم للأنوف الجادع ولا يرى فى الوجود غير الله من صانع ولا معط ولا مانع ويمتعه بالجز الجديد ويوقفه للنظر السديد ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد والسلام انتهى

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى أبا عبد الله ابن عمر التونسي قوله - 84

سيدي الذى عهدته لاينسى وذكره يصيح فى ترديده بالجميل ويمسى ابقاكم الله تعالى تجلون من السعادة شمسا وتصرفون فى طاعته لسانا فردا وبنانا خمسا وصلنى كتابكم الأشعث الأعبى ومقتضبكم الذى أضغاثه لا تعبر شاهده بعدم الاعتناء اوضاعه معدوما امتاعه قصيرا فى التعريف بالحال المتشوق اليها باعه مضمنا الإحالة على خلى من معناها غير ملتبس بموحدها ولا مثناها سألته كما يسأل المريض عما عند الطبيب ويحرص الحبيب على تعرف احوال الحبيب فذكر أنه لم يتحمل غير تلك السحاة المعنية فى الاختصار المجحفة بخطى الأسماع والأبصار فهملت بالعتب على البخيل بالكتب ثم عذرت سيدي بما يعترى مثله من شواغل تطرق وخواطر تومض وتبرق وإذا كان أمنا سريره مهناً شربه فهو الأمل ويقنع هذا المجمل وأن كان التفسير هو الأكمل وما ثم ما يعمل ووده فى كل حال وده والله سبحانه بالتوفيق يمدده والسلام وكانت لسان الدين رحمه الله تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة واعيانها دلت على قوة عارضته فى البلاغة وقد المعنا بجملة منها فى هذا الكتاب فى مواضع ولم نكثر منها طلبا للاختصار أو التوسط بحسب ما اقتضاه الباعث فى الحال والله سبحانه وتعالى يبلغ الآمال ويزكى الأعمال ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبى الحجاج يوسف بن نصر إلى - 85

سيد العالمين صلى الله عليه وسلم إثر نظم ونص الكل هو

" إذا فاتنى ظل الحمى ونعيمه ... فحسب فؤادى أن يهب نسيمه "

" ويفنعننى أنى به متكف ... فزمزمه دمعى وجسمى حطيمة "

" يعود فؤادى ذكر من سكن الغصنا ... فيقعده فوق الغضا ويقيمه "

" ولم أر شيئا كالنسيم إذا سرى ... شفى سقم القلب المشوق سقيمه "

" نعلل بالتذكار نفسا مشوقة ... ندير عليها كأسه ونديمه "

" وما شفىنى بالغور قد مرئح ... ولا شاقنى من وحش وجره ريمه "

" ولا سهرت عينى لبرق ثنيه ... من الثغر بيدو موهنا فاشيمه "

" برانى شوق للنبي محمد ... يسوم فؤادى برحة ما يسومه "

" ألا يا رسول الله نادك ضارع ... على النأى محفوظ الوداد سليمه "

" مشوق إذا ما الليل مد رواقه ... تهم به تحت الظلام همومه "

" إذا ما حديث عنك جاءت به الصبا ... شجاه من الشوق الحثيث قديمه "
 " أيجهر بالنجوى وأنت سميعها ... ويشرح ما يخفى وأنت عليه "
 " وتعوذه السقيا وأنت غياته ... وتلقه الشكوى وأنت رحيمه "
 " بنورك نور الله قد اشرق الهدى ... فاقماره وضاحة ونجومه "
 " لك انهل فضل الله بالأرض ساكبا ... فانواؤه ملتفة وغيومه "
 " ومن فوق اطباق السماء بك اقتدى ... خليل الذى اوطاها وكليمه "
 " لك الخلق الأرضى الذى جل ذكره ... ومجدك فى الذكر العظيم عظيمه "
 " يجل مدى عليك عن مدح مادح ... فموسر در القول فيك عديمه "
 " ولى يا رسول الله فيك ورائه ... ومجدك لا ينسى الذمام كريمه "
 " وعندى الى انصار دينك نسبة ... هى الفخر لا يخشى انتقالا مقيمه "
 " وكان بودى أن ازور مبعوا ... بك افتخرت اطلاله ورسومه "
 " وقد يجهد الإنسان طرف اعتمازه ... ويعوزه من بعد ذاك مرومه "
 " وعذرى فى تسويف عزمى ظاهر ... اذا ضاق عذر العزم عمن يلومه "
 " عدتني باقصى الغرب عن تريك العدا ... جلالقة الثغر الغريب ورومه "
 " احاهد منهم فى سبيلك امة ... هى البحر يعبى امرها من يرومه "
 " فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى ... لريع حماه واستبيح حريمه "
 " فلا تقطع الحبل الذى قد وصلته ... فمجدك موفور النوال عميمه "
 " 356 - " وأنت لنا الغيث الذى نستدره ... وأنت لنا الظل الذى نستديمه "
 " ولما نأت دارى واعوز مطمعى ... واقلقنى شوق يشب جحيمه "
 " بعثت بها جهد المقل معولا ... على مجدك الأعلى الذى جل خيمه "
 " وكلت بها همى وصدق قريحتى ... فساعدنى هاء الروى وميمه "
 " فلا تنسنى يا خير من وطىء الثرى ... فمثلك لا ينسى لديه خديمه "
 " عليك صلاة الله ما ذر شارق ... وما راق من وجه الصباح وسيمه "

إلى رسول الحق إلى كافة الخلق وغمام الرحمة الصادق البرق الحائز فى ميدان اصطفاء الرحمن
 قصب السبق خاتم الأنبياء وامام ملائكة السماء ومن وجبت له النبوة وأدم بين الطين والماء شفيح
 أرباب الذنوب وطبيب أدواء القلوب والوسيلة إلى علام الغيوب نبي الهدى الذى طهر قلبه وغفر ذنبه
 وختم به الرسالة ربه وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حبه الشفيح المشفع يوم العرض المحمود
 فى ملائكة السماء والأرض صاحب اللواء المنشور يوم النشور والمؤمن على سر الكتاب المسطور
 ومخرج الناس من الظلمات إلى النور المؤيد بكفاية الله وعصمته الموفور حظه من عنايته ونعمته
 الظل الخفاق على أمته من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدت إشرافا أو كان للآباء رحمة
 قبله ذابت نفوسهم اشفاقا فائدة الكون ومعناه وسر الوجود الذى يبهر الوجود سناه وصفى حضرة
 القدس الذى لا ينام قلبه إذا نامت عيناه البشير الذى سبقت له البشرى ورأى من آيات ربه الكبرى
 ونزل فيه " سبحان الذى أسرى " الاسراء من الأنوار من عنصر نوره مستمدة والآثار تخلق وأثاره
 مستجدة من طوي بساط الوحي لفقده وسد باب الرسالة والنبوة من بعده واوتى جوامع الكلم
 فوفقت البلغاء حسرى دون حده الذى انتقل فى الغرر الكريمة نوره وأضاءت لميلاده مصانع الشام
 وقصوره وطفقت الملائكة تحينه وفودها وتزوره واخبرت الكتب

357 - المنزلة على الأنبياء باسمائه وصفاته واخذ عهد الإيمان به على من اتصلت بمبعثه منهم
 أيام حياته المفزع الأمتع يوم الفزع الأكبر والسند المعتمد عليه فى أهوال المحشر ذو المعجزات
 التى أثبتتها المشاهدة والحس وأقر بها الجن والإنس من جماد يتكلم وجذع لفراقه يتألم وقمر له
 ينشق وحجر يشهد أن ما جاء به هو الحق وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس وماء من بين
 أصابعه يتجسس وغمام باستسقائه يصب وطوى بصبق فى اجاجها فاصبح ماؤها وهو العذب
 المشروب المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب المسمى بالحاشر العاقب ذو المجد البعيد
 المرامى والمراقب أكرم من رفعت إليه وسيلة المعترف المغترب ونجحت لديه قرية البعيد المقرب
 سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذى فاز بطاعته المحسنون واستنقذ بشفاعته
 المذنبون وسعد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون صلى الله عليه وسلم ما لمع برق
 وهمع ودق وطلعت شمس ونسخ اليوم أمس

من عتيق شفاعته وعبد طاعته المعتصم بسببه المؤمن بالله ثم به المستشفى بذكره كلما تألم
 المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلم الذى أن ذكر تمثل طلوعه بين اصحابه وآله وأن هب النسيم العاطر

وجد فيه طيب خلاله وان سمع الأذان تذكر صوت بلاله وأن ذكر القرآن استشعر تردد جبريل بين معاهده وخلاله لاثم تربه ومؤمل قربه ورهين طاعته وحبه المتوسل به إلى رضى الله ربه يوسف بن اسماعيل بن نصر

كتبه اليك يا رسول الله والدمع ماح وخيل الوجد ذات جماح عن شوق يزداد كلما نقص الصبر وانكسار لا يتاح له إلا بدنو مزارك الجبر وكيف لا يعيى مشوقك الأمر وتوطأ على كبده الجمر وقد مطلّت الأيام بالقدوم على تريك المقدسة اللحد ووعدت الآمال ودانت باخلاف الوعد وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت والركائب اليك

358 - ما رحلت والعزائم قالت وما فعلت والنواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تسرح وطيور الآمال عن وكور العجز لم تبحر فيا لها من معاهد فاز من حياها ومشاهد ما اعطر رباها بلاد نبطت بها عليك التمام واشرقت بنورك منها النجود والتهايم ونزل فى حجراتها عليك الملك وانجلى بضياء فرقانك فيها الحلك مدارس الآيات والسور ومطالع المعجزات السافرة الغرر حيث قضيت الفروض وحتمت وافتتحت سورة الرحمن وختمت وابتدئت الملة الحنيفية وتممت ونسخت الآيات واحكمت أما والذى بعثك بالحق هاديا واطلعتك للخلق نورا باديا لا يطفىء غلتى إلا شريك ولا يسكن لوعتى إلا قريبك فما اسعد من أفاض من حرم الله إلى حرمك واصبح بعد اداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك وغفر الخد فى معاهدك ومعاهد اسرتك وتردد ما بين دارى بعثتك وهجرتك وأنى لما عاقتنى عن زيارتك العوائق وأن كان شغلى عنك بك وعدتتى الأعداء فيك عن وصل سببي بسببك واصبحت بين بحر تتلاطم امواجه وعدو تتكاثف افواجه ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجة فى طائفة من المؤمنين بك ووطنوا على الصبر نفوسهم وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ورفعوا إلى مصارحتك رؤوسهم واستعدبوا فى مرضاه الله تعالى ومرضاتك بوسهم يطرون من هبة إلى اخرى ويلتفتون والمخاوف عن يمنى ويسرى ويقارعون وهم الفئة القليلة جموعا كجموع قيصر وكسرى لا يبلغون من عدو هو الذر عند انتشاره عشر معشاره قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا لان تكون كلمة الله تعالى هى العليا فيا له من سرب مروع وصريخ الا منك ممنوع ودعاء إلى الله وإليك مرفوع وصيبة حمر

الحواصل تخفق فوق اوكارها اجنحة المناصل والصليب قد تمطى فمد ذراعيه ورفعته الأطماع وقد حجبت بالقمام السماء وتلاطمت أمواج الحديد والباس الشديد فالتقى الماء ولم يبق إلا وعلى ذلك فما ضعفت البصائر ولا ساءت الطنون وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تشاهده العيون إلى أن نلقاك غدا أن شاء الله تعالى وقد ابلينا العذر وارغمنا الكفر واعملنا فى الله تعالى وسبيلك البيض والسمر استنبت رفعتى هذه لتطير إليك من شوقى بجناح خافق من نيتى التى تصحبها برفيق موافق فتؤددي عن عبدك وتبلغ وتعفر الخد فى تريك وتمرغ برىا معاهدك الطاهرة وبيوتك وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك وتقول بلسان عند التشبث باسبابك والتعلق منكسرة الطرف حذرا بهرجها من عدم الصرف يا غياث الأمة الرحمة ارحم غربتى وانقطاعي وتغمد بطولك قصر باعى ووقو على هيبتك خور طباعى فكم جزت من مهول وجبت من حزون وسهول وقابل بالقبول نيابتى وعجل بالرضى اجابتى ومعلوم من كمال تلك الشيم تيك الديم أن لا يخيب قصد من حط يفنائها ولا يظما وارد اكب على انائها

اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وأخرهم بالصورة واعطيته لواء الحمد يسير آدم فمن تحت ظلاله المنشورة وملكت امته ما زوى له من زوايا البسيطة المعمورة وجعلتنى من امته على حبه المفطورة وشوقتنى الى معاهده المبرورة ومشاهده المزورة ووكلت لسانى عليه وقلبى بالحنين إليه ورغبتنى بالتماس ما لديه فلا تقطع منه أسبابى ولا تحرمنى من ثوابى وتداركنى بشفاعته يوم أخذ كتابى

هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره وشط مزاره ولم يجعل بيده اختياره

فأن لم تكن للقبول اهلا فأنت للإغضاء والسماح أهل وأن كانت الفاظها وعرة فجنابك سهل وإن كان الحب يتوارث كما اخبرت والعروق تدس حسبما إليه اشرت فلى بانتسابى سعد عميد انصارك مزية ووسيلة اثيرة حفية فإن لم يكن لى عمل ترتضيه فلى نية فلا تنسنى بهذه الجزيرة المفتحة بسيف كلمتك على ايدي خيار امتك فأنما نحن بها وديعة تحت بعض نعوذ بوجه ربك من إغفالك ونستنشق من ريح عنايتك نفحة ونرتقب من محيا قبولك لمحة بها عدوا طغى ويغى وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى فمواقف التمحيص قد اعيت من كتب والبحر قد اصمت من استصرخ والطاغية فى العدوان مستبصر والعدو محلق والولى وبجاهك ندفع ما لا نطيق وبعنايتك نعالج سقيم الدين

فيفيق فلا تغردنا ولا تهملنا وناد ربك " ربنا ولا تحملنا " البقرة وطوائف امتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم وربك يقول لك وقوله " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم " الأنفال 33 والصلاة والسلام عليك يا خير من طاف وسعى داعيا إذا دعا وصلى الله على جميع احزابك وألك صلاة تليق بجلالك وتحق لكمالك وعلى وصديقيك وحببيك ورفيقيك خليفتك فى امتك وفاروقك المستخلف بعده على جلتك ذي النورين المخصوص ببرك ونحلتك وابن عمك سيفك المسلول على حلتك بدر سمائك اهلتك والسلام الكريم عليك وعليهم كثيرا أثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته وكتب بحضرة الأندلس غرناطة صانها الله تعالى ووقاها ودفع عنها ببركتك كيد عداها انتهت الرسالة 86 - وكتب أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان مخدومه

السلطان الغنى بالله محمد ابن السلطان أبى الحجاج رحم الله تعالى الجميع ما صورته

- " دعاك المغربيين غريب ... وأنت على بعد المزار قريب "
- " مدل باسباب الرجاء وطرفه ... على حكم الحياء مريب "
- " يكلف قرص البدر حمل تحية ... إذا ما هوى والشمس حين "
- " لترجع من تلك المعالم غدوة ... وقد ذاع من رد التحية طيب "
- " ويستودع الريح الشمال ... من الحب لم يعلم بهن رقيب "
- " ويطلب فى جيب الجيوب جوابها ... إذا ما اطلت جنيب "
- " ويستفهم الكف الخضيب ودمعه ... غراما بحناء النجيع خضيب "
- " ويتبع آثار مشيعا ... وقد زمزم الحادى وحن نجيب "
- " إذا أثر الأخفاف لاحت محاربا ... يخر عليها وينيب "
- " ويلقى ركاب الحج وهى قوافل ... طلاح وقد لبي النداء لبيب "
- " فلا قول إلا أنه ... ولا حول إلا زفرة ونجيب "
- " غليل ولكن من قبولك منهل ... غليل ولكن من رضاك "
- " ألا ليت شعري والأمانى ضله ... وقد تخطىء الآمال ثم تصيب "
- " اينجد نجد بعد مزاره ... ويكتب بعد البعد منه كتيب "
- " وتقضى ديونى بعدما مطل المدى ... وينفذ بيعى معيب "
- " وهل أفتضى دهرى فيسمح طائعا ... وادعو بحظى مسمعا فيجيب "
- " ويا ليت شعري لحومى مورد ... لديك وهل لى فى رضاك نصيب "
- " ولكنك المولى الجواد وجاره ... على اى كان ليس يخيب "
- " وكيف يضيق الذرع يوما بقاصد ... وذاك الجنب المستجار رحيب "
- " وما هاجنى إلا بارق ... يلوح بغود الليل منه مشيب "
- " ذكرت به ركب الحجاز وجيرة ... أهاب بها نحو الحبيب مهيب "
- " فبت وجفنى من لآلىء دمه ... غنى وصبرى للشجون سليب "
- " ترنحنى الذكرى ويهفو بى الجوى ... كما مال غصن فى رطيب "
- " واحضر تعليلا لشوقى بالمنى ... ويطرق وجد غالب فاغيب "
- " مرامى لو الأمانى زوره ... بيث غرام عندها ووجيب "
- " فقول حبيب إذ يقول تشوقا ... عسى وطن الى حبيب "
- " تعجبت من سيفي وقد جاور الغضا ... بقلبي فلم يسبكه منه مذيب "
- " واعجب لا يورق الرمح فى يدي ... ومن فوفه غيث المشوق سكب "
- " فيا سرح ذاك الحي لو اخلف ... لأغناك من صوب الدموع صيب "
- " ويا هاجر الجو الجديب تليثا ... فعهدى رطب خصيب "
- " ويا قادح الزند الشحاح ترفقا ... عليك فشوقى الخارجى شبيب "
- " ايا خاتم المكين مكانه ... حديث الغريب الدار فيك غريب "
- " فؤادي على جمر البعاد مقلب ... يماح للدموع قلب "
- " فو الله ما يزداد إلا تلهيا ... أبصرت ماء ثار عنه لهيب "
- " فليلته ليل ويومها ... إذا شد للشوق العصاب عصيب "
- " هواي هدى فيك اهتديت بنوره ... ومنتسبى منك نسيب "
- " وحسبى على أنى لصحبك منتم ... وللخزرجيين الكرام نسيب "
- " عدت عن المشوقة للعدا ... عقارب لا يخفى لهن ديب "
- " حراص على إطفاء نور قدحته ... فمستلب دونه وسليب "

" فكم من شهيد فى رضاك مجدل ... يظلمه نسر ويندب ذيب "
 " تمر الرياح فوق كلومهم ... فتعقب من انفاسها وتطيب "
 " بنصرك عنك الشغل من غير منه ... وهل مشهد ومغيب "
 " فإن صح منك الحظ طاوحت المنى ... ويبعد مرمى السهم وهو مصيب "
 " ولولاك لم يعجم من عودها ... فعود الصليب الأعجمى صليب "
 " وقد كانت الأحوال لولا مراغب ... ضمنت بالظهور تريب "
 " فما شئت من نصر عزيز وانعم ... أتاب بهن المؤمنين مئيب "
 " منابر اذن الفتح فوقها ... وأفصح للعصب الطرير خطيب "
 " نقود الى هيجائها كل صائل ... كما ريع اللحاظ ريب "
 " ونجتاب من سرد اليقين مدارعا ... يكفتها من يجتنى ويشيب "
 " إذا الخطى حول غديرها ... يروك منها لجه وقضيب "
 " فعذرا وإغضاء ولا تنس صارخا ... بعزك يرحو ان يجيب مجيب "
 " وجاهك بعد الله نرجو وانه ... لحظ ملئ بالوفاء رغب "
 " صلاة الله ما طيب الفضا ... عليك مطيل بالثناء مطيب "
 " وما اهتز قد للغصون مرنح ... افتر ثغر للبروق شنيب "

إلى حجة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره وفائدة الكون ونكته ادواره وصفوة نوع البشر أطواره إلى المجتنبى وموجود الوجود لم يغن بمطلق الوجود عديمة المصطفى من ذرية قبل أن يكسو العظام أديمة المحتوم فى القدم وظلمات العدم عند صدق القدم تفضيله وتقديمه ودبيعة النور المنتقل فى الجباة الكريمة والغرر ودرة الأنبياء التى لها الفضل على الدررغامام الهامية الدرر إلى مختار الله تعالى المخصوص باحتبائه وحببيه الذى له المزية على احبائه انبياء الله تعالى أبائه الى الذى شرح صدره وغسله ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وارسله عليه انعامة الذى اجزله وانزل عليه من الهدى والنور ما انزله إلى بشرى المسيح والذبيح لهم التجر الريح المنصور بالرعب والريح المخصوص

بالنسب الصريح إلى الذى جعله فى المحول غماما ولأنبياء اماما وشق صدره لتلقى روح امره واعلم به فى التوراة والإنجيل اعلاما وعلم المؤمنين صلاة عليه وسلاما إلى الشفيع الذى لا فى العصاة شفاعته والوجيه الذى قرنت بطاعة الله تعالى طاعته والرؤوف الرحيم الذى إلى الله تعالى فى اهل الجرائم ضراعتة صاحب الآيات التى لا يسع ردها والمعجزات اربى على الألف عدها فمن قمر شق وجذع حن له وحق وبنان يتفجر بالماء فيقوم بري وطعام يشبع الجمع الكثير يسيره وغمام يظلل به مقامه ومسيرة خطيب المقام المحمود إذا العرض واول من تنشق عنه الأرض ووسيله الله تعالى التى لولاها ما اقرض القرض ولا النفل والقرض محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال ذى الجلال الشاهد بصدقه صحف الأنبياء وكتب الأرسال وآياته التى أثلجت القلوب ببرد اليقين صلى الله عليه وسلم ما ذر شارق واومض بارق وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس صلاة تتأرجح على شذا الزهر وتتلج عن سنا الكواكب الزهر وتردد بين السر والجهر ساعات اليوم وأيام الشهر وتدوم بدوام الدهر من عبد هداه ومستقرى مواقع نداه ومزاحم أبناء انصاره فى منتداه وبعض سهامه المفوقه إلى عده مؤمل العتق من النار بشفاعته ومحرز طاعة الجبار بطاعته الأمن باتصال رعيه من الله تعالى وإضاعته متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة وذخائر فى الشدائد مرتجاه متاجر غير مزجاة الذى ملأ بحبه جوانح صدره وجعل فكره هالة لبدرة وأوجب حقه على قدر لا على قدره محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى نسيب سعد بن عبادة من وبوارق سحابه وسيوف نصرته وأقطاب دار هجرته ظلله الله تعالى يوم الفرع الأكبر من عنه بظلال الأمان كما أنار قلبه من هدايتك بانوار الهدى والإيمان وجعله

من أهل السياحة فى فضاء حبك والهيمنان

كتبه اليك يا رسول الله والبراع تقتضى الهيبة صفرة لونه والمداد يكاد أن يحول سواد جونه الكتاب يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم وصونه والدمع يقطر فتنقط به وتفصل الأسطر وتوهم المثلث بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر عن قلب عنك قريح وجفن بالبكاء جريح وتأوه عن تبريح كلما هب من ارضك نسيم ربح وانكسار له إلا جبرك واغتراب لا يؤنس فيه إلا قريك وإن يقض فقبرك وكيف لا يسلم فى مثلها الأسى الصباح والمسا ويرجف جبل الصبر بعدما رسا لولا لعل وعسى فقد سارت الركبان إليك يقض مسير وحومت الأسراب عليك والجناح كسير ووعدت

الآمال فاخلفت وخلصت العزائم فلم بما خلقت ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل إلا على التمثيل ولا من الملتزمة التنوير إلا على التصوير مهبط وحي الله تعالى ومتمنزل أسمائه ومتردد ملائكة ومدافن أوليائه وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه رزقني الله تعالى الرضى بقضائه والصبر جاحم البعد ورمضائه من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية ومسحبة رحلك يا رسول الله وخيلك وأناى مطارح دعوتك ومساحب ذيلك حيث مصاف في سبيل الله وسبيلك قد ظللها القتام وشهبان الأسنة أطلعها منه الإعتام واسواق بيع النفوس الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام حيث الجراح قد تحلت بعسجد نجيعها النحور والشهداء بها الحور والأمم الغربية قد قطعها عن المدد البحور حيث المباسم المفترمة تجلوها المصارع فتحبيها بالعراء ثغور الأزاهر وتندبها صوادح الأوداج برنات تلك المزاهر وتحلى السحاب المعطلة من ظلها بالجواهر وحيث الإسلام من عدوه المكاييد بمنزلة

قطرة من عارض غمام وحصاه من ثبير أو شمام وقد سدت الطريق واسلم الفراق الغريق واغص وينس من الساحل الغريق إلا أن الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل الله تعالى وحبلك بآدلة سبلك سالم والحمد لله تعالى من الانصداع محروس بفضل الله تعالى من الابتداء من جديد الملة معدوم فيه وجود الطوائف المضلة إلا ما يخص الكفر من هذه العلة على جمع الكثرة من جموعه يجمع القلة

ولهذه الأيام يا رسول الله اقام الله تعالى اوده برا بوجهك الوجيه ورعيا وانجازا لوعدك وهو لا يخلف وعدا ولا يخيب سعيا وفتح لنا فتوحا اشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب وبشرتنا منه بغفر التقصير ورفع التثريب ونصرنا وله المنة على عبده الصليب وجعل لألفنا الردينى السردى حكم التغليب وإذا كانت الموالى التى طوقت الأعناق منها وقررت العوائد الحسان وسننها تبادر إليها نوابها الصرحاء وخدامها النصحاء بالبشائر والمسرات التى تشاع فى وتجلو لديها نتائج ايديها وغايات مباديها وتتاحفها وتهاديها بمجانى جناتها وأزاهر غواديتها محاضرها بطرف بواديتها فبابك يا رسول الله اولى بذلك واحق ولك الحق والحر عبدك المسترق حسبما سجله الرق وفى رضاك من كل من يلتمس رضاه المطمع ومثواك وملوك الإسلام فى الحقيقة عبيد سدتك المؤملة وخول مثابتك المحسنة بالحسنات المجملة تعشو إلى بدورك المكملة وبعض سيوفك المقلمة فى سبيل الله تعالى المحملة وحرسه وسلاح جهادك وبروق عهادك

وأن مكفول احترامك الذى لا يخفر وربى انعامك الذى لا يكفر وملتحف جاهك الذى يمحي ذنبه أن شاء الله تعالى ويغفر بطالع روضة الجنة المفتحة ابوابها بمثواك ويفاتح صوان القدس اجنك وحواك وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذى طواك ويعرض جنى ما غرست وبذرت ما بشرت به لما بشرت وانذرت وما انتهى إليه طلق جهادك ومصب عهادك لتقر عين التى انام العيون الساهرة هجوعها واشبيع البطون ورواها ظمؤها فى الله تعالى وجوعها كانت الأمور بمراى من عين عنابتك وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنايتك ومجملته يا رسول صلى الله عليك وبلغ وسيلتى إليك هو أن الله سبحانه لما عرفنى لطفه الخفى فى التمهيص عدم المحيص ثم فى التخصيص المغنى بعيناه عن التنصيص وفق ببركاتك السارية فى القلوب ووسائل محبتك العائدة بنيل المطلوب إلى استفادة عظة واعتبار واغتنام اقبال ادبار ومزيد استبصار واستعانة بالله تعالى وانتصار فسكن هبوب الكفر بعد إعصار وحل الإسلام بعد حصار وجرت على سنن السنة بحسب الاستطاعة والمنة السيرة وجبرت القلوب الكسيرة وسهلت المارب العسيرة ورفع بيد العزة الضيم وكشف بنور البصيرة الغيم القليل على الكثير وباء الكفر بخطة التعثير واستوى الدين الحنيف على المهاد الوثير فاهتبلنا رسول الله غرة العدو وانتهنزناها وشمنا صوارم عزة العدو وهزناها وأزحنا علل الجيوش فكان مما ساعد عليه القدر والخطب المبندر والورد الذى حسن بعده الصدر أننا عاجلنا مدينة وقد جرعت الأختين مالقه ورنده من مدائن دينك ومزابن ميادينك أكواس الفراق وأذكرت مثل بالعراق وسدت طرق التزاور عن الطراق واسالت المسيل بالنجيع المراق فى مراصد المراد ومنعت المراسلة مع هدير الحمام لا بل مع طيف المنام عند الإمام فيسر الله تعالى اقتحامها بيض الشفار فى زرق الكفار الحامها وازال بشر السيوف من بين تلك الحروف اقحامها فانطلق المسرى القواعد الحسرى وعدمت بطريقها المخيف مصارع الصرعى ومثاقف الأسرى والحمد على فتحه الأسنى ومنحه الأسرى ولا إله إلا هو منفل قيصر وكسرى وفتاح مغلقتهما المنيعه واستولى الإسلام منها على قرار جنات وأم بنات وقاعدة حصون وشجرة غصون طهرت مساجدها المكروهة وفجع بحفظها الفيل الأفيلى وابرهه وانطلقت بذكر الله الألسنة المدرهة وفاز بسبق جياذك الفرهة هذا وطاغية الروم على توفر جموعه وهول مرثيه ومسموعه قريب جواره يتصل خواره وقد حرك اليها الحنين

حواره

ثم نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذى اعيا النطاسى علاجه وكرك هذا القطر الذى لا
أعلامه ولا تصاول اعلاجه وركاب الغارات التى تطوى المراحل إلى مكايدة المسلمين طى وحجر
الحيات التى لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود ومنغص الورود فى العذب ومقض المضاجع
وحلم الهاجع ومجهز الخطب الفاجيء الفاجع ومستدرك فاتكة الراجع هبوب الطائر الساجع حصن
أشهر حماه الله تعالى دعاء لا خبرا كما جعله للمتفكرين فى قدرته فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجيد
وأذلوا عزته بعزة ذى العرش المجيد وحفت به الرايات وسمك ويلوح فى صفحاتها اسم الله تعالى
واسمك فلا ترى إلا نفوسا تتزاحم على مورد أسرابها وليوثا يصدق فى الله تعالى ضرابها وأرسل
الله عليها رجزا إسرائيليا من جراد تشذ آياته عن الأفهام

وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام من بعد الاستغلاق والاستبهاام وقد عبثت جوارح صخوره
قنائص الهام واعيا صعبه على الجيش اللهائم فأخذ مسائغه النقض والنقب ورغا فوق أهله ونصبت
المعارج والمراقى وقرعت المناكب والتراقى واغتتم الصادقون مع الله تعالى الحظ وقال الشهيد
السابق يا فوز استبقاى ودخل البلد فالحم السيف واستلب البحت والزيف ثم القصة فعلت اعلامك
فى ابراجها المشيدة وظفر ناشد دينك منها بالنشيدة وشكر الله فى قصدها مساعى النصائح
الرشيدة وعمل ما يرضيك يا رسول الله فى سد ثلمها وصون ومداواة المها حرصا على الاقتداء فى
مثلها باعمالك والاهتداء بمشكاة كمالك ورتب فيها تشجى العدو وتصل فى مرضاة الله تعالى
ومرضاتك برواحها الغدو

ثم كان الغزو الى مدينة إطريرة بنت حاضرة الكفر اشبيلية التى اظلتها بالجنح الساتر وأنامتها
ضمان الأمان للحسام الباتر وقد وتر الإسلام من هذه المومسة البائسة بوتير الواتر واحفظ منها
الوقاح المهاتر لما جرته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر حسب المنقول لا بل المتواتر اليها
المسلمون المدى النازح ولم تشك المطى الروازح وصدق الجد جدها المازح وخفقت أو كارها
اجنحة الأعلام وغشيتها أفواج الملائكة الموسومة وظلال الغمام وصابت من السهام الرهام وكاد
يكفى السهام على الأرض ارتجاج اجوائها بكلمة الإسلام وقد صم خاطب عروس
عن الملام وسمح بالعزير المصون مباح الملك العلام وتكلم لسان الحديد الصامت وصمت إلا بذكر
الله الكلام ووفت الأوتار بالأوتار ووصل بالخطى ذرع الأبيض البتار وسلطت النار على أربابها الله
تعالى فى تبار تلك الأمة وتبابها فنزلوا على حكم السيف آلاف بعد أن اتلفوا بالسلاح إتلافا المقاتلة
كتافا وقرنوا فى الجدل أكتافا أكتافا وحملت العقائل والخرائد والولدان والولائد من فوق الظهور واردا
واقلت منها أفلاك الحمول بدورا تضىء من ليالى المحاق اسدافا الأيدي من المواهب والغنائم بما لا
يصوره حلم النائم وتركت العوافى تتداعى الى تلك وتفتن من مطاعمها فى الملائم وشنت الغارات
على حمص فجلبت خارجها مغارا وكست الروم بها صغارا وأجحرت ابطالها احجارا واستناقت من
النعم ما لا يقبل الحصر استبحارا

ولم يكن إلا ان عدل القسم واستقل بالقفول العزيز الرسم ووضح من التوفيق الوسم فكانت الى
قاعدة جيان قبة الظل الأبرد ونسيجه المنوال المفرد وكناس الغيد الخرد وكرسى وبحر العمارة
ومهووى هوى الغيث الهتون وحزب التين والزيتون حيث خندق الجنة تدنو النار مجانيه وتشرق
بشواطىء الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانية والقلعة التى تختمت بنان بخواتيم النجوم وهمت من
دون سحابها البيض سحائب الغيث السجوم والعقيلة التى أبدى يوم طلاقها وهجوم فراقها سمة
الوجوم لذلك الهجوم فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ اكبادها وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصاعدة
وحبتها بالفادحة الفادعة فغصت الربى والوهاد بالتكبير والتهليل الخيل بالصهيل وانهالت الجموع
المجاهدة فى الله تعالى انهيال الكتيب المهيل وفهمت نفوس العباد فى الله تعالى حق الجهاد
معانى التيسير من ربها والتسهيل وسفرت الرايات عن المرأى وأريت المحلات المسلمة على
التاميل ولما صبحتها

النواصى المقيلة الغرر والأعلام المكتتبه الطرر برز حاميتها مصحرين وللحوزة المستباحة فكاثرهم
من سرعان الأبطال رجل الدبا ونبت الوهاد والربى فاقحموهم من وراء السور اقلام الرماح فى بسط
عددهم المكسور وتركت صرعاهم ولائم للنسور ثم اقتحموا ريض الأعظم ففرعوه وجدلوا من دافع
عن أسواره وصرعوه وأكواس الحتوف جرعه ولم اولى الناس باخراهم ويحمد بمخيم النصر العزيز
سراهم حتى خذل الكافر الصبر وأسلم ونزل على المسلمين النصر فدخل البلد وطاح فى السيل
الجارف الوالد منه والولد وأتهم والمتلد فكان هولاء بعيد الشناعة وبعثا كقيام الساعة أعجل
المجانيق عن الركوع والسجود عن مطاولة النجوم والأيدي عن ردم الخنادق والأعوار والأكبش عن

مناطقة الأسوار عن إصعاق الفجار وعمد الحديد ومعاول البأس الشديد عن نقب الابراج ونقض الأحجار الكتيان وابيد الشيب والشبان وكسرت الصلبان وفجع بهدم الكنائس الرهبان واهبطت من مراقبها العالية وصروحها المتعالية وخلعت السنن الكاذبة ونقل ما استطاعته الأيدي وعجزت عن الأسلاب ذوات الظهور وجلل الإسلام شعار العز والظهور بما خلت عن سوائف الدهور والأعوام والشهور وأعرت الشهداء ومن النفوس المبيعة من الله تعالى نحل والمهور ومن بعد ذلك هدم السور ومحيت عن محيطة المحكم السطور وكاد يسير ذلك الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور ومن بعد ما خرب الوجار عقرت الأشجار وعفر المنار وسلطت على

372 - التراب والماء النار وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب واصمى لبنها السهم الصائب وجللتها القشاعم العصاب فالذئاب فى الليل البهيم تعسل والضباع من الحدب البعيد تنسل وقد ضاقت الجدل عن المخائق وبيع العرض الثمين بالدائق وسبكت أسورة الأسوار وسويت الهضاب بالأغوار واكتسحت الأحواز القاصية سرايا الغوار وحجبت بالدخان مطالع الأنوار وتخلفت قاعتها عبرة للمعتبرين وعظة للناظرين وآية للمستبصرين ونادى لسان الحمية يا لثارات الإسكندرية فاسمع أذان المقيمين والمسافرين وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين

ثم كانت الحركة الى اختها الكبرى ولدتها الحزينة عليها العبرى مدينة أبدة ذات العمران المستبحر والربض الخرق المصحح والميانى الشم الأنوف وعقائل المصانع الجملة الحلى والشنوف والغاب الأنوف بلدة التجر والعسكر المجر وأفق الضلال الفاجر الكذب على الله تعالى الكاذب الفجر فخذل الله تعالى حاميتها التى يعيى الحسبان عدها وسجر بحورها التى لايرام مدها وحقت عليها كلمة الله تعالى التى لايستطاع ردها فدخلت لأول وهلة واستوعب جمها والمنة لله تعالى فى نهلة ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة فلما تناولها العفا والتخريب واستباحها الفتح القريب واسند عن عواليها حديث النصر الحسن الغريب وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب واضرعت مسايها ليهول المصاب انصرف عنها المسلمون بالفتح الذى عظم صيته والعز الذى سما طرفه واشرب لبيته والعزم الذى حمد مسراه ومبينه والحمد لله ناظم الأمر وقد راب شتيته وجابر الكسر وقد افات الجبر

مغيته

373 - ثم كان الغزو الى أم البلاد ومثوى الطارف والتلاد قرطبة وما قرطبة المدينة التى على عمل أهلها فى القديم بهذا الإقليم كان العمل والكبرى الذى بعصاه رعى الهمل والمصر الذى له فى خطة المعمور الناقة والجمال والأفق الذى هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل فخيم الإسلام بعقوتها المستباحة وأجاز نهرها المعى على السباحة وعم دوحها الأشب بوارا وادار المحلات بسورها سوارا وأخذ بمخنقها حصارا واعمل النصر بشجر بصلها اجتناء ما شاء واهتصارا وجدل من أبطالها من لم يرض انجارا فاعمل الى المسلمين إصحارا حتى فرغ بعض جهاتها غلابا جهارا ورفعت الأعلام إعلاما بعز الإسلام واطهارا فلولا استهلال الغوادي وان اتى الوادي لأفضت الى فتح الفتوح تلك المبادى ولقضى تفته العاكف والبادى فاقضى الراى ولذنب الزمان فى اغتصاب الكفر إياها متاب تعمل ببشراه بفضل الله تعالى أقتاد واقتاب ولكل أجل كتاب ان يراض صعبها حتى يعود ذلولا وتعفى معاهدها الأهلة فتترك طولولا فاذا فجع الله تعالى بمارج النار طوائفها المارحة واباد بخارجها الطائرة والدارحة خطب السيف منها أم خارجة فعند ذلك أطلقنا بها السنة النار ومفارق الهضاب بالهشيم قد شابت والغلات المستغلات قد دعا بها القصل فما ارتابت وكان صحيفة نهرها لما

374 - أضمرت النار فى ظهرها ذابت وحيته فرت أمام الحريق فانسابت وتخلفت لغمام الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال ايدي الرياح وتنشرها بعد الركود ايدي الاحتياح واغربت باقطارها الشاسعة وجهاتها الواسعة جنود الجوع وتوعدت بالرجوع فسلب أهلها لتوقع الهجوم منزور الهجوع فأعلامها خاشعة خاضعة وولدانها لثدي البؤس راضعة والله سبحانه يوفد بخبر فتحها القريب ركاب البشرى وينشر رحمته قبلنا نشرنا

ثم تنوعت يا رسول الله لهذا العهد أحوال العدو تنوعا يوهم إفاقته من الغمرة وكادت فتنته تؤذن بخمود الجمره وتوقع الواقع وحذر ذلك السم الناقع وخيف الخرق الذى يحار فيه الراقع فتعرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك وموصول عنايتك فأنزل النصر والسكينة ومكن العقائد المكيبة فثابت العزائم وهبت واطردت عوائد الإقدام واستتبت وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله وشمس الحق توجب ظلاله وهداك الذى هديت يدحض ضلاله ونازلنا حصنى قنبل والحائر وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سرارا وقد اتخذنا بين النجوم قرارا وفصل بينهما حسام النهر يروق غرارا والتف معصمه فى حلة العصب وقد جعل الجسر سوارا فخذل الصليب بذلك الثغر

من تولاه وارتفعت أعلام الإسلام باعلاه وتبرجت عروس الفتح المبين بمجلاه والحمد لله تعالى على ما أولاه

ثم تحركنا على تفتة تعدي نعر الموسطة على عدوة المساور فى المضاجع ومصيحة بالفاجيء الفاجع فنازلنا حصن روضة الآخذ بالكظم المعترض بالشجا اعتراض العظم وقد شحنه العدو مددا بئيسا ولم يأل اختياره رايًا ولا تلبيسا فاعيا داؤه واستقلت بالمدافعة أعداؤه ولما اتلع اليه جيد المنجنيق

375 - وقد برك عليه بروك الفنيق وشد عصام العزم الوثيق لجأ أهله إلى التماس العهود والمواثيق وقد غصوا بالريق وكاد يذهب بأبصارهم لمعان البريق فسكناه من حاميه المجاهدين بمن يحمي ذماره ويقرر اعتماره واستولى أهل الثغور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستعلقة ففتحوها وشرعوا أرشية الرماح إلى قلب قلبها فمتحوها

ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفض عن الأعراف متراكم الغبار وترخى عن آباط خيلها شد حزم المغار حتى عاودت النفوس شوقها واستتبعت ذوقها وخطبت التى لا فوقها وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية والمدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية فقصنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذى منه طرق وإداعه ومطلع الحق الذى صدع الباطل صادعه وثنية الفتح التى برق منها لامعه ومشرف الهجوم الذى لم تكن لتعثر على غيره مطامعه وفرضه المجاز التى لا تنكر ومجمع البحرين فى بعض ما يذكر حيث يتقارب الشيطان ويتوازى الخطان وكاد أن تلتقى حلقنا البطان وقد كان الكفر قدر قدر هذه الفرضة التى طرق منها حماه ورماه الفتح الأول بما رماه وعلم أن لا تتصل ايدي المسلمين باخوانهم إلا من تلقائها وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها فاجلب عليها برجله وخيله وسد افق البحر باساطيله ومراكب اباطيله بقطع ليله وتداعى المسلمون بالعدوتين الى استنقاذها من لهواته أو امساكها من دون مهواته فعجز الحول ووقع بملكه إياها القول واحتازها قهرا وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهرا وأطرق الإسلام بعدها إطراق الوجم واسودت الوجوه لخبرها الهاجم وبكتها حتى دموع الغيث الساجم وانقطع المدد إلا من رحمه من ينفس الكروب ويغري بالإدالة الشروق والغروب ولما شكنا بشيا الله تعالى نحرها واغصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تكاثر نجم السماء برها وبحرها ونازلناها نذيقها شديد النزال ونحجها بصدق الوعيد فى سبيل الاعتزال رايانا باوا لا يظاهر إلا بالله تعالى ولا يبال

376 - وممنعه يتحامها الأبطال وجنابا روضة الغيث الهطال أما أسواقها فهى التى اخذت النجد والغور واستعدت بجدال الجلالد عن البلاد فارتكبت الدور تحوز بحرا من العمارة ثانيا وتنشك ان يكون الإنس لها بانيا وأما ابراجها فصفوف وصفوف تزين صفحات المساييف منها انوف وأذان لها من دوامغ الصخر شنوف وأما خندقها فصخر مجلوب وسور مقلوب فصدقها المسلمون القتال بحسب محلها من نفوسهم واقتران اغتصابها ببوسهم وافول شمسهم فرشقوها من النبال بظلاله تحجب الشمس فلا يشرق سناها وعرجوا فى المراقى البعيدة يفرعون مبنائها ونفوسها انقابا وحصونها عقابا ودخلوا مدينه البنة بنتها غلابا واحسبوا السيوف استلالا والأيدي اكتسابا واستوعب القتل مقاتلتها السايغة الجنن البالغة المنن فاخذهم الهول المتفاقم وجدلوا كأنهم الأرقام لم تغلت منهم عين تطرف ولا لسان يلى من يستطلع الخير أو يستشرف

ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سوارا على سورها وتجاسروا على اقتحام اودية الفناء من فوق جسورها وادنوا إليها بالضروب من حيل الحروب بروجا مشيدة ومجانيق توثق حبالها منها نشيدة وخفقت بنصر الله تعالى عذبات الأعلام وأهدت الملائكة مدد السلام فخذل الله تعالى كفارها وأكهم شفارها وقلم بيد قدرته أطفالها فالتمسوا الأمان للخروج ونزلوا على مراقى العروج إلى الأباطح والمروج من سمائها ذات البروج فكان بروزهم إلى العراء من الأرض تذكرة بيوم العرض وقدر

377 - جليل المقاتلة الصغار وتعلق بالأمان النساء والصغار وبودرت المدينة بالتطهير ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير والذكر الجهير وطرحت كفارها الثمائل عن المسجد الكبير وأزرى بالسنة النواقيس لسان التهليل والتكبير وانزلت عن الصروح اجرامها يعيي الهندام مرامها والفى منبر الإسلام بها مجفوا فانست غربته واعيد اليه قربة وقربته وتلا واعظ الجمع المشهود قول منجز الوعود ومورق العود " وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم فما أغنت عنهم ألتهنم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود " هود فكان الدمع يغرق الآماق والوجد يستأصل الأرقام وارتفعت الرغبات وعلت

السيات وحيء بأسرى المسلمين يرسفون فى القيود الثقال وينسلون من أحداب الاعتقال ففكت عن سوقهم أساود الحديد وعن أعناقهم فلكات البأس الشديد وظللوا بجناح اللطف العريض المديد وترتبت فى المقاعد الحامية وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية وعادت المدينة لأحسن أحوالها وسكنت من بعد أهوالها وعادت الجالية إلى اموالها ورجع إلى القطر شبابه ورد على دار الإسلام باهه واتصلت باهل لا إله إلا الله اسبابه فهى اليوم فى بلاد الإسلام قلادة النحر وحاضرة البر والبحر أبقى الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت امتك ودائع الله تعالى فى ذمتك بكلمة دينك الصالحة الباقية وسدل عليه أستار عصمته الواقية وعدنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول وهجيرا الشروق والأفول والجهاد يا رسول الله الشان المعتمد ما امتد بالأجل الأمد والمستعان الفرد الصمد

ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك وبلغ وسيلتى إليك بلغ من هذا **378** - القطر المرتدى بجاهك الذى لا يذل من ادعوه ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذى شرعه إلى أن لا طغنا ملك الروم باربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ورفع التماثيل ببيوت الله تعالى ونصبها فانجاب عنها بنورك الحلك ودار بادالتها إلى دعوتك الفلك وعاد إلى مكاتبها القرآن الذى نزل به على قلبك الملك فوجبت مطالعة مقرئ النبوى باحوال هذه الأمة المكفولة فى حرك المفضلة بإدارة تجرك المهتدية بانوار فجرك وهل هو إلا ثمرات سعيك ونتائج رعيك وبركة حبك ورضاك الكفيل برضى ربك وغمام رعدك وانجاز وعدك وشعاع من نور سعدك وبذر يجنى ريعه من بعدك ونصر رايتك وبرهان أيتك وائر حمايتك ورعايتك

واستنبت هذه الرسالة مائحة بحر الندى الممنوح ومفاتيحة باب الهدى بفتح الفتوح وفارعة المظاهر والصروح وملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح لتمد إلى قبولك يد استمناح وتطير إليك من الشوق الحثيث بجناح ثم تقف موقف الانكسار وأن كان تجرها أمنا من الخسار وتقدم بانس القرية وتحجم بوحشة الغربة وتتأخر بالهيبه وتجهش لطول الغيبة وتقول ارحم بعد دارى وضعف اقتدارى وانتزاح اوطانى وخلو اعطانى وقلة زادي وفراغ مزادي وتقبل وسيلة اعترافى وتغمد هفوة اقترافي وعجل بالرضى انصراف متحملى لانصرافى فكم جبت من بحر زاخر وقفر بالركاب ساخر وحاش لله تعالى أن يخيب قاصدك أو تتخطانى مقاصدك أو تطردنى موائدك أو تضيق عنى عوائدك ثم تمد مقتضية مزيد رحمتك مستدعية دعاء من حضر من أمتك وأصحابتها يا رسول الله عرضا من النواقيس التى كانت بهذه البلاد المفتوحة تعيق الإقامة والأذان وتسمع الأسماع الضالة والأذان مما قبل الحركة وسالم المعركة ومكن من نقله الأيدي المشتركة واستحق بالقدوم عليك والإسلام بين يديك السابقة فى الأزل البركة وما سواها فكانت جبالا عجز عن نقلها الهدام فنسخ وجودها الإعدام وهى يا

379 - رسول الله جنى من جنانك ورطب من أفنانك وأثر ظهر علينا من مسحة حنانك هذه هى الحال والانتحال والعائق أن تشد إليك الرحال ويعمل الترحال إلى أن نلقاك فى عرصات القيامة شفيعا ونحل بجاهك أن شاء الله تعالى محلا رفيعا ونقدم فى زمرة الشهداء الدامية كلومهم من أهلك الناهلة غلهم فى سجلك ونبتهل إلى الله تعالى الذى اطلعك فى سماء الهداية سراجا وأعلى لك فى السبع الطباق معراجا وأم الأنبياء منك بالنبى الخاتم وقفى على آثار نجومها المشرقة بمقرئ العاتم أن لا يقطع عن هذه الأمة الغربية أسبابك ولا يسد فى وجوها أبوابك ويوفقها لاتباع هداك ويثبت أقدامها على جهاد عداك وكيف نعدم ترفيها أو تخشى بخسا وانت موفيقها أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها وصلاة الله وسلامه تحط بفنائك رجال طبيها وتهدر فى ناديك شقاشق خطيها ما أذكر الصباح الطلق هداك والغمام السكب نداك وما حن مشتاق إلى لثم ضربك وبليت نسمات الأسجار عما استرقت من ريحك وكتب فى كذا انتهت الرسالة وفيها ما لا خفاء به من براعة لسان الدين رحمه الله تعالى وقدس روحه الطاهرة أمين

ومما علق بحفظى من نثره رحمه الله تعالى اثناء رسالة فى العزاء خاطب بها ملك المغرب - **87** قوله بعد كلام أين مروان بن الحكم ودهاؤه وعبد الملك بن مروان وبهاؤه والوليد وبناؤه وسليمان وغذاؤه وعمر بن عبد العزيز وثناؤه ويزيد ونساؤه وهشام وخيلاؤه والوليد وندماؤه والجعدى وآراؤه أم ابن السفاح وحسامه والمنصور واعتزاه والمهدى واعظامه والهادى واقدامه والرشيدي وأيامه والأمين وندامه والمأمون وكلامه والمعتمصر واسراجه والجامه انتهى **380** - وقد تقدم كلام أبى الخطاب ابن دحية فى هذا المعنى بطوله فى الباب الثانى من هذا القسم فليراجع ثمة

للمقري محاكيا لسان الدين

قلت وقد تقدم فى الخطبة نظمى لمثل هذا وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثرا مما لم يحضرنى منه الآن غير قولى اين الإسكندر ويوانه وشداد وبنيانه والنمرود وعدوانه وفرعون وهامانه وقارون وطغيانه وكسرى انوشروان وإيوانه وقيصر ويطارقتة وأعوانه وسيف ابن ذى يزن وغمدانه والمنذر ونعمانه إلى أن قلت وابن أبو بكر رضى الله تعالى عنه وثباته وعمر رضى الله تعالى عنه ووثباته وعثمان رضى الله تعالى عنه ورهباته أم اين علي رضى الله تعالى عنه وشجاعته وعلمه وأين معاوية رضى الله تعالى عنه وحمله وأين يزيد وظلمه ثم ذكرت ما تقدم للسان الدين وقلت بعده وأين الواثق وغناؤه والمتوكل ومواليه وأولياؤه وأبناؤه والمنتصر وأماله والمعزز وجماله والمستعين وعماله والمهتدي وأعماله والمعتض وذكاؤه وإحاطته بالأخبار واشتماله والمقتدر ونساؤه وإهماله إلى أن قلت وأين بنو عبيد وضلالهم وبنو بويه وجلالهم وبنو سلجوق ونظامهم وبنو سامان وإعظامهم وبنو أيوب وصلاتهم والجراكسة ومبانيهم وسلاحهم ثم قلت فى ملوك المغرب وأين عبد الرحمن الداخل وأمرأه والناصر وزهراؤه والحكم ووزراؤه والمؤيد وظهراؤه أم اين المنصور بن أبى عامر وغزواته ومواليه والمظفر وأدواته ومعالیه أم اين بنو حمود 381 - وعلاهم وأوصافهم وحلاهم وبنو جهور وحزمهم وبنو باديس وعزمهم وأين معتضد بنى عباد ومعتمدهم الذى سنا كرمه للمعتفين باد وبنو ذى النون ومزيتهم وبنو صمادح ومريتهم وبنو الأفضس وبنو هود وما كان لهم من المكارم فى الحفل المشهود وأين لمتونه وصبرهم الذى ركبوا متونه أم اين الموحدون وناصرهم ومنصورهم ومصانعهم وقصورهم أم اين بنو الأحمر وغرناطتهم وإزالتهم عن حوزة الدين أدناس المعتدين وإماتتهم وجعلهم الأمور لمثل ابن الحكيم ولسان الدين وإناطتهم أم اين بنو مريين وفارسهم ومغانيمهم ومدارسهم وأين بنو زيان ومنازلهم الشاهقة وأشجار عزمهم الباسقة وابن الحفصيون ومستنصرهم الذى قضى للمعالى الديون وابو فارس الذى شنفت باخباره أذان الطروس والفهارس طحنت والله تعالى الجميع رضى المنون وتأيمت الأزواج ويتم البنون وطالت الأيام والسنون وبقيت القصور العالية خالية والرسوم المتكاثرة دائرة والسلوك المنظومة متناثرة وعن قريب يقف الكل بين يدي رب الأرباب فى يوم تذهل فيه الألباب وتنقطع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسباب ويقتص للمظلوم من الظالم وتنبهم للنجاة الطرق والمعالم وتبلى السرائر لدى من هو بها عالم " يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا " آل عمران يوم يحكم الله تعالى فى الخلق بالحق حسبما سبق فى علمه إذ جعلهم قريبا وبعيدا وشقيا وسعيدا اللهم اجعلنا فى ذلك اليوم الصعب ممن فاز بالنجاة وحاز شفاعة نبيك ومصطفاك ذى الحرمة والجاه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم أنتهى رجع لنثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى 88 - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب

382 - أبا زيان لما تم له الأمر وهو مشتمل على نظم ونثر ونصه
" يا ابن الخلائف يا سمي محمد ... يا من علاه ليس يحصر حاصر "
" أبشر فانت مجدد الملك الذى ... لولاك أصبح وهو رسم دائر "
" من ذا يعاند منك وارثه الذى ... بسعوده فلك المشيئة دائر "
" ألفت اليك يد الخلافة أمرها ... إذ كنت انت لها الولى الناصر "
" هذا وبينك للصريح وبينها ... حرب مضرسة وبحر زاخر "
" من كان هذا الصنع اول أمره ... حسنت له العقبى وعز الآخر "
" مولاي عندي فى علاك محبة ... والله يعلم ما تكن ضمائر "
" قلبى يحدثنى بانك جابر ... كسرى وحظى منك حظ وافر "
" بثرى جدودك قد حططت حقيبتى ... فوسيلتى لعلاك نور باهر "
" وبذلت وسعى واجتهادى مثلما ... يلقى لملكك سيف أمرك عامر "
" فهو الولى لدى الذى اقتحم الردى ... وقضى العزيمة وهو سيف باتر "
" وولى جدك فى الشدائد عندما ... خذلت علاه قبائل وعشائر "
" فاستهد منه النصح واعلم أنه ... فى كل معصلة طبيب ماهر "
" أن كنت قد عجلت بعض مدائحى ... فهى الرياض وللرياض بواكر "
مولانا وعمدة ديننا ودنيانا الذى سخر الله تعالى البر والبحر بامرته وحكمه فوق السموات السبع بعز نصره وأغنى يوم سعده عن سل السلاح وشهرة وفتق عن زهر الصنع الجميل كاماهه تسليمه وصبره وقيض له فى علم غيبه وزيرا مذخورا لشد أزره وقود الملك إليه على حال حصره الخليفة

الإمام الذي استبشر به الإسلام وخفقت بعزة الأعلام ولاح بدر محياه فافتض الظلام المقتدى بالنبي الكريم سمية فى المرشد التى تألق منها الصبح والمقاصد التى لازمها النجاح والتمحيص الذى نبع منه المنح حتى

383 - فى الهجرة التى جاءه بعدها الفتح أبو زيان ابن مولانا السلطان ولى العهد ترشيحا ومآلا ومؤمل الإسلام تقلدا للمذهب الصريح وانتحالا وامير المسلمين لو أوسع القدر امهالا ووسطى عقد البنين خلائق متعددة وخلال المتحف بالشهادة ولما يعرف بدره هلالا المعوض بما عند الله تعالى سعادة البسته سريالا وابلغته من رضوان الله تعالى أمالا أبى عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء وعنصر الصبر والوفاء وستر الله تعالى المسدول على الضعفاء والمجاهد فى سبيل الله تعالى بنفسه وماله المنيف على مراكز النجوم بهمه وأماله المقدس أبى الحسن ابن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين من قبيل بنى مرين وصفوة الله تعالى فى هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين وزينة الدنيا وعمدة الدين هناه الله تعالى ما أورثه من سيرير الملك الأصيل وخوله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل وتوجه من تاج العزة القعساء عند اشتباه السبيل وعوضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل وجعل قدمه الراسخة وآياته الناسخة وربوته السامية الباذخة وغرة نصره الشادخة وأوزعه شكر آلائه فى الخلاص من ملكه أعدائه وخطر البحر وعدوان مائه وغول السفر وارتاب الغرر وثبات أقدام اوليائه الذين ما بدلوا تبديلا ولا ارتضوا لقبه طاعته بعد إن ولوا وجوههم شطرها تحويلا بل صبروا صبورا وبعوا نفوسهم تنميما لعقدة إيمانهم وتكميلا

يسلم على مقامكم الذى وسم السعد مشرق جبينه وذخرت قبل الطاعة ليمينه وأقسم الدهر بمظاهرة أمره السعيد فبر والشكر لله تعالى فى يمينه عبدكم الذى اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى وقر بملككم عينا وشرح صدرا وبذل الجهد وإن قل قدرة وفدرا والتمس لكم الدعاء علنا وسرا ابن الخطيب الذى حط رحل اقتضاه بتراب الملوك الكرام جدودكم محاريب

384 - بركم واسباب وجودكم وأباتكم الذين فى مظاهرتهم ورعيهم يظهر للناس مخايل هداكم وتدر سحائب جودكم ملتحفا منذ سنتين باصونه قبورهم وثيابها مستظلا بافنيته المعظمة وقبابها ممرغا خده بترباها مواصلا الصراخ يا لمرين ويا ليعقوب متطارحا على ابوابها فلم يتح الله تعالى له نعره ترعى الضيف وتحمى الدخيل او حمية تدفع الضيم وتشفى الغليل إلا على يدكم يا أيها الكريم ابن الكريم ابن الكريم وبطل الميدان فى موقف الهول العظيم المذخور لنصر المظلوم وإنصاف الغريم واجالة اقلام الفتح بفتح الأقاليم

كتبه مهنتا بما سنى الله تعالى لملككم من الصنع الذى خرق حجاب العادة وأرى إعجاز السعادة معجلا ذلك بين يدي المبادرة إلى لثم بساطكم الذى شرف وجوهها بلثمه الوجوه وتخشاها الأملاك الجبابرة وترجوه واداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائية فى الحفل المشهود وإبلاغ لسان الحمد وسع المجهود وإلقاء ما عند العبد من خلوص وجنوح وحب واضح اي وضوح فولى دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزة الله تعالى يقرره ويبين مجمله ويفسره والعبد واثق بفضل الله تعالى على يدكم وملتمس النصر لديكم وقاطع إن طلبته بكم تتسنى وانكم سبب عاقبته الحسنى إما بالظهور على الوطن الذى تجرأ به المنقلب على ملككم ومد اليد إلى نثر سلككم ونقص إرثكم المسلم المحرر وزلزل وطنكم المؤسس على الطاعة المقر وأضرم النار فى بسائطكم وجبالكم وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم متكثرا عليكم بالقلة متعززا بالذلة جانبا على داركم بما لا تبيحة الملة أو بالشفاعاة الجازمة أن لم يتأذن الله تعالى فى الانتصاف والله يجعل الظهور بكم من الأوصاف ويعينكم على جبر الكسير وتيسير الأمر العسير ويهنيكم منيحة الملك الكبير ويبقى كلمته فى عقبيكم بعد تملؤ التعمير والسلام

38589 - وله رحمه الله تعالى فى مخاطبة السلطان أبى زيان المذكور المولى الذى طوق المنن وأحيا السنن وأثبت الله تعالى حبه فى القلوب النبات الحسن ناظم كلمة الدين بعد انتشارها ومقيل عثارها والأخذ بثارها والمخلد لأثارها السلطان أبو زيان الخ ابفاكم الله تعالى على القدم منصور العلم ظاهرا على الأمم مقصود الحمى كالركن الملتزم عبد مقامكم الذى أويتموه غربيا وأنستموه مريبا وأنتموه على عدوه الدهر نصرا عزيزا وفتحا قريبا فلم يخش دركا وتثريبا ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريبا ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق ويرقم الأوراق ويخلق الجيوب والأطواق وحب بهر نورا وراق وجاس اشتهاه الشام والعراق وبطالع العبد محل مولاه الذى خلف ببابه قلبه وولده وصبره وجلده وصير وطنه داره الحقيقية وبلده أنه لما قدم على محل أخيه المعتد بما أودع الله تعالى من الخلال الشريفة فيه مولاي ابن مولاي

أبى عبد الله كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده وحكم باعلاء جده ومضاء حده رعى الوسيلة وصدق المخيلة وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم اسارير الفضيلة فلم يدع حقا إلا صرفه ولا نكرة إلا عرفه ولا نعمة إلا سكبها ولا مزية إلا أوجبها ولا رتبة إلا أعلاها ولا نعمة إلا أولأها وما ذاك يا مولاي وإن تعددت الرسائل والأدمة وادكرت القرب بعد أمة إلا بوصاتكم التى لا تهمل وحرمتكم التى لا تجهل وعطف مقامكم الذى اشتهر واعتنائكم بعيدكم الذى راق وبهر فالعبد عبدكم بكل اعتبار وخدمكم وإن نأت الدار ومحسوب على نعمة مقامكم الرفيع المقدار والأمل فى مقامكم غير منقطع السبب والأهل والولد تحت كنف مقامكم الأصيل الحسب حتى يمن الله تعالى بحج بيته وزيارة رسوله على يديكم ويكون قضاء هذا الوطر منسوباً اليكم وبعد هذا يستقر القرار حيث يختار من يخلق ما يشاء ويختار بحول الله تعالى

386 - والعبد يذكر مولاه بما بشره به بين يدي وداعه وبمراى وزيره السعيد واستماعه من انجلاء الحركة عن عزة وظهوره ونجاح أحواله واستقامه أموره وبهنيه بصدق الوعد وامطار الرعد وظهور السعد وهى وسيلة إذا عدت الوسائل وروعيت الذمم الجلائل ومثل مولاي من رعى وابقى وسلك التى هى ابر واتقى وما قصر عنه القلم من حق مولاي فالرسول أعزه الله تعالى يتممه وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه وهو جل وعلا يديم أيام مولاي ويبقى مجده ويصل سعده والسلام انتهى

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحو قوله سيدي الذى له - 90
المزية العظمى والمحل الأسمى شيخ قبيل بنى مرين وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين والتميز بالدهاء والرجاحة والمعرفة الفسيحة الساحة والصدقة المباحة وشروط الصوفيه من ترك الأذى ووجود الراحة أسلم على ذاتكم الطاهرة التى بخلت الأزمان والله إن تاتى بنظيرها وتنافست الدول فى تكبيرها وسارت المواكب الملوكية بمسيرها وأثبت الألسن بفضلها وخيرها وأقر لديها أنى اعددت من معرفتها بالأندلس كنزا لم انفق منه إلى اليوم وزنا إعدادا له وخزنا إذ له يخرج العتاد الكبير إلا عن حاجة وفاقة ولا ترد اليد إلى الذخيرة إلا فى إضاقة وعجز طاقة وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلى جهلا بقيمتها العالية وازراء بجهتها الكافلة الكافية لكن نابت عن يدها ايد وكفى عن ابتذالها ما كف الله تعالى من عمرو وزيد والآن أقرر إنى قد كادت حاجتى إلى ذلك العتاد إن تتمحض وزيدته إن تتمحض إذ هو حظى من رعى ذلك القبيل الذى قصرت عليه رياسته والوزير الذى من رايه تستمد سياسته وإذا وفد خاصة هذه المدينة مهينين ويشكر اياتله الكريمة مثنين فخيمته ظل ظليل ومشاركته معتمدي فى الكثير فكيف ولا غرض لى إلا فى القليل وعندي إن رعيه لمثلنى لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ولا ذمام يحسب فمثله من قدر قدر الهناء وشد أعلام الحمد والثناء سامية البناء وعرف إن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء وقد رفعت امرى كله بعد الله تعالى إلى رايك وغنيت عن سعيى لنفسى بجميل سعيك والسلام

ومما خاطب به لسان الدين شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق التلمساني رضى الله تعالى - 91
عنه قوله شافعا يا سيدي ابقاكم الله تعالى محط الآمال وقبلة الوجوه وبلغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه وكلاً بعين حفظه ذاتكم الفاخرة وجعل عز الدنيا متصلاً لكم بعز الآخرة بعد تقبيل يديكم التى يدها لا تزال تشكر وحسنتها عند الله تعالى تذكر انهى إلى مقامكم إن الشيخ الكذا أبا فلان مع كونه مستحق التجارة بهجرة إلى ابوابكم الكريمة قدمت ووسائل من أصالة وحشمة كرمتم وفضل ووقار وتنويه للولاية إن كانت ذات احتقار وسن اقتضى الفضل بره وأدب شكر الاختيار عليه وسره له بمعرفة سلفكم الأرضى وسيلة مرعية وفى الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية وتوجه إلى بابكم والتمسك باسبابكم والمؤمل من سيدي سترة بجناح رعيه فى حال الكبرية ولحظة بطرف المبرة إما فى استعمال يلقى بدوي الاحتشام أو سكون تحت رعى واهتمام وإعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام وهو أحق الغرضين بالتزام واحالة سيدي فى حفظه رسم مثله على الله تعالى الذى يجزي المحسنين بفضله ومنه نسأل إن يديم أيام المجلس العلى محروسا من النوائب مبلغ الآمال والمآرب والمملوك قد قرر شأنه فى إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم والتحسب فى هذه الأبواب عليكم وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذى يعطى ويمنع وبملك الأمر أجمع والسلام 92 - وكتب إليه أيضا فى الشفاعة بما نصه سيدي الأعظم وملاذى الأعصم وعروة عزي الوثقى التى لا تفصم أبقاك الله تعالى بقاء أثارك آية للعز تأمر الدهر فيأتمر ويلبى بفنائك الطائف والمعتمر بأي لسان أثنى على فواضلك وهى أمهات المنى وطرف الشام واليمن ومقامات بديع الزمن والتحف المرتفعة عن الثمن فحسبى دعاء أردده وأواليه وأرتقب مطلوب الإجابة من مقدمة وتاليه وإن تشوف المنعم للحال الموقوف خيرة بمشيئة الله تعالى على

جميل سعيه الموسد على وطاء لطفه المغشى بغطاء رعيه قلب خافق وقلب مؤمن يجول به وسواس منافق وقد تجاوز موسى مجمع البحرين وأصبح سري بابه سري العين ولقد كانت مراحل الرمل قصيرة قبل أن يكسبها زجلي ثقل الحركة ويخلط خاصى فى وظائفها المشتركة وليت أمرى برز إلى طرف وأفضى الى منصرف وربما ظفر آيس بما يرحوه وزبرز المحبوب من المكروه والله تعالى لا يفضح جاه الكتاب الذى أحيا وأنشر وحيا وبشر وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابكم المحشر وموصل كتابى ينوب فى تقبيل اليد العليا منابى

وليعلم سيدي إن هذا القطر على شهرته وتألّق مشنّبه وزهرته إذا انتحل كرامه وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه فهو لبابه المتخير وزلاله الذى لا يتغير أصله معروفة وهمة إلى الإيثار مصروفة ونبلا على السن والكبرة ورجولية خليقة بصلة الحرمة والمبرة والوسيلة لا تطرح والمعنى الذى لا يفسر لوضوحه ولا يشرح وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثا وقديما واعترافه بنعمة مديرا لها ومديما والله تعالى يوفى من إيثار سيدي حظه ويجدد لديه رعيه ولحظه حتى يعود خافقا علم إقباله معلما برد اهتباله مسرورا

ببلوغ أماله فلعمري أن محل ولايته لكفى وأن عهد أمانته لوفى وإن عامل جده لظاهر وخفى وما يفعل سيدي من رعيه وأنجاح سعيه محسوب من مناقبه ومعذود فى فضل مذاهبه والسلام الكريم يخضكم ورحمة الله وبركاته انتهى

وقد تكررت فى كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظما ونثرا إذ كان اعنى ابن مرزوق رئيس الدولة ومعتمد الجلة وسبق منا التعريف ببعض أحواله فى باب مشايخ لسان الدين مما جرته المناسبة فليرجع إليه من أرادته والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة

ومما اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد ابن خلدون لما ارتحل - 93 من بحر المرية واستقر ببلد بسكرة عند رئيسها أبى العباس ابن مزنى صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا وقد تقلد كتابة صاحب تلمسان ووصل الكتاب عنه من إنشائه وهذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى

" بنفسى وما نفسى على بهينة ... فينزلنى عنها المكاس بأثمان "

" حبيب نأى عنى وصمم لا ينى ... وراش سهام البين عمدا فاصمانى "

" وقد كان هم الشيب لا كان كافيا ... فقد أدنى لما ترحل همان "

" شرعت له من دمع عينى موردا ... فكدر شربى بالفراق وأظمانى "

" وأرعيته من حسن عهدي حميمه ... فأجذب أمالى واوحش ازمانى "

" حلفت على ما عنده لى من رضى ... قياسا بما عندي فأحنت أيمانى "

" وأنى على ما نالنى منه من قلى ... لأشتاق من لقياه نغبه ظمان "

" سألت جنونى فيه تقرب عرشه ... فقسست بجن الشوق جن سليمان "

" إذا ما دعا داع من القوم باسمه ... وثبت وما استثبت شيمه هيمان "

" وتالله ما أصغيت فيه لعادل ... تحاميته حتى ارعوى وتحامانى "

" ولا استشعرت نفسى برحمة عابد ... تظلل يوما مثله عبد رحمن "

" ولا شعرت من قبله بتشوق ... تخلل منها بين روح وجثمان "

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج وأما الصبر فسل به أية درج بعد أن تجاوز اللوى والنعرج لكن الشدة تعشق الفرج والمؤمن ينشق من روح الله تعالى الأرج وأنى بالصبر على إبر الدبر لا بل الضرب الهبر ومطاوله اليوم والشهر حتى حكم القهر وهل للعين أن تسلو سلو المقصر عن إنسانها المبصر أو تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائى والمشاهد وفي الجسد بضعة يصلح إذا صلحت فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت وإذا كان الفراق هو الحمام الأول فعلام المعول أعيت مراوضة الفراق على الراق وكادت لوعة الأشتياق ان تفضى إلى السياق

" تركتمونى بعد تشييعكم .. أوسع أمر الصبر عصيانا "

" أقرع سننى ندما تاره ... واستميح الدمع أحيانا "

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية وجددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية أسال نون النوى عن أهلية وميم الموقد المهجور عن مصطليه وثناء الأتافى المثلثة عن منازل الموحدين وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحنين لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين كلفت لعمر الله بسال عن جفونى المؤرقة ونائم عن همومى المتجمعة المتفرقة طعن عن ملال لا متبرما منى بشر خلال وكدر الوصل بعد صفائه وضرغ النصل بعد عهد وفائه

" أقل اشتياقا أيها القلب ربما ... رأيتك تصفى الود من ليس جازيا"
فها أنا أبكى عليه بدم أساله وأنهل فيه أسى له وأعلل بذكره قلبا صدعه وأودعه من الوجد ما
أودعه لما خدعه ثم فلاه وودعه وأنشق رياه أنف ارتياح قد جدعه وأستعدي به على ظلم ابتدعه
" خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... فتبلا بكى من حب قاتله قبلى "
فلولا عسى الرجاء ولعله لا بل شفاة المجل الذى حله لمزجت الحنين بالعتب وبثت كتابه كمناء
فى شعاب الكتب تهز من الألفات رمحا خزر الأسنان وتوتر من النونات أمثال القسى المرنة وتقود
من بياض الطرس وساد النفس بلقا تردى فى الأعنة ولكنه أوى إلى الحرم الأمين وتغيا طلال
الجوار المؤمن من معرة العوار عن الشمال واليمين حرم الحلال المزنية والظلال اليزنية والهمم
السنية والشيم التى لا ترضى بالدون ولا بالدنية حيث الرقد الممنوح والطير الميامن يزجر لها
السنوح والمثوى الذى إليه مهما تقارع الكرام على الضيفان حول جوايى الجفان الميل والجنوع
" نسب كان عليه من شمس الضحى ... نورا ومن فلق الصباح عمودا "
ومن حل بتلك المثابة فقد اطمان جنبه وتغمد بالعفو ذنبه ولله در القائل حيث يقول
" فوحقه لقد انتدبت لوصفه ... بالبخل لولا ان حمصا داره "
" بلد متى أذكره تهتج لوعتى ... واذا قدحت الزند طار شراره "
اللهم غفرا لا كفرا واين قراره النخيل من مثوى الألف البخيل ومكذبه المخيل واين ثانية هجر من
متبوا من الحد وفجر
" من أنكر غيئا منشؤه ... فى الأرض وليس بمخلفها "
" فبنان بنى مزنى مزى ... تنهل بلطف مصرفها "
" مزى مذ حل ببسكرة ... يوما نطقت بمصحفها "
" شكرت حتى بعبارتها ... وبمعناها وياحرفها "
" ضحكت بابى العباس من ... الايام تبايا زخرفها "
" وتنكرت الدنيا حتى ... عرفت منه بمعرفها "
بل نقول يا محل الولد " لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد " البلد لقد حل بينك عرى الجلد
وخلق الشوق بعدك يا ابن خلدون فى الصميم من الخلد فحيا الله تعالى زما شفيت برقى قريك
زمانته واجتليت فى صدف مجدك جمانته ويا من لمشوق لم تقض من طول خلتك لبانته وأهلا
بروض أطلت أشنات معارفك بانته فجمائمه بعدك تندب فيساعددها الجندب ونواسمه ترق فتغاشى
وعشياته تتخافت وتتلاشى ومزنة باك ودوحه فى مآتم ذى اشتباك كأن لم تكن قمر هالات قباهه
ولم يك أنسك شارع بابيه إلى صفوة الطرف ولبابه ولم يسبح إنسان عينك فى ماء شبابه فلهفى
عليك من درة اختلستها يد النوى ومطل بردها الدهر ولوى ونعق الغراب بينها فى ربوع الجوى
ونطق بالزجر فما نطق عن
الهوى وبأى شىء نعتاض منك أيتها الرياض بعد إن طمى نهرك الفياض وفهقت الحياض ولا كان
الشانىء المشنوء والجرب المهنوء من قطع ليل أغار على الصبح فاحتمل وشارك فى الذم الناقه
والجمل واستاثر جنحه بيدر النادى لما كمل نشر الشراع فراع وأعمل الإسراع كأنما هو تمساح
النيل ضايق الأحباب فى البرهة واختطف لهم من الشط نزهة العين وعين النزهة ولجج بها والعيون
تنظر والغمر عن الاتباع يحظر فلم يقدر إلا على الأسف والتماح الأثر المنشف والرجوع بملء العيبة
من الخيبة ووفر الجسرة من الحسرة وإنما نشكو إلى الله البث والحزن ونستمطر من عبارتنا المزن
وبسيف الرجاء نصول إذا شرعت للياس النصول
" ما أقدر الله أن يدنى على شحط ... من داره الحزن ممن داره صول "
فان كان كلم الفراق رغبيا لما نويت مغيبا وجللت الوقت الهنىء تشغيبا فلعل الملتقى يكون قريبا
وحديثه يروى صحيحا غريبا
إية ثقة النفس كيف حال تلك الشمائل المزهرة الخمائل والشيم الهامية الديم هل يمر بالها من
راعت بالبعد باله وأخدمت بعاصف البين ذباله أو ترثى لشؤون شأنها سكب لا يفتر وشوق بيت
حبال الصبر ويتر وضى تقصر عن حله الفاقعة صنعاء وتستر والأمر أعظم والله يستر وما الذى
يضيرك صين من لفح السموم نصيرك بعد إن أضمرت وأشعلت
وأوقدت وجعلت وفعلت فعلتك التى فعلت أن تترفق بدماء أو ترد بنغية ماء أرماق ظماء وتتعاهد
المعاهد بتحية يشم منها شذا أنفاسك أو تنظر إلينا على البعد بمقلة حوراء من بياض قرطاسك
وسواد أنفاسك فرما قنعت الأنفس المحبة بخيال زور وتعللت بنوال منزور ورضيت لما لم تصد
العنقاء بزرزور

" يا من ترحل والنسيم لأجله ... تشتاق إن هبت شذا رباها " " تحيي النفوس إذا بعثت تحية ... فإذا عزمتم اقرأ " ومن أحيائها " ولئن أحييت بها فيما سلف نفوسا تفديك والله تعالى إلى الخير يهديك فنحن نقول معشر مرديك ثن ولا تجعلها بيضة الديك وعذرا فإنى لم أجت على خطابك بالفقر الفقيرة وأدلت لدى حجراتك برفع العقيرة لا عن نشاط بعثت مرموسة ولا اغتباط بالأدب تغرى بسياسته سوسه وانبساط أوحى إلى على الفترة ناموسة وإنما هو اتفاق جرته نغثة المصدور وهناك الجرب المجدور وخارق لا مخارق فتم قياس فارق أو لحن غنى به بعد الممات مفارق والذي سببه وسوغ منه المكروه وحببه ما اقتضاه الصنو يحيى مد الله تعالى حياته وحرس من الحوادث ذاته من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلالتها بعد إن رضى علالتها ورشح إلى الصهر الحضرمى سلالتها فلم يسع إلا إسعافه بما أعافه فأملت مجيبا ما لا

يعد فى يوم الرهان نجيبا واسمعت وجيبا لما ساجلت بهذه الترهات سحرا عجيبا حتى إذا ألف القلم العريان سبحة وجمح بردون الغرارة فلم أطق كبحة لم أفق من غمرة غلوه وموقف متلوه إلا وقد تحيز إلى فئتك معتزا بل معترا واستقبلها ضاحكا مفترا وهش لها برا وإن كان لونه من الوجمل مصفرا وليس باول من هجر فى التماس الوصل ممن هجر أو بعث التمر إلى هجر وأي نسب بينى اليوم وبين زخرف الكلام وإجالة حياذ الأقلام فى محاورة الأعلام بعد إن حال الجريض دون القريض وشغل المريض عن التعريض واستولى الكسل ونصلت الشعرات البيض كأنها الأسل وتروع برقط الحيات سرب الحياة وتطرق بذوات الغرز والشيات عند البيات والشيب الموت العاجل وإذا ابيض زرع صبحته المناجل والمعتبر الأجل وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده حكم فى الظاهر بإبعاده وأسره فى ملكه عاده فأغض أبقاك الله وأسمح لمن قصر عن المطمح وبالعين الكليية فالمح وابتغى لباس ثوب الثواب واشف بعض الجوى بالجواب توالاك الله تعالى فيما استتضفت وملكت ولا بعدت ولا هلكت وكان لك أية سلكت ووسمك من السعادة بأوضح السمات وأتاح لقاءك من قبل الممات والسلام الكريم يعتمد جلال ولدى وساكن خلدى بل أذى وإن عتبته وسيدي ورحمه الله تعالى وبركاته انتهى

قلت هذه الرسالة الراقلة فى حلل البلاغة لم أر مثلها ولم افق عليه فرحم الله تعالى لسان الدين ووجه سحائب الرحمة إليه فلقد كان آية الله فى النظم والنثر وجميع العلوم على اختلافها

وكما خاطب الولي ابن خلدون خاطب أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال فى بعض كتبه ومما - 94 - خاطبت به الفقيه أبا زكريا ابن خلدون لما ولي الكتابة عن السلطان أبى حمو سلطان تلمسان من بنى زيان واقرن بذلك نصر وضع غبطته به وأشدت به قصد تنفيقه وإنهاضه لديه نخص الحبيب الذى هو فى الاستظهار به أخ وفى الشفقة عليه ولد والولى الذى ما بعد قرب مثله أمل ولا على بعده جلد والفاضل الذى لا يخالف فى فضله ساكن ولا بلد أبواه الله تعالى وفاز فوزه وعصمته لها من توفيق الله سبحانه عمد ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غور ولا ثمم ومدى إمداده من خزائن الهام الله تعالى وسداده ليس له أمد وحمى فرح قلبه بمواهب من ربه أن يطرقه كمد تحية محله من صميم قلبه بمحله المنشىء رواق الشفقة مرفوعا بعمد المحبة والمقة فوق ظعنه وحله مؤثره ومجله المعتنى بدق أمره وحله ابن الخطيب من الحضرة الجهادية غرناطة صان الله تعالى خلالها ووفى هجير هجر الغيوم ظلالتها وعمر بأسود الله تعالى اغيالها كما أغرى بمن كفر بالله تعالى صيالها ولا زائد إلا ممن من الله تعالى تصوب وقوة يسترد بها المغصوب ويخفف الصليب المنصوب والحمد لله الذى بحمده ينال المطلوب ويذكره تطمئن القلوب ومودتكم المودة التى غذتها ثدى الخلوص بلبانها وأحلتها حلائل المحافظة بين أعينها وأجفانها ومهدت موات أخواتها الكبرى أساس ببيانها واستحقت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله تعالى واتصال زمانها واقتضاء عهود الأيام بيمينها وأمانها ولله در القائل

" فإن لم يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها "

وصل الله تعالى ذلك من أجله وفى ذاته وجعله وسيلة إلى مرضاته وقرية تنفع عند اعتبار ما روعى من سنن الجبار ومفترضاته

وقد وصل كتابكم الذى فاتح بالريحان والروح وحل من مرسوم الولاء محل البسملة من اللوح وأذن لنوافح الثناء باليوق يشهد عدله بان البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دار خلود وقدح زندا غير صلود واستأثر من محابركم السيالة وقضب أقلامكم الميالة باب منجب وأم ولود يقفو شانيه غير المشنو وفصيله غير الجرب ولا المهنو من الخطاب السلطانى سفينة منوح إن لم نقل سفينة

نوح ما شئت من آل أزواج وزمر من الفضل وأفواج وأمواج كرم تطفو فوق أمواج وفنون بشائر وإهطاع قبائل وعشائر وضرب للمسرات أعياء الشائر فله هو من قلم راعى نسب القنا فوصل الرحم وأنجد الوشيخ والملتحم وساق بعصاه من البيان الذود المزدحم وأخاف من شذ عن الطاعة مع الاستطاعة فقال " لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم " هود ولو لم يوجب الحق برفه ورعده ووعيده ووعده لأوجبه يمنه وسعده فلقد ظهرت مخايل نجه علاوة على نصحه ووضحت محاسن صبحه فى وحشة الموقف الصعب وقبحه وصل الله تعالى له عوائد منحة وجعله إقليدا كلما استقبل باب أمل وكله الله تعالى بفتح

أما ما فرره ولاؤكم من حب زكا على حبه القلب حبه وأنبته النبات الحسن ربه وساعده من الغمام سكبه ومن النسيم اللدن مهبة فرسم ثبت عند الولى نظيره ومن غير معارض يضيره وربما أربى بتذليل مزيد وشهادة ثابت ويزيد ولم لا يكون ذلك وللقلب على القلب شاهد وكونها أحنادا مجندة لا يحتاج تقريره إلى ماهد وجهد جاهد ومودة الأخوة سبيلها لاحب ودليلها للدعوة الصادقة مصاحب إلى ما سبق من فضل ولقاء ونظافة سقاء واعتقاد لا يراع سره بذب انتقاد واجتلاء شهاب وقاد لا يحوج إلى ابقاء إنما عاق عن مواصلة ذلك نوى شط منها الشطن وتشذيب لم يتعين معه الوطن فلما تعين وكاد الصبح أن يتبين عاد الوميض ديجورا والثمد بحرا مسجورا إلى أن أعلق الله تعالى منكم اليد بالسبب الوثيق وأحلکم منجى نيق لا يخاف من منجنيق وجعل يراعكم لسعادة موسى معجزة تأتي على الخبر بالعيان فتخر لثعبانها سحرة البيان

" أحيى سقى حيث لحت الحيا ... فنعم الشعاب ونعم الوكون "

" وحيا يراعك من آية ... فقد حرك القوم بعد السكون "

" دعوت لخدمة موسى عصاه ... فجاءت " تلقف ما يأفكون "

" فأذعن من يدعي السحر رغما ... وأسلم من أجلها المشركون "

" وساعدك السعد فيما أردت ... فكان كما ينبغي أن يكون "

فأنتم أولى الأصدقاء بصلة السبب ورعى الوسائل والقرب أبقاكم الله تعالى وأيدي الغبطة بكم عالية وأحوال تلکم الجهات بدرکم المهمات حالية وديم المسرات من إنعامكم المبرات على معهود المبرات متوالية

وأما ما تشوفتم إليه من حال وليكم فأمل متقلص الظل وارتقاب لهجوم جيش الأجل المطل ومقام على مساورة الصل وعمل يكذب الدعوى وطمأنينة تنتظر الغارة الشعوا ويد بالمدخور تفتح وأخرى تجهد وتمنح ومرض يزور فيثقل وضعف عن الواجب يعقل إلا أن اللطائف تستروح والقلب من باب الرجاء لا يبرح وربما ظفر البائس ولم تطرد المقاييس تداركنا الله تعالى بعفوه وأوردنا من منهل الرضى والقبول على صفوة وأذن لهذا الخرق فى رفوة

وأما ما طلبتم من اننساخ ديوان وإعمال بنان فى الإتحاف ببيان فتلك عهود لدى مهجورة ومعاهد لا متعهدة ولا مزورة شغل عن ذلك حوض يعلو لجهه وحرص يقضى من لغط المانح عجبه وهول جهاد تساوى جمادياه ورجبه فلولا التماس أجر وتعلل بريح تجر لقلت أهلا بذات النحيين فلئن شكت وبذلت المصون بسبب ما أمسكت فلقد ضحكت فى الباطن ضعف ما بكت ونستغفر الله تعالى من سوء انتحال وإيثار المزاج بكل حال وما الذى ينتظر مثلى ممن عرف المآخذ والمتارك وجرب لما بلا المبارك وخبر مساءة الدنيا الفارك

هذا أيتها الحبيب ما وسعه الوقت الضيق وقد ذهب الشباب الريق فليسمح فيه معهود كمالك جعل الله تعالى مطاوعة أمالك مطاوعة يمينك لشمالك ووطأ لك موطأ العز بباب كل مالك وقرن النجح بأعمالك وحفظك فى نفسك وأهلك ومالك والسلام انتهى

ومن مخاطبات لسان الدين لصاحب العلامة أبى القاسم ابن رضوان - 95

" قد كنت أجهد فى التماس صنيعه ... نفسا شهاب ذكائها وقاد "

" وأقول لو كان المخاطب غيركم ... عند الشدائد تذهب الأحقاد "

سيدي أبقاكم الله تعالى علم فضل وإنصاف ومجموع كمال أوصاف كلام النية قصير والله تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير وإليه بعد هذا الخطاب كل رجعى منا ومصير وليس لنا إلا هو مولى ونصير وهذا الرجل سيدي الخطيب

أبو عبد الله ابن مرزوق جبره الله تعالى بالأمس كنا نقف ببابه ونتمسك بأسبابه ونتوسل إلى الدنيا به فإن كنا قد عرفنا خيرا وجبت المشاركة أو كفافا تعينت المتاركة أو شرا اهتبلت غره الهدى الأنفس المباركة واتصفت بصفة من يعصى فيسمح ويسال فيمنح ويعود إلى قبيح بالفعل الجميل ويحسب يد التأميل ومع هذا فلم نذر إلا خيرا كرم منه المورد والمصرف ومن عرف حجة على من لا

يعرف وأنتم فى الوقت سراج علم لا يخبو سناه ومجموع تخلق عرفنا منه ما عرفناه وهذه هى الشهرة التى تعتنم إذا سفرت والهنة التى تحبر عليها النفس إذا نفرت حتى لا تجد بعون الله تعالى عارضا يعوقها عن الخير وسبيل الكمال الأخير والأجر فى استيفاء كتاب الشفاعة وتحرى المقاصد النفاة وتنفيق البضاعة قد ضمنه من وعد بقيام الساعة والجزاء على الطاعة وغير الطاعة وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قبلى وهى فى الحقيقة لى فكيف والله تعالى يرى عملكم وعملى والمتروك حقير والوجود إلى رحمة من رحمت الله تعالى فقير والسلام انتهى

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى قوله فى مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم رحمه - 96
الله تعالى

" ساحات دارك للضياف مبارك ... وبضوء نار قرارك يهدي السالك "

" ونوالك المبدول قد شمل الورى ... طراً وفضلك ليس فيه مشارك "

" قل للذى قال الوجود قد انطوي ... والبأس ليس له حسام فاتك "

" والوجود ليس له غمام هاطل ... والمجد ليس له همام باتك "

" جمع الشجاعة والرجاحة والندى ... والباس وارأى الأصيل مبارك "

" للدين والدنيا وللشيم العلا ... والوجود أن شح الغمام السافك "

" عند الهياج ربيعة بن مكرم ... فى الفضل والتقوى الفضيل ومالك "

" ورث الجلالة عن ابيه وجده ... فكانهم ما غاب منهم هالك "

" فجياده للأملين مراكب ... وخيامه للقاصدين أرائك "

" فإذا المعالى اصبحت مملوكة ... أعناقها بالحق فهو المالك "

" يا فارس العرب الذى من بيته ... حرم لها حج به ومناسك "

" يا من يبشر باسمه قصادة ... فلهم اليه مسارب ومسالك "

" أنت الذى استأثرت فيك بغبطتى ... وسواك فيه مأخذ ومشارك "

" لا زلت نورا يهتدى بضائه ... من جنة للروع ليل حالك "

" ويخصي مجدك من سلامى عاطر ... كالمسك به الغوالى صائك "

الحمد لله تعالى الذى جعل بيتك شهيراً وجعلك للعرب أميراً وجعل اسمك فالاً ووجهك جمالاً وقربك جاهاً ومالاً وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ألا أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها وقطب سيادتها وكبرائها واهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ومكرمة لا يضل المتصف بها ولا يشقى إذ جعل خيمتك فى هذا المغرب على اتساعه واختلاف أشياعه مأمناً للخائف على قياس المذاهب والطوائف وصرف الألسنة إلى مدحك والقلوب إلى حبك وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك ولقد كنت أيام تجمعنى وإياك المجالس السلطانية على معرفتك متهاكاً وطوع الأمل سالكا لما يلوح لى على وجهك من سيما المجد والحياء والشيم الدالة على العلياء وزكاء الأصول وكرم الآباء وكان والدي رحمه الله تعالى قد عين للقاء

خال السلطان قريبكم لما توجه فى الرسالة إلى الأندلس نائباً فى تأنيسه عن مخدومه ومنوها حيث حل بقدمه واتصلت بعد ذلك بينهما المهادة والمعرفة والوسائل المختلفة فعظم لأجل هذه الوسائل شوقى إلى التشرف بزيارة ذلك الجناب الذى حلولة شرفه وفخره ومعرفته كنز وذخر فلما ظهر الآن لمحل الأخ الكذا القائد فلان اللحاق بك والتعلق بسببك رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضى والله تعالى ييسر فى البعض عند تقرير الأمن وهدنة الأرض وهذا الفاضل بركة حيث حل لكونه من بيت أصالة وجهاد وماجدا وابن امجاد ومثلك لا يوصى بحسن جواره ولا ينبه على إثارة وقبيلك فى الحديث من العرب والقديم وهو الذى أوجب لها مزية التقديم لم يفتخر قط بذهب يجمع ولا ذخر يرفع ولا قصر بينى ولا غرس يحنى أنما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزور ينحر وحديث يذكر وجود على الفاقة وسماحة بحسب الطاقة فلقد ذهب الذهب وفنى النشب وتمزقت الأثواب وهلكت الخيل العراب وكل الذى فوق التراب تراب وبقيت المحاسن تروى وتنقل والأعراض تجلى وتتصلق والله در الشاعر إذ يقول

" وأما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى "

هذه مقدمة إن يسر الله تعالى بعدها لقاء الأمير فيجلى اللسان عما فى الضمير

" ومدحى على الأملاك مدح وإنما ... رأيتك منها فامتدحت على وسمى "

" وما كنت بالمهدي لغيرك مدحتى ... ولو أنه قد حل فى مفريق النجم "

97 - ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق وهو

" راش زمانى ويرى نبه ... فكنت لى من وقعها جنه "

" ولو قهرت الموت أمنتنى ... منه وأدخلتنى الجنة "

" فكيف لا أنشرها منه ... قد عرفتها الإنس والجنه "

بماذا أخطب به تلك الجلالة فيتيسر الخطاب وتحصل الدلالة أسيدي وبشركنى فيه من قال لا إله إلا الله بفيه أو بروح حياتى ومقدم ماهية ذاتى وذخري الكبير الكثير لا بل فلكي الأثير وهو تضيق على الولد والأهل وتعدى المراتب المحدودة من الجهل فلم يبق إلا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان وهى بعض دلالات الإنسان أفدت الإكسير وجبرت الكسير ورويت يا أبا العلا التيسير وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الطعن والمسير فمن رام شكر بعض أياديك فلقد شد حقائق الرجال إلى نيل المحال والحق إن نكل جزاك لمن جعل إلى المجد اعتزك ونولى شكرك وثناك إلى من عمر بما يرضيه من الرق بالخلق وإقامة الحق انك وندعو منك بالبقاء إلى الروض الموجود وغمام الجود وإمام الركع السجود لا بل لنور الله تعالى المشرق على التهائم والنجود ورحمته الميثوثة أثناء هذا الوجود وليعلم سيدي أن النفس طماعة جماعة وسراب آمالها بحارة لماعة فلا تفيق من كد ولا تقف عند حد سيما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ولم يسر منها فى عالم الغيب البريد ولا تجلت لها السعادة التى يجذب بها المراد ويشمر لها المرید إلى أن يتأتى عما دون الحق المحيد ويصح التوحيد

وقد مثلت الآن خصما توسع ظهر استظهارى بالتسليم قصما وتقول المال عدلي عند القيمة وطبيبي فى الأحوال السقيمة وهو نتيجة كدي عند الأقيسة العقيمة ومن استخلصنى على شرفى إذا تفاضلت الجواهر وتبينت للحق المظاهر وتعينت المراتب التى يقتعدها على رأي البراهمة النور الاصفهندي والنور القاهر فخلاص المال طوع يديه وهو كما قال الله تعالى أهون عليه فالاطفها حتى تلين معاطفها وأخادعها حتى تلوي أخادعها واقول قد وقع الوعد وأشرق السعد ولأن الجعد وسكن الرعد والله تعالى الأمر من قبل ومن بعد فتجيبنى العمر المنام وأيام الجاه والقدرة قد يحق لها الاعتنام وهم العاقل إلى وقته الحاضر مصروف و إذا لم يغير حائطه مثل معروف وفى الوقت زبون يرجى به استخلاص الحقوق ويستبعد وقوع العقوق فإن رأى مولاي أن يشفع المنة ويقرع بابا ثانيا من أبواب الجنة قبل إن يشغل شاغل أو يكدر الأكل والشرب وارش أو واغل أو يثوب للمتعدى نظر فى اللجاج أو يدس له ما يحمله على الاحتجاج أو متسع مناطها فسيح استنباطها كثير هياطها ومياطها فهو تمام صنيعته التى لم ينسج على منوالها الأحرار ولا اهتدت إلى حسنيتها الأبرار ولا عرف بدر مجدها السرار فإليه كان الفرار والله تعالى ثم له خالص الاضطرار ويستقر تحت دخيله القرار وتطمئن الدار فإن ما ابتدأ به من عز ضرب على الأيدي العادية منه حكم الحكام وفارع الهضاب والاكام على ملا ومجمع وبمراى من الخلق ومسمع يقتضى اطراد قياس العزة القعاء وسعادة الإصباح والإمساء وظهور درجات الرجال على النساء فهو جاه حارت فيه الأوهام وهذه أذباله ومن ركب حقيقة أمرها هان عليه خياله والمال ماله والعيال عياله والوجود سريع زباله والجزاء عند الله تعالى مكباله

وعروض المغصوب باقية الأعيان مستقلة الشجر قائمة البنيان تمنع عن شرائها قاعدة الأديان وغيرها من مكيل وموزون بين مأكول ومخزون والكتب ملقاة بالقاع مطرحة باخث البقاع فإن تاتى الجبر وإلا فالصبر على إن وعد عمادي لا يفارق الإنجاز ومكرمته التى طوقها قد بلغت الشام والحجاز وحقيقة التزامة تباين المجاز وأية مجده تستصحب الإعجاز ولله در إبراهيم بن المهدي يخاطب المامون لما أكذب فى العفو عنه الظنون

" وهبت مالى ولم تبخل على به ... وقبل ذلك ما إن قد وهبت دمي "

وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتها باختها الكبرى وفريدة فجئت بأخرى وشفعت وتراء ابفك الله تعالى لتخليد المناقب واعلاء المراتب وجعل اخمص نعلك تاجا للنجم الثاقب وتكفل لك فى النفس والولد بحسن العواقب

" أمين أمين لا أرضى بواحدة ... حتى أضيف إليها ألف أمينا "

وأما تنبيه سيدي على أنشاء رزق وتقرير رفق فلا انبه حاتما وكعبا إن يملا قعبا لمن خاض بحرا أو ركب صعبا هذا أمر كفانيه الكافى وداء كوخز الأشافى أذهبه الشافى والسلام انتهى ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان السلطان قوله - 98

هذا ظهير كريم مضمينه استجلاء لأمر الرعية واستطلاع ورعاية

كرمت منها اجناس وأنواع وعدل بهر منه شعاع ووصايا يجب لها إهطاع أصدرناه للفقير فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله رأينا أنه أحق من نقلده الهم الأكيد ونرمى به من أغراض البر الغرض البعيد ونستكشف به أحوال الرعايا حتى لا يغيب عنا شىء من أحوالها ولا يتطرق إليها طارق من

أهوالها وينهى إلينا الحوادث التى تنشأ فيها إنهاء يتكفل بحياطة ابشارها وأموالها وأمرناه إن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس فى مساجدهم ويندبهم من مشاهدتهم ويبدأ بتقرير غرضنا فى صلاح أحوالهم وإحساب أموالهم ومكابدتنا المشقة فى مداراة عدوهم الذى نعلم من أحواله ما غاب عنهم دفعه الله تعالى بقدرته ووفى نفوسهم وحریمهم من معرفته ولما رأينا من انبتات الأسباب التى تؤمل وعجز الحيل التى كانت تعمل ويستدعى إنجادهم بالدعاء وإخلاصهم فيه إلى رب السماء ويسال عن سيرة القواد وولاية الأحكام بالبلاد فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه ويقصها عليه ليلبغها إلينا ويوفدها مقررة الموجبات لدينا ويختبر ما افترض صدقة للجبل وما فضل عن كريم ذلك العمل ليعين إلى بناء الحصن بجبل فاره يسر الله تعالى لهم فى إتمامه وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه وغيره مما افترض إعانه للمسافرين وإنجادا لجهاد الكافرين فيعلم مقداره ويتولى اختياره حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف ولا يعدل به لمشروف عن شريف ولا تقع فيه مضايقة ذى الجاه ولا مخادعة غير المراقب لله ومتمى تحقق إن غنيا قصر به عن حقه أو ضعيفا كلف منه فوق طوقه فيجبر الفقير من الغنى ويجرى من العدل على السنن السوى ويعلم الناس إن هذه المعونة وإن كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يسيرة وإن الله تعالى يضاعفها لهم اضعافا كثيرة فليست مما يلزم ولا من المعاون التى بتكررها يجزم وينظر فى عهود التوفيق فيصرفها فى مصارفها المتبينة وطرقها الواضحة البينة ويتفقد المساجد تفقدا يكسو عاريها ويتمم منها المأرب تميميا يرضى باربها ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم فذلك أصل اديانهم ويحذرهم المغيب على كل شىء من أعشارهم فالزكاة أخت الصلاة وهما من قواعد الإسلام وقد اخترنا لهم بأقصى الجد والاعتزام ورفعنا عنهم رسم التعريف نظرا إليهم يعين الاهتمام وقدمنا الثقات لهذه الأحكام وجعلنا الخرص شرعيا فى هذا العام وفيما بعده إن شاء الله تعالى من الأعوام

ومن أهم ما أسندناه إليه وعولنا فيه عليه البحث بتلك الأحواز عن أهل البدع والأهواء والسائرين من السبيل على غير السواء ومن ينبز بفساد العقد وتحريف القصد والتلبس بالصوفية وهو فى الباطن من أهل الفساد والذاهبين إلى الإباحة وتأويل المعاد والمؤلفين بين النساء والرجال والمتبعين لمذاهب الضلال فمهما عثر على مطوق بالتهمة منبذ بشىء من ذلك من هذه الأمة فليشد ثقافة شدا ويسد عنه سبيل الخلاص سدا ويسترعى فى شأنه الموجبات ويستوعب الشهادات حتى ينظر فى حسم دانه ويعاجل المرض بدوائه فليتول ما ذكرنا نائبا باحسن المناب ويقصد وجه الله تعالى راجيا منه جزيل الثواب ويعمل عمل من لا يخاف فى الله لومة لائم ليجد ذلك فى موقف الحساب

وعلى من يقف عليه من القواد والأشياخ والحكام إن يكونوا معه يدا واحدة على ما حررنا فى هذه الفصول من العمل المقبول والعدل المبدول ومن قصر عن غاية من غاياته أو خالف مقتضى من مقتضياته فعقابه عقاب من عصى أمر الله وأمرنا فلا يلم إلا نفسه التى غرته وإلى مصرع النكير جرته والله تعالى المستعان انتهى

ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبى الحسن المرينى لما قصدتها عقب ما شرع - 99 فى جواره وتوسل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم الله تعالى الجميع

السلام عليك ثم السلام أيها المولى الهمام الذى عرف فضله الإسلام وأوجبت حقه العلماء الأعلام وخفقت بعز نصره الأعلام وتنافست فى إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام السلام عليك أيها المولى الذى قسم زمانه بين حكم فصل وإمضاء نصل وإحراز خصل وعبادة قامت من اليقين على أصل السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ومشيع البطون الجائعة وكاسى الظهور العارية وقادح زناد العزائم الوارية ومكتب الكتائب الغازية فى سبيل الله تعالى والسرايا السارية السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضى والقلب السليم ومفوض الأمر فى الشدائد الى السميع العليم ومعمل البنان الطاهر فى اکتتاب الذكر الحكيم كرم الله تعالى تربتك وقدسها وطيب روحك الزكية وأنسها فلقد كنت للدهر جمالا وللإسلام ثمالا وللمستجيرا مجيرا وللمظلوم وليا ونصيرا لقد كنت للمجارب صدرا وفى المواكب بدرا وللمواهب بحرا وعلى العباد والبلاد ظلا ظليلا وسترا لقد فرغت أعلام عرك الثنايا وأجزلت همتك لملوك الأرض الهدايا كأنك لم تعرض الجنود ولم تنشر البنود ولم تبسط العدل المحدود ولم توجد الجود ولم تزين الركع السجود فتوسدت الثرى وأطلت الكرى وشربت الكأس التى يشربها الورى وأصبحت ضارع الخد كليل الحد سالكا سنن الأب والجد لم تجد بعد انصرام أجلك إلا صالح عملك ولا أصبحت لقبك إلا رايح تجرك وما أسلفت من رضاك وصبرك فنسأل الله تعالى إن يؤنس اغترابك ويجود بسحاب الرحمة ترابك

وينفعك بصدق اليقين ويجعلك من الأئمة المتقين ويعلى درجتك فى عليين ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
وليهنك أن صير الله تعالى ملكك من بعدك إلى نير سعدك وبارق رعدك ومنجز وعدك أرضى ولدك وربحانة خلدك وشقة نفسك والسرحة المباركة من غرسك ونور شمسك وموصل عملك البر إلى رمسك فقد ظهر عليه أثر دعواتك فى خلواتك وأعقاب صلواتك فكلمتك والمنة لله تعالى باقية وحسنتك إلى محل القبول راقية يرعى بك الوسيلة ويتمم مقاصدك الجميلة أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قلده وعمر بتقواه يومه وغده وأبعد فى السعد أمده وأطلق بالخير يده وجعل الملائكة أنصاره والأقدار عدده
واننى أيها المولى الكريم البر الرحيم لما اشتراى وراشنى وبرانى وتعبدنى بإحسانه واستعمل فى استخلاصي خط بنانه ووصية لسانه لم أجد مكافأة إلا التقرب إليك وإليه برثائك وإغراء لسانى بتخليد عليائك وتعفير الوجنة فى حرمك والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك ففتحت الباب فى هذه الغرض إلى القيام بحقك المفترض الذى لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادت فما يبست الألسن ولا كادت متحيزا بالسبق إلى أداء هذا الحق بادئا بزيارة قبرك الذى هو رحله الغرب ما نوبته من رحلة الشرق وما أعرضت عنه فاقطعه أثر مواقع الاستحسان وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان والله سبحانه يجعله عملا مقبولا ويبلغ فيه من القبول مأمولا ويتغمد من ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصيبة والتحيات الطيبة فنعم الملوك الكبار والخلفاء الأبرار والأئمة الأخيار الذين كرمت منهم السير وحسنت الأخبار وسعد بعزماهم الجهادية وشقى الكفار وصلوات الله تعالى عودا وبدءا على الرسول الذى اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار وعلى آله وأصحابه الذين هم السادة الأبرار وسلم تسليمًا انتهى
وقال لسان الدين رحمه الله تعالى ومما خاطبت به الوزير المتغلب على الملك بالمغرب ما - 100
نصه

" لا ترج إلا الله فى شدة ... وثق به فهو الذى أيدك "
" حاشاك أن ترجو إلا الذى ... فى ظلمة الأحشاء قد أوجدك "
" فاشكره بالرحمة فى خلقه ... ووجهك ابسط بالرضى أو يدك "
" والله لا تهمل الطافه ... قلادة الحق الذى قلدك "
" ما أسعد الملك الذى سسنه ... يا عمر العدل وما أسعدك "
نخص الوزير الذى بهر سعده وحمد فى المضاء قصده وعول على الشيم التى اقتضاها مجده وأورثه إياها أبوه وجده الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا أبقاه الله تعالى ثابت القدم خافق العلم شهيرا حديث سعده فى الأمم مثلا خير بسالته وجلالته فى العرب والعجم
تحية معظم مجده الكبير المستند إلى عهده الوثيق وحسبه الشهير المسرور بما سناه الله تعالى له من نوح التدبير والنصر العديم النظير وإنجاده إياه عند إسلام النصير وفراق القبيل والعشير ابن الخطيب واليد ممدودة إلى الله تعالى فى صلة سعد الوزير أبقاه الله تعالى ودوام عصمته واللسان يطنب ويسهب فى شكر نعمته والأمل متعلق بأسبابه الكريمة وأذمته وقد كان شيعه مع الشفقة التى أذابت الفؤاد والزمت الأرق والسهاد على علم بأن عناية الله تعالى عليه عاكفة وديم الآئه لديه واكفة فإن الذى أقدره وأيده
ونصره وأنفذت مشيئته ما دبره كفيل بإمداده وملى بإسعاده ومرجو لإصلاح دنياه ومعاده وفى أثناء هذه الأراجيف استولى على معظم وزارته الجزع وتعاورته الأفكار تأخذ وتدع فإنى كما يعلم الوزير أعزه الله تعالى منقطع الأسباب مستوحش من الجهة الأندلسية على بعد الجناح ومستعدى على بكونى من المعدودين فيمن له من الخلصان والأحباب فشرعت فى نظر أحصل منه على زوال اللبس وأمان النفس واللحاق بمأمن يرعانى برعى الوزير بخلال ما يدبر الأمر من له التدبير ففى أثناؤه وتمهيد أساس بنائه ورد البشير بما سناه الله تعالى لسيدى وجابر كسرى ومنصفى بفضل الله تعالى من دهري من الصنع الذى ظهر وراق نوره وبهر فأمنت وإن لم أكن ممن جنى وحفتنى المسرات بين فرادى وثنى وانشرح بفضل الله تعالى صدرى وزارتنى النعم والتنهانى من حيث ولا أدرى ووجهت الولد الذى شملته نعمة الوزير واحسانه وسبق إليه امتنانه نائبا عنى فى تقبيل يده وشكر يده والوقوف ببابه والتمسك بأسبابه أثرته بذلك لأمر منها المزاوله فيما كان يلزمنى من إخواته الأصاغر وتدريبه على خدمة الجلال الباهر وإفرادى له بالبركة ولعائق ضعف عن الحركة وبعد ذلك أشرع بفضل الله تعالى فى العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية عارضا من ثنائها ما يكون وفق الأمنية ورب عمل أغنى عنه فضل نية والسلام الكريم على سيدى ورحمة الله تعالى

وبركاته

قال وكتبت إليه أيضا على أثر الفتح الذى تكيف له - 101

سيدي الذى أسر بسعادته وظهر عناية الله تعالى به فى إيدائه وإعادته وأعلم كرم مجادته وأعترف بسيادته الوزير الميمون الطائر الجارى حديث سعدة ومضائه مجرى المثل السائر أبغاه الله تعالى عزيز الأنصار جارية بيمن نقيته حركة الفلك الدوار معصوما من المكاره بعصمة الواحد القهار معظم سيادته الرفيعة الجانب وموقر وزارته الشهيرة المناسب الداعى إلى الله تعالى بطول لقائه فى عز واضح المذاهب وصنع واكف السحائب ابن الخطيب عن الذى يعلم سيدي من لسان طلق بالثناء ويد ممدودة إلى الله تعالى بالدعاء والتماس لما يعد من جزيل النعماء والفتح الذى نفتح له ابواب السماء وقد اتصل ماسناه الله تعالى له من النصر والظهور والصنع البادى السفور لما التقى الجمعان وتهوديت أكواس الطعان وتبين الشجاع من الجبان وظهر من كرات سيدي وبسالته ما تحدث به السنة الركبان حتى كانت الطائفة لحزبه وظهرت عليه عناية ربه فقلت الحمد لله الذى جعل سعد عمادى متصل الآيات واضح الغرر والشياطين وقد كنت بعثت اهنته بما قدم من صنع جميل وبلوغ تأميل فقلت اللهم افد علينا التهانى تترى واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هى الصغرى واجمع له بين نعم الدنيا والأخرى والناس أبقى الله تعالى سيدي لهم مع الاستناد إليك جهات وأمور مشتبهات إلا المحب المتشيع فجهتك هى التى أنست الغربية وفرجت الكربة ووعدت بالخير وضمنت عاقبة الصير وأنا ارتقب ورود التعريف المولوي على عبیده بهذه المدينة وأصل أن شاء الله تعالى لمباشرة الهناء وقررة العين بمشاهدة الآلاء والله عز وجل يديم سعادة سيدي ويطيب بقاءه ويرادف قبلة نعمة وآلاءه بفضلته انتهى

وقال ومما خاطبت به المذكور وأنا ساكن بسلا - 102

" أيا عمر العدل الذى مطل المدى ... بوعد الهدى حتى وفيت بدينه "

" ويا صارم الملك الذى يستعده ... لدفع عداه أو لمجلس زينه "

" هنت عينك اليقظى من الله عصمة ... كفت وجه دين الله موقع شينه "

" وهل أنت إلا الملك والدين والدنيا ... ولا يلبس الحق المبين بمينه "

" إذا نال منك العين ضر فإنما ... أصيب به الإسلام فى عين عينه "

الوزير الذى هو للدين الوزر الواقى والعلم السامى المراقب والمراقى والحلى المقلد فوق الترائب والتراقى والكنز المؤمل والذخر الباقي حجب الله تعالى العيون عن عين كمالك وصير الفلك الدوار مطية أمالك وجعل اتفاق اليمن مقرونا بيمينك وانتظام الشمل معقودا بشمالك أعلم إن مطلق لسان الثناء على مجدك والمستضىء على البعد بنور سعدك ومعقود الرجاء بعروة وعدك لا يزال فى كل ساعة يسحب الفلك فيه ذيلها ويعاقب يومها وليلها مصغى الأذان إلى نيا يهدي عنك لله تعالى دفاعا أو يمد فى ميدان سعدك باعا وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم وأسى الكلوم وذو المقام المعلوم فتعرفت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام وتتفكه به المثاقفة والافدام من كرة مرسله الشهاب أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب حومت حول عينك لا كدر صفاؤها ولا هدم فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها فرعت حول حماها ورامت أن تصيب فخيبت الله تعالى مرماها

" نرى السوء مما نتقى فنهابه ... وما لا نرى مما يقى الله أكثر "

فقلت مكروه أخطأ سهمه وتنبيه من الله تعالى لمن نبيل عقله وفهمه ودفاع قام دليله وسعد أشرق جليله وأيام أعربت عن إقبالها وعصمة غطت بسربالها وجوارح جعل الله تعالى الملائكة تحرسها فلا تغتالها الحوادث ولا تفترسها والفظن يشعر بالشىء وإن جهل أسبابه والصوفى يسمع من الكون جوابه فبادرت أهنته من يرى تلك الجوارح الكريمة أعز عليه من جوارحه ويرسل طير الشكر لله تعالى فى مساقط اللطف الخفى ومسارحه وسالته سبحانه إن يجعلك عن النوائب حجرا لا يقرب وربك ربعا لا يخرب ما سبح الحوت ودب العقرب ثم إننى شفعت الهناء وتترته وأظهرت السرور فما سترته بما سناه لتديريك من مسالمة تكذب الإرجاف وتغنى عن الإيجاف وتخصب للإبل العجاف وتريح من كيد وتفرغ إلى مجادلة عمرو وزيد وكأنى بسعدك قد سدل الأمان وعدل الزمان وأصلح الفاسد ونفق الكاسد وقهر الروع المستاسد وسر الحبيب وساء الحاسد والسلام انتهى

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر ابن محمد بن على - 103

الهناتى معزيا له عن أخيه عبد العزيز

" أبا ثابت كن فى الشدائد ثابتا ... أعيدك أن يلغى حسودك شامتا "
 " عزأؤك عن عبد العزيز هو الذى ... يلىق بعز منك أعجز ناعنا "
 " فدوحتك الغناء طالت ذواتبا ... وسرحتك السماء طابت منابتا "
 " لقد هد أركان الوجود مصابه ... وأنطق منه الشجو من كان صامتا "
 " فمن نفس حر أوثق الحزن كظمها ... ومن نفس بالوجد أصبح خافتا "
 " هو الموت للإنسان فصل لحده ... وكيف ترجى أن تصاحب مائتا "
 " وللصبر أولى ان يكون رجوعنا ... إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا "

اتصل بى أبها الهمام وبدر المجد الذى لا يفارقه التمام ما جننه على عليائك الأيام واقتنصه محلقة الردى بعد أن طال الحيام وما استأثر به الحمام فلم يغن الدفاع ولا نفع الذمام من وفاة صنوك الكريم الصفات وهلاك وسطى الأسلاك وبدر الأحلاك ومجير الأملاك وذهاب السمع الوهاب وأنا لديدغ صل الفراق الذى لا يفىق بألف راق وجريح سهم

البين ومجارى العيون الجارية بدمع العين لفقد أنيس سهل على ممرض النكبة ونحى ليث الخطب عن فريستى بعد صدق الوثبة وأنسنى فى الاغتراب وصحبنى إلى منقطع التراب وكفل أصاغري خير الكفالة وعاملنى من حسن العشرة بما سجل عقد الوكالة انتزعه الدهر من يدي حيث لا أهل ولا وطن والاغتراب قد ألقى بعطن وذات اليد يعلم حالها من يعلم مآظهر وما بطن ورأيت من تطارح الأصاغر على شلو الغرب النازح عن النسب والقريب ما حملنى على أن جعلت البيت له ضريحا ومدفنا صريحا لأخدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه وأن ظل شفقتة منسحب عليه فأعيا مصابى عند ذلك القرع وأعظم الظمأ البرح ونكأ القرع القرع إذ كان ركنا قد بنته لى يد معرفتك ومنتصفا فى البر بى والرعى لصاغيتى بكريم صفتك فوالهفا عليه من حسام وعز سام وأياد جسام وشهرة بين بنى حام وسام أى جمال خلق ووجه للقاصد طلق وشيم تطمح للمعالى بحق وأي عضد لك يا سيدي الأعلى لا يهن إذا سطا ولا يقهقر إذا خطا يوجب لك على تحليه بالشبية ما توجهه البنوة من الهيبة ويرد ضيفك أمانا من الخيبة ويسد ثغرك عند الغيبة ذهبت إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر ودعوت بالصبر فولى وأدبر واستنجدت الدمع فنضب واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى واقتضب وبأى حزن يلقي عبد العزيز وقد جل فقده أو يطفأ لاعجه وقد عظم وقده اللهم لو بكى بندي أياديه أو بغمائم غواديه أو بعباب واديه وهى الأيام اى شامخ لم تهده أو جديد لم تبله وإن طالت المدة فرقت بين التيجان والمفارق والحدود والنمارق والطللى والعقود والكأس وأبنة العنقود فما التعلل بالفان وإنما هى إغفاءه أجفان والتشبت بالحبائل وإنما هو ظل زائل والصبر على المصائب ووقوع سهمها الصائب أولى ما اعتمد طلابا ورجع إليه طوعا أو غلابا فانا يا سيدي أقيم رسم التعزية وإن يؤت بمضاعف المرزية ولا عتب على القدر فى الورد من الأمر والصدر ولولا أن هذا الواقع مما لا يجدى فيه الخلصان ولا يغنى فيه اليراع ولا الخرصان لأبلى جهده من أقرضتموه معروفا وكان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفا لكنها سوق لا ينفق فيها إلا سلعة التسليم للحكيم العليم وطى الجوانح على الممرض الأليم ولعمري لقد خلدت لهذا الفقيد وإن طمس الحمام محاسنه الوضاحة لما كبس منه الساحة صحفا منشرة وثغورا بالحمد موشرة يفخر بها بنوه ويستكثر بها مكتسبو الحمد ومقنتوه وأنتم عماد البازة وعلم المفازة وقطب المدار وعامر الدار وأسد الأجمة وبطل الكتيبة الملجمة وكافل البيت والسنتر على الحي والميت ومثلك لا يهدى الى نهج لاجب ولا ترشده نار الحباحب ولا ينبه على سنن نبى كريم أو صاحب قدرك أعلى وفضلك أجلى وأنت صدر الزمان بلا مدافع وخير معل لأعلام الفضل ورافع وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خصنى من المصاب ونالنى من الأوصاب ونزل بى من جور الزمان الغصاب ممن يقبل عذره الكرم ويسعه الحرم المحترم والله سبحانه الكفيل لسيدي وعمادى ببقاء يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء ويعلى لقومه رتب العز سامية البناء حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده ولا يحس بعض زمان مع جوده ويفر عينه فى ولده وولد ولده ويجعل أبدي مناويه تحت يده والسلام

وخاطبه لسان الدين أيضا بما نصه - 104

سيدي الذى هو رجل المغرب كله والمجمع على طهارة بيته وزكاء أصله علم أهل المجد والدين وبقية كبار الموحدين

بعد السلام الذى يجب لتلك الجلالة الراسخة القواعد السامية المصاعد والدعاء لله أن يفتح لك فى مضيقات هذه الأحوال مسالك التوفيق وبمسكك من عصمته بالسبب الوثيق أعرفك أن جبلك اليوم وقد عظم الرجفان وفاض التنور وطغى الطوفان تؤمل النفوس الغرقى جودي جوده وتغتبط غاية الاغتباط بوجوده

ووالله لولا العلائق التي يجب لها الالتزام ما وقع على غير قصدك الاعتزام والله تعالى يمدك بإعانتة على تحمل القصاد ويبقى محللك رفيع العماد كثير الرماد ويجعل أبا يحيى خلفا منك بعد عمر النهاية البعيد الأمد ويبقى كلمة التوحيد فيكم إلى يوم التناد وحامله القائد الكذا معروف النباهة والجهاد ومحلله لا ينكر في الفؤاد لما اشتبهت السبل والتبس القول والعمل لم يجد أنجي من الركون إلى جنابك والتمسك بأسبابك والانتظام في جملة خواصك وأحبابك حتى ينبج الصبح ويظهر النجاح ويعظم المنح ويكون بعد هجرته الفتح ومثلكم من قصد وأمل وانضي إليه المطى وأعمل وأما الذي عندي من القيام بحق تلك الذات الشريفة والقول بمناقبها المنيفة فهو شيء لا تفي به العبارة ولا تؤديه الألفاظ المستعارة والله تعالى المسؤول في صلة عز سيدي ودوام سعده والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى وقال لسان الدين رحمه الله تعالى ومما خاطبت به شيخ الدولة وقد استقل من مرض ما - 105

نصه
" لا أعدم الله دار الملك منك سنا ... يجلى به الحالكان الظلم والظلم "
" وأنشدتك الليالي وهي صادقة ... المجد عوفى إذ عوفيت والكرم "
من علم أعلى الله تعالى قدرك أن المجد جواد حلاك شياته لا بل الملك بدر أنت آياته لا بل الإسلام جسم أنت حياته دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينه وملك تنيره وتزينه ولدين تعامل الله تعالى بإعازره وتدينه فلقد أمت نفوس المؤمنين لألامك ووجم الإسلام لتوقع إسلامك وخفقت الأعلام لتأخر إطفائك بمصالح الملك وإعلامك فانما أنامل الدين والدنيا متشبهة بأذيال أيامك ورحال الأمل مخيمة بين حلالك وخيامك

فإذا قابلت الأشراف نعم الله تعالى بشكر ورمت الغفلة عن ذلك بنكر فاشكره جل وعلا بملء لسانك وجنانك واجر في ميدان حمده مطلقا من عنانك على ما طوفك من استرقاق حر وإفاضة إياك غر واقتناء عسجد من الحمد ودر واتاحة نفع ودفع ضر وإدالة حلو من مر وكن على ثقة من مدافعة الله تعالى عن حماك وعز تبلغ ذوائبه السماك ورزق يجره فال منتماك ودونك مجلس الإمامة فقد تديره بزمامك وحظوة الخلافة فاستحقها بوسائلك القديمة وذمامك ومحاسن الدولة فأجلها على منصة إمامك ورسوم البر فأغر بها عين اهتمامك وذروه المنبر فأمض بها ظبه حسامك وأجن الأملين زهر الأيادي البيض من كمائم أكمامك فيا عز دولة بك يا جملة الكمال قد استظهرت وأذلت المعاند وقهرت وباعمال أرائك اشتهرت فراققت فضائلها وبهرت جزاله كما شق الجو جرح ولطافة كما طارح نغم التأليف مطارح وفكر في الغيب سارح ودين لغوامض الحلم والعدل شارح ومكارم محت آثار الكرماء ونسخت وحلت عقود أخبار الأجواد في الأعصار وفسخت فلم تدع الفضل ذكرا وتركت معروف يحيى بن خالد نكرا لا بل لم يبق لكعب من علو كعب وأنست دعوة حاتم بأي ماح وخاتم قصاره شي حوار ومنع حوار وعقر ناب عند اقشعرار جناب واين يقع من كبر قدر ترفع عن الكبير وجود خضب الأيدي بحناء التبر وعز استخدم الأسل الطوال بيراع أقل من الشبر وحقن الدماء المراقبة بإراقة نجيع الحبر وفك العقال ورفع النوب الثقال وراع الذرة والمثقال وعثر الزمان فأقال ووجد لسان الصدق فقال

أقسم ببارى النسم وهو أبر القسم ما فازت بمثلك الدول ولا ظفرت بمثلك الملوك الأواخر والأول ولو تقدمت لم يضرب إلا بك المثل ولم يقع إلا على سنتك وكتابك والإجماع المنعقد على أداك العمل والمملوك لما شام مالكة برق العافية وتدرع بالالطاف الخافية كتب مبشرا بالهناء ومذيعا ما يجب من الحمد والثناء وشاكر ما له بوجوده من الاعتناء فقد بادر ركن الدين بالبناء وأبقى الستر والمنة على الآباء والأبناء فنسال الله تعالى أن يمتع منك باثير الملوك ووسطى السلوك وسلالة أرباب المقامات والسلوك ويبقيك وحصه الصحة وافرة وغرة العزة القعساء سافرة وغادة عادة السعادة غير نافرة وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غانمة طافرة ما زحفت للصباح شهب المواكب وتفتحت بشط نهر المجرة أزهار الكواكب والسلام انتهى

ومن ذلك ما خاطب به سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق جوابا عن كتابه وقد استقر خطيب - 106
السلطان بتونس

" ولما أن نات منكم ديار ... وحال البعد بينكم وبينى "
" بعثت لكم سوادا في بياض ... لأنظركم بشيء مثل عيني "
بم أفاتحك يا سيدي وأجل عددي كيف أهدي سلاما فلا أحذر ملاما أو أنتخب لك كلاما فلا أجد لتبعة التقصير في حقك الكبير إلاما أن قلت تحية كسرى في الثناء وتبع فكلمة في مرتع العجمة تريع ولها المصيف فيه والمريع والجميم والمنبع فتروى متى شاءت وتشيع وان قلت إذا العارض خطر

ومهما همى أو قطر سلام الله يا مطر فهو فى الشريعة بطر وركبة خطر ولا يرعى به وطن ولا يقضى به وطر وإنما العرق الأوشج ولا يستوى البان والبنفسج والعوسج والعرفج " سلام وتسليم وروح ورحمة ... عليك وممدود من الظل سحسج "

وما كان فضلك ليمنعنى الكفران أن أشكره ولا لينسينى الشيطان أن أذكره فأتخذ فى البحر سببا أو أسلك غير الوفاء مذهبا تأبى ذلك والمنة لله تعالى طباع لها فى مجال الرعى باع وتحقيق واشباع وسائم من الإنصاف ترعى فى رياض الاعتراف فلا يطررها ارتباع ولا تخيفها سباع وكيف نجحد تلك الحقوق وهى شمس ظهيرة وأذان عقيرة جهيرة فوق منذنة شهيرة أدت الأكتاد لها ديون تستغرق الذمم وتسترق حتى الرمم فإن قضيت فى الحياة فهى الخطة التى نرتضيها ولا نقتنع من عامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويمضيها وأن قطع الأجل فالغنى الحميد من خزائنه التى لا تبيد يقضيها ويرضى من يقضيها وحيا الله تعالى أيها العلم السامى الجلال زما بمعرفتك المبرة على الآمال بر واتحف وإن أساء بفراقك وأجحف وأعرى بعدما الحف وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزايين ثم أوحش منها أصونة هذه الخزائين فأب حنين الأمل بخفية وأصبح المغرب غربا يقلب كفيه ونستغفر الله تعالى من هذه الغفلات ونستهديه دليلا فى مثل هذه الفلوات وأي ذنب فى الفراق للزمن أو لغراب الدمن أو للرواحل المدلجة ما بين الشام إلى اليمن وما منها إلا عبد مقهور وفى رمة القدر مبهور عقد والحمد لله مشهور وحنة لها على النفس اللوامة ظهور جعلنا الله تعالى ممن ذكر المسبب فى الأسباب وتذكر " وما يذكر إلا أولو الألباب " البقرة آل عمران قبل غلق الرهن وسد الباب وبالجملة فالفراق ذاتى ووعده مأتى فإن لم يكن فكأن قد ما أقرب اليوم من الغد والمرء فى الوجود غريب وكل آت قريب وما من مقام إلا لزيال من غير احتياك والأعمار مراحل والأيام أميال

" نصيبك فى حياتك من حبيب ... نصيبك فى منامك من خيال "

جعل الله تعالى الأدب مع الحق شاننا وأبعد عنا الفراق الذى شاننا وأنى لأسر لسيدي بأن رعى الله تعالى صالح سلفة وتداركه بالتلافى فى تلفه وخلص سعادته من كلفه وأحله من الأمن فى كنفه وعلى قدرها تصاب العلياء وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء

هذا والخير والشر فى هذه الدار المؤسسة على الأكار ظلان مضمحلان فقد ارتفع ما ضر أو نفع وفارق المكان فكأنه ما كان ومن كلمات الملوك البعيدة عن السلوك إلا أن يشاء ملك الملوك

" خذ من زمانك تيسر ... واترك بجهدك ما تعسر "

" ولرب مجمل حاله ... ترضى به ما لم يفسر "

" والدهر ليس بدائم ... لا بد أن سيسوء إن سر "

" واكنتم حديثك جاهدا ... شمت المحدث أو تحسر "

" والناس أنية الزجاج ... إذا عثرت به تكسر "

" لا تعدم التقوى فمن ... عدم التقى فى الناس أعسر "

" وإذا امرؤ خسر الإله ... فليس خلق منه أخسر "

وان لله تعالى فى رعيك لسرا ولطفا مستمرا مستقرا إذ القاك اليم إلى الساحل فأخذ بيدك من ورطة الواحل وحرك منك عزيمة الراحل إلى الملك الحلال فأدالك من إبراهيم سميا وعرفك بعد "الولى وسميا ونقلك من عناية إلى عناية وهو الذى يقول وقوله الحق " ما ننسخ من آية - الآية البقرة

وقد وصل كتاب سيدي يحمد والحمد لله العواقب ويصف المراقى التى حلها والمراقب وينشر المفاخر الحفصية والمناقب ويذكر ما هياه الله تعالى لديها من إقبال ورخاء بال خصيصى اشتمال ونشوة آمال وأنه اغتبط وارتبط وألقى العصا بعدما خبط ومثل تلك الخلافة العلية من تزن الذوات المخصوصة من الله تعالى بتشريف الأدوات بميزان تمييزها وتفرق بين شبه المعادن وابريرها و شبه الشىء مثل معروف ولقد أخطأ من قال الناس ظروف أنما هم شجرات ريع فى بقعة ماحلة وإبل مائة لا تجد فيها راحلة وما هو إلا اتفاق ونجح للمسلك وإخفاق وقلما كذب إجماع وإصفاق وإجليس الصالح لرب سياسة أمل مطلوب وحظ إليه مجلوب وأن سنبل أطرف وعمر الوقت ببضاعة أشرف وسرق الطباع ومد فى الحسنات الباع وسلى فى الخطوب وأضحك فى اليوم القطوب وهدى إلى أقوم الطرق وأعان على نواب الحق وزرع له المودة فى قلوب الخلق زاد الله تعالى سيدي لديها قريبا أثرا وجعل فيه للجميع خيرا كثيرا بفضله وكرمه ولعلمى بأنه أبقاه الله تعالى يقبل نصحى ولا يرتاب فى صدق صبحى أعبطة بمثواه وأنشده ما حضر من البديهة فى مسارة هذاه ونجواه

" بمقام إبراهيم عذ واصرف به ... فكرا تؤرق عن بواعث تنبري "
" فجواره حرم وأنت حمامه ... ورقاء والأعصان عود المنبر "
" فلقد أمنت من الزمان وربيه ... وهو المروع للمسيء وللبري "
وأن تشوف سيدي فلعمر وليه لو كان المطلوب دنيا لوجب وقوع الاجتزاء
ولاغتبط بما تحصل فى هذه الجزور المبيعة فى حانوت الزور من السهام الوافرة الأجزاء فالسلطان
رعاه الله تعالى يوجب ما فوق مزية التعليم والولد هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظ قل أن ينالوه بغير
هذا الإقليم والخاصة والعامّة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم وترك لما بالأيدي وتسليم وتدبير
عاد على عدوها بالعذاب الأليم إلا من أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد بحال السليم ولا ينكر
ذلك فى الحديث ولا فى القديم ولكن النفس منصرفة عن هذا الغرض نافضة يدها من العرض قد
فوتت الحاصل ووصلت فى الله تعالى القاطع وقطعت الواصل وصدقت لما نصح الفود الناصل وتأهبت
للقاء الحمام الواصل وقلت

" انظر خضاب الشباب قد نصلا ... وزائر الأنس بعده انفصلا "
" ومطلبى والذى كلفت به ... حاولت تحصيله فما حصلا "
" لا أمل مسعف ولا عمل ... ونحن فى ذا والموت قد وصلا "

والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء فى الأصائل والأسحار إلى مقيل العثار شديد الافتقار والله عز
وجل يصل لسيدي رعى جوانبه ويتولى تيسير أماله من فضله العميم ومأربه واقرا عليه من
التحيات المحملة من فوق رحال الأريحيات أزكاها ما أوجع البرق الغمائم فأبكاها وحسد الروض
جمال النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها واضطبن هرم الليل عند الميل عصا الجوزاء
وتوكاها ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى

ووما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ابن مرزوق المذكور قوله - 107

حذف 1 424 فى هذه الجزور المبيعة فى حانوت الزور من السهام الوافرة الأجزاء فالسلطان رعاه
الله تعالى يوجب ما فوق مزية التعليم والولد هداهم الله تعالى قد أخذوا بخط قل أن ينالوه بغير هذا
الإقليم والخاصة والعامّة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم وترك لما بالأيدي وتسليم وتدبير عاد
على عدوها بالعذاب الأليم إلا من أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد بحال السليم ولا ينكر فى
الحديث ولا فى القديم ولكن النفس منصرفة عن هذا الغرض نافضة يدها من العرض قد فوتت
الحاصل ووصلت فى الله تعالى القاطع وقطعت الواصل وصدقت لما نصح الفود الناصل وتأهبت للقاء
الحمام الواصل وقلت

" انظر خضاب الشباب قد نصلا ... وزائر الأنس بعده انفصلا "
" ومطلبى والذى كلفت به ... حاولت تحصيله فما حصلا "
" لا أمل مسعف ولا عمل ... ونحن فى ذا والموت قد وصلا "

والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء فى الأصائل والأسحار إلى مقيل العثار شديد الافتقار والله عز
وجل يصل لسيدي رعى جوانبه ويتولى تيسير أماله من فضله العميم ومأربه واقرا عليه من
التحيات المحملة من فوق رحال الأريحيات أزكاها ما أوجع البرق الغمائم فأبكاها وحسد الروض
جمال النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها واضطبن هرم الليل عند عصا الجوزاء وتوكاها
ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى 107 - ووما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ابن مرزوق
المذكور قوله

سيدي وعمادي كشف قناع النصيحة من الوظائف صديق أو خديم لصيق وأنا بكلتا الجهتين جقيق
ويتلجلج فى صدري كلام أنا إلى نغته ذو احتياج ولو فى سبيل هياج وخرق سياج وخوض دياج وقد
اصبحت سعادتى عن أصل سعادتك فرعا فوجب النصح طبعاً وشرعاً فليعلم سيدي أن الجاه ورطة
والاستغراق فى تيار الدول غلطة وبمقدار العلو إلا أن يقى الله تعالى تكون السقطة وأنه والله تعالى
يعصمه من الحوادث ويقيه من الخطوب الكوارث وإن تبعه الجرم فهو مفرد وبسهام الحسدة مقصد
وأن الذى يقبل يده يضم حسده وما من يوم إلا والعلل تستشرى والحيل تربش وتبري وسموم
المكايد تسري والعين الساهرة تطرق العين النائمة من حيث تدري ولا تدري وهذا الباب الكريم
مخصوص بالزيادة والبركة وخصوصاً فى مثل هذه الحركة فثم ظواهر تخالف السرائر وحيل تصيب
فى الجو الطائر وما عسى أن يتحفظ المحسود وقد عوت الكلاب وزارت الأسود وأن طن سيدي أن
الخطة الدينية تذب عن نفسها أو تنفع مع غير جنسها فذلك قياس غير صحيح وهبوب الريح وإنما
هى درجة فوق الوزارة والحجابه ودهر يدعى فيبادر بالإجابة وجاه يجر على القليل الأذيال ويفيد
العز والمال وبحرهاب وصدور تحمل الجبال وأن قطع بالأمان من جهة السلطان لم يؤمن أن يقع فيه

والله سبحانه يقيه ويمتع به ويبقيه ما البشر بصدده والحي يجري إلى أمده فيستظهر الغير بقبيل ويجرى من التغلب على سبيل ويبقى سيدي والله تعالى يعصمه طائرا بلا جناح ومحاربا دون سلاح ينادي من مكان يثق بوده فى طلل ويقرع سن النادم والأمر جلل ومثله بين غير صنفه ممن لا يتصف بطرف ولا يلتفت إلى الإنسانية بطرف ولا يعبد الله تعالى ولو على حرف محمول عليه من حيث الصنفية معتمد بالعداوة الخفية وأن ظن غير هذا فهو مخدوع مسحور ومفتون مغرور وبالفكر فى الخلاص تفاضلت النفوس واستدفع اليوس وله وجوه كلها متعذر الحصول دونه بيض النصول إلا ما كان من الغرض الذى يأن فيه بعد الجد الفتور وعدل عنه وقد أخذ الدستور وتيسرت الأمور وتقررت الأيمان والنذور فإنه عرض قريب وسفر قاصد ومسعى لا ينفق فيه سيدي من ماله درهم واحد ووطن لحركته راصد لا يمنع عليه أهله ولا يستصعب سهله وأميره جبره الله تعالى بتطرح فى تعيينكم لاقتضائه واحكام آرائه وتأمين خائفه واستقدام اصنافه وطوائفه وتتحركون حركة العز والتنويه والقدر النبیه لا يعوزكم ممن وراءكم مطلب ولا يلفى عن مخالفتكم مذهب ولا يكدر لكم مشرب

وتمر أيام وشهور وتظهر بطون للدهر وظهور وتفتح أبواب وتسبب أسباب من رجوع يتأتى بعد السكون والفتور وقد سكنت الخواطر وتنوعت الأمور أو مقام تمهد به البلاد ويعمل فى ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد وتستغرق فى هذا الغرض الآماد ويتأتى أن حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد تنهنا فيه الأعمار ويكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار أو التحكم فى ذخيرة سما منها المقدار وذهل عند مشاهدتها الاعتبار وخزانه الكتب بجملتها وفيها الأمهات الكبار قد تجافت عنها الحاجة وعدم إليها الاضطرار والربيع الذى يسوغ بالشرع والعقار فهذا كله حاصل وثم ضامن لا يتهم وكافل وعهود صبغها غير ناصل وبالجملة فالوطن لأغراض الملك جامع ولمقاصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع وإن توقع إثارة فتنة أو ارتكاب إحنة فالأمر أقرب وحاله المتيسر أعرب وهذه الحجة فى تلمسان غير معتبرة وأجوبتها مقرررة وقدم رسول الطاغية وإعانته تحصل فى الغالب على هذه المطالب وبالجملة فالدنيا

قد اختلت والأقدام قد زلت والأموال قد قلت وشبيبة الدهر ولت وذلك القطر على علته أحكم لمن يروم الجاه وأمنع وأجدى بكل اعتبار وأنفع وقد حضرت لاستخلاصكم إياه الآلة التى لا تتأتى فى كل زمان وتنهيا إمكان أي إمكان واقتضيت أيمان وعرضت سلع تقل لها أثمان وارتهنت الوفاء مروءات وأديان وتحقق بذلك القطر الفساد الذى اشتهر به مأموره وأموره وأميره والمنكر الذى يجب على كل مسلم تغييره فإن شئت شرعا فالحكم ظاهر أو طبعيا فالطبع حاضر وما ثم عادل بل عاذر والمؤونة التى تلزم أقل من أن تكون ثمن بعض الحصون فضلا عن الشجرة ذات الغصون وما يستهلك فى هذا الغرض شىء له خطر ولا يستنقذ من الصحيفة سطر واليد محكمة بكل أو شطر وما يخص المملوك من هذا الأمر إلا استنقاذ نشب واستخلاص مؤمل بين موروث ومكتسب وبعيد إن لا ينعر له فى زمن من الأزمان فلا بد فى كل وقت من أعيان ومروءات وأحساب وأديان والله سبحانه كل يوم هو فى شان وأما خدمة دولة فهى على حرام لا ينجح لى فيها إن أعتمدها مرام وكأنى بالمشرق للاحق ولأنفاسه الذكية ناشق فما هى إلا أطماع سرايها لمام فإذا انقطعت انفسحت الدنيا واتسعت ومعاش فى غمار أو عكوف فى كسر دار لمداومة استقالة واستغفار والله ما توهم أن من بتلك البلاد يستنسر بغائة عليكم أو يحتقر ما لديكم فقد ظهر الكائن وتطابق المخير والمعان فسبحان من يقوى الضعيف ويهين المخيف ويجري يد المشروف والشريف والههم بيد الله تعالى ينجدها ويخذلها والأرض فى قبضته يرعاها ويهملها هذا بث لا يسع إفشاؤه وسر إن لم يطو سقط به على السرحان شاؤه وفيه ما ينكره الأمر وتتعلق به الطنون وتعمل الخواطر فتدبروه واعتبروه وبعقلكم فاسبروه ثم غطوه بالإحراق واستروه والله تعالى يرشدكم للتى هى أسد ويحملكم على ما فيه لكم العز السرمد والفخر الذى لا ينفد والسلام انتهى

وقال رحمه الله تعالى ومما صدر عنى ما أحببت به عن كتاب بعث به إلى الفقيه الكاتب عن - 108 سلطان تلمسان أبى عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري " حيا تلمسان الحيا فربوعها ... صدف وجود بدره المكنون " " ما شئت من فضل عميم إن سقى ... أروى ومن ليس بالمنون " " أو شئت من دين إذا قدح الهوى ... أروى ودينا لم تكن بالدون " " ورد النسيم لها بنشر حديقة ... قد أزهت أفتانها بفتون "

" وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت ... فلها الشفوف على عيون العين "

ما هذا النثر والصف والحشر واللف والنشر والفجر والليالي العشر شذا كما تنفست دارين وسطور رقم حللها التزيين وبيان قام على إبداعه البرهان المبين ونفس وشتى به طرس فجاء كأنه عيون العين لا بل ما هذه الكتائب الكتيبة التى أطلعت علينا الأعنة وأشرعت إلينا الأسنة وراعت الإنس والجنة فاقسم بالرحمن لولا أنها رفعت شعار الأمان وحيث بتحية الإيمان لراعت السرب وعافت الذود أن يرد الشرب أطنها مدد الجهاد قدم وشارد العرب استعمل فى سبيل الله واستخدم والمتأخر على ما فاته ندم والعزم وجد بعدما عدم نستغفر الله إنما هى رفاع الرفاع وصلات صلاة ليس فيها سبق ولا إرباع ويقاع لها بطل الطباع الكريمة انتفاع وألحان بيان يعضدها إيقاع ودر منسوق ورتب لنخلها بسوق ولله درالقائل الملك سوق ومن نصير الشيخ على كتيبة تعقبها كتيبة واقتضاء وجيبة من ذي غلة غير نجبية بينا هو يكابد من مراجعة الحى من حضر موت الموت ولا يكاد يرجع الصوت إذ صبحته قيس وهى التى شذت عن القياس وأجحمت عن مبارزتها أسود الأخياس فلولا امتثال أمر وصبر على جمر لأعاد ما حكى فى مبارزة الوصى عن عمرو فتخرج من الخطل وبين عذر المكره عن مناجزه البطل الم يدر قائد رعيها وزائر غيلها أنى أمت بذمة من عميده لا تخفر وأن ذنب إضافتى له لا يغفر وحقه الحق الذى لا يجحد ولا يكفر

" لما رأت راية القيسى زاحفة ... إلى ريعت وقالت لى وما العمل "

" قلت الوغى ليس من رأيي ولا عملى ... لا ناقة لى فى هذا ولا جمل "

" قد كان ذاك ورنات الصهيل ضحى ... تهز عطفى كأنى شارب نمل "

" والآن قد صوح المرعى وقوضت ... الخيمات والركب بعد اللبث محتمل "

" قالت ألسنت شهاب الدين تضررها ... حاشا العلاء أن يقال استنوق الجمل "

" وإن أحسن من هذا وذا وزر ... بمثله فى الدواهي يبلغ الأمل "

" هو الحمى لأبى حمو استجره ففيه ... الأمن منسدل والفضل مكتمل "

" والله لو أهمل الراعى النقاد به ... ما خاف من أسد خفان به همل "

" تكون من قوم موسى إن قضا عدلوا ... وإن تقاعد دهر جائر حملوا "

" هم الجبال الرواسى كلما حلموا ... هم البحار الطوامى كلما حملوا "

" فقلت كان لك الرحمن يعدي ما ... سواه معتمد والرأى معتمل "

" فها أنا تحت ظل منه يلحبنى ... والشمل منى بستر العز يشتمل "

" فقل لقيس لقد خاب القياس فلا ... تذكوا المصاع وتحت الليل فاحتملوا "

" دامت له ديم النعمى مساجلة ... يميناه تنهمل اليمنى قتنهمل "

" وأمنت شمس عليها الأفول إلى ... طى الوجود فلا شمس ولا حمل "

ولو خوى والعود بالله نجم هذا המתات ولم يتصف السبب وحاشاه بالاتصال ولا بالانبات فمرعى العدل مكفول وسبب الرفق موصول وإن اشتجرت نصول والهرم تأبى الأبطال التنزل إلى نزاله والناسك التائب يدين ضرب الغارات باعتزاله إلا من أعرق فى مذهب الخارجى الأخرق نافع بن الأزرق وحسبى وقد ساء كسبى أن أترك الخطر لراكبه وأخلى الطريق لمن يبنى المنار به ونسير بسير أمثالى من الضعفاء ونكف فهو زمان الانكفاء ونسلم مخطوبة هذا الفن إلى الأكفاء ونقول بالبنين والرفاء فقد ذهب الزمن المذهب وتبين المذهب وشاخ البازي الأشهب وعتاد العمر ينهب ومرهب الفوت من فوق الفود يرهب اللهم اللهم هذه الأنفس رشدها وأذكرها السكرات وما بعدها إيه أذى والفضل وصفك ونعتك والزيف يبهرجه بحتك وسهام البراعة انفرد بها بريك ونحتك وصلتنى رسالتك البرة بل غمامتك الثرة وحيبتنى ثغور فضلك المفترفة فعظمت بورودها المسرة جدت العهد بمحبوب لقائك وأنهلت ظامى الاستطلاع فى سقائك واقتضت تجديد الدعاء ببقائك إلا أنها ربما ذهلت عند وداعك وأبهر عقلها نور إبداعك

فلم تلقن الوصية وسلكت المسالك القصية وابتعدت من التطوف وجاءت تبغى من أسرار التصوف ومتى تقرن هبة السيع الشداد بجانوت الحداد أو تنظر أحكام الاعتكاف بركان الإسكاف أو يتعلم طبع المثقال بجانوت البقال والظن الغالب وقد تتبس المطالب أنكم أمرتموها لما أصدرتموها بإعمال التشوف فطردت حكم الإبدال غائبة عما يلزم من الجدال وسمت الشين صادا وعينت لزرع الوصية حصادا والله تعالى يجعل المحب عند ظن من نظر بمرآته أو وصفه ببعض صفاته وهى تزلق عن صفاته فالتصوف أشرف وظلاله أوف من أن يناله كلف بباطل ومغرور بسراب ماطل لا برباب هاطل ومفتون بحال حال أو عاطل ومن قال ولم يتصف بمقاله فعقله لم يرم عن عقاله وجبال أثقاله مانعه له عن انتقاله

وعلى ذلك وبعد تقرير هذه المسالك فقد عمرت يدها كيلا تعود بها صفرا بعد إعمال السفر أو ترى انها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر واصبحت المراجعة بمجلس وعظ فتحت به باب الحرج إلى إنكار الإمام ابى الفرج وفن الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد والمبرق قبل غمام رحمته والمرعد ولله در القائل لست به ولم تبعد والاعتراض بعد ملازم لكن الإسعاف لقصده لازم وعاملة عند الاعتلال بالعدر جازم وإعضاؤه ملتمس وفضله لا يخبو منه قبس وعذرا أيها الفاضل وبعد الاعتذار عن القلم المهذار وإغفال الحذار اقرأ عليهم من طيب السلام ما يخجل أزهار الكمام عقب الغمام ورحمة الله تعالى من ممليه على الكاتب ولعلها تفنأ من عتب العاتب ابن الخطيب فإنى كتبتة والليل دامس وبحر

الظلام طامس وعادة الكسل طبع خامس والناخ بشكوى البرد هامس والذبال المنادم خافت لا يهتدى إليه الفراش المتهافت يقوم ويقعد ويفيق ثم يردد ويرفر ثم يخمد وربما صار ورقة آس أو مبضع آس وربما أشبه العاشق فى البوح بما يخفيه وظهوره من فيه فتميله الآمال وتلويه وتميته النواسم الهفافة بعدما تحييه والمطر قد تعذر معه الوطر وساقه الخطر وفعل فى البيوت المتداعية ما لا يفعل الترك والطرر والنشاط قد طوى منه البساط والجوارح بالكلال تعذر ووظائف الغد تنتظر والفكر فى الأمور السلطانية جائل وهى بحر هائل ومثلى مقنوع منه باليسير ومعذور فى قصر الباع وضعف المسير والسلام انتهى

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله ومما صدر عنى فى السياسة حدث من امتاز - 109 باعتبار الأخبار وحاز درجة الأشتهار بنقل حوادث الليل والنهار وولج بين الكمام والأزهار وتلطف لخلج الورد من تبسم البهار قال سهر الرشيد ليله وقد مال فى هجر النبيذ ميله وجهد ندماؤه فى جلب راحته وإمام النوم بساحته فشحت عهادهم ولم يغن اجتهادهم فقال اذهبوا إلى طرق سماها ورسمها وأمهاث قسمها فمن عثرتم عليه من طارق ليل أو غناء سيل أو ساحب ذيل فبلغوه والأمنة سوغوه واستدعوه ولا تدعوه فطاروا عجالى وتفرقوا ركباناً ورجالا فلم يكن إلا ارتداد طرف أو فواق حرف وأتوا بالغنيمة التى اكتسحوها والبضاعة التى ربحوها يتوسطهم الأشعث الأعبى واللج الذى لا يعبر شيخ طويل القامة ظاهر الاستقامة سبلته مشمطة وعلى أنفه من القبع مطة وعليه ثوب مرقوع لطير الحرق عليه وقوع يهينم بذكر مسموع وبنبىء عن وقت مجموع فلما مثل سلم وما نبس بعدها ولا تكلم فأشار إليه الملك فقعد بعد أن انشمر وابتعد وجلس فما استرق النظر ولا اختلس أنما حركة فكرة معقودة بزمام ذكره ولحظات اعتبره فى تفاصيل أخباره فابتدره الرشيد سائلا وإنحرف إلى مائلا وقال ممن الرجل فقال فارسى الأصل أعجمى الجنس عربى الفصل قال بلدك وأهلك وولدك قال أما الولد فولد الديوان وأما البلد فمدينة الإيوان قال النحلة وما اعملت إليه الرحلة قال أما الرحلة فالاعتبار وأما النحلة فالأمر الكبار قال فك الذى اشتمل عليه دنك فقال الحكمة فنى الذى جعلته أثيرا وأضجعت فيه فراشا وثيرا وسبحان الذى يقول " ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا " البقرة وما سوى ذلك فتبع ولى فيه مصطاف ومرتب قال فتعاقد جدل الرشيد وتوفر كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا اسفر وقال ما رأيت كالليلة أجمع لأمل وأنعم شارد بمؤانسة وارد يا هذا إنى سائلك ولن تخيب بعد وسائلك فأخبرنى ما عندك فى هذا الأمر الذى بلينا بحمل أعبائه وميننا بمراوضة إنائه فقال هذا الأمر قلادة ثقيلة ومن خطة العجز مستقيمة ومفتقرة لسعة الذرع وربط السياسة المدنية بالشرع يفسده الحكم فى غير محله ويكون ذريعة إلى حله ويصلحه مقابلة الشكل بشكله ومن لم يكن سبعا أكلا تداعت سباع إلى أكله

فقال الملك أجملت ففصل وبريت فنصل وكلت فأوصل وانثر الحب لمن يحوصل واقسم السياسة فنونا واجعل لكل لقب قانونا وأبدأ بالرعية وشروطها المرعية فقال رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ومراة العدل الذى عليه جبلك ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التى وهب لك وأفضل ما استدعيت به عونهم وكفايته التى تكفيهم تقويم نفسك عند قصد تقويمهم ورضاك بالسهر لتنويمهم وحراسة كهلمهم ورضيعهم والترفع عن تضييعهم وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها أخذا يحوط مالها ويحفظ عليها كمالها ويقصر عن غير الواجبات أمالها حتى تستشعر عليتها رأفتك وحنانك وتعرف أوساطها فى النصب امتنانك وتحذر سفلتها سنانك وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها أو تخالف دورها أو تجاوز بأمر طاعتك فورها وسد فيها سبل الذريعة وأقر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة وامنع أغنياءها من البطر والبطالة والنظر فى شبهات الدين بالتمشدد والإطالة وليقل فيما شجر بين الناس كلامها ويرفض ما تنبى به أعلامها فإن ذلك يسقط الحقوق ويرتب العقوق وامنعهم من فحش الحرص والشره وتعاهدهم بالمواعظ

التي تجلو البصائر من المره واحملهم من الاجتهاد فى العمارة على أحسن المذاهب وانهم عن التحاسد على المواهب ورضهم على الإنفاق بقدر الحال والتعزي عن الفائت فرده من المحال وحذر البخل على أهل اليسار والسخاء على أولى الإعسار وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر وامنعهم من تأويلها منع القاهر ولا تطلق لهم التجمع على من أنكروا أمره فى نواديبهم وكف عنهم أكف تعديهم ولا تبح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم ولتكن غايتهم فيما توجهت إليه إبايتهم ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم انهاءه إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك المحافظين على أوقاتك وقدم منهم من أمنت عليهم مكره وحمدت على الإنصاف شكره ومن كثر حياؤه من التائب وقابل الهفوة باستتابة المنيب ومن لا يتخطى عندك محله الذى حله فربما عمد إلى المبرم فحله وحسن النية لهم

يجهد الاستطاعة واغتر المكاره فى جنب حسن الطاعة وإن ثار جرادهم واختلف فى طاعتك مرادهم فتحصن لثورتهم وإثبت لغورتهم فإذا سالوا وسلوا وتفرقوا وانسلوا فاحتقر كثرتهم ولا تغل عثرتهم واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا ولا تترك لهم على حلمك اتكالا ثم قال والوزير الصالح أفضل عددك وأوصل مددك فهو الذى يصونك عن الابتذال ومباشرة الانذال ويثب لك على الفرصة وينوب فى تجرع الغصة واستجلاء القصة ويستحضر مانسيته من أمورك ويغلب فيه الرأى بموافقة مأمورك ولا يسعه ما تمكك المسامحة فيه حتى يستوفيه واحذر مصادمة تياره والتجوز فى اختياره وقدم استخارة الله تعالى فى ايثاره وأرسل عيون الملاحظة على آثاره وليكن معروفا بالإخلاص لدولتك معقود الرضى والغضب برضاك وصولتك زاهدا عما فى يدك مؤثرا لكل ما يزلف لديك بعيد الهمة راعيا للأذمة كامل الآلة محيطا بالإيالة رحيب الصدر رفيع القدر معروف البيت نبيه الحى والميت مؤثرا للعدل والإصلاح دريا بحمل السلاح ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها وظهرها وسرحها صحيح العقد متحرزا من النقد جادا عند لهوك متيقظا فى حال سهوك يلين عند غضبك ويصل الإسهاب بمقتضبك قلعا من شكره دونك وحمده ناسبا لك الإصابة بعمده وإن أعيا عليك وجود أكثر هذه الخلال وسبق إلى نقضها شىء من الاختلال فاطلب منه سكون النفس وهدونها وإن لا يرى منك رتبة إلا رأى قدره دونها وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب وهى للفضائل فذلكه الحساب وساو فى حفظ غيبه بين قربه ونأيه واجعل حظه من نعمتك موازيا لحظك من حسن رايه واجتنب منهم من يرى فى نفسه إلى الملك سبيلا أو يقود من عيصه للاستظهار عليك قبيلًا أو من كاتر مالك ماله أو من تقدم لعدوك استعماله أو من سمت لسواك أماله أو من يعظم عليه إغراض وجهك وبهمه نادر وجهك أو من يداخل غير أحبابك أو من ينافس أحدا ببابك

وأما الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة والمكابدة والمخاتلة واستوف عليهم شرائط الخدمة وخذهم بالثبات للصدمة ووف ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه وطاب فى الذب عن ظنك ثناؤه وول عليهم النبهاء من خيارهم واجتهد فى صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم ولا توطنهم الدعة مهادا وقدمهم على حصك وبعوثك مهما أردت جهادا ولا تلين لهم فى الإغماض عن حسن طاعتك قيادا وعودهم حسن المواساة بانفسهم اعتيادا ولا تسمح لأحد منهم فى إغفال شىء من سلاح استظهاره أو عدة اشتهاره وليكن ما فضل من شعبهم وربهم مصروفا إلى سلاحهم وزبهم والتزيد فى مراكبهم وغلمانهم من غير اعتبار لأثمانهم وامنعهم من المستغلات والمتاجر وما تكسب به غير المشاجر وليكن من الغوار اكتسابهم وعلى المغانم حسابهم كالجوارح التى تفسد باعتيادها أن تطعم من غير اصطياها

واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ويملك حركاتها بالتقويم ورتبها بالميزان القويم ومن تتق بإشفاقه على أولادها وبشترى رضى الله تعالى بصره على طاعته وجلادها فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمت إلى مواقف التلف مطيعة دواعى الكلف واثقة منك بحسن الخلف واستيق إلى تمييزهم استباقا وطبقهم طباقا أعلاها من تأملت منه فى المحاربة عنك أخطارا وأبعدهم فى مرضاتك مطارا وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزما ووقارا واستهانته بالعظائم واحتقارا وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جوارا إذا أجدت اختبارا وأشددهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطبارا ومن بلا فى الذى عن لك إخلاء وإمرارا ولحقه الضر فى معارض الدفاع عنك مرارا وبعده من كانت محبته لك أزيد من نجدته وموقع رأية أنفع من موقع صعده وبعدهما من حسن انقياده لأمرائك وإحماده لأرائك ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعله وكان صبره على ما

عراه أكثر من اعتداده بما فعله

واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع ولم يستحى من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائده وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله وأظهر الكراهية لحاله

وأما العمال فإنهم يبنون عن مذهبك وحالهم فى الغالب شديدة الشبه بك فعرفهم فى أمانتك السعادة وألزمهم فى رعيتك العادة وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم فى الاتصاف بالعدل والإنصاف واحلمهم من الحفاية بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية وقفهم عند تقليد الأجراء مواقف الخوف والرجاء وقرر فى نفوسهم أن أعظم ما به إليك تقربوا وفيه تدربوا وفى سبيله أعجموا وأعربوا إقامة حق ودحض باطل حتى لا يشكو غريم مطل ماطل وهو أثر لديك من كل رباب هاطل وكفهم من الرزق الموافق عن التصدى لذنبي المرافق واصطنع منهم من تيسرت كلفته وقويت للرعايا ألفتهم ومن زاد على تأميله صبره وأربى على خبره خبره وكانت رغبته فى حسن الذكر تشف على بنات الفكر واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق فى الإنفاق وعدم الإشفاق والتنافس فى الاكتساب وسهل عليه سوء الحساب وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية دون التقصى والكفاية ومن كان منشوة خاملا ولأعباء الدناءة حاملا وايع من يكون الاعتذار فى أعماله أوضح من الاعتذار فى أقواله ولايفتنك ممن قلده احتلاب الحظ المقنع والتنفق بالسعى المسموع ومخالفة السنن المرعية واتباعه رضاك بسخط الرعية فإنه قد غشك من حيث بلك ورشك وجعل من يمينك فى شمالك حاضر مالك ولا تضمن عاملا مال عمله وحل بينه فيه وبين أمله فإنك تميت رسومك بمجياه وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد والاحتجاج على والد بولد واحرص على أن يكون فى الولاية غريبا ومنتقلة منك قريبا ورهينة لا يزال معها مريبا ولا تقبل مصالحته على شىء اختانه ولو برغبة فثاته فتقبل المصانعة فى أمانتك وتكون مشاركا له فى خيانتك ولا تطل مدة العمل وتعاهد كشف الأمور ممن يرمى

الهمل ويبلغ الأمل

وأما الولد فأحسن آدابهم واجعل الخير دابهم وخف عليهم من إشفائك وحنانك أكثر من غلظة حنانك واكتم عنهم ميلك وأفض فيهم جودك ونيلك ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك وأتبهم على حسن الجواب وسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب وعلمهم الصبر على الضرائر والمهلة عند استخفاف الجرائر وخذهم بحسن السرائر وحب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس وحسن الاصطناع والاحتباس والاستكثار من أولى المراتب والعلوم والسياسات والحلوم والمقام المعلوم وكره إليهم مجالسة الملهمين ومصاحبة الساهين وجاهد أهواءهم عن عقولهم وحذر الكذب على مقولهم ورشحهم إذا أنست منهم رشدا أو هديا وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثديا لتمرزهم على الاعتياد وتحملهم على الازدياد ورضهم رياضة الجياد واحذر عليهم الشهوات فهى داؤهم وأعداؤك فى الحقيقة وأعداؤهم وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت واقدعها إذا هجمت قبل أن يظهر تضعيفها ويقوى ضعيفها فإن أعجزتك فى الصغر الحيل عظم الميل

" إن العصور إذا قومتها اعتدلت ... ولن تلبن إذا قومتها الخشب "

وإذا قدروا على التدبير وتشوفوا للمحل الكبير اياك إن توطنهم فى مكانك جهد إمكانك وفرقهم فى بلدانك تغريبك عبدانك واستعملهم فى بعوث جهادك والنيابة عنك فى سبيل اجتهادك فإن حضرتك تشغلهم بالتحاسد والتبارى والتفاسد وانظر إليهم بأعين الثقات فإن عين الثقة تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقة

وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التى تفرق بها وتجمع وتبصر وتسمع فرضهم بالصدق والأمانة وصنهم صون الجمانة وخذهم بحسن الانقياد إلى ما أثرته والتقليل مما استكثرته واحذر منهم من قربت شهواته وضافت عن هواه لهواته فإن الشهوات تنازعك فى استرقاقه وتشاركك فى استحقاقه وخيرهم من ستر ذلك منه بلطف الحيلة وآداب للفساد محيلة وأشرب قلوبهم أن الحق فى كل ما حاولته واستنزته وأن الباطل فى كل ما جانبته واعتزلته وأن من تصفح منهم أمورك فقد أذنب وياين الأدب وتجنب وأعط من أكددته وأصقت منه ملكه وشددته روحه يشغل فيها بما يعنيه على حسب صعوبة ما يعنيه تغبطهم فيها بمسارحهم وتجم كليلة جوارحهم ولتكن عطايك فيهم بالمقدار الذى لا يبتر أعلامهم ولا يؤسف الأصغر فيفسد أحلامهم ولا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك واترك لمزيدهم فضله من رفدك ولسانك وحذر عليهم مخالفتك ولو فى صلاحك بحد سلاحك وامنعهم من التواثب والتشاجر ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر واستخلص منهم لسرك من قلت فى الإفشاء ذنوبه وكان أصبر على ما ينوبه ولودائعك من كانت رغبته فى وظيفة

لسانك أكثر من رغبته فى إحسانك وضبطه لما تقلد من وديعتك أحب إليه من حسن صنيعتك وللسفارة عنك من حلا الصدق فى فمه وأثره ولو باختطار دمه واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله وعنى بلفظه حتى لا يهمله ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل قليل القول صادق العمل ومن كانت

قسوته زائدة على رحمته وعظمه فى مرضاتك آثر من شحمته ورأيه فى الحذر شديد وتجرزه من الحيل شديد ولخدمتك فى ليلك ونهارك من لانت طباعه وامتد فى حسن السجية باعه وأمن كيده وغدره وسلم من الحقد صدره ورأى المطامع فما طمع واستثقل إعادة ماسمع وكان برينا من الملل والبشر عليه أغلب الخلال ولا تؤنسهم منك بقبیح فعل ولا قول ولا تؤيسهم من طول ومكن فى نفوسهم أن أقوى شفعاثهم وأقرب إلى الإجابة من دعائهم إصابة الغرض فيما به وكلوا وعليه شكلوا فإنك لا تعدم بهم انتفاعا ولا يعدمون لديك ارتفاعا

وأما الحرم فهن مغارس الولد ورياحين الخلد وراحة القلب الذى أجهدته الأفكار والنفس التى تقسمها الإحماد إلى المساعى والإفكار فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم المترفعة عن القيم ما لا يسوءك فى خلدك أن يكون فى ولدك وأحذر أن تجعل لفكر بشر دون بصر اليهن سبيلا وانصب دون ذلك عذابا وبيلا وأرعهن من النساء العجز من بانث فى الديانة والأمانة سبيله وقويت غيرته ونبله وخذهن بسلامة النيات والشيم السنيات وحسن الاسترسال والخلق السلسال وحذر عليهن التغامز والتغاير والتنافس والتخاير وأس بينهن فى الأغراض والتصامم عن الإغراض والمحاباة بالأغراض وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك وأسبل لحرمتك ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال وضيق الاحتمال بكثرة الأعمال وعند الغضب والنوم والفراغ من نصب اليوم واجعل مبيتك بينهن تنم بركاتك وتستتر حركاتك وافصل من ولدت منهن إلى مسكن تختبر به استقلالها وتعتبر بالتفرد خلالها ولا تطلق لحرمة شفاعه ولا تدبيرا ولا تنط بها من الأمر صغيرا ولا كبيرا واحذر إن يظهر على خدمهن فى خروجهن عن القصور وبروزهن من أجمة الأسد الهصور زي بارع ولا طيب للأنوف مسارع واخصص بذلك من طعن فى السن وينس من الإنس

والجن ومن توفر النزوع إلى الخيرات قبله وقصر عن جمال الصورة ورسم بالبله ثم لما بلغ إلى هذا الحد حمى وطيس اسحنفاره وختم حزيه باستغفاره ثم صمت مليا واستعاد كلاما أوليا

ثم قال واعلم يا أمير المؤمنين سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته أنك فى مجلس الفصل ومباشرة الفرع من ملكك والأصل فى طائفة من عز الله تعالى تذب عنك حمايتها وتدافع عن حوزتك كماتها فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزرى منه بضاعة أو يهجم بك رضاك على إضاعة ولتكن قدرتك وقفا على الاتصاف بالعدل والإنصاف واحكم بالسوية واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية وخف إن تقعد بك أناتك عن حزم تعين أو تستفرك العجلة فى أمر لم يتبين وأطع الحجة ما توجهت إليك ولا تحفل بها إذا كانت عليك فانقيادك إليها أحسن من طفرك والحق أحدي من نفرك ولا تردن النصيحة فى وجه ولا تقابل عليها بنجه فتمنعها إذا استدعيتها وتوجب عنك إن استوعبيتها ولا تستدعها من غير أهلها فيشغبك أولو الأغراض بجهلها واحرص على أن لا ينقضى مجلس جلسته أو زمن اختلسته إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة أو وثقت منه فى معادك بفائدة ولا يزهديك فى المال كثرته فتقل فى نفسك أثرته وقس الشاهد بالغانب واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب فالمال المصون أمنع الحصون ومن قل ماله قصرت أماله وتهاون بيمينه شماله والملك إذا فقد خزينه أحنى على أهل الجدة التى تزينه وعاد على رعيته بالإجحاف وعلى جبايته بالإلحاف وساء معتاد عيشه وصغر فى عيون جيشه ومنوا عليه بنصره وأنفوا من الاقتصار على قصره وفى المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه وتربط آمال أهل السلاح به والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافة فتجمع

بالشهووات بين إتلافك وإتلافه واستأنس بحسن جوارها واصرف فى حقوق الله تعالى بعض أطوارها فإن فضل المال عن الأجل فأجل ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عز وجل وما ينفق فى سبيل الشريعة وسد الذريعة مأمول خلفه وما سواه فمتعين تلفه

واستخلص لنواديك الغاصة ومجالسك العامة والخاصة من يلىق بولوج عتبها والعروج لرتبها أما العامة فمن عظم عند الناس قدرة وانشراح بالعلم صدره أو ظهر يساره وكان لله تعالى إخبانه وانكساره ومن كان للفتيا منتصبا وبتاج المشورة معتصبا وأما الخاصية فمن رقت طباعة وامتد فيما يلىق بتلك المجالس باعه ومن تبحر فى سير الحكماء وأخلاق الكرماء ومن له فضل سافر وطبع للذنية منافر ولديه من كل ما تستتر به الملوك عن العوام حظ وافر وصف ألبابهم بمحصول خيرك

وسكن قلوبهم بيمين طيرك وأغنهم ما قدرت عن غيرك
واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعر المتألمة والمصايح المتعلقة وعلى قدر تعاهدها
تبدل من الضياء وتجلو بنورها صور الأشياء وفرغها لتخبير ما يزين مدتك ويحسن من بعد البلاء جدتك
وبعناية الأواخر ذكرت الأول وإذا محيت المفآخر خربت الدول
واعلم إن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان وتخليد الآثار الباقية فى القاصى والبدان فاحرص على ما
يوضح فى الدهر سبلك ويحرز المزية على من قبلك وإن خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر
على القهر ويبدل الإنصاف فى السر والجهر مع التمكن من المال والظهر ويسار الرعية جمال للملك
وشرف وفاقتهم من ذلك طرف فغلب اليق الحالين بمحكك وأولاهما بطعنك وحلك
واعلم أن كرامة الجور دائرة وكرامة العدل متكاثرة والغلبة بالخير
سيادة وبالشر هوانة واعلم إن حسن القيام بالشريعة يحسم عنك نكاية الخوارج ويسمو بك إلى
المعارج فإنها تقصد أنواع الخدع وتورى بتغيير البدع وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء
والسنة اللطيف من الضعفاء واستشعر عند نكتة شعار الوفاء
ولتكن ثقك بالله تعالى أكثر من ثقك بقوة تجدها وكتيبة تنجدها فإن الإخلاص يمنحك قوى لا
تكتسب ويمهد لك مع الأوقات نصرا لا يحتسب
والتمس أبدا سلم من سالمك بنفيس ما فى يدك وفضل حاصل يومك على منتظر غذك فإن أبى
وضحت محجتك وقامت عليه للناس بذلك حجتك فللنفوس على الباغين ميل ولها من جانبه نيل
واستهد فى كل يوم سيرة من يناويك واجتهد أن لا يوازيك فى خير ولا يساويك وأكذب بالخير ما
يشيعه من مساويك ولا تقبل من الإطراء إلا ما كان فيك فضل عن إطالته وحد يزرى على بطالته ولا
تلق المذنب بحميتك وسبك واذكر عند حركة الغضب ذنوبك الى ربك ولا تنس إن رب المذنب
أجلسك مجلس الفصل وجعل فى قبضتك رياش النصل
وتشاغل فى هدنة الأيام بالاستعداد واعلم إن التراخى منذر بالاشتداد ولا تهمل عرض ديوانك
واختبار أعوانك وتحصين معاقلك وقلاعك
وعم ايلتك بحسن اطلاعك ولا تشغل زمن الهدنة بلذاتك فتجنى فى الشدة على ذاتك ولا تطلق
فى دولتك السنة الكهانة والإرجاف ومطاردة الآمال العجاف فإنه يبعث سوء القول ويفتح باب العول
وخذ على المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين حمل الأحداث على الشكوك الخالجة
والمزلات الواجبة فإنه يفسد طباعهم ويغرى سباعهم ويمد فى مخالفة الملة باعهم وسد سبيل
الشفاعات فإنها تفسد عليك حسن الاختيار ونفوس الخيار وابدل فى الأسرى من حسن ملكتك ما
يرضى من ملكك رقابها وقلدك ثوابها وعقابها وتلق بدء نهارك بذكر الله تعالى فى ترفعك وابتدالك
واختم اليوم بمثل ذلك
واعلم أنك مع كثرة حجابك وكثافة حجابك بمنزلة الظاهر للعيون المطالب بالديون لشدة البحث عن
أمورك وتعرف السر الخفى بين أمرك وأمورك فاعمل فى سررك ما لا تستقبح أن يكون ظاهرا ولا
تأنف إن تكون به مجاهرا وأحكم بربك فى الله ونحتك وخف من فوقك يخف من تحتك واعلم إن
عدوك من أتباعك من تناسيت حسن قرضه أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفرضه فأصمت الحجج
وتوق اللجج واسترب بالأمل ولا يحملنك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل ولا تحقرن صغير
الفساد فيأخذ فى الاستئساد واحبس السنة عن التخالى باغتيابك والتشبت بأذيال ثيابك فإن
سوء الطاعة ينتقل من الأعين الباصرة إلى الألسن القاصرة ثم إلى الأيدي المتناصرة ولا تنق
بنفسك فى قتال عدو ناواك حتى تظفر بعدو غضبك وهواك وليكن خوفك من سوء تدبيرك أكثر من
عدوك الساعى فى تبييرك وإذا استنزلت ناجما أو أمنت نائرا هاجما فلا تقلده البلد الذى فيه نجم
وهمى عارضه فيه وانسجم يعظم عليك القدح فى اختيارك والغض من إيثارك واحترز من كيدته فى
حورك ومأمك فانك اكبر همه وليس باكبر همك وجمل المملكة بتأمين الفلوات وتسهيل الأقوات
وتجديد ما يتعامل من الصرف فى البياعات وإجراء العوائد مع الأيام والساعات ولا تبخس عيار قيم
البضاعات ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة وفى احترامها إلا عن الثلاثة ماجورة مال من عدا
طوره طور أهله وتخارق فى الملابس والزينة وفضول المدينة يروم معارضتك بجهله ومن باطن أعداك
وأمن اعتدك ومن أساء جوار رعيتك بإخساره وبذل الأذاية فيهم بيمينه ويساره
وأضر ما منيت به التعادى بين عبدانك أو فى بلد من بلدانك فسد فيه الباب وأسأل عن الأسباب
وانقلهم بوساطة أولى الألباب إلى حالة الأحباب ولا تطوق الأعلام أطواق المنون بهواجس الظنون
فهو أمر لا يقف عند حد ولا ينتهى إلى عد واجعل ولدك فى احتراسك حتى لا يطمع فى افتراسك
ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف وعموده يريد أن ينقصف ومجال الوصايا أكثر مما يصف قال يا أمير

المؤمنين بحر السياسة زاخر وعمر المتمتع بناديك مستاخر فإن أذنت فى فن من فنون الأنس
يجذب بالمقاد إلى راحة الرقاد ويعتق النفس بقدر ذى الجلال من ملكه الكلال
فقال أما وقد استحسننا ما سردت فشأنك وما أردت
فاستدعى عودا فأصلحه حتى حمده وأبعد فى اختباره امده ثم حرك بمه وأطال الجس ثمه ثم
تغنى بصوت يستدعى الإنصات ويصدع الحصة ويستغز الحليم عن وقاره ويستوقف الطير ورزق بنيه
فى منقاره وقال

" صاح ما أعطر القبول بنمه ... أتراها أطالت اللبث ثمه "
" هى دار الهوى منى النفس فيها ... أبد الدهر والأمانى جمه "
" إن يكن ما تارج الجو منها ... واستفاد الشذا وإلا فممه "
" من لطفى بنظرة ولأنفى ... فى رباها وفى تراها بشمه "
" ذكر العهد فانتفضت كأنى ... طرفتنى من الملائك لمه "
" وطن قد نضيت فيه شيايا ... لم تدنس منه البرود مذمه "
" بنت عنه والنفس من أجل من قد ... خلفته خلالاه مغتمه "
" كان حلما فويح من أمل الدهر ... وأعماه جهله وأصمه "
" تأمل العيش بعد أن خلق الجسم ... وبنياه عسير المرمه "
" وغدت وفرة الشبيبة بالشيب ... على رغم أنفها معتمه "
" فلقد فاز سالك جعل الله ... إلى الله قصده ومأمه "
" من بيت من غرور دنيا بهم ... يلدغ القلب أكثر الله همه "

ثم أحال اللحن إلى لون التنويم فأخذ كل فى النعاس والتهويم وأطال الجس فى الثقيل عاكفا
عكوف الضاحى فى المقييل فخاط عيون القوم بخيوط النوم وعمر بهم المراقد كأنما أدار عليهم
الفراق ثم انصرف فما علم به أحد ولا عرف ولما أفاق الرشيد جد فى طلبه فلم يعلم بمنقلبه
فأسف للفراق وأمر بتخليد حكمه فى بطون الأوراق فهى إلى اليوم تتلى وتنقل وتجلى القلوب بها
وتصقل والحمد لله رب العالمين انتهى

قال فى الإحاطة بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته فهذا ما حضر من المنثور وحظه عندي من الإحادة
ضعيف وغرضه كما شاء الله تعالى سخيف لكن الله سبحانه بعباده لطيف انتهى
ومما علق بحفظى من نثره قوله فى تحليته لبعض أهل زمانه هو إمام الفئة وعين أعيان - 110
هذه المائة

وقوله فى وصف فاس نعم العرين لأسود بنى مرين ذات المشاهد التى منها مطرح الجنة - 111
ومسجد الصابرين

" بلد أعارته الحمامة طوقها ... وكساه ريش جناحه الطاووس "
" فكأنما الأنهار فيه مدامة ... وكان ساحات الديار كؤوس "
جمعت ما ولد سام وحام وكثر الالتئام والالتحام واشتد الزحام إلى
أن قال يلقي الرجل أبا مئواه فلا يدعوه لبيته ولا يطعمه من بقله وزيته لا يطرق الضيف حماهم ولا
يعرف اسمهم ولا مسماهم " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم " ص 112 - وقوله فى
وصف مراكش المحروسة ذات المقاصر والقصور وماوى الليث الهصور ومسكن الناصر والمنصور إلى
أن قال ومنارها فى الفلاة بمنزلة وإلى الولاة
ثم بعد كلام إلا أن خرابها هائل وزحامها حرب وائل وعقاربها كثيرة الدبيب منغصة لمضاجعة الحبيب
انتهى ما كتبت من حفظى لطول العهد

وقال رحمه الله تعالى فى وصف مدينة بسطة من كلام لم يحضرنى جميعه الآن محل - 113
خصيب ومنزل رحيب وكفاها مسجد الجنة دليلا على البركة وباب المسك دليلا على الطيب ولها
من اسمها نصيب إذ هى بحر الطعام وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام انتهى
فى ذكر بسطة

ولما أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القلصادى فى رحلته قال سقى الله تعالى أرجاءها
المشركة وأعصانها المورقة شأبيب الإحسان ومهداها بالهدنة والأمان دار تخجل منها الدور وتتقاصر
عنها القصور وتقر لها بالقصور مع ما حوته من المحاسن والفضائل من صحة أجسام أهلها وما طبعوا
عليه من كرم الشمائيل وجسبك فيها من عدم الحرج أن داخلها باب الفرج ثم قال ولله در القائل
" دار مشى الإتيان فى تنجيدها ... حتى تناسب روضها وبنائها "
" مرقومة الجنبات ذات قرارة ... يمتد قدام العيون فضاؤها "

" ما زال يضحك دائما نوارها ... فى وجه ساحته ويلعب ماؤها "

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله ابن الأزرق
فى بسطة حيث الأباطح مشرقة ... أضحت جفونى بالمحاسن مغلقة " وله أيضا فى تورية "

" قل لمن رام النوى عن وطن ... قوله ليس بها من حرج "

فرج الهم بسكنى بسطة ... إن فى بسطة باب الفرج " رجع 114 - ومن نثر لسان الدين رحمه "

الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان جدته وهو
إلى قرة أعيننا وأعين المؤمنين وفلذة كبدنا الذى نصل للقائه الحنين بالحنين وعزنا الذى حللنا من
كنفه بالحرم الأمين وسترنا الذى خلفنا برضاه من أفقده الدهر من كرم البنين ووارثنا المستأثر بعدنا
بطول السنين أمير المسلمين الأسعد المؤيد الموفق الطاهر البر الرحيم الأرضى الكافل الفاضل
حفيدنا محمد ابن ولدنا الرضى وواحدنا الكريم الحفى السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر
الظاهر المقدس جعل الله تعالى من عصمته لزيما يرافقه وأجرى القدر بما يوافق وحفظ عليه
الكمال الذى تناسب فيه خلقه وخلائقه والبر الذى حسنت فيه طرقه وطرائقه
من المستظلة بظلال رضاه وبره المبتهلة إلى الله تعالى فى عز نصره وسعادة أمره الداعية إلى
الله تعالى أن يسترها فى الحياة وما بعدها بسترة وما يفضل عمرها من عمره جدته الثاقبة إليه
كتبته من كنفه العزيز بحمرائه العلية عن الخير الدائم بدوامه واليسر الملازم ببركة أيامه ولا زائد
بفضل الله تعالى إلا الشوق إليه وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه وتجهيز مواكب الدعاء
المقبول من خلفه ومن بين يديه
وقد وصل كتابه العزيز الوفاة والوصول الكريم الجمل والفصول مطلع وجه السرور والجذل ومهدي
قصي الأمل ومجدد العهد بحدِيثه الذى فى ضمنه شفاء الغلل وبرء العلل ومهديا تحفة عافيته وهى
الهدية التى جلت عن المكافأة وترفعت عن المجازاة إنما يجازى عليها من يصل بفضل عادتها
ويوالى بعد الإبداء إعادتها
ووصفتم يا ولدى ما عرفتم من نعم الله التى انثالت عليكم سبحانه وعنايته التى يلقى
ركابكم تسهالها وترحابها واستبشار الجهات بقدمكم الميمون واجتلاء وجهكم الذى فيه للإسلام
قوة العيون وكيف لا يكون ذلك وأنتم ذخرهم العزيز وحزهم الحرير والندرة التى خلصها من معادن
سلفكم الذهب الإبريز فى أيامكم والحمد لله نامت أجانهم وتكيف أمانهم نسأل الله تعالى أن يديم
لنا ولهم نعمة بقائكم ويعلى الدين بعلوكم فى معارج العز وارترقانكم فقابلنا ما قرره سلطانكم
بالحمد والثناء والشكر المتصل على الأبناء ومحضتكم من خالص الدعاء ما يتكفل لكم بالحسينى وما
وعد الله تعالى من نيل الرجاء وتمهيد الأرجاء وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء بنعم الله تعالى
المغدقة والألاء ونسأل من فضلكم وبركم صلة التعريف بمثل هذه الأخبار السارة والأنباء وإتحافنا
بمثلها مع الصباح والمساء وإن كان مجدكم غنيا عن الشبه لمثل هذه الأشياء أدام الله تعالى لكم
اسباب البقاء وكان لكم فى كل حال من إقامة وارترحال بعزة وجهه وقدرته انتهى
وبرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب فإنه يعبر فى كل مقام بما يليق فتارة يترقى فى أدرج
البراعة وطورا يهتك عنان البراعة

شعر لسان الدين

وأما شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية فى الحسن وقد قدمنا فى هذا الكتاب منه
نبذة فى أثناء نثره وكلامه الذى جلبناه وفى مواضع غيرهما جملة مفيدة من شعره رحمه الله
تعالى

وقال رحمه الله تعالى فى الإحاطة ما نصه الشعر ولنثبت جملة من مطولاته وبتله بشيء من
مقطوعاته ونقدم من المطولات أمداح رسول الله صلى الله عليه وسلم تبركا بها فمن ذلك قولى

- " هل كنت تعلم فى هبوب الريح ... نفسا يؤجج لاعج التبريح "
- " أهدتك من شيخ الحجاز تحية ... فاحت لها عرض الفجاج الفيح "
- " بالله قل لى كيف نيران الهوى ... ما بين ريح فى الفلاة وشيخ "
- " وخضيب المنقار تحسب أنها ... نهلت بمورد دمعى المسفوح "
- " باحت بما تخفى وناحت فى الدجى ... فرأيت فى الأماق دعوة نوح "
- " نطقت بما يخفيه قلبى أدمعى ... ولطالما صمتت عن التصريح "
- " عجا لأحفا ن حملن شهادة ... عن خافت بين الضلوع جريح "
- " ولقلما كتبت رواة مدامعى ... فى صفحتها حلية التجريح "
- " جاد الحمى بعدي وأجرع الحمى ... جود تكل به متون الريح "

" هن المنازل ما فؤادي بعدها ... سال ولا وجلي بها بمريح "

" حسبي ولوعا أن أزور بفكرتى ... زوارها والجسم رهن نزوح "

" فأبث فيها من حديث صابتي ... وأحث فيها من جناح جنوحى "

" ودجنة كادت تضل بها السرى ... لولا وميضا بارق وصفيح "

" رعشت كواكب جوها فكأنها ... ورق تقلبها بنان شحيح "

" صابرت منها لجة مهما ارتمت ... وطمت رميت عباها بسبوح "

" حتى إذا الكف الخضيب بأفقه ... مسحت بوجه للصباح صبيح "

" شممت المنى وحمدت إدلاج السرى ... وزجرت للأمال كل سنيح "

" فكأنما ليلي نسيب قصيدتى ... والصبح فيه تخلصى لمديح "

" لما حططت لخير من وطىء الثرى ... بعنان كل مولد وصريح "

" رجمى إله العرش بين عباده ... وأمينة الأرضى على ما يوحى "

" والآية الكبرى التى أنوارها ... ضاءت أشعتها بصفحة يوح "

" رب المقام الصدق والآي التى ... رافت بها أوراق كل صحيح "

" كهف الأنام إذا تقافم معضل ... مثلوا بساحة بابه المفتوح "

" يردون منه على مثابة راحم ... جم الهبات عن الذنوب صفوح "

" لهفى على عمر مضى أنضيته ... فى ملعب للترهات فسيح "

" يا زاجر الوجناء يعتسف الفلا ... والليل يعثر فى فضول مسوح "

" يصل السرى سيقا إلى خير الورى ... والركب بين موسد وطريح "

" لى فى حمى ذاك الضريح لبانه ... إن أصبحت لبنى أنا ابن ذريح "

" وبمهبط الروح الأمين أمانة ... اليمن فيها والأمان لروحي "

" يا صفوة الله المكين مكانه ... يا خير مؤتمن وخير نضيح "

" أقرضت فيك الله صدق محبتى ... أكون تجرى فيك غير ربيح "

" حاشا وكلا أن تخيب وسائلى ... أو أن أرى مسعاي غير نجيح "

" إن عاق عنك قبيح ما كسبت يدي ... يوما فوجه العفو غير قبيح "

" واخجلتى من حلبة الفكر التى ... أغريتها بغرامى المشروح "

" قصرت خطاها بعدما ضمرتها ... من كل موفور الجمام جموح "

" مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثنى على عليك نظم مديحى "

" وإذا كتاب الله أثنى مفصحا ... كان القصور قصار كل فصيح "

" صلى عليك الله ما هبت صبا ... فهفت بغصن فى الرياض مروح "

" واستأثر الرحمن جل جلاله ... عن خلقه بخفى سر الروح "

وأنشدت السلطان ملك المغرب ليله الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة هذه القصيدة

" تألق نجديا فأذكرنى نجدا ... وهاج بى الشوق المبرح والوجدا "

" وميض رأى برد الغمامة مغفلا ... فمد يدا بالتبر أعلمت البردا "

" تبسم فى بحرية قد تجهمت ... فما بذلت وصلا ولا ضريت وعدا "

" وراود منها فاركا قد تعملت ... فأهوى لها نصلا وهدهدا رعدا "

" وأغرى بها كف الغلاب فأصحت ... ذلولا ولم تسطع لإمرته ردا "

" فحلتها الحمراء من شفق الضحى ... نضالها وحل المزن من جيدها عقدا "

" لك الله من برق كان وميضة ... يد الساهر المقرور قد قدحت زندا "

" تعلم من سكانه شيم الندى ... فغادر أجراء الحمى روضة تندى "

" وتوج من نوارها قنن الربى ... وختم من أزهارها القضب الملدا "

" لسرعان ما كانت مناسف للصبا ... فقد ضحكت زهرا وقد خجلت وردا "

" بلاد عهدنا فى قرارتها الصبا ... يقل لذاك العهد أن يالف العهدا "

" إذا ما النسيم اعتل فى عرصاتها ... تناول فيها البان والشيح والرندا "

" فكم فى مجانيى وردها من علاقة ... إذا ما استثيرت أرضها أنبتت وجدا "

" إذا استشعرتها النفس عاهدت الجوى ... إذا التمحتها العين عاقدت السهدا "

" ومن عاشق حر إذا ما استماله ... حديث الهوى العذري صبره عبدا "

" ومن ذابل يحكى المحبين رقة ... فيثنى إذا ما هب عرف الصبا قدرا "

" سقى الله نجدا ما نضحت بذكرها ... على كبدي إلا وجدت لها بردا "

" وأنس قلبي فهو للعهد حافظ ... وقل على الأيام من يحفظ العهد "

" صبور وان لم يبق إلا ذبالة ... إذا استقبلت مسرى الصبا اشتعلت وقدا "

" صبور إذا الشوق استجد كنيبه ... تجوس خلال الصبر كان لها بندا "

" وقد كنت جلدا قبل أن يذهب النوى ... ذمائي وأن يستأصل العظم والجلدا "

" أأجد حق الجب والدمع شاهد ... وقد وقع التسجيل من بعد ما أدى "

" تناثر فى إثر الحمول فريده ... فله عينا من رأى الجوهر الفردا "

" جرى يققا فى ملعب الخد أشهبها ... وأجهد رخص الأسي فجرى وردا "

" ومرتحل أجريت دمعى خلفه ... ليرجعه فاستن فى إثره قصدا "

" وقلت لقلبي طر إليه برقعتى ... فكان حماما فى المسير بها هدى "

" سرقت صواع العزم يوم فراقه ... فلج ولم يرقب سواعا ولا ودا "

" وكحلت عيني من غبار طريقة ... فأعقبها دمعا وأورثها سهدا "

" لى الله كم أهذى بنجد وحاجر ... وأكنى بدعد فى غرامى أو سعدي "

" وما هو إلا الشوق ثار كمينه ... فأذهل نفسا لم تب عنده قصدا "

" وما بى إلا أن سرى الركب موهنا ... وأعمل فى رمل الحمى النص والوخدا "

" وجاشت جنود الصبر والبين والأسى ... لدى فكان الصبر أضعفها جندا "

" ورمت نهوضا واعتزمت مودعا ... فصدنى المقذور عن وجهتى صدا "

" رقيق بدت للمشتترين عيوبه ... ولم تلتفت دعواه فاستوجب الردا "

" تخلف منى ركب طيبة عانيا ... أما أن للعانى المعنى بأن يفدى "

" مخلف سرب قد أصيب جناحه ... وطرن فلم يسطع مراحا ولا مغدى "

" نشدتك يا ركب الحجاز تضاءلت ... لك الأرض مهما استعرض السهب وامتدا "

" وجم لك المرعى وأذعنت الصوى ... ولم تفتقد ظلا ظليلا ولا وردا "

" إذا أنت شافهت الديار بطيبة ... وجئت بها القبر المقدس واللحدا "

" وأنست نورا من جناب محمد ... يجلى القلوب الغلف والأعين الرمدا "

" فنب عن بعيد الدار فى ذلك الحمى ... وأذر به دمعا وعفر به خدا "

" وقل يا رسول الله عبد تقاصرت ... خطاه وأضحى من أحبته فردا "

" ولم يستطع من بعد ما بعد المدى ... سوى لوعة تعتاد أو مدحه تهدى "

" تداركه يا غوث العباد برحمه ... فجوذك ما أجدى وكفك ما أندى "

" أجار بك الله العباد من الردى ... وبواهم ظلا من الأمن ممتدا "

" حمى دينك الدنيا وأقطعك الرضى ... وتوجك العليا وألبسك الحمدا "

" وطهر منك القلب لما استخسه ... فجلله نورا وأوسعه رشدا "

" دعاه فما ولى هداه فما غوى ... سقاه فما يظما جلاه فما يصدنا "

" تقدمت مختارا تأخرت مبعثا ... فقد شملت علياؤك القبل والبعدا "

" وعلة هذا الكون أنت وكل ما ... أعاد فأنت القصد فيه وما أبدا "

" وهل هو إلا مظهر أنت سره ... ليمتاز فى الخلق المكب من الأهدى "

" ففى عالم الأسرار ذاتك تجتلى ... ملامح نور لاح للطور فانهدا "

" وفى عالم الحس اغتديت مبعثا ... لتتشفى من استشفى وتهدى من استهدى "

" فما كنت لولا أن ثبت هداية ... من الله مثل الخلق رسما ولا حدا "

" فماذا عسى يثنى عليك مقصر ... ولم يأل فيك الذكر مدحا ولا حمدا "

" بماذا عسى يجزيك هاو على شفا ... من النار قد أوردته بعدها الخلدا "

" عليك صلاة الله يا كاشف العمى ... ومذهب ليل الروع وهو قد اربدا "

" إلى كم أرانى فى البطالة كانعا ... وعمرى قد ولى ووزري قد عدا "

" تقضى زمانى فى لعل وفى عسى ... فلا عزمه تمضى ولا لوعة تهدا "

" حسام جبان كلما شيم نصله ... تراجع بعد العزم والتزم الغمدا "

" ألا ليت شعرى هل أرانى ناهدا ... أقود القلاص البدن والضامر النهدا "

" رضيع لبان الصدق فوق شملة ... مضمرة وسدت من كورها مهدا "

" فتهدى بأشواقى السراه إذا سرت ... وتحدى بأشعارى الركاب إذا تحدى "

" الى أن أحط بالرجل فى تريك الذى ... تزوع ندا ما رأينا له ندا "

" وأطفئ فى تلك الموارد غلتى ... وأحسب قريبا مهجة شكت البعدا "

" لمولدك اهتز الوجود فأشرق ... قصور بصرى ضاءت الهضب والوهدا "

" ومن رعبه الأوثان خرت مهابة ... ومن هوله إيوان كسرى قد انهدا "

" وغاض له الوادي وصبح عزة ... بيوتا لنار الفرس أعدمها الوقدا "

" رعى الله منها ليلة أطلع الهدى ... على الأرض من آفاقها القمر السعدا "

" وأقرض ملكا قام فينا بحقها ... لقد أحرز الفخر المؤثل والمجدا "

" وحبيا على شط الخليج محله ... يحالف من ينتابها العيشة الرغدا "

" وجاد الغمام العد فيها خلائفا ... مآثرهم لا تعرف الحصر والعدا "

" عليا وعثمانا ويعقوب لا عدا ... رضى الله ذاك النجل والأب والجددا "

" حموا وهم فى حومة البأس والندى ... فكانوا الغيوث المستهلة والأسدا "

" ولله ما قد خلفوا من خليفة ... حوى الإرث عنهم والوصية والعهدا "

" إذا ما أراد الصعب أغرى بنيله ... صدور العوالى والمطهمة الجردا "

" وكم معند أردى وكم تائه هدى ... وكم حكمة أخفى وكم نعمة أبدى "

" أبا سالم دين الإله بك اعتلى ... أبا سالم ظل الإله بك امتدا "

" فدم من دفاع الله تحت وقاية ... كفاك بها أن تسحب الحلق السردا "

" ودونكها منى نتيجة فكرة ... إذا استرشحت للنظم كانت صفا صلدا "

" ولو تركت منى الليلالى صبابه ... لأجهدتها ركضا وأرهقتها شدا "

" ولكنه جهد المقل بلغته ... وقد أوضح الأعذار من بلغ الجهدا "

وقلت أخطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عنان على أثر انصرافه من بابه رحمه الله تعالى

" أبدى لداعى الفوز وجه منيب ... وأفاق من عدل ومن تأنيب "

" كلف الجنان إذا جرى ذكر الحمى ... والبان حن له حنين النيب "

" والنفس لا تنفك تكلف بالهوى ... والشيب يلحظها بعين رقيب "

" رحل الصبا فطرحت فى أعقابه ... ما كان من غزل ومن تشبيب "

" أترى التغزل بعد أن طعن الصبا ... شأنى الغداة أو النسيب نسيبى "

" أنى لمثلى بالهوى من بعد ما ... للوخط فى الفودين أي ذيب "

" لبس البياض وحل ذروة منبر ... منى ووالى الوعظ فعل خطيب "

" قد كان يسترنى ظلام شيبيتى ... والآن يفضحنى صباح مشيبى "

" وإذا الجديدان استجدا أبليا ... من لبسه الأعمار كل قشيب "

" سلنى عن الدهر الخؤون وأهله ... تسلى المهلب عن حروب شيب "

" متقلب الحالات فاخبر تقله ... مهما أعدت بدا إلى تقلاب "

" فكل الأمور إذا اعترتك لربها ... ما ضاق لطف الرب عن مريب "

" قد يخبأ المحبوب فى مكروهها ... من يخبأ المكروه فى المحبوب "

" واصبر على مضر الليلالى إنها ... لحوامل سيلدن كل عجيب "

" واقنع بخط لم تنله بحيلة ... ما كل رام سهمه بمصيب "

" يقع الحريص على الردى ولكم غدا ... ترك التسبب أنفع التسبب "

" من رام نيل الشىء قبل أوانه ... رام انتقال يلملم وعسيب "

" فإذا جعلت الصبر مفزع معضل ... عاجلت علته بطب طيب "

" وإذا استعنت على الزمان بفارس ... لبي نداءك منه خير مجيب "

" بخليفة الله الذى فى كفه ... غيث يروض ساح كل جديب "

" المنتقى من طينة المجد الذى ... ما كان يوما صرفه بمشوب "

" يرمى الصعاب بصعبه فيقودها ... ذللا على حسب الهوى المرغوب "

" ويرى الحقائق من وراء حجابها ... لا فرق بين شهادة ومغيب "

" من آل عبد الحق حيث توشحت ... شعب العلا وربت بأي كتيب "

" أسد الشرى سرج الورى فمقامهم ... لله بين محارب وحراب "

" إما دعا الداعى وثوب صارخا ... ثابوا وأموا حومه الثنوب "

" شهب ثواقب فى سماء عجاجة ... مآثرها قد صح بالتجرب "

" ما شئت فى آفاقها من رامح ... يبدو وكف بالنجيع خضب "

" عجبت سيوفهم لشدة بأسهم ... فتبسمت والجو فى تقطيب "

" نظموا بلبات العلا واستوسقوا ... كالرمح أنبوا على أنبوب "

" تروى العوالى والمعالى عنهم ... أثر الندى المولود والمكسوب "

" من كل موثوق به إسناده ... بالقطع أو بالوضع غير معيب "

" فأبو عنان عن علي نصح ... للنقل عن عثمان عن يعقوب "

" جاءوا كما اتسق الحساب أصله ... وغدا فذاك ذلك المكتوب "

" متجسدا من جوهر النور الذى ... لم ترم يوما شمسه بغروب "

" متألقا من مطلع الحق الذى ... هو نور أبصار وسر قلوب "

" قل للزمان وقد تبسم ضاحكا ... من بعد طول تجهم وقطوب "

" هى دعوة الحق التى أوضاعها ... جمعت من الآثار كل غريب "

" هى دعوة العدل الذى شمل الورى ... فالشاة لا تخشى اعتداء الذيب "

" لو إن كسرى الفرس أدرك فارسا ... ألقى إليه بتاجه المعصوب "

" لما حللت بأرضه مستمليا ... ما شئت من بر ومن ترحيب "

" شمل الرضى فكان كل أفاحة ... تومى بتغر للسلام شنيب "

" وأتيت فى بحر القرى أم القرى ... حتى حطط بمرفأ التقريب "

" فرأيت أمن الله فى ظل التقى ... والعدل تحت سرادق مضروب "

" ورأيت سيف الله مطرور الشبا ... يمضى القضاء بحده المرهوب "

" وشهدت نور الحق ليس بأفل ... والدين والدنيا على ترتيب "

" ووردت بحر العلم يقذف موجه ... للناس من درر الهدى بضروب "

" لله من شيم كآزهار الربى ... غب انثيال العارض المسكوب "

" وجمال مرأى فى رداء مهابة ... كالسيف مصقول الفرند مهيب "

" يا حنة فارقت من غرفاتها ... دار القرار بما اقتضته ذنوبى "

" أسفى على ما ضاع من حظى بها ... لا تنقضى ترحاته ونحيبى "

" إن أشرقت شمس شرقت بعبرتى ... وتفيض فى وقت الغروب غروبى "

" حتى لقد علمت ساجعة الضحى ... شجوى وجانحة الأصيل شجوبى "

" وشهادة الإخلاص توجب رجعتى ... لنعيمها من غير مس لغوب "

" يا ناصر الدين الحنيف وأهله ... أنضاء مسغبة وقل خطوب "

" حقق ظنون بنية فيك فإنهم ... يتعللون بوعدك المرقوب "

" ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا ... بجناب عز من علاك رحيب "

" ودجا ظلام الكفر فى آفاقهم ... أوليس صبحك منهم بقريب "

" فانظر بعين العز من ثغر غدا ... حذر العدا يرنو بطرف مريب "

" نادتك أندلس ومجدك ضامن ... أن لا يخيب لديك ذو مطلوب "

" غصب العدو بلادها وحسامك ... الماضى الشبا مسترجع المغصوب "

" أرض السوابح فى المجاز حقيقة ... من كل قعدة محرب وجنيب "

" يتأود الأسل المثقف فوقها ... وتجيّب صاهلة رغاء نجيب "

" والنصر يضحك كل مبسم غرة ... واليمن معقود بكل سيب "

" والروم فارم بكل نجم ناقب ... يذكى بأربعها شواظ لهيب "

" بذوايل السلب التى تركت بنى ... زيان بين مجدك وسليب "

" وأضف إلى لام الوغى ألف القنا ... تظهر لديك علامة التغليب "

" إن كنت تعجم بالعزائم عودها ... عود الصليب اليوم غير صليب "

" ولك الكتائب كالخمائل أطلعت ... زهر الأسنان فوق كل قضيب "

" فمرنح العطفين لا من نشوة ... ومورد الخدين غير مريب "

" يبدو سداد الرأى فى راياتها ... وأمورها تجرى على تجريب "

" وترى الطيور عصائبا من فوقها ... لحلول يوم فى الضلال عصب "

" هذبتها بالعرض يذكر يومه ... عرض الورى للموعد المكتوب "

" وهى الكتائب إن تنوسى عرضها ... كانت مدونة بلا تهذيب "

" حتى إذا فرض الجلاد جداله ... ورأيت ريح النصر ذات هبوب "

" قدمت سالبه العدو وبعدها ... أخرى بعز النصر ذات وجوب "

" وإذا توسط وصل سيفك عندها ... جزأى قياسك فزت بالمطلوب "

" وتبرأ الشيطان لما أن علا ... حزب الهدى من حزبه المغلوب "

" الأرض إرث والمطامع جمه ... كل يهش إلى التماس نصيب "

" وخلائف التقوى هم وراثها ... فاليكما بالحظ والتعصيب "

" لكأننى بك قد تركت ربوعها ... قفرا بكر الغزو والتعقيب "

" وأقمت فيها مأتما لكنه ... عرس لنسر بالفلاة وذيب "

" وتركت مفلتها بقلب واجب ... رهبا وخذ بالأسى مندوب "

" تبكى نوادبها وينقلن الخطا ... من شلو طاغية لشلو سليب "

" جعل الإله البيت منك مثابة ... للعاكفين وأنت خير مثير "

" فإذا ذكرت كأن هبات الصبا ... فضت بمدرجها لطيمة طيب "

" لولا ارتباط الكون بالمعنى الذى ... قصر الحجى عن سره المحجوب "

" قلنا لعالمك الذى شرفته ... حسد البسيط مزية التركيب "

" ولأجل قطرك شمسها ونجومها ... عدلت من التشريق للتغريب "

" تبدو بمطلع أفقها فضية ... وتغيب عندك وهى فى تذهيب "

" مولاي أشواقى اليك تهزنى ... والنار تفضح عرف عود الطيب "

" بحلى علاك أطلتها وأطبتها ... ولكم مطيل وهو غير مطيب "

" طالبت أفكارى بفرض بديها ... فوفت بشرط الفوز والترتيب "

" متنبىء أنا فى حلى تلك العلى ... لكن شعرى فيك شعر حبيب "

" والطبع فحل والقريحة حرة ... فاقبله بين نجيبه ونجيب "

" هابت مقامك فاطبيت صعايبها ... حتى غدت ذللا على التدريب "

" لكننى سهلتها وأدلتها ... من كل وحشي بكل ربيب "

" إن كنت قد قاربت فى تعديلها ... لا بد فى التعديل من تقرب "

" عذرى لتقصيرى وعجزى ناسخ ... ويجل منك العفو عن تثراب "

" من لم يدن لله فيك بقربة ... هو من جناب الله غير قريب "

ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب وتشتمل على أوصاف من ذكر الحلية التى أرسلها والطلبة التى نصبها فى الهواء للفرسان يرسلون العصى إليها والثيران التى أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها فى صورة القرط من أذناها وهى آخر النظم فى الأغراض السلطانية قصر الله تعالى ألسنتنا على ذكره وشغلها به عن غيره

" شحطت وفود الليل بان به الوخط ... وعسكره الزنجى هم به القبط "

" أتاه وليد الصبح من بعد كبره ... أيولد أجنا ناحل الجسم مشمط "

" كأن النجوم الزهر أعشار سورة ... ومن خطرات الرجم أثناءها مط "

" وقد وردت نهر المجرى سحره ... غوائص فيه مثلما تفعل البط "

" وقد جعلت تغلى بأنملها الفلا ... ويرسل منها فى غدائرة مشط "

" يجف عباب الليل عنها جواهرها ... فيكثر فيها الذهب للحين واللقط "

" فسارت خيالاً مثلها غير أنه ... من البث والشكوى يبين له لقط "

" سرت سلخ شهر فى تلفت مقلة ... على قتب الأحلام تسمو وتنحط "

" لى الله من نفس شعاع ومهجة ... إذا قدحت لم يخب من زندها سقط "

" ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى ... وعن نقطة مفروضة ينشأ الخط "

" فأقسم لولا زاجر الشيب والنهى ... ونفس لغير الله ما خضعت قط "

" لربع لها الأحراس منى بطارق ... مفارقة شمط وأسيافه شمط "

" تناقله كوما سامية الذرا ... ويقذفه شهم من النيق منحط "

" ولولا النهى لم تستهن سبل الهدى ... وكاد وزان الحق يدركه الغمط "

" ولولا عوادى الشيب لم يبرح الهوى ... يهيجه نوء على الرمل مختط "

" ولولا أمير المسلمين محمد ... لهالت بحار الروع واحتجب الشط "

" ينبوب عن الإصباح إن مطل الدجى ... ويضمن سقى السرح إن عظم القحط "

" تقر له الأملاك بالشميم العلا ... إذا بذل المعروف أو نصب القسط "

" أرادوه فارتدوا وجاروه فانتوا ... وساموه فى مرقى الجلالة فانحطوا "

" تبر على المداح غر خلاله ... وما رسموا فوق الطروس وما خطوا "

" تعلم منه الدهر حالية فى الورى ... فأونه يسخو وأونة يسطو "

" ويجمع بين القبض والبسط كفه ... بحكمه من فى كفه القبض والبسط "

" خلأق قد طابت مذاقا ونفحة ... كما مزجت بالبارد العذب إسفنط "

" أسبب الإمام الغالبى محمد ... ويا فخر ملك كنت أنت له سبب "

" وقتك أواقى الله من كل غائل ... فأى سلاح ما المجن وما اللمط "

" لقد زلزلت منك العزائم دولة ... أناخت على الإسلام تجنى وتشتط "

" إبالة غدر ضيع الله ركنها ... ونادى بأهلها التبار فلم يبطوا "

" على قدر جلى بك الله يؤسها ... ولا يكمل البحران أو ينضج الخلط "

" وكانوا نعيم الجنين تقيأوا ... ولما يقع منها النزول ولا الهبط "

" فقد عوضوا بالأثل والخمط بعدها ... وهيهات أين الأثل منها أو الخمط "

" فمن طائح فوق العراء مجدل ... ومن راسف فى القيد أزهبه الضغط "

" وأتحف منك الله أمة أحمد ... أمانا كما يضفو على الغادة المرط "

" أنمت على مهد الأمان عيونها ... فيسمع من بعد السهاد لها غط "

" وصر صدق الدنيا فلما رحمتها ... تراحم مرثاد عليها ومختط "

" وأحكمت عقد السلم لم تأل بعده ... وجاء فصيح العقد واستوثق الربط "

" وأيقن مرثاب وأصبح نافر ... وأذعن معتاص وأقصر مشتط "

" ولله مبناك الذى معجزاته ... سمت أن توافيها الشفاه أو الخط "

" وأنست غريب الدار مسقط رأسه ... ومن دون فرخيه القتادة والخرط "

" تناسبت الأوضاع فيك وأحكمت ... على قدر حتى الأرائك والبسط "

" فجاء على وفق العلا رائق الحلى ... كما سمط المنظوم أو نظم السمط "

" ولله إغذار دعوت له الورى ... فهبوا لداعيه المهيب وإن شطوا "

" تقودهم الزلفى ويدعوهم الرضى ... ويحدوهم الخصب المضاعف والغبط "

" وأغريت بالبهمة العلاج تحفيا ... فلم يذخر الشىء الغريب ولا السمط "

" أنت صورة معلولة عن مزاجها ... وأصل اختلاف الصورة المزج والخلط "

" قضيت بها دين الزمان ولم يزل ... أكد كذوب الوعد بلوى وبشتط "

" وأرسلت يوم السبق كل طمرة ... كما قذف الملمومة النار والنفط "

" رنت عن كحيل كالغزال إذا رنا ... وأوفت بهاد كالظلمة إذا يعطو "

" وقامت على منحوته من زبرجد ... تخط على الصم الصلاب إذا تخطو "

" وكل عتيق من تماثل رومة ... تأنق فى استخطاطه القس والقمط "

" وطاعنة نحر السكاك أعانها ... على الكون عرق واشج ولحى سبط "

" تلقف حيات العصى إذا هوت ... فتعبانها لا يستقيم له سرط "

" أزرت بها بحر الهواء سفينة ... على الجو لا الجودي كان لها حط "

" وطاردت مقدم الصوار بجارج ... يصاب به منه الصماخ أو الإبط "

" متين الشوا فى رأسه سمهرية ... مقصرة عنهن ما ينبت الخط "

" وقد كا ذا تاج فلما تعلقا ... بسامعتيه زانه منهما قرط "

" وجىء بشبل الملك ينجد عزمه ... عليه الحفاظ الجعد والخلق السبب "

" سمحت به لم ترع فرط ضنانه ... وفى مثلها من سنة يترك الفرط "

" فأقدم مختارا وحكم عاذرا ... ولم يشتمل مسك عليه ولا ضبط "

" ولو غير ذات الله رامته نضضت ... فنا كالأفاعى أو دونهما الرقط "

" وأسد نزال من ذؤابه خزرج ... بهاليل لا روم القديم ولا قبط "

" جلادهم مننى إذا اشتجر الوغى ... كأن رعاء بالعضاه لها خبط "

" كتائب أمثال الكتاب تتاليا ... فمن بيضا شكل ومن سمرها نقط "

" دليلهم القرآن يا حبذا الهدى ... ورهطهم الأنصار يا حبذا الرهط "

" وبيض كأمثال البروق غمامها ... إذا وشحت سحب القتام دم عبط "

" ولكنه حكم يطاع وسنة ... وأعمال بر لا يليق بها الحبط "

" وربت نقص للكمال ماله ... ولا غرو فالأقلام يصلحها القط "

" فهنيته صنعا ودمت مملكا ... عزيزا تشيد المعلوات وتختط "

" ودون الذى يهدي ثناؤك فى الورى ... من الطيب ما تهدي الألوة والقسط "

" رضيت من لم يرض بالله حاكما ... ضلالا فلله الرضى وله السخط "

" حياتك للإسلام شرط حياته ... ولا يوجد المشروط إن عدم الشرط "

هذا كاف فى المطولات لنجلب منها عرضا يدل على حبوبها وتحف منها أنفس الطرفاء بمطوبها
منقولة من الكتاب المسمى ب أبيات الأبيات ومن الكتاب المسمى ب الصيب والجهام
فمن التورية على طريقة المشاركة قولى

" مضجعى فيك عن فتادة بروي ... وروى عن أبى الزناد فؤادي "

" وكذا النوم شاعر فيك أمسى ... من دموعى بهيم فى كل وادي "

" ولما رأت عزمى حثيثا على السرى ... وقد رابها صبري على موقف البين "

" أت بصحاح الجوهرى دموعها ... فعارضت من دمعى بمختصر العين " وفى هذا المعنى "

" كتبت بدمع عيني صفح خدي ... وقد منع الكرى هجر الخليل "

" وراب الحاضرين فقلت هذا ... كتاب العين ينسب للخليل "

ومن الأغراض الطريفة فيها

" تعجلت وخط الشيب فى زمن الصبا ... لخوضى غمار الهم فى طلب المجد "

" فمهما رأيتم شيبة فوق مفرقى ... فلا تنكروها إنها شيبة الحمد "

ومن التورية بالنجوم والكاتب بيته بيت شرفه

" بأوت على زمنى همه ... فأعتبنى الزمن العاتب "

" وشرفنى الله فى موطنى ... وفى بيته يشرف الكاتب "

وأبدع منها قولى لمن يدعى بشمس الدين

" قل لشمس الدين وقيت الردى ... لم يدع سقمك عندى جلدًا "

رمدت عينك هذا عجب ... أوعين الشمس تشكو الرمدا " وقلت فى عرض التورية بما يظهر من
الأبيات

" أفل الألى كانوا نجو ... ما للورى فالكون مظلم "

" وتناكر الناس الحديث ... الحق واقتقد المعلم "

" أنا كاتب السلطان ما ... طالعت قط كتاب مسلم "

" إلا سخاما قادحا ... فى الدين والله المسلم "

وفى معنى الدعاية مع بعض الطلبة

" قال لى عندما أتى بجدال ... وشكوك على أصول الدين "

" ولسانى بيدل الدال تاء ... عاجز فى الأمور عن تبين "

" التمس مخرجا يوافق قولى ... قلت أحسنت يا جلال التين "

وفى التورية

" اذم ذوى التطفيل مهما أتى ... وإن تكن أجملتهم فاعنه "

يمشى على رجليه مع أنه ... من جنس من يمشى على بطنه " وقلت "

" أفقد جفنى لذيد الوسن ... من لم أزل فيه خليع الرسن "

عذاره المسكى فى خده ... أنبته الله النبات الحسن " وقلت فى رثاء من اسمه حسن "

" أشكو إلى الله من بشى ومن شجنى ... لم أجن من محنتى شيئا سوى محن "

أصابت الحسن العين التى رشقت ... وعادة العين لا تصمى سوى الحسن " وفى الشيب "

" تفر عن الشيب الغوانى تعززا ... كما يعترها إن رأت سام أبرصا "

بدا وضحا فى جده العمر شانيا ... فمن سام شيخا فهو قد سام أبرصا " وقلت فى السها من
النجوم الجوفية

" قالوا السها بادي النحول كأنه ... متستر تبدو مخايل خوفه "

" أنراه يشكو قلت هذا ممكن ... والله يعلم داره من جوفه "

وقلت

" عابوا وقالوا بساقه شعر ... لقد عداه الكمال من ساق "

قلت أنظروا ورد روض وجنته ... وكل ورد مشوك الساق " وقلت فى التضمين "

" رفعت قصة اشتياقى ليحىي ... فزوى الوجه رافضا للفتوه "

ورمى بالكتاب ضعف اهتبال ... قلت " يحيى خذ الكتاب بقوة " " وقلت "

" وذى حيل يعيى التقية أمره ... مكايده فى لجة الليل تسبح "

يدب شبول الليث والليث ساهر ... ويسرق ناب الكلب والكلب ينبح " وقلت "

" لما رأوا كلفي به ودروا ... مقدار ما لى فيه من حب "

قالوا الفتى حلو فقلت لهم ... طلعت حلاوته على قلبى " وقلت ولهما حكاية " " وذي زوجة تشكو فقلت له اسقها ... دواء من الحب الملين للبطن " " فقال أبت شرب الدواء بطبعها ... فقلت اسقها إن عافت الشرب بالقرن " وقلت " " لعنوا برياً من خبائث ظنهم ... فالله يلعن أهل سوق العنبر " " والله لا أوطأت ساقى سوقهم ... أهد الزمان فتلك سوق العن بري " ومن الفكاهات " " ولما دعانى داعى الهوى ... وأخلف ما كنت أملتة " " ولم يبق غير البكا حيلة ... بكيت بمقدار ما نلتة " وقلت وقد رفع للسلطان باكورة بنفسج " " قدم البنفسج وهو نعم الوارد ... قدنم منه إلى طيب زائد " " فسألته ما باله فأجابنى ... والحق لا يبغي عليه شاهد " " أقبلت أطلب من بنان محمد ... صلة فعاد على منه عائد " وقلت من التشبيه " " سهرنا وفى سير النجوم اعتبارنا ... إلى أن ضفا ليل من فوقنا ربط " " فخلنا شهاب الرجم إبرة خائط ... مسوحا وما يبقى من الذنب الخيط " وقلت أودع صديقا أنست " به " فلاحه مثلى ممقوتة ... وإن أعجب البدء منها وراق " " زرعت اللقاء وعالجته ... فلم أستفد منه إلا الفراق " ومن تضمين المثل " " لا تهج بالذكر فى كبدى ... نار وجد شقى محتمله " " ويقول الناس فى مثل ... لا تحرك من دنا أجله " ومن المدح " " عجا لراحتك الملتة بالندى ... أن لا تكون على الغمام غماما " " يهمني ووجهك نوره متألق ... والقطر إن سحب السحاب أعاما " ومن أبيات المدح " " يا ناصر الدين لما قل ناصره ... ومطلع الجود فى الدنيا وقد أفلا " " لولا التشهد والترداد منك له ... لم يسمع الناس يوما من لسانك لا " ومن أوصاف صنيع سلطانى " " ماذا أحدث فى صنيع خلافة ... هشتت إليه الشهب فى آفاتها " " فكأنما الجوزاء حين تعرضت ... شدت لتخدم فيه عقد نظاقها " ومن قصيدة فى وصف فرس " " فبواته من مهجتي متبوا ... خفيا على سر الفؤاد المكتم " " ويا عجباً منى وفرط تشيعي ... أهيم بوجدي فيه وهو ابن ملجم " ومن الحماسة فى التورية " بالمنطق " حتى إذا فرض الجلاد جداله ... ورأيت ريح النصر ذات هبوب " " قدمت ساليه العدو وبعدها ... أخرى بعز النصر ذات وجوب " " وإذا توسط حد سيفك عندها ... جزأي قياس فزت بالمطلوب " وفى خاتمة قصيدة " " ما ضرني إن لم أجد متقدما ... السبق يعرف آخر المضمار " " ولئن غدا ريع البلاغة بلقعا ... فلرب كنز فى أساس جدار " ومن المدح " " إن أبهم الخطب جلى فى دجنته ... رأيا يفرق بين الرأى والرشد " " وإن عتا الدهر أبدي من أسرته ... وكفه هدى حيران وري صد " " وإن نظرت إلى لآلاء غرته ... يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد " ومن الأوصاف فى قصيدة " " كم ليال بت فى ظلماتها ... امتطى من نار شوقى فرشا " " وكأن النجم شرب ثمل ... واصل الثمل حتى ارتعشا " ومن التورية بالكفتين من الحيل العددية " " لا عدل فى الملك إلا وهو قد نصبه ... وصير الخلق فى ميزانه عصبه " " والكفتان ترى من كفه درتا ... أن تخرج العدد المجهول للطلبه " وفى رجل يحتال على الولاية " " حلفت لهم بأنك ذو يسار ... وذو ثقة وبر فى اليمين " " ليستندوا اليك بحفظ مال ... فتأكل باليسار وباليمين " وقلت ولهما حكاية تظهر من الأبيات " " قلت لما استقل مولاي زرعى ... ورأى غلة الطعام قليلة " " دمننى لانتجاعى الحرث قلت ... فهى اليوم دمنه وكليلة " ومما صدرت به كتابا لأحد الفضلاء " " يا من تقلد للعلاء سلوكا ... والفضل صير نهجه مسلوكا " " كاتبتنى متفضلا فملكننى ... لا زلت منك مكاتبنا مملوكا " وقلت فى عرض يظهر منه " " جلس المولى لتسليم الورى ... ولفصل البرد فى الجو احتكام " " فإذا ما سألوا عن يومنا ... قلت هذا اليوم برد وسلام " وقلت من التورية " " يا مالكى بخلال ... تهدي إلى القلب حيره " " أضرمت قلبى نارا ... يا مالك بن نويره " وقلت فى التورية "

" أضاف إلى الجفون السود شعرا ... كجنج الليل أو صيغ المداد "

" فقلت أمير هذا الحسن تزكو ... الأجر له بتكثير السواد " وقلت أيضا "

" بأبى بدر غزاني ... مستبيحا شرح صدرى "

" فأنا اليوم شهيد ... الحب من غزوة بدر " وقلت ولهما حكاية "

" أيا ليلة بالخصب لم تأل شهرة ... كما اشتهرت فى فضلها ليلة القدر "

" فأمن قلب اللوز من علة النوى ... وأصبح فيها التين منشرح الصدر " ومن النزعات المشرقية فى "

التورية

" يا قائدي نحو الغرام بمقلة ... نفقت حلاوتها بكل فؤادي "

" ماذا جنبت على من مفض الهوى ... الله ينصف منك يا قوادي "

ومن هذا النمط المشرقى

" وقالت حلقت الكس منى بنورة ... فقلت لها استنصرت من ليس ينصر "

" ألا فابلغى عنى فديتك واصدقى ... محلق ذاك الكس أنى مقصر " ومنها "

" قال لى والدموع تنهل سحا ... فى عراض من الخدود محول "

" بك ما بى فقلت مولاي عافاك ... المعافى من عبرتى ونحولى "

" أنا جفني القريح يروى عن الأعمش ... والجفن منك عن مكحول " ومن أبيات التورية أو ما داخلته "

" فى مصر قلبى من خزائن يوسف ... حب وعير مدامعى تمثاره "

" حليت شعرى باسمه فكانه ... فى كل قطر حله ديناره " ومن المدح أيضا ولا أستحضر لقبه "

" رأيت بكفك اعتبارا ... بأسا وندى ما إن يبارى "

" فقلت وقد عجبت منها ... يا بحر متى تدعو نوارا " وقلت مما يجرى مجرى الحكم "

" إن الهوى لشكاية معروفة ... صبر التصبر من أجل علاجها "

" والنفس إن ألقت مرارة طعمه ... ضمنت بذاك له صلاح مزاجها " ومن الغرائب فى الأوصاف "

" كأنما الروض ملك ... باهى به جلساه "

يرضى النديم فمهما ... سقى الرياض كساه " وفي غرض النسب "

" أصبح الخد منك جنة عدن ... مجتلى أعين وشم أنوف "

ظللت من الجفون سيوف ... جنة الخلد تحت ظل السيوف " وقلت فى النسب "

" أرسلت طرفى فى حلاك بنظرة ... هى كانت السبب الغريب لما بى "

" وأراك بالعبرات قد عاقبتها ... ليس الرسول بموضع لعقاب " ومن تحسين القبيح "

" وأحول يعدي القلب سهم جفونه ... فتضحى صحبجات القلوب به مرضى "

" رأى الحسن أن اللحظ منه مهند ... فحرفه كيما يكون له أمضى " ومن النزعات الحسنة "

" من لى بذكرى كلما أوجزتها ... تمحو سلوى واشتياقى تثبت "

" وسحاب دمع كلما أمطرته ... غير الفتاد بمضجعى لا يثبت " ومن النسب "

" جاء العذار بطل غير ممدود ... فمنتهى الحسن منه غير محدود "

" ناديت قلبى إذ لاحت طلائعه ... يا صبر أيوب هذا درع داود " وفى نقيضه "

" ما ضر منى أن أخلفت موعودي ... وروض خدك أضحى ذاوي العود "

" وقال قوس عذار فوق صفحته ... سفينة الحسن قد حطت على الجودي "

ومن التضمين

" يا من بأكناف فؤادي ريع ... قد ضاق بى عن حبك المتسع "

" ما فيك لى جدوى ولا أروعى ... شح مطاع وهوى متبع " ومن الأغراض المخترعة "

" أنكرت لما أطل عارضه ... فقال لى حين رابه نظرى "

" ألم تقل لى بأننى قمر ... فانظر إلى وير أرنب القمر " ومن التضمين "

" يا كوكب الحسن يا معناه يا قمر ... يا روضة المتناهى الريع يا ثمرة "

" أمرتنى بسلو عنك ممتنع ... مأمور حسنك لما يقض ما أمره " وقلت "

" لما رضيت بفرقتى وبعادي ... وصرمت آمالى وخت ودادي "

" لاعنت أم الصبر فيك وبعده ... ورثت للأشجان كنز فؤادي "

" فالصبر منى أجنبي بعدها ... ولواعج الأشجان من أولادي " ومن الأغراض المشرقية "

" سار بى للأمير يشكو اعتراضى ... يوسف والشهود أبناء جنسه "

" قال لى ما تقول قلت مجيبا ... لم نخف من نكاله أو لحبسه "

" حصص الحق يا خوند فدعنى ... أنا راودت يوسف عن نفسه " ومن الأوصاف "

" بثنا نطرح هم القحط ليلتنا ... وأيد الهم والسهد البراغيثا"
 وكان يحمد ما كنا نكابه ... من المشقة لو أن البراغيثا " وفى قريب من المعنى "
 " وقالوا بدت منكم على الجسم حمرة ... فقلت براغيث لكم رطونا "
 عدت نحونا ليلا ومن بعدنا اغتدت ... كما رقصت فى القلو بزر قطونا " ومن التضمين "
 " قال جوادى عندما ... همزت همزا أعجزه "
 إلى متى تهمزنى ... " ويل لكل همزه " وفى رثاء السلطان أبى الحجاج رحمه الله تعالى "
 " غبت فلا عين ولا مخبر ... ولا انتظار منك مرقوب "
 يا يوسف أنت لنا يوسف ... وكلنا فى الحزن يعقوب " وقلت ولهما حكاية "
 " طال حزنى لنشاط ذاهب ... كنت أسقى دائما من حانه "
 وشباب كان يندى نضره ... نزل الثلج على ربحانه " وقلت وقد أعجبنى نشاط ولدي "
 " سرق الدهر شبابي من يدي ... ففؤادي مشعر بالكمد "
 " وحمدت الأمر إذ أبصرته ... باع ما أفقدنى من ولدي "
 وقلت ولهما حكاية
 " قلت للشيب لا يربك جفائى ... فى اختصاري لك البرور ومقتك "
 أنت بالعتب يا مشيبي أولى ... جئتني غفلة وفى غير وقتك " ومما خططه فى رملة نزلتها "
 " أقمنا برهة ثم ارتحلنا ... كذاك الدهر حال بعد حال "
 " وكل بداية فإلى انتهاء ... وكل إقامة فإلى ارتحال "
 ومن سام الزمان دوام أمر ... فقد وقف الرجاء على المحال " وقلت أيام مقامى بسلا "
 " أيا أهل هذا القطر ساعده القطر ... بليت فدلونى لمن يرفع الأمر "
 تشاغل بالدينا ونمت مفرطا ... وفى شغلى أو نومتى سرق العمر " وقلت والبقاء لله وحده وبه "
 نختم الهذر
 " عد عن كيت وكيت ... ما عليها غير ميت "
 " كيف ترجو حالة البقيا ... لمصباح وزيت "
 انتهى ما نقلته من الإحاطة من ترجمة نظمه وبعض ما ذكر هنا قد تقدم وكررت لكونه بلفظه فى
 الإحاطة وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرا ولنعزز
 ذلك هنا بذكر ما لم يتقدم ذكره إذ نظمه بحر لا ساحل له ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا
 المحل من الإحاطة ما صورته ولوالدى أيضا المترجم به رحمه الله تعالى فى سكين الأضحى
 لسلطانه أبى الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية
 " لي الفخر إن أبصرتنى أو سمعت لى ... على كل مصقول الغرارين مرهف "
 كفانى فخرا أن ترانى قائما ... بسنة إبراهيم فى كف يوسف " ومقطوعاته كثيرة لم يتضمن هذا "
 الديوان منها إلا القليل بسبب الاختصار ومن أراد الوقوف على جملتها فعليه بكتاب الصيب والجهام
 فى شعره رحمه الله تعالى قال ذلك ولده على لطف الله تعالى به أمين انتهى
 فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى
 " عسى خطرة بالركب يا حادى العيس ... على الهضبة السماء من قصر باديس "
 " لنظفر من ذاك الزلال بعله ... وننعم فى تلك الظلال بتعريس "
 " حبست بها ركبي فوفا وإنا ... عقدت على قلبى بها عقد تحبيس "
 " لقد رسخت أي الجوى فى جوانحى ... كما رسخ الإنجيل فى قلب قسيس "
 " بميدان جفنى للسهاد كتيبة ... تغير على سرح الكرى فى كراديس "
 " وما بى إلا نفحة حاجرية ... سرت والدجى ما بين وهن وتغليس "
 " ألا نفس يا ريح من جانب الحمى ... تنفس من نار الجوى بعض تنفيس "
 " ويا قلب لا تلق السلاح فرما ... تعذر فى الدهر اطراد المقاييس "
 " وقد تعبت الأيام بعد عتابها ... وقد يعقب الله النعيم من البوس "
 " ولا تخش لج الدمع يا خطرة الكرى ... إلى الجفن بل قيسى على صرح بلقيس "
 " تقول سليمانى ما لجسمك شاحبا ... مقالة تائب يشاب بتانيس "
 " وقد كنت تعطو كلما هبت الصبا ... بريان فى ماء الشيبية مغموس "
 " ومن رايح الأيام يا ابنة عامر ... بجوب الفلا راحت يدها بتفليس "
 " فلا تحسبى والصدق خير سجية ... ظهور النوى إلا بطون النواميس "
 " وقفراء أما ركبها فمضلل ... ومربعا من أنس غير مأنوس "

" سحبنا بها من هضبة لقرارة ... ضللا وملنا من كناس الى خيس "

" إذا ما نهضنا عن مقيل غزالة ... نزلنا فعرسنا بساحة عريس "

" أدرنا بها كأسا دهاقا من السرى ... أملنا بها عند الصباح من الروس "

" وحانة خمار هदानا لقصدها ... شميم الحميا واصطكاك النواقيس "

" تطلع ربانها من جداره ... يهينم فى جنح الظلام بتقديس "

" بكرنا وقلنا إذ نزلنا بساحة ... عن الصافنات الجرد والضر العيس "

" أيا عابد الناسوت إنا عصابه ... أتينا لتثليث بلى ولتسديس "

" وما قصدنا إلا المقام بحانه ... وكم ألبس الحق المبين بتلبيس "

" فأنزلنا قوراء فى جنباتها ... محارِب شتى لاختلاف النواميس "

" بدرنا بها طين الختام بسجدة ... أردنا بها تجديد حسرة إبليس "

" ودار العذارى بالمدام كأنها ... قطيع تهادى فى رياض الطواويس "

" وصارفنا فيها نزارا بمثله ... كأننا ملأنا الكاس ليلا من الكيس "

" وقمنا نشاوى عندما متع الضحى ... كما نهضت غلب الأسود من الخيس "

" فقال لبئس المسلمون ضيوفنا ... أما وأبيك الحبر ما نحن بالبيس "

" وهل فى بنى مثواك إلا ميرز ... بحلية شورى أو بحلقة تدريس "

" إذا هز عسال البراعة فاتكا ... أسال نجيع الحبر فوق القراطيس "

" يقلب تحت النقع مقلة ضاحك ... إذا التفت الأبطال عن مقل شوس "

" سبيننا عقار الروم فى عقر دارها ... بحلية تمويه وخدعة تدليس "

" لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح ... وهل جائز فى العقل إنكار محسوس "

" رسبت بأقصى الغرب ذخر مضنة ... وكم دره علياء فى قاع قاموس "

وأعربت سوسي بالعذيب وبارق ... على وطن دانى الجوار من السوس " ومن أبدع ما صدر عن "

لسان الدين رحمه الله تعالى لاميته المشهورة التى خاطب بها السلطان حين عاد من المغرب إلى الأندلس وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذى كان خلع منه ويقال إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء إعجابا بها وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التى استولى عليها العدو الكافر أعادها الله تعالى للإسلام وأول هذه القصيدة

الحق يعلو والأباطل تسفل ... والله عن احكامه لا يسأل " قال لسان الدين رحمه الله تعالى "

نظمتها للسلطان أسعده الله تعالى وأنا بمدينة سلا لما انفصل طالبا حقه بالأندلس كان صنع الله تعالى براعة استهلالها ووجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذري وسميتها المنح الغريب فى الفتح القريب ومنها

" وإذا استحال حالة وتبدلت ... فالله عز وجل لا يتبدل "

" واليسر بعد العسر موعود به ... والصبر بالفرج القريب موكل "

" والمستعد لما يؤمل ظافر ... وكفاك شاهد قيدوا وتوكلوا "

" أمحمد والحمد منك سجية ... بحليها دون الورى تتجمل "

" أما سعودك فهى دون منازع ... عقد بأحكام القضاء مسجل "

" ولك السجاي الغر والشيم التى ... بغريبها يتمثل المتمثل "

" ولك الوقار إذا تزلزلت الربى ... وهفت من الروع الهضاب المثل "

" عوذ كمالك ما استطعت فإنه ... قد تنقص الأشياء مما تكمل "

" تاب الزمان إليك مما قد جنى ... والله يأمر بالمتاب ويقبل "

" إن كان ماض من زمانك قد مضى ... بإساءة قد سرك المستقبل "

" هذا بذاك فشيفع الجانى الذى ... أرضاك فيما قد جناه الأول "

" والله قد ولاك أمر عباده ... لما ارتضى بك فيما لا تعزل "

وإذا تغمذك الإله بنصره ... وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل " ومنها "

" وطمعت عن أوطان ملكك راكبا ... متن العباب فأى صبر يجمل "

" والبحر قد حنيت عليك ضلوعه ... والريح تقطع للزفير وترسل "

" ولك الجواري المنشآت قد اغتدت ... تختال فى برد الشباب وترفل "

جوفاء يحملها ومن حملت به ... من يعلم الأنثى وماذا تحمل " ومنها "

" صبحتهم غر الجياد كأنما ... سد الثنية عارض متهلل "

" من كل منجرد أغر محجل ... يرمى الجلاذ به أغر محجل "

" زجل الجناح إذا أجد لغاية ... وإذا تغنى للصهيل فلبيل "

" جيد كما التفت الظليم وفوقه ... أذن ممشقة وطرف أكحل "

" فكأنما هو صورة فى هيكل ... من لطفه وكأنما هو هيكل "

ومنها

" وخليج هند راق حسن صفائه ... حتى يكاد يعوم فيه الصيقل "

" غرقت بصفحته النمال وأوشكت ... تبغى النجاة فأوثقتها الأرجل "

" فالصرح منه ممرد والصفح ... منه مورد والشط منه مهذل "

" ويكل أزرق إن شكت الحاظه ... مرة العيون فبالعجاجة تكحل "

" متأود أعطافه فى نشوة ... مما يعل من الدماء وينهل "

" عجبا له أن النجيع بطرفه ... رمد ولا يخفى عليه مقتل " ومنها "

" لله موقفك الذى وثباته ... وثباته مثل به يتمثل "

" والخييل خط والمجال صحيفة ... والسمر تنقط والصوارم تشكل "

" والببيض قد كسرت حروف جفونها ... وعوامل الأسل المثقف تعمل "

" لله قومك عند مشتجر القنا ... إذ ثوب الداعى المهيب وأقبلوا "

" قوم إذا لفح الهجير وجوههم ... حجبا برايات الجهاد وظلوا " وهى طويلة لم يحضرنى الآن منها "

سوى ما كتبته

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله

" يا إمام الهدى وأي إمام ... أوضح الحق بعد إخفاء رسمه "

" أنت عبد الحليم حلمك نرجو ... فالمسمى له نصيب من اسمه " وقال يخاطب عبد الواحد بن "

زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان إفريقية مودعا

" أبا مالك أنت نجل الملوك ... غيوت الندى وليوت النزال "

" ومثلك يرتاح للمكرمات ... وما لك بين الورى من مثال "

" عزيز بأنفسنا ان نرى ... ركابك مؤذنة بارتحال "

" وقد خبرت منك خلقا كريما ... أناف على درجات الكمال "

" وفازت لديك بساعات أنس ... كما زار فى الليل طيف الخيال "

" ولولا تعللنا أننا ... نزورك فوق بساط الجلال "

" ونبغ فيك الذى نبتغى ... وذاك على الله سهل المنال "

" لما فترت أنفوس من أسى ... ولا برحت أدمع فى انهمال "

" تلقتك حيث حللت السعود ... وكان لك الله فى كل حال "

وتوفى أبو مالك المخاطب بهذا فى بلاد الجريد سنة 750

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى

" ماذا أحدث عن بحر سبحت به ... من البحار فلا إثم ولا حرج "

" دحاه مبتدع الأشياء مستويا ... ما إن به درك كلا ولا درج "

" حتى إذا ما المنار الفرد لاج لنا ... صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرج "

" قربت من عامر دارا ومنزلة ... والشاهد العدل هذا الطيب والأرج " وقال رحمه الله تعالى "

" كأننا بتامسنا نجوس خلالها ... وممدودها فى سيرنا ليس يقصر "

" مراكب فى البحر المحيط تخبطت ... ولا جهة تدري ولا البر تبصر "

وقال سامحه الله تعالى وهو مكتوب بالمدرسة التى بناها السلطان أبو الحجاج ابن نصر رحمه الله تعالى

" ألا هكذا تبنى المدارس للعلم ... وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم "

" ويقصد وجه الله بالعمل الرضى ... وتجنى ثمار العز من شجر العزم "

" تفاخر منى حضرة الملك كلما ... تقدم خصم فى الفخار الى خصم "

" فأجدى إذا ضن الغمام من الحيا ... وأهدى إذا جن الظلام من النجم "

" فيا ظاعنا للعلم يطلب رحله ... كفيت اعتراض البيد أو لجج اليم "

" ببابى حط الرحل لا تنو وجهة ... فقد فزت فى حال الإقامة بالغنم "

" فكم من شهاب فى سمائى ثاقب "

" ومن هالة دارت على قمر تم "

" يفيضون من نور مبين إلى هدى ... ومن حكمه تجلو القلوب إلى حكم "

" جزى الله عنى يوسف خير ما جزى ... ملوك بنى نصر عن الدين والعلم "

وقال رحمه الله تعالى مررت يوما مع شيخنا أبى البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة حرسها الله تعالى فأنشدنى من نظمه

" غرناطة ما مثلها حضره ... الماء والبهجة والخضرة "

واستجازنى رحمه الله تعالى فقلت

" سكانها قد أسكنوا جنة ... فهم يلقون بها نضرة "

وقال فى تورية طبية

" إنى وإن كنت ذا اعتلال ... رث القوى بين الهزال "

" فى عارض التيس لى شفاء ... فكيف فى عارض الغزال "

وقال رحمه الله تعالى يخاطب شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق موطننا على بيت المشاركة فى العذار

" أما والذى تبلى لديه السرائر ... لما كنت أرضى الخسف لولا الضرائر "

" غدوت لضم ابن الريب فريسة ... أما ثار من قومي لنصري ثائر "

" إذا التمست كفى لديه جرايتى ... كأنى جان أوبقته الجرائر "

" وما كان ظنى أن أنال جراية ... يحكم من جرائها فى جائر "

" متى جاد بالدينار أخضر زائفا ... ودارته دارت عليها الدوائر "

" وقد أخرج التعنيت كيس مرارتى ... ورقت لبلواي النفوس الأخير "

" تذكرت بيتا فى العذار لبعضهم ... له مثل بالحسن فى الأرض ثائر "

" وما اخضر ذاك الخد نبتا وإنما ... لكثرة ما شقت عليه المرائر "

" وجاه ابن مرزوق لدي ذخيرة ... وللشدة العظمى تعد الذخائر "

" ولو كان يدري ما دهاني لساءه ... وأنكر ما صارت إليه المصائر "

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحد الشرفاء

" أعيا اللقاء علي إلا لمحة ... فى جملة لا تقبل التفصيلا "

" فجعلت بابك عن يمينك نائبا ... أهديه عند زيارتى تقبيلا "

" فإذا وجدتك نلت ما أملتة ... أو لم أجدك فقد شفيت غليلا "

ولما دخل رحمه الله تعالى مدينة أنفا ومر منها على دار عظيمة تنسب إلى والي جبايتها عبو من بنى الترجمان قارون قومه وغنى صنفه قال

" قد مررنا بدار عبو الوالى ... وهى تكلى تشكو صروف الليالى "

" أقصدت ربها الحوادث لما ... رشقته بصائبات نبال "

" كان بالأمس واليا مستطيلا ... وهو اليوم ما له من وال "

وقال فى الشيخ ابن بطان الصنهاجي

" لله درك يا ابن بطان فما ... لشهير جودك فى البسيطة جاحد "

" إن كان فى الدنيا كريم واحد ... يزن الجميع فأنت ذاك الواحد "

" أجريت فضلك جعفرأ يحيأ به ... ما كان من مجد فذكرك خالد "

" فالقوم منك تجمعوا فى مفرد ... ولد كما شاء العلاء ووالد "

" وهى الليالى لا تزال صروفها ... يشقى بموقعها الكريم الماجد "

" وبمستعين الله يصلح منك ما ... قد كان أفسده الزمان الفاسد "

وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث

" زحفت إلى ركائب البرغوث ... نم الظلام بركبها المحثوث "

" بالحبة السوداء قابل مقدمى ... لله أي قرى أعد خبيث "

" كسحت بهن ذباب سرح تجلدى ... ليلا فحبل الصبر جد رثيث "

" إن صابرت نفسى أذاه تعبدت ... أو صحت منه أنفت من تحنيث "

" جيشان من ليل وبرغوث فهل ... جيش الصباح لصرختى بمغيث "

وقال يخاطب الوالى محمد بن حسون بن أبى العلاء وصدر بها رسالة

" لم يبق لى جود الولاية حاجة ... فى الأمن أو فى الجاه أو فى المال "

" بعد اللقاء أولو الفضائل بغيتي ... ورأيت هذا القصد شرط كمال "

" أجملته وتشوفت لبيانه ... همم فكنت مفسر الإجمال "

" وخصصت بالإلقاء غيرك غيره ... وجعلت ذكرك شاهد الأعمال "

" للبيست يا ابن أبى العلا قشب الملا ... وتركت أهل الأرض فى أسمال "

" إن دون الفضلاء فضلا معلما ... فلقد أتيت عليه بالإكمال "

" تثني عليك رعيه آمالها ... فى أن تفوز يداك بالأمال "

" أرعبتها هملا فلم يطرق لها ... بمنيع سورك طارق الإهمال "

" من كنت واليه توالتة العلا ... ومن اطرحت فما له من والي "

وقال فى عثمان بن يحيى بن عمر بن روح

" أسمى ذي النورين وجهك فى الوعى ... شمس الضحى حلت بليث عربن "

" إن تفتخر بميرين أرض العدو ... القصوى فإنك أنت فخر ميرين "

وقال رحمه الله تعالى عند وقوفه على مراكش واعتباره بما صار إليه أمرها

" بلد قد غزاه صرف الليالى ... وأباح المصون منه مبيح "

" فالذى خر من بناه قتيل ... والذى خر منه بعض جريح "

" وكأن الذى يزور طبيب ... قد أتى له بها التشريح "

" أعجمت منه أربع ورسوم ... كان قدما بها اللسان الفصيح "

" كم معان غابت بتلك المغانى ... وجمال أخفاه ذاك الضريح "

" وملوك تعبدوا الدهر لما ... أصبح الدهر وهو عبد صريح "

" دوخوا نازح البسيطة حتى ... قال ما شاء ذابل وصفيح "

" حين شبت لهم من البأس نار ... ثم هبت لهم من النصر ريح "

" أثر يندب المؤثر لما ... طال بعد الدنو منه النزوح "

" ساكن الدار روحها كيف يبقي ... جسد بعدما تولى الروح "

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبى محمد صالح النائم

فى ظل صيته رحمه الله تعالى

" يا حفيد الولي يا وارث الفخر ... الذى نال فى مقام وحوال "

" لك يا أحمد بن يوسف جينا ... كل قطر يعيي أكف الرجال "

وقال فى نفاضة الجراب لما خرجت من أسفى سرت إلى منزل ينسب إلى أبى خدو وفيه رجل من بنى المنسوب إليه اسمه يعقوب فألطف وأجزل وأنس فى الليل وطلبنى بتذكرة تثبت عندي معرفته فكتبت له

" نزلنا على يعقوب نجل أبى خدو ... فعرفنا الفضل الذى ما له حد "

" وقابلنا بالبشر واحتفل القرى ... فلم يبق لحم لم ننله ولا زيد "

" يحق علينا أن نقوم بحقه ... ويلقاه منا البر والشكر والحمد " وقال "

" ألقى إلى الأيام فضل مقادتي ... فتجنبي ما بين كد وإرهاق "

" وأتلف بين الخلق والرزق فكرتى ... ولست بخلاق ولست برزاق "

" إذا كنت بالإثراء لى فى تملق ... رضيت بعز النفس فى عز إملاق " وقال "

" لك الملك ملك الحسن فاقض بنا الذى ... تشاء فما يعصى لأمرك واجبه "

" إذا ما كسرى اللحظ من تحت حاجب ... تحكم فى الألباب كسرى وحاجبه " وقال "

" سألنا ربيع العام للعام رحمه ... فضن ولم يسمح بذرة إنعام "

" فقلنا وقد رد الوجوه ولم يبيل ... قليل الحيا فبحت والله من عام " وقال "

" تخونه صرف الزمان وهل ترى ... بقاء لحي أو دواما على أمر "

هو الدهر ذو وجهين يوم وليلة ... ومن كان ذا وجهين يعتب فى غدر " وقال رحمه الله تعالى فى "

شجر الجوز

" انظر إلى ينعى وحسن بسوقى ... يهفو النسيم بقدي الممشوق "

" يجلو اللواظ منظرى حسنا كما ... يجلو ثغور الغايات عروقى " وقال رحمه الله تعالى فى ساق "

" كيف أمنتما على الشرب ظيبا ... لحظه فى القلوب غير أمين "

" راح يسقى فصب فى الكأس نزورا ... ثقة منه بالذى فى العيون "

وقال يخاطب السلطان

" أنت للمسلمين خير عماد ... وملاذ وأي حرز حرز "

" لو رأى ما شرعت لخلق فيه ... عمر الفاضل ابن عبد العزيز "

" لجزى ملكك المبارك خيرا ... وقضى بالشفوف والتبريز "

" فاشكر الله ما استطعت بفعل ... ويقول مطول أو وحيز "

" كل ملك يرى بصحبة أهل ... العلم قد باء بالمحل العزيز "

" فإذا ما ظفرت منهم بإكسير ... ملأت البلاد من إبريز "

والبرايا تبيد والملك يفنى ... أين كسرى الملوك مع أبريز " وقال رحمه الله تعالى "

" ما لى أهدب نفسى فى مطامعها ... والنفس تأنف تهذيبي وتهذي بي "

إذا استعنت على دهرى بتجربة ... تأبى المقادير تجريبي وتجري بي " وقال "

" من لا نصيب لصحبه فى خيره ... وإذا سعى لم يقض حاجة غيره "

فاقصد أباه متى أردت وقل له ... الله يلهمه العزاء بايره " وقال رحمه الله تعالى "

" أمستخرجا كنز العقيق بآماقى ... أناشدك الرحمن فى الرمق الباقى "

فقد ضعفت عن حمل صبرى طاقتى ... عليك وضافت عن زفيري أطواقى " وقال رحمه الله تعالى "

" إذا لم أشاهد منك قبل منيتى ... نهاية آمالى وغاية غاياتى "

" فحسن عزائى حيل بيني وبينه ... وقررة عينى لم تحل بمرأتى "

" شهودك أمنى من عداة خواطري ... وقربك حرزي من توقع آفات "

" فإن لم يكن وصل فهبها إشارة ... فىا حسن شارأتى بها من إشارات "

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا

" دنيا خدعت الذى سفرت له ... عن صفحة لم يحل بها كرم "

" سرقت حظ الإله من يده ... فهان ما كان منه يحترم "

" هذا الذى نال منك ليس له ... منقطع دائم ومنصرم "

" وهبه نال الذى أراد أما ... بين يديه المشيب والهرم "

ولما أورد رحمه الله تعالى قول القائل فى وصف الدنيا

" كلما أنبت الزمان قناة ... ركب المرء فى القناة سنانا "

" وكأنا لم نرض فيها برب ... الدهر حتى أعانه من أعانا "

وقال أثره ما نصه والحق ما قلته من أبيات تناسب ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله

" والله إن لم يداركها وقد وحلت ... بلمحة أو بلطف من لدنه خفى "

" ولم يجد بتلافيا على عجل ... ما أمرها صائر إلا إلى التلف "

فحب الدنيا رأس كل بلية ولولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيته الأولى

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله

" إن رأى الحق فيك منه بقية ... فاتق البعد فيه حق التقيه "

وإذا لم يكن لذاتك رسم ... قائم تلك حالة حقيه " وقوله رحمه الله تعالى "

" فسامح إذا ما لم تغدك عبارة ... وإن أشكلت يوما فخذها كما هيا "

وتلخيص ما دندنت بالقول حوله ... إذا قمت بالباقي فما زلت باقيا " وقال رحمه الله تعالى "

" وفى عالم الأسرار ذاتك تجتلي ... ملامح نور لاج للطور فانهدا "

" وفى عالم الحس اغتديت ميوأ ... لتشفى من استشفى وتهدى من استهدى "

" فما كنت لولا أن أتيت هداية ... من الله مثل الخلق رسما ولا حدا "

وهذه الأبيات فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

وقال رحمه الله تعالى

" حمامة البان ما هذا البكاء على ... مر الليالى وما ذا البث والحزن "

" لا منزل بنت عنه أنت تندبه ... ولا حبيب ولا خل ولا سكن "

" لو كنت تنفث عن شوق منيت به ... إذا لصار رمادا تحتك الغصن "

وقال رحمه الله تعالى مضمنا

" أمت عنك مهما اسطعت كل إرادة ... وإلا فمغنى القوم عنك بعيد "

تكون مريدا ثم فيك إرادة ... إذا لم ترد شيئا فأنت مريد " وقال رحمه الله تعالى "

" تعلقته من دوحة الجود والباس ... قضيبا لعوبا بالرجاء وبالباس "

" ضروبا بضرب للبراعة والقنا ... طروبا بحمل المشرفية والكاس "

" يذكرنيه الصبح عند انصداعه ... جمال رواء فى تارج أنفاس "

" ويبدو لعيني شعره وجبينه ... إذا ما سفحت الخبر فى صفح قرطاس "

وقال رحمه الله تعالى

" أحب لحبها جملى ورحلى ... وعزمى والقتادة والطريقا "

" ومن أخشاه من سبع ولص ... فكيف فريقها سلموا فريقا "

" وكيف أخص باسم الحب إن لم ... أحب لأجلها إلا صديقا "

وقال رحمه الله تعالى وقلت من قصيدة
 " أنا نسخة الأكوام أدمج خطها ... فسر ذوى التحقيق فى طي أوراقى "

" فمن عالم الأشباح ليلى وظلمتى ... ومن عالم الأرواح نورى وإشراقى "

وقال رحمه الله تعالى
 " مولاي مولاي إن أرضاك بذل دمي ... فقد أتيت به أسعى على قدمي "

" وإن تعاطم ذنب قد جنته يدي ... وطال قرعى عليه السن من ندم "

" فهبه لى واغتفر ما كان من خطا ... وزلة وارع لى حبى على القدم "

وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلوية التى وجهها إلى سلا أيام خلف بها أهله وولده
 " بولي الله فابداً وابتدر ... واحد الأحاد فى باب الورع "

ترجمة الولي ابن عاشر
 قلت هذا الولي هو العارف بالله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر أحد الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب وقد زرت قبره بسلا عام تسعة وألف وهو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي نزيل سلا الولي الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال قال ابن عرفة ما أدركت مبرزا فى زماننا هذا إلا الشيخ أبا الحسن المنتصر وأحمد بن عاشر بسلا انتهى

وقال بلدنيا أبو عبد الله ابن سعد التلمساني فى كتابه النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب كان أحد الأولياء الأبدال معدودا فى كبار العلماء مشهورا بإجابة الدعاء معروفا بالكرامات مقدا فى صدور الزهاد منقطعا عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من صالحى العباد ملازما للقبور فى الخلاء المتصل ببحر مدينة سلا منفردا عن الخلق لا يفكر فى أمر الرزق وله أخبار جلييلة وكرامات عجيبه مشهورة ممن جمع له العلم والعمل وألقى عليه القبول من الخلق شديد الهيبة عظيم الوقار كثير الخشية طويل التفكير والاعتبار قصده أمير المؤمنين أبو عنان وارتحل إليه عام سبعة وخمسين وسبعمائة فوقف ببابه طويلا فلم يأذن له وأنصرف وقد امتلأ قلبه من حبه وإجلاله ثم عاود الوقوف ببابه مرارا فما وصل إليه فبعث له بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته فأجابته بما قطع رجاءه منه وأيس من لقائه واشتد حزنه وقال هذا ولى من أولياء الله تعالى حبه الله عنا انتهى

ولما أجرى ذكره لسان الدين فى نفاضة الجراب قال ما ملخصه ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين فرارا عن زهرة الدنيا وعزوافا عنها وإغفاء فى الورع وشهرة بالكشف وإجابة الدعوة وظهور الكرامة أبا العباس ابن عاشر يسر الله لقاءه على تعذره لصعوبة تأتبه وكثرة هيئته قاعدا بين القبور فى الخلاء رث الهيئة مطرق اللحظ كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة قد فر من أهل الدنيا وتطارحهم فهو شديد الاشتمزاز من قاصده مجرمز للوثبة من طارقه نفع الله تعالى به

وقال ابن الخطيب القسمطينى الشهير بابن قنغذ لقيته بسلا سنة 763 وهو على أتم حال فى الورع والفرار من الأمراء والتمسك بالسنة وهو الشيخ الفقيه الولي توفى فى سنة خمس وستين وسبعمائة انتهى وممن انتفع به ونال بركته الولي العارف بالله سيدي ابو عبد الله ابن عباد شارح الحكم وقد ترجمناه فى هذا الكتاب

وقال ابن عباد المذكور فى رسائله وقد كنت قدما خرجت فى يوم مولده صلى الله عليه وسلم صائما إلى ساحل البحر فوجدت هناك سيدي الحاج ابن عاشر رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعامم يأكلونه فأرادوا منى الأكل فقلت إنى صائم فنظر إلى سيدي الحاج نظرة منكرة وقال لى هذا يوم فرح وسرور يستبجح فى مثله الصوم كالعيد فتاملت قوله فوجدته حقا وكأنه أيقظنى من النوم انتهى

وقال ابن قنغذ السابق فى رحلته ما صورته وكان ابن عاشر رحمه الله تعالى فريدا فى الورع ميسرا عليه فى ذلك أتم تيسير محفوظا من كل ما فيه شبهة كثير النفور من الناس وخصوصا أصحاب الولاية فى الأعمال وخرجت على يده تلامذة نجباء أختيار وطريقة أنه جعل إحياء علوم الدين بين عينيه واتبع ما فيه بجد واجتهاد وصدق وانقياد وكان الحججة فى ذلك الطريق وأول اجتماعى به نفر منى فحبسته بيدي وهزته فتبسم ووقف معى وسألنى عن نسبي ودعا لى وطلبت به بما يطعمنى فاعتذر لى بالإقلال ثم قال أمهل فدخل وأخرج لى حبات تين يابسة فى يده اليمنى وغطاها باليد

اليسرى ودفعها إلى وضحك معى وعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه معى لأنه لا ينبسط إلى أحد وحصل لى بذلك فخر لا يدري قدرة إلا من حاول بعضه معه وقصدنى كثير من الخواص فسألنى عن مجلسى معه وما وقع من جوابه وسؤاله وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه فى عام سبعة وخمسين وسبعمائة على لقائه فلم يقدر عليه بوجه وحجبه الله تعالى حتى تبعه يوم جمعة من الجامع الأعظم على قدمه والناس ينظرونه وهو لم يره فرجع ولم يكن قوته إلا من نسخ العمدة فى الحديث وكيف يبيعها ولمن يبيعها ولا يأخذ إلا قيمتها

ولم تزل حالته وبركته فى زيادة إلى إن توفى سنة 765 وسأله بعض الأخيار بمحضري عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصرانى لوجود ذلك من بعضهم فقال المسلم الذى له هذه الدرجة يبرىء من العاهة والنصرانى لا يبرىء ثم قال وهل يبرىء الفقيه من العاهة فقال له نعم ثم نظر يمينا وشمالا ليجد صاحب عاهة فيأتى بالعيان فلم يجد أحدا وكأنه اغتاط لهذا السؤال ثم أخرج يده وقال يأتى لمن يقعد عن الحركة فيحبسه بيده ويقيميه وقد ذهب أمة بعد أن جثا إلى الأرض فى الصفة ثم قال وسئل بعضهم عن هذا وكان السائل نصرانيا فى زي المسلم فقال له الفرق بينهما سقوط الزنار من وسيطك قال فسقط وفضحه الله تعالى وأسلم بسبب ذلك انتهى كلام ابن قنفذ القسطنطينى رحمه الله تعالى

وترجمة ولى الله تعالى سيدي الحاج ابن عاشر نفعنا الله تعالى ببركاته متسعة جدا وكراماته ومناقبه لا نبلغ لها حدا ولا نطيق لها عدا وإنما المعنا بذكره قصدا للتبرك به والله ولى التوفيق وهو الهادى إلى سواء الطريق

رجع الى نظم لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى

فنقول ومن مداعباته رحمه الله تعالى قوله

" ومولع بالكتب يبتاعها ... بأرخص السوم وأغلاه "

" فى نصف الاستذكار أعطيته ... مختصر العين فأرضاه "

ويعنى بمختصر العين الزبیدی فافهم وقال رحمه الله تعالى من قصيدة

" ووالله ما اعتل الأصيل وإنما ... تعلم من شجوي فبان اعتلاله "

وهذا غاية فى المبالغة وحسن التعليل

وقال رحمه الله تعالى وقفت على قبر المعتمد بالله فى مدينة أغمات فى حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبعمائة وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض وقد حفت به سدره وإلى جنبه قبر اعتماد حظية مولاه رميك وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما فأنشدت فى الحال

" قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أولى المهمات "

" لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا ... ويا سراج الليالى المدلهمات "

" وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه ... إلى حياتى لجادت فيه أبياتى "

" أناف قبرك فى هضب يميزه ... فتنتجيه حفيات التحيات "

" كرمت حيا وميتا واشتهرت علا ... فأنت سلطان أحياء وأموات "

" ما رىء مثلك فى ماض ومعتقدي ... أن لا يرى الدهر فى حال ولا آت "

وقد تقدم هذا فى القسم الأول فى الباب السابع منه وكررت هنا والله الموفق

وقال رحمه الله تعالى موربا حين أكل مشرف الدار القابض أي أكل ماله

" مشرف دار الملك ما باله ... منتفخ الجوف شكا نافضا "

" فقيل لى ليس به علة ... لكنه قد أكل القابضا "

وقال

" يا نفس لا تصغى إلى سلوة ... كم أخلف الموعد عرقوب "

" وأنت يا قلبى وصاك ... ابراهيم بالحزن ويعقوب "

وقال فى السعيد أبى بكر ابن السلطان أبى عنان

" أمير كان قمير الدجى ... أفاض الضياء على صفحتيه "

" تملأ قلبى من جبه ... غداة نظرت بعينى إليه "

" فلا بسط الدهر كف الردى ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه "

وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق

" تعلم طيفوري خلال سمييه ... وإن كان منسوباً الى غير بسطام "

" وجاء فقير الوقت لابس خرقة ... فليس براض غير صحبه صوام "

" فديتك لا تردده عنك مخيبا ... ودرسه يا مولاي قصة بلعام "

وقال مما كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور وقد وصل ولده إلى سلا ومنع ابن الخطيب عن لقائه
عذر مرض وكان نزوله بزواية النساك

" صدنى عن لقاء نجلك عذر ... يمنع الجسم عن تمام العبادة "

" واختصرت القرى لأن حظ رحلا ... فى محل الغنى ودار الزهاده "

" ولو أنى احتفلت لم يعن الدهر ... ولا نلت بعض بعض أراده "

" وعلى كل حالة فقصوري ... عادة إذ قبولك العذر عاده "

" لا عدمت الرضى من الله والحسينى ... كما نص وحيه والزيادة "

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشاله لاستنهاض عزمته فى قضاء غرضه

" برئت لله من حولى ومن حيلى ... إن نام عنى وليي فهو خير ولى "

" أصبحت ما لى من عطف أومله ... من غيره فى مهمات ولا بذل "

" ما كنت أحسب أن أرمى بقاصيه ... للهجر أقطع فيها جانب الأمل "

" من بعد ما خلصت نحوى الشفاعة ما ... بين العلا والدجى والبيض والأسل "

" إن كنت لست بأهل للذى طمحت ... اليه نفسى وأهوى نحوه أملى "

" فكيف يلغى ولا ترعى وسيلته ... دخيل قبر أمير المسلمين على "

" من بعد ما اشتهرت حالى به وسرت ... بها الركائب فى سهل وفى جبل "

" والرسل تترى ولا تخفى نتائجها ... عند التأمل من قول ولا عمل "

" ولا لليلى من صبح أطلعه ... كأن همى قد مد الدجنة لى "

" لو أننى بابن مرزوق عقدت يدي ... وكان محتكما فى خيرة الدول "

" لكان كرى قد افضى إلى فرج ... وكان حزنى قد أوفى على جذلى "

" ألمحت بالعتب لم أحذر مواقعه ... أنا الغريق فما خوفى من الليل "

" ولست أجد ما خولت من نعم ... لكنها النفس لا تنفك عن أمل "

" ولست أياس من وعد وعدت به ... وإنما خلق الإنسان من عجل "

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا الحجاج

" أمولاي إن الشعر ديوان حكمه ... يفيد الغنى والعز والجاه من كانا "

" وقد وجد المختار فى الحفل منصتا ... له وحبا كعبا عليه وحسانا "

" وفيما رواه الناقلون وأثبتوا ... بذلك ديوانا صحيحا فديوانا "

" بأن أبا بكر خيلفته الرضى ... وفاروقه الأدنى اليه وعثمانا "

" وأن عليا قدس الله جمعهم ... وكرمنا بالقرب منهم وحيانا "

" لهم فى ضروب القول إذا هم فحوله ... خطاب وشعر يستقران تبيانا "

" وفاض على أهل القريض نوالهم ... فروض روض القول سحا وتهاننا "

" وأنت أحق الناس أن تفعل الذى ... به فعل المختار دينا وإيماننا "

" فما زلت تهدي فى البرية هديه ... وتقضى بما يرضيه سرا وإعلانا "

" وإن قيل قدر المرء ما هو محسن ... فصنعه نظم القول أرفعه شاننا "

وقال موريا

" بنفسى حبيب فى ثناياه بارق ... ولكنها للواردين عذاب "

إذا كان لى منه عن الوصل حاجز ... فدمعى عقيق بالجفون مذاب "

" عذبت قلبى بالهوى فقيامه ... فى نار هجرى دائما وقعوده "

" ولقد عهدت القلب وهو موحد ... فعلام يقضى فى العذاب خلوده "

وقال فى التجنيس

" دعوتك للود الذى جنباته ... تداعت مبانيتها وهمت بأن تهى "

" وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما ... تناءى وهل أسلو حياتى وأنت هى "

" ومن شام من جو الشبية بارقا ... ولم تنه عنه النهى كيف ينتهى "

وقال

" ناديت دمعى إذ جد الرحيل بهم ... والقلب من فرق التوديع قد وجبا "

" سقطت يا دمع من عينى غداه نأى ... عنى الحبيب ولم تقض الذى وجبا "

وقال

" شلير لعمرى أساء الجوار ... وسد على رحيب الفضا "

" هو الشيخ أبرد شيء يرى ... إذا لبس البرنس الأبيض "

وقال قلت أخاطب بعض من أدل عليه وما أولانى بذلك

" إذا قمت قل بعقيب الكرى ... إلهى أنت إله الورى "

" تباركت أنشأتهم من تراب ... وأنشأتنى بينهم من خرا "

قلت ولا خفاء ببشاعة هذا فحذفه أولى من إثباته

وقال يداعب بعض أصحابه

" شيخ رباط إن أتى شادن ... خلوته عند انسداد الظلام "

" أدلى وقد أبصره دلوه ... وقال يا بشراي هذا غلام "

وقال فى عرض يظهر

" لم أجد فيه لين بث لقلبي ... وقبولا لحجتي واعتذاري "

" ثقل الله ظهره بعيال ... سود الله وجهه بعدار "

وقال من قصيدة

" أخذت وأمواج الردى متلاطمه ... بضعى يا نجل الوصى وفاطمه "

وقال

" ووجه غرست الورد فيه بنظره ... فىا ليت كفى متعت بجنى غرسى "

" كان سواد الخال فى وحناته ... علامة مولانا على احمر الطرس "

" وبينهما فى باطن الأمر نسبه ... لذلك أمضيت العزام على نفسى "

وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء

" شرط الفقيه فقلت ذاك غريبة ... ما كان ذلك منه بالمعلوم "

" فدنا إلى وقال قد أصرفتكم ... من شرطتى بغريبة المزموم "

وفى آخر سنة أربع وسبعين وجه إلى السلطان أبى حمو سلطان تلمسان أبياتا لزومية فى عرض الهناء وهى

" وقف الغرام على ثباك لسانى ... رعىا لما اوليت من إحسان "

" فكانما شكرى لما أوليته ... شكر الرياض لعارض النيسان "

" أنا شيعة لك حيث كنت قضية ... لم يختلف فى حكمها نفسان "

" ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى ... ميدان نهرك فارس الفرسان "

" ورويت غر مائر أسندتها ... لعلاك بين صحائح وحسان "

" ولأنت أولى بالتشيع شيمة ... لم تتفق لسواك من إنسان "

" الشمس أنت قد انفردت وهل يرى ... بين الورى فى مطلع شمسان "

" جبرت بجبرك كل نفس حرة ... وشدا بشكر الله كل لسان "

" وبدت سعودك مستقيما سيرها ... وعلت ففر أمامها النحسان "

" فاستقبل السعد المعاود سافرا ... عن أي وجه للرضى حسان "

" وأبغ المزيد بشكر ربك ولتثق ... بمضاعف الإنعام والإحسان "

" فالشكر يقناد المزيد ركائبنا ... تتتاب بابك منه فى أرسان "

" ثم السلام عليك يزرى عرفه ... طيبا يعرف العود والبلسان "

وقال

" بحق ما بيننا يا ساكنى القصبه ... ردوا علي حياتى فهى مغتصبه "

" ماذا جنيتم على قلبى بينكم ... وانتم الأهل والأحباب والعصبه "

قلت ولعل ابن زمرك قال أبياته التى على هذا الروى المذكورة فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب

جوابا لهذه حين كان ابن زمرك من جملة أتباع لسان الدين رحم الله تعالى الجميع وقال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى

" حين ساروا عنى وقد خنقتنى ... عبرات قد أعربت عن ولوعى "

" صحت من ينصر الغريب فلما ... لم أجد ناصرا بلغت دموعى " وقال "

" قال لى والدموع تنهل سحيا ... فى عراض من الخدود محول "

" بك ما بى فقلت مولاي عافاك ... المعافى من عبرتى ونحولى "

" أنا جفنى القريح يروى عن الأعمش ... والجفن منك عن مكحول " وقال "

" أشكو لميسه الحريق وقد حمى ... عنى لماه المشتهى ورحيقه "

" يا ريقه حيرتنى ومطلتنى ... ما أنت إلا بارد يا ريقه "

وقال فيمن ركب البحر وماد
 " ركب السفينة واستقل بافقهـا ... فكأنما ركب الهلال الفرقد "
 حذف 1 502
 وشكوا إليه بميده فأجبتهم ... لا غرو ان ماد القضيب الأملد " وقال عندما خرج السلطان ابن
 الأحمر من فاس متوجها إلى الأندلس لطلب حقه
 " ولما حثت السير والله حاكم ... لملكك فى الدنيا بعز وفى الأخرى "
 حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ... ينقل من بيضاء إلا إلى حمرا " ويعنى بالبيضاء فاسا "
 الجديدة وبالحمراء حمراء غرناطة وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس وأظنه أبا عبد الله ابن جزى
 لما رمدت عين بعض أهل فاس سأله عنها فقال
 " يا سيدي عيني قد ... أودى قذاها بالأنس "
 فانظر إليها ترها ... دار مليك الأندلس " يعنى حمراء فأجابه بقوله "
 " وقيت مما تشتكى ... من القذى والوصب "
 " ما رمدت عينك بل ... عين العلا والأدب "
 " فلتحمدن أن لم تكن ... دار مليك المغرب " نى وقد خنفتنى ... عبرات قد أعريت عن ولوعى "
 صحت من ينصر الغريب فلما ... لم أجد ناصرا بلغت دموعى " وقال "
 " قال لى والدموع تنهل سحبا ... فى عراض من الخدود محول "
 " بك ما بى فقلت مولاي عافك ... المعافى من عبرتى ونحولى "
 أنا جفنى القريح يروى عن الأعمش ... والجفن منك عن مكحول " وقال "
 " أشكو لميسه الحريق وقد حمى ... عنى لماه المشتهى ورحيقه "
 يا ريقه حيرتنى ومطلتنى ... ما أنت إلا بارد يا ريقه " وقال فيمن ركب البحر وماد "
 " ركب السفينة واستقل بافقهـا ... فكأنما ركب الهلال الفرقد "
 " وشكوا إليه بميده فأجبتهم ... لا غرو ان ماد القضيب الأملد "
 وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجها إلى الأندلس لطلب حقه
 " ولما حثت السير والله حاكم ... لملكك فى الدنيا بعز وفى الأخرى "
 " حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ... ينقل من بيضاء إلا إلى حمرا "
 ويعنى بالبيضاء فاسا الجديدة وبالحمراء حمراء غرناطة
 وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس وأظنه أبا عبد الله ابن جزى لما رمدت عين بعض أهل فاس
 سأله عنها فقال
 " يا سيدي عيني قد ... أودى قذاها بالأنس "
 " فانظر إليها ترها ... دار مليك الأندلس "
 يعنى حمراء فأجابه بقوله
 " وقيت مما تشتكى ... من القذى والوصب "
 " ما رمدت عينك بل ... عين العلا والأدب "
 " فلتحمدن أن لم تكن ... دار مليك المغرب "
 يعنى بيضاء وهذا من غريب ما يحاضر به
 رجع وقال لسان الدين رحمه الله تعالى
 " أجاد يراع الحسن خط عذاره ... وأودعه السر المصون الذى يدري "
 " ولم يفتقر فيه لخم وطابع ... فمبسمه أغناه عن طابع السر "
 وقال فى غرناطة
 " أحبيك يا معنى الكمال بواجب ... وأقطع فى أوصافك الغر أوقاتى "
 " تقسم منك الترب قومى وجيرتى ... ففى الظهر أحيائى وفى البطن أمواتى "
 وقال فى غرض ينحو نحو المشاركة
 " رموا بالسلو حليف الغرام ... وأدمعه كالحيا الهاطل "
 " أعوذ بعزك يا سيدي ... لذلى من دعوة الباطل " وقال "
 " يا ليل طلت ولم تجد بتبسم ... وأريتني خلق العبوس النادم "
 " هلا رحمت تغربى وتفرقى ... لله ما أقساک يا ابن الخادم "
 وقال فى مروحة سلطانية
 " كأتى قوس الشمس عند طلوعها ... وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر "

" وإلا كما هبت بمحتم الوغى ... بنصر ولكن من بنود بنى نصر "

وقال يخاطب شيخه ابن الجياب

" بين السهام وبين كتبك نسبة ... فيها يصاب من العدو المقتل "

" وإذا أردت لها زيادة نسبة ... هذى وهذى فى الكنانة تجعل "

وقال يتغزل وفيه معنى غريب

" إن اللحاظ هى السيوف حقيقة ... ومن استراب فحجتى تكفيه "

" لم يدع غمد السيوف جفنا باطلا ... إلا لشبه اللحظ يغمد فيه "

قيل وأحسن منه قول غيره

" إن العيون النجل أمضى موقعا ... من كل هدى وكل يمانى "

" فضل العيون على السيوف بأنها ... قتلت ولم تخرج من الأجفان "

وأصل ما قال لسان الدين قول الأول

" بين السيوف وعينيها مناسبة ... من اجلها قيل للأعماد أجفان "

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى فى الساعة وتسميها المغاربة المنجانه

" تأمل الرمل فى المنجان منقطعا ... يجرى وقدره عمرا منك منتها "

والله لو كان وادى الرمل ينجده ... ما طال كامله إلا وقد ذهبنا " وقال "

" أقول لعاذلى لما نهانى ... وقد وجد المقالة إذ جفانى "

" علمت بأنه مر التجنى ... وفاتك أنه حلو اللسان "

وقال فى غرض صوفى

" لا تتكروا إن كنت قد أحببتكم ... أو أننى استولى على هواكم "

" طوعا وكرها ما ترون فإننى ... طفت الوجود فما وجدت سواكم "

وقال يمدح وفيه تورية

" وإن نظرت إلى لآء غرته ... يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد "

وقال مما يكتب على طاق الماء بباب القبة

" أنا طاق تزهو بى الأيام ... تعبت فى بدائع الأفهام "

" وتبدت للنواظر محرابا ... كأن الإناء فى امام "

" واقف للصلاة حتى إذا ما ... جئت للشرب حان منى سلام "

وقال فى ذلك أيضا

" يا صانعى لله ما أحكمته ... فلأنت بين العالمين رئيس "

" أحكمت تاجى يوم صغت رقوشه ... فصبت اليه مفارق ورؤوس "

" وأقمت فى محرابه فكأنه ... مجلى إناء الماء فيه عروس "

وقال فى المشيب

" أنى لمثلنى بالهوى من بعد ما ... للوخط فى الفودين أي ديب "

" لبس البياض وحل ذروة منبر ... منى ووإلى الوعظ فعل خطيب "

وقال رحمه الله تعالى

" والله ما جان على ماله ... أو جاهه من ذب عن عرضه "

والناس فى خير وفى ضده ... هم شهداء الله فى أرضه " وقال "

" إلهى بالبيت المقدس والمسعى ... وجمع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا "

" وبالموقف المشهود يا رب فى منى ... إذا ما أسأل الناس من خوفك الدمعا "

" وبالمصطفى والصحب عجل إقالتى ... وأنجح دعائى فيك يا خير من يدعى "

" صدعت وأنت المستغاث جنابه ... أقل عثرتى يا مؤئلى واجبر الصدعا "

وقال رحمه الله تعالى فى بنيونش سبتة

" بنيونش أسنى الأماكن رقعته ... وأجل أرض الله طرا شانا "

" هى جنة الدنيا التى من حلها ... نال الرضى والروح والريحانا "

" قالوا القروود بها فقلت فضيلة ... حيوانها قد قارب الإنسانا "

وفى بنيونش هذه يقول أبو عبد الله ابن مجبر

" بنيونش جنة ولكن ... طريقها يقطع النياطا "

" وجنة الخلد لا يراها ... إلا فتى يقطع الصرطا "

وقال ابن الخطيب رحمه الله تعالى

" إن الهوى لشكاية معروفة ... صبر التصبر من أجل علاجها "

" والنفس إن ألفت مرارة طعمه ... يوما ضمنت لها صلاح مزاجها "

وقال رحمه الله تعالى

" ولما رأيت عزمي حثيثا على السرى ... وقد رابها صبرى على موقف البين "

أت بصحاح الجوهرى دموعها ... فقابلت من دمعى بمختصر العين " وقال رحمه الله تعالى "

" تذكرت عهدا كان أحلى من الكرى ... وأقصر من إمام طيف خياله "

فيا ليت شعرى من أتاح لى المنى ... وعذب بالى هل أمر بباله " وقال رحمه الله تعالى "

" عينى جنت فعلام تحرق أضلعى ... أبما جنى جار يعذب جار "

" يا قلب لا تدهشك نيران الهوى ... فكناز إبراهيم تلك النار "

فاصبر على ما حملوا تمل المنى ... بالسبيك أدرك نقشه الدينار " وقال رحمه الله تعالى "

" وما كان إلا أن جنى الطرف نظرة ... غدا القلب رهنا فى عقوبة ذنبه "

وما العدل أن يأتى امرؤ بجريرة ... فيؤخذ فى أوزارها جار جنبه " وقال رحمه الله تعالى "

" برى جسدى فيكم غرام ولوعة ... إذا سكن الليل البهيم تثور "

" فلولا أنيبي ما اهتدى نحو مضجعى ... خيالكم بالليل حين يزور "

" ولو شئت فى طى الكتاب لزرتكم ... ولم تدر عنى أحرف وسطور "

وقال رحمه الله تعالى

" بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذاره "

وكانما وادية معصم غادة ... ومن الجسور المحكمات سواره " وقال رحمه الله تعالى يخاطب "

السلطان أبا حمو صاحب تلمسان ويشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس

" لقد زار الجزيرة منك بحر ... يمد فليس تعرف منه جزرا "

" أعدت لها بعهدك عهد موسى ... سميك فهى تتلو منه ذكرا "

أقمت جدارها وأفدت كنزا ... ولو شئت اتخذت عليه أجرا " وقال أيضا "

" وقالوا الجزيرة قد صوحت ... فقلت غمام الندى تنتظر "

" إذا وكفت كف موسى بها ... غماما يعود الجنب الخضر "

وقال رحمه الله تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية

" أفادت وجهتى بنداك مالا ... قضى دينى وأصلح بعض حالى "

" ومتعت الخواطر بانشرح ... وأطرفت النواظر باكتحال "

" وأبت خفيف ظهر والمطابا ... بجاهك تشتكى ثقل الرجال "

" وشانى للمعالم غير شان ... وحالى بالمكارم جد حال "

" فحب علاك إيمانى وعقدى ... وشكر نداك دينى وانتحالى "

" كما قد صح لله انقطاعى ... بتأميلي جنابك وارتحالى "

" وما يبقى سوى فعل جميل ... وحال الدهر لا تبقى بحال "

" وكل بداية فإلى انتهاء ... وكل إقامة فإلى ارتحال "

" ومن سام الزمان دوام أمر ... فقد وقف الرجاء على المحال "

وقال رحمه الله تعالى فى الصراعة الى ربه والاعتراف بذنبه

" مولاي إن أذنبت ينكر أن يرى ... منك الكمال ومنى النقصان "

" والعفو عن سبب الذنوب مسبب ... لولا الجنابة لم يكن غفران "

وقال رحمه الله تعالى

" سلام على تلك المربيع إنها ... معاهد الأفي وعهد صحابى "

" ويا آسة المعنى انعمى فلطالما ... سكبت على مثواك ماء شبابى "

وقال سامحه الله تعالى

" أموطنى الذى أزعجت منه ... ولم أرزا به مالا ولا دم "

" لئن أزعجت عنك بغير قصد ... فقبلى فارق الفردوس آدم "

ومن ميلاديابة رحمه الله تعالى قوله

" ما على القلب بعدكم من جناح ... أن يرى طائرا بغير جناح "

" وعلى الشوق أن يشب إذا هب ... بأنفاسكم نسيم الصباح "

" جيرة الحى والحديث شجون ... والليالى تلين بعد الجماح "

" أترون السلو خامر قلبى ... بعدكم لا وفالق الإصباح "

" ولو أنى أعطى اقتراحي على ... الأيام ما كان بعدكم باقتراحي "

" ضايقتنى فيكم صروف الليالى ... واستندارت على دور الوشاح "

" وسقتنى كأس الفراق دهاقا ... فى اغتياق مواصل واصطباح "

" واستباحث من جدتى وقتائى ... حرما لم أخله بالمستباح "

ومنها

" يا ترى والنفوس أسرى أمان ... ما لها من وثاقها من سراح "

" هل يباح الورود بعد زياد ... أو يتاح اللقاء بعد انتزاح "

" وإذا أعوز الجسم التلاقى ... ناب عنه تعارف الأرواح "

وهى طويلة لم يحضرنى منها الآن سوى ما ذكرته

وقد حذا حذوها الفقيه الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون صاحب التاريخ فقال فى مولد عام ثمانية وسبعين وسبعمائة واستطرد لمدح السلطان أبى حمو موسى صاحب تلمسان الذى تقدم ذكره قريبا

" ما على الصب فى الهوى من جناح ... أن يرى حلف عبره وافتضاح "

" وإذا ما المحب عيل اصطبارا ... كيف يصغى إلى نصيحة لاح "

" يا رعى الله بالمحصب ريعا ... أذنت عهده النوى بانتزاح "

" كم أدركنا كأس الهوى فيه مزحا ... رب جد من الجوى فى المزاح "

" هل إلى رسمه المحيل سبيل ... يا حداه المطى تلك الطلاح "

" نسأل الدار بالخليط ونسقى ... ذلك الربيع بالدموع السفاح "

" أي شجو عاينت بعد نواها ... من أسى لازم وصبر مزاح "

" أهل ودى إن رابكم برح وحدى ... من صبا بارق وبرق لياح "

" فاسألوا البرق عن خفوق فؤادى ... والصبا عن سقام جسمى المتاح "

" يا أهيل الحمى نداء مشوق ... ما له عن هوى الدمى من براح "

" طالما استعذب المدامع وردا ... فى هواكم عن كل عذب قراح "

" عادة بالطلول للشوق عيد ... من حمام بدوحهن صداح "

" من لقلب من الجوى فى ضرام ... ولجفن من البكا فى جراح "

" ولصب يهيجه الذكر شوقا ... فهو سكرنا يرتاد من غير راج "

" وليال قضيت للهو فيها ... وطرا والشباب ضافى الجناح "

" راكبا فى الهوى ذلول تصاب ... ساحبا فى الغرام ذيل مزاح "

" ونجوم المنى تنير إلى إن ... روع الشيب سربها بالصباح "

" أي مسرى حمدت لم أخل منه ... بسوى حسرة وطول افتضاح "

" واخسارى يوم القيامة إن لم ... يغفرالله زلتى واقتراحي "

" لم أقدم وسيلة فيه إلا ... حب خير الورى الشفيق الماحى "

" سيد العالمين دنيا وأخرى ... أشرف الخلق فى العلا والسماح "

" سيد الكون من سماء وأرض ... سره بين غاية وافتتاح "

" زهرة الغيب مظهر الوحى معنى النور ... كنه المشكاة والمصباح "

" آية المكرمات قطب المعالى ... مصطفى الله من قريش البطاح "

" أول الأنبياء تخصيص زلفى ... آخر المرسلين بعث نجاج "

" صفوة الخلق أرفع الرسل قدرا ... وسراج الهدى وشمس الفلاح "

" من لميلاده بمكة ضاءت ... من قرى قيصر جميع الضواحي "

" وخبث نار فارس وتداعت ... من مشيد الإيوان كل النواحي "

" من رقى فى السماء سبعا طباقا ... ورأى أي ربه فى اتضاح "

" ودنا منه قاب قوسين قريبا ... ظافرا فى العلا بكل اقتراح "

" من هدى الخلق بين حمر وسود ... وجلا ليل غيهم بالصباح "

" من يجير الورى غدا يوم يجزى ... كل عاص وطائع باقتراح "

" من إلى حوضه وظل لواه ... يلجأ الناس بين ظام وضاحى "

" أحمد المجتبى حبيبا وأنى ... فوق عز الحبيب مرمى طماح "

" فى أناجيله المسيح تلاه ... باسمه والكليم فى الألواح "

" ولكم حجة وبرهان صدق ... فى سماع أتى بها والتماح "

" إن فى النجم والنبات لآيا ... بهرت والجماد والأرواح "

" معجزات فتن المدارك وصفا ... وحسابا كالزهر أو كالصباح "

" يا رواة القريض والشعر عجزا ... ما عسى تدركون بالأمداح "

" إنما حسبنا الصلاة عليه ... وهى للفوز آية استفتاح "

" يا إلهى بحق أحمد عفوا ... عن ذنوب جنيتهن قباح "

" وأدم دولة الخليفة موسى ... ذى المعالى المبينة الأوضح "

" مفخر الملك مستقر المزايا ... مظهر اللطف ذو التقى والصلاح "

" ناصر الحق خاذل الجور عدلا ... ملجأ الخائفين بحر السماح "

" يتلقى الندى بوجه حيي ... ويلقى العدا بأس صفاح "

" وله المكرمات إرثا ولبسا ... حاز حمدا بها معلى القдах "

" من علا باذخ وفخر صميم ... وكمال بحت ومجد صراح "

" وأحاديث فى المعالى حسان ... رويت عنه فى العوالى الصراح "

" عاقد صفقة العلا كل حين ... فائز فيه سعيه بالرياح "

" للندى والهدى يروح ويغدو ... أي مغدى الى العلا ومراح "

" ملك تشرق الأسرة منه ... فى سماء السرير نور صباح "

" وإذا ما علا بعالى العوالى ... صهوة الجرد فهو ليث الكفاح "

" لبس الدهر منه حله حسن ... وثنى للسرور عطف مراح "

" وعلى عاتق الخلافة منه ... طرز فخر سبى النهى بالتماح "

" ورث الملك شامخا عن سراة ... شيديوا ركنه بايدي الصفاح "

" من بنى القاسم الذين تحلوا ... بالمعالى واستأثروا بالفلاح "

" فرعوا هضبة الخلافة مجدا ... رفعوا سقفه على الأرماح "

" نشروا راية المفخر حمدا ... خافق النور بالربى والبطاح "

" يا إماما بذ الملوك جلالا ... وجمالا فديت بالأرواح "

" أنت شمس الكمال دمت عليها ... فى اعتباق من المنى واصطباح "

" وبنوك الأعلون أنجم سعد ... زاهرات بنورك الوضاح "

" وأبو تاشفين بدر منير ... زانه الله بالخلال الصباح "

" أكمل العالمين خلقا وخلقاً ... أشرف الناس فى الندى والكفاح "

" ويكم زينت سماء المعالى ... واهتدى الناس فى الدجى والصبح "

وكان السلطان ابو حمو الممدوح بهذه القصيدة يحتفل ليلية مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال كما كان ملوك المغرب والأندلس فى ذلك العصر وما قبله ومن احتفاله له ما حكاه شيخ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدي أبو عبد الله التنسى ثم التلمساني فى كتابه راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح ونصه أنه كان يقيم ليلية الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابى مبنوثة وبسط موشاة ووسائد بالذهب مغطاة وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ومباخر منصوبة كالقباب يخالها المبصر تبرا مذاب ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ويخالط حسن رباها الأرواح ويخامر رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال ويعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ومكفرات ترغب فى الإقلاع عن الآثام يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاج إلى سماعه القلوب وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجاة قد زخرت كأنها حلة يمانية لها أبواب موحفة على عدد ساعات الليل الزمانية فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية صورت فى أحسن صورة فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة هكذا حالهم الى انبلاج عمود الصباح ونداء المنادى حى على الفلاح انتهى وقال التنسى المذكور فى كتابه المسمى ب نظم الدر والقيان فى شرف بنى زيان وذكر ملوكهم الأعيان ما نصه وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلية مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم

ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابى مبنوثة وشمع كالأطوانات وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظة وخزانة المنجانية ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة بأعلاها أيقة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيهما أرقم خارج من كوة يجذر الأيقة صاعدا ويصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية يصاقب طرفيها بابان كبيران وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره فى الفلك ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقبها إلى طست من الصفر مجوف بوسطة ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه فهناك يفتح باب الساعة الذهبية وتبرز منه جارية محتزمة كأطرف ما أنت راء بيمينها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة والمسمع قائم ينشد

أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا والرياض نورا وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهبها الأنفس وتستحسنها الأعين وتلذذ بسماع اسمائها الأذان ويشره مبصرها للقرب منها والتناول وأن كان ليس بغرثان والسلطان لم يفارق مجلسه الذى ابتداء جلوسه فيه وكل ذلك بمراى منه ومسمع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح

على هذا الأسلوب تمضى ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم فى جميع أيام دولته أعلى الله تعالى مقامه فى عليين وشكر له فى ذلك صنيعه الجميل أمين وما من ليلة مولد مرت فى أيامه إلا ونظم فيها قصيدا فى مديح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم

أول ما يتبدىء المسمع فى ذلك الحفل العظيم بإنشاده ثم يتلوه إنشاد من رفع الى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما انتهى وهو أتم مساقا مما فى راج الأرواح ولا باس أن نلم ببعض المقطوعات التى أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيى ابن خلدون المذكور على لسان جارية المنجانية فى مخاطبة السلطان أبى حمو معلمة بما مر من ليل ففى مضى ساعتين قوله

" أخليفة الرحمن والملك الذى ... تعنو لعز علاه أملاك البشر "

" لله مجلسك الذى يحكي علا ... بك مالكى أفق السماء لمن نظر "

" أوما ترى فيه النجوم زواهرا ... وجه الخليفة بينهن هو القمر "

" والليل منه ساعتان قد انقضت ... تتنى عليك ثنا الرياض على المطر "

" لا زال هذا الملك منصورا بكم ... وبلغت مما ترتجى أسنى الوطر "

" أمولاي يا ابن الملوك الألى ... لهم فى المعالى سننى الرتب "

" تولت ثلاث من الليل أبقت ... لك الفخر فى عجمها والعرب "

" قدم حجة الله فى أرضه ... تنال الذى شئته من أرب "

وقوله فى مضى ست ساعات

" يا ماجدا وهو فرد ... تخاله فى عساكر "

" ست من الليل ولت ... ما إن لها من نظائر "

" دامت لياليك حتى ... إلى المعاد نواضر "

وقوله فى مضى ثمانى ساعات

" يا أكرم الخلق ذاتا ... وأشرف الناس أسره "

" مرت ثمان وأبقت ... فى القلب منى حسرة "

" فيهن كان شبابى ... أخا نعيم ونضره "

" ولي بها الدهر عنى ... ترى لها بعد كره "

" فالله يبقيك مولى ... يطيل فى السعد عمره "

وقوله فى مضى عشر ساعات

" يا مالك الخير والخيال التى حكمت ... له بعز على الأيام مقتبل "

" هذا الصباح وقد لاحت بشائره ... والليل ودعنا توديع مرتحل "

" لله عشر من الساعات باهرة ... مضين لا عن قلبى منا ولا ملل "

" كذا تمر ليالى العمر راحلة ... عنا ونحن من الآمال فى شغل "

" نمسى ونصبح فى لهُو نسر به ... جهلا وذلك يدنينا من الأجل "
" والعمر يمضى ولا ندري فوا أسفا ... عليه إذا مر فى الأثام والزلل "
" يا ليت شعرى غدا كيف الخلاص به ... ولم تقدم له شيئا من العمل "
" يا رب عفوك عما قد جنته يدي ... فليس لى بجزاء الذنب من قبل "
" يا رب وانصر أمير المسلمين أبا ... حمو الرضى وأنله غاية الأمل "
" وأبق فى العز والتمكين مدته ... وأعل دولته الغرا على الدول "

انتهى المجلد السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس تتمه

رجع الى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى فنقول وأما موشحاته وأزجاله فكثيرة وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن كما صرح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير ولنذكر بعض كلامه إذ لا يخلو من فائدة زائدة قال رحمه الله تعالى ما ملخصه وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهدبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على اغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاوزوا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس وحمده الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ عنه ذلك ابن عيد ربه صاحب العقد ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية وقد ذكر الأعلام البطليوسي أنه سمع أبا بكر ابن زهر يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله

" بدر تم شمس ضحى ... غصن نفا مسك شم "

" ما أتم ما أوضحا ... ما أوقا ما أتم "

" لا جرم من لمحا ... قد عشقا قد حرم "

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة قالوا وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول

" العود قد ترنم بأبدع تلحين ... وشقت المذانب رياض البساتين "

وفي انتهائه حيث يقول

" تخطر ولم تسلم عسك المأمون ... مروع الكتاب يحيى بن ذي النون "

ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملتهم فظهرت لهم البدائع وفرسان حلبتهم الأعمى

التطيلي ثم يحيى بن بقي وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله

" ... كيف السبيل إلى صبري وفي المعالم أشجان "

" ... والركب وسط الفلابالخرد النواعم قد بانوا "

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلي للإنشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

" ضاحك عن جمان ... سافر عن بدر "

" ضاق عنه الزمان ... وحواه صدري "

خرق ابن بقي موشحته وتبعه الباقون

وذكر الأعلام البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحا على قول إلا ابن بقي حين وقع له

" ... أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق "

" ... أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق "

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض وكان في عصرهم أيضا الحكيم أبو بكر ابن باجة صاحب التلاحين المعروفة

ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشحته

" جحر الذيل أيما جر ... وصل السكر منك بالسكر "

فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله

" عقد الله راية النصر ... لأمير العلا أبي بكر "

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشي ابن باجة لداره إلا على الذهب فخاف الحكيم سوء العقابة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه

ثم قال ابن خلدون بعد كلام واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف إلى أن قال وابن هردوس الذي له

" يا ليلة الوصل والسعود ... بالله عودي "

وابن مؤهل الذي له

" ... ما العيد في حلة وطاق وشم طيب "

" ... وإنما العيد في التلاقي مع الحبيب "

وأبو إسحاق الزويلي

قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول إنه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زي البادية إذ كان يسكن بحصن سبتة فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها

" ... كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح "

" ... ومعصم النهرفي حلل خضرم البطاح "

فتحرك ابن زهر وقال أنت تقول هذا قال اختبر قال ومن تكون فأخبره فقال ارتفع فوالله ما عرفتك قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هو أبو بكر ابن زهر وقد شرفت موشحاته وغربت قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهر لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك في التوشيح فقال كنت أقول

" ... ما للموله من سكره لا يفيق يا له سكران "

" ... من غير خمير ما للكثير المشوق يندب الأوطان "

" ... هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا "

" ... إذ يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا "

" ... وإذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا "

" ... نهر أظله دوح عليه أنيق مؤنق فينان "

" ... والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان "

واشتهر بعده ابن حيون إلى أن قال وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسية ذكر ابن الرانس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه فقال له ابن حزمون ما الموشح بموشح

حتى يكون عارياً من التكلف فقال

على مثل ماذا فقال على مثل قولي

" يا هاجري ... هل إلى الوصال ... منك سبيل "

" أو هل يرى ... عن هواك سال ... قلب العليل "

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة قال ابن سعيد كان والدي يعجب بقوله

" إن سيل الصباح في الشريق ... عاد بحرا في أجمع الأفق "

" فتداعت نوادب الورق ... أتراها خافت من العرق "

" ... فبكت سحرة على الورق "

واشتهر بإشبية لذلك العهد أبو الحسن ابن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

" وإحسرتي لزمان مضى ... عشية بان الهوى وانقضى "

" وأفردت بالرغم لا بالرضى ... وبت على جمرات الغضا "

" أعانق بالفكر تلك الطلول ... وألثم بالوهم تلك الرسوم "

قال وسمعت أبا بكر ابن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير ما مرة فما سمعته يقول لله درك إلا في قوله

"قسما بالهوى لذي حجر ... ما لليل المشوق من فجر "
 "... خمد الصبح ليس يطرد "
 "... ما لليلي فيما أظن غد "
 "... صح يا ليل أنك الأبد "
 "أو تقضت قوادم النسر ... فنجوم السماء لا تسري "
 "ومن موشحات ابن الصابوني قوله
 "ما حال صب ذي ضنى واكتئاب ... أمرضه يا ويلتاه الطبيب "
 "عامله محبوبه باجتئاب ... ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب "
 "جفا جفوني النوم لكنني ... لم أبكه إلا لفقد الخيال "
 "وذو الوصال اليوم قد غرني ... منه كما شاء وشاء الوصال "
 "فلمست باللائم من صدني ... بصورة الحق ولا بالمحال "
 "واشتهر ببر العدو ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة
 "يد الإصباح ... قد قدحت ... زناد الأنوار ... من مجامر الزهر "
 "وابن خزر البجائي وله من موشحة
 "تغر الزمان موافق ... حياك منه بابتسام "
 "ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها
 "هل درى طبي الحمى أن قد حمى ... قلب صب حله عن مكنس "
 "فهو في حر وخفق مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقيس "
 "وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره
 فقال
 "جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس "
 "لم يكن وصلك إلا حلما ... في الكرى أو خلسة المختلس "
 "إذ يقود الدهر أشتات المنى ... ينقل الخطو على ما يرسم "
 "زمرا بين فرادى وثنا ... مثلما يدعو الوفود الموسم "
 "والحيا قد جلت الروض سنا ... فتغور الزهر منه تبسم "
 "وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس "
 "فكساه الحسن ثوبا معلما ... يزدهي منه بأبهى ملبس "
 "في ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شמוש الغرر "
 "مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر "
 "وطر ما فيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر "
 "حين لذ الأنس شيناً أو كما ... هجم الصبح هجوم الحرس "
 "غارت الشهب بنا أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس "
 "أي شيء لامرء قد خلاصا ... فيكون الروض قد مكن فيه "
 "تنهب الأزهار منه الفرصا ... أمنت من مكره ما تنقيه "
 "فإذا الماء تناجى والحصى ... وخلا كل خليل بأخيه "
 "تبصر الورد غيورا برما ... يكتسي من غيظه ما يكتسي "
 "وترى الأسى لبيبا فهما ... يسرق السمع بأذني فرس "
 "يا أهيل الحي من وادي الغضا ... ويقلبي سكن أنتم به "
 "ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا ... لا أبالي شرقه من غربه "
 "فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تعتقوا عانيكم من كربه "
 "واتقوا الله وأحيو مغرما ... يتلاشى نفسا في نفس "
 "حبس القلب عليكم كرما ... أفترضون عفاء الحبس "
 "ويقلي منكم مقترب ... بأحاديث المنى وهو بعيد "
 "قمر أطلع منه المغرب ... شقوة المغررى به وهو سعيد "
 "قد تساوى محسن أو مذنب ... في هواه بين وعد ووعد "
 "ساحر المقلة معسول اللمى ... جال في النفس مجال النفس "
 "سدد السهم وسمى ورمى ... ففؤادي نهية المفترس "
 "إن يكن جار وخاب الأمل ... وفؤاد الصب بالشوق يذوب "

" فهو للنفس حبيب أول ... ليس في الحب لمحبوب ذنوب "

" أمره معتمل ممتثل ... في ضلوع قد براها وقلوب "

" حكم اللحظ بها فاحتكما ... لم يراقب في ضعاف الأنفس "

" منصف المظلوم ممن ظلما ... ومجازي البر منها والمسي "

" ما لقلبي كلما هبت صبا ... عاده عيد من الشوق جديد "

" كان في اللوح له مكتبا ... قوله " إن عذابي لشديد "

" جلب الهم له والوصبا ... فهو للأشجان في جهد جهيد "

" لاعج في أضلعي قد أضرما ... فهي نار في هشيم اليبس "

" لم يدع في مهجتي إلا ذما ... كبقاء الصبح بعد الغلس "

" سلمى يا نفس في حكم القضا ... واعمري الوقت برجعى ومتاب "

" دعك من ذكرى زمان قد مضى ... بين عتبي قد تقضت وعتاب "

" واصرفي القول إلى المولى الرضى ... ملهم التوفيق في أم الكتاب "

" الكريم المنتهى والمنتفى ... أسد السرج ويدر المجلس "

" ينزل النصر عليه مثلما ... ينزل الوحي بروح القدس "

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ولا أدري لم لم يكملها وتمامها قوله

" مصطفى الله سمي المصطفى ... الغني بالله عن كل أحد "

" من إذا ما عقد العهد وفى ... وإذا ما فتح الخطب عقد "

" من بني قيس بن سعد وكفى ... حيث بيت النصر مرفوع العمد "

" حيث بيت النصر محمي الحمى ... وحنى الفضل زكي المغربس "

" والهوى ظل ظليل خيما ... والندى هب إلى المغترس "

" هاكها يا سبط أنصار العلا ... والذي إن عثر الدهر أقال "

" عادة ألبسها الحسن ملا ... تبهر العين جلاء وصقال "

" عارضت لفظا ومعنى وحلى ... قول من أنطقه الحب فقال "

" هل درى ظبي الحمى أن قد حمى ... قلب صب حله عن مكنس "

" فهو في خفق وحر مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس "

ثم قال ابن خلدون وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري التي اشتهرت شرقا وغربا وأولها

" يا حبيبي ارفع حجاب النور ... عن العذار "

" تنظر المسك على كافور ... في جلنار "

" ... كللي يا سحب تيجان الربى بالحلي "

" ... واجعلي سوارها منعطف الجدول "

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريح أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعرابا واستحدثوا فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان وإن كانت قيلت قبله بالأندلس لكن لم تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه وكان لعهد الملمثين وهو إمام الزجالين على الإطلاق قال ابن سعيد رأيت أزجاله مروية بيغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب قال وسمعت أبا الحسن ابن جحدر الإشبيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر فقال

" ... وعريش قد قام على دكان بحال رواق "

" ... وأسد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق "

" ... وفتح فمو بحال إنسان به الفواق "

" ... وانطلق من ثم على الصفاح والقى الصياح "

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيرا ما يتردد إلى إشبيلية وينتاب نهرها إلى أن قال ابن خلدون وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس وقعت له العجائب في هذه الطريقة فمن قوله في زجله المشهور

" ورذاذ دق ينزل ... وشعاع الشمس يضرب "
" فترى الواحد يفضض ... وترى الأخر يذهب "
" والنبات يشرب ويسكر ... والغصون ترقص وتطرب "
" وتريد تجي إلينا ... ثم تستحي وترجع "
ومن محاسن أزجاله قوله
" ... لاح الضيا والنجوم سكارى "

ثم قال وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل المشهور الذي أوله

" من يعاند التوحيد بالسيف يمحق ... أنا بري ممن يعاند الحق "
قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه البعيع صاحب الزجل المشهور الذي أوله
" ليتني إن ريت حبيبي ... أفتل أذنو بالرسيل "
" ليش أخذ عنق الغزبل ... وسرق فم الحجيل "

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الآداب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع فمن محاسنه في هذه الطريقة

" امزج الأكواس واملاي نجدد ... ما خلق المال إلا أن يبدد "
ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم
" بين طلوع وبين نزول ... اختلطت الغزول "
" ومضى من لم يكن ... وبقي من لم يزول "
ومن محاسنه أيضا قوله في ذلك المعنى

" البعد عنك يا ابني أعظم مصايبي ... وحين حصل لي قريك سيبت أقاربي "
انتهى المقصود جليه من كلام ابن خلدون وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا المقصد ولم أرد إبراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلق الغرض به وفيما ذكرته منه كفاية لتعلقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى وشهادته له أنه شاعر الإسلام غير مدافع وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيح

ترجمة ابن باجة من القلائد

وأبو بكر بن باجة الذي أشار إليه ابن خلدون هو أبو بكر ابن الصائغ التجيبي السرقسطي الذي قال في حقه لسان الدين في الإحاطة إنه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب القلائد معاداة فلذلك هجاه في القلائد وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصه
الأديب أبو بكر بن الصائغ هو رمد عين الدين وكمد نفوس

المهتدين اشتهر سخفا وجنونا وهجر مفروضا ومسنونا فما يتشرع ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا أظهر مخيلة إنابة ولا استنجى من حدث ولا أشجى فؤاده بتوار في جدث ولا أقر بباريه ومصوره ولا قر عن تباريه في ميدان تهوره الإساءة إليه أجدى من الإحسان والبهيمة عنده أهدى من الإنسان نظر في تلك التعاليم وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم ونبذه وراء ظهره ثاني عطفه وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه واقتصر على الهيئة وأنكر أن تكون له إلى الله تعالى فينة وحكم للكواكب بالتدبير واجترم على الله اللطيف الخبير واجترأ عند سماع النهي والإيعاد واستهزأ بقوله تعالى " إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد " القصص 85 فهو يعتقد أن الزمان دور وأن الإنسان نبات أو نور حمامه تمامه واختطافه قطافه قد محي الإيمان من قلبه فما له فيه رسم ونسي الرحمن لسانه فما يمر له عليه اسم وانتمت نفسه إلى الضلال وانتسبت ونفت " اليوم تجزي كل نفس بما كسبت " فقصر عمره على طرب ولهو واستشعر كل كبر وزهو وأقام سوق الموسيقى وهام بحادي القطار وسقا فهو يعكف على سماع التلاحين ويقف عليه كل حين ويعلن بذلك الاعتقاد ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله تعالى في أسلس مقاد مع منشا وخيم ولؤم أصل وخيم وصورة شوهاها الله تعالى وقبحها وطلعة إذا أبصرها الكلب نبجها وقذارة يؤذي البلاد نفسها ووضارة يحكي الحداد دنسها وفند لا يعمر إلا كنفه ولد لا يقوم إلا الصعاد جنفه وله نظم أجاد فيه بعض إجادة وشارف الإحسان أو كاده

فمن ذلك ما قاله في عبد حبشي ان يهواه فاشتمل عليه أسر سعر حشاه ونقله إلى حيث لم يعلم مثواه فقال

" يا شائقي حيث لا اسطيع أدركه ... ولا أقول غدا أغدو فألقاه "

" أما النهار فليلي ضم شملته ... على الصباح فأولاه كأخراه "

" أغر نفسي بأمال مزورة ... منها لقاؤك والأيام تأباه "

وله فيه لما بلغه موته وتحقق عنده فوته

" ألا يا رزق والأقدار تجري ... بما شاءت نشأ أو لا نشأ "

" هل أنت مطارحي شجوي فتدري ... وأدري كيف يحتمل القضاء "

" يقولون الأمور تكون دورا ... وهذا ففده فمتى اللقاء "

وله في الأمير أبي بكر ابن إبراهيم قدس الله تعالى تربته وأنس غربته مدائح انتظمت بلبات الأوان

ونظمت على كل شتيت من الإحسان فمن ذلك قوله

" توضح في الدجى طرف ضير ... سنا بلوى الصريمة يستطير "

" فيا بابي ولم أبذل يسيرا ... وإن لم يكفهم ذاك الكثير "

" بريق لا تفل هو نعر سلمى ... فتأثم إنه حوب وزور "

" فكيف وما أطل الليل منه ... ولا عبت بساحته الخمور "

" تراءى بالسدير فزاد قلبي ... من البرحاء ما شاء السدير "

" فلولا أن يوم الحشر يقضي ... علي بحكم مولى لايحور "

" دعوت على المشقر أن يجازى ... بما تجزى به الدار الغرور "

ومنها

" لقد وسع الزمان عليه عدوى ... وضر بشيله الليث الهصور "

" وقلنا الزمان فلا بطون ... تضمنت الوفاء ولا ظهور "

" سوى ذكر أطارحه فولا ال ... أمير لقد عفا لولا الأمير "

" همام جوده يصف السواري ... وسطوته يعيرها الهجير "

" وقلنا نحن كيف وراحتاه ... بحور يلتطي فيها سعير "

" فهل فيما سمعت به خصام ... يكون الخصم فيه هو العذير "

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه المائة ويرأها وجود أبدا تراها فلما ولي الثغر والشرق لم يفغله

من رعي ولم يكله إلى شفاة وسعي وحمله على ما كان يعتقد فيه من المقت واستعمله على

ما كان يقتضيه خلق الوقت من إقامة الوعد وتسويغه كل نعيم رغد وتغليب حجة داحضة وإنهاض

عثرة غير ناهضة فتقلد وزارته ودولته تزهى منه باندى من الوسمي المبتكر وأهدى من النجم في

الليل المعتكر وألويته تميم زهوا ميس الفتاة ورعيته تبتهج بملكه ابتهاج حيي بابن الموماة

ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها وكتائبه لا يكاد العدو يعشرها فجاس إليه وأنبرى وراش في

تتكيلهم وبرى وأقطعهم ما شاء من مقابحته وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتحته فوغرت

صدورهم السليمة واعتلت صحة ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ولم يزل يأخذ في الإضرار بهم ولا يدع

ويعلن به ويصدع حتى تفرق ذلك الجمع وألقاه بين بصر السباب والسمع وأفرد الدولة من ولائها

وجردها من حمائها فاستعجل العدو بذلك واستشرى وزار منه على سرقسطة ليث شرى ولما رأى

الشر قد ثار قنامة وبدا من ليله إعتامه ارتحل واحتمل وقال لا ناقة لي في هذا ولا جمل وأقام

ببلنسية يشفي نفسه ويستوفي أنسه ونجوم سعدتها كل يوم غائرة والعدو يتربص بها أسوأ دائرة

وبروم منازلتها ثم يدع الافتحام ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام تهيبا لذلك الملك السري والليث

الجري وفي خلال هذه المحاولة وأثناء تلك المطاولة عاجل الأمير أبا بكر حمامه واستسر فيها

تمامه وأجنه الثرى وحاز منه بدر دجنة وليث شرى فعطلت الدنيا من علاء وجود وأطلت عليها بفقده

حوادث أجدبت تهائمها والنجوم وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيعا وبييت به الأسى لسامعه

ضحيعا

" أيها الملك قد لعمري نعى المـج ... د نواعيك يوم قمن فنحنا "

" كم تفارعت والخطوب إلى أن ... غادرتك الخطوب في الترب رهنا "

" غير أنني إذا ذكرتك والده ... إخال اليقين في ذاك ظنا "

" وسألنا متى اللقاء فقبل ال ... قلنا صبيرا إليه وحزنا "

وكثيرا ما يغير هذا الرجل على معاني الشعراء وينبذ الاحتشام من ذلك بالعراء ويأخذها من أربابها

أخذ غاصب ويعوضهم منها كل هم ناصب فهذا مما أطال به كمد أبي العلاء وغمه فإنه أخذه من

قوله يرثي أمه

" فيا ركب المنون ألا رسول ... يبلغ روحها أرح السلام "

" سألت متى اللقاء فقبل حتى ... يقوم الهامدون من الرجاء "

ولما فاتت سرقسطة من يد الإسلام وباتت نفوس المسلمين فرقا منهم في يد الاستسلام ارتاب بفتح أفعاله وبريء من احتذائه بتلك الآراء وانتعاله وأخافه ذنبه ونبا عن مضجع الأمن جنبه فكر إلى الغرب ليتوارى في نواحيه ولا يتراءى لعين لائمه ولاحيه فلما وصل شاطبة حضرة الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وجد باب نفاذه وهو مبهم وعاقه عنه مدلول عليه ملهم فاعتقله اعتقالا شفى الدين من آلامه وشهد له بعقيدة إسلامه وفي ذلك يقول وهو معقول ويصرح بمذهبه الفاسد وغرضه المستاسد

" خفض عليك فما الزمان وربيه ... شيء يدوم ولا الحياة تدوم "

" واذهب بنفس لم تضع لتحلها ... حيث احتللت بها وأنت عليم "

" يا صاحبي لفظا ومعنى خلته ... من قبل حتى بين التقسيم "

" دع عنك من معنى الإخاء ثقبيله ... وابذ بذاك العبء وهو ذميم "

" واسمح وطارحني الحديث فإنه ... ليل كأحداث الزمان بهيم "

" خذني على أثر الزمان فقد مضى ... بؤس على أبنائه ونعيم "

" فعسى أرى ذاك النعيم وربيه ... مرح ورب البؤس وهو سقيم "

" هيهات ساوت بينهم أحداثهم ... وتشابه المحسود والمحروم "

ولما خلس من تلك الحباله ونجا وأثار من سلامته ما كان دجا احتال في إخفاء ماله واستيفاء آماله فأظهر الوفاء للأمير أبي بكر بالرتاء له والتأبين وتداهيه في ذلك واضح مستبين فإنه وصل بهذه النزعة من الحماية إلى حرم

وحصل في ذمة ذلك الكرم واشتمل بالرعي وأمن من كل سعي فاقتنى قيانا ولقنهن أعاريض من القريض وركب عليها أحناء أشجى من النوح ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبوح فسلك بها أبداع مسلك وأطلعها نيرات ما لها غير القلوب من فلك فمن ذلك قوله

" إن غرابا جرى بينهم ... جاوبه بالثنية الصرد "

" طاروا فما أنت بعدهم جسد ... قد فارق الروح ذلك الجسد "

" واكتتموا صيحة بينهم ... فبئس والله ما الذي اعتمدوا "

وكقوله

" سلام وإمام ووسمي مزنة ... على الجذث النائي الذي لا أزوره "

" أحقا أبو بكر تقضى فلا يرى ... ترد جماهير الوفود ستوره "

" لئن أنست تلك القبور بلحده ... لقد أوحشت أنصاره وقصوره "

ومن قلة عقله ونزارته أنه في مدة وزارته سفر بين الأمير أبي بكر رحمه الله تعالى وبين عماد الدولة بن هود رحمه الله تعالى بعد سعايات عليه أسلفها وذخائر كانت له على يديه أتلفها فوافاه وأغر ما كان عليه صدرا وأصغر ما كان لديه قدرا فأل به ذلك الانتقال إلى الاعتقال فأقام فيه شهورا يغازله الحمام بمقلة شوهاء وتنازله الأوهام بفطرته الورهاء وفي ذلك يقول

" لعلك يا يزيد علمت حالي ... فتعلم أي خطب قد لقيت "

" وإنني إن بقيت بمثل ما بي ... فمن عجب الليالي أن بقيت "

" يقول الشامتون شقاء بخت ... لعمر الشامتين لقد شقيت "

" أعندهم الأمان من الليالي ... وسالمهم بها الزمن المقيت "

" وما يدرون أنهم سيسقوا ... على كره بكأس قد سقيت "

وعزم عماد الدولة يوما على قتله وألزم المرقبين به التحيل على ختله فنمي إليه الأمر الوعر وارتمى به في لجج اليأس الذعر فقال

" أقول لنفسي حين قابلها الردى ... فراغت فرارا منه يسى إلى يماني "

" قري تحمدي بعض الذي تكرهينه ... فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنا "

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ويمهل الفاجر حكمة من الله تعالى وعلمنا و " إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا " انتهى نص القلائد

ثناء الفتح على ابن باجة

وأين هذا من تحليته له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته نور فهم ساطع وبرهان علم لكل حجة قاطع تتوجت بعصره الأعصار وتأرجت من طيب ذكره الأمصار وقام أوان المعارف واعتدل ومال للأفهام فنا وتهدل وعطل بالبرهان التقليد وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق مع نزاهة النفس وصونها وبعد الفساد من

كونها والتحقيق الذي هو للإيمان شقيق والجد الذي يخلق العمر وهو مستجد وله أدب يود عطاره أن يلتحفه ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ونظم تعشقه اللبات والنحور وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور وقد أثبت منه ما تهوى الأعين النجل أن يكون إثمها ويزيل من النفوس حزنها وكمدتها فمن ذلك قوله يتغزل

" أسكان نعمان الأراك تيقنوا ... بأنكم في ربع قلبي سكان "

" ودموا على حفظ الوداد فطالما ... بلينا بأقوام إذا استحفظوا خانوا "

" سلوا الليل عني إذ تناءت دياركم ... هل اكتحلت لي فيه بالنوم أجفان "

" وهل جردت أسياف برق سمائككم ... فكانت لها إلا جفوني أجفان "

وله

" أتأذن لي آتي العقيق اليمانيا ... أسائله ما للمعالي وما ليا "

" وهل داركم بالحزن قفراء إنني ... تركت الهوى يفتاد فضل زماميا "

" فيا مكرع الوادي أما فيك شربة ... لقد سال فيك الماء أزرق صافيا "

" ويا شجرات الجزع هل فيك وقفة ... وقد فاء فيك الظل أخضر صافيا "

وأورد له في المطمح أنه استأذن على المستعين بالله فوجده محجوبا فقال

" من مبلغ خير إمام نشأ ... ذا عزة وساميا قدرا "

" قول امرئ لو قاله للصفا ... أنبت فيه ورقا خضرا "

" عبدك بالباب له خجلة ... لو أنها بالنرجس احمررا "

وحكى غير واحد أنه مات له سكن كان يهواه فبات مع بعض أصحابه عند ضريحه ومثواه وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل فزور في نفسه بيتين في خطاب القمر أتقنهما ولحنهما حتى إذا كان قبيل وقت الكسوف بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجي واللحن يسوق الشوق ويزجي وهما

" شقيقك غيب في لحده ... وتشرق يا بدر من بعده "

" فهلا كسفت فكان الكسوف ... حدادا لبست على فقده "

فكسف القمر في الحال وعدت هذه من نوادره التي جيد الأخبار بفرائدها حال سامحه الله تعالى

ابن الحداد الوادي أشي

ثم رأيت في الإحاطة نسبة ذلك لغيره ونصه محمد بن أحمد بن الحداد الوادي أشي يكنى أبا عبد الله

حاله شاعر مفلق وأديب شهير مشار إليه في التعاليم منقطع القرين منها في الموسيقى مضطلع بفك المعنى سكن المربة واشتهر بمدح رؤسائها من بني صمادح وقال ابن بسام كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة وبحر خبر وسيرة وديوان تعاليم مشهورة وضح في طريق المعارف وضح الصبح المتهلل وضرب فيها بقدر ابن مقبل إلى جلاله مقطع وأصالة منزع ترى العلم ينم على أشعاره ويبين في منازعه وأثاره

تأليفه ديوان شعره كبير معروف وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية

بعض أخباره حدث بعض المؤرخين مما يدل على ظرفه أنه فقد سكننا عزيزا عليه وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة فلما حضر الندماء وكان قد رصد الخسوف القمري فلما حقق أنه ابتداء أخذ العود وغنى شقيقك غيب إلى آخره وجعل يرددتها ويخاطب البدر فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف وعظم من الحاضرين التعجب

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره وقال

" أقبلن في الحبرات يقصرن الخطا ... ويرين في حلال الوراشين القطا "

" سرب الجوى لا الجو عود حسنه ... أن يرتعي حب القلوب ويلقطا "

" مالت معاطفهن من سكر الصبا ... ميلا يخيف قدودها أن تسقطا "

" وبمسقط العلمين أوضح معلم ... لمهفهف سكن الحشا والمسقطا "

" ما أخلج البدر المنير إذا مشى ... يختال والغصن النضير إذا خطا "

ومنها في المدح

" يا وافي شرق البلاد وغربها ... أكرمتما خيل الوفاة فاربطا "

" ورأيتما ملك البرية فاهنا ... ووردتما أرض المربة فاخططا "

" يدمي نحور الدارعين إذا ارتأى ... ويذل عز العالمين إذا سطا "

انتهى المقصود منه وأورد له في الإحاطة قصيدة ثانية أولها
" ... حديثك ما أحلى فزدي وحدثي "

وهي طويلة

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته سمعتها من لفظ شيخي أبي جعفر ابن خاتمة بالمرية في سنة
خمس وستين وسبعمئة قاله علي بن الخطيب انتهى

رجع إلى أخبار ابن الصائغ ومن نظمه قوله

" ضربوا القباب على أفاحي روضة ... خطر النسيم بها ففاح عبيرا "

" وتركت قلبي سار بين حملهم ... دامي الكلوم يسوق تلك العيرا "

" هلا سألت أميرهم هل عندهم ... عان يفك ولو سألت غيرا "

" لا والذي جعل الغصون معاطفا ... لهم وصاغ الأقحوان ثغورا "

" ما مر بي ريح الصبا من بعدهم ... إلا شهقت له فعاد سعيرا "

وتوفي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة 523 وقيل سنة خمس وعشرين مسموما في بادزجان
بمدينة فاس وهو تجيبي بضم التاء وفتحها وباجة بالباء الموحدة وبعد الألف جيم مشددة ثم هاء
ساكنة وهي القصة بلغة الفرنج وسرقسطة بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين الثانية
وبعدها طاء مهملة مدينة كبيرة بالأندلس استولى عليها العدو سنة 512

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة إن ابن الصائغ كان عالما
فاضلا له تصنيف في الرياضات والمنطق وإنه وزر لأبي بكر الصحراوي صاحب سرقسطة ووزر أيضا
ليحيى بن يوسف ابن تاشفين عشرين سنة بالمغرب وإن سيرته كانت حسنة فصلحت به الأحوال
ونجحت على يديه الآمال فحسده الأطباء والكتاب وغيرهم وكادوه فقتلوه مسموما انتهى

وأشده بعضهم

" هم رحلوا يوم الخميس عشية ... فودعتهم لما استقلوا وودعوا "

" ولما تولوا ولت النفس معهم ... فقلت ارجعي قالت إلى أين أرجع "

" إلى جسد ما فيه لحم ولا دم ... وما هو إلا أعظم تتقعقع "

" وعينين قد أعماههما كثرة البكا ... وأذن عصت عدالها ليس تسمع "

وقد ذكر بعضهم في تعزيز بيتي الحريري أنه لابن الصائغ الأندلسي وليس هو بهذا فيما أعلم

" انقد مهوى أزره فأنثنى ... مه يا عدولي في الذي انقد مه "

" مندمة قتل المعنى فلا ... ترسل سهام اللحظ تامن دمه "

ترجمة الفتح عن الإحاطة

رجع إلى ابن باجة وقد ذكر لسان الدين في الإحاطة سبب العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة
الفتح ولذكراها بنصه فنقول قال رحمه الله تعالى الفتح بن محمد بن عبيد الله الكاتب من قرية

تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب يكنى أبا نصر ويعرف بابن خاقان

حاله كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه عذب الألفاظ ناصعها أصيل المعاني
وثيقها لعوبا بأطراف الكلام معجزا في باب الحلى والصفات إلا أنه كان محارفا مقدورا عليه لا يمل
من المعارفة والقصف حتى هان قدره وابتذلت نفسه وساء ذكره ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس إلا
ودخله مستترفا أميره وأغلا في عليته قال الأستاذ في الصلة وكان معاصرا للكاتب أبي عبد الله ابن

أبي الخصال إلا أن بطالته أخذت به عن مرتبته وقال ابن عبد الملك قصد يوما إلى مجلس قضاء

أبي الفضل عياض مخمرا فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر فأعلم القاضي بذلك

فاستثبت وحده حدا تاما وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة فقال الفتح حينئذ
لبعض من أصحابه عزمتم على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان قال
فقلت لا تفعل وهي نصيحة فقال وكيف ذلك فقلت له قصتك معه من الجائر من أن تنسى وأنت

تريد أن تتركها مؤرخة إذ كل من ينظر في كتابك يحدك قد ذكرت

فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت فيسأل عن ذلك فيقال له فيتوارث العلم عن الأكبر

الأصاغر قال فتبين ذلك وعلم صحته وأقر اسمه

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقه علي ابن باجة أبي بكر آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة

الأندلس ما كان من إزرائه به وتكذيبه إياه في مجلس إقرائه إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء

الأندلس ووصف حليا وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون زعموا فقال له فمن تلك الجواهر إذن
الزمردة التي على شاربك فثلبه في كتابه بما هو معروف وعلى ذلك فابو نصر نسيح وحده غفر الله
تعالى له

مشيخته روي عن أبي بكر ابن سليمان بن القصيرة وابن عيسى ابن اللبابة وأبي جعفر ابن سعدون الكاتب وأبي الحسن ابن سراج وأبي خالد ابن بشتغير وأبي الطيب ابن زرقون وأبي عبد الله ابن خلصة الكاتب وأبي عبد الرحمن ابن طاهر وأبي عامر ابن سرور وأبي محمد ابن عبدون وأبي الوليد ابن حجاج وابن دريد الكاتب
توالياه ومصنفاته شهيرة منها فلان العقيان و مطمح الأنفس والمطمح أيضا وترسيه مدون وشعره وسط وكتابه فائقة

شعره من شعره قوله وثبت في فلانده يخاطب أبا يحيى ابن الحاج " أعبة علياء وهضبة سؤدد ... وروضه مجد بالمفاخر تمطر " " هنيئا لملك زار أفقك نوره ... وفي صفحتيه من مضائك أسطر " " وإنني لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر " " وقد كان واش هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائي جوى تتفطر " " فهل لك في ود ذوى لك ظاهرا ... وباطنه يندى صفاء ويقطر " " ولست بعلق بيع بخسا وإنني ... لأرفع أعلق الزمان وأخطر " فروج عنه بما ثبت أيضا في فلانده مما أوله " ثبت أبا نصر عناني وربما ... تثت عزمة السهم المصمم أسطر "

نثره ونثره شهير وثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيرا كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشرط ولا خفاء بإدلاله وبراعته كتاب تأكيد اعتناء وتقليد ذي منة وغناء أمر بإنفاذه فلان أيده الله تعالى لفلان ابن فلان صانه الله تعالى ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ويضرح ما تكاثف من العدوان في جنباها تنويرها أحظاه بعلائه وكساه رائق ملائه لما علمه من سنائه وتوسمه من غنائه ورجاه من حسن منابه وتحققه من طهارة ساحته وجنايه وتيقن أيده الله تعالى أنه مستحق لماولاه مستقل بما تولاه لا يعتريه الكسل ولا تننيه عن المضاء الصوارم والأسل ولم يكل الأمر منه إلى وكل ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل وأمره أن يراقب الله تعالى في أوامره ونواهيه وليعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه وسائله عما حكم به وقضاه وأنفذه وأمضاه " يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله " فليتقدم إلى ذلك يجزم لا يخمد توقده وعزم لا ينفد تفقده ونفس مع الخير ذاهبة وعلى متن البر والتقوى راكبة ويقدم للاحتراس من عرف اجتهاده وعلم أرقه في البحث وسهاده وحمدت أعماله وأمن تفريطه وإهماله ويضم إليهم من يحذو حذوهم ويقفو شأوهم ممن لا يستراب بمناحيه ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه وأن يذكي العيون على الجنة وينفي عنها لذيذ السنات ويفحص عن مكامنهم حتى يغص بالريق نفس أمنهم فلا يستقر بهم موضع ولا يفر منهم خب ولا موضع فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه وبث السؤال في مواضع تصرفه ومواطنه فإن لاحت شبهة أبادها الكشف والاستبراء وتعداها البغي والافتراء نكله بالعقوبة أشد نكال وأوضح له منها ما كان ذا إشكال بعد أن يبلغ إناه ويقف في طرفه مداه وحد له أن لا يكشف بشرة إلا في حد يتعين وإن جاءه فاسق أن يتبين وأن لا يطمع في صاحب مال موفور وأن لا يسمع من مكشوف في مستور وأن يسلك السنن المحمود وينزه عقوبته من الأفرات وعفوه من تعطيل الحدود وإذا انتهت إليه قصة مشكلة أخرها إلى غده فهو على العقاب أقدر منه على رده فقد يتبين في وقت ما لا يتبين في وقت والمعالجة بالعقوبة من المقت وأن يتعمد هفوات ذوي الهيئات وأن يستشعر الإشفاق ويخلع التكبر فإنه ملابس أهل النفاق وليحسن لعباد الله تعالى اعتقاده ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده وأن يعاقب المجرم قدر زلته ولا يعتز عند ذلته وليعلم أن الشيطان أغواه وزين له مثواه فليشفق من عثاره وسوء آثاره وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافية وألبسه من ملابسها الضافية ويذكره جل وعلا في جميع أحواله ويفكر في الحشر وأهواله ويتذكر وعدا ينجز فيه ووعيدا " يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا " والأمير أيده الله تعالى ولي له ما عدل وأقسط وبريء منه إن جار وقسط فمن قرأه فليقف عند حده ورسمه وليعرف له حق

قطع الشر وحسمه ومن وافقه من شريف أو مشروف وخالفه في نهى عن منكر أو أمر بمعروف فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبال خبله ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله وكتب في كذا وفاته بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسعة وعشرين وخمسائة ألفي قتيلا بيت من بيوت فندق أحد فنادقها وقد ذبح وعبث به وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله انتهى نص الإحاطة

ترجمة الفتح عن المغرب

وقال في المغرب ما ملخصه فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي صاحب القلائد والمطمح ذكره الحجاري في المسهب الدهر من رواة قلائده وحملة فرائده طلع من الأفق الإشبيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها وكان في الأدب أرفع الأعلام وحسنة الأيام وله كتاب قلائد العقيان ومن وقف عليه لا يحتاج في التنبيه على قدره إلى زيادة بيان وهو وأبو الحسن ابن بسام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارساً هذا الأوان وكلاهما قس وسحبان والتفضيل بينهما عسير إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً وعلماً مفيداً وإطناباً في الأخبار وإمتاعاً للأسماع والأبصار والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف وكلامه أكثر تعلقاً وتعشفاً بالأنفوس ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولي على الرهان وإنما أخل به ما ذكرناه مع كونه اشتهر بزم أولي الأحساب والتمرير بالطعن على الأدباء والكتاب وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجة فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولاً وفي دبره وتد والله سبحانه يتغمده برحمته

ومن شعره قوله من أبيات في المدح

" إلى أين ترقى قد علوت على البدر ... وقد نلت غايات السيادة والقدر "

" وجدت إلى أن ليس يذكر حاتم ... وأغنيت أهل الجذب عن سبل القطر "

" وكمر رام أهل اللوم باللوم وقفة ... ويحرك مد لا يؤول إلى جزر "

" ولو لم يكن فيك السماح جبلة ... لأثر ذاك اللوم فيك مع الدهر "

وذكره ابن الإمام في سمط الجمان وأنشد له

" لله ظيبي من جنابك زارني ... يختال زهوا في ملاء مزاج "

" ولي التماسك في هواه كأنه ... مروان خاف كتائب السفاح "

" فخلعت صبري بالعرا ونبذته ... وركبت وجدي في عنان جماح "

" أهدى لي الورد المضعف خده ... فقطفته باللحظ دون جناح "

" وأردت صبرا عن هواه فلم أطق ... وأريت جدا في خلال مزاج "

" وتركت قلبي للصبابة طائراً ... تهفو به الأشواق دون جناح "

وذكره ابن دحية في المطرب ونعته بابن خاقان قال والشيخ أبو الحجاج البيهقي ينكر هذا وقيل إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام الحجاري وقال ابن دحية إنه قتل ذبحاً بمسكنه في فندق بيت من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين

وقال أبو الحسن ابن سعيد رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول افتتاحه في خطبة قلائده الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا وشاد مثواه في أجتنا لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب مما تضمنته الفقرة الثانية والصواب ضد ذلك انتهى وقال ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفى إنه لم يكن مرضياً وحذفه أولى من إثباته انتهى ولذا لم يذكره في التكملة

وقال ابن خاتمة إنه لم يعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب وما حكاه في الإحاطة من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة قال وقرأت ذلك بخط من يوثق به وحكى ابن خلكان قولاً آخر أنه توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وقيل وهو خطأ على أنه حكى القول الآخر أيضاً

ودفن بباب الدباغين رحمه الله تعالى

وقد قيل إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أخي إبراهيم الذي ألف

برسمه قلائد العقيان

وقد ذكر ابن خلكان أن المطمح ثلاث نسخ صغرى ووسطى وكبرى والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط صغرى وكبرى ولعله الصواب إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه

ومن تأليف الفتح راية المحاسن وغاية المحاسن ومجموع في ترسيله وتأليف صغير في ترجمة ابن السيد البطليوسى نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد

رسائل للفتح

ومن بديع إنشاء الفتح المذكور سامحه الله تعالى قوله أطال الله تعالى بقاء الوزير الأجل عتادي الأسرى وزنادي الأورى وأيامه أعياد وللسعد في زمانه انقياد أما أنا أدام الله تعالى عزه فجوي عاتم

وأعيادي مآتم وصبحي عشاء وما لي إلا من الخطوب انتشاء أبيت بين فؤاد خافق وطرف مسهد نائي المحلة من مزار العود حين لا أرى الروض المنور ولا أحس سهيلا إذا لاح ثم تهور وقد بعدت دار إلى حبيبة وودنت مني حوادث بأدناها تؤذى الشبيبة وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها حتى ألفه ريمها قد رمته النوائب فما اتقى وارتقت له الجوائح في وعور المرتقى يواصل النوى ولا يهجر سيرا ولا يزر في الإراحة طيرا قد هام بالوطن هيام ابن طالب بالحوض والعطن وحن إلى تلك البقاع حنينه إلى أثلاث القاع ولا سبيل أن يشعب صدر بينه شاعب أو تكلمه أحجار للدار وملاعب وليس له إلى أين يجنح ولا يرى أمله يسنح قد طوى البلاد ويسطها وتطرف الأرض وتوسطها ولم يلف مقبلا ولا وجد مقبلا إلى الله أشكو ما أقاسي وأقاصي ويده الأقدام والنواصي ولقاؤه موعد كل موعد وكل معمر سيدركه يوما حمام الموعد وأنفذته وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقبثها وأنكال سقيتها وسفر لقبث منه نصبا وكدر أعقبني وصبا وإلى متى يعزلني السعد والله الأمر من قبل ومن بعد انتهى

2 - وكتب رحمه الله تعالى من رسالة سيدي لا عدمت ارتفاعا ولا حرمت تكيفا من السعد واتفاقا أنا الآن مشتغل البال لا أفرق بين الإعراض والإقبال وعند تفرغي أوجه لك ما حضر ومثلك أرجأ الأمر وأنظر وفي علم الله تعالى لو أمكنني لحملتك على كاهل وأوردتك منه أعذب المناهل وأبحت لك السعد تغرا ترتشفه وخلعته بردا عليك تلتحفه لكن الزمان لا يجد وصروفه لا تتجد وعلى أي حال فلا بد أن تجد قراك وتحمد سراك إن شاء الله تعالى

وكتب إلى أبي بكر بن علي عند ولايته إشبيلية أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبي بكر - 3 للأرض يتملكها ويستدير بسعده فلها استبشر الملك وحق له الاستبشار وأوما إليه السعد في ذلك وأشار بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من ألويتك فلقد حبي منك بملك أمضى من السهم المسدد

" ... طويل نجاد السيف رجب المقلد "

يقدم حيث يتأخر الذابل ويكرم إذا بخل الوابل ويحمي الحمى كربيعة ابن مكرم ويسقي الطبي نجيعا كلون العندم فهنيئا للأندلس لقد استردت عهد خلفائها واستمدت تلك الإمامة بعد عفائها حتى كأن لم تمر أعاصرها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا ونكح عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية مهرا والله تعالى أسأله انتصار أيامك وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أعجب من عصرهم ونصرك أعز من نصرهم والسلام انتهى

وقال بعضهم من أحسن ما رأيت له قوله معاليك أشهر رسوما وأعطر نسима من أن يغرب شهاب مسعاها أو يجذب لرائد مرعاها فإن نيهتك فإنما نيهت عمرا وإن استنرتك فإنما أستنير قمرا والأمير أيده الله تعالى أجل من أعتصم في ملكه وانتظم في سلكه فإنه حسام بيد الملك طلاقته فرنده وشهامته حده وقضيب في دوحة الشرف رطيب بشره زهره وبره ثمرة وقد توسمت نارك لعلي أفوز منها بقبس أو تكون كبنار موسى بالوادي المقدس وعسى الأمل أن تعلقو بكم قداحه ويشف من أفقكم مصباحه فجرد أيدك الله تعالى صارم عزم لا تغل غروبه واطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه انتهى

ولنذكر بعض كلامه في المطمح لغرابته في هذه البلاد الشرقية بخلاف القلائد فإنها موجودة بأيدي الناس فيه

نماذج من تراجم المطمح

قال رحمه الله تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي إمام اللغة والإعراب وكعبة الآداب أوضح منها كل إبهام وفضح دون الجهل بها محل الأوهام وكان أحد ذوي الإعجاز وأسعد أهل الاختصار والإيجاز نجم والأندلس في إقبالها والأنفس أول تهممها بالعلم واهتبالها فنفت له عندهم البضاعة واتفقت على تفضيله الجماعة وأشاد الحكم بذكره فأورى بذلك زناد فكره وله اختصار العين للخليل وهو معدوم

النظير والمثيل ولحن العامة وطبقات النجويين وكتاب الواضح وسواها من كل تأليف مخجل لمن أتى بعده فاضح وله شعر مصنوع ومطبوع كأنما يتفجر من خاطره ينبوع وقد أثبت له منه ما يقترح ولا يطرح فمن ذلك قوله

" كيف بالدين القديم ... لك من أم تميم "

" ولقد كان شفاء ... من جوى القلب السقيم "

" يشرق الحسن عليها ... في دجى الليل البهيم "

وكتب مراجعا
 " أغرقتني في بحور فكر ... فكدت منها أموت لما "
 " كلفتنني غامضا عويضا ... أرجم فيه الظنون رجما "
 " ما زلت أسرو السجوف عنه ... كأنني كاشف لظلما "
 " أقرب من ليله وأنأى ... مستبصرا تارة وأعمى "
 " حتى بدا مشرق المحيا ... لما اعتلى طالعا وتما "
 " لله من منطق وجيز ... قد حل قدرا وجل فهما "
 " أخلصت لله فيه قولا ... سلمت لله فيه حكما "
 " إذ قلت قول امرئ حكيم ... مراقب للإله علما "
 " الله ربي ولي نفسي ... في كل بوس ولك نعمى "
 " وكتب إلى أبي مسلم ابن فهد وكان كثير التكبر عظيم التجبر متغيرا لسانه مقفرا من المعالم جنانه
 " أبا مسلم إن الفتى بغواده ... ومقوله لا بالمراكب واللبس "
 " وليس رواء المرء يغني قلامه ... إذا كان مقصورا على قصر النفس "
 " وليس يفيد الحلم والعلم والحجى ... أبا مسلم طول القعود على الكرسي "
 " واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع فأمرع من آماله ما أمرع فلما
 " طالت نواه واستطالت عليه لوعته وجواه وحن إلى مستكنه بإشبيلية ومثواه استأذنه في اللحوق
 " بها فلومه ولواه فكتب إلى من كان يالفه ويهواه
 " ويحك يا سلم لا تراعي ... لا بد للبين من مساع "
 " لا تحسبيني صبرت إلا ... كصبر ميت على النزاع "
 " ما خلق الله من عذاب ... أشد من وقفة الوداع "
 " ما بينها والحمام فرق ... إلا المناحات في النواعي "
 " إن يفترق شملنا وشيكا ... من بعد ما كان في اجتماع "
 " فكل شمل إلى افتراق ... وكل شعب إلى انصداع "
 " وكل قرب إلى بعد ... وكل وصل إلى انقطاع "
 " وقال سامحه الله تعالى بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صمادح ما نصه ابنه عز الدولة - 2
 " أبو مروان عبد الله فتى الراج المعافر لدنانها المهتمصر لأغصان الفتوة وأفنانها المهجر لفلاة الطباء
 " والآرام المشهر في باب الصباية والغرام نشأ في حجر أبيه نديم قهوة ومديم صبوة وخديم شهوة لا
 " يريم كاسا ولا يروم إلا اقتضاء وانتكاسا ما شهد قتلا ولا قتالا ولا تقلد صارما إلا مختالا قد أمن منه
 " جنان الجبان وعدت له غصون البان وما زال مرتضعا لأخلاف البطالة مقتطعا ما شاء من إطالة متوغلا
 " في شعاب الفتاك متغلغلا في طريق الانتهاك إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيرا عندما
 " بدت له وجوه الفتنة تسفر ومعاهد الهدنة تقفر مع أكامل أصحابهم نقصانه وذوي أديان جعلهم
 " خالصانه يسمعون بواذر بذاذته وينظرون مناكر لذاذته فألت سفرائه إلى الاعتقال وقصرت نخوته ما
 " بين قيد وعقال فجاء كالمهر لا يعرف لجاما وصار حبيس قوم لا يألونه استعجاما وحين شالت نعامته
 " وسالت عليه ظلامته كتب إلى أبيه
 " أبعد السنأ والمعالي خمول ... وبعد ركوب المذاكي كبول "
 " ومن بعد ما كنت حرا عزيزا ... أنا اليوم عبد أسير ذليل "
 " حلت رسولا بغرناطة ... فحل بها في خطب جليل "
 " وثققت إذ جنتها مرسلا ... وقبلي كان يعز الرسول "
 " فقدت المرية أكرم بها ... فما للوصول إليها سبيل "
 " فراجعه أبوه بقطعة منها
 " عزيز علي ونوحى دليل ... على ما أقاسي ودمعي يسيل "
 " وقطعت البيض أغمادها ... وشقت بنود وناحت طبول "
 " لئن كنت يعقوب في حزنه ... ويوسف أنت فصير جميل "
 " ولم يزل يتحيل في تخلصه وأخذه من يد مقتنصه فسرق وحراسه منه بمكان السلك من النحر
 " وطرق به على ثبح البحر فوافى المرية وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية فهنىء المعتصم بخلصه
 " وبقي مستقرا بعراضه إلى أن أخلوها ومضوا لطلبه ما نووها فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد
 " الناصر وليجا هو إلى أحد المرابطين لأذمة كانت بينهما وأواصر وأقام معه سمير لهوه وأمير سهوه
 " إلى أن انقرض أمده وطواه سروره لا كمدته فلم ير إلا

خالعا لعذاره طالعا في ثنيات اغتراره غير مكترث باتضاعه ولا منحرف عن ارتشاف الغي وارتضاعه
ويد منه في هذه الحال ندى كثر به السحاب وظاهر بسببه الصحاب وتخدم الأوطار وتقدم لذوي
الرتب فيها والأخطار تقدما حسن من ذكره وأولع الألسن بشكره فارتفع عنه الكدح وشفع له في
الذم ذلك المدح وكان نظمه بديع الوصف رفيع الرصف وقد أثبت له ما يشهد بإجادته وإحسانه
شهادة الروض وجود نيسانه

أخبرني ابن القطان أنه ساير الأمير يحيى بن أبي بكر إلى طليطلة في جيوش فاضت سيلا
وخاضت المطايا فتامها ليلا وكان ملكا لم يعقد على مثله لواء ولم يحتو على شبهه حواء جمال
محيا وكمال عليا وحسن شيم وبعد همم أغنى العفاة وأحيا الرفات وألغى الأجواد وأنسى كعب
ابن مامة وابن أبي داود فلما شارف طليطلة وكشفها واشتف بلالتها وارتشفها وضرب بكنفها
مضاربه وأجال بساحتها زنجه وأعاربه سقط أحد الويته عن يد حامله وانكسر عند عامله فطائفة
تفاءلت وطائفة تطيرت وفرقة ابتهجت وأخرى تغيرت فقال

" لم ينكسر عود اللواء لطيرة ... يخشى عليك بها وأن تتأولا "

" لكن تحقق أنه يندق في ... نحر العدا ولدى الوغى فتعجلا "

وأخبرني أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبانة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه وقصر بوسه وكدر صفاءه
وغدر وفاءه وطوي ميدان جوده وأذوى أفنان وجوده وقوله

" يا ذا الذي هز أمداحي بحليته ... وعزه أن يهز المجد والكرما "

" واديك لا زرع فيه اليوم تبذله ... فخذ عليه لأيام المنى سلما "

فدعته دواعي الندى وأولعته بالجدا في ذلك المدى فتحيل في بر طبعه وكتب معه

" المجد يخجل من نقديك في زمن ... ثناه عن واجب البر الذي علما "

" فدونك النزر من مصف مودته ... حتى يوفيك أيام المنى سلما "

ابنه الثاني رفيع الدولة أبو يحيى ابن المعتصم - 3

من بيت إماره والى السعد طوافه بها واعتماره عمرت أنديته ونشرت به رايات العز وألويته إلى أن
خوى كوكبهم وهوى مرقبهم فتفرقوا أيادي سبا وفرقوا من وقع الأسنة والطبي وفارقوا أرضا كأرض
غسان ووافقوا أياما كيوم أهل اليمامة مع حسان بعدما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق
وأهمهم الناس من كل مكان سحيق وانتجعوا إنتاج الأنواء واستطعموا في المحل والأواء وصلوا
بالدهر وسطوا وبين النهي والأمر فيه خطوا ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح وضوء ذلك المصباح
وغصن تلك الدوحة ونسيم تلك النفحة لم يمتهن والدهر قد بذله ولا ترك الانتصار والأمر قد خذله
فالتحف بالصون وارتدى وراح على الانقلاب وابتعدى فما تلقاه إلا سالكا جددا ولا تراه إلا لابسا
سوددا وله أدب كالروض المجود إذا أزهو ونظم كزهر التهائم والنجود بل كالصبح إذا أسفر واشتهر
أوقفه على النسب وصرفه إلى المحبوبة والحبيب فمن ذلك قوله

" ما لي وللبدر لم يسمح بزورته ... لعله ترك الإجمال أو هجرا "

" إن كان ذاك لذنب ما شعرت به ... فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا "

وله أيضا

" يا عابد الرحمن كم ليلة ... أرقنتني وجدا ولم تشعر "

" إذ كنت كالغصن تثته الصبا ... وصحن ذاك الخد لم يشعر "

وله أيضا

" وأهيف لا يلوي على عتب عاتب ... ويقضي علينا بالظنون الكواذب "

" يحكم فينا أمره فنطيعه ... ونحسب منه الحكم ضربة لازب "

وله أيضا رحمه الله تعالى

" وعلقتة حلو الشيمائل ماجنا ... خنت الكلام مرئح الأعطاف "

" ما زلت أنصفه وأوجب حقه ... لكنه يأبى من الإنصاف "

وله أيضا

" حبيب متى ينأى عن العين شخصه ... يكاد فؤادي أن يطير من البين "

" ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا ... كأن على قلبي تمانم من عين "

وله أيضا

" أفدي أبا عمرو وإن كان جانبا ... علي ذنوبا لا تعدد بالعتب "

" فما كان ذاك الود إلا كبارق ... أضاء لعيني ثم أظلم للقلب "

وله وقد بلغه موتي وتحقق عنده فوتي

" مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت ... تلك المحابر والأفلام والطرس "

" ما كنت أحسب يوما قبل ميتة ... أن البلاغة والآداب تختلس "

واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع وأبهى مطلع وجوانب حفده بين يدي محتلة وسحائب رفته علي منهلة وكان أجمل من مقل وأكمل من من المهدي إلى سرير الملك قد نقل وكتب إلي يهنيني بقدم من سفر

" قدمت أبا نصر على حال وحشة ... فجاءت بك الآمال واتصل الأنس "

" وقرت بك العينان واتصل المنى ... وفازت على ياس بيغيتها النفس "

" فأهلا وسهلا بالوزارة كلها ... ومن رأيه في كل مظلمة شمس "

وقال في المطمح في ترجمة الوزير أبي الوليد ابن حزم واحد دونه الجمع وهو للجلالة بصر - 4

وسمع روضة علاه رائقة السنا ودوحة بهاه طيبة الجنى لم يتزر بغير الصون ولم يشتهر بفساد بعد الكون مع نفس برئت من الكبر وخلصت خلوص التبر مع عفاف التحف به برودا وما ارتشيف به ثغرا برودا فغفت موطنه وما استرابت ظواهره ولا بوطنه وأما شعره ففي قالب الإحسان أفرغ وعلى وجه الاستحسان يلقي ويبلغ وكتب إليه ابن زهر

" أبا الوليد وأنت سيد مدحج ... هلا فككت أسير قبضة وعده "

" وحياة من أمد الحياة بوصله ... وذهابها حتما بايسر صده "

" لأقاتلنك إن قطعت بمرهف ... من جفنه وبصعدة من قدّه "

فراجعه أبو الوليد

" لبيك يا أسد البرية كلها ... من صادق عبث المطال بوعده "

" يمضي بأمرك ساء أو سر القضا ... ويفل حد النائبات بحده "

" إيه ووافقت الصبا في معرض ... ذهب المشيب بهزله وبجده "

وقال في المطمح في ترجمة أبي بكر الغساني ما صورته صليب العود مهيب الوعود لو دعني له - 5

الأسد الورد لأجاب ولو رمي بذكره الليل البهيم لانجاب ولو قعدت بين يديه الأطواد لتحرك سكونها ولو عصته الطيور ما أوتها وكونها مع وقار تخاله يذبلًا وفخار يفضح بلبلًا وشيم لو كانت بالروض ما ذوى أو تقاسمت في الخلق ما رمد أحد بعدما شوى وسجايا تنجلي عنها الظلماء كأن مزاجها غسل وماء انتهى

وهذا الغساني هو صاحب تفسير القرآن وقد عرف به في الإحاطة فليراجع ثمة

وقال أيضا في المطمح ما صورته أبو عامر ابن عقال كان له بني قاسم تعلق وفي سماء - 6

دولتهم تألق فلما خوت نجومهم وعفت رسومهم انحط عن ذلك الخصوص وسقط سقوط الطائر المقصوص وتصرف بين وجود وعدم وتحرف قاعدا حينًا وحينًا على قدم وفي خلال حاله وأثناء انتحاله لم يدع حظله من الحبيب ولا ثنى لحظه

عن الغزال الربيب ولم يزل يطير ويقع والدهر يخرق حاله ويرقع إلى أن أرفاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى روبة وأراه أبهى حظوة فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشا وترك الدهر قلق الحشا وتسنم منزلة لا يتسنمها إلا من تطهر من درنه وجمح إحسانه في ميدان حرته والحظوظ أقسام لا تسام والدنيا إنارة وإتمام

" ولو لم يعل إلا ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القتام "

وقد أثبت عنه بعض ما انتقينه والذي أخذته مباين لما أبقيته فمن ذلك قوله

" يا ويح أجسام الأنا ... م لما تطبيق من الأذى "

" خلقت لتقوى بالغذا ... ء وسقمها ذاك الغدا "

" وتنال أيام السلا ... مة بالحياة تلذذا "

" فإذا انفضى زمن الصبا ... ورمى المشيب فأنفذا "

" وجد السقام إلى المفا ... صل والجوانح منفذا "

" ويقول مهما يعط شي ... ثا ناولوني غير ذا "

وحذا في هذه القصيدة خذو الصابي في قوله

" وجع المفاصل وهو أي ... سر ما لقيت من الأذى "

" رد الذي استحسنته ... والناس من حظي كذا "

" والعمر مثل الكاس ير ... سب في أواخرها القذى "

وله يعتذر عن زيارة اعتمدها ومواصلة اعتقدها فعاقته عنها حوادث لوته وعدته عن ذلك وثنته

" بينما كنت راجيا للقائه ... والتشفي بالبشر من تلقائه "

" وترقيت من سماء نزاعي ... قمر الأنس طالعا من سمائه "

" إذ دهاني اعتراض خطب ثنائي ... عن غمام يشفي الغليل بمائه "

" فتدلهمت انزويت حياء ... منه والعذر واضح لسينائه "

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازه أبده الله تعالى من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه وصار حيه ميتا وهذره صمتا وجباله لا ترى فيها عوجا ولا أمنا وضعف تعاطيه وعقد السلم بين موجه وشاطئه فعبير أمنا من لهواته متملكا لصهواته على جواد يقطع الجو سبحا ويكاد يسبق البرق لمحا لم يحمل لجاما ولا سرجا ولا عهد غير اللجة الخضراء مرجا عنانه في رحله وهذب العين يحكي بعض شكله فله هو من جواد له جسم وليس له فؤاد يخرق الهواء ولا يرهبه ويركض الماء ولا يشربه وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي ما نصه

من ثنية شرف وحسب ومن أهل حديث وأدب إمام في اللغة متقدم فارغ لرتب الشعر متسنم له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ثم عاد

وقد توج بالمعارف المفروق وأقام بقرطبة علما من أعلامها وامتسما لترفعها وإعظامها تؤثره الدول وتصطفيه أملاكها الأول ما زال فيها مقيما ولا برح عن طريق أمانها مستقيما إلى أن اغتيل في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولا في فراشه مذهولا كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه وقد أثبت من محاسنه ما يعجب السامع وتصغي إليه المسامع فمن ذلك قوله

" وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم ... على ما به منهم حنين الأباغر "

" وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا ... ألا إن قلبي سائر غير صابر "

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم فلما رأى تلك الكثرة وما له عندهم من الأثرة قال

" إني إذا حضرته ألف محبرة ... يكتبن حدثي طورا وأخبرني "

" نادت بمفخري الأفلام معلنة ... هذي المفاجر لا قعبان من لبن "

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون

" أبا الوليد وما شطت بنا الدار ... وقل منا ومنك اليوم زوار "

" وبيننا كل ما تدريه من ذمم ... وللصبا ورق خضر وأنوار "

" وكل عتب واعتاب جرى فله ... بدائع حلوة عندي وأثار "

" فأذكر أخاك بخير كلما لعبت ... به الليالي فإن الدهر دوار "

وقال في ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عبد ربه - 8

عالم ساد بالعلم ورأس واقتبس به من الخطوة ما اقتبس وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره واستطار شرر الذكاء فكره وكانت له عناية بالعلم وثقة ورواية له متسقة وأما الأدب فهو كان حجتة وبه غمرت الأفهام لجمته مع صيانة وورع وديانة ورد ماءها فكرع وله التأليف المشهور الذي سماه بالعقد وحماه عن عثرات النقد لأنه أبرزه مثقف القناة مرهف الشبابة تقصر عنه ثواقب الأبواب وتبصر السحر منه في كل باب وله شعر انتهى منتهاه وتجاوز سماك الإحسان وسماه أخبرني ابن حزم أنه مر بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبه وألهب قلبه فبينما هو واقف تحت القصر إذ رش بماء من أعاليه فاستدعى رقعة وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة

" يا من يطن بصوت الطائر الغرد ... ما كنت أحسب هذا الضن في أحد "

" لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة ... أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد "

" فلا تضن على سمعي ومن به ... صوتا يجول مجال الروح في الجسد "

" أما النبيذ فإني لست أشربه ... ولا أحيئك إلا كسرتي بيدي "

وعزم فتى كان يتألفه وخامرته كلفه على الرحيل في غده فأذهبت عزمته قوى جلده فلما أصبح عاقته السماء بالأنواء وساقته مكرها إلى الثواء فاستراح أبو عمر من كمدته وانفسح له من التواصل ضائق أمده فكتب إلى المذكور العازم علي البكور

" هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر ... هيهات يابى عليك الله والقدر "

" ما زلت أبكي حذار البين ملتها ... حتى رثى لي فيك الريح والمطر "

" يا برده من حيا مزن على كبد ... نيرانها بغليل الشوق تستعر "

" آليت أن لا أرى شمسا ولا قمرا ... حتى أراك فأنت الشمس والقمر "

ومن شعره الذي صرح به تصريح الصب وبرح فيه وقائع اسم الحب قوله
" الجسم في بلد والروح في بلد ... يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد "
" إن تبك عينك لي يا من كلفت به ... من رحمة فهما سهمك في كبدي "
ومنه قوله
" ودعتني بزفرة واعتناق ... ثم نادى متى يكون التلاقي "
" وبدت لي فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق "
" يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق "
" إن يوم الفراق أقطع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق "
وله أيضا
" يا ذا الذي خط الجمال بخده ... خطين هاجا لوعة وبلابلا "
" ما صح عندي أن لحظك صارم ... حتى لبست بعارضيك حمائلا "
وأخبرني بعضهم أن الخطيب أبا الوليد ابن عيال حج فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبى واستشرف
ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها وحلة فخر لا يحتسبها فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص
ففاوضه قليلا ثم قال أنشدني لمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشده
يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا ... ورشا بتقطيع القلوب رفيقا ... ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... درا "
يعود من الحياء عقيقا
" وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ... أبصرت وجهك في سناه غريقا "
" يا من تقطع خصره من رقة ... ما بال قلبك لا يكون رفيقا "
فلما أكمل إنشادها استعادها منه وقال يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا
وله أيضا
" ومعذر نقش الجمال بخطه ... خدا له بدم القلوب مضرجا "
" لما تيقن أن سيف جفونه ... من نرجس جعل النجاد بنفسجا "
وله أيضا
" وساحبة فضل الذبول كأنها ... قضيب من الريحان فوق كثيب "
" إذا ما بدت من ثغرها قال صاحبي ... أطعني وخذ من وصلها بنصيب "
وله أيضا
" هيج الشوق دواعي سقمي ... وكسا الجسم ثياب الألم "
" أيها البين أقلني مرة ... فإذا عدت فقد حل دمي "
" يا خلي الذرع نم في غبطة ... إن من فارقت لم ينم "
" ولقد هاج بجسمي سقما ... حب من لو شاء داوى سقمي "
وبلغ سن عوف بن محلم واعترف بذلك اعتراف متألّم عندما وهت شدته وبليت جدته وهو آخر شعر
قال ثم عثر في أذيال الردى وما استقال
" كلاني لما بي عاذلي كفاني ... طويت زمانى برهة وطواني "
" بليت وأبليت اللبالي مكرها ... وصرقان للأيام معتوران "
" وما لي لا أبلى لسبعين حجة ... وعشر أتت من بعدها سنتان "
" فلا تسألاني عن تباريح علتى ... ودونكما منى الذي تريان "
" وإنى بحول الله راج لفضله ... ولي من ضمان الله خير ضمان "
" ولسيت أبالي من تباريح علتى ... إذا كان عقلي باقيا ولساني "
وفي أيام إفلاعه عن صبوته وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوبته وانثنائه عن مجون المجون إلى صفاء
نوبته محص أشعاره في الغزل بما ينافيها ونصل من قوادمها وخوافيها بأشعار في الزهد على
أعاريضها وفوافيها منها القطعة التي أولها
" ... هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر "
محصها بقوله
" يا راقدا ليس يعفو حين يقندر ... ماذا الذي بعد شيب الراس تنتظر "
" عاين بقلبك إن العين غافلة ... عن الحقيقة واعلم أنها سقر "
" سوداء تزفر من غيظ إذا سفرت ... للظالمين فلا تبقى ولا تذر "
" لو لم يكن لك غير الموت موعظة ... لكان فيه عن اللذات مزدجر "
" أنت المقول له ما قلت مبتدئا ... هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر "

وقال في ترجمة أبي القاسم المنبشي ما صورته - 9

أبو القاسم المنبشي أحد أبناء حضرة إشبيلية المقلين الناهضين بأعباء
الضرائر المستقلين لم يزل يعيشو لكل ضوء وينتجع مصاب كل نوء فيوما يخصب ويوما يجذب وأونة
يفرح وأخرى ينتدب إلى أن صدقت مخايله فرمقت بخوته وتحايله وأتى من العجب بمنسدل الحجب
ومن الأشر ما لم يأت من بشر وما تصرف إلا في أنزل الأعمال ولا تعرف إلا بأخون العمال لم يفرغ
ربوة ظهور ولم يفرغ باب رجل مشهور وله أدب ولسن ومذهب فيهما يستحسن لكنه نكب عن
المقطع الجزل ومذهب الهزل إلا في النادر فرمما جد ثم أخلق منه ما استجد وعاد إلى ديدنه
عودة أبي عباد إلى واوانه ومدنه وأخذ في ذلك الغرض وليس شرط كتابي بذائه ولا أن يقف حذاءه
وقد أثبت له ما هو عندي نافق ولغرض كتابي موافق فمن ذلك قوله

" يا روضة باتت الأنداء تخدمها ... أتى النسيم وهذا أول السحر "
" إن كان قدك غصنا فالثراء به ... مثل الكمائم قد زرت على الزهر "
" أربأ بخديك عن ورد وعن زهر ... واغن بقرطيك عن شمس وعن قمر "
" يا قاتل الله لحظي كم شقيت به ... من حيث كان نعيم الناس بالنظر "
وله من رثاء في والدتي رحمة الله عليها

" يا ناصحي غير مفتات ولا شجن ... على النصائح والنصاح مفتات "
" لا أستجيب ولو ناديت من كتب ... قد وقذنتي تغلات وعلات "
" إن كان رأيك في بري وتكرمتي ... بحيث قد ظهرت منه علامات "
" لا ترض لي غير شجو لا أفارقه ... فذاك أختاره والناس أشتات "

ومنها

" يا ذا الوزارة من مثنى وواحدة ... لله ما اصطنعت منك الوزارات "
" لله منك أيا نصر أخو جلد ... إذا أمت ملمات مهمات "
" أستودع الله نورا ضمه كفن ... كما توارى بدور التمر هالات "
" قضت وليت شبابي كان موضعها ... هيهات لو قضيت تلك اللبانات "
" مضت ولما يقم من دونها أحد ... هلا وقد أعذرت فيها المروءات "

وله يصف زرزورا

" أمبير ذاك أم قضيب ... يفرعه مصقع خطيب "
" يختال في بردتي شباب ... لم يتوضح بها مشيب "
" كأنما ضمخت عليه ... أبراده مسكة وطيب "
" أخرس لكنه فصيح ... أبله لكنه لبيب "
" جهم على أنه وسيم ... صعب على أنه أريب "

أبو الحسن البرقي - 10

بلنسي الدار نفيسي المقدار ما سمعت له بشرف ولا علمت له بسلف ولا اطلعت منه على غير
سرف ورد إشبيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة واتصل بابن زهر فناهيك من حظ في أكنافه جال
ومن لحظ فيما أرادته أجال ومن أمل استوفر وحظ مسك أذفر ومن وجه جاه له أسفر سلك به ساحة
الרגائب وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب وقال فما نبذت مقالته وأقال فما قيدت إقالته وكان حلو
المجالسة مجلو المؤانسة ذا نشب وافر ومذهب في المساهمة سافر إلا أنه كان كلفا بالفتيان
معنى بهم في كل الأحيان ونيف على السبعين وهو برداء الصبوة مرتد ويعترتها معتد مع أدب زهرته
ترف وكأنه بحر والألباب منه تغترف وقد أثبت له بعض

ما وجدت له في الغلمان وأنشدت له في تلك الأزمان فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى

" إن ذكرت العقيق هاجك شوق ... رب شوق يهيجه الادكار "
" يا خليلي حدثني عن الركب ... ب سحيرا أنجدوا أم أغاروا "
" شغلونا عن الوداع وللوا ... ما عليهم لو ودعوا ثم ساروا "
" أنا أهواهم على كل حال ... عدلوا في هواهم أم جاروا "

وعلق بإشبيلية فتى يعرف بابن المكر وبات من حبه طريقا بين أيدي الوسواس والفكر لا يمشي إلا
صبا ولا يفشي إلا غراما وحبا وما زال يقاسي لوعته مقاساة يناجي به صرعته ويكابد جواه ويلازم
هواه حتى اكتسى خده بالعذار وانمحت عنه بهجة أذار فسلا من كلفه وتصدى ذلك لمواصلته
بصلفه فقال

" الآن لما صوحت وجناته ... شوكا وأضحت سلوة العشاق "

" واستوحشت منه المحاسن واكتست ... أنوار وجهك واهن الأخلاق "
 " أمسيت تبذل لي الوصال تصنعا ... خلق اللئيم وشيمة المذاق "
 " هلا وصلت إذ الشمائل قهوة ... وإذ المحيا روضة الأحداق "
 " يا كم أطلت غرام قلب موجع ... كم قد ألب إليك بالأشواق "
 " ما كنت إلا البدر ليلة تمه ... حتى قضت لك ليلة بمحاق "
 " لاح العذار فقلت وجد نازح ... إن ابن داية مؤذن بفراق "
 " وله فيه مناقضا لذلك الغرض معارضا للوعة سلوه الذي كان عرض
 " يلومون في ظبي تزايد حسنه ... بخطين خطا لوعتي وغراميا "
 " وقد كنت أهوى خده وهو عاطل ... فكيف وقد أضحى لعيني حاليا "
 " وله أيضا في مثله

" أجيل الطرف في خد نصير ... يردد ناظري نظري إليه "
 " إذا رمدت بحمرته جفوني ... شفاها منه إثم عارضيه "

أبو الحسن علي بن جودي - 11

برز في الفهم وأحرز منه أوفر سهم وعانى العلوم بقريحة ذكية وواخى بنفس في المعارف زكية
 وله أدب واسع مداه بانع كالروض بلله نداءه ونظم أرق من دمع العاني ولطيف المعاني وأعبق من
 نفس الخمائيل في أكف الصبا والشمائل ونثر كالزهر المطلول أو السلك المحلول إلا أنه سها
 فأسرف وزها بما لا يعرف وتصدى إلى الدين بالافتراء ولم يراقب الله تعالى في ذلك الاجترأ
 واشتهرت عنه في ذلك أقوال سدد إلى الملة نصالها وأبدى بها ضلالها فعظمت به المحنة وكمنت
 له في كل نفس إحنة وما زال يتدرج فيها وينتقل حتى عثر وما كاد يستقل فمر لا يلوي على تلك
 النواحي وفر لا ينثني إلى لوائم ولواحي وما زال يركب الأهواء ويخوضها وبذل النفس بها ويروضها
 حتى أسمحت ببعض الإسماح وكفت عن ذلك الجماح واستقر عند أبي مالك فأواه ومهد له مثنواه
 وجعله في جملة من اختص من المبطلين واستخلص من المعطلين فكثيرا ما يصطفيهم ولا يدري

أيدخرهم أم يقتنيهم وقد أثبت له ما يهر سامعا ويظهر برقا لامعا فمن ذلك قوله

" أحن إلى ربح الشمال فإنها ... تذكرنا نجدا وما ذكرنا نجدا "
 " تمر على ريع أقام به الهوى ... ويدل من أهليه جائمة ريدا "
 " فيا ليت شعري هل تقضى لبانة ... فأرتشف اللميا وأعتنق القدا "
 " خليلي لا والله ما أحمل الهوى ... وإن كنت في غير الهوى رجلا جلدا "
 " وقوله أيضا

" سل الركب عن نجد فإن تحية ... لساكن نجد قد تحملها الركب "
 " وإلا فما بال المطي على الوجى ... خفافا وما للريح مرجعها رطب "
 " وقوله أيضا

" إذا ارتحلت غربية فأعرضا لها ... فبالغرب من نهوى له البلد الغربا "
 " لقد ساءنا أنا بعيد وأنا ... بأرضين شتى لا مزارا ولا قربا "
 " يفجعنا إما بعاد مبرح ... وإما أمور باعثات لنا كربا "
 " طعنا على حكم الليالي وخطبها ... فيا ليت لم ندر الليالي ولا الخطبا "
 " وكنت أرجي الدهر بعد الذي مضى ... ديارا وقربا والأصادق والصحبا "
 " أحقا يسير الركب لم ترتحل بنا ... إليك ولم تحد الحداة لنا ركبا "
 " وقوله أيضا

" لقد هيح النيران يا أم مالك ... بتدمير ذكرى ساعدتها المدامع "
 " عشية لا أرجو لقاءك عندها ... ولا أنا أن يدنو مع الليل طامع "
 " وقوله أيضا

" حننت إلى البرق اليماني وإنما ... نعالج شوقا ما هنالك هانيا "
 " فيا راكبا يطوي البلاد تحملن ... تحيتنا إن كنت تلجأ لاقيا "
 " ليالينا بالجزع جزع محجر ... سقى الله يا فيحاء تلك اللياليا "
 " وما ضر صحبي وقفه بمحجر ... أحيي بها تلك الرسوم البواليا "
 " وله أيضا

" خليلي من نجد فإن بنجدهم ... مصيفا لبيت العامري ومربعا "
 " ألا رجعا عنها الحديث فإنني ... لأعبط من ليلى الحديث المرجعا "

" عزيز علينا يا ابنة القوم أننا ... غريبان شتى لا نطبق التجمعا "
 " فريق هوى منا يمان ومثنم ... يحاول ياسا أو يحاول مطمعا "
 " كأننا خلقنا للنوى وكأنما ... حرام على الأيام أن تتجمعا "
 ووجدت له في بعض نسخ المطمح قوله أيضا
 " سقى دارك الآتي بطن محصب ... مثاكيل من وفد الغمام المرشح "
 " ألم تعلمي يا فتنة القلب أنني ... تطارحت من حبي لكم كل مطرح "
 " إذا نعت غربان دار وجدنتي ... وشوقي مقيم بين ناء ونزح "
 وله أيضا
 " ألا خبر وللبلوى ضروب ... وفيك لكل مشتاق حبيب "
 " حباك الله بالنعمة فنونا ... وجر لكم مع النعمى خطوب "
 " متى تقضي بخسفتك الليالي ... وتعصف فيكم ريح هبوب "
 " فإنكم تجرون المنيا ... وتعمر من مجانيكم قلوب "
 وقد ذكر في المطمح له تخميسا جاريا على السنة الناس إلى الآن وهو
 " أيا ساكنين بارض اللوى ... وصالكم لسقامي دوا "
 " وعافاكم الله من ذا الجوى ... ملكتم فؤادي فصار الهوى "
 " ...علي رقيب رقيب رقيب "
 " ولما تبدت لهم حالتي ... وما حرك الهجر من زفرتي "
 " بكوا رحمة لي من ساعتني ... فقلت متى الوصل يا سادتي "
 " ... فقالوا قريب قريب قريب "

وهو وإن لم يكن في ذروة البلاغة فقد ذكرته لأنه مطروق بالمغرب عند أهل التلاحين وغيرهم
 ولنذكر بعض نص خطبة المطمح قال رحمه الله تعالى فيه أما بعد حمد الله الذي أشعرنا إيمانا
 والهاما وصير لنا أفهاما وبسر لنا برود آداب ونشرنا للانبعاث لإثباتها والانتداب وصلى الله على سيدنا
 محمد الذي بعثه رحمة ونباه منه ونعمة وسلم تسليمًا فإنه كان بالأندلس أعلام فتنوا بسحر
 الكلام ولقوا منه كل تحية وسلام فشعشعوا البدائع وروقوها وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ثم هووا
 في مهاوي المنيا وانطوا بأيدي الرزايا وبقيت مآثرهم الحسان غير مثبتة في ديوان ولا مجملة في
 تصنيف تجتلي فيه العيون وتجتني منه زهر الفنون إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها واتصال
 صدورها بأعجازها فحللت من الوزير أبي العاصي حكم بن الوليد عند من رحب وأهل وأعل بمكارمه
 وأنهل وندبني إلى أن أجمعها في كتاب وأدركني من التنشط إلى إقبال ما ندب إليه وكتابة ما حث
 عليه فأجبت رغبته وحليت بالإسعاف لبته وذهبت إلى إبدائها وتخليد عليائها وأمليت منها في بعض
 أيام ثلاثة أقسام القسم الأول يشتمل على سرد غرر الوزراء وتناسق درر الكتاب والبلغاء القسم
 الثاني يشتمل على محاسن أعلام العلماء وأعيان القضاة والحكماء القسم الثالث يشتمل على
 ذكر محاسن الأدباء النوايغ النجباء انتهى

وهذه خطبة المطمح الصغير وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك والسلطين حسيما نقلنا
 بعضه فيما مر من هذا الكتاب على أننا نقلنا بعضا من الصغير أيضا فليعلم ذلك من يقف على هذا
 الكتاب ومن له أدنى ممارسة وليراجع من الترجمة الفرق بين كلامه في الصغير وغيره وبالجملة
 فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه الله تعالى في تحلية الناس ووصف أيام الانس
 وليس الخبر كالعيان وقد سردنا بعض كلامه في القلائد وفي المطمح

قطعة من الموشحات

ولنرجع الآن إلى ما كنا بصدده من أمر التوشيح فنقول وتام موشحة ابن سهل التي عارضها
 لسان الدين هو قوله

" هلا درى ظبي الحمى أن قد حمى ... قلب صب حله عن مكنس "
 " فهو في حر وخفق مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقيس "
 " يا بدورا أطلعت يوم النوى ... غررا تسلك بي نهج الغرر "
 " ما لقلبي في الهوى ذنب سوى ... منكم الحسن ومن عيني النظر "
 " أجتني اللذات مكلوم الجوى ... والتذاذي من حبيبي بالفكر "
 " كلما أشكوه وجدا بسما ... كالربي بالعارض المنبجس "
 " إذ يقيم القطر فيها مأثما ... وهي من بهجتها في عرس "
 " غالب لي غالب بالتؤده ... بأبي أفديه من جاف رقيق "

" ما رأينا مثل ثغر نضده ... أقحوانا عصرت منه رحيق "

" أخذت عيناه منه العريده ... وفؤادي سكره ما إن يفيق "

" فاحم الجمة معسول اللمى ... أكحل اللحظ شهى العس "

" وجهه يتلو الضحى مبتسما ... وهو من إعراضه في عبس "

" أيها السائل عن ذلي لديه ... لي جزء الذنب وهو المذنب "

" أخذت شمس الضحى من وحتيه ... مشرقا للصب فيه مغرب "

" ذهبت أدمع أجفاني عليه ... وله خد بلحطي مذهب "

" يطلع البدر عليه كلما ... لاحظته مقلتي في الخلس "

" ليت شعري أي شيء حرما ... ذلك الورد على المغترس "

" كلما أشكو إليه حرقى ... غادرتني مقلته دنفا "

" تركت الحاطه من رمقي ... أثر النمل على صم الصفا "

" وأنا أشكره فيما بقي ... لست أجاه على ما أتلفا "

" فهو عندي عادل إن ظلما ... وعذولي نطقه كالخرس "

" ليس لي في الحب حكم بعدما ... حل من نفسي محل النفس "

" منه للنار بأحشائي اضطرار ... يلتظي في كل حين ما يشا "

" وهي في خديه برد وسلام ... وهي ضر وحريق في الحشا "

" أنقي منه على حكم الغرام ... أسد الغاب وأهواه رشا "

" قلت لما أن تبدى معلما ... وهو من الحاطه في حرس "

" أيها الأخذ قلبي مغنما ... اجعل الوصل مكان الخمس "

" وقد عارض هذا الموشح أيضا بعض متأخري المغاربة فقال "

" يا عريب الحي من حي الحمى ... أنتم عيدي وأنتم عرسي "

" لم يحل عنكم ودادي بعدما ... حلتتم لا وحياة الأنفس "

" من عذيري في الذي أحبته ... مالك قلبي شديد البرحا "

" بدر تم أرسلت مقلته سهم لحظ لفؤادي جرحا "

" إن تبدى أو تثنى خلته ... غصن بان فوقه شمس ضحى "

" تطلع الشمس عشاء عندما ... تنجلي منه بأهوى ملبس "

" وترى الليل أضأ منهزم ... وترى الصبح أضأ في الغلس "

" يا حياة النفس صل بعد النوى ... والهأ مضنى شديد الشغف "

" قد براه السقم حتى ذا الهوى ... كاد أن يفضي به للتلف "

" آه من ذكر حبيب باللوى ... وزمان بالمنى لم يسعف "

" كنت أرجو الطيف يأتي حلما ... عائدا يا نفس من ذا فإياسي "

" هل يعود الطيف صبا مغرما ... ساهرى أجفانه لم تنعس "

" همت في أطلال ليلي وأنا ... ليس في الأطلال لي من أرب "

" ما مرادي رامة والمنحنى ... لا ولا ليلي وسعدى مطلبي "

" إنما سؤلي وقصدي والمنى ... سيد العجم وتاج العرب "

" أحمد المختار طه من سما ... الشريف ابن الشريف الكيس "

" خاتم الرسل الكريم المنتمى ... طاهر الأصل زكي النفس "

وقال في مباراة هذه الموشحات السابقة

" لا تلمني يا عذولي تأثما ... ما ترى جسمي بسقم قد كسي "

" مثلما بشر غرامي علما ... حيث أشكو وحشة من مؤنس "

" ظبي أنس عن فؤادي نفرا ... وفؤادي مكتو من صده "

" وعذولي في هوى الحب فرى ... بملام مذ نهى عن وده "

" أنت أعمى يا عذولي ما ترى ... يانع الورد بدا من خده "

" وله ثغر إذا ما ابتسما ... كبروق أومضت في الغلس "

" وثناياه كدر نظما ... فضياها في الدجى كالقبس "

" كم ترى سحرى بجفنيه بدا ... لفؤاد في الهوى أضحى كليم "

" ليس سحر مقلتي هذا سدى ... يا فؤادي إن شفى السحر السقيم "

" خيفة أوجس قلبي وغدا ... راحلا صبري وها شوقي مقيم "

" يا إله العرش يا رب السما ... يا عليما بضمير الأنفس "

" قلبي الولهان يشكو ألما ... من جفا طربي أغن أكيس "

" أغيد يسبي البرايا بالمقل ... أدعج الجفن بعينه حور "

" لو رأته الشمس أضحت في خجل ... وهو للبدر بوجه قد قمر "

" من معاني حسنه رق الغزل ... في غزال قد غزاني بالنظر "

" أخذ بالروح مني كلما ... رمق الصب بطرف أنعس "

" يقنص الأسد بلحظ قد رمى ... أسهما تفتك من غير قسي "

" يا رعى الله زمانا سلفا ... بلويلات تقضت بانشرح "

" مثل دينار وها قد صرفا ... في ألد العيش مع حب وراح "

" فاعذروا القلب الذي قد شغفا ... بحبيب ما له عنه براح "

" بدر تم أهيف حلو اللمى ... ريقه شهد شهبي اللعس "

" كسلاف عهدا قد قدما ... تنجلي في كأسها كالعرس "

" قهوة بكر عجوز عتقت ... زمنا في دنها من قبل نوح "

" هي لما في زجاج أشرفت ... شمس راح غربت في كل روح "

" جددت بسطا وكم قد مزقت ... قلب صب في غبوق وصيوح "

" حلف الخمار عنها قسما ... أنها بالمكث كادت تنتسي "

" فاسقني صرفا ولا تمزج بما ... راحه كم أذهيت من عبس "

" في رياض قد شدا شحوره ... عاطنيها بين أكناف الشجر "

" وأنظم الشمل ودع منثوره ... حول ورد وأقاح وزهر "

" وإذا الطل بدا شهوره ... كلل الأوراق منه بالدرر "

" ما ترى الريحان عبدا قدما ... حيث أضحى واقفا في المجلس "

" جلس النسرين لكن ربما ... إستحت منه عيون النرجس "

" فتنزه في رياض خضر ... وغصون غردت فيها هزار "

" وانتشق عرف زهور عطر ... باسمين زينته الجلنار "

" وشذا الزهر كمسك أذفر ... واقبل العذر لابن البزدار "

" طامع في رحمة الله وما ... خاب عبد طامع لم يئأس "

" يا إلهي جد علينا كرم ... يا كريما قبل أخذ الأنفس "

رجع إلى موشحات ابن الخطيب

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها

" رب ليل ظفرت بالبدر ... ونجوم السماء لم تدر "

" ... حفظ الله ليلنا ورعى "

" ... أي شمل من الهوى جمعا "

" ... غفل الدهر والرقيب معا "

" ليت نهر النهار لم يجر ... حكم الله لي على الفجر "

" ... علل النفس يا أبا العرب "

" ... بحديث أحلى من الضرب "

" ... في هوى من وصاله أربي "

" كلما مر ذكر من تدري ... قلت يا برده على صدري "

" ... صاح لا تهتمم بأمر غد "

" ... وأجز صرفها يدا بيد "

" ... بين نهر وبلبل غرد "

" وغصون تميل من سكر ... أعلنت يا غمام بالشكر "

" ... يا مرادي ومنتهى أملي "

" ... هاتها عسجدية الحلل "

" ... حلت الشمس منزل الحمل "

" وبرود الربيع في نشر ... والصبأ عنبرية النشر "

" ... غرة الصبح هذه وضحت "

" ... وقيان الغصون قد صدحت "

"...وكان الصبا إذا نفحت "

" وهفا طيبها عن الحصر ... مدحة في علا بني نصر "

" ... هم ملوك الوري بلا ثنيا "

" ... مهدوا الدين زينوا الدنيا "

" ... وحمى الله منهم العليا "

" ... بالإمام المرفع الخطر ... والغمام المبارك القطر "

" ... إنما يوسف إمام هدى "

" ... حاز في المعلوات كل مدى "

" ... قل لدهر بملكه سعدا "

" افتخر جملة على الدهر ... كافتخار الربيع بالزهر "

" ... يا عماد العلاء والمجد "

" ... أطلع العيد طالع السعد "

" ... ووفى الفتح فيه بالوعد "

" وتجلت فيه على القصر ... غرر من طلائع النصر "

" ... فتهنأ من حسنه البهج "

" ... بحياة النفوس والمهج "

" ... واستمعها ودع مقال شجي "

" قسما بالهوى لذي حجر ... ما لليل المشوق من فجر "

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله

" كم ليوم الفراق من غصه ... في فؤاد العميد "

" نرفع الأمر فيه والقصة ... للولي الحميد "

" رحل الركب يقطع البيدا ... بسفين النياق "

" كل وجناء تتلع الجيدا ... وتبذ الرفاق "

" حسبت ليلة اللقا عيدا ... فهي ذات اشتياق "

" صائمات لا تقبل الرخصه ... قبل فطر وعيد "

" فهي مذ أملتة مختصه ... بجهاد جهيد "

ومنه في آخره

" يا إمام العلاء والفخر ... ذا السنا المبهج "

" هاكها لا عدمت في الدهر ... أملا يرتجي "

" عارضت قول بائع التمر ... بمقال شجي "

" غربوك الجمال يا حفصه ... من مكان بعيد "

" من سجلماسة ومن قفصه ... وبلاد الجريد "

وقد ألف رحمه الله تعالى في هذا الفن كتابه المسمى بجيش التوشيح وأتى فيه بالغرائب وذيل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العلم الشهير المنفرد في عصره بحيارة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي رحمه الله تعالى بكتاب سماه مدد الجيش واستهله بقوله حمدا لمن أمد جيش محمد بعترته وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسن بن رحمه الله تعالى ورضوانه عليه ما زاده زينا وأخبرني رحمه الله تعالى أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من ثلاثمائة موشح ولا حرج في إيراد بعضها هنا فمنها قول أحد الواقدين من أهل مكة على عتبة السلطان مولانا المنصور وهو رجل يقال له أبو الفضل ابن محمد العقاد وقد عارض بها موشحتي لسان الدين وابن سهل السابقتين

" ليت شعري هل أروي ذا الظما ... من لمى ذاك التغير الألعس "

" وترى عيناى ربات الحمى ... باهيات بقدود ميس "

" يدخلون السقم من دار اللوى ... كلم الهجر فؤادي وأسر "

" هد من ركن اصطباري والقوى ... مبدلا أجفان نومي بالسهر "

" حين عز الوصل عن وادي طوى ... هملت أعين دمعي كالمطر "

" فعساكم أن تجودوا كرما ... بلقاكم في سواد الحنيس "

" وتداووا قلب صب مغرما ... من جراحات العيون النعس "
 " كلما جن ظلام الغسق ... هزني الشوق إليكم شغفا "
 " واعتراني من جفاكم قلقي ... مذ تذكرت جيادا والصفاء "
 " وتناهت لوعتي من حرقى ... ثم زاد الوجد في التلغا "
 " فأنعموا لي ثم جودوا لي بما ... يطف نيران الجوى ذي القيس "
 " ساعة لي من رضاكم مغنما ... وتداوي جثتي مع نفسي "
 " كنت قبل اليوم في زهو وتيه ... مع أحبائي بسلع العب "
 " ومعني ظبي ياحدى وجنتيه ... مشرق الشمس وأخرى مغرب "
 " فرماني بسهام من يديه ... ضارب البين قلبي متعب "
 " لست أرجو للقاهم سلما ... غير مدحي للإمام الأراس "
 " أحمد المحمودحقا من سما ... الشريف ابن الشريف الكيس "
 ومنها قول بعض المراكشيين
 " واخجلنا للصبح ... والشمس إذلاح جؤذر "
 " ساق يدير الكؤوسا ... تضيء خمرا وتزهر "
 " تقادمت في الدنان ... من عهد نوح تروق "
 " في لونها البهرماني ... تدار فينا وتعبق "
 " قد أطلقت من عنان ... من عن صبح يرقق "
 " يسعى بها من ملاح ... من كان باللحظ يسكر "
 " بالحسن يصبي الجليسا ... ويستخف الموقر "
 " يثير كامن وجد ... في قلب كل سقيم "
 " بسطو علينا بقدر ... يزري بغصن قويم "
 " أشقى بعشقي وودي ... في جنة ونعيم "
 " من ذي الوجوه الصباح ... ياشادنا عن واذكر "
 " وهات لحننا نفيسا ... نرويه عنك ونأثر "
 " في مدح من ساد طفلا ... هذي الباريا وفاقا "
 " من حاز مجدا وفضلا ... بين الأنام وفاقا "
 " في عدله قال قولا ... يسري فيعدو العراقا "
 " في احمد ذي السماح ... في الشرق والغرب ينصر "
 " أحيا الهدى والنفوسا ... وذل ملة قيصر "
 " تراه سلما وحريرا ... من رايه في جنوده "
 " يختال لم يبع عجا ... من عزه في بروده "
 " يهوى المعالي كسبا ... ويقتنيها بجوده "
 " فخار أهل البطاح ... وعز من قد تمصر "
 " ثناه يملا الطروسا ... عن صورة المجد عبر "
 " ملك بنى في البديع ... منازل كالدراري "
 " فيا له من صنيع ... الروض والماء جاري "
 " فقل بصوت رفيع ... إذ بان فجر النهار "
 " أهدي نسيم الصباح ... مسكا شميما وعنبر "
 " وحيء بها خندريسا ... من خد ساقيه تعصر "
 ومن موشحات السلطان المنصور المذكور
 " ريان من ماء الصبا ... أهيف وممتلي البرد "
 " كالغصن هزته الصبا ... فوق الربى الشهب "
 " قد قلت لما أن سبى ... بحسنه يسبي "
 " من عينه سل ظبي ... وغمدها قلبي "
 " أسرني ماضي الثبا ... أوظف مرئح القد "
 " يا فاضح الروض سنا ... بل مخجل البدر "
 " وقاطعي ظلما عنا ... ومن مقره صدري "
 " إن لم تكن شمس دنا ... فإنها تجري "

" علقته من الظبا ... أسجف يسطو على الأسد "

" قلت له وقد نهد ... وجد في حربي "

" وغلب الطيبي الأسد ... ففاز بالغلب "

" الشمسس برجها الأسد ... فاسع إلى قلبي "

ولم يحضرني الآن تمامها

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني

" وليالي الشعور إذ تسري ... ما لنهر النهار من فجر "

" ... حبذا الليل طال لي وحدي "

" ... لو تراني جعلته بردي "

" ... فاطميا في خلعة الجعدي "

" هي ليلي أخت بني بشر ... فأين أنت يا أبا بدر "

" ... كم سقطنا أطف من طل "

" ... واجتمعنا وما درى ظلي "

" ... واسترحنا من كاشح نذل "

" رب ليل ظفرت بالبدر ... ونجوم السماء لم تدر "

" ... وبنفسي مهفهف ألى "

" ... ومطيع وغرني لما "

" ... سألته وقانعي مما "

" في رباط قسمتني صدري ... لحنين وناظري بدر "

" ... وهلال في حسنه اكتملا "

" ... هو شمس وأضلعي الحملا "

" ... قام يشدو وينثني في ملا "

" قسما بالهوى لذي حجر ... ما لليل المشوق من فجر "

من مقطعات المنصور

ثم عن لنا أن نورد هنا جملة من مقطوعات مولانا السلطان المنصور مما تلقيناه عنه أيام كوننا في

إبائه الشريفة فمن ذلك قوله رادا على من قال في ابن أبي الحديد

" لقد أتى باردا ثقيلًا ... ولم يرث ذاك من بعيد "

" فهو كما قد علمت شيء ... أشهر ما كان في الحديد "

ما صورته

" لقد أتى صارما صقيلا ... ولم يرث ذاك من بعيد "

" شديد بأس متى يعادي ... وشدة البأس في الحديد "

ومن نظمه قوله

" لله تمر طيب ... وافى على البشرى انطوى "

" يا حسنه مجتمعا ... يحلو لنا بلا نوى "

وقوله معميا في قمر على طريقة الاكتفاء

" معذبي أعجزني نيله ... من لي بمن مسكنه في السما "

" لم أنس إذ قال إلا تكتفي ... قلت بمن بالطرف قلبي رمى "

وقوله

" تبدى وزند الشوق تقدحه النوى ... فتوقد أنفاسي لظاه وتضرم "

" وهش لتوديعي فأعرضت مشفقا ... على كبد حرى وقلب يقسم "

" ولولا ثواه بالحشا لأهنتها ... ولكنها تعزى إليه فتكرم "

" فأعجب لأساد الشرى كيف أحجمت ... على أنه طيبي الكناس ويقدم "

وقال قدس الله تعالى روحه موربا

" إن يوما لناظري قد تبدى ... فتملى من حسنه تكحिला "

" قال جفني لصنوه لا تلاقى ... إن بيني وبين لقياك ميلا "

وقد تبارى خدام حضرة هذا السلطان في تخميس هذين البيتين ومن أشهر ذلك قول الأستاذ

الحافظ سيدي أحمد الزموري رحمه الله تعالى وكان يصلي بالسلطان التراويح

" ورقيب يردد اللحظ ردا ... ليس يرضى سوى ازديادي بعدا "

" ساءه الطرف مذ جنى الخد وردا ... إن يوما لناظري قد تبتدى "

" ... فتملى من حسنه تكحيفا "

" وتصدى من فحشه في استباق ... يمنع اللحظ من جنى واعتناق "

" أبأس العين من لحاظ ائتلاق ... قال جفني لصنوه لا تلاقى "

" ... إن بيني وبين لقياك ميلا "

ومن نظم السلطان المذكور وهو من أوليات شعره قوله في ورده مقلوبة بين يدي محبوبه

" ووردة شفعت لي عند مرتهنني ... رافت وقد سجدت لغافر الحدق "

" كان خضرتها من فوق حمرتها ... خال على خده من عنبر عبق "

وقال أيضا من أولياته

" شادن نم عليه عرفه ... ما خلاصي من سهام كامنه "

" أحلال فيه أني خائف ... وغزالي بعد خوفاي آمنه "

وقال في وصف رقيب ملازم

" رقيبى كان الأرض مرآة شخصه ... فأين تولى الطرف مني يراه "

" مقيم بوجه الوصل حتى كأنما ... وصالي هلال والسواد صداه "

وقال

" أيا روضة ضنت علي بزهرها ... ولم يتلق ناظراي سواك "

" أبحي لنفسي من شذاك بقاءها ... إذا فت طرفي عل الانف يراك "

وقال أيضا

" على جدول غطت عليه بشعرها ... لئلا يرى الشمس الرقية لي طرف "

" فبت أرى في جدول بدر وجهها ... غريقا ونقطات العبير به كلف "

وقال

" طرقت حماه والأسود خواد ... به فتولى بالطبى وهو يبعد "

" فعلمت آساد الشرى كيف تقدم ... وعلم غزلان النقا كيف تشرد "

وقال

" لما نأى المحبوب رق لي الدجى ... وأتى يعللني برعي كواكبه "

" أولى غراب البين ردك يا حشا ... والبين مزني الصباح كواك به "

وقال معميا باسم حظيته الشهيرة الحسن والإحسان نسيم

" يا هلالا طلوعه بين جفني ... وغزالا كناسه بين جنبي "

" إن سهما رميت غادر هما ... لو تناهى ما شك آخر قلبي "

ورأيت بخطه على هذا المحل ما صورته قولي إن سهما تنصيص وغادر هما إسقاط وهو إشارة لإسقاط هما من هذا الاسم وقولي لو تناهى انتقاد والانتقاد الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ويعني به الحرف الأول من الكلمة والقلب والجوف والحشا والخصر ويراد به الوسط والآخر والمنتهى والختام ويقصد به آخر الكلمة فقولي لو تناهى معناه أنه أخذ لفظة هم غير متناه فبقيت الميم من هما وقولي ما شك آخر قلبي انتقاد أيضا وأردت بأخر قلبي الياء ويسمى أيضا التسمية وهو أن تذكر الاسم وتريد المسمى أو تذكر المسمى وتريد الاسم وقد تم الاسم

واعلم أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن المحسنات ويسمى العمل التذييلي انتهى كلامه على البيتين في اسم نسيم

وقال في اسم غزال وقد جمع تعميمين ولغزا

" وأملد مطوي الحشا زال ردفه ... فلا خصر إلا إن تصورته وهما "

" بنصف اسمه يرمي القلوب وعكس ما ... بقي ابدأ أذن المحب به أصمى "

78 - وكتب عليه ما صورته قولي أملد أردت به بعمل الترادف غصن ومطوي الحشا انتقاد وزال ردفه قضيت به غرضين أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقي بعد طي الصاد التي بوسطه وأثبتته أعني زال في مواضعها أي النون من غصن والحال أن الصاد محذوفة وذلك بعمل الانتقاد وأوضح ذلك بقولي فلا خصر وأن كنت لا أحتاج إليه لئلا يكون في البيت شيء خارج عن التعمية انتهى تفسيره رحمه الله تعالى

ويعني بقوله بنصف اسمه يرمي القلوب غز لأنه نصف غزال ويعني بقوله وعكس ما بقي إلى آخره

لفظة لا لأنها مقلوب ما بقي وهو ال
وقال في اسم سلاف على منهاج ما تقدم
" وأحور وسنان الجفون كأنما ... سقى لحظه من ريق فيه بقرقف "
" نضا صارما لا فل صارم لحظه ... تزايد فيه منذ سل تلاه في "
وفسره بقوله قولي تلاه في من طريق التسمية وفي من العمل التذييلي وهو أن يأتي بالكلمة
بحركاتها وسكناتها وهي من المحسنات كما سبق
وقال في اسم أمنة من التعمية أيضا
" من شقائي فنصته وهو خشف ... في رضاه عن الملوك ابتدلت "
" أملد منه مذ تحلل خصر ... وتثنى عن حبه ما عدلت "
وكتب عليه ما صورته قولي أملد أردت الألف بعمل التشبيه وخصر منه انتقاد وأردت بالخصر وسط
لفظ منه وتحلله أن ينحل السكون الذي على النون وقولي وتثنى أي الألف من التثنية لا التثني
فتم الاسم
بحركاته وعدده انتهى تفسيره
وقال وقد لبس منصورية من النوع الذي يقال له قلب حجر والمنصورية نوع لبس معروف بالمغرب
استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه
" وصفوا اشتياقي للحبيب وسرهم ... قول الحبيب أنا أنا فيه
" قلبي له حجر فقلت مغالطا ... للعاذل المؤذي أنا فيه "
قال وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية منها جناس التركيب المسى بالملفق
وحده بأن يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين وهذا هو الفرق بين الملفق وبين المركب وقل من
فرق بينهما ومنها الانسجام ومنها الاستخدام وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيطمي تعرض
إلى شرحهما بكراسة والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسابي وهو كثير إلا أن هذا العمل
أحسبني أبا عذرتة إذ لم أره لغيري ومادة التعمية فيه أنا أنا فيه قلبي له حجر فقولي أنا أنا فيه
معناه أن تضرب أنا في ه وقولي في ه نص في الضرب ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف
هيمناني وحقك وقولي قلبي له حجر يعمل القلب يصير ربح فصار المجموع هيمناني وحقك يربح
وفيه التورية وهيمناني وحقك الخارج من هذا الضرب فيه تهكم بالواشي فهو من المحسنات أيضا
أعني قوله وحقك ويصلح أن تسمى هذه التعمية بالافتنان لأن الافتنان عندهم أن يفتن الشاعر
فيأتي بفتين متضادين من فنون الشعر في بيت واحد وهذا وقع التضاد فيه في كلمة واحدة فظاهر
أن أنا فيه يضاد هيمناني وحقك يربح الذي يخرج بطريق الحساب فافهمه ويمكن استخراج تعمية
أخرى من قولي للعاذل المؤذي أنا فيه انتهى
والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله أنا فيه أي في هذا الثوب المسمى بقلب حجر كما دلت
عليه الحكاية وأما المعنى الثاني لقوله أنا فيه فظاهر
وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن النرجس
" وأفى بها البستان صنوك وردة ... يقضي بها لما مطلت وعودا "
" أهدى البهار محاجرا وأتى بها ... في وقته كيما تكون خدودا "
" فبعثتها مرتادة بنسيمها ... تثنى من الروض النصير قدودا "
وقال
" لي حبيب يأتي بكل غريب ... هو عندي منكر ومعرف "
" لست أشكو لصيرفي ونحوي ... أنه بي نحا وفي تصرف "
" فعله في لازم متعد ... ومزيد مجرد ومضعف "
وقال
" لا وطيف علم السيف فقد ... في قوام كقنا الخط نهد "
" ووميض لاح لما بسمت ... فأرتنا منه درا او برد "
" ما هلال الأفق إلا حاسد ... منه حسنا وعلاء وغيد "
" ولذا عاش قليلا ناحلا ... كيف لا يغنى نحولا من حسد "
وقد ضمن قوله ما هلال الأفق أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت
المقدس فقال
" قسما بالبيت والركن الذي ... طاب حجا واستلاما للأبد "
" ما هلال الأفق إلا حاسد ... منه حسنا وعلاء وغيد "

وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية هو والعقاد المكي السابق والشريف المدني وهو رجل وافد من أهل المدينة انتمى إلى الشرف فقال إمام الدين يا أمير المؤمنين إن المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال شد أهلها إليك الرحال هذا مكي وذاك مدني وأنا مقدسي ثم أنشد

" إن أمير المؤمنين أحمد ... بحر الندى وفضله لا يجحد "

" فطيبة ومكة أهلها ... والمسجد الأقصى بذاك شهدوا "

رجع إلى نظم المنصور وقال

" وكيف بقلب في هواه مقلب ... وأنى له بين الضلوع مقام "

" فيا شادنا يرعى الحشا أنت بالحشا ... أما لمحل أنت فيه ذمام "

وقال يخاطب رئيس كتابه صاحبنا سيدي عبد العزيز الفشتالي السابق الذكر

" يا كاتباً أفاظه ... تغرس روضاً ذا فنن "

" إن جوابي للذي ... يشكو دناه اردد حزن "

وقال موريا بمصانعه الثلاثة البديع والمسرة والمشتهى

" بستان حسنك أبدعت زهراته ... ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى "

" وقوام غصنك بالمسرة ينثني ... يا حسنه رمانة للمشتهى "

ولولا خوف الإطالة المملة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور رحمه الله تعالى بعض

ما أودى به حقه سقى الله تعالى عهاده وقد بسطت الكلام على السلطان المذكور في كتابي

روضة الأسى العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس وأطال الكلام على

ترجمته صاحبنا

الوزير الكبير الشهيد سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي في كتابه المسمى بمناهل الصفا في

فضائل الشرفا وعهدي به اكمل منه ثماني مجلدات وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وذويه

وألف كاتب أسراره الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى فيه كتاباً سماه الممدود والمقصود من

سنا السلطان المنصور وهذه التسمية وحدها مطربة رحم الله تعالى الجميع

رجع إلى التوشيح

كتب إلي بعض أذكىء الأصحاب الأعيان موشحاً يمدحني به في آخره عارض به موشح لسان الدين

السابق الذي أوله

" جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس "

ونصه

" عطر الأرجاء لما نسما ... شمأل للصيح عند الغلس "

" وأنت شمس الضحى تنسخ ما ... يقرأ الليل لنا من عبس "

" طاف بالكأس من الزهر فتى ... مولع بالصد عني مذ فتى "

" فتن الأبواب لما التفتا ... واحتسى منه ببعض الشفة "

" وأنا ما بين حتى متى ... صده تيه الهوى عن أفتي "

" وكؤوس الراح بين الندما ... أرجت بالعرف أفق المجلس "

" خمرة صفراء في البلور ما ... أشبه الحان بروض النرجس "

" بادر اللذة واجمع شملها ... بمدام وغلأم مطرب "

" ذي عيون ناعسات كم لها ... من فنون السحر ما يلعب بي "

" وافر الأرداف عانى حملها ... ناحل الخصر وذا من عجب "

" كلما أترع كأساً قال ما ... أنت بالشاري حياة الأنفس "

" فابذل الجهد وكن مغتتما ... لنفيس النفس طيب الأنفس "

" فرص الأيام كن منتهزا ... مبتداها قبل حذف الخبر "

" ورحاب الأنس لج منتجرا ... قبل أن تمضي كلمح البصر "

" واجن من زهر الهوى محتزرا ... من جنابات هجوم الكبر "

" لا تخف لوما ويمم حيثما ... لاحت اللذات كالمختلس "

" ما مضى أنس ووافى مثلما ... كان ذا الدهر لنا بالحرس "

" للرياض اذهب ترى بلبلها ... لاشتياق الورد مثل الشكل "

" وخدود الورد قد كللها ... دمع ظل لاشتياق البلبل "

" وقدود البان قد قام لها ... مانع الوصل بحد الأسل "

" والربي فاحت تحاكي خدما ... وعليهن ثياب السندس "

" جيبها زرر بالزهر كما ... زر بالفضة ثوب الأطلس "

" وجلا الروض لنا أشجاره ... مائسات في قباء أخضر "

" وترى في جيدها نواره ... يتللا كعقود الجواهر "

" خلع الليل به أطماره ... فغدا كالصبح باهي المنظر "

" ويقاياه زهت فيه أما ... في شفاه الغيد حسن اللعس "

" كعذار في محيا علما ... فبدا للغير لا الملتمس "

" حبذا الصبوة أيام الصبا ... وعيون الشيب في سهو الوسن "

" فإذا أيقظها دهر صبا ... لصروف حد شفريرها وسن "

" جرد الشيب لنا بيض الشبا ... واقتفى شرخ شباب وطعن "

" وغدا الإنسان شيخا هرما ... واعتراه لاعج من وجس "

" فات إذ مات فيقضي ندما ... واغتنام الوقت شغل الكيس "

" لا تدع عمرك يمضي هدرًا ... أنت إذ ذاك جبان غافل "

" وارق بالجهد من السؤال الذرا ... واجتهد والضرع ضخم حافل "

" إنما الأيام أمثال الشرى ... والجريء الشهم ليث باسل "

" ووحوش الإنس تسعى مغنما ... باردا للأسد المفترس "

" ترك الوهم وخاض الظلما ... وله العزم أضا كالقبس "

" ليس يحظى بالمنى إلا الذي ... كابد الأهوال حتى ظفرا "

" كان للراحة كالمنتبذ ... من وراء الظهر أنى ظهرا "

" مثلما قد بات ذا طرف قذي ... يقطع الليل جميعا سهرًا "

" في طلاب العلم حتى علما ... أنه يملا بروح القدس "

" أحمدالناصب فينا علما ... للتعقى فاز به من يأتسي "

" حل في مصر وإن كان العلا ... قد عفت لما اعتراها في خلل "

" ورياض الفضل لما أن علا ... نفع جهل جف منهن البلل "

" ازدردت أغصانها حتى خلا ... قاعها من عذب ما يشفي العلل "

" نفرت إذ حل فيها كالسما ... وهو بدر بكمال مكتس "

" حوله الطلاب كالشهب سما ... قدرها من نوره المقتبس "

" أيها الطالب للعلم اتد ... ليس إلا بابه ينفعا "

" إن ترم نيل المرجى فاجتهد ... في اتباع للذي يرفعا "

" علم من يعمل إكسير فزد ... منه واترك حاسدا يدفعكا "

" والزم الأعتاب وانزل بالحمى ... خلعا الريقة من قول المسي "

" باعتقاد فاز من قد لثما ... نعله والكبر شأن المبلس "

" مذ خبرت الناس طرا نظرا ... لمناط الأمر في هذا الزمان "

" لم أجد إلا مقالا صدرا ... عن دعاو أخلفت عند العيان "

" غير ما يمليه فانظر لترى ... درر الألفاظ في سمط البيان "

" بديع النطق لما نظما ... بهت المنطيق مثل الأخرس "

" وأتى يخضع جمع العلما ... نحو ذا المفرد في الملتمس "

" إنما المجد الرفيع الممتطي ... رأس الأساد قسرا مثل ذا "

" يدع المرفوع كالمنهبط ... ثم للنازل يعلي منفا "

" ناظرا في أمره بالأحوط ... خافض الطرف على حر القذى "

" كل من أم حماه قد حمى ... بحسام العزم هش الملمس "

" فإذا جرد منه انفصما ... جلمد الصخر بذاك المپس "

" حبذا المغرب قطرا بالسنا ... فضله يبهر بدر الأفق "

" قطره الشامخ قد أهدى لنا ... سيذا قد فاق شمس المشرق "

" كل من فاتته أسباب المنى ... بعلاه للثريا يرتقي "

" قل لمن يرجو سوى المذكور ما ... ينبت الزهر بأرض الپس "

" لا ولا الناس سواء إنما ... رأي من سواهم في هوس "

" لذ بشهم فاز من أمله ... بنوال فاق سح الهامل "

" أثقل السؤدد إذ حملة ... وقر فضل مستبين شامل "

" وحماه الأمن من أم له ... بلغ القصد فبشرى الأمل "

" بحره الوافر بالعلم طما ... كامل الأمداد لم يحتبس "

" نال منه الناس حتى عمما ... مشرقا والغرب للأندلس "

رجع إلى موشحات لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى
فمن المنسوب إلى محاسنه قوله

" قد حرك الجلجل بازي الصباح ... والفجر لاح "

" ... فيا غراب الليل حث الجناح "

وهذا مطلع موشح بديع له لم يحضرني الآن تمامه لكوني تركته وجملة من كلام لسان الدين في
كتبي بالمغرب جبرها الله تعالى علي وهو معارض للموشح الشهير الذي أوله

" بنفسج الليل تذكى وفاح ... بين البطاح "

" ... كأنه يسقى بمسك وراح "

وهذا المنحى هو الذي سلكه الجمال ابن نباته إذ قال مادحا لجلال الدين الخطيب رحم الله تعالى
الجميع

" ما سح محمر دموعي وساح ... على الملاح "

" ... إلا وفي قلبي المعنى جراح "

" بي من بني الأتراك حلو الشباب ... مر السطا "

" عشقته حين عدت الصواب ... من الخطا "

" تشكو حشا الغزلان منه التهاب ... إذا عطا "

" وربما تشكو الغصون اكتئاب ... إذا خطا "

" ما مس ذاك الغصن بين الوشاح ... إلا وراح "

" ... قولني عدولي كله في الرياح "

" أها لصب دمعه حيث كان ... دمع أريق "

" هذا أسير في وجوه الحسان ... وذا طليق "

" أرق جسمي بالضنى يوم بان ... بدر الفریق "

" فها أنا اليوم له يا فلان ... عبد رقيق "

" يزيد أجفاني ندى وارتياح ... نهى اللواح "

" ... مثل جلال الدين يوم السماح "

" حبر له في الخلق ذكر جميل ... لا يفترى "

" ماج على غيظ الغمام البخيل ... محل الثرى "

" ما رأت العين له من مثيل ... ولا ترى "

" يوقد في أوطانه للنزير ... نار القرى "

" شرارها في الكيس حمر صحاح ... لها اقتداح "

" ... لكنها في القلب عذب قراح "

" يا مالك العلم وفيض الندى ... جزت المدى "

" فابق وكل العالمين الفدا ... دع العدا "

" أنت الذي أصبح غيث جدا ... صبح الهدى "

" كم يفتفى منك وكم يقتدى ... ويجتدى "

" علم جلي ونوال صراح ... صفو مباح "

" ... يروي به راوي الرجا عن رباح "

" ومغرم لا يختشي من رقيب ... ولا عدول "

" معلق القلب بشجو عجيب ... ولا وصول "

" يسكر لكن بصفات الحبيب ... لا بالشمول "

" لما رنا الطبي وماس القضيب ... أضحى يقول "

" كم ينتضي جفنك وعطفك صفاح ... على رماح "

" ... ما ذي محاسن ذي خزاين سلاح "

ومن الموشحات الصادرة من المشاركة المعارضة للمغاربة قول عثمان البلطي يمدح القاضي
الفاضل

" ويلاه من رواغ ... بجوره يقضي "
 " ظبي له إغذاذ ... منه الحفا حظي "
 ولم أف على تمامها وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة وهو
 " عقارب الأصداع ... في السوسن الغض "
 " تسبي تقى من لاذ ... بالنسك والوعظ "
 " من قبل أن يعدو ... علي لم أحسب "
 " أن تخضع الأسد ... لجؤذر الربرب "
 " ظبي له خد ... مفضض مذهب "
 " وشادن يبدو ... في صدغه عقرب "
 " رقة زهر الباغ ... في جسمه الفضي "
 " وقسوة الأفلاذ ... في قلبه الفظ "
 " مهفهف بدع ... أصبحت مغرى به "
 " قلبي له ربع ... لو كنت في قلبه "
 " أصابني صدع ... مذ لج في عتبه "
 " السهد والدمع ... حظي من قره "
 " والعين لا ينساع ... لها جنى الغمض "
 " والدمع ذو إغذاذ ... ناهيك من حظ "
 ومن أحسن ما للمشاركة من التوشيح قول الشهاب العزازي يعارض أحمد ابن حسن الموصلي
 " يا ليلة الوصل وكأس العقار ... دون استتار "
 " ... علمتماني كيف خلع العذار "
 " ... اغتتم اللذات قبل الذهاب "
 " ... وجر أذيال الصبا والشباب "
 " ... واشرب فقد طابت كؤوس الشراب "
 " على خدود تنبت الجلنار ... ذات احمرار "
 " ... طرزها الحسن بأس العذار "
 " ... الراح لا شك حياة النفوس "
 " ... فحل منها عاطلات الكؤوس "
 " ... واستجلها بين الندامى عروس "
 " تجلى على خطابها في إزار ... من النضار "
 " ... حبابها قال مقام النثار "
 " ... أما ترى وجه الهنا قد بدا "
 " ... وطائر الأشجار قد غردا "
 " ... والروض قد وشاه قطر الندى "
 " فكمل اللهو بكأس تدار ... على افترار "
 " ... مباسم النوار غب القطار "
 " ... اجن من الوصل ثمار المنى "
 " ... وأوصل الكأس بما أمكنا "
 " ... مع طيب الريقة حلو الجنى "
 " بمقلة أفتك من ذي الفقار ... ذات احورار "
 " ... منصوره الأجفان بالانكسار "
 " ... زار وقد حل عقود الجفا "
 " ... وافتر عن ثغر الرضى والوفا "
 " ... فقلت والوقت لنا قد صفا "
 " يا ليلة أنعم فيها وزار ... شمس النهار "
 " ... حبيت من بين الليالي القصار "
 ويعجبني من موشحات العزازي المذكور قوله
 " ... ما على من هام وجدا بذوات الحلى "
 " ... مبتلى بالحدق السود وبيض الطلى "

" ... باللوى ملي حسن لديوني لوى "

" كم نوى ... قتلي وكم عذبي بالنوى "

" ... قد هوى في حبه قلبي بحكم الهوى "

" ... واصطلى نار تجنيه ونار القلى "

" ... كيف لا يذوب من هام بريم الفلا "

" ... هل ترى يجمعنا الدهر ولو في الكرى "

" ... أم ترى عيني محيا من لجسمي برى "

" ... بالسرى يا حادي ركب بليلى سرى "

" ... علا قلبي بتذكار اللى علا "

" ... وانزلادون الحمى حى الحمى منزلا "

" ... بي رشا دمعى بسرى فى هواه فشا "

" ... لو يشابرد منى جمرات الحشا "

" ... ما مشى إلا انثنى فى سكره وانتشى "

" ... عطلا من الحميا يا مدير الطلا "

" ... ما حلا إذا أدار الناظر الأكحلا "

" ... هلا يلام من غلب الحب عليه فهام "

" ... مستهام بفاتر اللحظ رشيق القوام "

" ... ذى ابتسام احسن نظما من حباب المدام "

" ... لو ملا من ريقه كأسا لأحيا الملا "

" ... أو جلا وجها رأيت القمر المجتلى "

" ... لو عفا قلبك عمن زل أو من هفا "

" ... أو صفا ما كان كالجلمد أو كالصفا "

" ... بالوفا سل عن فتى عذبه بالجفا "

" ... هل خلا فؤاده من خطرات الولا "

" ... أو سلا أو خان ذاك الموثق الأول "

وقوله أيضا يعارض الموصلي

" ما سلت الأعين الفواتر ... من غمد أجفانها الصفاح "

" إلا أسالت دم المهاجر ... من غير حرب ولا كفاح "

" تالله ما حرك السواكن ... غير الأطباء الجأزر "

" لما استجاشت بكل طاعن ... من القدود النواضر "

" وفوقت أسهم الكنائن ... من كل جفن وناظر "

" عرب إذا صحن يا لعامر ... بين سرايا من الملاح "

" طلعت علينا من المهاجر ... طلائع تحمل السلاح "

" أحب بما تطلع الجيوب ... منها وما تبرز الكلل "

" من أقمر ما لها مغيب ... وأغصن زانها الميل "

" هيهات أن تعدل القلوب ... عنها ولو جارت المقل "

" لما توشحن بالغدائر ... سفرون عن أوجه صباح "

" فانهزم الليل وهو عاثر ... بذيله واختفى الصباح "

" وأهيف ناعم الشمال ... تهزه نسمة الشمال "

" فيئنثني كالقضيبي مائل ... كما انثنى شارب ومال "

" له عذار كالندى سائل ... لله كم من دم أسال "

" شقت على نبتة المرائر ... من داخل الأنفس الصفاح "

" تكل فى وصفه الخواطر ... وتخرس الألسن الفصاح "

" ظبي إلى الإنس لا يميل ... الشمس والبدر من حلاه "

" الحسن قالوا ولم يقولوا ... مبداه منه ومنتهاه "

" وطرفه الناعس الكحيل ... هيهات من سيفه النجاه "

" أذل بالسحر كل ساحر ... فهو له خافض الجناح "

" يجول فى باطن الضمائر ... كما يجول القضا المتاح "

" أما ترى الصبح قد تطلع ... مذ غمضت أعين الغسق "

" والبدر نحو الغروب أسرع ... كهارب ناله فرق "

" والبرق بين السحاب يلمع ... كصارم حين يمتشق "

" وتحسب الأنجم الزواهر ... أسنة ألفت الرماح "

" فانهزم النهر وهو سائر ... فدرعته يد الرياح "

وموشحة الموصلي التي عارضها العزازي هي قوله

" رنا بأجفانه الفواتر ... لما انثنى واحد الملاح "

" فسل من طرفه بواتر ... وهز من عطفه رماح "

" ناظره جرد المهند ... وعمده مني الحشا "

" وعامل القد فهو أملد ... يطعن للقلب إن مشى "

" والعارض القائم المزرد ... لفتنة الناس قد نشأ "

" والحاجب القوس بالفواتر ... لنبله في الحشا جراح "

" ومشرف الصدغ فهو جائر ... سلطانه للذما أباح "

" فجفنه الفاتك الكناني ... من ثعل راش لي نبال "

" وهو الخفاجي قد غزاني ... ووجهه من بني هلال "

" عبسي لحظ له سباني ... جسم زيدي بالدلال "

" والردف يدعى من آل عامر ... وواضح الصلت من صباح "

" وخصره من هشيم ضامر ... يدور من حوله وشاح "

" فوجهه جنة وكوثر ... رضابه العذب لي حلا "

" والنار في وجنتيه تسعر ... حبالها خاله اصطلى "

" عجبت من خاله المعنبر ... إذ يعبد النار كيف لا "

" يحرق بالنار وهو كافر ... وما سقى ريقه القراح "

" كامل حسن معناه وافر ... بسيط وصف كالمسك فاح "

" ما اخضر نبت العذار إلا ... بأسه سيح الشقيق "

" وهو كمثل سعى وولى ... ولم يجد للجنى طريق "

" من ريقه البدر إذ تجلى ... في هالة العارض الأنيق "

" لما تبدى بالوجه دائر ... وحير العقل حين لاح "

" شق علي خده المرائر ... وقطع الأنفص الصحاح "

" ورب يوم أتى وحيا ... كالشمس والنجم والقمر "

" بالكأس والراح والمحيا ... ثلاثة تغتن البشر "

" وقال قم يا نديم هيا ... اقض بنا لذة الوطر "

" فالخمر تجلى على المزاهر ... من اغتباق إلى اصطباح "

" وطافت الراح بالمجامر ... من عنبر الزهر في البطاح "

ومما يطربني من الموشحات قول بعضهم

" ما بي شمول إلا شجون ... مزاجها في الكاس دمع هتون "

" لله ما بذر ... من الدموع "

" صب قد استعبر ... من الولوع "

" أودى به جوذر ... يوم الطلوع "

" فهو قتيل لا بل طعين ... بين الرجا والياس له سنون "

" جرحت للحين ... كفى بكفي "

" وحيل ما بيني ... وبين إلفي "

" لا شك بالبيت ... يكون حتفي "

" حال الرحيل ولي ديون ... إن ردها العباس فهو الأمين "

" أما ترى البدر ... بدر السعود "

" قد اكتسى خضرا ... من البرود "

" إذا انثنى نضرا ... من القدود "

" أضحى يقول مت يا حزين ... قد اكتسى بالآسى الياسمين "

" قلت وقد شرد ... النوم عني "

" وأياس العود ... السقم مني "
" صد فلما صد ... قرعت سني "
" جسمي نحيل لا يستبين ... يطلبه الجلاس حيث الأنين "
" تجاوز الحدا ... قلبي اشتياقا "
" وكلف السهدا ... من لا أطاقا "
" قلت وقد مدا ... ليلي رواقا "
" ليلي طويل ولا معين ... يا قلب بعض الناس أما تلين "

الباب السادس

في مصنفاته في الفنون ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمت نحو الستين وكلها في غاية البراعة بحيث إنه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به بل وكثير من غير أهل عصره رحمه الله تعالى وقد وقفت بالمغرب على كثير منها وفيها أقول مضمنا ببعض تغيير

" تصانيف الوزير ابن الخطيب ... ألد من الصبا الغض الرطيب "
" فأية راحة ونعيم عيش ... توازي كتبه أم أي طيب "
قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر الإحاطة ما صورته

التواليف التاج المحلي في مساجلة القدر المعلى و الكتيبة الكامنة في ادباء المائة الثامنة و الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر ثم النقاية بعد الكفاية هذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد وطرفة العصر في دولة بني نصر في أسفار ثلاثة و بستان الدول موضوع غريب ما سمع بمثله قل أن شذ عنه فن من الفنون يشتمل على شجرات عشر أولها شجرة السلطان ثم شجرة الوزارة ثم شجرة الكتابة ثم شجرة القضاء والصلاة ثم شجرة الشرطة والحسبة ثم شجرة العمل ثم شجرة الجهاد وهي فرعان أسطول وخيول ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين ثم شجرة الرعايا وتقسيم هذا كله غريب يرجع إلى شعب وأصول وجرائيم وعمد وقشر ولحاء وغصون وأوراق وزهرات ثمرة وغير ثمرة مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصيغ اسم الفن المراد به وبرنامجه صورة بستان كمل منه نحو من ثلاثين سفرا ثم قطع عنه الحادث على الدولة وديوان شعري في سفرين سميته الصيب والجهم والماضي والكهام والنثر في غرض السلطانيات كثير والكتاب المسمى باليوسفي في صناعة الطب في سفرين كبيرين كتاب ممتع وعائد الصلة وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير في سفرين وكتاب الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة كتاب كبير في أسفار تسعة هذا متصل بأخرها وتخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة وجيش التوشيح في سفرين ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كيان الدولة نفاضة الجراب في علالة الاغتراب موضوع جليل في أربعة أسفار وكتاب عمل من طب لمن حب ومنزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية لا نظير له ومن الأراجيز المسماة رقم الحلل في نظم الدول والأرجوزة المسماة بالحلل المرقومة في اللمع المنظومة ألفية من ألف بيت في أصول الفقه والأرجوزة المسماة بالمعلومة معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم

إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالا لا يشينه نقص والأرجوزة المسماة بالمعتمدة في الأغذية المفردة والأرجوزة في السياسة المدنية إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز في عمل الترياق الفاروقي والكلام على الطاعون المعاصر والإشارة وقطع السلوك ومثلى الطريقة في ذم الوثيفة حتى في الموسيقى والبيطرة والبيطرة هذر كنف به الحجاب ولعب بالنفس الإيجاب وضاع الزمان ولا تسل بين الرد والقبول والنفي والإيجاب والله در القائل وهو المؤلف

" والكون أشرك نفوس الورى ... طوبى لنفس حرة فازت "
" إن لم تحز معرفة الله قد ... أورطها الشيء الذي حازت "

وكل ميسر لما خلق له ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم انتهى ما له في آخر الإحاطة بحروفه قلت ولنذكر ما تأخر تاريخه عن الإحاطة أو أشير إليه فيها مجملا فنقول من أشهر توالييفه رحمه الله تعالى كتاب ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب في عدة مجلدات وهو داخل في قوله السابق في الإحاطة والنثر في غرض السلطانيات كثير وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم

وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى وذكر في صدره خطب بعض كتبه وفي آخره بعض مقاماته وتحليلته لأهل عصره وغير ذلك وبالجملة فهو كتاب مفرد في باب
وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى في كتابه نثر فرائد
الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان ما صورته لابن الخطيب
الأوضاع المصنفات التي أذان إحسانها هي المقرطات المشنقات منها في التصوف الذي أكثر أهل
الحقائق إليه نظر التشوف روضة التعريف بالحب الشريف انتهى وسرد غير هذا الكتاب مما قدمنا
ذكره وغيره

وهذا الكتاب أعني روضة التعريف غريب المنزع وعارض به ديوان الصبابة لابن أبي حجلة صاحب
السكردان وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العجاب وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة
المطلقة وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ونسيوه إلى مذهب
الحلول وغيره مما ذكره يطول حسبما المعنى بذلك فيما سبق وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات
أفنان وعمود مشتمل على القشر والعود وأوراق وصورة طائر فوقها ولم أر في مثله جازاه الله
تعالى عن نيته فإنه في الحب الشريف الرباني مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته
ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق للمحة البدرية في الدولة النصرية وكتاب السحر والشعر
ومعيار الأخبار و مفاضلة مالقة وسلا وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف وقد ذكرهما في الريحانة
بنصهما وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه والمسائل الطبية في مجلد والكتيبة الكامنة في
شعراء المائة الثامنة ورسالة تكون الجنين والوصول لحفظ الصحة في الفصول وكتاب الوزارة ومقامة
السياسة والغيرة على أهل الحيرة وحمل الجمهور على السنن المشهور و الزبدة الممخوذة والرد
على أهل الإباحة وسد الذريعة في تفضيل الشريعة وتقرير الشبه وتحرير الشبه واستئزال اللطف
الموجود في سر الوجود وأبيات الأبيات فيما أختاره رحمه الله تعالى من مطالع ما له من الشعر
وفنات الخوان ولقط الصوان في سفر يتضمن المقطوعات فقط وكناسة الدكان بعد انتقال السكان
والدرر الفاخرة واللحج الزاخرة جمع فيه نظم ابن صفوان وأعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من
ملوك الإسلام وما يجر ذلك

من شجون الكلام و المباخر الطبيعية في المفاهر الخطيبية وخلع الرسن في أمر القاضي ابن
الحسن وتدوين شعر شيخه ابن الجياب وجمع نثر المذكور وسماه تافه من جم ونقطة من يم
وشرحه لكتاب نفسه رقم الحل في نظم الدول فهذا ما حضرني علمه من تواليف لسان الدين
رحمه الله تعالى فأما البيزة ففي مجلد وأما البيطرة فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من
محاسن الخيل وغير ذلك وأما رجز الأصول فقد شرحه قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن
بن خلدون صاحب التاريخ المشهور وأما رقم الحل في نظم الدول فهو في غاية الحلاوة والعذوية
والجزالة وقد كنت بالمغرب أحفظ أكثره فنسيته الآن وابتدأه بقوله

" الحمد لله الذي لا ينكره ... من سرحت في الكائنات فكره "

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد

" ثم الوليد بن يزيد العائث ... قد نقلت من فعله خبائث "

وفي آخر دولة بني أمية قوله

" وصار قصر الملك من أمية ... أقفر ربعا من ديار ميه "

وفي الأمين

" باع العلا بشادن وكاس ... وصحبة الشيخ أبي نواس "

وفي المعتصم

" وهو الذي تألف الأتراكا ... فنصبوا لقومه الأشراكا "

ومن أبيات هذا الكتاب قوله

" ويفسد الملك بالاحتجاب ... كذاك بالزهو وبالإعجاب "

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك

" وأفقرت من ملكه أوطانه ... سبحان من لا ينقضي سلطانه "

معلومات عن كتاب الإحاطة

وأما كتاب الإحاطة فهو الطائر الصيت بالمشرق والمغرب والمشاركة أشد إعجابا به من المغاربة
وأكثر لهجا بذكره مع قلته في هذه البلاد المشرقية وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر
البيشتكي وسماه مركز الإحاطة في أدباء غرناطة وهو في مجلدين بخطه رأيت الأخير منهما بمصر
وقال في آخره ما نصه هذا آخر ما أردت إيراده وفوفت أبراده من كل طرفة وتحفة وفائدة أدبية ونادرة

تاريخية في كتاب الإحاطة بتاريخ غرناطة ولما كان المعول عليه والباعث الداعي إليه ذكر أديائه ومآثر علمائه سميته مركز الإحاطة بأدباء غرناطة والحمد لله أولا وآخرا وباطنا وظاهرا علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقير إلى عفوره محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي لطف الله تعالى به بمنه وكرمه مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل انتهى

وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلد إذ هو في مجلدين كما سبق ونسخة الأصل في ثمانية مجلدات فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها

ولما وقف سلطان الأندلس من كتاب الإحاطة نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابن عاصم حجة الوقفية بخطه ولنشيتها لما فيها من الفوائد قال

الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي أشي نزيل تلمسان المحروسة كان على ظهر النسخة الزائقة الجمال والفائقة الكمال من الإحاطة بتاريخ غرناطة المحبسة على المدرسة اليوسفية من الحضرة العلية بخط قاضي الجماعة ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة صدر البلغاء وعلم العلماء ووحيد الكبراء وأصيل الحسباء الوزير الرئيس المعظم أبي يحيى ابن عاصم رحمة الله تعالى عليه ما نصه الحمد لله الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام وشهدت به العقول الراجحة والأحلام وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الأبواب وتتفاضل الأفهام وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرضت الأوهام وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول ويستنبط المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل ومنتهم من صحة النظر إلى أكرم قبيل فلا خفاء أن كتاب الإحاطة للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبدالله ابن الخطيب رحمه الله تعالى من أثر هذه الدولة النصرية أدامها الله تعالى بكل اعتبار ومآثرها التي هي عبرة لأولى الأبواب وذكرى لذوي الأبصار أما الأول فلأن الأنبياء التي أظهرت بهجتها وأوضحت حجتها وشرفت مقصدها وكرمت مصعدها إنما هي مناقب ملوكها الكرام ومكارم خلفائها الأعلام أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأقلام وأفاد حفظه الدين والدنيا والشرف والعليا والملك والإسلام أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك وينتظم نظم الجمان في ذلك السلك من حصانة قلعتها وأصالة منعتها وقديم اختطاطها وكريم جهادها ورباطها وحسن تربيها ووضعها وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربعا وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممن انتابها

من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل وأما ثانيا فإن راسم آياتها المتلوة ومبدع محاسنها المجلوة وناقل صورتها من الفعل إلى القوة إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمة ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الديمه فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف على الانصاف فأخلاف هذه المكارم النصرية أرضعته وعناياتها الجميلة أسمته فوق الكواكب ورفعته وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ومن كريم تشريفها اكتسب والحضرة هي منشؤة الذي عظم فيه قدره بل أفقه الذي أشرق فيه بدره والتشريفات السلطانية التي فتقت للها باللها وأحلت من مراقي العز فوق السها وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق وطوقت المنن كالقلائد في الأعناق وقلدت الرياسة والأقلام أفلام وثنت الوزارة والأعلام أعلام فبهرت أنواع المحاسن وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الأسن وبرعت التواليف في الفنون المتعددة واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكدة إذ أظهر هذا الاستدلال وأوضح البيان ما كتبه الإجمال فلنفسح الآن بما قصد ولنحقق من أنجم السعادة ما رصد وذلك أن لمولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصرين أيده الله ونصرة وسنى له الفتح المبين ويسره مآثر لم يسبق إليها ومكارم لم يجر أحد ممن وسم بالكرم عليها لجلالة قدرها وضخامة أمرها من ذلك هذا المقصد الذي أثر لها كالكتاب المذكور وسواه مما هو واحد في فنه وفذ في معناه عقد في جميعها التحبب على أهل العلم والطلبة بحضرتة العلية هنالك ليشمل به الإمتاع ويعم به الانتفاع والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم وهذه النسخة في اثني عشر سفرا متفقه الخط والعمل اكتب هذا على ظهر الأول منها وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة عرف الله تعالى بركته بمنه انتهى

وكان لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى أرسل في حياته نسخة من الإحاطة إلى مصر

ووقفها على أهل العلم وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء وقد رأيت منها المجلد الرابع وهذا نص ووقفته الحمد لله وحده وقف الفقير الى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي نفع الله تعالى به عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السلماي فسح الله تعالى في مدته وفتح لنا وله أبواب رحمته ومنحنا وإياه من رفته وعطيته وأسكننا وإياه أعالي جنته جميع هذا الكتاب تاريخ غرناطة وهو ثمانية اجزاء هذا رابعها عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره وهو أنه فوض اليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها وشؤونه جميعها والنظر في احواله على اختلافها وتباين أجناسها تفويضا تاما على العموم والإطلاق والشمول والاستغراق لم يستثن شيئا مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بئثر الإسكندرية المحروس أدام الله تعالى أيامه كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربيعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذي الحجة عام سبعة وستين وسبعمئة وقفا شرعيا على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخا ومطالعة وجعل مقره بالخانقاه الصالحة سعيد السعداء رحم الله تعالى وإقفها وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة جرسه الله تعالى ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة فلا يحل لأحد يؤمن بالله العظيم ويعلم أنه صائر الى ربه الكريم أن يبطله ولا شيئا منه ولا يبده ولا شيئا منه فمن فعل ذلك أو أعان عليه وإنما إثمه على الذين يبطلونه إن الله سميع عليم ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعمئة انتهى وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقرئ المؤرخ ونصه انتقى منه داعيا لمؤلفه أحمد ابن علي المقرئ في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمئة

وما رقمه الحافظ السيوطي ونصه الحمد لله وحده طالعه على طبقات النحاة واللغويين وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين وثمانمئة انتهى وبعد هذين ما صورته انتقى منه داعيا لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني سنة أربع وخمسين وتسعمئة

وبعده ما صورته أنها نظرا وانتقاء علي الحموي الحنفي لطف الله به وخط مولانا العارف الرياني علامة الزمان وبركة الأوان سيدي الشيخ محمد البكري الصديقي ما نصه طالعه مبتهجا برياضه المونقة وأزهار معانيه المشرقة مرتقيا في درج كلماته العذاب سماء الاقتباس مقتنيا من لطائفه دررا وجواهر بل أحاشيها بذلك القياس كتبه محمد الصديقي غفر الله له انتهى

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن دقماق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ومن المغاربة ابن المؤلف أبي الحسن علي ابن الخطيب والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني والنحوي الراعي والشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسي شارح الألفية وصاحب التأليف وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم رحم الله تعالى جميعهم

وقد اشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيرا له ثم انفصل عنه حسبما تقدم إلى ما يتعلق بكتاب الإحاطة في جملة كلام نصه وتلقينا ممن نثق به أن الكاتب المجيد الأصيل حسبا البارع أدبا أبا عبد الله ابن جزى وقد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمئة فأكرم جنابه وكمل من تقريره واصطناعه آراهه فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي وصاح بمن عدله " ... أيا ويح الشجي من الخلي "

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضع فلم يكن شيء من الكلام إلا قال الإحسان وأنا معه استوعب ما شاء وأبدع في كل ما نقل سواء كان شعرا أو إنشأ لكن سابق أجله منع من الإمتاع بمجمله ومفصله وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمئة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكائنة خاص الدولة ورئيس الجملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب فوقف من تاريخ ابن جزى على شاطئ نهر فياض وانتشق من ورقاته أزهار رياض وحمله النظر في

بدائعه على أن يأخذ في جمع كتابه المسمى بالإحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة ووجد لذلك موجبا أغراه بجمعه وهو أن الشيخ الحجة الشاعر المغلق أبا إسحاق ابن الحاج وفد على الأندلس بعد جوبه في الآفاق وترحله إلى ما وراء الشام والعراق وإعلامه أنه يذهب في بداية تاريخ مذهب ابن جزى وغيره وكان وحيدا في فنون الآداب والمساجلة لأعلام الكتاب ويحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان ابي عنان وجد الحاجب الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة واقنعه بالاسم من ذلك المسمى ويأن وقفه دون طموحه إلى عادته من المرقب الأسمى فأنتج الانتباز من تلك الرياسة الخطيبية أن ألقى الخطبة على جلاله مقدارها وتوضح أنوارها في مرتقى إجلالها وإكبارها وأخذ في تأليف الإحاطة مستدعيا تصحيح الموالد والوفيات والأسماء والمسميات ومستكثرا من طرف المصنفات ليتم قصده من الإطناب ونقله العيون الرائقة من كل كتاب وألقى جميع مقاصده والمعظم من تنظيم فرائده بيد الشيخ العمدة معلم الجملة منا كتاب الله وسنة رسوله ابي عبد الله الشريشي قدس الله تعالى ضريحه وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سن الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نقله وأحكم جنسه وفصله وانختم على مجلدات ستة ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغني بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمئة تلاحقت الفروع من كتاب الإحاطة بالأصول وأنجز من التبحر في الوعد الممطول ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتممة من اثني عشر سفرا انتهى كلامه وقد علمت أن المكتوب في الوقفية كما مر ثمانية مجلدات لا اثنا عشر فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر والله سبحانه وتعالى أعلم والكاتب أبو عبد الله ابن جزى الذي أشار إليه قد عرفنا به فيما سبق فليراجع

ترجمة ابن الحاج النميري

وأما العلامة ابن الحاج فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النميري ويعرف بابن الحاج الغرناطي قال في الإحاطة نشأ على عفاف وطهارة وبر وصيانة وبلغ الغاية في جودة الخط وارتسم في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمئة مع حسن سمت وجودة أدب وخط وظهور كفاية يقيد ولا يفتر ويروي الحديث مع الطهارة والنزاهة مليح الدعاية طيب الفكاهة شرق وحج وتطوف وقيد واستكثرت ودون رحلة سفره وناهيك بها طرفة وقفل لإفريقية وخدم بعض ملوكها وكتب ببجاية ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ثم كتب عن صاحب بجاية ثم تنزه عن الخدمة وانقطع بتربة الشيخ أبي مدين مؤثر الخمول ذاهبا مذهب العكوف بباب الله تعالى حجة على أهل الحرص والتهاوت ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس وتلقي ببر وتنويه وعناية وولي القضاء بقرب الحضرة وهو الآن من صدور القطر وأعيانه متوسط الأكتحال روى عن مشيخة بلده واستكثرت وأخذ في رحلته عن ناس شتى وألف وتأليف منها إيقاظ الكرام بأخبار المنام وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة و نزهة الحدق في ذكر الفرق وكتاب اللباس والصحة في جمع طرق المتصوفة المدعي أنه لم يجمع مثله وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالمشرق وجزء في الأحكام الشرعية سماه بالفصول المقتضية في الأحكام المنتخبة ورجز في الجدل ورجز صغير في الحجب والسلاح ورجز صغير سماه بمثلث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمئة وامتنح بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ثم فكه الله تعالى انتهى ملخصا وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب التحفة وغيره وهو من الأدباء المكثرين وكان عندي بالغرب مجلد من رحلته التي بخطه وقد أتى فيه بالعجب العجاب وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق لأنه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزي وناهيك بالثلاثة وغيرهم ممن يطول تعدادهم وله النظم الرائق العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقة المشاركة كما ستراه فمن نظمه يمدح الحفاظ جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي وقد أبصره على أسرة دار الحديث الأشرفية بدمشق " جمال الدين للإقراء يعلو ... أسرته إذا اصطف الرجال "

" فمذ جليت محاسنه بدا لي ... محيا في أسرته الجمال "

ضمن قول المعري

" اهل فبشر الأهلين منه ... محيا في أسرته الجمال "

وقوله في الحافظ علم الدين ابي القاسم محمد بن يوسف البرزالي
" نوى النوى علم الدين الرضى فأنا ... من بعد فرقته بالشام ذو الم "
" فلا تلمني على حبي دمشق فقد ... أصبحت فيها زمانا صاحب العلم "
وقال فيه أيضا
" نوى النوى علم الدين الرضى فذكت ... نار اشتياقي حتى استعظموا ألمي "
" فقلت إنني من قوم شعارهم ... جود فلا تنكروا ناري على العلم "
وقال في الحافظ شمس الدين الذهبي
" رحلت نحو دمشق الشام مبتغيا ... رواية عن ذوي الأحلام والأدب "
" ففزت في كتب الآثار حين غدت ... تروى بسلسلة عظمى من الذهب ي "
وقال في الحافظ المزري أيضا
" جمال الدين أضحى في دمشق ... إماما نحوه طال الذميل "
" فلم أعدم بمنزله جميلا ... فحيث هو الجمال هو الجميل "
وقال حين بدوره على الأمير الصالح المحدث الجليل قطب الدين أبي إسحاق إبراهيم ابن الملك
المجاهد سيف الدين إسحاق ابن السلطان الملك الرحيم بدر الدين بن لؤلؤ بن عبد الله النوري
صاحب الموصل لبروي عنه
" إلى قصد قطب الدين وافيت عندما ... أقمت على الترحال في الشرق والغرب "
" وأصبحت كالأفلاك في السير والسرى ... فها أنا في مصر أدور على القطب "
وقال في قاضي القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندي وهو ممن أخذ عنه بنغر
الإسكندرية
" ولما اختبرت ذوات الورى ... تعجبت من حسن ذات العماد "
" فتلك التي لم أكن مبصرا ... مدى عمري مثلها في البلاد "
وقال في القاضي وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجي
" أضحى وجيه الدين أسبق سابق ... في العلم والعلباء والخلق النبیه "
" عجب الورى من سبقه وتعجبوا ... فأجبتهم لا تنكروا سبق الوجيه "
ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى قوله
" قد قارب العشرين طربي لم يكن ... ليرى الورى عن حبه سلوانا "
" وبدا الربيع بخده فكأنما ... وافى الربيع ينادم النعمانا "
وقوله
" وعارض في خده نباته ... بحسنه بين الورى يسحرنا "
" أجرى دموعي إذ جرى شوقا له ... فقلت " هذا عارض ممطرنا "
وقال وقد توفي أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولي ابنه أبو حفص عمر بعد قتله لإخوته
" وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصبا ... وإخوته أولى وقد جاء بالنكر "
" فقلت لهم كفوا فما رضي الورى ... سوى عمر من بعد موت أبي بكر "
وقال
" أتوني فعابوا من أحب جماله ... وذاك على سمع المحب خفيف "
" فما فيه عيب غير أن جفونه ... مراض وأن الخصر منه ضعيف "
وقال
" أيا عجبا كيف تهوى الملوك ... مجلي وموطن أهلي وناسي "
" وتحسدني وهو مخدومة ... وما أنا إلا خديم بغاس "
وقال
" لي المدح يروى منذ كنت كأنما ... تصورت مدحا للورى وثناء "
" وما لي هجاء فاعجبين لشاعر ... وكاتب سر لا يقيم هجاء "
وقال في حقه القاضي أبو البقاء خالد البلوي نقلت من خط سيحري ورفيقي وصديقي إمام
المسلمين برهان الدين أبي إسحاق ابن إبراهيم بن عبدالله بن الحاج وأكثره مما كان أنشدنيه
قديما من نظمه في التورية قوله
" ومهارة تقول إن هي كلت ... ودعا للمزاح خل ممازج "
" وازر الردف إن في الأزر مني ... رمل يبرين يا طبيب وعالج "
وقوله

" وروض ممحل جذب المراعي ... سريع القيط وقدما والتهابا "

" حكى ابن أبي ربيعة لا شجونا ... ولكن كونه يهوى الربابا "

وقوله

" وطببي طر عارضه وأعفى ... عذارا بعد يزهو باخضرار "

" رأى سقما بمقلته فوافى ... بأس عاد لكن من عذار "

وقوله

" أتوني بنمام من الروض يانع ... سقته الغوادي كل أسجم مدرار "

" فلا غرو إن أصليته نار زفرتي ... وحكم على النمام الإلقاء في النار "

وقوله

" هذه الشمس بالحجاب توارت ... بعد نور لها ورحب وبشر "

" وأتى الليل بالنسيم عليلا ... فهو يمشي من أفقه لابن زهر "

يعني بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي فإنه كان وحيد دهره في الطب فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة الى الغاية

وقال أبو إسحاق النميري المذكور

" أيا ضوء الصباح ارفق بصب ... تسيل دموعه في الخد سيلا "

" وكنت بليلة ليلاء طالت ... فها أنا في الورى مجنون ليلا "

وقال يخاطب شيخه سيف الدين

" لمولاي سيف الدين في الفقه بيننا ... مقام اجتهاد ليس يلحقه الحيف "

" فتقليده فرض على أهل عصرنا ... ولا عجب عندي إذا قلد السيف "

وقال

" رعى الله معطار النسيم فإنه ... رأى من غصون البان ما شاء من عطف "

" وأبدي حديث الغيث وهومسلسل ... لذاك لعمرى ليس يخلو من الضعف "

وترشحت التورية بكون المحدثين يقولون الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف ولو في التزام التسلسل مع كون متن الحديث صحيحا كما قرر في محله

وقال رحمه الله تعالى

" نظرت إلى روض الجمال بوجهه ... وسقينه دمعا به العين تكلف "

" فصح حديث الحسن عن ورد خدها ... وإن كان أضحى وهو راو مضعف "

وقال رحمه الله تعالى

" بدا عارض المحبوب فاحمر خجلة ... وأهدى لنا وردا به الحسن ناهض "

" فقلت له لا تنكر الورد ناضرا ... فقد سال في خديك من قبل عارض "

وقال

" النوم عن إنسان عيني نافر ... كالوحش ليس يقارب الإنسانا "

" والدمع منها فاض طوفانا فلا ... عجب إذا ما غرق الأجفانا "

وقال رحمه الله تعالى

" بكت شجنا ففاض الدمع يحكي ... يتامى الدر إذ يهوي نؤاما "

" وسلت من محاجرها سيوفا ... فخفت على المحاجر واليتامى "

وقال القاضي خالد البلوي رحمه الله تعالى من نظم صاحبنا أبي إسحاق ابن الحاج النميري يخاطب شيخه وشيخنا أيضا صاحب ديوان الإنشاء الإمام جمال الدين إبراهيم ابن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس الفصاحة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي وقد تقرب إليه في قصد الرواية عنه

" إلى ابن شهاب الدين طال تغربي ... فلما سرت عيسي له وركابي "

" رويت حديث الفضل عنه فصح لي ... كما شئت مرويا عن ابن شهاب "

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور

" أشبهت والدك الرضى في فضله ... وأخذته عنه بخير مناب "

" وملكنتني فحديث فضلك في الورى ... عن مالك يروى عن ابن شهاب "

وقال رحمه الله تعالى

" لعمرك ما ثغره باسم ... ولكنه حيب لاعب "

" ولو لم يكن ريقه مسكرا ... لما دار من حوله الشارب "

وقال رحمه الله تعالى ملغزنا في القلم
" سألتك ما وائش براد حديثه ... ويهوى الغريب النازح الدار إفصاحه "
" تراه مدى الأيام أصفر ناحلا ... كمثّل عليل وهو قد لازم الراحة "
وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور وشرب منها
" تعجبت من ثغر هذي البلاد ... ومولاي من عينها شارب "
" فله ثغر أرى شاربا ... وعين بدا فوقها حاجب "
وقال
" وحمراء في الكأس مشمولة ... تحث على العود في كل بيت "
" فلا غرو أن جاءني سابقا ... إلى الأنس خل يحث الكميت "
وقال
" بروضتنا الظمياء طال اكتئابنا ... فله غيث ميت آمالنا أحيا "
" وأشبهه مهيارا فها تلك عينه ... تفيض إذا شام البروق على ظميا "
وقال
" إثنان عزا فلم يظفر بنيلهما ... وأعوزا من هما في الدهر مطلبه "
" أخ مودته في الله صادقة ... ودرهم من حلال طاب مكسيه "
وقال موربا بالقائد نافع على ما اختاره البخاري وجماعة أن أصح الأسانيد مالك عن نافع
" عن نافع أسند حديث أحبتي ... يا مالكا رقي بحسن صنائع "
" فأجل إسناد وخير رواية ... عندي رواية مالك عن نافع "
" وقال " إنني لأعجب من فعالك في الهوى ... لما حلت بحسن ذاتك ذاتي "
" ونفيت نومي ثم اثبت الأسى ... فجمعت بين النفي والإثبات "
وقال
" ألا معصم للصب من وشي معصم ... أطلت إليه نظرة المتوسم "
" فأبقت به عيني حلى من سوادها ... وبعض سواد وسط قلبي المقيم "
" وليس خضابا ما علاه وإنما ... جرى فيه بعد الدمع ما عز من دمي "
" ولم يعد مني اللون لون سواده ... خلا أنني أشقى وقيل له انعم "
وقال وقد جاء الشاعر المفلح أبو العباس أحمد بن عبد المنان بيت الكتاب وفي عينه خضرة
" أيا احمد المرتضى للعلا ... ومن حاز في صنعه كل زين "
" تراءيت في العلم روضا نصيرا ... فلا تنكرن خضرة حول العين "
وله فيه
" لك الخير عدم السبك أبدل ناظري ... زمردة مخضرة من لجينه "
" فلا تنكروا ما راع من ذاك إنني ... لصائغ تبر القول ناقد شينه "
" ولا عجب إن أعوز السبك صائغا ... فأوجب عدم السبك خضرة عينه "
وقال فيمن يعرف بالصهال
" ألا رب فرسان توافوا فأدركوا ... مع الليل أوتارا لهم دون إمهال "
" وأجروا بصهال كميتا كما ابتغوا ... فلا تنكروا الإجراء منهم بصهال "
ولما كتب الرئيس الكاتب الجليل أبو عبد الله العزفي مداعبا
" يا عصبة كل فتى منهم علم ... فرغتم من كتبكم ردوا القلم "
أجابه ابن الحاج المذكور بقوله
" ألا احتسبوا ما قد أعرتم لفتية ... تكرمكم بالصفح عن فعلهم قاضي "
" ولا تطمعوا في الرد فالناس كلهم ... رأوا أن مولانا له القلم الماضي "
وقال الوادي أشي نقلت من خط الكاتب العلامة الصدر البارح الحاج
القاضي الناظم الناثر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج النميري ما نصه
كتب إلي الفاضل النخبة أبو الفضل ابن رضوان متمثلا بقول المأمون
" ... ملك الثلاث الأنسات عناني "
فكتبت إليه في التورية
" هنيئا لك البشرى بهن قدم كما ... تريد بنعمي للسعادة جامعه "
" وإن كنت من أهل الصلاح فلا تكن ... بمائل قلب منك عن حب رابعه "
فأجابني بقوله

" يا سيدي ذكرتني بالرابعة ... لعلها لكل خير جامعه "

" إني أخاف أن تكون باقعه ... فتفرك المغازل المطاوعه "

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة

" لمن الخيام سطت ببيض صفاح ... وارت سوادا غال كل صباح "

" إن مزقت رفعت بنقع كتائب ... او قوضت عمدت بسمير رماح "

وله في رثاء الطبيب ابن عمار واقترح عليه ذلك ابن جزي

" إلا اسعدا عيني على السهد والبكا ... ففدواصل السهد المبرح تذكاري "

" وأبدي الردى فتك ابن عباد اذ سطا ... فلا غرو أن أبكي لفقد ابن عمار "

وقال مما يكتب في الترسي

" أنا الترسي قد أنشأت بالأمر عدة ... ليوم جهاد مطلع غرة النصر "

" فلاقوا بي الأعداء في زحفهم ولا ... تبالوا بقرع الزرق والبيض والسمير "

" ولا تنكروا ستري لمقتل حاملي ... ففي اسمي كما شاهدتم أحرف الستر "

وله يهنئ السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المريني بالإبلال من المرض

" مطالب إلا أنهن مواهب ... قضى الله أن تقضى فنعم المطالب "

" شفاء أمير المؤمنين وإنه ... لأكرم من تحدى إليه الركائب "

" وكم قلت غاب البدر والشمس ضلة ... ورائت على قلبي الهموم النواصب "

" ولم يغبا لكن شكنا الضر فارس ... وأوحش منه مجلس الملك غائب "

" لك الله يا خير الملوك وخير من ... تحن له حتى العتاق الشواذب "

" وقل لمن وافى بشيرا نفوسنا ... فما هي إلا بعض ما أنت واهب "

" أقول لجرد الخيل قبا بطونها ... معقدة منها لحرب سباسب "

" طوالع من تحت العجاج كأنها ... نعام بكتبان الصريم خواضب "

" محجلة غرا كأن رعالها ... بحار جرت فيها الصبا والجنائب "

" من الأعوجيات الصوافن ترتمي ... إذا رجفت يوم القراع مقائب "

" هنيئا فقد صح الإمام الذي به ... تغل السيوف المرهفات القواضب "

" ومستأصل الفل المغذ جياده ... لضرب كما ترغو الفحول الصوارب "

" ومن حطم السمر الطوال كعوبها ... بطعن كما امتاح الركية شارب "

" وكر على أرض العدا بفوارس ... كأنهم في الحرب أسد غوالب "

" كأن ظباهم في الهياج أكفهم ... تجود وأرواح العداة مواهب "

" كأن رماح الخط أحسابهم وما ... حوت من نفوس المعتدين مناقب "

" هم ما هم حدث عن البحر أو بني ... مرين فنهج القول أبلج لاحب "

" من البيت شادت قيس عيلان فخره ... فطالت معاليه وطابت مناسب "

" وأحيا له ملك الخليفة فارس ... مائر غالتها الليالي الذواهب "

" كريم فلا الحادي النجائب مخفق ... لديه ولا المنضي الركاب خائب "

" أرى بذله النعمى ففضت مكاسب ... أرى بأسه الأنضى ففضت كتائب "

" أنامله يروي الورى صوب جودها ... فلولا دوام الرأي قلت السحائب "

" وكم خلت برقاً في الدجى نور بشره ... تشيم سنه الناجيات النجائب "

" فأخجلني أني أرى البرق خلبا ... فلا الصوب هام لا ولا الجود ساكب "

" أعزني أمير المؤمنين بلاغة ... فإني عن عجز لمدحك هائب "

" وأنطق لساني بالبيان معلما ... فإني في التعليم للجود راغب "

" وكيف ترى لي بعد في الجود رغبة ... وجودك لي فوق الذي أنا طالب "

" وقد شبت الآمال إذ شبت ثم إذ ... تفقدتها لم يدر ما شب شائب "

" بلغت بك الآمال حتى كأنها ... وقد صدقت ما شئت صدقا كواذب "

" عجبت وما تولي وأوليت معجبا ... فلا برحت تنمو لديك العجائب "

" وحسبي دعاء لو سكت كفيته ... كما قيل لكن في الدعاء مذاهب "

" وما أنا إلا عبدك المخلص الذي ... يراقب في إخلاصه ما يراقب "

" فخذها تبث العذر لا المدح إنه ... هو البحر قل هل يجمع البحر حاسب "

" بقيت بقاء الدهر ملكك قاهر ... وسبيك فياض وسيفك غالب "

" وغوفيت من ضر وأعطيت أجره ... ولا روعت إلا عداك النواذب "

وقال رحمه الله تعالى
" ولولا ثلاث جاء جبريل سائلا ... لخير الوري عنها لأثرت فقداني "
" مقامات إسلام أزيد بفعله ... ثوبا وإيمان أديم وإحساني "
وقال رحمه الله تعالى أنشدني السلطان أمير المؤمنين أبو عنان فارس ابن أمير المسلمين أبي
الحسن المريني رحمهما الله تعالى لنفسه
" يا ملما بأرض تلك البلاد ... حي فاسا وحي أهل الوداد "
" إن تناءت بشخصها عن عياني ... فحماها مصور في فؤادي "
قصائد في مدح تلمساني وفاس
قلت تذكرت بهذا البحر والروي والغرض قول الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبي عبد الله محمد
بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير المسلمين أبي حمو موسى بن يوسف الزباني
يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة
" أيها الحافظون عهد الوداد ... جددوا أنسنا بباب الجياد "
" وصلوها أصائلا بليال ... كلاك نظم في الأجياد "
" في رياض منضدات المجاني ... بين تلك الربى وتلك الوهاد "
" وبروج مشيدات المياني ... باديات السننا كشهب بواد "
" رق فيها النسب مثل نسيبي ... وصفا النهر مثل صفو ودادي "
" وزها الزهر والغصون تثنت ... وتغننت عليه ورق شواد "
" وانبرى كل جدول كحسام ... عاري الغمد سندسي النجاد "
" وظلال الغصون تكتب فيه ... احرفا سطر بغير مداد "
" تذكر الوشم في معاصم خود ... نصبت فووقه ذوات امتداد "
" وكؤوس المنى تدار علينا ... بجنى عفة ونقل اعتقاد "
" واصفرار الأصيل فيها مدام ... وصغير الطيور نغمة شاد "
" كم غدونا بها لأنس ورحنا ... جادها رائح من المزن غاد "
" ولكم روحة على الدوح كادت ... أن تريح الصبا لنا وهو غاد "
" رقت الشمس في عشايه حتى ... أحدثت منه رقة في الجماد "
" جدت بالغروب شجو غريب ... هاجه الشوق بعد طول البعاد "
" يا حيا المزن حيا من بلاد ... غرس الحب غرسها في فؤادي "
" وتعاهد معاهد الانس منها ... وعهود الصبا بصوب العهد "
" حيث معنى الهوى وملهى الغواني ... ومراد المنى ونيل المراد "
" ومقر العلا ومرقى الأمانى ... ومجر القنا ومجرى الجياد "
" كل حسن على تلمسان وقف ... وخصوصا على ربي العباد "
" ضحك النور في رباها وأربي ... كهف ضحاكها على كل ناد "
" وسما تاجها على كل تاج ... ونما وهدها على كل واد "
" يدعي غيرها الجمال فيقضي ... حسننها أن تلك دعوى زياد "
" وبشعري فهمت معنى علاها ... من حلاها فهمت في كل وادي "
" حضرة زانها الخليفة موسى ... زينة الحلبي عاطل الأجياد "
" وحبها بكل بذل وعدل ... وحمها من كل باغ وعاد "
" ملك جاوز المدى في المعالي ... فالنهايات عنده كالمبادي "
" معقل للهدى منيع النواحي ... مظهر للعلا رفيع العباد "
" قاتل المحل والأعادي ... جميعا بفرار الطبي وعر الأيادي "
" كلما ضنت السحاب أغنت ... راحتاه عن السحاب الغوادي "
" كم هبات له وكم صدقات ... عائدات على العفاة بواد "
" فأياي خليفة الله موسى ... أبحر عذبة على الورد "
" ركب الجود في بسيط يديه ... فتلافى به تلاف العباد "
" جل باربه ملجا للبرايا ... كالحيا ضامنا حياة البلاد "
" جل من خصه بتلك المزايا ... باهرات من طارف وتلاد "
" شيم حلوة الجنى وسجيا ... شهد المجد أنها كالشهاد "
" يا إمام الهدى وشمس المعالي ... وغمام الندى وبدر النادي "

" لك بين الملوك سر خفي ... ليس معناه للعقول بباد "

" فكأن البلاد كفك مهما ... كان فيها من ينتمي لعناد "

" قبضت كفك البنان عليه ... فأتى بالأذعان حلف انقياد "

" بكم تصلح البلاد جميعا ... إن آراءكم صلاح البلاد "

" لم تزل دائما تحن إليكم ... كحنين السقيم للعواد "

" لو أعنيت بمنطق شكرتكم ... مثل شكر العفاة للأجواد "

" قد أطاعتكم البلاد جميعا ... طاعة أرغمت أنوف الأعادي "

" فأريجوا الجياد أنعبتموها ... وأفروا السيوف في الأغماد "

" واهنأوا خالدين في عز ملك ... قائم السعد دائم الإسعاد "

" وإليكم من مذهبات القوافي ... حكما سهلت ليان المقاد "

" كل بيت من النظام مشيد ... عطر الأفق بالثناء المجاد "

" ذو ابتسام كزهر روض مجود ... وانتظام كسلك در مجاد "

ولأبي المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب المقدمة الأجرومية قصيدة في المنحى وافقت
 قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع فلا ندري أيهما نسج على منوال الآخر إذ هما متعاصران إلا
 أن ذاك قالها في تلمسان وهذا في مدينة فاس وهي
 " أيها العارفون قدر الصبوح ... جددوا أنسنا بباب الفتوح "

يعني بباب الفتوح أحد أبواب فاس كما أن باب الجياد في كلام الثغري أحد أبواب تلمسان
 ثم قال ابن أجزوم بعد المطلع

" جددوا ثم أنسنا ثم جدوا ... يسرح الطرف في مجال فسيح "

" حيث شابت مفارق اللوز نورا ... وتساقطن كاللجين الصريح "

" وبدا منه كل ما احمر يحكي ... شفقا مزفته أيدي الريح "

" وكأن الذي تساقط منه ... نقط لحن من دم مسفوح "

" وإذا ما وصلتكم للمصلى ... فلتحلوا بموضع التسيح "

" وبطيفورها فطوفوا لكيما ... تبصروا من ذراه كل سطوح "

" ولتقيموا هناك لمحة طرف ... لتردوا به ذماء الروح "

" ثم حطوا رحالكم فوق نهر ... كل في وصفه لسان المديح "

" فوق حافاته حدائق خضر ... ليس عنها لعاشق من نزوح "

" وكان الطيور فيها قيان ... هتفت بين أعجم وفصيح "

" وهي تدعوكم إلى قبة الجو ... ز هلموا إلى مكان مليح "

" فيه ما تشتهون من كل نور ... مغلق في الكمام أو مفتوح "

" وغصون تهيج رقصا إذا ما ... سمعت صوت كل طير صدوح "

" فأجيبوا دعاءها أيها السر ... ب وخلوا مقال كل نصيح "

" واجنحوا للمجون فهو جدير ... وخلق من مثلكم بالجروح "

" واخلعوا ثم للتصابي عذارا ... إن خلع العذار غير قبيح "

" وإذا شئتم مكانا سواه ... هو أجلى من ذلكم في الوضوح "

" فاجمعوا أمركم لنحو خليج ... جاء كالصل من قفار فسيح "

" عطرت جانبيه كف الغوادي ... بشذا عرف زهرها الممنوح "

" قل لمهبأر إن شممت شذاها ... قول مستخبر أخي تجريح "

" أين هذا الشذا الذكي من القي ... والرند والغضا والشيخ "

" حبذا ذلك المهاد مهادا ... بين دان من الربي ونزوح "

" ثم من ذلك المهاد أفيضوا ... نحو هضب من الهموم مريح "

" فيه للحسن دوحة وروايا ... وانشراح لذي فؤاد قريح "

" وحجار تدعى حجار طبول ... غير أن التطليل غير صحيح "

" تنثر الشمس ثم كل غدو ... زعفرانا مبللا بنضوح "

" وسوى من هناك يسبي عقولا ... ويجلي لحاظ طرف طموح "

" وعيون بها تقر عيون ... وكلاها بأسو كلوم الجريح "

" فرشت فوقها طنأفس زهر ... ليس كالعهن نسجها والمسوح "

" كلما مر فوقهن طليح ... عاد من حسنهن غير طليح "

" فانهضوا أيها المحبون مثلي ... لنرى ذات حسنها الملموح "

" هكذا يربح الزمان وإلا ... كل عيش سواه غير ربيح "

وما أحسن قول الكاتب الثغري يمدح تلمسان والسلطان المذكور أنفا

" تاهت تلمسان بحسن شبابها ... وبدا طراز الحسن في جلبابها "

" فالبشر بيدو من حياض ثغورها ... متبسما أو من ثغور حياها "

" قد قابلت زهر النجوم بزهرها ... وبروحها ببروحها وقباها "

" حسنت بحسن مليكها المولى أبي ... حمو الذي يحمي حمى أربابها "

" ملك شمائله كزهر رياضها ... ونداه فاض بها كفيض عباها "

" أعلى الملوك الصيد من أعلامها ... وأجلها من صفوها ولباها "

" غارت بغرة وجهه شمس الضحى ... وتنقبت خجلا بثوب ضباها "

" والبدر حين بدت أشعتها له ... حسنا تضاءل نوره وخبا بها "

" لله حضرته التي قد شرفت ... خدامها فسموا بخدمة بابها "

" فاللهم في يمناه يبلغها المنى ... والمدح في علياه من أسبابها "

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو

ووصف بلاد تلمسان وأجاد فيها إلى الغاية وهي

" قم مبصرا زمن الربيع المقبل ... تر ما يسر المجتني والمجتلي "

" وانشق نسيم الروض مطلولا وما ... أهداك من عرف وعرف فاقبل "

" وانظر إلى زهر الرياض كأنه ... در على لبات ربات الحلي "

" في دولة فاضت يداها بالندى ... وقضت بكل منى لكل مؤمل "

" بسطت بأرجاء البسيطة عدلها ... وسطت بكل معاند لم يعدل "

" سلطانها المولى أبو حمو الرضى ... ذو المنصب السامي الرفيع المعتلي "

" تاهت تلمسان بدولته على ... كل البلاد بحسن منظرها الجلي "

" راقت محاسنها ورق نسيمها ... فحلا بها شعري وطاب تغزلي "

" عرج بمنعرجات باب حياها ... وافتح بها باب الرجاء المقفل "

" ولتغد للعباد منها غدوة ... تصبح هموم النفس عنك بمعزل "

" وضريح تاج العارفين شعيبها ... زره هناك فحيدا ذاك الولي "

" فمزاره للدين والدنيا معا ... تمحى ذنوبك أو كربك تنجلي "

" ويكفها الضحك قف متنزها ... تسرح نفوسك في الجمال الأجل "

" وتمش في جنباتها ورياضها ... واجنح إلى ذاك الجناح المخضل "

" تسليك في دوحاتها وتلاعها ... نغم البلبابل واطراد الجدول "

" وبربوة العشاق سلوة عاشق ... فتنت وألحاظ الغزال الأكحل "

" بنواسم وبواسم من زهرها ... تهديك أنفاسا كعرف المندل "

" فلو امرؤ القيس بن حجر راءها ... قدما تسلى عن معاهد مأسل "

" أو حام حول فنائها وطبائها ... ما كان محتفلا بحومة حومل "

" فأذكر لها كلفي بسقط لوائها ... فهواي عنها الدهر ليس بمنسل "

" كم جاد لي فيها الزمان بمطلب ... جادته أخلاف الغمام المسبل "

" واعمد إلى الصفصيف يوما ثانيا ... وبه تسل وعنه دأبا فاسأل "

" وإد تراه من الأزاهر خاليا ... أحسن به عطلا وغير معطل "

" ينساب كالأيم انسيابا دائما ... أو كالحسام جلاه كف الصيقل "

" فزاله في كل قلب قد حلا ... وجماله في كل عين قد جلي "

" واقصد بيوم ثالث فوارة ... وبعذب منهله المبارك فانهل "

" تجري على در لجينا سائلا ... أحلى وأعذب من رحيق سلسل "

" وأشرف على الشرف الذي بإزائها ... لترى تلمسان العلية من عل "

" تاج عليه من المحاسن بهجة ... أحسن بتاج بالبهاء مكلل "

" وإذا العنثية شمسها مالت فمل ... نحو المصلى ميلة المتمهل "

" ويملعب الخيل الفسيح مجاله ... أجل النواظر في العتاق الحفل "

" فلحلية الأشراف كل عشية ... لعب بذاك الملعب المتسهل "

" فترى المجلي والمصلي خلفه ... وكلاهما في حره لا يأتلي "

" هذا يكر وذا يفر فينثني ... عطفًا على الثاني عنان الأول "

" من كل طرف كل طرف يستبي ... قيد النواظر فتنة المتأمل "

" ورد كأن أديمه شفق الدجى ... أو أشهب كشهب رجم مرسل "

" أو من كميت لا نظير لحسنه ... سام معم في السوابق مخول "

" أو أحمر قاني الأديم كعسجد ... أو أشقر يزهو بعرف أشعل "

" أو أدهم كالليل إلا غرة ... كالصبح بورك من أعر محجل "

" جمع المحاسن في بديع شياته ... مهما ترق العين فيه تسهل "

" عقبان خيل فوقها فرسانها ... كالأسد تنقض انقضا الأجدل "

" فرسان عبد الواد آساد الوغى ... حامو الذمار أولو الفخار الأطور "

" فإذا دنت شمس الأصيل لغربها ... فألى تلمسان الأصيل فادخل "

" من باب ملعبها لباب حديدها ... متنزها في كل ناد أحفل "

" وتان من بعد الدخول هنيهة ... واعدل إلى قصر الإمام الأعدل "

" فهو المؤمل والديار كناية ... والسر في السكان لا في المنزل "

" فإذا أمير المؤمنين رأته ... فالثم ترى ذاك البساط وقبل "

" فالمجد لفظ في الحقيقة مجمل ... وحلاه تفصيل لذك المجمل "

" بشرى لعبد الواد بالملك الذي ... خلصوا به من كل خطب معضل "

" بأعزهم جارا وأمنعهم حمى ... وأجلهم مولى وأعظم موئل "

" بالعدل المستنصر المنصور وال ... والمهدي والمتوكل "

" وكفاهم سعدا أبو حمو الذي ... يحمي حماهم بالحسام الفيصل "

" ويحسن نيته لهم ويجده ... ويسعده ويسعيه المتقبل "

" ذو الهمة العليا التي آثارها ... حلت به فوق السماك الأعزل "

بحر الندى الأجلى وفخر المنتدى ... وسنا الدجى الأجلى وزين المحفل " ينهل منه لنا الجدا وبه "

" الدجى ... تجلى بمشرق وجهه المتهلل " تجلى بمشرق وجهه المتهلل "

" هنيء به زمن الربيع وقل له ... بشرى بأملاح من حلاك وأجمل "

" وعلى علاه من صنعة فضله ... ترداد نافحة السلام الأكمل "

وكانه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرها وروبها في مدح مدينة فاس لبعض العلماء وأطنه
القاضي المزدغي وهي

" يا فاس حيا الله أرضك من ترى ... وسفاك من صوب الغمام المسبل "

" يا جنة الدنيا التي أربت على ... حمصي بمنظرها البهي الأجل "

" غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء الذ من الرحيق السلسل "

" ويساتن من سندس قد زخرفت ... بجداول كالأيمن أو كالفيصل "

" وجامع القروين شرف ذكره ... أنس بذكره يهيج تلملمي "

" وبصحنه زمن المصيف عجائب ... فمع العشي الغرب فيه استقبل "

" واشرب بتلك البيلة الحسناء به ... واكرع بها عني فديتك وانهل "

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل

" بلد أعارته الحمامة طوقها ... وكساه ريش جناحه الطاووس "

" فكأنما الأنهار فيه مدامة ... وكان ساحات الديار كؤوس "

وما أحسن قوله أعني لسان الدين في مدح تلمسان

" حيا تلمسان الحيا فربوعها ... صدف يجود بدره المكنون "

" ما شئت من فضل عميم إن سقى ... أروى ومن ليس بالميمون "

" أو شئت من دين إذا قدح الهدى ... أورى ودينا لم تكن بالدون "

" ورد النسيم لها بنشر حديقة ... قد أزهرت أفنانها بفنون "

" وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت ... فلها الشفوف على عيون العين "

يعني بحبيبة أم يحيى عين ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها وكانت جارية بالقصور السلطانية
ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم والبقاء لله تعالى وحده
وممن مدح تلمسان الحاج الطبيب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير بالتلالسي رحمه الله
تعالى إذ قال

" سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا ... ربوع تلمسان التي قدرها استعلى "

" ربوع بها كان الشباب مصاحبي ... جرت إلى اللذات في دارها الذيلا "

" فكم نلت فيها من أمان قصية ... وكم منح الدهر الضنين بها النيلا "

" وكم غازلتني الغيد فيها تلاعبا ... وكم من عدول لا أطيع له قولا "

" وكم ليلة بتنا على رغم حاسد ... ندير كؤوس الوصل إذ بالصفى تملا "

" وكم ليلة بتنا بصفصيفها الذي ... تسامى على الأنهار إذ عدم المثلا "

" وكدية عشاق لها الحسن ينتهي ... يعود المسن الشيخ من حسننها طفلا "

" نعم وغدير الجوزة السالب الحجى ... نعمت بها طفلا وهمت بها كهلا "

" ومنه ومن عين أم يحيى شرابنا ... لانهما في الطيب كالنيل بل أحلى "

" وعبادها ما القلب ناس ذمامه ... به روضة للخير قد جعلت حلا "

" به شيخنا المذكور في الأرض ذكره ... أبو مدين أهلا به دائما أهلا "

" لها بهجة تزري على كل بلدة ... بتاج عليها كالعروس إذا تجلى "

" فيا جنة الدنيا التي راق حسننها ... فحازت على كل البلاد به فضلا "

" ولا عجب أن كنت في الحسن هكذا ... وموسى الإمام المرتضى فيك قد حلا "

" ولاحت لدينا فيك منه محاسن ... كان سناها حاجب الشمس إذ جلى "

" مطاع شجاع في الوغى ذو مهابة ... حسام على الباغين في الأرض قد سلا "

" كريم حلیم حاتمى نواله ... سعيد حميد يصدق القول والفعل "

" له راحة كالغيث ينهل ودقها ... وصارم نصر مرهف الحد لا فلا "

" هو الملك الأرقى هو الملك الرضى ... هو الملك الأسنى هو الملك الأعلى "

" ومن هذه الأوصاف فيه تجمعت ... حقيقا على كل المعالي قد استولى "

" إمام حباه الله ملكا مؤزرا ... فلا ملك إلا لعزته ذلا "

" من الزاب وافانا عزيزا مظفرا ... يجر من النصر المنوط به ذيلا "

" بدت لليك الغرب شدة بأسه ... وإنعامه للمعتفين وما أولى "

" فبادره بالصلح خوف فواته ... وسالمة إذ كان ذاك به أولى "

" فكان بحمد الله صلحا مهنا ... به طابت الدنيا وجزنا به السبلا "

" له في المعالي رتبة لا ينالها ... سواه وكتب في فضائله تتلى "

" لطاعته كل الأنام تبادرت ... فيا سعد من وافى ويا ويح من ولى "

" أحساده موتوا فإن قلوبكم ... بجمر الغضا مما بها أبدا تصلى "

" لقد جبر الله البلاد بملكه ... به ملئت أمنا به ملئت عدلا "

" فلا زال هذا الملك فيه مخلدا ... وصارمه الأمضى وخادمه الأعلى "

ومما مدحت به تلمسان قول الإمام الصوفي أبي عبد الله محمد بن خميس الذي قدمنا ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلق به وذكرنا أيضا فيما مر بعض أمداحه لها

" تلمسان جادتك السحاب الروائح ... وأرست بواديك الرياح اللواقح "

" وسح على ساحات باب جيادها ... ملث يصابي تربها ويصافح "

" يطير فؤادي كلما لاح لامع ... وينهل دمعي كلما ناح صادق "

" ففي كل شفر من جفوني مائح ... وفي كل شطر من فؤادي قاذح "

" فما الماء إلا ما تسح مدامعي ... ولا النار إلا ما تجن الجوانح "

" خليلي لا طيف لعلوة طارق ... بليل ولا وجه لصبحي لائح "

" نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر ... لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح "

" بحقكما كفا الملام وسامحا ... فما الخل كل الخل إلا المسامح "

" ولا تعذلاني واعذراني فقلما ... يرد عناني عن علية ناصح "

" كنمت هواها ثم برح بي الأسى ... وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح "

" لساقية الرومي عندي مزية ... وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح "

" فكم لي عليها من غدو وروحة ... تساعدني فيها المنى والمنايح "

" فطرف على تلك البساتين سارح ... وطرف إلى تلك الميادين جامح "

" تحار بها الأذهان وهي ثواقب ... وتهفو بها الأحلام وهي بوارح "

" ظباء مغانيها عواط عواطف ... وطيير مجانيها شواد صوادح "

" تقتلهم فيها عيون نواظر ... وتبكيهم منهم عيون نواضح "

" على قرية العباد مني تحية ... كما فاح من مسك اللطيمة فائح "

" وجاد ثرى تاج المعارف ديمة ... تغص بها تلك الربى والأباطح "

" إليك شعيب بن الحسين قلوبنا ... نوازع لكن الجسوم نوازح "

" سعيت فما فصرت عن نيل غاية ... فسعيك مشكور وتجرى رابح "

" نسيت وما أنسى الوريث ووقفه ... أنافح فيها روضه وأفاوح "

" مطلا على ذاك الغدير وقد بدت ... لإنسان عيني من صفاه صفائح "

" أماؤك أم دمعي عشية صدقت ... عليا فينا ما يقول المكاشح "

" لئن كنت ملأنا بدمعي طافحا ... فإني سكران بحبك طافح "

" وإن كان مهري في تلاعك سائحا ... فذاك غزالي في عباك سابع "

" قراح أتى ينصب من رأس شاهق ... بمثل حلاه تستحث القرائح "

" أرق من الشوق الذي أنا كاتم ... وأصفي من الدمع الذي أنا سافح "

" أما وهوى من لا أسميه إنني ... لعرضي كما قال النصيح لناصح "

" أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي ... يقال فلان ضيق الصدر بانح "

" لبعث رشادي فيه بالغي ضلة ... وكم صالح مثلي غدا وهو طالح "

" وأي مقام ليس لي فيه حاسد ... وأي مقال ليس لي فيه مادح "

" الا قل لفرسان البلاغة أسرجوا ... فقد جاءكم مني المكافي المكافح "

" أيخمل ذكري عندهم وهو نابه ... ويغمط شجوي عندهم وهو شائح "

" بدور إذا جن الظلام كوامل ... وأسد إذا لاح الصباح كوالح "

" تركتك سوق البر لا عن تهاون ... وكيف وطبني سانح فيك بارح "

" وإني وقلبي في ولائك طامع ... وناظر وهمي في سماطك طامح "

" أيا أهل ودي والعشير مؤمن ... أتقضى ديوني أم غريمي فالح "

" وهل ذلك الطبي النصاحي للذي ... يقطع من قلبي بعينه ناصح "

" كنيت بها عنه حياء وحشمة ... ووجه اعتذاري في القضية واضح "

تعريف بتلمسان

وتلمسان هذه هي مدينتنا التي علقت بها لتمايم وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسبما قال ابن مرزوق

" ... يكفيك منها ماؤها وهواؤها "

وقال الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشامخة الأطواد بعد كلام في شأن البربر ما صورته ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن كلمة مركبة من تلم ومعناه تجمع وسن ومعناه اثنان أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الأبلبي رحمه الله تعالى وكان حافظا بلسان القوم ويقال تلمشان وهو أيضا مركب من تلم ومعناه لها وشان أي لها شأن وهي مدينة عربية في التمدن لذيدة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل ودوين رأسه بسيط اطول من شرق إلى غرب عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها على فحص أفح معد للفلاحة تنشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهاري وتبقر في بطونه عند تدميث الغمام بطون العذارى وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصورح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرت عروشه ونمقت غروسه ونوسبت أطواله وعروضه فأزرى الخورنق وأخجل الرصافة وعبث بالسدير وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير أسن تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعليه الدور والحمامات فيفعم الصهاريج ويفهق الحياض ويسقي ريعه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب فهي التي سحرت الالباب رواء وأصبت النهى جمالا ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا إلى أن قال فإنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إياه عندي

" ما جنة الخلد إلا في منازلكم ... وهذه كنت لو خيرت أختار "

" لا تتفوا بعدها أن تدخلوا سفرا ... فليس تدخل بعد الجنة النار "

وتوسطت قطرا ذا كور عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب مربعة الجنبات منجبة للحيوان والنبات كريمة الفلاحة زاكية الإصابة فرما انتهت في الزوج الواحد منها إلى أربعمئة مد كبير ثم أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور

ومما ينسب للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شريف كأنها ملك علما رأسه تاجه وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه عبادها يدها وكهفها كفها وزنتها زيانها وعينها أعيانها هواها المقصور بها فريد وهواؤها الممدود صحيح عتيد وماؤها برود صريد حجبها أيدي القدرة عن الجنوب فلا نحول فيها ولا شحوب خزانة زرع ومسرح ضرع فواكها عديدة الأنواع ومتاجرها فريدة الانتفاع وبرانسها رفاق رفاه إلا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا مغلوبة للأمرأ أهلها ليست عندهم الراحة إلا فيما قبضت عليه الراحة ولا فلاحه إلا لمن أقام رسم الفلاحة ليس بها لسع العقارب إلا فيما بين الأقارب ولا شطارة إلا فيمن ارتكب الخطارة انتهى وقد كنت بالغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا أسميه بأنواء نيسان في أنباء تلمسان وكتبت بعضه ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ثم ارتحلت بنية الحجاز وجعلت إلى الحقيقة المجاز وما أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية وفي علم الله تعالى ما لا تعلم والتسليم لأحكام الأقدار أسلم والله تعالى يختم لنا بالحسني بجاه نبيه ومصطفاه وبها ولدت أنا وأبي وجددي وجد جددي وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ودخلت مصر برحب من عام ثمانية وعشرين وألف والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف وأبت منها إلى مصر أواخر شوال من العام وشرعت في هذا المؤلف بالقعدة من العام

ترجمة أبي مدين

وقد تخرج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضب ويكفيها افتخارا دفن ولي الله سيدي أبي مدين بها وهو شعيب بن الحسين الأندلسي شيخ المشايخ وسيد العرافين وقدة السالكين قال الشيخ أبو عبد الله محمد ابن التلمساني في كتابه النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب كان الشيخ سيدي أبو مدين فردا من أفراد الرجال وصدرا من صدور الأولياء الأبدال جمع الله له علم الشريعة والحقيقة وأقامه ركن الوجود هاديا وداعيا للحق فقص بالزيارة من جميع الأقطار واشتهر بشيخ المشايخ وذكر التادلي وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى خاض بحار الأحوال ونال أسرار المعارف خصوصا مقام التوكل لا يشق غباره ولا تجهل آثاره قال التادلي كان مبسوطا بالعلم مقبوضا بالمراقبة كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك أخبرني من شهد وفاته أنه رآه

في آخر الرمي يقول الله الحق وكان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي وكان يقوم عليه ورواه عن شيوخه عن أبي ذر وكان يلزم كتاب الإحياء ويعكف عليه وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت وله مجلس وعظ يتكلم فيه فتجتمع عليه الناس من كل جهة وتمر به الطيور وهو يتكلم فتقف تسمع وربما مات بعضها وكثيرا ما يموت بمجلسه أصحاب الحب تخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جميلا ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبي الحسن ابن حرزهم وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن ابن غالب وذكر عنه أنه قال كنت في أول أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أتخذة مأوى للعمل بما فتح به علي فإذا خلوت به تأتيني غزالة تأتي إلي وتؤنسني وكنت أمر في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس فيدورون حولي ويصبصون لي فيبينا أنا يوما بفاس إذا برجل من معارفي بالأندلس سلم علي فقلت وجبت ضيافته فبعت ثوبا بعشرة دراهم فطلبت الرجل لأدفعها له فلم أجده هنالك فخليتها معي وخرجت لخلوتي على عادتني فمررت بقريتي فتعرض لي الكلاب ومنعوني الجواز حتى خرج من القرية من حال بيني وبينهم ولما وصلت لخلوتي جاءتنني الغزالة على عادتها فلما شممتني نفرت عني وأنكرت علي فقلت ما أوتي علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي فرميتها فسكنت الغزالة وعادت لحالها معي ولما رجعت لفاس جعلت الدراهم معي ولقيت الأندلسي فدفعتها إليه ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة فدار بي كلابها ويصبصوا على عادتهم وجاءتنني الغزالة فشمتني من مفريقي لقدمي وأنست بي كعادتها وبقيت كذلك مدة وأخبار سيدي أبي يعزى ترد علي وكراماته يتداولها الناس وتنقل إلي فملا قلبي حبه فقصده مع جماعة الفقهاء فلما وصلنا إليه أقبل على

الجماعة دوني وإذا حضر الطعام منعني من الأكل معهم وبقيت كذلك ثلاثة أيام فأجهدني الجوع وتحيرت من خواطر ترد علي ثم قلت في نفسي إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان فقام ومرغت وجهي فقامت وأنا لا أبصر شيئاً وبقيت طول ليلتي باكياً فلما أصبح دعاني وقريني فقلت له يا سيدي قد عميت ولا أبصر شيئاً فمسح بيده على عيني فعاد بصري ثم مسح على صدري فزالت عني تلك الخواطر وفقدت ألم الجوع وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء الفريضة فأذن لي وقال ستلقى في طريقك الأسد فل يركف فإن غلب خوفه عليك فقل له بحرمة يدنور إلا انصرفت عني فكان الأمر كما قال فتوجه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوار الولاية عليه ظاهرة فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء وتعرف في عرفة بالشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيراً من الحديث وألبسه خرقة الصوفية وأودعه كثيراً من أسراره وحلاه بملابس أنواره فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الأكابر

وعن بعض الأولياء قال رأيت في النوم قائلاً يقول قل لأبي مدين بث العلم ولا تبال ترتع غدا مع العوالي فإنك في مقام آدم أبي الذراري فقصتها عليه فقال لي عزمت على الخروج للجبال والغيافي حتى أبعث عن العمران ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم وتأمرنى بالجلوس فقولك ترتع غدا مع العوالي إشارة لحديث خلق الذكر مراتع أهل الجنة والعوالي أصحاب عليين ومعنى قوله أبي الذراري أن آدم أعطي قوة على النكاح وأمر به ولم يجعل له قوة على كون ذريته مطيعين مؤمنين وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببثه وتعليمه ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين وكان يقول كرامات الأولياء نتائج معجزات نبينا وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده عن الجنيد عن سري السقطي عن حبيب العجمي بالسند إلى رب العزة جل جلاله وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال سمعت سيدي أبا مدين يقول أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي يا شعيب ماذا عن يمينك قلت يا رب عطاؤك قال وعن شمالك قلت يا رب قضاؤك فقال يا شعيب قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك وعن سيدي أبي العباس المرسي جلت في ملكوت الله تعالى فرأيت سيدي أبا مدين متعلقاً بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق فقلت له وما علومك وما مقامك فقال علومى أحد وسبعون علما وأما مقامى فإربع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال وسئل رضى الله عنه عما خصه الله تعالى به فقال مقامى العبودية وعلومى الألوهية وصفاتى مستمدة من الصفات الربانية ملأت علومه سري وجهري وأضاء بنوره بري وجهري فالمقرب من كان به عليماً ولا يسمو إلا من أوتي قلباً سليماً الذي يسلم مما سواه ولا يكون في الوعاء إلا ما جعل فيه مولاه فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب

وسئل عن الحياء فقال أوله دوام الذكر وأوسطه الأناجى بالمذكور وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه واختلف أهل مجلسه هل الخضر ولي أم نبي فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبى تلك الليلة فقال الخضر نبي وأبو مدين ولي وذكر التادلي وغيره أن رجلاً جاءه ليعترض عليه فجلس في الحلقة فأخذ صاحب الدولة في القراءة فقال له أبو مدين أمهل قليلاً ثم التفت للرجل وقال له لم جئت فقال لأقتبس من نورك فقال له ما الذي في كمك قال له مصحف فقال له أفتحه وأقرأ في أول سطر يخرج لك ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه " الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين " فقال له أبو مدين أما يكفيك هذا فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله وذكر صاحب الروض عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب فرأى أسداً افترس حماراً وهو يأكله وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد وقال لصاحب الحمار أمسك الأسد واستعمله في الخدمة موضع حمارك فقال له ياسيدي أخاف منه فقال لا تخف لا يستطيع أن يؤذيك فمر الرجل يقيده والناس ينظرون إليه فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبت وأنا شديد الخوف منه لا طاقة لي بعشرتة فقال الشيخ للأسد اذهب ولا تعد ومتى أديتم بني آدم سلطتهم عليكم ومن مشهور كراماته أنه كان ماشياً يوماً على ساحل فأسرته العدو وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين فلما استقر في السفينة توقفت عن السير ولم تتحرك من مكانها مع قوة

الريح ومساعدتها وأيقن الروم أنهم لا يقدرّون على السير فقال بعضهم أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى وأشاروا له بالنزول فقال لا أفعل إلا إن أطلّقتهم جميع من في السفينة من الأسارى فعملوا أن لا بد لهم من ذلك فأنزلوهم كلهم وسارت السفينة في الحال ومن كراماته أنه لما اختلف طلبية بجاية في حديث إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة وأشكل عليهم ظاهره إذ يموت مؤمنين يستحقان كل الحنة فجاءوا إليه وهو يتكلم على رسالة القشيري فكاشفهم في الحال بلا سؤال وقال لهم المراد أنه يعطى نصف جنته هو فيكشف له عن مقعده ليتنعم به وتقر عينه ثم النصف الآخر يوم القيامة وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنه قال سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء وكان رجل ياتيني عند صدع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس فوقع ليلة في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به وطال علي الليل في انتظاره فلما طلع الفجر نقر الباب رجل فإذا هو الذي يسألني فقلت له أنت موسى الطيار فقال نعم ثم سألتني وانصرف ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي صلينا الصبح ببغداد وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح فأعدنا معهم وجلسنا حتى صلينا الظهر وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر فقال لي صاحبي هذا نعيد معهم فقلت لا فقال لي ولم أعدنا الصبح بمكة فقلت له كذلك كان شيعي يفعل وبه أمرنا فاختلفنا وأتيناك للجواب فقال أبو مدين فقلت لهم أما إعادة الصبح بمكة فلأنها بها عين اليقين وببغداد علم اليقين وعين اليقين أولى من علم اليقين وصلاتكم الظهر بمكة وهي أم القرى فلذلك لا تعاد في غيرها قال فتنعنا به وانصرفا وكان استوطن بجاية ويقول إنها معينة على طلب الحلال ولم يزل بها يزداد حاله على مر الليالي رفعة ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ويخبر بالوقائع والغيوب إلى أن وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور وقال له إنا نخاف منه على دولتكم فإن له شبة بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون بكل بلد فوقع في قلبه وأهمه شأنه فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره وكتب لصاحب بجاية بالوصية به والاعتناء وأن يحمل خير محمل فلما أخذ في السفر شق على أصحابه وتغيروا وتكلموا فسكنهم وقال لهم إن منيتي قربت وبغير هذا المكان قدرت ولا بد لي منه وأنا شيخ كبير ضعيف لا قدرة لي على الحركة فبعث الله تعالى من يحملني إليه برفق ويسوقني إليه أحسن سوق وأنا لا أرى السلطان ولا يراني فطابت نفوسهم وذهب بوسهم وعلموا أنه من كراماته فارتحلوا به على أحسن حال حتى وطئوا به حوز تلمسان فبدت له رابطة العباد فقال لأصحابه ما أصلحه للرفاد فمرض مرض موته فلما وصل وادي يسر اشتد به المرض ونزلوا به هناك فكان آخر كلامه الله الحق وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسائة فحمل إلى العباد مدفن الأولياء الأوتاد وسمع أهل تلمسان بجنائزه فكانت من المشاهد العظيمة والمحافل الكريمة وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو علي عمر الجياك وعاقب الله تعالى السلطان فمات بعده بسنة أو أقل ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب وجره جماعة وقد زرته مئتين من المرات ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله وقد أطال في ترجمته التادلي في كتابه التشوف لرجال التصوف وقد أفردها ابن الخطيب القسطنطيني بتأليف سماه أنس الفقير ومن كلامه من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتلي فيها بالذل ومن لم يجد من قلبه زاجرا فهو خراب وقوله بفساد العامة تظهر ولاة الجور وفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون وقوله من عرف نفسه لم يغر بثناء الناس عليه ومن خدم الصالحين ارتفع ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمقت من خلقه وانكسار العاصي خير من صولة المطيع وقوله من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق وسئل عن المحو والشيخ فقال المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالاحترام والتعظيم والشيخ من هداك بأخلاقه وأيدك بإطراقه وأنار باطنك بإشراقه إلى غير ذلك من كلامه النير وهو بحر لا ساحل له وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس ومما ينسب له قوله " بكت السحاب فأضحكت لبكائها ... زهر الرياض وفاضت الأنهار "

" وقد اقبلت شمس النهار بحلة ... خضرا وفي أسرارها أسرار "
 " وأتى الربيع بخيله وجنوده ... فتمتعت في حسنه الأبصار "
 " والورد نادى بالورود إلى الجنى ... فتسابق الأطيّار والأشجار "
 " والكأس ترقص والعقار تشعشعت ... والجو يضحك والحبيب يزار "
 " والعود للعيد الحسان مجاوب ... والطار أخفى صوته المزمار "
 " لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا ... مزمارنا التسبيح والأذكار "
 " وشرابنا من لطفه وغناؤنا ... نعم الحبيب الواحد القهار "
 " والعود عادات الجميل وكأسنا ... كأس الكياسة والعقار وقار "
 " فتألفوا وتطيبوا واستغنموا ... قبل الممات فدهركم غدار "
 " والله أرحم بالفقير إذا أتى ... من والديه فإنه غفار "
 " ثم الصلاة على الشفيح المصطفى ... ما رنمت بلغاتها الأطيّار "
 وإنما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به ولكونه شيخ جدي فأنا في بركته لقول جدي
 إنه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله ولأننا ذكرنا في هذا التأليف كثيرا من أبناء الدنيا فأردنا كفارة
 ذلك بذكر الصالحين والله الموفق بمنه وكرمه آمين

الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستهدين به على المنهاج المتلقين أنواع العلوم منه
 والمقتبسين أنوار الفهوم من سراج الوهاج
 اعلم أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون إلا أنه لم يرزق السعادة في كثير منهم بل
 بارزوه بالعداوة واجتهدوا في إيصال المكروه إليه
 فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبدالله ابن زمرك وارث مرتبته من بعده ومقتعد أريكة سعده وقد
 ألمع به في الإحاطة وكان إذ ذاك من جملة أتباعه إذ قال ما محصله محمد بن يوسف بن محمد بن
 أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن زمرك
 أصله من شرقي الأندلس وسكن سلفه ريبض البيازين من غرناطة وبه ولد ونشأ وهو من مفاخره
 حاله هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبتها مختصر مقبول هس خلوب عذب
 الفكاهة حلو المجالسة حسن التوقيع خفيف الروح
 عظيم الانطباع شره المذاكرة فطن بالمعارض حاضر الجواب شعلة من شعل الذكاء تكاد تحتمل
 جوانبه كثير الرقة فكه غزل مع حياء وحشمة جواد بما في يده مشارك لإخوانه نشأ عفا طاهرا كلفا
 بالقراءة عظيم الدؤوب ثاقب الذهن أصيل الحفظ ظاهر النبل بعيد مدى الإدراك جيد الفهم فاشتهر
 فضله وذاع أرحه وفشا خبره واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون وأصبح متلقف
 كرة البحث وصارح الحلقة وسابق الحلبة ومظنة الكمال ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع
 وخاض لجة الحفظ وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق ونصب نفسه للناس متكلمًا فوق الكرسي
 المنصوب وفوق المحفل المجموع مستظهما بالفنون التي بعد فيها شأوه من العربية والبيان واللغة
 وما يقذف به في لج النقل من الأخبار والتفسير متمشوقا مع ذلك إلى السلوك مصاحبا للصوفية أخذ
 نفسه بارتياض ومجاهدة ثم عانى الأدب فكان أملك به وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد
 فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير
 المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ثم عن السلطان وعرف في بابته بالإجادة
 ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس واستقر بالمغرب أنس له وانقطع إليه وكر
 في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه فلطف منه محله وخصه بكتابة سره وثابت الحال ودالت الدولة
 وكانت له الطائلة فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية كثير الدالة مضطلعا بالخطة خطأ
 وإنشاء ولسنا ونقدا فحسن منابه واشتهر فضله وظهرت مشاركته وحسنت وساطته ووسع الناس
 تخلفه وأرضى للسلطان حمله وأمتد في ميدان النظم والنثر بعه فصدر عنه من المنظوم في
 أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد أعانه الله تعالى
 وسدده

شيوخه قرأ العربية على الأستاذ رحلة المغرب في فيها أبي عبد الله ابن الفخار ثم على القاضي
 الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني والفقه العربية على الأستاذ
 المفتي أبي سعيد ابن لب واختص بالفقيه الخطيب الصدر المحدث أبي عبد الله ابن مرزوق فأخذ
 عنه كثيرا من الرواية ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقرئ عندما قدم على الأندلس وذاكره
 وقرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي ويروي عن جملة منهم القاضي أبو البركات ابن

الحاج والمحدث أبو الحسين ابن التلمساني والخطيب أبو عبد الله ابن اللوشي والمقرئ أبو عبد الله ابن بيبش وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوني التلمساني واختص به اختصاصا لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة شعره وشعره مترام الى هدف الإجادة خفاجي النزعة كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة غزير المادة فمن ذلك ما خاطبني به وهو من أول ما نظمته قصيدة مطلعها

" ... أما وانصداع النور من مطلع الفجر "
وهي طويلة

ومن بدائعه التي عقم عن مثلها قياس قيس واشتهرت بالإحسان اشتهاه الزهد بأويس ولم يحل مجاربه ومباريه إلا بويح ويوس قوله في إعدار الأمير ولد سلطانه المنوه بمكانه وهي من الكلام

الذي عنيت الإجادة بتذهيبه وتهذيبه وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه
" معاذ الهوى أن أصحاب القلب ساليا ... وأن يشغل اللوام بالعدل باليا "
" دعاني أعط الحب فضل مفادتي ... ويقضي علي الوجد ما كان قاضيا "
" ودون الذي رام العواذل صوبة ... رمت بي في شعب الغرام المراميا "
" وقلب إذا ما البرق أومض موهنا ... قدحت به زندا من الشوق واريا "
" خليلي إني يوم طارقة النوى ... شقيت بمن لو شاء أنعم باليا "
" وبالخيف يوم نفر يا أم مالك ... تخلفت قلبي في حبالك عانيا "
" وذي أشر عذب الثنايا مخصر ... يسقي به ماء النعيم الأفاحيا "
" أحوم عليه ما دجا الليل ساهرا ... وأصبح دون الورد ظمآن صاديا "
" يضيء ظلام الليل ما بين أضلعي ... إذا البارق النجدي وهنا بدا ليا "
" أحيرتنا بالرمل والرمل منزل ... مضى العيش فيه بالشبيبة حاليا "
" ولم أر رعبا منه أفضى لبانة ... وأشجى حمامات وأحلى مجانيا "
" سقت طلة الغر الغوادي ونظمت ... من القطر في جيد الغصون الآليا "
" أثبكم أني على النأي حافظ ... ذمام الهوى لو تحفظون ذماميا "
" أناشدكم والحر أوفى بعهده ... ولن يعدم الأحسان والخير جازيا "
" هل الود إلا ما تحاماه كاشح ... وأخفق في مسعاه من جاء واشيا "
" تأوئني والليل يذكي عيونه ... ويسحب من ذيل الدجنة ضافيا "
" وقد مثلت زهر النجوم بأفقه ... حباها على نهر المجرة طافيا "
" خيال على بعد المزار ألم بي ... فأذكرني من لم أكن عنه ساليا "
" عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعي ... ولم يبق مني السقم والشوق باقيا "
" رفعت له نار الصبابة فاهتدى ... وخاض لها عرض الدجنة ساريا "
" ومما أجد الوجد سرب على النقا ... سوانح يصقلن الطلى والتراقيا "
" نزعن عن الألحاح كل مسدد ... فغادرن أفلاذ القلوب دواميا "
" ولما تراءى السرب قلت لصاحبي ... وأيقنت أن الحب ما عشت دانيا "
" حذارك من سقم الجفون فإنه ... سيعدي بما يعيي الطبيب المداويا "
" وإن أمير المسلمين محمدا ... ليعدي نداء الساريات الهواميا "
" تضيء النجوم الزاهرات خلاله ... وينفث في روع الزمان المعاليا "
" معال إذا ما النجم صوب طالبا ... مبالغها في العز حلق وانيا "
" يسابق علوي الرياح إلى الندى ... ويفضح جدوى راحته الغوادي "
" ويغضي عن العوراء إغضاء قادر ... ويرجح في الحلم الجبال الرواسيا "
" همام يروع الأسد في حومة الوغى ... كما راعت الأسد الطباء الجوازيا "
" مناقب تسموللفخار كأنما ... تجاري الى المجد النجوم الجوازيا "
" إذا استبق الأملاك يوما لغاية ... أبيت وذاك المجد إلا التناهايا "
" بهرت فأخفيت الملوك وذكرها ... ولا عجب فالشمس تخفي الدراري "
" جلوت ظلام الظلم من كل معتد ... ولا غرو أن تجلو البدور الدياجيا "
" هديت سبيل الله من ضل رشده ... فلا زلت مهديا إليه وهاديا "
" أفدت وحي الملك مما أفدته ... وطوقت اشراف الملوك الأياديا "
" وقد عرفت منها مرين سوابقا ... تقر لها بالفضل أخرى الليالي "
" وكان أبو زيان جيدا معطلا ... فزينته حتى اغتدى بك حاليا "

" لك الخير لم تقصد بما قد أفدته ... جزاء ولكن هممة هي ما هيا "

" فما تكبر الأملاك غيرك أمرا ... ولا ترهب الأشراف غيرك ناهيا "

" ولا تشتكي الأيام من داء فتنة ... فقد عرفت منك الطبيب المداوي "

" وأندلسا أوليت ما أنت أهله ... وأوردتها وردا من الأمن صافيا "

" تلافيت هذا الثغر وهو علي شفا ... وأصبحت من داء الحوادث شافيا "

" ومن بعد ما ساءت ظنون بأهلها ... وحاموا على ورد الأمانى صواديا "

" فما ياملون العيش إلا تعللا ... ولا يعرفون الأمن إلا أمانيا "

" عطفت على الأيام عطفة راحم ... وألبستها ثوب امتنانك ضافيا "

" فأنس من تلقائك الملك رشده ... ونال بك الإسلام ما كان راجيا "

" وقفت على الإسلام نفسا كريمة ... تصد عدوا عن حماه وعاديا "

" فرأي كما انشق الصباح وعزيمة ... كما صقل القين الحسام اليمانيا "

" وكانت رماح الخط خمصا ذوابلا ... فأنهلت منها في الدماء صواديا "

" وأوردت صفح السيف أبيض ناصعا ... فأصدرته في الروع أحمر قانيا "

" لك العزم تستجلي الخطوب بهديه ... ويلقى إذا تنبو الصوارم ماضيا "

" إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله ... فما الصبح وضاح المشارق عاليا "

" ويهنيك دون العيد عيد شرعته ... نبث به في الخافقين التهانيا "

" أقمته به من فطرة الدين سنة ... وجددت من رسم الهداية عافيا "

" صنيع تولى الله تشييد فخره ... وكان لما أوليت فيه مجازيا "

" تود النجوم الزهر لو مثلت به ... وقضت من الزلقى إليك الأمانيا "

" وما زال وجه اليوم بالشمس مشرقا ... سرورا به والليل بالشهب حاليا "

" على مثله فليعقد الفخر تاجه ... ويسمو به فوق النجوم مراقيا "

" به تغمر الأنواء كل مفوه ... ويحدو به من كان بالقفر ساريا "

" ويوسف فيه بالجمال مفتح ... كأن له من كل قلب مناجيا "

" وأقبل ما شاب الحياء مهابة ... يقرب وجه البدر أزهر باهيا "

" وأقدم لا هيباة الحفل واجما ... ولا قاصرا فيه الخطا متوانيا "

" شمائل فيه من أبيه وحده ... ترى العز فيها مستكنا وباديا "

" فيا علقا اشجى القلوب لو اننا ... فدينك بالأعلاق ما كنت غاليا "

" جريت فأجريت الدموع تعطفا ... وأطلعت فيها للسرور نواشيا "

" وكم من ولي دون بابك مخلص ... يفديه بالنفس النفيسة وإقيا "

" وصيد من الحيين أبناء قيلة ... تكف الأعادي أو تبئد الأعاديا "

" بهاليل غر إن أعدوا لغارة ... أعادوا صباح الحي أظلم داجيا "

" فوالله لولا أن توخيت سنة ... رضيت بها أن كان ربك راضيا "

" لكان بها للأعوجيات جولة ... تشيب من الغلب الشباب النواصيا "

" وتترك أوصال الوشيح مقصدا ... ويبض الطبي حمر المتون دواميا "

" ولما قضى من سنة الله ما قضى ... وقد حسدت منه النجوم المساعيا "

" أفضنا نهني منك أكرم منعم ... ابي لعميم الجود إلا تواليا "

" فيهنى صفاح الهند والبأس والندى ... وسمر العوالي والعتاق المذاكيا "

" ويهنى البنود الخافقات فإنها ... سيعقدها في ذمة النصر غازيا "

" كأنى به يشقى الصوارم والطبي ... ويحطم في اللأم الصلاب العواليا "

" كأنى به قد توج الملك يافعا ... وجمع أشبات المكارم ناشيا "

" وقضى حقوق الفخر في ميعة الصبا ... وأحسن من دين الكمال التقاضيا "

" وما هو إلا السعد إن رمت مطلعا ... وسددت سهما كان ربك راميا "

" فلا زلت يا فخر الخلافة كافلا ... ولا زلت يا خير الأئمة كافيا "

" ودمت قرير العين منه بغبطة ... وكان له رب البرية وإقيا "

" نظمت له حر الكلام تمانما ... جعلت مكان الدر فيها القوافيا "

" لآل بها تباى الملوك نفاسة ... وجلت لعمرى أن تكون لآليا "

" أرى المال يرميه الجديدان بالبلى ... وما إن أرى إلا المحامد باقيا "

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وفد الأحابيش بهدية من ملك

السودان ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة فأمر من يعاني الشعر من الكتاب بالنظم
في ذلك الغرض فقال وهي من بدائعه

" لولا تألق بارق التذكار ... ما صاب واكف دمعي المذار "
" لكنه مهما تعرض خافقا ... قدحت يد الأشواق زبد أوارى "
" وعلى المشوق إذا تذكر معهدا ... أن يغري الأحفان باستعبار "
" أمذكري غرناطة حلت بها ... أيدي السحاب أزرة النوار "
" كيف التخلص للحديث وبيننا ... عرض الفلاة وطافح الزخار "
" هذا على أن التعرب مركبي ... وتولج الفيح الفساح شعاري "
" فلکم أقمتم غداة زمت عيسهم ... أبغى القرار ولات حين قرار "
" وطفقت أستقري المنازل بعدهم ... يمحو البكاء مواقع الآثار "
" إنا بني الآمال تخدعنا المنى ... فنخادع الآمال بالتسيار "
" نتجشم الأهوال في طلب العلا ... ونروع سرب النوم بالأفكار "
" لا يحرز المجد الخطير سوى امرئ ... يمطي العزائم صهوة الأخطار "
" إما يفاخر بالعتاد ففخره ... بالمشرفية والقنا الخطار "
" مستبصر مرمى العواقب واصل ... في حمله الإيراد بالإصدار "
" فأشد ما قاد الجهول إلى الردى ... عمه البصائر لا عمى الأبصار "
" ولرب مرید الجوانح مزيد ... سبح الهلال بلجه الزخار "
" فتقت كرائم جنحه عن أنجم ... سفرت زواهرهن عن أزهار "
" مثلت على شاطي المجرة نرجسا ... تصطف منه على خليج جاري "
" وكأنما بدر التمام بجنحه ... وجه الإمام بجحفل جرار "
" وكأنما خمس الثريا راحة ... ذرعت مسير الليل بالأشبار "
" أسرحت من عزمي مصابيحها ... تهدي السراة لها من الأقطار "
" وارتاع من بازي الصباح غرابه ... لما أطل فطار كل مطار "

ومنها

" وغريبة قطعت إليك على الونى ... بيذا تبيد بها هموم الساري "
" تنسيه طيبته التي قد أمها ... والركب فيها ميت الأخبار "
" يقنادها من كل مشتمل الدجى ... وكأنما عيناه جذوة نار "
" تشدو بحمد المستعين حداتها ... يتعللون به على الأكوار "
" إن مسهم لفح الهجير أبلمهم ... منه نسيم ثنائك المعطار "
" خاضوا بها ليج الفلا فتخلصت ... منها خلوص البدر بعد سرار "
" سلمت بسعدك من غوائل مثلها ... وكفى بسعدك حاميا لذمار "
" وأتتك يا ملك الزمان غريبة ... قيد النواظر نزهة الأبصار "
" موشية الأعطاف رائقة الحلوى ... رقمت بدائعها يد الأقدار "
" راق العيون أديمها فكأنه ... روض تفتح عن شقيق بهار "
" ما بين مبيض وأصفر فاقع ... سال اللجين به خلال نضار "
" يحكي حدائق نرجس في شاهق ... تنساب فيه أرقام الأنهار "
" تحدو قوائم كالجدوع ووقوها ... جبل أشم بنوره متوار "
" وسمت بجيد مثل جذع مائل ... سهل التعطف لين خوار "
" تستشرف الجدران منه ترائبها ... فكأنما هو قائم بمنار "
" تاهت بكلكلها وأتلع جيدها ... ومشى بها الإعجاب مشي وقار "
" خرجوا لها الجم الغفير وكلهم ... متعجب من لطف صنع الباري "
" كل يقول لصحبه قوموا انظروا ... كيف الجبال تقاد بالأسيار "
" ألفت ببابك رحلها ولطالما ... ألقى الغريب به عصا التسيار "
" علمت ملوك الأرض أنك فخرها ... فتسابقت لرضاك في مضمار "
" يتبوأون به وإن بعد المدى ... من جاهك الأعلى أعز جوار "
" فارفع لواء الفخر غير مدافع ... واسحب ذبول العسكر الجرار "
" واهنا بأعياد الفتوح مخولا ... ما شئت من نصر ومن أنصار "
" وإليكمها من روض فكري نفحة ... شف الثناء بها على الأزهار "

" في فصل منطلقها ورائق رسمها ... مستمتع الأسماع والأبصار "

" وتميل من أضغى لها فكأنني ... عاطيته منها كؤوس عقار "

وأنشد السلطان في ليلة ميلاد رسول الله عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى

" تأمل أطلال الهوى فتألما ... وسيما الجوى والسقم منها تعلمنا "

" أخوزفرة هاجت له نار ذكرة ... فأوجد في شعب الغرام وأتهما "

وسرد لسان الدين هذه القصيدة بطولها وهي تقارب التسعين بيتا ثم قال ما نصه وأنشد السلطان

في وجهة للصيد أعملها وأطلق أعنة الجياد في ميادين ذلك الطراد وأرسلها قوله

" حياك يا دار الهوى من دار ... نوء السماءك بديمة مدرار "

" وأعاد وجه ربك طلعا مشرقا ... متضاحكا بمباسم النوار "

" أمذكري دار الصباة والهوى ... حيث الشباب يرف غصن نضار "

" عاطيتني عنها الحديث كأنما ... عاطيتني عنها كؤوس عقار "

" إيه وإن أذكيت نار صابتي ... وقدحت زند الشوق بالتذكار "

" يا زاجر الأظعان وهي مشوقة ... أشبهتها في زفرة وأوار "

" حنت إلى نجد وليست دارها ... وصبت إلى هنديه والغار "

" شافت به برق الحمى واعتادها ... طيف الكرى بمزارها المزوار "

" هل تبلغ الحاجات إن حملتها ... إن الوفاء سجية الأحرار "

" عرض بذكري في الخيام وقل إذا ... جئت العقيق مبلغ الأوطار "

" عار بقومك يا ابنة الحيين أن ... تلوي الديون وأنت ذات يسار "

" أمنعت ميسور الكلام أبا الهوى ... وبخلت حتى بالخيال الساري "

" وأبان جاري الدمع عذر هيامه ... لكن أضعت له حقوق الجار "

" هذا وقومك ما علمت خلالهم ... أوفى الكرام بذمة وجوار "

" الله في نفس شعاع كلما ... هب النسيم تطير كل مطار "

" بالله يا لمياء ما منع الصبا ... أن لا تهب بعرفك المعطار "

" يا بنت من تشدو الحدأة بذكره ... متعللين به على الأكوار "

" ما ضر نسمة حاجر لو أنها ... أهدت لنا خيرا من الأخبار "

" هل بانه من بعدنا متأود ... متجاوب مترنم الأطيوار "

" وهل الأطباء الأنسات كعهدنا ... يصرعن أسد الغاب وهي ضوار "

" يفتكن من قاماتها ولحاظها ... بالمشرفية والقنا الخطار "

" أشعرت قلبي حبهن صباة ... فرمينني من لوعتي بجمار "

" وعلى الكتيب سوانح حمر الحلى ... بيض الوجوه يصدن بالأفكار "

" أدنى الحجيج مزارهن ثلاثة ... بمنى لو أن منى ديار قرار "

" لكن يوم النفر جدن لنا بما ... عودتنا من جفوة ونفار "

" يا ابن الألى قد أحرزوا خصل العلا ... وسموا بطيب أرومة ونجار "

" وتنوب عن صوب الغمام أكفهم ... وتنوب أوجههم عن الأقمار "

" من آل سعد رافعي علم الهدى ... والمصطفين لنصرة المختار "

" أصبحت وارث مجدهم وفخارهم ... ومشرف الأعصار والأمصار "

" وجه كما حسر الصباح نقابه ... ويد تمد أناملا ببحار "

" جدت دون الدين عزمة أروع ... جدت منها سنة الأنصار "

" حطت البلاد ومن حوته ثغورها ... وكفى بسعدك حاميا لذار "

" لله رحلتك التي نلنا بها ... أجر الجهاد ونزهة الأبصار "

" أوردتنا فيها لجودك موردا ... مستعذب الإيراد والإصدار "

" وأفضت فينا من نذاك مواهبا ... حسنت مواقعها على التكرار "

" أضحكت ثغر الثغر لما جئته ... وخصصته بخصائص الإيثار "

" حتى الفلاة تقيم يوم وردتها ... سنن القرى بثلاثة الأنوار "

" وسرت عقاب الجو تهديك الذي ... تصطاد من وحش ومن أطيوار "

" والأرض تعلم أنك الغوث الذي ... تضيغي عليها واقفي الأستار "

" ولرب ممتد الأباطح موحش ... عالي الربي متباعد الأقطار "

" همل المسارح لا يراع قنيصه ... إلا لنباة فارس مغوار "

" سرحت عنان الريح فيه وربما ... أَلقت بساحته عصا التسيار "

" باكرته والأفق قد خلع الدجى ... مسحا ليلبس حلة الإسفار "

" وجرى به نهر النهار كمثل ما ... سكب النديم سلافة من قار "

" عرضت به المستنفرات كأنها ... خيل عراب جلن في مضمار "

" أتبعتها غرر الجياد كواكبا ... تنقض رجما في سماء غبار "

" والهاديات يؤمها عبل الشوى ... متدفق كتدفق التيار "

" أزجيتها شفرء رائفة الحلوى ... فرميتة منها بشعلة نار "

" أثبت فيه الرمح ثم تركته ... خضب الجوانح بالدم الموار "

" حامت عليه الذابلات كأنها ... طير أوت منه إلى أوكار "

" طفقت أرانبه غداة أترتها ... تبغي الفرار ولات حين فرار "

" هل ينفع الباع الطويل وقد غدت ... يوم الطراد قصيرة الأعمار "

" من كل منحفض بلمحة بارق ... فاتت خطاه مدارك الأبصار "

" وجوارح سبقت إليه طلابها ... فكأنما طالبنه بالثار "

" سود وبيض في الطراد تتابعت ... كالليل طارده بياض نهار "

" ترمي بها وهي الحنايا ضمرا ... مثل السهام نزعن عن أوتار "

" ظنت بأن ينجو لها كلا ولو ... أغربته بأرانب الأعمار "

" ولكل فتخاء الجناح إذا ارتمت ... فكأنها نجم السماء الساري "

" زجل الجناح مصفق كمن الردى ... في مخلب منه وفي منقار "

" أجلى الطريد من الوجوش وإن رمى ... طيرا أتاك به على مقدار "

" وأرابتنا الكسب الذي أعداده ... ملأت جمالا أعين النظار "

" بيض وصفر خلت مطرح سرحها ... روضا تفتح عن شقيق بهار "

" من كل موشي الأديم مفوف ... رقمت بدائعه يد الأقدار "

" خلط البياض بصفرة في لونه ... فترى اللجين يشوب ذوب نضار "

" أو أشعل راق العيون كأنه ... غلس يخالط سدفة بنهار "

" سرحت بمخضر الجوانب يانع ... تنساب فيه أرقام الأنهار "

" قد أرضعته الساريات لبانها ... وحللن فيه أزرة النوار "

" أخذت سعودك حذرهما فلحكمة ... أغرت جفون المزن باستعبار "

" لما أرتك الشمس صفرة حاسد ... لجبينك المتألق الأنوار "

" نفثت عليك السحب نفث معوذ ... من عينها المتوقع الإضرار "

" فارفع لواء الفخر غير مدافع ... واسحب ذيول العسكر الجرار "

" واهنا بمقدمك السعيد مخولا ... ما شئت من عز ومن أنصار "

" قد جئت دارك محسنا ومؤملا ... متعت بالحسنى وعقبى الدار "

" وإليكها من روض فكري نفحة ... شف الثناء بها على الأزهار "

ومن شعره في غير المطولات قوله

" لقد زادني وجدا وأغرى بي الجوى ... ذبال بأذيال الظلام قد النفا "

" تشير وراء الليل منه بنانة ... مخضبة والليل قد حجب الكفا "

" تلوح سنانا حين لا تنفخ الصبا ... وتبدي سوارا حين تثني له العطا "

" قطعت به ليلا بطارحني الجوى ... فأونة يبدو وأونة يخفى "

" إذا قلت لا يبدو أشال لسانه ... وإن قلت لا يخفى الضياء به كفا "

" إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى ... وأهدى نسيم الروض من طيبه عرفا "

" لك الله يا مصباح أشبهت مهجتي ... وقد شفها من لوعة الحب ما شفا "

ومما ثبت له صدر رسالة

" أزور بقلبي معهد الأنس والهوى ... وأنهب من أيدي النسيم رسائلها "

" ومهما سألت البرق يهفو من الحمى ... يبادره دمعي مجيبا وسائلا "

" فيا ليت شعري والأمانى تغلل ... أيرعى لي الحي الكرام الوسائلا "

" وهل جيرتي الأولى كما قد عهدتهم ... يوالون بالإحسان من جاء سائلا "

ومن أبياته الغراميات

" قيادي قد تملكه الغرام ... ووجدي لا يطاق ولا يرام "

" ودمعي دونه صوب الغوادي ... وشجوي فوق ما يشكو الحمام "

" إذا ما الوجد لم يبرح فؤادي ... على الدنيا وساكنها السلام "

وفي غرض يظهر من الأبيات

" ومشتمل بالحسن أحوى مهفهف ... قضى رجح طرفي من مجاسنه الوطر "

" فأبصرت أشباه الرياض محاسنا ... وفي خده جرح بدا منه لي أثر "

" فقلت لجلاسي خذوا الحذر إنما ... به وصب من أسهم الغنج والخور "

" ويا وحنة قد جاورت سيف لحظه ... ومن شأنها تدمى من اللمح بالبصر "

" تخيل للعينين جرحا وإنما ... بدا كلف منه على صفحة القمر "

ومما يرجع إلى باب الفخر ولعمري لقد صدق

" الأئمة في الجود والجود شيمة ... جبلت على إثارها يوم مولدي "

" ذريني فلو أني أخلد بالغنى ... لكنت ضنينا بالذي ملكت يدي "

وقال

" لقد علم الله أني امرؤ ... أجرر ذيل العفاف القشيب "

" فكم غمض الدهر أجفانه ... وفازت قداحي بوصل الحبيب "

" وقيل رقيبك في غفلة ... فقلت أخاف الإله الرقيب "

وفي مدح كتاب الشفاء وقد طلبه الفقيه أبو عبد الله ابن مرزوق عندما شرع في شرحه

" ومسرى ركاب للصبا قد ونت به ... نجائب سحب للتراب تزوعها "

" تسلسل سيوف البرق أيدي حداتها ... فتنهل خوفا من سطاها دموعها "

" تعرضن غربا يبتغين معرسا ... فقلت لها مراکش وربوعها "

" لتسقي أجدانا بها وضرائحا ... عياض إلى يوم المعاد ضجيعها "

" وأجدر من تبكي عليه يراعة ... بصفحة طرس والمداد نجيعها "

" فكم من يد في الدين قد سلفت له ... يرضي رسول الله عنه صنيعها "

" ولا مثل تعريف الشفاء حقوقه ... فقد بان فيه للعقول جميعها "

" بمرأة حسن قد جلتها يد النهي ... فأوصافه يلتاح فيه بديعها "

" نجوم اهتداء والمداد يجننها ... وأسرار غيب واليراع تديعها "

" لقد حزت فضلا يا أبا الفضل شاملا ... فيجزيك عن نصح البرايا شفيعها "

" والله ممن قد تصدى لشرحه ... فلباه من غر المعاني مطيعها "

" فكم مجمل فصلت منه وحكمة ... إذا كتم الإدماج منه تشيعها "

" محاسن والإحسان يبدو خلالها ... كما افتر عن زهر البطاح ربيعها "

" إذا ما أجلت العين فيها تخالها ... نجوما بأفاق الطروس طلوعها "

" معانيه كالماء الزلال لذي صدى ... وألفاظ در يروي نصيعها "

" رياض سقاها الفكر صوب ذكائه ... فأخصب للوراد منها مريعها "

" تفجر عن عين اليقين زلالها ... فلذ لأرباب الخلوص شروعهها "

" إلا يا ابن جار الله يا ابن وليه ... لأنت إذا عد الكرام ربيعها "

" إذا ما أصول المرء طابت أرومة ... فلا عجب أن أشبهتها فروعهها "

" بقيت لأعلام الزمان تنيلها ... هدى ولأحداث الخطوب تروعهها "

مولده رابع عشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة انتهى كلام لسان الدين في الإحاطة في ترجمة تلميذه أبي عبد الله ابن زمرك

قلت ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين رحمهما الله تعالى على هامش هذه الترجمة من الإحاطة كلاما في حق ابن زمرك رأيت أن أذكره بجملته الآن وإن تقدم بعضه في هذا الكتاب فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته أتبعه الله تعالى خزيا وعامله بما يستحقه فهذا ترجمه والدي مولاه الذي رفع من قدره فيه ولم يقتله أحد غيره كفانا الله تعالى شر من أحسنا إليه انتهى

وكتب على قوله نشأ عفا طاهرا إلى آخره ما نصه هذا الوغد ابن زمرك من شياطين الكتاب ابن حداد بالبيازين قتل أباه بيده أوجعه ضربا فمات من ذلك وهو أخس عباد الله تربية وأحقهم صورة وأخملهم شكلا استعمله أبي في الكتابة السلطانية فحينما أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي رياه وأدبه واستخدمه جسما هو معروف وكفانا الله تعالى شر من أحسنا إليه وأسأء إلينا انتهى

وكتب على قول والده فترقي إلى الكتابة إلى آخره ما صورته على يد سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ولا حول ولا قوة إلا بالله انتهى

وكتب على قول معاذ الهوى أن أصحاب القلب ساليا إلى آخره ما نصه هذه القصيدة نظم له مولاي الوالد تغمده الله تعالى برحمته منها النسب كله وهكذا جرت عادته معه في الأمداح السلطانية حضرة الملك والله المطلع على ذلك قاله ابن المصنف علي بن الخطيب انتهى

وكتب على قوله لولا تألق بارق التذكار إلى آخره ما صورته هذا الرجس الشيطان كثيرا ما ينظم في هذا الوزن ويتبع حمارة هذه الرأى حتى لا يتركها جملة إذ الرجل ابن حمار مكاري حداد فالنفس تميل بالطبع انتهى

وكتب على قوله حياك يا دار الهوى من دار إلى آخره ما صورته انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الرأى وعلقت له بها مالخوليا انتهى

وكتب على قوله وجوارح سبقت إليه طلابها إلى آخره ما صورته سرق طردية إبراهيم بن خفاجة فانظرها تجده سرق المعاني والألفاظ مع أن

والدي نظم له أكثرها على حسب عادته معه قال علي بن الخطيب انتهى

وكتب على قوله يا مصباح ما نصه كان يجب صيبا اسمه مصباح وهو الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة انتهى

وكتب على قوله الأثمتي في الجود إلى آخره ما صورته كذبت يا نجس من أين الفخر لك أو لبيتك لست والله من الجود في شيء نعم سخنة عين الجود انتهى

وكتب على قوله لقد علم الله أنني امرؤ إلى آخره ما معناه لا والله فأنت مشهور بكذا يا فرد فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا إلى أن قال وأنحسهم بيتا قاله مولاي الذي ربيت في نعمته ونعمة الله علي بن الخطيب بالقاهرة انتهى

وقد نسبه إلى ما لا يليق فالله أعلم بحقيقة الأمر

وكتب غيره على قول ابن زمرك أزور بقلبي الأبيات المتقدمة عند قوله سائلا في موضعين هما من السؤال فحصل على الإيذاء المذموم انتهى

قلت أما ما ذكره ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك والله أعلم كان في ابتداء أمره وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين وبعد موته بالبدائع التي لا تنكر كما سنذكره وأما كونه سعى في قتل لسان الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله وقتل بمراى من أهله ومسمع وازهقت معه روح ابنه حسبما نذكره وهذا قصاص الدنيا وعفو الله تعالى في الآخرة منتظر للجميع

ولنذكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلد ضخم رأيت بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك وموشحاته وعرف به في أوله إذ قال ما نصه أما بعد ما يجب من حمد الله تعالى في كل حال وشكره على ما

أولى ويسر من صلاح الأحوال والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال والرضى عمن له من صحب وأنصار وآل فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة بلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس الغني بالله تولاه الله تعالى برضوانه كانت غررا في وجوه الأيام ومواسم تجمع الطم والرم من الرؤساء الأعلام الأخذين بأعنة الكلام السابقين في حلبة النثار والنظام وأن الفقيه الرئيس المدرك الناظم الناصر أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن زمرك عفا الله تعالى عنه وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجد رحمه الله تعالى لكتابته وصرفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابه وكان بذلك خليقا لما جمع من أدوات الكمال علما وتحقيقا وإدراكا ونبلا وفقها وأصولا وفروعا وأدبا ونحصيلا وبيانا وتفسيرا ونظما وترسيلا لما كان قد أخفت الأيام سنا صبحه وخابت وسائل نصحه وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أي دخر فقدوا ولا أي مطلق من تصريفاته الجميلة قيدوا مستبصرين بالجهل في دياحي غيهم معجبين بما ارتكبه من جباد بغيهم جميعهم يلحظه بمقل دامية وألفاظ حامية يصاحبونه بأوجه خلت عن الوجاهة سيماها الحسد وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد

" فخر على الألاء لم يوسد ... كأن جبينه سيف صقيل "

فيا لله من أشلاء هنالك ضائعة وأعلاق غير مصونة ووسائل مخفورة وأدمة قطعت أرحامها ولم يرع ذمامها وعانت الأيدي الفاتكة حينئذ على بنيه وارتكبوها شنعاء في أهله وذويه

" هل كان إلا حيا تحيا العباد به ... هل كان إلا قذى في عين ذي عور "

" إن قال قولاً ترى الأبصار خاشعة ... لما يخبر من وحي ومن أثر "
" يا لهف قلبي لو قد كنت حاضره ... غداة جرعه أدهى من الصبر "
" لما تركت له شلوا بمضيعة ... ولا تولى صريع الناب والظفر "
" وكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر "

وإن سأل سائل عن الحبر الذي ألمعنا بذكره وضمنا هذا البيت ذروا من فطيع أمره فذلك عندما نسب صاحب الأمر إليه ما راب وتله وابنيه للجبين معفرين بالتراب وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسل بآياته ويتشفع بعظيم بركاته فأخذته السيوف وتعاورته الحتوف واذهبه سلبيا قتيلا مصيرا مصراع منزله كتيبا مهيلا وكنا على بعدمن هذه الأزفة التي أورثت القلوب شجنا طويلا وذكرتنا بعناية مولانا الجد الغني بالله لجانبه أعظم ذكرى فأغرينا برثائه خلدا وفكرا وارثنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارة مقنعة وكناية في السلوان مطمعة وأرضينا بالشفقة أو داءه وأرغمنا بتأبينه أعداءه ولما تبلج الصبح لذي عينين وتلقينا راية الفرج بالراحتين عطفنا على أبنائه عواطف الشفقة وأطلقنا لهم ما عانت الأيدي عليه صلة لرحم طالما أضعها من جهل الأذمة وأخفر عهود تخدمه لمن سلف من الأئمة وصرنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا وجعلنا ضم ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا وكان تعلق بمحفوظنا جملة وإفرة من كلامه مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه الحائلة المنتهبة بأيدي النوائب الدائرة المستتلبة بنعدي النواصب فخلص من الجملة قلائد عقيان وعقود در ومرجان ترتاح النفوس النفيسة لإنشادها وتحضر الأبصار والأسماع عند إيرادها إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا والإشارة بعظيم ملكنا فشرعنا في تقيد أو إبدائها الشاردة وإحياء روسومها البائدة كلفا بالأدب لوضوح فضله وتأدية لما يجب من رعاية أهله ولنبداً بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه ونظير ما كنا نضمه من الميل إليه في كل ما له أو عليه فنقول هو الفقيه الكاتب الفذ الأوحى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحي ويعرف بابن زمرك

أصله من شرق الأندلس وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة وبها ولد فنشأ ضئيلاً كالشهاب يتوقد مختصر الجرم والأعين بإطالة فواضله تشهد ومكتب الفئدة القرآنية يؤثره بالجناب الممهد فاشتغل أول نشأته بطلب العلم والدؤوب على القراءة وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلا وهو متحمل الرواية وملتمس لفوائد الدراية ومصباح كل يوم أعلام العلوم ومستمد بمصايح الحدود العلمية والرسوم فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبي عبد الله ابن الفخار الآية الكبرى في فن العربية وتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء وبذ النحاة البلغاء بما أوجب رثاءه عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التي أولها

" ... أغرى سراة الحي بالإطراق "

واهتدى في طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب المعظم أبي عبد الله ابن مزروق الوافد على مولانا الجد أبي الحجاج رضي الله تعالى عنه في عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة وإليه جنح وإياه قصد عند تغربه إلى المغرب في دولة السلطان ابي سالم فتوجه بالعمامة التي ارتجل بين يديه فيها

" توجتني بعمامة ... توجت تاج الكرامه "

" فروض حمدك يزهي ... مني بسجع الحمامه "

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد ابي علي منصور الزواوي وبرع في الأدب أثناء الانقطاع وأول الطلب لأبي عبد الله ابن الخطيب ولكن لم يحمدهما المأل واقتدى في العلوم العقلية بالشريف ابي عبد الله التلمساني قدوة الزمان وحصلت له الإجازة والتحديث بقاضي الجماعة وشيخ الجملة أبي البركات ابن الحاج وبالخطيب البليغ أبي عبد الله اللوشي وبالخطيب الورع ابي عبد الله ابن بيش العبدري رضي الله تعالى عنه وعن جميعهم وبواجب محافظتنا على عهدهم إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عذب وردهم وصل سبينا بهم الكثير من شيوخنا مثل الإمام المعظم ابي محمد عبد الله بن جزى ومعلمنا الثقة المجتهد ابي عبد الله الشريشي والقاضي الإمام ابي عبد الله محمد بن علي بن علاق وغيرهم رحمة الله تعالى عليهم لذلك صار صدرا في نوادي طلبة الأندلس وأفراد نجائها فما شاءه المحاضر يجده في خضله ويتلقاه من باهر فضله فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة وجوابا مطبقا للمفصل وذهنا سابقا لإيضاح المشكل مع انقياد الطبع وإرسال الدمعة في سبيل الخشوع والرقعة وشرح الجبين عند تلقي الموعظة وصون الوجه بجلباب الحياء

ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام والمبادرة للاستدعاء على طهارة وبذل وسع وكرم نفس لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ولا أمتع منه بجاهه إلى مبالغة في الهشمة والمبرة والإيتار بما منح وجنوح إلى حب الصالحين وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولي أبي جعفر ابن الزيات وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبي مهدي قدس الله تعالى مغناه وسواهما من أهل الأندلس والعدوة وحمله أشد الحمل على كل ملبس كأبي زكريا البرغواطي وسواه ومن تديراته زعموا على أبي الحسن المحروق لميله عنه " ولد الفقر والرباط ولكن ... نفسه للسلوك ذات افتقار "

وخطب الأدب يافعا وكهلا وحاز علمه إدراكا ونهلا ولما كانت الحادثة على مولانا الجد رحمة الله تعالى واجتاز إلى المغرب كما تقرر في غير هذا كلف به وأنس إليه لحلاوة منطق ورفع استيحاء ومراوضة خلق ثم كر في صحبة ركاية فعلت منزلته ولطف محله وقفنا على رقعة من رقاعة وهو يبديء فيها ويعيد ويقول خدمته سبعا وثلاثين سنة ثلاثا بالمغرب وباقيها بالأندلس أنشدته فيها ستا وستين قصيدة في سنة وستين عيدا وكل ما في منازل السعيدة من القصر والرياض والديار والسبيكة من نظم رائق ومدح فائق في القباب والطاقت والطرز وغير ذلك فهو لي وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج وهما كبيرا ملوك أهل الأرض وهناته بكذا وكذا قصيدة وفوض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين وصلاح النصارى عقده تسع مرات ألخسة فوض إلي ذلك

قلنا صدق في جميع ما ذكره والعقود بذلك شاهدة له وخصه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره واستعمله بعد أعوام في السفارة بينه وبين ملوك عصره فحمد منابه ونمت أحواله ورغد جنباه وكان هنالك بعض تقولات تشين وجه اجتهاده وتومىء بما احتقبه من سوء مقاصده وما صرفه من قبيح أغراضه وهاجت الفتنة فكانت سفارته أعظم أسبابها

وعند الأشد من عمره عرضت لأفكاره تقلبات وأقعدته عن قداح السياسة آفات مختلفات وأشعرته حدة ذهنه أن يتخطى في أشراك وقعات فقعد بجامع مالقة ثم بمسجد الحمراء ملقيا على الكرسي فونوا حمة وعلوما لم يزل يتلقاها عن أولياء التعظيم والتجلة فانحاز إلى مادة أمم بمالقة طما منهم البحر وتراعى لأبصارهم وبصائرهم والفخر وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه وما كان قيده وحصله أيام قرآته وإقرانه فما شئت من بيان وإعجاز قرآن وآيات توحيد وإخلاص ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص يوم الأخذ بالنواص ومرارا عدة سمع ما يلقيه ولي الأمر وبأشد البلوى التي أذاقه مرها وأمطاه إلى طية الهلاك ظهرها وبأقرب ما كان الفوت والحسام الصلت من متباعد هذه القرب التي ألغيت

قلنا لقد جمح جواد القلم فأطلقنا ونحن نشير إلى هذا الرئيس وتبدل طباعه بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاع وإحراز شيم أدت إلى علو مقداره واستقامة مداره فال عمر مولانا جدنا إلى النقاد ورمت رئيس كتابه هذا أسهم الحساد فظهر الخفي وسقط به الليل على سرحان وقد طالما جرب الوفي والصفى وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجيله مع الاستغراق في غمار الفتن أندلسا وغربا ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصبا أما الجراءة فانتضى سيوفها

وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوع صنوفها وأما المجاهرة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها وأما المجاملة فنكر معروفها أذاه هذا النبا العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة المرية وعلى الأثر كان الفرج قريبا وسطور المؤاخذة قد أوسعها العفو تضريبا ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجد الغني بالله وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة لأسباب يطول شرحها أظهرها شراية في لسانه واغترار بمكانه وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه فكبا لليدين والغم إلى أن من الله تعالى بسراجه وأعادته إلى الحضرة في أول شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى وقيام أخينا محمد مقامه بالأمر فاستمر الحال أياما قلائل وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام ثم أعاد المذكور إلى خطه وقد دمنت بعض أخلاقه وخمدت شراسته وحلا بعض مذاقه فما كان إلا كلا وليت وإذا به قد ساء مشهدا وغيبا وأوسع الضمائر شكا وربيا وغلبت الإحن عليه وغللت مراحلها لديه فصار يتقلب على جمر الغضا ويتبرم بالقضا ويظهر النصح وفي طيه التشفي ويسم نفسه بالصلاح ويعلى بالخشوع ويشير بأنه الناصح الأمين ويتلو قوله تعالى " ولكن لا تحبون الناصحين " ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوبا لم يقترفوها ونسب إليهم نسبا من التضييع لم يعرفوها وأنهم

احتجوا الأموال وأساءوا الأعمال والأقوال فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ولا حصل على تفاوت أعداده على حاصل هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية وعدم اضطلاع بالأمور الجبائية فمن نفس يروع سربها ويكدر بالامتحان والامتحان شربها ومن ضارعة خاشعة لله تعالى سلبت وطولبت بغير ما اكتسبت وتعدت الأيدي إلى أقوام حلة سعدوا بشقائه وامتحنوا وهم المبرأون من تزويره واعتدائه وسيسألون يوم لا يغني مال ولا بنون وصار يصرف أغراضه ويظهر أحقاده بين إفصاح بما كان الإعجام خيرا من إلقائه وإن عمر المسكين المستضعف لا حاجة في طول بقائه إلى مجاهرة عهد منه أيام شببته نقيضها وانعكس في شاخته نصريحها المنعص وتعريضها لا يريح نفسه من جهد ولا يقف من اللجاجة عند حد وقد كان ثقل سمعه فساءت إجابته وطفغت أخلاقه فسئم الناس وساطته وربما استحلقت فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلا الحنث عن قصد وغير قصد ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعد وأن يقبض الله له ولهم قاتل عمد فسيحان القاهر فوق عباده الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده فاستمر على ذلك إلى إحدى الليالي فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه تلقاه زعموا عند الدخول عليه وهو بالمصحف رافع يديه فجدلته السيوف وتناولته الحتوف فقضي عليه وعلى من وجد من خدامه وإبنيه كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته ولم يتقوا الله فيه حق تقاته فكانت أنكى الفجائع وأفظع الوقائع وساءت القالة وعظم المصائب وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب انتهى كلام ابن الأحمر في مقدمة كتابه

وقد اطلعت منه على تصاريف أحوال ابن زمرك وقتله على الوجه الذي يعلم منه أن ثار لسان الدين ابن الخطيب لديه لا يترك بل قتلته أقطع من قتلة لسان الدين لأن هذا قتل بين عياله وأهله وقتل معه ابنه ومن وجد من خدمه ولسان الدين رحمه الله تعالى خنق بمفرده وعند الله تجتمع الخصوم وهو العفو الغفور

وقد فهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبعمئة ولم أف من أمره علي غير ما تقدم

ولا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارع مما كنت انتقيته بالغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور وأوردت كثيرا منه في أزهار الرياض

فمن ذلك قوله في ذكر غرناطة العلية وتهنئة سلطانه الغني بالله ببعض المواسم العيادية ووصف كرائم حياته وأثار ملكه وجهاده

" يا من يحن إلى نجد وناديتها ... غرناطة قد ثوت نجد بواديتها "

" قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها ... عقيلة والكثيب الفرد جاليتها "

" تقلدت بوشاح النهر وابتسمت ... أزهارها وهي حلي في تراقبها "

" وأعين النرجس المطلول يانعة ... ترقق الطل دمعا في مآقيها "

" وإفتر نغر أفاح من أزهارها ... مقبلا خد ورد من نواحيها "

" كأنما الزهر في حافاتها سحرا ... دراهم والنسيم اللدن يجيها "

" وانظر إلى الدوح والأنهار تكنفها ... مثل الندامى سواقبها سواقبها "

" كم حولها من بدور تجتني زهرا ... فتحسب الزهر قد قبلن أيديها "

" حباؤها لؤلؤ قد شف جوهرها ... والنهر قد سال ذوبا من لآليها "

" نهر المجرة والزهر المطيف به ... زهر النجوم إذا ما شئت تشبيها "

" يزيد حسنا على نهر المجرة قد ... أغناه در حباب عن دراريها "

" يدعى المنجم رائيه وناظره ... مسميات أبانتها أساميتها "

" إن الحجاز مغانيه باندلس ... ألفاظها طابقت منها معانيها "

" فتلك نجد سفاها كل منسجم ... من الغمام يحييها فيحييها "

" وبارق وعذيب كل مبتسم ... من الثغور يجليها مجليها "

" وإن أردت ترى وادي العقيق فرد ... دموع عشاقها حمرا جواربها "

" وللسبيكة تاج فوق مفرقها ... تود در الدراري لو تحليها "

" فإن حمراءها والله يكلؤها ... ياقوتة فوق ذاك التاج يعلوها "

" إن البدور لتيجان مكللة ... جواهر الشهب في أبهى مجاليها "

" لكنها حسدت تاج السبيكة إذ ... رأت أزهاره زهرا يجليها "

" بروجها لبروج الأفق مخجلة ... فشهبها في جمال لا تضاهيها "

" تلك القصور التي راقت مظاهرها ... تهوي النجوم قصورا عن معاليها "

" لله عينا من رأى سحرا ... تلك المنارة قد رقت حواشيها "

" والصبح في الشرق قد لاحت بشائره ... والشهب تستن سبعا في مجاريها "

" تهوي إلى الغرب لما غالها سحر ... وغمض الفجر من أجفان واشيها "

" وساجع العود في كف النديم إذا ... ما استوقفت ساجعات الطير يغيرها "

" ييدي أفانين سحر في ترنمه ... يصبي العقول بها حسنا ويسيبها "

" يجسه ناعم الأطراف تحسبها ... لآلئنا وهي نور في تلالها "

" مقاتل بلحاط قوس حاجبها ... ترمي القلوب بها عمدا فتصمها "

" فباكر الروض والأغصان مائلة ... يثني النفوس لها شوقا تثنيها "

" لم يرقص الدوح بالأكمام من طرب ... حتى شدا من قيان الطير شاديها "

" وأسمعتها فنون السحر مبدعة ... ورق الحمام وغناها مغنيها "

" غرناطة أنس الرحمن ساكنها ... باحت بسر معانيها أغانيها "

" أعدى نسيمهم لطفا نفوسهم ... فرقة الطبع طبع منه يعديها "

" فخلد الله أيام السرور بها ... صفرا عشياتها بيضا لياليها "

" وروض المحل منها كل منبجس ... إذا اشتكت بغليل الجذب يرويها "

" يحكي الخليفة كفا كلما وكفت ... بالجود فوق موات الأرض يحييها "

" تغني العفاة وقد أمت مكارمه ... عن السؤال وبالإحسان يغيها "

" له بنان فلا غيث يساجلها ... جودا ولا سحبه يوما تدانيها "

" فإن تصب سحبه بالماء حين همت ... بعسجد ولجين صاب هاميا "

" يا أيها الغيث أنت الغوث في زمن ... ملوكة تلفت لولا تلافيا "

" إن الرعايا جزاك الله سالحة ... ملكت شرقا وغربا من براعيها "

" إن الخلائق في الأفطار أجمعها ... سوائم أنت في التحقيق راعيها "

" فكل مصلحة للخلق تحكمها ... وكل سالحة في الدين تنويها "

" إذا تيممت أرضا وهي مجدبة ... فرحمة الله بالسقيا تحيها "

" يا رحمة بثت الرحمى بأندلس ... لولاك زلزلت الدنيا بمن فيها "

" في فضل جودك قد عاشت مشيختها ... في ظل أمك قد نامت ذراريها "

" في طول عمرك يرجو الله أملها ... بنصر ملكك يدعو الله داعيا "

" عوائد الله قد عودت أفضلها ... لتبلغ الخلق ما شاءت أمانيا "

" سبل السعود وخل البيض مغمدة ... واضرب بها فرية التلثت تفريها "

" لله أيامك الغر التي اطردت ... فيها السعود بما ترضى ويرضيها "

" لله دولتك الغراء إن لها ... لكافلا من إله العرش يكفيها "

" هيهات أن تبلغ الأعداء مأربة ... في جريها وجنود الله تحميها "

" هذي سيوفك في الأجنان نائمة ... والمشركون سيوف الله تفنيها "

" سريرة لك في الإخلاص قد عرفت ... حسنى عواقبها حتى أعاديها "

" لم يحجب الصبح شهب الأفق عن بصر ... إلا وهديك للأبصار بيديها "

" يا ابن الملوك وأبناء الملوك إذا ... تدعو الملوك إلى طوع تلبيا "

" أبناء نصر ملوك عز نصرهم ... وأوسعوا الخلق تنويها وترفيها "

" هم المصابيح نور الله موقدها ... تضيء للدين والدنيا مشاكيها "

" هم النجوم وأفق الهدى مطلعها ... فوزا لمهديها عزا لهاديها "

" هم البدر كمال ما يفارقها ... هم الشموس ظلام لا يوارها "

" قضت قواضبها أن لا انقضاء لها ... وأمضت الحكم في الأعدا مواضيا "

" وخلدت في صفاح الهند سيرتها ... وأسندت عن عواليها معاليها "

" وأورتك جهادا أنت ناصره ... والأجر منك يرضيها ويحظيها "

" كم موقف ترهب الأعداء موقعه ... والخيل تردي ووقع السمير يريها "

" ثارت عجاجته واليوم محتجب ... والنقع يؤثر غيما من دياجيها "

" وللأسنة شهب كلما غربت ... في الدارعين تجلت من عواليها "

" وللسيوف بروق كلما لمعت ... تزجي الدماء وريح النصر يزجيها "

" أطلعت وجهها تريك الشمس غرته ... تبارك الله ما شمس تساميا "

" من أين للشمس نطق كله حكم ... يفيدها كل حين منك مبيديها "

" لك الجياد إذا تجري سوابقها ... فللرياح جياذ ما تجاربيها "

" إذا انبرت يوم سبق في أعنتها ... ترى البروق طلاحا لا تباريها "

" من أشهب قد بدا صباحا تراع له ... شهب السماء فإن الصبح يخفيها "

" إلا التي في لجام منه قيدها ... فإنه سامها عزا وتنويها "

" أو أشقر مر عن شقر البروق وقد ... أبقى لها شقفا في الجو تنبيها "

" أو أحمر جمره في الحرب متقد ... يعلو لها شرر من بأس مذكبيها "

" لون العقيق وقد سال العقيق دما ... بعطفه من كمة كر يدميها "

" أو أدهم ملء صدر الليل تنعله ... أهلة فوق وجه الأرض يديها "

" إن حارت الشهب ليلا في مقلده ... فصيح غرته بالنور يهديها "

" أو أصفر بالعشيات ارتدى مرحا ... وعرفه بتمادي الليل بنيها "

" مموه بنضار تاه من عجب ... فليس يعدم تنويها ولا تبيها "

" ورب نهر حسام رق رائفه ... متى ترده نفوس الكفر يردبيها "

" تجري الرؤوس حبابا فوق صفحته ... وما جرى غير أن البأس يجريها "

" وذابل من دم الكفار مشربه ... يجني الفتوح وكف النصر تجنيها "

" وكم هلال لقوس كلما نبضت ... ترى النجوم رجوما في مراميها "

" أمة الكفر ما يمت ساحتها ... إلا وقد زلزلت قسرا صياصيها "

" يا دولة النصر هل من مبلغ دولا ... مضين أنك تحيها وتنسيها "

" أو مبلغ سالف الأنصار مالكة ... والله بالخلد في الفردوس يجزيها "

" ان الخلافة أعلى الله مظهرها ... أبقث لنا شرفا والله يبقياها "

" يا ابن الذين هم في كل مكرمة ... مفاخر ولسان الدهر يملياها "

" أنصار خير الورى مختار هجرته ... جيران روضته أكرم بأهليها "

" سمتمهم الملة السمحاء تكرمه ... أنصارها وبهم عزت أوليها "

" ففي حنين وفي بدر وفي أحد ... تلفي مفاخرهم مشهورة فيها "

" ولتسأل السير المرفوع مسندها ... فعن موافقهم تروى مغازيها "

" مأثر خلد الرحمن أترتها ... ينصها من كتاب الله قاريها "

" ماذا يجيد بليغ أو ينمقه ... من الكلام ووحى الله تاليها "

" له الجهاد به تسري الرياح إلى ... ممالك الأرض من شتى أقاصيها "

" تحدى الركاب إلى البيت العتيق به ... فمكة عمرت منه نواديها "

" بشائر تسمع الدنيا وساكنها ... إذا دعا باسمك الأعلى مناديها "

" كفي خلافتك الغراء منقبة ... أن الإله يوالي من يواليها "

" وقد أفاد بنيه الدهر تجربة ... أن السعود تعادي من يعاديها "

" إذا رميت سهام العزم صائبة ... فما رميت بل التوفيق رامياها "

" شكرا لمن عظمت منا مواهبه ... وإن تعد فليس العد يحصيها "

" عما قريب ترى الأعياد مقبلة ... من الفتوح ووفد النصر حاديها "

" وتبلغ الغاية القصوى بشائرها ... فقد أطلت بما ترضى مباديها "

" فاهنا بما شئت من صنع تسر به ... وانو الأمانى فالأقذار تديها "

" مولاي خذها كما شاءت بلاغتها ... ولو تباع لكان الحسن يشريها "

" أرسلتها حيثما الأرواح مرسله ... نوادرا تنشر البشرى أماليها "

" جاءت تهنيك عيد الفطر معجبة ... بحسنها ولسان الصدق يطريها "

" البشر في وجهها واليمن في يدها ... والسحر في لفظها والدر في فيها "

" لو رضع البدر منها تاج مفرقه ... لم يرض در الدراري أن تحليها "

" فإن تكن بنت فكري وهو أوجدتها ... نعماك في حجره كانت تريها "

" في روض جودك قد طوقتني مننا ... طوق الحمام فما سجعي موفياها "

" ولو أعرت لسان الدهر يشكرها ... لكان يقصر عن شكر يوفياها "

" بقيت للدين والدنيا إمام هدى ... مبلغ النفس ما ترجو أمانياها "

" والسعد يجري لغايات تؤملها ... ما دامت الشهب تجري في مجاريها "

" وقال رحمه الله تعالى شاكرا لنعم وصلته من المذكور في عاشوراء "

" مولاي يا ابن السابقين إلى العلا ... والرافعين لواءها المنشورا "

" إن لوحظوا في المعلومات فإنهم ... طلوعوا بآفاق العلاء بدورا "

" أو فوخروا في المكرمات فإنهم ... نظموا بأسلاك الفخار شذورا "

" أبناء أنصار النبي وصحبه ... في الذكر أصبح فخرهم مذكورا "

" والمؤثرين وربنا أثنى بها ... في الحشر خلد وصفهم مسطورا "

" فاضت علينا من نذاك غمائم ... وتفجرت من راحتك بحورا "

" من كف شفاف الضياء تخاله ... لصفاء جوهره تجسد نورا "

" نعم متنوعة تعدد وفرها ... أعجزت عنها شكري الموفورا "

" في موسم للدين قد جددته ... وأقمت فينا عيده المشهورا "

" أضعاف ما أهديتنا من منة ... تهدي إليك ثوابها عاشورا "

" وعلى الطريق بشائر محمودة ... ألقاك جذلانا بها مسرورا "

وقال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتناء بجبل الفتح وقد وقع له السلطان الغني بالله المذكور بذلك فارتجل قطعا منها

" أتوني بنوار يروق نضارة ... كخد الذي أهوى وطيب تنفسه "

" وجاءوا به من شاهق متمنع ... تمنع ذاك الطيب في ظل مكنسه "

" رعى الله مني عاشقا متمنعا ... بزهر حكى في الحسن خد مؤنسه "

" وإن هب خفاق النسيم بنفحة ... حكى عرفه طيبا قضى بتأنسه "

ومنها

" رعى الله زهرا ينتمي لقرنفل ... حكى عرف من أهوى وإشراق خده "

" ومنبته في شاهق متمنع ... كما امتنع المحبوب في تيه صده "

" أميل إذا الأغصان مالت بروضة ... أعانق منها القصب شوقا لقدمه "

" وأهفو لخفاق النسيم إذا سرى ... وأهوى أريج الطيب من عرف نده "

ومنها

" يقر بعيني أن أرى الزهر يانعا ... وقد نازع المحبوب في الحسن وصفه "

" وما أصبرت عيني كزهر قرنفل ... حكى خد من يسبي الفؤاد وعرفه "

" تمنع في أعلى الهضاب لمجتن ... تمنعه مني إذا رمت إلفه "

" وفي جبل الفتح اجتنوه تفاؤلا ... بفتح لباب الوصل يمنح عطفه "

" وما ضر ذلك الغصن وهو مرشح ... إذا ما ثنى نحو المقيم عطفه "

قال ابن الأحمر في الكتاب المذكور فيما مر ومن القصائد التي يود الصباح سناها والنسيم اللدن رقة معناها يهنئ مولانا الجد رضي الله تعالى عنه عند وصول خالصة مقامه وكبير خدامه القائد خالد رحمه الله تعالى من تلمسان بالهدية وتجديد المقاصد الودية ووافق استئناف راحة من الذات العلية ومن بعض فروع دوحته الزكية

" أدرها ثلاثا من لحاظك واحبس ... فقد غال منها السكر أبناء مجلس "

" إذا ما نهاني الشيب عن أكؤس الطلا ... تدير علي الخمر منها بأكؤس "

" عذيري من لحظ ضعيف وقد غدا ... يحكم منا في جسوم وأنفس "

" وروض شباب ماس غصن قوامه ... وفتح فيه اللحظ أزهار نرجس "

" وما زال ورد الخد وهو مضعف ... يعير أفاح الثغر طيب تنفس "

" وكم جال طرف الطرف في روض حسنه ... يقيده فيه العذار بسندس "

" أما وليالي الوصل في روضة الصبا ... ومألف احبابي وعهد تأنسي "

" لئن نسيت تلك العهود أحبتي ... فقلبي عهد العامرية ما نسي "

" وحاشا لنفسي بعدما افتر فودها ... من الشيب عن صبح به متنفس "

" والبسها ثوب الوفار خليفة ... به لبس الإسلام أشرف ملبس "

" وجدد للفتح المبين مواسما ... أقام بها الإيمان أفراح معرس "

" وأورثه العلياء كل خليفة ... نماء إلى الأنصار كل مقدس "

" فيا زاجر الأظعان وهي ضوامر ... بغير الفلا والوحش لم تتأنس "

" إذا جئت من دار الغني بربه ... مناخ العلا والعز فاعقل وعرس "

" فإن شئت من بحر السماحة فاغترف ... وإن شئت من نور الهداية فاقبس "

" أمولاي إن السعد منك لآية ... أنارت بها الأكوان جذوة مقيس "

" إذا شئت أن ترمي القصي من المنى ... تدور لك الأفلاك مرفوعة القسي "

" فترمي بسهم من سعودك صائب ... سديد لأغراض الأمانى مقرطس "
 " أهنيك بالإبلال ممن شفاؤه ... شفاؤك فاشكر من تلافى و قدس "
 " ودعني أرد يمناك فيه غمامة ... بتخل صوب العارض المتبجس "
 " أقبل منها راحة إثر راحة ... أتتك بها الركبان من بيت مقدس "
 " ومن نسب الفتح المبين ولادة ... إليه بغير الفخر لم يتأسس "
 " فيا أيها المولى الذي بكماله ... خلائف هذا العصر في الفخر تأتسي "
 " لأمنت موسى من عوادي سمييه ... ولولاك لم يبرح بخيفة موجس "
 " بعثت بميمون النقيبة في اسمه ... خلود لعز ثابت متأسس "
 " فجاءك بالمال العريض هدية ... بها الدين أثواب المسرة يكتسي "
 " وشفعها بالصفانات كأنها ... وقد راق مرأها جأذر مكنس "
 " تنص من الإشراف جيد غزالة ... وترنو من الإيجاس عن لحظ أشوس "
 " لك الخير موسى مثل موسى كلاهما ... بغير شعار الود لم يتلبس "
 " فلا زلت في ظل النعيم وكل من ... يعاديك لا ينفك يشقى بأبؤس "
 " عليك سلام مثل حمدك عاطر ... تنفس وجه الصبح عنه بمعطس "
 " وقال في مولد عام سبعة وستين وسبعمئة وألم في أخرياتها بوصف المشور الأسنى الرفيع
 المبنى

" زار الخيال بأيمن الزوراء ... فجلا سناه غياهب الظلماء "
 " وسرى مع النسيمات يسحب ذيله ... فأتت تنم بعنبر وكباء "
 " هذا وما شيء ألد من المنى ... إلا زيارته مع الإغفاء "
 " بتنا خيالين التحفنا بالضنى ... والسقم ما نخشى من الرقباء "
 " حتى أفاق الصبح من غمراته ... وتجادبت أيدي النسيم ردائي "
 " يا سائلي عن سر من أحبته ... السر عندي ميت الأحياء "
 " تالله لأشكو الصباية والهوى ... لسوى الأحبة أو أموت بدائي "
 " يا دين قلبي لست أبرح عانيا ... أرضى بسقمي في الهوى وعنائى "
 " أبكي وما غير النجيع مدامع ... أذكى ولا ضرم سوى أحشائي "
 " أهفو إذا تهفو البروق وأثنى ... لسرى النواسم من ربي تيماء "
 " بالله يا نفس الحمى رفقا بمن ... أغريته بتنفس الصعداء "
 " عجا له يندى على كبدي وقد ... أذكى بقلبي جمرة البرحاء "
 " يا ساكني البطحاء أي إبانة ... لي عندكم يا ساكني البطحاء "
 " أترى النوى يوما تخيب قداحها ... ويفوز قدحي منكم بلقاء "
 " في حيكم قمر فؤادي أفقه ... تفديه نفسي من قريب نائي "
 " لم تنسني الأيام يوم وداعه ... والركب قد أوفى على الزوراء "
 " أبكي ويبسم أوالمحاسن تجتلى ... فعلقت بين تبسم وكباء "
 " يا نظرة جاذبتها أيدي النوى ... حتى استهلته أدمعي بدماء "
 " من لي بثانية تنادي بالأسى ... قدك اتد أسرفت في الغلواء "
 " ولرب ليل بالوصال قطعته ... أجلو دجاه بأوجه الندماء "
 " أنسيت فيه القلب عادة حلمه ... وحثت فيه أكؤس السراء "
 " وجريت في طلق التصابي جامحا ... لا أثنى لمقادة النصحاء "
 " أطوي شبابي لمشيبي مراحل ... برواحل الإصباح والإمساء "
 " يا ليت شعري هل أرى أطوي إلى ... قبر الرسول صحائف البيداء "
 " فتطيب في تلك الربوع مدائحي ... ويطول في ذاك المقام ثوائي "
 " حيث النبوة نورها متالق ... كالشمس تزهى في سنا وسناء "
 " حيث الرسالة في ثني قدسها ... رفعت لهدي الخلق خير لواء "
 " حيث الضريح ضريح أكرم مرسل ... فخر الوجود وشافع الشفعاء "
 " المصطفى والمرضى والمجتبى ... والمنتقى من عنصر العلياء "
 " خير البرية مجتباها ذخرها ... ظل الإله الوارف الأفياء "
 " تاج الرسالة ختمها وقوامها ... وعمادها السامي على النظراء "
 " لولاه للأفلاك ما لاحت بها ... شهب تنير دياحي الظلماء "

" ذو المعجزات الغر والآي الألى ... أكبرن عن عد وعن إحصاء "
 " وكفأك رد الشمس بعد مغيبها ... وكفأك ما قد جاء في الإسراء "
 " والبدر شق له وكم من آية ... كأنامل جاءت بنبع الماء "
 " وبليلة الميلاد كم من رحمة ... نشر الإله بها ومن نعماء "
 " قد بشر الرسل الكرام ببعثه ... وتقدم الكهان بالأنباء "
 " أكرم بها بشرى على قدم سرت ... في الكون كالأرواح في الأعضاء "
 " أمسى بها الإسلام يشرق نوره ... والكفر أصبح فاحم الأرجاء "
 " هو آية الله التي أنوارها ... تجلو ظلام الشك أي جلاء "
 " والشمس لا تخفى مزية فضلها ... إلا على ذي المقلة العمياء "
 " يا مصطفى والكون لم تعلق به ... من بعد أيدي الخلق والإنشاء "
 " يا مطهر الحق الجلي ومطلع ال ... السني الساطع الأضواء "
 " يا ملجأ الخلق المشفع فيهم ... يا رحمة الأموات والأحياء "
 " يا آسي المرضى ومنتجع الرضى ... ومواسي الأيتام والضعفاء "
 " أشكو إليك وأنت خير مؤمل ... داء الذنوب وفي يدك دوائى "
 " إني مددت يدي إليك تضرعا ... حاشا وكلا أن يخيب رجائي "
 " إن كنت لم أخلص إليك فإنما ... خلصت إليك محبتي وندائي "
 " ويسعد مولاي الإمام محمد ... تعد الأمانى أن يتاح لقائي "
 " ظل الإله على البلاد وأهلها ... فخر الملوك السادة الخلفاء "
 " غوث العباد وليث مشتجر القنا ... يوم الطعان وفارج الغماء "
 " كالدهر في سطواته وسماحه ... تجري صباه بزعرع ورخاء "
 " رقت سجاياه وراقت مجتلى ... كالنهر وسط الروضة الغناء "
 " كالزهر في إيراقة والبدر في ... إشراقه والزهر في لآء "
 " يا ابن الألى إجمالهم وجمالهم ... فلق الصباح وواكف الأنواء "
 " أنصار دين الله حزب رسوله ... والسابقون بحلية العلباء "
 " يا ابن الخلائف من بني نصر ومن ... حاطوا ذمار الملة السمحاء "
 " من كل من تقف الملوك ببابه ... يستمطرون سحائب النعماء "
 " قوم إذا قادوا الجيوش إلى الوعى ... فالرعب رائدهم إلى الأعداء "
 " والعز مجلوب بكل كتيبة ... والنصر معقود بكل لواء "
 " يا وارثا عنها مناقبها التي ... تسمو مراقبها على الجوزاء "
 " يا فخر أندلس وعصمة أهلها ... يجزيك عنها الله خير جزاء "
 " كم خضت طوع صلاحها من مهمه ... لا تهندي فيه القطا للماء "
 " تهدي بها حادي السرى بعزائم ... تهدي نجوم الأفق فضل ضياء "
 " فارفع لواء الفخر غير مدافع ... واسحب ذبول العزة القعساء "
 " وإهنا بمبناك السعيد فإنه ... كهف ليوم مشورة وعطاء "
 " لله منه هالة قد أصبحت ... حرم العفاة مصرع الأعداء "
 " تتنابها طير الرجاء فتجتني ... ثمر المنى من دوحة الآء "
 " لله منه فبة مرفوعة ... دون السماء تفوت لحظ الرائي "
 " راقت بدائع وشيها فكأنها ... وشي الربيع بمسقط الأنداء "
 " عظمت ميلاد النبي محمد ... وشفعته بالليلة الغراء "
 " أحبيت ليلك ساهرا فأفدتنا ... قوت القلوب بذلك الإحياء "
 " يا أيها الملك الهمام المجتبي ... فأتت علاك مدارك العقلاء "
 " من لي بأن أحصي مناقبك التي ... ضاقت بهن مذاهب الفصحاء "
 " وإليك مني روضة مطلولة ... أرجت أزهرها بطيب ثناء "
 " فافسح لها أكناف صفحك إنها ... بكر أنت تمشي على استحياء "
 قال ابن الأحمر ومن إعداريات ابن زمرك المحكمة نسقا ووصفا المتناهية في كل فن حسن تحلية
 غريبة ووصفا حسبما اقتضته ملاحظته النسبة الرفيعة مولانا رحمة الله تعالى عليه واحتفاله
 المناسب لعز ملكه من تعميم الخلق بالجفلى في دعواهم واستدعاء أشرف الأمم من أهل
 المغرب وسواهم تغننا في مكارم متعددة أيامها عن أصالة المجد معربة وإغراء لهمم الملك بما

لتنميم الأنس من أوضاع مغربة ومباهاة يعرض الجيوش والكتائب للعدو الكافر وتكاثرا من مماليك دولته بالعدد الوافر مما أجم اللسن الذكي عيا وغادر الإعدار الذنوني منسيا كافأ الله سبحانه أبوته المولوية عنا وعن آبائنا وتلقى بالقبول الكفيل بتجديد الرضوان ما يصل له من خالص دعائنا أنه منعم جواد قوله في الصنيع المختص من ذلك بمولانا الوالد قدس الله تعالى روحه وذلك سنة أربع وستين وسبعمائة

" ... معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا"

القصيدة وقد تقدمت بتمامها فراجعها

ثم قال ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المخصوص بعمينا السيدين الأميرين سعد ونصر رحمة الله تعالى عليهما وأجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع

" اللمحة من بارق متبسم ... أرسلته دمعا تضرع بالدم "

" وللمحة تهفو بنانات اللوى ... يهفو فؤادك عن جوانح مغرم "

" هي عادة عذرية من يوم أن ... خلق الهوى تعتاد كل متيم "

" قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن ... أدري الهوى واليوم أعذل لومي "

" كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت ... حذر الرقيب ومدمع لم يسجم "

" إن كان واشي الدمع قد كتم الهوى ... هيهات واشي السقم لما يكتم "

" ولقد أجد هواي رسم دارس ... قد كاد يخفى عن خفي توهم "

" وذكرت عهدا في حماة قد انقضى ... فأطلت فيه تردددي وتلومي "

" ولربما أشجى فؤادي عنده ... ورقاء تنفت شجوها بترنم "

" لا أجدب الله الطلول فطالما ... أشجى الفصيح بها بكاء الأعجم "

" يا زاجر الأظعان يحفزها السرى ... قف بي عليها وقفة المتلوم "

" لترى دموع العاشقين برسمها ... حمرا كحاشية الرداء المعلم "

" دمن عهدت بها الشيبية والهوى ... سقيا لها ولعهدتها المتقدم "

" وكتيبة للشوق قد جهزتها ... أغزو بها السلوان غزو مصمم "

" ورفعت فيها القلب بندا خافقا ... وأريت للعشاق فضل تهممي "

" فأننا الذي شباب الحماسة بالهوى ... لكن من أهواه ضايق مقدمي "

" فطعننت من قد القوام بأسمر ... ورميت من غنج اللحاط بأسهم "

" يا قاتل الله الجفون فإنها ... مهما رمت لم تخط شاكلة الرمي "

" ظلمت قتيل الحب ثم تبينت ... للسقم فيها فترة المتظلم "

" يا ظبية سنحت بأكناف الحمى ... سقي الحمى صوب الغمام المسجم "

" ما ضر إذ أرسلت نظرة فاتك ... أن لو عطفت بنظرة المترحم "

" فرأيت جسما قد أصيب فؤاده ... من مقلتيك وأنت لم تتألمي "

" ولقد خشيت بأن يقاد بجرحه ... فوهبت لحظك ما أحلك من دمي "

" كم خضت دونك من غمار مغازة ... لا تهتدي فيها الليوث لمجثم "

" والنجم يسري من دجاء بأدهم ... رحب المقلد بالثريا ملجم "

" والبدر في صفح السماء كأنه ... امرأة هند وسط لج ترتمي "

" والزهر زهر والسماء حديقة ... فتقت كمائم جناحها عن أنجم "

" والليل مرید الجوانح قد بدا ... فيه الصباح كغرة في أدهم "

" فكأنما فلق الصباح وقد بدا ... مرأى ابن نصر لاح للمتوسم "

" ملك أفاض على البسيطة عدله ... فالشاة لا تخشى اعتداء الضيغم "

" هو منتهى آمال كل موفق ... هو مورد الصادي وكنز المعدم "

" لاحت مناقبه كواكب أسعد ... فرأت ملامح نوره عين العمي "

" ولقد تراءى بأسه وسماحه ... فأتى الجلال من الجمال بتوأم "

" مثل الغمام وقد تضاحك برقه ... فأفاد بين تجهم وتبسم "

" أنسى سماحة حاتم وكذاك في ... يوم اللقاء ربيعة بن مكرم "

" سير تسير النيرات بهديها ... وتعير عرف الروض طيب تنسم "

" فالبدر دونك في علا وإنارة ... والبحر دونك في ندى وتكرم "

" ولك القباب الحمر ترفع للندى ... فترى العمائم تحتها كالأنجم "

" يذكى الكباء بها كأن دخانه ... قطع السحاب بجوها المتغيم "

" ولك العوالي السمر تشرع للعدى ... فتخر صرعى للبيدين وللغم "

" ولك الأيادي البيض قد طوقتها ... صيد الملوك ذوي التلاد الأقدم "

" شيم يقر الحاسدون بفضلها ... والصيح ليس ضياؤه بمكتم "

" ورث السماحة عن أبيه وجده ... فالأكرم ابن الأكرم ابن الأكرم "

" نقلوا المعالي كابرا عن كابر ... كالرمح مطرد الكعوب مقوم "

" وتسنموا رتب العلاء بحقها ... ما بين جد في الخلافة وابنم "

" يا آل نصر أنتم سرج الهدى ... في كل خطب قد تجهم مظلم "

" الفاتحون لكل صعب مقفل ... والفارجون لكل خطب مبهم "

" والباسمون إذا الكماة عوايس ... والمقدمون على السواد الأعظم "

" أبناء أنصار النبي وحزبه ... وذوي السوابق والجوار الأعصم "

" سل عنهم أحدا وبدرا تلقهم ... أهل الغناء بها وأهل المغنم "

" ويفتح مكة كم لهم في يومه ... بلواء خير الخلق من متقدم "

" أقسمت بالحرم الأمين ومكة ... والركن والبيت العتيق وزمزم "

" لولا مأثرهم وفضل علاهم ... ما كان يعزى الفضل للمتقدم "

" ماذا عسى أنني وقد أتت على ... عليائهم أي الكتاب المحكم "

" يا وارثا عنها مأثرها التي ... قد شيدت للفخر أشرف معلم "

" يا فخر أندلس لقد مدت إلى ... عليك كف اللانذ المستعصم "

" أما سعودك في الوعى فتكفلت ... بسلامة الإسلام فاخلد واسلم "

" وافيت هذا الثغر وهو على شفا ... فشقيت معضل دائه المستحكم "

" ورعيته بسياسة دارت على ... مختطه دور السوار بمعصم "

" كم ليلة قد بت فيها ساهرا ... تهدي الأمان إلى العيون النوم "

" يا مظهر الألفاظ وهي خفية ... ومهب ربح النصر للمتسنم "

" لله دولتك التي آثارها ... سيرالركاب لمنجد أو متهم "

" ما بعد يومك في المواسم بعدما ... أتبعث عيد الفطر أكرم موسم "

" وافتك أشراف البلاد ليومه ... من كل ندب للعلا متسنم "

" صرفوا إليك ركابهم وتيمموا ... من بابك المنتاب خير ميمم "

" وتبواوا منه بدار كرامة ... فالكل بين مقرب ومنعم "

" ودت نجوم الأفق لو مثلت به ... لتفوز فيه برتبة المستخدم "

" والروض مختال بحلية سندس ... من كل موشي الرقوم منمنم "

" ورياحه نسمت بنشر لطيمة ... وأفاحه بسمت بثغر ملثم "

" وأرئنا فيه عجائب جمعة ... لم تجر في خلد ولم تتوهم "

" أرسلت سرعان الجياد كأنها ... أسراب طير في التنوفة حوم "

" من كل منحجز بخرقة بارق ... قد كاد يسبق لمحة المتوهم "

" طرف يشك الطرف في استنباته ... فكانه ظن بصدر مرجم "

" ومسافر في الجو تحسب أنه ... يرقى إلى أوج السماء بسلم "

" رام استراق السمع وهو ممنع ... فأصيب من قضب العصي بأسهم "

" رجمته من شهب النصال حواصب ... لولا تعرضه لها لم يرحم "

" ومداره الأفلاك أعجز كنهها ... إبداع كل مهندس ومهندم "

" يمشي الرجال بجوفها وجميعهم ... عن مستوى قدميه لم يتقدم "

" ومنوع الحركات قد ركب الهوا ... يمشي على خط به متوهم "

" فإذا هوى من جوه ثم استوى ... أبصرت طيرا حول صورة آدم "

" يمشي على فتن الرشاء كأنه ... فيه مساور ذابل أو أرقم "

" وإليك من صون العقول عقيمة ... وقفت ببابك وقفة المسترحم "

" ترجو قبولك وهو أكبر منحة ... فاسمح به خلدت من متكرم "

" طاردت فيها وصف كل غريبة ... فنظمت شارده الذي لم ينظم "

" ودعوت أرياب البيان أريهم ... كم غادر الشعراء من متردم "

" ما ذاك إلا بعض أنعمك التي ... قد علمتنا كيف شكر المنعم "

ثم قال وأشد من ذلك في الصنيع المخصوص بعننا الأمير أبي عبد الله رحمة الله تعالى عليه

وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة آثار مولانا رضي الله تعالى عنه
" سل الأفق بالزهر الكواكب حاليا ... فإنني قد أودعته شرح حاليا "
" وحملت معتل النسيم أمانة ... قطعت بها عمر الزمان أمانيا "
" فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفة ... أحملها ما يستخف الرواسيا "
" وسأوس كم جدت وجد بي الهوى ... فعد به القلب المقلب هازيا "
" ومن يطع الألباط في شرعة الهوى ... فلا بد أن يعصي نصيحا ولاحيا "
" عدلت بقلبي عن ولاية حكمه ... غداة ارتضى من جائر اللحظ واليا "
" وما الحب إلا نظرة تبعث الهوى ... وتعقب ما يعيي الطبيب المداوبا "
" فيا عجبا للعين تمشي طليقة ... ويصبح من جرائها القلب عانيا "
" ألا في سبيل الله نفس نفيسة ... يرخص منها الحب ما كان غاليا "
" ويا رب عهد للشباب قضيته ... وأحسننت من دين الوصال التقاضيا "
" خلوت بمن أهواه من غير رقبة ... ولكن عفافي لم أكن عنه خاليا "
" ويوم بمستن الأطباء شهدته ... أجد وصالا باليا فيه باليا "
" ولم أصح من خمر اللحاظ وقد غدا ... به الجو وضاح الأسرة صاحيا "
" وجرى من غمد الغمامة صارما ... من البرق مصقول الصفيح يمانيا "
" تبسم فاستبكي جفوني غمرة ... ملأت بدر الدمع منها رداثيا "
" وأذكرني ثغرا طمئت لورده ... ولا والهوى العذري ما كنت ناسيا "
" وراح خفوق القلب مثلي كأنما ... ببرق الحمى من لوعة الحب ما بيا "
" وليلة بات البدر فيها مضاجعي ... وباتت عيون الشهب نحوي روانيا "
" كرعنت بها بين العذيب وبارق ... بمورد ثغرات بالدر حاليا "
" رشفت به شهد الرضاب سلافة ... وقبلت في ماء النعيم الأفاحيا "
" فيا برد ذاك الثغر رويت غلتي ... ويا حر أنفاسي أذبت فؤاديا "
" وروضة حسن للشباب نصيرة ... هصرت بغصن البان فيها المجانبا "
" وبت أسقي وردة الخد أدمعي ... فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاوبا "
" ومالت بقلبي مائلات قدودها ... فما للقدود المائلات وما ليا "
" جزى الله ذاك العهد عودا فطالما ... أعاد على ريعي الأطباء الجوازيا "
" وقل لليال في الشباب نعمتها ... وقضيتها أنسا سقيت لياليا "
" ويا واديا رفت علي ظلاله ... ونحن ندير الوصل قدست واديا "
" رمتني عيون السرب فيه وإنما ... رمين بقلبي في الغرام المراميا "
" فلولا اعتصامي بالأمير محمد ... لما كنت من فتك اللواظ ناجيا "
" فقل للذي يبني على الحسن شيعره ... عليه مع الإحسان لا زلت بانيا "
" فكم من شكاة في الهوى قد رفاتها ... ورفعتها بالمدح إذ جاء تاليا "
" وكم ليلة في مدحه قد سهرتها ... أباهي بدر النظم فيه الدراريا "
" ولاح عمود الصبح مثل انتسابه ... رفعت عليه للمديح المبانيا "
" إمام أفاد المكرمات زمانه ... وشاد له فوق النجوم المعاليا "
" وجاوز قدر البدر نورا ورفعة ... ولم يرض إلا بالكمال مواليا "
" هو الشمس بثت في البسيطة نفعها ... وأنوارها أهدت قريبا وقاصيا "
" هو البحر بالإحسان يزخر موجه ... ولكنه عذب لمن جاء عافيا "
" هو الغيث مهما يمسك الغيث سحبه ... يرو بسحب الجود من كان صاديا "
" شمائل لو أن الرياض بحسنها ... لما صار فيها زهرها الغض ذاوبا "
" فيا ابن الملوك الصيد من آل خزرج ... وذا نسب كالصبح عز مساميا "
" ألسنت الذي ترجو العفاة نواله ... فتخجل جدواه السحاب الغواديا "
" ألسنت الذي تخشى البغاة صياله ... فتوجل عليه الصعاب العواديا "
" وهديك مهما ضلت الشهب قصدها ... تولته في جنح الدجنة هاديا "
" وعزمك أمضى من حسامك في الوعى ... وإن كان مصقول الغرارين ماضيا "
" فكم قادح في الدين يكفر به ... قدحت له زند الحفيظة وارا "
" وما راعة إلا حسام وعزمة ... يضيئان في ليل الخطوب الدواجيا "
" فلولاك يا شمس الخلافة لم بين ... سبيل جهاد كان من قبل خافيا "

" ولولاك لم ترفع سماء عجاجة ... تلوح بها بيض النصول دراريا "

" ولولاك لم تنهل غصون من القنا ... وكانت إلى ورد الدماء صواديا "

" فأثمر فيها النصل نصرا مؤزرا ... وأجنى قطاف الفتح غضا ودانيا "

" ومهما غدا سفاح سيفك عاريا ... يغادر وجه الأرض بالدم كاسيا "

" قضى الله من فوق السموات أنه ... على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا "

" فكلم معقل للكفر صبحت أهله ... بجيش أعاد الصبح أظلم داجيا "

" رقيت إليه والسيوف مشيخة ... قد بلغت فيه النفوس التراقيا "

" ففتحت مرقاه الممنوع عنوة ... وبات به التوحيد يعلو مناديا "

" وناقوسه بالقسر أمسى معطلا ... ومنبره بالذكر أصبح حاليا "

" عجائب لم تخطر ببال وإنما ... ظفرنا بها عن همة هي ما هيا "

" فمك استغفار الدهر كل عجيبة ... يباهي بها الأملاك أخرى لياليا "

" وعنك يروي الناس كل غريبة ... تخط على صفح الزمان الأماليا "

" والله مبنك الجميل فإنه ... يفوق على حكم السعود المبانيا "

" فكلم فيه الأبصار من متنزه ... تجد به نفس الحليم الأمانيا "

" وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ... ولم تك في أفق السماء جواريا "

" ولو مثلت في سابقه لسابقت ... إلى خدمة ترضيك منها الجواريا "

" به البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباحيا "

" وكلم حلة جللته بحليها ... من الوشي تنسي السابري اليمانيا "

" وكلم من قسي في ذراه ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا "

" فتحسبها الأفلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح إذ بات باديا "

" سواريا قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجري سواريا "

" به المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا "

" إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها ... على عظم الأجرام منها لاليا "

" به البحر دفاع العباب تخاله ... إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا "

" إذا ما جلت أيدي الصبا متن صفحه ... أرتنا دروعا أكسبتنا الأياديا "

" وراقصة في البحر طوع عنانها ... تراجع ألحان القيان الأغانيا "

" إذا ما علت في الجو ثم تحدرت ... تحلي بمرفض الجمال النواحيا "

" بذوب لجين سال بين جواهر ... غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا "

" تشابه جار للعيون بجامد ... فلم أدر أيا منهما كان جاريا "

" فإن شئت تشبيها له عن حقيقة ... تصيب بها المرمى وبوركت راميا "

" فقل أرقصت منها البحيرة متنها ... كما يرقص المولود من كان لاهيا "

" أرتنا طباع الجود وهي وليدة ... ولم ترض في الإحسان إلا تغاليا "

" سقت ثغر زهر الروض عذب برودها ... وقامت لكي تهدي إلى الدهر ساقيا "

" كأن قد رأت نهر المجرة ناضيا ... فرامت بأن تجري إليه السواقيا "

" وقامت بنات الدوح فيه مواتلا ... فرادى وبتلو بعضهن مثنيا "

" رواضع في حجر الغرام ترعرعت ... وشبت فشبت حبها في فؤاديا "

" بها كل ملتف الغدائر مسبل ... تجيل به أيدي النسيم مداريا "

" وأشرف جيد الغصن فيها معطلا ... فقلدت النوار منه التراقيا "

" إذا ما تحلت در زهر غروسه ... بيت لها النمام بالطيب وأشيا "

" مصارفة النقدين فيها بمثلها ... أجاز بها النقدين منها كما هيا "

" فإن ملأت كف النسيم بمثلها ... دراهم نور ظل عنها مكافيا "

" فيملاً حجر الروض حول غصونها ... دنانير شمس تترك الروض حاليا "

" تغرد في أفنانها الطير كلما ... تجس به أيدي القيان الملاهيا "

" تراجعها سجعا فتحسب أنها ... بأصواتها تملئ عليها الأغانيا "

" فلم ندر روضا منه أنعم نضرة ... وأعطر أرجاء وأحلى مجانيا "

" ولم نر قصيرا منه أعلى مظاهرا ... وأرفع أفاقا وأفسح ناديا "

" معاني من نفس الكمال انتقيتها ... وزينت منها بالجمال المغانيا "

" وفاتحت مبناه بعيد شرعته ... تبث به في الخافقين التهانيا "

" ولما دعوت الناس نحو صنيعه ... أجابوا لهم من جانب الغور داعيا "

" وأموه من أقصى البلاد تقربا ... وما زال منك السعد يدني الأقصيا "

" وأذكرت يوم العرض جودا ومنعة ... بموقف عرض كنت فيه المجازيا "

" جزيت به كلا على حال سعيه ... فما غرست يمناه اصبح جانبا "

" وأطلعت من جزل الوقود هوادجا ... تذكر يوم النفر من كان ساهيا "

" وحين غدا يذكي ببابك للقري ... فلا غرو أن أجريت فيه المذاكيا "

" وطامحة في الجو غير مطالة ... يرد مداها الطرف أحسر عانيا "

" تمد لها الجوزاء كف مسارع ... ويدنو لها بدر السماء مناجيا "

" ولاعجب أن فانت الشهب بالعلا ... وأن جاوزت منها المدى المتناها "

" فبين يدي مثواك قامت لخدمة ... ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا "

" وشاهد ذا أني ببابك واقف ... وقد حسدت زهر النجوم مكانيا "

" وقد أرضعت ندي الغمام قبلها ... بحجر رياض كن فيه نواشيا "

" فلما أبيت عن قراره أصلها ... أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا "

" وعدت لقاء السحب عيدا وموسما ... لذاك اغتدت بالزمر تلهي الغواديا "

" فأضحكت البرق الطروب خلالها ... وباتت لأكواس الدراري معاطيا "

" رأيت نفسها طالت فظنت بأنها ... تفوت على رغم اللحاق المراميا "

" فخفت إليها الذابلات كأنها ... طيور إلى وكر أطلن تهاويا "

" حكمت شيها للنحل والنحل حوله ... عصي إلى مثواه تهوي عواليا "

" فمن مثبت منها الرمية مدرك ... ومن طائش في الجو خلق وانيا "

" وحصن منيع في ذراها قد ارتقى ... فأبعد في الجو الفضاء المراقيا "

" كان بروق الجو غارت وقد أرت ... بروج قصور شدتهن سواميا "

" فأنشأت برجاً صاعداً متنزلاً ... يكون رسولا بينهن مداريا "

" تطور حالات أتى في ضروبها ... بأنواع حلي تستغز الغوانيا "

" فحجل برجليها وشاح بخصرها ... وتاج إلى ما حل منها الأعاليا "

" وما هو إلا طير سعد بذروة ... غدا زاجرا من أشهب الصبح بازيا "

" أمولاي يا فخر الملوك ومن به ... سيبلغ دين الله ما كان راجيا "

" بنوك على حكم السعادة خمسة ... وذا عدد للعين ما زال واقيا "

" تبيت لهم كف الثريا معيدة ... ويصبح معتل النواسم راقيا "

" أسام عليها للسعادة ميسم ... ترى العز فيها مستكنا وباديا "

" جعلت أبا الحجاج فاح طرسهم ... وقد عرفت منك الفتوح التواليا "

" وحسبك سعد ثم نصر يليهم ... محمد الأرضى فلا زلت راضيا "

" أقممت به من فطرة الدين سنة ... وجددت من رسم الهداية عافيا "

" وجاءوا به ملء العيون وسامة ... يقبل وجه الأرض أزهراً باهيا "

" فيا عاذرا ما كان أجرا مثله فمثلك لا يدمي الأسود الضواريا "

" وجاءتك من مصر التحايا كرائمنا ... فما فتقت أيدي التجار الغواليا "

" ووافتك من أرض الحجاز تميمية ... تتمم صنع الله لا زال باديا "

" وناداك بالتمويل سلطان طيبة ... فيا طيب ما أهدى إليك مناديا "

" وقام وقد وافى ضريح محمد ... لسلطانك الأعلى هنالك داعيا "

" سريرتك الرحمي جزاك بسعيها ... إله يوفي بالجزاء المساعيا "

" فوالله لولا سنة نبوية ... عهدناه مهديا إليها وهاديا "

" وعذر من الإعذار قرر حكمه ... من الشرع أخبار رفعن عواليا "

" لراعت بها للحرب أهوال موقف ... تشيب بمبيض النصول العواليا "

" لك الحمد فيه من صنيع تعده ... فنالته في الفخر عزز ثانيا "

" تشد له الجوزاء عقد نطاقها ... لتخدم فيه كي تنال المعاليا "

" وهنيت بالأمداح فيه وقد غدا ... وجودك فيه بالإجادة وافيا "

" ودونك من بحر البيان جواهرها ... كرم من فما يشترين إلا غواليا "

" وطاردت فيها وصف كل غريبة ... فأعجزت من يأتي ومن كان ماضيا "

" فيا وارث الأنصار لا عن كلاله ... تراث جلال يستخف الرواسيا "

" بأمداحه جاء الكتاب مفصلا ... يرتله في الذكر من كان تاليا "

" لقد عرف الإسلام مما أفدته ... مكارم أنصارية وأياديا "

" عليك سلام الله فاسلم مخلدا ... تجدد أعيادا وتبلي أعاديا "

ثم قال ومن ذلك في الصنيع المختص بالأمرء الجلة أخينا المعز لدولتنا أبي الحسن وأخينا أبي العباس وابن عمنا أبي عبد الله وصل الله تعالى سعودهم

ولقد ابدع في تشييده وتأسيسه وبسط يد الحسن من براعته وتخميسته وذلك على ذكر عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبته لما عادت إلى ملكه

" أرقت لبرق مثل جفني ساهرا ... ينظم من قطر الغمام جواهرها "

" فيسسم ثغر الروض قد عنه أزاها ... وصبح حكى وجه الخليفة باهرا "

" ... تجسم من نور الهدى وتجسدا "

" شفانني معتل النسيم إذا انبرى ... وأسند عن دمعي الحديث الذي جرى "

" وقد فتق الأرجاء مسكا وعنبرا ... كأن الغني بالله في الروض قد سرى "

" ... فهبت به الأرواح عاطرة الردا "

" عذيري من قلب إلى الحسن قد صبا ... تهيجه الذكرى ويصبو إلى الصبا "

" ويجري حيا للهو في ملعب الصبا ... ولولا ابن نصر ما أفاق وأعتبا "

" ... رأى وجهه صبح الهداية فاهتدى "

" إليك أمير المسلمين شكاية ... جنى الحسن فيها للقلوب جناية "

" وأعظم فيها بالعيون نكاية ... وأطلع في ليل من الشعر آية "

" ... محيا جميلا بالصباح قد ارتدى "

" بهديك تهدي النيرات وتهندي ... وأنواؤها جدوى يمينك تجندي "

" وعدلك للأملأك أوضح مرشد ... بأثاره في مشكل الأمر تقندي "

" ... فما بال سلطان الجمال قد اعتدى "

" نحكم منا في نفوس ضعيفة ... وسل سيوفا من جفون نحيفة "

" ألم يدر أنا في ظلال خليفة ... ودولة أمن لا تراع منيفة "

" ... بها قد رسا دين الهوى وتمهدا "

" خذوا بدم المشتاق لحظا أراقه ... ويرقا بأعلام الثنية شاقه "

" وإن كلفوه فوق ما قد أطاقه ... بيت حديثا ما ألد مساقه "

" ... خليفتنا المولى الإمام محمدا "

" تقلد حكم العدل دينا ومذهبا ... وجور الليالي قد أراح وأذهبا "

" فيا عجبا للشوق أذكى وألهبا ... وسل صباحا صارم البرق مذهبا "

" ... وقد بات في جفن الغمامة مغمدا "

" يذكرني ثغرا لأسماء أشنبا ... إذا ابتسمت تجلو من الليل غيها "

" كعزم أمير المسلمين إذا احتبى ... وأجرى به طرفا من الصبح أشها "

" ... وأصدر في ذات الإله وأوردا "

" فسبحان من أجرى الرياح بنصره ... وعطر أنفاس الرياض بشكره "

" فبرد الصبا يطوى على طيب نشره ... ومهما تجلى وجهه وسط قصره "

" ... ترى هالة بدر السماء بها بدا "

" إمام أفاد المعلوات زمانه ... فما لحقت زهر النجوم مكانه "

" ومد على شرق وغرب أمانه ... ولا عيب فيه غير أن بنانه "

" ... تغرق مستجديه في أبحر الندى "

" هو البحر مد العارض المتهللا ... هو البدر لكن لا يزال مكملا "

" هو الدهر لا يخشى الخطوب ولا ولا ... هو العلم الخفاق في هضبة العلا "

" هو الصارم المشهور في نصره الهدى "

" أما والذي أعطى الوجود وجوده ... وأوسع من فوق البسيطة جوده "

" لقد أصحب النصر العزيز بنوده ... ومد بأملأك السماء جنوده "

" ... وأنجز للإسلام بالنصر موعدا "

" أمولاي قد أنجحت رأيا وراية ... ولم تبق في سيق المكارم غاية "

" فتهدي سجايا كابن رشد نهاية ... وإن كان هذا السعد منك بداية "

" ... سيبقى على مر الزمان مخلدا "

" سعودك تغني عن قراع الكنائب ... وجودك يزري بالغمام السواكب "

" ووان زاحمتها شهبها بالمناكب ... ووجهك بدر المنتدى والمواكب "

" ... وقد فسحت في الفخر أبناؤك المدى "

" بنوك كأمثال الأنامل عدة ... أعدت لما يخشى من الدهر عدة "

" وزيد بهم برد الخلافة جدة ... أطال لهم في ظل ملكك مدة "

" ... إله يطيل العمر منك مؤيدا "

" بدور بأوصاف الكمال استقلت ... غمام بفياض النوال استهللت "

" سيوف على الأعداء بالنصر سلت ... نجوم بأفاق العلاء تجلت "

" ... ولاحت كما شاءت سعودك اسعدا "

" وإن أبا الحجاج سيفك منتضي ... وبدر بأفاق الجمال تعرضا "

" بنورك يا شمس الخلافة قد أضا ... وراقت على أعطافه حلل الرضى "

" ... فحل محلا من علاك ممهدا "

" ملك له تعنو الملوك جلالة ... يجزر أذيال الفخار مطالة "

" وتفرق أسد الغاب منه بسالة ... وترضاه أنصار الرسول سلالة "

" ... فأبناؤه طابوا فروعا ومحتدا "

" أزاهر في روض الخلافة أينعت ... زواهر في أفق العلاء تطلعت "

" جواهر أغيت في الجمال وأبدعت ... وعن قيمة الأغلاق قدرا ترفعت "

" ... يسر بها الإسلام غيبا ومشهدا "

" بعهد ولي العهد كرم عهده ... وأنجز في تخليد ملكك وعده "

" تنظم منهم تحت شملك عقده ... وأورثهم فخرا أبوه وجده "

" ... فأعلى عليا حين أحمد أحمدا "

" تحوط بهم ملكا عزيزا وملة ... وتلحظ عين السعد منهم أهلة "

" ستبدو على أفق العلا مستقلة ... وسحبا بفياض العلا مستهلة "

" ... تفجر بحرا للسماحة مزيدا "

" ونجلك نصر يقتفي نجل رسمه ... أمير يزين العقل راجح حلمه "

" أتاك بنجل يستضاء بنجمه ... لحب رسول الله سماه باسمه "

" ... وباسمك في هذي الموافقة اقتدى "

" أقيمت بإعذار الإمارة سنة ... وطوقت من حلبي بفخرك منة "

" وأسكنتها في ظل برك جنة ... وألحفتها برد امتنانك جنة "

" ... وعمرت منها بالتلاوة مسجدا "

" فله عينا من رآهم تطلعوا ... غصونا بروض الجود منك ترعرعوا "

" وفي دوحة العلياء منك تفرعوا ... ملوك بجلباب الحياء تقنعوا "

" ... أضاء بهم من أفق قصرك منتدى "

" وقد أشعروا الصبر الجميل نفوسهم ... وأضافوا به فوق الحلبي لبوسهم "

" وقد زينوا بالبشر فيه شمسهم ... وعاطوا كؤوس الأنس فيه جليسهم "

" ... وأبدوا على هول المقام تجلدا "

" شمائل فيهم من أبيهم وجدهم ... تفصل آي الفخر فيها بحمدهم "

" وتنسبها الأنصار قدما لسعدهم ... تضيء بها نورا مصابيح سعدهم "

" ... ولم لا ومن صحب الرسول توقدا "

" فوالله لولا سنة قد أقيمتها ... وسيرة هدي للنبي علمتها "

" وأحكام عدل للجنود رسمتها ... لجالت بها الأبطال تقصد سمتها "

" ... وتترك أوصال الوشيع مقصدا "

" وبأعذار أيدى لنا الشرع عذره ... طرقت حمى قد عظم الله قدره "

" وأجريت طيبا يحسد الطيب نشره ... لقد جئت ما تستعظم الصيد أمره "

" ... وتفديه إن يقبل خليفته فدا "

" رعى الله منها دعوة مستجابة ... أفادت نفوس المخلصين إنابة "

" ... ولم تلف من دون القبول حجابة ... وعاذرها لم يبد عذرا مهابة "

" ... فأوجب عن نقص كمالاتي زيدا "

" فنقص كمال المال وفر نصابه ... وما السيف إلا بعد مشق ذبابه "

" وما الزهر إلا بعد شق إهابه ... بقطع يراع الخط حسن كتابه "

" ... وبالقص يزداد الذباب توفدا "

" ولما قضوا من سنة الشرع واجبا ... ولم نلق من دون الخلافة حاجبا "

" أفضنا نهني منك جذلان واهبا ... أفاض علينا أنعما ومواها "

" ... تعود بذل الجود فيما تعودا "

" هنيئا هنيئا قد بلغت مؤملا ... وأطلعت نورا ببهير المتأملا "

" وأحرزت أجر المنعمين مكملا ... تبارك من أعطى جزيلا وأجملا "

" ... وبلغ فيك الدين والملك مقصدا "

" ألا في سبيل العز والفخر موسم ... يظل به ثغر المسيرة يبسم "

" وعرف الرضى من جوه يتنسم ... وأرزاق أرباب السعادة تقسم "

" ... ففي وصفه ذهن الذكي تبدا "

" وجللت في هذا الصنيع مصانعا ... تمنى بدور التم منها مطالعا "

" وأبدت فيها للجمال بدائعا ... وأجريت للإحسان فيها مشارعا "

" يود بها نهر المجرة موردا "

" وأجريت فيها الخيل وهي سوابق ... وإن طلبت في الروع فهي لواحق "

" نجوم وآفاق الطراد مشارق ... يفوت التماح الطرف منها بوارق "

" ... إذا ما تجاري الشهب تستبق المدى "

" وتطلع في ليل القتام كواكبا ... وقد وردت نهر النهار مشاربا "

" تقود إلى الأعداء منها كواكبا ... فترسم من فوق التراب محاربا "

" ... تحور رؤوس الروم فيهن سجدا "

" سوايح بالنصر العزيز سوانح ... وهن لأبواب الفتوح فواتح "

" تقود إليك النصر والله مانح ... فما زلت باب الخير والله فاتح "

" ... وما تم شيء قد عدا بعد ما بدا "

" رياح لها مثنى البروق أعنة ... ظباء فإن جن الظلام فجنة "

" تقيها من البدر المتمم جنة ... وتشرع من زهر النجوم أسنة "

" ... فتقذف شهب الرجم في أثير العدا "

" فأشهب من نسل الوجيه إذا انتمى ... جرى فشاى شهب الكواكب في السما "

" وخلف منها في المقلد أنجما ... تردى جمالا بالصباح وربما "

" ... يقول له الإصباح نفسي لك الفدا "

" وأحمر قد أذكى به البأس جمرة ... وقد سلب الياقوت والورد حمرة "

" أدار به ساق من الحرب خمرة ... وأبدى حبابا فوقها الحسن غرة "

" ... يزين بها خدا أسبلا موردا "

" وأشقر مهما شعشع الركض برقه ... أعار جواد البرق في الأفق سبقه "

" بدا شفقا قد جلل الحسن أفته ... ألم تر أن الله أبدع خلقه "

" ... فسأل على أعطافه الحسن عسجدا "

" وأصفر قد ود الأصيل جماله ... وقد قد من برد العشي جلاله " إذا أسرجوا جنح الظلام ذباله ... "

" فغرت شمس تضيء مجاله "

" ... وفي ذيله ذيل الظلام قد ارتدى "

" وأدهم في مسح الدجى متجرد ... يجيش بها بحر من الليل مزبد "

" وغرته نجم به تتوقد ... له البدر سرج والنجوم مقلد "

" ... وفي فلق الصبح المبين تقيدا "

" وأبيض كالقرباس لاح صباحه ... على الحسن مغداه وفيه مراحه "

" وللطبيات الأنسات مراحه ... تراه كنشوان أمالته راحة "

" ... وتحسبه وسط الجمال معريدا "

" وذاهبة في الجو ملء عنانها ... وقد لفعت السحب برد عنانها "

" يفوت ارتداد الطرف لمح عيانها ... وختمت الجوزاء سبط بنانها "

" ... وصاغت لها حلي النجوم مقيدا "

" أراها عمود الصبح علو المصاعد ... وأوهمها قرب المدى المتباعد "

" ففاته سببقا في مجال الرواعد ... وأتحفت الكف الخضيب بساعد "

" ... فطوقت الزهر النجوم بها يدا "

" وقد قذفتها للعصي حواصب ... قد انتشرت في الجو منها ذائب "

" تزاور منها في الفضاء حباب ... فبينهما من قبل ذاك مناسب "

" ... لأنهما في الروض قبل تولدا "

" بنات لأم قد حبين لروحها ... دعاها الهوى من بعد كتم لبوحها "

" فأقلامها تهوي لخط بلوحها ... فبالأمس كانت بعض أغصان دوحها "

" ... فعادت إليها اليوم من بعد عودا "

" ويا رب حصن في ذراها قد اعتلى ... أنارت بروج الأفق في مظهر العلا "

" بروج قصور شدتها متطولا ... فأنشأت برجاً صاعداً منزلاً "

" ... يكون رسولا بينهما متردداً "

" وهل هي إلا هالة حول بدرها ... يصوغ لها حليا يليق بنحرها "

" تطور أنواعا تشيد بفخرها ... فحجل برجليها وشاح بخصرها "

" ... وتاج بأعلى رأسها قد تنصداً "

" أراد استراق السمع وهو ممنع ... فقام بأذيالك الدجى يتلفع "

" وأصغى لأخبار السما يتسمع ... فأتبعه منها ذوابل شرع "

" ... لتقذفه بالرعب مثنى وموحداً "

" وما هو إلا قائم مد كفه ... ليسأل من رب السموات لطفه "

" لمولى تولاه وأحكم رصفه ... وكلف أرباب البلاغة وصفه "

" ... وأكرم منه القانت المتهجداً "

" ملاقي ركب من وفود النواسم ... مقبل ثغر للبروق البواسم "

" مختم كف بالنجوم العواتم ... مبلغ قصد من حضور المواسم "

" ... تجدده مهما صنيع تجدداً "

" ومضطرب في الجو أثبت قامة ... تقدم يمشي في الهواء كرامة "

" تطلع في غصن الرشاء كمامة ... وتحسبه تحت الغمام غمامة "

" ... يسيل على أعطافها عرق الندى "

" هوى واستوى في حالة وتقلبا ... كخاطف برق قد تألق خلبا "

" وتحسبه قد دار في الأفق كوكبا ... ومهما مشى واستوقف العقل معجبا "

" ... تقلب فيه العين لحظاً مردداً "

" لقد رام يرقى للسما بسلم ... فيمشي على خط به متوهم "

" أجل في الذي يديه فكر توسم ... ترى طائراً قد حل صورة آدمي "

" ... وجنا بمهواة الفضاء تمرداً "

" ومننسب للخال سموه ملجما ... له حكمت حكمها فاه ألجما "

" تخالف جنسا والداه إذا انتمى ... كما جنسه أيضا تخالف عنهما "

" ... عجبت له إذ لم يلد وتولداً "

" ثلاثتها في الذكر جاءت مبينة ... من اللاء سماها لنا الله زينة "

" وأنزل فيها آية مستبينة ... وأودع فيها للجھول سكينه "

" ... وآلاه فيها على الخلق بدداً "

" كسوه من الوشي اليماني هودجا ... يمد على ما فوqe الظل سجسجا "

" وكم صورة تجلى به تبهر الحجى ... وجزل وقود ناره تصدع الدجى "

" ... وقلب حسود غاظ مذكيه موقداً "

" وما هي إلا مظهر لجهاده ... أرتنا بها الأفراح فضل اجتهاده "

" ... ملاعبها هزت قدود سعاده ... وأذكرت الأبطال يوم طراده "

" ألا جدد الرحمن صنعا حضرته ... ودوح الأمانى في ذراه هصرته "

" بقصر طويل الوصف فيه اختصرته ... يقيد طرف الطرف مهما نظرتة "

" ... ومن وجد الإحسان قيذا تقيدا "

" دعوت له الأشراف من كل بلدة ... فحاءوا بآمال لهم مستجدة "

" وخصوا بالطف لدية معدة ... أباد بفايض الندى مستمدة "

" ... فكلهم من فضله قد تزودا "

" وجاءتكم من آل النبي عصابة ... لها في مرامي المكرمات إصابة "

" أحببتك حبا ليس فيه استرابة ... ولبت دواعي الفوز منها إجابة "

" ... وناداهم التخصيص فابتدروا النداء "

" أجازوا إليك البحر والبحر يزخر ... لبحر سماح مده ليس يجزر "

" فرواهم من عذب جودك كوثر ... وواليت من نعماك ما ليس يحصر "

" ... وعظمتهم ترجو النبي محمدا "

" عليه صلاة الله ثم سلامه ... به طاب من هذا النظام اختتامه "

" وجاء بحمد الله حلوا كلامه ... يعز على أهل البيان مرامه "

" ... وتمسي له زهر الكواكب حسدا "

" أبت به حادي الركاب مشرقا ... حديث جهاد للنفوس مشوقا "

" ... رميت به من بالعراق مفوقا "

" وأرسلت منه بالبديع مطوقا "

" ... حماما على دوح الثناء مغردا "

" ركضت به خيل البيان إلى مدى ... فأحرزت خصل السبق في حلبة الهدى "

" ونظمت من نظم الدراري مقلدا ... وطوقت جيد الفخر عقدا مننصدا "

" ... وقمت به بين السماطين منشدا "

" نسقت من الإحسان فيه فرائدا ... وأرسلت في روض المحاسن رائدا "

" وقلدت عطف الملك منه قلاندا ... تعودت فيه للقبول عواندا "

" ... فلا زلت للفعل الجميل معودا "

" ولا زلت للصنع الجميل مجددا ... ولا زلت للفخر العظيم مخلدا "

" وعمرت عمرا لا يزال مجددا ... وعمرت بالأبناء أوحدا أوحدا "

" ... وقرت بهم عينك ما سائق حدا "

وقال في عيد

" بشرى كما وضح الزمان وأجمل ... يغشى سناها كل من يتهلل "

" أبدى لها وجه النهار طلاقة ... وافتر من ثغر الأفاق مقبل "

" ومنابر الإسلام يا ملك الورى ... بحلاك أو بحليها تتكلل "

" تجلو لنا الأكوان منك محاسنا ... تروى على مر الزمان وتنقل "

" فالشمس تأخذ من جبينك نورها ... والبشر منك بوجهها يتهلل "

" والروض ينفخ من ثنائك طيبه ... والورق فيه بالممداح تهدل "

" والبرق سيف من سيوفك منتضى ... والسحب تهمني من يدك وتهمل "

" يا أيها الملك الذي أوصافه ... در على جيد الزمان يفصل "

" الله أعطاك التي لا فوقها ... وحباك بالفضل الذي لا يجهل "

" وجه كما حسر الصباح نقابه ... لضيائه تعشو البدور الكمل "

" تلقاه في يوم السماحة والوغى ... والبشر في جنباته يتهلل "

" كف أبت أن لا تكف عن الندى ... أبدا فإن ضن الحيا تسترسل "

" وشمائل كالروض باكره الحيا ... وسرت برياه الصبا والشمال "

" خلق ابن نصر في الجمال كخلقه ... ما بعدها من غاية تستكمل "

" نور على نور بأبهى منظر ... في حسنه لمؤمل ما يأمل "

" فاق الملوك بسيفه وبسيه ... فبعده وبفضله يتمثل "

" وإذا تناول للعميد عميدهم ... فله عليه تناول وتطول "

" يا آية الله التي أنوارها ... يهدى بها قصد الرشاد الضلل "

" قل للذي التبست معالم رشده ... هيهات قد وضح الطريق الأمثل "

" قد ناصح الإسلام خير خليفة ... وحمى عزيز الملك أغلب مشبل "

" فلقد ظهرت من الكمال بمستوى ... ما بعده لذوي الخلافة مامل "

" وعناية الله اشتملت رداءها ... وعلقت منها عروة لا تفصل "

" فالجود إلا من يدبك مقتر ... والغيث إلا من نداك مبخل "

" والعمر إلا تحت ظلك ضائع ... والعيش إلا في جنابك ممحل "

" حيث الجهاد قد اعتلت رايته ... حيث المغانم للعفاة تنفل "

" حيث القباب الحمر ترفع للقرى ... قد عام في أرجائهن المندل "

" يا حجة الله التي برهانها ... عز المحق به وذل المبطل "

" قل للذي ناواك يرقب يومه ... فوراؤه ملك يقول ويفعل "

" والله جل جلاله إن أمهلت ... أحكامه مستدرجا لا تهمل "

" يا ناصر الإسلام وهو فريسة ... أسد الفلا من حولها تتسلل "

" يا فخر أندلس وعصمة أهلها ... لك فيهم النعمى التي لا تجهل "

" لا يهمل الله الذين رعيتهم ... فلأنت أكفى والعناية أكفل "

" لا يبعد النصر العزيز فإنه ... أوى إليك وأنت نعم الموثل "

" لولا نداك لها لما نفع الندى ... ولجف من ورد الصنائع منهل "

" لولاك كان الدين يغمط حقه ... ولكان دين النصر فيه يمطل "

" لكن جنبت الفتحة من شجر القنا ... وحنى الفتوح لمن عداك مؤمل "

" ولقبل ما استفتحت كل ممنوع ... من دونه باب المطامع مقفل "

" ومتى نزلت بمعقل متأشب ... فالعصم من شعفاته تستنزل "

" وإذا عزوت فإن سعدك ضامن ... أن لا تخيب وأن قصدك يكمل "

" فمن السعود أمام جيشك موكب ... ومن الملائك دون جندك جحفل "

" وكتيبة أردفتها بكتيبة ... والخيل تمرح في الحديد وترفل "

" من كل منحفر كلمعة بارق ... باليد يسرج والأهله ينعل "

" أوفى بهاد كالظلم وخلفه ... كفل كما ماج الكتيب الأهيل "

" حي إذا ملك الكمي عنانه ... يهوي كما يهوي بجو أجدل "

" حملت اسود كريمة يوم الوغى ... ما غابها إلا الوشيخ الذبل "

" لبسوا الدروع غدائرا مصقولة ... والسمر قضب فوقها تتهدل "

" من كل معتدل القوام مثقف ... لكنه دون الضريبة يعسل "

" أذكيت فيه شعلة من نصله ... يهدى بها إن ضل عنه المقتل "

" ولرب لماع الصقال مشهر ... ماض ولكن فعله مستقبل "

" رقت مضاربه وراق فرنده ... فالحسن فيه مجمل ومفصل "

" فإذا الحروب تسعرت أجزالها ... ينساب في يمينك منها جدول "

" وإذا دجا ليل القتام رأيته ... وكأنه فيه ذبال مشعل "

" فاعجب لها من جذوة لا تنطفي ... في أبحر زخرت وهن الأنمل "

" هي سنة أحييتها وفريضة ... أديتها قرباتها تتقبل "

" فإذا الملوك تفاخرت بجدودها ... فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل "

" يا ابن الذين جمالهم ونوالهم ... شمس الضحى والعارض المتهلل "

" يا ابن الإمام ابن الإمام ... م ابن الإمام وقدرها لا يجهل "

" أبأؤك الأنصار تلك شعارهم ... فلهيهم أوى النبي المرسل "

" فهم الألى نصروا الهدى بعزائم ... مصقولة وبصائر لا تخذل "

" ماذا يجبر شاعر في مدحهم ... ويفضلهم أثنى الكتاب المنزل "

" مولاي لا أحصي ما تركت التي ... بحدِيثها تنضى المطي الذلل "

" وإذا الحقائق ليس يدرك كنهها ... سيان فيها مكثر ومقلل "

" فإليك من شوال غرة وجهه ... أهداكها يوم أغر محجل "

" عذراء راق العيد رونق حسنها ... فغدا بنظم حليها يتجمل "

" رضعت لبان العلم في حجر النهى ... فوفت لها منه ضروع حفل "

" سلك البيان بها سبيل إجادة ... لولا صفاتك كان عنها يعدل "

" جاءت تهني العيد أيمن قادم ... وافى بشهر صيامه يتوسل "

" وطوى الشهور مراحل معدودة ... كيما يرى بفناء جودك ينزل "

" وأتى وقد شف النحول هلاله ... ولشوقه للقاء وجهك ينحل "

" عقدت بمرقبه العيون مسرة ... فمكبر لطلوعه ومهلل "

" فاسلم لألف مثله في غيطة ... ظل المنى من فوقه يتهدل "

" فإذا بقيت لنا فكل سعادة ... في الدين والدنيا بها تتكفل "

وقال ابن الأحمر ومن جياذ أناشيده المتميزة بالسبقية وبارقات تهانيه في المواسم العفريقية قوله

يهنئه رضوان الله تعالى عليه بطلوع مولانا الوالد قدس الله تعالى روحه

" طلع الهلال وأفقه متهلل ... فمكبر لطلوعه ومهلل "

" أوفى على وجه الصباح بغرة ... فغدا الصباح بنوره يتجمل "

" شمس الخلافة قد أمدت نوره ... ويسعدها يرجو التمام ويكمل "

" لله منه هلال سعد طالع ... لضيائه تعشو البدر الكمل "

" وألحت يا شمس الهداية كوكبا ... يعيشي سناه كل من يتأمل "

" والتاج تاج البدر في أفق العلا ... ما زال بالزهر النجوم يكلل "

" ولئن حوى كل الجمال فإنه ... بالشهب أبهى ما يكون وأجمل "

" أطلعت يا بدر السماح هلاله ... والمملك أفق والخلافة منزل "

" يبدو بهالات السروج وإنه ... من نور وجهك في العلا يستكمل "

" قلدت عطف الملك منه صارما ... بغنائه ومضائه يتمثل "

" حليته يحلى الكمال وجوهرال ... النفيس وكل خلق يجمل "

" يغزو أمامك والسعود أمامه ... وملائك السبع العلا تنزل "

" من مبلغ الأنصار منه بشارة ... غر البشائر بعدها تسترسل "

" أحيا جهادهم وجدد فخرهم ... بعد المئين فملكهم يتأثل "

" فيه إلى الأجر الجزيل توصلوا ... وبهم إلى رب السما يتوسل "

" من مبلغ الأذواء من يمن وهم ... قد توجوا وتملكوا وتقبلوا "

" أن الخلافة في بنبيهم أطلعت ... قمرا به سعد الخليفة يكمل "

" من مبلغ قحطان أساد الشرى ما غابها إلا الوشيح الذبل "

" أن الخلافة وهو شبل ليوثهم ... قد حاط منها الدين ليث مشبل "

" يهنى بني الأنصار أن إمامهم ... قد بلغته سعوده ما يأمل "

" يهنى البنود فإنها ستظله ... وجناح جبريل الأمين يظلل "

" يهنى الجياذ الصافيات فإنها ... بفتوحه تحت الفوارس تهدل "

" يهنى المذاكي والعوالي والطبي ... فيها إلى نيل المنى يتوصل "

" يهنى المعالي والمفاخر أنه ... في مرتقى أوج العلا يتوقل "

" سبقت مقدمة الفتوح قدومه ... وأتاك وهو الوادع المتمهل "

" وبدت نجوم السعد قبل طلوعه ... تجلو المطامع قبله وتؤثل "

" وروت أحاديث الفتوح غرائبها ... والنصر يملئ والبشائر تنقل "

" ألفت إليك به السعود زمامها ... فالسعد يمضي ما تقول ويفعل "

" فالفتح بين معجل ومؤجل ... ينسيك ماضيه الذي يستقبل "

" أوليس في شأن المشير دلالة ... أن المقاصد من طلايك تكمل "

" ناداهم داعي الضلال فأقبلوا ... ودعاهم داعي المنون فجدلوا "

" عصوا الرسول إباية وتحكمت ... فيهم سيوفك بعدها فاستمثلوا "

" كانوا جبالا قد علت هضباتها ... نسفتهم ريح الجلاذ فزلزلوا "

" كانوا بجارا من حديد زاخر ... أذكتهم نار الوغى فتسيلوا "

" ركبت أرجلها الأدهم كلما ... يتحركون إلى قيام تصهل "

" كان الحديد لباسهم وشعارهم ... واليوم لم تلبسه إلا الأرجل "

" الله أعطاك التي لا فوقها ... فتحا به دين الهدى يتأثل "

" جددت للأنصار حلي جهادها ... فالدين والدنيا به تتجمل "

" من يتحف البيت العتيق وزمزا ... والوفد وفد الله فيه ينزل "

" متسابقين إلى مثابة رحمة ... من كل ما حذب إليه تنسل "

" هيما كأفواج القطا قد ساقها ... ظمأ شديد والمطاف المنهل "

" من كل مرفوع الأكف ضراعة ... والقلب يخفق والدمامع تهمل "

" حتى إذا روت الحديث مسلسلا ... بيض الصوارم والرماح العسل "

" من فتحك الأسنى عن الجيش الذي ... بثباته أهل الوغى تتمثل "

"أهدتهم السراء نصرة دينهم ... واستبشروا بحديثها وتهللوا "

"وتناقلوا عنك الحديث مسرة ... بسماعه واهتز ذاك المحفل "

"ودعوا بنصرك وهو أعظم مفخرا ... إن الحجيج بنصر ملكك يحفل "

"فاهناً بملكك واعتمد شكرا به ... لطف الإله وصنعه تتخول "

"شرفت منه باسم والدك الرضى ... يحيا به منه الكريم المفضل "

"أبديت من حسن الصنيع عجائبا ... تروى على مر الزمان وتنقل "

"خففت به أعلامك الحمر التي ... بخفوقها النصر العزيز موكل "

"هدرت طبول العز تحت ظلالها ... عنوان فتح إثرها يستعجل "

"ودعوت أشراق البلاد وكلهم ... يثنى الجميل وصنع جودك أجمل "

"وردوا ورود الهيم أجهدا الظما ... فصفا لهم من ورد كفك منهل "

"وأثرت فيه للطراد فوارسا ... مثل الشموس وجوههم تتهلل "

"من كل وضاح الجبين كأنه نجم وحنج النقع ليل مسبل "

"يرد الطراد على أغر محجل ... في سرجه بطل أغر محجل "

"قد عودوا قنص الكماة كأنما ... عقبانها ينقض منها أجل "

"يستتبعون هوادجا موشية ... من كل بدع فوق ما يتخيل "

"قد صورت منها غرائب جملة ... تنسي عقول الناظرين وتذهل "

"وتضمنت جزل الوفود حمولها ... والنصر في التحقيق ما هي تحمل "

"والعاديات إذا تلت فرسانها ... أي القتال صفوفها تترتل "

"لله خيلك إزها لسوايح ... بحر القتام وموجه متهيل "

"من كل برق بالثريا ملجم ... بالبدر يسرج والأهله ينعل "

"أوفى بهاد كالظلم وخلفه ... كفل كما ماج الكتيب الأهيل "

"هن البوارق غير أن جيادها ... عن سبق خيلك يا مؤيد تنكل "

"من أشهب كالصبح يعلو سرجه ... صبح به نجم الظلالة يأفل "

"أو أدهم كالليل فلد شبهه ... خاض الصباح فأثبتته الأرجل "

"أو أشقر سال النصار يعطفه ... وكساه صبغة بهجة لا تنصل "

"أو أحمر كالجمر أضمر بأسه ... بالركض في يوم الحفيظة يشعل "

"كالخمر أترع كأسها لندامها ... وبها حباة غرة تتسيل "

"أو أصفر لبس العشي ملاءة ... وبذيله ليل ذيل مسبل "

"أجملت في هذا الصنيع عوائدا ... الجود فيها مجمل ومفضل "

"أنشأت فيها من نذاك غمائما ... بالفضل تنشأ والسماحة تهمل "

"فجرت من كفيك عشرة أبحر ... تزجي سحاب الجود وهي الأنمل "

"من قاس كفك بالغمام فإنه ... جهل القياس ومثلها لا يجهل "

"تسخو الغمام ووجهها متجهم ... والوجه منه مع الندى يتهلل "

"والسحب تسمح بالمياه وجوده ... ذهب به أهل الغنى تتمول "

"من قاس بالشمس المنيرة وجهه ... ألفيته في حكمه لا يعدل "

"من أين للشمس المنيرة منطق ... ببيانه در الكلام يفصل "

"من أين للشمس المنيرة راحة ... تسخو إذا بخل الزمان الممحل "

"من قاس بالبدر المنير كماله ... فالبدر ينقص والخليفة يكمل "

"من أين للبدر المنير شمائل ... تسري بريها الصبا والشمال "

"من أين للبدر المنير مناقب ... بجهادها تنضى المطي الذلل "

"يا من إذا نفحت نواسم حمده ... فالمسك يعبق طيبه والمندل "

"يا من إذا لمحت محاسن وجهه ... تعشو العيون ويهر المتأمل "

"يا من إذا تليت مفاخر قومه ... أي الكتاب بذكرها تنزل "

"كفل الخلافة منك يا ملك العلا ... والله جل الجلاله لك أكفل "

"مأمونها وأمينها ورشيدها ... منصورها مهديها المتوكل "

"حسب الخلافة أن تكون وليها ... ومجيرها من كل من يتحيل "

"حسب الزمان بأن تكون إمامه ... فله بذلك عزة لا تهمل "

"حسب الملوك بأن تكون عميدها ... ترجو الندى من راحتك وتأمل "

" حسب المعالي أن تكون إمامها ... فعليك أطناب المفاخر تسدل "

" يا حجة الله التي برهانها ... عز المحق به وذل المبطل "

" أنت الإمام ابن الإمام ابن الإما ... م ابن الإمام وفخرها لا يعدل "

" علمت حتى لم تدع من جاهل ... أعطيت حتى لم تدع من يسأل "

" وعناية الله اشتملت رداءها ... وعلقت منها عروة لا تفصل "

ومنها

" أخذت قلوب الكافرين مهابة ... فعقولهم من خوفها لا تعقل "

" حسبوا البروق صوارما مسلولة ... أرواحهم من بأسها تتسلل "

" وترى النجوم مناصلا مرهوبة ... فيفر منها الخائف المتنصل "

" يا ابن الألبى وجمالهم ... شمس الضحى والعارض المتهلل "

" مولاي لا أحصي ما تركت التي ... بجهادها يتوصل المتوسل "

" أصبحت في ظل امتداحك ساجعا ... ظل المنى من فوقه يتهدل "

" طوقته طوق الحمايم أنعما ... فغدا بشرك في المحافل يهدل "

" فأليك من صون العقول عقيلة ... أهداها صنع أغر محجل "

" عذراء راق الصنع رونق حسنها ... فغدا بنظم حليها يتكلل "

" خيرتها بين المنى فوجدتها ... أقصى مناها أنها تتقبل "

" لا زلت شمسا في سماء خلافة ... وهلاك الأسمى يتم ويكمل "

قال ومن رقيق منازعه في بعض نزه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطاني من شنيل قوله

" نفسي الفداء لشادن مهما خطر ... فالقلب من سهم الجفون على خطر "

" فضح الغزاة والأقاحة والقنا ... مهما تثنى أو تبسم أو نظر "

" عجا ليل ذائب من شعره ... والوجه يسفر عن صباح قد سفر "

" عجا لعقد الثغر منه منظما ... والعقد من دمعي عليه قد انثر "

" ما رمت أن أجنبي الأقاح بثغره ... إلا وقد سل السيوف من الحور "

" لم أنسه ليل ارتقاب هلاله ... والقلب من شك الظهور على غر "

" بنتا نراقبه بأول ليلة ... فإذا به قد لاح في نصف الشهر "

" طالعت في روضة كخلاله ... والطيب من هذي وتلك قد اشتهر "

" وكلاهما يبدي محاسن جمه ... ملء التنسم والمسامع والبصر "

" والكأس تطلع شمسها في خده ... فتكاد تعشي بالأشعة والنظر "

" نورية كجبينه وكلاهما ... يجلو ظلام الليل بالوجه الأغر "

" هي نسخة للشيخ فيها نسبة ... ما إن يزالا يرعشان من الكبر "

" أفرغت في جسم الزجاجة روحها ... فرأيت روح الأنس منها قد بهر "

" لا تسق غير الروض فضلة كأسها ... فالغصن في ذيل الأزاهر قد عثر "

" ما هب خفاق النسيم مع السحر ... إلا وقد شاق النفوس وقد سحر "

" ناجى القلوب الخافقات كمثلته ... ووشى بما تخفي الكمام من الزهر "

" وروى عن الضحاك عن زهر الربى ... ما أسند الزهري عنه عن مطر "

" وتحملت عنه حديث صحيحه ... رسل النسيم وصدق الخبر الخبر "

" يا قصر شنيل وربك أهل ... والروض منك على الجمال قد اقتصر "

" لله بحرك والصبا قد سردت ... منه دروعا تحت أعلام الشجر "

" والأس حف عذاره من حوله ... عن كل من يهوى العذار قد اعتذر "

" قبل بتغر الزهر كف خليفة ... يغنيك صوب الجود منه عن المطر "

" وأفرش خدود الورد تحت نعاله ... واجعل بها لون المضاعف عن خفر "

" وأنظم غناء الطير فيه مدائحا ... وانثر من الزهر الدراهم والدرر "

" المنتقى من جوهر الشرف الذي ... في مدحه قد أنزلت أي السور "

" والمجتبى من عنصر النور الذي ... في مطلع الهدى المقدس قد ظهر "

" ذو سطوة مهما كفى ذو رحمة ... مهما عفا ذو عفة مهما قدر "

" كم سائل للدهر أقسم قائلا ... والله ما أيامه إلا غر "

" مولاي سعدك كالمهند في الوعى ... لم يبق من رسم الضلال ولم يذر "

" مولاي وجهك والصبح تشابها ... وكلاهما في الخافقين قد اشتهر "

" إن الملوك كواكب أخفيتها ... وطلعت وحدك في مظاهرها قمر "

" في كل يوم من زمانك موسم ... في طيه للخلق أعياد كبر "

" فاستقبل الأيام يندى روضها ... ويرف والنصر العزيز له ثمر "

" قد ذهبت منها العشايا ضعف ما ... قد فضت منها المحاسن في السحر "

" يا ابن الذين إذا تعد خلالهم ... نغد الحساب وأعجزت منها القدر "

" إن أوردوا هيم السيوف غدائرا ... مصقولة فلطالما حمدوا الصدر "

" سائل ببدر عنهم بدر الهدى ... فبهم على حزب الضلال قد انتصر "

" واسأل موافقهم بكل مشهر ... واقر المغازي في الصحيح وفي السير "

" تجد الثناء بآسهم وبوجودهم ... في مصحف الوحي المنزل مستطر "

" فيمثل هديك فلتنر شمس الضحى ... ويمثل قومك فليفاخر من فخر "

" ماذا أقول وكل وصف معجز ... والقول فيك مع الإطالة مختصر "

" تلك المناقب كالتواقب في العلا ... من رامها بالحصر أدركه الحصر "

" إن غاب عبدك عن حماك فإنه ... بالقلب في تلك المشاهد قد حضر "

" فاذكره إن الذكر منك سعادة ... وبها علي كل الأنام قد افتخر "

" ورضاك عنه غاية ما بعدها ... إلا رضى الله الذي ابتدع البشر "

" فاشكر صنيع الله فيك فإنه ... سبحانه ضمن المزيد لمن شكر "

" وعليك من روح الإله تحية ... تهفو إليك مع الأصائل والبكر "

ثم قال ومن أغراضه الوقتية استرسالا مع الطبع البديهي في الشكر عن ضروب من التحف التي يقتضيها التحفي السلطاني بأولياء خدمته نبذ متعددة فيما يظهر فيها فمنها قوله

" يا خير من ملك الملوك بجوده ... ويفضله قد أشبه الأملاك "

" والله ما عرف الزمان وأهله ... أمانا ويمنا دائما لولاكا "

" وافيت أهلي بالرياض عشية ... في روض جاهك تحت ظل ذراكا "

" فوجدته قد طله صوب الندى ... بسحائب تنهل من يمناكا "

" وسفائن مشحونة ألقى بها ... بحر السماح يجيش من نعمكا "

" رطب من الطلع النضيد كأنها ... قد نظمت من حسننها أسلاكا "

" من كل ما كان النبي يجيها ... وأحبها الأنصار من أولاكا "

" وبدائع التحف التي قد أطلعت ... مثل البدور أنارت الأحلاكا "

" نطف من النور المبين تجسمت ... حتى حسينا أنهن هداكا "

" يحلو على الأفواه طيب مذاقها ... لولا التجسد خلتن ثناكا "

" طافت بها النشأ الصغار كأنها ... سرب القطا لما وردن نداكا "

" نجواهم مهما سمعت كلامهم ... ونداؤهم مولاي أو مولاكا "

" بلغت في الأبناء عبدك سؤله ... لا زلت بتلغ في بنيك مناكا "

" يتدارسون من الدعاء صحائفا ... كيما يطيل الله في بقياكا "

" فبقيت شمسا في سماء خلافة ... وهم البدور أمدهن سناكا "

ومنها وقد أهداه نعمة الله أطباقا من حب الملوك

" كتب الإله على العباد محبة ... لك كان فرض كتابها موقوتا "

" وأنا الذي شرفته من بينهم ... حتى جعلت له المحبة قوتا "

" ما زلت تتحفه بكل ذخيرة ... حتى لقد أتحتفته الياقوتا "

" وإلى الملوك قد اعتزى من عزه ... فعدا له ياقوتها ممقوتا "

ومنها في مثل ذلك

" يا خير من ملك الملوك ... أهديتني حب الملوك "

" فكأنما ياقوتها ... نظمت لنا نظم السلوك "

" إن الملوك إذا لجوا ... فغياثهم أن أملاك "

" وكذا العفاة إذا شكوا ... فغناهم أن يسألوك "

" فالله يقبل من دعا ... لعلاك من أهل السلوك "

" لا زلت تطلع غرة ... كالشمس في وقت الدلوك "

ومنها وقد أهداه صيدا مما صاده أولاده

" يا خير من ورث السماح عن الألى ... نصروا الألى وتبأوا إيمانا "

" في كل يوم منك تحفة منعم ... والى الجميل وأجزل الإحسانا "

" قد أذكرت دار النعيم عبيده ... وتضمنت من فضله رضوانا "

" تهدي موالي الذين تفرعوا ... عن دوح فخرك في العلا أعضانا "

" لجلالك الأعلى فنيصا أنعبوا ... في صيده الأرواح والأبدانا "

" فتخصني منه بأوفر قسمة ... فسحت لعبدك في الرضى ميدانا "

" لله من مولى كريم بالذي ... تهدي الموالي يتحف العبدانا "

" تدعو بني إلى الغني بربه ... يا ربنا أغن الذي أغنانا "

" وعليك من قدس الإله تحية ... تهديك منه الروح والريحانا "

ومنها وقد أهداه أصنافا من الفواكه

" يا من له الوجه الجميل إذا بدا ... فاقت محاسنه البدور كمالا "

" والمنفقى من جوهر الفخر الذي ... فاق الخلائف عزة وجمالا "

" ما أبصرت عيناى مثل هدية ... أبدت لنا صنع الإله تعالى "

" فيها من التفاح كل عجيبه ... تذكى بريها صبا وشمالا "

" تهدي لنا نهد الحبيب وخده ... وترى من الورد الجنى مثالا "

" وبها من الأترج شمس أطلعت ... من كل شطر للعيون هلالا "

" ويحفها ورق يروق كأنه ... ورق النضار وقد أجاد نبالا "

" لون العشيبة ذهبت صفحاتها ... رقت وراقت بهجة وجمالا "

" وبها من النقل الشهى مذكر ... عهدا تولى لينة يتوالى "

" لله منها خضرة من حضرة ... تغنى العفاة وتحسب الآمالا "

" أذكرتني العهد القديم ومعهدا ... كانت شمووس الراح فيه تلالا "

" فأردت تجديد العهود وإنما ... كتب المشيب على عذارى لالا "

" فأدرت من ذكراك كأس مدامة ... وشربت من حبي لها جريالا "

" فبقيت شمسا في سماء خلافة ... لا يستطيع لها الزمان زوالا "

ومنها يوم عاشوراء

" يا أيها المولى الذي بركاته ... رفعت لواء للندى منشورا "

" لك راحة تزجى الغمام بأنمل ... فجرت منها بالنوال بحورا "

" واليوم موسم قرية وعبادة ... وغدا ظفرت بأجره عاشورا "

" راعيت فيه سنة نبوية ... تروي الثقات حديثه المشهورا "

" لا زلت عامك كله في غبطة ... لقيت منها نصره وسرورا "

ومنها في بعض قطعة

" واليت ما أوليت يا بحر الندى ... ووحق جودك ما رأيت كهذه "

" فإذا يهز لها اللسان حسامه ... فصقات فخرك قد قضت بنفاذه "

" علمت فرسان الكلام نظامها ... كتعلم التلميذ من أستاذه "

" والبحر تمتاز السحائب ماءه ... فتجوده من غيثها برداذه "

ومنها وقد أهداه باكورا

" يا وارث الأنصار وهي مزية ... بفخارها أثنى الكتاب المنزل "

" أهديتني الباكور وهي بشارة ... ببواكر الفتح الذي يستقبل "

" وولادة لهلال تم طالع ... وجه الزمان بوجهه يتهلل "

" هو أول الأنوار في أفق الهدى ... وترى الأهلة بعده تسترسل "

" مولاي صدق الفال قد جربته ... من لفظ عبدك والعواقب أجمل "

ومنها في جفنة

" طعامك من دار النعيم بعثته ... فشرفته من حيث أدري ولا أدري "

" بهضية نعمى قد سمونا لأوجها ... فصدنا بأعلاها الشهى من الطير "

" وقوراء قد درنا بهالة بدرها ... كما دارت الزهر النجوم على البدر "

" وقد حملت فوق الرؤوس لأنها ... هدية مولى حل في مفرق الفخر "

" فما شئت من طعم زكي مهنا ... وما شئت من عرف ذكي ومن نشر "

" فلو أنها قد قدمت لخليفة ... لأعظمها قدرا وبالغ في الشكر "

" وكم لك من نعمى علي عميمة ... يقل لأدناها الجميل من الذكر "

" فلا زلت يا مولى الملوك مبلغا ... أمانى ترجوها إلى سالف الدهر "
ومنها شكرا عن كتاب

" مولاي يوم الجمعة ... سعوده مجتمعه "
" فانعم صباحا واغتنم ... أوقاته المجتمعه "
" وابشر بصنع عاجل ... أعلامه مرتفعه "
" وانتظر الفتح الذي ... يأتيك بالنصر معه "
" وبيضه وسمره ... إلى العداة مشرعه "
" واللفظ مرجو فرد ... بفضل ربي مشرعه "
" فاتحتني شرفتي ... برقعة مرفعه "
" بل روضة ممطورة ... أزهارها منوعه "
" حديقة قد جدتها ... بصوب جود مترعه "
" وراية منشورة ... وأية مستبدعه "
" كم حكم لطيفة ... في طيها مستودعه "
" عقيلة صورتها ... من الجمال مبدعه "
" سقيتني من فضلها ... بفضل كأس مترعه "
" فدم وأملك الورى ... على علاك مجمعه "

ومنها شكرا على خلعه

" يا بدر تم في سماء خلافة ... حفت نجوم السعد هالة قصره "
" ألبست عبدك من ثيابك ملبسا ... قد قصرت عنه مدارك شكره "
" ورضاك عنه خير ما ألبسته ... فلقد أشاد بجاهه وببره "
" ألبستني أركبتي شرفتي ... أهديتني ما لا أقوم بحصره "
" نظري لوجهك وهو أجمل نير ... يزري على شمس الزمان وبدره "
" أعلى وأعظم منة لا سيما ... وأنا المنعم في الحضور ببشره "
" لا زلت مولى للملوك مؤملا ... وحلاك للإسلام مفخر دهره "
ومنها وقد خلع رضوان الله تعالى عليه على سول من أرساله
" أبحر سماح مد عشيرة أبحر ... تفيض غمام الجود وهي الأنامل "
" بكفك غيث للبلاد وأهلها ... يروض محل الأرض والعام ماحل "
" لك الخير إن أصبحت بحر سماحة ... يعم نداءه فالمواهب ساحل "
" خلعت على هذا الرسول ملبسا ... بها تتسنى في علاك المأمل "
" وبلغته آماله كيف شاءها ... فبلغت يا مولاي ما أنت أمل "
ومنها وقد مرض بعض أبنائه رحمة الله تعالى على الجميع قوله سائلا عن حاله
" أسائل بدر التم كيف هلاله ... وأدعوه له الرحمن جل جلاله "
" وأسأله تعجيل راحته التي ... وسيلتنا فيها النبي وآله "
" ستبلغ فيه ما تؤمل من منى ... ويرضيك يا بدر الكمال كماله "
وفي مثله

" أقول لبدر التم كيف هلالكا ... نعمت صباحا بالسعود وآلكا "
" وبلغت في النجل الكريم سعادة ... تقر بها عينا وينعم بالكا "
" وخصت بالبشرى من الله ربنا ... كما عم أقطار البلاد نوالكا "
ومن التورية باسم قائد ولاة على جماعة من الجند
" يا أيها المولى الذي أيامه ... تهمني بسحب الجود من آلائه "
" أبشر لجيشك بالسعادة كلما ... يغزو ونصر الله تحت لوائه "
وأنشده في ملبس اتخذه
" أمولاي يا ابن السابقين إلى العلا ... ومن نصروا الدين الحنيفي أولا "
" غنيت بنور الله عن كل زينة ... وألبست من رضوانه أشرف الحلى "
" وقارك زاد الملك عزا وهيبة ... وسوغه من رحمة الله منهلا "
" وبا شمس هدي في سماء خلافة ... وأبناؤه الزهر المنيرة تجتلى "
" تبارك من أبدأك في كل مظهر ... جميلا جليلا مستعاذا مؤملا "
" فيخجل منك الشمس شمس هداية ... ويحسد منك البدر بدرا مكملا "

" إذا أنت ألبست الزمان وآله ... ملابس عز ليس يدركها البلى "

" وطوقت أجياد الملوك أياديا ... وتوجتهم بالفخر تاجا مكللا "

" فما شئت فالبس فالمشاهد قائل ... تبارك ما أبهى وأسنى وأجملا "

" ألا كل من صلى وضى ومن دعا ... ومد يديه ضارعا متوسلا "

" وجودك شرط في حصول قبوله ... وجودك أثرى كفه فتنفلا "

وقال برسيم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبي العباس

" أهدي أبا العباس ... ملك الندى والباس "

" ثوب السماء لأنه ... بدر بدا للناس "

" فلق الصباح بوجهه ... عوذته بالناس "

" يكسو إماما لم يزل ... بحلى المحامد كاسي "

" فيا له من مرتد ... ثوب التقى لباس "

" أذياله من حمده ... مسكية الأنفاس "

" وبطرزه مدح زرى ... بالمدح في القرطاس "

" إن كنت في لون السما ... بنسبة وقياس "

" فلأنت يا بدر العلا ... شرفنتي بلباس "

" أنا منشد ما في وقو ... فك ساعة من باس "

" لترى رياضاً أطلعت ... زهرا على أجناس "

" أوراقها توريقها ... بقضيبها المياس "

" ومن المديح مدامتي ... ومن المحابر كاسي "

" فالله يمتع لابسى ... بالبشر والإيناس "

وقال في مثل ذلك

" إن الإمام محمدا ... أهدى الخليفة أحمدا "

" للباسه ثوبا وقد ... لبس المحامد وارتنى "

" وعمامة الشفق التي ... من فوقها شمس الهدى "

" يا حسنها إذ أرسلت ... من كفه غيث الندى "

" وكأن وشي رقومها ... بالبرق طرز عسجدا "

" وبطرزه لون السماء ... ووجهه قمر بدا "

" لله منه نير ... حل المنازل أسعدا "

" مستنصر أعلى له ... فوق المنازل أسعدا "

ثم قال وأنشده وهو على جواد أدهم

" تجلى لنا المولى الإمام محمد ... على أدهم قد راق حسن أديمه "

" فأبصرت صباحا فوق ليل وقد حكى ... مقلد ذاك الطرف بعض نجومه "

وكتب له مع هدية زهر

" أمولاي تقبيلي ليمناك شاقني ... ولا ينكر الظمان شوقا إلى البحر "

" ولما رأيت الدهر ماطلني بها ... وشوقني من حيث أدري ولا أدري "

" بعثت لك الزهر الجنى لعله ... يقبلها عني تغور من الزهر "

وكتب إليه أيضا متشوقا

" كتبت ودمعي بلل الركب قطره ... وأجرى به بين الخيام السواقيا "

" حيننا لمولى أنلف المال جوده ... ولكنه قد خلد الفخر باقيا "

" وما عشت بعد البين إلا لأنني ... أرجي بفضل الله منه التلاقيا "

وأنشده أيضا وهو بحال تألم

" كأنني بلطف الله قد عم خلقه ... وعافى إمام المسلمين وقد شفى "

" وقاضي القضاء الحتم سجل ختمه ... وخط على رسم الشفاء له اكتفى "

وله في مثل ذلك

" لك الخير يا مولاي أبشر بعصمة ... عقدت مع الأيام في حفظها صلحا "

" وعافية في صحة مستجدة ... تجدد للدين السعادة والنجحا "

" ووجه التهاني مشرق متهلل ... وجو الأمانى بعدما غام قد أضحى "

" وقد ظهرت للبرء منك علامة ... علامتك العليا تقول لنا صحا "

وفي مثل ذلك
" يا إماما قد اتخذنا ... ه من الدهر ملاذا "
" خط يمينك ينادي ... صح هذا صح هذا "
وقال مهنتا بالشفاء
" الحمد لله بلغنا المنى ... لما رأيناك وزال العنا "
" وفزت بالأجر وكبت العدا ... وفزت بالعز وطيب الثنا "
" فالحمد لله على ما به ... من علينا من ظهور السننا "
وقال أيضا في نحوه
" نعم قرت العينان وانشرح الصدر ... وقد لاح من وجه الإمام لنا البدر "
" سرينا بليل التيه يكذب فجره ... فلما تجلى فجره صدق الفجر "
" أغر المحيا بالحياء مقنع ... زهاه الكلام الحر والنسب الحر "
" إمام الهدى قد خصه بخلافة ... إله له في خلقه النهي والأمر "
وقال في مثله وقد ركب رحمه الله تعالى لمعاهد حضرته
" هنيئا هنيئا لا نفاذ لعدده ... وبشرى لدين الله إنجاز وعده "
" فقد لاح بدر التم في أفق العلا ... وحل كما يرضى منازل سعده "
" وطاف أمير المسلمين محمد ... بحضرته العليا مبلغ قصده "
" ولاحت بها الأنوار من بشر وجهه ... وفاح بها النوار من نشر حمده "
" وأبصرت الأبصار شمس هداية ... وأشرقت الأجزاء من زهر رفته "
" ولوحت الأعلام فيها بنصره ... كما لوح الصبح المبين بينده "
" ستهدي له الأيام كل مسرة ... ويحيي به الرحمن آثار جده "
" فسل الحسام السعد واضرب به العدا ... وخل حسام الهند في كنز غمده "
" فسيفك سيف الله مهما سللته ... يقيم حدود الله قائم حده "
وقال وقد عاد رحمه الله تعالى من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشوار
" على الطائر الميمون والطاقع السعد ... قدمت مع الصنع الجميل على وعد "
" وقد عدت من جبل الشوار لتجتلي ... عقائل للفتح المبين بلا عد "
وقال مما رسم في طيقان الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها رحمه الله تعالى
" أنا تاج كهلال ... أنا كرسي جمال "
" ينجلي الإبريق فيه ... كعروس ذي اختيال "
" جود مولانا ابن نصر ... قد حبانني بالكمال "
وفي مثله
" من رأى التاج الرفيعا ... قد حوى الشكر البديعا "
" تحسد الأفلاك منه ... فوسه السهل المنيعا "
" دمت ربعا للتهاني ... أنظم الشمل الجميعا "
وفيه
" للغني بالله قصر ... للتهاني يصطفيه "
" فيه محراب صلاة ... يقف الإبريق فيه "
" تاليا سورة حسن ... والمعالي تقتفيه "
وفيه
" أي قوس ذي جمال ... سهمه سهم السعاده "
" ملك الإبريق فيه ... عود الإحسان عاده "
" ذو صلاة من صلات ... كلها دأبا معاده "
وقال في المعنى مما كتب به لعننا الأمير سعد رحمة الله تعالى عليه
" انظر لأفق جمال ... به الأباريق تصعد "
" حسن بديع حباه ... به الأمير الممجد "
" فخر الإمارة سعد ... به الخليفة يسعد "
" وكيف لا وأبوه ... فخر الملوك محمد "
" عليه حلي رضاه ... في كل يوم يجدد "
وقال فيه أيضا

" رفعت قوس سمائي ... يزهى بتاج الهلال "

" قد قلدته نقوشي ... در الدراري العوالي "

" ترى الأباريق فيه ... تهديك عذب الزلال "

" قد زان قصري سعد ... بسعده المتوالي "

" فدام يعمر ربعي ... في كلء مولى الموالي "

وفي الغرض

" ما ترى في الرياض أشباهي ... يسحر العقل حسني الزاهي "

" زان روضي أميره سعد ... وهو نجل الغني بالله "

" دام منه بمرتقى عز ... أمر بالسعود أو ناهي "

وقال في غرض الشكر عن مغطى صنهاتي أهداه إياه

" لمن قبة حمراء مد نزارها ... تطابق منها أرضها وسماؤها "

" وما أرضها إلا خزائن رحمة ... وما قد سما من فوق ذاك غطاؤها "

" وقد شبه الرحمن خلقتنا به ... وحسبك فخرا بان منه اعتلاؤها "

" ومعروشة الأرجاء مفروشة بها ... صنوف من النعماء منها وطاؤها "

" ترى الطير في أجوافها قد تصفت ... على نعم عند الإله كفاؤها "

" ونسبتها صنهجة غير أنها ... تقصر عما قد حوى خلفاؤها "

" حبتني بها دون العبيد خلافة ... على الله في يوم الجزاء جزاؤها "

وفي مثله

" ما للعوالم جمعت في قبة ... قد شادها كرم الإمام محمد "

" في صفح صرح بالزجاج مموه ... ويجود مولاي الإمام ممهد "

" ما إن رأيت ولا سمعت كطائر ... عن ثوب موشي الرياش مجرد "

" إن لم تكن تلك الطيور تغردت ... فلشكر هذا العيد سجع مغرد "

" صفت عليها للفواكه كل ما ... قد عاهدته بدوحها المتعود "

" لو أبصرت صنهجة أوضاعه ... دانت له أملاكها بتعبد "

" عودتني الصنع الجميل تفضلا ... لا زلت خير معوذومعود "

" ويسورة الأنعام كم من آية ... فيها لقار بالنوال مجود "

وقال تذيلا لبيتي ابن المعتز

" سقتني في ليل شبيه بشعرها ... شبيهة خديها بغير رقيب "

" فأمسيت في ليلين للشعر والدجى ... وشمسين من خمر وخذ حبيب "

" إلى أن بدا الصبح المبين كأنه ... محيا ابن نصر لم يشن بغروب "

" شمائله مهما أديرت كؤوسها ... قلائد أسماع وأنس قلوب "

وقال مذيلا على بيت ابن وكيع

" هي في أوجه الندامى عقيق ... وهي مثل النصار في الأقداح "

" كابت نصر تراه في الحرب ليثا ... وهو بدر الندى وغيث السماح "

" ذكره قد ثنى قدود الندامى ... وأعاد الحياة في الأرواح "

وقال مما يرسم للغني بالله

" للغني بالله ملك ... برده بالعز مذهب "

" دام في رفعة شان ... ما جلا الإصباح غيب "

وقال أيضا

" يا ابن نصر لك ملك ... ليس تعدوه الفتوح "

" دمت روحا للمعالي ... ما سرى في الجسم روح "

ومن مقطوعاته

" وابن نصر له محيا كصبح ... إن تجلى جلالنا كل كرب "

" ذو حسام كأنه لمع برق ... في بنان كأنها غيث سحب "

ومن أخرى

" وكان النجوم في غسق اللي ... جمان يلوح في أنوس "

" وكان الصباح في الأفق يجلى ... بحلي النجوم مثل العروس "

" وكان الرياض تهدي ثناء ... للغني بالله فوق الطروس "

وقال من قصيدة أولها
" أضياء هدي أم ضياء نهار ... وشذا المحامد أم شذا الأزهار "
" قسما بهديك في الضياء وإنه ... شمس تمد الشهب بالأنوار "
ومنها
" كم من لطائف للهدى أوضحتها ... خفيت لطائفها على الأفكار "
" كم من جرائم قد غفرت عظيمها ... مستنزلا من رحمة الغفار "
" علمت ملوك الأرض أنك فخرها ... فتسابقت لرضاك في مضمار "
ومنها يصف الجيش
" سألت به تحت العجاج سفينة ... لفتحت بريح العز من أنصار "
" أرسيت بجودي الجود في يوم الندى ... وجرت بيوم الحرب في تيار "
ومنها
" ألقى بأيدي الريح فضل عنانه ... فيكاد يسبق لمحة الأبصار "
ومنها
" فهني العراب متى انبرت يوم الوغى ... قد أعربت عن لطف صنع الباربي "
ومنها
" إن خاض في ليل العجاج رأيت ... يجلو دجنته بوجه نهار "
ومنها
" كم فيهم من قار ضيف طارق ... وضحت شواهد فضله للقار "
ومنها
" يا أيها الملك الذي أيامه ... غرر تلوح بأوجه الأعصار "
" قد زارك العيد السعيد مبشرا ... فاسمح لألف منهم بمزار "
" لما ازدهته عواطف أطففتها ... عطف الإله عليك عطف سوار "
" فأنتى يؤمم منك هديا صالحا ... كي يستمد النور بعد سرار "
" وأتاك يسحب ذيل سحب أغدقت ... تغري جفون المزن باستعبار "
" جادت بجاري الدمع من قطر الندى ... فرعى الربيع لها حقوق الجار "
" فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا ... متضاحكا بمباسم النوار "
" لما دعاك إلى القيام بسنة ... حكمت داعي الجود والإيثار "
" فأفضت فينا من نذاك مواهبا ... حسنت موافقها على التكرار "
" فاهنا بعيد عاد يشتمل الرضى ... جذلان يرفل في حلى استبشار "
ومنها
" لا عذر لي إن كنت فيه مقصرا ... سدت صفاتك أوجه الأعذار "
" فإذا نظمت من المناقب درها ... شرفتنني منها بنظم دراري "
" فلذاك أنظمتها فلأند لؤلؤ ... لألاؤها قد شف بالأنوار "
وأنشد على لحدته المقدس رحمه الله تعالى
" ضريح أمير المسلمين محمد ... يخصك ربي بالسلام المررد "
" وحيثك من روح الإله تحية ... مع الملا الأعلى تروح وتغندي "
" وشقت جيوب الزهر فيك كمائم ... يرف بها الريحان عن خصل ندي "
" وصابت من الرحمى عليك غمائم ... تروي ثرى هذا الضريح المنجد "
" وزارتك من حور الجنان أوانس ... نواعم في كل النعيم المخلد "
" وجاءتك بالبشرى ملائكة الرضى ... كما جاء في الذكر الحكيم الممجد "
" وصافح منك الروض أطيب تربة ... وعاهد منك المزن أكرم معهد "
" رضى الله والصفح الجميل وعفوة ... يوالى على ذاك الصفيح المنضد "
" ويا صدفا قد فاز من جوهر العلا ... بكل نفيس بالنفايسة مفرد "
" أعندك أن العلم والحلم والحجى ... وزهر الحلى قد أدرجت طي ملحد "
" وهل أنت إلا هالة القمر الذي ... ينور هداه الشهب تهدي وتهندي "
" ويا عجبا من ذلك الترب كيف لا ... يفيض ببحر للسماحة مزيد "
" لقد ضاقت الأكوان وهي رحيمة ... بما حزت من فخر عظيم وسودد "
" قدمت على الرحمن أكرم مقدم ... وزودت من رحماه خير مزود "

" أقام بك المولى الإمام محمد ... مؤمل فوز بالشفيع محمد "

" فجاء كما ترضى وترضى به العلا ... وأنجز للأمال أكرم موعد "

" ومد ظلال العدل في كل وجهة ... وكف أكف البيغي من كل معتد "

" وقام بمفروض الجهاد عن الورى ... وعود دين الله خير معود "

" قضى بعدما قضى الخلافة حقها ... وعامل وجه الله في كل مقصد "

" وفتح بالسيف الممالك عنوة ... ومدت له أملاكها كف مجتد "

" وكسر تمثال الصليب وأخرست ... نواقيس كانت للضلال بمرصد "

" وطهر محرابا وحدد منبرا ... وأعلن ذكر الله في كل مسجد "

" ودانت له الأملاك شرقا ومغربا ... وكلهم ألقى له الملك باليد "

" طبق معمور البسيطة ذكره ... وسارت به الركبان في كل فد فد "

" وسافر عن دار الفناء ليجتلي ... بما قدم اليوم السعادة في غد "

" وقام بامر الله حق قيامه ... بعزيمة لا وان ولا متردد "

" لئن سار للرحمن خير مودع ... وحل من الفردوس أشرف مقعد "

" فقد خلف المولى الخليفة يوسف ... يعيد له غر المساعي وبيتي "

" سبيلك في سبل المكارم يقتفي ... وهديك يا خير الأئمة يقتدي "

" محمد جلى الخطب من بعد يوسف ... ويوسف جل الخطب بعد محمد "

" ولو وجد الناس الغداء مسوغا ... فذاك يبذل النفس كل موحد "

" ستبكيك أرض كنت غيث بلادها ... وتبكيك حتى الشهب في كل مشهد "

" وتبكي عليك السحب ملء جفونها ... بدمع يروي غلة المجدب الصدي "

" وتلبس فيك النيرات ظلامها ... حدادا ويذكي النجم جفن مسهد "

" وما هي إلا أعين قد تسهدت ... فكحلها نجم الظلام يأنم "

" فلا زلت في ظل النعيم مخلدا ... ونجلك يحيا بالبقاء المخلد "

" وأوردك الرحمن حوض نبيه ... وأصدر من خلفت عن خير مورد "

" عليك سلام مثل حمدك عاطر ... يفض ختام المسك عن تريك الندي "

" وصلى على المختار من آل هاشم ... صلاة بها نرجو الشفاعة في غد "

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج

" بما قد حزت من كرم الخلال ... بما أدركت من رتب الجلال "

" بماخولت من دين ودنيا ... بما قد حزت من شرف الجمال "

" بما أوليت من صنع جميل ... يطابق لظه معنى الكمال "

" تغمدي بفضلك واغفرها ... ذنوبا في الفعال وفي المقال "

وقال أيضا

" أنعطش أولادي وأنت غمامة ... تعم جميع الخلق بالنفع والسقيا "

" وتظلم أوقاتي ووجهك نير ... تفيض به الأنوار للدين والدنيا "

" وجدك قد سماك ربك باسمه ... وأورثك الرحمن رتبته العليا "

" وقد كان أعطاني الذي أنا سائل ... وسوغني من غير شرط ولا ثنيا "

" وشعري في غر المصانع خالد ... يحييه عني في الممات وفي المحيا "

" وما زلت أهدي المدح مسكا مفتقا ... فتحمله الأرواح عاطرة الريا "

" وقد أكثر العبد التشكي وإنه ... وحقك يا فخر الملوك قد استحيا "

" وما الجود إلا ميت غير أنه ... إذا نفخت يمناك في روحه يحيا "

" فمن شاء أن يدعو لدين محمد ... فيدعو لمولانا الخليفة بالبقيا "

وقال أيضا فيه وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة

" منزل اليمن والرضى والسعود ... أنجزت فيه صادقات الوعود "

" كل يوم نراه إن تقضت ... أنشدتها السعود بالله عودي "

" جمع المستعين وصف كمال ... بين بأس عم الملوك وجود "

" فاهن في غبطة وعزة ملك ... أنت والله فخر هذا الوجود "

وقال أيضا مشيرا لتوليته العلامة

" لك غرة ود الصباح جمالها ... ومحاسن تهوى البدور كمالها "

" وشمائل تحكي الرياض خلالها ... وأنامل برجو الأنام خلالها "

" للمستعين خلافة نصرية ... عرفت ملوك العالمين جلالها "

" وأنا الذي قد نال منك معاليا ... تهدي النجوم الزاهرات منالها "

" تهديه ما قد نلتها من بعضها ... فالفخر كل الفخر فيمن نالها "

" في كل يوم منك منة منعم ... لو طاولت سمك السما ما طالها "

" بلغت آمال العبيد فبلغت ... فيك العبيد من البقا آمالها "

وقال أيضا وكتبها إليه مع خمسة أقدام

" أيا مالكا لم بيد للعين حسنه ... سوى ملك قد حل من عالم القدس "

" لك الخير خذها كالأنامل خمسة ... تعوذ مرآك المكمل بالخمسة "

" فمن أبصرت عينك مرأه فليقل ... أعوذ برب الناس أو آية الكرسي "

ثم قال ابن الأحمر وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة الله تعالى عليه وقد مر معه بفحص رية والثلج قد عم أنديته وبسط أرديته في وجهة توجهها مولانا الجد تغمده الله تعالى إلى مالقة

" يا من به رتب الإمارة تعتلي ... ومعالم الفخر المشيدة تبتني "

" أزجر بهذا الثلج فألا إنه ... ثلج اليقين بنصر مولانا الغني "

" بسط البياض كرامة لقدمه ... وافتر ثغرا عن مسرة معتنني "

" فالأرض جوهرة تلوح لمجتل ... والدوح مزهرة تفوح لمجتني "

" سبحان من أعطى الوجود وجوده ... ليبدل منه على الجواد المحسن "

" وبدائع الأكواف في إتقانها ... أثر يشير إلى البديع المتقن "

ثم قال ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله ابن الخطيب مادحا قوله

" ... أما وانصداع النور من مطلع الفجر "

إلى آخره وقد تقدمت

ثم قال وقال يراجع الكاتب أبا زكريا ابن أبي دلامة

" على الطائر الميمون والطالع السعد ... أتتني مع الصنع الجميل على وعد "

" وأحييت يا يحيى بها نفس مغرم ... يجيل جياذ الدمع في ملعب السهد "

" نسيت وما أنسى وفائي وخلتي ... وأقفر ربع القلب إلا من الوجد "

" وما الطل في ثغر من الزهر باسم ... بأزكى وأصفى من ثنائي ومن ودي "

" فأصدقته من بحر فكري جواهرها ... تنظم من در الدراري في عقد "

" وكنت أطيل القول إلا ضرورة ... دعنتني إلى الإيجاز في سورة الحمد "

وأنشده السلطان أبا العباس المرسي في غراب من إنشائه

" أنسان عين الدهر جفئك قد غدا ... يحفك منه طائر اليمن والسعد "

" إذا ما هفا فوق الرؤوس شراعه ... أرك جناحا مد للجزر والمد "

وأنشده فيه أيضا

" لك الخير شأن الجفن يحرس عينه ... وهذا بعين الله يحرس دائما "

" تبيت له خمس الثريا معيدة ... تقلده زهر النجوم تماثما "

" فيا جفن لا تنفك في الحفظ دائما ... وإن كنت في لجج من البحر عائما "

انتهى ما لخصته من كلام ابن الأحمر في حق ابن زمرك وذلك جملة من نظمه

موشحات ابن زمرك

وقد رأيت أن أعزز ذلك ببعض موشحات ابن زمرك المذكور مما انتقيته من كلام ابن الأحمر

فمنها قوله متشوقا إلى غرناطة ويمدح الغني بالله

" بالله يا قامة القضيبي ... ومخجل الشمس والقمر "

" من ملك الحسن في القلوب ... وأيد اللحظ بالبحور "

" من لم يكن طبعه رقيقا ... لم يدر ما لذة الصبا "

" فرب حر غدا رقيقا ... تملكه نفحة الصبا "

" نشوان لم يشرب الرحيقا ... لكن إلى الحسن قد صبا "

" فعذاب القلب بالوجيب ... ونعم العين بالنظر "

" وبات والدمع في صبيب ... يقدح من قلبه الشرر "

" عجبت من قلبي المعنى ... يهفو إذا هبت الرياح "

" لو كان للصب ما تمنى ... لطار شوقا إلى البطاح "

" ولببل الدوح إن تغني ... أسهر ليلى إلى الصباح "

" عساك إن زرت يا طيبي ... بالطيف في رقدة السحر "

" أن تجعل النوم من نصيبي ... والعين تحمي من السهر "

" كم شادن قاد لي الحتوفا ... بمربع القلب قد سكن "

" يسلم من لحظه سيوفا ... فالقلب بالروع ما سكن "

" خلقت من عادتي ألوفا ... أحن للإلف والسكن "

" غرناطة منزل الحبيب ... وقربها السؤل والوطر "

" تبهر بالمنظر العجيب ... فلا عدا ربعها المطر "

" عروسة تاجها السبيكة ... وزهرها الحلبي والحلل "

" لم ترضي من عزها شريكه ... بحسنها يضرب المثل "

" أيدها الله من مليكه ... تملكها أشرف الدول "

" بدولة المرتجى المهيب ... الملك الطاهر الأغر "

" تختال من بردها القشيب ... في حلة النور والزهر "

" كرسيتها جنة العريف ... مراتها صفحة الغدير "

" وجوهر الطل عن شنوف ... تحكمها صنعة القدير "

" والأنس فيها على صنوف ... فمن هديل ومن هدير "

" كم خرق الزهر من جيوب ... وكلل القضب بالدرر "

" فالغصن كالكاغب اللعوب ... والطير تشدو بلا وتر "

" ولائم النصر في احتفال ... وفرح دين الهوى جديد "

" سلطانها معمل العوالي ... محمد الظافر السعيد "

" ومخجل البدر في الكمال ... سلطانها المجتبي الفريد "

" أصفح مولى عن الذنوب ... أكرم عاف إذا قدر "

" وشمس هدي بلا مغيب ... وبحر جود بلا حسر "

" مولاي يا عاقد البنود ... تظلل الأوجه الصباح "

" أوحشت يا نخبة الوجود ... غرناطة هالة السماح "

" سافرت باليمن والسعود ... وعدت بالفتح والنجاح "

" يا ملهم القلب للغيوب ... ومطعم النصر والظفر "

" أسمعك الله عن قريب ... على السلامه من السفر "

وقال أيضا من الموشحات الرائقة في مثل أغراض هذه السابقة وأشار إلى محاسن من وصف الدشار

" نسيم غرناطة عليل ... لكنه يبرىء العليل "

" وروضها زهره بليل ... ورشفه ينقع الغليل "

" سقى بنجد ربي المصلى ... مباكر روضه الغمام "

" فجفنه كلما استهلا ... تبسم الزهر في الكمام "

" والروض بالحسن قد تحلى ... وجرى النهر عن حسام "

" ودوحها ظله ظليل ... يحسن في ربه المقييل "

" والبرق والجو مستطيل ... يلعب بالصارم الصقيل "

" عقيلة تاجها السبيكة ... تطل بالمرقب المنيف "

" كأنها فوقه مليكه ... كرسيتها جنة العريف "

" تطبع من عسجد سبيكه ... شموستها كلما تطيف "

" أبدعك الخالق الجميل ... يا منظرا كله جميل "

" قلبي إلى حسنه يميل ... وقلنا قد صبا جميل "

" وزاد للحسن فيك حسنا ... محمد الحمد والسماح "

" جدد للفخر فيك مغنى ... في طالع اليمن والنجاح "

" تدعى دشارا وفيك معنى ... يخصك الفأل بافتتاح "

" فالنصر والسعد لا يزول ... لأنه ثابت أصيل "

" سعد وأنصاره قبيل ... أبأوه عترة الرسول "

" أبدى به حكمة القدير ... وتوج الروض بالقباب "

" ودرع الزهر بالغدیر ... وزين النهر بالحباب "

" فمن هديل ومن هدير ... ما أولع الحسن بالشباب "

" كبت على روضها القبول ... وطرفها بالسرى كليل "

" فلم يزل بينها يجول ... حتى تبدت له حجول "

" للزهر في عطفها رقوم ... تلوح للعين كالنجوم "

" وللندی بينها رسوم ... عقد الندى فوقه نظيم "

" وكل واد بها يهيم ... ولم يزل حولها يحوم "

" شنيلها مد منه نيل ... والشين ألف لمستنيل "

" وعين واد به تسيل ... من فوق خد له أسيل "

" كم من ظلال به ترف ... تضفو له فوقها ستور "

" ومن زجاج به يشف ... ما بين نور وبين نور "

" ومن شמוש بها تصف ... تديرها بينها البدور "

" مزاجها العذب سلسبيل ... يا هل إلى رشفها سبيل "

" وكيف والشيب في عذول ... وصبغة صفرة الأصيل "

" يا سرحة في الحمى ظليله ... كم نلت في ظلك المنى "

" روضك الله من خميله ... يجنى به أطيب الجنى "

" وبرقها صادق المخيله ... ما زال بالغيث محسنا "

" أنجز لي وعدك القبول ... فلم أقل مثل من يقول "

" يا سرحة الحي يا مطول ... شرح الذي بيننا يطول "

ومن ذلك ما كتب به إلى الغني بالله

" أبلغ لغرناطة سلامي ... وصف لها عهدي السليم "

" فلو رعى طيفها ذمامي ... ما بت في ليلة السليم "

" كم بت فيها على اقتراح ... أعل من خمرة الرضاب "

" أدير فيها كؤوس راح ... قد زانها الثغر بالحباب "

" أختال كالمهر في الجماح ... نشوان في روضة الشباب "

" أضاحك الزهر في الكمام ... مباهايا روضه الوسيم "

" وأفضح الغصن في القوام ... إن هب من جوها نسيم "

" بينا أنا والشباب صاف ... وظله فوقنا مديد "

" ومورد الأنس فيه صاف ... وبرده رائق جديد "

" إذ لاح في الفود غير خاف ... صبح به نبه الوليد "

" أبقيظ من كان ذا منام ... لما انجلى ليله البهيم "

" وأرسل الدمع كالغمام ... في كل واد به أهيم "

" يا جيرة عهدهم كريم ... وفعلهم كله جميل "

" لا تعذلوا الصب إذ يهيم ... فقبله قد صبا جميل "

" القرب من ربكم نعيم ... وبعدكم خطبه جليل "

" كم من رياض به وسام ... يزهى بها الرائض المسيم "

" غديرها أزرق الحمام ... ونبتها كله حميم "

" أعندكم أنبي بفاس ... أكابد الشوق والحنين "

" أذكر أهلي بها وناسي ... واليوم في الطول كالسنين "

" الله حسبي فكم أقاسي ... من وحشة الصحب والبنين "

" مطارحا ساجع الحمام ... شوقا إلى الإلف والحميم "

" والدمع قد لج في انسجام ... وقد وهى عقده التنظيم "

" يا ساكني جنة العريف ... أسكنتم جنة الخلود "

" كم ثم من منظر شريف ... قد حف باليمن والسعود "

" ورب طود به منيف ... أدواحه الخضر كالبنود "

" والنهر قد سل كالحسام ... لراحة الشرب مستديم "

" والزهر قد راق بابتسام ... مقبلا راحة النديم "

" بلغ عبيد المقام صحي ... لا زلتم الدهر في هنا "

" لقاكم بغية المحب ... وقريكم غاية المنى "

" فعندكم قد تركت قلبي ... فجدد الله عهدنا "
 " ودارك الشميل بانتظام ... من مرتجى فضله العميم "
 " في ظل سلطاننا الإمام ... الطاهر الظاهر الحليم "
 " مؤمن العدوتين مما ... يخاف من سطوة العدا "
 " وفارج الكرب إن ألما ... ومذهب الخطب والردى "
 " قد راق حسنا وفاق حلما ... وما عدا غير ما بدا "
 " مولاي يا نخبة الأنام ... وحائز الفخر في القديم "
 " كم أرقب البدر في التمام ... شوقا إلى وجهك الكريم "
 ومنها موشحة عارض بها موشحة ابن سهل التي أولها ليل الهوى يقظان وهي
 " نواسم البستان ... تنثر سلك الزهر "
 " والطل في الأغصان ... ينظمه بالجواهر "
 " وراحة الإصباح ... أضاء منها المشرق "
 " تنشرها الأرواح ... فلا تزال تخفق "
 " والزهر زهر فاح ... له عيون ترمق "
 " فأيقظ الندمان ... يبصران ما لم يبصر "
 " جواهر الشهبان ... قد عرضت للمشتري "
 " قدحت لي زندا ... يا أيهذا البارق "
 " أذكرتني عهدا ... إذ الشباب رائق "
 " فالشوق لا يهدا ... ولا الفؤاد الخافق "
 " وكيف بالسلوان ... والقلب رهن الفكر "
 " وسحب الهجران ... تحجب وجه القمر "
 " لولا شمس الكاس ... نديرها بين البدور "
 " وعرج الإيناس ... منا على ريع الصدور "
 " لكن لها وسواس ... يغري بريات الخدور "
 " كم واله هيمان ... بصبح وجه مسفر "
 " ضياؤه قد بان ... من تحت ليل مقمر "
 " يا مطلع الأنوار ... كم فيك من مرأى جميل "
 " ونزهة الأبصار ... ما ضر لو تشفى الغليل "
 " يا روضة الأزهار ... وعرفها ييري العليل "
 " قضيبك الغينان ... يسقى بدمع همر "
 " فلاعج الأشجان ... فيض الدموع يمتري "
 " هل في الهوى ناصر ... أو هل يجار الهائم "
 " لو كان لي زائر ... طيف الخيال الحائم "
 " ما بت بالساهر ... ودمع عيني ساجم "
 " والحب ذو عدوان ... يجهد في ظلم البري "
 " وصارم الأجنان ... مؤيد بالخور "
 " رحماك في صب ... أذكرته عهد الصبا "
 " بواعت الحب ... قادت إليه الوصا "
 " لم تهف بالقلب ... ريح الصبا إلا صبا "
 " بليلة الأردن ... قد ضمخت بالعنبر "
 " يشير غصن البان ... منها بفضل المئزر "
 " طبيها حمد ... فخر الملوك المجتبي "
 " من يرحح الطود ... من حلمه إذا احتبي "
 " قد جرد السعد ... منه حساما مذهبا "
 " فالبأس والإحسان ... والغوث للمستنصر "
 " تحمله الركبان ... تحية للمنبر "
 " عصاية الكتاب ... حق لها الفوز العظيم "
 " تختال في أنواب ... ألبسها الطول الجسيم "

" فحسبها الإطناب ... في الحمد والشكر العميم "
" خليفة الرحمن ... لا زلت سامي المظهر "
" يا مورد الظمان ... ورأس مال المعسر "
" خذها على دعوى ... تزري على الروض الوسيم "
" جاءت كما تهوى ... أرق من لدن النسيم "
" قد طارحت شكوى ... من قال في الليل البهيم "
" ليل الهوى يقطان ... والحب ترب السهر "
" والصبر لي خوان ... والنوم من عيني بري "
وله في الصبوحيات
" ربحانة الفجر قد أطلت ... خضراء بالزهر تزهر "
" وراية الصبح قد أطلت ... في مرقب الشرق تنشر "
" فالشهب من غارة الصباح ... ترعد خوفا وتخفق "
" وأدهم الليل في جماح ... أعنة البرق يطلق "
" والأفق في ملتقى الرياح ... بأدمع الغيث يشرق "
" والسحب بالجواهر استهلته ... فالبرق سيف مجوهر "
" صفاحه المذهبات حلت ... في راحة الجو تشهر "
" كم للصبا ثم من مقيل ... بطيبه الزهر يشهد "
" والنهر كالصارم الصقيل ... في حلية النور يغمد "
" ورب قال به وقيل ... للطير في حين تنشد "
" فالسن الورق قد أملت ... مدائحا عنه تشكر "
" ونسمة الصبح قد تجلت ... في سندس الروض تعثر "
" والكاس في راحة النديم ... يجلو به غيبه الهموم "
" أقيست النار في القديم ... من قبل أن تخلق الكروم "
" والنهر في ملعب النسيم ... للزهر في عطفه رقوم "
" فلبه الحلبي قد تحلت ... والطل في الحلبي جوهر "
" وبهجة الكون قد تجلت ... والروض بالحسن يبهر "
" يذكرني وجنة الحبيب ... والأس في صفحة العذار "
" وشارب الشارب العجيب ... بين أقاح وجلنار "
" يدبر من ثغره الشنبيب ... سلافة دونها العقار "
" حلت لأهل الهوى وجلت ... بالذكر والوهم تسكر "
" كم من نفوس بها تسلت ... فما لها الدهر منكر "
" يا غصن بان يميل زهوا ... ريان في روضه الشباب "
" لو كنت تصغي لرفع شكوى ... أطلت من قصة العقاب "
" ومن لمثلي بيث نجوى ... لليدر في رفر السحاب "
" عزائم الصبر فيك حلت ... وعقدة الصبر تذخر "
" قد أكثر منك ما استقلت ... وليت لو كنت تشعر "
" كم ليلة بتها وبنا ... ضدين في السهر والرقاد "
" أسامر النجم فيك حتى ... علمت أجفانها السهاد "
" أرقب بدر الدجى وأنتا ... قد لحت في هالة الفؤاد "
" نفسي وليت ما تولت ... دعها على الشوق تصبر "
" لو سمتها الهجر ماتولت ... ولم تكن عنك تنفر "
" علمها الصبر في الحروب ... سلطانا عاقد البنود "
" معفر الصيد للجنوب ... أعز من حف بالجنود "
" نصرت بالرعب في القلوب ... والبيض لم تبرح الغمود "
" عناية الله فيه حلت ... بسعده الدين ينصر "
" والخلق في عصره تملت ... غنائما ليس تحصر "
" مولاي يا نكتة الزمان ... دار بما ترتضي الفلك "
" جللت باليمن والأمان ... كل مليك وما ملك "

" لم يدر وصفي ولاعياني ... أملك أنت أم ملك "

" جنودك الغلب حيث حلت ... بالفتح والنصر تخفر "

" وعادة الله فيك دلت ... أنك بالكفر تظفر "

" يا آية الله في الكمال ... ومخجل البدر في التمام "

" قدمت بالعز والجلال ... والدهر في ثغره ابتسام "

" يختال في حلة الجمال ... والبدر قد عاد في اختتام "

" ريحانة الفجر قد أطلت ... خضراء بالزهر تزهّر "

" وراية الصبح قد أطلت ... في مرقب الشرق تنشر "

وقال سامحه الله تعالى

" قد طلعت راية الصباح ... وأذن الليل بالرحيل "

" فباكر الروض باصطباح ... واشرب على زهره البليل "

" فالورق هبت من السبات ... لمنبر الدوح تخطب "

" تسجع مفتنة اللغات ... كل عن الشوق يعرب "

" والغصن بعد الذهاب يأتي ... لأكؤس الطل يشرب "

" وأجمع السحب في انسياح ... في كل روض لها سبيل "

" والجو مستبشر النواحي ... يلعب بالصارم الصقيل "

" قم فاغتنم بهجة النفوس ... ما بين نور وبين نور "

" وشفع الصبح بالشموس ... تديرها بيننا البدور "

" ونبه الشرب للأكؤوس ... تمزج من ريقة الثغور "

" ما أجمل الراح فوق راح ... صفراء كالشمس في الأصيل "

" تغادر الصدرذا انشراح ... للأنس في طيه مقيل "

" ولا تذر خمرة الجفون ... فسكرها في الهوى جنون "

" ولتخش من أسهم العيون ... فإنها رائد المنون "

" عرضت منها إلى الفتون ... وكل خطب لها يهون "

" أهيم بالغادة الرداح ... والجسم من حبها عليل "

" لو بت منها على اقتراح ... نقعت من ريقها الغليل "

" أواعد الطيف للمنام ... ومن لعيني بالمنام "

" أسهر في ليلة التمام ... وأنت يا بدر في التمام "

" وأثم الزهر في الكمام ... عليه من ثغرك ابتسام "

" سفرت عن مبسم الأقاح ... وريقك العذب سلسبيل "

" قل لي يا ربة الوشاح ... هل لي إلى الوصل من سبيل "

" يا كعبة الحسن زدت حسنا ... وللهوى حولك المطاف "

" وغصن بان إذا تثنى ... لو حان من زهرك القطاف "

" ألا انعطاف على المعنى ... فالغصن يزهي بالانعطاف "

" أصبحت تزهو على الملاح ... بذلك المنظر الجميل "

" ووجهك الشمس في اتضاح ... لو أنها لم تكن تميل "

" ما الزهر إلا بنظم در ... تحسد في حسنه العقود "

" للملك الظاهر الأغر ... أكرم من حف بالسعود "

" محمد الحمد وابن نصر ... وباسط العدل في الوجود "

" مساجل السحب في السماح ... بالغيث من رفته الجليل "

" ومخجل البدر في اللياح ... بغرة ما لها مثل "

" يا مشرب الحب في القلوب ... وواهب الصفح للصفاح "

" نصرت بالرعب في الحروب ... والرعب أجدى من السلاح "

" قد لحت من عالم الغيوب ... لم تعدم الفوز والغلاح "

" مراكش نهبة افتتاح ... والصنع في فتحها جليل "

" بشراك بالفتح والنجاح ... والشكر من ذلك القبيل "

وقال أيضا رحمه الله تعالى

" في كؤوس الثغر من ذاك اللعس ... راحة الأرواح "

"وتغشى الروض مسكي النفس ... عاطر الأرواح "
 "وكسا الأدواح وشيا مذهبا ... يبهر الشمسيا "
 "عسجد قد حل من فوق الربى ... يبهج النفسا "
 "فاتخذ للهو فيه مركبا ... تلحق الأنسا "
 "منبر الغصن عليه قد جلس ... ساجع الأدواح "
 "حلل السندس خضرا قد لبس ... عطفه المرتاح "
 "قم ترى هذا الأصيل شاحبا ... حسنه قد راق "
 "ولأذيال الغصون ساحبا ... في حلى الأوراق "
 "ونديم قال لي مخاطبا ... قول ذي إشفاق "
 "عادة الشمس بغرب تختلس ... هات شمس الراح "
 "إن أرانا الجو وجهها قد عبس ... أوقد المصباح "
 "ووجوه الشرب تغني عن شמוש ... كلما تجلى "
 "بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس ... خمرها أحلى "
 "مظهرات من خفايا في النفوس ... سورا تتلى "
 "ما زمان الأنس إلا مختلس ... فاعتنم يا صاح "
 "وعيون الشهب تذكي عن حرس ... تخصم النصح "
 "ما ترى ثغر الوميض باسمها ... يظهر البشرا "
 "وثناء الروض هب ناسما ... عاطرا نشرا "
 "بث من أزهاره دراهما ... فائلا بشرى "
 "ركب المولي مع الظهر الفرس ... وشفي وارتاح "
 "بجنود الله دأبا يحترس ... إن غدا أو راح "
 "وجب الشكر علينا والهنا ... بعضنا بعضا "
 "فزمان السعد وضاح السننا ... وجهه الأرضى "
 "أثمرت فيه العوالي بالمنى ... ثمرنا غضا "
 "يجتني الإسلام منها ما اغترس ... سيفه السفاح "
 "في ضمير النقع منها قد هجس ... سهب تلتاح "
 "يا إماما بالحسام المنتضى ... نصرالحقا "
 "ثغرك الوضاح مهما أو مضا ... أخجل البرقا "
 "وديوان السعد منه تقتضى ... توسع الحقا "
 "لك وجه من صباح مقتبس ... بشره وضاح "
 "وجميل الصفح منه ملتمس ... منعم صفاح "
 "هاكها تمزج لطفًا بالنسيم ... كلما هبا "
 "قد أتت بالبر والصنع الجسيم ... تشكر الربا "
 "أخجلت من قال في الصبح الوسيم ... مغرما صبا "
 "غرد الطير فنبه من نعس ... يا مدير الراح "
 "وتعري الفجر عن ثوب الغلس ... وانجلي الإصباح "
 وقال أيضا سامحه الله تعالى
 "قدأنعم الله بالشفاء ... واستكملت راحة الإمام "
 "فلتنطق الطير بالهناء ... وليضحك الزهر في الكمام "
 "وجوده بهجة الوجود ... وبرؤه راحة النفوس "
 "قد لاح في مرقب السعود ... واستبشرت أوجه الشموس "
 "فالدوح يومي إلى البنود ... أكاماه غطت الرؤوس "
 "والزهر في روضة السماء ... كالزهر قد راق بابتسام "
 "والصبح مستشرق اللواء ... والبدر مستقبل التمام "
 "محاسن الكون قد تجلت ... جمالها العقل يبهر "
 "عرائس بالبها تحلت ... والطل في الحلبي جوهر "
 "والسن الورق قد أملت ... مدأجا عنه تشكر "
 "تستوقف الخلق بالغناء ... كأنها تحسن الكلام "

" تنطب لله في الثناء ... تقول سلمت يا سلام "

" كم من ثغور لها ثغور ... تبسم إذ جاءها البشير "

" ومن خدور بها بدور ... يشير منها له المشير "

" تقول إذ حفها السرور ... تبارك المنعم القدير "

" قد أنعم الله بالبقاء ... في ظل مولى به اعتصام "

" قد صادف النجاح في الدواء ... فالداء عنا له انفصام "

" يهنيك مولاي بل يهني ... ببرئك الدين والهدى "

" فالغرب والشرق منك يعنى ... بمذهب الخطب والردى "

" والله لولاك ما تهنا ... ما فيه من سطوة الردى "

" يا مورد الأنفس الظماء ... قد كان يشتها الأوام "

" وقرّة العين بالبهاء ... رددت للأعين التمام "

" لو أبذل الروح في البشارة ... بذلت بعض الذي ملك "

" فأنت يا نفس مستعاره ... مولاي بالفضل جملك "

" لم أدر إذ سطر العبارة ... أملك هو أم ملك "

" لا زلت مولاي في هناء ... مبلغ القصد والمرام "

" ودمت للملك في اعتلاء ... تسحب أذياله الغمام "

وقال في مألقة

" عليك يا رية السلام ... ولا عدا ربك المطر "

" مذحل في قصرك الإمام ... فقربك السؤل والوطر "

" والدوح في روضك الأنيق ... للشكر قد حطت الرؤوس "

" والغصن في نهره غريق ... وفي حلاه كما عروس "

" والجو من وجهك الشريق ... تحسده أوجه الشموس "

" وأعين الزهر لا تنام ... تستعذب السهد والسهر "

" تنفت من تحتها الغمام ... ترقبك من أعين الزهر "

" عروسة أنت يا عقيله ... تجلى علي مظهر الكمال "

" مدت لك الكف مستقيله ... تمسح أعطافك الشمال "

" والبحر مرأتك الصقيه ... تشف عن ذلك الجمال "

" والحلي زهر له انتظام ... يكلل القضب بالدر "

" قد راق من ثغره ابتسام ... والورد في خدها خفر "

" إن قيل من بعلمها المفدى ... ومن له وصلها مباح "

" أقول أسنى الملوك رفا ... مخلص الفخر بالصفاح "

" محمد الحمد حين يهدى ... ثناؤه عاطر الرياح "

" تخبر عن طيبه الكمام ... والخبر يغني عن الخبر "

" فالسعد والرعب والحسام ... والنصر آياته الكبير "

" ذو غرة تسحر البدورا ... وطلعة تخجل الصباح "

" كم راية سامها طهورا ... تظلل الأوجه الصباح "

" وكم جهاد جلاه نورا ... أظفر بالفوز والنجاح "

" الطاهر الظاهر الهمام ... أعز من صال وافتخر "

" لسيفه في العدا احتكام ... جرى به سابق القدر "

" يا مرسل الخير في العوار ... لو تطلب البحر تلحق "

" لك الجواري إذا تجاري ... سوابق الشهب تسبق "

" تستن في لجة البحار ... فالكفر منهن يفرق "

" فالدين وليقصر الكلام ... بسيفك اعتر وانتصر "

" كذاك أسلافك الكرام ... هم نصرنا سيد البشر "

وقال من غير هذا البحر في المحدث بمألقة

" قد نظم الشمل أتم انتظام ... واغتتم الأحباب قرب الحبيب "

" واستضحك الروض ثغور الغمام ... عن ميسم الزهر البرود الشنيب "

" وعمم النور رؤوس الربي ... وجلل النور صدور البطاح "

" وصافح القضب نسيم الصبا ... فالزهر يرنو عن عيون وقاح "

" وعاود النهر زمان الصبا ... فقلد الزهر مكان الوشاح "

" وأطلع القصر برود التمام ... في طالع الفتح القريب الغريب "

" خدودها قامت مقام الغمام ... فلا اشتكى من بعدها بالمغيب "

" أصبحت يا ربة مجلى النفوس ... جمالك العين بها يبهر "

" والبشر يسري في جميع الشموس ... وراية الأنس بها تشهر "

" والدوح للشكر تحط الرؤوس ... وأنجم الزهر بها تزهر "

" وراجع النهر غناء الحمام ... وقد شددت تسجع سجع الخطيب "

" بمنبر الغصن الرشيق القوام ... لما انثنى يهفو بقدرطيب "

" يا حبذا ميناك فخر القصور ... بوجه طالت بروج السما "

" ما مثله في سالفات العصور ... ولا الذي شاد ابن ماء السماء "

" كم فيه من مرأى بهيج ونور ... في مرتقى الجو به قد سما "

" خليفة الله ونعم الإمام ... أتحنك الدهر بصنع عجيب "

" يهنيك شمل قد غدا في التمام ... ممهدا في ظل عيش خصيب "

" نواسم الوادي بمسك تفوح ... ونفحة الند به تعبق "

" وبهجة السكان فيه تلوح ... وجوه من نورهم يشرق "

" وروضة بالسر منه يبوح ... بلابل عن وجده تنطق "

" لو أن من يفهم عنها الكلام ... فهي تهنيك هناء الأديب "

" ونهره قد سل منه الحسام ... يلحظه النرجس لحظ المريب "

" فأحمل الأيام عصر الشباب ... وأجمل الأجل يوم اللقا "

" يا درة القصر وشمس القباب ... وهازم الأحزاب في الملتقى "

" بشرك الرب بحسن المآب ... منعك الله بطول البقا "

" ولا يزال القصر قصر السلام ... يختال في برد الشباب القشيب "

" يتلو عليك الدهر في كل عام ... نصر من الله وفتح قريب "

وقال من المخلع في الشفاء

" في طالع اليمن والسعود ... قد كملت راحة الإمام "

" فأشرق النور في الوجود ... وابتسم الزهر في الكمام "

" قد طلعت راية النجاح ... وانهزم البؤس والعنا "

" وقال حي على الفلاح ... مؤذن القوم بالمنى "

" فالدهر يأتي بالاقتراح ... مستقبلا أوجه الهنا "

" تخفق منشورة البرود ... والسعد يقدم من أمام "

" والأنس مستجمع الوفود ... واللفظ مستعذب الجمام "

" وأكؤس الطل مترعات ... بأنمل السوسن الندي "

" والطير مفتنة اللغات ... تشدو بأصوات معبد "

" والغصن يذهب ثم يأتي ... بالسندس الغض مرتدي "

" والدوح يومي إلى السجود ... شكرا لذي الأنعم الجسمام "

" والريح خفاقة البنود ... تباكر الروض بالغمام "

" مظاهر للجمال تجلى ... قد هز أعطافها السرور "

" وباهر الحسن قد تجلى ... ما بين نور وبين نور "

" قد هنأت بالشفاء مولى ... بعصره تفخر العصور "

" ما بين أباس وبين جود ... قد مهد الأمن للأنام "

" فالدين ذو أعين رقود ... وكان لا يطعم المنام "

" والكاس في راحة السقااة ... تروح طورا وتغتدي "

" يهديكها رائق السمات ... ما بين برق وفرقد "

" والشمس تذهب للبيات ... قد لبست ثوب عسجد "

" والزهر في اليانع المجود ... يقابل الشرب بابتسام "

" والروض من حلية الغمود ... قد جرد النهر عن حسام "

" مولاي يا أشرف الملوك ... وعصمة الخلق أجمعين "

" أهديك من جوهر السلوك ... يقذفه بحرك المعين "

" جعلت تنظيمه سلوكي ... وأنت لي المنجد المعين "

" تحية الواحد المجيد ... ورحمة الله والسلام "

" عليك من راحم ودود ... يا مخجل البدر في التمام "

وقال من الرمل المجزوء

" وجه هذا اليوم باسم ... وشذا الأزهار ناسم "

" هاتها صاح كؤوسا ... جالبات للسرور "

" وارثقب منها شموسا ... طالعات في حبور "

" ما ترى الروض عروسا ... في حلى نور ونور "

" وأنت رسل النواسم ... تجتلي هذي النواسم "

" قد أهلت بالبشائر ... أضحكت ثغر الأزاهر "

" سنحت في يمن طائر ... ونظمن كالجواهر "

" فأنشروها في العشائر ... إن هذا الصنع باهر "

" وأشيعوا في العوالم ... الغني بالله سالم "

" أي نور يتوقد ... أي بدر يتلالا "

" أي فخر يتخلد ... أي غيث يتوالى "

" إنما المولى محمد ... رحمة الله تعالى "

" كفه بحر المقاسم ... وبها حج المباسم "

" خير أملاك الزمان ... من بني سعد ونصر "

" ما ترى أن الشواني ... في صعيد البر تجري "

" قد أطارتها التهاني ... دون بحري وبحر "

" مذ رأت بحر النعائم ... كلها جار وعائم "

" فهنيئا بالشفاء ... يا أمير المسلمينا "

" ولنا حق الهناء ... وجميع العالمينا "

" إن جهرنا بالدعاء ... ينطق الدهر أمينا "

" دمت محروس المكارم ... بظبي البيض الصوارم "

وقال يهني السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان وقد وجه إليه الغني بالله أمه وعياله عند تملكه المغرب من قبله

" قد نظم الشمل أتم انتظام ... ولاحت الأقمار بعد المغيب "

" وأضحك الروض تغور الغمام ... عن مبسم الزهر البرود الشنيب "

" وعاود الغصن زمان الصبا ... وأشرب الأنس جميع النفوس "

" وعمم النور رؤوس الربى ... وجلل النور وجوه الشموس "

" وأطرب الغصن نسيم الصبا ... فالدوح للشكر تحط الرؤوس "

" واستقبل البدر ليالي التمام ... وصافح الصبح بكف خضيب "

" وراجع الأطيوار سجع الحمام ... بكل ذي لحن بديع غريب "

" نواسم الوادي بمسك تفوح ... ونفحة الند به تعيق "

" وبهجة السكان فيه تلوح ... وجوه من نوره يشرق "

" وعرفه بالطيب منه يفوح ... كأنه من عنبر يفتق "

" والنهر قد سل كمثل الحسام ... حبابه تطفو وطورا تغيب "

" وتغرها قد راق منه ابتسام ... ينهىء الحب بقرب الحبيب "

" كواكب أبراجهن الخدور ... يلوح عنها كل بدر لياح "

" جواهر أصدافهن القصور ... نظمها السعد كنظم الوشاح "

" يا حبذا والله ركب السرور ... يبشر المولى بنيل اقتراح "

" ابتهج الكون بموسى الإمام ... واختال في برد الشباب القشيب "

" وعاده يخدم مثل الغلام ... شبابه قد عاد بعد المشيب "

" أكرم به والله وفد الكريم ... مولى سنا الحرة في مقدمه "

" مرضاتها تحظي بدار النعيم ... وتوجب التوفيق من منعمه "

" بشر بالنصر وفتح جسيم ... وخيره أجمع في مقدمه "

" لقاؤها المبرور مسك الختام ... بشرك الله بصنع عجيب "

" وقصرك الميمون قصر السلام ... خط بحفظ من سميع مجيب "

" مولاي يهنيك وحق الهنا ... قد نظم الشمل كنظم السعود "

" قد فزت بالفخر ونيل المنى ... وأنجز السعد جميع الوعود "

" وقرت العين وزال العنا ... وكلما مر صنيع يعود "

" فلا يزل ملكك حلف الدوام ... يحوز في التخليد أوفى نصيب "

" " يتلو عليك الدهر بعد السلام ... " نصر من الله وفتح قريب "

وقال رحمه الله تعالى في وصف غرناطة والطرده وغيرها

" لله ما أجمل روض الشباب ... من قبل أن يفتح زهر المشيب "

" في عهده أدت كأس الرضاب ... حبابها الدر بثغر الحبيب "

" من كل من يخجل بدر التمام ... إذا تبدى وجهه للعيون "

" ويفضح الغصن بلبين القوام ... وأين منه لين قد الغصون "

" ولحظه يمضي مضاء الحسام ... ويذهل العقل بسحر الجفون "

" أبصرت منه إذ يحط النقاب ... شمساً ولكن ما لها من مغيب "

" إذا تجلت بعد طول ارتقاب ... صرفت عنها اللحظ خوف الرقيب "

" من عاذري منه فؤادا صبا ... للامع البرق وخفق الرياح "

" يطير إن هب نسيم الصبا ... تعيره الريح خفوق الرياح "

" ما أروع الصب بعهد الصبا ... وهل على من قد صبا من جناح "

" فقلبه من شوقه في التهاب ... قد أحرق الأكباد من الوجيب "

" والجفن منه سحبه في انسكاب ... قد روض الخد بدمع سكيب "

" غرناطة ريع الهوى والمنى ... وقربها السؤل ونيل الوطر "

" وطيبها بالوصل لو أمكنا ... لم أقطع الليل بطول السهر "

" عما قريب حق فيها الهنا ... بيمن ذي العودة بعد السفر "

" ويحمد الناس نجاح الإياب ... بكل صنع مستجد غريب "

" " ويكتب الفال على كل باب ... " نصر من الله وفتح قريب "

" ما لذة الأملك إلا القنص ... لأنه الفال بصيد العدا "

" كم شارذ جرع فيه الغصص ... وأورد المحروب ورد الردى "

" وكم بدا الفحص لنا من حصص ... قد جمع البأس بها والندى "

ومنها بعد أبيات من الوزن والروي

" مولاي مولاي وأنت الذي ... جددت للأملك عهد الجلال "

" والشمس والبدر من العوذ ... لما رأت منك بديع الجمال "

" والروض في نعمته يغتذي ... بطيب ما قد حزته من خلال "

" بشراك بشراك بحسن المآب ... تستضحك الروض بثغر شنيب "

" ودمت محروس العلا والجناب ... بعصمة الله السميع المجيب "

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زمرك من كتاب ابن الأحمر رحمه الله تعالى وقد عرفت منه ما تسنى للغني بالله ابن الأحمر من الفتوحات والسعود ونفاذ الأمر على ملوك المغرب فهو الأحق بقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى

" ملك إذا عاينت منه جبينه ... فارقته والنور فوق جبينه "

" وإذا لثمت يمينه وخرجت من ... أبوابه لثم الملوك يميني "

وكان الغني بالله المذكور معتقدا في الصالحين حتى إنه كتب وهو بفاس مخلوع إلى ضريح ولي الله سيدي أبي العباس السبتي بمراكش ومن إنشاء وزيره لسان الدين على لسانه

" ... يا ولي الإله أنت مطاع "

الأبيات والنثر بعدها وقد ذكرتهما في الباب الخامس فراجعه وكان ذلك بفضل الله تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه ونظم تلك الأماكن في سلكه حتى حصل له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يعلم ذلك من كلام لسان الدين وابن زمرك وغيرهما

ترجمة الولي السبتي

والسبتي المذكور هو سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي الخزرجي الولي الصالح العالم العارف بالله القطب ذو الكرامات الشهيرة والمناقب الكثيرة والأحوال الباهرة والفضائل الظاهرة

والأخلاق الطاهرة

نزىل مراكش وبها توفي سنة إحدى وستمائة وولادته بسبته عام أربعة وعشرين وخمسمائة ودفن خارج مراكش وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء وقد زرته مرارا كثيرة فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف وهو تريباق مجرب

وقال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى كان سيدي أبو العباس السبتي رضي الله تعالى عنه مقصودا في حياته مستغاثا به في الأزمات وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ومبنى أمره على انفعال العالم عن الجود وكونه حكمة في تأثير الوجود له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربته وتشبث بلحده وانسحب على مكانه عادة حياته ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى وانقطاع الأماكن القصى تحملهم أحنحة نياتهم فتهدى إليه بمقاصدهم من كل فج

عميق فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة

وقال ابن الزيات كان أبو العباس قد أعطى بسطة في اللسان وقدرة على الكلام لا يناظره أحد إلا أفحمه ولا يسأله إلا أجابه كأن القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة يأخذ بمجامع القلوب ويسحر العامة والخاصة ببيانه يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلا مسلمين منقادين وشأنه كله عجيب وهو من عجائب الزمان وحدثني مشايخنا أنهم سمعوه يقول أنا

القطب وحدثني أبو الحسن الصنهاجي من خواص خدامه قال خرجت معه مرة لصهرج غابة الرمان يوم عرفة فجلسنا هناك وصلينا فقال لي إنما سمي هذا اليوم يوم عرفة لانتشار الرحمة فيه لمن تعرف إليه بالطاعات وقد فاتنا عرفة فتعال نمثل بهذا المكان ونعمل كما يعملون لعل الله تعالى يتغمدنا برحمته معهم فعمل مكانا دائرا بالعين الكعبة ومحل عنصر الماء الحجر وموضعا آخر مقام إبراهيم فطاف بالعين أسبوعا وأنا أطوف بطوافه وكبر على العنصر في كل طواف وصلى في مثل المقام ركعتين تامنين وأطال في سجود الثانية ثم استند إلى الشجرة ثم قال لي يا علي اذكر كل حاجة لك من حوائج دنياك تقض فإن الله تعالى وعد في هذا اليوم من تعرف له أن يقضي حوائجه فقلت له ما أريد إلا التوفيق فقال لي ما خرجت معك من باب المدينة حتى وفقت فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته وبم تنفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء ولم صار يأمر بالصدقة والإيثار من شكا إليه حالا أو تعذر عليه مطلب في هذه الدار فقال لي ما أمر الناس إلا بما ينتفعون به وإني لما قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد الله الفخار تلميذ القاضي عياض ونظرت في كتب الأحكام وبلغت من السنن عشرين سنة وحدث قوله تعالى " إن الله يأمر بالعدل والإحسان " فتدبرته وقلت أنا مطلوب به فلم أزل أبحث عنها إلى أن وقفت على أنها نزلت حين أخى النبي بين المهاجرين والأنصار وأنهم سألوا النبي أن يعلمهم حكم المؤاخاة فأمرهم بالمشاطرة ففهمت أن العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة ثم نظرت إلى حديث تفرق أمتي على ثلاثين فرقة الحديث وأنه

قاله صبيحة اليوم الذي أخى فيه بين المهاجرين والأنصار وذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين فقال لهم ذلك بأثره فعلمت أن الذي هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار فعقدت مع الله تعالى نية أن لا يأتيني شيء إلا شاطرت فيه الفقراء فعملت عليه عشرين سنة فأثمر لي الحكم بالخاطر فلا أحكم على خاطري بشيء إلا صدق فلما أكملت أربعين سنة راجعت تدبر الآية فوجدت الشطر هو العدل والإحسان ما زاد عليه فعقدت مع الله تعالى نية لا يأتيني قليل ولا كثير إلا أمسكت ثلثه وصرفت الثلثين لله تعالى فعملت عليه عشرين سنة فأثمر لي الحكم في الخلق بالولاية والعزل فأولني من شئت وأعزل من شئت ثم نظرت بعد ذلك في أول ما فرضه الله تعالى على عباده في مقام الإحسان فوجدت شكر النعمة بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ووجدت أصناف من تصرف إليهم الصدقات الواجبة سبعة وسبعة أصناف آخر صرفها فيها للإحسان والزيادة وذلك أن لنفسك عليك حقا وللزوجة حقا وللرحم حقا ولليتيم حقا وللضعيف حقا وذكر صنفين آخرين فانتقلت لهذه الدرجة وعقدت مع الله تعالى عقدا أن كل ما يأتيني أمسك سبعة حقا النفس وحق الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقها فأقمت عليه أربعة عشر عاما فأثمر لي الحكم في السماء فمتى قلت يا رب قال لي لبيك ثم قال لي إنها نهايتي بتمام عمري وهو أن تقضي لي سنة أعوام تكملة العشرين عاما

قال الصنهاجي فأرخت ذلك اليوم فلما مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ المكتوب وحققت العدد فنقصت من ستة أعوام ثلاثة أيام خاصة

فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

وقال أبو بكر ابن مساعد جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب وقال له إلي متى تحيرنا ولا تصرح لنا عن الطريق فقال له هو الإحسان فقال له بين لي فقال له كل ما أردت أن يفعله الله تعالى معك فافعله مع عبده

وقال له أبو الحسن الخباز أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء فقال إنما حبس المطر لخلهم فلو صدقوا لمطروا فقل لأصحابك الفلاحين تصدقوا بمثل ما أنفقتم تمطروا فقال له لا يصدقني أحد ولكن مرني في خاصة نفسي فقال له تصدق بمثل ما أنفقت فقال له إن الله تعالى لا يعامل بالدين ولكن أستسلف فاحتال وتصدق بها كما أمره قال فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحر فأبست من المطر ورأيت جميع ما غرست مشرفا على الهلاك فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت البحيرة حتى رويت ووطننت أن الدنيا كلها مطرت فخرجت فإذا المطر لم يتجاوزها انتهى

والحكايات عنه في مثل هذا كثيرة

وقال ابن الخطيب القسطيني في رحلته حضرت عند الحاج الصالح الورع الزاهد أبي العباس أحمد بن عاشر بمدينة سلا وقد سأله أحد الفقهاء عن كرامة الأولياء فقال له لا تنقطع بالموت الكرامة انظر إلى السبتي يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش وما ظهر عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات سمعت يهوديا بمراكش يلجح ببركته وينادي باسمه في أمر أصابه لا مع المسلمين فسألته عن سببه

فأخبر أنه وجد بركته في غير موطن فسألته عما بدا له في وقت فقال لي وحق ما أنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلا ما اتفق لي سررت ليلة مع قافلة في مغارة فعرجت دابتي فما شككت في قتلي وسلب مالي فجلست وبكيت وبينني وبين الناس بعد وقلت يا سيدي أبا العباس خاطرك قال لي والله ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به وضربت دابتي وخف عرجها ثم زال واتصلت بالناس فقلت له لم لم تسلم فقال حتى يريد الله تعالى وعجبت من كون ذلك من يهودي وهذه شهادة من عدو في الدين ولقد وقفت على قبره مرات وسألت الله تعالى في أشياء يسر لي فيها سؤلي منها أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصف به وأن يبسر علي فهم كتب عينتها فيسر الله تعالى علي ذلك في أقرب مدة وكان السبتي آية في أحواله ما أدرك صحبته إلا الخواص من الناس وكان أصل مذهبه الحز على الصدقة وكان أمره عجبا في إجابة الدعاء بنزول المطر واختصاصه بمكان دون آخر وقال لأصحابه أنا القطب وكان تفقه على أبي عبدالله الفخار ووقفت على قبره وله بركات وأنوار وكان السبتي آية في المناظرة وأوذي باللسان كثيرا جدا فصيح وتجاوز

ورأى عبدالرحمن بن يوسف الحسن بن النبي في النوم فقال له يا رسول الله ما تقول في السبتي قال وكنت سييء الاعتقاد فيه فقال لي بعد أن تبسم هو من السباق قال فقلت بين لي يا رسول الله فقال هو ممن يمر على الصراط كالبرق قال فخرجت بعد الصبح فلقيني أبو العباس فقال لي ما رأيت وما سمعت والله لا تركتك حتى

تعرفني فعرفته فصاح كلمة الصفا من المصطفى انتهى ببعض اختصار وقال ابن الزيات وحدثني أبو العباس الصنهاجي وغيره أن رجلا يعرف بابن الشكاز وكان غنيا فدار عليه الزمان وافترق حدث أنه وصل لأبي العباس السبتي وعليه ثوب خلق تظهر منه عورته فشكا إليه حالته فأخذ بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت فجاء إلى مطهرة هناك قال فدخل أبو العباس المطهرة وتجرد من أثوابه وناداني وقال لي خذ هذه الثياب فأخذتها وكان بعد العصر فأردت أن أرى ما يكون من أمره فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب فإذا بفتى خرج من الباب على دابة معه زرمة ثياب فلما رأيته نزلت إليه فقال لي أين الفقيه أبو العباس فقلت ها هو في الساقية عريان فقال لي أمسك الدابة فسمعت الفقيه يقول له أين تلك الثياب فأخذها منه وخرج فلما رأني قال لي وما لك هنا قلت يا سيدي خفت عليك فلم أقدر على الانصراف وأتركك فقال لي أفترى الذي فعلت ما فعلت له يتركني ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه فذكر له أن إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب وقالت له لا تدفعها إلا للفقيه ولا يلبسها إلا هو وهذه قصة صحيحة مشهورة

وقال ابن الخطيب وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراكش غير حافلة البناء ربما يتبرع متبرع باحتفالها فلا تساعده الأقدار وزرتها وربما شاهدت في داخلها أشياخا من أهل التعفف والتصوف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمت الله تعالى عليها لكثرة زائريها فيقتحم ذو الحاجة بابها خالعا نعله مستحضرا نيته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته ويعين بين يدي النجوى صدقة

على قبره ويدسها في أواني في القبر معدة لذلك ومن عجز عن النقدين تصدق بالطعام ونحوه فإذا خف الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرقه على المحاويج الحافين بالروضة ويحصون كل عشية ويعمهم الرزق المودع فيها وإن قصر عنهم كملوه في غده

قال ابن الخطيب لسان الدين وترافع خدام الروضة لقاضي البلد وتخاصموا في أمر ذاك الرزق المودع هناك فسألهم القاضي عن خرجه اليوم فقالوا يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهباً عينا وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها فروضة هذا الولي ديوان الله تعالى في المغرب لا يحصى دخله ولا تحصر جبايته فالتبر يسيل واللجين يفيض وذو الحاجة كالطير تغدو خماصاً وترجع بطانا يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

قال وأنا ممن جرب المنقول عن القبر فاطرد القياس وتريفت الشبهة وتعرفت من بدء زيارته ما تحققت من بركنه وشهد على برهان دعوته انتهى وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلي في كتابه التشوف إلى رجال التصوف كان أبو العباس جميل الصورة أبيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان مقتدراً على الكلام حليماً صبوراً يحسن إلى من يؤذيه ويحلم على من يسفه عليه رحيماً عطوفاً محسناً إلى اليتامى والأرامل يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق ويحض على الصدقة ويذكر في فضلها آيات وأحاديث ويأخذها ويفرقها على المساكين ويرد أصول الشرع إلى الصدقة ويفسرهما بها ويقول معنى قول المصلي الله أكبر أي من أن نضن عليه بشيء فمن رأى شيئاً من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يحرم ولا كبر ومعنى رفع اليدين للتكبير تخليت من كل شيء لا قليلاً ولا كثيراً وهكذا يتكلم بنحو هذا في جميع العبادات ويقول سر الصوم أن تجوع فإذا جعت تذكرت الجائع وما يقاسيه من نار الجوع فتصدق عليه فمن صام ولم يعطف على الجائع فكأنه لم يصم إلى غير ذلك من كلامه في مثل هذا

وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة ويقول له تصدق ويتفق لك ما تريده وأخبره في ذلك كثيرة عجيبة قال التادلي وحدثني ولده الفقيه أبو عبد الله عن أبيه أنه قال كان ابتداء أمري وأنا صغير أنني سمعت كلام الناس في التوكل ففكرت في حقيقته فرأيت أنه لا يصح إلا بترك شيء ولم يكن عندي منه بد فتركت الأسباب وأطرحت العلائق ولم تتعلق بنفسي بمخلوق فخرجت سائحاً متوكلاً وسرت نهارياً كله فأجهدني الجوع والتعب وقد نشأت في رفاهية من العيش وما مشيت قط على قدمي فبلغت قرية فيها مسجد فتوضأت ودخلت المسجد فصليت المغرب ثم العشاء وخرج الناس فقامت لأصلي فلم أقدر من شدة الجوع والتألم بالمشي فصليت ركعتين وجلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل فإذا قارع يقرع الباب بعنف فاستجاب له صاحب الدار فقال له هل رأيت يقرتي فقال لا فقال إنها ضلت وقد أكثر عجلها من الحنين فطلبتها فلم نجدها في القرية فقال أحدهم لعلها دخلت في المسجد وقت العتمة ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدوني فقال صاحب البقرة ما أظنك أكلت الليلة شيئاً فذهب وجاءني بكسرة خبز وقدح لبن ثم ذهب ليأتيني بالماء فوجد بقرفته في داخل الدار فخرج لجيرانه وقال لهم ما زالت البقرة من الدار وما كان خروجي إلا لهذا الفتى الجائع في المسجد ثم رغبتني أن أمشي معه لمنزله فأبيت وكان في أول أمره يسكن في الفندق ويعلم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك وينفقها على طلبة العلم الغرباء ويمشي في الأسواق ويذكر الناس ويضربهم على ترك الصلاة ويأتي بالطعام على رأسه

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالذاكرة فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق فقام إليهم القيم بخدمته فقالوا له ما تعلمون أن من رفع صوته بالليل يقتل ثم قعد اثنان من الحرس علي باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للوالي فجاء القيم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم وأيقنا بالهلاك فأخذ أبو العباس في الضحك ولا يبالي ثم خلا بنفسه عند السحر ساعة ثم قال لنا لا خوف عليكم قد استوهبتكم من الله تعالى وهذان الحرسيان الوقفان غدا يقتلان إن شاء الله تعالى فقبل له الجزء عندك على الأفعال من الخير والشر وهما لم يفعلوا ما يوجب قتلهما بل جزأوهما يروعان كما روعانا فقال العلماء ورثة الأنبياء وترويعكم عظيم لا يقابله منهم إلا القتل فما زلنا نعارضه في ذلك حتى قال عقوبتهما أن يضرب كل واحد منهما مائة سوط ثم اجتاز عبد الله الخراز صاحب الوقت بالجامع الأعظم فوجد حانوته مفتوحاً ورأي الحرسيين على قرب فلم يشك أنهما حلاه فحملاً إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر فقال لنا أبو العباس احضروا على ضربهما كما أرادا قتلكم فتبعناهما وحضرنا حتى ضرب كل واحد مائة سوط

وكراماته ومناقبه كثيرة لا تحصى
وكان يقول أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان وأصل الشر فيهما البخل قال الله تعالى " فأما من
ثم "أعطى " وقال عن إبليس
لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم " وقال " ومنهم من عاهد الله " وقال " ويؤثرون على أنفسهم
ولو كان بهم خصاصة " وقال " إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة " وقال " وسارعوا إلي مغفرة من
ربكم " وقال " ليس البر أن تولوا وجوهكم " وقال " إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض " فهذه
الأمانة هي الرزق فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر والأرض ما فيها من الماء النازل من
الجبال والجبال ما فيها كذلك وأنبئت الأرض وأبت إمساكها فخرن الإنسان جميعها عنده ومنع
المساكين إنه كان ظلوما جهولا وفي الحديث هم الأقلون ورب الكعبة إلا من قال هكذا وهكذا
الحديث ولما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه دعا عليهم موسى بالبخل فقال " ربنا إنك أتيت
فرعون إلى قوله دعوتكما " وكان رضي الله عنه في آخر عمره كثيرا ما يقرأ هذه الآية " أفرأيت الذي
تولى إلى قوله سوف يرى " وكان يقول من قال إن الله تعالى لا يجازي على الصدقات فقد وافق
اليهود في الغيبة على الله تعالى لأنهم قالوا " يد الله مغلولة غلت أيديهم " أي لا يجازي على
الصدقات قال الله تعالى " غلت أيديهم إلى آخره " أي يجازي على العطاء كيف شاء كان يقول في
قوله تعالى " والذين يكنزون الذهب والفضة الآية " إنما كويت هذه المواضع لأن الغني يعرض عن
المسكين بوجهه ثم بجنبه ثم بظهره فعوقبت هذه المواضع بالكى بالنار لإعراضه عن الفقير
ومنازعه رحمه الله تعالى في أمثال هذا كثيرة انتهى ملخصا
وحدث أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعمر أنه دخل صحبة الشيخ سيدي أبي العباس السبتي إلى
الأمير السيد أبي سعيد عثمان يعوده فقال له ادع الله
تعالى لي أيها الشيخ فقال له ارجع إلى الله تعالى حق الرجوع بحيث تتحقق أنه الممرض
والمعافي واخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس لتكون ممن وقى شح نفسه
فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء ثم التفت إلى الحاضرين وقال في المرض فوائد لا ينبغي أن
تجهل الأولى معرفة قدر العافية الثانية تمحيص بعض الذنوب الثالثة توقع الثواب الرابعة تنقية
الجسم من فضول الأخلاط الخامسة كثرة ذكر الله تعالى والتضرع إليه السادسة حدوث الرقة
والشفقة السابعة وهي العظمى الصدقة والخروج عن رذيلة البخل انتهى وحدث الكاتب أبو القاسم
ابن رضوان عن أبي بكر ابن منظور عن بعض أعيان مراکش أنه توفي وأوصى ابنا له كان من أهل
البطالة أن يعمد إلى ألف دينار من متخلفه فيدفعها للشيخ سيدي أبي العباس السبتي ففعل وقال
للشيخ إن أبي توفي وأوصاني أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيث شئت فقال له الشيخ قد
قبلتها وصرفتها إليك فقال له يا سيدي وما تأمرني أن أفعل بها قال خذها قال فانصرفت من عنده
وسؤت ظنا بقوله ثم قلت وأنا أنفق مثل ذلك على عاداتي في الوجه الذي يلذ لي فلأفعلن بها ما
أفعل بغيرها فأخذتها في محفظة وخرجت أتمس الزنى فإذا امرأة على دابة وغلالم يقودها فاشرت
إلى الغلام فقال لي نعم واتبعني إلى بستان لي فنزلت المرأة فأدخلتها إلى قبة كانت في
البستان وأخذ الغلام الدابة وصار ناحية وقال أغلق الباب ففعلت ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة
تكي بكاء شديدا حتى طال بكائها ويكيت ليكائها فقلت لها ما شأنك فقالت أفعل ما دعوتني
لأجله ودع عنك هذا ونحببها يزيد فقلت لها إن المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء بل مع
الأنس وانشرح الصدر وزوال الانقباض ورفع الخجل فقالت نترك البكاء وارجع للأنس على ما تحب
ويوفى غرضك فقلت لا حتى أعلم سبب بكائك وألححت عليها فقالت أتعرف حاجب الملك الذي
سجنه قلت نعم قالت فأنا ابنته

ولم يبق له أحد غيري وقد سجنه الملك وأخذ أمواله فما زلت أبيع ما ترك أبي وأنفقه عليه حتى لم
يبق بيدي شيء فلما أعييتني الحيلة فيما أنفقه ألجأت نفسي ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى
لي أحد وجها قط فرميت لها بالألف دينار وقلت لها والله لا قربت منك على هذا الوجه أبدا فأنفقي
الدنانير على والدك إلى أن تنفذ وإبعثي لي غلامك أعلمه بمنزلي ولازمي دارك واستمري على
صيانتك وإلا فضحتك وتريني والله لا أزال أبيع أملاكك وأنفقها على والدك حتى أموت أو يغنى كل ما
أملكه ثم خرجت أتمس الغلام وإذا بجماعة يطلبون البنت وقالوا إن الملك رضي عن والدها ورد
عليه ضياعه وأملاكه ووصله بعشرة آلاف دينار وقعد يلتمس بنته فلم توجد فسقط في يد الغلام
الذي كان مع الدابة ووطن أن الأمر على ما جرى بيني وبين البنت فبادرته وقلت له لا عليك فتجاهل
في خبرها حتى ينصرفوا ودخلت إلى البنت وقلت لها إن الملك قد رضي عن والدك ورد عليه ماله
ووصله فسيري إلى دارك فركبت دابتها وانصرفت فدخلت على والدها فقال لها أين كنت وما الذي

أخرجك عن دارك وهم بها فقالت له أخرج عني كل من في الدار ففعل فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره ورمت إليه بالألف دينار وقالت له هذا الذي أعطاني لأنفق عليك فقال أبوها هذا والله هو الكبريت الأحمر والله لو كان أبوه كنافا ما أنفت أن أزوجك منه فوجه العبد الذي كان معها إلى الشاب وقال له إن سيدي يدعوك قال فخفت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه ثم أقدمت إقدام من علم براءة نفسه فدخلت عليه فقام إلي وعانقني وقد عرف لي مقامي وقال أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قرت بك عيني وقال والله لو كان أبوك كنافا ما أنفت لبنتي أن أزوجك منها فما قام من المجلس حتى وجه إلى العدول وأشهد على نفسه بأنه زوج ابنته فلانة من هذا الشاب ونقدها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التي وصله بها الملك وأجل لها عنه الشطر الثاني وأهدى لها من الحلوى كذا وكذا ومن الثياب كذا وكذا حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك فحصل من إشارة الشيخ السبتي رضي الله عنه في تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال وظفر بنت حاجب الملك انتهى

رجع إلى ابن زمرك رحمه الله تعالى

قال الشاطبي في الإشارات والإفادات ما صورته إفادة أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيباه إلى وطنه من رحلة العدو في علم البيان فوائده أذكر منها الآن ثلاثا الفقه في اللغة وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ومن مثل هذا الوجه قرم وعام إذا اشتهى لكن لا يستعمل قرم إلا مع اللحم ولا يستعمل عام إلا مع اللبن فتقول عمت إلى اللبن وكذلك قولهم أصفر فافع وأحمر قان ولا يقال بالعكس وهذا كثير والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتدال فلا يستدل بالحواشي من اللغات ولا المستدل في السن العامة والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه والإتيان بما يحصله سريعا ويمكنه في الذهن وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتعرض السامع على الاستماع وأخبرني أن كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ويذمون ما عداها من طريقة المولدين وأنها خارجة عن الفصاحة وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها وذكر من شرح بديعية الحلبي من المغاربة وهو الشيخ النحوي عبيد الثعالبي في شواهد حسن الختام أن منه ختام قصيدة للكاتب البارع أبي عبد الله المعروف بابن زمرك الأندلسي مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولا من صاحب الأندلس وهو قوله

" ولو أنشدت بين العذيب وبارق ... لقال رواة الغرب يا حبذا الشرق "

ولم يظهر لي كل الظهور دلالته لي على حسن الختام ولا بد فالله سبحانه أعلم وقد أطلنا في ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية تضمنت مدح المصطفى وهي هذه

" لو ترجع الأيام بعد الذهاب ... لم تقدح الأيام ذكرى حبيب "

" وكل من نام بليل الشباب ... يوقظه الدهر بصبح المشيب "

" يا راكب العجز ألا نهضة ... قد ضيق الدهر عليك المجال "

" لا تحسبن أن الصبا روضة ... تنام فيها تحت فيء الظلال "

" فالعيش نوم والردى يقظة ... والمرء ما بينهما كالخيال "

" والعمر قد مر كمر السحاب ... والملتقى بالله عما قريب "

" وأنت مخدوع بلمع السراب ... تحسبه ماء ولا تستريب "

" والله ما الكون بما قد حوى ... إلا ظلال توهم الغافلا "

" وعادة الظل إذا ما استوى ... تبصره منتقلا زائلا "

" إنا إلى الله عبيد الهوى ... لم نعرف الحق ولا الباطلا "

" فكل من يرجو سوى الله خاب ... وإنما الفوز لعبد منيب "

" يستقبل الرجعى بصدق المتاب ... ويرقب الله الشهيد القريب "

" يا حسرتا مر الصبا وانقضى ... وأقبل الشيب يقص الأثر "

" واخجلنا والرحيل قد قوضا ... وما بقي في الخبر غير الخبر "

" وليتني لو كنت فيما مضى ... أدخر الزاد لطول السفر "

" قد حان من ركب التصابي إياب ... ورائد الرشد أطال المغيب "

" يا أكمه القلب بغين الحجاب ... كم ذا أناديك فلا تستجيب "

" هل يحمل الزاد لدار الكريم ... والمصطفى الهادي شفيع مطاع "
 " فجاهه ذخر الفقير العديم ... وحبه زادي ونعم المتاع "
 " والله سماه الرؤوف الرحيم ... فجاره المكفول ما إن يضاع "
 " عسى شفيع الناس يوم الحساب ... وملجأ الخلق لرفع الكروب "
 " يلحقني منه قبول مجاب ... يشفع لي في موبقات الذنوب "
 " يا مصطفى والخلق رهن العدم ... والكون لم يفتق كمام الوجود "
 " مزية أعطيتها في القدم ... بها علي كل نبي تسود "
 " مولدك المرفوم لما نجم ... أنجز للأمة وعد السعود "
 " ناديت لو يسمح لي بالجواب ... شهر ربيع يا ربيع القلوب "
 " أطلعت للهدى بغير احتجاب ... شمسا ولكن ما لها من غروب "

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا - 2
 وشرحه عليها من أبداع الشروح وقد نقل عن لسان الدين
 كثيرا واعتمد عليه في أمور الطب وقد طال عهدي به الآن وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ولم
 أره بهذه الديار المشرقية

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر ابن جزى - 3
 الكلبي وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزى شيخ لسان الدين وبيت بني جزى بيت كبير مشهور
 بالمغرب والأندلس وقد عرفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناظمين الناشرين
 الكاتب أبي عبدالله محمد والقاضي أبي بكر المذكور فليراجع في الباب الثالث
 ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله
 تعالى جميع تواليفه مع أنه مقاربه في السن ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معدوم وقد عرف
 به لسان الدين في الإحاطة والذي فهمت من عبارته في الإحاطة أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها
 غالبا إلا على تلامذته وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه رحمه الله
 تعالى وأتقن تاريخ أهل المغرب والأندلس رحم الله تعالى الجميع

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنة رسول الله - 4
 عبد الله الشريشي وهو الذي تولي أولا نقل الإحاطة من مبيضتها كما سبقت الإشارة إليه في
 كلام حفيد السلطان ابن الأحمر وأحكم النسخة فكانت في مجلدات ستة وكان لسان الدين ألقى
 إليه بالمبيضات اعتمادا منه عليه وثقة به لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة

ومن تلامذة لسان الدين القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبدالله بن طلحة بن - 5
 أحمد بن عبدالرحمن بن غالب بن عطية المحاربي
 قال في الإحاطة صاحبنا الفقيه الخطيب كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد نسيح وحده في
 اصالة البيت وعفاف النشأة مقصود المنزل نبيه الصهر معم مخول في الأصالة بارع الخط جيد
 القريحة سيال المداد نشيط البنان جلد على العمل خطيب ناظم نائر قرأ بغرناطة وولي الخطابة
 بالمساجد الأعظم والقضاء سنتين ببلده في حدائث السن ثم انتقل إلى غرناطة فجاءت به الكتابة
 السلطانية داحضة بالحق أوته إلى هضبة أمانة مستظهرة بطل كفاية فاستقل رئيسا في غرض
 إعانتني وانتشالي من هفوة الكلفة على جلال الضعيف والمأم المرض ثم كشفت الخبرة منه عند
 الحادثة على الدولة وإزعاجها من الأندلس عن سواة لا توارى وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا
 يتمارى فسبحان من علم النفس فجورها وتقواها إذ لصق بالدائل الفاسق فكان آلة انتقامه وجارحة
 صيده وأحولة كيده فسفك الدماء وهتك الأستار ومزق الأسباب وبدل الأرض غير الأرض وهو يزقه
 في أذنه زقوم النصيحة وينحله لقب الهداية ويبلغ في شد أزره إلى الغاية عنوان عقل الفتى
 اختياره يجري في سبيل دعوته طوالا أخرج يسيء السمع فيسيء الإجابة بدويا قحا جهوريا ذاهلا
 عن عواقب الدنيا والآخرة طرفا في سوء العهد وقلة الوفاء مردودا في الحافرة منسلخا من آية
 السعادة تشهد عليه بالجهل يده ويقم عليه الحجج شرهه وتبوئه هفوات الندم جهالته ثم أسلم
 المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه وتبرا منه ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطا وهو الآن
 بحال خزي واحتقاب تبعات واستدعيت شيئا من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به فكتب إلي ما
 نصه

" يا سيدا فاق في مجد وفي شرف ... وفات سيقا بفضل الذات والسلف "
 " وفاضلا عن سبيل الذم منحرفا ... وعن سبيل المعالي غير منحرف "
 " وتحفة الزمن الآتي به فلقد ... ربا بما حازه منها على التحف "

" ومعدنا لنفيس الدر فهو لما ... حواه منه لدى التشبيه كالصدف "

" وبحر علم جميع الناس مغترف ... منه ونيل المعالي خير مؤتلف "

" وسابقا بذ أهل العصر قاطبة ... فالكل في ذاك منهم غير مختلف "

" من ذا يخالف في نار على علم ... أو يجحد الشمس نورا وهو غير خفي "

" ما أنت إلا وحيد العصر في شيم ... وفي ذكاء وفي علم وفي ظرف "

" لله من منتم للمجد منتسب ... بالفضل متسم بالعلم متصف "

" لله من حسب عد ومن كرم ... قد شاده السلف الأختيار للخلف "

" إيه أيا من به تباى الوزارة إذ ... كنت الأحق بها في الذات والشرف "

" يا صاحب القلم الأعلى الذي جمعت ... فيه المعالي فبعض البعض لم أصف "

" يا من يقصر وصفي في علاه ومن ... أنسى مديح حبيب في أبي دلف "

" شرفنتني عندما استدعيت من نظمي ... نظما تدونه في أبدع الصحف "

" وربما راق نغر في تبسمه ... حتى إذا ناله الإمام مرتشف "

" أجل قدرك أن ترصي لمنتجع ... بسوء كيلته حطا مع الحشف "

" هذا ولو أنني فيما أتيت به ... نافحت بالطيب زهر الروضة الأنف "

" لكنت أفصي إلى التقصير من خجل ... إذ لست بالبعض مما تستحق أفي "

" فحسبي العجز عما قد أشرت به ... فالعجز حتما قصارى كل معترف "

" لكن أجبت إلى المطلوب ممتثلا ... وإن غدوت بمرمى القوم كالهدف "

" فانظر إليها بعين الصفح عن زلل ... واجعل تصفحها من جملة الكلف "

" بقيت للدهر تطويه وتنشره ... تسمو من العز باسم غير منصرف "

ثم ذكر نثرا وأن مولده بوادي آش آخر عام تسعة وسبعمائة وتولى الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستة وخمسين وسبعمائة ومن شعره

قوله

" ألا أيها الليل البطيء الكواكب ... متى ينجلي صبح بليل المآرب "

" وحتى متى أرعى النجوم مراقبا ... فمن طالع منها علي إثر غارب "

" أحدث نفسي أن أرى الركب سائرا ... وذنبي يقصيني بأقصى المغارب "

" فلا فزت من نيل الأمانى بطائل ... ولا فمت في حق الحبيب بواجب "

" فكم حدثتني النفس أن أبلغ المنى ... وكم عللتني بالأمانى الكواذب "

" وما قصرت بي عن زيارة قبره ... معاهد أنس من وصال الكواعب "

" ولا حب أوطان نبت بي ربوعها ... ولا ذكر خل حل فيها وصاحب "

" ولكن ذنوب أثقلتني فها أنا ... من الوجد قد ضاقت علي مذاهبي "

" إليك رسول الله شوقي مجددا ... فيا ليتني يممت صدر الركائب "

" فأعملت في تلك الأباطح والرى ... سراي مجدا بين تلك السياسب "

" وقضيت من لثم البقيع لبانتني ... وحببت الغلا ما بين ماش وراكب "

" ورويت من ماء بززم غلتي ... فله ما أشهاه يوما لشارب "

" حبيبي شفيعي منتهى غايتي التي ... أرجي ومن يرجوه ليس بخائب "

" محمد المختار والحاشر الذي ... بأحمد حاز المجد من كل جانب "

" رؤوف رحيم خصنا الله باسمه ... وأعظم بماح في الثناء وعاقب "

" رسول كريم رفع الله قدره ... وأعلى له قدرا رفيع الجوانب "

" وشرفه أصلا وفرعا ومحتدا ... يزاخم آفاق السما بالكواكب "

" سراج الهدى ذو الجاه والمجد والعلا ... وخير الورى الهادي الكريم المناسب "

" هو المصطفى المختار من آل هاشم ... وذو الحسب العد الرفيع المناصب "

" هو الأمد الأقصى هو الملجأ الذي ... ينال به مرغويه كل راغب "

" إمام النبيين الكرام وإنه ... لكالبدر فيهم بين تلك المواكب "

" بشير نذير مفضل متطول ... سراج منير بذ نور الكواكب "

" شريف منيف باهر الفضل كامل ... نفيس المعالي والحلى والمناقب "

" عظيم المزاي ما له من مماثل ... كريم السجاي ما له من مناسب "

" ملاذ منيع ملجأ عاصم لمن ... يلوذ به من بين أت وذاهب "

" جليل جميل الخلق والخلق ما له ... نظير ووصف الله حجة غالب "

" وناهيك من فرع نمته أصوله ... إلى خير مجد من لؤي بن غالب "

" أولي الحسب العد الرفيع جنباه ... بدور الدياجي أو صدور الكتاب "

" له معجزات ما لها من معارض ... وآيات صدق ما لها من مغالب "

" تحدى بهن الخلق شرقا ومغربا ... وما ذاك عمن حاد عنها بغائب "

" فدونها كالأنجم الشهب عدة ... ونور سنا لا يختفي للمراقب "

" وإحصاؤها مهما تتبعت معوز ... وهو بعد نور الشمس نور لطالب "

" لقد شرف الله الوجود بمرسل ... له في مقام الرسل أعلى المراتب "

" وشرف شهرا فيه مولده الذي ... جلا نوره الأسنى دياجي الغياهب "

" فشهري ربيع في الشهور مقدم ... فلا غرو أن الفخر ضربة لازب "

" فله منه ليلة قد تلالأت ... بنور شهاب بين الأفق شهاب "

" ليهن أمير المسلمين بها المنى ... وأن نال من مولاه أسنى الرغائب "

" على حين أحيائها بذكر حبيبه ... وذكر الكرام الطاهرين الأطايب "

" وألف شملا للمجيبين فيهم ... فسار على نهج من الرشد لاحب "

" فسوف يجازي عن كريم صنيعه ... بنخيليد سلطان وحسن عواقب "

" وسوف يريه الله في نصر دينه ... غرائب صنع فوق تلك الغرائب "

" فيحمي حمى الإسلام عمن يرومه ... بسمر العوالي أو بيض القواضب "

" ويعتز دين الله شرقا ومغربا ... بما سوف يبقى ذكره في العجائب "

" إلهي ما لي بعد رحماك مطلب ... أراه بعين الرشد أسنى المطالب "

" سوى زورة القبر الشريف وإنه ... لموهبة فاقت جميع المواهب "

" عليه سلام الله ما لاح كوكب ... وما رافق الأظعان حادي الركائب "

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر والكتابة وغير هذا الشعر قران فقل أن ينتهي هذا الشعر في الضعة والاستبدال إلى ما دون هذا النمط فهو بغير ثان شعرا وشكلا وبلدا لطف الله تعالى بنا وبه انتهى باختصار

ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ومن - 6

نظمه على لسان من يرمى بالداء العضال في فرج عبد ابن زمرك الوزير بعد ابن الخطيب

" قالوا كلفت به غلاما حالكا ... فأجبتهم في فيه ما يرضي المهج "

" مهما جنت بحسنه ويحبه ... علقته فوقه منه حرزا من سيج "

ورأيت بخط الوادي أشي ما صورته وجدت بخط لسان الدين وخاتمة أعلام البيان المجيد ذي

الوزارتين أبي عبدالله ابن الخطيب رحمه الله تعالى في طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن

فركون المختص به المتأدب بما انفرد به من انتساح تواليف ابن الخطيب ما نصه يسقط هذا الساقط

من الديوان انتهى

ولعل لسان الدين إنما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يتهم به من معنى بيتيه السابقين ويحتمل أن

يكون لغير ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم

الباب الثامن

في ذكر أولاده

الرافلين في حلل الجلالة المقتفين أوصافه الحميدة وخلال الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد

عن غير كلاله ووصيته لهم الجامعة لأداب الدين والدنيا المشتملة على النصائح الكافية والحكم

الشافية من كل مرض بلا ثنيا المنقذة من أنواع الضلالة وما يقع في ذلك من المناسبات القوية

والأمجاد النبوية التي لها على حسن الختام أظهر دلالة

اعلم وفقني الله تعالى وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يعتبر بالدهر في معضاته أن أولاد لسان الدين

ثلاثة عبدالله ومحمد وعلي وكلهم حدث عن أبيه وعن ابن الجياب

أما محمد فقد نال حظه من التصوف ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوف ولم يحضرنى الآن نص

من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مظان ذلك إذ قد تركتها بالمغرب

وقد سبق فيما مر من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من ندماء السلطان وأهل خلوته

وأن عليا كان خالصة السلطان رحم الله تعالى الجميع

وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين لملوك الحضرتين وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه

مدبر الدولة وأكثر الناس بها كالخواص

حوله ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه وقد ألم ببعض التعريف بمبدأ أحواله أبوه لسان الدين في كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة فقال في حقه ما ملخصه عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني حسن الشكل جيد الفهم يغطي منه رماد السكون جمرة حركة منقبض عن الناس قليل البشاشة حسن الخط وسط النظم كتب عن الأمراء بالمغرب وأنشدهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات والإحسان واختال في خلعهم ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة قرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسن بن الخطيب أبي سعيد فرج بن لب التغلبي واستنظر بعض المبادئ في العربية واستجيز له من أدركه ميلاده من أهل المشرق والمغرب وشعره مترفع عن الوسط إلى الإجابة يكلله عذر الحدأة فمنه قوله في مولد أربعة وستين وسبعمائة

" بحق الهوى يا حداة الحمول ... قفوها قليلا بتلك الطلول "

" معاهد مرت عليها السحاب ... ببرق خفوق ودمع همول "

" أحن إليها حنين العشار ... وأبكي عليها بشجو طويل "

" فيا سعد عرج عليها الركاب ... ففيها لقلبي شفاء الغليل "

" سقاها من المزن صوب الغمام ... وحيأ يعرف النسيم العليل "

" ولا زال فيها يجر الذبول ... فيحيي النفوس بجر الذبول "

" لئن حلت يا ربيع عن عهدنا ... فعهد الهوى ليس بالمستحيل "

" ومما شجاني وميض خفوق ... كقلبي غداة النوى والرحيل "

" وميض إذا سله المزن وهنا ... يضئ سناه كعضب صقيل "

" أطار الفؤاد فؤاد المشوق ... وأغرى السهاد بطرف كليل "

" فبت أطاول ليل التمام ... بوجد جديد وصبر محيل "

" ودمع يساجل دمع الغمام ... وشجو الحمام عند الهديل "

" فيا ليت شعري وهل من سبيل ... على الوجد يوما بصر جميل "

" وهل يسمح الدهر بعد العناد ... بجبر الكسير وعز الذليل "

" وهل راجع عهدنا بالحمى ... على رغم دهر ظلوم جهول "

" فيا حسن ماوى عزاء جميل ... ويا طيب ماوى بظل ظليل "

" وفي ذمة الله ركب سروا ... يجدون والليل مرخى السدول "

" نشاوى بكأسين كأس الهوى ... وكأس من الأمن مثل الشمول "

" يؤمون بالعيس أم القرى ... وقبر النبي الشفيق الرسول "

" ديار بها الوحي وحي السما ... تنزل أكرم به من نزول "

" بها أشرق الدين كالشمس نورا ... وأن من الشرك وقت الأفول "

" فيا حادي العيس يطوي الفلا ... بوخذ القلاص ونص الذميل "

" سفائن آل طواها السرى ... وشق الحزون وقطع السهول "

" نشدتك بالبان بان الحمى ... وبالمورد العذب والسلسبيل "

" إذا ما حللت لدى طيبة ... وجئت محل الرضى والقبول "

" وقبرا ثوى فيه خير الورى ... وبشرى الكليم وفخر الخليل "

" فأبلغ تحية صب مشوق ... عدته عوادي الزمان الخذول "

" وقل يا رسول الهدى والشفيق ... إذا ضاق صدر أب عن سليل "

" عليك الصلاة وطيب السلام ... يحييك عند الضحى والأصيل "

" نبي كريم رؤوف رحيم ... بنص الكتاب وحكم العقول "

" إمام الهدى المجتبي المصطفى ... بأزكى شهيد وأهدى دليل "

" به أظهر الله دين الهدى ... وعلم كيف سواء السبيل "

" وقام بأعباء دين الإله ... أتم القيام بفعل وقيل "

" فأكرم بليلة ميلاده ... على كل وقت وعصر وجيل "

" لك الله من ليلة فضلها ... يجر على النجم فضل الذبول "

" وأيد بالنصر مولى أقام ... مواسمها فعل بر وصول "

" أعاد بها الليل مثل النهار ... بوجه كريم وفعل جميل "

" وأبدى الرضى نحوها والقبول ... وأكرم به من حفي كفيل "

" سمي النبي الكريم الرسول ... وسيف الإله العلي الجليل "

" محمد المرتجي المستجار ... مبيد العدا ومنيل الجزيل "

" من النفر الغر أسد الكفاح ... وأهل السماح عشبي النزول "

" تراهم لدى السلم أطواد حلم ... ويوم الكريهة آساد غيل "

" مبيد العداة ومحبي العفاة ... وماوى الغريب ومدني الدخيل "

" فبأس حكي النار عند احتدام ... وجود حكي السحب عند الهمول "

" فيصلني عداه لدى الحرب نارا ... ويروي نداءه زمان المحول "

" إذا فلت البيض يوم الوغى ... فلست ترى عزمه ذا فلول "

" مليك كفيل لمن يرتجيه ... بكل مرام بعيد وسول "

" وفرع كريم حميد الخلال ... نماه إلى المجد طيب الأصول "

" فدام لنا ما سرى في الرياض ... نسيم الصبا ومهب القبول "

" وحن مشوق لأرض الحجاز ... إذا لاح إيماض برق كليل "

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر من مدينة فاس

" لمن طلل بالرقمتين محيل ... عفت دمنتيه شمال وقبول "

" يلوح كباقي الوشم غيره البلى ... وجادت عليه السحب وهي همول "

" فيا سعد مهلا بالركاب لعلنا ... نسائل ربعا فالمحب سؤول "

" قف العيس ننظر نظرة تذهب الأسى ... ويشفى بها بين الضلوع غليل "

" وعرج على الوادي المقدس بالحمى ... فطاب لديه مربع ومقيل "

" فيا حبذا تلك الديار وحبذا ... حديث بها للعاشقين طويل "

" دعوت لها سقي الحمى بعدما سرى ... وميض وعرف للنسيم عليل "

" وأرسلت دمعي للغمام مساجلا ... فسأل على الخدين منه مسيل "

" فأصبح ذاك الربع من بعد محله ... رياضها الغصن المروح يميل "

" لئن حال رسم الدار عما عهدته ... فعهد الهوى في القلب ليس يحول "

" ومما شجاني بعدما سكن الهوى ... بكاء حمامات لهن هديل "

" توسدن فرع البان والنجم مائل ... وقد آن من جيش الظلام رحيل "

" فيا صاحبي دع عنك لومي فإنه ... كلام على سمع المحب ثقيل "

" تقول اصطبارا عن معاهدك الألى ... وهيهات صبري ما إليه سبيل "

" فله عينا من رأني وللأسى ... غداة استقلت بالخليط حمول "

" يطاول ليل التم مني مسهد ... وقد بان عني منزل وخليل "

" فيا ليت شعري هل يعودن ما مضى ... وهل بسمحن الدهر وهو بخيل "

" وهل راجع عهد الحمى سقي الحمى ... وظل بعين الدمع فيه ظليل "

" وأيام أنس كم نعمنا بقرئها ... وقد غاب عنا حاسد وعذول "

" حلفت برب الراقصات إلى منى ... لهن إلى البيت العتيق ذميل "

" لجود أمير المسلمين محمد ... بكل مرام في الزمان كفيل "

" مليك أتاه الله في الملك عزمة ... يروع الأعادي بأسها ويهول "

" هو الملك المنصور والبطل الذي ... يهون عليه الخطب وهو جليل "

" إذا فلت البيض الرفاق وجدته ... أخوا عزمات ما بهن فلول "

" يقصر باع المدح دون صفاته ... ويرجع عنها الفكر وهو كليل "

" من النفر البيض الوجوه لدى الوغى ... لهم غرر وضاحة وحجول "

" هم ما هم والحرب قد شب نارها ... وللخيل في جنح العجاج صهيل "

" إذا سئلوا يوم الندى فنالهم ... تفيض شأبيب له وسيول "

" بهم عز دين الله شرقا ومغربا ... وأصبح دين الكفر وهو ذليل "

" هم السادة الأنصار والعرب الألى ... حمى الدين حي منهم وقبيل "

" لهم يوم بدر والرسول أميرهم ... تصول به أرماحهم وتطول "

" فأصبح أصحاب القليب كأنهم ... كثيب لوطء المرهفات مهيل "

" وقد أمن الإسلام كيد عدوه ... وغودر ربع الكفر وهو محيل "

" وعدوا رواحا للمدينة والرضى ... لهم منه فوز عاجل وقبول "

" فمن ذا يجاري أو يداني عصابة ... جزاؤهم عند الإله جزيل "

" لكم يا بني نصر من المجد هضبة ... تزول الرواسي وهي ليس تزول "

" فيا سيد الأملاك والواحد الذي ... إذا عد فخر ليس عنه عدول "

" لقد قرع الأعداء منك مؤيد ... له الذعر نصر والحسام دليل "

" فلم يدركوا ما أملوا غير ساعة ... كذاك متاع الأخرين قليل "

" تعاوين في باب البنود بسحرة ... كلاب عليهم بعد ذاك عويل "

" أبى الله إلا أن يموتوا بغيظهم ... فويل لهم من مكرهم وأويل "

" فأضحوا حديثا في البلاد ويومهم ... وساء صباح عندهم وأصيل "

" بسعد إمام ينزل العصم سعده ... ويروي نداءه والزمان محول "

" وفرع كمال في الخلافة ثابت ... نمته إلى المجد الزكي أصول "

" حكى وجهه شمس النهار إذا بدا ... ورياه عرف الروض وهو بليل "

" أعاد لنا بالعدل أيامه التي ... عهدنا فدارت للسور شمول "

" فدام لنا ما هب عرف من الصبا ... وأومض برق في الظلام كليل "

" وحن مشوق للحجاز إذا بدت ... لعينيه منه شامة وطفيل "

" وأشرق نجم مثل قلبي خافق ... وحن له عند الغروب أقول "

" ولا زالت الأقدار تجري بأمره ... وصنع إله العرش فيه جميل "

" وقال في إغذار ابن السلطان رحمه الله تعالى ورضي عنه "

" أثرها عزمة تنضي الركاب ... وإن دميت لها العين انسكابا "

" لعل الوجد تطفأ منه نار ... أبت إلا زفيرا والنهبا "

" أما بعد الألى ترجو قلوب ... تسارع نحو أرضهم انقلبا "

" فيا أخوي كفا عن عتابي ... فلست بسامع أبدا عتابا "

" تذكرت العقيق فسأل دمعي ... عقيقا من تذكره مذابا "

" أقول لنسمة مرت صباحا ... يعطر عرفها القفر اليبابا "

" ألا يا هذه كوني رسولي ... وكوني إن رجعت لي الجوابا "

" نشدتك بلغني صحبي سلامي ... إذا جئت المعاهد والقبابا "

" يلومني العواذل في اشتياقي ... إذا ما القلب من وحي تصابي "

" وكم بين الأباطح من مهابة ... تروع بلحظها الأسد الغصابا "

" رمتني ثم قالت وهي تزري ... ولم تحذر بفتكتها العقابا "

" إذا ما الشهب للغرب استمالت ... وفود الليل بالإصباح شابا "

" أوجه إن رقدت إليك طيفي ... كلمع البرق يخترق السحابا "

" فقلت لقد بخلت على مشوق ... أبى إلا غراما واكتئابا "

" وكيف له بنوم بعد وجد ... يذيب لهيبه الصم الصلابا "

" سينصره من الأنصار ملك ... إذا ناداه مظلوم أجابا "

" كريم الذات من ملا كرام ... لقد طابت سجاياهم وطابا "

" تواضع رحمة وعلا محلا ... وسهل منه للناس الحجابا "

" فيلس يصد عن جدواه راج ... وليس يسد عن عافيه بابا "

" له عطف على الراجي جميل ... يفل من الردى ظفرا ونابا "

" وعدل أمن الأرجاء حتى ... ترى الغزلان لا تخشى الذئابا "

" أمولاي الذي أحيا المعالي ... وقد بليت وألحفت الترابا "

" مددت على البلاد جناح عدل ... وكف الجور تستلب استلابا "

" وتاب الدهر مما قد جناه ... فجدت له بعفوك حين تابا "

" وسكن عز دولتك الدواهي فكانت رحمة دفعت عذابا "

" ويا لله إغذار سعيد ... دعوت السعد فيه فاستجابا "

" عجبت لمقدم والروع يهفو ... بأفئدة الكمأة وما استرابا "

" ومن شبل أطاع أخا سلاح ... وحكمه اصطبارا واحتسابا "

" وهل عذر لعاذر ليث غاب ... أظن فؤاده والعقل غابا "

" فلولا سنة حكمت وهدى ... أصبت وقد سلكت به الصوابا "

" لحامت عصبة الأنصار عنه ... بأسياف تقد بها الرقابا "

" من الصيد الذين لهم نفوس ... لغير الفخر لا تصل الطلابا "

" تنير الليل أوجههم إذا ما ... أرادوا السير أو حثوا الركابا "

" دعوت به الأنام ليوم حشر ... ولم تذخر لهم إلا الثوابا "

" رأوا من زخرف الدنيا مقاما ... يذكر بالجنان لمن أنابا "

" وأبهتهم فما عاطوا حديثا ... ولا عرفوا السؤال ولا الجوابا "

" ولو مكثوا به دهرا طويلا ... لما ذكروا الطعام ولا الشرابا "

" وطاردت الصوار بكل ضار ... كما أتبع عفرتها شهابا "

" ضربت به على الأذان منها ... فلم تسطع حراكا واضطرابا "

" ومعصوب الجبين بتاج روق ... يروع خواره الأسد الغضابا "

" تعرف أن تحت الأرض ثورا ... فرام بأن يشق له الترابا "

" وكلت به هضم الكشح أجنى ... حديد الناب تحسبها حرابا "

" تباعد مجمع الشدقين منه ... وسال الموت بينهما لعابا "

" فأثبته كوحى الطرف حتى ... توثق منه جازره غلابا "

" وصاح به الصوار وقد رآه ... حبيس الكلب قدمع الإيابا "

" فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا "

" وأرسلت الجياد إلى استباق ... كأن بوارقا شقت سحابا "

" فمن ورد أقب ومن كميت ... واشهب يلهب الأرض التهابا "

" وساقية العماد إذا أطلت ... إلى الأدواح تنساب انسيابا "

" تحوم بها العصي فراش ليل ... تروم بسمعه منه اقترابا "

" تحف بها خيول القوم منا ... فترسل نحوها الجرد العرابا "

" عجائب أبدعت عليك فيها ... ومثلك بيدع الأمر العجابا "

" محمد لا عدمت الدهر حمدا ... فقد أحسنت في الملك المنابا "

" وزكى نفسك الرحمن لما ... رآك ملكك للمجد النصابا "

" تداركت البلاد ومن عليها ... فأمنت التنائف والشعابا "

" لقد أوليتنا بيض الأيادي ... لقد طوقتنا المنن الرغابا "

" روت عنك العوالي في المعالي ... حديث الفخر حقا لا انتسابا "

" ستفتح من بلاد الشرك أرضا ... قد اعتقلت عقائلها اغتصابا "

" وتعمل في العدا بيض المواضي ... إلى أن ينكر السيف القرابا "

" فما كأس من الصهباء صرف ... تعيد الشيخ من طرب شبابا "

" وطاف بها من الرهبان بدر ... يهتك من دجى الليل الحجابا "

" تجد الأنس عودا بعد بدء ... وريع الهم تتركه خرابا "

" بأعذب من ثنائك حين يطوي ... به الركب الأباطح والهضابا "

" أمولاي استمعها بنت فكر ... تخيرها فأبرزها لبابا "

" وغاص على فرائدها الغوالي "

" وشق على نفائسها العبابا "

" وهناك الإله بكل نعمى ... تقود لك الأمانى الصعابا "

" ودمت لعزة الإسلام ركنا ... إلى أن يشمل الشيب الغرابا "

وقال وقد أنشدها السلطان ليلة الميلاد عام خمسة وستين وسبعمائة

" نفس الصبا أهدى إلي نسима ... قد رام ممتنعا ورام عظيما "

" يا هل يبلغني السرى خير الورى ... فأرى معاهد للهوى ورسوما "

" وأسابق الركبان فوق نجبية ... تغري من البيد العراض أديما "

" وأحط رحلي في كريم جواره ... أرجو نعيما في الجنان مقيما "

" حتى إذا بلغوا الذي قد أملوا ... ورأوا مقاما بالرضى موسوما "

" وتزاحموا في الترب يستلمونه ... رأيت في الورد الظماء الهيما "

" قبلت ذاك الترب من شوقي إلى ... من حله وأقمت فيه لزيما "

" وبكيت من دمع الماقي زمزما ... وتركت جسمي كالحطيم حطیما "

" صلى عليه الله ما هبت صبا ... تهدي من الطيب الزكي شميما "

" لله مولده الذي أنواره ... صدعت ظلما للضلال بهيما "

" شرعت من التأيد سيف هداية ... أردت طباه فارسا والروما "

" كسر الأكاسر بالعراء ولم يدع ... أن رد قيصر مهزوما "

" لله منها ليلة اضحى بها ... شمل الهدى لأولي الهدى منظوما "
 " أبدا أمير المسلمين أعدها ... بدعا من القصر الكريم جسيما "
 " ملك أقام الله منه لخلقه ... مولى رؤوفا بالعباد رحيفا "
 " يحمي ذمار المسلمين من الردى ... ويبيح ربعا للعدا وحرما "
 " بمحمد قد عاد دين محمد ... غض الرياض وكان قبل هشيما "
 " أحيا به الله الخلافة بعدما ... كانت بأطباق التراب رميما "
 " من آل سعد الخزرج بن عبادة ... طابوا فروعا في العلا وأروما "
 " تلقاه في يوم الكريهة والوعى ... والخيل عابسة أغر وسيما "
 " وتخال كفيه إذا شح الحيا ... أفقا بعامية الغيوث غيوما "
 " تأبى خلال العدل والشيم العلا ... من أن يرى في دهره مظلوما "
 " كهف العباد وفخرها وثناؤه "
 " ترك المديح على الطروس رقيما "
 " لا زال يلقي العيش طلقا والعلا ... مرقى وصرف الحادثات خديما "
 " ما اهتز غصن في الحديقة ناعم ... لما أحس من الشمال شميما "
 مولده بغرناطة يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة انتهى
 أشعار للسان الدين

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور ما في النفاضة من قوله أنشدت
 ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني حيث جرابته ووظيفته وانجر حديث ما فقد
 بغرناطة في شجون الكلام
 " يا بني عبد الإله احتسابا ... عن أثاث ومنزل وعقار "
 " كيف يأسى على خسارة جزء ... من يرى الكل في سبيل الخسار "
 " هدف لا تني سهام الليالي ... عن سباق تجاهه ویدار "
 " واحد طائش وسهم مصيب ... ليس ينجي منها اشتمال حذار "
 " غير ذي الدار صرف الهم فيها ... فمناخ الرحيل ليس بدار "
 انتهى وقال أيضا رحمه الله تعالى مما أنشدته ولدي عبد الله وأمرته بحفظه والتأدب به واللهج
 بحكمته

" إذا ذهب يمينك لا تضيع ... يسارك في البكاء ولا المصيه "
 " ويسراك اغتمم بالقوس ترمي ... وما تدري أرشقتها قريبه "
 " وما بغريبة نوب الليالي ... ولكن النجاة هي الغريبة "
 قال ومن المنظوم في قريب من هذا قولي
 " أيا أهل هذا القطر ساعده القطر ... ذهبت فدلوني لمن يرفع الأمر "
 " تشاغل بالدينا ونمت مفرطا ... وفي شغلي أو نومتي سرق العمر "
 وقال رحمه الله تعالى ومما قلته وقد أنصرف عني الولد عبد الله إلى مدينة فاس لإقامة رسمه من
 الخدمة وأشجاني انصرافه لوقوع قرحة علي قرح والله المستعان
 " بان يوم الخميس قرّة عيني ... حسبي الله أي موقف بين "
 " لو جنى موقف النوى حين حيا ... جان يوم الوداع والله حيني "
 " ضايقتني صروف هذي الليالي ... وأطالت همي وألوت بديني "
 " وطن نازح وشمل شتيت ... كيف يبقي معذب بعد ذين "
 " يا إلهي أدرك بلطفك ضعفي ... إن ما اشتكيه ليس بهين "
 وقال رحمه الله تعالى أنشدت يوما ولدي عبد الله وقد رأيت منه نشاطا
 ومرحا انتقل مني إليه بعد السن
 " سرق الدهر شيابي من يدي ... وفؤادي مشعر بالكمد "
 " جملة الأمر إذا أبصرته ... باع ما أفقدني من ولدي "
 وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه الله تعالى
 علي وتعليقاته على الإحاطة

وأما علي بن لسان الدين رحمه الله تعالى فهوشاعر البيت بعد أبيه النبيه وكان مصاحبا للسلطان
 أحمد المريني المستنصر بالله ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني رحمه
 الله تعالى

وحكى بعضهم أنه حضر معه في بستان سح فيه ماء المذاكرة الهتان وقد أبدى الأصيل
شواهد الاصفرار وأزعم النهار لما قدم الليل على الفرار فقال المستنصر لما لان جانبه وسالت بين
سرحات البستان جداوله ومذانبه
" يا فاس إنني وأيم الله ذو شغف ... في كل ربيع لهم مغناه يسبيني "
" وقد أنست بقرب منك يا أملني ... ونظرة فيكم بالأنس تحييني "
فأجاب أبو الحسن علي بن الخطيب بقوله المصيب
" لا أوحش الله ربعا أنت زائر ... يا بهجة الملك والدنيا مع الدين "
" يا أحمد الحمد أيقاك الإله لنا ... فخر الملوك وسلطان السلاطين "
وقد رحل رحمه الله تعالى إلى مصر ولم يحضرني الآن من أحواله بعد دخوله مصر ما أعول عليه وقد
كان وقف بالقاهرة على نسخة الإحاطة التي وجهها أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سعيد السعداء
كما أشرنا إليه فيما مر فكتب بالحواشي كتابات مفيدة وقد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا
الكتاب

فليراجع إما تكميل لما أغفله أبوه وإما إخبار عما شاهده هو أو رواية له عن المترجم به أو جواب
عن أبيه فيما انتقد عليه

نماذج في تعليقاته من ترجمة ابن جابر

ولنذكر شيئا منها غير ما تقدم بعد إيراد نص الإحاطة فنقول
قال في الإحاطة في حرف الميم في ترجمة شمس الدين الهواري الضرير شارح ألفية ابن مالك
وصاحب البديعية الشهيرة بالأعمى والبصير ما صورته محمد بن أحمد بن علي الهواري يكنى أبا
عبدالله ويعرف بابن جابر من أهل المرية
حاله رجل كفيف البصر مدل على الشعر عظيم الكفاية والمنة على زمانته رجل إلى المشرق
وتظاهر برجل من أصحابنا يعرف بأبي جعفر الإلبيري صارا روحين في جسد ووقع الشعر منهما بين
لحيي أسد وشمر للعلم وطلبه فكان وظيفة الكفيف النظم ووظيفة البصير الكتب وانقطع الآن
خبرهما انتهى

فكتب المذكور على أول الترجمة ما صورته نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر أحسن الله تعالى إليهما
فلقد أحسننا الصحبة في الغربة وانفردا بالنزاهة والفضل وعلو الهمة إلا أن المصنف قصر فيهما بعض
قصور ومنهما يطلب والإغضاء والصفح فالرجل مات وذكر الأموات بالخير مشروع وهما والله الشرف
الباهر بقطرهما علما وعملا أمتع الله تعالى بهما قاله ولد المؤلف علي بن الخطيب بالقاهرة انتهى
وكتب على قول أبيه وانقطع الآن خبرهما ما نصه هما الآن بالبيرة من حلب تحت إنعام ولطف تحت
إليهما الرواحل وتضرب إليهما آباط النجب

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من الإحاطة
قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصه وجرى ذكره في الإكليل بما نصه محسوب من طلبتها الجلة
ومعدود فيمن طلع بأفقه من الأهلة رجل إلى المشرق وقد أصيب ببصره واستهان في جنب
الاستفادة بمشقة سفره على بيان عذره ووضوح ضره
شعره وشعره كثير فمنه قوله

" سلوا حسن ذلك الخال في صفحة الخد ... متى رقموا بالمسك في ناعم الورد "

" وقولوا لذاك الثغر في ذلك اللمى ... متى كان شأن الدر يوجد في الشهد "

" ومن هز غصن القد منها لفتنتي ... وأودعه رمانتي ذلك النهدي "

" ومن متع القضب اللدان بوصفها ... إلى أن أعرن الحسن من ذلك القد "

" فتاة تفت القلب مني بمقلة ... لها رقة الغزلان في سطوة الأسد "

" تمنيت أن تهدي إلي نهودها ... فقالت رأيت البدر يهداه أو يهدي "

" فقلت للرمان بد من الجنى ... فتاهت وقالت باللواحظ لا الأيدي "

" فقلت أليس القلب عندك حاصل ... فقالت قلوب الناس كلهم عندي "

" فقلت اجعليني من عبيدك في الهوى ... فقالت كفاني كم لحسني من عبد "

" إذا شئت أن أرضاك عبدا فمت جوي ... ولا تشتكي واصبر على ألم الصد "

" ألم تر أن النحل يحمل ضرها ... لأجل الذي تجنيه من خالص الشهد "

" كذلك بذل النفس سهل لذي النهي ... لما يكسب الإنسان من شرف الحمد "

" ألسنت ترى كف ابن جانة طالما ... أضاع كريم المال في طلب المجد "

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته عارضة قوية ونزعة خفاجية وكيف لا والشيخ أبو

عبدالله صدر صدور الأندلس علما ونظما ونحوا زاده الله تعالى من فضله انتهى
 رجع الى الترجمة قال لسان الدين وقال يعني ابن جابر
 " عرج على بان العذيب ونادي ... وانشد فديتك أين حل فؤادي "
 " وإذا مررت على المنازل بالحمى ... فاشرح هنالك لوعتي وسهادي "
 " إية فديتك يا نسيمة خبري ... كيف الأحبة والحمى والوادي "
 " يا سعد قد ... بان العذيب ويانه ... فانزل فديتك قد بدا إسعادي "
 " خذ في البشارة مهجتي يوما إذا بان العذيب ونور حسن سعاد "
 " قد صح عيدي يوم أبصر حسنها ... وكذا الهلال علامة الأعياد "
 ومما نقلته من جزء قيده لي صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو علي الزواوي مما ادعاه لنفسه
 " علي لكل ذي كرم ذمام ... ولي بمدارك المجد اهتمام "
 " وأحسن ما لدي لقاء حر ... وصحبة معشر بالمجد هاموا "
 " وإنني حين أنسب من أناس ... على قمم النجوم لهم مقام "
 " يميل بهم إلى المجد ارتياح ... كما مالت بشاربها المدام "
 " هم لبسوا أديم الليل بردا ... ليسفر عن أديمهم الظلام "
 " هم جعلوا متون العيس أرضا ... فمذ عزموا الرحيل فقد أقاموا "
 " فمن كل البلاد لنا ارتحال ... وفي كل البلاد لنا مقام "
 " وحول موارد العلياء منا ... لنا مع كل ذي شرف زحام "
 " تصيب سهامنا غرض المعالي ... إذا ضلت عن الغرض السهام "
 " وليس لنا من المجد اقتناع ... ولو أن النجوم لنا خيام "

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتا ولم نثبتها لطولها ثم قال
 بعدها نجرت وما كادت ثم قال بعدها أيضا وقد وطأ لإمطاء قروحها وأعياء لإكثار سروحها ثم قال بعده
 والله ولي النجاة بفضلته انتهى

وكتب ابنه على أول القصيدة وهو علي لكل ذي كرم ذمام ما نصه نزعة معربة قاله ابن المؤلف
 رحمه الله تعالى انتهى

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله نجرت إلى آخره ما صورته ما أنصف المصنف هذا الفاضل في
 ترجمته وقدره شهير ومكانه من الفضيلة كبير وعلمه غزير ولعله لم يطلع إلا على ما أودعه
 وكتب إثره ابن لسان الدين ما صورته نعم يا سيدي أبا عبدالله ابن مرزوق لم ينصف المترجم به
 المؤلف ولولا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبيه ولو حصلنا تحت الصفيح لم تعملوا فيهما قلما هكذا
 شأن الدنيا بقله الوفاء شنشنة معروفة والحقد على الأموات شأن المغاربة قاله علي ابن المصنف
 رحمه الله تعالى انتهى

استطراد بأشعار ابن جابر

ولا خفاء أن لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهواري المذكور مع أن له محاسن
 جمة ومن محاسنه رحمه الله تعالى

" هناؤكم يا أهل طيبة قد حقا ... فبالقرب من خير الوري حزتم السبقا "
 " فلا يتحرك ساكن منكم إلى ... سواها وإن جار الزمان وإن شقا "
 " فكم ملك رام الوصول لمثل ما ... وصلتم فلم يقدر ولو ملك الخلقا "
 " فبشراكم نلتهم عناية ربكم ... فيها أنتم في بحر نعمته غرقى "
 " ترون رسول الله في كل ساعة ... ومن يره فهو السعيد به حقا "
 " متى جئتم لا يغلغ الباب دونكم ... وباب ذوي الإحسان لا يقبل الغلقا "
 " فيسمع شكواكم ويكشف ضرركم ... ولا يمنع الإحسان حرا ولا رقا "
 " بطيبة مثواكم وأكرم مرسل ... يلاحظكم فالدهر يجري لكم وفقا "
 " فكم نعمة لله فيها عليكم ... فشكرا وشكر الله بالشكر يستبقى "
 " أمنت من الدجال فيها فحولها ... ملائكة يحمون من دونها الطرقا "
 " كذاك من الطاعون أنتم بآمن ... فوجه الليالي لا يزال بكم طلقا "
 " فلا تنظروا إلا لوجه حبيبيكم ... وإن جاءت الدنيا ومرت فلا فرقا "
 " حياة وموتا تحت رحماه أنتم ... وحشرا فستر الجاه فوقكم ملقى "
 " فيا راحلا عنها لدنيا يريدتها ... أتطلب ما يفنى وتترك ما يبقى "
 " أخرج عن حرز النبي وحوزه ... إلى غيره تسفيهه مثلك قد حقا "

" لئن سرت تبغي من كريم إعانة ... فأكرم من خير البرية ما تلقى "

" هو الرزق مقسوم فليس بزائل ... ولو سرت حتى كدت تخترق الأفقا "

" فكم فاعد قد وسع الله رزقه ... ومرتحل قد ضاق بين الورى رزقا "

" فعش في حمى خير الأنام ومت به ... إذا كنت في الدارين تطلب أن ترقى "

" إذا قمت فيما بين قبر ومنبر ... بطيبة فاعرف أين منزلك الأرقى "

" لقد أسعد الرحمن جار محمد ... ومن جار في ترحاله فهو الأشقى "

ومن محاسنه رحمه الله تعالى المقصورة الفريدة وهي قوله

" بادر قلبي للهوى وما ارتأى ... لما رأى من حسنها ما قد رأى "

" فقرب الوجد لقلبي حبها ... وكان قلبي قبل هذا قد نأى "

" يا أيها العاذل في حبي لها ... أقصر فلي سمع عن العذل بأى "

" لو أبصر العاذل منها لمحة ... ما فض باب عذله ولا فأى "

" سرحت طرفي طالبا شأو العلا ... وتابعا في حبها ما قد شأى "

" إني لأرعاها على تتبعها ... عهدي ومثلي من وفى إذا وأى "

" من منصفى من شادن لم أرجه ... لحاجة من وصله إلا زأى "

" وإن قبضت النفس عن سلوانه ... مد أديم هجره لي وسأى "

" لأقطعن البيد أفري حاذها ... بضامر يفري الحصى إذا جأى "

" حتى أزور ربة الخدر وقد ... ذاد الكرى عنى الوشاة وذأى "

" يا رب ليل قد تعاطينا به ... حديث أنس مثل أزهار الربى "

" في روضة تعانقت أعصانها ... إذ واصلت ما بينها ريح الصبا "

" نادمت فيها من بني الحسن رشا ... يصبو له من لم يكن قط صبا "

" حلورخيم الدل في أعطافه ... لين وفي الحاظه بيض الطبي "

" أيام كان العيش غضا حسنه ... عذب الجنى ريان من ماء الصبا "

" أي زمان ومحل للمنى ... ما ضاق مغناه بنا ولا نبا "

" يا مريعا ما بين نجد والحمى ... ويا زمانا قد حبانى ما حبا "

" الله يرعاه زمانا لم يحل ... عن بذل ما نامله ولا أبى "

" فأى مغنى أهل يممته ... لمقصد حلت لنا فيه الحبا "

" هل ترجع الأيام عيشا باللوى ... فراقه كان اللهم الأربى "

" تالله لا أعبا بعيش قد مضى ... ولا زمان قد تعدى وعتا "

" مذ علقت كفي بالهادي الذي ... ساد الورى طفلا وكهلا وفتى "

" كالبحر لا يغيض يوما ورده ... لوارد إذا أضاف أو شتا "

" متصل البر لمن قد أمه ... لا يكره العودة ممن قد أتى "

" ولا ينجي نفسه في ضيقة ... أي نهار سر هذا ومتى "

" إن رسول الله مصباح هدى ... يهدي به من في دجى الليل متا "

" كف بني الجور بعدل واضح ... كما تكف اليد كفا من فتى "

" كم ذي هوى قد راضه بهدية ... فانقاد كالعبد إذا العبد قتا "

" قد خالط الحلم سجايا طبعه ... كمثل ما قد خالط الثوب الستا "

" أقسمت لا زلت أوالي مدحه ... ما اشتد بالناس زمان ورتا "

" لولا اشتياقي لديار كرمتم ... لبعدها يرثي لنا من قد رثى "

" ومدح من أرجو بأمداحي له ... إصلاح ما قد عاث مني وعثا "

" لم أجعل الشعر لنفسى خلة ... ولم يجش فكري به ولا عثا "

" فما أرى الأيام تبدي منصفا ... ولو حكيت المسك من حسن النثا "

" يا ضيعة الألباب في دهر غدا ... فيه فتيت المسك يعلوه الخثى "

" يا ويل أم ليس تزجي ضيمها ... مثلي بما تبديه من منع الحثا "

" هل مارست إلا أخوا عزم إذا ... ما قعد الناس عن الخطب جثا "

" تسيل من جهد السرى أعطافه ... كمثل ما سال من الدوح اللثى "

" له اعتصام بالرسول المجتبى ... أجود من أضفى العطايا وحثا "

" من ليس للدنيا محل عنده ... ولا ينيل المال إلا بالحثا "

" أنا الفتى لا يطيبني طمع ... فأبذل الوجه لنيل يرتجى "

" لكن إذا اضطرت زمان جائر ... أملت من ليس يرد من رجا "

" لا أسأل النذل ولو أني به ... أملك ما حاز النهار والدجى "

" حسبي بنو عبد مناف بهم ... يغني من استغنى وينجو من نجا "

" أولئك القوم الألى من أمهم ... أمن ممن لام يوما وهجا "

" يلقاك منهم كل وجه مشرق ... كأنه البدر إذا الليل سجا "

" إنني مذ أملتهم لم يثنني ... عن طلب المجد زمان قد شجا "

" إن أنا قد نكرني دهر عدا ... فطالما عرفني فضل الحجى "

" يطوي العدا ذكري ومجدي ناشري ... أليت لا زال لهم مني شجا "

" أنا الذي أعملت للمجد السرى ... لا أسأم الأين ولا أشكو الوجى "

" كم سرت في البيداء لا يقلقني ... حر الهجير لا ولا برد الضحى "

" أرسلها غر الذرا تسري بنا ... كل عويص السير صعب المنتحى "

" يطيح مفتوت الحصى من دونها ... كأنه سهم عن القوس طحا "

" فكم بذلت الجهد في كسب العلا ... وجدت بالنفس لحاني من لحا "

" أرغم أعداي بحزم نافذ ... يعركهم عرك الثفال بالرحى "

" أذود عن عرضي وأحمي حسبي ... بكرم جزل ومجد قد ضحا "

" أقسم بالبيت ومن طاف به ... ومن نحا وجهته فيمن نحا "

" وكل من أعمل لله الخطا ... محا بها من الخطايا ما محا "

" ومعشر ثجوا وعجوا فلهم ... بمرتقى المروة ذكر ووحى "

" لا زلت أزجها لإدراك العلا ... حتى ترى من جهدها مثل اللحا "

" يا عجبا من حاسد لي قد زها ... بعيشه الغض علي وانتحى "

" كأنني لم أعرف العز ولا ... صاحبت دهري في سرور ورخا "

" وإنما الدهر له تقلب ... إن ارتحى شد وإن شد ارتحى "

" إن الذي لا يثنني عن جوده ... إن بخل الدهر لنا وإن سخا "

" خير الورى طرا من الله به ... أذهب عنا كل غي فامتخى "

" شرفه الله وحلى جيده ... بجوهر من كل مجد موتخى "

" زينه تواضع على علا ... فما ازدهى بعزة ولا نخا "

" فكم حمى بهديه وكم وقى ... وكم أفاد أملا وكم نخا "

" خلص من أسر الخطايا جاهه ... فما على قلب امرئ منها طخا "

" خفف عنا ثفل ما نحمله ... فلم نبت من ثقله نشكو السخا "

" إن تحسب الرسل سماء قد بدت ... فإنه في أفقها نجم هدى "

" وإن يكن كل كريم قد مضى ... طلا فقد أضحى لنا غيث جدا "

" وإن يكونوا أنجما في فلك ... فإنه من بينهم بدر بدا "

" واسطة السلك إذا ما نظموا ... وملجأ القوم إذا الخطب عدا "

" كالبحر يل كالبدر جودا وسنا ... فحبذا من اجتدى أو اقتدى "

" أحسن أخلاقا من الروض إذا ... ما اختال في برد الصبا أو ارتدى "

" وساقط القطر عليه دمه ... فابتل برد الزهر منه وانتدى "

" تغديه نفسي من شفيق للورى ... وقلت النفس له مني فدا "

" هو الذي أنعشنا من بعد ما ... قد يبس الغصن وأذواه الصدى "

" وكنت في ليل الهوى ذا حيرة ... فجاء بالحق وأنجى وهدى "

" فكم كسا من ثوب نعمى قد ضفا ... وكم هدى بعلمه وكم غذا "

" من اقتدى بغيره فإنه ... لم يتبع سبل الهدى ولا حذا "

" هل هي إلا سنة الحق التي ... أرشد من لاذ بها أو احتدى "

" كف اللسان وانبساط الكف بال ... وطيب الذكر هم قد شذا "

" أحسن ما نال الفتى من كرم ... أن لا يرى من أجله من اتئدى "

" والصمت عما لا يفيد قوله ... من كلم يهذي به فيمن هذى "

" لا شيء كالصمت وقارا للفتى ... يوما ولا أنجى له من الأذى "

" من عيبه يشغله عن غيره ... بات سليم العرض نفاح الشذا "

" ومن يعيب عيب ومن يحسن إذن ... لأن له كل عصي وخذا "

" ومن تكن دنياه أقصى همه ... لم يرو من ثدي الحجي ولا اغتذى "

" لا تنفق العمر سوى في حب من ... هو الذي في سنن الحق جرى "

" يهديك من رشد ومجد واضح ... روضين من علم وذكر قد سرى "

" أجاد هديا وأفاد نائلا ... وجاد حتى حمم الجود الورى "

" ترى بني الحاجات نحو بابه ... قد أعملوا العيس بحزن في البرى "

" لهم إلى رؤيته تشوق ... تشوق الساري إلى نار القرى "

" ذا يبتغي علما وهذا نائلا ... وخائب من قصده ليس يرى "

" كأنهم إذا رأوا غرته ... وفد حجيح عاينوا أم القرى "

" وجه لديه يحمد السير كذا ... عند الصباح يحمد القوم السرى "

" هذا إذا ما أخلف الناس وفى ... نائي المدى في مجده سامي الذرا "

" إذا شددت الكف في أمر به ... فليس بالوانى ولا الواهي العرى "

" أنهضني بهديه إلى التقى ... بعد قصور العزم والباع الورى "

" هو الشفيح المجترى بجاهه ... بمثل ذاك الجاه حقا يجترى "

" مذ زرته لم أشك من شحط النوى ... إذ كان لي فيه غنى ومجترى "

" وما وجدت غربة ولم يجد ... مس اغتراب من إلى الجود اعترى "

" متصل البشر غضوب للهدى ... إذا رأى من زاغ عنه أو نزا "

" أصبح من أيامه في مأمّن ... من قد لجا يوما إليه أو رزى "

" تخذته كهفا فبت أمنا ... جزاه رب العرش خير ما جرى "

" أدينا بسنة أفلح من ... نمت إليها النفس يوما أو عزا "

" يجزي أبا الحسنى على إحسانه ... شكر امرئ راض الأمور وحزا "

" لست أجازي الشر بالشر ولا ... أعزو لناوي السوء مثل ما عزا "

" لم تر عين كرسول الله ذا ... حزم ولا أحلم إن دهر عزا "

" إذا ملومات الأمور قلقلت ... ألفتيه كأنه طود رسا "

" بخلقه فليقتد المرء فما ... أكرمها من مقتدى ومؤتسى "

" كن حذرا وإن رأيت ثمرة ... فمثلها توفد جمرة الأسى "

" لا تياسن إن تئامى أمل ... وكلما عثا زمان قد عسا "

" وإن بدا صبح المشيب فاطرح ... ما كان إذ ليل الشباب قد عسا "

" ولا تظن الشيب يرحى طبه ... بزور صبغ أو مدام يحتسى "

" إذا الفتى قوس واعتد العصا ... لقوسه عن وتر أعيا الأسا "

" فاذكر زمان الشيب في حال الصبا ... عسى يلين للتقى قلب قسا "

" ما أفتح اللهو على المرء إذا ... ما اشتعل الرأس مشيبا واكتسى "

" لا تحسب الراحة راحا قراقفا ... للشرب منها قيس ومنتشى "

" إذا أداروها وقد جن الدجى ... وشى بهم نيرها فيمن وشى "

" قد حجبت في دنها دهرها إلى ... أن برزت كأنها صبح فشا "

" لم يبق من جوهرها إلا سنا ... ينشئ أفرح الفتى إذا انتشى "

" كأنها والكأس قد حفت بها ... متيم أصبح مضروم الحشا "

" يديرها مختلف الحسن إذا ... أقبل بدر وإذا تاه رشا "

" يحكي القطا والطبي والغصن إذا ... ما قد تثنى أو تجنى أو مشى "

" وإنما الراحة زهد المرء في ... أعراض دنيا تورث العين غشا "

" والمجد إيقادك نيران القرى ... يعيشو لها في الأزمات من عشا "

" والجود أن تعطي قباء للندى ... لا لافتخار أو لجاه يختشى "

" خاب أمرؤ لم ير أرضا حلها ... من اصطفى رب السماء وانتصى "

" أرسله الله هدى ورحمة ... أوصى ووالى الخير فينا ووصى "

" وخلص الأنفس من أسر الهوى ... في يوم هول فاز فيه من فصى "

" ذو رافة تلقاه يوم العرض قد ... مال بناعن الجحيم ومصى "

" صلى عليك الله يا من جاهه ... يوم الحساب ملجأ لمن عصى "

" يا من جرى من كفه الماء ومن ... حن له الجذع وسيح الحصى "

" بك اعتصامي يوم يدنو من دنا ... من رحمة الله ويقصى من قسا "

" هل غير إحسانك يرجو مذنب ... طال به خوف الخطايا وانتصى "

" يا من سما في يوم بدر بدره ... عزا ليشقى كل من شق العصا "

" أحصاهم رب السماء عددا ... وإنهم أدنى الفريقين حصى "

" يا مجتبي من خير قوم حسبا ... فيما أتى من زمن وما مضى "

" يا من تدانى قاب قوسين ومن ... قيل له سل تعط قد نلت المضا "

" ومن أتى والناس من ظلمهم ... في ظلمة ليس لها من مرتضى "

" فكان كالصبح جلا جنح الدجى ... فأذهب الإظلام عنا وانتضى "

" رضيت للإرسال إذ آدم بي ... ن الماء والطين فكنت المرتضى "

" اختارك الله رسولا هاديا ... أكرم بما اختار لنا وما قد ارتضى "

" يا أحلم الناس على من قد جنى ... وأعدل الخلق إذا ما قد قضى "

" يا مصغر الألف إذا ما جاد أو ... جرد في الهيجاء سيفا أو نضا "

" يا ناصحا أحكم تشييد الهدى ... عزما فلما ينتقض و لا انقضى "

" يا مضفيا للناس ظل رحمة ... بات العدا منها على جمر الغضا "

" ادفع الشر بحسنى فإذا ... به أخو صدق وإن كان سطا "

" وإنف لنفس كرهت أعمالها ... كمن يريك قدرها حث الخطا "

" إن يدرك الهوى الفتى في بيته ... ليس كمن سعى إليه وخطا "

" وإن خيرا من صديق سيء ... أن يصحب الإنسان في البيد القطا "

" ولا ترم ما لا تطيق نبيله ... فخجلة الخيبة شر ممتطى "

" وبت من الدنيا مبات خائف ... فليلالي عدوات وسطا "

" وخلصها عنك ولا تعبا بما ... تبوأ المكثر منها وعطا "

" وجنب الحرص تعش ذا عزة ... أفلح من إن شده الحرص نطا "

" ولا تجد للنفس خطا واطرح ... من امتطى الكبر فبئس ما امتطى "

" لا تطرين صاحبا بغير ما ... فيه فأطراء الفتى كسر المطا "

" لا يحسن المدح سوى لمن يرى ... مادحه بمدحه قد احتطى "

" خير عباد الله ذو العز الذي ... لظله يأوي الشريف الشطى "

" كم آمن ببابه وقبل أن ... يلقاه لاقى ما عجا وما عطا "

" أصبح من حرمة في حرم ... يرفل في ظل هبات وخطا "

" في منزل سيان فيه ربه ... وضيغه فيما اقتنى وما خطا "

" إن رسول الله غيث وإكف ... إذا لهيب الصيف داج والتطى "

" إذا أعد للملمين القرى ... لم يدخر عن ضيفه ولا خطا "

" لما علمت جوده الجزل وما ... هناك من علم وحلم ويطا "

" يممته فوق طمر ضامر ... منتظم الأعضاء ملموم الشطا "

" ليس يمس الأرض من سرعته ... كأنما يخشى بها مس اللطى "

" يا موسع الألف بصاع شبيعا ... ومن مشى الدوح إليه وسعى "

" وأخصب الضرع بلمس كفه ... ويادر المزن له لما دعا "

" وسلم الطبي عليه كرما ... وكلم الميت فقام ورعى "

" واستشهد الضب فحيا معلنا ... بصدقه ومثبنا لما ادعى "

" إليك أعملت المطايا في الفلا ... تنساب ما بين أراك ولعا "

" مسوغا جاهك علي في غد ... أكون ممن قد أجاد ورعا "

" أركى صلاة وسلام أبدا ... عليك ما ارتاح الظليم وارتعى "

" وسبح الرعد بحمد من سقى ... صوب الحيا فقال للأرض لعا "

" فاشتملت بالنور كل فدقد ... لم يك للسارح فيه فيه مرتعى "

" وياكر البيداء غيث مسبل ... فأخلف النبت الهشيم ورعى "

" ودق سحاب تحسب البرق به ... أسنة قد أشرعت يوم وغى "

" واخضرت الدوح ومدت قضيبها ... فبينها حسن التمام وصغا "

" وساقطت لها السحاب حملها ... إذ خوف الرعد تساقط الفغا "

" ترى خربير الماء في قضيبه ... كأنه ميت ذود قد رغا "

" فسكن القيط لهيب حرة ... وفر لما أن رأى الماء طغى "

" غيث حمى الرمضاء عنا مثلما ... حمى رسول الله جور من بغى "

" ناه عن الفحشاء داع للهدى ... لم ينتطق بباطل ولا لغا "

" هذا إذا استكفيت في أمر به ... أجدك فيما تنتحيه وكفى "

" تهفو به ريح العلا إلى الندى ... كأنه ناعم غصن قد هفا "

" محيي الهدى والعدل في زمانه ... من بعد ما الفاهما على شفا "

" أخفى الهدى قوم فأضحى وهو قد ... أظهره بعد له فما اختفى "

" إن يقض يعدل أو منى يسأل يهب ... وإن يقل يصدق وإن يعد وفى "

" وإن يجد يجزل وإن جاد يعد ... وإن تسيء يحسن وإن تجن عفا "

" بحر طما بدر سما غضب حمى ... روض نما طب أفاد وشفى "

" لمجتد أو مقتد أو معتد ... أو مجذب أو مشتك خطبا جفا "

" ما لي لا أضفي له المدح وقد ... أضحي به الحق علينا قد ضفا "

" أسس خلق الجود فينا فأغتندى ... به لنا ورد المعالي قد صفا "

" الجود يعلي المرء والبخل لقد ... يحط عن رتبته من ارتقى "

" والعز ما أحسنه لكنه ... إن كان هذا مع علم وتقى "

" والجهل للإنسان عيب قاذح ... ولو حوى مالا ككثبان نقا "

" والعلم في حال الغنى والفقير لا ... يزال يرقى بك كل مرتقى "

" ولا ألوم المال فالمال حمى ... من جاهل يلقاك شر ملتقى "

" قد جبل الناس على حب الغنى ... فربه فيهم مهاب متقى "

" وما لذي الفقر لديهم رتبة ... ولو أفاد وأجاد واتقى "

" إن الغني طب لعلات الفتى ... والفقير داء لا تداويه الرقى "

" والحزم أحرى ما به المرء اقتدى ... في أمره وما به النفس وقى "

" من لم يبت مع الليالي حازما ... لغدرها غادرته فيها لقي "

" أمضيت طرفي كي يرى طرفي ما ... أخبرته من طيب مجد قد زكا "

" فصدق الحاكي ما أبصرته ... وفاق ما عابته ما قد حكى "

" فسهلت رؤيته جهد السرى ... وأشكت الأيام من كان شكا "

" عجبت للأيام من عز بها ... ذل ومن يضحك بها يوما بكى "

" فكم لها من كرة على فتى ... جلد إذا ما لهب الحرب ذكا "

" تجتنب الأسد سطاها في الوعى ... فذل حتى صار قصواه بكا "

" وكم صريع غادرت ليس له ... من ملجأ يوما ولا من مشتكى "

" عدت على نفس عدي وسقت ... منها ابن حجر كأس سم كالذكا "

" واستليت ملك بني ساسان لم ... تترك له على الليالي مرتكى "

" لم يأمن المأمون من صولتها ... ولا ابن هند من عواديتها خلا "

" وأتبع جعفرنا الفضل وكم ... بات الطلا يسقيهما صرف الطلا "

" وغالت الزباء في منعته ... فأظفرت عمرا بها فما ألا "

" وأنفذت في آل بكر حكمها ... وجرعت مهلهلا كأس البلى "

" وكم سبت من سبنا من نعمة ... فمزقوا في كل قفر وفلا "

" وأهلكت عادا وأفنت جرهما ... وزودت منها تميما بالصلى "

" فرعون موسى أولجت في لجة ... فمات قهرا بعد عز وعلا "

" وأظفرت بابن زياد مثلما ... أفنت يزيد حسرة لما اعتلى "

" وسيف استلته من غمدانه ... من بعد ما قد خضعت له الطلى "

" ثم أعادته فحز الجيش عن ... حوزته حز النبات المختلى "

" هي الليالي ليس يرعى صرفها ... لا خاملا فيها ولا من قد سما "

" ولا سؤل الله فينا لم يزل ... كهف حمى فهو لنا نعم الحمى "

" لله ما أكرمه من سيد ... ينمى من المجد لأعلى منتمى "

" سليم صدر ذو وفاء لم يجش ... في صدره غش امرئ ولا غمى "

" أوسعنا فضلا فما خاب امرؤ ... أوى إلى ذاك الجناب وانتمى "

" يا من غدا للخلق كهفا وحمى ... فأكرم المثوى وأوى وحمى "

" إنا أتينا من ديار دونها ... موحشة بيدا أو بحر طما "

" وإنني من قبح ما أسلفته ... ذو كبد رضيت ودمع قد همى "

" فلا تخييني مما لك من ... شفاعة ترجى وفضل قد نما "

" إنك من قوم بهم يشفى العنا ... ويدرك الشأو البعيد المرتضى "

" أعرض عن الجاهل مهما قد أسا ... وحسبه من جهله ما قد حوى "

" ولا تلم ذا سفه فإنه ... إن لمته لم يتند ولا ارعوى "

" وإن رأيت من كريم عثرة ... فقل لعا ولا تعب بما احتوى "

" وإن ترعك من زمان فرقة ... فاصبر لها فالصبر أشفى للجوى "

" وإن أشكر البعد على خير حمى ... قد صدني عن أنسه شحط النوى "

" يا منزلا ما بين نجد والحمى ... ويا ديارا بين كئيب اللوى "

" هل لي إلى تلك المعالي عودة ... أو جرعة من ذلك الماء الروى "

" لا تعجبوا من لعب الدهر بنا ... فأى إنسان على حال سوا "

" إن عشت لأقبتهم وإن أمت ... فإنما الدنيا فناء وتوى "

" إن رسول الله مذ أملت ... فالدهر قد أضمر نصحي ونوى "

" إي والذي ما زال يسري جاهدا ... حتى أتى ميقاته وما ونى "

" فقدم الغسل وصلى ونضا "

" أثوابه مستغفرا مما جنى "

" ثم نوى مليبا ثم مضى ... حتى رأى ذات السناء والسنى "

" ثم أتى باب بني شيبه قد ... أبصر ما أمل قدما مذ دنا "

" فقبل الركن وطاف وسعى ... ثم مضى مرتحلا نحو منى "

" ثم أتى الموقف يدعو راغبا ... حتى إذا ما نغر القوم انثنى "

" ثم رمى ثم أفاض وانبرى ... معتمرا قد نال غايات المنى "

" ثم مضى مرتحلا فيمن مضى ... ميمما طيبة لا يشكو العنا "

" يبغي التي شرفها الله بمن ... شاد به الدين القويم وابتنى "

" فلم يكن ممن إذا حج جفا ... بل يمم القبر وزار واعتنى "

" خلق على لم يحوها إلا امرؤ ... نهاه عن نبذ العلا رعي النهى "

" فإن يقل من حازها قل الذي ... له تسامى كل مجد وانتهى "

" معتصم الراجين إن خطب دنا ... وكهفهم إن راع أمر ودهى "

" المرشد الناصح لله فما ... قصر في نصر الهدى ولا لها "

" من جد في إدراك ما رام يجد ... ولم يصب من قد توانى وسها "

" فلا يقصر بك خوف خيبة ... من خيل الخيبة في البدء وهى "

" واكتسب الحمد بما تبديه من ... فتح اللها بمستدامات اللها "

" واحرص على المجد ودنياك اطرح ... فأمرها أمر زهيد المشتهى "

" والمرء من إن فاته لم يكتئب ... وإن ينل لم يفتخر ولا ازدهى "

" من لازم الكبر على الناس اغتدى ... متضع القدر ولو نال السها "

" أنى تخيب اليوم أمالي ولي ... من كفه أكرم من صوب الحيا "

" يدني الفتى إلى مدى أماله ... ولو غدا من دونها الأرض اليا "

" إن أهزل القوم زمان معور ... أنعشهم حتى يرى لهم حيا "

" وإن أمات الجذب كل مخصب ... بدا لنيران القرى منه حيا "

" أرسل سحب هديه جارية ... بالحق حتى حيي الدر حيا "

" أوقع في الأنفس من ماء لدى ... ظام إذا ما اشند بالشمس الحيا "

" لم تعي من فعل جميل كفه ... ولا له في المكرمات معنيا "

" ما لي لا أبلغ أقصى غاية ... في مدح من بالغ جودا واغتيا "

" لكل شخص غاية يبلغها ... وما له في المعلوات مغتيا "

" تعيا يد السائل من معروفة ... ولم يقصر كرما ولا اعتيا "

" والآن قد أكملتها في مدحه ... مقصورة يقصر عنها من خلا "

" ضمنتها من كل فن دررا ... نظما فأضحت من نفيسات الحلى "

" حليتها جيد معاليه وما ... أملاح حلي المدح في جيد العلا "

" جعلتها مني وداعا فاعتجب ... لنظمها الحلو الجنى كيف حلا "

" من قارب الرحلة عن ذاك الحمى ... كيف أجاد النظم يوماً أو درى "

" أرسلتها من خاطر خامره ... وجد جلا عن مفلتي طيب الكرى "

" وكيف لا أسى على بعدي عن ... قوم جرى من جودهم ما قد جرى "

" أنصار دين الله والهادي الذي ... لولا وضوح هديه ضل الورى "

" فالقلب بين مشرق ومغرب ... مقسم اللوعة مجذوب العرى "

" إذا ذكرت الغرب حنت مهجتي ... وبل دمعي من جوى الشوق الثرى "

" وإن ذكرت حب من في مشرق ... أبطأ في حبه من السرى "

" إن يصف من وجه لشخص مورد ... كدر من أخرى فلا صفو يرى "

" فإن ترحلت فقلبي عندكم ... لم يرتحل عن بابكم ولا سرى "

" ولا تزال رسل شوقي أبدا ... تترى على مجدكم الجزل الندى "

" ولن تمر ساعة إلا هفا ... بذكركم مفصح نظمي وشدا "

" فليس عندي للنجاة مخلص ... إن لم يكن منكم نوال أو جدا "

" بكم ملاذي وحماكم ملجئي ... ليس سوى ذاك السماح المجتدى "

" وما ذخرا عدة سواكم ... مثلكم من يرتجى ويحتدى "

" لا أوحش الله دياراً أنتم ... فيها ولا أزرى بمرعاها الصدى "

" ولا نأت داركم ولا خلا ... ريعكم ما راح يوم واغتندى "

ومن محاسنه أيضاً البديعية المشهورة وهي المعروفة ببديعية العميان ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي لكفى وهي من غرر القصائد وكثير من الناس ينسبها للقاضي

الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض وكنت أنا في أول الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر وهي

" في كل فاتحة للقول معتبره ... حق الثناء على المبعوث بالبقرة "

" في آل عمران قدما شاع مبعثه ... رجالهم والنساء استوضحوا خبره "

" من مد للناس من نعماه مائدة ... عمت فليست على الأنعام مقتصره "

" أعرف نعماه ما حل الرجاء بها ... إلا وأنفال ذاك الجود مبتدره "

" به توسل إذ نادى بتوبته ... في البحر يونس والظلماء معتكره "

" هود ويوسف كم خوف به أمنا ... ولن يروع صوت الرعد من ذكره "

" مضمون دعوة إبراهيم كان وفي ... بيت الإله وفي الحجر التمس أثره "

" ذو أمة كدوي النحل ذكرهم ... في كل قطر فسبحان الذي فطره "

" بكهف رحماه قد لاذ الورى وبه ... بشرى ابن مريم في الإنجيل مشتهره "

" سماه طه وحض الأنبياء على ... حج المكان الذي من أجله عمره "

" قد أفلح الناس بالنور الذي غمروا ... من نور فرقانه لما جلا غره "

" أكابر الشعراء اللسن قد عجزوا ... كالنمل إذ سمعت أذانهم سوره "

" وحسبه قصص للعنكبوت أتى ... إذ حاك نسجا بباب الغار قد ستره "

" في الروم قد شاع قدما أمره وبه ... لقمان وفق للدر الذي نثره "

" كم سجدة في طلى الأحزاب قد سجدت ... سيوفه فأراهم ربه عبره "

" سباهم فاطر السبع العلا كرما ... لمن بياسين بين الرسل قد شهره "

" في الحرب قد صفت الأملاك تنصره ... فصاد جمع الأعادي هازما زمره "

" لغافر الذنب في تفصيله سور ... قد فصلت لمعان غير مختصره "

" شوره أن تهجر الدنيا فزخرؤها ... مثل الدخان فيعشي عين من نظره "

" عزت شريعته البيضاء حين أتى ... أحقاف بدر وجند الله قد نصره "

" فجاء بعد القتال الفتح متصلا ... وأصبحت حجرات الدين منتصره "

" بقاف والذاريات الله أقسم في ... أن الذي قاله حق كما ذكره "

" في الطور أبصر موسى نجم سؤدده ... والأفق قد شق إجلا لا قمره "

" أسرى فنال من الرحمن واقعة ... في القرب ثبت فيه ربه بصره "

" أراه أشياء لا يقوى الحديد لها ... وفي مجادلة الكفار قد نصره "

" في الحشر يوم امتحان الخلق يقبل في ... صف من الرسل كل تابع أثره "

" كف يسبح لله الحصة بها ... فاقبل إذا جاءك الحق الذي قدره "

" قد أبصرت عنده الدنيا تغابنها ... نالت طلاقا ولم يصرف لها نظره "

" تحريمه الحب للدنيا ورغبته ... عن زهرة الملك حقا عندما نظره "

" في نون قد حقت الأمداح فيه بما ... أثنى به الله إذ أبدى لنا سيره "

" بجاهه سال نوح في سفينته ... سفن النجاة وموج البحر قد غمره "

" وقالت الجن جاء الحق فاتبعوا ... مزملا تابعا للحق لن يذره "

" مدثرا شافعا يوم القيامة هل ... أتى نبي له هذا العلا ذخره "

" في المرسلات من الكتب انجلى نبأ ... عن بعثه سائر الأخبار قد سطره "

" أطفاه النازعات الضيم في زمن ... يوم به عيس العاصي لما ذعره "

" إذ كورت شمس ذاك اليوم وانفطرت ... سماؤه ودعت ويل به الفجره "

" وللسماء انشقاق والبروج خلت ... من طارق الشهب والأفلاك منتثره "

" فسبح اسم الذي في الخلق شفعه ... وهل أذاك حديث الحوض إذ نهره "

" كالفجر في البلد المحروس غرته ... والشمس من نوره الوضاح مستتره "

" والليل مثل الضحى إذ لاح فيه ألم ... نشرح لك القول في أخباره العطره "

" ولو دعا التين والزيتون لايتدرا ... إليه في الحين واقرأ تستين خبره "

" في ليلة القدر كم قد حل من شرف ... في الفخر لم يكن الإنسان قد قدره "

" كم زلزلت بالجياد العاديات له ... أرض بقارعة التخويف منتشره "

" له تكاثر آيات قد اشتهرت ... في كل عصر فويل للذي كفره "

" ألم تر الشمس تصديقا له حبست ... على قريش وجاء الروح إذ أمره "

" أريت أن إله العرش كرمه ... بكوثر مرسل في حوضه نهره "

" والكافرون إذا جاء الورى طردوا ... عن حوضه فلقد تبت يدا الكفره "

" إخلاص أمداحه شغلي فكم فلق ... للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره "

" أزكى صلاتي على الهادي وعترته ... وصحبه وخصوصا منهم عشره "

" صديقهم عمر الفاروق أحزمهم ... عثمان ثم علي مهلك الكفره "

" سعد سعيد عبيد طلحة وأبو ... عبيدة وابن عوف عاشر العشره "

" وحمزة ثم عباس وألهما ... وجعفر وعقيل سادة خيره "

" أولئك الناس آل المصطفى وكفى ... وصحبه المقتدون السادة البرره "

" وفي خديجة والزهرا وما ولدت ... أزكى مديحي ساهدي دائما درره "

" عن كل أرواحه أرضى وأوثر من ... أضحت براءتها في الذكر منتشره "

" أقسمت لا زلت أهديهم شذا مدحي ... كالروض ينثر من أكمامه زهره "

معارضات لقصيدة ابن جابر في تضمين السور

انتهت القصيدة وقد عارض منحاهها جماعة فما شقوا لها غبارا ومن معارضاتها قول بعضهم

" بسم الإله افتتاح الحمد والبقرة ... مصليا بصلاة لم تزل عطره "

" على نبي له الرحمن ممتدح ... في آل عمران أيضا والنسا ذكره "

" كذا بمائدة الأنعام فضله ... ووصفه التم في الأعراف قد نشره "

" أنفاله نزلت أيضا براءة من ... يحبه وهو مشغول بما أمره "

" به نجا يونس من حوته ونجا ... هود ويوسف من سجن به عبره "

" أقسم برعد بإبراهيم أن له ... في حجر نحل ترى الآيات مشتهره "

" سبحان جاعله كهفا لأمته ... ومريم زوجة في جنة نصره "

" طه به الأنبياء للحج قد وفدوا ... والمؤمنون على النور اقتفوا أثره "

" آيات فرقانه ذلت لها الشعرا ... سورة النمل قد قصت لنا سيره "

" والعنكبوت على غار له نسجت ... والروم ولت برعب منه منكسره "

" لقمان حكيمه من بعض حكيمته ... فاسجد لرب على الأحزاب قد نصره "

" كم في سبا عبرة للقلب قد فطرت ... فلذ بياسين تنجو يا أبا البرره "

" قد صفت الأنبياء والرسول قاطبة ... خلف النبي بأمر الله مؤتمره "

" إن صاد قلبي الهوى تنزيل منقذه ... وغافر الذنب كم ذنب له غفره "

" كم خلعة فصلت للطائعين له ... وأمرهم بينهم شورى بلا نكره "

" لم تلهمهم زينة الدنيا وزخرفها ... كانوا يروها كدخان له قتره "

" إذا جثا الخلق والأحقاف قد شرفت ... فذاك يوم على الكفار قد نصره "

" محمد خص بالفتح المبين وقد ... أتاه في الحجرات الوحي بالخيره "

" قاف الوفاق وذو الطور نجم هدى ... وشق رب السما للمصطفى قمرة "

" رحمن واقعة كل الحديد بها ... كم من مجادلة في الحشر محتذره "

" من يمتحن صفنا في يوم جمعتنا ... فليس يلقى به غش ولا كدره "

" مطهر من نفاق ليس بينهم ... تغابن طلقوا دنياهم القذره "

" وحرموها وفي ملك لها زهدوا ... كزهد صاحب نون حققن خبره "

" إن تسألوني عن نوح نبي هدى ... والمصطفى سامع الجن الذي جهره "

" مزمل اسمه مدثر وله ... يوم القيامة للإنسان ما ضميره "

" للمرسلات نبا في يوم نازعة ... عبوس تكوير شمس في منفطره "

" مطفف الكيل قد بانت خسارته ... في يوم شق السما أبراجها النصرة "

" كم طارق سبح الأعلى بغاشية ... والفجر بلدته بالشمس مستتره "

" والليل قمه ولا تترك صلاة ضحى ... يشرح لك الصدر والخيرات مدخره "

" بسورة التين اقرأ أنها نزلت ... في ليلة القدر والأنوار منتشره "

" ولم يكن مثل خير الرسل أحمدنا ... منه تزلزلت الكفار والفجره "

" بعاديات لها قرع بهامته ... أعمى التكاثر من قلب له بصره "

" من كان في عصره همزة أبدا ... يلقاه قبل قريش قاهر قهره "

" ويل لمانع ماعون تراه غدا ... مباعدا كوثر الهادي الذي أثره "

" الكافرون إذا جا نصر خالقنا ... تبا لهم لعنوا هم أمة كفره "

" أخلص لرب فرق الناس تنج إذا ... يوم المعاد غدا من شره عسره "

" وصل رب على الهادي وعترته ... وآله وعلى أصحابه العشره "

وممن سلك هذا المنهج الشيخ الفلقشندي إذ قال

" عوذت حبي برب الناس والفلق ... المصطفى المجتبي الممدوح بالخلق "

" إخلاص وجدي له والعذر يقلقني ... تبت يدا عادل قد جاء بالملق "

" يهدي لأمته والنصر يعضده ... والكافرون وعذالي على نسق "

" هذا له كوثر والدين شرعته ... والمصطفى من قريش دين وتقي "

" ألم تر الماء قد سحت أصابعه ... ويل لكل جهول بالنبي وشقي "

" في كل عصر ترى آياته كثرت ... أضحى تكاثرها في سائر الأفق "

" وعند قارعة فهو الشفيق لنا ... والعاديات من الأجناف في طلق "

" وزلزلت من غرامي كل جارحة ... وكل بينة تحكي لكم علقي "

" يا عالي القدر رفقا مسني ضرر ... فإله قد خلق الإنسان من علق "

" ولو دعا التين والزيتون جاء له ... والشرح عنه طويل غير مختلق "

" يبدو كشمس الضحى والليل طرته ... كالشمس في بلد والفجر في أفق "

" إني بغاشية لولاك يا أملي ... أنت الشفيق إلى الأعلى وخير تقي "

" كم طارق منك بالإحسان يطرقني ... مثل البروج أتى في أحسن الطرق "

" وفي انشقاق فؤادي عبرة وبه ... ويل من الصد والأجناف في أرق "

" والانفطار به مما يكابده ... والشمس قد كورت في القلب ذي الحرق "

" والصب في عيب والنازعات به ... وقد أتى نبأ من دمعه الغدق "

" ومرسلات دم الإنسان جارية ... إلى القيامة من دمعي ومن حرقني "

" وبالمدثر إني ماسك أبدا ... وبالمزمل إن أجمت بالعرق "

" فالجن والإنس في خير ببعثته ... هذا ونوح به أنجى من الغرق "

" وفي المعارج معراج الرسول علا ... حقا وفي حاقة كنز لمخترق "

" والله مرسله في نون بشره ... والمملك خيره حتى رأى ولقي "

" وجاء بالحل والتحرير أمته ... وبالطلاق من الدنيا لمنطلق "

" وفي التغابن تجار به ربحوا ... إذ المنافق في خسر وفي نفق "

" يا صاحب الجمعة الغراء يا أملي ... في الصف عند امتحاني أنج من زلقي "

" وأنت في الحشر عوني في مجادلتني ... عسى تزيل حديد النار من عنقي "

" وعند واقعة إن كان لي رمق ... فاشفع إلى ربك الرحمن من رمقي "

" لم أرفع يا قمرى للنجم في سهر ... إلا لعلك من نار الجحيم تقى "

" قلبي الكليم غدا للطور مرتقيا ... ودر دمعي غدا بالذاريات سقي "

" وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم ... وليس في حجرات الدمع من رمق "

" إنا فتحنا فتنالا للعدول ففي ... أحقاف جاثية في الغيظ والحق "

" دخان زخرف ما العذال فيه هيا ... شوراي تتركه في أنف محترق "

" وعز من فصلت في مدحه سور ... نبينا المصطفى الهادي إلى الطرق "

" فغافر الذنب كم أهدى به زمرا ... وكم سقى كفه صاد بمندفق "

" وليس غيرك في الصافات أقصده ... وأنت ياسين لي من سائر الفرق "

" يا فاطرا قد سبا الأحزاب طلعتة ... كم سجدة لك في الأسحار والغسق "

" لقمان يشهد أن الروم تعرفه ... والعنكبوت فقد سدت عن الغلق "

" هذا ولي قصص بالنمل قد كتبت ... هامت بها الشعرا في خده اليق "

" تبارك الله من بالنور كلكه ... قد أفلح الحج لما زاره فوقي "

" يا أيها الأنبيا طه ختامكم ... ويا ابن مريم خذ من مسكه العبق "

" لادوا بكهف لهم سبحان خالقه ... حتى أتى الأمر بعد الخوف والفرق "

" فالركن والحجر حقا قد أضاء له ... وذاك دعوة إبراهيم ذي الخلق "

" والله ربي برعب الرعد ينصره ... مسير شهر بلا سيف ولا درق "

" فيوسف مع هود والخليل إذا ... ويونس شربوا من كأسه الدهق "

" لتويني أرتجي الأنفال منه غدا ... فإنني رجل أضحيت في قلق "

" أعراف أنعام إنعام له اشتهرت ... وكم لمائدة أسدى لمرتق "

" كل النساء لم تلد مثل الرسول إذا ... فينا وفي آل عمران ولم تطق "

" أعطيت خاتمة من سورة البقرة ... لم يعطها أحد فيما مضى وبقي "

" فأنت فاتحة الأنبا وخاتمهم ... وكلهم قد أتوا بالود والملق "

" والقلقشندي محب قال سيرته ... في مدح خير الورى الممدوح بالخلق "

" فاقبل هدية عبد أنت مالكة ... وانظر إليه فإن العبد في قلق "

" صلى عليك إله العرش ما طلعت ... ورقا على فنن والورق في الورق "

وهذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي مما يتبرك به والأعمال بالنيات ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى قصيدة ابن جابر وهي

" بحمد إله العرش أستفتح القولا ... وفي آية الكرسي أستمنح الطولا "

" وفي آل عمران أتى ذكر أحمد ... نساؤهم بالعقد قد أنعموا القولا "

" بأعراف رحماه بأنفال جوده ... شرفنا وفضلنا وتبنا إلى المولى "

" له يونس نادى وهود ويوسف ... وذاكره في الرعد لا يسمع الهولا "

" ودعوة إبراهيم كان محمد ... وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا "

" له أمة كالنحل قد صح فضلهم ... فسبحان من أسرى بأحمدنا ليلا "

" علا فضله والناس في كهف نيله ... ومريم في الأخرى يكون لها بعلا "

" وطه له فضل على الخلق كلهم ... ولكن جميع الأنبياء علا فضلا "

" ولولاه ما حج المقام وكعبة ... فأفلح من قد طاف فيها ومن حلا "

" ومن نوره الوهاج كل منور ... وفرقانه قد أخدم الكفر والبطلا "

" ترى الشعرا كالنمل حول محمد ... إذا قصص في العنكبوت لهم تتلى "

" علا ديننا روما ولقمان عالم ... بأن السيوف أسجدت كل من صلا "

" والأحزاب يسبيهم بحكمة فاطر ... وياسين قد صفت له الملاء الأعلى "

" وصاد جميع الكافرين بزمره ... له غافر في الحرب قد فصلت فضلا "

" وشوراه في الدنيا بها كل زلفة ... وقد زخرف الكفار في دينهم جهلا "

" لقد راوا الدخان حول بيوتهم ... بجاثية الأحقاف قد قتلوا قتلا "

" محمدنا لم يخلق الله مثله ... وفي الحجرات فضله أبدا يتلى "

" وقد أنزل الجبار قافا بذكره ... كما تذر الكفار ربح بها تبلى "

" بطور سما والنجم ما ضوء أحمد ... كما قمر بل نور خير الورى أجلى "

" به الله رحمن وفي وقعة ترى ... حديدا به الكفار يجدلهم جدلا "

" وقد سمع الغفار دعوة أحمد ... بحشر ولكن بامتحان به يتلى "
" صفنا بجمع للأعادي فمنهم ... منافق إن الكفر في درك سفلى "
" يرى غيبه في الخير منهم مطلق ... ولكن من يحرم نعيما فقد ضلأ "
" لأحمد ملك لا يوازيه سيد ... ونون لقد قلنا مقالا به استعلى "
" بحق لقد سألت أباطح مكة ... بفضل الذي قد كان نوح به استعلى "
" صحيح بأن الجن جاءت لأحمد ... ومزمل كان الغمام له ظلا "
" لمدرثر فضل القيامة واضح ... أتاه وجمع المرسلات حوت سبلا "
" وعم بجدواه فلا من منازع ... فحيث تراه لا عبوسا ولا بخلا "
" لقد كورت شمس بها انفطر السما ... لويل أتى الكفار وانشق واستولى "
" ولكن بروج الجو تزهو بأحمد ... وفي طارق الأفلاك فضله الأعلى "
" وغاشية كالفجر حلت ببلدة ... بها حرم أمن كشمس جلت ليلا "
" وفاق الضحى حقا جبين محمد ... كما بانشرح الصدر قد خصه المولى "
" فأقسم بالتين الذي عم نفعه ... وبالقلم الأعلى لقدر له أعلى "
" ألم يكن الكفار قد ضل سعيهم ... وقد زلزلوا بالعاديات كما يتلى "
" وقارعة حلت وألهاهم الهوى ... ووالعصر إن الويل يقريهم نزلا "
" ألم تر أن الله فضل أحمدا ... لأمن قريش حيثما سلكوا السبلا "
" أريت بأن الكوثر العذب خصه ... به وجميع الكفر لن يردوا أصلا "
" لقد نصر الرحمن ربي محمدا ... فأردى أبا لهب ولم يكتسب نبلا "
" فيا أحد إنني بفضلك عائد ... إذا غسق الديجور ناديت يا مولى "
ولم أف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة وقد سقط منها كما رأيت سورة الناس فقلت
مكملا على نمطه

" ويا مالكا للناس إنني لآئذ ... بعفوك فاغفر عمد عبدك والجهلا "
" ويا رب عاملنا بما أنت أهله ... من الجود والرحمى وإن لم تكن أهلا "
" وصل على مسك الختام محمد ... أتم صلاة تملأ الحزن والسهلا "

خطبة لعياض يوري فيها بأسماء السور

وتذكرت بهذا الموضوع خطبة القاضي أبي الفضل عياض التي ضمنها سور القرآن على المهيع
الماضي أنفا وهي الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه وبين في سورة البقرة أحكامه ومد في آل
عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس وألر كتاب أحكمت
آياته بمجاورة يوسف الصديق في دار الكرامة وسبح الرعد بحمده وجعل النار بردا وسلاما على
إبراهيم ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ إلا إليه ولا يظلمون قلامه
وجعل في حروف كهيعص سرا مكنونا قدم بسببه طه سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه وأوضح
الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلا وصغارا لعظمتهم وظهرت قصص
العنكبوت فأمن به الروم وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم نزل به الروح الأمين على زين من وافى
القيامة وأفصح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لرب الأجزاء فسببا فاطر السموات أهل الطاغوت
وأكسبهم ذلا وخزيا وحسرة وندامة وأمد ياسين بتأييد الصافات فصاد الزمر يوم بدره وأوقع بهم ما
أوقع صنائدهم في القليب مكدوس ومكبوب حين شالت بهم النعمة وغفر غافر الذنب وقابل التوب
للبدريين رضي الله عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة العذاب
وأيس من السلامة ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا فجتوا أمام
الأحقاد لقتال أعداء محمد يمينه وشماله وخلفه وأمامه فأعطوا الفتح ويوتوا حجرات الجنان وحين
ق والقرآن المجيد " وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاج لهم نجم الحقيقة وانشق لهم " تلوا
قمر اليقين فنافروا السامة ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد
وهزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيادي المؤمنين حين
نافروا السلامة

أحمده حمد من امتحنته صفوف الجموع في نفق التغابن فطلق الحرمت حين اعتبر الملك وعامه
وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحافة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه وناح نوح الجن فتزمل
وتندثر فرقا من يوم القيامة وأنس بمرسلات النبا فنزع العبوس من تحت كور العمامة وظهر له
بالانفطار التطيف فانشقت بروج الطارق بتسيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة فورب الفجر
والبعد والشمس والليل والضحى لقد انشروحت صدور المتقين حين تلوا سورة التين وعلق الإيمان

بقلوبهم فكل على قدر مقامه بين ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات ليطفنوا نور القارعة ولم يلهمهم التكاثر حين تلوا سورة العصر والهمزة وتمثلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف رأيتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة فالكوثر مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصرنا وعدل بهم عن لهب الطامة وسورة الإخلاص قرأوا وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعيذوا من كل حزن وهم وغم وندامة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة نال بها منازل الكرامة صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت في الأيك حمامة انتهت وممن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبدالله محمد ابن الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي جمعة الوهراني وفي نفسي من نسبتها له شيء لأن نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة والله تعالى أعلم

كنت رأيت بتلمسان المحروسة بخط عمي ومفيدي ولي الله تعالى العارف المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المفتي الخطيب سيدي سعيد بن أحمد المقرئ صب الله عليه سجال الرضوان خطبة من هذا النمط نصها

خطبة على مثالها لأبي جعفر الطنجالي

الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفى من آل عمران رجالا ونساء وفضلهم تفضيلا ومد مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال كرمه وحقه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلا ونجى هودا من كربه وحزنه كما خلص يوسف من سجنه وجبه وسبح الرعد بحمده ويمنه واتخذ الله إبراهيم خليلا الذي جعل في حجر الحجر من النحل شرابا نوع باختلاف ألوانه وأوحى إليه بخفي لطفه سبحانه واتخذ منه كهفا قد شيد بنيانه وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلا وفضل طه على جميع الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون إذ جعل نور الفرقان دليلا وصدق محمدا الذي عجزت الشعراء عن صدق نفته وشهدت النمل بصدق بعثه وبين قصص الأنبياء في مدة مكته ونسج العنكبوت عليه في الغار سترًا مسدولا وملئت قلوب الروم رعبا من هيئته وتعلم لقمان الحكمة من حكمته وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته وهزم الأحزاب وسباهم وأخذهم أخذا وبيلا فلقيه فاطر السموات والأرض بياسين كما نفذ حكمه في الصافات وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهجرهم هجرا جميلا فغفر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفي دخان الشرك وخرت المشركون جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلا وأذل الذين كفروا بشدة القتال وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز وحجر الحجرات الحريز ويقاف القدرة قتل الخراصون تقتيلا كلم موسى على جبل الطور فارتقى نجم محمد بطاعته مبادي السرور وأوقع الرحمن واقعة الصيح على بساط النور فتعجب الحديد من قوته وكثرت المجادلة في أمته إلى أن أعيد في الحشر بأحسن مقيلا امتحنه في صف الأنبياء وصلى بهم إماما وفي تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من التغابن خسرا وإرغاما فطلق وحرم تبارك الذي أعطاه الملك وعلم بالقلم ورتل القرأ ترتيلا وعن علم الحاقة كم سأل سائل فسأل الإيمان ودعا به نوح فنجاه الله تعالى من الطوفان وأنت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن فأنزل عليه يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلا فكم من مدثر يوم القيامة شفقة على الإنسان إذا أرسل مرسلات الدمع فعم يتساءلون أهل الكتاب وما تقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك وتولاهم بالعذاب وكورت الشمس وانفطرت السماء وكانت الجبال كثيبا مهيبا فويل للمطففين إذا انشقت السماء بالغمام وطويت ذات البروج وطرق طارق الصور بالنفخ للقيام وعز اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلا فطوبى للمصلين الضحى عند انشراح صدورهم إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة فسجدوا باقرا باسم ربك الذي خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر وتبتلوا تبتيلا ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم وتسوقهم كالعاديات إلى سواء الجحيم وزلزلت بهم قارعة العقاب وقيل لهم الهاكم التكاثر هذا عصر العقاب الأليم وحشر الهمزة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون فتيلا وقالت قريش ما أمتتم من هول المحشر رأيته الذي يكذب بالدين كيف طرد عن الكوثر وسبق الكافرون إلى النار وجاء نصر الله والفتح فتبت يدا أبي لهب إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلا فتعوذ برب الفلق من شر ما خلق وتعوذ برب الناس ملك الناس إلى الناس من شر الوسواس الخناس الذي فسق وتوب إليه وتوكل عليه وكفى بالله وكيفا انتهى

وهي من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبي المجد عبد المنعم ابن الشيخ الفقيه العدل أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي رحمه الله تعالى ونفعنا به وبسلفه الطاهر

عود إلى نظم ابن جابر

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله
" جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر "
" نور النبوة في كريم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر "
وفي هذا المعنى يقول شمس الدين الدمشقي
" أطراف تيجان أنت من سندس ... خضر بأعلام على الأشراف "
" والأشراف السلطان خصهم بها ... شرفا لتفرقهم من الأطراف "
والأشراف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي الألفي رحمه الله تعالى
وقال الرحالة ابن بطوطه في رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح ابن الملك المنصور ما نصه وله المكارم الشهيرة وليس بأرض الشام والعراق
ومصر أكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل عطاياهم جريا علي سنن أبيه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم انتهى
ومن شعر ابن جابر رحمه الله تعالى
" وفي الخيام ومن لي بالخيام رشا ... لا أحسب البدر في حسن يقاومه "
مثل الغزالة إن تاهت وإن طلعت ... فكيف يصرف عنه الصب لائمه "
وقوله رحمه الله تعالى
في القلب من حبكم بدر أقام به ... فالطرف يبصر نورا حين يبصره " " تشابه العقد حسنا فوق " " لبته ... والثغر نظما إذا ما لاح جوهره " وقوله
" ردف أقام لنا بها فتن الهوى ... وإذا أتت لتقوم قال لها اقعدي "
" أبصرتها ما بين ذاك وبين ذا ... فوقعت منها في المقيم المقعد "
وقوله
" سامح بالوصل على بخله ... وقال لي أنت بوصلي حقيق "
" فقلت ما رأيك في نزهة ... ما بين كاسات وروض أنيق "
" فقال يعني خده واللمى ... هذا هو الروض وهذا الرجيق "
" فبت من دمعي ومن خده ... ما بين نعمان وبين العقيق "
" وإذ تذلت على حبه ... قال أما تخشى أما تستفيق "
" قدي وخدي خفهما يا فتى ... هذا هو الرمح وهذا شقيق "
وقوله
" وقفت للوداع زينب لما ... رحل الركب والمدامع تسكب "
" مسحت بالبنان دمعي وحلو ... سكب دمعي على أصابع زينب "
رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى
ومن قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين ابن الخطيب قبل أن يظلم الجو بينه وبينه جوابا عن رسالة خاطب بها لسان الدين ابن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرني ذلك الآن قوله
" ما لي بحمل الهوى يدان ... من بعد ما أعوز التداني "
" أصبحت أشكوه من زمان ... ما بت منه على أمان "
" ما بال عينيك تسجمان ... والدمع يرفض كالجمان "
" ناداك والإلف عنك وإن ... والبعد من بعده كواني "
" يا شقة النفس من هوان ... ليج في أبحر الهوان "
" لم يثنه عن هواك ثان ... يا بغية القلب قد كفاني "
وقال بعض الحفاظ في ترجمة أبي الحسن علي بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق إنه أخذ عن جماعة غيرهم كالشريف القاضي الفقيه أبي علي الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسن بن سيدي نزيل تلمسان والفقيه الإمام العلامة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبي عبد الله محمد المقرئ التلمساني القرشي والشريف العالم أبي

القاسم محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم وليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب وجد الأدارسة
قال وروى أيضا عن القاضي ابن شيرين الإشبيلي ثم السبتي نزيل غرناطة والقاضي أبي البركات البلفيقي والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر ابن صفوان القيسي المالكي وابن خاتمة والفقيه الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح العالم أبي عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أي القاسم محمد الغساني الرحبي نزيل فاس وغيرهم ممن يطول تعدادهم من الأئمة الأعلام نجوم الإسلام انتهى

خطبة للكفعمي في تضمين أسماء السور

وقد وقفت للكفعمي رحمه الله تعالى في شرح بديعته على خطبة وقصيدة من هذا النمط قال رحمه الله تعالى ما نصه
ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة في فنا عريضة وجعلناها في مدح سيد البرية وتورياتها في السور القرآنية فكن لسورها قاريا ولمعارجها راقيا وعل وانهل من شرابها السكري وفكه نفسك بتسجيحها النميري وهي هذه
الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنام وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام ومنحهم بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الأثام وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي نجى يونس وهودا ويوسف من قومهم برعد الانتقام وغذى إبراهيم في الحجر بلعاب النحل ذات الإسراء فضاهى كهف مريم عليها السلام وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان الملك العلام فالشعراء والنمل بفضلته تخبر ولقصص العنكبوت الروم تذكر ولقمان في سجدته يشكر والأحزاب كأيدي سبا تقهر وفاطر يس لصافته ينصر صاد مقلة زمرة تنظر الأعلام فال حم بقتال فتحه في حجرات قافه قد ظهرت وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عطرت وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصرت وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت
وصف جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت وله الطلاق والتحريم ومقام الملك والقلم فناهيك به من مقام وفي الحاقة أعلى الله له المعارج على نوح المتطهر وخصه من بين الإنس والجن بيا أيها المزملم ويا أيها المدثر وشفعه في القيامة إذا دموع الإنسان مرسلات كالماء المتفجر ووجهه عند نيا النزاعات وقد عبس الوجه كاللهلال المنتور ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضرر وقد حرس لمولده السماء بالطارق الأعلى وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللثام فهو البلد الأمين وشمس الليل والضحي المخصوص بانسراح الصدر والمفضل بالتين والزيتون المستخرج من أمشاج العليق الطاهر العلي القدر شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر أهلك الله به الهمزة وأصحاب الفيل إذ مكروا بقريش ولم يتواصوا بالحق ولم يتواصوا بالصبر بالخصوص بالدين الحنيفي والكوثر السلسال والمؤيد على أهل الجحد بالنصر صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تبت يدا معانديه ونعم بالتوحيد مواليه وما أفصح فلق الصبح بين الناس وأمتد الظلام

قصيدة على مثالها للكفعمي

ولنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن في مدح سيد ولد عدنان يحسن هنا أن ننضي عن فرائد نفائسها لطلابها ما أغدق من خميرها وستورها ونجلي عن خرائد عرائسها لخطابها ما أسدق من غررها في خدورها فانظر إلى سور أبياتها وصور تورياتها ثم ادعهن يأتينك سعيا فحفظا لها ووعيا وهي هذه

" يا من له السبع المثاني تنزل ... وخواتم البقره عليه تنزل "
" في آل عمران النساء لم تلد ... كتنظيره الأجساد ذلك تفعل "
" مولى له الأنعام والأعراف وال ... والحكم التي لا تجهل "
" بعلاه توبة يونس قبلت كذا ... هود ويوسف رعدهم يتجلجل "
" وكذلك إبراهيم في حجر له ... والنحل في الإسرا عليه تعول "
" يا كهف مريم أنت طه الأنبياء ... والحج ثم المؤمنون الأفضل "
" يا نور يا فرقان يا من مدحه ... نطقته به الشعراء وهو المرسل "
" والنمل في قصص الحديث به دعت ... وعليه نسج العنكبوت يهدل "

" والروم تتلو إسمه ولكم به ... لقمان حقا في المضاجع يسأل "
 " وبعزمه الأحزاب جمعهم سبا ... وبه الملائكة الكرام تفضل "
 " يس سماه الإله بذكره \ ... وكواكب بسعوده لا تأفل "
 " يل ليتني صاد شربت بكأسه ... وعليه في زمر وردت فأنهل "
 " كم مؤمن قد فصلت أعلامه ... من زخرف بجدها يا من يعقل "
 " ودخان جاثية على أحقادها ... بقتاله أطفى وفتح أدخل "
 " حجرات قاف ذاريات سمائه ... في طورها نجم منير يكمل "
 " ودنا له القمر المنير وشقه ال ... واقعة له لا تجهل "
 " زغف الحديد بحربه أصواتها ... رعد مجادلة لقوم أسلوا "
 " وله لدى الحشر العظيم شفاعة ... في أمة بالإمتحان تسربلوا "
 " عن صف جمعته المنافق نائيا ... يوم التغابن من حديد ينعل "
 " يا من به شرع الطلاق ومن له ال ... والمملك العظيم الأكمل "
 " يا من به ذو النون لاذ بيمينه ... لما أصيب بحاقة لا تعدل "
 " يا من سأل نوح بطاهر إسمه ... يا من أتته الجن يا مزمل "
 " مدثر يوم القيامة شافع ... ومخلص الإنسان وهو الموئل "
 " يا من نزول المرسلات ببعثه ... يا أيها النبأ العظيم الأكمل "
 " والنازعات نزعن نفس عدوه ... هذا وقد عبس الجبين واذهلوا "
 " وهو الشفيق إذا المنيرة كورت ... والإنفطار من السماء يعجل "
 " ولدى ذوي التطفيف ويل والسما ... في الإنشقاق إذ البروج تبدل "
 " والله قد حرس السماء بطارق ... لولادة الأعلى به يفضل "
 " وأزال غاشية العذاب ونوره ... كالفجر إذ أنواره تهطل "
 " بلد أمين ثم شمس أشرقت ... والشعر ضاهى الليل بل هو أيل "
 " شمس الضحى من وجهه ولصدره ... ألأنشراح وقلبه لا يغفل "
 " يا من أتى في التين حقا ذكره ... فاقراً ولا يرتاب فيه واسألوا "
 " يا من ليالي القدر بينة له ... وعداه بالزلزال منه تزلزلوا "
 " بالعاديات أزال قارعة العدا ... ويقوله الهاكم ما تجهل "
 " ولقد أتى من قبل عصر نبينا ... ويل لأهل الفيل منه وقتلوا "
 " هو صاحب الإيلاف والدين الذي ... يسقى غدا من كوثر يتسلسل "
 " والكافرون لنصره في جيدهم ... مسد إذا التوحيد عنه تعدل "
 " يا خاتما فلق الصباح كوجهه ... والناس منه مكبر ومهلل "
 " أبياتها ميقات موسى عدة ... والكفعمي بمدحه يتجمل "
 " صلى عليه الله مع أصحابه ... ما زال طير العنديل يعندل "

ترجمة الكفعمي

والكفعمي هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر عيما قرية من قرى أعمال صفد كما تقول في النسبة إلى بني عبد الدار

عبدري وإلى حصن كيفا حصكفي وشرحه لبديعته سماه نور حدقة البديع ونور حديقة الربيع وما رأيت مثله في سعة الحفظ والجمع

ومن نظمه في أسماء الكتب

" يا طريق النجاة بحر فلاح ... أنت دفع الهموم والأحزان "

" أنت أنس التوحيد عدة داع ... ثم روح الإحيا وفلك المعاني "

" نهج حي ونثر در نبيه ... ورياض الآداب ذكرى البيان "

" فائق رائع مسرة راض ... منتهى السؤل جامع للأماني "

" نزهة عدة ظرائف لطف ... روضة مبهج جنان الجنان "

" زاهر كامل شهاب وكنز ... مجتنى من ذخيرة الإخوان "

" فصحاح الألفاظ فيه تلقى ... وشذور العقود والمرجان "

" وهو قوت القلوب نهج جنان ... وكنوز النجاح والبرهان "

فناسب بين أسماء الكتب وقصده غير ذلك وأكثر هذه الكتب التي ورى بها غير موجودة بأيدي الناس بل ولا معروفة لديهم وهذا دليل على سعة اطلاعه

ومن بدائع الكفعمي المذكور رسالة كتب بها إلى قاضي القضاة العالم العلامة أبي العباس ابن
 الغرغور في شأن أستاذ دار قاضي القضاة المذكور الأمير علاء
 الدين ويخرج من أثنائها قصيدة منها يقبل الأرض وينتهي سلام عبد لكم محب وعلى المقمة مكب لو
 بدا للناظرين عشر معشار شوقه وغرامه لطبق ذلك ما بين آفاق السموات السبع والأرض لشدة
 هيامه تراه حقا لكم حافيا بالأمن والسرور والسعد والحبور داعيا لا جرم وهذا الثناء المتوالي والدعا
 للمقام العالي لا شك من لازم الفرض ملكه الله تعالى أزمة البسط والقبض وأنجك ربي من
 المعاطب في دينك وديناك وأنقذك من شر كل صغير شدة وكبيرها وأرضاك وجعلك أمينا في الأرض
 إلى يوم القيامة والنشور والعرض كما أنت أمن لي من المخاوف وعون في كل شدة وغوث وملجأ
 وعدة وأنجحت آمالي ووفرت بإخداكم لي مالي وأحسنتم قرضي ووفرت بإجلالك لي عرضي وينتهي
 المملوك إلى سيده قاض القضاة وكافي الكفاة بأن المتولي الأمين ذا الفخر المبين علي ابن
 المرحوم فخر الدين قوله في أمركم العالي مرضي وفعله مقضي ومدحكم عليه فرض واجب قراه
 أبدا لسانه ويذكر المناقب وحكم له واختياركم إياه دال بأنه أمين حليم شاهده حقا يقضي بجعله
 على خزائن الأرض إنه حفيظ عليم حديث مدح سواكم ليس من مدائحه ولا يمر أبدا بقلبه وجوارحه
 وإن مر في خاطره لا يحلو قطعا وحكمكم عليه شرعا ومرسومكم يمضي وأمركم يقضي بتيه سرورا
 به رؤساء أهل الشام ومن في القبيبات من الأنام عزة وعلا لخدمته الشريفة إياك ولأنه يا قاضي
 قضاة الدين والأرض لا يريد سواك فإن يك الخادم المذكور في بعض أفعاله غافلا أو في مقاله غير
 كامل و عصاكم في بعض الأمر فعين العفو والستر عن ذنبه لا جرم تغضي وهو بتوبته إليه يقضي
 وسلام الله عليكم ورحمته لديكم كلما نطق ناطق أو ذر في المشارق شارق وما دارت الأفلاك
 وسبحت بلغاتها الأملاك في فسيح الطول ورحب العرض دوما ما بين السماء والأرض

وهذه أبيات القصيدة المتولدة من هذه الرسالة

" سلام محب لو بدا عشر شوقه ... لطبق ما بين السموات والأرض "

" تراه لكم بالأمن والسعد داعيا ... وهذا الدعا لا شك من لازم الفرض "

" وأنجك في دينك من كل شدة ... وأرضاك في يوم القيامة والعرض "

" كما أنت لي عون وغوث وعدة ... ووفرت لي مالي ووفرت لي عرضي "

هذا ويصح أن يقرأ عونا بالنصب على الحالية وهو الذي رأيت به خطه أعني الكفعمي ثم قال

" وينتهي إلى قاضي القضاة بأن ذا ... علي بن فخر الدين في أمركم مرضي "

" ومدحكم فرض قراه لسانه ... وحكمكم إياه شاهده يقضي "

" حديث سواكم لا يمر بقلبه ... وإن مر لا يحلو وحكمكم يمضي "

" بتيه به أهل القبيبات عزة ... لخدمته إياك يا قاضي الأرض "

" فإن يك في أفعاله أو مقاله ... عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضي "

" سلام عليكم كلما ذر شارق ... وسبحت الأملاك في الطول والعرض "

قلت وهذه طريقة بديعة وقد تبارى فيها البلغاء فبعضهم يعتمد إلى أحاديث أو آيات وينسج على

منواله مثلها ويفرقها في أبيات أو سجعاته ويكتبها بلون مخالف للأصل وقد ذكرت في روضة الورد

من أزهار الرياض من كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه فليراجعه من أرادته وذكرت في غيره أيضا نبذة

رجع إلى نظم ابن جابر فمن ذلك قوله

" ناديت من أسري به ... بحياة من أسري به "

" سل مدمعا تجري به ... بلواه في تجريبه "

وقوله

" أيها العاذل في حبي له ... خل نفسي في جواها تحترق "

" ما الذي ضرك منه بعدما ... صار قلبي في هواه تحت رق "

وله

" برد الصباح على برد الصبا سحرا ... ما زال يذكرني أوقات نعمان "

" لهفي لعيش قضينا في معاهدها ... ما بين حسن من الدنيا وإحسان "

وله رحمه الله تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضا

" جعلت ملاك العين والقلب في الهوى ... يناطقه القرطين صامنة القلب "

" تصحف لين ألحاظها لي قدها ... وتقلبه كيما تصيد به قلبي "

قال بعض علماء المشرق أجاد والله هذا العالم المغربي المقال وأراد أن لفظ لين إذا قلب صار نبلا

وإذا صحف صار نبلا وهذا زيادة على ما فيه من التحريف انتهى

من شعر أبي جعفر رقيق ابن جابر
وقريب منه لرقيق المذكور قوله
" يفتر عن برد يثير ببرده ... حر الغرام ولا سبيل لرشفه "
" أخذ الرشا من حسنه طرفا لذا ... نسب الوري ملح الجمال لطرفه "
وله
" تجر فرعيها على إثرها ... رافلة في حلل الحسن "
" فتطلع البدر لنا في الدجى ... وترسل البدر على الغصن "
وله
" قد نعمنا بجزع نعمان لكن ... عقنا البعد والعقوق قبيح "
" قل لأهل الخيام أما فؤادي ... فجريح لكن ودي صحيح "
وقوله
" مقدمات الرقيب كيف غدت ... عند لقاء الحبيب متصله "
" تمنعنا الجمع والخلو معا ... وإنما ذاك حكم منفصله "
وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين
" رحمة أرسله الله لنا ... وشفيعا قد غدا فينا غدا "
" وهب المال لمن مال له ... وفدى من ذنبه من وفدا "
" ليس يحصي فضله إلا الذي ... هو أحصى كل شيء عددا "
وله
" حسن النية ما اسطعت ولا ... تتبع في الناس أسباب الهوى "
" إنما الأعمال بالنيات من ... ينو شيئا فله ما قد نوى "
وله
" قالت وقد حاولت نيل وصالها ... من غير شيء لا تجوز المسألة "
" بالله قل لي أين نحوك يا فتى ... رأيت موصولا يجيء بلا صله "
وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكرته وقضية ابن عنين في ذلك مع المعظم دالة على توفد فكرته
وما ذاك إلا أنه مرض فكتب إلى الملك المعظم
" نظر إلي بعين مولى لم يزل ... يولي الندى وتلاف قبل تلافى "
" أنا كالذي أحتاج ما يحتاجه ... فأغنم دعائي والثناء الوافي "
فعاده المعظم وأعطاه ألفا وقيل ثلاثمائة وقال له هذه الصلة وأنا العائد
قال بعض المغاربة في هذا قد تطف ابن عنين في الصلة والعائد وأجاد وسبق المعظم إلى فهم
مقصوده مطابقة الجوار فأتى بما يستغرب عن سيبويه ونظرائه فلذلك جعل الشريف ابن عنين ديوانه
مملوءا بمدحه وأطرابه ونقلته من حفظي وفيه بعض تغيير بيتين
عود إلى شعر ابن جابر
وقال ابن جابر المذكور
" يا دار ليلى لا صمتك يد البلى ... وسقائك در الغيث كل سحاب "
" أصبو إلى تلك الربوع وكيف لا ... أصبو وهن منازل الأحباب "
وقال من قصيدة
" وأطلب تشويق الأنام بحسنه ... فأذكر من أسمائه كل طيب "
ومنها
" وإنني لم أمدحه إلا تشوقا ... وإن كان مشهورا بشرق ومغرب "
وقال
" أمر الشباب ... فهفا فقالت دمعتي أعلى "
" أسر الهوى مهج الأنام لها ... إذ سل من أعطافها أسلا "
وقال
" طعنوا والقود منهم رماح ... طعنوا في الحشا بها فأصابوا "
" جاد دمعي لهم وقد حاد صبري ... حين سارت بالطاعنين الركاب "
وقال
" شاه وجه الرقيب إذ شاء وصلي ... قمري والأنام عنا نيام "
" زارني بالنهار في الليل لكن ... ليل فرع يحار فيه الظلام "

وقال
" يا أيها الجائر في حكمه ... إنني فيما قد جرى جائر "
" قدك من أعدل شيء يرى ... وأنت في أهل الهوى جائر "
وقال
" قد زعم العاذل لي أنه ... يهدي لي الرشيد بما يصنع "
" ما هو هاد لي ولكنه ... هاذا فسمعي قال لا تسمعوا "
وقال
" شفى فؤادي من شقا هجره ... وبت من لقيه في عيد "
وقال "وزارني يحكي غزال النقا ... في الحسن لولا الحلبي في الجيد "
" سلب القلب غزال قده ... قد حكى البان لنا والسلماء "
" ساحر العين إذا أبصره ... كاتب ألقى لديه القلما "
وقال
" يكفي الأنام بسيفه وسبيبه ... عقد المكاره والمكارم دائما "
وقال
" تحلت بما يحكي محاسن ثغرها ... وحلت عقود الصبر مني عقودها "
" ثقيلة أرداف فصعب قيامها ... بما حملت منها وسهل قعودها "
وقال
" أبى حسنهما إلا افتتان قلوبنا ... فكم قد أباد الحسن فيها من الناس "
" وقالت تحمل طول هجري إن ترد ... وصال ذوات الحسن قلت على راسي "
وقال
" أرى أناسا من أراد الرضى ... منهم رجا ما ليس بالممكن "
" سيان أن يعطوا وأن يمنعوا ... قد ضاع فيهم كرم المحسن "
وقال
" يا جيرة الحي حيا الله وإديكم ... فكم سرور به للقلب قد عرضا "
" فلن أنال حياة أستلذ بها ... إذا أنا لم أنل من وصلكم عرضا "
وقال
" شب حر الفؤاد ماء رضاب ... منه قد حار فيه ماء الغمام "
" زان بالحلي جيده قلت ماذا ... قال شيء نظمته من كلامي "
وقال
" صاد قلبي وصد عني صدودا ... وانثنى يسحب الذوائب سودا "
" فرأيت الصباح في الليل يبدو ... وشهدت الرشا يصيد الأسود "
وقال
" إنني سئمت من الزمان لطول ما ... قد صد عن حسن الوفاء رجاله "
" ومن النوادر في زمانك أن ترى ... خلا حمدت وداده وخلاله "
وقال
" إن قابل الغصن بأعطافه ... فقل أن تبصر من فرق "
" قلت قد استبعد كل الورى ... فقال ذاك البعض من حقي "
وقال
" صح أن الصباح من وجنتيها ... وغصون الرياض من معطفها "
" قاتل الله عاذلي قل يوم ... ليس يسعى بالعدل فيه إليها "
وقال
" شدوا محاملهم يوم الرحال وقد ... محا رسوم اصطباري فقد من رحلا "
" هزوا الغصون على الكثمان حين مضوا ... وأسبلوا فوق أقمار الدجى كلالا "
وقال
" خد ترى الورد بعضا من محاسنه ... تبارك الله ما أبهى شمانله "
" لصارم اللحظ قد أرخى حمائل من ... عذاره فحمى عنا خمائله "
وقال
" قام حادي الركاب ليلا فغنى ... فاستقام السرى وثار الغرام "

" قيل نام الأنام فاهجع قليلا ... قلت دون الحبيب لست أنام "

وقال

" ترامى بنا في البيد شوق إلى الحمى ... ترى عنده الأجفان منهلة الدمع "

" فلما رأينا ربع من سكن الحشا ... نزلنا فقبلنا ترى ذلك الربع "

وقال

" يراودني الواشي على حب غيرها ... وإن محالا أن يرى مثل حسنها "

" موفرة الأرداف مهضومة الحشا ... يريك التفات الطبي فاتر جفنها "

وقال

" سلت علينا سيوفا من لواظها ... ومن لنا من سيوف اللحظ من واقى "

" أضحت لسفك دم العشاق هادرة ... فما ترى دية في قتل عشاق "

وقال

" في خدها شبه للخال أو شية ... بما حوى الحسب من أطفاف أسرار "

" وشي من الحسن لم يحتج لصنع يد ... تبارك الله هذي صنعة الباري "

وقال

" بين الجوانح لو علمت من الجوى ... نار عليها سكب عيني يهمع "

" فدع المدامع في مدى جريانها ... فالدمع بعد فراقهم لا يمنع "

وقال

" قالوا بدارين قد قالوا وقد وردوا ... ماء العقيق وبالزوراء قد باتوا "

" بانوا عن العين لكن بالقلوب ثووا ... وفي البعاد عن الأحباب آفات "

وقال

" مليحة الخد به شامة ... كالورد قدنقط بالغاليه "

" قلت لها ما اسمك قولني لنا ... قالت فما تعرفني غاليه "

وقال

" جارية جارية في مدى ... شبابها من أملاح الخلق "

" ما بين فرق الصبح لما بدا ... ووجهها للناس من فرق "

وقال

" لصبه منه امتداد النوى ... فلا يلام الدمع في صبه "

" في قده لين فهلا قضى ... بقلبه منه إلى قلبه "

يريد بالقلب الأول التحويل والنقل أي فهلا قضى بنقل اللين الذي في قده إلى قلبه

وقال

" يا لابس اللام والأسياف عارية ... قد انعطفت على الأعطاف واللام "

" ويا ضجيع رماح الخط يرسلها ... في كل هام لها باللحظ في الهام "

الهام الأول جمع هامة والثاني اسم فاعل من همى يهمى

قال رفيقه لو قال من الهام لكان أليق بالمعنى وألطف

وقال

" من مال يبغي كسب مال له ... من حرمه إن جاء أو حله "

" فلا تثق يوما به واحترز ... منه فما يبقي على خله "

وقال يتشوق إلى وطنه بالمرية

" لله عيش بالمرية قد ذهب ... أخباره بالحسن تكتب بالذهب "

" وهبت لنا تلك الليالي مدة ... ثم استرد الدهر منا ما وهب "

وقال

" أن من شوقه فثار الضرام ... ودرى الناس أنه مستهام "

" لا تسل ما جرى من الدمع لما ... قيل هذي النقا وهذي الخيام "

وقال

" صلاة إله العالمين على الذي ... أقل العطايا منه واد من النعم "

يجود على الراجحي وإن كان مذنباً ... وما قوله للسائلين سوى نعم " وقال "

" قد سبأ قلبي غزال فاتن ... سل به كيف اعتدى في سلبه "

" أنا لا أعتب فيما قد جرى ... صفح الله له عن ذنبه "

وقال
" صبرت له فتمادى به ... هواه فكانت هي الفاصله "
" وأنكر بري ويا طالما ... أتاني يوما فألقى صله "
وقال
" وليل نظمنا به شملنا ... كما انتظم البيت بالقافيه "
" وفرقنا الدهر من بعد ذا ... فلست من اليوم ألقى فيه "
أي فئة ولا يكمل التجنيس فيه إلا بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه ولما أنشده قال
ومن هذا النوع قول بعض الأندلسيين
" وقائل قال ألا صف لنا ... بستاننا هذا ونارنجنا "
" قلت لهم بستانكم جنة ... ومن جنى النارنج نارا جنى "
وقال ابن جابر المذكور
" قل بحق الهوى سمحت بوصل ... ربة القلب أم نهاك الرقيب "
" رمت نيل الوصال منها فقالت ... لك وصل غدا فقلت قريب "
وقال
" زين الخد منه صدغ كنون ... قد بدا تحته عذار كلام "
" قلت هذي محاسن ابن هلال ... فانتنى وهو ضاحك من كلامي "
وقال
" لهاحسن لها عن كل شيء ... به قلبي فما أنا أستفيق "
" على وجناتها نعمان يبدو ... لنا وشفاها هن العقيق "
وقال
" تمر في ذكركم الله أحيانى ... ولو سرى طيفكم ليلا لأحيانى "
" لا يعذب العيش لي بعد العذيب ولا ... نعيم مثل ليالينا بنعمان "
وقال
" مداراة هذا الخلق أوليك بينهم ... صفات هي الأعمار والنظم دارات "
" وشارات حمد المرء أن لا ترى له ... على الناس مما لازم الحلم دارات "
وقال
" أرى كمدا سعبي إلى خامل ولو ... أراك مدى في فرقد بلغ السها "
" وما الخير يوما من لئيم بممكن ... وإن كان منه الخير يوما فقد سها "
وقال
" أرى جيدي عن كل طارئ نعمة ... أراح يدي من أن يقيدها الذل "
" فمن أخذ المعروف من غير أهله ... تروح الليالي وهو في عنقه غل "
وقال
" شبا لحظها الماضي وحسن شبابها ... هما حملا نفسي من الوجد ما بها "
" كئيب النقا من ردفها وقضيه ... لمعطفها والبدر تحت نقابها "
وقال
" حل عقد الصبر مني عقدها ... إذ سبت قلبي بما في قلبها "
" تحسب الدر على لبتها ... أنجما قد كلل البدر بها "
وقال
" شعر كالليل يبدو تحته ... قمر قد حار شعري في صفاته "
" نقل المسواك عن مبسمه ... أن ماء الورد يجري من لثاته "
وقال
" من سن تلك اللحاظ فاتبع ... من سنة الحب كل متبع "
" تقتل عشاقها بلا سبب ... وذاك في الحب غير مبتدع "
وقال
" وما شجو صال لوعة الهجر قد قضى ... زمان وصال لم تكدر مشاربه "
" كشجو محب لم يذق لذة الرضى ... ولا بات والغيد الحسان تلاعبه "
وقال
" سرت في رحال العيس منه أهلة ... فأيسر حال أن أزودها قلبي "

" بعيشك قل لي هل داروا كيف علتي ... وفيض دموعي بعد منصرف الركب "

وقال

" من جنى باللحاظ زهر المعاني ... من جناب الحمى إذا الناس ناموا "

" هو قد نال كل ما يتمنى ... وسعت في مراده الأيام "

وقال

" لطائف حسنها بربوع قلبي ... لطائف ألقأتني للغرام "

" تريك تكاسلا في اللحظ منها ... لتحسبه تنبه من منام "

وقال

" إذا زرت حيا بالعقيق فحيهم ... وذكرهم عهدي وحق ودادي "

" حرام فراق العيس حتى تحلني ... بواديه من تلك الوجوه بوادي "

وقال

" من فرط ما في الطرف من فتنة ... قد غلب الحب على الناس "

" قالت نسيت العهد قلت أكففي ... عني فما عبدك بالناسي "

" بين نعمان وسلع ملأ ... ليس منهم لمحِب ألم "

" كلغي منهم بيدر حل في ... فلك العلياء فاعرف من هم "

وقال

" أراقبها وحين أرى سبيلا ... أراقبها فتتفر كالغزال "

" وقالت أنت مرتقب لماذا ... فقلت لها ارتقابي للهلل "

وله من قصيدة مطولة في فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت فمما يختص منها بأبي بكر رضي الله تعالى عنه قوله

" فمنهم أبو بكر خليفته الذي ... له الفضل والتقديم في كل مشهد "

" وصديق هادي الخلق والمؤثر الذي ... لإنفاقه للمال في الله قد هدي "

" وصهر رسول الله وابنته التي ... يبرئها نص الكتاب الممجد "

" وصاحبه في الغار إذ قال لا تخف ... فثالثنا ذو العرش أوثق منجد "

" وسد على المختار مخرج حية ... هناك برجل منه فازت بأسعد "

" وفيه وفي خير الأنام تسامعوا ... بمكة صوت الهاتف المتقصد "

" جرى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد "

" وعتق بلال حسبه فهو سيد ... تأثل في الإسلام إعتاق سيد "

" وقال رسول الله إن أمنكم ... علي أبو بكر وأوفى بموعد "

" فصدق إذ كذبتهم وأطاع إذ ... عصيتهم ووافاني موافاة مسعد "

" ولو أنني من أمتي كنت أخذا ... خليلا تولى خلتي وتوددي "

" لكان أبو بكر ولكن أخوة ... في الإسلام مهما تنقص الناس تزد "

" فلما أراد الله قبض نبيه ... وصار إلى دار النعيم المخلد "

" تقدم في نيل الخلافة بعده ... بإجماعهم لا بالحسام المهند "

" وقد فارقت يوم السقيفة فرقة ... فلما رأته الحق لم تتردد "

" وقام علي بعد ذلك مبايعا ... فأثنى ثناء المخلص المتوود "

" وأظهر عذرا في تأنيه صادقا ... وبائع طوعا لا لفقدان مسند "

" فأب بحمد منهم غير قاصر ... ومن يتبع الإنصاف والحق يحمد "

" وما أشبه الصديق في الفضل مشبه ... ولا أحصيت أوصافه بتعدد "

ومما يختص بعمر رضي الله تعالى عنه قوله من هذه القصيدة

" ويتبعه في فضله عمر الذي ... رمى عن قسي الصديق قوس مسدد "

" وما كل من رام السعادة نالها ... ولكنه من يسعد الله يسعد "

" هو المرء لم يترك له الحق صاحبا ... ولا قعد الشيطان منه بمقعد "

" ولا سلك الشيطان فجا قد اعتدى ... له سالكا من خوفه المتزيد "

" ومن ظله قد كان ينفر هيبة ... له حيثما أضحى يروح ويغتدي "

" وقد جاء عنهم ما برحنا أعزة ... بإسلامه فانكف من كان يعتدي "

" ومن قولهم إسلامه كان غرة ... وهجرته فتحا شجا كل ملحد "

" وإمرته كانت على الناس رحمة ... فأبوا إلى فتح وعز ممهد "

" ومن فضله رعي النبي بغيره ... له فائثنى عن قصره المتشيد "

" وقد قيل للفاروق هذا ومن به ... فأنبأه عن ذا النعيم المؤيد "

" فأقبل بيكي قاتلا كيف غيرتي ... عليك ولولا أنت ما كنت أهتدي "

" ورؤيا رسول الله للقدح الذي ... تناول من در به غاية الصدى "

" وناوله الفاروق من بعد ما ارتووا ... إلى أن غدا من ظفره الري بيتدي "

" فأوله العلم الذي منه ناله ... وأول رؤيا الدلو حسن التأيد "

" فصارت له غربا فأروى بها الورى ... فكان افتتاح الأرض فتح ممهد "

" ورؤياه أيضا في قميص يجره ... وللناس قمص بعضها يبلغ الثدي "

" فأول خير الخلق طول قميصه ... بما حاز في إيمانه من تأيد "

" وتفريقه ما بين حق وباطل ... بيوم سقى الكفار أفضع مورد "

" وسمي بالفاروق من أجل هذه ... وما زال في نص الهدى ذا تجلد "

" وحسبك أن الله وافق رأيه ... لدى يوم بدر إذ رأى قتل من فدي "

" كذا في أذان والحجاب وجعلهم ... مصلى مقاما للخليل بمسجد "

" شديد على أهل الهوى رحمة لمن ... عن الحق لم يجنح ولم يتحيد "

" ومما روي إن كان في أمة فتى ... يحدث بالفاروق من ذاك فاعدد "

" وما أبغض الفاروق إلا مفارق ... لدين الهدى ذو مذهب لم يسدد "

ومما يختص بعثمان رضي الله تعالى عنه قوله

" وحسبي عثمان بن عفان أنه ... عليه اعتمادى وهو سؤلي ومقصدي "

" إما صبور للأذى وهو قادر ... حليم عن الجاني جميل التعود "

" هو الجامع القرآن والقانت الذي ... إذا جن ليل ليس بأوي لمرفد "

" ويقطع بالصوم النهار وينثني ... مدى ليله في خشية وتهجد "

" وقال رسول الله في بئر رومة ... أما مشتر يبغى به الأجر في غد "

" له الجنة العليا بذلك فاشترى ... وتجهيز جيش العسرة أذكر وعدد "

" فقال رسول الله إذ جاءه بما ... قد احتاج من مال وظهر وأعيد "

" هنيئا لعثمان بن عفان فعله ... وما ضره ما بعد مع هذه اليد "

" وقول ألا أبدي حياء لمن له ... قد استحيت الأملاك أشرف محتد "

" وبلغ بشرى الهاشمي بأنه ... من الجنة العليا بأكرم مقعد "

" ولكن على بلوى وقال سارتضي ... وأصبر صبر الطائع المتجلد "

" فأظهر يوم الدار صبر أولي النهى ... ولو شاء لم تظفر به يد معتد "

" ولم يرض صونا للدماء بحريهم ... وكان متى يستنجد القوم ينجد "

" فمات شهيدا صابرا فهو خير من ... على نفسه في غير حق قد اعتدي "

" على بنتي المختار أرخى ستوره ... فناهيك من مجد وعز مجدد "

" ولم يدع ذا النورين إلا لأنه ... حوى بيته نورين من نور أحمد "

" وإن لعثمان بن عفان رتبة ... من المجد تسمو عن سماك وفرقد "

ومما يختص بعلي رضي الله تعالى عنه قوله

" وإن عليا كان سيف رسوله ... وصاحبه السامي لمجد مشيد "

" وصهر النبي المجتبي وابن عمه ... أبو الحسنين المحتوي كل سؤدد "

" وزوجه رب السما من سمائه ... وناهيك تزويجا من العرش قد بدي "

" بخير نساء لجنة الغر سؤودا ... وحسبك هذا سؤودا لمسود "

" فباتا وحلي الزهد خير حلاهما ... وقد أثرا بالزاد من جاء يجتدي "

" فأثرت الجنات من حلل ومن ... حلي لها رعا لذاك التزهد "

" وما ضر من قد بات والصوف لبسه ... وفي السندس الغالي غدا سوف يغتدي "

" وقال رسول الله إني مدينة ... من العلم وهو الباب والباب فاقصد "

" ومن كنت مولاه علي وليه ... ومولاك فاصدق حب مولاك ترشد "

" وإنك مني خاليا من نبوة ... كهرون من موسى وحسبك فاحمد "

" وقال غدا أعط اللواء محبا ... إلي وللرحمن بالنصر مرتدي "

" فباتوا وكل يشتهي أن ينالها ... إلي أن بدا وجه الصباح المجود "

" فنأدى عليا ثم أبرأ عينه ... بنفث كأن لم يمس قبل بارمد "

" فأعطاه إياه وقال له ادعهم ... ومهما أبوا فانهض إليهم تؤيد "

" فجدل منهم من جنى عندما دعا ... إلى الحرب دعوى الفاتك المتمرد "

" وقاتل طول اليوم والباب ترسه ... يجر به للقوم في كل مرصد "

" فأعجزهن الباب من بعد عشرة ... فما الظن في هذا القوي المؤيد "

" وكان من الصبيان أول سابق ... إلى الدين لم يسبق بطائع مرشد "

" وجاء رسول الله مرتضيا له ... وكان عن الزهراء بالمتشرد "

" فمسح عن التراب إذ مس جلده ... وقد قام منه ألفا للتفرد "

" وقال له قول التلطف قم أبا ... تراب كلام المخلص المتوحد "

" وفي ابنه قال المصطفى ذان سيديا ... شبابكم في دار عز وسؤدد "

" وأرسله عنه الرسول مبلغا ... وخص بهذا الأمر تخصيص مفرد "

" وقال هل التبليغ عني ينبغي ... لمن ليس من بيتي فبالقوم فاقند "

" وقد قال عبد الله للسان الذي ... أتى سائلا عنهم سؤال مند "

" وأما علي فالتفت أين بيته ... وبیت رسول الله فأعرفه وأشهد "

" بأمرين من حر ويرد فلم يجد ... أذى بردها أو حرها المتوقد "

" وما زال صواما منيبا لربه ... على الحق قواما كثير التعبد "

" فنوعا من الدنيا بما نال معرضا ... عن المال مهما جاءه المال يزهد "

" لقد طلق الدنيا ثلاثا وكلما ... رآها وقد جاءت يقول لها ابعدى "

" وأقربهم للحق فيها وكلهم ... أولو الحق لكن كان أقرب مهتد "

ومنها في ذكر السبطين رضي الله تعالى عنهما

" وبالحسينين السيدين توسلي ... بجدهما في الحشر عند تفردى "

" هما قرنا عين الرسول وسيدا ... شباب الورى في جنة وتخلد "

" وقال هما ريحانتي أحب من ... أحبهما فاصدقهما الحب تسعد "

" هما اقتسما شبه الرسول تعادلا ... وماذا عسى يحصيه منهم تعددي "

" فمن صدره شبه الحسين أجله ... وللحسن الأعلى وحسبك فاعدد "

" وللحسن السامي مزايا كقوله ... هو ابني هذا سيد وابن سيد "

" سيصلح رب العالمين به الورى ... على فرقة منهم وعظم تبدد "

" وإن تطلبوا ابنا للنبي فلن تروا ... سواي مقال منه غير مفند "

" بدا سيديا ظهر الرسول قد ارتقى ... فقر ولم يعجله وهو بمسجد "

" فقالوا له طال السجود فقال لا ... ولكنما ابني خفت إن قمت بشرد "

" وكان الحسين الصارم الحازم الذي ... متى يقصر الأبطال في الحرب يشدد "

" شبيه رسول الله في البأس والندى ... وخير شهيد ذاق طعم المهند "

" لمصرعه تبكي العيون وحققها ... فله من جرم وعظم تمرد "

" فبعدا وسحقا لليزيد وشمره ... ومن سار مسرى ذلك المقصد الردي "

ومنها في ذكر حمزة رضي الله تعالى عنه

" ومن مثل ليث الله حمزة ذي الندى ... مبيد العدا مأوى الغريب المطرد "

" فكم حز أعناق العدا بسيفه ... وذبح عن المختار كل مشدد "

" فقال رسول الله هذا أمرته ... ولي أسد صار لدى كل مشهد "

" وقال أبو جهل أصبت محمدا ... بما ساءه فاهتز هزة سيد "

" وأهوى له بالقوس ما بين قومه ... وقال وأخرى بالحسام المهند "

" وقال له إني على دينه فإن ... أطقفت فخرج عن طريقي واررد "

" فذل أبو جهل وأبدي تلطفا ... ومن ينصر الحق المبين يؤيد "

" فعاد وقد نال السعادة واهتدى ... وأضحى لدين الله أكرم مسعد "

" وفي يوم بدر حث عند سؤالهم ... لما شهدوا من بأسه المتوقد "

" لمن كان إعلام بريش نعامة ... بشردنا مثل النعام المشرد "

" فذاك الذي والله قد فعلت بنا ... أفاعيله في الحرب ما لم نعود "

" وفي أحد نال الشهادة بعدما ... أذاق سباعا للردى شر مورد "

" ففاز وأضحى سيد الشهداء في ... ملائكة الرحمن يسعى ويغندي "

" وصلى رسول الله سبعين مرة ... عليه إلى تنتين عند التعدد "

" وقال مصاب لن نصاب بمثله ... وإن كان لي يوم سأجزى بأزيد " وأسمعهم لكن حمزة ما له ... وبشر بالنار النوائح ما عدي " نوائحه ... وقلن يا أعين إسعدي "

" وزاد إلى فضل العمومة أنه ... أخوه رضاعا هكذا المجد فاشهد " وما زال ذا عرض مصون عن الأذى ... ومال مهان في العطايا مبدد " كريم متى ما أوقد النار للقرى ... تجد خير نار عندها خير موقد " ومنها في ذكر العباس رضي الله تعالى عنه

" وقد بلغ العباس في المجد رتبة ... تقول لبدر التم قصرت فابعد " ألا إنه فضل السقاية قد حوى ... فكان لوفد الله أكرم مورد " وكان طويل الباع في الباس والندى ... كريما متى يسترفد القوم يرفد " ويوم حنين ليس ينسى ثباته ... ودعوته مستنجد كل منجد " وقال رسول الله فيه علي ما ... عليه وأيضا مثله في التزيد " إلا إن عم المرء صنو أبيه كي ... يزيدهم في بره المتأيد " وبشره أن الخلافة في الوري ... لأولاده من سيد ومسود " بشيئته استسقوا إذ المحل شامل ... فجاءهم غيث سقى كل فدود " انتهى ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة وليس بيدي الآن ديوان شعره حتى أكتبها بكمالها فإنها مناسبة لهذا الباب الذي جعلناه ختما للكتاب كما لا يخفى ومن مقطعات ابن جابر

" شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن ... سوى سكب دمعي في محبتها كسبي " وما أصل هذا كله غير نظرة ... إلى مقلّة منها أضعت لها قلبي "

وقال

" قد بان عذري في مليح له ... لحظا رشا يلحظ من دعر " إنني على الهجر مطيع له ... ممثّل في السر والجهر "

وقال

" هذا الرشا يقنص ليث الشرى ... بنظرة منه فلا مخلص " لو عارض العاذل يوما له ... لكان من أول ما يقنص "

368 - وقال

" ظبية في ثغرها لعس ... يجتنى من رشفه عسل " سلك التيه بمقلتها ... مسلكا قد زانه كسل "

وقال

" رقم الخال خدها فرأينا ... قمر الأفق فيه نقطة ليل " قلت أين الكئيب والغصن قالت ... كل ما قد ذكرته تحت ذيلي "

وقال

" إن خفت من فتك المهند والقنا ... فإذا رنت وإذا مشت لا تقرب " في قلب برقعها محاسن أنزلت ... قمر السماء لنا بقلب العقرب "

وقال

" رأى عذولي حسنها بعدما ... حقق كوني للهوى جانحا " فقال إن كنت محبا لها ... فقد حمدنا رأيك الناجحا "

وقال

" ذكر الله بالمربة عيشا ... لست عن ذكره الجميل أحول " طال عهدي بها وما دمت حيا ... لا يزيد الرجاء بل قد يطول "

وقال

" مرت ليال بالمربة طالما ... قضيت من ليل بهن مآريا " لم أسل عن تلك الديار وإنما ... جعل القضاء لكل نفس غالبا "

369 - وقال

" لا تعفني عن العقيق فإني ... بين أكنافه تركت فؤادي " وعلى تربه وقفت دموعي ... ولسكانه وهبت ودادي "

وقال

" عرف المنزل الذي دار فيه ... زمن الأئس والشباب النصير "
" فشجاه قلب التلاقي فراقا ... وانثنى عنه ذا فؤاد كسير "

وقال

" جمال هذا الغزال سحر ... يا حبذا ذلك الجمال "
" هلال خديه لم يغيب ... عنى وإن غيب الهلال "
" غزال أنس يصيد أسدا ... فاعجب لما يصنع الغزال "
" دلالة دل كل شوق ... علي إذ زانه الدلال "
" كماله لا يخاف نقصا ... دام له الحسن والكمال "
" نباله قد رمت فؤادي ... يا حبذا تلکم النبال "
" حلال وصلبي له حرام ... وحكم قتلي له حلال "
" زلال ذاك الحمى حياتي ... وأين لي ذلك الزلال "
" قتاله لا يطاق لكن ... يعجبني ذلك القتال "

وقال

" بين تلك الخيام أكرم حي ... طربت للندى عليهم خيام "
" قد أقاموا بين العقيق ولسع ... فحياة النفوس حيث أقاموا "

وقال

" إذا جئت نجدا كرم الله عهده ... فسلم علي أهل المنازل من نجد " 370 "
" لئن حال بعد الدار بيني وبينهم ... فإني لأرعاهم على ذلك البعد "

وقال

" خجلت عندما نظرت إليها ... وانثنت وهي بين تيه ومنع "
" إنما ورد خدها زرع طرفي ... حين مروا فكيف أحرم زرعي "

وقال

" لك نفسي إذا بدت لك نجد ... فلقد سرنني الزمان بنجد "
" فلتلك الخيام عندي عهد ... وأبى الله أن أضيع عهدي "

وقال

" سل عن القوم إن بدت لك سلع ... ففؤادي عند الذين بسلع "
" لي على تلکم المعاهد دمع ... كاد يغني بها عن اللث دمعني "
" وقال صفحوا عن محبهم وأقالوا ... من عثار النوى ومنوا بوصل "
" لست أستوجب الوصال ولكن ... أهل تلك الخيام أكرم أهل "

وقال

" مال الزمان بهم عنى وقد بعدوا ... لم يلهني عنهم أهل ولا مال "
" إنني لأخشى وما الأيام طوع يدي ... أني أموت ولي في القلب آمال "

وقال

" بين وادي النقا وبان المصلى ... ملأ ألبسوا الوجود جمالا "
" إن يكن قد نوى لي الدهر قريبا ... منهم فهو قد كفاني نوالا " 371 "

وقال

" زرت الديار عن الأحبة سائلا ... ورجعت إذلالا بدمع سائل "
" ونزلت في ظل الأراكة قاتلا ... والربع أحرص عن جواب القائل "

وقال

" لا أوحش الله المنازل منهم ... منهم غدت تلك الديار حسانا "
" فاشكر لدهرك أن أراك بحاجر ... بان الحمى وأراكه قد بانا "

وقال

" لك يا وادي العقيق علينا ... كل ما شئت من ذمام وثيق "
" فمن البر أنني أتبرى ... من عقوق لمنزل بالعقيق "

وقال

" يا أهل ذي سلم بشرى لمستلم ... ذاك الثرى مقدم في السير لم ينم "
" يؤم دارا بها خير الورى حسبا ... الخاتم الرسل من عرب ومن عجم "
ولنقتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضوع على هذا المقدار وإنما أطنبت فيه لما تقدم من

الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيقه بحق المذكور وحق رفيقه مع أنه أطال فيمن دونهما
من أهل عصره وأيضا فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهدا كل الاشتهار
وكان خبرهما في لشرق أشهر

من شعر رفيق ابن جابر
وأما رفيقه شارح بديعته فقد ذكرنا في غير هذا الموضوع بعض حاله وكلامه ولنزد هنا ما تيسر
فبقول من نظمه

" لئن حال بعد الدار بيني وبينهم ... فإنني لأرعاهم على ذلك البعد "
وقال

" خجلت عندما نظرت إليها ... وانثنت وهي بين تيه ومنع "
" إنما ورد خدها زرع طرفي ... حين مروا فكيف أحرم زرعني "

وقال
" لك نفسي إذا بدت لك نجد ... فلقد سرنبي الزمان بنجد "
" فلتلك الخيام عندي عهد ... وأبى الله أن أضيع عهدي "

وقال
" سل عن القوم إن بدت لك سلع ... ففؤادي عند الذين بسلع "
" لي على تلكم المعاهد دمع ... كاد يعني بها عن اللث دمعني "

وقال
" صفحوا عن محبهم وأقالوا ... من عثار النوى ومنوا بوصل "
" لست أستوجب الوصال ولكن ... أهل تلك الخيام أكرم أهل "

وقال
" مال الزمان بهم عندي وقد بعدوا ... لم يلهني عنهم أهل ولا مال "
" إنني لأخشى وما الأيام طوع يدي ... أني أموت ولي في القلب آمال "

وقال
" بين وادي النقا وبان المصلى ... ملأ ألبسوا الوجود جمالا "
" إن يكن قد نوى لي الدهر قريبا ... منهم فهو قد كفاني نوالا "

وقال
" زرت الديار عن الأحبة سائلا ... ورجعت إذلالا بدمع سائل "
" ونزلت في ظل الأراكة قائلا ... والريع أخرس عن جواب القائل "

وقال
" لا أوحش الله المنازل منهم ... منهم غدت تلك الديار حسانا "
" فاشكر لدهرك أن أراك بحاجر ... بان الحمى وأراكه قد بانا "

وقال
" لك يا وادي العقيق علينا ... كل ما شئت من ذمام وثيق "
" فمن البر أنني أتبرى ... من عقوق لمنزل بالعقيق "

وقال
" يا أهل ذي سلم بشرى لمستلم ... ذاك الثرى مقدم في السير لم ينم "

" يؤم دارا بها خير الورى حسبا ... الخاتم الرسل من عرب ومن عجم "
ولنقتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضوع على هذا المقدار وإنما أطنبت فيه لما تقدم من
الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيقه بحق المذكور وحق رفيقه مع أنه أطال فيمن دونهما
من أهل عصره وأيضا فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهدا كل الاشتهار
وكان خبرهما في الشرق أشهر

من شعر رفيق ابن جابر
وأما رفيقه شارح بديعته فقد ذكرنا في غير هذا الموضوع بعض حاله وكلامه ولنزد هنا ما تيسر
فبقول من نظمه

" لما عدا في الناس عقرب صدغها ... كفت أذاه من الورى بالبرقع "
" والصبح تحت خمارها متستر ... عنا متى شاءت تقول له اطلع "

وقال
" تجنت فجن في الهوى كل عاقل ... رأها وأحوال المحب جنون "

" وما وعدت إلا عدت في مطالها ... كذلك وعد الغانيات يكون "

وقال

" لا تجدوا في الهوى علي كلف ... نظيره في الغرام لن تجدوا "

" لهفان ما يشتكي إلى أحد ... ظمآن غير الدموع لا يرد "

وقال

" رب ليل قطعته بالجزيره ... فتذكرت أهلنا بالجزيره "

" قصر الأنس ماتناول منه ... وكذا أ زمن السرور يسيره "

قال والجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمى بالعاصي والثانية جزيرة الأندلس وله أيضا

" وما لي والتزين يوم عيد ... وجيد صابتي بالدمع حالي "

" وقد أرسلت أشهبها بريدا ... وبعد كميتها ينبي بحالي "

والمراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء وبالكميت الدمع المشوب بالدم قال رحمه الله في شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصه قلت وكان هذا الوادي المبارك زمن عثمان رضي الله تعالى عنه ذا قصور محتفة وحدائق ملتفة وبنيان مشيد ونخل طلعه نضيد وجنات تؤتي أكلها كل حين

وسواق تجري به بماء معين ثم لعبت به أيدي السنين وغيرت معالمه فصار عبرة للناظرين فلم يبق من معاهده إلا آثار تشهد بحسنه ونضرة نعيم تدل على ما سلف من نضارة غصنه وقد خرجنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا بالمدينة الشريفة وهو يتدفق بمائه ويعارض بجوهر حبابه أنجم سمائه ووجع سالت شعابه وفاض عيابه والناس تفرقوا في جهاته وافترشوا غض نباته والشيخ قد توشح بالندى والأنس قد راح به وغدا والأصيل مذهب الرداء والبيداء مخضرة الأنداء وبحافته آثار قصور ليس لها في الحسن قصور قد بليت وحسنها جديد وخربت وربعا بالأنس مشيد انتهى

ومن بديع نظمه قوله

" مهلا فما شيم الوفا منقادة ... لمن ابتغى من نيلها أوطارا "

" رتب المعالي لا تنال بحيلة ... يوما ولو جهد الفتى أو طارا "

وقوله رحمه الله تعالى

" على وادي العقيق سكبت دمعي ... بلا عين فيبدو كالعقيق "

" فكم غصن وريق منه يحكي ... قوام رشا شهى فم وريق "

وقال

" سألتك بالله يا من غدا ... يصرف بالقلب أفعاله "

" تدارك محبا بدرياق وصل ... فإن بعادك أفعى له "

وقال

" لا تأمننه على القلو ... ب فممه أصل غرامها "

" فلحاطه هن التي ... رمت الورى بسهامها "

ومن فوائده رحمه الله تعالى في شرح البديعية ما نصه ومن غريب ما في لدى أن أبا علي حكى في تذكرته عن المفضل أنه أتت بمعنى هل وأنشد

" لدى من شباب يشتري بمشيب ... وكيف شباب المرء بعد ذهاب "

رجع وقال رحمه الله تعالى يتشوق إلى حمراء غرناطة

" ذابت على الحمراء حمر مدامعي ... والقلب فيما بين ذلك ذائب "

" طال المدى بي عنهم ولربما ... قد عاد من بعد الإطالة غائب "

وقال

" ما هب من نحو السبيكة بارق ... إلا غدا شوقي لقلبي شابكا "

" والله ما اخترت الفراق لربعا ... لكن قضاء الله أوجب ذلكا "

وقال

" منازل سلمى إن خلت فلطالما ... بها عمرت في القلب مني منازل "

" رسائل شوقي كل يوم تزورها ... وما ضيعت عند الكرام الرسائل "

وقال

" بجور الوداع لنا موقف ... أذاب الفؤاد لأجل الوداع "

" فما أنا أنسى غداة النوى ... وحادي الركائب للبين داعي "

قال وجور الوداع موضع بظاهر غرناطة عادة من سافر أن يودع هناك
وقال

" ناولته وردة فاحمر من خجل ... وقال وجهي يغنيني عن الزهر "
" الخد ورد وعيني نرجس وعلى ... خدي عذار كريحان على نهر "
وقال رحمه الله تعالى في التشريع

" يا راحلا يبغي زيارة طيبة ... نلت المنى بزيارة الأخيار "
" حي العقيق إذا وصلت وصف لنا ... وادي منى بأطياب الأخبار "
" وإذا وقفت لدى المعرف داعيا ... زال العنا وظفرت بالأوطار "

وقال

" يا أولا في المرسلين وأخرا ... الله خصك بالكمال ليرضيك "
" من قبل آدم قد جعلت نبيه ... قدما فقدمك الإله ليعليك "
" أوحى إليك لكي تكون حبيبه ... ويتم نعمته عليك وبهديك "

وقال

" صيرتني في هواك اليوم مشتهرا ... لا قيس ليلى ولا غيلان في الأول "
" زعمت أن غرامي فيك مكتسب ... لا والذي خلق الإنسان من عجل "

وقال

" لا تعاد الناس في أوطانهم ... قلما يرعى غريب الوطن "
" وإذا ما شئت عيشا بينهم ... خالق الناس بخلق حسن "

وقال

" نسختي اليوم في المحبة أصل ... فعليها اعتماد كل عميد "
" نقلوا مرسل المدامع منها ... وصحيح الهوى بغير مزيد "
" قد رواها قبلي جميل وقيس ... حين هاما بكل لحظ وجيد "
ومن فوائده أنه لما أنشد في طراز الحلة قول سعد الدين محمد بن عربي في ابن مالك
" ... إن الإمام جمال الدين فضله "

إلى آخره قال ما ملخصه ولما أورده الصفدي في فض الختام قال هذا في غاية الحسن لو كان
الكتاب المذكور يسمى الفوائد وإنما هو تسهيل الفوائد فذكر المضاف إليه دون المضاف وهي تورية
ناقصة قلت ابن مالك له كتابان أحدهما الفوائد صنعه أولا ثم صنع تسهيل الفوائد بعده وكأنه سهل
فيه كتاب الفوائد وكنت وقعت على هذا الكتاب المسمى بالفوائد ببلدنا غرناطة فلما وصلنا إلى
هذه البلاد بحثنا عنه فلم نجده وتمادى الأمر على ذلك إلى سنة 760 فوجدناه في حلب وهو الآن
عندنا وهو عزيز الوجود ولذلك خفي على القاضي صلاح الدين انتهى وبعضه بالمعنى
وقال أبو جعفر أحمد المترجم به كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين خليل الناسخ
" مددت النوى وفصرت اللقا ... أترضى بهذا وأنت الخليل "
" وتترك أحمد ذا وحشة ... لديك وأنت له ابن جليل "

وقال

" قد كان لي أنس بطيب حديثكم ... والآن صار حديثكم برسول "
" ولقد مددت من النوى مقصوره ... إن الخليل يراه غير جميل "
وله رحمه الله تعالى

" ما للنوى مدت وأنت خليلنا ... ولقبل قد قصرت برغم الكاشح "
" أتبع في ذا مذهبا لا يرتضى ... أبدا وليس الرأي فيه بصالح "

وله

" ولما رأى الحساد منك التفاتة ... إلى جانب الله الذي كان مرفوضا "
" أضافوا إلى عليك كل نقيصة ... حقيق لدينا بالإضافة مخفوضا "

وله

" حسنك ما بين الورى شائع ... قد عرف الآن بلام العذار "
" فجاء منه مبتدا للهوى ... خبره الآس مع الجنار "

ولنقتصر على هذا المقدار إلى هنا

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى

وقد قدمنا أن علي بن لسان الدين كان نديم السلطان وخاصته كما ذكرنا في مخاطبته لابن مرزوق

في الباب الخامس قوله فالسلطان يرعاه الله تعالى بوجوب ما فوق مزية التعظيم والولد هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظ قل أن ينالوه بغير هذا الإقليم والخاصة والعامّة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم وترك لما بالأيدي وتسليم وتديبير عاد على عدوها بالعذاب الأليم إلا من أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد بحال السليم انتهى

ولقد صدق رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصح وغيره

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطان ونصه من عبد الله أمير المسلمين محمد وصل الله تعالى سعده وبلغه من فضله العميم قصده إلى أوليائنا المخصوصين منا ومن سلفنا بدمام الجوار القريب والمساكنة التي لا يتطرق إلى حقها الذي بني استرابة المستررب المعتمدين إذا عدت الرعايا وذكرت المزايا بمزيد الاعتناء والتقريب من الأشياخ الجلة الشرفاء والعلماء والصدور الفقهاء والعدول الأذكياء والأعيان

الوزراء والحماة المدافعين عن الأرجاء والأمناء الثقات الأنقياء والكافة الذين نصل إليهم عوائد الاعتناء ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السواء من أهل حضرنا غرناطة المحروسة بفضل الله تعالى وربضها شرح الله تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صدورهم وكنف بنتائج الاستقامة سرورهم وأصلح بعنايته أمورهم واستعمل فيما يرضيهم وأمورهم سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته

أما بعد حمد الله الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباسا والذكرى لبناء المتاب أساسا والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي هदानا إلى الفوز العظيم ابتغاء لرحمته والتماسا والرضى عن آله الذين اختارهم له ناسا وجعلهم مصابيح من بعده اقتداء واقتباسا فإننا كتبناه إليكم كتب الله تعالى إعزازكم وحرس أحوازكم وجعل للعمل الصالح اهتزازكم ويقبول النصائح امتيازكم من مستقرنا بمحروسة الحمراء حماها الله سبحانه ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هداية تظهر على الأقوال والأعمال وعناية تحف من اليمين والشمال وتوكل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال وأنتم أولياؤنا الذين لا ندخر عنهم نصحا ولا نهمل تديبيرهم ما يثمر نجحا وبحسب هذا الاعتقاد لا تغفل عن نصيحة ترشدكم إذا غفلتم وموعظة نقصها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واختلفتم وذبح عنكم تارة بسلم تعقدها ومطاوله نسدها وتارة بسيوف في سبيل الله تعالى نحددها وعمارة للشهادة نرددها ونفوس بوعد الله نعدها ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم وبالكد لتندع صبيانكم وولدانكم وبافتحام المخاوف ليتصل أمانكم ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا أو امكننا ان لا تفصلكم رعية بصلاح دين أو دينا لفعلنا هذا شغل زماننا منذ عرفناه ومرمى همنا مهما استهدفناه وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم وملانا طاعتكم وحرّم علينا إضاعتكم والراعي إذا لم يقصد بسائمته المراعي الطبية وينتجع مساقط الغمام الصيبة ويوردها الماء النмир ويبتغ لها النماء والتثمير ويصلح خللها ويداو عللها قد عددها وعدمت غلتها وولدها فندم على ما ضيعه في أمسه وحنى عليها وعلى نفسه

وألفيناكم في أيامنا هذه الميامن عليكم قد غمرتكم آلاء الله تعالى ونعمه وملأت أيديكم مواهبه وقسمه وشغل عدوكم بفتنة قومه فنتمم للعافية فوق مهاد وبعد عهدكم بما تقدم من جهد وجهاد ومخمصة وسهاد فأشفقنا أن يجركم توالي الرخاء إلى البطر أو تحملكم العافية على الغفلة عن الله تعالى وهي أخطر الخطر أو تجهلوا مواقع فضله تعالى وكرمه أو تستعينوا على معصيته بنعمه فمن عرف الله تعالى في الرخاء وجدّه في الشدة ومن استعد في المهل وجد منفعة العدة والعافل من لا يغتر في الحرب أو السلم بطول المدة فالدهر مبلي الجدة ومستوعب العدة والمسلمون إخوانكم اليوم قد شغلوا بأنفسهم عن جبركم وسلموا لله في نصركم ونشبت الأيدي ولا حول ولا قوة إلا بالله بنعركم وأهمتهم فتن تركت رسوم الجهاد خالية خاوية ورياض الكتائب الخضر ذابلة ذابوية فإن لم تشمروا لما بين أيديكم في هذه البرهة فماذا تنتظرون وإذا لم تستنصروا بالله مولاكم فيمن تستنصرون وإذا لم تستعدوا في المهل فمتى تستعدون لقد خسر من رضي في الدنيا والآخرة " بالدون فلا تأمنوا مكر الله " فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون

ومن المنقول عن الملل والمشهور في الأواخر والأول أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم وأظلم ما بينهم وبين ربهم وانقطعت عنهم الرحمت ووقعت فيهم المثلات والنقمت وشحت السماء وغيض الماء واستولت الأعداء وانتشر الداء وجفت الضروع وأخلفت الرضوع فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة والذكرى التي توقظ من السنة ونقرع أذانكم بقوارع الألسنة فأفزعوا الشيطان بوعيها وتقربوا إلى الله تعالى برعيها الصلاة الصلاة فلا تهملوها ووظائفها المعروفة فكمملوها فهي الركن الوثيق والعلم المائل على جادة الطريق والخاصة التي يتميز بها هذا

الفريق وبادروا صفوفها الماثلة وأتبعوا فريضة النافلة وأشرعوا إلى تاركها أسنة الإنكار واغتنموا بها نواشىء الليل وبوادي الأسحار والزكاة أختها المنسوبة ولدتها المكتوبة المحسوبة فمن منعها فقد يخل على مولاه باليسير مما أولاه وما أحقه بذهاب هبة الوهاب وأولاه فاشترتوا من الله تعالى كرائم أموالكم بالصدقات وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف النفقات وواسوا سؤالكم كلما نصبت الموائد وأعيدت \ للترفة العوائد وارعوا حق الجوار وخذوا على أيدي الدعة والفجار وأخرجوا الشنآن من الصدور واجعلوا صلة الأرحام من عزم الأمور وصونوا عن الاعتياب أفواهمكم ولا تعودوا السفاهة شفاهمكم وأفرضوا القرض الحسن إليهم وعلموا القرآن صبيانكم فهو أس المبنى وازرعوه في تراب ترائبهم فعسى أن يجنى ولا تتركوا النصيحة لمن استنصح وردوا السلام على من بتحية الإسلام أفصح وجاهدوا أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم وثابروا على حلق العلم والتعلم وحفوا بمراقي التكلم وتعلموا من دينكم ما لا يسعكم عند الله تعالى جهله ويتبين أنكم أهله فمن القبيح أن يقوم أحدكم على به وقاية بره وشعيه ورعاية شاته وبغيره ولا يقوم على شيء يخلص به قاعدة اعتقاده ويعدده منجاة ليوم معاده والله عز وجل يقول ولقوله يرحل المنتجعون " " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون

وأنفوا من الحوادث الشنيعة والبدع التي تفت في عضد الشريعة فقد شن علينا الملبسة بأهل التصوف المغار ونال حملتها بل حملتها بإغماضهم الصغار وتوول المعاد والجنة والنار وإذا لم يغر الرجل على دينه ودين أبيه فعلى من يغار فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء هم أئمة الاقتداء والكواكب التي عينها الحق للاهتداء فاحذروا معاطب هذا الداء وفسائس هذه الأعداء

وأهم ما صرفتم إليه الوجوه واستدفعتم به المكروه العمل بأمره جل وعلا في الآية المتلوة والحكمة السافرة المجلوة من ارتباط الخيل وإعداد القوة فمن كان ذا سعة في رزقه فليقم لله بما استطاع من حقه وليتخذ فرسا يعمر محلته بصهيله ويقننه من أجل الله وفي سبيله فكم يتحمل من عيال يلتمس مرضاتهن باتخاذ الزينة والتنافس في ترف المدينة ومؤونة الارتباط أقل وعلى الهمة والدين أدل إلى ما فيه من حماية الحوزة وإظهار العزة ومن لم يحسن الرمي فليتدرب وياتخذ السلاح إلى الله فليتقرب وقبل الرمي تراش السهام وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام والسكة الجارية في حوادث نواديكم وأثمان العروض التي بأيديكم من تحيف حروفها ونكر معروفها أو سامح في قبول زيف أو مبخوس حيف فقد اتبع هواه وخان نفسه وسواه قال الله عز وجل " أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين " ولتعلموا أن نبيكم صلوات الله عليه إنما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضياً وعن الهفوات حليماً متغاضياً فتمسكوا بحبله ولا تعدلوا عن سبيله بروكم الله تعالى من سجله ويراعكم من أجله مراعاة الرجل لنجله فهو الذي يقول " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون " وإن كان في وطنكم اليوم سعة وقد ألحفكم أمن من الله تعالى ودعة فاحسبوا أنكم في بلد محصور وبين لحيي أسد هصور اكنتمكم

بحر يعب عبابه ودار بكم سور بيد عدوكم بابه ولا يدرى متى ينتهي السلم وينشعب الكلم فإن لم تكونوا بناء مرصوصا وتستشعروا الصبر عموماً وخصوصاً أصبح الجناح مقصوداً والرأي قد سلبتة الحيرة والمال والحريم قد سلبت فيه الصنارة والغيرة وإن شاء الله تهب ريح الحمية ونصرة النفوس على الخيالات الوهمية فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين والله متم نوره على رغم الجاحدين وكره " الكافرين " وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين واعتقدوا أن الله تعالى لم يجعل الظهور مقروناً بعدد كثير ولو مثل جراد مزرعة أثارها مثير بل بإخلاص لا يبقى لغير الله افتقاراً ونفوس توسع ما سوى الحق اقتداراً ووعد يصدق وبصائر أبصارها إلى مثابة الجزاء تحديق وهذا الدين طهر مع الغربة وشطف التربة فلم ترعه الأكاسرة وفيولها والقياصرة وخيولها دين حنيف وعلم منيف من وجوه شطر المسجد الحرام تولى وآيات على سبعة أحرف تتلى وزكاة من الصميم تنتقى ومعارج ترتقى وحج وجهاد ومواسم وأعياد ليس إلا تكبير شهير وأذان جهير وقوة تعد وثغور تسد وفيء يقسم وفخر يرسم ونصيحة تهدي وأمانة تؤدي وصدقة تخفي وتبدي وصدور تشرح وتشفي وخلق على خلق القرآن تخذي وتغفي قبض رسول الله وهذا العقد قد سجل والوعد به قد عجل " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً " ولا ينقطع لهذا الفرع عادة وصله ما دام شبيهاً بأصله وإنما هو حلب لكم " زبدته الممخوذة وخلصته الممخوذة والعاقبة للمتقين " ولتعلمن نبأه بعد حين وحضرتكم اليوم قاعدة الدين وغاب المجاهدين وقد اخترعت بنا أيامنا هذه وأيام والدنا المقدس الآثار

الكبار والحسنات التي تنقلت بها الأخبار وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة والمنقبة المبرورة وهي بيمارستان يقيم منكم المرضى المطرحين والضعفاء المغتربين منهم والمعترضين في كل حين فأنتم تطؤونهم بالأقدام على مر الأيام ينظرون إليكم بالعيون الكليلة ويعربون عن الأحوال الدليلة وضرورتهم غير خافية وما أنتم بأولى منهم بالعافية والمجانين تكثر منهم الوقائع وتفشو منهم إمامته العهد الذائع عار تحظره الشرائع وفي مثله تسد الذرائع

وقد فضلتم أهل مصر وبغداد بالرباط الدائم والجهاد فلا أقل من المساواة في معنى والمنافسة في مبنى يذهب عنكم لؤم الجوار ويزيل عن وجوهكم سمات العار ويدل على هممكم وفضل شيمتكم أهل الأقطار وكم نفقة هانت على الرجل في مشروع وحرص اعتراه على ممنوع فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع ولولا اهتمامنا بمرتقة ديوانكم وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم لسبقناكم إلى هذه الزلفة وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمل الكلفة ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنة بنائه وأسهمناكم في فريضة أجره وثناؤه فنحن إن شاء الله تعالى نعين له الأوقاف التي تجري عنها المرفقة وتتصل عليه بها الصدقة تأسيلاً لفخركم وإطابة في البلاد لذكركم فليشاور أحدكم همته ودينه ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمينه ونسال الله تعالى أن يوفق كلا لهذا القصد ويعينه ومن وراء هذه النصائح عزم ينهيهما إلى غايتها ويجبر الكافة على اتباع رأيها وربايتها فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول وتلقوا داعي الله تعالى فيها بالقبول والدنيا مزرعة الآخرة وكم معتبر للنفوس الساخرة بالعظام الناخرة " يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " وأنتم اليوم أحق الناس بقبول الموعدة نفوساً زكية وفهوماً لا قاصرة ولا بطية وموطن جهاد ومستسقى غمام من رحمة الله تعالى وعهاد وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن وألقوا فيها العطن فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم وصحة إيمانكم وتساوي إسراركم وإعلانكم اللهم إنا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحملة وبلغناهم نصيحتكم المكملة ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤملة فيسيرنا وإياهم لليسرى وعرفنا لطائفك التي خفي فيها المسرى ولا تجعلنا ممن صم عن النداء وأصبح شماتة الأعداء فما ذل من استنصر بجنايك ولا ضل من استنصر بسنتك وكتابك ولا انقطع من توسل بأسبابك والله سبحانه يصل لكم عوائد الصنع الجميل ويحملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى

ومن ذلك قوله رحمه تعالى الله على لسان السلطان بعد كلام الله الله في الهمم فقد خمدت ريحها والله الله في العقائد فقد خفيت مصابيحها والله الله في الرجولية فقد فل حدها والله الله في الغيرة فقد تعسر جدها والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله والله الله في الحريم فقد مد إلي استرقاقه يد تأميله والله الله في الملة التي يريد إطفاء سناها وقد كمل فضلها وتناهى والله الله في الحريم والله الله في الدين الكريم والله الله في القرآن والله الله في الجيران والله الله في الطارف والناالد والله الله في الوطن الذي توارثه الولد عن الوالد اليوم تستأسد النفوس المهينة اليوم يستنصر الصبر والسكينة اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذمم اليوم يسلك سبيل العزم والحزم والشدة والشمم اليوم يرجع إلى الله المصرون اليوم يفيق من نوم الغفلة المغترون قبل أن يتفاقم الهول ويحق القول ويسد الباب ويحيق العذاب ويسترق الكفر الرقاب فالنساء تقي بأنفسهن أولادهن الصغار والطيور ترفرف لتحمي الأوكار إذا أحست العيث بأفراخها والإضرار تمر الأيام عليكم مر السحاب وذهاب الليالي لكم ذهاب فلا خير يفضي إلى العين ولا حديث في الله تعالى يسمع بين اثنين ولا كد إلا لزينة يحلى بها نحر وجيد ولا سعي إلا لمتاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد وبالأمس ندبتم إلى التماس رحمتي مسخر السحاب واستقالة كاشف العذاب وسؤال مرسل الديمة ومحبي البشر والبهيمة وقد أمسكت عليكم رحمة السماء وأغبرت جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء " وفي السماء رزقكم وما توعدون " وإليها الأكف تمدون وأبوابها بالدعاء تقصدون فلم يصح منكم عدد معتبر ولا ظهر للإناية ولا الصدقة خير وتثوقل عن إعادة الرغبة إلى الولي الحميد والغني الذي " إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد " وإيم الله لو كان لهوا لارتقت الساعات وضقت المتسعات وتزاحمت على أُنديته الجماعات أتعززا على الله وهو القوي العزيز أتلبيسا على الله وهو الذي يميز الخبيث من الطيب والشبه من الإبريز أمعاندة والنواصي في يديه أغرورا بالأمل والرجوع بعد إليه من يبدأ الخلق ثم يعيده من ينزل الرزق ويعيده من يرجع إليه في الملمات من يرجى في الشدائد والأزمات من يوجد في المحيا

والممات أفي الله شك يختلج القلوب أثم غير الله يدفع المكروه ويبسر المطلوب تفضلون على اللجا إليه عوائد الفضل ونزه الجهل وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته تمد إليه الأيدي والرقاب وتستكشف بالخضوع لعظمته العقاب وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب وكانكم عن كرمه قد اشتغنيتم أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم

أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله عليه من التبليغ باليسير والاستعداد للرحيل إلى دار الحق والمسير ومداومة الجوع وهجر الهجوع والعمل على الإياب إلى الله تعالى والرجوع دخلت فاطمة رضي الله تعالى عنها ويدها كسرة شعير فقال ما هذا يا فاطمة فقالت يا رسول الله خبزت قرصة وأحببت أن تأكل منها فقال يا فاطمة أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث وكان يستغفر في اليوم سبعين مرة يلتمس رحماه ويقوم وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى ورمت قدماه وكان شأنه الجهاد ودأبه الجد والاجتهاد ومواقف صبره تعرفها الربى والوهاد ومقامات رفقه تحوم على مراتبها الزهاد فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون وإذا لم تهتدوا به فبمن تهتدون وإذا لم ترضوه باتباعكم فكيف تعززون إليه وتنتسبون وإذا لم ترغبوا في الانصاف بصفاته غضبا لله تعالى وجهادا وتقللا من العرض الأدنى وسهادا فقيم ترغبون

فابتروا حبال الآمال فكل أت قريب واعتبروا بمثلات من تقدم من أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب وتفكروا في منابرها التي يعلو عليها واعظ وخطيب ومطيل ومطيب ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة المعمورة بأنواع الطاعة وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم وعاقب الجمهور بما أغضوا عنه عيونهم وساءت بالغفلة عن الله تعالى عقبى جميعهم وذهبت النقمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم وأصبحت مساجدهم مناصب للصلبان واستبدلت ماآذنهم بالنواقيس من الأذان هذا والناس ناس والزمان زمان فما هذه الغفلة عمن إليه الرجعة وإليه المصير وإلى متى التساهل في حقوقه وهو السميع البصير وحتى متى مد الأمل في الزمان القصير وإلى متى نسيان اللجا إلى الولي النصير قد تداعت الصلبان مجلبة عليكم وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم وألسنة الآيات تنادىكم لم تمتح سطورها ولا احتجب نورها وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل وصابر فيها كل خطب جليل فوالله لو تمحض الإيمان ورضي الرحمن ما ظهر التثليل في هذه الجزيرة على التوحيد ولا عدم الإسلام فيها عادة التأييد لكم شمل الداء وصر النداء وعميت الأبصار فكيف الاهتداء والباب مفتوح والفضل ممنوح فتعالوا نستغفر الله جميعا فهو الغفور الرحيم ونستقل مقيل العثار فهو الرؤوف الحليم ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم سدت الأبواب وضعفت الأسباب وانقطعت الآمال إلا منك يا فتاح يا وهاب " يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين " " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون " أعدوا الخيل واربطوها وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها فمن خاف الموت رضي بالندية ولا بد على كل حال من المنية والحياة مع الذل ليست من شيم النفوس السنية واقتنوا السلاح والعدة وتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدة واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم واستميتوا من دون أبنائكم وكونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدو النازل بفنائكم وحوطوا بالتعديل على الله تعالى وحده بلادكم واشتروا من الله جل جلاله أولادكم ذكروا أن امرأة احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين فأشار عليها بالصدقة فتصدقت برغيف فأطلق السبع ولدها وسمعت النداء يا هذه لقمة بلقمة وإنما لما استودعناه لحافظون

واهجروا الشهوات واستدركوا البقية من بعد الفوات وأفضلوا لمساكينكم من الأقوات واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمت والمواساة في المهمات وأيقظوا جفونكم من السنات واعلموا أنكم رضاء ندي كلمة التوحيد وجيران البلد الغريب والدين الوحيد وحزب التمحيص ونفر المرام العويص فتفقدوا معاملاتكم مع الله تعالى ومهما رأيتم الصدق غالبا والقلب للمولى الكريم مراقبا وشهاب اليقين ثاقبا فتقوا بعناية الله التي لا يغلبكم معها غالب ولا ينالكم لأجلها عدو مطالب فإنكم في الستر الكنيف وكنف الخبير اللطيف ومهما رأيتم الخواطر متبذدة والظنون في الله مترددة والجهات التي تخاف وترجى متعددة والغفلة عن الله ملامسها متجددة وعادة دواعي الخذلان دائمة وأسواق الشهوات قائمة فاعلموا أن الله تعالى منفذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عدوان إلا على الظالمين والتوبة ترد الشارد إلى الله تعالى والله يحب التوابين ويحب المتطهرين وهو القائل " إن الحسنات يذهبن

" السيئات ذلك ذكرى للذاكرين

وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحت العزائم وتوالت على حزب الشيطان الهزائم وخملت الدنيا الغربية في العيون وصدقت فيها عند الله الظنون " يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " وثوبوا سراعاً إلى طهارة الثوب وإزالة الشوب واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب وإعلموا أن سوء الأدب مع الله تعالى يفتح أبواب الشدائد ويسد طرق العوائد فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم ولا تأمنوا مكر الله فتغشوا إيمانكم ولا تعلقوا متابكم بالضرائر فهو علام السرائر وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنا أولى بالنصيحة ونعتمدكم بالموعظة الصريحة الصادرة علم الله تعالى عن صدق القريحة وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار وإنما لكم لدينا نفس مبدولة في جهاد الكفار وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعقبى الدار والاختيار لله ولي الاختيار ومصرف الأقدار وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدي بنفوسنا البلاد والعباد والحريم المستضعف والأولاد ونصلى من دونهم نار الجلاذ ونستوهب منكم الدعاء لمن وعد بإجابته فإنه يقبل من صرف إليه وجه إنابته اللهم كن لنا في هذا الاهتمام نصيراً وعلى أعدائك ظهيراً ومن انتقام عبدة الأوثان كفيلاً اللهم قو من ضعفت حيلته فأنت القوي المعين وانصر من لا نصير له إلا أنت فإياك نعبد وإياك نستعين اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام فقد ألقينا إليك يد الاستسلام اللهم دافع بملأئكتك المسومين اللهم اجعلنا على تيقظ وتذكر من " قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم

وقد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم بني مرين أولي الامتعاظ لله تعالى والحمية والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية بعزمهم على الامتعاظ لحق الجوار والمصارخة التي تليق بالأحرار والنفرة

لانتهاك ذمار نبيهم المختار وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار والسعي الضمين للعز والأجر والفخر والسلام الكريم يخصكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته انتهى

ومما كتبه ابن لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطانه الغني بالله تعالى والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته

هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحاً للصدور مصلحاً بإعانة الله تعالى للأمر ملحفاً للعدل والإحسان الخاصة والجمهور يعلم من يسمعه أو يقف عليه ومن يقرؤه ويتدبر ما لديه ما عاهدنا الله تعالى عليه من تأمين النفوس وحقن الدماء والسير في التجافي عنها على السنن السواء ورفع التناوب عن البعيد منها والقريب والمساواة في العفو والغفران بين البريء منها والمريب وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر محمل الحبيب وترك ما يتوجه بأمر المطالبات ورفض التبعات مما لا يعارض حكماً شرعياً ولا يناقض سنناً في الدين مرعياً فمن كان رهن تبعه أو طريد تهمه أو منبوزاً في الطاعة بريئة توجب أن نريق دمه فقد سحبتنا عليه ظلال الأمان والحفناه أثواب العفو والغفران ووعدناه من نفسنا مواعيد الرفق والإحسان حكماً عاماً وعفوا تاماً فاشيا في جميع الطبقات منسحباً على الأصناف المختلفة عاملنا في ذلك من يتقبل الأعمال ولا يضيع السؤال واستغفرنا عن نفسنا وعمن أخطأ علينا من رعييتنا ممن يدرأ الشرع غلظته ويقبل الحق فيأته " ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً " لما رأينا من وجوب اتفاق الأهواء والضمان والخلوص القلوب والسرائر في هذا الوطن الذي أحاط به العدو والبحر ومسه بتقدم الفتنة الضر وصلة لما أجراه الله تعالى على أيدينا وهياها بنا في نادينا فلم يخف ما سكن بنا من نار الفتنة ورفع من بأس وإحنة وكشف من ظلمة وسدل من نعمة وأصفى من مورد عافية وأولى من عصمة كافية بعدما تخربت الثغور وفسدت الأمور واهتضم الدين واشتد على العباد كلب الكافرين المعتدين " ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس " فله الحمد دائماً والشكر واجباً ومن الله نسأل أن يتمم نعمته علينا كما أتمها على أبونا من قبل إن ربك حكيم عليم ونحن قد شرعنا في تعيين من ينوب عنا من أهل العلم والعدالة والدين والجلالة للتطوف في البلاد الأندلسية ومباشرة الأمور بالبلاد النصرية ينهون إلينا ما يستطلعونه ويبلغون من المصالح ما يتعرفونه ويقيدون ما تحتاج إليه الثغور وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور ونحن نستعين

بفضلاء رعيئنا وخيارهم والمراقبين الله تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم على إنهاء ما يخفى عنا من ظلامه تقع أو حادث يبتدع ومن اتخذت بجواره خمر فاشية أو نشأت في جهته للمنكر ناشية فنحن نقلده العهد ونطوفه القلادة ووراء تنبيهنا على ما خفي من الشكر لمن أهده وإحماد سعي من أبلغه وأداه ما نرجو ثواب الله تعالى عليه والتقرب به إليه فمن أهدى لنا شيئاً من ذلك فهو شريك في أجره ومقاسم في مثوبته يوم ربح تجره وحسبنا الله ونعم الوكيل انتهى

وصية لسان الدين لأبنائه

وإذ أجرينا طرف القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه الله تعالى من النصائح والمواعظ والوصايا وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا كل دون شأوه وقصر عن أمده مديد خطوه وقد تقدم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة فلتراجع في مجالها المتكاثرة وقد أن أن نسرد في هذا المحل الوصية التي أوصى لسان الدين رحمه الله تعالى بها أولاده وهي وصية جامعة نافعة يحصل بها انتعاش لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش ونصها الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب إذا شيم نجمه المثقوب ولا يبغته الأجل المكتوب ولا يفجؤه الفراق المعتبر ملهم الهدى الذي تطمئن به القلوب وموضح السبيل المطلوب وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب لا سيما للولي المحبوب والولد المنسوب القائل في الكتاب المعجز الأسلوب " أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب " " ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب " والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرت على نوره جيوب الغيوب وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تصمه العيوب والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب والأمل المسلوب والافتداء الموصل للمرغوب والعز والأمن من اللغوب

وبعد فإنني لما علاني المشيب بقمته وقادني الكبر في رمته وادكرت الشباب بعد أمته أسفت لما أضعت وندمت بعد الفطام على ما رضعت وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه وتعلق بعيني سعيه وأملت أن

تتعدى إلي ثمرة استقامته وأنا رهين فوات وفي برزخ أموات وبأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري إن سلك وعسى أن لا يكون ذلك على أثاري فقلت أخاطب الثلاثة الولد وثمرات الخلد بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم وإيضاح طريقهم وجمع تفريقهم وأن يمن علي منهم بحسن الخلف والتلافي من قبل التلف وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف فهو ولي ذلك والهادي إلى خير المسالك

اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهدي الضلال ويرضاه ترفع الأغلال وبالتماس قربه يحصل الكمال إذا ذهب المال وأخلفت الآمال وتبرأت من يمينها الشمال أني مودعكم وإن سالمني الردى ومفارقكم وإن طال المدى وما عدا مما بدا فكيف وأدوات السفر تجمع ومناذي الرحيل يسمع ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر وعجالة مقتصر ورتيمة تعقد في خنصر ونصيحة تكون نشيده وراع مبصر تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدي وتوضح لكم من الشفقة والحنو قصدي حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي فهي أريكم الذي لا يتغير وفقه ولا ينالك المكاره ما رف عليكم سقفه وكأنني بشبابكم قد شاخ وبراحلكم قد أناخ وبناشطكم قد كسل واستبدل الصاب من العسل ونصول الشيب تروع بأسل لا بل السام من كل حذب قد نسل والمعاد اللحد ولا تسئل فبالأمس كنتم فراخ حجر واليوم أبناء عسكر مجر وغدا شيوخ مضية وهجر والقبور فاغرة والنفوس عن المألوفات صاغرة والدنيا بأهلها ساخرة والأولى تعقبها

الآخرة والحازم من لم يتعظ به في أمر وقال بيدي لا بيد عمرو فاقنتوها من وصية ومرام في النصح قضية وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا ليجدوا زادها إذا انتقلوا وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً ولكن ليلوهم أيهم أحسن عملاً ولا رضي الدنيا منزلاً ولا لطف لمن أصبح عن فئة الخير منعزلاً

وتلقفونا تلقينا وتعلموا علماً يقينا أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي ويفترش التراب حنبي ويسح انسكابي وتهول عن المصلى ركابي أحرص مني على سعادة إليكم تجلب أو غاية كمال بسببكم ترتاد وتطلب حتى لا يكون في الدين والدنيا أورف منك ظلاً ولا أشرف محلاً ولا أعبط نهلاً وعلاً وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الأذان وتسنلمحوا صبح نصحي فقد بان وسأعيد عليكم وصية لقمان أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور

واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " وأعيد وصية خليل الله وإسرائيليه حكم ما تضمنه حكم تنزيله " يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " والدين الذي ارتضاه واصطفاه وأكملاه ووفاه وقرره مصطفاه من قبل أن يتوفاه إذا أعمل فيه انتقاد فهو عمل واعتقاد وكلاهما مقرر ومستمد من عقل أو نقل محرر والعقل متقدم وبنائه مع رفض أخيه متهدم فالله واحد أحد فرد صمد ليس له والد ولا ولد تنزه عن الزمان والمكان وسبق وجوده وجود الأكوان خالق الخلق وما يعملون الذي لا يسأل عن شيء وهم يسألون الحي العليم المدير القدير " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء وتوجه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ثم ختم ديوانهم بنبي ملتنا المرعية الهمل الشاهدة على الملل فتلخصت الطاعة وتعينت الإمرة المطاعة ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ثم إن الله تعالى قبضه إذ كان بشرا وترك دينه يضم من الأمة نشرا فمن تبعه لحق به ومن تركه تورط عنه في منتشبهه وكانت نجاته على قدر سببه روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال تركت فيكم ما إن تمسكنم به لم تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي فعوضوا عليهما بالنواجد

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد ومشفق شفقة والد واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه وعوا مراشده هديه فيا فوز واعيه وصلوا السبب بسببه وأمنوا بكل ما جاء به مجملا أو مفصلا على حسبه وأوجبوا التجلة لصحبه الذين اختارهم الله تعالى لصحبته وإجعلوا محبتكم إياهم من نوايع محبته واشملوهم بالتوقير وفضلوا منهم أولي الفضل الشهير وتبرأوا من العصية التي لم يدعكم إليها داع ولا تع التشاجر بينهم أذن واع فهو عنوان السداد وعلامة سلامة الاعتقاد ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة وأئمتها الجلة فهم صقلة نصولهم وفروع ناشئة من أصولهم وورثتهم وورثة رسولهم واعلموا أنني قطعت في البحث زمني وجعلت النظر شاني منذ براني الله تعالى وأنشاني مع نيل يعترف به الشاني وإدراك يسلمه العقل الإنساني فلم أجد خابط ورق ولا مصيب عرق ولا نازع خطام ولا متكلف فطام ولا مقتحم بحر طام إلا وغايته التي يقصدها قد نزلتها الشريعة وسبققتها وقرعت ثبيتها وارتقتها فعليكم بالتزام جادتها السابلية ومصاحبة رفقتها الكاملة والاهتداء بأقمارها غير الأفلة والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين " ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " وقد علت شرائعه وراع الشكوك رائعه فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين وابدلوا دونه النفوس فعل المهتدين فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الأبدن ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ومتاع الحياة الدنيا أحسن ما ورث الأولاد عن الوالدين اللهم قد بلغت فأنت خير الشاهدين

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود وتستدعي شوه الوجوه ونضح الجلود واستعيذوا برضى الله من سخطه وأربأوا بنفوسكم عن غمطه وارفعوا أمالككم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم ولا تحمدوا على حيلة العرض الزائل أتلافكم واقتنعوا منه بما تيسر ولا تأسوا على ما فات وتعذر فإنما هي دجنة ينسخها الصباح وصفقة يتعاقبها الخسار والرياح ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجد عليها وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه عمل وكل ما سوى الراعي همل وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت أمل وتمسكوا بكتاب الله تعالى حفظا وتلاوة وإجعلوا حملة علي حمل التكليف علاوة وتفكروا في آياته ومعانيه وامثلوا أوامره ونواهيه ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه وأشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه وأكثروا من بواعث حبه وصونوا شعائر الله صون المحترم واحفظوا القواعد التي يبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم الله في الصلاة ذريعة التجارة وخاصة الملة وحاقنة الدم وغنى المستأجر المستخدم وأم العبادة وحافظ اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة والنهاية عن الفحشاء والمنكر وإن عرض الشيطان عرضهما ووطأ للنفس الأمانة سماءهما وأرضهما والوسيلة إلى بل الجوانح بمرود الذكر وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر وضامنة حسن العشرة من الجار وداعية للمسالمة من الفجار والواسمة بسملة السلامة والشاهدة للعبد برفع الملامة وغاسول الطبع إذا شأنه طبع والخير الذي كل ما سواه له تبع فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة فالخير عادة ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية وتوثرها على العلية الدنية فإن أوقانها المعينة بالانفلات تنبس والفلك بها من أجلكم لا يحبس وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل

والوظائف بعد أدائها لا تفوت وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها وأتبعوها النوافل ما أطقتموها فبالإنتان تفاضلت الأعمال والمراعاة استحقت الكمال ولا شكر مع الإهمال ولا ربح مع إضاعة رأس المال وذلك أحرى بإقامة الفرض وأدعى إلى مساعدة البعض البعض

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل وشرط لمشروطها محصل فاستوفوها والأعضاء نظفوها ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها والحجول والغرر فأطيلوها والنيات في كل ذلك فلا تهملوها فالبناء بأساسه والسيف برئاسه واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور وذكر مجهور وغير مجهور تستغرق الأوقات وتنازع شتى الخواطر المفترقات فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال وكان في درج الرجولية ذا انتقال واستفاض صداه بصقال وإن تراخى فهقر الباع وسرقتة الطباع وكان لما سواها أضيع فشمم الضياع

والزكاة أختها الحبيبة ولدتها القريبة مفتاح السماحة بالعرض الزائل وشكران المسئول على الضد من درجة السائل وحق الله تعالى في مال من أغناه لمن أجهده في المعاش وعناه من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه ولا علة إلا القدر الذي يخفيه وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها في اختيار عرضها ونتاجها واستحيوا من الله تعالى أن يتخلوا عليه ببعض ما بذل وخالفوا الشيطان كلما عدل واذكروا خروجكم إلي الوجود لا تملكون ولا تدرون أين تسلكون فوهب وأقدر وأورد بفضلته وأصدر ليرتب بكرمه الوسائل أو يقيم الحجج والدلائل فابتغوا إليه الوسيلة بماله واغتنموا رضاه ببعض نواله

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زلفى الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى مؤكدة بصيام الجوارح عن الأثام والقيام ببر القيام والاجتهاد وإيثار التهجد على المهاد وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية والواحقه الشرعية فبذلك تحسن الوجوه وتحصل من الرقة على ما ترجوه وتذهب قسوة الطباع ويمتد في ميدان الوسائل الباع

والحج مع الاستطاعة الركن الواجب والفرض على العين لا يحجبه الحاجب وقد بين رسول الله قدره فيما فرض عن ربه وسنه وقال ليس له جزء عند الله إلا الجنة ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه وغنى لديه فكونوا ممن يسمع نفيده ويطيعه وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه

هذه عمدة الإسلام وفروضة ونقود مهرة وعروضه فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين وعلى من يناويكم ظاهرين وتلقوا الله لا مبدلين ولا مغيرين ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين واعلموا أن بالعلم تستكمل وظائف هذه الألقاب وتجلو محاسنها من بعد الانتقاب فعليكم بالعلم النافع دليلاً بين يدي السامع فالعلم مفتاح هذا الباب والموصل إلى اللباب والله عز وجل يقول " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب " والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة وخاصة المملأ الأعلى وصفة الله في كتبه التي تتلى والسبيل في الآخرة إلى السعادة وفي الدنيا إلى التجلة عادة والذخر الذي قليله ينفع

وكثيره يشفع لا يغلبه الغاصب ولا يسلبه العدو المناصب ولا يبتزه الدهر إذا مال ولا يستأثر به البحر إذا هال من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله وقليل وإن جم ماله وإن كان وقته قد فات اكتسابكم وتخطى حسابكم فالتمسوه لبنيكم واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم واحملوهم على جمعه ودرسه واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جراه وسهره يجر له الجفن كراه تعقدوا لهم ولاية عز لا تعزل وتحلوهم مثابة رفعة لا يحط فارعها ولا يستنزل واختاروا من العلوم التي ينفقها الوقت ما لا يناله في غيره المقت

وخير العلوم علوم الشريعة وما نجم بمنابتها المريعة من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها فإنما هي آلات لغير وأسباب إلى خير منها وخير فمن كان قابلاً لزيادة وألفى فهمه ذا انقياد فليخص تجويد القرآن بتقديمه ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحة من سقيمه ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنة المهدي كنوز الكتاب والسنة ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة وهذه هي الغاية القصوى في الملة ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى وتقاعد عن التي هي أسمى فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه وإياكم والعلوم القديمة والفنون المهجورة الذميمة فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا ورأيا ركيكا ولا يثمر في العاجلة إلا افتحام العيون وتطريق الطنون وتطوير الاحتقار وسمة الصغار وخمول الأقدار والخسف من بعد الإبدار وجادة

الشريعة أعرق في الاعتدال وأوفق من قطع العمر في الجدل هذا ابن رشد قاضي المص
ومغنيه وملتمس الرشد وموليه عادت عليه بالسخطة الشنيعة وهو إمام الشريعة فلا سبيل إلى
اقتحامها والتورط في ازدحامها ولا تخلطوا سامكم بحامها إلا ما كان من حساب ومساحة وما يعود
بجدوى فلاحه وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة وما سوى ذلك فمحجور وضرر مسجور

وممقوت مهجور
وأمروا بالمعروف أمرا رفيقا وانهوا عن المنكر نهيا حريا بالاعتدال حقيقا واغبطوا من كان من سنة
الغفلة مفيقا واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا
وأطيعوا أمر من ولاة الله تعالى من أموركم أمرا ولا تقربوا من الفتنة جمرا ولا تداخلوا في الخلاف
زيدا ولا عمرا

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين وأكرم منسوب إلى
مذهبه ومن أكثر من شبيء عرف به وإياكم والكذب فهو العورة التي لا توارى والسوأة التي لا يرتاب
في عارها ولا يتمارى وأقل عقوبات الكذاب بين يدي ما أعد الله له من العذاب أن لا يقبل منه صدقه
إذا صدق ولا يعول عليه إن كان بالحق نطق

وعليكم بالأمانة فالخيانة لوم وفي وجه الديانة كلوم ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها أداء الأمانات
إلى أهلها وحافظوا على الحشمة والسياسة ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة ولا توجدوا للغدر قبولا
ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً " وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً " ولا تسناثروا بكنز ولا خزن ولا
تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حزن ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن
والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام أو ما يرجع إلى وظيفة الأقدام واعلموا أن
الإنسان في

فسحة ممتدة وسبيل الله تعالى غير منسدة ما لم ينبذ الى الله تعالى بأمانه ويغمس في الحرام
بيده أو لسانه قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سننا قويمًا وحلى من الجهل والضلال ليلا
بهيما " ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا
عظيما

واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه وامتد في سبيل السعادة باعه لو لم تلتق
نور الله الذي لم يهد شعاعه فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه ولا عدم إقناعه ومن غلبت عليه
غرائز جهله فلينظر هل يحب أن يزني بأهله والله قد أعد للزاني عذابا وببلا وقال " ولا تقربوا الزنا إنه
" كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا

والخمر أم الكبائر ومفتاح الجرائم والجرائر واللها لم يجعله الله في الحياة شرطا والمحرم قد أعنى
عنه بالحلال الذي سوغ وأعطى وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد ولا
لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد والله تعالى قد جعلها رجسا محرما على العباد وقرنها
بالأنصاب والأزلام في مياينة السداد

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهي الدين والله تعالى يقول " وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين "
وقال " فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله " في الكتاب المبين ولا تأكلوا مال أحد بغير حق
يبيعه وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه ولا
يكل اختياره إلا للثقة من خدمه ولا تلجأوا إلى المنتشابه إلا عند عدمه فهو في السلوك إلى الله
تعالى أصل مشروع والمحافظ عليه مغبوط وإياكم والظلم فالظلم ممقوت بكل لسان مجاهر الله
تعالى بصريح العصيان والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان والنميمة فساد
وشتات لا يبقى عليه منات وفي الحديث لا يدخل الجنة قتات

واطرحوا الحسد فما ساد حسود وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود والبخل فما رؤي البخل
وهو مودود وإياكم وما يعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها ومظنات الفضائح لا تؤمن غمراتها
وتفقدوا أنفسكم مع الساعات وأفسدوا السلام في الطرقات والجماعات ورقوا على ذوي الزمانات
والعاهات وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات وعولوا عليه وحده في الشدائد واذكروا
المساكين إذا نصبت الموائد وتقربوا إليه باليسير من ماله واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق
إليه المحتاط لعيله وارعوا حقوق الجار واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار وتعاهدوا أولي الأرحام
والوشائج البادية الالتحام واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر وتفسد السر والجره والرشا فإنها
تحط الأقدار وتستدعي المذلة والصغار ولا تسامحوا في لعبة قمر ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر
وصونوا المواعيد من الإخلاف والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف وحقوق الله تعالى من الإزراء
والاعتساف ولا تلهجوا بالأمال العجاف ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف واجعلوا العمر بين معاش ومعاد

وخصوصية وابتعاد واعلموا أن الله سبحانه بالمرصاد وأن الخلق زرع وحصاد وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم واحذروا القواطع عن السعادة كما تحذر السموم واعلموا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم وقابلوا بالصبر أذاية المؤذنين ولا تقارضوا مقالات الظالمين فالله لمن بغي عليه خير الناصرين ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت فكل منقرض حقير وكل منقض وإن طال قصير وانتظروا الفرج وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرج وأوسعوا بالرجاء الجوانح واجنحوا إلي الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء والجاؤا إليه في البأساء والضراء

وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ويعذب الوارد وأسهموا منها للمساكين وافضلوا عليهم وعينوا الحظوظ منها لديهم فمن الآثار يا عائشة أحسن جوار نعم الله فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها وتلفكم الجهالة بسكرها وتوهموا أن سعيكم جلبها وحد كم جلبها فالله خير الرازقين والعاقبة للمتقين ولا فعل إلا الله إذا نظر بعين اليقين والله لا تنسوا الفضل بينكم ولا تذهبوا بذهابه زينكم وليلتزم كل منكم لأخيه ما يشتد به تواخيه بما أمكنه من إخلاص وبر ومراعاة في علانية وسر وللإنسان مزية لا تجهل وحق لا يهمل وأظهروا التعاضد والتناصر وصلوا التعاهد والتزاور ترغموا بذلك الأعداء وتستكثروا الأوداء ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه وإذا برز قبيح فاستروه وإذا أعظم النساء أمرا فاحفروه

والله لا تنسوا مقارضة سجلي وبروا أهل مودتي من أحلي ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد فلا يستهلكه أجمع في العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار وساعيا لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتتاح والافتقار ومعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال وإذا كان رزق العبد على المولى بالإجمال في الطلب أولى وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها ونفعها لا يقوم بضرها وأعقاب من تقدم شاهدة والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ومن بلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال والتقلل من المال وليحذر معاداة الرجال ومزلات الإدلال وفساد الخيال ومداخلة العيال وإفشاء السر وسكر الاغترار ولبين الديانة ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة ويسر من رضى

الله على أوضح الطرق ومهما اشتبته عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان والزعازع تسالم اللدن اللطيف من الأغصان وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلابا واستظهارا على الحظوظ وغلابا فذلك ضرر بالمروءات والأفئدة داع إلى الفضيحة والعار ومن امتحن بها منكم اختيارا أو جبر عليها إكراها وإيثارا فليتلق وظائفها بسعة صدره ويبدل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره فالولايات فتنة ومحنة وأسر وإحنة وهي بين إخطاء سعادة وإخلال بعبادة وتوقع عزل وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل ومزلة قدم واستتباع ندم ومآل العمر كله موت ومعاد واقتراب من الله وابتعاد جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبه وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها وتجارتي التي لريحكم أدرتها فتلقوها بالقبول لنصحها والاهتداء بضوء صبحها ويقدر ما أمضيت من فروعها واستغشيت من دروعها افتنيت من المناقب الفاخرة وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة ويقدر ما أضعت لآليها النفيسة القيم استكثرت من بواعث الندم ومهما سئتم إطالتها واستغزرت مقالاتها فاعلموا أن تقوى الله فذلك الحساب وضابط هذا الباب كان الله خليفتي عليكم في كل حال فالدنيا مناخ ارتحال وتأميل الإقامة فرض محال فالموعد للالتقاء دار البقاء جعلها الله من وراء خطة النجاة ونفق بضائعها المزجاة بلطائفه المرتجاة والسلام عليكم من حبيبكم المودع والله سبحانه يلامه حيث شاء من شمل متصدع والدكم محمد بن عبد الله الخطيب بن ورحمة الله وبركاته

انتهت الوصية الفريدة في حسننها الغربية في فنها المبلغة نفوس الناظرين فيها فوق ظنها ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التألف العديدة كالمعيار المعرب والجامع المغرب عن فناوى إفريقية والأندلس والمغرب وهو في ست مجلدات ولو لم يكن له غيره لكان كافيا وله مصنفات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك ولم يؤلف في المذهب مثلها كثيرا ما يدخل منها في خطبه

وصية لابن الجنان على لسان ابن هود

رجع إلى ما كنا فيه
أقول لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصية لأولادهم وعمالهم باقتفاء النهج الذي يرون فيه السلوك وقد وقفت للفقير الكاتب أبي عبد الله محمد بن الجنان المرسي الأندلسي رحمه الله تعالى على وصية ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بد منه فرأيت أن أذكرها هنا تكميلاً للفائدة ونصها بعد الصدر من مجاهد الدين وسيف أمير المؤمنين عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود أيده الله تعالى بنصره وأمدّه بتمكينه وأعانّه على ما ينويه من إحياء معالم دينه إلى صنونا المبارك وقسيمنا وأخينا المخصوص بتبجيلنا وتكريمنا وحسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزمنا وتصميمنا الأمير الأعلى الموقر الأسمى الميمون النقيبة المحمود السجّية الأحب النية الأعز علينا المتمم بمساعيه الصالحة كل ما نوبنا أدام الله تعالى تظفيره وإسعاده وأمضى في الحق قواضيه وصعاده ووالى معونته وإنجاده وتولى توفيقه وإرشاده سلام طيب كريم زاك يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته

أما بعد فالحمد لله الذي أوضح للحق سبيلاً ومد ظل رحمته على الخلق ظليلاً وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً ونزل الأحكام على قدر المصالح تنزيلاً ونصب معالم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلاً وألهم إلى ما يرضاه عملاً ومعتقداً وقيلاً وصلواته الطيبة وبركاته الصيبة على سيد العالمين وخاتم النبيين محمد رسوله الذي فضله بخلته واصطفاه تفضيلاً وبعثه بالحنيفية السمحة فينبها تبييناً وفصلها تفصيلاً ورتبها كما أمره ربه بإباحة وتدبا وتحريماً وتحليلاً حتى ثبتت سنة الله " فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً " وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم به عليه الصلاة والسلام نصاً وتأويلاً وأبقوا من سيرتهم الفاضلة وأحكامهم العادلة أساساً للمؤمنين جليلاً ومآثر للمقتفين تسبح الأفهام والأقلام في بحارها سبحاً طويلاً وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحق باطلاً وبالهدى تضليلاً ورضوان الله تعالى يتوالى على خليفته وحامل أمانته إلى خليفته الذي كمل الله تعالى له موجبات الإمامة تكميلاً وأناله من هدي النبوة أفضل ما كان للهداة منيلاً سيدنا ومولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين المتبوء من ساحة الشرف والجلالة محلاً شريفاً جليلاً والمنتخب من بحبوحة بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده معرسة ومقبلاً والدعاء له من لدن العزيز القوي بنصر يأتي لإمداده بمدد الملائكة قبلاً وفتح يؤتي الإيمان من الظهور بغية وتأميلاً

فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم عزمًا لا يزال عضيه صقيلاً وعزا يروق بإظهار الحق غرة وتحجيلاً ورأياً لقداح السداد والنجاح مجيلاً وسعداً يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلاً من حضرنا بمرسية حرسها الله تعالى ونحن نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو على فضله الذي أناله جسيماً جزيلاً وتتوكل عليه توكل من يلجأ في كل أحواله إليه وكفى بالله وكيلاً ونستعينه على أمور المسلمين التي حملنا منها أمانة كبيرة وعبئنا ثقيلاً ونقف بالضارعة بين يديه طلباً لما يخلصنا لديه عساه أن يجعل لرغبتنا قبولاً وتوسيلاً ونعوذ به من كل عمل لا يكون حاصله إلا مآلاً وبيلاً وعرضاً من الدنيا قريباً ومتاعاً قليلاً

إنا والله المرشد لنعلم أن هذا الأمر الذي قلدنا الله تعالى منه ما قلده وأسنده إلينا من أمور خلقه فيما أسنده قد أزمنا من حقوقه الواجبة وفروضه الراتبية ما لا يستطاع إلا بمعونته أداؤه ولا يستتب إلا بتوفيق الله تعالى انتهاؤه وإبتدأؤه فهو المشكور عز وجهه على نعمته والمستعان على ما يدني من رضاه ويقرب من رحمته وأن كل امرئ بشأنه مشغول وعن خويصة نفسه مسؤول ونحن بما استرعانا الله تعالى مشغولون وعن الكبير والصغير مسؤولون وعلينا النصيحة لله في عباده وبلاده والنظر لهم بمنتهى جد المجتهد واجتهاده ولا قوة إلا بالله عليه توكلنا وبه إليه توسلنا فعيننا تسهر لتنام للرعية عيونهم وتحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم وأملنا أن لا نفر فيهم بحول الله تعالى ظلماً ولا هضمًا ولا نخرم لهم في إقامة حقوق الله ما استطعنا نظماً وأنى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته من يعرف أن الله جل جلاله لا يجوز ظلم ظالم في برئته ولعل الله الذي حملنا ما حملنا واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا أن يهب لنا توفيقه ويسلك بنا إلى هداه طريقه

ألا وإن من وليناه أمراً من أمور المسلمين فهو مطلوب به وموقوف عليه عند ربه فلينظر امرؤ في جزئية ما نيظ به وكليته وليراقب فيما لديه عالم خفيته وجليته ألا وكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته فمن حفظ الله حفظه الله في نفسه وآله وقضى له بالسعادة في حاله ومآله وأنجاه يوم عرضه وسؤاله والخلق عيال الله فأحبهم إليه أحبهم لعياله العدل العدل فيه قامت السموات والأرض وبإقامته أقيمت السنة والفرض " اعدلوا هو أقرب للتقوى " وأقوى ما تشد به أركان الدين وتقوى

أما إن الحق في أن لا تتعدى

أساليب الشرع وقوانينه وأن لا يتجاوز في قضية من القضايا إفصاحه وتبيينه وأن يجازى بحكمه المسيئون والمحسنون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوفنون ألا وأنا قد عثرنا لبعض قواد الجهات وحكامها على أمور أنكرنا معرفاتها واستقبحنا مستوصفاتها وبرثنا إلى الله تعالى من متغيراتها ومحرفاتها وعلمنا أن منهم أقواما لا يتورعون عن الأموال والدماء ولا يحذرون فيما يأتون ويذرون جبار الأرض والسماء فأزلنا بحمد الله ذلك ونحوه وعجلنا ابتغاء رضاه محقه ومحوه وانبعثنا لنظر جديد واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد وتغليظ في المحرمات وتشديد واستقبلنا ما يوسع الأمور ربطا وضبطا ويفيض على الأمة بعون الله تعالى عدلا وقسطا وتعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كل من استكفيناها بالبلاد ووليناها النظر عنا في مصالح العباد بما يكون إن شاء الله تعالى الاعتماد على فصوله والاستناد إلى محصوله والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كل حال ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء وانتحال والوقوف عند حدود الله التي حدها وأرصدتها بإزاء موجباته وعدوها فإنه لا تهداها إلا من رام تعفي رسمها وطمسها " ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه " والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة والملاحظة لما يضم الرعايا من حوزة أولي الحياة المنبئة والمثابرة على ما تكف به أكف الاعتداء والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاعتداء والطريقة المثلى وآيات الله التي تتلى وهداياته التي لأبصار البصائر تجلى وخفض الجناح والأخذ بالرفق والإنجاح وتوخي الحق الذي هو أوضح انبلاج من فلق الإصباح والحلم والأناة والمذاهب المستحسنات والأمور البينات والله في الدماء فإنها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ولا سبيل لاستحلالها إلا بعد ثلاث كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان أو قتل المسلم لأخيه وقد قال مالك الأمر والخلق " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق " ففتشوا فيها فأمرها جليل وتحريمها لا يدخله تحليل وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاة الجهاد حكما أو نظرا أو تكلوا إليهم منها مستكثرا أو مستنزرا فإنه إذا استبد بالقضاء فيها كل وال ذهب هدرًا واستباحها الجاهل والجائر أشرا ويطرا وربما كان فيهم من في طباعه سبعية فيقتل بها الناس قتلا ذريعا ويتسهل بذلك من جوره صعبا ويرتكب بجهله شنيعا ويذهل عن قول الله تعالى " من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا " فأنى تحل المسامحة في هذا الشأن أو يحكم به كل إنسان في نفوس أهل الإيمان معاذ الله أن يكون هذا ونحن نعرفه أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزيله ولا نصرفه فسدوا هذا الباب سدا وصدوا عنه من أمه صدا وكفوا كل ما كان من الأيدي للدماء ممتدا ومن وجب عليه القتل شرعا وتعين واتضح موجب القصاص فيه وتبين فليس لكم إلا القاعدة الكبرى تتحرى فيها الأحكام عليه بمحضر القاضي والشهود كما يجب أن يتحرى بعد أن يتثبت في نازلته لديكم ويستجلى ويستبيرا فلا تحل القضية إلا على بصيرة وحقيقة مستنيرة فقد يلوح في اليوم ما خفي بالأمس ويتعذر بعد الإقادة إعادة النفس وملاك الأمر في انتقاء من يتصرف وتولية من لا يضيف ولا يتحيف فتخبروا للأنظار والجهات من ترتضى سيرته من الولاية ولا تستعملوا أهل الفظاظة والجهالة والمصرين على الراحة والبطالة فإنهم إذا استرعوا أضعوا وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا وميلوا باختياركم إلى المتسمين بالصالح المرتسمين في ديوان الكفاة النصح وأطيلوا مع ذلك التنفير عنهم والتنقيب ولا تغفلوا عن التعهد بالبحث البعيد منهم والقريب ومن عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال وإضاعة للحقوق وإهمال فخذوا على يده وجازوه بفاسد مقصده وأنزلوه بالمنزل الأقصى وعاملوه معاملة من أوصي بتقوى الله فما استوصى واصرخوا نظركم إلى القضاة فإن مدار الشريعة إنما هو على ما يستند إليهم ويقصر من الأحكام عليهم فإذا كانوا من أهل العلم والديانة وذوي النزاهة والصيانة أمسكهم الورع بزمامه وبلغ العهد بهم غاية تمامه وإذا كانوا بضد هذا قبلوا الرشوة وأوطأوا العشوة وأطالوا النشوة وأحلوا من الدماء والفروج محرما وطمسوا من السنة بالميل والمين معلمها وحكموا بالهواذة والهوى وطووا من الحق ما انتشر ونشروا من الباطل ما انطوى فانتقوهم فهم أولى بالانتقاء وشر جاسرهم وجاهلهم أحق بالانتقاء ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل ولكن قدموهم بتورعهم في القضايا وعلمهم بالمسائل

ومما نؤكد عليهم فيه أمر الشهود فإن شهادة الزور هي الداء العضال والظلمة التي يتستر بها الظلمة والضلال والحجة الداحضة التي بها يحلل الحرام ويحرم الحلال وقد كثر في هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة فتقدموا إلى القضاة وفقهم الله تعالى أن لا

يقبلوا إلا مشهورا بزكاء وعدل موفورا حظه من راحة وعقل ومن كان مغموزا عليه في أحواله منبوزا بالاسترابة في شهادته وأقواله فلترد شهادته على أدراجها وليبطل ما يكون من حجاجها وأكدوا عليهم عند تعارض العقود في الترجيح والنظر في التعديل والتجريح لتجري أمور المسلمين على مستوى الحق المستبين وتبدو المعدلة مشرفة الغرة مؤتلفة الجبين ومما نأمركم به أن تبحثوا عن العمال ولا تولوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضي الأعمال ومن لم يكن منهم جاريا على القوانين المرعية ناصحا لبيت المال رفيقا بالرعية وكان في أمانته حائدا في الجادة السوية قانلا كما قال قبله ابن اللتبية فليعوض منه غيره ويرفع عن الجانبين ضيره فإنه ما كانت الخيانة قط في شيء إلا أهلكته ولا وضعت في إنسان طبيعة سوء إلا ملكته

وإنما هو مال الله تعالى الذي يرزقه منه الحماية وبه تسد الثغور المهمات فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقيضه حافظ لدينه ومروءته في كله وبعضه فخذوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والمولين واجمعوا من الاجتهاد الحميد والقصد والاعتماد الأثر والعين وأنصفوا منهم إن تظلم من أحدهم متظلم واشفوا شكوى كل متشكك وألم كل متألم واعلموا أن حرمة الأموال بحرمة الدماء لاحقة وأن إحدى القضيتين للأخرى مساوية ولاحقة ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه قول رسول الله حرمة مال المسلم كحرمة دمه وليكن الناس في الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ولا مجاوزة في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة إن هذه أمتكم أمة واحدة وإن دلائل الشرع بمراد الله سبحانه وتعالى لشاهدة ولا يؤخذن أحد بجريرة أحد ولا ينجني ولد على والد ولا والد وعلى ولد فكتاب الله تعالى أولى بالاتباع وأحرى لقول الله عز وجل " ولا تزر وازرة وزر أخرى " اللهم إلا من أوى محدثا فإنه مأخوذ بما أجرم وملعون على لسان رسول الله فارفعوا أعاننا الله تعالى وإياكم للعدل بكل علم منارا واتخذوا الرفق بالإمامة شعارا فقد قال قال رسول الله الرفق لا يكون

في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه وقد نص الكتاب والسنة على مواضع اللين والاشتداد ونبها على منازع المقاربة والسداد فلا غضب لأمر إلا بما غضب له الله عز وجل ولا رضى به إلا إذا استقر فيه رضى الله تعالى وحل قال رسول الله الذي يجلد فوق ما أمر الله تعالى به يقول له الله عز وجل عبدي لم جلدت فوق ما أمرتك به فيقول رب غضبت لغضبك فيقول أكان ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي ثم يؤتى بالمقصر فيقول عبدي لم قصرت عما أمرتك به فيقول رب رحمته فيقول أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي قال فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لم يحفظه الراوي إلا أنه قال صيروهما إلى النار أعاذنا الله تعالى منها بفضلها ورحمته فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والفرع واحتاطوا في الرعية فإنه رأس المال والأمانة التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الإهمال ومع توفيقكم لما سطرناه في هذا الكتاب وبشرحناه من أبواب الخير المسعد في المآب والمآل فاستوفوا ضروب الصالحات واستقصوها واعملوا أعمال البر وخصوها واذكروا آلاء الله وقصوها " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " واشتدوا في تغيير المنكرات كلها واحسموا أدواءها من أصلها ورجبوا الناس في الطاعات واندبوهم إليها ووضحوا لهم أعمالهم وحرصوهم عليها وانتهوا في كل سعي ناجح وراي راجح إلى أفضل ما ينتهي إليه المنتصحوون " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " وخذوا بعمارة مساجد الله التي هي بيوت الأتقياء ومحل مناجاة ذي العظمة والكبرياء إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين

ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار يطفىء غضب الرب ونعم الشفيع يوم القيامة والمتوسل فيما يتوج الفاريء وأباه تاج الكرامة وأرشدوا للخير ما ستطعنتم وابتعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم والله ولي التوفيق والإرشاد والملجىء بالهداية إلى طريق الفوز والسداد

وهذه أوامرنا إليكم امتثلنا أمر الله تعالى فامتثلوها وأحضروها في خواطركم مع كل لحظة ومثلوها وإنا لما يكون منكم فيها لمستمعون ولأثاركم فيما يوفيهام لتمطعون وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمنا في التذكير ونهجننا لكم منها التقديم والتأخير والله تعالى يعلم أنا إنما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم الحساب وأردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر والإيجاب لنرعى حقه سبحانه فيمن استرعانا ونسعى في صلاح الأمة عسى الله تعالى أن ينجح فيه مسعانا اللهم من عبدك يضرع إليك ويخضع بين يديك في أن تلهمه إلى ما يجمل قصدا ومعتمدا وتهب له

من لدنك رحمة وتهييء له من أمره رشدا اللهم منك المعونة على ما وليت ولك الشكر على ما أوليت فالمهدي من هديت والخير كله فيما قضيت اللهم من أعاننا على مرضاتك فكن له معينا وأورده من توفيقك عذبا معينا إنك الولي النصير العلي الكبير
وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصوه على الناس مفصلا ومجملا وأظهروا مضمونه لهم قولا وعملا واسلكوا بهم من مرآشده سننا مستجملا أن شاء الله تعالى والله سبحانه يديم علاكم ويصل إعادتكم في كل محمد وإبداعكم ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم بمنه وكرمه لا رب سواه والسلام الأكرم الأزكى يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته
وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة انتهى
ترجمة ابن الجنان

وهذا ابن الجنان له الباع المديد في النظم والنثر ومن شعره رحمه الله تعالى في مرضه الذي توفي فيه وهو آخر كلامه

" جهل الطبيب شكائتي وشكائتي ... أن الطبيب هو الذي هو ممرضي "
" فإن ارتضى برئي تدارك فضله ... وإن ارتضى سقمي رضيت بما رضي "
" ما لي اعتراض في الذي يقضي به ... لكن لرحمته جعلت تعرضي "
ومن نظمه رحمه الله تعالى ملغزا في طبخة
" وحبلى بأبناء لها قد تمخضوا ... بأحشائها من بعد ما ولدوها "
" كسوها غداة الطلق بردا معصفرا ... على يقق أزرارها عقدوها "
" ولما رأوها قد تكامل حسنها ... وأبدر منها طالع حسدوها "
" فقد واقميص البدر بالبرق واجتلوا ... أهلتها من بعد ما فقدوها "
" ولو أنصفوا ما أنصفوا بدر تمها ... ولا أعدموا الحسنة إذ وجدوها "
وقال أيضا ملغزا في الميل وهو المروء
" مسترخص السوم غال ... عال له أي حظوه "
" ما جاوز الشبر قدرا ... لكنه ألف خطوه "

وهذا استخدام ما به باس لأنه اكتسى من الحسن خير لباس وكم لهذا الكاتب من محاسن ماؤها غير آسن

وقد عرف لسان الدين في الإحاطة بابن الجنان وأطال في ترجمته ونشير إلى بعض ذلك باختصار وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري من أهل مرسية أبو عبد الله ابن الجنان كان محدثا راوية ضابطا كاتبًا بليغا شاعرا بارعا رائق الخط دينا فاضلا خيرا ذكيا استكتبه بعض امراء الأندلس فكان يتبرم من ذلك ويقلق منه ثم خلصه الله تعالى منه وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة حتى يظن رائيه الذي استديره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها متناسب الخلقة لطيف الشمائل وقورا خرج من بلده حين تمكن العدو من قبضته سنة 640 فاستقر بأربولة إلى أن دعاه إلى سبته الرئيس أبو علي ابن خلاص فوفد عليه فأجل وفادته وأجزل إفادته وحظي عنده حظوة تامة ثم توجه إلى إفريقية فاستقر ببجاية وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته وروى بلده وغيره عن أبي بكر ابن خطاب وأبي الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وأبي الربيع ابن سالم وأبي عيسى ابن أبي السداد وأبي علي الشلوبين وغيرهم وكان له في الزهد ومدح النبي بدائع ونظم في المواعظ للمذكرين كثيرا انتهى مختصرا وإلا فترجمته في الإحاطة متسعة رحمه الله تعالى

ولما كتب له أبو المطرف ابن عميرة برسالته الشهيرة التي أولها تحييك الأقلام تحية كسرى وتقف دون مداك حسرى وهي طويلة أجابه بما

نصه ما هذه التحية الكسروية وما هذا الرأي وهذه الروية أتتكت من الأقلام أو تبيكت من الأعلام أو كلا الأمرين توجه القصد إليه وهو الحق مصدقا لما بين يديه وإلا فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه ويترامى للغاية البعيدة بنفسه فمتى لانت أنابيه للعاجم ودانت أعاربيه للأعاجم وأعجبا لقد استنوق الجمل واختلف القول والعمل لأمر ما جدع أنفه قصير وارتد على عقبه الأعمى أبو بصير أمس أستسقي من سحابه فلا يسقيني وأستشفي بأسمائه فلا يشفيني واليوم يحلني محل أنو شروان ويشكو مني شكوى الزيدية من بني مروان ويزعم أنني ابطلت سحره بنثر ذروان ويخفي في نفسه ما الله مبيده ويستجدي بالأثر ما عند مستجديه فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة والشريعة المبتدعة أظن أن معماه لا ينفك وأنه لا ينجلي هذا الشك هل ذلك منه إلا إمحاض التيه وإحماض تفتيه ونشوة من خمرة الهزل ونخوة من ذي ولاية آمن من العزل تالله لولا محله من القسم

وفضله في تعليم النسم لأسمعته ما ينقطع به صلفه وأودعته ما يندفع به صدفه وأشرت بطرف المشرفي وحده وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده ولكن هو القلم الأول فقله على أحسن الوجوه يتناول ومعدود في تهذيبه كل ما لسانه يهذي به وما أنساني إلا الشيطان أيديه أن أذكرها وإنما أقول

"... ليت التحية كانت لي فأشكرها"

ولا عتب إلا على الحاء المبرحة بالبرحاء فهي التي أقامت قيامتي في الأندية وقامت علي قيام المتعدية يتظلم وهو عين الظالم ويلين القول وتحت سم الأرقام ولعمر اليراعة وما رضعت والبراعة وما صنعت ما خامرني هواها ولا كلفت بها دون سواها ولقد عرضت نفسها علي مرارا فأعرضت عنها ازوارا ودفعتها عني بكل وجه تارة بلطف وأخرى بنج وخبث منها السامة وقلت انكحي أسامة فرضيت مني بأبي جهنم وسوء ملكته وابن أبي سفيان وصلكته وكانت أسرع من أم خارجة للخطية وأسمح من سجاج في استنجاح تلك الخطية

ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عشرتها واستئفال الاجتماع من عنترتها وأرى من الغيب والسفاه أخذها وترك بنات الأفواه والشفاه إذ هي أيسر مؤونة وأكثر معونة فغلطني فيها أن كانت بمنزل تتوارى صونا عن الشمس ومن نسوة خفرات لا ينطقن إلا بالهمس ووجدتها أطوع من البنان للكف والعنان للكف والمعنى للاسم والمعنى للرسم والظل للشخص والمستدل للنص فما عرفت منها إلا خيرا أرضاه وحسبتها من الحافظات

للغيب بما حفظ الله فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها ونشرت فنشرت ما استكتمها بعلمها واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن أبي عبيد وضربت في الأرض تسعى علي بكل مكر وكيد وزعمت أن الجيم خدعها وألان أخدعها وأخبرها أن سيلغ بخبرها الخابور وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور

فقد جاءت إفكا وزورا وكثرت من أمرها منزورا وكانت كالقوس أرنت وقد أصمت القنيص والمرادة قالت " ما جزاء " وهي التي قدت القميص وربما يظن بها الصدق وظن الغيب ترجم ويقال لقد خفضت الحاء بالحوار لهذا الجيم وتنتصر لها التي خيمت بين النرجسة والريحانة وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم نبي علي الله سبحانه فإن امتعضت لهذه التكلمة تلك التي سبقت بكلمتها بشارة الكلمة فأنا ألوذ بعدلها وأعوذ بفضلها وأسألها أن تقضي قضاء مثلها وتعمل بمقتضى " فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها

على أن هذه التي قد أبدت مينها ونسيت الفضل بيني وبينها إن قال الحكمان منها كان النشور عادت حرورية العجوز وقالت التحكيم في دين الله تعالى لا يجوز فعند ذلك يحصص الحق ويعلم من الأولى بالحكم والأحق وبصبيها ما أصاب أروى من دعوة سعدية حين الدعوى وبها ويحها أرادت أن تجني علي فجنت لي وأناخت لي مركب السعادة وما ابتغت إلا ختلي فأتى شرها بالخير وجاء النفع من طريق ذلك الضير أتراها علمت

بما يثيره اعوجاجها وينجلي عنه عجاجها فقد أفادت عظيم الفوائد ونظيم الفرائد ونفس الفخر ونفيس الدر وهي لاتشكر أن كانت من الأسباب ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسباب وإنما يستوجب الشكر جسيما والثناء الذي يتضوع نسима الذي شرف إذ أهدى أشرف السجاءات وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات فإنه وإن ألم بالفكاهة بما أمل من البداة وسمى باسم السابق السكيت وكان من أمر مداعبته كيت وكيت وتلاعب في الصفات تلاعب الصفاح والصبا بالبانة والصبا بالعاشق ذي اللبانة فقد أغرب بفنونه وأغرى القلوب بفتونه ونفث بخفية الأطراف وعبث من الكلام المشقق بالأطراف وعلم كيف يمحض البيان ويخلص العقيان فمن الحق شكره علي أيديه البيض وإن أخذ لفظة من معناه في طرف النقيض تالله أيها الإمام الأكبر والغمام المستمطر والجبر الذي يشفى سائله والبحر الذي لا يرى ساحله ما أنا المراد بهذا المسلك ومن أين حصل ذلك النور لهذا الحلك وصح أن يقاس بين الحداد والملك إنه لتواضع الأعزة وما يكون عند الكرام من الهزة وتحريض الشيخ للتلميذ وترخيص في إجازة الوضوء بالنبيذ لو حضر الذي قضي له بجانب الغربي أمر البلاغة وارتضى ما له في هذه الصناعة من حسن السبك لجليها والصياغة وأطاعته فيما أطلعت طاعة القوافي الحسان واتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان لأذعن كما أذعن وطعن عن محل الإجابة كما طعن وأنى يضاهاى الفرات بالنغبة وبهاهى بالفلوس من أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة وأي حظ للكلالاة بالنشب وقد اتصل للورثة عمود النسب هيئات والله المطلب وشتان الدر والمخشلب وقد سيم الغلب ورجع إلى قياده السلب

وإن كنا ممن تقدم لشدة الظمإ إلى المنهل كمن أذم إلى عين تبوك بعد النهي للعلل والنهل فقد ظهرت بعد ذلك المعجزة عياناً وملاً ما هنالك جناناً وما تعرضنا بإساءة الأدب واللوم ولكن علمنا أن آخر الشرب ساقى القوم وإن أسهبنا فما لنا رتبة ذلك الإيجاز وإن أعرقنا فهواناً في الحجاز فلکم قصيرات الحجال ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال وإكثارنا في قلة وجارنا من الفقر في فقر وذلة ومن لنا بواحدة بشرق ضياؤها ويخفي النجوم خجلها منها وحيائها إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل وفي الجموع كليلة الوصل فلو سطع نورها الزاهر ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال ووجدت نفحات رباها في أعطاف الجنوب والشمال وأسرعت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم النفر وسار خبرها وسرى فصار حديث المقيمين والسفر وما ضر تلك الساخرة في تجليها الساحرة بتجنيتها أن كانت بمنزلة ربيبتها بل ربيبتها هذه التي سبقتني لما سبقتني بسبقتها ووجدت ربحها لما فصلت من مصر غيرها وحين وصلت لم يدلني على ساريتها إلا عبيرها وكمر رامت أن تستتر عني بليل حبرها في هذه المغاني فأغراني بهاؤها وكل مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ والمعاني وهل كان ينفعها تلفحها بمرطها وتلفعها إذ نادتها المودة قد عرفناك يا سودة فأقبلت على شم نشرها وعرفها ولثم سطرها وحرفها وقريتها الثناء الحافل وقرأتها فزبنت بها المحافل ورمت أمر الجواب فعزني في الخطاب لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزى وأشية وإليكم مني على استحياء ماشية وإن رق وجهها فما رقت لها حاشية فمتموا بقبولها على عللها وانقعوا بماء سماحتكم حر غلها فإنها واردة من استقر قلبه عندكم وثوى وأقر بأنه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النوى بقيتم سيدي للفضل والإغضاء ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء واقتضيتم السعادة المتصلة مدة الاقتضاء بيمين الله سبحانه انتهى

ومن نثر ابن الجنان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى لمحمد خير الأنام ولينة التمام عليه أفضل الصلاة والسلام خيرة المفخر يتضاءل لعظمتها المفخر والمعالي يتصاغر لعزتها المعالي والمكارم يعجز عن مساجلتها المكارم والمناقب لا تضاهي سناها النجوم الثواقب والمحامد لا يبلغ مداها الحامد والمماجد لا يتعاطى رتبهن المماجد والمناسب سمت بجلالهن المناصب والعناصر طيبها الشرف المتناصر والفضائل تفجرت في أرجائهن الفواضل والشمائيل تارجت بعرفهن الجنايب والشمائيل فلا مجاري لسيد البشر الآتي بالندارات والبشر فيما حباه الله تعالى به وخصه وقصه علينا من خلقه العظيم ونصه عند رسم مدائحه يوجد المعول وفي الثناء عليه يستقصر الكلام المطول هو الآخر في ديوان الرسالة والأول وله في الفضيلة وقبول الوسيلة النص الذي لا يؤول نوره صدع الظلم وظهوره رفع لدين الله تعالى العلم بداه الوحي وهو بحراء وأسر إليه سر تقدم الإسراء حتى إذا نصب له المعراج وتوقد في منارة السماء ذاك السراج ناجى الحبيب حبيبه وجلا عن وجه الجلاء جلابيه فتلقى ما تلقى لما علا وترقى ثم صدر عن حضرة القدس وجبين هدايته يبهر سنا الشمس فشق لمعجزاته القمر ونهى بأمر ربه وأمر وأزال الجهالة وأزاح الضلالة وكسر منصوب الأوثان ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان وبنى الملة على قواعد الخمس وأحيا دين إبراهيم وكان رفاتا بالرمس فرفلت الحنيفية البيضاء في بردة الجدة وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودة وانتشرت الرحمة بنبيها ومطرت المرحمة من سحب حياها وافنت الآيات الباقيات البينات في مساقها واتساقها وإشراقها في آفاقها وائتلاقها

وشهد الحجر والشجر والماء من بين البنات يتفجر والطبية والضب والجذع المشتاق الصب والشاة والبغير والليث إذا هدا أو سمع منه الزئير والحي والجماد والقصة والزاد بأن محمدا رسول الملك الحق والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق وصاحب اللواء المعقود والمقام المحمود والحوض المورود والقول المسموع والذكر المرفوع والصدر المشروح والفخر الباهر الوضوح والأنوار المتناقلة والآثار المتداولة والنبوة التي عهدتها تقادم من قبل خلق آدم والمزية المعروف قدرها الجليل المقبول فيها ما دعا به الخليل والرتبة التي استشرف إليها الكليم حتى قال له " وكن من الشاكرين " ربه الكريم والبشارة التي كان بها يصيح حين يسبح روح الله تعالى وكلمته عيسى المسيح والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم ويقرع بها الباب المرتج المبهم فما لنبينا المختار من علو المقدار واصطفاء الجبار والاختصاص بالأثرة والاستخلاص للحضرة ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما

حسب هذا الوجود من الفضل الرباني والوجود الذي لم يزل عظيما أن بعث الله تعالى فيه رسولا رؤوفا بالمؤمنين رحيمًا عزيزًا على ربه الكريم كريما بسره سجدت الملائكة لأدم تعظيما ويذكره ينظم سلك المادح لحضرتة العلية تنظيما صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم

تسليما صلاة تتصل ما دار كأس محبته على أحبته فكان مزاجه تسليما وسلاما ينزل دار دارين
فيرسل ببضائعها إلى روضة الرضى نسيما
ومن خطبه المرتجله قوله سامحه الله تعالى
الحمد لله الذي حمده من نعمائه وشكره على آلائه من آلائه أحمده حمد عارف بحق سنائه واقف
عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل أناته
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته وكبريائه المتقدس عما يقوله الملحدون
في أسمائه وأصلي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه محمد المفضل على العالمين باجتماعه
واصطفائه المنتقى من صميم الصميم وصريح الصريح بجملة آياته المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ
أمر الله وأدائه أرسله الله للناس كافة عموما لا يتخصص باستثنائه وفضله بالآيات الباهرة والمعجزات
الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونظرائه ورقاه إلى الدرجات العلا وأنجاه إلى سدره المنتهى ليلة
إسراؤه وحياه بالخصائص التي لا يضاهاها بها بهاء كماله وكمال بهائه ورداه رداء العصمة فكانت
عناية الله تكفه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزبته
على الليث والغيث في إباته وإنهمائه صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمانه صلاة
تتصل ما سمح البدر بآتلاف أنواره والقطر باندفاق أنوائه وسلم تسليما
ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين وهي
السلام العميم الكريم والرحمة التي لا تبرح ولا تريم والبركة التي أولها الصلاة وآخرها التسليم
على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة المؤيده بالعصمة والأيد والقوة ومثابة البر والتقوى فهي
لقلوب الطيبين صفا ومروة مقام سيد العالمين طرا وهاديهم عبدا وحرًا ومنقذهم من أشراك الهلاك
وقد طالما ألفوا العيش ضنكا والدهر مرا ومقر الأنوار المحمدية والبركات السرمدية أمتع الله تعالى
الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها وكلاءة ظلالها العلية وأفيائها وأقر عين عبدها بلثم تراها
والانخراط في سلك من يراها
السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا أبا القاسم سلام من يمد إليك يد
الغريق ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق ويتقطع أسفا ويتنفس سعدا كلما ازدلف إليك فريق
وعمرت نحوك طريق
ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق
كتبته يا رسول الله وقد رحل المجدون وأقمت واستقام المستعدون وما استقمت وبينني وبين لثم
ثراك النبوي ولمح سنالك المحمدي مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه بماء توبه وستر
وصم عيبه بظهر غيبه فكلما رمت المتاب رددت وكلما يمت الباب صددت وقد أمرنا الله تعالى
بالمجيء إليك والوفادة عليك ومن لي بذلك يا رسول الله والأثم تنني وتبعد الأيام لا تدني ولا
تسعد وبين جنبي اشواق لا يزال يهزني منها المقيم المقعد ولئن كنت ممن خلفته عيوبه وأوبقته
ذنوبه ولم يرض للوفادة وهو مدنس على ذلك المقام وهو المطهر المقدس فعندي من صدق
محبتك وحب صحبتك والاعتلاق بدمتك ما يقدمني وإن كنت مبطنًا وقربني وإن كنت مخطئا
فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى وتوسل لي إلى مولى بين فضيلتك وتقبل
وسيلتك في النقلة من هناك إلى هنا وأقبلني وإن كنت زائفا وأقبل علي وإن أصبحت إلى الإثم
متجانفا فأنت عماد أمتك جميعا وأشتاتا وشفيعهم أحياء وأمواتا ومن نأت به الدار وقعدت بعزمه
الأفدال ثم زار خطه ولفظه فقد عظم نصيبه من الخير وحظه وإن لم أكن سابقا فعسى أن أكون
مصليا وإن لم أعد مقبلا فلعلي أعد موليا ووحقك وهو الحق الأكيد والقسم الذي يبلغ به المقسم
ما يريد وما وخذت إليك ركاب إلا وللقب إثرها التهاب وللدمع بعدها سح وأنسكاب ويا ليتني ممن
يزورك معها ولو على الوجنتين ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال
ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال والله تعالى يمن على كتابي بالوصول والقبول وعلي بلحافي
ببركتك ولو بعد طول
ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا سيد الخلق وأقربهم من الحق ولمولاه بإحراز قصب
السبق ومن طهر الله تعالى مثواه وقدسناه وبناه على
التقوى والرضوان وأسسناه وأتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفسه وعلى ضجيعك السابقين
لمهاجريك وأنصارك الفائزين بصحبتك العلية وجوارك وعلى أهل بيتك المطهرين أوائل وأواخر
الشهيرين مناقب ومفاخر وصحابتك الذين عزروك ووقروك وأووك ونصروك وقدموك على الأنفس
والأموال والأهل وأثروك وأقرئك سلاما تنال بركته من مضي من أمتك وغبر ويخص بفضل الله تعالى
وجاهك من كتب وسطر إن شاء الله تعالى

كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى اللائذ بحرمك الأوقى المتأخر جسما المتقدم نطقا فلان والسلام عليك يا رسول الله تسليما كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته وله من خطبة طويلة ونشهد أن محمدا عبدا لله ورسوله الصفوة المجتبي الكريم أما طاهرة وأبا المختار من الطيبين مباركا طيبا المصطفى نبي إذ كان آدم بين الماء والطين متقلبا المتقدم بمقام تأخر عنه مقام الملائكة المقربين انتخبه الله وانتجبه وأظهره على غيب عن غيره حجه وشرفه في الملأ الأعلى وأعلى رتبة وخط اسمه على العرش سطرًا وكتبه وهو وسيلة النبيين والمرشح أولا لإمامة المرسلين بعثه ربه لختم الرسالة ونعته بنعت الشرف والجلالة وأيده بالحجة البالغة والدلالة وجعله نورا صادعا لظلام الضلالة واثنى في ذكره الحكيم على خلقه العظيم فما عسى أن يبلغ بعد ثناء المثنين بفضله التصريح وإليه الإشارة وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى البشارة وعليه راقى من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة وهو المخير بين الملك والعبودية فاختر العبودية بعد الاستخارة والاستشارة فتواضعه حل بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربه إليه ووفد أكرم وفادة عليه وأدناه قاب قوسين لديه ووضع إمامه الرسالة العظمى في يديه وقال له " اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " فصعد بأمر الله صدعا وأوتي من المثاني سبعا ومن الآيات البيئات آلافا وإن كان أوتي موسى تسعا فما مشي الشجر إليه يجر عروقه إلا كرجوع العصا حية تسعى وماتفجر الحجر بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعًا فارتوى منه خمسمائة وقد كان يكفي آلافا فكيف المثني وكلمه عليه الصلاة والسلام من معجزة تبهر وآية هي من أختها أكبر رجعت له الشمس وانشق القمر وكلمه الضب وأخبر به الذئب وسلم عليه الشجر والحجر وكان للجدع عند فراقه إعلانا بوجده واشتياقه أنه وحين أعطى من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر وكانت له في الغار آيات بينات خفي بها على القوم الأثر وارتج لمولده إيوان كسرى وخمدت نار فارس وكان ضمها يتسعر وأتته أخبار السماء فما عمي في الأرض الخبر فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين وجعل له القرآن معجزة تتلى يبلى الزمان وهي لا تبلى وتعلو كلماتها على الكلم ولا تعلو وتجلي آياتها في عين آيات الشمس حين تجلى فيتوارى منها بالحجاب حاجب وجبين بهر إعجاز التنزيل العلي وظهر به صدق النبي العربي فكم نادى لسان عزه في الندى بأهل البديهة من الفصحاء والروفي قل فأتوا بسورة من مثله فلم يكونوا لها مستطيعين

لقد خص نبينا عليه السلام بالآيات الكبر والدلالات الواضحة الغرر والمقامات السامية المظهر والكرامات المخدلة للمفخر فهو سيد الملأ النبوي والمعشر وحامل لواء الحمد في المحشر وصاحب المقام المحمود والكوثر والشفيع المشفع يوم يقوم الناس لرب العالمين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وذريته المباركين وصحابته الأكرمين وأزواجه أمهات المؤمنين صلاة موصولة تتردد إلى يوم الدين وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتابا في عليين وسلم تسليما

ومن نثره في خطبة قوله أيها الناس رحمكم الله تعالى أضيخوا أسماعكم لمواعظ الأيام واعتبروا باحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام وأحضروا لفهم موادها أوعى القلوب وأصح الأفهام وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النوام ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام ولا تنسينكم خدعها المموهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام فهي دار انتياب النوائب ومصاب المصائب وحدث الحوادث وإمام الآلام دار صفوها أقدار وسلمها حرب تدار وأمنها خوف وحذار ونظمها تفرق وانتشار واتصالها انقطاع وانصرام ووجودها فناء وانعدام وبنائها تضعف وانهدام ينادي كل يوم بناديها منادي الحمام فلا قرار بهذه الغرارة ولا مقام ولا بقاء لساكنيها ولا دوام

فبئست الدار دارا لا تدارى ولا تقيل لعائرها عثارا ولا تقبل لمعتذر اعتذارا ولا تقني من جورها حليفا ولا جارا وليس لها من عهد ولا ذمام كم فتكت تقوم غافلين عنها نيام كم نازلت بنوازلها من قباب وخيام كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسقام كم رمت أغراض القلوب بمصميات السهام كم جردت في البرايا للمنايا من حسام كم بددت بأكف النائبات الناهبات من عطايا جسام كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل وغلाम

لا تبقي على أحد ولا ترثي لوالد ولا ولد ولا تخلد سرورا في خلد ولا يمتد فيها لأمل أمد بينا يقال قد وجد إذ قيل قد فقد بعدا لها قد طبع على نكد وكمد فالفرح فيها ترح والخبرة عبرة والضحك والابتسام بكاء وأدمع سجام تفرق الأحبة بعد اجتماعهم وتسكن الوحشة مؤنس رباعهم وتبيح بالحمام حمى الأعزة فلا سبيل إلى امتناعهم وتستحث ركائب الخلائق على اختلاف أنواعهم إلى مصيرهم إلى الله عز وجل وارتجاعهم

فيسيروا طوع الزمام ويلقون مقادة التذلل والاستسلام حتى يلجأوا بالرغام وينزلوا بطون الرجام ويحلوا الوهد بعد المقام السام فلا ناج من خطبها العظيم ولا سليم يتساوى في حكم المنية الأغر والبهيم والأعز والمضيم

ولو أنه ينجو من ذلك مجد صميم وجد كريم وحظ عظيم ومضاء وعزيم ومزية وتقديم وحديث في الفضل وقديم وشرف لسماك السموات مسام وعلى على ساق العرش المجيد ذو ارتسام لنجا حبيب الملك العلام وسيد السادات الأعلام وصفوة الصفوة الكرام وخاتم الأنبياء ولينة التمام وصباح الهدى ومصباح الظلام والأبيض المستسقى به غيث الغمام ثمال الأرامل وعصمة الأيتام عليه أفضل الصلاة والسلام لكن مع قدره الجليل وفضله الجلي أقدم الموت على جانبه العلي وتقدم ملك الموت لقبض روحه القدسي وتغيب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي وتفيض ماء السماء والندى لملك السماحة النبوية والندى وأصيب المسلمون وأعظم بها مصيبة بنبيهم العربي الهاشمي القرشي فيا له وللإسلام من مصاب أسلمنا للحزن أي إسلام وأسأل مياه الدموع عن احتراق للضلوع واضطرام وأرانا أن الأسى في رزية لخير البرية واجب وأن التأسى حرام وهل يسوغ الصبر الجميل في فقيد بكنه الملائكة وجبريل وكثر له في السموات السبع النحيب والعويل انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل وعظمت الرزية به أن يؤدي حقيقتها الوصف والتتمثيل غداة أقفر منه الربيع المحيل وأوحش من أنسه السفح والنخيل وكان من تلك الروح الطاهرة الوداع والرحيل وقامت البتول تندب أباهما بقلب قريح وجفن دام وتنادت الأمة مات الرسول ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام وحارت الأبواب والعقول فلا صبر هنالك لقد زلت عن الصبر الأقدام ولما نعت إليه

نفسه وأن أن تأفل من تلك المطالع شمسه آذن أمته بالفراق وأعلمهم وناشدهم في أخذ القصاص وكلمهم مخافة أن يمضي إلى الملك الحق وعليه تباعة لأحد من الخلق وحاشاه عليه الصلاة والسلام من صفات جائر للأمة ظلام ولكنه تعريف من نبي الرحمة بما يجب وإعلام ثم استمر به صلوات الله وسلامه عليه وتمادى وزاد به السقم المنتاب وتهادى حتى واره ملحه وخلا منه ربه ومسجده فعم الحزن والاكتئاب وتوارى النور فأظلم الجناب وعاد الأصحاب وكأنما دموعهم السحاب فقالت فاطمة وقد رابها من دفن أبيها الكريم ما راب أطابت نفوسكم أن تحتوا على رسول الله فكأن كلامها للقلوب المفجعة كلام وللعيون المفجرة بالدموع انسفاح وانسجام

وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع المشيد بذكر الأشجان المذيع كانت وفاة هذا النبي الهادي الشفيق وانتقاله إلى الملأ الأعلى والرفيق الرفيع حين ناداه ربه إلى قربه فلبى بشوق قلبه تلبية المهبط المطيع وحن إلى حضرة القدس فانتظم حين حل بها ما كان من شمله الصديق وانتظر من صنع الرب جميل الصنيع وإنجاز وعد الشفيق في الجميع إذ أعطي لواء الحمد وقام محمود المقام ووقف على الحوض ينادي هلموا إلي أروكم من العطش والأوام

اللهم اسقنا من حوضه المورود وشرفنا بلوائه المعقود وشفعه فينا في اليوم المشهود وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللحد اللهم اجعله لنا تعزية من كل مفقود وأوجد لنا من بركاته أشرف موجود وجازه عنا بما أنت أهله من فضل وإحسان وجود وإنفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الركع السجود واجعلنا معهم في الجنة دار الخلود ودار السلام واخصهم عنا بأكرم تحية وأفضل سلام وصل عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أي استسلام وتنتظم له كرامات إحسانك أي انتظام

فصلوات الله عليه وأطيب تحياته ورحمته تتوالى لديه وأجزل بركاته ما تجدد في ربيع ذكر وفاته وتمهد كهف القبول لطالبي فضله وعفاته وتعزى به كل مصاب في مصيباته وترجى شفاعته كل محب فيه متبع لهداياته وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جناباته حظوظ من بر الله تعالى وأقسام " إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما " اللهم صل عليه من نبي لم يزل بالمؤمنين رؤؤفا رحيفا اللهم صل عليه من نبي أوجبت حبه وعظمته تعظيما اللهم صل عليه من نبي صليت عليه تجلة وتكراما وأمرتنا بالصلاة عليه إرشادا وتعلينا فلنا بأمرك اقتداء وأتتمام وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام وكلامك يا ربنا أشرف الكلام ولوجهك وحده البقاء والدوام " كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " " هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين والحمد لله رب العالمين "

انتهى

وترجمة ابن الجنان واسعة جدا وكلامه في النبويات نظما ونثرا جليل رحمه الله تعالى وقال لسان الدين في الإحاطة بعد أن عرف به وأورد له الرسالة ما صورته ومحاسنه عديده وأماده بعيدة ثم قال إنه انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عشر الخميسين وستمائة انتهى

وقال صاحب عنوان الدراية في حق ابن الجنان المذكور ما ملخصه الفقيه الخطيب الكاتب البارع الأديب أبو عبدالله ابن الجنان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان وجودة الخط وحسن الضبط وهو في الكتابة من نظراء الفاضل أبي المطرف ابن عميرة المخزومي وكثيرا ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء ولا يصل إليه إلا القليل من البلغاء ونثره ونظمه كله حسن ونظمه غزير وأدبه كثير ومن ذلك قصيدته الدالية التي مطلعها " يا حادي الركب قف بالله يا حادي ... وارحم صباة ذي ناي وإبعاد "

وله أيضا

" ترك النزاهة عندنا ... أدى إلى وصف النزاهه "

" ما ذاك إلا أنها ... تدعو الوقور إلى الفكاهه "

" وإذا امرؤ نبذ الوقا ... ر فقد تلبس بالسفاهه "

مخمسات من المدائح النبوية

ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد الوجود وشرف وكرم

" ... الله زاد محمدا تكريما "

" ... وحباه فضلا من لدنه عظيما "

" ... واختصه في المرسلين كريما "

" ذا رافة بالمؤمنين رحيمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... جللت معاني الهاشمي المرسل "

" ... وتجلت الأنوار منه لمجتلي "

" ... وسما به قدر الفخار المعتلي "

" فاحتل في أفق السماء مقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... حاز المحامد والممادح أحمد "

" ... وزكت مناسبه وطاب المحتد "

" ... وتأثلت علياؤه والسؤدد "

" مجدا صميما حادثا وقديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... شمس الهداية بدرها الملتاح "

" ... قطب الجلالة نورها الوضاح "

" ... غيث السماحة للندى يرتاح "

" يروي بكوثره الظماء الهيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... تاج النبوة خاتم الأنبياء "

" ... صفو الصريح خلاصة العلياء "

" ... نجل الذبيح سلالة العلماء "

" بشرى المسيح دعاء إبراهيم ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... فخر لآدم قد تقادم عصره "

" ... من قبل أن يدري ويجرى ذكره "

" ... سر طواه الطين فهم نشره "

" معني السجود لآدم تفهيمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... لله فضل المصطفى المختار "

" ... ما إن له في المكرمات مجاري "

" ... ولا مبار باختصاص الباري "

" بالحق قدم مجده تقديمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... أوصاف سيدنا النبي الهادي "

" ... ما نالها أحد من الأمجاد "

" ... فالرسل في هدي وفي إرشاد "

" قد سلموا لنبينا تسليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... آياته بهرت سنا وسناء "

" ... وأفادت القمرين منه ضياء "

" ... وعلت بأعلام الظهور لواء "

" فهدي به الله الصراط قويمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... دنت النجوم الزهر يوم ولادته "
 " ... ورأت حليلة آية لسيادته "
 " ... وتحدثت سعد بذكر سعاده "
 " فتفاءلوا نعم اليتيم يتما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... لما ترعرع جاءه الملكان "
 " ... بالطست فيها حكمة الرحمن "
 " ... فاستخرجا القلب العظيم الشان "
 " منه وطهر ثم عاد سليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... كرمت مناشي أحمد خيرالورى "
 " ... وجرى له القلم العلي بما جرى "
 " ... ما كان ذلكم حديثا يفترى "
 " لكنه الحق الجلي رسوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... ما زال برهان النبي يلوح "
 " ... يغدو به الإعجاز ثم يروح "
 " ... حتى أتاه بعد ذاك الروح "
 " يوحى له وحي الإله حكيمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... شهدت له بمزية التفضيل "
 " ... سور وآيات من التنزيل "
 " ... وصلاة خالقه أدل دليل "
 " فافهمه واسمع قوله تعظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... إن الرسول المعتلي المقدار "
 " ... لمؤيد من ربه القهار "
 " ... بالمعجزات جلت عمى الأبصار "
 " وشفت من أدواء الضلال سقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... كم شاهد لمحمد بنبوته "
 " ... في أيد تأييد الإله وقوته "
 " ... فبذاك أعلى الله دعوة حجته "
 " فمضت حساما صارما وعزيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... البدر شق له ليظهر صدقه "
 " ... والشمس قد وقفت تعظم حقه "
 " ... والمزن أرسل إذ توسل ودقه "
 " فاخضر ما قد كان قبل هشيمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... والماء بين بنانه قد سالًا "
 " ... عذبا معينًا سائغا سلسالا "
 " ... كنداه يمنح رفته من سالًا "
 " وينيل راجيه النوال جسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... بركاته أربت على التعداد "
 " ... كم أطعمت من حاضرين ويادي "
 " ... من قصعة أو حثية من زاد "
 " رزقا كريما للجيش عميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... سجد البعير له سجود تذل "
 " ... وشكا إليه بحرقة وتململ "
 " ... والشاة قال ذراعها لا تأكل "
 " مني فإني قد ملئت سموما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... والغصن جاء إليه يمشي مسرعا "
 " ... والصخر أفصح بالتحية مسمعا "
 " ... والظبية العجماء فيها شفعا "
 " والضب كلم أحمدًا تكليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... والجذع حن له حنين الواله "
 " ... يبدي الذي يخفيه من بلباله "
 " ... أفلا يحن متيم بجماله "
 " يشتاق وجهها للنبي وسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... ما بالنا نسلو وحب حبيبتنا "
 " ... يقضي بث غرامنا ونحيينا "
 " ... لو صح في الإخلاص عقد قلوبنا "
 " لم ننس عهدا للرسول كريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... أين الدموع نفيضها هتانا "
 " ... أين الضلوع نقضها أشجانا "
 " ... حتى نقيم على الأسي برهانا "
 " لمتمم إرشادنا تميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... أوليس هادينا إلى سبل الهدى "
 " ... أوليس منغذنا من أشراك الردى "
 " ... أوليس أكرم من تعمم وارتدى "
 " أولم يكن أركى البرية خيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... ذاك الشفيغ مقامه محمود "
 " ... ولواؤه بيد العلا معقود "
 " ... فإذا توافقت للحساب وفود "
 " قالوا تقدم بالأنام زعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... فيقوم بالباب العلي ويسجد "
 " ... ويقول يا مولاي أن الموعد "
 " ... فيجاب قل يسمع إليك محمد "
 " ونريك منا نصره ونعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... أعظم بعز محمد وبجاهه "
 " ... أكرم به متوسلا لإلهه "
 " ... شربت كرام الرسل فضل مياهه "
 " فغدت تعظم حقه تعظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 " ... يا سامعي أخباره ومفاخره "
 " ... ومطالعي آثاره ومآثره "
 " ... ومؤملي وافي الثواب ووافره "
 " إن شئتم فوزا بذاك عظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "
 قلت وكثيرا ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس وأضيف إليها قبلها أخرى
 لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح النبوية مقيل وتعريس وهي قصيدة ميلاديه كأنما
 لم ينظمها مؤلفها إلا مقدمة لهذه القصيدة الفريدة وهي
 " اسمع حديثا قد تضمن شرحه ... روضا من الإيناس أينع دوحه "
 " فيه الشفاء لمن تكاثر برحه ... وافي ربيع قد تعطر نفحه "
 " ... أذكى من المسك الفتيق نسيما "
 " شهر حوى بوجود أحمد أسعدا ... بالمصطفى بين الشهور تغردا "
 " يا ما أجل سنا علاه وامجدا ... لولادة المختار أحمد قد غدا "
 " ... يزهو به فخرا تراه عظيما "
 " يا من بأدمع مقلتيه يغتذى ... كم ذا تنادي حسرة من منقذي "
 " وتقول للزفرات هل من منفذ ... بشرى بشهر فيه مولده الذي "
 " ... سر الزمان علوه تعظيما "
 " يا ليلة رفعت بأحمد حجبها ... لما دنا بعد التباعد قربها "
 " وتطلعت للسعد فينا شهبها ... ضاءت لها شرق البلاد وغربها "
 " ... وتأنقت أرجاؤها تنعيما "
 " أسدى إليك الدهر حسن صنيعه ... وحباك من غض الجنى ببديعه "

" وافى هلال محمد بريعه ... فاعتز أمر الله عند طلوعه "

" ... وغدا به دين الإله قويمًا "

" نظم الزمان بجيد عمرك دره ... فاشكر مآثره وواصل بره "

" وافتك بالسر المصون فسره ... واعرف لهذا الشهر حقا قدره "

" ... فلقد غدا بين الشهور كريما "

" يا صاح جاءت بالأمانى أسعد ... وأطل بالبشرى الكريمة مولد "

" هذا ربيع فيه أنجز موعد ... شهر كريم جاء فيه محمد "

" ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

ثم قلت أنا عند ختم درس الشفا موطنًا لقصيدة ابن الجنان المذكور ولعذب براعتها مرتشفا ما نصه والأعمال بالنيات

" انشق أزاهر عن فنون رياض ... للعلم واكرع من عذاب حياض "

" واسبق الرياض بذكره الفياض ... واحفظ كلاما للإمام عياض "

" ... قد تمت أقسامه تميمًا "

" لله روض منه أينع دوحه ... يجنى به من الكريم ومنحه "

" فهو الشفاء لمن تكاثر برحه ... مسك الختام به تعطر نفحه "

"...فشذاه في الأرجاء صار شميما "

" فاضت علينا من هداه عوارف ... زهر وأنوار وظل وارف "

" ونمارق مصفوفة ومطارف ... يا حسن ما أبداه فد عارف "

" ... درا بأسلاك الحديث نظيما "

" لم لا وبالمملك الشفيق تشرفا ... خير البرية ركن أرباب الصفا "

" من أسعد الراحي وقصدا أسعفا ... طه النبي الهاشمي المصطفى "

" ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضوع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة ابن الجنان المذكور في روي تلك القصيدة غير مخمسة مستقلة بنفسها وهو قوله رحمه تعالى

" صلوا على خير البرية خيما ... وأجل من حاز الفخار صميما "

" صلوا على من شرفت بوجوده ... أرجاء مكة زمزما وحطيما "

" صلوا على أعلى قريش منزلا ... بذراه خيمت العلا تخيما "

" صلوا على نور تجلى صبحه ... فجلا ظللانا للضلال بهيما "

" صلوا على هاد أرانا هديه ... نهجا من الدين الحنيف قويمًا "

" صلوا على هذا النبي فإنه ... من لم يزل بالمؤمنين رحيمًا "

" صلوا على الزاكي الكريم محمد ... ما مثله في المرسلين كريما "

" ذاك الذي حاز المكارم فاغتدت ... قد نظمت في سلكه تنظيمًا "

" من كان أشجع من أسامة في الوعى ... ولدى الندى يحكي الحيا تجسيما "

" طلق المحيا ذو حياء زانه ... وسط الندى وزاده تعظيمًا "

" حكمت له بالفضل كل حكيمة ... في الوحي جاء بها الكتاب حكيما "

" وبدت شواهد صدقه قد قسمت ... بدر الدجى لقسيمه تقسيما "

" والشمس قد وقفت له لما رأت ... وجها وسيما للنبي وسيما "

" كم آية نطقت تصدق أحمدا ... حتى الجماد أحابه تكليما "

" والجذع حن حنين صب مغرم ... أضحى للوعات الفراق غريما "

" جلّت مناقب خاتم الرسل الذي ... بالنور ختم والهدى تختيما "

" وسمت به فوق السماء مراتب ... بمقام صدق عز فيه مقيما "

" فله لواء الحمد غير مدافع ... وله الشفاعة إذ يكون كليما "

" نرجوه في يوم الحساب وإنما ... نرجو لموقفه العظيم عطيما "

" ما إن لنا إلا وسيلة حبه ... وتحية تذكو شذا وشميما "

" ولخير ما أهدى امرؤ لنبيه ... أرج الصلاة مع السلام جسيما "

" يا أيها الراجون منه شفاعة ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبي العلاء إدريس بن موسى القرطبي في مدح رسول الله وقف عليها أبو عبد الله ابن الجنان المذكور وقرظها بما سنذكره بعدها قريبا وهي

" أهلا بكم يا أهل هذا النادي ... أهل اعتقاد الوعد والميعاد "

" أهدوا الصلاة إلى النبي الهادي ... وصلوا السلام له مع الآباد "

" ... يندى نسيما مذكرا تسنيما "

" هو أول الشفعاء يوم المحشر ... وسواه بين تقدم وتأخر "

" بهت الحضور لهول ذاك المحضر ... والكل في الخطب العميم الأكبر "

" ... قد هيئت ألبابهم تهيمما "

" ذاك المقام الأشهر المحمود ... هو للنبي محمد موعود "

" فيه الشفاعة ذخرها موجود ... درك المراد وحوضه المورود "

" ... فضل الكليم به وإبراهيمما "

" عيسى وموسى والخليل مروع ... من هول مطلع هنالك يفظع "

" فيقال أحمد قل فإنك تسمع ... فيقوم يحمد ربه فيشفع "

" ... فضلا من الرب العظيم عظيما "

" يا أمة المختار أنتم أمه ... والهول قد عم البسيطة يمه "

" والأنبياء سواه كل همه ... تخلص مهجته وليس يهमे "

" ... من كان في الدنيا عليه كريما "

" صلى الإله على الذي صلى عليه ... عشرا بواحدة يزكيها لديه "

" وأراه في الدارين قررة ناظره ... يا قاصدين إلى وصولكم إليه "

" ... راجين من أرح القبول نسيما "

" لولا وصية صاحب التنزيل ... أن لا يقال له غلو القيل "

" قول الغلاة لصاحب الإنجيل ... لغلوت في التعظيم والتبجيل "

" ... عظم المكانة يوجب التعظيما "

" طوبى لقلب قد تلالا إذ صفا ... بالسر منه قد تثبت إذ هفا "

" خطت به آيات حب المصطفى ... فغدا لصاحبه بذلك مصحفا "

" ... يهدي إلى نهج النجاة قويما "

" فافت علا ذكراه إذ راقت حلى ... ملأ النبوة أمهم حين اعتلى "

" في ليلة الإسراء أعلى معتلى ... كتب الإله له التقدم في العلا "

" ... وعليهم التفويض والتسليما "

" وكذاك يسلم في الشفاعة كلهم ... ومحلهم عند الإله محلهم "

" ظل النبي محمد هو ظلهم ... يمشون تحت لوائه فيدلهم "

" ... يندى عليهم بهجة ونعيما "

" أوصافه من كل حسن أبهج ... العرف ينفج والسنا يتبلج "

" فتارج الأرجاء منه وتبهج ... فاق الزواهر نورها يتوهج "

" ... والزهر نفاح النسيم وسيما "

" طلق المحيا منهل للنائل ... أنحى على الدنيا بزهد كامل "

" هو مثل الدنيا بظل زائل ... لم ترضه حال النعيم الحائل "

" ... ما حاول الترفيه والتنعيما "

" ما ورث المختار مال مؤمل ... إلا جواهر في الكتاب المنزل "

" أشهى لقلب الناظر المتأمل ... وأقر إعجابا لعين المجتلي "

" ... من كل قيمة مقتض تقويما "

" وفقت يا من لم يخالف نصه ... حزت الكمال وليس تخشى نقصه "

" نهج الهدى قول النبي اقتصه ... بالوحي شرفه الإله وخصه "

" ... شرفا على شرف السناء صميما "

" سبحان موج لا يحد له الكلام ... من قال ذات كلام خلاق الأنام "

" خلق فذلك أثم كل الأثام ... ذاك الذي في الدين ليس له ذمام "

" ... إلا ذمام لا يزال ذميما "

" ضل الذي يبغى الهدى مما سواه ... وهوى به في كل مهواة هواه "

" من فارق الفاروق قد تبت يده ... حيران لم يهد السبيل إلى هداه "

" ... لا يعرف التحليل والتحريما "

" بالمدح مجد المصطفى يممته ... من حلي أوصاف له نظمته "

" لم أبلغ المعشار إذ أحكمته ... بعضا نسيت وبعضه ألهمته "

" ...فلدته جيد الزمان نظيما "

" لو فزت بالإحسان من حسان ... وسحبت أذبالي على سحبان "

" أو أيدتني لسن كل زمان ... من كل ذي زعم عظيم الشان "

" ... ما كنت بالمعشار منه زعيما "

" إدريس حفتك الحقوق خفوقا ... هلا خففت إلى الرسول خفوقا "

" وقريت بالعزم الهموم ضيوقا ... وشدوت أن هال الزمان صروقا "

" ... مهلا كفاك معلمي التعليما "

" ثقة بفضل الواحد القهار ... ملك الملوك مصرف الأعصار "

" جعل النبي مكرم الآثار ... وأمده بالنصر والأنصار "

" ... وأتم نعمته له تتيما "

" هل أجلون بصري بكحل سناه ... يا سعد من كحلت به عيناه "

" ظفرت يده وساعدته مناه ... لله ذاك الأفق ما أسناه "

" ... كرم المحل فيقتضي التكريما "

ونص تقرير ابن الجنان على هذه القصيدة هو قوله

" ما زال كل حليف ... لله أضحى وليا "

" وللعلوم خليلا ... وعن سواها خليا "

" ويصوغ عقبان مدح ... للهاشمي حليا "

" ويوجب الحق فيه ... إيجابه الأوليا "

" ويقتفي في رضاه ... نهجا جليلا جليا "

" والكل أحظاه حظ ... فالفوز يلقى مليا "

" لكن إدريس منهم ... حاز المكان العليا "

ولا يخفاك أنه التزم في هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء رحمه الله تعالى

ولا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجنان المذكور السابق أولا

في البحر والروي والمنحى الذي لا يضل قاصده وكيف لا وهو مدح الجناب الرفيع العظيم النبوي

فمن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي فإن بعضا ذكر أنها من قوله لما

أظهر الإسلام وهي لا تقتضي رفع الريبة فيه والاتهام

" ... جعل المهيمن حب أحمد شيمة "

" ... وأتى به في المرسلين كريمة "

" ... فغدا هو اه على القلوب تميمة "

" وغدا هداه لهدبهم تتيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... أبدى جبين أبيه شاهد نوره "

" ... سجعت به الكهان قبل ظهوره "

" ... كالطير غرد معربا بصغيره "

" عن وجه إصباح يطل نسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... أنس الرسالة بعد شدة نفرة "

" ... منجى البرية وهي في يد غمرة "

" ... محيي النبوة والهدى عن فترة "

" فكأنما كفل الرشاد يتيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... الله أوضح فضله فتوضحا "

" ... والله بين حبه في والضحي "

" ... والجذع حن له هوى فترنجا "

" والماء فاض بكفه تسنيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ربا الرواية عن علاه زكية "

" ... نجواه ربانية ملكية "

" ... أوصافه علوية فلكية "

" فأخال شعري عندها تنجيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... احتث في السبع الطباق براقه "

" ... والأرض واجمة تخاف فراقه "

" ... سبحان من أدنى سراه فساقه "

" ... شخصاً على ملك الملوك كريماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... فاشتتم ريحان القلوب الطيبا "

" ... ودنا فأسمع يا محمد مرحباً "

" ... إني جعلتك جار عرشني الأقربا "

" ... إن كنت قبلك قد جعلت كليماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... يا ليلة يجري الزمان فتسبق "

" ... الحجب فيها والأرائج تفتق "

" ... ما كان مسك الليل قبلك يعبق "

" ... بشري محمد استفاد نسيماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... حتى إذا افتعد البراق لينزلاً "

" ... نادته أسرار السموات العلا "

" ... يا راحلاً ودعته لا عن قلبي "

" ... ما كان عهدك بالغيوب ذميماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... سعد النجود وسار في الأغوار "

" ... سمك السما طورا وبطن الغار "

" ... متقسماً في طاعة الجبار "

" ... ما أشرف المقسوم والتقسيم ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... الشافع المتوسل المتقبل "

" ... القانت المدثر المزمّل "

" ... وافى وظهر الأرض داج ممحل "

" ... فجلا البهيم به وأروى الهيماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... دفعت كرامته الزنوج عن الحرم "

" ... ودعاه جبريل المنزه في الحرم "

" ... وعزت له آيات نون والقلم "

" ... خلقاً به شهد الإله عظيماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... طاو يفيض الزاد في أصحابه "

" ... غيث ولكن كان يستصحى به "

" ... طابت ضمائر قلبه وترابه "

" ... منه بسر لم يكن مكتوماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... يا شوقي الحامي الى ذاك الحمى "

" ... فمتى أقضيه غراماً مغرماً "

" ... ومتى أعانقه صعيداً مكرماً "

" ... بضمير كل موحد ملثوماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

ومن ذلك قول بعض الوعاظ وأظنه من أهل المشرق

" ... جل الذي بعث الرسول رحيماً "

" ... ليرد عنا في المعاد حجيماً "

" ... وبه نرجي جنة ونعيماً "

" ... أضحى على الباري الكريم كريماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... ما ضل عن وحي الإله وما غوى "

" ... حاشا رسول الله ينطق عن هوى "

" ... الصادق الثقة الأمين بما روى "

" ... قد نال من رب السماء علوماً ... صلوا عليه وسلموا تسليماً "

" ... وافى له الروح الأمين مبشراً "

" ... نادى به يا خير من وطىء الثرى "

" ... أجب المهيمن يا محمد كي ترى "

" ملكا كريما في السماء عظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"...فأجابه المختار حين دعا به "

"... رب السموات العلا لخطابه "

"... ركب البراق وقد أتى لجنابه "

" أمسى له الروح الأمين نديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... فمتى أرى الحادي يبشر باللقا "

"... ويضمه بان المحصب والنقا "

"... وأرى ضريح المصطفى قد أشرقا "

" مولى حلما لن يزال رحيفا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... وأقول للزوار قد نلت المنى "

"... يهنيكم طيب المسرة والهنا "

"... فاستبشروا من بعد فقر بالغنى "

" فالله زادكم به تكريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... ثم الرضى عن آله الكرماء "

"... وكذاك عن أصحابه الخلفاء "

"... فهوهم ديني وعقد ولائي "

قوما تراهم في المعاد نجوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما " ومنها قول بعض فضلاء المغاربة "

رحمه الله تعالى

"... يا أمة الهادي المبارك أحمد "

"... يهنيكم نيل الأمانى في غد "

"... بمحمد فزتم ومن كمحمد "

" إن شئتم أن تدركوا التتميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... صلوا على البدر المنير الزاهر "

"... صلوا على المسك الفتيق العاطر "

"... صلوا على الغصن البهي الناضر "

" وتنعموا بصلاتكم تنعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... صلوا على من بالنبوة زينا "

"... صلوا على من بالكمال تمكنا "

"... بمحمد فزنا فإدراك المنى "

" فضلا منحنا حادثا وقديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... صلوا على البدر المنير اللائح "

"... صلوا على الهادي الحبيب الناصح "

"... صلوا على المسك الفتيق الفائح "

" للرشد فهم والهدى تفهيمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من مجده قد أسسا "

"... والماء بين بنانه قد بجسا "

"... وأنت إليه سرحة حتى اكتسى "

" بفروعها إذ خيمت تخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... صلوا على من كان يبصر من قفا "

"... وعليه سلمت الجنادل والصفى "

"... والذئب قال صدقت أنت المصطفى "

" وشكا إليه بازل قد ضيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... صلوا على من قد شفى بالريق "

"... عين الضرير ولدغة الصديق "

"... وأعاد طعم الماء مثل رحيق "

" إذ مج فيه العنبر المختوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

"... صلوا على من بالملائك جيشا "

"... وغدت تظله الغمام إذا مشى "

" ... حرست سماء الله لما أن نشأ "

" ليكون سر حبيبه مكتوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا عليه كل حين تريحوا "

" ... وبهديه مهما اهتديتم تفلحوا "

" ... والأجر يشملكم فجدوا تنجحوا "

" وإذا أردتم أن يكون عظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا بجمعكم على شمس الهدى "

" ... صلوا على بدر يزين المشهدا "

" ... صلوا عليه به الرشاد تمهدا "

" والذكر بين فضله تفخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا بإخلاص على خير البشر "

" ... صلوا على من فاق حسنا واشتهر "

" ... ونمت فضائله وشق له القمر "

" ولكم دليل في علاه أقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من قد رأى الرحمانا "

" ... بالقلب أو بالعين منه عيانا "

" ... عن قاب أو أدنى مقام كانا "

" فخذ الفوائد كي تفاد علوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا عليه كلكم لا تسأموا "

" ... وتبركوا بصلاته وتنعموا "

" ... فعليه صلى الأنبياء وسلموا "

" شرفا لهم إذ أهمهم تقديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... يا حاضرين بلغتم كل المنى "

" ... عن جمعكم من فضله ذهب العنا "

" ... وإليكم والله قد وجب الهنا "

" بمحمد كرمتم تكريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... قولوا برغم معاندين وحسد "

" ... كي ترغموا أنفا لكل مفند "

" ... صلى الإله على النبي محمد "

" أبدا وزاد لقدره تعظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... يا رب يا ذا المن والإحسان "

" ... جد بالرضى والعفو والغفران "

" ... للوالدين ومنشد الأوزان "

" والسامعين أنلهم تنعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلى عليه الله ما اجتمع الملا "

" ... صلى عليه الله ما قطع الفلا "

" ... صلى عليه الله ما انتجع الكلا "

" أبدا وما رعت السوام هشيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

ومن ذلك قول الإمام العالم الشهير الأديب مالك بن المرحل المالقي ثم السبتي وهي من غرر القصائد وفيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم يجعلها بدأ وروبا على اصطلاح المغرب

" ... ألف أجل الأنبياء نبيء "

" ... بضيائه شمس النهار تضيء "

" ... وبه يؤمل محسن ومسيء "

" فضلا من الله العظيم عظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... باء بدا في أفق مكة كوكبا "

" ... ثم اعتلى فجلا سنه الغيها "

" ... حتى أنار الدهر منه وأخصبا "

" إذ كان فيض الخير منه عميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... تاء تبينت الهدى لما أتى "

" ... فنغى الشريك عن القديم وأثبتنا "

" ... أحذية من حاد عنها قد عتا "

" وتلا كلاما للكريم كريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... تاء ثوى في الأرض منه حديث "

" ... في كل أفق طيبه مبعوث "

" ... داع بأنواع الهدى مبعوث "

" يتلو نجوما أو يهز نجوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... جيم جلا بسراجة الوهاج "

" ... ما جن من ليل الظلام الداجي "

" ... وسقى القلوب بمائه الثجاج "

" فأصارها بعد الغموم غميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... حاء حمى دين الهدى بصفائح "

" ... وسما بشم كالجبال أراجح "

" ... من كل أزهر هاشمي واضح "

" لولا نداء غدا النبات هشيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... خاء خبت نيران جهل شامخ "

" ... آيات علم للرسالة راسخ "

" ... من مثبت ماح ومنس ناسخ "

" ... قد خص بالذكر الحكيم حكيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... دال دعا فأجاب كل سعيد "

" ... وأتى بوعد صادق ووعيد "

" ... حتى أقر الناس بالتوحيد "

" ... تجنبوا الإشرار والتجسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ذال ذباب حسامه مشجوذ "

" ... للناكثين وعهدهم منبوذ "

" ... أما السعيد فبالنبي يلوذ "

" ... فيدال من ذل الشقاء نعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... راء رويانا عن ذوي الأخبار "

" ... أن الندى والبأس مع إيثار "

" ... بعض صفات المصطفى المختار "

" ... كم قد تقدم بالأنام زعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... زاي زعيم بالنزال عزيز "

" ... وبلغ معنى في المقال وجيز "

" ... فلقوله من فعله تعزيز "

" ... ولربما عاد الكلام كلوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... طاء طويل السيف متسع الخطا "

" ... رجب الذراع ومن يمد لهم سطا "

" ... يردي العدا وإذا ارتدى متخمطا "

" ... يبيري عذابا إذ الأمر أليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ظاء ظهير للعباد حفيظ "

" ... حظ لدى رب العباد حظيظ "

" ... حق له التابين والتقريط "

" ... ميتا وحيا طاعنا ومقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... كاف كريم العنصرين مبارك "

" ... متفرد بالجاه ليس يشارك "

" ... فهو الذي بمقامه يتدارك "

" والهول يغدو مقعدا ومقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... لام له عقد اللواء الأحفل "

" ... وله الشفاعة في غد إذ تسأل "

" ... وإذا دعا فدعاؤه متقبل "

" حق الرحيم بأن يرى مرحوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ميم ملائكة الإله تسلم "

" ... فوجا عليه إذ بدا وتعظم "

" ... وبمر جبريل بها يتقدم "

" فيضاعف التعظيم والتكرما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... نون نبي جاءنا بيان "

" ... وبمعجزات أبرزت لعيان "

" ... وبحسبه أن جاء بالقرآن "

" يشفي قلوبا تشتكي وجسوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صاد صفي للإله ومخلص "

" ... ومقرب ومفضل ومخصص "

" ... ذهباً سبيك وزنه لا ينقص "

" قد طاب خيما في الورى وأروما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ضاد ضميين نصحه ممحوض "

" ... ضافي القراءة بالعلوم يفيض "

" ... إن غاض ماء البحر ليس يغيض "

" لما استمر زلاله تسنيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... عين عزيز ذكره مرفوع "

" ... في الأنبياء وقوله مسموع "

" ... مشروح صدر حبه مشروع "

" من لا يدين بذاك كان ذميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... غين غزا من زاغ عنه ومن طغى "

" ... وغدا يثيب لمن طغى نار الوغى "

" ... حتى أقامت من عصى بعد الصغا "

" وتقوم النار العصا تقويما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... فاء فواتح سورة الأعراف "

" ... وبراءة والرعد والأحقاف "

" ... أحظته بالأقسام والأوصاف "

" فمتى توفي حقه منظوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... قاف قوافي النظم عنه تضيق "

" ... أيطيقه الإنسان ليس يطيق "

" ... فالخلق في التقصير عنه خليق "

" ولو أنهم ملأوا الفضاء رقوماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... سين سلام كالنفيس تنفسا "

" ... وقد اجتنى وردا وصافح نرجسا "

" ... أهدي إليه في الصباح وفي المساء "

" بقصائد كادت تكون نسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... شين شمائله الكريمة تعطش "

" ... من كان من سكر المحبة يرعش "

" ... لكن أضاع العمر فيما يوحش "

" فغدت ندامته عليه نديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... هاء هو الهادي الذي اقتدح النهى "

" ... فتفكرت في ملك من رفع السها "

" ... وقضى بحد للأمور ومنتهى "

" فأفادها النظر السديد عموما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... واو وهى ركن التجلد بل هوى "

" ... لما توى في التراب من بعد التوى "

" ... فحوى الضريح الرحب نجما ما غوى "

" أجرى من الدمع السجوم سجوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... لام لأجلك فاض دمعي جدولا "

" ... فاخضر آس أساك إذ يبس الكلا "

" ... يا خير من كلاً المكارم والعللا "

" وحمى الحمى ورمى فأعمى الروما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ياء يحييه ويسقيه الحيا "

" ... رب العباد مجازيا وموفيا "

" ... ومشرفا ومسلما ومصليا "

" يا مسلمين ورتتم التسليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

ومن ذلك قول الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن العباس المغربي حسيما نقلته من
المجلد الخامس والعشرين من كتاب منتهى السؤل في مدح الرسول للحسن بن عبد الرحمن بن
عبد الرحيم بن عذرة المغربي الأنصاري رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بقصده وهو أيضا مرتبة
على حروف المعجم ما عدا الأبتداء وبيوت الانتهاء غير أن ترتيب حروف المعجم في آخر الأشطار
ولم يلتزم صاحبها الأبتداء كما فعل مالك بن المرحل رحمه الله تعالى

" ... الله زاد المصطفى تعظيما "

" ... وقضى له التفضيل والتقدима "

" ... وأناله شرفا لديه حسيما "

" فهو المتمم فخره تميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من خص بالأبناء "

" ... وأبوه ما بين الثرى والماء "

" ... ثم استمر النور في الآباء "

" فتوارثوه كريمة وكريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على بدر بدا من يثرب "

" ... فأضاء بالأنوار أقصى المغرب "

" ... وجلا عن الدنيا دياحي الغييب "

" فبدا لنا نهج الرشاد قويما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من بالشرائع قد أتى "

" ... وأباد أحزاب الطغاة وشتتا "

" ... وأبان أسباب النجاة ووقتا "

" للأمة التحليل والتحريرا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من بالغيوب يحدث "

" ... وبروعه الروح المقدس ينفت "

" ... محبوبنا وشفيعنا إذ نبعث "

" في يوم لا يدري الحميم حميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على صبح الهدى المتبلج "

" ... صلوا على بحر الندى المتموج "

" ... صلوا على روض الجمال المبهج "

" كيما تنالوا الفوز والتنعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على غيث الأنام السافح "

" ... صلوا على المسك الذكي النافح "

" ... أزررت روائحه بكل روائح "

" فالأرض طبقها شذاه نسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من عهده لا يفسخ "

" ... صلوا على من شرعه لا ينسخ "

" ... صلوا على من حزيه لا يمسح "

" نأ يفهم فضله تفهيمًا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من فخره لا ينفد "

" ... صلوا على من فضله لا يجحد "

" ... أنى وكتب الرسل طرا تشهد "

" تنبي اليهود بفضله والروما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من قد حمى عنا الأذى "

" ... ومن الغواية والضلالة أنقذا "

" ... صلوا على من ذكره نعم الغذاء "

" ويمدحه نروي القلوب الهيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا بإخلاص على خير البشر "

" ... من قبل نشأته المباركة اشتهر "

" ... كم كاهن عنه أبان وكم خبر "

" ولكم دليل في علاه أقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من جل مولده وعز "

" ... ضاعت قصور الشام لما أن برز "

" ... وتدانت الشهب الثواقب كالخرز "

" أو كالألي نظمت تنظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من يوم مولده سطا "

" ... بجميع آلهة الضلالة والخطا "

" ... وهوى له عرش اللعين وأسقطا "

" والفرس هدم صرحهم تهديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من ليس فظا غالطا "

" ... لأخيه في الإرضاع كان محاظطا "

" ... فاعجب لذلك كيف كان ملاحظا "

" للعدل فينا مرضعا وفطيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من شأوه لا يدرك "

" ... صلوا على من شأوه لا يشرك "

" ... موسى وعيسى والخليل تبركوا "

" بلقائه وعنوا له تسليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من خلفه صلى الرسل "

" ... شرف على تمكين عزته يدل "

" ... فأذن فقل هو سيد لهم وذل "

" لا تخش توبيخا ولا تحشيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من قد سرى نحو السما "

" ... ليلا وعاد وما برحنا نوما "

" ... بالروح والجسم المطهر قد سما "

" قلبه وراغم من أبى ترغيفا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من قد رأى الرحمانا "

" ... بالقلب أو العين منه عيانا "

" ... من قاب أو أدنى مكان كانا "

" فخذ الفوائد واحذر التجسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من بالمحبة خصا "

" ... والقلب منه شق حتى خلصا "

" ... من حظ إبليس اللعين ومحصا "

" وأعيد ما إن يشتكى تثلثيا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من بالسيادة قد حضي "

" ... وانشق إكراما له البدر المضي "

" ... ولكم دليل كالصباح الأبيض "

" فاسمع وكن بالمعجزات عليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من كلمته ذراع "

" ... وبفضله كفت المئين الصاع "

" ... والجذع حن له وما الأجداع "

" بأرق منا أنفسا وفهوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من مدحه لا يفرغ "

" ... ماذا عسى مداحه أن يبلغوا "

" ... فإلهنا يثني عليه ويبلغ "

" فافراً تجده محكما تحكيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من كان يبصر بالقفا "

" ... وعليه سلمت الجنادل والصفاء "

" ... والذئب قال صدقت أنت المصطفى "

" وشكا إليه بازل قد ضيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من قد شفى بالريق "

" ... عين الضرير ولدغة الصديق "

" ... وأعاد طعم الماء مثل رحيق "

" إذ مج فيه العنبر المختوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من مجده قد أسسا "

" ... والماء بين بنانه قد بجسا "

" ... وأتت إليه سرحة حتى اكتسى "

" بفروعها إذ خيمت تخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من بالملائك جيشا "

" ... وغدت تظله الغمام إذا مشى "

" ... حرست سماء الله لما أن نشا "

" ليكون سر حبيبه مكتوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من قد جباه إلهه "

" ... بالكوثر المروي لنا أمواهه "

" ... في يوم حشر الخلق يظهر جاهه "

" إذ يقدم الرسل الكرام زعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلوا على من خص بالحوض الروى "

" ... وكذاك خصص بالمقام وباللوا "

" ... نوحا وأدم والكليم قد احتوى "

" وابن البتول حوى وإبراهيم ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلى عليه الله ما قطع الفلا "

" ... صلى الله عليه ما اجتمع الملا "

" ... صلى عليه الله ما انتجع الكلا "

" أبدا وما رعت السوام هشيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... صلى عليه الله ما هطل الحيا "

" ... صلى عليه الله ما التمع الضيا "

" ... فلقد شفى الدنيا من الداء العيا "

" ولقد حمى عنا لظى وجحيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... لله سيدنا النبي الأكمل "

" ... لله برق جبينه المتهلل "

" ... لله جود يمينه المتهطل "

" أحيا وأغنى بالنوال عديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... لله منه ذاته وحقيقته "

" ... لله منه خلقه وخليقته "

" ... لله منه شرعه وطريقته "

" فلقد جلت بشموسها التغييما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... يا أمة الهادي النبي المصطفى "

" ... بالله لو كنا نعامل بالوفا "

" ... متنا عليه حسرة وتلهفا "

" حتى نُؤدِّي حقه المحتوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ما كان أولانا بطول نحينا "

" ... ما كان أوجبنا بفرط وحبينا "

" ... أفنستطيع الصبر عن محبوبنا "

" ما الصبر عن لقيه إلا لوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... لم لا نفيض على الدوام دموعنا "

" ... لم لا نقض من الغرام ضلوعنا "

" ... لم لا نخلي أهلنا وربوعنا "

" حتى نعاين من ذراه رسوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... أولم يكن يحنو علينا مشفقا "

" ... أولم يكن متعظفا مترقفا "

" ... أولم يعالجنا بأنواع الرقى "

" حتى اغتدى منا العليل سليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... من مثله ما إن يضر وينفع "

" ... من مثله يدرا العذاب ويدفع "

" ... من مثله لذوي الكبائر يشفع "

" من مثله بالمؤمنين رحيفا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... يا ويح نفسي كم أرى ذا صوبة "

" ... ومسامعي عن واعظي في نبوة "

" ... فعسى الرسول يقيلني من كبوة "

" فلكم رجاء عاثر فاقيفا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... يا رب بالهادي الرفيع المحتد "

" ... أغفر لعبدك أحمد بن محمد "

" ... فلقد توسل إذ رجاك بسيد "

" ما رد معتلق به محروما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ناشدتك يا سامعي هذا الثنا "

" ... قولوا متى أسمعتموه تدينا "

" ... اغفر لقائله المقصر ما جنى "

" بمدح خير الوري المعصوما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

قلت وإنني لأسأل الله تعالى بلسان لم أعص به وهو لسان هذا المادح إذ قال يا رب بالهادي فإني أحمد بن محمد بلغه الله أمله من غفرانه بمنه وكرمه أمين رجع ومن ذلك قول الفقيه الكاتب الأديب أي العباس أحمد بن القاسم الإشبيلي الشهير بابن القصير وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدمة من بعض الوجوه رحم الله تعالى الجميع

" ... الله أكرم أحمدا تكريما "

" ... فغدا رسولا للعباد كريما "

" ... فاشكر غفورا للذنوب رحيفا "

" أرضى النبي بقوله تعليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... لله منه هدى نبي مرتضى "

" ... بالبعث منه لنا قضى لطف القضا "

" ... ملأت فضائله المهارق والفضا "

" ودجا الوجود فعند مبعثه أضا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... عجبت لنا منه ملائكة السما "

" ... أن كان بالإسراء ليلا قد سما "

" ... ورقى البراق به وجبريل لما "

" قد سره سرا وجهرا سلما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... أعظم به من مرسل قد بشرا "

" ... بوجوده البشر السعيد ويسرا "

" ... لليسر فهو أجل مبعوث يرى "

" ... بهداه أمته زهت بين الورى ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... من جاء بالقرآن معجزة له "

" ... أعي الورى من بعده أو قبله "

" ... الله كرمه وفضل فضله "

" ... وأجل منه فرعه وأصله ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... من سبحت صم الحصى في كفه "

" ... والبدر شقق نصفه عن نصفه "

" ... ليرى به إعجاز من لم يصفه "

" ... حزنا بمعجز ذكره أو وصفه ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... يكفيه أن يتلى اسمه ويكرر "

" ... مع إسم خالقه إذا ما يذكر "

" ... هذا الذي بمقاله لا يفجر "

" ... أبدا و لا لخالقه يتصور ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... العبد أسرف يا نبي الله "

" ... في الذنب ساه عن تقاه لاهي "

" ... فاشفع له من مذنب أواه "

" ... يرجو كريما منك جم الجاه ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... أنأى الزمان وصوله أو سوله "

" ... فاستصحب الأبيات منه رسوله "

" ... فأنل بفضلك للمراد حصوله "

" ... حسبى ثنا وازنت منه فصوله ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... ابن القصير أطال فيك نظامه "

" ... ليرى لذاك مسلما إسلامه "

" ... وترى مطاوع أمره وكلامه "

" ... لا زال يقربك الإله سلامه ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

وما أحسن قول جمال الدين بن جلال الدين الجوزي رحمه الله تعالى

" فضل النبيين الرسول محمد ... شرفا يزيد وزادهم تعظيما "

" ... در يتيم في الفخار وإنما ... خير الأكي ما يكون يتيما "

" ... ساد النبيين الكرام وكلهم ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... والله قد صلى عليه كرامة ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

مسدسات في مدح الرسول

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذي هو من نظم الإمام العارف بالله تعالى علاء الدين محمد بن عفيف الدين الايجي الحسنبي الصفوي الزينبي رحمه الله تعالى مما رتبته على حروف المعجم والتزم الحرف أول الأشطار الأربعة وأخرها

" ... الله أحمد أحمد إذ يبرأ ... أوضى وضيء نوره يتلألأ "

" ... أنواره كل العوالم تملأ ... أكوانه لولاه لم تك تنشأ "

" ... إن كنتم انقذتم له تسليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... بدر بدا من نوره يتطلب بحر بحور الجود منه تركب "

" ... بر وبرهان جلا يتقلب ... بالمصطفى ممن صفا أتقرب "

" ... بادر بما يجدي لكم تعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ... تالله مثل محمد لا يثبت ... تم الكمال المنتهى ونبوة "

" ... تاج العلا بالمصطفى يثبت ... تاهت عقول للذي هو ينعث "

" ... تحف الصلاة به عليه أديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ثق بالذي يوما يقوم ويبعث ... ثبة البرية بالنبي تغوث "

" ثبت الشفاعة للورى يتحدث ... ثرة الطوائف للذي ينتشبت "

" ثبت لزام الباب فيه مقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" جاء النبي عوالما يتبلج ... جاه له من جاءه يتبهج "

" جاه ينجي من لظى تتوهج ... جاءت له الأشجار أرضا تفرج "

" جاور نبي الله نلت نعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" حقا هو الحق المبين الأوضح ... حب حباه حبه يترنج "

" حسناته حثياته تسترحج ... حتى القلوب بحبه تترجح "

" حوت العلوم لذاته تكريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" خير البرايا دينه هو ناسخ ... خير له خير الخيور رواسخ "

" خر الذي عن دينه هو بازخ ... خال خلي عن نقائص باذخ "

" خذ باتباع فعاله ترسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" دل الأنام على الإله محمد ... دامت سعادة من بأحمد يسعد "

" دار له مأوى المحامد محمد ... دان الوجود به ومن هو أحمد "

" داوم على باب له تخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ذكر الحبيب أحق ما يتأخذ ... ذخرا ليوم بالنواصي يؤخذ "

" ذاك الشفيع لمن به يتعوذ ... ذاك الذي بجنابه يستنقذ "

" ذلوا له ولبابه تغنيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" رب النبي محمد هو يذكر ... رتب الحبيب كتابه متذكر "

" رائني محيا أحمد هو ينظر ... روح القلوب ولاؤه هو ينصر "

" روح بذكراه المريح نديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" زين البرايا بالوجود معزز ... زان العوالم حسنه يتفوز "

" زن فضله عن كلهم يتميز ... زد ذكره عن زلة يتحرز "

" زلفى أنه بالمنى تميميا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" سبق الأنام بفضله هو أنفس ... ساد الجميع بسؤدد يترأس "

" سبحان من أسرى به يتأنس ... سر الحبيب بسره يتقدس "

" سمع الكلام من الإله كليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" شمس الهدى بدر الدجى يتبشش ... شرف الحبيب من الوجوه يفتش "

" شكرا لمولانا عليه وأبهش ... شوقي إليه وافر أعطش "

" شغل للبك بالحبيب أديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صفة الكلام لذاته هو أخلص ... صفة الكتاب كماله يتلخص "

" صفة القلوب بحبه تتخلص ... صفة صبا صب وأنى يخلص "

" صل بالصلاة جنابه تكليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ضفت الفيوض من الحبيب تفيض ... ضعفي إليه أملا يتعوض "

" ضري وضيري كله يتقوض ... ضل الذي في بابه لا ينهض "

" ضمن الحبيب لذاكره زعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" طوبى لمن بحبيه يتنشط ... طابت به أحواله والمنشط "

" طال اشتياقي طيبه أتيسط ... طال الإله علي طولاً بيسط "

" طوبى بمدحته يطيب نسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ظل الهدى بهداه قد يتحفظ ... ظلمات شرك قد جلت تتدلظ "

" ظلي لظل وداده يتحفظ ... ظهري ظهيري حبه أتحفظ "

" ظني به يغدو العقاب عديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" علت المعالي بالنبي وترفع ... عز علاه للذي هو يتبع "

" عمت عطاياه لكل ينفع ... عرش العظيم قد ارتقى يترفع "

" عرج الإله به إليه عليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" غوث الورى ذا المصطفى هو سايع ... غيث الندى هو في البرايا سائغ "

" غمر الندى أقصى النهاية بالغ ... غزر الحيا شمس ويدر بازغ "

" غنما نما بالمؤمنين رحيميا ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" فخر وذخر بالمفاخر يشرف ... فرد وحيد في العوالم أشرف "

" فتح الوجود وكل كون مردف ... فاز الفقير بلطفه يتلطف "

" فاح النسيم من الحبيب جسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" قسم الإله بعمره فيفوق ... قسمت وجوه الحسن منه فيسبق "

" قمر وشمس نوره متألق ... فمن بذكراه الدعاء معلق "

" قطب لدائرة الوجود كريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" كتب الإله ثناءه ما يدرك ... كتب اسمه قرب اسمه يتبرك "

" كل الكمال له به يستدرك ... كنه الكمالات التي لا تدرك "

" كيف كفى در الثناء يتيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" لمعات نور محمد هي تخجل ... للشمس والبدر المنير فتخمل "

" لذات ذكر محمد هي أكمل ... لذوي الحوائج لأئذ متكفل "

" لذ خذ بجد منك تلف حكيماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" من مثله في العالمين معظم ... من مثله في العالمين مكرم "

" من للإله لدى اللقاء يكلم ... منحا حياه منه قد يتعلم "

" من الإله لديه صار عميماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" نور له في آدم يتبين ... نقلا إلى آبائه يتعين "

" ناي العوالم إذ أتى متعين ... نار المجوس تخمدت تهون "

" نعماه جمت إذ تعم كريماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" وجه به كل الوجوه إليه هو ... وجه الوجاه بكله يتوجهوا "

" ووجهه وجه المرام فوجهوا ... وجه إليك نبينا فتوجهوا "

" وجه إينا نظرة تكريماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" هو مصطفى عند الإله الأوجه ... هاد لنا وبوجهه من أوجه "

" ها إنه وجهي لهذا أوجه ... هيه هنيئا وجهه بالأوجه "

" هام الفؤاد بحبه تتيماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" لا مثل للمختار أعلي من علا ... لاجيه ناج قد نجا كل البلى "

" لاذ الصفي به يتوب فأقبلا ... لاقى النبي محمد أن يقبلا "

" لازم محبا للحبيب نديماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" يا أكرم الخلق الذي هو ملجئي ... يأتي محمد العفيفي الذي "

" يده يمد إليك مرتجياً وفي ... يقن بصفوته الصفي ويكتفي "

" يمنا لذكرك بيتدي تختيماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

وله أيضا رضي الله تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه وقد نظمها بعدها نفع الله تعالى بنيته وبلغه غاية قصده وأمنيته وهي هذه

" أحسن بطلعة أحمد هي أضوأ ... أعلن بلمعته العوالم تملأ "

" أزين به لما أتى يتلألاً ... أبين بآيات له فتنياً "

" الله قدمه بها تقديماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" بدأ الإله بنوره فيعقب ... بدء الذي بالمصطفى يتقلب "

" فيه لذي الحاجات إذ يتطلب ... بدء بذكراه به يستوهب "

" بل هو إلى الأرب انتفع تعميماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" تلت العلامات التي هي تثبت ... تب العدا تبا وعنه تثبت "

" تمت له الآيات فيك تبكت ... توراة موسى ناطقا هي تنعت "

" توقيع حاجات صفوا تسليماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ثبت الكمال له ومنه يورث ... ثبت الوري لو لم تكن لا تحدث "

" ثبت بذكرى المصطفى يتحنث ... ثبت الذي بجنابه يتشيث "

" ثبت بذكر قد تراه قديماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" جاء العوالم نوره يتبلج ... جاد العوالم بحره يتموج "

" جاز السموات العلا يتعرج ... جاب الجميع بسامه يتفرج "

" جار له جارى له تنعيماً ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" حار العقول لمدحه إذ يمدح ... حيا الحياء بره يستروح "

" حي له فضل به يسترجح ... حي له حامى حمى فتروح "

" حي الحمى الحامى تصير سليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" خلق له كل به يتشمخ ... خلق له بالنقص لا يتلطح "

" خلق له أحسن به هو أبذخ ... خلق يحق له الثناء الأرسخ "

" خلق إلهي بذاك تميمة ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" دار الحبيب أحق ما يتعمد ... دارت بها كل السعادة تسعد "

" دانت أهاليها بما هو يرشد ... دار بحسنى طيبة لا تبعد "

" دارك سكونا بالسكون مقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ذكر الحبيب محمد هو ينقذ ... ذكر لما ينسى رسولا ينفذ "

" ذكر الإله ثاؤه ويلذذ ... ذكره تنفع سامعا يتلذذ "

" ذيل النبي خذ اعتصم تعظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" رب الورى سبحانه هو أكبر ... رب النبي محمد فيكبر "

" رب الرؤوف حبيبه فيدبر ... ربي اصطفاه من الورى فأكبر "

" رب ارتجاء للمني تدويما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" زان العوالم إذ أتاه يبرز ... زاد الإله عروجه فيبرز "

" زادت معاليه عروجا ينشز ... زاد لأخرى حبه يتحرز "

" زعم الشفاعة ذاكره زعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ساد الجميع إذا أتى هو أنفس ... سار السموات العلا يستأنس "

" سأل الإله وزاد ما يتنافس ... سامي ذراه للمحب تؤنس "

" سارع إلى ذاك الذرا تخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" شرف لأمته به يتفايش ... شرق لأشرق شرقه يتفرش "

" شرقا وغربا فيه عقل يدهش ... شوقا إليه قد إليه أجهش "

" شكرا على النعمى تزيد نعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صفة له ذات له هو أخلص ... صفة عن الشيء الذي يتنقص "

" صفة له حارت عقول تفحص ... صفة شريعته النقائص تخلص "

" صفة له وبره لتديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ضاع المديح لأحمد يتروض ... ضاع الذي عن ذكره هو يعرض "

" ضاف حباه كفه ليففض ... ضاف بذكره المنى يتعرض "

" ضاعف له الآمال صله مديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" طال العوالم إذ أتى هو يقسط ... طابت مدائحه فطاب المغبط "

" طالت به النعمى وطاب المنشط ... طام له بحر الألى يتنشط "

" طالب مطالب كلها تنميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" ظهر النبي ورب أحمد يلحظ ... ظهر لأمته ظهير ملحظ "

" ظهوروا على الأمم أفتخار ملحظ ... ظل له ظلوا به يتحفظوا "

" ظلت الظلال إذا ذكرت نديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" عد المحاسن للنبي يستتبع ... عد له آياته تتنوع "

" عداه مولاه إليه فيطلع ... عد لذكره غداة يشفع "

" عد باب من بالمؤمنين رحيم ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" غزرت له الآيات هن نوابغ ... غزر الحيا عز الورى هو سائغ "

" غمر الردا بحرالندى يترفع ... غمر البلاد بذكره يستفرغ "

" غمر بذكره الفؤاد وسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" فاض الجمال وفاض منه يوسف ... فاز المحب بذكره لا يوسف "

" فاضت عليه فيوضه يتزلف ... فاش له الآيات لا يتلكف "

" فاد له كل بهم تقديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" قمر بدا من أفقه هو فائق ... قمر يجاب بذكره ويعلق "

" فمقام كل الأنبياء وسائق ... فمقام جود عم كلا يرفق "

" قم بابه مستنجحا ومقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" كلا به فتح الوجود ويدرك ... كل الكمالات احتوى لا يشرك "

" كل اللسان عن البيان ويمسك ... كلىء الذي بجانبه يتمسك "

" كل مرتجك إليه ثق تكريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" لمحمد هو مصطفى ومؤمل ... لمحمد بن محمد ما يأمل "

" لمحت عليه بروفة يتحمل ... لمعان نور وداده يستكمل "

" لم لا أصيب من الحبيب شميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" من مثل ذاك المصطفى يتعظم ... من كل وجه للكمال ليُعظم "

" من علينا من إله أعظم ... منه العروج إليه وهو يعظم "

" من كان للرب العظيم كليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" نور الإله حبيبه يتمكن ... نادى الإله حبيبه يتمكن "

" نال نوالا شرحه لا يمكن ... ناد له طوبى لمن يتمكن "

" نادى الحبيب بذكره تكليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" والله مثل محمد لا يشبه ... والله مولاه العوالم كيف هو "

" وجه الوجود بذاته وبه له ... وجه علا وبوجه فتوجهوا "

" وجدوا وجد من النجاة مقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" هو أكمل من كل وجه أوجه ... هو ذا الحبيب القلب منه أوجه "

" فأولى طبيبه وأوجه ... هول من الأرض المكثر أوجه "

" هانا بنار الشوق صرت سقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" لا ريب لا مثل له والله لا ... لاحت له الآيات عرشا قد علا "

" لاقى ارتقاء ربه فتوصلا ... لاج به نال المنى إلى الألا "

" لازم لباب جنبه تقسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" يا أكرما كل إليه يلتجي ... يأتي محمدك العفيفي الذي "

" يقنا توسل بالصفى ويحتذي ... يده إليك يمد فقرا ترتجي "

" يمن افتتاح باسمه تختيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

قلت وإنما أثبت هاتين القصيدتين في جملة ما سردته وإن كان فيهما من التكلف ما لا يخفى لأوجه أحدها أن صاحبهما من الصالحين يسلم له ويتبرك بكلامه ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه الثاني أنهما مدح للنبي وعليه من الله أركى صلاته وأتم سلامه الثالث أن المراد جمع ما وفقت عليه في البحر والروي والمعنى

لأن بعضا من العلماء ذكر لي أنه لم يطلع في ذلك إلا على قصيدة ابن الجنان فأحبت أن أعرض لتعريفه بهذا العدد وإعلامه على أن القصد الأعظم ما هو إلا التلذذ بذكر أمداح المصطفى خصوصا

" المقتبس فيها قوله تعالى " صلوا عليه وسلموا تسليما "

وقد كنت نويت أن أولف في ذلك بالخصوص كتابا أسميهِ روضة التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعاناة والتكليم والله تعالى المسؤول في التيسير فلنزد عليه يسير

ومن ذلك هذا التسديس الذي وجدته في كتاب درر الدرر للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي بكر العطار الجزائري من جزائر بني مزغنة وهي المشهورة الآن بالجزائر

" أنوار أحمد حسنها يتلألاً ... المصطفى بحلى الكمال يحلاً "

" الشمس تجل وهو منها أضوا ... النور منه مقسم ومجزأ "

" قد زان ذاك النور إبراهيميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على المسك الفتيق الأطيب ... صلوا على الورد المعين الأعذب "

" صلوا على نور نوى في يثرب ... صلوا عليه بمشرق وبمغرب "

" ما زال في الرسل الكرام كريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على زهر الكمال النابت ... صلوا على طود البهاء الثابت "

" صلوا على من فاق نعت الناعت ... خير الورى من ناطق أو صامت "

" وأعزهم نفسا وأطهر خيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على طيب يفوح ويمكث ... صلوا على من عهدته لا ينكث "

" صلوا على من بالهدى يتحدث ... عنه المعارف والحقائق تورث "

" أضحى يعلمنا الهدى تعليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من نوره يتبلج ... صلوا على من عرفه يتأرجح "

" للحضرة العلياء ليلا يعرج ... صلوا على من حاز مجدا يبهج "

" وبها على العرش المجيد مقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على البدر المنير اللائح ... صلوا على صباح الرشاد الواضح "

" صلوا على المسك الذكي الفائح ... صلوا على الهادي النبي الناصح "

" الرشيد فهم والهدى تفهيم ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من شرعه لا ينسخ ... صلوا على من عهده لا يفسخ "

" صلوا على من بالثناء يضمخ ... علياؤه عليا الكمال تؤرخ "

" نال المفاخر والكمال قديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على الهادي لأعذب مورد ... صلوا على خير الأنام الأوجد "

" صلوا على بدر التمام الأسعد ... بمحمد فزنا ومن كمحمد "

" الله عظم قدره تعظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من بالنبوة ينفذ ... صلوا عليه فللسعادة يجذب "

" صلوا على من حبه لا ينبذ ... أبصارنا طرا بأحمد لود "

" في موقف ينسي الحميم حميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على البدر المنير الزاهر ... صلوا على الروض البهي الناضر "

" صلوا على بحر العلوم الزاخر ... صلوا على المسك الفتيق العاطر "

" وتنعموا بصلاتكم تنعيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على نور يلوح ويبرز ... صلوا على مسك يفوح ويجرز "

" بمحمد حلل الكمال تطرز ... ولمجده درر السيادة تفرز "

" قد نظمت لكماله تنظيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من بالبهاء يخطط ... صلوا على ورد بمسك يخلط "

" للمصطفى بسط الكرامة تبسط ... وله يواقيت السناء تقسط "

" وبنوره أضحى الزمان وسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من بالمهابة يلحظ ... صلوا على من بالنبوة يلحظ "

" صلوا على من بالهداية يلفظ ... لعصاته نار الجحيم تغيظ "

" ورضاه هب لنا وطاب نسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من قدره لا يدرك ... صلوا على من باسمه يتبرك "

" صلوا على من حبه لا يترك ... صلوا على من للهدى يتحرك "

" وبه تحلى طاعنا ومقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على البدر المنير الأكمل ... صلوا على الروض البهجي الأجل "

" صلوا على الهادي النبي الأحفل ... المصطفى الأرقى لأنزه محفل "

" فيه تقدم وحده تقديم ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على زهر أنيق باسم ... صلوا على عرف ذكي باسم "

" صلوا عليه فهو بدر مواسم ... من جوده نلنا بخير مقاسم "

" أنواره قد تمتت تتميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من بالنبوة زينا ... صلوا على من بالكمال تمكنا "

" صلوا على هاد أبان وينا ... بمحمد فزنا بإدراك المنى "

" للخلق أرسل رحمة ورحيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من بالكمال يخصص ... صلوا على من نوره لا ينقص "

" صلوا عليه على الدوام وأخلصوا ... ظل ضفا بالأمن لا يتقلص "

" شمل الورى طرا وطاب عميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على صبح تبلج بالرضى ... وقضى على ليل الضلالة فانقضى "

" صلوا على من بالنجاة تعرضا ... صبح تذهب نوره وتفرضا "

" وعلا وخيم ضوءه تخييما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على البدر المنير الساطع ... صلوا على الروض الأنيق البانع "

" صلوا على الصبح المنير اللامع ... صلوا على المسك الفتيق الذائع "

" ووقاه في وهج الهجير مغيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على النور الأعم السايغ ... صلوا على البدر الأتم البازغ "

" صلوا على المسك الذكي البالغ ... صلوا على الورد المعين السائغ "

" للواردين به غدا تتميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من بالتقرب يوصف ... صلوا على من بالمحبة يعرف "

" صلوا على من بالعلا يتشرف ... صلوا عليه به الكمال يزخرف "

" المجد فخم ذكره تفخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على مسك يطيب لناشق ... صلوا على الروض الأنيق الرائق "

" إشراقه بمغارب ومشارق ... صلوا على البدر الأتم الفائق "

" باد تنسم حسنه تنسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على الدر النفيس الأنفس ... صلوا عليه فهو روض الأنفس "

" صلوا عليه فهو زين المجلس ... ومنى الجليس ونزهة المتأنس "

" راق النفوس شذا وطاب شميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على المختار أفضل من مشى ... صلوا على النور الذي قد أدهشا "

" بمحمد عرف القرنفل قد فشا ... ورد لظمان إليه تعطشا "

" يبري الضنى أبدا وبروي الهيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على الهادي النبي الأنزه ... بدر التمام وروضة المتنزه "

" في فضله كل الشهادة تنتهي ... أبدا بلثم ثراه فخر الأوجه "

" في حبه أضحى الغرام غريما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على نور بطيبة قد ثوى ... فعلا وفاض على البسيطة واحتوى "

" صلوا عليه فليس ينطق عن هوى ... صلوا عليه فهو ينجي من هوى "

" في موقف يذر السليم سليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على نور تلالاً واعتلى ... صلوا على صبح مبين يجتلى "

" صلوا على مسك يخالط مندلا ... صلوا على در تزان به الحلى "

" وبه المعالي خيمت تخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

" صلوا على من نال مجدا عاليا ... وسما وحاز مفاخرا ومعاليا "

" صلوا على نور تبدى حاليا ... ويمدحه الرحمن زين حاليا "

" وإذا سما المخدوم زان خديما ... صلوا عليه وسلموا تسليما "

وقد توارد في بعض هذا التسديس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التي أولها

" ... يا أمة الهادي المبارك أحمد "

حسبما يعرفه المتأمل والذي في ظني أن صاحب يا أمة الهادي متأخر عن ابن العطار فهو الذي

أخذ منه والله سبحانه أعلم

وتوارد أيضا في عدة أبيات مع تخميس الكاتب أبي العباس ابن جمال الدين المتقدم ذكره وأوله

" ... الله زاد محمدا تعظيما "

وهما على منوال واحد غير أن ذلك تخميس وهذا تسديس وابن جمال الدين أقدم من ابن العطار

تاريخا فيحتمل أن يكون ألم بكلام ابن جمال الدين أو ذاك من توارد الخاطر

ورأيت في هذا الكتاب تسديسا آخر لم يرتبه على حروف المعجم وجعل روي الشطرين الأخيرين

حرف اللام فأحببت ذكره هنا زيادة في التبرك بمدح المصطفى عليه أجل الصلاة والسلام وهو

" نور النبي المصطفى المختار ... أربت محاسنه على الأنوار "

" مرآه يخجل بهجة الأقمار ... نور ينجي من عذاب النار "

" قد زان ذاك النور إسماعيلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على البدر المنير المشرق ... صلوا عليه بمغرب وبمشرق "

" صلوا على غصن الكمال المروق ... بالمصطفى المختار برق الأبرق "

" يهدي غراما للنفوس دخيلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على من قد تهاهى فخره ... صلوا على من قد تعظم قدره "

" صلوا على من قد تآرج نشره ... صلوا على من قد تناسق دره "

" عقد السناء لمجده إكليلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على خير الأنام المرسل ... صلوا على البدر المعين السلسل "

" صلوا على أسنى سنا المتوسل ... صلوا على نور الهدى المسترسل "

" ظل علينا لا يزال ظليلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على النور الأتم الأكبر ... صلوا على من فاق عرف العنبر "

" صلوا عليه فهو أصدق مخبر ... كم زان ذكر المصطفى من منبر "

" وأراح من داء الضلال عليلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على النور الأتم الأنور ... صلوا على من فاق كل مبشر "

" صلوا عليه هديتم من معشر ... صلوا على بدر يرى في المحشر "

" حاز الجمال فلا يزال جميلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على النور البهي المغرب ... صلوا عليه بمشرق وبمغرب "

" صلوا على الورد الشهى المشرب ... بالفكر يشرب ويح من لم يشرب "

" منه وينقع بالورود غليلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على من فخره لا ينكر ... صلوا على من في النجاة يفكر "

" صلوا على من بالنبوة يذكر ... صلوا على من بالهداية يشكر "

" شكرا على مر الزمان حفيلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على من بالسيادة قد سما ... صلوا على من في الكمال تقسما "

" صلوا على صبح بدا متبسما ... صلوا على طيب سرى وتنسما "

" وغدا وراح معطرا وبليلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على مسك يخالط عنبرا ... صلوا عليه سرى وفاح وما انبرى "

" صلوا عليه حوى الكمال الأكبر ... لبس الجمال مطرزا ومحبرا "

" وبذاك قد خص الجليل جليلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على من بالنبوة توجا ... صلوا على صبح بدا وتبلجا "

" صلوا عليه لقد أضاء وأبهجا ... ومحا برونق نوره ظلم الدجى "

" نور يعود الطرف منه كليلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على نور تيلج لائحا ... صلوا على نور ترح واضحا "

" صلوا على مسك تارج فائحا ... وبطيبه ملاً الوجود روائحا "

" وبعبه يستوجب التبجيلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على من نوره ملاً الفضا ... صلوا عليه لقد أضاء وما انقضى "

" صلوا على من خص حقا بالرضى ... لنجاتنا خير الأنام تعرضا "

" وهدى إلى نيل الرشاد سبيلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على بدر يدوم كماله ... باق على مر الزمان جماله "

" صلوا على من قد تعاضم حاله ... ودنا إلى ورد الرضى ترحاله "

" وإلى الورود به أجد رحيلنا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا بأجمعكم على شمس الهدى ... صلوا على بدر يزين المشهدا "

" صلوا عليه فمن رآه تشهدا ... صلوا عليه به الرشاد تمهدا "

" أرضى النزىل وبين التنزيلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على من قد تأتل مجده ... فسما به غور الحجاز ونجده "

" ما زهره لولاه أو ما ورده ... بالمصطفى المختار يعذب ورده "

" في تربه ما أعذب التقبيلنا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على محبوبنا مطلوبنا ... صلوا عليه فهو روض قلوبنا "

" صلوا عليه فهو عطر جيوبنا ... صلوا على مطلوبنا محبوبنا "

" لا نرتضي عن حبه تبديلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على خير الأنام الأطهر ... صلوا على النور الأتم الأزهر "

" صلوا على الصبح المنير الأشهر ... صلوا عليه باتصال الأشهر "

" الله فضلنا به تفضيلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

" صلوا على من قد تناهى في العلا ... صلوا على من كان أكمل أجملا "

" صلوا على در تزان به الحلى ... المجد ألبسه الكمال مكملا "

" والله كمل مجده تكميلا ... صلوا عليه بكرة وأصيلا "

وأظن أني رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب العروسي المغربي وهو متأخر
قصائد ومقطعات في مدح الرسول

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بابن المغربي وهي
 "أهدت لنا طيب الروائح يثرب ... فهبؤها عند التنسيم يطرب "
 "رقت فرق من الصباة والأسى ... قلب بنيران البعاد يعذب "
 "شوقا إلى أسنى نبي حبه ... يحلو على مر الزمان ويعذب "
 "المصطفى أعلى البرية منصبا ... قد جل في العلياء ذاك المنصب "
 "فزنا به بين الأنام بديمة ... أبدا علينا بالأمانى تسكب "
 "حاز السيادة والكمال محمد ... فإليه أشتات المحامد تنسب "
 "محبونا ونينا وشفيعنا ... يدني إلى ورد الرضى ويقرب "
 "بضائه الملتاح أشرق مشرق ... وينوره الوضاح أغرب مغرب "
 "وبه وردنا الأمن عذبا صافيا ... وبه ترقى في المعالي يشجب "
 "صبح الهدى أنواره بنينا ... صبحا تروق الناظرين وتعجب "
 "إن طابت الأنفاس من زهر الربى ... رياه أذكى في النفوس وأطيب "
 "صيرت أمداح النبي المصطفى ... لي مذهبا يا حذاك المذهب "
 "فعلني من أمداح أحمد خلعة ... موشية ولها طراز مذهب "
 "ويمدحه شمس الرضى طلعت على ... أفقي تضيء ونورها لا يغرب "
 "أترى يبشرني البشير بقربه ... وأبث أشواق الفؤاد وأندب "
 "ويقال لي بشراك قد نلت المنى ... يا مغربي إلى متى تتغرب "
 "هذا مقر الوحي هذا المصطفى ... هذا الذي أنواره لا تحجب "
 "رد ورد طيبة واشف من ألم النوى ... قلبا على جمر الأسى يتقلب "
 "كم ذا التواني عن زيارة مورد ... عذب المقام به ولذ المشرب "
 "منا السلام على النبي محمد ... ما أسفرت شمس وأشرق كوكب "

وقد سمي هذا الكتاب بنظم الدرر في مدح سيد البشر والورد العذب المعين في مولد سيد الخلق
 أجمعين وليس هو بابن العطار المشرقي الذي كان معاصرا لابن حجة الحموي فإن ذلك متأخر عن
 هذا وهذا مغربي وذلك مشرقي فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان سوى اشتراكهما في الشهرة
 بابن العطار

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته مما أنشأه الشيخ الفقيه القاضي
 العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن يوسف العطار رواية
 العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقسهري قرأت هذا الكتاب وقصائده على
 حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة
 بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية حرس في دول متفرقة وأخرها يوم
 الثلاثاء ليلة بقيت من ذي القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائة ونص ما كتب على نص قراءتي عليه
 صحيح ذلك وكتبه محمد بن عبد الله ابن محمد بن محمد بن العطار والحمد لله رب العالمين انتهى
 ورأيت أثر ما تقدم بخط الأقسهري ما صورته سمع من لفظي جميع نظم الدرر في نسب سيد
 البشر لجامعه القاضي المذكور أعلاه القاضي شمس الدين محمد ابن المرحوم عبدالمنعم
 الشيببي وولده أبو محمد عبد الدائم وابن أخيه أبو محمد عبدالباقي بن تاج الدين بن حفص بن أبي
 بكر البوري وغيرهم نحو سماعي قراءة مني على مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله
 بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطار سنة سبع وسبعمائة قاله راسمه الأقسهري انتهى
 ومن قصائد هذا الكتاب قوله

"أبدا تشوقك أو تروقك يثرب ... فإلى متى يقصيك عنها المغرب "
 "هي جنة في النفس يعذب ذكرها ... والقرب منها والتداني أعذب "
 "المسك معترف بأن نسيمها ... أسمى وأسرى في النفوس وأطيب "
 "والعنبر الوردي دان لطيبها ... منه التعطر والتأرج يطلب "
 "جيش الصباة شن غارات الأسى ... من بعدها فالصبر منها ينهب "
 "والشوق يثنيها إليها كلما ... وقف الحمام على الأراكة يخطب "
 "حتى التنسيم إذا سرى من ربعها ... يثني من الروض الغصون ويطرب "
 "حيا فأحيا المستهام بطيبه ... فنفسنا بهبويه تنطيب "
 "يا حيدا في ريع طيبة وقفة ... بين الركائب والمدامع تسكب "
 "حتى يرق للوعتي وصابتي ... ودموع عيني كل من يتغرب "

" شوقا لمن زان الوجود وحبه ... يدني إلى رب الرضى ويقرب "

" ساد الأنام المصطفى بكماله ... فإليه أجناس السيادة تنسب "

" بالنور زان حلى علا آياته ... ويحسن ذاك النور أعرب معرب "

" الشمس يغرب نورها وضياؤها ... أبدا ونور المصطفى لا يغرب "

" الله أرسله إلينا رحمة ... فيجاهه عنا الرضى لا يحجب "

" بمحمد فرنا بإدراك المنى ... فالوقت طاب لنا وطاب المشرب "

" خير الورى محبوبنا ونبينا ... حزنا به الجاه الذي لا يسلب "

" روض النفوس محمد ونعيمها ... وبه يفضض حليها ويذهب "

" شرف تقادم قبل آدم عهده ... للنور أطناب عليه تطنب "

" منا عليه مدى الزمان تحية ... يثني عليها المندلي ويطنب "

ومنها قوله رحمه الله تعالى

" طلعت وقارنا البهاء بدور ... أبدا على قطب السعود تدور "

" من نور أحمد يستمد ضياؤها ... وبهاؤها يا حيداك النور "

" ويزيد ذاك النور حسنا فائقا ... يوم القيامة والأنام حضور "

" محبوبنا أسمى البرية منصبا ... يوم النشور لواؤه منشور "

" فرنا بخيرالعالمين محمد ... وجرى بوفق مرادنا المقذور "

" لاحت لنا أنواره فزماننا ... نور وأنس دائم وسرور "

" بالمصطفى المختار قابلنا الرضى ... بين الأنام فسعيننا مشكور "

" الله فضله على كل الورى ... فهو الحبيب وفضله مشهور "

" القرب خصه وعظم قدره ... فسما بهجة نوره ناحور "

" خير النبيين الكرام نبينا ... بالنور في العرش اسمه مسطور "

" يا صاحبي نداء صب مغرم ... قلبي بحب المصطفى معمور "

" عوجا علي بوقفة وبعطفة ... إني على ألم الفراق صبور "

" إن لم أزر بالجسم قبر المصطفى ... فالقلب من بعد المزار يزور "

" نيران قلبي بالبعاد توقدت ... ومدامعي خدي بها ممتور "

" فمن الفراق الحتم نيران لها ... لهب ومن فيض الدموع بحور "

" فمتى أفوز بوقفة في طيبة ... والقلب مني فارح مسرور "

" ويقال لي إنزل بأكرم منزل ... وابشر فأنت على النوى منصور "

" إن جاد دهري بالوصول لطيبة ... بعد المطال فذنبه مغفور "

" هي جنة من حلها نال المنى ... وسما وساد وصافحته الحور "

" حتى النسيم إذا سرى من نحوها ... يصبو إليه المسك والكافور "

ومنها قوله رحمه الله تعالى

" أما النسيم فقد حياك عاطره ... وبارق المنحنى أحياء ماطره "

" خاطر بروحك في نيل الوصال فكم ... من نازح نال طيب الوصل خاطره "

" زهر الربى باسم تندى كمائمه ... رق النسيم بها إذ راق ناظره "

" ما حل روض المنى الغض الجنى دنف ... فاستضحكت فيه من عجب أزاهره "

" والنهر أبرز للبدر الأتم حلى ... والبدر طرز ماء النهر زاهره "

" والغصن تلعب أنفاس الرياح به ... والطل قد نثرت منه جواهره "

" والليل قد رقمت بالشهب حلته ... والبرق يبسم في الظلماء ساهره "

" والنور محض جنى فوق الندى درر ... وعقدتها زين الأغصان دائره "

" وملبس الروض قد زانته خضرته ... والليل بالفجر قد شابت غدائره "

" والصبح سل على جيش الظلام طيبى ... وعندما سلها ولت عساكره "

" للزهر سر وعرف الروض فاضحه ... والمسك إن فض لا تخفى سرائره "

" هل زار طيبة ذاك العرف حين سرى ... فتربها أبدا مسك يخامره "

" طابت بطيب رسول الله فهي به ... سمت وراقت بمن فاقت مفاخره "

" به معد تسامى للعلا وبه ... حاز المكارم واعتزت عشائره "

" أسنى النبيين قدره نوره أبدا ... يزيد حسنا على الأقمار باهره "

" وأفضل الخلق من عرب ومن عجم ... أربت على الرمل أضعافا مآثره "

" إن كان للرسول عقد وهو آخرهم ... نظما فقد زان عقد الرسل آخره "

" روض من الحلم غرض راق منظره ... بحر من العلم عذب فاض زاخره "

" إن جاد صاح بلقياه الزمان فمئل ... إلى مقام حبيب أنت زائرته "

" وصف له حال صب مغرم دنف ... رام الدنو فأقصته جرائره "

" وأذكر هناك بعيد الدار غربه ... غرب فما غائب من أنت ذاكره "

" أهدي السلام بلا حد ولا أمد ... إلى محل رسول الله عامره "

ومنه قوله رحمه الله تعالى

" أمزلنا جادت ثراك السحائب ... وإلا فجادته الدموع السواكب "

" ووشاك وسمي الغمام بدره ... وحلى محلا حل فيه الحبايب "

" وحبا نسيم الريح بالجزع أنسا ... فما عاب ذاك الأنس بالجزع عائب "

" فيا عهدنا بالخيف هل أنت عائد ... ويا أنسنا بالجزع هل أنت آيب "

" وهل راجع عصر الشباب الذي انقضى ... وقد شيبت سود الشعور الشوائب "

" وهيهات أن يقضى لنا برجوعه ... كما كان غصنا مورقا وهو ذاهب "

" وقد سلب الدهر المفرق أنسنا ... وأودى به والدهر للأنس سالب "

" فما وهب الإيناس إلا مغالطا ... وأي بخيل للنفائس واهب "

" أطلب أيام العقيق بعودة ... وقد عز مطلوب له أنا طالب "

" فيا صاحبي كن مسعدي في صابتي ... وإلا فما أنت الصديق المصاحب "

" إذا ما بدأ برق الحجاز فأدمعي ... تفيض إلى الورد منها المشارب "

" أعاتب أيام البعاد وقلما ... يبرد حر الشوق بالعتب عاتب "

" وأبخل بالصبر الجميل وإنه ... لينهبه من وارد البين ناهب "

" ولما بدت أعلام طيبة قصرت ... من الشوق ما قد طولته السباب "

" وقفنا وسلمنا وفاضت دموعنا ... وحننت إلى ذاك الجناب الركائب "

" نزلنا وقبلنا من الشوق تربها ... وطابت بذاك الترب منا الترائب "

" فللعين من تلك المعاهد نزهة ... وللقلب في تلك الرسوم مأرب "

" حوت سيد الرسل الذي جل قدره ... له في مقام القرب تقضى المطالب "

" به غالب حاز المفاجر سالفا ... ولا شرف إلا الذي حاز غالب "

" بهادي الورى طرا مناصبه سمت ... وراقت بخير الرسل تلك المناصب "

" محمد الهادي بإشراق نوره ... تمزق من ليل الضلال غياهب "

" ترقى إلى السبع الطباق وما بدا ... له في ترقيه من الحجب حاجب "

" وخاطبه في حضرة القدس ربه ... وأدناه في حال الخطاب المخاطب "

" نبي بدت أنواره وتلألأت ... فمنها تضيء النيرات الثواقب "

" لقد أشرقت شمس النهار بنوره ... وبدر الدجى لما بدا والكواكب "

" أعلل قلبي بالوصول لقبره ... وإن غبت ما قلبي وحقك غائب "

" وإني أناديه وإن كنت نازحا ... نداء غريب غريته المغارب "

" إذا كنت لي يا سيد الرسل شافعا ... فما أنا من نيل السعادة خائب "

" بمدحك يا من جل قدرا وحظوة ... وجاها وتمكيننا تنال المواهب "

" فيا معشر الأحباب إن نبينا ... إلى فوزنا داع وساع وخاطب "

" إلا فاذكروه كل حين وسلموا ... عليه بذاك الذكر تسم المراتب "

" وقوموا على أقدامكم عند ذكره ... فذلك في شرع المحبة واجب "

ومنها قوله رحمه الله تعالى

" شمس الهدى وضحت بأشرف مرسل ... ودحت دجى ليل الضلال المسيل "

" من وجه عبد الله كان ظهورها ... للخلق طرا في ربيع الأول "

" خلعت على الأفاق أشرف ملبس ... ويدت فأى دجنة لم تنجل "

" فالنيران المشرقان كلاهما ... للمصطفى اعترفا بعجز مجمل "

" فالشمس لما أن بدت أنواره ... أومت إليه بالسلام الأحفل "

" والبدر قابله بحسن كامل ... فانشق للبدر الأتم الأكمل "

" وليلة الإسراء أجمل منظر ... بجمال إسراء الحبيب الأجمل "

" فضلت على الأيام من شرف لما ... حازته من شرف النبي الأفضل "

" وبدا بها نور النبي المصطفى ... وبدت لن نار الكليم المصطلي "

" إذ جاءه الروح الأمين مسلما ... ومبشرا بورود أعذب منهل "

" فسرى إلى أسنى محل وارتقى ... والجفن منه بنومه لم يكحل "

" رفعت له حجب الجلال بأسرها ... فرأى جلالاته لم يكن بممثل "

" حتى انتهى الروح الأمين لحده ... ويحيث يذهل عقل من لم يذهل "

" ناداه لما أن ترقى وحده ... لك يا محمد ذا التقرب ليس لي "

" ارقا إلى الأفق المبين مشاهدا ... واترك حظوظك بالحضيض الأسفل "

" وأسعد بزورة من تعظم ملكه ... واصلد إلى عرش الحبيب الأول "

" فسمما فشاهد حضرة القدس التي ... سبحاتها تغشى حجي المتأمل "

" وبدا الكمال له ونودي مقبلا ... أهلا وسهلا بالحبيب المقبل "

" أنت المراد لسرنا ولوحينا ... أقبل إلينا يا محمد تقبل "

" والبس بحضرة قدسنا خلع الرضى ... منا وجر الذيل منها وارفل "

" ولك الوسيلة يا محمد عندنا ... وبها نجيب وسيلة المتوسل "

" فأحكم بما يوحى إليك من الهدى ... وأنزل بأنوار الكتاب المنزل "

" فيه شفاء للصدور فبرؤها ... بمفصل منه وغير مفصل "

" يا نفس هل تشفيك زورة طيبة ... فرسومها براء لكل مقبل "

" ولى زمانك في التصابي والمنى ... فدعي التصابي والأمانى وارحلي "

" يا قلب روعات الجوى هل تنقضي ... عني ولوعات الجوى هل تنجلي "

" وأزور قبر الهاشمي محمد ... قبل الرحيل وقبل عذل العذل "

" إني وإن بخل الزمان بقربه ... فيلوعتي وبدمعتي لم أبخل "

" أسقي الثرى تسكابها فمعينها ... يهمني ونار صابتي ما تأتلي "

" لهفي على بعد المزار متى أرى ... يقضي الزمان بقرب ذاك المنزل "

" ومتى أبشر بالمنى ويقال لي ... هذا مقر الوحي دونك فانزل "

" وتهب تلقائي نواسم طيبة ... إني أجود بها إليك وحق لي "

" فلقد بليت بلوعة وبدمعة ... وهبوبك الأزكى شفاء المبتلي "

" خيلت قريك براء ذاء صابتي ... ضن البعاد به فطال تخيلي "

" شوقا إلى خير الأنام بأسرهم ... سؤلي وأسنى مقصدي ومؤملي "

" فيه أنا متوسل في مقصدي ... أسنى التوسل بالرسول المرسل "

" ويجاهه عند الأنام مآربي ... ووسائلي تقضى وإن لم أسأل "

" وبه الأمانى قد حللن بساحتي ... وحوادث الحدثان صرن بمعزل "

" بشراك نفسي فالأمانى أعجلت ... نحوي تبشرني بخير معجل "

" بمديحة أضحي الزمان مسالمي ... تندى أسرة وجهه المتهلل "

" فيه إلهي قد رجوتك راغبا ... دون الأنام فباب جودك مؤثلي "

" وإليك ربي رغبتني وتوسلي ... وعليك في كل الأمور توكلتي "

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته قال محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم كان الفراغ من إكمال هذا الفصل وإتمامه حسب نثره ونظامه ضحوة يوم الجمعة الثاني من شعبان المكرم سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا اربع قصائد اشتمل عليها فإنها تقدمت على إنشائه وأدعتها فيه والله سبحانه المستعان وذلك بمدينة الجزائر جزائر بني مزغنة من أقصى إفريقية من أرض متيجة صانها الله تعالى انتهى

وثبت في آخره بخط بعض الأكابر ما نصه تأليف الفقيه العالم الأديب البارع أبي عبدالله محمد بن العطار الجزائري انتهى

وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر فالله تعالى يجازي صاحبه أفضل الجزاء بمنه وكرمه

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة على ما ذكر هنا فنقول قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب مطالع الأنوار ومنايع الأسرار

" وحققك يا محمد إن قلبي ... يحبك قرينة نحو الإله "

" جرت أمواه حبك في فؤادي ... فهام القلب في طيب المياه "

" فصرت أرى الأمور بعين حق ... وكنت أرى الأمور بعين ساهي "

" إذ شغف الفؤاد به ودادا ... فهل ينهاه عن ذكره ناهي "

" يهيم بذكره ويحن شوقا ... حنين المستهام إلى الملاهي "

" يخامر ارتياح منه حتى ... يقول أولو الجهالة ذاك لاهي "

" وما هو حق فضل قد رآه ... فصار يجد في طلب الملاهي "

" فسوف ينال في الدنيا سرورا ... وفي الدار الأخيرة كل جاه "

" ويعطى ما تمنى من أمان ... كما قد حب محبوب الإله "

وقال أيضا رحمه الله تعالى

" يا عاذلي في طلابي ... دعني من العذل دعني "

" سأعمل العيس شوقا ... بالعزم دون التاني "

" إلى ضريح رسول ... مصدق حسن ظني "

" أشدو على كل فج ... حين الحمام يغني "

" يا أظهر الخلق إني ... بذلتي عبد قن "

" فأعتق اليوم رقي ... وانظر بعطفك مني "

" فأنت أنت ملاذي ... إياك إياك أعني4 "

" إن غبت عن عين جسمي ... ما غبت عن عين ذهني "

" لولك كنا أناسا ... أشتر من كل جن "

" فإذا بعثت رسولا ... فخير فضل ومن "

" لله خالص شكري ... عساه يصفح عني "

" فإنني عبد سوء ... قلبت ظهر المجن "

وقال في خاتمة ذلك الكتاب

" صلى الإله على النبي الهادي ... ما لاذت الأرواح بالأجساد "

" صلى عليه الله ما اسود الدجى ... فكسا محيا الأفق برد حداد "

" صلى عليه الله ما انبلج السنا ... فاييض وجه الأرض بعد سواد "

" صلى عليه الله ما همع الحيا ... فسقى البلاد برائح أوغادي "

" صلى عليه الله ما هفت الصبا ... وشدا على فنن الأراكة شادي "

" صلى عليه الله ما ألف الكرى ... جفن فخامره لذيذ رقاد "

" صلى على المختار أحمد ربه ... ما استمسكت نار بطي زناد "

" صلى على خير الأنام محمد ... من خصه بالنور والإرشاد "

" صلى الإله على رسول حاشر ... حشر الأنام لديه في الميعاد "

" صلى الإله على رسول عاقب ... في الدهر وهو يفضله كالهادي "

" صلى الإله على رسول خاتم ... ختم النبوة بالكتاب الهادي "

" صلى الإله على المقفى ما اقتفى ... بشر نبوته بغير عناد "

" صلى على ماحي الضلال إلهه ... ما غردت طير على الأعواد "

" صلى الإله على رسول فاتح ... فتح الظلام بنوره الوقاد "

" صلى الإله على نبي راحم ... بالملة الغراء بعد فساد "

" صلى الإله على نبي طالع ... رحم الإله به من الإبعاد "

" صلى الإله على نبي طالع ... بملاحم قصمت فؤاد العادي "

" صلى عليه الله فهو نبيه ... ناداه بالإرشاد خير مناد "

" صلى عليه الله فهو رسوله أعطاه راية عزمة ورشاد "

" صلى عليه الله فهو خليله ... أسدى إليه منه كل سداد "

" صلى عليه الله فهو صفيه ... صفى سريرته من الأحقاد "

" صلى عليه الله فهو وليه ... والاه في الإصدار والإيراد "

" صلى عليه الله فهو المصطفى ... من كل حضار العباد وبادي "

" صلى عليه الله فهو المجتبي ... يجبى إليه الخيردون نفاذ "

" صلى عليه الله فهو المنتقى ... نور الزمان وواحد الأحاد "

" صلى عليه من براه مطهرا ... واختاره طودا من الأطواد "

" صلى عليه من براه بفضله ... وأعادته حيا لغير معاد "

" صلى عليه من أراه جلاله ... وأناله من ذاك كل مراد "

" صلى عليه من أحل فؤاده ... في ظل عرش ثابت الأوتاد "

" صلى عليه من غذاه بنعمة ... فتضاعفت كتضاعف الأعداد "

" صلى عليه من كساه عوارفا ... واختصه منه بخير أياد "

وقال الشيخ أبو عبد الله ابن عمران مادحا لرسول الله
مرتباً على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب كما تقدم

" ألف أيا خير البرية هذي ... مدحي وما أنا في مقالي هاذي "

" بآء بها أظهرت صدق محبتي ... وبذلك الجاه الكريم ليآذي "

" تاء تخذت وسيلة ما حكته ... وجعلته يوم المعاد عيآذي "

" ثاء ثنائي ليس يحصر فضلك ال ... زاهي ولا يحويه باستحواذ "

" جيم جلالك جل طور فخاره ... عن شبه مثل أو لحاق محآذي "

" حاء حبيت بمعجزات ذكرها ... يولي ذوي الإيمان كل لآاذ "

" خاء خصصت بها بفضل عناية ... منها لجأت إلى أجل ملاذ "

" دال دحضت بحقه مستقربا ... إبطال زور مشعوذ ملاذ "

" ذال ذراع الشاة أفصح مخبرا ... عما يحاذر ضره بنفآذ "

" راء رميت عصائباً قد ألّوا ... فعموا ولما ينصروا بلواذ "

" زاي زعيم بالوجهة أنت إذ ... كل بجاهك عاد كل عيآذ "

" طاء طلابهم لديك شفاعة ... فيها بذذت الجمع أي بآاذ "

" ظاء ظماؤهم بحوضك سوغوا ... ربا كأن به مذاقة ماذي "

" كاف كفلت بما تتته والضحي ... لجماعة الجارين باستنقاذ "

" لام لدعوتك المجابة أسبلت ... ثرواوت هتان الحيا بهماذ "

" ميم معين يدبك إذ غلب الظما ... أروى الورى من توأم وفذآذ "

" نون نجارك أصله متخير ... من بطن ذات علا وأطهر حاذي "

" صاد صعدت ذرا لموقف زلفة ... ترك السعود مقطع الأفلآذ "

" ضاد ضويت إلى جلال كافل ... لك بالرضى در الجلالة غآذ "

" عين علا ذكر افتخارك وارتقى ... عن غمز مغتاب وزور البآذي "

" غين غمام قد علاك مظللا ... يمشي بمشيك دائماً ويحآذي "

" فاء فصاحتك البليغة أعجزت ... للقوم من قريى ومن شذآذ "

" قاف قواعد صرح كسرى زلرت ... لولادة أوهت قوى ابن قباذ "

" سين سبقت بكل فضل يغتدي ... جفن المعالي منه ليس بقآذ "

" شين شآوت مفاخرا كل الورى ... وتركتهم غرقى بلجة آذي "

" هاء هتفت على تنائي شقتي ... بعلاك هذي ما نحلثك هذي "

" واو ولو أني استطعت لسابقت ... قلمي خطأ قدمي بالإغذآذ "

" لا لا أكيف قدر شوق باعث ... لعزائمي مستنهض شحآذ "

" ياء يمينا لو قدرت إذن لما ... أخرت سعي مبادر حدحآذ "

" دامت عليك صلاة ربك ما همت ... ديم بوبل هاطل وردآذ "

رجع إلى الكاتب ابي عبد الله ابن الجنان الأندلسي
قال تقبل الله تعالى منه بمدح النبي

" يا من تقدس عن أن ... يحيط وصف بذاته "

" ومن تعالى جلالاته ... عن مشبه في صفاته "

" ومن قبول ثنائي ... إليه أسنى هباته "

" صلى على من تبدى ... نور الهدى من سماته "

" ومن علا الفخر لما ... نمت إلى معلواته "

" محمد خير هاد ... بحلمه وأناته "

" محمد خير داع ... بالصدق من كلماته "

" محمد خير ميد ... لنا سنا معجزاته "

" أكرم به من نبي ... همت سما مكرماته "

" أعزز به من رسول ... سمت علا درجاته "

" وخصه الله منه ... بالفضل من تكرماته "
" لما حباه بأوفى ... صلاته في صلته "

وقال

" يا رب بلغ سلامي ... لأحمد ذي الشفاعة "

" لخاتم الرسل أعني ... إمام تلك الجماعة "

" لأبهر الخلق مجدا ... يحكي الصباح نصاعه "

" لمن صفات علاه ... تعجز أهل البراعه "

" لسيد لسناه ... يزهي السنه واليراعه "

" لمرشد بهداه ... قد فاز عبد أطاعه "

" شمس النبوة معط ... شمس السماء شعاعه "

" وناظم الحسن نظما ... قد ضم منه شعاعه "

" وسر سرى يا من ... أرى العيون اطلاعه "

" ومن حبا بذكاء ... خلاله وطباعه "

" ومد في كل فضل ... لصفوة الرسل باعه "

" فزده يا رب فخرا ... وزد محبيه طاعه "

وقال أيضا غيره

" لقد رفع الإله عن البرايا ... ببعث محمد محن الصروف "

" أتى والناس في الآفاق نهب ... لسمر الخط أو بيض السيوف "

" فأنقذهم ولولاه لكانوا ... لقى بين الضلالة والحتوف "

" نبي لا يغل عليه إلا ... سخييف العقل ذو رأي مؤوف "

" كأعمار اليهود أو النصارى ... أو الفلكي أو كالفيلسوف "

" فبعض للتجاهل والتعامي ... وبعض للتحير والوقوف "

" زعانف لا يهلك لها رواء ... فإن الجهل مائحة الظروف "

" إذا جرى بمختل ضعيف ... فإن صحاحنا فوق الألووف "

" فبرهان النبوة مستفيض ... ندل به على رغم الأنوف "

" شفوف الرسل متضح ولكن ... لأحمد الشفوف على الشفوف "

" حروف الخط أصل للمعاني ... وللألف التقدم للحروف "

وما أحسن قول القائل رحمه الله تعالى

" لولا النبي محمد ... هلك الورى في سوء حاله "

" أعلى الورى قدرا واكرمهم ... وأظهرهم دلالة "

" ختم الإله به النبوة ... والطهارة والرسالة "

" واختصه دون البرية ... بالمكانة والجلاله "

" بدر الرسالة والصحابة ... حول ذاك البدر هاله "

" قذف الحصى في أعين ال ... فاعتنقوا الجداله "

" وتدرعوا ثوب الكأ ... به بعد إظهار الجزاله "

" فأضح إلى أنبائه ... تعلم بأن المنتهى له "

" وإذا ابتغيت وسيلة ... ومدحته ومدحت آله "

" فاقطع بأنك آمن ... يوم القيامة لا محاله "

وقال أبو القاسم سعدين محمد رحمه الله تعالى

" أطلق لسانك بالصلاة على ال ... نبي الأبطحي الهاشمي محمد "

" واجعل شعارك ذاك تنج به غدا ... إن النجاة بذكر يوم للغد "

ولأبي اليمن ابن عساكر رحمه الله تعالى

" يا رب صل على النبي وآله ... صلواتنا ما دامت الأيام "

" واخصص ختوم سلامنا بجنابه ... كالمسك يعبق فض عنه ختام "

" واحرس شريعته وأوضح سبيلها ... تبدو بها للسالك الأعلام "

" وأدم كرامته وأعل مناره ... وأنله ألى ما لديك يرام "

" وارفع له الدرجات في رتب العلا ... فهو الذي للمرشدين إمام "

" وأقمه بين يديك زلفى موقف ... للحمد ما لسواه فيه مقام "

" وأثل شفاعته وأورد حوضه ... من لو أتاه منه أوام "

" يشنأقه ويعوقه علق به ... لزمانه وزمانه وسقام "

" فبه إليه غلة ما تشتفي ... إلا بليقاه وعز مرام "

" وله عليه في الأصائل والضحي ... تهدي إليه تحية وسلام "

" وبه إلى تقبيل موطىء نعله ... وجد له بين الضلوع أوام "

وله أيضا رحمه الله تعالى

" ألا إن الصلاة على الرسول ... شفاء للقلوب من الغليل "

" فصل عليه إن الله صلى ... عليه ولا تكونن بالبخیل "

" وصل عليه قد صلت عليه ... ملائكة السماء بجبرئیل "

" إلا إن الصلاة عليه نور ... لدى الظلمات في اليوم المهول "

" وتثقیل لميزان خفيف ... وتخفيف من الوزر الثقیل "

" إذا صليت صلى الله عشرا ... بواحدة عليك على الرسول "

" وتخطى بالشفاعة يوم تضحى ... وما لك من مقيل أو منیل "

" فأكثر أو أقل فأنت تجزى ... بذلك من كثير أو قليل "

" فصل عليه تجز جزءا ضعف ... وتجز مضاعف الأجر الجزيل "

" وأولى الناس أكثرهم صلاة ... عليه به وأحرى بالقبول "

" وأنجاهم من الأهوال عبد ... بها لهج بدل قال وقيل "

" فكن لهجا بذكراه حفيا ... بليقاه ومنصبه الجليل "

" وصل صلاة مشتاق إليه ... وداو بذكره سقم العليل "

" وصل مدى الزمان على رسول ... كريم مصطفى بر وصول "

" وصل علي حبيب فاق فضلا ... مدى شأو الكليم مع الخليل "

" صلى الله أفضل من يصلي ... عليه في الصباح مع الأصيل "

" وأتاه الوسيلة مستجيبا ... وبلغه نهاية كل سول "

" وأزلفه وشفعه ليأوي ... إليه الناس في ظل ظليل "

" وأطد شرعه وحمى حماه ... وأيده بواضحة الدليل "

" وشرفه ولم يبرح شريفا ... فيجمع جملة المجد الأثيل "

" وزاد محبه شرفا وفخرا ... بتفضيل وتنويل جزيل "

" وزاد علاه منه بطول عمر ... قصي من مواهبه طويل "

وأوردنا عليه الحوض وفدا ... لنروي بالروي من سلسبيل " وله رحمه الله تعالى "

" آدم الصلاة على النبي المصطفى ... تخلص بذاك من الجحيم ونارها "

" وتول إقبال عليها كلما ... هتف المؤذن مشعرا بشعارها "

" فالفخر أجمعه له فتلقه ... من نوبة الأسحار فوق منارها "

فهذه عدة قصائد في مدحه أرجو من الله سبحانه أن تكون مكفرة لما ارتكبهت عليه وجه الفخر والشهرة من الهزل واللغو فإن ذلك والله قول لا فعل له وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر وغير واحد ممن ألف في الأدب وجمعه ولا بأس أن نعززها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة وحق لمن توسل بسيد الوجود أن لا تضيع وسائله وكيف وهو صاحب المقام المحمود والشفاعة والسيادة فمنها قول ابن الجنان المذكور أنفا رحمه الله تعالى

" إلى أحمد المختار نهدي تحية ... تفواح روض الحزن بلله المزن "

" إذا نافحت مغناه زاد تارجا ... وإن لثمت يميناه قابله اليمن "

" أسير أشواقى رسولا بعرفها ... لتسعدنا منه العوارف والمن "

" وأرجو لديه الفضل فهو منيله ... وما خاب لي فيه الرجاء ولا الظن "

" عليه اعتمادى حين لا لي حيلة ... إليه استنادى حين ينبو بي الركن "

" به وثقت نفسي الضعيفة بعدما ... أضربها من ضعف قوتها الوهن "

" إليه صلاتي قد بعثت مشفعا ... سلاما به الإحسان ينساق والحسن "

وقوله رحمه الله تعالى

" أيذهب يوم لم أكفر ذنوبه ... بذكر شفيع في الذنوب مشفع "

" ولم أقض في حق الصلاة فريضة ... على ذي مقام في الحساب مرفع "

" أرجي لديه النفع في صدق حبه ... ومن يرتج المختار لا شك ينفع "

" وأهدي إلى مثواه مني تحية ... إذا قصدت باب الرضى لم تدفع "

وقوله رحمه الله تعالى

" يا أرحم الخلق يوم الحشر والندم ... ارحم عبيدك يا ذا الطول والنعم "

" إني توسلت بالمختار ملجأنا ... الطاهر المجتبي من خيرة الأمم "

" إليك من سيئاتي إنها عظمت ... يا واحدا لم يزل فردا ولم يتم "

" عليه منه صلاة كلما طلعت ... شمس وما خط في الأوراق بالقلم "

" فهو الشفيق الذي أرجو النجاة به ... من الجحيم إذ الكفار كالحمم "

وقوله أيضا رحمه الله تعالى

" بحبيب القلوب معتمد الخل ... ق أبي القاسم النبي الشفيق "

" قد تشفعت من ذنوبي إلى ذي ال ... الواحد العلي السميع "

" فاشفع اشفع يا خاتم الرسل يوم ال ... والمشهد العظيم الفطيع "

" لظلموم لنفسه قد تناهى ... في الخطايا وكل فعل شنيع "

" فإذا ما تذكر الذنب فاضت ... مقلناه وإغرورقت بالدموع "

" لا تخيب رجاءه إنه من ... ربه خائف كثير الخشوع "

" وعليك الصلاة بدءا وعودا ... ما أضأت ذكاء عند الطلوع "

وقوله أيضا عفا الله تعالى عنه

" يا رب إن شفيعي من ذنوبي في ... يوم القيامة خير الخلق والنسم "

" محمد خاتم الرسل المبلغ لل ... دين الحنيفي والإسلام للأمم "

" عليه مني صلاة كلما سجع ال ... فوق غصون البان والسلم "

" وبعد ذلك أعداد الجبال ورم ... الأرض والطير والحيتان والنعم "

" كذاك أيضا سلامي طيب عطر ... عليه ما قام عبد في دجى الظلم "

" لله وهو كئيب خائف وجل ... من الذنوب حزين القلب ذو ألم "

وقول الشيخ الإمام أبي زيد الغازي رحمه الله تعالى

" كملت بنعت محمد خير الورى ... غرر القصائد كلها وحجولها "

" واختص دون الأنبياء بدعوة ... وسع العباد عمومها وشمولها "

" فاضت على الثقلين منه أشعة ... طلعت وما عقب الطلوع أفولها "

" فالإنس تعلم أنه مقصودها ... والجن توقن أنه مأمولها "

" كم آية بالصدق كان ظهورها ... كم آية بالسبق كان نزولها "

" وكفالك هذا الوحي فهو شهادة ... لمحمد لزم العباد قبولها "

" جمع الإله المكرمات لامة ... هذا النبي الهاشمي رسولها "

وقوله رحمه الله تعالى

" أي نور كشف الله به ... سدف الباطل عنا أجمعين "

" ختم الله به أنواره ... عندما أكمل سن الأربعين "

" وأتانا بدليل بين ... عجزت عنه دواعي المدعين "

" فهو للناس جميعا مرشد ... وهو بالله تعالى مستعين "

" تركت دعوته وهو الرضى ... سائر الخلق إليها مهطعين "

" فأعد أنباءه فهو منى ... أنفس القائل والمستعين "

" والذي يهدى إلى شرعته ... فهو مجاح من العذب المعين "

" والذي يرغب عن سنته ... فهو من شيعة إبليس اللعين "

وقوله وهو كما قبله لزومي

" أصخ فلخير العالمين مناقب ... تدل على التمكين والشرف الأسرى "

" أتى والورى أسرى فكان غيائهم ... بنور سماء ينقلوه عن الإسرا "

" وعفى رسوم الكافرين وأهلها ... فلا قيصر من بعد ذاك ولا كسرى "

" تقدم كل العالمين إلى مدى ... تظل به الأوهام طالعة حسرى "

" وخص بتشريف على الناس كلهم ... ومن لم يقل هذا تقوله قسرا "

" ترقى إلى السبع الطباق ترقيا ... حقيقا ولم يعبر سفينا ولا جسرا "

" وبالجسم أسرى الله وهو دلالة ... محلها من لا يبسر لليسرى "
" فسبحان من أسرى إليه بعبده ... وبورك في الساري وبورك في المسرى "
" وكم عجب أوحى إلى عبده به ... فدونك تجميلا و لا تطلب الفسرا "
وقوله رحمه الله تعالى

" هاك عن هذا النبي المصطفى ... خيرا يقبله من سمعه "
" سبحت صم الحصى في كفه ... ثم في كف الهداة الأربعة "
" وإذا أبدى نبي عبرة ... فهو لا ينكر فيمن تبعه "
" أي نطق قد روى إعجازه ... عن سماع كل من كان معه "
" حجج الرسل التي قد سلفت ... أصبحت في أحمد مجتمعه "
" فاعتقد صحتها واعمل بها ... فدعاوى ضدها منقطعه "
" ممكنات العقل لا يجحدها ... غير أهل الطبع والمبتدعه "
وقوله رحمه الله تعالى

" إذا أملت من مولاك قريبا ... فجدد ذكر خير الأنبياء "
" وصل عليه أول كل قول ... وأخره بصبح والمساء "
" فإن محمدا أعلى البرايا ... محلا في السيادة والعلاء "
" لواء الحمد في يمنى يديه ... وكل الناس من دون اللواء "
" فحدث عن دلائله ففيها ... شفاء للنهي من كل داء "
" ولست بناقل للعشر منها ... وهل تغنى الزواجر بالدلاء "
" فقل للسامعين قفوا فهذا ... محال ليس يحصر بانتهاه "
" براهين البسيطة ليس تحصى ... فدونكم براهين السماء "
وقوله رحمه الله تعالى

" أما يمين محمد ... ويساره فهما سماء "
" كلتاها إن صوح ال ... لنا طعم وماء "
" وإذا أضر بنا السقا ... م وغيره فهما شفاء "
" فاعجب لكف في الوري ... فيها عن المزن اكتفاء "
" فاقطع بأن محمدا ... في الخلق ليس له كفاء "
" فإذا أصخت لآية ... فالنور فيها والضياء "
" هذا الصباح الهاشم ... بدا فليس به خفاء "
" فالأرض قدح فتحت بمب ... وفتحت السماء "
" سبق القضاء بسبقه ... والله يفعل ما يشاء "
وقوله رحمه الله تعالى

" بركات رسل الله غير خفية ... ومحمد خير البرية أبرك "
" هذا النبي الهاشمي هو الذي ... هدي الأنام به وبان المسلك "
" كم آية لمحمد كم حجة ... عز الولي بها وذل المشرك "
" دعواته مسموعة مرفوعة ... والحس ليس يصح فيه تشكك "
" لا شيء أعجب من دليل واضح ... يحيا به بعض وبعض يهلك "
" أمسك بحبل محمد خير الوري ... تظفر بقصدك أيها المستمسك "
" وإذا عجبت لغاية في رفعة ... فمحل أحمد غاية لا تدرك "
وقوله رحمه الله تعالى

" قبح الإله الملحدين ... فإنهم جحدوا الضروره "
" والمعجزات تواترت ... عن أحمد في كل صوره "
" والله أعلى كعبه ... في خلقه وأم نوره "
" كثر الطعام مع الشرا ... ب بكفه عند الضروره "
" وتكفنته عناية ... من ربه أعلت أموره "
" نادى البرية فالقلو ... ب إلى إجابته مصوره "
" وحمى الشريعة بالدلي ... فدع معاندها وزوره "
" قل للمشكك حين يب ... دي في تشككه قصوره "
" بيني وبينكم الكتا ... ب فدونكم فأتوا بسوره "

وقال رحمه الله تعالى
 " إذا بهرت للهاشمي دلالة ... فكم حجج في طيها ودلائل "
 " فكم مرة أتى الغنى كف سائل ... وكم مرة أعطى المنى فكر سائل "
 " له تحت أستار الغيوب شهادة ... معدلة لم تبق قولاً لقائل "
 " يحدث عما كان أو هو كائن ... فقس آخراً من صدقه بالأوائل "
 " إذا الصدق لم يعوزك في غدواته ... فلا شك في تصديقه بالأصائل "
 " وحسبك في الأنباء بالغيب أنه ... ستسمعها بالنقل من قول قائل "
 وقوله رحمه الله تعالى
 " يا ذا المعنى بهذا الذكر تسمعه ... في المدح تأثره في سيد الناس "
 " هذا النبي ومن آيات أثرته ... في الطيب والطول لا تجري بمقياس "
 " قد انقضت معجزات الغيب وافية ... صحيحة باستفاضات وإحساس "
 " وهاك نوعاً من الإعجاز منتزها ... عن نقد منتقد أو صفح قرطاس "
 " لا نعدم النقل عن آثار سيدنا ... وإنما نحن فيها بين أعراس "
 " تنقل الأنف في النور ينشقه ... من ياسمين إلى ورد إلى آس "
 " إن القلوب إذا اعتلت خواطرها ... فذكر أحمد فيها المبرء الآسي "
 وقوله رحمه الله تعالى
 " تأدب إذا ذكر المصطفى ... بصمت اللسان وغيض البصر "
 " فإن التأدب عند السماع ... يفهم في النطق أو في النظر "
 " وردد أحاديثها إنها ... دليل علي صدق خير البشر "
 " وصل عليه مدى ذكره ... فذلك أفضل ما يدخر "
 " ولا تسترب في براهينه ... فتسلك مسلك قوم آخر "
 " فكم آية ظهرت للنبي ... وكم أثر عنده قد ظهر "
 " ومن شك في نور برهانه ... على أن برهانه قد بهر "
 " فكبر على عقله أربعا ... وقل فوق طورك هذا الخبر "
 وقوله رحمه الله تعالى
 " اعمل بآثار النب ... ي فإنها النور المبين "
 " واقبل نصيحتها ففي ... ها العز والشرف المكين "
 " واشدد يمينك بالشري ... إنها السبب المتين "
 " خير البرية أحمد ... والحق يصحبه اليقين "
 " ذو قوة عند الإل ... ه مقرب منه مكين "
 " زان النبيون الوري ... ومحمد لهم مزين "
 " هاد إلى طرق النجا ... ة مؤيد فيها أمين "
 " والهج بمدح الهاشم ... ي فإنه الحصن الحصين "
 " ولئن فعلت فلن تفو ... تك بعد ذا دنيا ودين "
 وهذه تسديس جعلته للكتاب مسك الختام
 " وللناس أعمال فخير وضده ... وما يحسن الأعمال غير الخواتم "
 وإلا فالأمداح النبوية بحر لا ساحل له وفيها النثر والنظام زاده الله شرفاً وحباه أفضل الصلاة وأزكى السلام
 وهذا القصيدة من نظم الفقيه الأجل أبي الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري الأندلسي نفعه الله تعالى بنيته وبلغه غاية أمنيته وترتيبها على
 حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم وكذا آخر الشطر الذي
 قبله فإنه ميم أيضاً وهذا نصه بحروفه ما عدا حرف الواو فإنه لم أجده وكملته على منواله
 " حل في طيبة رسول كريم ... فعليه الصلاة والتسليم "
 " صفوة الخلق خاتم الأنبياء ... مرشد الناس للطريق السواء "
 " والعماد الملاذ في الأواء ... وشفيع العصاة يوم الجزاء "
 " يوم يبدو لديه جاه عظيم ... فعليه الصلاة والتسليم "
 " أذهب الغي نوره والغياب ... فاضاءت مشارق ومغارب "
 " وغدا الحق غالباً للأكاذب ... وبدت منه للأنام عجائب "

" صدق أقواله بها معلوم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" لبراهين صدقه معجزات ... حيثما حل حلت البركات "

" وسمت أربع به وجهات ... فيه قد تعرفت عرفات "

" وبه تاه زمزم والحطيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" لم يزل هاديا صدوق الحديث ... ووفيا بالعهد غيرنكوث "

" ومحيا لدعوة المستغيث ... وكريما نداه فوق الغيوث "

" ويداه بالجوّد جود سجوم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" بهج الحق أوضح الابتهاج ... سيد نوره أضاء الدياجي "

" خصه الله ليلة المعراج ... باصطفاء ورفعة ونتاج "

" ويتكليمه له التكريم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" مصطفى مجتبي كريم صفوح ... للنبيين جاهه ممنوح "

" فلإكرامه أجير الذبيح ... ونجا آدم وخلص نوح "

" وكذلك الخليل إبراهيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" كل دين بدينه منسوخ ... فسوى ما قضى به مفسوخ "

" لهدها بكل قلب رسوخ ... فالورى مادح له ومصيح "

" كلهم في هوى النبي يهيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" بعنه كان رحمة للعباد ... دلهم بالهدى طريق الرشاد "

" ونفى كل باطل وعناد ... ودعا للإله دعوة هادي "

" فإذا الحق واضح مستقيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" أمه بالشكاة ظبي أخيد ... مستجيرا بجاهه يستعيذ "

" وبه كانت الوحوش تلوذ ... وله خاطب الذراع الحنيذ "

" لا تذقني فإنني مسموم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" أشبع الجيش والطعام يسير ... ودعا نخلة فجاءت تسير ... وهمى من يديه عذب نمير ... وله "

" البدر شق وهو منير

" معجزات تحار فيها الفهوم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" حجب النور في السموات جازا ... فاحتوى الفضل والعلاء وحازا "

" فبه في غد نال المفازا ... وكفى أمة الرسول اعتزازا "

" أن تمنى يكون منها كليم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" إنما الحكم منه عدل وقسط ... لم يجر في القضاء والحكم قط "

" حبه في بلوغ قصدي شرط ... وبأمداحه ذنوبي تحط "

" ويزول العنا وتجلي الهموم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" قد حمى ديننا برعي ولحظ ... ونفى روعنا بأمن وحفظ "

" وحبانا بما لدى الرب يحظي ... هاديا راحما لنا غير فظ "

" مثل ما نصه الكتاب الكريم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" نور برهانه جلا كل شرك ... وهدها أجار من كل هلك "

" أخير العالمين من غير شك ... فلکم رامة العداة بشك "

" وهو في كل حالة معصوم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" ما لخير الأنام منهم عدل ... إنه مجتبي نبي رسول "

" ما عسى مادح الشفيع يقول ... وبأمداحه أتى التنزيل "

" وثناه خلاله مرسوم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" نحن لولا اتباعه لشقينا ... نور برهانه أرانا يقينا "

" وغدا ما نخاف منه يقينا ... وكؤوسا بحوضه قد سقينا "

" من رحيق مزاجه مختوم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" أحمد عند ربه ذو اختصاص ... جاهه كامل بغير انتقاص "

" عدة للمسيء يوم القصاص ... وشفيع لكل جاه وعاصي "

" يوم يجفو الحميم فيه الحميم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" بيديه حوائج الكل تقضى ... ويجازي الذي أجاز وأمضى "

" وينادي الحبيب أنت المرضى ... سوف نعطيك ما تحب وترضى "

" فتحكم بمرضى لك التحكيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" فاق بالمولد السعيد ربيع ... إن فيه بدا الجلال الرفيع "

" من هو الذخر والعماد المنيع ... فملاذ للمذنبين شفيح "

" ورؤوف بالمؤمنين رحيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" أفصح الناس في حديث وأبلغ ... بين الوحي للأنام وبلغ "

" طيب الحل قد أباح وسوغ ... ولكم نعمة من الله سوغ "

" فلإحسانه علينا عميم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" كان بالحق والهدى معروفا ... أجود الناس بالندى موصوفا "

" شرف الله قدره تشريفا ... هاديا مرشدا رسولا شريفا "

" مجده في العلاء مجد صميم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" وجهه بالبها أضاء وأشرق ... مجده في صميمه الأصل أعرق "

" مس في كفه قضيا فأورق ... باصبع قد أشار للبدر فأنشق "

" ثم قد عاد وهو بدر سليم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" جاءه الوحي أنت خير الناس ... بلغ الأمر لا تخف من باس "

" وخذ العفو للأنام وواس ... واحمهم من مكائد الوسواس "

" فعليك البلاغ والتعليم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" كان في الله أثبت الناس جاشا ... ليس من غيره يخاف ويخشى "

" فكف من الحصى فل جيشا ... وعيون العداة بالتراب أعشى "

" فنجا المصطفى وخاب الظلوم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" قد سما قدره بغير تناهي ... وعلا جاهه على كل جاه "

" أمر بالتقى عن الشر ناهي ... من يطعه ينل ثواب الإله "

" وله عنده النعيم المقيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" عمدة الخلق للمفاخر حاوي ... بحماه يلوذ كل وياوي "

" مبلغ المعتفي الذي هو ناوي ... كيف يحصي ثناء أحمد راوي "

" وعليه أثنى الكتاب الحكيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" حسنه كالصباح بل هو أجلى ... وندى كفه من الشهد أحلى "

" واعتلا قدره من السبع أعلى ... مدحه في الكتاب ما زال يتلى "

" فله الفخر والثناء العظيم ... فعليه الصلاة والتسليم "

" خصه الله من رسول نبي ... في جميع الورى بقدر علي "

" وحباه منه بنور بهي ... فهدي الخلق للصرط السوي "

" وصرط الهدى سوي قويم ... فعليه الصلاة والتسليم "

خاتمة الكتاب

قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير أحمد بن محمد المقرئ المالكي وفقه الله تعالى إلى حسن المتاب وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى الإصر والعتاب هذا آخر ما سمح به الخاضر الكليل من هذا المقصد الجليل الذي يكون إلى ما وراءه من الطرف الأدبية خير دليل ووضعتة والقلب حليف شجن وغربة والفكر أليف حزن وكربة وأنا أسأل الله تعالى الذي لا يرجى سواه أن يجعل بناءه ثابتا بحسن النية حيث البناء الذي فيه حظ النفس واه وأن يكون ما جلبته فيه من الهزل بالجد المذكور فيه مكفرا وأن ينفع به من وجه إليه وجهته فأني قد جمعت فيه ما يندرجمه في غيره وكل الصيد في جوف الفرا " يا من عليه اتكالي ... ومن إليه متابي "

" جد لي بعفوك عني ... إذا أخذت كتابي "

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر وفيه من حكايات الأولياء والعلماء ما نظمت في لبة السطور منه السلوك وفيه من الوعظ والاعتبار ما لم ينكره المنصف عند الاختبار وكفاه أنه لم ير مثله في فنه فيما علمت ولا أقوله تزكية له ويعلم الله تعالى أنني تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت ولو لم يحز من الشرف إلا ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة ذات الظلال الوريفة لكان كافيا شافيا وها أنا أجعل آخره تنبيها للبيب قول ابن حبيب " يا خير مبعوث له طلعة ... نور الهدى منها أقر العيون "

" جئت إلى ناديك أرجو القرى ... من غيث كفيك المغيث الهتون "

" كن لي شفيعا فارتكاب الهوى ... أوقعني بين الشجا والشجون "

" صلى عليك الله سبحانه ... ما هزت الريح قدود الغصون "

وقول النواجي

" لقد أفرطت في حسن ابتداء ... ورمت تخلصي يوم الزحام "

" فبالمختار أرجو عفوري ... ليرشدني إلى حسن الختام "

وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف بالقاهرة المحروسة والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وألحقت فيه كثيرا في السنة بعدها فيكون جميعه آخر الحجة تمة سنة تسع وثلاثين وألف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم دائما أبدا إلى يوم الدين أمين

to pdf: www.al-mostafa.com